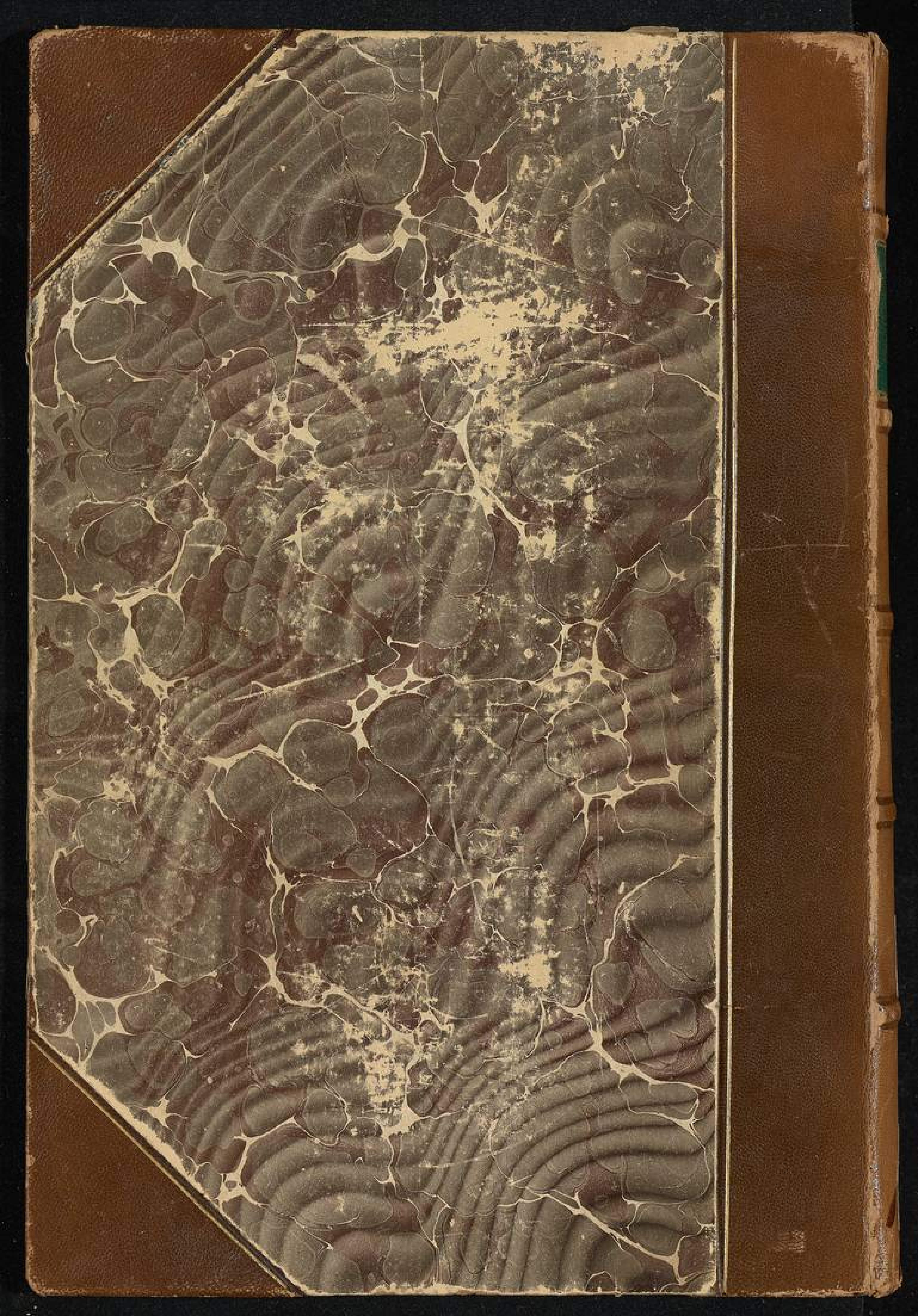
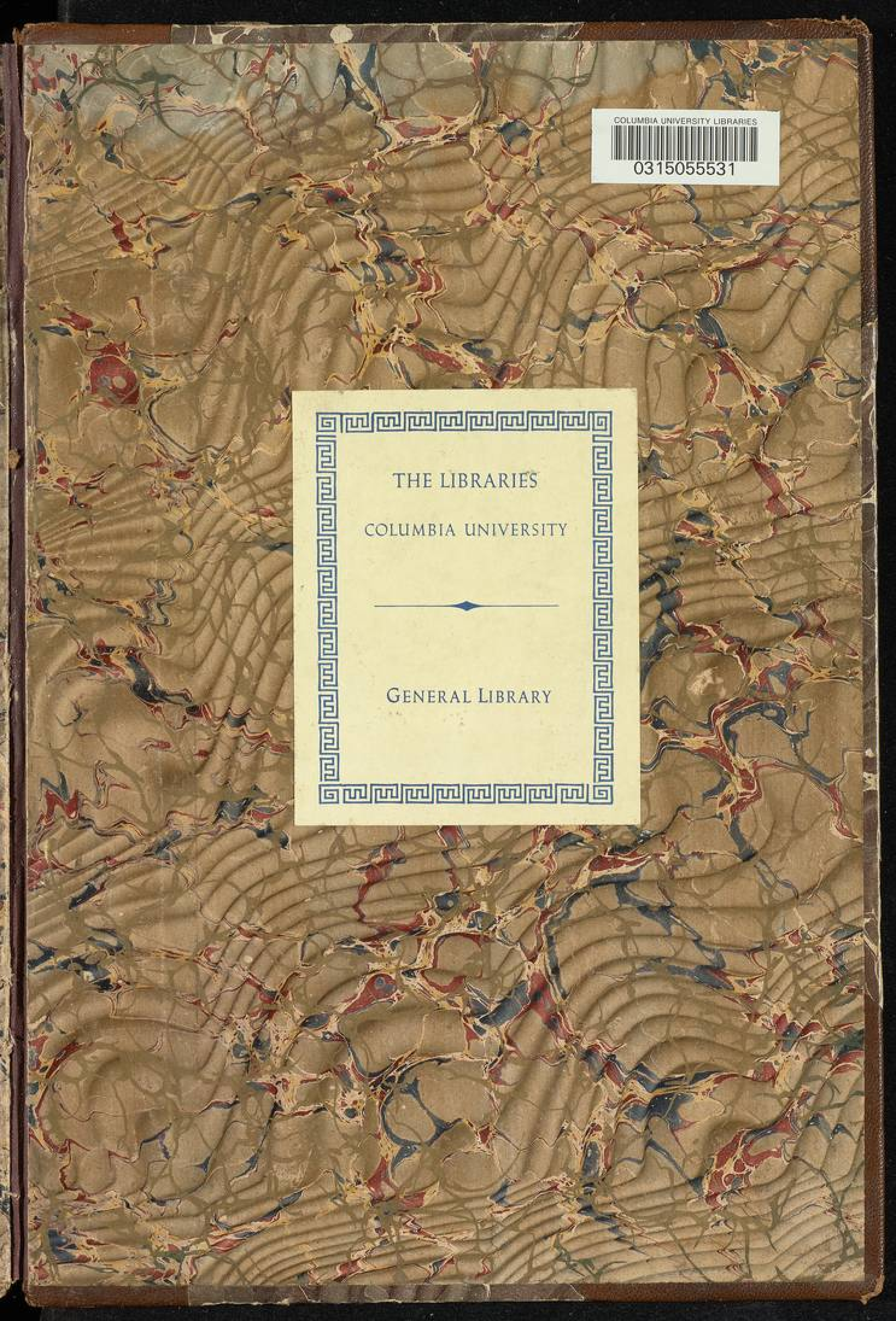
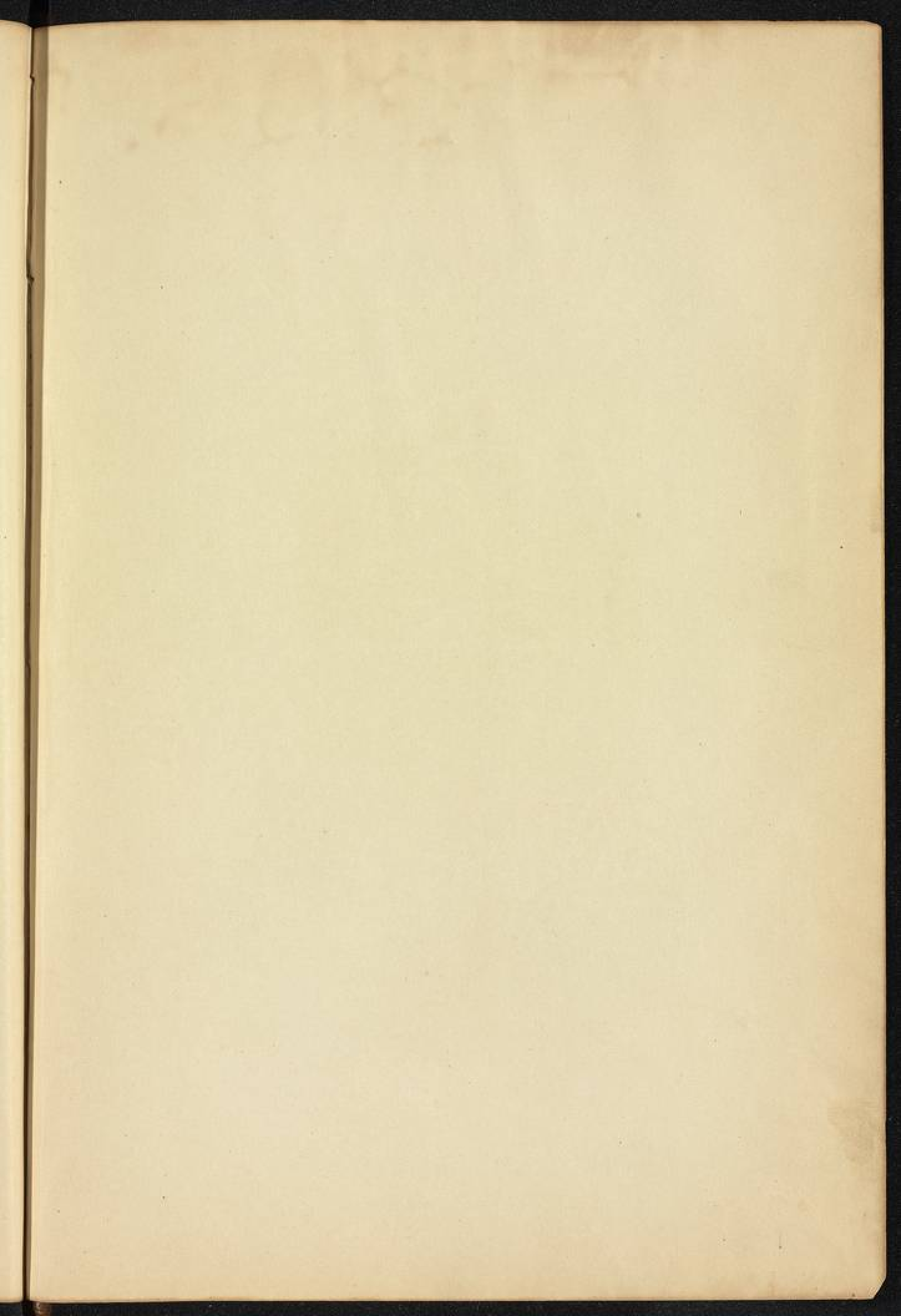
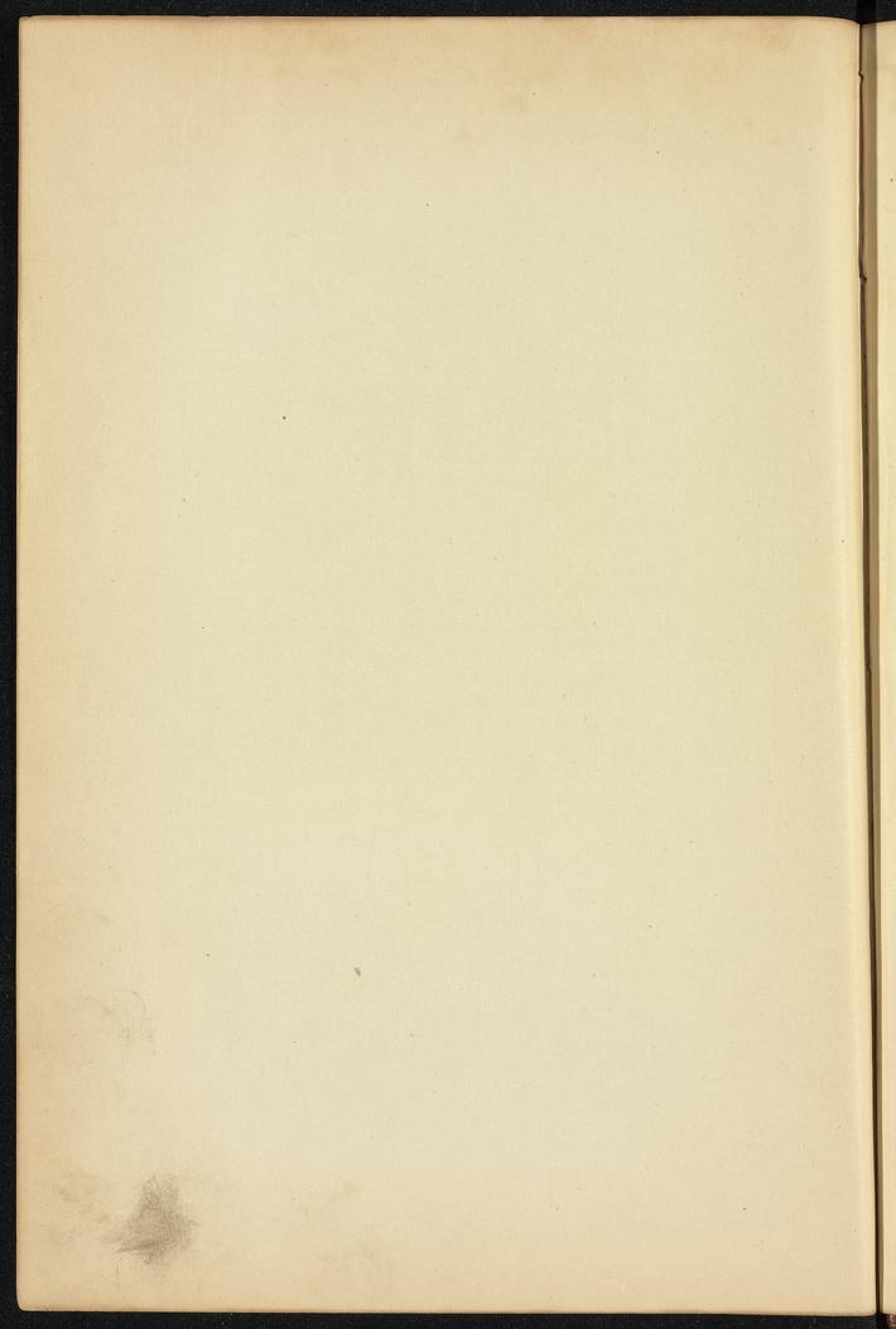
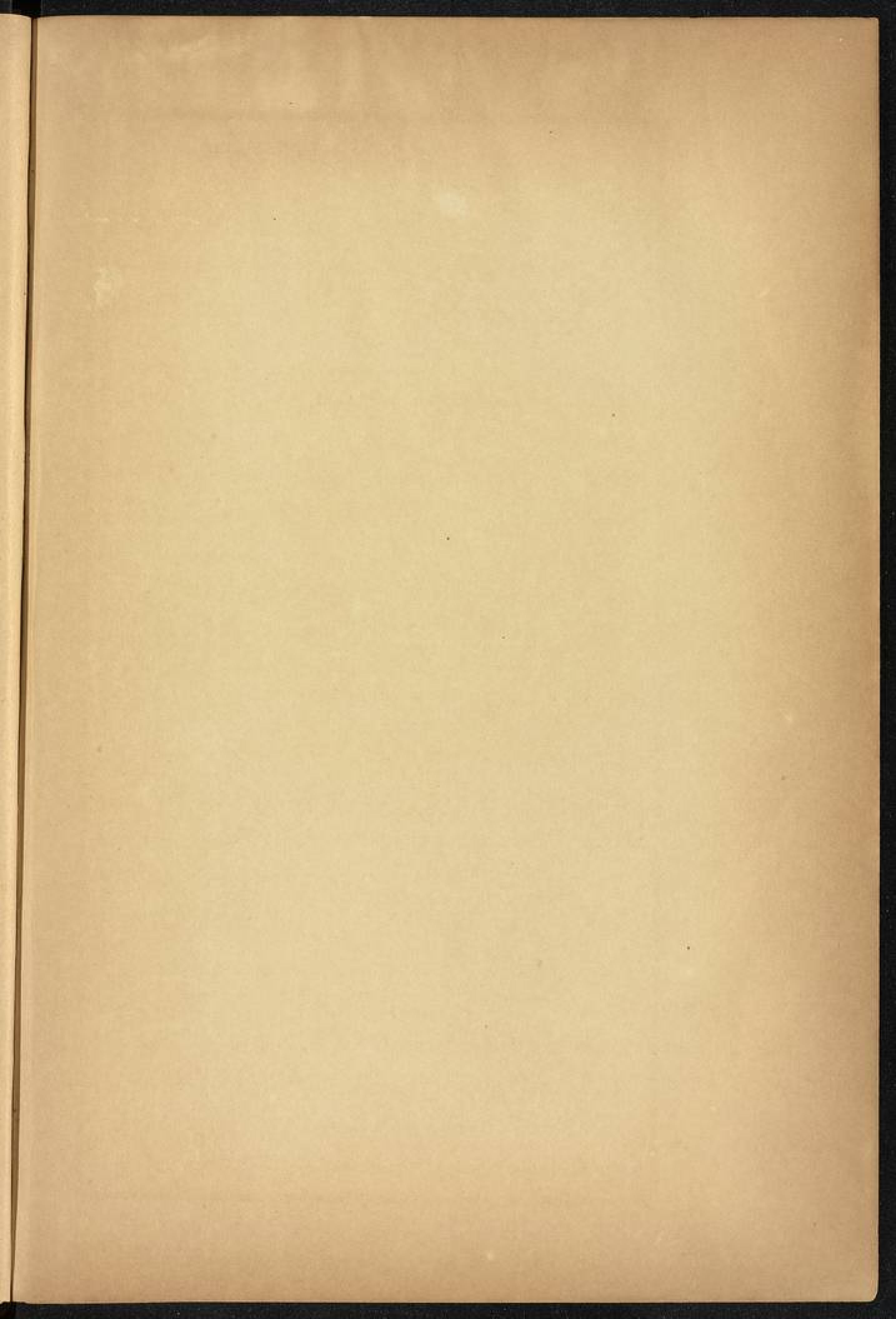



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315055531
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY









(فهرست)

الجزء الاول

من حقايق الاخبار عن دول البحار

﴿ فهرست الجزء الاول من حقائق الاخبار عن دول البحار ﴾

(الفصل

صحيفة

صحيفة

(الفصل

صحيفة

(فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

(فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

(فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

(فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة باسفل الصحائف)

﴿ تم ﴾

حقائق الأخبار
عن دول البحار

الجزء الاول

تأليف

(الميرالاى اسمعيل سرهنك ناظر المدارس الحربية)

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣١٢





الحمد لله مصور الخلق على أحسن نظام ومسير المنشآت فى البحر كالاعلام خلق الارض وبالجبال أرساها وأوجد المياه وعليها الفلك أجراها وقال وهو أصدق القائلين وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون سبحانه لانحصى له ثناء ولا نستقصى له نعماء أرسل لنا الرياح بشرى بين يدى رحمته فتجرى بها السفن رخاء حيث يشاء جعل النجوم مصابيح للمهتدين كما جعلها رجوما للشياطين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صاحب الحوض المورود واللواء المعقود ومظهر كامل الانوار القائل من فاته الغزو معى فليغز فى البحار وعلى آله وأصحابه وعترته وأحبابه الذين نشروا شراع دينه القويم وهدوا الى الصراط المستقيم نسأل الله أن يصلنا بحبل زمرتهم ويعدنا بعدتهم لنأتى ساحل النجاح ونرسو على مقام الهداية والفلاح

﴿ وبعد ﴾ فلما كان الواجب على كل صاحب علم أو صناعة أن يجود بمعلومه ويظهره لافادة أبناء بلاده ليقوم ببعض الواجب عليه نحو وطنه وكانت المؤلفات العصرية التاريخية فى اللغة العربية قليلة لاتفى بالمرام وان شئت فقل إنها لاتشفى عليلا ولا تروى غليلا خصوصا ما اختص منها بتاريخ الدول البحرية ذات الشأن الاول فى توسيع نطاق المدنية الحاضرة وتسهيل سبل المواصلات البعيدة وكانت أهمية التاريخ ومنافعه كما لايخفى ضرورية لجميع طبقات الامة لهذا كان يجول فى خاطرى من زمن طويل أن أضع فى هذا الخصوص مؤلفا شاملا لتواريخ الدول البحرية القديمة والحديثة مداركة لهذا النقص وسدا لهذا العوز الا أنه كان يحول بينى وبين تلك المقاصد الجيدة عوائق عديدة حتى جادت العناية الالهية وسمحت الارادة الربانية باخراج ذلك من القوة الى الفعل فشمرت عن ساعد الاجتهاد لبلوغ هذا المراد وتجردت

لتصنيفه وجمعه وترصيفه مستعينا فى ذلك بأشهر المؤلفات العربية والتركية والافرنجية القديمة والحديثة وبما ينشر عند أغلب الامم من النشرات الدورية العلمية والبحرية وبما لدى من المعلومات التاريخية البحرية لانى ممن تخرج من المدرسة البحرية المصرية ومارس فن البحر زمنا طويلا فى سفن الحكومة المصرية الحربية وغير الحربية ولقد بذلت فى ذلك مزيد العناية والتنقيب والتلخيص والتقريب فجاء كما أحب سفرا جامعا شاملا لاشتات المسائل التاريخية والوقائع البحرية والبرية القديمة والحديثة بين شرقية وغربية والله أرجو أن يحوز لدى العموم القبول كما هو المبتغى والمأمول

وقد اشتمل هذا المؤلف على تاريخ الدول القديمة كالفينيقيين والفرس واليونان والرومان وقدماء المصريين ودول العرب والحديثة كالدولة العلية العثمانية والحكومة المصرية ودولة مراكش وحكومة الجزائر وحكومة تونس وحكومة اليونان والروسية وايتاليا وجمهورية البنادقة وحكومة السيسليتين وكورسكا وحكومة البابوات وجمهورية جنوه ودولة النمسا واسبانيا والبورتغال وهولانده والبلجيقا وانكلتره وفرانسا والمانيا والدانيمارك والسويد والنرويج

ويشتمل تاريخ كل دولة من الدول المذكورة على موقعها الجغرافى تفصيلا وأشهر ثغورها الحربية والتجارية وكيفية ظهور تلك الدولة وتأسيسها ومشاهير ملوكها وما حدث فى زمنهم من الحوادث المهمة وقوتها البحرية وسفنها الحربية وغير ذلك مما له مساس بهذا الخصوص

وينقسم هذا التاريخ الى ثلاثة مجلدات يحتوى المجلد الاول منها على الخطبة ومقدمة عامة فى البحرية والملاحة عند الدول الاوروباوية والدول الاسلامية وتاريخ الانسان منذ الخليقة وحادثة الطوفان الشهيرة وتاريخ الفينيقيين والميديين والفرس واليونان والرومان ودول العرب قبل الاسلام وبعده ودولة المغرب الاقصى وجزائر الغرب وتونس والدولة العلية العثمانية ويحتوى المجلد الثانى على تاريخ مصر القديم والحديث وتاريخ فرانسا وتاريخ انكلتره ويحتوى المجلد الثالث على تاريخ دولة الروسيا والمانيا والسويد والنرويج والدانيمارك وهولانده والبلجيقا والنمسا وايتاليا واسبانيا والبورتغال ومملكة اليونان الحديثة

وكان تمام تصنيفه فى عصر معيد مجد الدولة العثمانية الساعى فى اعلاء شأن الخلافة الاسلامية مرقى درجات المعارف والعلوم المنطوق منها والمفهوم سلطان البحرين وخاقان البرين مولانا الغازى السلطان ابن السلطان السلطان (عبد الحميد خان الثانى) أدام الله دولته وأيد بالنصر والتمجيد شوكته ووفقه لما يرضاه وأعانه على ما يتمناه

وقد جعلته هدية الى سدة مولانا محيى الآمال الوطنية ومعيد النشأة المصرية عزيز مصر وحامى حمى القطر خديوينا الافخم وملاذنا الاعظم (عباس حلمى الثانى) أدام الله مجده ورفع الى السما كين قدره وسعده انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير

وقد سميته (حقائق الاخبار عن دول البحار) وأرجو الله أن يكون له من اسمه نصيب انه

سميع مجيب كما أرجو كل من اطلع عليه أن يسبل ذيل المسامحة ان وجد هفوة فلا بد للمهند من نبوة وللجواد من كبوة

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

وبالله الهدايه فى البداية والنهايه

تحريرا بالقاهرة فى غرة شوال سنة ١٣١٢

اسماعيل سرهنك

ميرالاى

مقدمة فى الملاحة وتاريخها

الملاحة فى الازمنة القديمة وعند أهل أوروبا

لواعتبرنا الجنس الآرى أنه أقدم أجناس الكرة الارضية لعلمنا من دراسة لغته الاصلية أن معلوماته البحرية كانت فى مهد الطفولية ولوقلنا ان أهل الصين أقدم منه لكانت النتيجة كالنتيجة الاولى لاتشفى عليلا ولاتروى غليلا وقطعنا بأن درجة الملاحة التى وصلوا اليها كانت قاصرة جدا لانهم لم يتوصلوا الالاكتشاف شواطئ بلادهم الواسعة وربما كانت بعض الشواطئ لا كلها وكذا لوحولنا النظر الى ماورد فى القرآن الشريف وغيره عن سفينة سيدنا نوح عليه السلام لما أمكننا أيضا أن نستفيد شيأ تاريخيا مهما عن الملاحة فى تلك الاعصار وغاية مانعلمه أن تلك السفينة التى أوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح بصنعها كانت لوقاية سيدنا نوح ومن آمن معه من الغرق وورد أنه عليه السلام صنعها فى سنتين وكان طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعا وطولها فى السماء ٣٠ ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون أى طبقات تحمل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه فى البطن الاعلى مع مايحتاج اليه من الزاد ويروى أنه حمل معه جسد ادم عليه السلام وجعله معترضا بين الرجال والنساء

وعن الحسن رضى الله عنه كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ٦٠٠ ذراع وعن النبى عليه الصلاة والسلام أن عدد من كانوا مع نوح عليه السلام فى السفينة من الانس ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم

وعن محمد بن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء وورد غير ذلك والله أعلم

وروى أن السفينة استقلت بهم لعشر خلون من رجب وكانت فى الماء خمسين ومائة يوم واستقرت بهم على الجودى شهرا وهبطت بهم يوم عاشوراء وسيأتى بعض تحقيق عن الجودى ومكانه فى حادثة الطوفان

أما أصل الملاحة فشئ تضاربت فيه الاقوال واختلفت فيه روايات المؤرخين فقال قوم ان أقواما من القدماء وهم المعروفون فى تواريخ أهل أوروبا بما ترجمته أكلة السمك (اشتيوفاج) Ichtyophages كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى وشمالى افريقية هم أول من خاطر بحياته وجال فى بعض جهات البحار القريبة من الشاطئ طلبا لقوتهم المذكور

وقال سانكونياتون الفينيقي ان إعصاراهبت فجاءة على غابات مدينة صور فأحرقها وعند ذلك تناول أحد مشاهيرها المدعو اوسواوس (Ousoüs) جذع شجرة وألقاه فى البحر وركب عليه فكان أول من تجاسر على ركوب البحر اه فان صح هذا على مافيه كان ذلك ابتداء اتخاذ الاكلاك أى الرواسى المعروفة عند البحريين بالصالات

وزعم آخرون أن الاطلانط سنة (٣٠٠٠ ق م) هم أول من ركب البحار وساروا حول شواطئ أوروبا حتى وصلوا بلاد آسيا ومع ذلك فهما كان أصل الملاحة فان هذه السياحات البحرية المذكورة غير تامة أصلا بحيث يتعذر علينا أن نعرف منها جرثومة الملاحة الحالية

أما التجريدة البحرية المسماة فى تواريخ اليونان بتجريدة الارغونوت فليست الاقصة لا يعول عليها وان اشتملت على أصل حقيقى ومشروع اشتهر ذكره فى الآفاق ومما روى أن تلك السفينة المسماة أرغو التى ذكرها كتبة اليونان وأن ملاحيها كانوا يحملونها على أكتافهم فى الاماكن الصعبة ويخرجونها كل مساء بغاية الاعتناء مخافة حصول حادث نعلم أن درجة هذا العلم كانت لاتزال اذ ذاك فى المهد ومع ذلك فربما كان فى القصص التى بقيت لنا عن تلك السفينة دليل على جهل شعراء اليونان بعلم كان قد حاز درجة عظيمة عند غيرهم لان مدينة صيدا نالت اهمية وشهرة فى فن سلوك البحار فى نحو سنة (٢٧١٤ ق م) وقد أثبتت تجارتها الممتدة فى ذلك العصر زمنا للملاحة تقدمت فيه لان الفينيقيين وان كان سيرهم قريبا من الشاطئ فلابد وأن يكونوا ساحوا سياحات طويلة وجابوا جميع جهات البحر الابيض المتوسط وقد اشتهر الفينيقيون ثم الاثينيون ثم الكرانتيون ثم أهل رودس ثم أهل قرطاجنه على التعاقب فى فن سلوك البحر

ومن الاسباب الاولى التى ساعدت الامم المذكورة على نوال هذه الدرجة موقع بلادهم وتمسكهم بعد قوتهم البحرية ويقال إن أهل رودس هم أول من وضع الاصول والقواعد الاولى لعلم سلوك البحار وذلك فى سنة (٩٠٠ ق م)

وفى (١٤٣٧ ق م) جهز فرعون مصر سيزوستريس عدة أساطيل عظيمة لاكتشاف سواحل فينيقية وسواحل البحر الاحمر وكان للمصريين أثناء اغارتهم على بلاد البيلاج أساطيل حقيقية جيدة البناء والنظام ومع ذلك فان هوميروس الشاعر المتأخر كثيرا عن زمن الحوادث المذكورة السابقة والذى كان من أكبر سياحى عصره لم يتكلم عن الملاحة أو البحرية فى زمنه الا باقوال أوسع وأرقى بقليل مما ورد عن الارغونوت عنها

وقد كان الاوقيانوس فى الحقيقة بالنسبة للامم القديمة عبارة عن الشئ الغير المتناهى والعنصر الخطر الذى لايمكن للانسان أن يهتدى فيه الا بملاحظة العناية الالهية وكانوا يقولون أيضا ان الاوقيانوس إله لايملك الانسان نفسه بمجرد وضع قدميه فيه وانه تحت تصرف قوة عالية لاتقهر حتى ان الاناشيد اليونانية القديمة قد وردفيها كثير من هذه الافكار الفاسدة التى كان يوجدها اذ ذاك مجرد النظر الى الاوقيانوس

وفى سنة (١١٣٧ ق م) أسس الفينيقيون قرطاجنه وبعدها بقليل أسس القرطاجنيون مدينة مسيليا أى مرسيليا وهذا يدل على أن البحر الابيض المتوسط باجمعه كان معروفا تمخر بمياهه سفن كثيرة بلا انقطاع ونجاح هذه المشروعات الاولى والميل الى السياحة

ومعرفة

ومعرفة المجهول من الاقطار هو الذى دعا الملاحين الى المخاطرة بالسير الى أبعد من ذلك على سفنهم الصغيرة فأجرى هنون القرطاجنى سياحة حول افريقية فى سنة (٨٠٠ ق م) مبتدئا من مضيق هرقل أى (جبل طارق) وتمم أودوكس الاغريقى سياحته حولها بعده سنة (٦١٦ ق م) مبتدئا من البحر الاحمر ولا يبعد أن يكون طاف حول رأس الزوابع (عشم الخير) قبل أن طاف حوله فاسكودوغامه لاول مرة كما هو المشهور واكتشف طريق مصر الى بلاد الهند من البحر الاحمر وبعد ذلك قام هيملكون القرطاجنى وجاب جهات الاوقيانوس الشمالية الى انكلترا وفى سنة (٣٣٠ ق م) اكتشف بيساس المرسيلى جزيرة اسلانده المسماة أولتيما اول عند الرومان ولم يعد لبحر الظلمات سر عميق مكنون لدى هؤلاء الملاحين الجسورين كما كان له قبل حتى انه من المظنون الراجح أنهم أثناء تلك السياحات العظيمة وصلوا بلاد أمريقا وان كان ليس لدينا ما يؤيد هذا القول ثم ان أسطول اسكندر المقدونى تحت امارة نيارك اكتشف شواطئ آسيا من نهر السند الى الخليج الفارسى وقد أوقعت قرطاجنه الرعب فى قلوب روميه بما كانت تحوزه من البحرية الشهيرة ولذلك شرعت روميه فى ايجاد بحرية وسفن من جميع الاشكال والانواع ولا غرض لها فى ذلك غير نكاية أعدائها أهل قرطاجنة وقد وردفيما يروى ان روميه لم يكن لديها من السفن مثال تحذو عليه فى بناء أساطيلها غير سفينة قرطاجنية كانت ألقتها الامواج على شواطئها ولم يتأكد الرومان من قوتهم وسلطانهم الابعد الانتصار البحرى الذى انتصره القائد دويليوس على أهل قرطاجنة

ولا يخفى أن السفن فى ذلك الوقت لم تكن تتحرك الا بالمقاذيف فقط وليس لها شراعات أما استعمال الشراعات فغير معروف فى ذلك الزمن ومع ذلك فمن المظنون أن أودوكس الاغريقى استعملها قليلا فى سياحته السابق ذكرها حينما استعان بالرياح الموسمية لينتقل من البحر الاحمر الى بحر الهند ويستدل من الميتولوجية الاغريقية على استعمالها فى تجريدة تيزى ضد مينيطور ملك اقريطش حيث جاء فيها ان والد تيزى المسمى ايجى قتل نفسه بغلطة ابنه لانه غير شراعاته السوداء عند عودته بشراعات بيضاء

وقد اعتمد تيمستوكل اليونانى فى نجاة وطنه على ما شيده من السفن ونجى بلاد اليونان فى واقعة سلامين البحرية وكانت فيها سفن الفرس واليونان تتحرك بالشراعات كما ستقف عليه عند ذكر أمة اليونان ولم تنل الملاحة مدة الرومان تقدما يعتد به إذ أن الاصلاحات التى أحدثوها كانت قاصرة على بناء وتجهيز السفن فقط للسير بجانب الشواطئ ولهذا لم تترق الملاحة باكتشاف عظيم مع ما كانت عليه من النقص الكبير وقد تكلم قيصر عن بحرية الغاليين وبحرية سكان مدينة فان بفرنسا الذين حاربوا الرومان سنة (١٥٦ ق م) حربا بحريا أظهروا فيه إقداما ومهارة عجيبة وقد حفظ الغاليون شهرتهم البحرية مدة حكم الرومان

وذكر أحد القسيسين فى تأليف له بحرية الغالة قديما بقوله (يتصف كل بحرى عند الغاليين بالمهارة والتعليم بقدر ما يتصف بها غيره من بحارة الامم الاخرى لانه لدى النزال عند التحام السفن بعضها (المعبر عنه عند البحريين بالرامية) تراهم ينقضون على سفن الاعداء ويقلبون ما قابلهم منها قبل أن يتمكن الاعداء من الاستعداد للمقاومة ومتى طاردوا سفينة استولوا عليها لا محالة مهما

كانت جودة شراعاتها ولو اضطروا الى المقاتلة وهم فى حالة الانهزام أظهروا من الجراءة فى مناوراتهم شيأ عجيبا بحيث لا يرمون بالجبن والهرب وبالاختصار يمكن أن يقال عنهم انهم يتصرفون فى الرياح والامواج وحتى فى الموت كما يشتهون) اه

وكانت شهرة أمة الفرنج (الفرنك) فى البحر لا تنقص عن شهرة الغاليين ومما يحكى أن الامبراطور بروبوس كان نقل بعض قبائل الفرنج الى شواطئ البحر الاسود فاستحوذوا بعد قليل على سفن وقطعوا بها مضيق القسطنطينية وبحر مرمره ومضيق الدردنيل وبحر الأرخبيل والبحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق حتى أمكنهم العودة الى وطنهم من الاوقيانوس ونهر الرين ومما يجب التنبه اليه ان تيودبير Théodebert ابن تيريرى الاول ملك استراسيا هزم اسطولا دانيمركيا ولو كان لشارلكان أساطيل جسيمة القدر بالاوقيانوس والبحر الأبيض المتوسط وسفن مسلحة واقفة عند مصبات أنهر فرانسا لطرد قرصان الشمال (نورمان) وكان هؤلاء القرصان أصحاب إقدام عجيب يسخرون بالاخطار ويوقعون الرعب فى كل مكان مروا به وقد أرسى غيليوم الفاتح وهو من نسل النورمانديين على شواطئ انكلتره ومعه ثلاثة آلاف سفينة وأكثر من خمسمائة مسلحة مستعدة للحرب

وقد ارتقت الملاحة فى الاعصر الوسطى ارتقاء نسبيا حاز بعض الأهمية باكتشاف النورمانديين جزيرة غرونلانده وبلاد لابرادور والارض الجديدة ونقل الصليبيين من القسطنطينية الى شواطئ بلاد الشام على سفن البنادقة وذلك بعد اكتشاف النورمانديين المتقدم بقرون ومن أول القرن الثانى عشر المسيحى كانت تجارة البحر الأبيض المتوسط وبلاد الشرق فى قبضة البنادقة وجنووبيزه خصوصا الاولى من هذه الجمهوريات الثلاث فكانت البندقية هى فينيقيه الحديثة ثم مازال علم سلوك البحر يترقى شيأ فشيأ حتى وجد تماما ثم كثر عند تجار هذه المدن المذكورة عدد الملاحين أصحاب العزائم والهمم الذين تدربوا على فن سلوك البحر فوق السفن التجارية العديدة التى كانت لتلك الجمهوريات وكانت تلك السفن مدارس لهم نبغ منها كثير من المشاهير بحيث لم يكن ينقص الملاحة اذ ذاك الا الاكتشافات وتطبيق القوانين الطبيعية والفلكية المعروفة عليها اليعلم قدرها ويتسع نطاقها وقد كان اكتشاف بيت الابرة أول خطوة عظيمة خطتها الملاحة فى هذا الباب وتقدمت بها تقدما حقيقيا وقام عدة من مشاهير الملاحين لاكتشاف المجهول من الكرة ولم يكن سيرهم فى البحار مساحلة كما كانوا يفعلون من قبل أى قبل اختراع بيت الابرة بل كانوا يخترقون عباب الاوقيانوس وبعد اكتشاف جزائر قناريه أو الخالدات وجزائر ماديره وأسوره وجزائر الرأس الاخضر اكتشف كريستوف كولومب الشهير بلاد أميركا سنة (١٤٩٢ م) واكتشف فاسكو دوغامه رأس عشم الخير سنة (١٤٩٧ م) ثم بعد ذلك امتدت فتوحات البورتغال والاسبانيول ثم الانكليز وأهل هولانده واكتشفوا دنيا أخرى وافتتحوا دولا واسعة فى بلاد الهند وغيرها وما الفضل فى ذلك الا للاساطيل

ومتى تفكرنا فى أمر أولئك الملاحين الجسورين وعلمنا أن بيت الابرة لم يكن تام الاتقان فى ذلك الوقت وانهم كانوا بذلك عرضة للوقوع فى أعظم الغلطات سيما وان سفنهم كانت ضعيفة ضئيلة خالية تقريبا من المخادع مجهزة بقليل من الذخائر تقتحم أعظم الاخطار وتلاطم أجسم الامواج وهم فى

شظف من العيش عرضة للموت فى كل وقت يبغون المسير فى بحر لا تعلم حدوده لاكتشاف جهات العالم استولت علينا الدهشة وداخلنا الاستغراب وبعد ذلك بعدة سنوات اكتشف مجالان فى نهاية أمريكا الجنوبية طريقا وصل الى المحيط الهادى وبعد ان اجتازه وصل الى بلاد الهند وبهذا الاكتشاف صار العالم معروف الجوانب معلوم طرق المواصلة كل ذلك حصل بين سنتى (١٤٩٢ - ١٥٢١ م)

وقد أحدث اكتشاف أمريكا وغيرها من الجهات الوافرة الثروة طمعا عموميا وأثر على الملاحة تأثيرا لا مثيل له فى التاريخ

ولما كثر تردد السفن على الاوقيانوس وليس لها به أماكن ترسو عليه اضطر القوم لتغيير بناء السفن وتقليل استعمال المقاذيف حتى تركت تماما باستعمال الشراعات المربعة وكان ذلك أول العهد بها

وفى مدة الازمنة الوسطى اضمحلت البحرية عند الفرنساويين جدا ولم يكن لبعض ملوكهم الا القليل من السفن حتى ان فيليب أغسطس اضطر لان يستعير من أهل جنوه اسطولا ينقل عليه جنوده فى الحملة الصليبية الاولى ولحق سان لويس سنة (١٢٤٢ م) العناء الشديد حتى جمع ثمانين مركبا بالحماية بلاد بواتو من الانكليز ونقل عليها جنوده الى أفريقية فى حملته الصليبية وكذا اضطر فيليب الظريف لان يتوسل لاهالى جنوه بمساعدته بالاساطيل لما أراد مقاتلة الانكليز الذين هزموا أساطيله سنة (١٣٤٠ م) وفى ذلك الوقت كانت الثروة تنهال على بلاد البندقية وجنوه ومدن المحالفة الهانساتيكية من أساطيلها التى جعلت لها نفوذا عظيما ولما صعد فرانسوا الاول على تخت فرانسا بذل جهده فى إحياء البحرية فجمع وأنشأ منها عددا عظيما ونصب عليها اندريا دوريا أميرالا (١) وكان أشهر الملاحين فى عصره ثم أرسل سفنا سنة (١٥٢٣ م) للبحث عن أراضى أخرى بشمالى أمريكا واستولى فى ذلك الوقت ملاح بسيط فرنساوى يدعى جاك كارتيه على بلاد كندا باسم ملك فرانسا المذكور

ولما حصلت الحروب الدينية بأوروبا اضمحلت أساطيل الفرنسيس فاهتم ريشيليو (٢) الشهير باعادتها وترأس هو على البحرية لشغفه بتقدمها حتى انه فى وصايته السياسية للويس الثالث عشر يحرضه كثيرا على اتخاذ الاساطيل والاكثار منها وتجهيزها بالعدد والعدد وجعلها حاضرة عند أول اشارة وقد أخرج هذا الرجل أفكاره من القوة الى الفعل وأسرع فى تشييد السفن فصار له بعد قليل منها عدد عظيم بالمحيط والبحر المتوسط وسلحها بالمدافع الكثيرة وأوجد فى جميع الثغور مدارس بحرية مجانية وغيرها مما عاد على البحرية الفرنساوية بالتقدم

ولما مات ريشيليو تقهقرت البحرية زمن مازارين (٣) حتى انه لما صعد لويس الرابع

---

(١) هذا اللفظ مأخوذ من أمير البحر أو أمير الماء بالعربية وأول من استعمل هذا اللقب فى أوروبا أهل جنوه وغيرهم من الطليانيين اهـ

(٢) ريشليو كان وزير اللويس الثالث عشر وهو من أكبر رجال فرانسا وكان كردينالا وله أعمال عظيمة عادت على بلاده بالفوائد كثيرا مفصلا بتاريخ فرانسا ولد سنة ١٥٨٥ وتوفى سنة ١٦٤٢ م

(٣) كان كردينالا طليانى الاصل ولما احتضر ريشليو أوصى عليه لويس الثالث عشر فجعله وزيرا الاول وحفظ مازارين منزلته العالية مدة لويز الرابع عشر وسيأتى ذكر أعماله بتاريخ فرانسا سنة (١٦٠٢-١٦٦١ م)

عشر على التخت لم يكن للفرنساويين غير ثمان سفن فاجتهد فى احياء البحرية الفرنساوية واحضر الى فرانسا الصناع والعملة من هولانده وغيرها ونظم ٣٠٠٠٠ بحرى

وأنشأ دور صناعة ببرست وطولون وغيرهما ومدارس الطوبجية وحصن مدنا بحرية كثيرة واهتم بتشجيع السفن التجارية فوجدت الشركات الاستعمارية والتجارية وازداد عدد سفن الدونانمة حتى بلغ ٢٧٣ سفينة ووزع كثيرا من الذخائر الحربية على الثغور وأنشأ نزلات استعمارية على البحار حتى شبه جزيرة الهند فكان العلم الفرنساوى يخترق جميع البحار محترما مهيبا ونالت البحرية الفرنساوية اذذاك درجة رفيعة ثم تقهقرت ثانية ثم ارتقت ونبغ منها كثير مدة لويس الخامس عشر حيث نالت الشهرة فى حرب استقلال امريكا

ولما قامت الجمهورية بعد ذلك كانت البحرية الفرنساوية متأخرة لمهاجرة أغلب الضباط حتى انه لم يمكنها ان تقف بسفنها امام الاميرال نلسون (١) الشهير الذى أوقع بسفنهم فى عدة جهات خصوصا واقعة أبوقير وفى عصر الملوكية بعد ذلك كانت البحرية الفرنساوية لاتزال متأخرة وقد أظهرت هزيمتها فى واقعة الطرف الاغر سنة (١٨٠٥ م) ما كان لها من القوة وان كان نابليون اهتم بعد ذلك باصلاح شأنها وارجاع بعض القوة اليها حتى أمكنها فيما بعد أن تدخل فى عداد بحريات الدول الاخرى فى واقعة نافارين سنة (١٨٢٧) وتستولى على بلاد الجزائر التى اشتهر سكانها بمعرفة سلوك البحر سنة (١٨٣٠ م) وفى زمن لويس فيليب تقدمت البحرية الفرنساوية تقدما عظيما وشرع الفرنساويون فى تسيير سفنهم البحرية بالبخار سنة (١٨٤٤) وتغير جميع مواد بناء وتسليح السفن الشراعية القديمة ثم ظهرت سفن الخط البخارية وكانت تسير بالدواليب أولا ثم تغيرت الدواليب الى رفاسات

ولما ظهرت السفينة المدرعة الاولى بفرانسا المسماة لاغلوار (أى النصر) حدث انقلاب عظيم فى البحرية الفرنساوية ولم يكن هذا الانقلاب قاصرا على كيفية بناء السفن فقط بل شمل تسليحها أيضا حتى اضطروا أخيرا لاهمال السفن الخشبية ذات المدافع العديدة وبنوا بدلها السفن المدرعة المغطاة بالصفائح السميكة من الحديد وأبطلوا أيضا استعمال الشراعات فى بعض السفن ثم قللوا عدد المدافع واستعملوا مدافع من ذوات العيار الكبير وغيروا شكل السفن فبعد أن كانت مستديرة جسيمة صارت مستطيلة لازدياد السرعة ولما ظهرت المدافع المسدسة (الششخانه) التى تكسر مقذوفاتها دروع السفن اضطروا لجعل صفائح التدريع أغلظ مما كانت عليه ثم أخذ الاتقان والتنويع والتجديد والتحسين يدخل فى بناء وتسليح السفن الى هذا الوقت وقد صارت القوة التى تحرك هذه السفائن المدرعة الضخمة تزيد عن قوة ١٥٠٠٠ حصان وتقطع فى الساعة الواحدة أكثر من ١٨ ميلا وتدار بسهولة أقل من أصغر سهولة تدار بها الآلات البخارية

ولا يخفى أن الانقلاب الذى حصل فى تشييد وتسليح السفن بدء ضرورة الى احداث تغيرات مهمة فى فن حرب البحر ولم يتمكن علماء هذا الفن من أن يضعوا لذلك قواعد ثابتة لغاية الآن وكان الفرنساويون يظنون القوة فى أساطيلهم الحربية حتى ظهر لهم عجزها كما ظهر عجز جيشهم البرى بالحرب بينهم وبين الالمان سنة (١٨٧٠ م) ولما رأوا ذلك التفتوا التفاتا حقيقيا الى بحريتهم

(١) هو الاميرال الانجليزى الطائر الصيت المنتصر فى واقعتى أبوقير والطرف الاغر وكان فيها مقتله ولد سنة ١٧٥٨ ومات سنة ١٨٠٥ وسيأتى ترجمته وأعماله مفصلة بتاريخ انجلتره

وخصصوا

وخصصوا المبالغ المهمة الوافرة لانشاء وتجهيز السفن حتى صار لهم الآن دوننامة جسيمة قوية وعدت بلادهم من الممالك البحرية الاولى

اما البحرية فى الدولة الانكليزية فانها لم توجد بالطبع دفعة واحدة بل ترقت تدريجيا حسب مقتضيات الاحوال وكان يصيبها من الاهمال والتراخى ما يصيب جميع المشروعات المفيدة التى عادت على بنى الانسان بالمجد والثروة

ولا يخفى ان لاهل هذه البلاد عناية مخصوصة بانشاء السفن اتصفوا بها فى كل زمن من أزمنة تاريخهم اضطرهم اليها وضع بلادهم ومما يدل على عنايتهم بالبحرية أن كثيرا من ملوكهم مثل جمس الثانى كان ملكا وأميرالا فى وقت واحد ومازال للبحرية فى هذه البلاد الشأن العظيم حتى فى هذه الأيام حيث نرى أن كثيرا من أمراء العائلة الملوكية يستخدمون فى الاساطيل التى عليها مدار حياة وقوة هذه المملكة وأول ترق حقيقى حازته البحرية الانكليزية هو الترقى الذى نالته بعد أن استقلت عن الرومان وتمكنت من التغلب على أهل الدانيمارك وطردهم من بلادها وكان لها معهم عدة وقائع بحرية شهيرة ابتدأت من سنة (٤٤٩ م) تقريبا ومن أشهر الملوك الذين اهتموا بايجاد الاساطيل البحرية الانكليزية الفرد الثانى (٩٧٨ - ١١١٦ م) وهنرى الثانى (١١٤٠ - ١١٨٩ م) وفى زمنه شيدت سفن كثيرة حتى وصلت العمارة الانكليزية الى نحو ٤٠٠ سفينة وبها أمكنه الاستيلاء على جزيرة ايرلانده واضافتها الى مملكته وهو الذى أحيا القوة البحرية البريتانية بعد ملاشاتها وجعلها قادرة على حماية نفسها من كل مفاجئ حتى انه لما جلس بعده على سرير المملكة ريكاردوس الملقب بقلب الاسد وجد ببلاده السفن الكافية لحمل جنوده لما جهز نفسه للحملة الصليبية الثالثة وفى عصر جان ساتير نالت العمارة البريتانية شهرة عظيمة بتدميرها العمارة الفرنساوية سنة (١٢١٣ م) وفى الحرب المسماة بحرب المائة سنة اشتهرت العمارة البريتانية فى كثير من المواقع وفى زمن هنرى الثانى تقدمت العمارة الانكليزية تقدما عظيما لشغفه بالاكتشافات البحرية

وفى عصره شيد الانكليز سفنا ضخمة متينة وفى عهد الملكة أليصابات حصل بينها وبين الاسبانيول وقائع بحرية عظيمة أشهرها واقعة الارمادة وهو لفظ اسبانيولى علم على أسطول من السفن الحربية كان يؤلف من ١٣٠ بارجة أرسلها فيليب الثانى ملك اسبانيا سنة (١٥٨٨ م) لفتح انكلتره فخبطت مساعيه لان الانكليز قابلوا تلك العمارة بهمة ونشاط وشتتوا شملها وهلك أكثر العساكر الذين كانوا بها ولم يعد منهم الى أوطانهم الا القليل

ولما تقدمت البحرية فى انكلترة علم الناس مالها من الفوائد العظيمة فشكلت عدة شركات بحرية بترغيب الحكومة كان أشهرها وأعظمها شركة الهند الشرقية سنة (١٦٠٠ م) وكانت تتجر مع بلاد الهند الغنية وكانت سببا فى إدخال تلك البلاد الواسعة فى قبضة الدولة الانكليزية التى صارت بعد ذلك صاحبة النفوذ الاقوى فى جميع البحار والسيدة المالكة لطرق المواصلات البحرية باجمعها ومازالت قابضة على صولجان هذه القوة حتى سنة (١٨٧١ م) حينما انتصر الألمان على الفرنسيس فعندها أخذت الدول الاوروباوية الاخرى تهتم ببحريتها وتحسد انكلترا على ما نالته من النفوذ والقوة باساطيلها فشرعت فى مزاحمتها بالبحار وشيدت السفن

المدرعة المتنوعة لحماية شواطئها وحماية المستعمرات التى تهافتت على الحصول عليها بجميع أقطار العالم من بعد ذلك التاريخ خصوصا ومع ذلك فان الانكليز لم يغضوا الطرف عن هذه المسابقة بل اهتموا الاهتمام الزائد فى تشييد السفن المدرعة وغيرها ليكون لهم النفوذ الاول فى جميع البحار ولذلك نرى رجالها وعظماءها يعنفون الدولة على الدوام فيرمونها بالتقصير فى إنشاء السفن كلما رأوا دولة من دول البحار الحالية أنزلت الى البحار سفينة أو سفينتين ولذلك اضطر وا حكومتهم الى تخصيص المبالغ الوافرة لانشاء السفن الحربية لمراقبة حركات الدول الاخرى فلم يسع الحكومة الا اجابة مطالبهم والحق يقال انه لولا صريخ خطباء الانكليز وكتابهم فى الوقت الحاضر لتقهقرت دولتهم فى البحرية تأخرا محسوسا بالمسابقة الحاصلة من الدول الاخرى وكيف لا يهتم الانكليز بتقوية سفنهم التى لولاها ما كان لدولتهم هذه القوة والثروة والنفوذ بالعالم

ومن الدول البحرية الحديثة التى اهتمت بتقوية نفوذها البحرى بانشاء الاساطيل البحرية المتنوعة المانيا وايتاليا فكان اهتمام الاولى بذلك على الخصوص بعد انتصارها على الفرنسيس سنة (١٨٧١ م) وكان اهتمام الثانية بحريتها بعد الهزيمة التى هزمت فيها أساطيلها بجوار جزيرة ليسا سنة (١٨٦٦ م)

ومن الدول العظيمة التى اهتمت بالبحرية اهتماما عظيما دولة الروسيه حيث أوجدت لها أسطولا قويا بالبحر الاسود وآخر بالبحر الابيض المتوسط خلاف أساطيلها القوية الموجودة ببحر البلطيق ولم يقف ترقى الملاحة والبحرية عند النقطة التى ذكرناها قبل أن نتكلم على تاريخ البحرية عند الفرنساويين والانكليز وغيرهم بل انه لما أمكن تعيين النقط الاصلية بالضبط الكافى واستعملت الخرطات التى كانت قاصرة على رسم الشواطئ فى أول الامر ثم تحسنت وصارت خرطات بحرية تعين خطوط الاطوال على طريقة المساقط التى أصلحها مير كاتور [1] فى القرن السادس عشر الميلادى واخترع مقياس سير السفن (البركيته) حصل من ذلك للملاحة تقدم عظيم لانه صار فى امكان البحرى حساب المسافة التى يقطعها بطريقة أضبط وأسرع من ذى قبل ولاشك ان ملاحى القرن الماضى الجسورين لم يكونوا فى احتياج الى هذه التحسينات لاجراء الاعمال العظيمة التى قاموا بها فى استكشاف امريكا والطواف حول رأس عشم الخير وحتى للطواف حول الارض وقد كانوا يخدعون أنفسهم بانفسهم ظنا منهم ان خرطاتهم البحرية لا يمكن ان يفوقها غيرها ولم يكن فى حسبانهم ان يأتى يوم يفوقهم فيه خلافهم فى هذا الباب أصلا وفى ذلك الوقت أهملت خرطات مير كاتور بالضبط التام الذى حصل فى بيت الابرة وبتقدم علم الطبوغرافيا البحرية (الهيدوروغرافيا) وبالتحسينات التى أدخلت على الآلات المستعملة فى علم الفلك البحرى وايجاد السكستان (آلة السدس) والساعات البحرية والكرونومترات التى يمكن بها تعيين طول أى مكان معلوم حتى أمكن الملاحين عدم الوقوع فى الغلطات الفاحشة التى كانوا عرضة لحصولها واقتصروا على استعمال البوصلة فقط ومن بعد اختراع هذه الآلات وتحسينها صار علم الملاحة علما حقيقيا أكيدا مبنيا على قضايا هندسية بحيث لم يبعد أمامه خطوة يتخطاها فى سبيل التقدم الا استعمال البخار فى الملاحة

[1] هو عالم شهير من علماء الجغرافيا هولاندى الاصل ينسب اليه طريقة مساقط شهيرة فى رسم الخرط ولد سنة ١٥١٢ ومات سنة ١٥٩٤ م

ولكنه

ولكنه فى هذه المدة البالغة نحو الاربعة قرون أى مابين القرن الخامس عشر والسابع عشر الميلادى حازت الملاحة عدة تقدمات مهمة واتسع نطاق التجارة البحرية بمهارة الملاحين بحيث تبودلت علاقات الامم مع بعضها وانتشرت السفن فى كل البحار ومع ذلك لم تنل التجارة فائدة عظيمة الا بعد ادخال تحسينات مهمة فى بناء السفن لانه اتضح اذ ذاك أن من الضرورى الاستعانة بالعلوم الهندسية لحل المسائل المعضلة المتوقف عليها تغيير شكل ومقدار السفينة الثقيلة الضيقة التى اكتشف بها كريستوف كولومب قارة أمريكا الى الشكل الجسيم الذى وصلت اليه السفن الحربية فى زمن لويس الرابع عشر ملك فرانسا والى السفينة التجارية الانكليزية القوية التى جمعت جميع المزايا بين سرعة سير واستعداد تام ومتانة فائقة

ولما أتى القرن التاسع عشر الميلادى تقدم علم الملاحة تقدما باهرا حتى كأنه طرأ عليه انقلاب جديد وذلك باستعمال البخار لسير السفن وتحريك آلاتها

ولا يخفى انه باستعمال البخار لم تعد الشراعات التى كانت اذ ذاك الوقت هى العامل الاصلى لسير السفن الا درجة ثانوية وباستعمال البخار أيضا قبض الملاح على آلة قوية يمكنه بها وقت اللزوم أن يتغلب على عنصرى الماء والهواء ويؤثر على سير السفينة سرعة وانتظاما بكيفية غريبة وقد يتصل بهذا الانقلاب البحرى الرئيسى أى استعمال البخار استعمال القزانات الانبوبية والسلاسل بدل الاحبال (الغمن) وتصفيح السفن بالحديد وتعويض العجلات ذات المقاذيف الخشبية بالرفاسات واستعمال الشراعات مع البخار فى وقت واحد وغير ذلك وقد قال أحد علماء هذا الفن ان استعمال البخار فى الملاحة أوجد صعوبات عظيمة خصوصا اذا كان المسير الى البلاد البعيدة المحتاجة لادخار كميات عظيمة من الفحم ولسفن على غاية من الاستعداد والمتانة المحتاجة لآلات قوية جدا وقد أمكن بعد قليل حل هذه المسئلة من الجهة الميكانيكية

ولكن تحقق أن السرعة والانتظام لا يمكن الحصول عليهما فى قطع المسافات خصوصا البعيدة الا ببذل المصاريف الهائلة التى تفوق بكثير مصاريف الملاحة بالشراع لان السفن البخارية من حيث الابتياع والحفظ ليست أكثر قيمة من السفن الشراعية بل ان المحرك لها يستهلك فحما كثيرا وهذا الفحم يشغل من وسقها جانبا عظيما ويكثر المصاريف ويقلل الايراد الا انهم قد تمكنوا الآن من تقليل المصروفات بادخال الاصلاحات اللازمة شيأ فشيأ مثل تصفيح السفينة بالحديد لانها بذلك صارت أخف وأمتن من الاخشاب وأمكن جعلها على الشكل الدقيق بدون أن يؤدى ذلك الى ضرر فى متانتها وبادخال تحسينات أخرى مختلفة فى الأجهزة والعدد أمكن جعل البخار أقل قيمة وأكثر فائدة

ومن التحسينات أيضا وضع القزانات الانبوبية واستعمال الرفاس لخفته وصغر حجمه عن العجلات ومع هذا فهناك أسباب عديدة جعلت مصروفات الملاحة البخارية عظيمة منها تحميل السفينة حملا عظيما من البضائع والركاب حتى تفى بالمصروفات ومنها ازدياد حجم السفن زيادة خارجة عن حد القياس دعت اليها المزاحمة الشديدة الحاصلة بين شركات الملاحة الانكليزية والفرنساوية والامريكانية ولهذه الاسباب المتقدمة وغيرها لازالت السفينة الشراعية أكثر عملا وانتشارا فى الملاحة رغما عن التقدم العظيم الذى أحدثه استعمال البخار فى السفن البخارية

ولا زلنا نشاهد السفن الشراعية تستعمل للاسفار البعيدة ولنقل كثير من المواد وكأنها استفادت من جميع التحسينات التى أدخلت فى بناء السفن الحديثة لم تبق أقل منها الامن حيث السرعة فقط

الملاحة والبحرية فى دول الاسلام عموما

والدولة العلية العثمانية

خصوصا

اعلم أن الملاحة كانت معلومة من قديم الازمنة لكثير من القبائل العربية النازلة على سواحل خليج العجم والبحر الأحمر وكانوا يتعاطون التجارة مع سكان سواحل أفريقية الشرقية والجنوبية وكان لهم معرفة جيدة باستعمال الشراعات غير أن سفنهم كانت صغيرة الحجم وقد تحقق أنهم ذهبوا فى أسفارهم التجارية قبل ظهور الاسلام الى كثير من سواحل الهند وجزائر آسيا الجنوبية ولكن لما ظهر الاسلام أهملت القبائل التى اعتنقته أمر الملاحة حتى زمن الفاروق رضى الله عنه

ولما فتح عمرو بن العاص الديار المصرية كتب اليه سيدنا عمر رضى الله عنه مكتوبا يطلب منه فيه أن يعلمه بوصف البحر وأحواله فكتب عمرو الجواب وقال فيه اعلم يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف كدود على عود فمنع الفاروق الاسلام من ركوب البحر صيانة وحفظ الارواح الامة المحمدية فى ذلك الوقت غير أن أهل مصر ومن ساكنهم من الملل المختلفة خصوصا التجار منهم لما كانوا يشتغلون من قديم بالتجارة والحروب البحرية من عهد الدول السالفة وقد صرفوا زمنا طويلا من أعمارهم فى أسفار البحار متلقين تلك المهنة المفيدة عن آبائهم لم يلووا عنان رغبتهم عنها ولم يلتفتوا الى النهى المتقدم بل استمروا على تشييد السفن بثغور رشيد ودمياط والاسكندرية وسائر السواحل وكان لهم تجارة مع بلاد اليمن والهند وباقى سواحل البحر الأبيض المتوسط

وكانوا لا ينفكون عن ترغيب القبائل العربية النازلة على سواحل بلاد مصر وكذا قبائل زناته وكبراء المغاربة على الغزوات والتجارة البحرية غير أن أعيان الصحابة الذين كانوا مع عمرو بن العاص حين الفتح لم يرضوا بمخالفة قول الفاروق فى أول الأمر وأمروا بالتمسك به جيدا الا أن عرفجة بن هرثمة الازدى سيد بجيلة وكذا حاكم بلاد مسقط رأيا أنه ليس من الصواب منع المسلمين من الغزو والجهاد فى البحر والحصول على المكاسب فركبا البحر وغزوا جهات عمان وما قرب منها من السواحل والجزائر فلما بلغ ذلك الفاروق أرسل الى عرفجة كتابا يعاتبه على ما حصل منه وأمر عمرو بن العاص بمؤاخذته وزجره وكان غرضه من ذلك عدم التغرير بالعرب الذين دخلوا الاسلام حديثا مخافة أن يتشتتوا فى البلاد ويبعدوا عن مركز الخلافة ولا يخفى ما ينالهم من ذلك من الضعف ويؤيد هذا القول أنه لما بلغه رضى الله عنه بعد ذلك أن بعض أكابر المسلمين اشتركوا مع الموسرين من أصحاب السفن ببلاد مصر وأخذوا يركبون البحر ويغزون فيه ويتجرون لم يشدد النكير عليهم بل أغفله

وفي خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه ركب عبد الله بن أبي سرح أمير مصر البحر سنة (٣٢ هـ) في مائة سفينة والتقى مع الروم وكانوا في ألف سفينة فنصر الله المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة

ولما قام معاوية بأمر الخلافة صار لاهل الاسلام في البحار سفن صغيرة خاصة بهم يغزون بها تارة و يتجرون أخرى غير أن رؤساءها وخدمتها كان أكثرهم من النصارى لوقوفهم على فن سلوك البحار فلهذا كان يستخدمهم المسلمون باجر عالية لجهل الاسلام اذذاك بهذا الفن

ولما ولى عمرو بن العاص مصر ثانية في خلافة معاوية وكان صار للاسلام علم بفن سلوك البحر أذن الخليفة لعموم المسلمين بركوب البحر والغزو فيه ومن هذا تعلم الحكمة التي بني عليها الفاروق منع ركوب البحار أولا ثم إغضاءه عن ركبوه بعد ذلك ثم صدور الاذن العام من معاوية رضى الله عنه بعدها والسبب في ذلك كما قاله ابن خلدون أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافة البحر وركوبه والروم والافرنج لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وانشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم النصارى واختصوا بذلك في ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والاندلس اهـ

و بعد صدور الاذن المذكور اهتم غزاة المسلمين في بناء السفن المناسبة واستأجروا لها العمال من النصارى العارفين باحوال الرياح والبحار وصار المسلمون يغزون البحر ويعترضون سفن الفرنج والروم وغيرها أو يتجرون بها وقد بلغت عدة سفن الاسلام في عهد معاوية رضى الله عنه ١٧٠٠ سفينة ومما ساعده على بنائها غابات جبال لبنان العظيمة ثم ترقت صناعة السفن تدريجيا وتعلم المسلمون فن سلوك البحار جيدا حتى قبضوا على القوة البحرية بجميع جهات البحر المتوسط الابيض كما ستعلمه من تاريخ دولهم

وفي ولاية عقبة بن عامر على مصر خرج باسطول عظيم سنة (٤٧ هـ) وغزا رودس ورجع منها بغنائم وافرة وفي السنة التالية أغزى معاوية الاسطول جزيرة قبرس وفي خلافة عبد الملك بن مروان أرسل الى حسان بن النعمان عامله بافريقية أن يبني دار الصناعة بتونس لعمل السفن والآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد فقام بهذا الامر خير قيام وكانت هذه الدار هي أول دار صناعة عملت في الملة الاسلامية ولفظ ترسانة المتداول الآن على ألسنة الترك والعرب هو تحريف من لفظة دار الصناعة وقد حرف هذا اللفظ أيضا الامم الاوروباوية فهو دخيل في لغتهم وقد صنع بدار الصناعة المذكورة أكثر من ٥٠٠ سفينة تشبه الفرقاطه لكنها أخف منها مؤنة وكان ذلك في امارة زيادة الله بن ابراهيم على تونس سنة (٨٢ هـ)

ولما ولى على تلك الجهات عطاء بن رافع من طرف عبد الملك استصحب ذلك الاسطول وفتح به جزيرة صقلية المسماة سيسيليا وأغزى بهذا الاسطول موسى بن نصير والى افريقية طارق بن زياد الاندلسي فغنم وسبى وفتح أيضا جزيرة سردينيا سنة (٩١ هـ) وفي السنة التالية أقلع طارق بن

زياد باسطول كبير كان هو الامير عليه والقائد لمن به من الجيوش حتى خرج من خليج سبتة الى بحر الظلمات ثم حارب الاسبانيول وانتصر عليهم وفتح بلادهم وهذا الاسطول هو أول اسطول اسلامى خرج من مضيق سبتة الذى دعى فيما بعد مضيق طارق ولا يخفى ان فتح الاندلس البلاد الغنية الواسعة التى اتسع بها شأن الاسلام علما وفروسية وسطوة وكذا غيرها من جزائر البحر لم يكن الا نتيجة الاهتمام بالقوة البحرية وبعدها صار لغزاة المسلمين قوة بحرية جسيمة كانت تخرج فى كل سنة من الثغور المصرية وسواحل افريقية لغزو جزائر البحر وممالك الفرنج فتفتح الفتوحات الجليلة وتعود بالغنائم الوافرة وفى عهد سليمن بن الوليد غزا مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية بجيش كثيف وعمارة عظيمة يزيد عدد سفنها عن ألف وثمانمائة سفينة كان أعظمها يحمل مائة رجل بجهازهم ولولا النيران الاغريقية لافتتحت هذه الاساطيل تلك المدينة

أما قيادة الاساطيل فى المغرب وافريقية فكانت من مراتب الدولة وخططها قال ابن خلدون وهى مرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الاحوال وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب بمقابلة الفرنج الذين اعتنوا فى أمر ركوب البحر والحرب فى الاساطيل وبها أتوا الى بلاد البربر واستولوا عليها ولم يكن العرب يعرفون هذه المهنة الى أن تم سلطانهم واتصلوا بالفرنج فاضطروا الى بناء الاساطيل وأتقنوا صناعتها وكانت أساطيل افريقية والاندلس فى دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى البلاد الواقعة على سواحل البحر الرومى وجزره فى سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى ٢٠٠ مركب أو نحوها وأسطول افريقية كذلك وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفؤها للحط والاقلاع بجاية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة فى سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف وأمر ارسائه فى مرفئه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو ومحتفل أو غرض سلطانى مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وجعلهم فى نظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على البحر المتوسط الابيض فى جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم فكانت لهم المقامات المعلومة فى الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه وبعض ممالك الروم والفرنج

وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية بلاد جنوه فتنقلب بالظفر والغنيمة وكانت الاساطيل الاسلامية فى بحر الروم جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجوز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير (اوروبا) المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم حتى ضعفت شوكة الافرنج جدا وانحازوا باساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه ومازال الحال على ذلك حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد الافرنج أيديهم الى جزائر البحر فملكوها وطرقوا سواحل الشام واستولوا على جميع ثغوره وغلبوا على قابس وسفاقس والمهدية فضعف شأن الاساطيل فى دولة

مصر

مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب مختصة بها

واستمر الجانب الغربي من هذا البحر موفور الاساطيل ثابت القوة وكان قائد الاسطول به لعهد لمتونه بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا

ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلى أصله من جزيرة جربه أسره النصارى وربوه ثم استخلصه صاحب صقلية واستكفاه

ثم مات وولى ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على بنى عبد المؤمن بها وأجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالكرامة وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله فكانت له آثار فى الغزو ومقامات مشكورة مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده من الكثرة والاستجادة مالم تبلغه من قبل

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام باسترجاع ثغور الشام من يد الصليبين وتتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل هنالك كما سبق أوفد على أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب رسوله عبد الكريم ابن منقذ طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل النصارى وبين أمرائهم فى امداد الصليبين بثغور الشام فلم يجيبوه الى طلبه ولم يكن فى الاسلام فى ذلك الوقت قوة بحرية غير قوة الموحدين ثم لما ضعفت دول المغرب واستولت أمم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس والجؤا المسلمين الى سيف البحر وملكوا جزائره الغربية اشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين فى الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر لكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى المعروف من الدراية فيه والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم فى لجته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالاجانب الاقليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه غير أن رتبة قيادة الاساطيل بقيت محفوظة فى الدولة الغربية والرسم فى معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهود لما تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية فيه لعهد القرن الثامن وأوائل التاسع اه بتصرف

أما الملاحة فى الدولة العلية العثمانية فلم يكن لها أثر فى مبدإ قيام الدولة المذكورة لان كل غزواتها تقريبا كانت برية ولما امتدت فتوحاتها الى سواحل بحر مرمره وقصد المرحوم الأمير سليمان باشا ابن السلطان أورخان عبور مضيق الدردنيل لمد فتوحاته فى بر الروملى لم يجد واسطة للعبور الا بعمل بعض صالات أى أرماس وعبر بها الى الضفة الاخرى فى المكان المدعو ايدنجق أو أبيدوس وبعد أن أخضع قسما عظيما من بلاد الروملى عاد ثانيا وأبقى تلك الصالات فى مضيق جنق قلعة وذلك هو ابتداء أمر البحارة فى الدولة العثمانية ولما صممت الدولة على مهاجمة القسطنطينية مدة السلطان مراد رأت ان المهاجمة برا غير كافية بمفردها بل من اللزوم

وجود أساطيل لذلك فأخذ بتشييد السفن ويجعل له أسطولا فى كليبولى ولما عزم فى تلك الاثناء على افتتاح مدينة سلونيك أرسل البنادقة عمارتهم المؤلفة من ٦٠ سفينة لاحراق السفن العثمانية الراسية فى ميناغليبولى المذكورة فلم تتمكن من شئ أصلا ورجعت مقهورة ولما كان السلطان مراد لايهدأ له بال مالم يفتح القسطنطينية جهز عمارة قوية مؤلفة من ٤٠ سفينة لفتحها فلم يتيسر له ذلك وانتشرت سفنه فى سواحل البحر الاسود وخربوها

ولما قبض المرحوم السلطان محمد الفاتح على زمام الدولة رأى من اللزوم فتح القسطنطينية لتستقر الاحوال ويهدأ البلبال فأخذ فى التجهيزات البرية والبحرية وأنشأ أسطولا قويا عديدا وزحف به لحصار القسطنطينية ولما رأى أنه لايمكن الدخول الى ميناء القسطنطينية لوجود سلسلة من الحديد ضخمة معترضة فى مدخل المينا أمر بعد مشاورة قواده بانشاء طريق على الشاطئ رصفوه بالالواح السميكة ودهنوه بالشحم لسهولة الانزلاق وجروا عليه السفن حتى أنزلوها فى مينا القسطنطينية وكان هذا الطريق يبتدئ من ساحل روملى حصار الى ثغر طوله باغچه وفى رواية أخرى أنهم شيدوا سفنا خاصة بالقرب من مينا القسطنطينية ثم أنزلوها بها وكان ذلك بمعرفة أحد قواد الجنود المدعو بالطه أوغلى سليمان بك فكان هو أول ربان للاساطيل العثمانية ولازالت المينا المشهورة الكائنة فوق المكان المدعو روملى حصار تسمى باسمه للآن وبعد فتح القسطنطينية اهتمت الدولة العثمانية بانشاء دار الصناعة وبناء الكثير من السفن حتى إنه فى مدة قليلة أمكنها أن تهدد جمهورية البنادقة صاحبة الشهرة العظيمة والنفوذ العام فى الوقت المذكور

وقد تمكن السلطان المشار اليه بهذه القوة البحرية من فتح كثير من المدن والقلاع وتقدمت البحرية العثمانية وصارت مهيبة وظهر بينها كثير من مهرة الربابين منهم كمال ريس الذى أثبت لياقته ومهارته فى نظر العموم بما ناله من الفخر

وفى عصر السلطان بايزيد الثانى سنة (٨٩٢ هـ) تسلط الاسبانيول على بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وصاروا يضايقون ويهددون مملكة غرناطة فبعث أحد ملوكها من بنى الاحمر اليه كتابا يطلب المساعدة لانقاذهم من يد الاعداء فأرسلت الدولة كمال ريس المذكور بأسطول مؤلف من عدة سفائن لامدادهم الا انه تصادف فى تلك الاثناء حصول محاربات بحرية فى جهات الارناؤد وسواحل مورة فاهتمت الدولة بها وأعرضت عن مساعدة الاندلس لما ذكر وفى ذلك الوقت شرعت الدولة فى بناء سفن كبيرة كثيرة وروى كاتب چلبى عن بعض مؤرخى اللاتين أن أحد ملوك أوروبا المدعو الفونس أنشأ سفينة عظيمة محمولها ٤٠٠ طونيلاطه ثم أنشأ سفينتين أخرتين وقال انه لم توجد لغاية ذلك العصر سفن بهذا القدر ولكنه لم يمكنه استعمالها لانها تلاطمت فى الميناء عند انزالها فتكسرت وفى تلك الاثناء أيضا أخذت البنادقة فى أنشاء سفن جسيمة وكان السلطان محمد الفاتح أنشأ أيضا سفينة عظيمة محمولها ٣٠٠٠ طونيلاته الا أنها غرقت فى المينا بعد انزالها

وكانت أنواع السفن الحربية المستعملة فى ذلك العصر لدى الدولة العثمانية كثيرة أشهرها الفرقاطه والماعونة والغراب (القدرغه) والشانية وغيرها وكانت تتحرك بالمجاذيف والشراعات معا وكان الرجال الذين يناطون بتحريك المقاذيف من أسراء الحرب عادة تقيد أرجلهم بسلاسل من حديد أثناء العمل خوفا من فرارهم وقت القتال ويسمون (فورسه) وفى بعض الاوقات كان

يجعل نصفهم من الاتراك والنصف الآخر من أسراء الحرب وكان بعض هذه السفن يتركب من طبقة أو طبقتين أو ثلاث

ولما عزم المرحوم السلطان بايزيد الثانى على فتح سواحل موره أنشأ عدة سفائن جسيمة منها سفينتان طول كل واحدة منهما سبعون ذراعا وعرضها ثلاثون ذراعا وسلحهما بالمدافع العظيمة وجعل فى كل منهما ألفى مقاتل ونصب على احداهما كمال ريس الشهير المذكور وعلى الاخرى براق ريس وجمع نحو ٣٠٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة ولما تم ترتيبها وتنظيمها وتسليحها أرسلها على ثغر اينه بختى (ليبانت) ولما وصلت هذه الاساطيل الى جزيرة براق تلاقت بأساطيل الاعداء ولما انتشب القتال بين الفريقين أظهر الاتراك جسارة غريبة ومهارة عجيبة ودمروا من سفن الاعداء عدة بالمدافع ونيران النفط والزيت ثم تكاثرت سفن الاعداء على السفينة التى بها براق ريس وفصلتها عن باقى السفن العثمانية وأحرقتها بنيرانها فمات هو ومعه خمسمائة نفس من عساكر الاسلام اما باقى المحاربين الذين ألقوا بأنفسهم الى البحر فخلصتهم زوارق السفن العثمانية وأسر العثمانيون غليون البنادقة الذى حضر لمساعدة أهل ليبانته وسميت الجزيرة القريبة من تلك المعركة بجزيرة براق نسبة الى القائد المذكور وبعد ذلك قوى أمر العمارة العثمانية حتى انه فى المحاربات البحرية التى أعقبت هذه قهرت الاساطيل العثمانية أساطيل البنادقة وافتتحت مدن اينه بختى ومتون وكرون وغيرها

وبعد أن ارتقت بحرية الدولة العثمانية وتغلبت على عمارة البنادقة كما قلنا أصابها الفتور والضعف لترك الوزراء الاهتمام بها وذلك مدة هرم السلطان بايزيد وتقدمه فى السن ثم تركت المحاربات البحرية زمنا

ولما جلس السلطان سليم على تخت الملك واشتغل بالمحاربات ببلاد ايران والعرب لم يلتفت الى أمر العمارة العثمانية لانه قدم الاهم على المهم ومنع كذلك قرصان المسلمين من المحاربات البحرية لكى لا يوجد له فى البحر الابيض المتوسط ما يشغله عن مشروعاته فلهذا هاجر كثير من قواد الاساطيل الى سواحل بلاد الغرب وأنشأوا بها بعض السفن وأخذوا يحاربون أساطيل الفرنج مظهرين بذلك سطوة العثمانيين الذين كانت دولتهم فى ذلك الوقت فى عنفوان شبابها وكان أشهر هؤلاء الرؤساء خير الدين باشا الملقب لدى الفرنج بارباروس وفى تلك الاثناء لما جلس السلطان سليمان القانونى اهتم بأمر العمارة العثمانية اهتماما زائدا وأكسب قوتها البحرية حياة جديدة لان السلطان سليم كان شرع فى اصلاح دار الصناعة وانشاء ما يلزمها من المبانى فبنى مخازن أكثر من الموجود منها فى زمن الفاتح وحفر كثيرا من العيون بجهات آينه لى قواق وكان فى نيته تشييد عمارة عظيمة ليستولى على الممالك الكائنة بسواحل البحر الابيض المتوسط وعلى جزره وضمها الى مملكته حتى انه لذلك سأل بعض خواصه بينما كانوا فى حضرته يوما عما يجب عمله لجمع الملل الموجودة على ساحل البحر الابيض المتوسط تحت لواء الدولة العثمانية وجعل هذا البحر خليجا تابعا للدولة وقال لهم بصورة سرية انه سيبذل غاية وسعه لنوال هذا المتمنى وأقسم أنه اذا مد الله فى أجله يشيد عمارة كافية لبلوغ هذا القصد وتسخير جميع الممالك المذكورة وقال انه اذا لم يستول عليها تكون الراحة محرمة على نفسه ولهذا جد فى اكمال الاعمال اللازمة لدار الصناعة وتوفير المهمات ليشرع فيما عزم عليه بكل همة وشهامة

ولما اضطربت الاحوال لفتح بلاد مصر ونزعها من يد دولة الشراكسة كما سنذكره مفصلا وعاد الى عاصمته اهتم اهتماما زائدا فى تشييد الاساطيل الآتى المنية عاجلته فى السنة الثانية من قدومه

ولما جلس ولده السلطان سليمان أظهر مزيد العناية فى بناء الاساطيل واتمام دار الصناعة كما تقدم وذلك لان فرسان مارى يوحنا المتسلطين على جزيرة رودس كانوا لا ينفكون عن التلصص البحرى حتى قطعوا طريق البحر المتوسط على السفن العثمانية وصاروا يأخذون كل سفينة تجارية فلهذا صمم السلطان على فتح تلك الجزيرة لتأمين طريق مصر فجهز اسطولا عظيما وفتح تلك الجزيرة سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢١ م) وفى سنة (٩٣٢ هـ) نصب المدعو سليمان ريس سردارا وقبودانا البحر السويس وجهزه باسطول مركب من ٢٠ غرابا الى ديار اليمن فاستولى عليها وعلى عدن ثم لما حضر خير الدين باشا الى الاستانة وصلت قوة الدولة البحرية فى زمنه الى درجة الكمال

ولما تعين خير الدين باشا قبودانا أولا للعمارة العثمانية فى أواسط سنة (٩٤٠ هـ) أمر بانشاء ستين سفينة وغرابا وعززها بكثير من السفن الاخرى ثم خرج بعمارة مركبة من ٨٤ سفينة مختلفة القدر والنوع الى البحر الابيض المتوسط فهاجم كثيرا من جزائره وسواحله وخرب عددا عظيما من بقاعه وقلاعه وأحرق عدة سفن للاعداء ثم عاد ظافرا الى الاستانة وشرع فى تقوية العمارة العثمانية فأمر بانشاء مائتى سفينة أخرى ثم ظهر بعد ذلك بالبحر المتوسط الابيض يقود اسطولا مؤلفا من ٢٨٠ سفينة مختلفة النوع وافتتح بها جملة جهات وأغار على جزيرة كورفو ونهب غالب قراها واستولى على عدة جزائر واغتنم أموالا وافرة حتى قدر خمس تلك الغنائم الذى أخذته الحكومة بألفى وخمسمائة أسير وأربعمائة ألف قطعة من الذهب خلاف الأقمشة وغيرها وبذلك نال رضا السلطان عنه فغمره بالاحسانات الوافرة ثم سافر بعد ذلك بعمارة عظيمة واستولى على عدة قلاع وافتتح بجزيرة كريد عدة أماكن وضرب على جميعها الجزية ولما بلغه تجمع أساطيل اسبانيا والبابا والبرتغال والبنادقة عند جزيرة كورفو لان خير الدين باشا المشار اليه كان سلب راحة دول أوروبا التى رأت أن دار الصناعة بالاستانة صارت تحت أوامره وصار فى امكانه تدارك السفن اللازمة منها فعلموا انه بذلك يمكنه الاستيلاء على جميع جهات البحر المتوسط الابيض فلهذا اتفقوا جميعا وأقروا على مهاجمة العمارة العثمانية عند سنوح الفرصة وفى سنة (٩٤٥ هـ) تقابلت العمارة المتحدة مع عمارة العثمانيين وكان عدد عمارة الدول يزيد عن ٣٠٠ سفينة أما الاساطيل التى كانت تحت يد خير الدين باشا فكان لا يتجاوز عددها ١٢٠ سفينة وبعد وقائع طال أمرها انتصر خير الدين باشا انتصارا باهرا وشتت شمل العمارة المتحدة التى كانت تحت قيادة اندريا دوريا أشهر أمراء البحر فى ذلك الوقت وهذه الواقعة من أعظم وأشهر الوقائع البحرية العثمانية

ولما استولى البرتغاليون على بعض سواحل الهند وضايقوا سكانها الذين عجزوا عن مقاومتهم طلب بعض ملوكهم من المسلمين مساعدة السلطان سليمان الذى أرسل لمساعدتهم أمير مصر المدعو سليمان باشا فاقلع هذا من ثغر السويس باسطول عظيم ولما وصل الى تلك الجهات حارب البرتغاليين وانتصر عليهم فى عدة وقائع واستخلص منهم بعض القلاع وسارت سفائنه فى تلك الاطراف حتى وصلت الى بلاد سومطره وبورنيو وغيرهما

ولما أغار الامبراطور شارلكان بعمارة عظيمة وجيش جرار على بلاد الجزائر قاومه حسن بك والى الجزائر مقاومة عنيفة حتى اضطره الى الرجوع وأخذ منه عدة سفائن

ولما طلب فرانسوا الاول ملك فرانسا مساعدة السلطان ضد خصمه شارلكان أرسل له عمارة عظيمة تحت قيادة خير الدين باشا المذكور سنة (٩٥٠ هـ) ولما وصلت تلك العمارة الى مرسيليا قوبلت بغاية الترحاب وساعدت ملك فرانسا على نوال بغيته ولما كان خير الدين باشا باساطيله فى ثغر مرسيليا أخذ يتفرج على سفن الفرنساويين فلم يعجبه نظامها وترتيبها وأظهر ذلك لضباطها ورؤسائها الذين اعترفوا بخطأ ونقص نظاماتهم فى ذلك الوقت وقبلوا منه نصائحه بغاية الخضوع ولا شك ان هذا يدل أحسن دلالة على ما كانت وصلت اليه العمارة العثمانية فى ذلك الوقت من الاتقان والقوة

ولما مات خير الدين باشا نبغ من بعده كثير من أمراء البحر من أشهرهم سنان باشا وطورغود باشا وكان سيفا مسلولا على الاعداء وبهمته فتحت بلاد طرابلس الغرب ودخلت ضمن ممالك الدولة العثمانية سنة (٩٥٨ هـ)

وبعد ذلك ذهبت الاساطيل العثمانية الى جهات اليمن والهند والخليج الفارسى لمنع البرتغاليين من الاغارة على تلك الجهات فنالت الظفر فى بعض الوقائع ومن أشهر أمراء البحر فى ذلك الوقت فى تلك الجهات سيد على القبودان الشهير وكان لا مثيل له فى معارفه بالبحار ولما تعين رئيسا على البحرية المصرية سنة (٩٦٠ هـ) حصل بينه وبين البرتغاليين فى جهات هرمس ومسقاط واقعة بحرية نال فيها انتصارا عظيما حتى تلاشت من تلك الاطراف قوة البرتغاليين وقام مقامها الاساطيل الاسبانيولية التى صارت هى وأساطيل هولاندة صاحبة النفوذ فى ذلك العصر فى بحار الهند وتبعتهما بعد ذلك الاساطيل الانكليزية

وممن خدموا ورقوا شأن البحرية العثمانية بياله باشا الشهير وكان فى زمن السلطان سليم وهو الذى صدر له الامر منه بالذهاب مع الاساطيل العثمانية لمساعدة ملك فرانسا الذى استغاث بالدولة العثمانية لمساعدته على خصمه الامبراطور شارلكان سنة (٩٦٢ هـ) وهو الذى هاجم أيضا بلاد وهران وبنزرت وغيرهما واستخلصهما من الاسبانيول وشتت سفنهم ثم حصلت بينه وبين عمارة الفرنج المجتمعة بجوار جزيرة جربه واقعة عظيمة كان النصر فيها له واستولى على جربه لحسن موقعها وامكان من يستولى عليها مراقبة أحوال الفرنج فى تلك الاطراف ولما عاد الى الاستانة بالغنائم الوافرة والاسرى العديدة أنعم عليه السلطان بجزيل الصلات وزوجه بابنة السلطان سليم وهو الذى استولى على جزيرة ساقز وله شهرة فى محاصرة قبرس

وكان تعين بعده لمسند القبودانية أحد الينكشارية المدعو مؤذن زاده على أغا وفى أوائل حكم السلطان سليم الثانى تقهقرت شهرة العمارة العثمانية لخلوها من مشاهير الرجال ولاتصاف مؤذن زاده المذكور بالكبرياء والتهور وصلابة الرأى والجهل بأحوال البحار كان سببا لفناء العمارة العثمانية وملاشاتها كما سيأتى

وفى هذا العصر افتتح العثمانيون جزيرة قبرس وأرسلوا اليها لذلك عمارة عظيمة مكونة من ٣٦٠ سفينة مختلفة المقادير والانواع وبعد ذلك قصدت العمارة العثمانية أيضا جهات كورفو وغيرها

فافتتحت من البنادقة عدة قلاع ولم يصادفها اسطول من أساطيل الاعداء لوقوع الرعب فى قلوبهم من بأسها ولما قصدت الدونانمة العثمانية مع من بقى فيها من العساكر ميناء اينه بختى (ليبانته) تقابلت بعدها باساطيل الدول الاوروباوية المتحدة وبعد قتال حصل بين العمارتين فى واقعة شهيرة فى التاريخ دارت فيها الدائرة على الاساطيل العثمانية لوقوع الخلاف بين أمرائها خصوصا ما حصل من مؤذن زاده المشهور فى الصلابة والجهل فقتل فى الواقعة ولم ينج من جميع السفائن العثمانية غير نحو ٧٠ سفينة بهمة أولوج على باشا الذى تسمى فيما بعد بقلنج على باشا وصار قبودانا عاما للعمارة العثمانية

ولما ضعف أمر العمارة العثمانية بهذه الصفة اهتم صقوللى محمد باشا الصدر الأعظم غاية الاهتمام وأظهر من الغيرة ما حير الافهام حيث بذل ما فى وسعه لانشاء السفن وتسليحها حتى تمكن بعد قليل من تشييد عمارة عظيمة وأمكن لقلنج على باشا ان يخرج بعد ذلك بسنة لعرض البحار يقود أسطولا عظيما بخلاف ما كانت تعتقده دول أوروبا ولما كان معظم الرجال المعول عليهم فى البحر فقدوا فى واقعة ليبانته المتقدمة الذكر اكتفى المذكور بالمحافظة على الشواطئ العثمانية ثم فى سنة (٩٨١ هـ) لما تعين بياله باشا سردارا للعمارة العثمانية خرج باسطول عظيم مع قلنج على باشا وخرب كثيرا من سواحل ايتاليا ثم سارت بعد ذلك الاساطيل العثمانية سنة (٩٨٢ هـ) وهاجمت مسينا وتونس وافتتحت قلعة حلق الوادى من يد الاسبانيول وألحقت تونس بالولايات العثمانية

وبعد هذا أصيبت العمارة العثمانية بالضعف وأهمل أمرها ولم تأت من الاعمال المهمة شيأ حتى فتح جزيرة كريد بل كانت غايتها فى تلك المدة المحافظة على الشواطئ فقط

وكان استعمال السفينة المسماة بالقليون عند الدولة العثمانية فى سنة (١٠٥٤ هـ) وبعد ذلك أخذت القلايين يزداد عددها فى عمارتها ومع هذا فكان الضعف لا يزال مستوليا على العمارة العثمانية حتى ان عمارة البنادقة ضايقتها كثيرا وأغرقت بعض سفنها فى مياه جزيرة كريد عند الاشتغال بفتحها وكان هذا هو السبب فى امتداد فتح كريد زمنا طويلا ولان عمارة البنادقة كان معظمها يتألف من نوع القليون الذى لا يمكن للغراب المؤلف منه أغلب عمارة الدولة العثمانية التغلب عليه فكان يجب على العثمانيين الاكثار من هذا النوع فى أساطيلهم ثم ترقت العمارة البحرية بعد ذلك فى عهد السلطان محمد الرابع لما أوجدوه فيها من القلايين الكثيرة وأمكنها مقاومة عمارة البنادقة فى كثير من الوقائع وان كان البنادقة يفوقون العثمانيين كثيرا فى علم البحر فى ذلك الوقت وتمكنوا من قهر أساطيلهم عدة مرات بجوار بوغاز الدردنيل الا أنه بالهمة التى بذلها كوبرلى محمد باشا الصدر بما شيده من القلاع أمكن طرد البنادقة عن محاصرة تلك الاطراف غير أنه فى أثناء ضعف العمارة العثمانية بهذه الصفة كانت قلايين مصر وتونس والجزائر صاحبة نفوذ فى البحر الابيض المتوسط وكان بها كثير ممن لهم معرفة عظيمة باحوال البحر وبذلك تمكنت تلك القلايين سنة (١٠٧٩ هـ) من قهر أسطول البنادقة بمياه كريد وأخذوا منه قليونين عظيمين ثم أخذت بعد ذلك العمارة العثمانية البحرية تقوم من كبوتها شيأ فشيأ بما بذله بعض الرجال الغيورين من الهمة وكثر فيها نوع القليون الشهير بجودته فى هذا الوقت وتقدمت كثيرا حالة القليونجية فى

دار الصناعة العثمانية حتى أمكنها استرداد جزيرة ساقز من البنادقة الذين كانوا استولوا عليها بعد أن هزمتهم فى واقعة بحرية ورفرف طائر النصر على الاساطيل العثمانية فقهرت أساطيل البنادقة فى عدة وقائع متوالية وتقدمت بذلك قوة بحرية الدولة ثانية حتى أخرجت الى البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود كثيرا من السفن المختلفة الانواع وأوجدت لها أيضا دونانمة خفيفة يزيد عددها عن مائتى سفينة بنهر الطونه

وفى أوائل حكم السلطان أحمد الثالث ترقت العمارة العثمانية وهددت سواحل اسبانيا ومالطه وغيرهما وصارت مؤلفة من نوع القليون فقط أما الشوانى وباقى السفن فصارت مستعملة لخدمة العمارة وكان قبودان باشا العمارة يركب دائما سفينة خصوصية ووظيفته كوظيفة سردار على الدونانمة الهمايونية أما القائد الحقيقى للدونانمة فهو قبودان القلايين وكان الذى يركب القليون الاول يطلق عليه اسم قپودانه والذى بعده يطلق عليه اسم بطرونه وعلى الثالث رياله كما يقال الآن لرئيس الدونانمة العمومى أميرال ولمن بعده فى الدرجة فيس أميرال ولمن بعده كونتر أميرال

وقد كانت المخاطيف الحديدية اللازمة للقلايين تجلب فى أول الامر من بلاد الانكليز الا انه فى سنة (١١٢٠ هـ) ظهر أحد الصناع المدعو على بعمل القنابل وشيد معملا مخصوصا فى دار الصناعة لعمل المخاطيف اللازمة وبذلك استغنت الدولة عن جلبها من الخارج

ثم انه فى عصر السلطان أحمد خان صنع العثمانيون سفينة عظيمة ذات ثلاث طبقات طولها ٦١ ذراعا ونصف ذراع وقليونين عظيمين آخرين وشيد السلطان محمود الاول عدة قلايين منها تحفة الملوك ومراديه وفاتح بحرى وبر بحرى وناصر بحرى وبريد الظفر وغيرها

ومن هذا الوقت تقريبا وضع لكل سفينة اسم خاص بها لتميزها عن غيرها وبما ذكر تجددت القوة البحرية عند الدولة العلية واتسع نطاقها بعد ان أهملت زمنا طويلا وصارت العمارة البحرية تخرج فى أوقاتها كالمعتاد الى البحر الابيض المتوسط للمحافظة ثم تعود فى فصل الشتاء الى دار الصناعة ونبغ أيضا كثير بين أمراء البحر وصارت لهم معرفة ومعلومات وافرة ومهارة عظيمة فى صناعة السفن واستعمالها وبعد أن كانت العساكر البحرية ورؤساؤها لا يعرفون شيأ سوى ملاحظة أمور الجزائر عند خروجهم الى البحر ترقت أحوالهم ومعارفهم وصنائعهم وفنونهم البحرية كما كان الامر على ذلك فى أوروبا وانتظم القبودان باشا بين أركان الدولة وكان هذا المنصب قبل ذلك يعطى لكثير ممن ليس لهم دراية بامور البحرية فكيف كان يمكنهم اذ ذاك ان يقابلوا أساطيل أوروبا التى كانت آخذة فى الارتقاء والتقدم وكانت أمور دار الصناعة قبل ذلك مختلة ومصاريفها غير منتظمة حتى صارت الدولة فى احتياج الى سفن تساعدها على حماية الحجاج الذاهبين والقادمين من الحجاز عن طريق مصر وكان كل قليون يكلف الترسانة فى انشائه عشرة أمثال ما يساويه لحصول الاهمال فى بنائه كما فصل ذلك المرحوم عبد الله منلا أفندى فى لائحته عن البحرية العثمانية فى ذلك الوقت وكان خدمة دار الصناعة يتصرفون فى الغابات لقطع الاخشاب منها حتى خربوها وملئت السفن بكثير من الشبان الذين لا معرفة لهم فى فن الحرب ولما كانت السفن تصنع من أخشاب غير تامة الجفاف كانت تتلف من تلقاء نفسها بعد مضى قليل من السنوات

وكانت حاصلات الترسانة ينهبها الموظفون والقليونجيـة وكانت حالة العساكر مختلة حتى كانوا يشتغلون بالتجارة والتلصص البحرى و يتعرضون للوقيعة بالغير وامتدت الرشوة بين الرؤساء الذين أخذوا يتقاسمون علوفات الجنود بينهم ولهذا قهرت العمارة العثمانية تماما وغرق غالب سفنها فى الواقعة الشهيرة المسماة بواقعة چشمه سنة (١١٨٤ ﻫ) مع ان الاساطيل العثمانيـة كانت أكثر عـددا وأقوى عددا من الاساطيل الروسية وماذلك الا لجهل رؤساء الاساطيل العثمانيـة اذ ذاك بفن حرب البحر ولأن أغلب عساكرها كانوا من المتشردين المجتمعين من جهات مختلفـة وقد أظهر فى هذه الواقعة حسن بيك الجزائرى الذى صار قبودان باشا فيما بعد من الشجاعة والمهارة مايستحق عليـه جزيل المدح والثناء وكانت العمارة العثمانيـة تحت قيادة القبودان حسام الدين باشا والعمارة الروسـية تحت قيادة الاميرال اليكس أورلوف وقد كانت هـذه الواقعة المشؤمة درسا مفيدا للعثمانيين حيث أخذوا بعـد ذلك فى تدارك السـفن والاكثار من نوعها وتسليحها بما يليق من الاسلحة وتعليم أمرائها وجنودها فن البحر ففتحوا فى زمن صـدارة خليـل حميد باشا مدرسـة للبحرية الا انه قبل أن يتخرج من تلك المدرسة أحـد اضطرت الدولة لمحاربة الروسية فى البحر الاسود فتغلبت عليها الكثرة عدد سفن الدولة العلية فى البحر الاسود عن السفن الروسية

ولما أتت الدونانمة الروسية سنة (١٢٠٥ ﻫ) الى رأس أمينه وشرعت فى مضايقـة الاستانة ظهرت الحرب بين الروسـية ودولة السويد فلذلك انسحبت الاساطيل الروسية ولو كانت الروسية فى ذلك الوقت نقلت أساطيلها من بحر بلطيق الى البحر المتوسط الابيض لامكنها تهديد اغلب سواحـل وجزر الدولة العلية وكان أصابها من الخسائر مثـل أو أكثر مما أصابها منها فى واقعة چشمه المذكورة لهـذا كان موقع الدولة العليـة العثمـانيـة وكثرة سواحلها يلزمانها بأن يكون لها قوة بحرية عظيمـة معادلة لقوتها البرية حتى تأمن غوائل الايام

ولما أدرك رجال الدولة العلية ذلك أخذوا فى سن اللوائح فى هذا الباب وتقديمها لاصحاب الامر واظهار الاهـمية الزائدة لتنظيم و إعداد قوة بحرية تليق بمقامها ومما ورد فى هذا الخصوص اللائحة التى قدمها تاتارجق عبدالله باشا أحد الصدور العظام فانه بعـد أن أظهر أن اكمال القوة البحرية لدى الدولة العلية فرض عين عليها أشار بتخفيض المصروفات والاسرافات الحاصلة فى دار الصـناعة بلا فائدة والغاء المخصصات المجعولة لرؤساء القـذافين واضافتها للمصاريف دار الصـناعة وكذا الغاء المخصصات المقطوعة للزعمـاء التابعـين لقلم البحر بالترسانة وغـير ذلك من المصروفات التى تصرف بلا فائدة وضمها جميعا الى قلم انشاء السفائن و إكثار واردات دار الصناعة وترتيبها وتنظيمها و إحضار الكثير من مهرة الصـناع من الانكليز والفرنسيس وغيرهـم لانشاء السـفن على الهيئة التى عليها سـفن أوروبا فى ذلك الوقت وتخصيص المرتبات الوافرة لهم ليصدقوا فى عملهـم واستحضار مؤلفات فن الحروب البرية والبحرية الجـديدة وترجمتها على وجـه السرعـة والآلات الهندسية لتعليم ضـباط البحرية وعساكرهـا فنون البحر والملاحة والطوبجيـة والاهتمام بتعليم فن الخريطة واستخدام الكثير من المشهورين فى فن الملاحة من سكان الجزر التابعة للدولة وغـير ذلك مما يعود على البحرية العثمانية بالتقدم والارتقاء

وقال أيضا الدفتردار شريف أفندى فى لائحته بهـذا الخصوص انه لما كانت بلاد القريم فى يد

الاعداء

الاعداء وجب علينا أول كل شئ الاعتناء الزائد بعمارتنا فلذلك يلزم قطع الاخشاب فى إبانها ثم جمع وترتيب أجزائها وإنشاء مخازن جديدة تجمع فيها المواد اللازمة كالاخشاب والحديد وماماثل ذلك من الضروريات اللازمة للعمل بحيث تكون لوازم القليون فى المخزن حاضرة ومتى اريد بناء غليون امكن عمله فى شهر واحد وعلى ذلك يلزم أن تكون الاخشاب والادوات اللازمة لبناء مائة غليون مرة واحدة موجودة على الدوام فكلما صنع غليون أو أكثر قطعت الاخشاب وحضرت الادوات لانشاء غيره ولما كان هذا العمل لايتم الابعد مضى نحو العشرين سنة تقريبا ومن الممكن ظهور الحرب بعد ست سنوات أى قبل أن نحصل على هذا الترتيب فيلزم الانتباه من الآن بمشترى عدة غلايين من انكلترة وغيرها من الدول الاروباوية ويرتب لها فيما بعد طوائف مميزة من القليونجية والمقاتلين بشرط أن القليونجية لايكلفون بعمل المقاتلة ولا المقاتلة بعمل القليونجية ليلتفت كل واحد لعمله ويتدرب عليه ويزاد فى علوفاتهم حتى يرغب الناس الانخراط فى سلك هذه الطائفة ويقدمون عليها بمحض إرادتهم ويجب أيضا ان يكون العدد اللازم من الانفار لكل غليون تاما بحيث اذا انقص منه أحد عوقب قبودانه على ذلك ولما كانت مسئلة العمارة من أعظم وألزم المسائل الاخرى كان الواجب على الدولة أن تشاور وتذاكر أرباب الدراية فى هذا الباب المرة بعد الاخرى وتهتم بنظاماتها الكلية والجزئية وتجعل لها قوانين جديدة مفيدة لتكون دستور العمل فيما بعد ويجب على الدولة ان تشترى مايلزم لذلك من الادوات والاخشاب والذخائر والمهمات من الاهالى لترويج حالهم وتصرف لمن تستخدمه من العمال أجرته كالعادة المتبعة ويجب على الدولة أن تشترى من الاهالى مايلزمها من الادوات بنفس القيمة التى يبيعون بها تلك الاشياء للغير وتعطى لمن يخدمونها منهم عين الاجرة التى يأخذونها من الغير عند خدمتهم لهم ويتبع ذلك فى الاستانة وفى غيرها من البلدان التابعة للدولة حتى لايكون الاخذ والاعطاء ثقيلا عليهم ويجب على الدولة أيضا ان توزع تكاليفها على جميع ممالكها على السواء ويجب على الباشاوات اتباع هذه الطريقة فى السفر والاقامة معا لتعود منفعتها على الدولة العلية ورعاياها وتكون موجبة لخيرهم وتحصل الدولة على رضا العموم اهـ بتصرف ومن تأمل فى لائحة شريف أفندى هذه رأى أنه قصد بها رحمه الله تقوية العمارة العثمانية وتنظيم حالتها وادخالها ضمن عمارات الدول الاوروباوية العظيمة والغاء السخرة التى كانت جارية اذ ذاك فى دار صناعة الدولة وفى مصالحها الاخرى بحيث كانت سببا لاقلاق راحة الاهالى وتخريب أملاكهم وكراهتهم لوطنهم وسلب الامنية من بينهم وتعريض مملكتهم للدمار هذا وان هذه الشروط وان كان يصعب تنفيذها فى وقت واحد لكنه مع امتداد الزمن يعود منها الخير الجزيل والمنفعة العظمى وفى الواقع قد كانت هذه الارشادات ركنا مهما للتنظيمات الحربية التى وضعت منذ عهد قريب وكان مدارها التأمين على النفس والعرض والمال وهى كما لايخفى أهم شئ وأنفعه لدى الدولة العثمانية

ولما ارتقى السلطان سليم الثالث على تخت السلطنة اهتم بالعمارة العثمانية اهتماما زائدا عظيما بعد عقد الصلح مع الروسية سنة (١٢٠٦ هـ) و(١٧٩١ م) والتفت الى أمور دار الصناعة فنظمها ورتبها ورتب أيضا السفائن الحربية بحسب كبرها وصغرها وانتخب لها ربابين ورؤساء بحسب ماظهر له فيهم من الاستحقاق والاهلية ورقى بعضهم الى الدرجات الرفيعة ورتب لهم

ما يكفيهم من المرتبات وقيد من لم يوظف منهم تحت الطلب وسن قانونا للعزل والتنصيب والجزاآت ومشترى المهمات وغير ذلك

وجعل مسئلة الجنح والعزل والتنصيب من خصائص القبودان باشا الذى يقدم عنها تقاريره للباب العالى واشترط ترقية الضباط بحسب مهارتهم فى الفنون وشجاعتهم وصداقتهم وأهليتهم وغير ذلك من الاصول التى بتطبيقها ترقى حالة العمارة العثمانية

وقد أخذت هذه التنظيمات ترقى وتحسن شيأ فشيأ حتى واقعة استقلال اليونان واتحاد أساطيل الروسية وانكلترة وفرانسا واحراقهم للعمارة العثمانية فى ثغر نافارين سنة (١٢٤٣ هـ) وبذلك انحط شأن العمارة العثمانية ومع ذلك فقد اهتم السلطان محمود خان العدلى فى تعويض مافقدته العمارة العثمانية من السفائن وتمكن من اخراج عمارة بحرية مناسبة فى قليل من الزمن أيام حرب الشام سنة (١٢٤٧ هـ) و (١٨٣١ م) بلغ عدد سفنها ٣٧ سفينة جسيمة

ولما ظهر استعمال البخار زمن المرحوم السلطان عبد المجيد خان اهتم باستعماله فى سفنه وأدخل لذلك اصلاحات جة فى دار الصناعة وشيد الكثير من البواخر الحربية وجلب لها العدد والآلات من بلاد الانكليز وغيرها حتى انه فى واقعة سينوب المشؤمة سنة (١٢٧٠ هـ) وفى حرب سيواستابول كانت أغلب سفن الدولة العثمانية تتحرك بالبخار

وفى زمنه تقدمت المعارف البحرية ونبغ جملة مشاهير فى فن الملاحة البحرية واتسعت الاعمال بدار الصناعة التى أخذت تنشئ السفائن الحربية كالموجود منها لدى أهل أوروبا

وفى عهد المرحوم السلطان عبد العزيز خان اهتم باصلاح دار الصناعة أيضا وشيد المعامل البخارية والاحواض لاصلاح السفن الحربية وغير ذلك بحيث غير حالتها الاولى تماما وصيرها بعد قليل من أعظم دور الصناعات وأحضر لها مهرة المعلمين والصناع من بلاد الانكليز لتدريب شبان العثمانيين على إنشاء السفن والادوات والآلات على النمط المستجد وكان كلما تخرج أحد من العثمانيين ومهر فى فنه كافأه على ذلك بتنصيبه فى وظيفة بدار الصناعة وبذلك أمكنه بعد قليل الاستغناء عن أكثر أولئك المعلمين ووسع نطاق المدارس البحرية وجعل لها نظاما متينا خاصا بها وأحدث عدة معامل مختلفة لعمل الآلات اللازمة للمدرعات العثمانية ولما كان يميل كثيرا لتعزيز شأن العمارة العثمانية تدارك كثيرا من المدرعات من أوروبا حتى انه فى سنة (١٨٧٣ م) كان لدى الدولة ما يزيد عن العشرين مدرعة خلاف ما كان لها من السفن الاخرى التى شيدتها بمعامل الاستانة وأزميد وسينوب وغيرها حتى صارت الدولة فى عهده تعد من الدول البحرية العظيمة وكان معظم رؤساء تلك السفن مارسوا صناعتهم فى بحرية الانكليز وغيرهم من دول أوروبا ومما يؤيد اهتمام السلطان عبد العزيز بالبحرية العثمانية غير ما ذكر الخط الهمايونى الصادر منه بتوجيه نظارة البحرية الى المرحوم خليل باشا فى محرم سنة (١٢٨٢ هـ) وان كانت هذه الاساطيل لم تأت بالفائدة المطلوبة التى كان يجب أن تأتيها أساطيل مثلها فى المحاربة الاخيرة الروسية الا أنها هددت كثيرا من السواحل وأتلفت للروسيين عدة مبانى واستولت على بعض القلاع ولولا انتصارات الروسية البرية لاتت هذه الاساطيل بفوائد عظيمة

وقد سار مولانا السلطان المعظم الغازى عبد الحميد خان أدام الله ملكه وأعلى كلمته على هذه

الخطة واهتم بأمر البحرية العثمانية اهتماما عظيما وان كان أقل من المأمول فى جلالته لاهتمامه آناء الليل وأطراف النهار بالترقيات البرية وتنظيم داخل المملكة وتوسيع نطاق المعارف والصنائع وأحوال الاهالى ومع ذلك فان الاعمال لاتزال على قدم النشاط بدور الصناعة العثمانية

وفى عهده تغير كثير من المدفعيات والبوارج الخشبية الى طرادات من الطرز الحديث وبدل أربع مدرعات عظيمة الى آخر طرز من نوع المدرعات المعبر عنها بالفاتكة (بارباد) كما أنشأ عدة سفن حربية أخرى من أنواع ومقادير مختلفة وغالب هذه السفن وغيرها من السفن الحربية وان كانت كأساطيل احتياطية للعمارة العثمانية ولا تمخر عباب البحر الآن فقد أمكن استعمال الاموال التى كان يجب ان تصرف عليها فى حالة ما اذا كانت مستعدة لابتياع عدد عظيم من سفن التوربيدو وغيرها من المهمات الحربية اللازمة لتقوية العمارة العثمانية عند الحاجة اليها ولا تنكر والحق يقال ماوصلت اليه الآن الترقيات الفنية والعلمية والصناعية فى بحرية الدولة العثمانية الى درجة رفيعة بما أدخل عليها من انشاء عدة فروع للفنون الحربية كفن التربيدو والكهربائية وتأسست عدة مجلات خاصة بفنون الحرب البحرى وعلومه ووزع كثير من ضباط العمارة العثمانية على سفن الدول الاوروباوية وفى وابورات الشركة المخصوصة للتمرين على الاسفار البحرية كما سنفصل ذلك فى تاريخ هذه الدولة ان شاء الله تعالى

(تنبيه) — لما كان مرادنا على الخصوص من وضع هذا التاريخ ذكر ما كانت عليه البحرية والملاحة فى الدول التى حكمت بلاد مصر بين قديمة وحديثة رأينا من المناسب ارجاء الكلام عليها وجعلها فى مقدمة تاريخ مصر فى أول الجزء الثانى من هذا الكتاب

الباب الاول

﴿ الفصل الاول ﴾

تاريخ الانسان من عهد الخليقة الى حادثة الطوفان

قد أجمع المؤرخون عموما من قدماء ومتأخرين أن تاريخ أولية الانسان غير معلوم تماما لبنى نوعه وذلك لانسدال سحب الظلمات على تلك العصور

ومع ما اهتمت به العلماء وسياحو الاوروباويين المتأخرين من البحث والتنقيب فى الكتابات القديمة والتقييدات العتيقة وما وجد فى بعض النواويس والقبور وأطلال المدن والعمارات والقصور ومن خطوط الامم المتقدمة كالقلم المصرى القديم المعروف بالهيروجليف والقلم السريانى والهندى القديم المسمى بالسانسكريت ومن خطوط الصينيين لم يتحصلوا للآن على مايشفى الغليل من أخبار الخليقة قديما

وغاية ما اعتمد عليه العلماء المذكورون فى هذا الصدد هو ماوردت به التوراة ضمن مروياتها وما انتشر من الحكايات الملية المتداولة فى عدة أقطار من الارض متباعدة عن بعضها بعضا وليس بين أهلها صلة أو مخالطة مامنذ آلاف من السنين

ومن المستحيل حتى مع ماوصلت اليه المعارف البشرية فى الاعصر الاخيرة أن يتوجه أمل

أحد من العلماء أن يعين تاريخ الاول نشأة النوع البشرى على وجه بين مقنع لانه لم يرد فى التوراة عدد صحيح من السنين لا فيما يتعلق بالازمان الاولى السابقة على عهد خلق الانسان ولا فى الحقبة الماضية من عهد الخليقة الى عهد الطوفان

وقد قال العالم المدقق أبو الفداء ملك حماه فى مقدمة تاريخه عن عمر الزمان انها مسئلة خلافية لانه لم يحصل فيها للآن الوقوف التام على قول ثابت صحيح ولا رأى واحد رجيح يطمئن العقل اليه ويسكن القلب لديه

ولقد بذل علماء أوروبا و بالاخص منهم المؤرخون غاية ميسورهم فى الابحاث فلم يصلوا الحد يعينون به لعلم التوقيت مبدأ ثابتا يعتمد عليه بل تشعب الخلاف فى مسئلة تحديد زمن خلق الدنيا الى نحو مائتى مذهب ثم استخلصوا أخيرا من مجموع هذه المذاهب قولين شهيرين

(الاول) ان المدة المنقضية بين حادثة الخليقة وولادة عيسى بن مريم عليه السلام هى ٤٠٠٤ سنة شمسية وهذا هو التاريخ الذى قال به المؤرخ أوسريوس [1] الارلاندى فى سنة ١٦٥٠ ميلادية واقتدى برأيه أشهر مؤرخى الفرنسيس كالاسقف بوسويه والمؤرخ رولان ورانو وغيرهم

(الثانى) ان المدة المنقضية بين الحادثتين المذكورتين هى ٤١٣٨ سنة وهذا قول المؤرخ الانكليزى كلانتون [2] فى سنة ١٨٢٩ واعتمده المؤرخ ويكتور دوروى وزير المعارف العمومية بفرانسا وأخذ هذان القولان من التوراة عند ذكر ولادة وموت وحياة وعمر بعض الانبياء عليهم السلام

ولم نر واحدا من القائلين بهذه الاقوال قال بأن المدة المنقضية من ابتداء خلق العالم لغاية ميلاد المسيح عليه السلام تزيد عن ٧٠٠٠ سنة ولا تنقص عن ٣٧٠٠ سنة وهذه الاقوال جميعها واسعة المباحث صعبة الاعتماد لان التوراة متنوعة النسخ كما نبه عليه الملك المؤيد أبو الفداء حيث قال فى مقدمة تاريخه انها ثلاث نسخ وهى التوراة السامرية والتوراة العبرانية والترجمة اليونانية التى نقلها اثنان وسبعون حبرا بالاسكندرية قبل ميلاد المسيح بنحو ٣٠٠ سنة لبطليموس الثانى وهى المعروفة بتوراة السبعين ولها على ماعداها الترجيح عند أربابها

واذا ضربنا صفحا عن المعلومات التاريخية المستنبطة من التوراة نجد أن بعض الامم القديمة ارادت ان تنال قصب السبق فى الاقدمية والهرم فحسبت لنفسها اعمارا بالغت فيها بأشنع المبالغات حيث قالت انه قد مضى على وجودها الآلاف بل الملايين من السنين تفاخرا وتعاظما على من عداها من الامم

ومن هؤلاء الامم من قد جعلت لنفسها قبل ان يحكمها عائلات انسانية عدة دول من الآلهة وانصاف الآلهة مكثوا يحكمونهم حسب زعمهم مدة من الازمنة تبلغ ٦٠٠٠ سنة وقد أوصلها

(١) جاك أوسريوس (Usher) حبر انجليكانى كان معلما لعلم اللاهوت فى أول امره بمدرسة دوبلين وكان يكره الكاثوليك كراهة شديدة وأكثر شهرته فى التاريخ وهو أول من قال انه مضى على الدنيا ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد ولد سنة ١٥٨٠ ومات سنة ١٦٥٦ م

(٢) هنرى كلانتون مؤرخ انجليزى له عدة مؤلفات معتبرة وكان عضوا فى مجلس العموم ولد سنة ١٧٨١ ومات سنة ١٨٣٤ م

بعضهم

بعضهم الى ٢٤٠٠٠ سنة ومن هذا القبيل ما قال به أحد علماء الفرنسيس والبعض الى ٧٢٠٠٠ سنة والبعض الى ٤٣٢٠٠٠ سنة

ومن هذا القبيل ما قال به أحد علماء الفرنسيس المتأخرين وألف فيه رسالة مخصوصة بقبول ماذكره القسيس المصرى مانيتون (١) الذى ألف جداول ملوك الفراعنة السالفين باسم أحد ملوك البطالسة وهو ان ديار مصر فى سالف الدهر قبل ان يليها ملوك من البشر كانت محكومة بدول عديدة من الآلهة وأرواح أناس من الاموات مدة من الزمن تبلغ ٥٧٣٠ سنة قبل الملك مينس أومنا أو مصرايم أول من ولى مصر من البشر فى سنة ٥٧٧٣ قبل الميلاد المسيحى فاعتمد المذكور هذه الاقوال وعارضه آخرون من العلماء

أما ما يقتضيه العقل ويسلمه الادراك فهو عدم تكاف القول بكذب الاحقاب التى قالت بها الهنود فى تواريخهم ولا فى الدول الالهية التى يزعمها أهل الصين وأهل يابونيا وقدماء المصريين وما نسبه لانفسهم قدماء الكلدانيين أى العراقيين لخروج أقوالهم عن حد المعقول

ومن هذا القبيل ما رواه قدماء الفرس عن مدتهم وان كان أخف وطأة من الاقوال السالفة وانما الذى يمكن الاخذ به فى تحقيق هذا المقام ما نتج عن دقة النظر فى أحوال الكرة الارضية وكيفية تكونها وما اعتراها من التغييرات والاحوال الى ان صارت الى ما هى عليه الآن آهلة عامرة وهو البحث الجيولوجى أى علم طبقات الارض وذلك لان علماء الجيولوجية وفى مقدمتهم العالم الشهير كوفييه (٢) بعد ما دققوا النظر فى هذا الامر قالوا بان الكرة الارضية مع الحالة التى هى عليها الآن لا ينبغى ان تكون أولية خلقتها مؤرخة من مدة زمنية أكثر من ٦٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة شمسية

وقد أثبت المعلم كارلوس دريس فى كتاب الكرنولوجيه الذى ألفه من أقوال المؤرخ الانكليزى كلانتون أن حادثة خلق الدنيا كانت قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو ٤١٣٨ سنة وهو الذى اتخذه أكثر المؤرخين مبدأ تاريخيا لسائر الحوادث القديمة

قال مؤرخو أوروبا وفى مقدمتهم فرنسيس لونورمان انه ذكر فى أول سفر الخليقة وهو أول سفر فى التوراة أن الله سبحانه وتعالى خلق العالم على هذا الترتيب النور فالفلك فالارض فالكواكب السيارة فالشمس فالاسماك فالطيور وسائر أنواع الحيوانات ثم ختم صنعه بخلق الانسان وكان قد خلق ادم أولا فى حالة براءة مطلقة من الذنوب ونزاهة محققة من العيوب وسعادة تامة حتى عصى ربه وهو فى الجنة التى أسكنه فيها أولا ثم أخرجه منها الى الدنيا بعد عصيانه هو وزوجته وحكم عليه هو وذريته بالكد والالم والموت وكان انزالهما فى القسم الغربى من آسيا بالقرب من نهر الفرات وهو موقع جنة عدن الارضية حسب نص الاصحاح الاول من سفر التكوين فكانا الشخصين

(١) هو كاهن مصرى ولد بمدينة سبنيت وكان معاصرا للملك بطليموس فيلادلف فى نحو سنة ٢٦٣ ق م وكانت وظيفته حافظ الكتبة المقدسة بهيكل هيليو بوليس وله تاريخ لمصر فقدته الايام لسوء الحظ أما التاريخ المنسوب اليه فليس له فى الحقيقة وقد جمع بعضهم العبارات التى نقلها يوسف اليهودى واوزيب وجورج سينسيل وغيرهم عن المؤرخ المذكور وطبعت على حدتها

(٢) جورج كوفييه طبيعى شهير فرنسوى له أقوال معتبرة فى العلوم الطبيعية وآراء صائبة اتبعها العلماء من بعده ولد سنة ١٧٧٣ ومات سنة ١٨٣٨ م

الوحيدين في هذا العالم ثم ولد لهما ولدان قابين أي قابيل وهابيل الذي اتخذ الفلاحة حرفة له كما اتخذ الاول رعاية المواشي حرفته ثم قتل قابيل أخاه هابيل حسدا منه وبغضا له ثم هاجر آسفا على ما صدر منه من قتل أخيه واستوطن مع بنيه وعائلته وذويه جهة شرقي موطنهم الاصلي وانشأ بها أول مدينة سماها آنوشيه باسم ولده البكرى المدعو آنوش وكانت الهيئة الالهية العقلية والبدنية التي وضعها الخالق في الانسان صيرته قادرا على أداء كل غرض ومقصود من لوازم الدنيا

وينسب لعائلة قابيل هذه أولية اختراع الفنون والصنائع وقد ولد لآنوش بن قابيل لامك أولامخ وولد للامخ عدة أولاد منهم جابيل وهو أبو الرعاة وجوبال مخترع الموسيقى وطوبال قابين وهو مبتدع فن سبك المعادن وصناعتها وابنته المسماة نعيمه هي المخترعة لصناعة غزل صوف الماشية ونسج الاقمشة منها

ثم ولد لآدم ولد ثالث ودعي باسم شيث وقد عمر ٩١٢ سنة ومنه خلق كثير منهم اينوش وقاينان ومهلائيل ويرداويزد وأخنوخ وهو ادريس كما في تاريخ أبي الفداء ثم رفع الى السماء ومن ولد اخنوخ أيضا ماتوزاليم أو متوشلخ ولامك أولامخ ثم نوح عليه السلام وهو أبو سام وحام ويافث

﴿ الفصل الثاني ﴾

قصة الطوفان

ولما انتشر بنوا آدم وتوطنوا فيما اختاروه من الارض وحصلوا على حضارة موافقة وسالمهم الدهر وصفت لهم الايام وأخذت أخلاقهم تفسد وطباعهم تقسو حتى وصلت لدرجة عظيمة من البغي وبلغ بغيهم وطغيانهم حالة لا ترضى الله سبحانه وتعالى فغضب عليهم جل وعلا وأراد أهلاكهم بغرق عمومي وهو الطوفان

وكان نوح عليه السلام وهو من نسل شيث قد بقي وحده بحال الاستقامة والصلاح فلذلك رضي عنه وأمره ببناء سفينة لينجو بها هو وبنوه ويحمل فيها من الحيوانات من كل زوجين اثنين كما ورد في القرآن الشريف

ثم ابتدأت طامة الطوفان وهي عبارة عن غرق هائل عم جميع سطح الارض على المشهور وأناف على أعلى رؤس الجبال وأهلك سائر الناس وكان الطوفان سنة ٢٤٨٢ قبل الميلاد المسيحي ونجى نوح عليه السلام ومن معه قال تعالى فأنجيناه (اى نوحا) والذين معه وبعد ان مكثت المياه غامرة سطح الارض ١٥٠ يوما أخذت في التناقص تدريجيا

وفي الشهر الثامن من الطوفان استقرت السفينة على جبل ارارات أو عرارات على المشهور ببلاد ارمينيا أو الموصل كما قال به مؤرخوا العرب قال المؤرخ فرنسيس لونورمان ان المراد بأرارات الجبل المسمى باسم ايراراته عند سلف القبائل اليافثية الاولى وباسم ميرو عند أهل الهند وباسم جبل البرج عند الفرس أعني بولورطاغ أو الربوه الالپية نسبة الى جبال آلپه المسماة باسم بامير في ولاية بخارى

الصغرى أى بلاد تركستان الصينية وليس على الجبل المسمى باسم ارارات ببلاد ارمينيا وهو ما يدل عليه صريح نص التوراة اهـ وقد ورد فيها أن بنى نوح عليه السلام انما وصلوا الى سهل شنعار الكائن فيما بين الدجلة والفرات من الموضع الذى وقفت عليه السفينة سائرين دائما من المشرق الى المغرب وهذا دليل لا يروج معه ان يظن كون مبدإ سيرهم كان من بلاد الارمن بل من النجد الكائن بولاية بخارى الصغرى بخلاف قول و يكتوردروى وخلاف ما رواه مؤرخو العرب وبه جاء القران الشريف من أن السفينة وقفت على جبل الجودى من أرض الموصل

وقد قال المؤرخ المذكور انه لما أخذت الارض تنكشف أرسل نوح عليه السلام حمامة ليعلم منها حالة الماء فطارت ثم رجعت عند غروب الشمس وفى منقارها غصن من شجر الزيتون استدل به على جفاف المياه وامكان الخروج من السفينة

ولما خرج مع بنيه الثلاث ومن كان معه من الاناث قرب للمولى سبحانه وتعالى قربانا شكراله على ما أولاه من النجاة وعاد يزرع الارض كما كان وأخذ نسله يزداد يوما فيوما حتى انهم صاروا شعبا عظيما فى مدة مائة سنة من بعد الطوفان وكان الى ذلك الوقت أكثر أهل بيت نوح عليه السلام أحياء لان نوحا عمر بعد الطوفان ٣٥٠ عاما وكان عمره حين لحقته الوفاة ٩٥٠ سنة كما صرحوا به والذى ورد به القرآن الكريم ان هذه المدة هى زمن دعوته لقومه وبعد ذلك أخذت أعمار بنى آدم تتناقص حتى صار والا يعيشون كثيرا بل متوسط الاعمار كان كالمعتاد فى هذا العصر وأخذ هذا الدليل من أقدم كتابات قدماء المصريين المؤرخة من نحو ألف سنة قبل بعثة ابراهيم عليه السلام

وكانت عائلة نوح تخبر أولادها بطغيان المياه وتغطيتها وجه الارض واهلاكها جميع الناس والحيوانات ما عدا الذين التجؤا الى الفلك

وكان الذين بلغهم خبر الطوفان يخافون جدا ان تجلب شرور البشر عليهم قصاصا ثانيا فأجمع رأيهم على بناء برج عظيم لكى يلتجئوا اليه وقت الحاجة ويتخلصوا من الغرق والهلاك فشرعوا فى تأسيسه على شاطئ نهر الفرات الى جهة الشرق واجتهدوا فى بنائه غاية الاجتهاد حتى رفعوه عن الارض مسافة ليست بقليلة ويقال انه لم يبلغ ارتفاعا عظيما وربما كانوا قاصدين بجهلهم أن يصلوا به الى الجو أو الى أعلا من ذلك ولكن مع كل اجتهادهم وتقدمهم فى البناء كانوا يرون الشمس والنجوم بعيدة عنهم كبعدهم عنها عندما ابتدؤا فى عملهم

ومع كل ذلك كانت الكبرياء متسلطنة عليهم حتى ظنوا أنهم بكثرة عددهم وقوة شوكتهم ينالون غرضهم وبينما كانوا مشتغلين بعملهم المذكور حدث فيهم أمر الله سبحانه وتعالى بان خلط لغاتهم بحيث صاروا لا يفهم بعضهم بعضا ولذلك أطلق على ذلك البرج بابل وهى لفظة عبرانية الاصل آتية من لفظ بالال أو بلبل ومعناه خلط اشارة لاختلاط الالسن ولما حدث ذلك التبلبل اضطر بنو نوح المذكورون للتفرق فى البلدان وكفوا عن بناء البرج وذهبت كل عائلة أو جملة عائلات تعرف لغة بعضها واستوطنت من الارض مكانا

ومن ذلك تولدت فى أقطار العالم أنواع اللغات المتعددة وقد رتب العلماء بعد ذلك هذه الالسن المتفرقة الى عدة مراتب متميزة بحسب ما يوجد بينها من علائق المشابهة والموافقة والمطابقة وعلى هذا الوجه المتقدم كان أصل منشإ الانسان الذى تشعب من أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث وكان

ليافث سبع بنين منهم جومر هاجر الى الساحل الشمالى من بحر بنطس المعروف الآن بالبحر الاسود وتفرق نسله غربا واستوطنوا فى الجنوب الغربى من أوروبا وامتدوا حتى وصلوا الى جزائر بريتانيا ويقال ان أكثر شعوب الاوروباويين من نسله

ومنهم ماجوج بن يافث الذى نزل بعائلته بلاد التتار فى الاراضى الواقعة على الساحل الشمالى من بحر قزوين أو طبرستان وامتدت شعوبه فى أواسط آسيا ومن نسله من سكان اسيا المغول وخلافهم

وأما مادى فانتشرت عائلته فى بلاد الفرس شمالا بمقاطعة مادى وأما ياوان فاحتل بلاد اليونان وباسمه سمى دانيال النبى عليه السلام أهالى تلك البلاد يونان وكان لياوان المذكور أربعة بنين وهم اليشه وانتشرت عائلته فى هلاس وهى المقاطعة الجنوبية الغربية فى بلاد اليونان وترشيش وعائلته انتشرت فى كيليكيا بآسيا الصغرى أى بالاناضول وباسمه سميت مدينة ترسيس وقال البعض ان من نسله بعض سكان بلاد اسبانيا وكتيم وسكن نسله سواحل بحر ايتاليا وبلاد اليونان ودودايم ونسله انتشر فى البانيا أو بلاد الارناؤد الى مدينة تربسته جنوبا وقال البعض ان من نسله سكان نواحى مرسيليا بجنوبى فرانسا وتوبال وتوطن نسله بجوار نسل ماجوج مابين البحر الاسود وبحر الخزر وماشك ونسله توطن بجوار توبال وماجوج وقد سكن بعض نسله سواحل بحر البلطيك وتسلسل من عائلته بعض شعوب المسكوب وتيراس ولا يعلم محل سكناه وظن المؤرخون ان نصف شعوب الارض من نسل يافث بن نوح لان أولاده هم الذين انتشروا فى أوروباو آسيا بسرعة

وأما حام فكان له أربعة أولاد أولهم كوش وكان له ستة بنين ومسكنه بلاد العرب وتشعب من نسله شعوب أفريقية ومنهم من استوطن السواحل الشمالية من الخليج الفارسى وامتد شمالا الى مابين النهرين وظن المؤرخون ان أكثر أهالى أفريقية من نسله فلذلك ينسبون اليه وان جميع بنيه استوطنوا بلاد العرب وأفريقية ماعدا نمرود فانه سكن جهات نهر الفرات وشيد برجا يعرف باسمه يقال انه فى نفس موقع بابل القديمة على نحو ٣٠٠ ميل شمالى ملتقى نهر الفرات بنهر الدجلة ومصرايم سكن وادى النيل وبه سميت مصر وقد تفرعت منه سبع قبائل

قبيلة لوديم سكنت غربى مصر وقبيلة عناميم وكانت من القبائل الرحل وقبيلة لهابيم وسكنت فى جنوب قبيلة لوديم وقبيلة نفتوحيم وسكنت على شاطئ البحر فى الجهة الغربية من مصر ويقال ان اسم نبتون آله البحر عند الاقدمين مأخوذ من اسمها وقبيلة فتروسيم سكنت مصر العليا وقبيلة كسلوحيم وسكنت بين وادى النيل وأرض كنعان على ساحل البحر ومنها الفلسطينيون وقبيلة كفتوريم وسكنت جزيرة قبرس

وفوط وسكن شمالى أفريقية ونسله مذكور مع نسل كوش ولود وكنعان سكن الارض المنسوبة اليه وكان له ابنان صيدون وهو الذى بنى مدينة صيدا ودعيت باسمه ويقال انها أقدم مدينة فى العالم وحث وقد تشعب منه تسعة قبائل سكنت أرض كنعان الى أيام يوشع بن نون عليه السلام

وكان لسام بن نوح خمسة أولاد عيلان وسكن أولاده جنوبى بلاد الفرس وأشور وتشعب من بنيه الاشوريون الذين استعبدهم النمروذ وكوش وأرفخشذ وسكن بنوه بين النهرين ومن

نسله

نسل ولد ابراهيم بن تارح الملقب بالخليل عليه السلام سنة (١٩٩٦ ق م) وفي سنة (١٩٢١ ق م) أوحى اليه أن يأمر قبيلته بترك عبادة الاصنام ويحثهم على عبادة الواحد القهار وأن يعتزل قبيلته وأرض ميلاده وبيت أبيه ويسكن حوران وكان لابراهيم ولد يسمى شالح الذى ولد عابر ومنه العبرانيون وفالج ويقطان وكان ليقطان شقيق فالج جملة أولاد منهم قبائل بلاد العرب السعيدة (بلاد اليمن) الذين سكن الاسماعيليون بينهم ومنهم لود ونسله اللوديون سكان بلاد آسيا الصغرى وآرام وسكن بين النهرين ولذلك سميت تلك البلاد سهل آرام وغيرهم

وأما سكان أمريكا وجزائر البحر المحيط فهم شعوب انتقلوا اليها قديما من آسيا وأفريقية فانتقل سكان آسيا الى أمريكا من مضيق بهرنغ لشدة قربه من شمالى آسيا وانتقل سكان الجزائر اليها من أفريقية بالسفائن قديما

وقد قال العالم المؤرخ جيلمان ان التمدن انتشر فى بلاد العرب من قديم الزمان بمساعى بنى نوح الذين ترتبت طوائفهم المتباينة عن بعضها فى الاخلاق والعوائد والالسن والعقائد كالآتى الاولى طائفة بنى يافث ويعبر عنها عند المؤرخين بالنسل الهندى الاوروبى وهى تشتمل على الطبقات الشريفة العليا ببلاد الهند وفارس وأهل جبل قوه قاف أو القوقاز وأهالى أقطار أوروبا عموما

الثانية طائفة بنى سام وهى تشتمل على جميع أهالى بلاد آسيا الغربية والجنوبية من نهر الفرات الى البحر الابيض المتوسط وقال مؤرخو العرب انها أشرف الطبقات حيث ظهر منها الانبياء والمرسلون

الثالثة طائفة بنى حام وهى تشتمل على جميع أهالى أفريقية خصوصا المصريين والايتيوبيين غير ان الفينيقيين والقرطاجنيين وان كانوا من بنى حام من ولد كنعان لكنهم لداعى اختلاطهم ببنى سام يصح ان يلحقوا بهم بحق الجوار ويعدوا منهم للاختلاط المذكور

وقال المؤرخون ان اللغة الهندية القديمة المسماة سنسكريت يوجد بينها وبين لغات فارس واليونان وايتاليا القديمة مشابهة عظيمة فلذلك يصح ان يقال ان الهنود والفرس والجرمان والالمان واليونان كلهم يرجعون الى أصل واحد لانهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام

وعلى هذا الترتيب صار الكلدانيون والسوريون والعبرانيون والعرب مرتبطين باللغة وبكونهم من ولد سام وأما الحاق الفينيقيين الذين هم من بنى حام بالشعوب المذكورة لاتحاد اللغة فلا يجعلهم من فرع واحد فى الترتيب السابق ذكره

ومع كل ما ذكر فقد اتضح أن بنى سام وحام ويافث هم الذين تكون منهم الجنس البشرى الابيض المسمى فى اصطلاح علماء أوروبا المتأخرين بالقوقازى الذى عمر بلاد آسيا الغربية وسائر الاقطار الاوروباوية وشمالى افريقية

وهناك جنسان آخران وهما الجنس الاصفر أو المغولى أى التتارى الذى أقام دائما بالاقطار الشرقية والشمالية فى آسيا والجنس الاسود أو الزنجى الذى انحصر ببلاد افريقية وليس له تاريخ يعول عليه

وأما الاصفر الذى منه قبائل المغول أو التتار والصينيون فقد بقى بمعزل تام عن حركة التمدن العام فلذلك أخرنا التكلم على تاريخه وتاريخ امريكا حتى يأذن الله

الباب الثانى

(الفصـــل الاول)

تاريخ فينيقية

قد أجمع المؤرخون على أن أصل شعوب الفينيقيين لا يعلم بالتحقيق غير أنه من منذ نحو ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا أخذت سواحل البحر الابيض المتوسط فى آسيا تعمر بسكان أتوا اليها من بلاد المشرق وقالوا انهم من الكنعانيين وهذا النسل هو من كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وأصل مدائن الكنعانيين بحسب أقوال المؤرخين كانت أولا على سواحل الخليج الفارسى فى اقليم بلاد العرب المعروف الآن باسم (القطيف أو البحرين)

وقال المؤرخ الشهير فرانسيس لونورمان فى مختصر تاريخه عن الامم المشرقية والهندية ان شعوب الكنعانيين الذين أطلق عليهم فينيقيون لما انتشروا فى السواحل الشامية بين جبل لبنان والبحر المتوسط الابيض صار قطرهم منحصرا ما بين الجبل والبحر ممتدا من أول جزيرة اراد (١) شمالا الى غاية مدينة عكا جنوبا وبنوا فى تلك السواحل جملة مدن وحصون منها مدينة صيدا وصور وتريبوليس أى طرابلس وعكا وان لفظة فينيقيون التى تلقبت بها القبائل المذكورة هى اسم يونانى غلب عليهم من لفظة فينيكس وهو اسم للنخيل أو بالحرى للتمر وهى تدل فى الاصل على اللون لا الجوهر لان لونهم كان أسمر مائلا الى الاحمرار كلون تمر النخيل فى صنوفه وهو أيضا اسم لرداء ارجوانى كان الفينيقيون يلبسونه وكانت النخيل فى العصر المذكور كثيرة جدا فى فينيقية حتى صارت صورتها رمزا الى الاهالى والبلاد فكانوا يصورونها على سككهم

وينقسم تاريخ الفينيقيين الى قسمين الاول تاريخ فينيقية فى عصر الصيداويين أعنى منذ كانت مدينة صيدا أعمر بلدانهم ومقر مملكتهم الثانى تاريخ الصوريين أى بعد سقوط صيدا واتخاذهم مدينة صور مركزا لهم

(الفصــل الثانى)

تاريخ الصيداويين

لما تقدمت شعوب الفينيقيين فى إعمار تلك السواحل وجعلوا مدينة صيدا مقرا لمملكتهم اتخذوا صناعة الصيد فى البحر وكثرت عندهم فلذلك قال بعض المؤرخين ان اسم مدينتهم المذكورة

(١) هى جزيرة الى الجنوب الغربى من طرسوس على نحو ثلاثة أميال ومحيطها لا يتجاوز الالف وخمسمائة خطوة وموقعها فى عرض ٣٥ درجة شمال خط الاستواء وشمال طرابلس وفيها كثير من بقايا أبنية الفينيقيين من قلاع وأسوار متينة وقد أخرج من طرفيها حيطان منيعة الى البحر نحو جهة البر فحدث من ذلك مرسى أمين للسفن وليس فيها ماء الا ما يجمع فى الآبار من ماء المطر وأهلها الآن قليل أكثر أعمالهم فى البحر والمواشى ولهم تجارة فى زبل تلك المواشى يشحنونه فى السفن الى الاطراف البعيدة لتسميد البساتين وأهلها القدماء اشتهروا فى المعرفة بسلوك البحر وهى مذكورة فى التوراة والانجيل وتبعد عن الساحل نحو ميلين ويقال انها لفظة عبرانية معناها تيه اهـ

اشتق من الصيد ثم اخترعوا بناء بعض زوارق أى صنادل ليتوصلوا بها الى داخل البحر و يتمكنوا من صيد الاسماك الكثيرة ومن ذلك الوقت صاروا يتقنون صنع السفائن شيأ فشيأ و يتمرنون بها على فن الملاحة يوما فيوما حتى تربت فيهم ملكة الاقدام على الاسفار بتلك السفن الصغيرة فى داخل البحر الملح فكانوا يتجولون فى داخله تارة وتارة يسيرون بها بقرب السواحل الى أن وصلوا نحو الديار المصرية سنة (٢٢١٣) قبل الميلاد تقريبا

وفى خلالها كان قبائل الهكسوس المؤلفة من أخلاط العرب وأهل سورية والكنعانيين أغاروا على الديار المصرية وفتحوها وأحدثوا فيها دولة تعرف عند العرب بدولة العمالقة وعند اليونان بالهكسوس وكانت أهالى مصر وقتها فى ثورة ضد ملكهم آخر ملوك العائلة الرابعة عشرة السخاوية فعندما شاهدت ملوك مصر وجماعة من الرعية انتشار هؤلاء الاقوام فى بلادهم كالجراد هاجروا الى الصعيد وحكموا هناك بمدينة طيبة وأصبح باقى المصريين تحت رق العبودية خاضعا لملوك الرعاة المذكورين

وقد أجمع غالب المؤرخين فى أقوالهم على أن الفينيقيين هم أول الامم الذين اخترعوا صناعة السفائن وأول من سافر بها فى البحار وتميزوا بها عن سائر الاقوام فى ذلك العصر وقالوا ان سبب اهتمام هذه الاقوام و إقدامهم على خطر التجول بسفنهم فى البحار هو وقوع بلادهم فى أرض ضيقة جدا فيما بين الجبل والبحر كما سبق شرحه

ولما لم تكن تلك الاراضى تكفيهم للمعيشة اضطروا الى التشبث بعمل الوسائل لزيادة ثروة المعاش فاقتحموا مشاق الاسفار فوق أمواج البحار للوصول الى الاراضى الخصبة لينقلوا منها الفوائد الى بلادهم فنالوا بغيتهم لان الامم النازلة اذ ذاك على سواحل البحر الابيض المتوسط كانت لا تزال على الحالة الوحشية ولم يكن بينهم من يعرف انشاء القوارب ليمكنهم بها الجولان فى البحر الملح ولو مسافة صغيرة فضلا عن مقاومة أمواجه الصعبة فلذلك صار الفينيقيون أول دولة بحرية متجولة بسفنها فى جميع جهات بحر الروم و بحر الارخبيل والبحر الاسود

ومن أول وصولهم الى سواحل تلك البحار و جزرها أسسوا عدة أماكن ليلتجئوا اليها عند الحاجة فمن ذلك مدينة شيتى المعروفة باسم لارنكه فى جزيرة قبرس ثم أسسوا مدينة ايطانوس بجزيرة كريد وأنشؤا لهم بسواحل كيليكيا أيضا عدة محطات استعمارية ليأخذوا منها لوازمهم وصارت لهم مراكز بحرية فاتسعت تجارتهم بذلك فى زمن قليل لانهم صاروا ينقلون الى بلاد اليونان من محصولات وصنائع آسيا والديار المصرية و يأخذون نظيرها من محصولات وصناعة اليونان وما كانوا يلتقطونه من الذهب المستخرج من جبل بنجوس الكائن باقليم مقدونيا وغيرها ثم تقدموا فى سفارهم الى بحر بنطش أى البحر الاسود وشيدوا فى أكثر سواحله أماكن تجارية ومحطات بحرية تلتجئ اليها سفنهم وتنقل منها واليها تجارتهم ثم قصدوا بعد ذلك سواحل شمالى افريقية ووصلوا الى اقليم زوجيتان الذى بنيت فيه قرطاجنه وعرف الآن بساحل تونس

(الفصل الثالث)

استيلاء المصريين على فينيقية

لما استيقظ المصريون القدماء من غفلتهم وعلموا أن من العار بقاء أمم وحشية تحكم بلادهم وتتصرف بهم قاموا بعصبيتهم الملية وطردوا طائفة ملوك الرعاة من بلادهم في عهد الملك احميس مؤسس العائلة الثامنة عشرة بعد ما مكثوا بمصر أكثر من خمسة قرون وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ثم طمعت ملوك العائلة المذكورة في آسيا وهاجمها الملك تحوتميس الاول وأخضعها مبقيا للامم الخاضعة تمام الحرية في تنصيب ملوكهم وسن قوانينهم مكتفيا بأخذ الجزية السنوية

وفي زمن تحوتميس الثاني أرسل جيوشا الى البلاد الشامية وفتحها بغير حرب ودخلت فينيقية تحت حكم مصر فاكتسبت الديار المصرية الفوائد البحرية وبقيت فينيقية تابعة للفراعنة من سنة (١٧٥٠ ق م) أي من عهد العائلة الثانية عشرة الى سنة (١٦٧٠ ق م) حيث تخلصت منها في مدة العائلة المتممة للعشرين

ولما كان المصريون في الزمن المذكور خاضعين بكليتهم للاوهام الدينية لم يكونوا يتجاسرون على الاسفار في البحار البعيدة وكانت ملوكهم لا تميل الى انشاء الاساطيل ثم بعد ذلك رأت لزوم انشاء سفن وتشكيل أسطول بالبحر الاحمر ففي مدة الملكة حاتازو افتتحت مصر حربا على بلاد بونت الكائنة في جنوب بلاد العرب لاجل اخضاعها واكتساب الثروة منها لانها كانت مركزا كبيرا لتجارة العرب فشيدت جملة سفائن حربية بالبحر الاحمر ووضعت بها كثيرا من بحارة الصيداويين فاخذت تنقل بهم الجنود الى تلك السواحل العربية وتمكنت من الاستيلاء على كثير منها

وبهذه الوسيلة أوجد الصيداويون في البحر الاحمر جملة سفائن تجارية صارت تتعاطى التجارة بين الثغور المصرية والاقطار العربية فلم يمض على ذلك زمن طويل حتى احتكروا تجارة البحر الاحمر أيضا ومدوا أسفارهم الى الخليج الفارسي والسواحل الهندية وصاروا ينقلون منها المعادن والجوهرات والاخشاب الثمينة والاعطار وسن الفيل وغير ذلك من أنواع التجارة التي كانت عديمة الوجود في بلادهم وبذلك أخذت تجارة الفينيقيين تزيد حتى صارت في المدة المذكورة أغنى تجارة الامم المعاصرة لهم وقيل انه لغناهم كثرت عندهم الفضة وأثقلتهم حتى كانوا يضعونها في أكياس ويستعملونها صابورة للسفن بدل الرصاص وغيره مما يستعمل لذلك

أما صناعاتهم فكانت متنوعة وفي غاية الاتقان فكانوا يصنعون كل أنواع الحلي من الذهب والفضة مستعملين فيها أنواع النقوش وكانوا يزينون مصنوعاتهم بالمعادن النفيسة وبالعاج وينسجون الاقمشة المتنوعة وكان لمنسوجاتهم شهرة عظيمة بجميع جهات العالم

﴿ الفصل الرابع ﴾

انحطاط الملاحة عند الصيداويين

اسباب ظهور التلصص بالبحار

قد استمرت سفن أهل صيدا تخوض جميع البحار بلا مزاحم ولم يحصل لشوكتهم البحرية ولا لتجارتهم العمومية أدنى معارض الى سنة (١٥٠٠ قم) حيث قام لهم مشاركون فى أسفار البحار مزاحمون بالاتجار فيه وحصل من ذلك تغيير مهم فى حوض البحر الابيض المتوسط

وذلك أن أقوام البيلاج وهم اليونان أو الهيلينيون قاموا وأحدثوا لهم أساطيل كبيرة وفى قليل من الزمن كثرت سفنهم التى صنعوها على أشكال سفن الفينيقيين وأتقنوها الدرجة صارت بها تقطع المسافات الطويلة فى الزمن القليل وتنوعوا فى أشكال الشراع فجعلوه مثلثا ومربعا كما هو عند المصريين وكانوا يستعملون الشراع والمجاذيف فى آن واحد ثم عقدوا مع أهالى اقريطش (كريد) وصقلية وسردينيا محالفة بحرية اشترطوا فيها على بعضهم ان يكونوا يدا واحدة يتعاونون على السفر فى البحار ومن ذلك الوقت صاروا يسافرون الى أكثر سواحل البحر المتوسط الابيض وبعد أن مضى على ذلك نحو قرنين ونصف صارت لهم اليد العليا على سائر البلدان فأثر ذلك فى بحرية الصيداويين وظهرت على مدائنهم مبادى الانحطاط والاضمحلال لأن أقوام اليونان الحديثى العهد بالاعمال البحرية وفن الملاحة صار لا يمكنهم أن يقتصروا على مزاحمة الفينيقيين فى أمر معايشهم فقط بل ألزمتهم الضرورة ان يكونوا معهم فى حرب دائمى وأخذوا يسدون عليهم سائر الطرق التى كانوا يترددون عليها فى سواحل بحر الروم والبحر الاسود وبذلك تدنست البحار بظهور صناعة التلصص البحرى وصار السفر فى بحار بلاد اليونان غير مامون من تعديات سفن اللصوص فسقطت بذلك أكثر الاماكن البحرية والمحطات التجارية الفينيقية وامتدت تعديات سفن قرصان اليونان على أكثر الاماكن الصغيرة ولما قاومتهم النزلات البحرية الكبيرة الفينيقية مثل ميلوس وطاسوس (طاشيوز) حولوا أعمالهم الى الجهات الاخرى من سواحل البحر الابيض المتوسط واشتغلوا بعدها بالاسفار البحرية للاتجار

﴿ الفصل الخامس ﴾

سقوط مدينة صيدا

لما حارب بنو اسرئيل الملوك المتألبين عليهم بنواحى هاصور ببلاد فلسطين كان جيشهم تحت قيادة يوشع بن نون عليه السلام (١٢١٥ قم) وانقرضت دولة الكنعانيين فى تلك الحروب هاجر كثير منهم الى أراضى مملكة صيدا فلما زاد عدد الاهالى فيها أرسل أهل صيدا جملة منهم الى البلاد الخارجية فنزل بعضهم باراضى طيبة باقليم بيوتيا باليونان ونزل فريق آخر بأفريقية وأنشؤا الاقليمين المعروفين قديما باسم بيزاسين [1] وزوجيتان [2] وهى الاراضى التى تأسست

(١) أو بيزاسيوم مقاطعة من أفريقية قديما شمالى خليج سرتة الصغير وجنوبى بلاد زوجيتان ولفظها مشتق من كلمة فينيقية معناها البلاد الكثيرة المياه وكانت عظيمة الخصوبة وكانت هى و بلاد زوجيتان المذكورة الاقليم الرومانى الافريقى ومن أشهر مدنها بيزاسيوم المسماة الآن بوغتى اه

(٢) مقاطعة من بلاد افريقية قديما بين البحر الابيض شمالا وشرقا و بلاد بيزاسين جنوبا و بلاد نوميديا غربا ومن اشهر مدنها قرطاجنه واوتيكا اه

فيها قرطاجنه فيما بعد ونزلت جموع منهم أيضا ببلاد اسبانيا وبسواحل بلاد موريتانيا المسماة الآن مراكش وامتدوا الى رأس نون جنوبي مراكش وأنشؤا في جميع تلك السواحل نزلات استعمارية وأماكن بحرية

ثم بعد اغارة بني اسرائيل على فلسطين وانتصار رمسيس الثالث فرعون مصر في واقعته بالدلتا على جيوش وسفائن أهل آسيا الصغرى وجزائر اليونان الذين أراد بعضهم الخروج عن طاعته والبعض الآخر مهاجمة مصر طلبا للفائدة استوطن قوم من جزيرة كريد بالسواحل الشامية بين غزة وعسقلان يقال لهم الفلسطينيون وشيدوا فيها سنة (١٢٩٠ قم) تقريبا دولة تعرف بالفلسطينية ولما انتهز وافرصة انحطاط الدولة المصرية المتممة للعائلة العشرين أي في سنة (١٢٠٩ قم) ساقوا من عسقلان أسطولهم وهاجوا صيدا على حين غفلة من أهلها وأخذوها بالقوة القهرية وخربوها وكانت هذه الحادثة خاتمة لسقوط صيدا وقيام صور

الفصل السادس

فينيقية مدة مدينة صور

لما هاجر الفينيقيون بعد خراب وتدمير صيدا الى مدينة صور اجتمعوا حول هيكل ميلكارت معبود الفينيقيين الاصلي في ذلك العصر والتجؤا اليه واحتموا بحماه من صولة اولئك الاقوام الاغراب وأخذوا من ذلك الوقت يقوون مدينة صور وكانت الى ذلك العهد من مدن فينيقية ذات الدرجة الثانية فارتقت دفعة واحدة وصارت هي الكرسي الاصلي والمركز الثابت لباقي مدائن فينيقية وأخذت تعلو على غيرها بين سائر مدائن الفينيقيين وقد عد عهدها المذكور عهدا جديدا لعموم فينيقية لان قبائل الكنعانيين الذين بقوا في شمالي بلاد فلسطين قاموا من نومهم واستيقظوا من غفلتهم وفهموا أن تفرق كلمتهم هو السبب الوحيد لانحطاطهم وأن لاسبيل الى حفظ حياتهم الا بجمع شتاتهم فاتحدت أهالي مدائن سميره وجبيل وبيروت وصيدا التي رجعت للعمارية ثانيا وتعاقدوا على ان يكونوا يدا واحدة على سائر أعدائهم مع بقاء كل واحدة منهم على حالة استقلالها تحت سلطنة ملوكها ويكون مرجع الجميع لملك صور الذي تكون له اليد العليا عليهم وبذلك صار هو الرئيس الاكبر على عموم فينيقية

وقد تشبثت صور باعادة ما كان لفينيقية في سالف العصر من الفوقان في الاسفار البحرية الكبيرة فاضطر الصوريون لان يتخذوا طرقا جديدة للجهات التي كانت تتوجه اليها الاسفار البحرية القديمة فاختاروا الجهات الغربية من البحر الابيض وسيروا اسفائنهم الى سواحل شمال افريقية متجهين الى الغرب وكانوا يستدلون في أسفارهم بالنجمة القطبية لان بيت الابرة لم يكن يعرف في الوقت المذكور وقد أنشأ الصوريون مدن هيبون (بنزرت) واوتيكه في سواحل زوجيتانه ثم أقدموا على مد أسفارهم الى جهات أبعد لنوال الفوائد فساروا حتى وصلوا الى سواحل نوميديا (١)

(١) كانت هذه البلاد أولا مملكة مستقلة ثم أخضعها الرومان وهي شمال افريقية وكانت تحد قبل استيلاء الرومان شمالا بالبحر المتوسط وغربا ببلاد موريتانيا وشرقا ببلاد زوجيتانه بلاد توسكا تفصلها الاولى عن بلاد موريتانيا والثانية عن أراضي قرطاجنه ولم تكن حدودها الجنوبية معينة وهي الآن عبارة عن بلاد الجزائر بالضبط اه

وموريتانية (١) وكشفوا سواحل اسبانيا وأنشؤا فيها مدينة قابس وجملة مدائن أخرى لتكون لهم مراكز بحرية فيما بين محطاتهم الافريقية الكائنة بتونس والجزائر واستولوا على جزيرة مالطة وجعلوها مرسى لسفنهم وأخذوا أيضا ما قرب منها من الجزائر وجدد حيرام الثانى ملك فينيقية جملة عمارات بمدينة صور مقر حكومته وفى خلال ذلك أى فى سنة (١٠١٩ ق م) توفى داود عليه السلام وخلفه على سرير مملكة بنى إسرائيل ولده سليمان عليه السلام فبعث ملك صور المذكور رسلا لتهنئة ولده خليفه على الملك وكان داود قد عهد قبل وفاته الى ولده سليمان عليه السلام بأن يبنى هيكل بيت المقدس لعبادة الله سبحانه وتعالى فطلب من ملك صور أن يعينه على اتمام بناء الهيكل ولدا اعى اشتغال حيرام بعمارا ته فى بلاده قصر فى إسعاف سليمان على الفور وقال المؤرخ فرانسيس لونورمان ان حيرام ملك صور المذكور اتحد وتعاهد مع سليمان عليه السلام على ان يعملا بمصاريف مشتركة من طرفيهما الشروع فى الاسفار البحرية الى ثغر أوفير (٢) على البحر الاحمر فأنشأ فيه أسطولا بحريا وذلك أصل إنشاء الاساطيل البحرية بالبحر الاحمر وبحر الهند فى عهد الفينيقيين

وقال المؤرخون ان سفن الفينيقيين فى ذلك العهد كان طولها لا يتجاوز الاربعين ذراعا وكانت بسارية واحدة والبعض بساريتين وشراعاتها مثلثة وقال البعض انها كانت مربعة وكانت سريعة السير وفى أثناء سكون الرياح كانت تسير بالمجاذيف

وفى زمن العائلة الحادية والعشرين المصرية هجم شيشاق أو شيشنق ملك مصر على بلاد يهوذا وذلك بعد وفاة سليمان عليه السلام بخمس سنوات ودخل بيت المقدس سنة (٩٧٠ ق م) واستولى على جميع خزائن سليمان عليه السلام ولم يمكن لملك صور المحالف لملوك بنى إسرائيل ان يقاوم ملك مصر أصلا وفى خلال ذلك كانت أسفار أهالى صور امتدت الى الخليج الفارسى والهند وصاروا يتوسعون فى التجارة وينقلون من الهند جملة أصناف عالية القيمة الى جميع الاقطار وكانت فلسطين تمدهم بالمحصولات الزراعية كالحبوب والزيت والخمر

وبعد زمن قليل خرجت سفن الفينيقيين من مضيق جبل طارق وقصدوا جهة الشمال ودخلوا ثغور البرتغال ووصلوا الى جزيرة بريطانيا ولقبوها بأراضى كستريدو ومعناها القصدير لانهم كانوا ينقلون منها ذلك المعدن المفيد وغيره ولم تكن تلك الاراضى معلومة الا لاهالى صور فقط ويروى ان سفينة فينيقية رأت سفينة أخرى رومانية تروده هذا الطريق لتعرفه من السفينة الفينيقية فاختار الصورى ربانها ان يلقى بسفينته على شعوب صخرية هناك لتغرق ويهلك أهلها

---

(١) هى بلاد كانت بافريقية الشمالية بالشمال الغربى منها ما بين البحر المتوسط شمالا والمحيط الاطلانطيقى غربا والصحراء جنوبا ومقاطعة نوميديا شرقا وكانت مستقلة منذ الاعصر القديمة ولم يرد ذكرها فى التاريخ الا فى القرن الثانى قبل الميلاد وقد استولى عليها الرومان فيما بعد اهـ وهى عبارة عن بلاد مراكش

(٢) هى بلاد كانت تتردد عليها أساطيل سليمان عليه السلام لجلب الذهب ويظن انها سواحل بلاد سوفالة بافريقية أو بلاد الهند وقد جعلها بعضهم بلاد الفرس والبعض بلاد العرب أو جاوه وحتى قال البعض انها هى بلاد بيرو بامريقا الجنوبية اهـ

وكان قصده من ذلك اغراق السفينة الاخرى بجانبها كى لاتقفو السفينة الرومانية أثره ففعل ذلك وأتلف سفينته فلما تبعته السفينة الرومانية ارتطمت على الصخر بجانبه ثم اجتهد الربان فى نجاة واحد من ملاحيها وذهب الى بلاده يحمل خبر ذلك ولما وصل الى صور أعلمهم بالكيفية فكافوه على عمله هذا اسكافأة عظيمة عوض بها خسارته وصار بينهم مرموقا بعين التجلة والاحترام لمخاطرته بنفسه حبا فى منفعة بلاده واستئثارها بذلك المعدن النفيس ولم تقف أسفار أهل صور الى ذلك الحد فقط بل وصلوا بسفنهم الى البحر البلطيقى وسموه بحر الكهرباء لانهم كانوا ينقلون منه كثيرا من صنف الكهرباء ويتجرون فيه وفى سنة (٨٤٠ ق م) حصل ان بغمليون ملك صور قتل رئيس الكهنة المدعو أسرباس زوج شقيقته المسماة ديدون طمعا فى ماله وذخائره فهربت ديدون المذكورة بعد قتل زوجها من ظلم أخيها وجوره مع عدد كثير من أكابر بيت أبيها وأعيان المملكة وشحنت عدة سفن بكثير من الذخائر وأقلعت ليلا ثم ارست فى شمال أفريقية بالجهة المقابلة لجزيرة صقلية وابتاعت هناك من أهاليها أرضا واسعة وأسست مدينة كبيرة سميت بعد ذلك بقرطاجنة وكان لها شأن عظيم ونفوذ تام وذكر تاريخى فى الحروب الرومانية التى سيأتى ذكرها

وفى عهد الملك بغماليون المذكور استولت ملوك أشور على بلاد فينيقية واستمرت بعدها القلاقل بها مدة طويلة تحركت فى خلالها الفينيقيون عدة مرات ليلقوا عن أعناقهم نير الطاعة للدولة الاشورية وقد ردا يلولى ملك صور عن بلاده هجمات سرجون ملك اشور مدة خمس سنوات (من سنة ٧٢٠ الى سنة ٧١٥ ق م) ولم يمكن للاشوريين ان يستولوا على هذه المدينة البحرية الحصينة

وفى سنة (٦١٠ ق م) أمر الملك نخو أحد فراعنة مصر جماعة من الصوريين أن يكشفوا له حدود افريقية فسافروا من بحر القلزم أى البحر الاحمر وطافوا حول افريقية مدة ثلاث سنوات وعادوا فى أواخرها من البحر الابيض المتوسط ودخلوا مصر من مصب النيل الشرقى وقد امتدح المؤرخون بحرية الصوريين على هذا الاستكشاف وقالوا انهم مروا على الرأس المسمى الآن رأس عشم الخير فى زمن كان فيه سير السفائن فى وسط البحار محاطا بالاخطار حتى يكاد يكون من المستحيلات ونيخاوس ملك مصر المذكور هو الذى اهتم أخيرا فى انشاء دور الصناعات وغير أشكال المراكب القديمة المصرية وبنى مراكب حربية على شكل جديد يقارب سفن الفينيقيين ولما رأى انحطاط الدولة الاشورية أرسل جيشا عظيما واسطولا كبيرا قاده بنفسه الى سورية وتقدم بجيشه واستولى عليها وصادف فى خلالها زحف بختنصر ملك الكلدانيين لفتح صور فهزم ملك مصر المذكور بقرب نهر الفرات سنة (٦٠٦ ق م) ولما جلس ابريس على تخت مصر أوعز الى صور ان تقوم على بختنصر سنة (٩٥٠ قم) وأوعز الآخر الى صدقيا ملك يهوذا أن يخرج عن طاعة المصريين فخار بانى آن واحد وخرجا عن الطاعة فبعدما خرب بختنصر بيت المقدس سنة (٥٨٧ قم) هاجم بليا تير أى صور القديمة وأخذها أخذ عزيز مقتدر

أما مدينة صور البحرية فقاومته ثلاث عشرة سنة وانتهى أمرها بان استولى عليها وأخرب بعضها (٥٧٤ قم) وخضعت للدولة الكلدانية ثم للميديين ثم للدولة الفارسية وذلك انه لما ظهر كيروش ملك فارس تقدم واستولى على بابل ودخلت بعدها جميع الثغور الفينيقية تحت سلطنة الفرس الا مدينة قرطاجنة

وقد

وقد استمر الفينيقيون فى شهرتهم البحرية الى سنة (٣٣١ قم) عندما هاجم بلادهم اسكندر المكدونى بجيش جرار وعمارته البحرية اليونانية المؤلفة من ٢٥٠ سفينة والتى كان لها شهرة عظيمة فى الوقت المذكور وحاصر مدينة صور ستة شهور متوالية برا وبحرا الى أن استولى عليها وخرب معظمها وأذاق أهلها أنواع العذاب فأخذت فينيقية من وقتها تتقهقر فى أسفار البحار وضاعت منها مدن الاستعمار واضمحلت تجارتها من جميع الاقطار وأفل نجم عزها وبعد موت اسكندر المكدونى دخلت فينيقية فى حوزة دولة البطالسة المصرية ولم تقم لها قائمة بعد ذلك تستحق الذكر فى تاريخ دول البحار

الباب الثالث

﴿ الفصل الاول ﴾

تاريخ الميديين والفرس

مملكة الميديين

قالت علماء التاريخ الذين خاضوا فى البحث عن أصول الامم السالفة المتناسلة من بنى يافث وعن كيفية انتشارهم ان مملكة الميدين ظهرت فى سنة (٧٨٨ قم) وشعوبها وشعوب الفرس من أصل واحد وكذلك ديانتها ولغتها حتى ان بين قبائل الامتين وبعضها علاقة كبيرة فى الانساب لتجاور بلادهما وان تاريخ هذه الشعوب لا يصعد الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام وقد تشكل فى بلاد ميديا دولة كانت ذات شأن عظيم فى تاريخ الامم القديمة ثم لما قامت بعدها دولة الفرس واستفحل أمرها صارت بلاد الميديين ضمن اجزائها كما سيأتى شرح ذلك بهذا التاريخ

وبلاد الميدين القديمة عبارة عن بلاد اذربيجان والعراق العجمى الواقعة جنوبى الجبال المحيطة ببحر الخزر وكانت قديما خاضعة لملوك أشور ولما قامت الثورة الجسيمة فى دولة أشور واستولت الجنود الملكية على مدينة نينوى الشهيرة وقتل الملك سردانا پال واستقر رئيس تلك الحركة والقائد لتلك الجنود شكل حكومة شبه جمهورية تحت رياسته وقبل أن يستتب لها الحال كادت تقع تحت أسر الدولة العراقية ثانيا فالتجأ الميديون الى ترك الحالة الاستقلالية وانتدبوا ديجوسيس وهو أحد مشاهير رؤساء قبائلهم وكان اشتهر بينهم بالحكمة والعدالة وبايعوه بالملك (٧١٠ ق م) واستمرت أيامه فى راحة وسكون فكانت معدودة من أيام السلم

ولما تولى بعده فراورت سنة (٦٥٧ قم) استعد للحروب لانه كان محبا للقتال فتقدم بجنوده وأخضع جميع بلاد فارس الاصلية وأخضع بعدها بلاد القرمان وكثيرا من أقوام آسيا وعندما كان مشتغلا بحروب بلاد سورية هلك فيها سنة (٦٣٥ قم)

وقام بعده سيا كزار فرتب جنودا جديدة جيدة وقهر بها مدينة نينوى (١) ثانية لانها كانت قد خرجت عن طاعته وزوج ابنته الى بختنصر الشهير بن نابو بولاصار ملك الكلدانيين وذلك لعقد محالفة معه لفتح سورية فنجح في اعماله المذكورة (٦٢٥ ق م)

ثم قامت حروب هائلة بين الميديين والليديين استمرت خمس سنوات متوالية وصادف آخرها ان كسفت الشمس فانزعج الفريقان وبادر العقد الصلح وتوسط بينهما ملكا بابل وكيليكيا وتأيد الصلح بالمصاهرة بأن تزوج ابن سيا كزار بابنة البات ملك الليديين وبذلك تأكدت روابط العهود المذكورة وفي سنة (٥٩٥ ق م) خلف استياج أباه سيا كزار على تخت ميديا وفي عهده زوج ابنته مندانه بولد من ذرية العائلة الملوكية الفارسية القديمة يقال له قمبيز فرزقت منه بولد سمي كيروش ويقال ان استياج رأى في منامه ان هذا المولود الجديد هو الذي ينزع منه كرسيه فأمر أحد كبار رجال عسكريته المدعو هرباجوس ان يقتله ولكن القائد المذكور أخذته الشفقة عليه فأعطاه الى أحد الرعاة وبذلك نجا من القتل وحصل بعد مدة ان خرج استياج المذكور للصيد وقابل في طريقه كيروش وهو يلعب مع الاطفال ويجري عليهم صورة رسوم المملكة ويلقي الاوامر بنخوة الملك فعرفه وأخذه وأعاده الى أهله وانتقم من رئيس جيوشه المذكور بكونه أطعمه لحم ولده في وليمة دعاه اليها فحقد هرباجوس من أعمال الملك الوحشية وأوعز الى كيروش أن يخرج عن طاعة جده استياج المذكور وعلى ان ينقذ أمة فارس الاصلية من رق عبودية السلطنة الميدية وفي الحال عمل حيلة وأثار نيران الفتنة في قبائل فارس ولما أرسل استياج بالجيوش لتسكين الثورة أظهر هرباجوس التراخي عمدا فاشتدت الثورة والتزم الملك استياج ان يترأس بنفسه على الجيوش ولكنه بعد وقائع كثيرة انهزمت عساكره وضاع أكثرها ووقع استياج أسيرا بعد أن حكم ٣٥ سنة فنودي بكيروش ملكا على الفرس ومن ذلك العهد ابتدأ تاريخ فارس كما يقال

﴿ الفصل الثاني ﴾

السلطنة الفارسية

كانت بلاد الفرس في سالف الزمان عبارة عن الارض الكائنة فيما بين بلاد الميديين المذكورة والخليج الفارسي من جهتي الجنوب والشمال وبين بلاد كرمان وبلاد بابل من جهتي الشرق والغرب ويحيط بها من جهتي الشمال والغرب جبال وعرة لا يمكن الدخول منها اليها الا بعد الجهد الجهيد وكان التوارنيون الذين هم الميديون يخضعون في أول أمرهم للفرس أي للايرانيين لشدة قوتهم

(١) هي مدينة ببلاد آسيا قديما كانت عاصمة لدولتي أشور وأونينوى كانت واقعة على نهر الدجلة بالشمال الغربي من بابل بالقرب من مدينة الموصل الحالية أسسها الكلدانيون منذ الاعصر القديمة وينسب تأسيسها لشخص يدعى أشور أو أثور وروى مؤرخو اليونان ان الملك نينوس حصنها وحسنها وكانت أسوارها مشيدة من القرميد يبلغ محيطها ٨٩ قم وارتفاعها ٣٣ مترا تقريبا وكانت سميكة جدا حتى انه يمكن لثلاث عربات حربية ان تسير عليها بجانب بعضها وكان لها ١٥٠٠ برج ارتفاع البرج ٢٠٠ قدم وقد اشتهرت هذه المدينة بثروتها وفخامتها قال مؤرخو اليونان ان ارباسيس وبيليزيس الذين قهرا سردانابال آخر ملوكها استوليا عليها سنة (٧٥٩ ق م) ثم ان نابو بولاصار وسيا كزار الاول آخر باها سنة (٥٢٥ ق م) وهي بلد يونس عليه السلام وكان أخبر بسقوطها وبظهر ان تلك المدينة مع ذلك كانت باقية ولم يسمع رسمها تماما الا حين افتتاح العرب لتلك الجهات وقد وجدت اطلالها بقرية قيونجق وأمكن للباحثين معرفة مواقع قصورها ومبانيها الفخيمة

ثم لما انهم ضوا من ضعفهم وشقوا عصا الطاعة بقصد أن يكونوا هم أصحاب الدولة قامت الحروب بينهم وكانت سجالا بين الامتين الى ان فاز الميديون وشيدوا دولتهم السابق ذكرها التى استمرت فى زهرتها الى أن انهزم الملك استياج آخر ملوكها

ثم قام كيروش بتشكيل السلطنة الفارسية (سنة ٥٥٩ قم) وفى أول حروبه ضم بلاد الميديين لبلاد فارس ومد جناح سلطنته على جميع القبائل المحيطة بمملكته وبعدها أخذ فى اخضاع كثير من البلاد فتمكن من اخضاع قسم عظيم من بلاد العرب وضرب الخراج على ملوكها ثم عبر بجيشه الجرار نهرى الدجلة والفرات وجعل معسكره فى إقليمى خوزستان والعراق واستولى على مملكة ليديا وقهر ملكها كريزوس الواسع الثروة وكانت له شهرة فى فتح جملة بلاد فى آسيا وفى سنة (٥٤٤ قم) شن الغارة على سائر المدن الاغريقية ببلاد يونيا الممتدة على سواحل بلاد آسيا الصغرى فتم له الاستيلاء عليها سنة (٥٣٩ قم) ثم أخذ فى انشاء سفائن حربية بتلك السواحل للمحافظة عليها وبعدها استولى على مدينة بابل (سنة ٥٣٨ قم) وبهذا الفتح صير جميع سكان الاقطار الكائنة بين نهر السند وبحر الارخبيل الرومى وبين صحارى بلاد العرب ونهر سيحون خاضعة لسلطانه وبعدها استمر ثمانى سنوات بحالة السلم تمكن فى خلالها من تسخير اسارى العبرانيين فى تشييد هيكل أورشليم ثانية وأكثر من صناعة السفن على سواحل سورية ورتب فيها قوما من بحارة الفينيقيين فصارت له فى زمن قليل أساطيل ذات شأن فى البحر المتوسط الابيض

ولكنه فى سنة (٥٢٩ قم) لما أعلن الحرب على توميرس ملكة السيتيين أى قبائل التتار الساكنين بجهات بحر الخزر قابلته الملكة بجيوشها وأبطالها وحدثت بينهما حروب هائلة قتل فى خلالها ابن الملكة المذكورة وأخيرا انتصرت بجيوشها على جيوش فارس وأسرت كيروش ملكهم وقتلته انتقاما لولدها وقال مؤرخو اليونان انه قتل نفسه بيده عندما رأى كسرة جيوشه

ثم قام بعده ابنه قمبيز (سنة ٥٢٩ قم) وأول أعماله أنه فتح حربا على الديار المصرية لاسباب ان الملك أمازيس فرعون مصر كان تعاهد مع كريزوس ملك الليديين على عرقلة مساعيه ولما انتصر قمبيز على جيوش فرعون أرسل من طرفه رسلا لعقد الصلح مع أمازيس بمدينة منف فلما وصلت السفينة اليونانية الحاملة للرسل المذكورين خرج من قلعتها زمرة من المصريين وقبضوا على السفينة وكسروها وقتلوا جميع من بها وعادوا باجزائها علامة على النصر فغضب الفرس من ذلك وهاجموا القلعة وفتحوها عنوة وقتلوا جميع من بها حتى بسامتيك ابن ملك مصر المذكور وبعدها استولى على جميع القطر المصرى وهو الذى شوه وخرب جميع العمائر والقبور والمعابد المصرية

وبعد ما تمهدت له السلطنة بالديار المصرية عزم على محاربة القرطاجنيين بتونس والأمونيين سكان واحة أمون (سيوه) غربى القطر المصرى وعلى الايتوبيين أى الحبشة فى آن واحد فأمر اسطوله الفارسى وكان ملاحوه من الفينيقيين أن يتوجه لمحاربة قرطاجنه فامتنعوا من ذلك لعلاقة الاصل الموجودة بين الجانبين

فعدل عن مراده ثم تقدم نحو الجنوب بجيوشه لمحاربة الحبشة فلم يتمكن من غرضه لوعورة الطريق وقلة المياه فاضطر للرجوع بعد ضياع كثير من جنوده بالجوع والعطش وأخيرا اعتراه جنون ثم مات فى الطريق أثناء رجوعه لبلاده لظهور ردعى على تخت الملك بعد ان عذب المصريين وانتهك حرماتهم الدينية أما الجيش الذى كان أرسله للاستيلاء على واحة أمون فابتلعته الرمال

(٥٢٢ ق‌م) وفى خلال اشتغال ملك الفرس المذكور بافتتاح الديار المصرية قام رجل من طائفة المجوس يقال له غوماتا مدعيا انه سمرديس او برديا بن كيروش وكان قمبيز قتل برديا قبل مبارحته بلاده وساعده بعض اعوانه فتملك على بلاد فارس ولما بلغه موت قمبيز لان قمبيز مات فى الطريق بعد مبارحته مصر ظن المذكور ان الجو صفا له للتمكن من سرير فارس ولكن لم تطل مدة آماله فانكشف أمره واتضح للعموم كذب دعوته فاتفقت عليه الفرس واجتمع ستة امراء منهم داريوس أو دارا بن هستاسب وهجموا على قصره وقتلوا ذلك المجوسى (٥٢١ ق‌م) وقد اختلف هؤلاء الاعيان فى الذى يتولى منهم المملكة الفارسية ثم انهم اتفقوا أخيرا على تولية دارا المذكور

وروى مؤرخو اليونان حكاية عجيبة فى اتفاق الامراء المذكورين وهى ان يركبوا خيولهم عند الصباح ويقصدوا مكانا عينوه خارج المدينة وقالوا ان من يصهل حصانه منهم أولا يكون هو الذى يتبوأ التخت وبذلك يرتفع النزاع وكان لدارا يوس خادم نبيه فلما بلغه خبر هذا الاتفاق انتظر ظلام الليل وركب حصان سيده وأخذ معه جانبا من الحشيش والحبوب التى كان يميل اليها الحصان وقصد المكان المعهود وألقاها فيه ثم حام حولها بالحصان نحو نصف ساعة تارة كان يأتى اليها من الامام وتارة من الخلف ثم نزل عن الحصان وأطلقه عليها فاكلها ثم عاد به الى دار سيده ولم يعطه أكلا الليل بتمامه وفى الصباح ركبت الامراء الستة خيولهم حسب الاتفاق وقصدوا المكان المذكور وعند وصولهم رفع حصان دارا الذى كان أمامهم اذنيه وصهل فترجل حينئذ أصحاب دارا الخمسة وخروا له سجدا وبايعوه بملك فارس

سلطنة دارا

ولما بايع الفرس دارا أخذ يقوى أركان عرشه وكانت بابل أظهرت العصيان منتهزة حصول الفتن ببلاد الفرس فحاربها وفتحها بالحيل الحربية وقتل من أعيانها ثلاثة آلاف نسمة (٥١٧ ق‌م) ثم زحف من سوسة عاصمة بلاده بجيش مؤلف من ٧٠٠,٠٠٠ محارب لاخضاع السيتيين المنتشرين حول شطوط البحر الاسود الشمالية فاجتاز البوسفور على جسر من السفن بناه رجل يونانى وعبر نهر الدانوب أى الطونه وطارد القبائل المذكورة ولكنه صادف صعوبات جمة وخسر أكثر جيشه فعاد وجيش جيشا آخر استظهر به على قسم من الهند وعمل جملة أساطيل فى بحر أريتريا (خليج فارس) ورأس عليها الاميرال سيلاكس اليونانى الشهير فأخضع سواحل البحر المذكور واكتسب داريوس فى هذه الحروب مجدا بحريا ثم كلف داريوس بعد ذلك سيلاكس المذكور باكتشاف مجرى نهر السند من ابتداء بلاد كشمير الى مصبه ولما وصل الى تلك النقطة استمر على سياحته متجها الى الغرب فاكتشف السواحل الجنوبية والغربية من بلاد العرب لغاية الخليج العربى واستمرت هذه السياحة ثلاثين شهرا وهى أول سياحة اجتهد اليونان فيها للوصول الى الشرق الاقصى وكانت فاتحة لطريق نيارك (١)

(١) هو من قواد اسكندر الكبير اشتهر بالملاحة والاكتشافات التى أجراها على سواحل بحر الفرس بين نهرى السند والبستيفر يس وكان مولده بجزيرة أقريطش فى النصف الاول من القرن الرابع قبل الميلاد وكان مصاحبا لاسكندر منذ نشوبيته واستصحبه معه بحروبه بآسيا وجعله أميرا على الاسطول الذى أوجده بنهر السند وقد عادت مساعيه الاكتشافية بغاية النجاح وكان همه بالاكتشافات فى الخليج العربى لولا موت اسكندر ولم يعلم زمن ومكان موته اهـ

الشهير

الشهير الذى عادت اكتشافاته البحرية على الجغرافيا بالفوائد المهمة ثم جهز الجيوش لمحاربة الاغريقيين لنجدتهم اغريق مدن آسيا لما عصوا على داراو لاحراقهم مدينة سارده وقد أصر على الانتقام حتى انه أمر بعض خدمه بأن يذكره عند كل طعام بالانتقام من اليونان فاتخذ أولا جملة مرافئ ومين بسواحل آسيا الصغرى وكان أشهرها مينا أريترا Aritra الكائنة بجون أريترا المقابل لجزيرة ساقز وأكثر فيها من بناء السفن فصارت له أساطيل عظيمة فى مياه بحر الروم وفى سنة (٥٠٠ قم) أرسل أسطولا مركبا من ٣٠٠ سفينة تحت قيادة صهره مردونيوس بعد أن قهر عصاة آسيا لاخضاع اليونانيين ولفتح بعض جزائر الارخبيل فقابلت جيشه قبائل السيتيين فى بلاد تراس بهجمات شديدة وصادف أسطوله زوبعة عظيمة وأنواء شديدة بجوار جبل آتوس فأكرهت الجيش والاسطول على الرجوع بعدما ضاع أكثر السفن ولم ينل غرضه من امتلاك الجزائر البحرية المذكورة ومع كل ذلك لم يرجع عن مراده بل أمر بسرعة تجديد وتجهيز سفن أخرى ففى سنة (٤٩٠ قم) أرسل جيشا آخر وعمارة كبيرة مؤلفة من ٦٠٠ سفينة تحت قيادة داتيس وارتافرنوس ففتح نكسوس وعفا عن جزيرة دِيلوس المقدسة وخضعت له كل جزائر سكلاده بدون مقاومة واخرب أريتريا الواقعة فى جزيرة أوبيه لاستعمالها الخيانة ثم ساق الجيش فى البر على أتيكه وبذلك صارت لداريوس شهرة كبيرة فى جزائر الارخبيل الرومى أما الجيش البرى فانتصر عليه ملتياد بجهة مراتون سنة (٤٩٠ ق م) وبينما كان داريوس مشتغلا بالتجهيزات الجسيمة لاخضاع جميع بلاد أغريقية ظهر العصيان فى مصر فحال ذلك دون مرامه ومرض فى خلالها مرضا شديدا مات بسببه سنة (٤٨٨ قم) وقام بعده ولده اكسيرسيس

سلطنة اكسيرسيس

أول ما بدأ به هذا الملك تخت فارس أرسل جيشا عظيما الى الديار المصرية فأخضعها وعاقب أرباب الفتنة فيها بأشد العقاب ولما وطد الامن فى داخل البلاد المصرية أتم تجهيز الجيوش والاساطيل وقاد بنفسه جيشا عرمرما مؤلفا من نحو مليونى مقاتل بين فرسان ومشاة كما روى اليونان سنة (٤٨١ قم) مسلحين بالاقواس والرماح وسائر الاسلحة البيضاء المستعملة اذ ذاك ومعه عمارة كبيرة مؤلفة من ١٢٠٠ سفينة حربية وثلاثة آلاف سفينة لنقل المهمات ولم تتخلف أمة من أمم آسيا عن مساعدة ملك الفرس فى هذا الحرب كما روى هيرودوت وعند وصوله بهذا الجيش الجرار مضيق الدردنيل أمر رئيس العمارة أن يجعل مراكبه صفا واحدا ما بين ساحل الاناطول وساحل الروملى أى آسيا وأوروبا ويربط السفن بعضها ببعض لتكون جسرا يعبر عليه هو وجيشه الى ساحل الروملى إلا أنه أخفق فى مسعاه أولا وذلك أنه لما تم ربط المراكب قامت زوبعة شديدة أثارت أمواج البحر فكسرت السفن ولما شاهد اكسيرسيس ذلك حنق وضاق صدره لعدم خضوع البحر لما أمر به فأمر بشقه بالنبال وضربه بالحديد وبعد هبوط النوء وسكون البحر أتم صناعة الجسر فعبر فوقه بجيشه العديد ويقال ان مرور الجيش استمر سبعة أيام بلا انقطاع

ولما صار بأوروبا انضم اليه بأمر الملك كثير من سكان تراس ومقدونية وكان يسير بجانبه قريبا من الشاطئ أسطول جسيم وأمر ففصلوا جبل أثوس عن القارة لتتمكن عمارته البحرية من المرور ملازمة للشواطئ ويقال انه فعل ذلك عقابا للجبل المذكور لما كان منه من اغراق عمارة مردونيوس كما مر ثم أخذ فى مقاتلة اليونان فأخضع غالب مدنهم ماعدا اسبارطة وأثينا فانهما مع ضعفهما وقلة عساكرهما بالنسبة اليه قاوماه مقاومة شديدة لان شعبهما كان من أشجع اليونان وأعرفهم بواجب المدافعة عن الوطن ولما اقترب اكسيرسيس من معبر ضيق بين الجبل والبحر يسمى ترموبيل اعترضه ليونيداس ملك اسبارطة بجيش قليل ولما انتشب القتال قاوم ليونيداس الفرس وقتل منهم نحو ٢٠ ألف مقاتل ثم تكاثروا عليه وقتلوه هو ومن معه ولم يسلم الا رجل عاد الى اسبارطة وأخبر بما حصل كما سيجيء.

اما عمارة الفرس المذكورة فأخذت فى محاربة سواحل اليونان وفتح مدنها ثم قصدت أخيرا الهجوم على أساطيل اليونان فتقابلت معها بجوار جزيرة سلامين وهاجمتها فانتشب بينهما القتال وحصلت الموقعة الحربية الشهيرة التى بعد أن استمرت مدة انجلت عن انهزام العمارة الفارسية وضياع عدد عظيم من سفنها (٤٨٠ قم) وكان يقود الاساطيل اليونانية رجلان شهيران من أعيان اليونان وهما اوريبياد وتمستوكل فالتزم ان يرجع هاربا فى سفينة صغيرة الى بلاد فارس وأبقى ببلاد اليونان جيشا مؤلفا من نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل لاخضاعها تحت قيادة مردونيوس فلم يفلح اما اكسيرسيس فانه لما وصل بلاده قتله ارطبانيس رئيس حراسه (٤٧٠ قم) طمعا فى الملك وبعد ذلك أخذت دولة الفرس تتقهقر وتنحط درجتها فى البحر

وفى مدة ارتخشيارش الثانى ارتفع شأن اليونان فى البحر وأتت سفنهم وحاصرت جزائر الارخبيل التى كانت استولت عليها اليونان وطردوا جيوشهم منها وهاجموا سواحل آسيا الصغرى وفتحوا معظمها واخضعوا جزيرة قبرس وكانت تابعة لهم وفى خلال ذلك انتهز المصريون هذه الفرصة ونبذوا طاعة الفرس ظهريا

فلما رأى ارتخشيارش الثانى ملك الفرس تراكم هذه الخسائر الفادحة على مملكته وضعفها فى الحروب الكثيرة المستطيلة لم يجد بدا من عرض الصلح على اليونان فأجابه سيمون رئيس أثينا مقترحا عليه ثلاثة شروط (٤٦٦ قم) أولا أن ترفع الدولة الفارسية يدها عن ممالك اليونان الموجودة بآسيا الصغرى لتكون مستقلة بنفسها ثانيا أن تمنع أساطيلها عن السير فى بحر الارخبيل الرومى ثالثا أن تمنع عساكرها من تجاوز أكثر من ثلاثة أميال من حدود البلاد النازلة فيها فالتزم ملك فارس المذكور أن يقبل هذه الشروط وأجرى التوقيع عليها أى على المعاهدة محافظة على البلاد الباقية له

ثم قام اليونان ثانيا على الفرس وساعدهم اجيسلاس ملك اسبارطة فخرض ملك الفرس بلاد مورة على اسبارطة فالتزم اجيسلاس ان يرجع باساطيله ورجاله الى بلاده لحمايتها وبعد حروب طويلة انتصر الفرس وعقدوا مع اليونان صلحا بشرط اعادة تسليم آسيا الصغرى وجزيرة قبرس للفرس (٣٨٧ قم) ثم بعد ذلك بقيت ملوك الفرس تتوارث الملك الواحد بعد الآخر الى

سنة

سنة (٣٣٦ قم) التى حكم فيها دارا الثالث وفى مدته استولت اليونان على مملكة فارس كما سيأتى

﴿ الفصل الثالث ﴾

حروب دارا الثالث مع اسكندر المقدونى

لما استولى دارا على تخت الفرس كان فيلبش المقدونى يستعد لمهاجمة بلاد الفرس الا ان المنية عاجلته فمات قتيلا وخلفه ابنه اسكندر المقدونى الشهير وكان دارا ابتدأ بتجهيز القوات البحرية والجيوش لمنع تقدم اليونان على بلاده لما علمه من نواياهم ولما رأى حدوث الثورات ببلاد اليونان وقيام أهالى طيبة على اسكندر اطمأن وصرف جيوشه ولكنه لما رأى نجاح اسكندر فى قمع الثورات استأنف التجهيزات لعلمه ان اسكندر هو العدو الالد للفرس فساق دارا أسطولا عظيما وجيشا قويا تحت قيادة ممنون الرودسى على بلاد اليونان لمحاربة المقدونيين فعد ذلك اسكندر إخلالا بالشروط وأسرع باعلان الحرب على دارا ملك الفرس وهاجم آسيا الصغرى بجيش مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل وحارب القائد ممنون المذكور سنة (٣٣٤ قم) وتغلب عليه وقتله فى الواقعة سنة (٣٣٣ قم)

ثم تقدم اسكندر لمقابلة جيش جسيم يبلغ خمسمائة ألف مقاتل ساقه دارا عليه وكان يقوده بنفسه فاستظهر عليه أيضا وأسر امرأته وأمه وأخته سنة (٣٣٣ قم) وكن معه فى القتال فاحسن معاملتهن وطلب دارا ان يفديهن بمبلغ وافر من المال وان يعقد مع اسكندر صلحا ويزوجه بابنته ويهب له الاراضى الواقعة بين نهر الفرات وبحر الروم فقبل اسكندر بشرط حضور دارا بنفسه فاستعظم دارا وأبى ثم سار اسكندر بعد ذلك ففتح بلاد سورية وسواحل فينيقية ولما أتى مدينة صور امتنعت عليه فحاصرها سبعة شهور ثم فتحها وسام أهلها العذاب الاليم ثم فتح الديار المصرية واختط بها مدينة الاسكندرية سنة (٣٣٢ قم) بعد أن زار معبد أمون الشهير بسيوه

ثم عاد وحارب دارا ثانية فى آسيا الصغرى وانتصر عليه فى واقعة اربل الشهيرة بقرب الموصل (سنة ٣٣١ قم) ففر دارا يهيم على وجهه فطارده فى السنة التى بعدها واخترق خلفه جبال البرز والبرارى المقفرة والسهول الموحشة ولما لحقه اسكندر وجده قتيلا قتله أحد أكابر قواده فحزن عليه اسكندر وتأسف على فقده وأقام له جملة مسلات فى أماكن عديدة تذكارا له وانقرضت بذلك قوة الفرس

ثم بعد موت اسكندر بقيت بلاد فارس خاضعة لاحكام اليونان يحكمها أحد قوادهم حتى قام الفرثيون [1] وطردوا اليونان من بلاد الفرس وحكموها بعدهم الى سنة (٢٣٠) ميلادية

(١) أو البارت سيأتى ذكرهم عند الكلام على قيصر و بومبى بتاريخ الرومان

(الفصل الرابع)

ظهور دولة الاكاسرة

ظهر في سنة (٢٣٠ م) في بلاد الفرس رجل يدعى اردشير بابكان جمع الجموع ضد الفرثيين وتمكن بنصرائه من طرد المذكورين بعد أن قهر ملكهم ارطبان الرابع وتشكيل دولة الاكاسرة اودولة بني ساسان وبعد موته استمر يتبادلها أعقابه من بعده وفي سنة (٥٨٠ م) تولى كسرى انوشروان الذي اشتهر بالعدل ونال النصر على الرومان في حروبه واستولى على أكثر ولايات آسيا وهابته الملوك وهادنته وهادته بأفخر الهدايا ومات سنة (٦٢٠) ميلادية وفي عصره ولد النبي عليه السلام وكفى بعدل كسرى أنوشروان شهادة النبي صلى الله عليه وسلم في حقه حيث قال ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان وكان وزيره برزجمهر الحكيم ومدة ملكه أربعون سنة ونيف

وتولى بعده هرمز وحارب طيباريوس قيصر وانتصر عليه وكانت الحروب في عصره مستمرة

وفي سنة (٦٣٠ م) تولى يزدجرد آخر ملوك الاكاسرة لان في أيامه فتحت العرب بلاد العجم وقتل يزدجرد بعد هربه سنة (٣١ ﻫ) في خلافة سيدنا عثمن واستولى المسلمون على بلاد العجم واستمر حكمهم فيها الى سنة (١٢٥٨ م) وفيها هاجم البلاد التتار وأزالوا دولة العرب من بلاد العجم وبقيت تابعة للتتار الى سنة (١٥٠٠ م) عندما قام فيها ملوك من الفرس وشكلوا دولتهم الحالية ولقبوا بالشاهات وسيأتي تاريخهم ان شاء الله ضمن تاريخ دول آسيا وأمريكا الذي سنصدره على حدته عندما تساعد الفرص ودولة الشاهات المشار اليها هي الدولة القابضة الآن على صولجان الملك بتلك الاطراف

الباب الرابع

(الفصل الاول)

تاريخ دولة اليونان القديمة

كانت بلاد الاغريق أو اليونان الذين اشتهروا قديما بالعلوم والمعارف والمدنية صغيرة المسطح قاحلة قليلة الانبات ومع ذلك بلغت من المجد والفخار أعلى درجة حتى فاقت غيرها من الامم القديمة

وكانت تلك البلاد المسماة هيلاس قديما تشتمل على جزء كبير من الجنوب الغربي من تركية أوروبا وهو أقاليم مقدونية والبانيا أي الارناؤط وأبيروس وتساليا وشبه جزيرة موره المسماة قديما بيلوبونيس وعلى جزائر الارخبيل اليوناني وجزائر البندقية وكان لهم بعض مستعمرات أيضا بآسيا الصغرى وجزيرة صقلية وايطاليا وغيرها

(الفصل الثانى)

شعوب اليونان

قال بعض المؤرخين ان أصل البلاجيين وهم سكان بلاد اليونان قديما من الشعوب التى تناسلت من بنى يافث بن نوح وانتقلوا من آسيا الى أوروبا فى القرن السادس بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وقال غيره من المؤرخين ان أصل اليونان من نسل ياوان بن يافث بن نوح عليه السلام وقد انتشروا من آسيا واستوطنوا البلاد التى اشتهرت باسمهم فى أوروبا منذ (٢٢٠٠ سنة قم) وقال آخرون ان أصل اليونان من رجل يدعى اللّن ولد فى السنة السادسة من خروج سيدنا موسى من مصر ولما انتشروا ودرجوا كانوا على الحالة البربرية كما كانت كل الامم فى مبدأ أمرهم الى أن أتاهم قوم من فينيقية يقال لهم التيتانيون قريبا من عصر سيدنا ابراهيم فاختلطوا بالاهالى الاصليين وعنهم أخذ اليونانيون جملة معارف خرجوا بها من حالتهم المذكورة ثم تعلموا عبادة آلهة الفينيقيين وهى الكواكب السيارة مثل زحل والمشترى وبعد قليل أدخل الهيلينيون التيتانيين فى صف آلهتهم

وقد انشأ التيتانيون جملة مدائن صارت فيما بعد قواعد ممالك صغيرة أقدمها ايوم التى تأسست عند خليج ليباتته فى عصر حران جد ابراهيم الخليل عليه السلام أى سنة (٢٠٨٩ قم) ومدينة أرغوس التى تأسست سنة (١٨٥٦ قم) وكان التيتانيون يميلون للحرب والطعان فانقرضوا سريعا ورجع اليونان الى حالتهم القديمة

ولما تقدم أهالى صيدا فى الاسفار البحرية وتجولوا بجزائر الارخبيل اليونانى فى نحو سنة (١٧٠٠ قم) وأسسوا فيها المراكز التجارية ومحطات البحر ابتدأت العمارية والمدنية نوعا بين أقوام اليونان خصوصا بعد ما دخل بلادهم الرجل المصرى المدعو سكروبس فى سنة (١٥٥٦ قم) ومعه قوم من بلاده واستولوا على أراضى أتيكا وأنشؤا فيها ١٢ مدينة فعندها أخذت تلك الشعوب فى التقدم وتزوج سكروبس المذكور بابنة ملك تلك البلاد وأخذ يعلمهم زراعة الكرم والحنطة والزيتون وسن لهم الشرائع والنظامات فلما توسع الفينيقيون فى الاسفار البحرية ببلاد اليونان اتسعت تجارتهم ولما علم اليونان بمكاسب الفينيقيين مالوا الى مجاراتهم فى الملاحة وأخذوا فى مبدأ الامر فى عمل بعض سفائن صغيرة بشكل سفن فينيقية وصاروا يتجولون بها بين البلاد القريبة منهم فلم يمض زمن طويل حتى حازوا شهرة فى فن الملاحة والاسفار البحرية واخترعوا الشراعات المربعة وكانوا يسيرون سفنهم بالمجاذيف والشراعات معا ولما حصل الانقلاب العظيم سنة (١٤٥٠ قم) بين البلاجيين وأكثروا من صناعة السفن وعمل العمارة البحرية العظيمة اتفقت أهالى اليونان الاصليين مع الشعوب الهيلينيين التى توطنت بجزائر الارخبيل وبلاد ايطاليا وجزائر اقريطش وصقلية وسردينيا على عقد محالفة بحرية يساعدون بها بعضهم بعضا ومن وقتها صاروا يدا واحدة فى التعاون على الاسفار بالبحار وقد استمروا على خطتهم هذه الى سنة (٢٥٠ قم) حيث بلغوا فيها درجة عظيمة فى التجارة والتقدم وصارت لهم اليد العليا على سائر

الاقطار الكائنة فى الجهة الشرقية من البحر الابيض المتوسط وزاحموا أهل صيدا فى جميع السواحل فابتدأت المقاتلات بينهم حتى صار اليونان فى حرب دائمى تقريبا مع فينيق صيدا وصار كل فريق يجتهد فى سد طريق البحر على الآخر فمن هذه الاسباب تدنست البحار بصناعة اللصوص البحرى وصارت الاسفار فى بحار اليونان وغيرها غير مأمونة العقبى واستمر الحال على ذلك زمنا طويلا فتح فى خلاله اليونان جميع النزلات البحرية الفينيقية وأقاموا لهم بها مراكز تجارية فى أكثر السواحل فالتزم الفينيقيون عند ذلك على البحث عن طرق أخرى لاعمالهم البحرية ولسير تجارتهم الكبيرة ولم تمض بعد ذلك مدة طويلة على اليونان حتى ظهرت حروب تروادة والحروب الهيراكليدية

﴿الفصل الثالث﴾

تأسيس تروادة وأصلها

أعلم انه فيما بين سنتى (١١٩٤ و ١١٨٤ قم) هاجم اليونان مملكة تروادة المسماة أيضا ايليون وهى مملكة عظيمة كانت فى الشمال الغربى من قسم آسيا الصغرى وكان ملكها يدعى برياموس حين هجوم اليونان عليها وكان لدردانوس جد ملوكها الذين كانوا من السلالة التكرية المرتبطة ارتباطا قويا بالسلالة الميسية ابن يدعى ارختونيوس خلفه تروس ثم خلف تروس ايلوس وهو الذى بنى فى سهل تروادة مدينة ايليون المذكورة ثم خلفه لاوميذون

وقد روت الخرافات اليونانية فى تأسيس تروادة أقوالا لا تدخل عقل عاقل حاصلها أن أحد ملوكها المدعو لاوميذون خضع لاوامر نبتون وابلون بامر جوبتير (المشترى) خضوعا وقتيا فسخر لاوميذون الاول فى تشييد بناء المدينة والثانى فى رعاية الماشية على جعل معلوم يؤديه اليهما ولما انتهت مدة العمل أخلف وعده معهما فاغتاظا منه وأرسل نبتون عليه وحشا بحريا للانتقام منه فلما استشار المعبود أمره بأن يعطى الوحش فتاة عذراء شريفة الاصل فوقعت قرعة الانتخاب على ابنة لاوميذون المسماة (اليسونه) فتحير لاوميذون فى أمره ثم ان هيركليس قتل الوحش فكافأه الملك بخيول قابلة للموت فغضب هيركليس من ذلك وجمع ست سفن وهاجم تروادة واستولى عليها وقتل لاوميذون المذكور وأجلس ابنه مكانه وفى زمنه أغار اليونان على تروادة للاسباب الآتيه

﴿الفصل الرابع﴾

حروب تروادة

ان سبب هذه الحروب الشهيرة التى تغنت بها الشعراء وكانت أول حرب بين الاغريق واسيا كما فى روايات مؤرخى الفرنج أن باريس أو اسكندر بن اريام أو بريامو ملك تروادة القوية كان توجه لبلاد اليونان ونزل ضيفا عند منيلاوس ملك اسبارطة فأكرمه منيلاوس اكراما لا مزيد عليه

وبعد ما أقام مدة فى بلاطه اختطف ابنته هيلانه وكانت بديعة الجمال وكان والدها متزوجا بها وفر هاربا الى بلاده ليلا بعد أن أخذ مالا جزيلا من قصر الملك فلما أصبح الصباح وأحس منيلاوس بهذه الحادثة الشنيعة شق عليه جدا ما حل بامرأته وابنته معا فقام هو وأخوه الشجاع الشهير أغاممنون ملك ارغوس من ممالك اليونان وأخبرا اليونان بما وقع فجاشت صدور أمرائهم حنقا وقالوا ان هذه فعلة لم تحصل لامة من أمم العالم أجمع وطلبوا الامداد من كل جهة وزحفوا جيشا عظيما لمحاربة تروادة بلغ عدده ١٠٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة أغاممنون المذكور وأخيه منيلاوس وجمعت الاساطيل فى أوليس من بيوتيا حتى بلغت نحو ٢٠٠٠ سفينة وركب الجيش سفن العمارة ومخرت بهم تشق عباب البحر الى تروادة وذلك سنة (١١٩٤ قم) فلما وصلوها أخرجوا الجيش الى البر وكان جيش تروادة تحت قيادة هكتور أشجع أولاد برياموس فلما بلغ أهل تروادة قدوم اليونان دخلوا مدينتهم وأغلقوا أبوابها وحصنوا أسوارها فحاصرهم اليونانيون عشر سنوات الى سنة (١١٨٤ قم) حتى اشتد الامر على أهل تروادة ففتحوا أبواب المدينة وخرجوا مشعلين نار الحرب ففى الهجوم الذى حصل بين الجيشين قتل أحد شجعان اليونان المسمى اخلاوس هكتور بن برياموس المذكور فهجم أخوه باريس على اخلاوس المذكور وقتله أخذا بثار أخيه

ثم رأى اليونان تعذر أخذ المدينة لمتانة حصونها ومنعة أسوارها فعدلوا الى استعمال الحيلة والمكيدة التى تكون فى كثير من الاحيان أنفذ سهما وأشد نكاية من الحرب فتراءى لاحد مشاهير شجعانهم المسمى أوريساليس إعمال هذه المكيدة وهى أنه أمر بعمل هيكل عظيم من الخشب على صورة حصان ودخل فيه مع جملة من شجعان اليونان وأمر بوضعه امام أبواب المدينة وأن يقلع اليونان مضاربهم ليوهموا انهم قد كفوا عن حرب هذه المدينة وأنهم برحوها ففعلوا ما أمرهم به ونزلوا فى السفن وأقلعوا فلما عاين أهالى تروادة ارتحالهم داخلهم الغرور ورأوا هذا الهيكل فراق فى أعينهم وسولت لهم أنفسهم ادخاله مدينتهم لعدم علمهم بما هو كامن فيه من رجال المنايا فحاولوا ادخاله من الباب فضاق دونه فهدموا سور المدينة من جانب الباب وأدخلوه فلما انتصف الليل فتح أوريساليس بطن الجواد ووثب منه مع رفقائه وانقضوا على المدينة حربا ونهبا وإحراقا وفى الاثناء عادت سفن اليونانيين مع جموعهم فحملوا عليها وانتهبوا ما بها من الاشياء الثمينة وهرب برياموس مع أولاده الى هيكل هناك فاقتفى أثره بعض اليونان وقتلوه هو وأولاده بالهيكل المذكور وأباد اليونان غالب أهل المدينة فلم ينج منهم الا من أمكنه الفرار وأخذ منيلاوس زوجته هيلانه التى كانت السبب فى خراب تروادة وهلاك عائلتها الملوكية كما سلف فأكرم مثواها ومما زاد فى شهرة حروب تروادة خصوصا قصائد الشاعر هوميروس المعتبر كأبى الشعر اليونانى ولم يعلم بالتحقيق القرن الذى كان فيه هذا الشاعر الأ أن المتفق عليه عند المؤرخين أنه كان فى حوالى القرن العاشر قبل الميلاد

الحروب الهرقولية

انه فى سنة (١١٨٦ قم) قام قوم من نسل هرقل أو هرقول وهم الذين كانوا طردوا من موره فى مدة

ادريستي جداغا ممنون ومنيلاوس وحاربوا اليونان أخصامهم واستولوا على مسيني ولاكونيا وطردوامنها الاخائيين الذين تسمت باسمهم تلك البلاد اخائيا وتوطنوا ثانية باسم الهرقليين وقسموا البلاد الى ثلاثة أقسام وهي أرغوليده ومسيني ولاكونيا ولما رأوا ان القسم الاخير جيد الاراضي طمعوا فيه فقامت بينهم الحروب الداخلية

واعلم انه في القرن الثاني عشر قبل الميلاد استوطن القبائل الهيلانية نهائيا وكانوا قبل ذلك لا يقرلهم قرار بل كانوا ينتقلون من مكان الى آخر حسب الظروف وقد اشتهر من هذه القبائل قبيلة الدوريين التي نزلت من الشمال وأقامت بقسم بيلوبونيز وقبيلة اليونيين أو اليونان التي نزلت بلاد آتيكه بعد أن طردت من شواطئ خليج كورنته وكان لكل من هاتين القبيلتين مدينة أصلية فكان للدوريين اسبارطه ولليونيين اثينة وتاريخ اليونان ينحصر في تاريخ هاتين المدينتين الشهيرتين

(الفصل الخامس)

ذكر اسبارطة

أما جمهورية اسبارطة القديمة فكانت بقسم بيلوبونيز (موره) في الجهة الجنوبية من بلاد اليونان وقاعدة قسم لاقونيا على الشاطئ الايمن من نهر ايروتاس بين نهري اينوس وتيالس اللذين يصبان في ايروطاس المذكور على بعد عشرين ميلا من البحر وكانت تدعى قديما القدمونيه وأخضع الدوريون في أول الامر اللاقونيين واضطروهم لفلاحة الارض ولما ثار عليهم سكان مدينة هيلوس أخضعوها ونكلوا باهلها وسخروهم في الاعمال الشاقة وصيروهم طائفة مرذولة أما الدوريون وعددهم تسعة آلاف فبقوا جنودا وحفظوا أخلاقهم الخشنة القاسية القديمة وأول ملوكها يدعى اسبارطون وهو الذي بنى المدينة سنة (١٥٧٧ قم)

وفي القرن الثاني عشر قم في مدة ملكها منيلاوس حصلت حروب تراوده المتقدمة التي فيها أظهرت اسبارطة قوتها الحربية بالاساطيل العظيمة التي ساقت فيها جيوشها الى ساحل آسيا الصغرى وبعد رجوع الهرقليين الى بيلوبونيز متحدين مع الدوريين سنة (١١٨٦ قم) وقعت لاقونيا في نصيب اوستوديم أحد قواد الهرقليين وهو الذي توفي في أثناء الحرب وخلفه ولداه اورستين وبروكليدس وانقسمت بذلك لاقونيا الى قسمين واستمر حكم أعقابهما في القسمين المذكورين مدة طويلة بهيئة ملوكية

ولما توفي بوليديكتوس (٨٨٤ قم) أحد ملوك القسمين ولم يترك من يرثه في الملك وكانت زوجته حاملا أرادت ان تتزوج بليكورغ أخي زوجها المتوفي ووعدته بانها تقتل المولود ليستمر هو على التخت فلم يقبل طلبها الشناعته وبعد ما وضعت حملها اهتم ليكورغ بتربيته ولقبه بملك اسبارطه وصار يدبر أمور الدولة بالنيابة عنه ثم حصل بينه وبين زوجة أخيه المذكورة نزاع فترك البلاد خوفا على نفسه وقصد جزيرة كريد ومنها توجه للديار المصرية لتلقي العلوم والمعارف ودراسة شرائعها

خصوصا

خصوصا وفى مدة غيابه حصل فى اسبارطة فتن كادت تكون القاضية على وجودها السياسى فبعث الشعب بطلب ليكورغ سريعا ليلقى اليه زمام الملك ويخلص بلاده من الدمار فعاد اليها مسرعا وشمر عن ساعد الجد فسكن الثورات ثم غير هيئة الحكومة الملوكية وجعلها جمهورية تحت نظامات مخصوصة ملائمة ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى اقتدت به أكثر ممالك اليونان لما رأوا من انتظام أحوال اسبارطة وقوتها

﴿ الفصل السادس ﴾

نظامات ليكورغ

لما سن ليكورغ قوانينه سنة (٨٨٤ ق م) أبقى قوة الحكومة بين ملكين كما كانت العادة عند اسبارطة الا انه لم يجعل للملكين خصائص أخرى غير قيادة الجيش وبقيت اسبارطة جمهورية حقيقية وأحدث أيضا مجلس شيوخ (سناتو) مركب من ٢٨ عضوا ومجلسا عموميا للاسبارطيين وجعل لهما القوة دون غيرهما وعين أيضا مراقبين لمراقبة سير الملوك وفى هذه البلاد كانت القوة فى قبضة عدد قليل وكان الدوريون أو الاسبارطيون يكونون عائلات ممتازة عبارة عن جمهورية ارستقراطية

وقد أبقى أيضا ليكورغ الامة منقسمة الى ثلاث طبقات وهى الدوريون واللاقونيون والهيلوت ووزع أجمل الاراضى بين التسعة الآلاف الاسبارطى ومابقى وزعه بين اللاقونيين البالغ عددهم (٣٠٠٠٠) وكان اللاقونيون هم والهيلوت مكلفين بزراعة أرض الاسبارطيين الذين لا يجوز لهم الاشتغال بغير القنص والحرب ليبقوا على قدم الدفاع والهجوم

ومن قوانينه أيضا ان كلف الاسبارطيين بان يأكلوا سوية لاستمرار الألفة دائما بينهم بشرط أن يأكلوا من لحوم واحدة مرتبة كما وكيفا حتى ان الملكين يجب عليهما تناول غذائهما مع بقية الاهالى وكان الغذاء بسيطا للغاية غير متقن التحضير وقد منع ليكورغ التجارة بالمرة ومنع كذلك تداول النقود الذهبية والفضية ولم يسمح الا باستعمال نقود حديدية وجعل قطعها كبيرة الحجم قليلة القيمة جدا حتى يحتاج لمن يقبض مبلغا صغيرا أن يحمله على عربة وكان يحظر على الاغراب طول الاقامة باسبارطة مخافة افساد أخلاق سكانها بادخال بعض عوائد التنعم والترف فيما بينهم وقد اتبع ليكورغ هذا المبدأ بحيث صير الاسبارطيين جنداقويا ومن قوانينه أيضا أن أقام الحكومة مقام العائلة فى التربية وكان الطفل المشوه الخلقة يلقونه حيا فى اخدود يسمى (سيادا) أما الاطفال التاموا الخلقة فكانوا يربونهم تربية واحدة عمومية ويدربونهم على الاعمال الصعبة فكان رئيس كل طائفة منهم يقودها فى القتال وفى زمن السلم يستعملهم كأرقاء فى تحضير الاغذية وكانوا يعودونهم على السرقة ليعلموهم المكر والخداع فكانوا يطلقونهم فى البساتين وأمكنة الغذاء العمومية ليسرقوا منها مايحتاجونه بحيث لو قبض عليهم أثناء السرقة كانوا يجلدونهم جلدا مبرحا على إهمالهم وعدم مهارتهم فى السرقة حتى يحكى أن طفلا سرق ثعلبا صغيرا وأخفاه تحت ملابسه فأخذ الثعلب يمزق باظافره وأسنانه لحم بطنه ولم يظهر الطفل أقل فزع أو تألم مفضلا النجاة بغنيمته على أن يكشف أمره

وكانوا يطلعون الاولاد على سكارى الهيلوت لينفروهم من ارتكاب جريمة السكر وكانوا يربونهم أيضا على احترام الشيوخ جدا يحكى أن أحد الشيوخ لم يجد مرة مكانا للجلوس أثناء حفلة عيد عمومى فقام سفراء اسبارطة من مكانهم وعرضوا عليه مكانهم ومن قوانينه تعويد سكان اسبارطة على النوم فوق الارض وعلى العدو والقفز والقتال وتحمل المشاق والآلام وبذلك صاروا أبطالا فى مقدرتهم تضحية نفوسهم حبا فى وطنهم ومن قوانينه انه حرم عليهم الهزيمة أمام العدو مهما كان عدده وبذلك صار الاسبارطيون أشجع جنود ذكرهم التاريخ ومما روى فى هذا الباب أن اسبارطيا أراد الذهاب الى الحرب وكان به رمد فقال له بعض معارفه الى أين تذهب وأنت على الحالة التى أرى فقال ان لم أتمكن من فعل شئ أتم بقتلى سيف أحد الاعداء

وقد أكسب قانون ليكورغ النساء فضائل الرجال فى الشجاعة فمما روى عن امرأة اسبارطية أنه لما بلغها موت ابنها فى الحرب قالت بلا جزع ما كنت أنتظر منه حيث ذهب لقتال الاعداء الا ان يقتل أو يقتل وأحسن لدى أن أعلم أنه مات موتة شريفة تليق بوطنه وجدوده من ان أراه عائشا ذليلا اهـ وأعطت أخرى لولدها درقته عند ذهابه الى الحرب وقالت له ارجع بها أو محمولا عليها وقالت أخرى لولدها وكان يشتكى من قصر سيفه لا بأس تقدم أنت خطوة الى الامام وغير ذلك كثير وهذه القوانين لا توافق الامة حربية كأهالى اسبارطة لانها صيرت مدينتهم كعسكر وكانت تقوى النفس وتأمر بالاخلاص للوطن فكانت اسبارطة بذلك لبلاد الاغريق بل للدنيا بأجمعها مدرسة وطنية عظيمة ولكن لا يذهب عن فكرنا ان الاسبارطيين كانوا قساة خشنى الطباع على الامم المقهورة وليسوا جديرين بان يعدوا من الامم التى تجعل مثالا لمحاسن الاخلاق

وبهذه النظامات تشيدت جمهورية اسبارطة فهابتها الاعداء وتزلفت اليها ممالك اليونان تطلب محالفتها ولم يكن اهتمام اسبارطة قاصرا على تنظيم داخليتها وجيشها البرى فقط بل اهتمت أيضا اهتماما شديدا بأمر قوتها البحرية فكانت لها سفن كثيرة بها بحارة وقواد من أشهر وأشجع معاصريهم وقد شرعت اسبارطة فى الفتوحات بعد سن نظامات ليكورغ وبعد ان انبثت فى جسم الامة روح تلك النظامات وتضاعف عدد سكانها ومساحة أرضها بالحربين اللذين افتتحتهما على بلاد مسينة

ففى الاول منهما ثبتت أمامها ملك مسينى أوقابس مدة عشرين سنة وانكسرت اسبارطة انكسارا عظيما فى موقعة ايثوم سنة (٧٤٣ ق م) بحيث استولى الرعب على قلوب رجالها

وفى الثانى مات ارستومين ملك مسينة قتل نفسه لخيبة آماله بانتصار جيوش اسبارطة عليه انتصارا نهائيا سنة (٦٦٨ ق م) وهاجر منهم قسم الى ايطاليا ثم الى صقلية وبهم تسمت مدينة مسينا أما من بقى منهم فالتزموا أن يخضعوا للشروط القاسية التى اشترطتها عليهم اسبارطة

وكان منها أن استحلفوهم على ان لا يرفعوا سلاحا فى وجه أهل اسبارطة أصلا وان يدفعوا لهم سنويا نصف محصول غلالهم وأن يمضوا نساء ورجالا بثياب الحداد ليشهدوا جنازة الملوك ولصعوبة هذه الشروط كظم المسينيون الغيظ وانتهزوا الفرص فلم تمض على المعاهدة أربعون سنة الا وشقوا

عصا

عصا الطاعة على اسبارطة فقاتلهم ملكها الكساندريك وهزمهم شر هزيمة وبذلك مد الاسبارطيون جناح تملكهم على جميع بلاد پيلوپونيز تقريباً سنة (٥٠٠ قم) وفي سنة (٤٩٢ قم) لما قامت الحرب الاولى بين الفرس والاغريق لم تتداخل اسبارطة لمساعدة اخوانها من ممالك اليونان ولم يكن ذلك لمقاصد رديئة بل لعوائق داخلية منعتهم عن القيام بهذا الواجب ومع كل ذلك فقد أرسلوا أخيرا ألفي مقاتل حضروا المعركة في اليوم الثاني وفي سنة (٤٨٠ قم) عندما تقدم اكسيرسيس ملك الفرس بجيشه العرمرم وأساطيله التي تجاوز عددها ٢٢٠٠ سفينة تداخلت اسبارطة لمساعدة اليونان ولما وصل ملك الفرس بجيشه الكثيف الى مضيق الترموپيل الحصين المعتبر كمفتاح لبلاد اليونان كانت حراسته موكولة الى ليونيداس الشهير ملك اسبارطة ومعه نحو ٤٠٠ مقاتل فاحتقره الفرس وهجموا عليه فقاومهم مقاومة عنيفة وردهم على أعقابهم خائبين ولما رأى ليونيداس كثرة الاعداء وأنهم أتوا اليه من الخلف أيضا بعد عبورهم المضيق من طريق كان دلهم عليها أحد الفلاحين صرف معظم جيشه وبقي في ثلثمائة اسبارطي يقاوم ذلك الجيش العرمرم بقوة وجسارة خلدت له في التاريخ ذكرا حسنا

ومن شجاعته أن اكسيرسيس كتب له يقول سلم سلاحك فجاوبه بقوله تعال خذه وكانت السهام التي تقذفها عليه الاعداء كثيرة جدا حتى حجبت ضوء الشمس فقال له أحد الجنود ذلك فقال فلنقاتل في الظلام ومازال على مقاومته حتى دهمه الاعداء وقتلوه هو ومن معه جميعا ولم يرد أن يفر لان قانون ليكورغ كان يحظر عليه الفرار مهما كانت حالته أمام الاعداء كما سبق

وتفاوضت اسبارطة مع أجيلون طاغية سرقوسة ليكون لهم معينا على أعدائهم الفرس فوعدهم بذلك تحت شرط أن تكون له قيادة العساكر عموما برا وبحرا فلما سمع بذلك سيارغوس البطل الاسبارطي وكان معجبا بنفسه أجابه في الحال جوابا ينهاه عن ضلاله ثم رضي بأن يكون له نصيب في اصدار الاوامر وقد أظهرت اسبارطه شجاعتها في الحروب البرية وقتلت من الفرس عددا وافرا

وبعد واقعة ترموپيل تقدم اكسيرسيس على أثينا ولم يكن بها أحد لفرار سكانها خوفا من الفرس في وقتها أما السكان فكانوا التجؤا الى السفن كما نصحهم بذلك تيمستوكل وكانت الاساطيل اليونانية راسية بخليج سلامين بمكان موافق جدا للقتال وقد حقق انتصار سلامين ما رآه تيمستوكل المذكور (سنة ٤٨٠ قم) وقبل هذه الواقعة البحرية الشهيرة تشاور الرؤساء فيما يفعلونه وبعد أخذ ورد تمكن تيمستوكل من جعلهم يقبلون رأيه وهو مقاتلة الفرس وكان بعض الرؤساء لايزال يخاف من القتال ولذلك حصل بينهم جدال عنيف حتى ان أوريبياد رفع عصاه على تيموستكل فقال له تيموستكل اضرب ولكن اسمع فذهبت مثلا عند الفرنج ولما كانت الحرب خديعة أظهر تيموستكل للفرس أنه يريد البعد عن سلامين ثم عاد سريعا مستعدا وأمر بالقتال وجاء أرستيد وانضم الى تيموستكل ناسيا ما بينهما من العداوة واتفقا على قتال العدو ومع أن قيادة الاسطول لم تكن لتيموستكل الا انه أظهر اقداما ومهارة غريبة وكانت سفن اليونان لاتزيد عن ٤٠٠ سفينة

وسفن الفرس تتجاوز الالفين ونال اليونان نصرا تاما ولم يفقدوا الا أربعين سفينة وفقد الفرس أكثر من ٢٠٠ سفينة سنة (٤٨٠ قم)

وكان اكسيرسيس جالسا على رابية عالية يشاهد القتال فلما رأى انكسار سفنه فر وكان قد بلغه أن اليونان عازمون على قطع الطريق عليه باحراق الجسر الموجود على الدردنيل وترك ٣٠٠ ألف مقاتل تحت قيادة مردونيوس لمحاربة اليونان ثم سعى مردونيوس فى ايجاد الشقاق بين اليونان فلم يفلح فاجتمعت جيوش أثينا واسبارطة وكان عددها نحو ٦٠ ألفا تحت قيادة بوزانياس الاسبارطى وأرستيد الاثينى ولما تلاقى الجيشان انكسر الفرس انكسارا عظيما وقتل مردونيوس وتشتت شمل الجنود بلدة بلاتياسنة (٤٧٩ قم) ونجت اليونان بهذا الانتصار من استعباد الفرس وكانت غنائم اليونان من ذلك وافرة ثم مات اكسيرسيس قتله أحد أتباعه كما تقدم

أما تيموستكل فانه حكم عليه بالنفى بعد ذلك ونسى اليونانيون جميله كما فعلوا مع كثير غيره من أمثاله حتى اشتهروا بذلك والتجأ تيموستكل الى أحد ملوك مقدونيا وكان عدوه الاكبر ثم التجأ الى الفرس فأحسنوا وفادته ويقال انه سم نفسه مخافة ان يضطروه لحمل السلاح على بلاده

ثم قامت المناظرة بين اسبارطة وأثينا وكانت على درجة عظيمة من القوة وكان أسطولها جسيما وثروتها وافرة فلما حدثت الحرب الثالثة بين مسينه واسبارطة سنة (٤٦٤ ق م) واستمر الى سنة (٤٥٥ قم) أرسلت فى خلاله أثينا جيشا لمساعدة اسبارطة فلم تقبل المساعدة وتسبب من ذلك ان أشهرت اسبارطة على أثينا حربا سنة (٤٣١ قم) استمر الى سنة (٤٠٤ قم) انتصرت فيه اسبارطة وكسر ليساندر قائد جيشها قوات أثينا فى واقعة اغوس بوتاموس البحرية سنة (٤٠٥ قم) وبعدها حاصر أثينا برا وبحرا فلما سلمت خربها وصارت من وقتها تابعة لاسبارطة زمنا الى أن خرجت من تابعيتها

وفى أثناء ذلك ظهرت الدولة المقدونية وبظهورها حصل تغيير عظيم فى الممالك اليونانية وطلب ملكها فيلبش المقدونى والد اسكندر الشهير من اسبارطة الاشتراك معه فى محاربة الفرس فرفضت طلبه وحصل بعد ذلك اتحاد بين الممالك اليونانية لمضادة مقدونيا فامتنعت اسبارطة أيضا من الدخول مع المتحدين ولكنها حركت بعض الممالك لمحاربة مقدونيا فخاب مسعاها

وفى الحرب الذى قام سنة (٢٢١ ق م) بين اسبارطة والاخائيين والمقدونيين انهزمت اسبارطه وتقاسمها المذكورون وفى سنة (١٩٢ قم) خضعت اسبارطة قهرا الى الاتحاد الاخائى وفى سنة (١٤٦ قم) دخلت اسبارطة مع باقى ممالك اليونان قهرا تحت حكم الرومان وفى مدة حكم امبراطرة الرومان كانت اسبارطة متمتعة بسكينة تامة وبعد قسمة الدولة الرومانية مدة ولدى تيود وثيوس صارت قاعدة ولاية تتبعها كل بلاد موره ولما تأسست الدولة اللاتينية سنة (١٢٠٤ م) أدخلت ضمن امارة موره وعقب ذلك كانت مقاطعة تابعة لاحد الامراء من آل باليولوغ ثم استولى عليها السلطان محمد الفاتح سنة (١٤٦٠ م) وطرد منها آخر أمرائها المدعو ديمتريوس وبعد ذلك بثلاث سنوات اتحد الامير المذكور مع بعض الامراء وأحرقها وهذا كان آخر

العهد

العهد بها بعد أن مضى عليها منذ تأسيسها نحو ٢٣ قرنا ولما استقل اليونان أعادوا بناءها ثانية بأمر ملكهم أوتون وهي الآن قاعدة عمالة من عمالاتهم

﴿ الفصل السابع ﴾

مملكة أثينا

كانت أثينا قديما قاعدة لمملكة أتيكة احدى ممالك اليونان و واقعة على بعد ثلاثة أميال من ساحل جون سارونيك الشرقي وعلى بعد خمسة أميال من بيروس او بيريا وهي مشيدة على تل يسمى اكروبوليس ويسميها العرب في بعض كتبهم بمدينة الزيتون لكثرته فيها او يلقبونها بمدينة الحكماء و يطلق عليها أيضا أتيكة

تأسست أثينا فيما قيل سنة (١٦٤٣ ق م) وكان لها ثلاثة ثغور بحرية شهيرة وهي فالير ومينا سلامين الحربية و بيريا فلذلك كانت أساطيلها أكثر وأقوى أساطيل باقي اليونان واشتهر سكانها بعلو المدارك والفوقان في الصنائع وقد تداولها بعد سكروبس المصري السابق ذكره ستة عشر ملكا وكان آخرهم قدروس الذي في أيامه هاجمها الهيراقليديون بعدما استشاروا أبولون (١) وأنبأهم بالانتصار على الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قدروس في الحرب فكانوا يعتقدون بهذه الاوهام فلذلك كانوا في وقت الحرب محترسين من قتل الملك قدروس المذكور ولكنه لما علم بمعتقدهم تزيا بزي العامة ودخل بين صفوف الهيراكليدية وقتل في وسط المعمعة ولما علم الهيراكليديون بموته يئسوا من الانتصار لاعتقادهم بصحة الفأل فانقلبوا راجعين سنة (١٠٩٥ ق م) تخلفه ولداه وقامت المنازعة بينهما

أما الأثينيون فبعد موت ملكهم الذي ضحى حياته حبا في وطنه لم يقبلوا ان يولوا بعده ملكا عليهم فلذلك رفضوا قبول تمليك أولاده وأبطلوا الحكم الملكي وأقاموا الحكم الجمهوري باعتبار ان معبودهم المسمى جوبتير هو الملك عليهم فأقاموا الحكم الجمهوري وكانوا يولون رؤساء كل واحد منهم يسمى أرخونت وأول من تولى هذا المنصب ميدون بن قدروس و بنوه من بعده واستمر الحكم في أعقابهم نحو ٣١٣ سنة

وقال بعض المؤرخين ان الاثينيين قد أجروا جميع أنواع الحكومة في بلادهم فكان لهم ملوك في أول الامر ثم في سنة (١٠٤٥ ق م) أصرت العائلات الكبيرة على أن تكون السلطة بيدها فانتخبوا حكاما سموه بالارخونت يحكمهم طول حياته ثم جعلوه لعشر سنوات ثم لسنة واحدة وعند ذلك كثر عددهم حتى بلغوا تسعة في آن واحد وكانت اسبارطة تجتني ثمرات نظامات ليكورغ من زمن طويل بينما كانت أثينا مشتغلة بالحروب الداخلية ولما التفت الأثينيون لحالة اسبارطة

(١) هو معبود الوحي عند اليونان ومعبود الطب والشعر والفنون والقطعان والشمس وهو ابن المشتري حسب اعتقادهم وأخو ديان ولد بجزيرة ديلوس وكان له مدينة دلف معبد شهير وكانوا يشهرون باسمه كل سنة ألعابا يشتركون فيها وله في خرافاتهم أقاصيص غريبة

كلفوا دراكون بسن نظامات الا أنها أتت قاسية حتى استحال تطبيقها سنة (٦٢٤ ق م) ثم كلف الاثينيون بذلك سولون وكان ابن أحد التجار وساح كثيرا فى البلاد واستطلع أحوالها فأتت قوانينه غاية فى السداد وعادت على أثينا بالفوائد العظيمة سنة (٥٩٥ ق م) ولهذا حسدها الاسبارطيون وأخذوا يسعون فى قلب حكومتها

ولما سن سولون قوانينه أبقى أثينا جمهورية كما كانت الا ان القوة كانت بيد الامة أى جعلها جمهورية ديمقراطية وأبقى أيضا وظيفة الارخونت الذى ينتخب سنويا الا ان الاوامر المهمة كانت تعرض على مجلس سنا ومؤلف من ٤٠٠ عضو ثم تعرض على مجلس الامة وكانت المحاكم مركبة من أعضاء ينتخبون بالاقتراع وأوجد أيضا مجلسا عاليا مؤلفا من أعضاء تولوا المناصب العالية فى الجمهورية ووظيفتهم مراقبة الدين والتربية العمومية وكان هذا المجلس محترما للغاية

وقسم سولون الامة الى أربع طبقات حسب الثروة جعل لكل طبقة نصيبا معينا فى تنظيم الجيش وعين لها أيضا صفها فى القتال ونصيبها من الضرائب فبقى كانت الفوائد التى تنالها مناسبة للثروة تكون وظائفها بتلك النسبة وكان القضاة لا ينتخبون الا من الطبقات الغنية الا ان الامة كانت مع ذلك هى صاحبة النفوذ فى الانتخاب والمراقبة على القضاة أما الارقاء فكانت حالتهم سيئة جدا وكان يمكن للاغراب التمتع بمطلق الحرية ويمكنهم ان يدخلوا ضمن الرعوية الاثينية وكانت المواريث تقسم على السوية بين الاولاد وكان من خصائص المجلس العالى التحقق من كيفية معيشة كل أثينى وكان يعاقب كل من لا يتعاطى عملا ولم تكن الاولاد تربيهم الحكومة كما كان فى اسبارطة بل يربون بمعرفة عائلاتهم وليس للحكومة حق طلبهم الامتى بلغ سن الولد ١٦ سنة ثم يؤخذ ويدخل فى المدارس العمومية ليتربى تربية عسكرية ولو قابلنا بين قوانين سولون وقوانين ليكورغ لوجدنا ان قوانين سولون تخدم حقوق العائلات وحرية كل شخص وتشجع على العمل وتنشر الصناعة والتجارة وتزيد عدد السكان

أما قوانين اسبارطة فغايتها المساواة بين الاسبارطيين وحصر النفوذ بيدهم على غيرهم ولهذا كان باسبارطة ثلاث متراكبة وهى الحكومة وكانت فى يد عدد قليل والمملكة وكانت المتصرفة فى كل شئ تقيدا الحرية والاثرة الشديدة التى اشتهر بها أهل اسبارطة كل ذلك جعل مدينتهم جمهورية ضيقة مقفلة الابواب فى وجوه الاغراب بخلاف أثينا فكانت جمهورية متسعة مفتحة الابواب تحسن وفادة الاغراب وتتمتع فيها العائلات بحقوقها الطبيعية وليس بها طبقة فاتحة ممتازة بل أمة سائدة فى مجتمعاتها الحرة وحكومتها وكانت اسبارطة لا ترمى الا لغرض واحد وهو ايجاد جنود وقد نجحت تماما وصارت مهيبة الجانب الا انه لما سقطت قوتها لم يبق منها شئ بخلاف أثينا المدينة الصناعية التجارية العلمية الحرة فانها حفظت آثارها مدة اجيال حتى حينما فقدت حكومتها استمرت المركز الحقيقى للحضارة الاغريقية

وفى خلال ذلك أخذت ملوك الفرس تهاجم اليونان فقامت الحروب بين أهالى أثينا وجيوش الفرس وكانت الوقائع كثيرة والحروب بينهم سجالا وفى سنة ٤٩٠ ق م لما نجح داتيس وارتفرن قائد عمارة داريوس الاول المؤلفة من ٦٠٠ سفينة فى فتوحاته بجزائر الارخبيل هاجم بعدها

سواحل أتيكة وأنزل بها جيشا مركبا من ١١٠٫٠٠٠ مقاتل فقاومتهم جيوش أثينا واسبارطة التى كانت تحت حكم ميلتيادس (٤٩٠ ق م) وشتت شمل جيشهم فالتجؤا الى المراكب طلبا للنجاة بعدما قتل منهم ٧٠٠٠ جندى ومنهم هيبياس دليلهم فى هذه الحملة واكتسب ميلتيادس شهرة لا مزيد عليها بهذه النصرة المسماة بواقعة مراتون

ثم جهزت له أثينا أسطولا عظيما وملأته بالجيوش وذهب ميلتيادس لمحاربة الفرس فى جزائر الارخبيل وكانوا استولوا عليها تحت قيادة داتيس فنجح أيضا فى ذلك نجاحا كبيرا واستخلص كافة الجزائر المذكورة من أيدى الفرس غير أنه صعب عليه أخذ جزيرة باروس فعاد الى بلاده ظافرا منصورا الا أنه بعودته على هذه الصورة لم ينظر اليونان فى أثينا الى ما اكتسبه ميلتيادس من الغنائم وما فتحه لهم من الفتوحات بل نقموا عليه لعدم فتحه الجزيرة المذكورة واتهموه بأخذ الرشوة من الفرس ولذلك حكموا عليه بدفع غرامة عظيمة فوجم لهذه المعاملة القاسية والمكافأة السيئة التى أضاعت أتعابه ادراج الرياح فمات بعد قليل من الزمن

وفى سنة (٤٧٠ ق م) تقدم الملك اكسيرسيس بجيوشه ولما وصل الى بلاد أتيكا اتخذ جهة أودويوباغوس مركز المعسكره ثم وقعت موقعتا ماراتون وسلامين الشهيرتان اللتان انتصر فيهما اليونان على الفرس وأرجعوهم القهقرى وقد وصف راشيل الشاعر اليونانى الشهير تلك الوقائع وصفا بليغا مؤثرا وكان من أبطالها ولم تكن الحروب بين الفرس واليونان انتهت بما اكتسبه الاولون من الظفر فان اليونان أغاروا على الفرس وكانت أساطيل الاثينيين القوية تجوب بحرا تحت قيادة سيمون بن ملتيادا الذى لم يحقد على الاثينيين لما فعلوه مع أبيه بل قام لهم بأعمال جسيمة وخدم جليلة وانتصر على الفرس انتصارا عظيما بحريا على شواطئ آسيا ثم اتهموه بما اتهموا به كثيرين غيره ونفوه ولما لم يلتجئ مثل تيموستكل الى الفرس عفوا عنه قبل انتهاء زمن نفيه ثم تولى قيادة الاساطيل وانتصر بها على الفرس ثم مات من جرح أصابه فى قتال قبرس سنة (٤٤٩ ق م) وعادت الاساطيل تحمل جسده واتفق أنها قابلت أسطولا فارسيا فهزمته حتى كأن سيمون يهزم الفرس حيا وميتا ثم عقدت معاهدة مع ملك الفرس ارتكسيرسيس بها استقلت المستعمرات الاغريقية بآسيا وصار بحر ايجى بأجمعه بحرا اغريقيا وتعهد ملك الفرس بان لا يرسل فيه سفائن حربية

وقد عادت الحروب الفارسية المشهورة بالحروب الميدية بالفخر والمجد على أثينا التى تحملت أثناءها أعظم المشاق وأكبر الضحايا ومن ذلك الوقت صارت سكان الجزائر والمستعمرات يعدون بدهم طلبا لمحالفة أثينا أيضا وكانت أساطيلها القوية صيرتها عزيزة الجانب مهيبة الجناب وألقت اليها مقاليد الدولة ببلاد اليونان

وقد نالت أثينا هذه السلطة بمساعى بركليس أعظم رجال عصره وأمهرهم فى الادارة (٤٤٩ - ٤٢٩ ق م) وكان بركليس خطيبا شهيرا حاز الرئاسة بفصاحته العجيبة وكان خالى الغرض كريما لا يتطلع الى الوظائف ونوال الشرف بلا استحقاق ولا يتصرف الا فى الوظائف التى سلمتها له الامة فكان فريدا فى الجمهورية باستحقاقه وخبرته فى الامور سواء كان فى الوظيفة

أو خارجا عنها وقد اهتم بتحسين أثينا وجعلها أجل المدن وانشأ بها البارتينون أو هيكل منرف وكان من المرمر الابيض تحيط به العمد الضخمة مزينا بادق النقوش ولا تزال اطلاله للآن تستوقف الابصار وتحير الانظار وله غيره من المبانى العمومية الفاخرة وقد اشتهر عصره فى تاريخ اليونان حتى سمى بعصر بركليس وفى سنة ٤٣١ قم وقعت حروب بين مملكة كورانته وجزيرة كورسيرا (كرفو) وأعقب ذلك حروب بيلوپونيزه

(الفصل الثامن)

حروب پيلوپونيزه

٤٣١ - ٤٠٤ قم

كانت مدينة أثينا تثير عوامل الغيرة والحسد لدى أهل اسبارطة لما نالته من الثروة والقوة وكثرة المحالفين ولهذا حرضت عليها أشهر أمم بيلوپونيزة فحصل اذذاك أن انقسمت بلاد اليونان الى عصبتين وقعت الحرب بينهما مدة تبلغ ٣٠ ثلاثين سنة مع ما تخللها من الهدنات (٤٣١ - ٤٠٤ قم) وهى المسماة فى التاريخ بحروب بيلوپونيزة أى مورة فكانت اسبارطة وكورانته وجميع ممالك بيلوپونيزة الواقعة فى شمالها من جهة وكانت أثينا وتساليا و بعض جزائر الارخبيل من الجهة الاخرى فكان جيش اسبارطة مؤلفا من ٦٠٠٠٠ مقاتل يقوده ارخيداموس ملكها وجيش أثينا كان عدده ٣٢,٠٠٠ مقاتل وكانوا يفوقون أهل اسبارطة بقوتهم البحرية وقد اتفق أن تفشى الطاعون بمدينة أثينا من أول الحرب وكان مما زاد الحالة ارتباكا وشدة تراكم أهالى القرى بتلك المدينة لان حصول الحرب اضطرهم لذلك ولما لم يجدوا بيوتا صالحة لسكناهم كانوا يسكنون فى مدة الصيف فى أكواخ ضيقة لا يدخلها الهواء ولهذا كان الموت بينهم كثيرا وكانت الجثث ملقاة على بعضها فى الطرق وكان كثير من التعساء يطوفون فى الطرق أو حول المياه وقد أنهكهم العطش والجوع حتى ان الاهالى تركوا العوائد الدينية المتبع عملها فى دفن الموتى فكانوا يدفنون موتاهم بقدر ما يصل اليه الامكان وقد ترتب على وجود الطاعون بتلك المدينة اختلالات كثيرة منها أن كل انسان صار يمكنه الانكباب على فعل كل ما تسوله له نفسه بتمام الحرية ولما رأوا التقلب السريع من مثل موت الاغنياء فجاءة وثروة الفقراء فجاءة لم يتفكر الناس الا فى التمتع السريع لان الحياة والثروة أصبحتا مهددتين بالزوال ولم يكن الناس يخافون لا من المعبودات ولا من القوانين

ثم خفت وطأة المرض قليلا الى ان زالت تماما بعد ان أخذت من الاثينيين عددا عظيما من ضمنهم بركليس الشهير (٤٢٩ قم) وكان من أشهر حكام أثينا عقلا وعدلا وكان موته مصيبة عليهم لانه لم يوجد من يخلفه فى صفاته وأفعاله ثم دامت الحرب سجالا بين الطرفين الى أن أشار عليهم نسياس الحكيم فعقدوا صلحا وهو المسمى بصلح نسياس سنة (٤٢١ ق م) الا أن هذا الصلح كان عبارة عن هدنة فقط ثم ظهر رجل يسمى السيبيادغرر بالاثينيين وأوقعهم فى حرب كانت وبالا عليهم وهو حرب صقلية (٤١٥ - ٤١٣ ق م) وقد كانت جزيرة صقلية يسكنها بعض جالية الاغريق يخضعون لحكم أقوى مدنيتها وهى مدينة سرقوسه وكانت المدن الصقلية

تتوسل الى أثينا بطلب المساعدة لحمايتهم من جور ملوك سرقوسه فقام السيباد المتقدم وحسن للأثينيين ارسال الامداد وأطمعهم فى الاستيلاء على الجزيرة المذكورة فجهز الاثينيون أسطولا مركبا من ١٣٤ شانية صحبة جيش وأرسلوه الى تلك الجزيرة وكان من ضمن قواد ذلك الجيش السيباد ولكنه ما كاد يصل الى المدينة حتى استدعوه ليجاوب عن تهمة عظيمة اتهموه بها وهى كسر أصنام معبودهم المشترى فداخله الفزع وفر الى اسبارطة فعينت أثينا مكانه قائدا آخر للاسطول يدعى ذيموستين ثم هزم الجيش والاسطول معا لعدم حسن تدبير القواد وكان الاسبارطيون أرسلوا مددا الى أهالى سرقوسه لطلبهم ذلك ولما وصلت الجنود الاسبارطية ألزموا جنود أثينا برفع الحصار عن سرقوسه واشتبك بينهما القتال فدارت الدائرة على الاثينيين ولم يتمكن من بقى منهم من الرجوع الى وطنه بل وقعوا فى يد الاعداء وبعد أن أظهر ذيموستين شجاعة غريبة قتل نفسه مسموما مفضلا ذلك على الموت بيد أعدائه فأسف عليه الاثينيون أسفا شديدا لانه لم يقصر فى القيام بواجباته وكانت تلك الكسرة مشؤمة على أثينا وسببا فى ضعف قوتها (٤١٣ قم) فلهذا انتهز الاسبارطيون تلك الفرصة وجددوا الحرب على أثينا أما السيباد فأكرمه الاسبارطيون أحسن اكرام وقلدوه مركزا عاليا فى الجيش وأخذ يحارب وطنه ثم أساء السيرة فأرادوا الانتقام منه فهرب الى بلاد الفرس وأقنعهم بمساعدة الاثينيين فكافأه الاثينيون على تلك الخدمة بالعفو عنه وسمحوا له بالعودة الى مسقط رأسه وقلدوه رئاسة أسطول وجيش أثينى كانا بشواطئ آسيا فحارب بهما وانتصر فى البر والبحر على أعداء أثينا أى اسبارطة ومحالفيها وبذلك ردسلطة أثينا على بلاد يونيا وشواطئ الدردنيل

ثم عاد الى أثينا منصورا حيث قوبل بالتجلة والاحترام (٤٠٨ قم) وبعد ذلك بقليل تغلب الاسبارطيون ثانيا واستولوا على الاماكن التى كان استخلصها السيباد ثم بعد ذلك اضطر السيباد للهجرة وانزوى بلاد ترانه حيث قتله الفرس بعد قليل وليس لهذا الرجل مثيل من حيث كثرة تقلباته ونواله لعظيم المدح وقبيح الذم جمع بين الاضداد علو الفضائل وسافل الرذائل

واستمرت الحرب غير معلومة النتيجة الى أن ظهر الضعف والفشل من جانب الاثينيين الذين كانوا لا يزالون أصحاب النفوذ فى البحر لكثرة أساطيلهم واكتسبوا واقعة بالقرب من جزائر أرجينوس على شواطئ آسيا الصغرى وكان أسطولهم فى تلك الواقعة مركبا من ١٠٠ سفينة فأتلفت سفن المتعاهدين عن آخرها (٤٠٦ قم) وبعد ذلك بقليل دهم الاسبارطيون جيش أثينا الذى كان يقوده كانون أعظم قوادها وتغلبوا على شواطئ ترانه بالقرب من النهر المسمى ايغوس بتاموس (٤٠٥ قم) ووقعت غالب سفن الاثينيين فى يد ليساندر الاسبارطى الذى أغرق منها عددا عظيما

ولما كانت قوة أثينا مرتكزة على بحريتها كانت هذه الهزيمة هى القاضية عليها ثم قصد ليساندر أثينا وحاصر ثغرها البحرى بيرا ولما اشتد القحط بأهالى أثينا وفتك بهم سلموا مدينتهم بشروط مصالحة متضمنة أن الاثينيين يهدمون حصن ميناء بيرا ويهدمون أيضا السور الذى مبدأه من المدينة وغايته الى الميناء وأنهم لا يأخذون من سفنهم الا اثنتى عشرة سفينة ويتركون الثغور التى كانوا تغلبوا عليها سابقا وان يعيدوا المنفيين الى مواطنهم وآخر الشروط أنهم لا يشهرون

حربا الا باذن منهم وبذلك استولى الاسبارطيون على أثينا كما استولوا على كل المدن التابعة لها وهدم ليساندر جزأ عظيما من أسوارها وأزال بذلك نظامات سولون وقوة الامة ونصب عليها ثلاثين شخصا من المخلصين لاسبارطة وهم المسمون فى التاريخ بالثلاثين طاغية وكان من أعمالهم ان أمروا بقتل أكثر من ١٥٠٠ نفس بلا محاكمة واقتسموا فيما بينهم أموالهم وأفحشوا فى المظالم فصرخ أهالى أثينا من سوء تصرفهم ثم إن أحد الاثينيين المسمى تراسيبول وكان التجأ الى مدينة طيبة تمكن من تجنيد بعض أهالى وطنه الذين كانوا هاجروا معه ثم أتى وهجم بهم على أثينا وخلصها من يد أولئك الحكام المدعوين بالاراخنة وأخذ فى لم الشعث وايجاد الامن والوفاق وأصدر أمرا بالعفو العام عن المذنبين فتكللت مساعيه بالنجاح وأحبته الاهالى

ولما انتهى حرب بيلوبونيزه أشهر اليونان الحرب على الفرس ولما كانت اسبارطة أخذت المقام الاول بين المدن الاغريقية لزمها المدافعة عنها وحصل أن الفرس هم الذين سهلوا لاسبارطة هذا العمل وخبر ذلك أن أخا ارتخشيارش منيمون ملك الفرس تآمر على أخيه المدعو كيروش وأراد خلعه والجلوس على التخت مكانه ولهذا اجتذب كيروش كثيرا من اليونان الذين كثر عددهم ببلاده وكانوا بلا عمل عقب الحروب الاهلية التى كانت ببلادهم فانتقى منهم أكثر من ١١,٠٠٠ وأدخلهم تحت لوائه ثم تقدم بهم وبغيرهم من جنوده الفارسية قاصدا مدينة بابل فقابله جيش ارتخشيارش وسد عليه الطريق عند مدينة كوناكسه ببلاد كلدة القديمة (٤٠١ ق م) ولما دارت رحى الحرب بين الفريقين انهزم كيروش وقتل فى الواقعة وبذلك صارت الجنود اليونانية وعددهم ١٠,٠٠٠ منفردين وسط الدولة الفارسية وكان يلزمهم ان يقطعوا فيافى عظيمة وسهولا واسعة الى ان يصلوا الى شاطئ البحر ثم احتال الفرس على قوادهم فدعوهم الى وليمة وغدروا بهم وقتلوهم عن آخرهم

وكان بصحبة ذلك الجيش عالم أثينى يسمى اكزنيفون كان صحب الجيش ليستفيد من السياحة فقوى عزائمهم وبولى رئاستهم هو وغيره ممن وقع عليهم الانتخاب ثم أخذوا فى السير متجهين نحو البحر الاسود قاطعين الجبال التى ينبع منها الدجلة والفرات وتوغلوا فى جهات قاحلة وسباسب مقفرة تسكنها قبائل حربية حتى وصلوا الى شاطئ البحر بعد أن قاسوا المشقات وتحملوا الاتعاب الشديدة وفقدوا منهم كثيرا بالحرب والبرد والجوع ومن هناك استعانوا بالمدن اليونانية الموجودة على شواطئه لتوصيلهم إلى بلادهم وقد بقى ذكرهم فى التاريخ وقطعوا فى الخمسة عشر شهرا التى قضوها فى الذهاب والاياب ١٤٥٠ فرسخا واخترقوا بلادا لا تزال غير معروفة للآن تماما

وانسحاب هؤلاء الجنود بتلك الصفة أعظم برهان على علو درجة اليونان وحسن نظامهم اذ أمكنهم وهم فئة قليلة ان يتجولوا ببلاد الفرس الواسعة وقد ألف اكزنيفون المذكور تاريخا لهذه الحادثة الشهيرة وقد ظهر من انسحاب العشرة آلاف من اليونانيين بتلك الصفة ضعف دولة الفرس ولهذا انتهز أجيسيلاس ملك اسبارطه تلك الفرصة للاغارة على بلاد الفرس والسير بداخلها الى ان يصل الى عاصمتها وكان انضم الى أجيسيلاس المذكور يونان آسيا ورأسوه على جيوشهم فلم ينجح أجيسيلاس فى مشروعه هذا لانه اضطر للعودة الى اسبارطة ليحميها من اغارة جيوش طيبة وأثينا وأرغوس وكورانته المتحدة عليها وكان ذلك الاتحاد بمساعى دولة الفرس وكان ليساندر لما بلغه تالب المدن المذكورة على اسبارطه أتى سريعا لنجدتها الا أنه مات فى واقعة

ثم حضر اجيسيلاس فوجد بلاده على شرف الدمار قد هزمت جنودها وكسرت أساطيلها وتقابل مع الاعداء قرب مدينة قورونه ولما دارت رحى الحرب انتصر اجيسيلاس نصرة عظيمة (٣٩٤ قم) وبذلك توقف تقدم المخالفين وحفظت الدولة الاسبارطية وعادت سلطتها على ما كان لها من المدن القديمة

الأن كانون رئيس جيش الاثينيين خرب اقليم لاكونيا وقوى اسوار أثينا وحصنها بما بذله الفرس من الاموال فلما رأى الاسبارطيون ذلك وقع الخوف والرعب فى قلوبهم من أهل أثينا وكانوا قبل لا يخشون لهم بأسا فلذلك تفكروا ان ليس أصلح لهم من مصالحة الفرس فعقدوا معهم معاهدة كان المتولى عقدها من طرف اسبارطة شخص يدعى انتالسيداس (٣٨٧ قم) وكان من أعداء اجيسيلاس ومن أهم بنودها التنازل للفرس عن المستعمرات الاغريقية التى بآسيا وغير ذلك من الشروط التى يعلم منها انحطاط الوطنية عند أهل اسبارطة وحصل بعد ذلك أن سكان جميع المدائن اليونانية كانت تأتى لتتخذ ملك الفرس حكما فى فصل مخاصماتهم ويفرطون فى مصالح وطنهم مقابل ما بينهم من الغيرة والبغضاء

(الفصل التاسع)

مدينة طيبة

٣٧٩ - ٣٦٢ قم

ان مدينة أثينا لم يعد فى مقدرتها أن تقوم من الضعف الذى سببه لها حرب بيلوبونيزه وكانت اسبارطة ابتدأ أمرها فى الضعف أيضا وكان من ضمن مدن اليونان مدينة أخرى ستقبض وقتاما على النفوذ الذى كان لأثينا واسبارطة وهى مدينة طيبة والفضل فى نوال هذه المدينة تلك الدرجة الرفيعة راجع الى رجلين عظيمين وهما بيلوبيداس وابامينونداس واتفق ان جيشا اسبارطيا تحت قيادة رجل يدعى فيداس نزل أثناء سفره لقمع عصيان بجوار مدينة طيبة التى كانت اذ ذاك منقسمة بين طائفتين متعاديتين لما قد وقع فيها من الاضطرابات التى أضاعت نظامها فطلب بعض رؤساء الطائفتين من فيداس أن يساعده على خصمه فأجابه لمطلوبه فى الظاهر ثم هجم عليهم واستولى على قلعتهم ولما كان ذلك من الظلم والتعدى لانه لم يكن بين تلك المدينة واسبارطة الا الصلح رفعوا أمرهم الى أجيزلاس ملك اسبارطة فلم ينصفهم تماما لانه كان يرى اباحة الاستيلاء على ما فيه المصلحة

وكان أهل اسبارطة لما استولوا على طيبة حكموا بالنفى على كثير من أهاليها فخلوا لهم الجو فالتجأ المنفيون الى الاثينيين وكان منهم شخص يقال له بيلوبيداس من أهل الوجاهة اشتهر بالفضل وسداد الرأى فقصد أن يخلص بلاده مما أصابها وأرسل سرا يعلم أهل بلدته بما قصده ثم أتى المدينة ودخلها مختفيا ومعه عدة من الابطال الذين يعتمد عليهم وهجموا على الحكام الظلمة وقتلوهم واستخلصوا مدينتهم (٣٧٩ قم) وكان ذلك بمساعدة بطل من أبطال طيبة يدعى ابيامينونداس وهو من أعظم الفلاسفة واسع المعارف وقد اتحد مع بيلوبيداس قلبا وقالبا واجتهدا فى رفع شأن وطنهما واصلاح ما تزعزع من أركانه فنالا بذلك ذكرا مخلدا

ومن أعمال بيلوبيداس تشكيل الفرقة المقدسة وكانت تتركب من ٣٠٠ شخص

منتخبين من بين أشجع الابطال وكانوا يحلفون يمينا أنهم يفضلون الموت جميعا ولا ينقهقرون أصلا ثم ان بيلو بيداس درس نظام الجيوش عند اللقدمونيين ودرب جيش طيبة على القتال والصبر على النزال فى وقائع صغيرة حتى تمكن من الوقوف أمام جيوش اسبارطة ومنازلتهم

ثم سعى أهل اليونان فى الصلح بعد ذلك لازالة هذا التفرق الحاصل واجتمعوا بمدينة اسبارطة فأبى ايامينونداس خضوع بلدته لاسبارطة ثانية وأصر على بقائها مستقلة لا تعلق لها بغيرها فعند ذلك محوا أسماء أهل طيبة من وثيقة المشارطة العمومية وتعصبوا جميعا على مدينة طيبة ثم أغاروا جميعا على أهل طيبة الذين استعدوا للقائهم بثبات جاش وقوة جنان وجعلوا ايامينونداس أمير الجنود بينما كان بيلو بيداس يقود الفرقة المقدسة المار ذكرها وساروا للملاقاة الاعداء غير ملتفتين لاقوال الجبناء وكانت عدة عساكرهم ٦٫٤٠٠ جندى أما عساكر المتحزبين فكانوا يزيدون عن ٢٦٫٠٠٠ مقاتل ودارت رحى الحرب بالقرب من مدينة تدعى لوكتروس سنة (٣٧١ ق م) فأظهر الطيبيون شجاعة وإقداما غريبين واقتحموا المهالك بعزم أكيد لبغضهم للجور ومحبتهم للاستقلال فانتصروا على أعدائهم نصرا عظيما وبعد تلك الواقعة انفصلت جميع المدن التى كانت خاضعة لاسبارطة وانضمت الى طيبة ثم ان عساكر طيبة دخلت بلاد بيلوبونيزه تحت قيادة ايامينونداس وعاثت فيها حتى وصلت أبواب مدينة اسبارطة وبذلك تكذب القول الكبريائى الذى قاله أهل اسبارطة من ان النساء اللقدمونيات لم تر اصلا دخان معسكر عدو ولم تنج اسبارطة من الوقوع فى مخالب أهل طيبة الا بما بذله ملكها الهرم اجيسيلاس من المساعى ومع ذلك فان ايامينونداس قبل أن يرجع الى وطنه أنقذ أهل مسينا من قبضة اسبارطة ليكونوا له عونا على أعدائه ثم عاد يرفل فى ثياب العز والفخر ومع ذلك لم يعامله أهل وطنه بما يجب

ثم تحزب الاثينيون وأهل اسبارطة وغيرهم على طيبة فأرسل أهل طيبة بيلو بيداس الى ملك الفرس ارتكزرسيس لينضم اليهم فقبل ذلك لما بينه وبين أهل أثينا واسبارطة من العداوة القديمة وأكرم بيلو بيداس جدا لفضائله وبعد ذلك سافر بيلو بيداس الى تساليا ومقدونية وغيرهما وذلك لاعلاء شأن بلاده ومد نفوذها وربط علائق المودة والمهادنة مع من يستفيدون منه من الملوك ثم مات فى واقعة ببلاد تساليا (٣٦٤ ق م) وانتقم الطيبيون ممن قتلوه وأجروا له عند دفنه احتفالا فائقا جدا

وكانت اذ ذاك نيران الحرب مشتعلة جدا بين طيبة وأعدائها وير يد ايامينونداس ان يتغلب على الاسبارطيين مرة أخرى ليطحنهم طحنا حتى لا تعود لهم قائمة فالتقى بجيشهم بالقرب من مدينة منطينا (٣٦٢ ق م) وانقض على الاعداء واقتحم صفوفهم بمفرده فأطبقوا عليه من كل جانب ورشقوه بالنبال فأصيب بجرح قاتل وخلصه جنوده من يد الاعداء وهو مشرف على الموت وكان السهم الذى اصابه لا يزال فى مكانه وقرر الاطباء انه لو نزع لأدى الى الموت وأتى اليه أحبابه من الضباط واحتاطوا به مظهرين الاسف والحزن على ما حل به وبهم وسأل حينئذ عن حال جنوده وأى جيش لاحت عليه علامات النصر فأخبروه أن أهل طيبة هم المنصورون فصاح قائلا لقد هان على الموت الآن وقال لمن حوله لا تنظروا أن هذا اليوم هو آخر أيامى بل هو أول سعادتى ومبدأ نعيمى لانتصار أهل طيبة وانخزال أهل اسبارطة ثم أشار اليهم بنزع السهم فبكوا بكاء شديدا

وقال له أحدهم ان من الاسف ان تموت بلا عقب فقال له لا لانى أترك من بعدى عملين عظيمين جليلين يقومان مقام الذرية وهما انتصار لوكروس (١) ومنتينا (٢) ثم تناول السهم بيده وانتزعه فمات لوقته ، وقد اتصف ايبامينونداس بجميع الفضائل والخصال الجيدة والافعال الجميلة وكانت نفسه لا تتوق الى شئ الا لجلب الصالح ودفع الطالح وكان يعظم والديه ويحبهما جدا وكان واسع المعارف متواضعا قليل الكلام سالكا مسلك الزهد وقد جعله بعضهم أعظم رجال اليونان

اضمحلال طيبة واليونان وقيام مقدونية لقد كان موت ايبامينونداس وبيلوبيداس ضربة قاسية على مدينة طيبة التى لم يقم لها اسم ولم يعرف لها فى التاريخ رسم الا بقيام هذين البطلين الشهيرين اذ بعد موتهما سقطت الى الدركة التى كانت عليها سابقا غير أنها كانت لا تشت قوة اسبارطة التى كانت لا تشت قوة أثينا وبذلك أضعفت مدن اليونان بعضها بعضا ووقعت بينها المنازعات وتبدلت قوانينها بالظلم والجور وعند ذلك تكونت جهة الشمال مملكة قوية وهى مملكة مقدونية التى حكمت بعد ذلك كل هذه المدائن التى كانت تحسد بعضها بعضا وأدخلتها فى دائرة العبودية كما ستقف عليه فى الفصل التالى

وبعد واقعة منتينا المذكورة اضطر اليونان لعقد صلح لا ينقض واستقر رأيهم على ان كل مدينة تحفظ حريتها فاستقامت أحوالهم نوعا بذلك وان كانت اسبارطة لم ترض بهذا الشرط وأرادت ان تتداخل فى أعمال الفرس لاضعافهم فأرسلت للمصريين الخارجين على ملك الفرس اذ ذاك جيشا لمساعدتهم تحت قيادة أجيسلاس فلم ينجح فى تلك الواقعة بل رجع مخذولا ومات اجيسلاس فى سن متقدم أثناء رجوعه

الباب الخامس

﴿ الفصل الاول ﴾

مقدونية

ان هذه المملكة اليونانية القديمة كانت واقعة فى شمال بلاد اليونان وهى الآن داخلة ضمن أقاليم بروزه وسلانيك والروملى الشرقى من تركية أوروبا وقد سميت باسم قبيلة بيلاجية كانت تسمى ماسدن استوطنت تلك البلاد من زمن قديم وكانت تحد جنوبا ببحر اليونان وتساليا وغربا بسلسلة جبال بندة التى كانت تفصلها عن ايلليريا وأبيريا وشمالا بجبل أوربيلوس الذى كان يفصلها عن البلاد المسماة داردانيا وشرقا بجبال رودوب التى تفصلها عن بلاد تراس وهى قطر فسيح خصب كثير المياه والغابات يصلح لان يكون مركز مملكة قوية وكان بعض قبائل الاغريق استوطنت فى تلك الجهة وكان ملوك مقدونية يجتهدون كثيرا لاعتبارهم من الجنس الاغريقى ولهذا أمكنهم التسلط على بلاد اليونان فيما بعد وكانوا يدعون انهم من ذرية هرقل أما اليونان فكانوا يعاملونهم

(١) مدينة قديمة بقسم بيوتيا من بلاد اليونان (٢) مدينة قديمة بقسم أركاديا من بلاد اليونان

معاملة البربر والفرس وأشهر ثغورها سلانيك وغولوس أما مبدأ تاريخها فمجهول على الراجح تستره ظلمات ولا يعلم عنه خبراً أكيداً قبل زمن فيلبش أبى اسكندر الكبير ولا بأس أن نلم ببعض ما قالوه

روى بعض المؤرخين ان مؤسس مملكة مقدونية هو كادنوس أو كادنس الارغوسى الذى ملكها سنة (٧٩٤ قم) وبقى الملك فى أعقابه الى ان قام فيها امنتاس الاول سنة (٥٣٧ قم) وفى أيامه أرسل ميغاباز وس قائد داريوس الاول ملك الفرس رسلا من طرفه الى مقدونية وطلب من ملكها امنتاس المذكور ان يسلمهم ماء وترابا علامة على خضوعه للفرس فقبل ذلك لانه كان ضعيف الجنان ويقال انه أدب مأدبة فاخرة للسفراء المذكورين فلما اجتمعوا فيها دعت خشونتهم أن يطلبوا منه نساءه فلم يظهر تمنعا غير أن ابنه اسكندر الاول عد ذلك اهانة كبيرة وصمم على الانتقام فألبس جماعة من خدام القصر ملابس النساء وأدخلهم على الفرس ولما اختلوا بهم طعنوهم بالخناجر فقتلوهم عن بكرة أبيهم

وفى سنة (٤٩٨ قم) مات امنتاس وقام بعده اسكندر الاول (٤٩٦ - ٤٩٤ قم) ثم برديكاس وكان صغيرا ولم يرث من أبيه الا مقدونية العليا ثم قام على أخيه واستظهر عليه بمعاونة الاجانب ثم نازع بعد ذلك بوزانياس وكان اختلس الملك فنال مقصده وتم له التملك على عموم مقدونية كلها (٣٩٣ قم) وهو أبو فيليش أبو اسكندر الكبير ولم يمض زمن طويل حتى هاجمه ارغيوس بن بوزانياس وطرده من المملكة ولم يتمكن من استرجاعها الا بمساعدة التساليين ثم حالف اسبارطة ليقوى على خصومه وفى خلال ذلك كان ولده فيليش يتعلم بمدينة طيوه او طيبة فنون السياسة والحرب وغيرهما من العلوم المشهورة عند اليونان ووقف على كيفية نظام جيوشهم وقتالهم وعيوبهم وتحاسدهم وأسباب كل الاضطرابات الحاصلة بتلك الجمهوريات الصغيرة الفاسدة التى يوجد بها على الدوام رجال يتاجرون بوطنهم وكان سبب ذهاب فيليش الى طيبة هو ان بيلو بيداس ملك طيوه أرسله هو وغيره من أعيان البلاد الى طيبة لينتظم حالهم وتزول الفتن من بينهم وذلك بينما كانوا دعوا بيلو بيداس لازالة الشحناء من بينهم وكان وقتئذ لا يتجاوز عمره العشر سنوات فأقام فيها ١٢ سنة ولما بلغه خبر قتل أخيه (٣٦٠ قم) وان البلاد فوضى هرب من طيوه وعاد الى بلاده فوجد أهلها يقاتلون من كان السبب فى قتل ملكهم ويحاربون أهالى ايلليريا وكان لبرديكاس الثالث ابن صغير يدعى اميتاس فأخذ فيليش على نفسه ان يكون وصيا له وقبض على الاحكام باسمه

ثم بعد قليل طلب المقدونيون من فيليش أن يكون هو الملك لانهم لا يريدون أن يملكهم طفل فأجاب طلبهم وملك مقدونية (٣٥٩ - ٣٣٦ قم) وبمجرد ما جلس على التخت شرع فى الاصلاحات على اختلافها فرتب الجنود ترتيبا جيدا وسن لهم قوانين محكمة على مثال ما رآه منها فى طيبة واخترع كيفية فى صف الجنود لم يسبقه اليها غيره وكان عدد تلك الجيوش يبلغ ١٦ ألفا تسير منضمة الى بعضها وكانت طليعتها تتركب من ألف مقاتل وكان خلف هذا الصف الاول ١٥ صفا أخرى مختلفة الاسلحة وكانت الستة صفوف الاولى فقط لها حراب يختلف طولها بين ستة أمتار وسبعة بحيث ان حراب الصف السادس تزيد بنحو المتر عن جنود الصف الاول ولو حدث وهجم العدو عليهم لوجد نفسه امام غابة من الحراب لا يمكن الدنو منها أما الصفوف الاخرى فكان يجب عليها

مساعدة الصفوف الاولى وسوقها الى الامام وكانت هذه الجنود تسمى بالفالانج ولم ير فى ساحة من ساحات القتال عدد من الجنود يتحرك بانتظام كهذا معرضا للاعداء كتلة عظيمة من الحديد كالتى بايدى هؤلاء الجنود ثم أخذ فيليبش يستعد براو بحرا لاخضاع الممالك اليونانية وضمها الى مملكته بعد أن استولى على المستعمرات اليونانية الكائنة على سواحل مقدونية

وفى خلالها كانت أثينا واسبارطة قد ضعفتا من الحروب مع الفرس وكانت طيوة أيضا قد ضعفت فى حروبها مع اسبارطة كما تقدم فأخذ يستعمل الخدع السياسية لايقاع الممالك اليونانية ببعضها وكان له فى ذلك مهارة عجيبة لما له من النفوذ بين أهلها وأكابرها فساعدوه على تنفيذ مقاصده وقد أمر فيليبش باستخراج الذهب والفضة من معادن مقدونية فصار يستخرج منها قدرا وافرا كل سنة فتمكن بقوة الدرهم أن ينال مالا يمكنه نواله بالسلاح فظفر بقبيلة من قبائل الاثينيين وأخضعها له فصارت تعينه فى حروبه وخلص بلاد تساليا مما حل بها من الظلم وجند منها فرسانا ضمهم الى جيوشه وربما كان سار لافتتاح بلاد اليونان باسرع مما حصل اذا لم تعرقل مساعيه خطب الخطيب الشهير ذيموستين التى كشفت الغطاء عن نياته وكان ذيموستين لا ينفك عن انذار الاثينيين وايقاع الرعب فى قلوبهم وكان له الكلمة النافذة لديهم وكان ذيموستين المذكور فى أول أمره ألكن اللسان ضعيف الصوت فاستعمل طرقا عادت عليه بالنجاح حتى فاق غيره من الوعاظ ومع كل الفصاحة والبلاغة والتحريض والتحميس الذى استعمله ذيموستين فى خطبه ضد فيليبش ومقاصده فان شجاعة أهل أثينا كانت خمدت لفساد أحوالهم وتبدل نظامهم وانهماكهم فى الشهوات وقبولهم الرشوة فى الاحكام واعتمادهم على جنود مملكة أجنبية فلو وجد ذيموستين فى زمن عز الاثينيين وحريتهم لمنع طمع أهل مقدونية فيهم

أما السبب الذى تمكن به فيليبش من دخول بلاد اليونان فهو حدوث الحروب المقدسة التى استمرت عشر سنوات وسببت الاضمحلال والفقر فى جميع المدن اليونانية وحاصل تلك الحروب أن أهل مدينة فوسية كانوا استولوا على قطعة أرض من الاراضى المرصدة على المعبود ابولون الذى بمدينة دلف وحرثوها غير ملتفتين الى قوانينهم الدينية فأشهر عليهم من يجاورهم من المدن السلاح للانتقام منهم على ما فعلوه وحكم عليهم مجلس الانفكتيون بالكفر وبالعقاب الشديد وبقى فيليبش يقاتل أهل فوسية ومن انضم اليهم عدة سنوات (٣٥٧ - ٣٤٦ ق م) حتى تمكن من محو هذه الامة من عداد الامم الاغريقية وأخذ ما كان لها من الاصوات فى مجلس الانفكتيون باقرار اليونان أنفسهم مكافأة له على صنيعه وبذلك صار فيليبش معدودا ضمن العائلة الاغريقية وأعطوه أيضا حق الادارة على بعض الالعاب العمومية وكان هذا النجاح خطوة أولى خطاها فيليبش فى مجال مشروعاته واكتسب عند اليونان احتراما عظيما ولما رجع الى بلاده أخذ يستعد منتظرا الفرصة لتنجيز مقاصده وفتح حوالى مملكته عدة فتوحات ثم ذهب وحاصر مدينة بوزانطية لقطع الاقوات عن أثينا لانها كانت ترد لها من تلك المدينة وذلك فى مقابلة اغراء أهل أثينا الفرس للقيام على فيليبش واشهار الحرب عليه ثم وقعت العداوة بين فيليبش وأثينا بتحريض ذيموستين كما تقدم وأرسل أهل أثينا البوزنطية امدادا تحت قيادة أحد رجالها المشهورين المتصفين بالفضائل والمعارف المدعو فوسيون وكان هذا الرجل يعارض ذيموستين ويأمر أهل أثينا بالصلح

لانه كان يرى ان الحرب لاينشأ عنه الا المصائب فتمكن بذلك من المصالحة مع فيليبش الذى دعته بعد ذلك مدائن اليونان يقود جيشا فى حرب مقدسة ثانية ضد اللوكريين الذين كانوا دنسوا أراضى دلف بمخالفة الديانة أما فيليبش فعوضا عن ان يسير ضد تلك الامة استولى على مدينة ايلاتى المعتبرة كمفتاح لبلاد بيوتيا واتيك سنة (٣٣٨ قم)

ولما استولى فيليبش على تلك المدينة وقع الرعب فى قلوب سكان أثينا وأخذ ديموستين يثير عوامل التهيج والتعصب ضد فيليبش بما كان يلقيه عليهم من الخطب البليغة وبمساعيه اتحدت أثينا مع طيبة التى كانت مهادنة لفيليبش ومعادية لأثينا ثم جهز المدينتان جيشا عظيما واستعدتا للحرب استعدادا قويا غير ملتفتتين لاقوال فوسيون أحد عقلاء أثينا ولما أخبر به الكهنة من سوء العاقبة

ولما رأى فيليبش ذلك طلب الصلح فامتنعوا فدخل بلاد بيوتيا وحصلت بينه وبين جيش طيبة وأثينا واقعة بالقرب من مدينة تسمى شيرونه وكانت عساكر الفريقين متقاربة فى العدد والعدد ولما دارت رحى الحرب انتصر المقدونيون انتصارا عظيما سنة (٣٣٨ قم) وأظهر اسكندر بن فيليبش فى هذه الواقعة مهارة عجيبة أما ديموستين فانه ولى هاربا لانه كان جبانا فى الحرب بقدر ما كان شديد القوة فى الوعظ وقد أخطأ الاثينيون فى تنصيبه قائدا لجيوشهم دون فوسيون ومما زاد فيليبش عزا وفخرا عند الاثينيين وأهل طيبة انه أطلق اسراهم بلا فدية وجدد المواثيق القديمة بين جمهوريتى أثينا وطيبة وكان منذ ما ولى يتفكر فى محاربة الفرس لاذلالهم وقد زاده هذا الانتصار الحديث تعلقا باذيال هذه الفكرة فجمع أمراء اليونان بمحفل عام بمدينة كورانته وشاورهم فى ذلك فاقروا عليه ونصبوه قائدا عاما للجيوش التى ترسل الى بلاد الفرس غير انه لم يتمكن من اخراج هذه الفكرة من القوة الى الفعل لانه مات قتيلا بمدينة ايلا عاصمته بعد ذلك بقليل بينما كان يهتم بزواج ابنته المسماة كليوباتره ليتفرغ للحرب (٣٣٦ ق م) قتله شاب من الاعيان يسمى بوزانياس كان بينه وبينه عداوة قديمة ومدة حكمه ٢٤ سنة وقد اتصف بجودة القريحة وعلو الهمة ومزيد الشجاعة وحسن التدبير وكرم الاخلاق وان كان له من الصفات المذمومة ما يجعله ممقوتا كغيره من ملوك اليونان

﴿ الفصل الثانى ﴾

اسكندر الاكبر

(٣٣٦ - ٣٢٣ قم)

اعلم ان اسكندر هذا الملقب بالمقدونى والاكبر هو من نوادر الرجال ونوابغ القائمين الذين جاد بهم الزمان أما سبب تلقبه بالاكبر فانه لما لم يكتف بحكم بلاد مقدونية واليونان تاقت نفسه لاخضاع آسيا وغيرها فنجح فى كل مشروعاته كما سترى وكانت تلوح عليه دلائل الفخر والنجابة منذ نعومة أظفاره يحكى ان فيليبش والده كان كلما استولى على مدينة عظيمة كان اسكندر يقول لمن فى سنه من الاطفال ان أبى يأخذ كل شئ ولا يترك لى عملا جيدا أقوم به يوما من الايام

معكم وقد اعتنى والده بتربيته وتهذيبه جدا فسلمه لارسطاطاليس أعظم فلاسفة عصره ليقوم بتربيته وتهذيبه وكتب له عند ذلك كتابا خلاصته (انني رزقت ولدا فحمدت الله على اعطائه لي في زمنك ومرادي انك تقوم بتربيته وتهذيبه بحيث يكون جديرا بان يخلفني على تخت مكدونية) وقد درس اسكندر على ارسطاطاليس السياسة والآداب وجميع العلوم المعروفة في زمنه وكان مولعا بقراءة قصائد هوميروس [1] الشاعر المتضمنة حروب تروادة وكان لا يترك هذا الكتاب من يده ومتى نام جعله تحت وسادته

ولما جلس اسكندر على التخت وعمره ٢٠ سنة أظهر اليونان الفرح والسرور لموت فيليبس وشقوا عصا الطاعة طمعا في نوال الاستقلال وقام ذيموستين محرضا مشجعا واعدا متوعدا طالبا رافضا محببا الخروج على اسكندر لانه كان يصفه بصغر السن والبله وان مملكته مشرفة على الدمار فقامت المدن اليونانية باجمعها وأشهرت السلاح على اسكندر وذبحت الجنود المقدونية المرابطة بها فخاف أهل مقدونية من ذلك وأشاروا على اسكندر أن يسلك معهم سبيل الصلح والرفق لصغر سنه وعدم مقدرته على قمع جميع هؤلاء الاخصام فلم يقبل منهم قولا وجرد جيوشه واقتص أولا من أهل ترانه والايلريين وغيرهما لشقهم عصا الطاعة ثم أقبل نحو طيبة وافتتحها عنوة واسترق جميع أهلها ولم يبق على الحرية غير الكهنة وذرية بندار الشاعر ثم هدمها ولم يبق منها غير بيت ذلك الشاعر المذكور احتراما له ولما بلغ الاثينيين فتح طيبة أخذهم الرعب وأرسلوا يلتمسون الصلح والعفو من اسكندر فأجابهم لمطلوبهم ثم ذهب الى كورانته وعقد بها مجلسا عاما من كافة بقاع بلاد اليونان وأظهر لهم عزمه على فتح بلاد فارس وطلب منهم أن يجعلوه القائد العام لهذا الحرب فقبلوا جميعا ثم عاد اسكندر الى مملكته ليستعد لفتح اسيا ولم يرض بالزواج فرارا من ضياع الزمن في العرس ثم انه فرق ما جمعه من الاموال على أمرائه وقواد جيوشه ولم يبق لنفسه شيأ حتى قال له أحدهم ما الذي أعددته للانفاق على نفسك فقال الرجاء ثم أناب عنه بمقدونية انتيباتر وأبقاه مع العدد الكافي من الجنود والاساطيل وخرج من عاصمته ومعه من الجنود (٣٥،٠٠٠) مقاتل يقودهم ضباط مجربون (٣٣٤ ق م) وعبر مضيق الدردنيل على ١٦٠ سفينة

أما مملكة الفرس وقت هذه المحاربة فكانت مشرفة على الدمار تقريبا لان اتساع ارجائها وسوء سير ساستها واسترقاقها للامم الخاضعة وجبروت ملوكها الغارقين في بحار الملاذ والتنعم ان لم يكن موجبا للخراب كان معينا عليه وزيادة على ذلك كانت المرازبة لبعدهم عن عاصمة المملكة يكادون ان يكونوا ملوكا مستقلين وكانت الاضطرابات والدسائس لا تفارق ايوان الملك فمن ذلك ان ملكها المسمى أخوس الذي تولى بعد ارتكزرسيس كان قتل إخوته فقتله الطواشي بغواس ثم ولي بعده ارسيس ثم قتل ارسيس أيضا وولي بعده دارا الذي قتل ذلك الطواشي ولولا ذلك

(١) هو شاعر شهير يوناني يعتبرانه أعظم الشعراء له قصائد طنانة في حرب تروادة سارت بذكرها الركبان ويقال انه كان ضريرا ينتقل من مدينة الى أخرى ينشد أشعاره ويظن انه كان في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد أي في نحو سنة (٩٠٧ ق م) ولا يعلم شئ حقيقي عن شخصه حتى ان البعض أنكر وجوده بالمرة وقد ادعى أهالي سبع مدن يونانية انه ولد بها ويحتمل انه ولد اما بازمير أو بجزيرة ساقز اه

لقتله وكان دارا الملقب كودومان هو ملك الفرس وقت اغارة اسكندر على بلادهم ولما وصل الى ترواده قدم ذبائح لابطال الاقدمين الذين قتلوا فيها فاستمال بذلك أكثر قلوب اليونان ثم دخل بلاد الفرس ولما علموا بقصده خرجوا لقتاله بجيش جرار مؤلف من مائة ألف مقاتل ثم التقى الجيشان عند شاطئ نهر غرانيكوس [1] وجرت بينهما أول الوقائع فانهزم الفرس وتأثرهم اسكندر وفى وقت المعركة هجم اثنان من أمراء الفرس على اسكندر ولولا مساعدة أحد الامراء المقدونيين المدعو كليتوس لقتلاه ثم تقدم اسكندر على طول شواطئ آسيا الصغرى حتى استولى على بلادفرجيا فخضعت له مدينة اليكارناس المتحصن بها ممنون الرودسى أحد قواد الفرس الشهيرين فحاصرها واستولى عليها وخربها

وكان للفرس عمارة قوية جدا لانها كانت مؤلفة من أساطيل المصريين والفينيقيين وولايات آسيا الصغرى البحرية وعلم اسكندر ذلك وان سفنه قليلة لا يمكنها الثبات أمام عمارة الفرس فتركها قائلا لاعوانه انى أملك البحر باستيلائى على البر ثم أرسل يطلب جنودا جديدة من بلاد اليونان وعزم على صرف وقت من الزمن ببلاد فرجيا لتستريح جنوده ويستعد لملاقاة الفرس وفى سنة (٣٣٣ ق م) عاد داريوس بجيوش عظيمة يتجاوز عددها ٥٥٠,٠٠٠ مقاتل حسب رواية اليونان فلاقاه اسكندر فى واد بالقرب من ايسوس فى كيليكيا وجرت بينهما الواقعة الثانية وكانت أشد من الاولى انهزم فيها دارا بعد ما هلك من جيشه عدد لا يحصى وفر هاربا وقطع نهر الفرات غير مصدق بالنجاة فاستولى اسكندر على أمواله وأسر أمه وزوجته ستاتيرا وابنه وابنتيه وكن يتبعنه فى القتال فعاملهم بالرفق والحلم ثم تقدم الى سوريا واستولى عليها وافتتح أحد قواده مدينة دمشق ووجد بها للفرس أموالا تجل عن الحصر ثم سار الى فينيقية واستولى عليها أيضا الا مدينة صور فانها امتنعت عليه فحاصرها بجيوشه برا وباساطيله بحرا ثم فتحها عنوة بعد حصار دام سبعة شهور وقتل من أهلها خلقا كثيرا وعلق ألفين من رجالها على أسوارها وباع من أهلها ٣٠,٠٠٠ أسير وصادر عظماءها ثم تركها قاصدا غزة وكانت منيعة جدا فلم تسلم الا بعد حصار شاق ولما فتحها ذبح معظم سكانها ثم سار ودخل أورشليم وعامل أهلها بالرفق واحترم هيكلهم وكهنتهم ثم تقدم الى مصر سنة (٣٣٢ ق م) وكانت تابعة للفرس ولم يبد سكانها مقاومة لكراهتهم للفرس سيما وان حامية الفرس كانت بها قليلة ولم يغير شيأ من عوائدها القديمة بل أبقاها على حالتها الاصلية فلهذا مال المصريون اليه وأحبوه وترنموا بمديحه

(والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان)

ثم تقدم جهة الغرب لزيارة معبد امون [2] بسيوه ولقبه كاهنه الاعظم بابن الشمس وعند رجوعه

---

(١) نهير بآسيا الصغرى ببلاد ميسيا أو ترواده وهو أحد النهيرات التى تصب فى نهر بروبونتيد ويسمى الآن استولاصو وقد اشتهر هذا النهر بهذا الانتصار وبالنصر الذى ناله الهالوكولوس على متر يدات سنة ٧٣ ق م اه

(٢) هو معبود الشمس وكانت مدينة طيبة المصرية المقر الاصلى لعبادته ثم انتقل الى الواحة العظيمة التى سماها اليونان واحة جوبتير امون وتسمى الآن سيوه وهى على بعد (٣٥٦) كيلومترا من الجنوب الغربى من اسكندرية ولا يزال يشاهد بها للآن اطلال هيكل أمون وبركة الشمس وكان الرومان واليونان يصورون هذا المعبود برأس كبش كما كان يفعل المصريون من قبل وقد زار اسكندر الكبير معبد هذا المعبود وكان أهل طيبة المصرية يسمونه أمين رع أى أمين الشمس

اختط مدينة الاسكندرية لتكون مركزاً لتجارة الشرق والغرب فوفد اليها كثير من الاجانب وامتدت بها العمارية

ثم استخلف على مصر كليومينوس أحد قواده وعاد الى آسيا ثانية بعد ما خضعت له سواحل البحر الابيض الشرقية وما جاورها من الجزائر ولما دخل اسكندر آسيا بعث اليه داريوس وفداً فارسياً يطلب منه فداء زوجته وأهل بيته بمال وافر وانه يعقد معه الصلح ويزوجه ابنته ويجعل مهرها كل الاراضي الواقعة بين نهر الفرات و بحر الروم فأجابه اسكندر انه مستعد لذلك بشرط ان يأتي دارا بنفسه يطلب ذلك منه فعظم هذا على دارا ولم يقبل التنازل الى هذا الحد وأخيراً عزم اسكندر على مطاردة دارا وكان قد توارى فى البلاد الكبيرة التى بقيت له فاجتاز نهري الفرات والدجلة بجيش مؤلف من ٦٠,٠٠٠ عسكري والتقى بجيوش فارس بالقرب من مدينة اربل وكانت تزيد عن ٩٠٠,٠٠٠ راجل و ٥٠,٠٠٠ فارس جميعهم مسلحون بالسيوف والرماح ومعهم مائتا مركبة حربية و ١٥ فيلا ويقال انها أول مرة خرجت فيها الافيال للحرب فى غير بلادها ولما رأى المقدونيون كثرة الفرس وجلوا وأشاروا على اسكندر أن يهجم عليهم ليلا فقال انى لا أحب ان أختلس النصر

ولما انتشب الحرب خرج على اسكندر كمين كان دبره له دارا فلم ينجح وفسدت الحيل الحربية التى أتاها الفرس كلها ولما رأى اسكندر فزع المقدونيين من هزيمة جناحهم الايسر أوعز الى منجم كان معه ان يبشر المقدونيين بالنصر فنادى المنجم بصوت عال فانتعشت النفوس وبعد كفاح طويل أظهر فيه الفريقان شجاعة غريبة انتصر اسكندر على الفرس بعد ان قتل منهم عدداً وافراً وانهزم دارا وفر هارباً الى بكتريا (بلاد بلخ) ودخل الرعب فى قلوب الفرس واستولى اسكندر على بابل وسوس وبرسيبوليس عواصم البلاد واغتنم أموالهم وفتح بعدها جميع البلاد وتتبع دارا الى ان وجده مقتولا فى الدامغان سنة (٣٣٠ ق م) قتله رئيس حرسه وكان فر معه فحزن اسكندر لذلك وأمر بأن يدفن دارا باحتفال يليق به بمقابر ملوك الفرس وسلم القاتل لعائلة دارا لتقتص منه فقتلوه شر قتلة

ولما انتصر اسكندر بواقعة اربل وقتل دارا خلا له الجو وثبت قدمه بلا منازع فاخذ فى اصلاح البلاد المفتتحة وترتيبها وفرق على رفقائه وحتى على جنوده الاموال والذخائر التى وجدت بخزائن ملوك الفرس وغيرهم وأرسل الى والدته الومبياس هدايا فاخرة ثمينة مما غنمه وكان لا يرضى أنها تتداخل فى أعمال الحكومة أصلا وكان انتيباتير الذى أبقاه بمقدونية نائباً عنه قد اشتكى له من تداخل أمه فى الاعمال ويقال ان انتيباتير كتب له مرة كتاباً يتضجر فيه من سلوك أمه فكتب له اسكندر يقول بعد أن قرأه ألا تعلم يا انتيباتير ان عشرة آلاف كتاب ككتابك هذا تمسحها عبرة واحدة من عبرات الام ومن حميد أعماله وجليل صفاته ما يروى عنه انه بينما كان يتعقب دارا اخترق بجيشه أرضاً مقفرة عديمة المياه فاشتكى الجيش قلة المياه وأنهكه العطش حتى أشرف على الهلاك وبينما هم كذلك اذ رأى اسكندر جماعة من المقدونيين يحملون ماء فى قرب محمولة على بغال ولما رأوه وكان ذلك وقت الهجير وقد أعياه العطش جداً أخذوا خوذة من خوذهم وملؤها ماء وأحضروها له فسألهم اسكندر قائلا لمن هذا الماء فقالوا لاولادنا ولكنا لا نبكي على فقدهم ما دمت أنت حيا

فتناول منهم الخوذة ثم التفت الى فرسانه فوجدهم يتطلعون الى الماء فرده لمن أحضره له ولم يشرب منه نقطة واحدة وشكرهم على فعلهم قائلا لو شربت منه بمفردى فان هؤلاء القوم يفقدون شجاعتهم ولما سمع منه الفرسان ذلك تعجبوا من قناعته وعلو نفسه وصاحوا قائلين انهم يتبعونه لاى مكان أراده ولا يظنون الموت مادام عليهم ملك مثله

ولما أصبحت أموال بلاد آسيا فى يد اسكندر ورأى بها ملاذ الملك ونعيم المعيشة التى أفسدت أخلاق الفرس من قبل عاث فى الاراضى واستعمل الجبروت ومال الى الابهة وما يناسبها من الاحوال وصار يسر من المدح والتمليق فتذمر من ذلك المقدونيون سيما لما رأوا ان ملكهم خلع الملابس اليونانية واستعمل الملابس الفارسية ودعاهم الى تعظيمه وتبجيله تبجيلا يقرب من العبادة ومن طغيانه ان أمر بقتل عدة من خواصه مثل بارمانيون القائد المحنك وابنه بلتاس وكليتوس الذى نجاه من القتل فى واقعة غرانيكوس كما سبق ومنها سجنه لجاليتوس الفيلسوف لانه عارض القول بتأليه اسكندر

ثم سار اسكندر بجيشه وتوغل بلاد مقفرة ودخل البلاد المسماة الآن بافغانستان وتركستان التى لا تتمكن عساكر الامم المتمدنة الآن مع ماهى عليه من جودة التدريب والمعدات ان تقطعها الابمشاق عظيمة وجال فى تلك البلاد عدة سنوات وأسس كثيرا من المدن سماها باسمه وبذلك نشر فى وسط آسيا أفكار الاغريق وعوائدهم وعلومهم ثم طمع اسكندر وتقدم لفتح بلاد الهند وفى خلال ذلك تزوج بأسيرته روكسانا ابنة ملك الفرس سنة (٣٢٧ ق م) وهزم بوروس (فيروز) أعظم ملوك الهند بقرب نهر هيذاسب ببلاد بنجاب وأسره ثم أرجع اليه ملكه وحالفه لما رآه فيه من علو النفس

ولما رأى عسكره ان لاحد لاطماع رئيسهم اسكندر حينما وصلوا الى نهر بيجا أبوا التقدم فأمر اسكندر بالرجوع وفى (سنة ٣٢٧ ق م) المذكورة ركب مع قسم من جيشه سفنا فى نهر هيذاسب فسارت بهم الى نهر السند حتى وصل الى مصبه ثم عاد وفى صيف سنة (٣٢٦ ق م) وصل الى ساحل المحيط الهندى وأمر ربان أساطيله بالسير من مصب نهر السند الى نهر الدجلة وتقدم اسكندر الى ساحل الخليج الفارسى وأرسل اسطولا تحت قيادة ربانه نيارك ليجول بحر الهند وخليج عمان وقد عادت هذه السياحة على الجغرافية بالفوائد الجزيلة وكان طامحا الى حصول مجد فى البحار أيضا فخطر بباله أن يدور حول بلاد العرب بحرا ويحاربها فأمر ببناء اسطول كبير فى فرض فينيقية وأتى بالسفن قطعا الى بابل ونقلت منها الى بعض الفرض لتركيبها وتسييرها فى البحر ثم قصد الرجوع الى بابل فى سنة (٣٢٤ ق م) فعاد اليها من طريق غير طريقه الاول حيث رجع من بلاد بلوخستان وقد فقد من جيشه قسما عظيما لانه لم يعد الابر بعه ويقال انه قبل وصوله اليها أتاه قوم من العراق لهم معرفة بالتنجيم وأخبروه بحسب ما ظهر لهم انه اذا دخل مدينة بابل يموت بها فكذب قولهم فلاسفة اليونان المرافقون لاسكندر

ثم دخل بابل فى عربة فاخرة يجرها ثمانية خيول من الجياد بابهة وعظمة لم ير مثلهما وانهمك فى

الملاذ

الملاذ فأصابته حمى منقطعة كانت سببا فى وفاته لانه كان أفرط ليلة من الشراب فى مجلس الملذات كما هى عادته (٣٢٣ ق م) بعد أن حكم ١٢ سنة وعمره لا يتجاوز ٣٣ سنة ولم يوص بمن يخلفه من بعده وكانت الدولة التى أخضعها اسكندر تمتد شمالا الى نهر الدانوب والبحر الاسود وبلاد القوقاز وبحر قزوين وتجاوز نهر السند شرقا ويحدها جنوبا خليج عمان وصحراء بلاد العرب والبحر الاحمر وبلاد ايتيوبيا وغربا بحر الادرياتيك وكانت هذه الدولة تشتمل باوروبا على بلاد اليونان ومقدونية (وهى الآن عبارة عن بلاد اليونان وتركية أوروبا) وتشتمل بافريقية على مصر وبلاد ليبيا وفى آسيا على اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين واشور (جميع آسيا العثمانية الآن) وبلاد الفرس وأقاليمها الشرقية (بلاد الفرس الحالية والتركستان وافغانستان وبلوخستان) وقسم من بلاد الهند (بلاد بنجاب) ولما عاد اسكندر من بلاد الهند الى بلاد الفرس اهتم فى تنظيم الدولة وفى السير فى الطريق الذى كان شرع فيه ألا وهو مزج الجنس الاغريقى باجناس اسيا وكان يتفكر فى جعل آسيا مشابهة لبلاد الاغريق ولهذا كان يسكن اليونان فى كل جهاتها وينظم مدنها وينقب الجبال لعمل الطرق ويصلح مجرى الفرات والدجلة للملاحة ويشجع الادباء والكتاب وغيرهم وعمل حوض المدينة بابل يسع ألف سفينة وأرسل سفنا تجول فى خليج العجم لاستكشاف سواحلها والوقوف على أحوال سكانها

وقد أورد مؤرخو العرب على موت الاسكندر المقدونى روايات جمعت من الحكمة أقوالا نفيسة وكلمات عالية قالها الفلاسفة بعد موته وقد رأينا أن نأتى بها هنا لما اشتملت عليه من جليل الاقوال قال المسعودى فى مروج الذهب بعد كلام

فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الامم وكان يجمعهم ويستريح الى كلامهم ولا يصدر الامور الا عن رأيهم وجعل بعد أن مات فى تابوت من الذهب ورصع بالجواهر بعد أن طلى جسمه بالاطلية الماسكة لاجزائه فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا وقام فوضع يده على التابوت فقال أصبح آسر الاسراء أسيرا ثم قام حكيم ثان فقال هذا الاسكندر الذى كان يخبأ الذهب فصار الذهب يخبأه وقال الحكيم الثالث ما أزهد الناس فى هذا الجسد وأرغبهم فى هذا التابوت وقال الحكيم الرابع من أعجب العجب أن القوى قد غلب والضعفاء لاهون مغترون وقال الخامس يا ذا الذى جعل أجله ضمانا وجعل أمله عيانا هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك هلا حققت من أملك الامتناع عن فوت أجلك وقال السادس أيها الساعى المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره وفارقت أيامه فغناه لغيرك ووباله عليك وقال السابع قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له عقل فليعقل ومن كان مغترا فليغتر وقال الثامن رب هائب لك كان يغتابك من ورائك وهو اليوم بحضرتك لا يخافك وقال التاسع رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم وقال العاشر أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت وقال الحادى عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة قد كنت تأمرنى أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك وقال الثانى عشر هذا اليوم عظيم العبر أقبل من شره ما كان مدبرا وأدبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من زال ملكه

فليبك وقال الثالث عشر ياعظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب وقال الرابع عشر يامن ضاقت عليه الارض طولا وعرضا ليت شعري كيف حالك فيما احتوى عليك منها وقال الخامس عشر أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام الهائد والهشيم البائد وقال السادس عشر أيها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لاترغبوا فيما لايدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد وقال السابع عشر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى وقال الثامن عشر وكان من حكماء الهند يامن كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت وقال التاسع عشر قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضي فليتعظ به الآن هذا الباقي وقال العشرون هذا الذي دار كثيرا والآن يقر طويلا وقال الحادي والعشرون ان الذي كانت الآذان تنصت له قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت وقال الثاني والعشرون سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته وقال الثالث والعشرون مالك لاتقل عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل ملك الارض بل مالك لاترغب بنفسك عن ضيق المكان الذي أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد وقال الرابع والعشرون وكان من نساك الهند وحكمائها ان دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون في أولها وقال الخامس والعشرون وكان صاحب مائدته قد فرشت النمارق ونضدت الوسائد وهيئت الموائد ولا أرى عميد المجلس وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت ماله قد كنت تأمرني بالجمع والادخار فالى من أدفع ذخائرك وقال السابع والعشرون وكان خازنا من خزانه هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أوخذ بمالم آخذ منها وقال الثامن والعشرون هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت منها في سبعة أشبار القول التاسع والعشرون قول زوجته روكسانه بنت دارا ملك الفرس ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب وان كان هذا الكلام الذي سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شرابه فقد خلف الكأس الذي تشرب به الجماعة اه

وبعد موت اسكندر قامت الفتن بين قواده بسبب أطماعهم حتى أشغلتهم تلك الفتن عن الاحتفال بتشييع جنازة سيدهم ولما انفرجت الازمة تقلد برديكاس نيابة الملك باتفاق رفقائه قواد الجيوش لحين ماتلد روكسانه وكانت حاملا عند وفاة زوجها فعارضت الجيوش في ذلك ورغبت أن يكون النائب اريدابوس أخو اسكندر فقبل ذلك تحت وصاية برديكاس سيما وان اسكندر كان سلمه خاتمه قبل موته أمام بقية القواد ولم يمض زمن طويل حتى قسم برديكاس ممالك سيده على اربعة وثلاثين قائدا من القواد الكبار وجعل نفسه رئيسا على الكل وفي تلك الاثناء وضعت روكسانه ولدا سمي اسكندر على اسم أبيه وأخذ برديكاس على نفسه أمر تربيته وتعليمه

ثم قامت عليه الفتن بايعازا نتيباتير الذي جعله اسكندر الاكبر قبل خروجه من البلاد نائبا عنه فيها ثم نهضت اليونان لطلب الاستقلال فأخذ برديكاس يهتم لاخماد الثورة وقسم جيشه الى قسمين وضع أحدهما تحت قيادة لاميانوس والى كبادوكيا وساقه لمحاربة انتيباتير وكراتيروس وزحف هو بالقسم الآخر لمحاربة بطليموس لاغوس والى الديار المصرية ودارت رحى الحروب بينهما مدة ثم انتصر لاميانوس على كراتيروس وقتله وعادت رجاله منهزمين حتى قابلوا انتيباتير وأعلموه

بساحل بفرقتهم أما الجيش الذى تقدم به برديكاس فانه لما وصل الى حدود القطر المصرى وابتدأت المحاربة بينه وبين جيش بطليموس فبعد عدة وقائع انتصرت فيها القواد البطليموسية خرجت عساكر برديكاس عن الطاعة وقتلوا قائدهم المذكور فى سرادقه تخلصا من مشقات الوقائع وسلموا أنفسهم لبطليموس (٣٢١ قم) وفى أثناء ذلك وصلت جثة اسكندر الاكبر الى الديار المصرية من بابل على عربة مفتخرة علوها ثمان وثلاثون قدما وعرضها أربع عشرة قدما وطولها اثنتان وعشرون قدما يجرها أربعة وستون فرسا من جياد الخيل وقال المؤرخ أسيدوروس أو أسيدور ان العربة المذكورة وجميع الامتعة والصندوق التى فيها كانت مزينة بأثمن الجواهر ومضمخة بأذكى العطريات ولما وصلت الى منفيس صدر أمر بطليموس لاغوس بنقلها الى ثغر الاسكندرية ودفنت فى المقبرة التى بنيت لها فى مدفن ميروس مكان المعبد القديم وهو فى وسط المدينة ويقال ان موقعه تحت كوم الديماس الواقع غربى كوم الناظورة الآن وقال المؤرخ المذكور ان المدفن زين من جوانبه الاربع بألواح منقوش بها هيئة قوة اسكندر وصورة الافيال التى حارب بها فى واقعة دارا ورسم أسطوله والمركبة التى حارب بها اسكندر أعداءه وصورة الاسلحة التى كانت مستعملة فى جيشه وأنه دفن فى صندوق من الذهب المرصع وقال آخرون ان والدته أمرت به فجعل فى تابوت من المرمر وطلى بالاطلية الماسكة لاجزائه وأخرجته عن الذهب لعلمها ان من يطرأ بعدها من الملوك والامم لا يتركونه فى ذلك الذهب وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نصبت من الرخام والمرمر وقيل ان السبب الذى جعل بطليموس لاغوس يخالف وصية إسكندر فى عدم دفنه فى هيكل جوبيتر أمون أى هيكل المشترى الذى بواحات سيوه مبنى على كون الطوالع دلت أن المكان الذى يدفن فيه اسكندر ينال ثروة عظيمة عن جميع البقاع فلذلك آثر بطليموس دفنه فى المدينة التى صارت بعد ذلك بقليل عاصمة دولته

ولما قام انتيباتير بنيابة الملك باليونان هربت أولمبياس أم اسكندر الى بلاد ابيروس مع روكسانه زوجته وابنها الملك الصغير وبعد قليل مات انتيباتير المذكور وخلفه بوليسبرخون ثم تحزب أقوام ضد هذا النائب وبينما كانت الحرب قائمة ببلاد اليونان تحزب قوم من القواد على انتيغونوس أمير بلاد آسيا فكسرهم جميعا (٣٠٧ قم) ونودى به ملكا ثم جددوا الحرب ثانيا فى آسيا وانتصروا على انتيغونوس وابنه ديمتريوس وقتلوهما (٣٠١ قم) وانقسمت مملكة اسكندر بين أربعة قواد

الاولى مصر امتلكها بطليموس سوتير مع بر العرب وجزء من سوريا الثانية مقدونية وبلاد اليونان أخذها كاساندر الثالثة بلاد تراس وبيتينيا وبعض أجزاء آسيا الصغرى أخذها ليزيماخوس الرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر السند فى الهند أخذها سلوقس وسميت مملكة سوريا [1]

(١) المملكة السورية أى مملكة السلوقيين هى أكبر الممالك التى انفصلت من الدولة المقدونية ومؤسسها سلوقس الاول نيكاتور اى الظافر وهو أحد قواد اسكندر الذين اقتسموا ملكه وأثار والاطماعهم فتنا وحروبا عظيمة وابتداء هذه المملكة سنة (٣١٢ قم) وكان سلوقس شهما حسن الطالع ولما قهر هو وليزيماخوس صاحب تراسه انتيغولانس فى واقعة افسوس واستولى على جميع املاكه فى الشرق أصبحت مملكته حينئذ عظيمة جدا مشتملة على كل أقاليم آسيا التى أخضعها المقدونيون ومن أعمال سلوقس تأسيسه لمدينة انطاكية سنة (٣٠٠ قم) تذكارا لابيه انطيوخس وجعلها عاصمة مملكته ولا تزال اطلال هذه المدينة تشاهد للآن

وفى خلال ذلك أى سنة (٣١١ ق م) قتل كساندر اسكندر ابن روكسانه وقتل والدته ولم يبق من عائلة اسكندر التعيسة أحد من الذكور وبذلك اضمحلت ثم انقرضت بتمامها فى سنة (٣٠٠ ق م)

ثم أخذت مقدونية فى الانحطاط بالفتن الداخلية واتحدت مع الحزب الاخائى على أقوام الايطوليين سكان شمالى مورة واستمرت الحروب بينهم من سنة ٢٢١ الى ٢١٩ ق م التى انتصرت فيها جيوش المتحدين على الايطوليين فى واقعة اسيلا زيا وعقدت بينهم معاهدة بهمة اراتوس قائد الاتحاد الاخائى الشهير وبعد ذلك دخل الاتحاد الاخائى بتمامه تحت سلطة مقدونية مدة فيليبش الثالث المقدونى وصار اراتوس المذكور وزيره الاعظم ولم يمض زمن طويل حتى قامت حروب بين الاخائيين والمقدونيين تعرف بحرب الحزبين فظن فيليبش ان ذلك بتحريضات القائد أراتوس

بالقرب من انطاكية الحالية وحصل بينه وبين ليزيماخوس حرب كانت النصرة فيها له سنة (٢٨٠ ق م) وبعد ذلك بقليل مات سلوقس قتيلا وبموته قامت رعاياه من رقدة الخمول وثار بعضهم فى طلب الاستقلال فصيرت لذلك عدة بلاد مثل برغامس وكبادوكيا وغيرها

وقام بعده ابنه انطيوخس الاول الملقب سوطير ولم يحدث فى زمنه أمر ذو بال ومات سنة (٢٦١ ق م) وبعده جلس ابنه انطيوخس الثانى وحصل بينه وبين المصريين حرب قهر فيه بطليموس وكان سببا لاستقلال بعض ممالكه سنة (٢٢٥ ق م) ثم حدث حرب أخرى هائلة بين بطليموس ابرجيس ملك مصر وسيلوقس الثانى ملك سوريا الذى جلس على تختها بعد موت انطيوخس المتقدم كانت نتيجتها استيلاء ملك مصر على قسم عظيم من سوريا ومع ذلك قام سلوقس وأخوه انطيوخس يتنازعان الملك ويثيران حربا وفتنا أهلية امتدت فى جميع أقطار المملكة وكادت تذهب بها ودام القتال بين الاخوين ثلاثة أعوام ثم انتهى بانتصار سلوقس انتصارا تاما وفرار انطيوخس الى مصر ثم قتله فيما بعد وكان موت سيلوقس سنة (٢٢٦ ق م) وقام من بعده ابنه سيلوقس الثالث كارانوس وكان خامل الذكر وجلس من بعده انطيوخس الثالث المعروف بالكبير سنة (٢٢٣ ق م) وهو أعظم أمير جلس على عرش سوريا بعد سيلوقس مؤسس المملكة وكان شجاعا صائب الرأى ذكيا مقداما حكيما وهو وان كان انكسر مرارا فى الحروب مع الرومانيين فيران ذلك لا يحط قدره ولا يضعف ذكره ثم تقوى واستولى على بلاد البقاع واقليمى فينيقية وفلسطين من يد ملك مصر فكان ذلك سببا لوقوع القتال بينه وبين ملك مصر سنة (٢١٨ ق م) بالقرب من مدينة رفح كانت النصرة فيه لبطليموس ملك مصر واسترد منه البلاد التى افتتحها غير انه استرجعها ثانية حينما حالف فيليبش ملك مقدونية وتعاهد معه على اقتسام المملكة المصرية ومازال هذا الملك يجهز الجيوش ويتنقل من معمعة الى معمعة حتى أخضع جميع المدائن المستقلة فى آسيا الصغرى واستولى على قسم كبير من بلاد أوروبا ووطد سلطته على الاقاليم الواسعة بجنوده الجرارة وسفنه الكثيرة المجولة فى البحر المتوسط وما يتفرع منه من الخلجان وهو الذى التجأ اليه انيبال القرطجنى الشهير وكان هذا القائد أشار عليه ان يقلده قيادة الجيش ليهجم على ايطاليا فلم يرض انطيوخس بذلك

ولما رأى الرومان الاخطار المحيطة بممالكهم من نجاح انطيوخس أعلنوا عليه حربا ثم التقى الجيشان سنة (١٩١ ق م) بالقرب من مضيق ترموبيل فكانت الدائرة على انطيوخس وفر هاربا الى افسوس ثم وقعت الحرب ثانية بينه وبين الرومان فانتصروا عليه فى البر والبحر وعقدوا معه شروطا من ضمنها خروج عساكره من أوروبا وان يدفع لهم قدرا عظيما من المال غرامة ويسلم للرومان جميع أفياله وسفنه الحربية ما خلا عشرا ويسلم اليهم انيبال ويرسل الى رومية عشرين رجلا منهم ابنه انطيوخس بصفة رهائن

ولما لم يكن عند انطيوخس هذا المبلغ ذهب الى بلاد فارس لينهب النقود المدخرة بأحد هياكلها فابتدر اليه الحراس وقتلوه سنة (١٨٧ ق م) وقام من بعده ابنه سيلوقس فيلوباتور وهو خامل الذكر ولما مات جلس من بعده أخوه انطيوخس الرابع سنة (١٧٥ ق م) وكان ظالما غشوما جبارا عنيدا أشهر على المصريين حربا استمرت

المذكور فدس له السم فقتله (٢١٣ قم) وبذلك استتب له الحكم على بلاد اليونان واستمر في أعقابه مع القلاقل المستديمة وفي سنة (١٤٥ قم) استولى الرومانيون على مقدونية وعموم بلاد اليونان وضموها الى أملاكهم بعد حروب قصيرة فأمست مملكة اليونان جزأ من مملكة الرومان وأضاعت استقلالها ولبثت تحت حكمهم يتعين عليها نائب قنصل من رومية حتى انقسمت امبراطوريتها ونقل الامبراطور قسطنطين التخت الى بوزنطية سنة (٣٣٤ م) فصارت من وقتها بلاد اليونان جزأ من الامبراطورية الشرقية البوزنطية الى ان فتحها السلطان مراد الثاني سنة (١٤٤٢ م)

الباب السادس

﴿ الفصل الاول ﴾

تاريخ الرومانيين

دور الملوك

(٧٥٣ - ٥١٠ قم)

بلاد ايتاليا

أربع سنوات وكاد في آخرها علك بها تلك البلاد الخصبة فارسل اليه الرومانيون سفيرا يأمره بالكف عن القتال والرجوع الى بلاده فامتثل وكان أراد أن يحمل اليهود على تغيير ديانتهم فلما لم يقبلوا حاربهم وقتل منهم عددا عظيما وأسر منهم نحو ثمانين ألف نفس ونهب من هيكلهم ما تبلغ قيمته ثلاثة ملايين ليرة ووضع فيه تمثال معبود اليونانيين وجعل عقاب من لا يسجد له الموت ثم تحزب اليهود وأعلنوا الحرب على سوريا ثم نالوا الاستقلال وكان الفرس مصوه أيضا لمظالمه فلما حاربهم قهروه سنة (١٦٤ ق م) وبينما كان عائدا سقط من مركبته فمات بعد قليل وهو الذي وسع مدينة حماه ودعاها ابيفانيا وبعد موته كثرت الفتن الاهلية واضطربت أحوال المملكة وتوالى على عرشها نحو عشرين ملكا في مدة مائة سنة نورد أسماءهم على الترتيب

انطيوخس الخامس ابن المتقدم مات سنة (١٦٢ قم) ديمتريوس الاول الملقب سوطير بن سيلوقس الرابع وكان برومية ثم فر وأتى الى سوريه وقتل انطيوخس المتقدم اسكندر بالاس وهو من عائلة صغيرة ادعى انه ابن انطيوخس الرابع ملك سنة (١٥٠ ق م) ديمتريوس الثاني الملقب نيكاتور وقد تمكن بمساعدة ملك مصر من استرجاع المملكة سنة (١٤٦ ق م) ولما طرده الشعب لسوء سلوكه ملك عليه ابن اسكندر بالاس المتقدم ثم التجأ ديمتريوس الى متريدات ملك البارت وبعد ان رحب به وزوجه بابنته ساعده على الجلوس على تخت سوريه مرة ثانية بعد موت ابن بالاس ثم مات قتيلا بصور وقام من بعده انطيوخس السادس وليس له ما يذكر مات سنة (١٤٢ قم) وخلفه تريفون ديودتس الذي خلع ديمتريوس الثاني وملك انطيوخس السادس ثم خلعه وتبوأ عرش المملكة الى ان قتله انطيوخس السابع الذي مات سنة (١٢٨ قم) في حرب بينه وبين البارت وقام من بعده سيلوقس الخامس ومن بعده انطيوخس الثامن الملقب غريبس أي ذي الانف الاعوج وحصلت بينه وبين أخيه حرب كانت نتيجتها اقتسام الاخوين المملكة

ان مملكة ايتاليا التى زهابها التمدن اللاتينى زمناطويلا عبارة عن شبه جزيرة واقعة بالجهة الجنوبية من أوروبا بين بلاد اليونان واسبانيا وبامتدادها فى البحر الابيض المتوسط تقسمه على نوع ما الى قسمين ويظهر للمتأمل من موقعها انه يسهل عليها مد نفوذها على جهات الشرق والغرب وجبال الالب تحيط بها من الشمال وتكون مغطاة بالثلوج الدائمة ويمتد فى وسط ايتاليا فرع من الجبال الالبية وهو المسمى ابنين الى أن ينتهى فى الجنوب وهذه الجبال تنبسط فى كثير من الجهات وتحدث نجودا مرتفعة الا أنها تترك بينها وبين البحر سهولا خصبة ويوجد بها أنهار عظيمة ويجاور هذه البلاد جزائر كثيرة جملة منها جزيرة صقلية التى يظهر أنها كانت متصلة بها قديما وانفصلت عنها أما مناخها فمعتدل لطيف وهى أكثر مياها وأوسع مسطحا من بلاد اليونان وبها حقول ووديان واسعة خصبة تغذى قدرا عظيما من السكان

سكانها القدماء — أول من سكن هذه البلاد بحسب ما أمكن الوقوف عليه هم أمة البيلاج ثم نزلها الاتروسك ثم اللاطين ويظهر من الاشياء التى وجدت ببلاد توسكانة الحالية مسكن قدماء الاتروسك كالآنية والاثاث والحلى وغيرها أن تلك البلاد تمتعت بحضارة جيدة اتخذها الرومان واللاطين نموذجا لهم نسجوا على منوالها وكان اللاطينيون يقيمون بوادى نهر التبر وبلادهم تسمى الايتوم ويقال ان انيه التروادى أتى هذه البلاد وقت وجود اللاطين وبعد سقوط مدينة تروادة ملتجئا اليهم فقابلوه بالترحاب وأحسنوا وفادته على قول ثم ان ابنه المدعو اسكانى Ascagne أسس ببلاد اللاطين مدينة دعيت بألب لالونج Albe la Longue حكم بها نسله عدة قرون ويقال ان من ألب تولدت رومية ثم ان نوميطور حفيد اسكانى المذكور خلعه من التخت أخوه المدعو أموليوس وكانت ابنة نوميطور وضعت ذكرين توأمين وهما رومولوس وريموس فأراد أموليوس ان يهلكهما فأخذهما وألقاهما على شاطئ نهر التبر فالتقطهما راع ويقال ان غزالة أرضعتهما قبل ذلك فأخذهما الراعى المذكور وذهب بهما الى منزله ولما ترعرعا ظهرت عليهما علامة القوة والاقدام وقد اتفق لهما يوما انهما أهانا رعاة نوميطور الذى أراد أن يراهما لينتقم منهما فلما شاهدهما اندهش من هيئتهما وملامحهما ثم تعرف بهما ولما علم بشرف أصلهما أقسما بأن ينتقما لنوميطور فخلعا أموليوس الطاغية وأجلسا جدهما على تخت ألب

(الفصل الثانى)

تأسيس دولة الرومانيين ومدينة رومية

بينهما فاستولى أخوه كيزيكانس على فينيقية وسهل البقاع وأخذ غريبس ما بقى ثم مات قتيلا سنة (٩٦ ق م) وقام من بعده أخوه انطيوخس التاسع وقتل سنة (٩٥ ق م) وقام من بعده سيلوقس السادس الملقب بيفانس وهرب لطلبه الى مدينة المصيصة ثم أحرقه أهلها وقام من بعده انطيوخس العاشر ومن بعده افيلبس بن انطيوخس غريبس ومن بعده دمتريوس الثالث ومن بعده انطيوخس الحادى عشر ومن بعده انطيوخس الثانى عشر ومات فى حرب جرت بينه وبين العرب ثم قام تيغران ملك ارمينيا وذلك ان السوريين لما سئموا الحرب ومالت نفوسهم الى الراحة ملكوا عليهم تيغران الذى أضاف سورية الى بلاده سنة (٨٣ ق م) وبقى ملكا عليها حتى قهره الرومان سنة (٦٩ ق م) ومن بعده قام انطيوخس الثالث عشر وبقى قابضا على زمام الاحكام الى سنة (٦٥ ق م) حينما دخل بومبيه بلاد سوريا واستولى عليها وصيرها ولاية رومانية

اعلم ان السلطنة الرومانية التى كانت فى الاعصر القديمة من أشهر الممالك اسما وأعظمها قوة امتد تاريخها عشرة قرون وقد احتوى على كثير من الحوادث المفيدة والاخبار المهمة واعلم ان هذه المدينة التى كانت فى الاول عبارة عن مدينة صغيرة ارتفعت بالتدريج خصوصا حينما كان لها قوة بحرية استظهرت بها على القرطاجنيين أصحاب السلطان على سواحل البحر الابيض المتوسط وكان العرب يسمون الرومان بالروم ويؤخذ من الروايات المتناقلة أن تأسيس رومية كان سنة (٧٥٣ قم) وعليه يكون ابتداء تاريخ الرومان من السنة المذكورة الى سنة (٤٧٦ م) التى سقطت فيها الدولة الرومانية الغربية وعلى ذلك تكون مدة الدولة الرومانية أكثر من اثنى عشر قرنا وينقسم التاريخ الرومانى الى ثلاثة أدوار

الاول دور الحكومة الملوكية من سنة (٧٥٣ قم) الى سنة (٥١٠ قم) الثانى دور الحكومة الجمهورية من سنة (٥١٠ قم) الى سنة (٣١ قم) الثالث دور الامبراطورية من سنة (٣١ قم) الى سنة (٤٧٦ م)

وان هذه المدينة التى كانت فى أول أمرها عبارة عن مدينة صغيرة نمت بالتدريج وصارت مركزا لاعظم دولة قديمة ظهرت فى التاريخ أما أهمية تاريخها فلانها أخضعت أهم البلاد الغربية وأدخلت بها أشعة الحضارة واعلم أن الاقوال الواردة عن تأسيسها محشوة بالخرافات التى لا يعيرها التاريخ اذن تصديق قالوا ان المؤسس الاول لمدينة رومية هو ريموس وأخوه رومولوس (٧٥٣ قم) كما تقدم وكان رومولوس المذكور رئيس منسر من قطاع الطريق ولما أتى الى تلك الجهات رأى بالقرب من نهر التبر تلا وهو المسمى بجبل بالاتان فأسس على التل المذكور عدة أكواخ أحاطها بسور لرد اغارات الاعداء اذا أرادوها بسوء

ولما شيد رومولوس وأخوه المدينة المذكورة بالكيفية المتقدمة جعلا لها أبوابا وأحاطاها أيضا بخندق ويقال ان السور كان منخفضا جدا حتى ان ريموس تسلقه بسهولة محتقرا فعل أخيه فغضب رومولوس لذلك وطعن أخاه فقتله واطخت أسوار المدينة بدمه وكان ذلك أول دم سفك فى هذه المدينة ثم بعد أن أتم رومولوس ورجاله بناء بيوتهم أرادوا التزوج وكانت ايتاليا فى العهد المذكور مسكونة ببعض قبائل متوحشة منهم قبيلة يقال لها السابين كانت متوطنة بجوار رومية فطلب رومولوس أن يأخذ من بناتها نساء لرجاله فأبوا ولم يجيبوه لطلبه فأضمر لهم السوء وصمم على اهلاكهم متى سنحت له الفرصة ففى أحد الايام دعاهم الى وليمة عظيمة فحضر والدعوته مع بناتهم ونسائهم ولما قامت الافراح والملاعب للمدعوين أشار رومولوس الى أصحابه فسلوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا أكثر الرجال وقبض كل رجل من الرومانيين على امرأة واتخذها زوجة له ولما قامت قبائل السابين للاخذ بالثار تداخلت النساء المذكورات بين المتحاربين ومنعن الحرب بأقوالهن التى أثرت فى قلوب الطرفين ولما اصطلحوا عقدوا بينهم معاهدة ودادية وانتخب الشعب رومولوس ملكا عليهم فادار أمورهم بأحسن سياسة وقسم الاراضى بينهم ورتب مجلسا فوض لاعضائه التداول فى الامور المهمة وفض الخصومات وكان الحكم لاهل المدينة دون غيرهم من أهل القرى ورتب رومولوس لنفسه حرسا مؤلفا من ٣٠٠ جندى وقسم شعب مملكته الى ثلاث طبقات

الاولى الاشراف والامراء الثانية الفرسان الذين يخرجون للحرب بخيولهم الثالثة عامة الناس وخليطهم وبعد قليل من الزمن تعصب عليه أعضاء المجلس المذكور وقتلوه سنة (٧١٥ قم) وأشاعوا انه رفع الى السماء فصدقتهم البسطاء وعبدته الرومان ودعوه كيرينوس وبقيت رومية بعده بدون ملك سنة كاملة يحكمها المجلس ثم انتخبوا بعده فى سنة (٧١٤ قم) نوماپومپيليوس وكان رجلا حازما حكيما محبا للسلام فهذب الشعب ورتب له محافل دينية وأقام هيكلا لاله الصدق وأسس طائفة رهبان خصصها لخدمته وكان يقول ان ذلك بالهام الهى كى يصدقه الشعب ثم مات سنة (٦٧٢ قم) وانتخب بعده تولوس هوستيليوس وكان محبا للحروب وافتتح مدينة ألب

وبذلك استولت رومية على المدينة التى ولدتها ولما طال الحرب بين الفريقين اتفقوا على ان كل فريق ينتخب ثلاثة أبطال من شجعانه يبارزون بعضهم بعضا ومن انتصرت شجعانه كان له الغلبة فانتخبت رومية ثلاثة اخوة يقال لهم هوراس وانتخبت الب ثلاثة اخوة كذلك يقال لهم كورياس فانتصر الرومان أخيرا بعد أن قتل من أبطالهم اثنين فسلمت ألب لذلك وقابل الرومان بطلهم هوراس بالتعظيم لانه أكسبهم الفخر والنصر بعدما خاب أملهم

وكان لهوراس المذكور أخت تسمى كاميل وكانت تحب أحد الثلاثة الذين قتلوا من الكورياس فحزنت عليه وأخذت تسب أخاها وتلومه فغضب عليها لعدم اظهارها الفرح لانتصار شعبها فقتلها بسيفه فحكمت عليه الشريعة الرومانية بالموت جزاء جرمه ولكن عفى عنه نظيرا انتصاره وسمى المؤرخون هذا الحرب باسماء الابطال المذكورين ثم مات الملك المذكور سنة (٦٣٩ قم) وانتخب الرومان بعده انكوس مرسيوس وهو الذى منع اللاتينيين من شن الغارات التى كانوا معتادين عليها وحارب بعض القبائل التى خرجت على رومية وانتصر عليها وهو الذى وسع مدينة رومية وشيد مدينة أوستى الواقعة عند مصب نهر التبر وعمل لها مرفأ ومات سنة (٦١٦ قم) وانتخب بعده تاركان وهو اوتريسكى الاصل ابن رجل اغريقى وكان أبوه تاجرا غنيا وبعد أن قبض على الاحكام أشهر حربا على اللاطينيين والايتروسكيين وغيرهم فانتصر عليهم وقد أدخل برومية بعض عوائد وطنه من ذلك أن القائد اذا انتصر نصرة عظيمة دخل المدينة فى عربة يجرها خيل بيض أما ان كانت نصرته صغيرة دخل راجلا امام جنوده وأنشأ برومية ميدانا كبيرا للمسابقة وعمل مجارى لجلب المياه ومصارف للقاذورات وشيد هيكل الكابيتول ثم قتله أولاد انكوس مارسيوس المتقدم ذكره وكان وصيا عليهم حسب أمر والدهم (٥٧٨ قم)

ثم تملك سرفيوس توليوس (٥٧٨ - ٥٣٤ قم) ويقال إنه ابن أحد العبيد ومن أعماله أنه قسم الامة الى طوائف حسب الثروة ولهذا كرهته العائلات الكبيرة وقتل فى مؤامرة كان رئيسها توللى ابنته وصهره تاركان فقذف به من أعلى الكابيتول ولما علمت ابنته المذكورة بنجاح مادبرته فرحت فرحا شديدا وركبت عربتها وذهبت لتهنئة زوجها فصادفت شلو أبيها فى الطريق فلم تحزن ولم تجزع أصلا ومرت بعربتها عليه

وجلس

وجلس القاتل تركوين الثانى (٥٣٤ - ٥١٠ قم) ولما تمكن من الملك سار سيرة خبيثة فظلم الرعية وارتكب الفواحش ونفى أكابر أعضاء المجلس وجعل له حرسا من الاجانب وكان له ابن يسمى سكنوس تحرش بامرأة تسمى لوكريس فقتلت نفسها لما أصابها من العار وأوصت زوجها بأخذ ثارها وعند ذلك ازداد نفور الامة حتى بلغ منتهاه وصارت فى حالة لا يمكنها تحمل قبائح هذا الظالم وولده فحرض كوللاتان زوج المرأة ورفقاؤه ومنهم بروتوس الامة فثارت عليه وخلعته وكان بعيدا عن رومية وبه انتهت حكومة الملوك (٥١٠ قم) ويقال ان امرأة دخلت عليه ذات يوم وفى يدها تسع مجلدات من الكتب فعرضتها عليه للبيع وطلبت منه فى مجلسه مبلغا جسيما ولما كان يجهل ما فيها استعظم الثمن ورفض مشتراها فرجعت الى دارها وأحرقت منها ثلاثة مجلدات ثم عرضت عليه الستة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع أيضا عن شرائها فتركته وعادت فأحرقت منها ثلاثة أخرى ثم رجعت اليه فى اليوم الثالث وعرضت عليه الثلاثة الباقية بنفس الثمن الاول فتعجب الملك من أمرها وصمم على مشتراها ليرى ما فيها واذا بالمرأة ألقتها بين يديه واختفت فى الحال فاندهل الملك وجميع الحاضرين ولما فتحوا الكتب وقرؤها وجدوها عبارة عن رسائل واشارات من الحكم ألفها بعض النساء فاحترمها الرومان غاية الاحترام واعتبروها كآيات منزلة وحفظوها فى خزائنهم وصاروا يتلونها بالخشوع كلما وقعوا فى شدة أو ضيق

(الفصل الثالث)

قيام القناصل وتأسيس الحكومة الجمهورية

(٥١٠ - ٣٠ قم)

لما طرد تركوين من سرير الملك كما تقدم التجأ الى الاوتروسكيين وقامت من بعده فى رومية حكومة تدعى بالقنصلية لهاحاكمان يلقب كل واحد منهما بلقب قنصل لاجراء الاحكام العالية وكانت سطوتهما كسطوة الملوك الا أنهما لا يمكثان فى المنصب المذكور الا سنة واحدة ولما انعقد المجلس وانتخب كل من بروتوس وتركان كوللاتان زوج لوكريس المتقدمة الذكر أخذا يديران الاحكام سوية ولم يستفد الشعب من هذا التغيير لانه بعد أن كان الظلم يرتكبه واحد ازدوجت أعوانه وكان سكان رومية يومئذ منقسمين الى حزبين الاول الاشراف وغرضهم القبض على زمام الحكومة والعامة ورغبتهم الاشتراك فى الحكم وكان جميع أرباب مجلس السناتو وأكثر أكابر القوم من القسم الاول فكان انتخاب القناصل منوطا بهم ولذلك قويت شوكتهم وعظمت سطوتهم وصاروا أصحاب الحل والربط فنشأ عن ذلك فتن ومشاجرات بين الطرفين وفى خلال ذلك أرسل الايتروسكيون الذين التجأ اليهم الملك المنفى المطرود رسلا الى رومية بحجة أنهم آتون لطلب أموال الملك المنفى وكان غرضهم عمل الحيل لارجاعه فانضم اليهم بعض شبان الاشراف حتى أولاد القنصل بروتوس المذكور الذى اشتهر بالعدل ومحبة الوطن ولما كشف على تلك المؤامرة أصدر

حكما بقتل أولاده الاثنين لتداخلهما مع الخصم ضد الوطن فقوى بذلك قانون الحرية ثم خرج الملك المخلوع مع من انضم اليه من شيعته لمحاربة أهل المدينة فقتل بروتوس فى الواقعة مكتسبا لفخر المدافعة عن بلاده وأما الملك المطرود فاستعان بأمراء ايتاليا وجمع له جموعا وحاصر رومية (٥٠٧ قم) وبعد أن فتحها تركها للعصيان رعيته عليه ثم قامت فتن داخلية لعدم وجود المساواة وزيادة ديون الفقراء ومهاجمة الاعداء بلاده أما الرومان فانهم بعد أن دفعوا العدو عن بلادهم اتفقوا على جعل الحكم فى كل أمر مهم لحاكم واحد سموه بالدكتاتور (١)

(الفصل الرابع)

فى الدكتاتورين والحروب التى قامت فى أيامهم

وكان الرومان قرروا الاسباب أهمها تسكين ثورة العامة أن ينتخبوا شخصا لهذا المنصب يحكم بما يراه صالحا حكما لا يرد ولا ينقض ولا يمكث فى منصبه الا ستة شهور وكان أول من انتخبوه لذلك هو لارسيوس الذى كان أحد القنصلين وذلك سنة (٤٩٦ قم) ثم بعد أن عقد الصلح مع الاعداء السابق ذكرهم استعفى من وظيفته وتعين لها بعده بوستومبوس وفى مدته قام اللاطينيون تحت قيادة تركان لمحاربة رومية مدة اشتغال الامة بطلب حقوقها فى الاحكام فتركوا ذلك الاختلاف وانضموا يدا واحدة لمحاربة العدو وانتصروا عليه بقرب بحيرة رجيلا وبمجرد عودة تركان الى بلاده مات من حزنه ثم عادت الامة للمطالبة بحقوقها كما كانت فتقرر اقامة نواب منها تسمى بالديسمفير (٢) (٤٥١ قم) فى عهد القنصل اسبوريوس كسيوس

(الفصل الخامس)

حكم الديسمفير

(١) الدكتاتور لفظة لاتينية معناها الآمر المتفرد بالحكم أى المطلق التصرف وكان الدكتاتور السلطة العالية فى جميع عصور الجمهورية الرومانية وكانت سلطته لا تدوم الا ستة شهور فقط ينفذ فى أثنائها كل ما يظهر له انه مفيد للمصلحة العمومية وكان الدكتاتور معافى من كل مسؤلية فى مدة تنصيبه وبعد أن وعيت شروط هذا المنصب زمنا وتولاه كثيرون سقط وقت أن سقطت الجمهورية أو بالاحرى صار كل امبراطور رومانى دكتاتورا مستديما اه

(٢) هم قضاة وجد منصبهم برومية سنة (٤٥١ قم) وكان عددهم عشرة وكلفوا بسن قانون للامة ومنحوهم القوة العالية مدة سنة كان يتولى كل واحد منهم تلك القوة يوما واحدا بالمناوبة بينما لا يكون للبقية سلطة وبعد مضى السنة عرضوا عشرة ألواح من القوانين فأقرتها الامة ولكن لما كان يوجد بها نقص عينوا عشرة آخرين (ديسمفير) لمدة سنة ليكملوا هذا النقص وكان لهم ما كان لسابقيهم من السلطة فسنوا لوحين جديدين وبذلك أكملوا القانون الشهير المسمى لدى الرومان بقانون الاثنى عشر لوحا اه

لما كان بين أعضاء مجلس السناتو ومن لا يحب الاصلاح استمر الشقاق وخرجت الاهالى من المدينة واعتزلت بالجبل المقدس سخطا وغضبا وتسبب عن ذلك وقوف دولاب الاعمال وأعقبه قحط فأغرى نواب الامة الاهالى ان يتهموا أعضاء مجلس السناتو بأنهم هم السبب فى حصول القحط المذكور ثم أتت بعض غلال من جزيرة صقلية وبينما كانت الاعضاء تتداول فى كيفية توزيعها على الفقراء قام كوريولانوس أحد أعضاء السناتو وكان بطلا صنديدا وجبارا عنيدا وشرع فى ابطال منصب النواب وهى المزية التى نالتها الاهالى بعد الشقاق الطويل فلما بلغ نواب الامة ذلك طلبوه امام جمعية الامة فى سنة (٤٩١ ق م) وحكموا عليه بالنفى المؤبد فنفوه فخرج الى مدينة انتيوم واتحد مع شعب الفولسيين وهو أكبر أعداء الرومانيين وأخذ يحرضهم على محاربة أهل وطنه فأجابوه لذلك وقلدوه رياسة الجيش فزحف به على رومية وهزم جيوشها التى خرجت لمقاومته فاستولى الفزع على قلوب الامة وسعى مجلس السناتو فى ارضائه واستعطافه ليرجع عن غيه وأرسلوا له عدة رسل فلم يجب طلبهم وأخيرا أرسلوا له سفارة ثالثة من أشراف نساء الرومانيين وفى مقدمتهم أمه فيتوريا وامرأته فرجينيا فتضرعتا اليه فلم يستطع مخالفتهما وقال لامه لقد أنقذت يا اماه مدينة رومية ولكنك سوف تعدميننى ثم عاد بجيشه و بعد ذلك بقليل قتله أهل وطنه لما رجع اليهم لكونهم اعتبروه أنه خان بلاده ثم استتب الحال وقام قضاة الديسمقير بخدمتهم للوطن بكل صدق وعفة ثم توجهوا الى بلاد اليونان للوقوف على قانون سولون وأخذوا منه ما يوافق أحوال الرومانيين وطباعهم ثم عادوا الى رومية ونقشوا تلك القوانين على عشرة ألواح عرضوها على المجلس وعموم الامة فصدقوا عليها و يقال انهم زادوا عليها لوحين بعد سنة من الزمان

وقد قال المؤرخون ان من جملة ما دون فى تلك الالواح أن للآباء حق قتل أولادهم وللسادات حق قتل عبيدهم وكان فى تلك القوانين بند يحرم على العامة مصاهرة الأشراف ثم أخذت القضاة تحكم الجمهور بالتصرف المطلق حتى صاروا كالملوك رهبة وظلموا فى أحكامهم فصارت لا تستطاع فتذمرت الاهالى واشتد الاسف على الايام السالفة

وفى أثناء ذلك أغار السابيون والايقيون على أرض الرومان فألح القضاة على الاهالى بالدخول فى الخدمة العسكرية فقبلوا ذلك بعد طول الامتناع حبا فى الدفاع عن الوطن ومع ذلك انكسر جيشهم لسوء تصرف القواد وفى ذلك الوقت حصل اختلال بسبب تصرف ابيوس قلوديوس أحد القضاة فى حكمه الاستبدادى فغضبت الاهالى والعساكر وخرجوا ثانيا الى الجبل المقدس وطلبوا التخلص من أيدى القضاة الظلمة حتى اضطروهم للاستعفاء (٤٤٩ ق م) وعاد منصب القنصلية ونيابة الاهالى ثانية وطلبوا من مجلس السناتو الاقرار بجواز الزواج بين الاشراف والعامة و جواز انتخاب القناصل من العامة أيضا فقبل المجلس الشرط الاول ولم يقبل الثانى لانه رأى ان وظيفة القنصل لا يصح ان تكون لمطلق الامة وأخيرا قرر بتعيين ثلاثة رجال من قواد الجيوش ليقوموا مقام القناصل فى الحكم وجوز انتخابهم من الاشراف والعامة (٤٥٥ ق م) وقررت المشارطات اللازمة لذلك و بعد أن مضى على ذلك نحو سبعين سنة حصل من أحد القضاة وهو المسمى سيسيتوس سولون هيجان عظيم بقوله ان القانون لا يجوز لاى وطنى ان يستأجر أكثر من

٥٠٠ فدان من الاراضى الاميرية وكذا يجب ان يكون أحد القضاة من الطبقة النازلة فلم يقبل منه ذلك الا بعد مضى عشر سنوات أى بعد انقطاع الشقاق الداخلى

(الفصل السادس)

استيلاء الغول على رومية والحروب التى قامت فى خلال ذلك

بعد أن انتظمت حالة الرومان الداخلية أكثروا من اشهار الحروب على جيرانهم حتى تعودوا على الكفاح واقتحام المعامع ففتحوا مدينة فيدين وانتصروا على المولسكيين وفتحوا مدينة انكسور منهم وبعدها نظم مجلس السناتو ترتيبات مخصوصة للعساكر وبذلك أوجد الرومانيون جيشا قويا دائما تحت السلاح وبه أمكنهم التقدم والحرب مع أبعد القبائل وقد فتح القائد الشهير كاميل مدينة وى *Veies* العظيمة ببلاد الاوتروسك (٤٠٥ قم) بعد حصار طويل ولكنهم كافؤه بالنفى لانهم اتهموه ظلما باخفاء مقدار من الغنائم فخرج من المدينة باكيا حزينا ساخطا طالبا من المعبودات ان تنزل سخطها على المدينة الناكرة الجميل وقد تحقق مطلوبه لانه فى خلال ذلك أى سنة (٣٨٩ قم) هاجم الرومانيين القائد برينوس بجيش عظيم من الغول (١) فلما دارت رحى الحرب بين الفريقين انهزم جيش الرومانيين هزيمة منكرة وقتل منه عدد عظيم بقرب نهر الباتم تقدم القائد المذكور يريد محاصرة رومية فوجدها خالية خاوية فاضطرت للتسليم (٣٩٠ قم)

ولما دخل القائد المذكور المدينة سار محترسا مخافة أن يكون العدو كمن له فى طريقه الى ان وصل الى مجلس السناتو فلما دخله رأى جماعة من الشيوخ جالسين فى مدخله على كراسى من العاج فى يد كل منهم عصا من العاج تلوح على وجوههم سمات الهيبة والشجاعة فاندهش القائد الغولى من هذا المنظر ولاسيما من ثباتهم وعدم فرارهم فظنهم تماثيل آلهة لعدم ابدائهم أدنى حركة ثم تقدم أحد الجنود وقبض بلطف على لحية أحدهم وكان يقال له بابيريوس فغضب من صنع الجندى وضربه بعصاه فعند ذلك هجمت العساكر وقتلت الشيوخ المذكورين عن آخرهم ومن هناك انتشروا فى المدينة فاحرقوا أكثرها

وكان من الابنية العظيمة فى رومية قصر يقال له الكابيتول أشبه بقلعة حصينة وكان التجأ اليه شجعان الرومانيين ومن بينهم البطل مانليوس كابيتولينوس فأخذ الغول يحاصرون القصر من جميع أطرافه فردهم مانليوس المذكور مرارا عديدة ولما بلغ القائد كاميل ماحل بوطنه خرج من بلاد الارد ياتيين الذين أقام عندهم مدة منفاه وعاد مسرعا لمساعدة أهل وطنه مغضيا عما وقع منهم فى حقه من الاساءة وعند وصوله قلده مجلس السناتو ولاية الامر المطلق فأخذ يحارب الغول

(١) امة بربرية قديمة وسيأتى ذكرها مفصلا بتاريخ فرانسا لانها جرثومة سكان هذه البلاد

من الخارج ومانيليوس من الداخل فانتصر الرومانيون على المتغلبين وفتكوا بهم فتكا عظيما حتى قيل انه لم يرجع منهم أحد الى بلاده ويقال ان الرومانيين حرموا أكل الاوز من ذلك الوقت لانه أيقظ حراس الكابيتول عندما هم الغول بالاستيلاء عليه ليلا ثم قابل عموم الشعب الروماني كاميل بكل تجلة واحترام ولقبوه تعظيما له بالمؤسس الثاني لرومية وقد أظهر بعد ذلك مانيليوس الطمع وقصد زيادة الظلم فحكموا عليه بالاعدام وقذفوه من أعلى قلعة الكابيتول التي كان يدافع فيها عن استقلال بلاده

وبعد ذلك قويت شوكة الرومان وعظمت هيبتهم عند أكثر الامم المجاورين لهم وأخذت صولة الاشراف تتناقص يوما فيوما ودرجة العامة تتزايد شيأ فشيأ فاستحصل ليسينيوس أحد نواب الامة على وظيفة القنصلية في سنة (٣٦٨ ق م) ولا يخفى أن هذا المسند لم يكن يناله سابقا الا حزب الاشراف ثم قام الغول المقيمون بشمال جبال الالب لاخذ ثار اخوانهم الذين هزموا في رومية فلما وصلوا أخيرا الى أبواب رومية هزمهم الرومانيون بعد حروب طويلة شر هزيمة واشتهر في هذه الحرب البطلان منيليوس تور كاطوس وتاليريوس كورفوس وبعد ذلك النجاح قامت بعض الامم اللاتينية والاتروريه سكان ايتاليا واتفقوا على الرومانيين فقامت الحروب المتواصلة فأخضعهم الرومانيون أمة بعد أمة وبذلك استولوا على معظم بلاد ايتاليا فصار لهم بذلك مينات كثيرة على سواحل البحر الادرياتيكي والبحر المتوسط الابيض وأخذوا من وقتئذ يبنون الاساطيل الحربية

(الفصل السابع)

البحرية عند الرومانيين

لما صار للرومان عدة ثغور بحرية كما سبق دعتهم الحالة لانشاء السفن وكان أول من شغلهم بانشاء السفن الحربية بليبيليوس ناز يقا من غير ان يكون هناك ضرورة تقتضي ذلك وانما كانوا يفزعون من البطالة أكثر من العدو اذ هي أعدى الاعداء عندهم ولما لم يكن لهم بذلك معرفة أخذوا يقلدون اليونان وأهل قرطاجنة خصوصا وذلك انه تصادف ان غرابا من سفن قرطاجنة شحط على سواحل رومية فاتخذوه نموذجا وصنعوا سفنهم على منواله ففي ظرف ثلاثة أشهر تجدد عندهم دونمة حربية وملاحون وتجهزت السفن بجميع لوازمها وموادها وأنزلوها البحر وساروا بها لمحاربة أعدائهم ثم تنوعوا في ذلك فكانت لهم سفن كثيرة المجاذيف جعلوا فيها على كل مجذاف ملاحا حاملا درعا من الفولاذ وترسا مخصوصة وبعض أسلحة أخرى بيضا وجعلوا لبعض السفن أشرعة مثلثة ولبعضها أشرعة مربعة وجعلوا لبعضها أبراجا مربعة في الوسط ذات طبقات يقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقسي والسهام وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف يسيرونها حيث يرادو كان لهم سفائن عظيمة شراعية لنقل الجنود الى مواقع الحرب

وكانت معرفة القرطاجنيين بالملاحة والحركات البحرية العسكرية أتم من معرفة الرومانيين لكثرة تجاربهم وممارستهم لها ولكن الظاهر أن هذه المزية لم تبلغ اذ ذاك في الاهمية والنفع ما هي

عليه الآن ألا ترى ان القدماء لما لم يكن لهم معرفة بيت الابرة كان لا يمكنهم الملاحة الا بجوانب الشواطئ فكانوا لا يركبون الا في سفن مسطحة صغيرة ذات مجاذيف وكانت أغلب المراسي الصغيرة عندهم بمنزلة المينات العظيمة وكانوا في معرفة الطرق البحرية على غاية من القصور وكانت حركاتهم البحرية هينة حتى قال ارسطو ان ركوب البحر بهذه المثابة لا يلزم ان يكون له طائفة مخصوصة بل يقوم به الحراثون وأضرابهم فكان يستوى في ذلك وقتئذ أرباب الملاحة والفلاحة وبالجملة فكان هذا الصنف عندهم على غاية من النقصان بحيث كان تسيير السفينة بألف مجذاف لا يصل في السرعة الى تسييرها بمائة في هذا الوقت وكانت السفينة الكبيرة عندهم قليلة الجدوى اذ كان يشق على الملاحين تحريكها وتسييرها بل كان يتعذر أن تحرك الحركات الضرورية التى تدعو الحاجة اليها فقد اتفق لانطوان انه أراد ان يجذب سفينة في جون اكسيوم من سواحل البانيا فعادت عليه معاناته لذلك بالضرر والخسارة فانه لثقلها كان يتعذر عليه تسييرها حين كانت سفن أغسطس لخفتها تهجم عليه من سائر الاطراف ولما كانت سفن القدماء لا تسير الا بالمجاذيف كان الخفيف منها اذا صادم سفينة كبيرة يكسر مجاذيفها الان السفن الكبيرة اذ ذاك لم تكن الا كالاجسام الساكنة التى لا تتحرك أصلا كسفن هذا العصر الشراعية اذا أزيلت منها السوارى وكانت سفن الصدر الاول الصغيرة عند الحرب تشتبك في بعضها بخطاطيف على غاية من السرعة وتقع المحاربة من الفريقين ويلتحم القتال بين الصفين وكانت العساكر البرية تنزل بأجمعها في الدونانمة كما شوهد في المحاربة البحرية التى وقعت بين القرطاجنيين والرومان وكانت النصرة فيها للقائد العساكر الرومانية ريقولوس وصاحبه ميليوس ولو أن عدد عساكر رومية كان مائة وثلاثين ألفا وكانت عساكر قرطاجنة خمسين ألفا وكان معظم التعويل يومئذ على العساكر البرية وأما البحارة فكانوا دونهم في ذلك على عكس ما هو عليه الامر الآن فان عساكر البر صارت لا يعتمد عليها في الغزوات البحرية مثل البحارة وحسبك دليلا على ذلك نصرة القنصل دويليوس (سنة ٢٦٠ قم)

ولما صار للرومانيين عمارات بحرية أخذت تفتح الممالك المجاورة لها فتمكنت من فتح عدة ثغور في البحر المتوسط الابيض وكانت ايتاليا الجنوبية لزمن القنصل فابرسيوس لم تدخل تحت حكم الرومان وكان سكان تارنته وأصلهم من مهاجرى اليونان يعتبرون الرومان كبربريين ودونهم في الفنون والصنائع والغنى فلذلك كانوا يظنون أنهم اذا تعرضوا للرومان بأذى لا تتمكن الرومان من الانتقام منهم بسبب اشتغالهم بالحروب ولم يكن يخطر في بالهم ان حرب الرومانيين مع السامنيتيين واللاتينيين أكسبهم براعة في فن الحرب وصيرهم في مقدرتهم محاربة عدة أعداء في آن واحد وبلغوا في الفنون الحربية درجات الكمال وقد قال المؤرخ وبجيس ان فن تعبية الجيوش المؤلفة من الرجالة والخيالة الغير المنتظمة يظهر انه من اختراع الرومان بالهام الهى وقد اتفق ان سكان تارنته تعدوا على بعض سفن الرومان التى كانت راسية امام تارنته (٢٨١ قم) فأقام السفير بوستوموس الحجة على ذلك وطلب ترضيته فجاوبوه بعنف وشدة ثم خاف الترنتيون عاقبة غضب الرومانيين عليهم فطلبوا من بيروس ملك ابيرا المساعدة وكان يحب الحروب الخطيرة لانه تربى وتعلم بمدرسة نواب اسكندر المقدونى الشهير فأجابهم لطلبهم وأبحر في جيش عظيم ومعه أفيال فلما رأى الجيش الرومانى

الفيلة وكانت فى مقدمة جيش پيروس اعتراه الفشل وفزعت العساكر فانتصر پيروس على الرومانيين بقرب مدينة هيراقله (سنة ٢٨٠ قم)

وفى الواقعة الثانية التى حصلت بقرب اسكولوم بينه وبين الرومان أيضا فقد پيروس جملة عساكر وادعى أنها كسب الواقعة الثانية كما ان الرومانيين ادعوا ذلك أيضا ولكن پيروس رأى ان الاوفق مصالحة الرومانيين ومعاهدتهم فأرسل وزيره وصديقه سنياس الى رومية فلم ينجح وزيره المذكور فى مأموريته لان الرومانيين قالوا له اننا لا نتعاهد مع سيدك الا اذا ترك ايتاليا فعاد الوزير وقال لسيده ان رومة ظهرت له كهيكل عظيم ومجلس شوراها كجمعية ملوك فالتزم پيروس ان يداوم الحرب وقال المؤرخون ان طبيب پيروس عرض على فابريسيوس قائد الرومان وكان توجه الى پيروس لمبادلة الاسرى ان يسم سيده نظير مكافأة تعطيها له الرومان فامتنع القنصل فابريسيوس من قبول معروضه وأخبر به پيروس الذى بعدما أعيته تلك الحروب ورأى عدم النجاح فيها ترك ايتاليا ورجع الى بلاده بعد أن كان ذهب الى صقلية يريد فتحها فأخضعها الرومانيون فى سنة (٢٧٢ قم)

﴿الفصل الثامن﴾

حروب رومية مع قرطاجنة المسماة بالحروب البونيقية

(٢٦٤ - ١٤٦ قم)

الحرب البونيقية الاولى

(٢٦٤ - ٢٤١ قم)

لما استولى الرومان على جميع بلاد ايتاليا ولم يبق لهم بها منازع وصفا لهم الجو ورسخت قدمهم فى الحكومة مدوا أنظارهم لبسط نفوذهم خارج بلادهم كما هو الحال عند جميع الامم الفاتحة فتصادمت جمهوريتهم مع جمهورية قرطاجنه (١) ووقعت بينهما الحروب البونيقية الشهيرة فى التاريخ

(١) قال المؤرخون ان السبب فى بناء هذه المدينة هو انه لما قتل ملك صور المسمى بغماليون زوج شقيقته المسماة ديدون طمعا فى أخذ أمواله وذخائره الكثيرة هربت ديدون بعد ما قتل زوجها اسرباس وكان رئيس كهنة صور من ظلم أخيها وجوره وشحنت سفائنها بكثير من الذخائر والاموال وأخذت معها جملة من أكابر القوم ولما وصلت الى سواحل افريقية فى الجهة المقابلة لجزيرة صقلية ابتاعت أرضا واسعة من أهالى تلك الجهات وأسست فيها مدينة جسيمة بقرب موقع تونس الآن وسمتها قرطاجنه ومعناها المدينة الجديدة وذلك فى سنة (٨٤٠ قم) تقريبا وقال بعض المؤرخين انها بنيت فى عهد بعار ملك يهوذا فى سنة (٨٤٦ قم) ثم بعد ذلك تغلب على قرطاجنه جارباس أحد ملوك تلك الجهة وخطب ديدون لنفسه فامتنعت لانها كانت صممت على عدم الزواج بعد زوجها المقتول

أما سبب تسميتها بالبونيقية فلان الرومان كانوا يسمون أهل قرطاجنة بالبون أما قرطاجنة فكانت فى ذلك الوقت أشهر وأعظم مدن افريقية وكانت واقعة على مقربة من الخليج المسمى الآن بخليج تونس وقد توسع الرومانيون فى الفتوحات خصوصا لما عزموا على منازلة القرطاجنيين فبنوا مائة سفينة حربية وبذلك صارت لهم قوة يركنون عليها فى تلك السواحل ولم يمض بعدها مدة حتى قصدوا الاستيلاء على جزيرة سيسليا أى صقلية التى كان القرطاجنيون يسعون فى اخضاعها من مدة وصادف فى أثناء ذلك ان قوما من سكان جنوب ايتاليا استعانوا بالرومانيين على هيرون ملك سرقوسه فى صقلية المذكورة بشرط انهم يقبلون الدخول تحت حكم الرومان

ولما علم ملك سرقوسه المذكور بمطامع الرومانيين نحو مملكته طلب من جمهورية قرطاجنة المساعدة ففى سنة (٢٦٤ ق م) أرسلت له جيشا عظيما واسطولا كبيرا فلم تمض على ذلك مدة حتى ذهب القنصل ابيوس قلوديوس وقاد بنفسه الجيش الرومانى فى سيسليا وكان معه أول اسطول عظيم جهزه الرومان ثم قامت الحروب بين الطرفين فكسر القنصل القرطاجنيين وملك سرقوسة وغنم من القرطاجنيين خمسين سفينة فنشأ من ذلك حصول العداوة بين الفريقين ولما تزحزحت العلاقات بين الطرفين رأى الرومان لزوم محاربة مدينة قرطاجنه فأخذوا فى تكثير عدد سفن الاسطول مع اتقان صناعتها وجعلوها كسفن القرطاجنيين حتى بلغ عددها ٣٠٠ سفينة حربية وتولى قيادة الاسطول الجديد القنصل دويليوس وتقدم به لمحاربة القرطاجنيين (٢٦٠ ق م) فانتصر فى أول واقعة بحرية واستولى على ٦٠ سفينة قرطاجنية ثم غزا سردانيا وقورصقه واستولى عليهما

أما القرطاجنيون فالتزموا أن يتخذوا مركزا دفاعيا فى صقلية ولم يكن لهم هناك الأماكن قليلة حصينة وفى سنة (٢٥٦ ق م) تقدم القائد ريغولوس وزميله منيلوس باسطول

ولما استشعرت بان الملك جار ياس المذكور مصمم على اغتصابها أحرقت نفسها بالنار ثم بعد ذلك تشكلت فى قرطاجنه حكومة ملكية وأخذ سكانها المختلفو الاجناس فى زيادة شوكة بلادهم وتوسعوا فى التجارة حتى صارت لهم جملة محطات فى سواحل البحر المتوسط الابيض ثم تحولت حكومتهم الى جمهورية واستمر القرطاجنيون فى النجاح وتوسيع نطاق المكاسب وصارت لهم قوة بحرية عظيمة مدوا بها اسطولهم ووسعوا بها أملاكهم فى أكثر بلاد شمال افريقية وصارت تونس وطرابلس الغرب والجزائر وسواحل مراكش من ضمن أملاكهم وفى سنة (٧٠٢ ق م) استولى الاميرال ماغون القرطاجنى الشهير على جزائر باليار وانشأ فى احداها المسماة مينورقه مينا عظيمة سميت باسمه وهى المشهورة الآن بپورماغون وفتح جزأ كبيرا من جنوب اسبانيا وفتح القرطاجنيون أيضا جزائر سردينيا وكورسيكا ومالطه وصارت لهم شهرة فى أسفار البحار حتى ان البحرى القرطاجنى المسمى هيميلكون قد سافر الى شمال البحر الاطلنطيق وتوغل بسفنه خلف جزائر هيبرنى والبيونى فى أرخبيل سورلنغ وذلك سنة (٤٠٠ ق م) ثم أخذ القرطاجنيون يعاملون أكثر الممالك التى كانت لها سواحل بالبحر المتوسط الابيض بالتجارة فتعاهدوا مع اسبارطة وأثينا وكان لهم معاملات مع ملك سرقوسه ولما طمعت فى الاستيلاء على جزيرة سيسليا خاصمها الرومانيون وقامت بينهم الحروب الآتى بيانها اه

وجيش

وجيش فكسروا القرطاجنيين فى معركة عظيمة بحرية ثم نزلوا على افريقية وحاصروا قرطاجنة بخمسة عشر ألف مقاتل رومانى وكادت تفتح المدينة لولا مساعدة أهل اسبارطة للقرطاجنيين لانهم كانوا أرسلوا لهم جيشا واسطولا تحت قيادة كسانتيب ولحسن تدبيره كسروا الرومانيين وأهلكوا جيشهم وأسروا قائدهم ريغولوس

وفى خلال ذلك حدثت عواصف أغرقت للرومانيين اسطولين من أساطيلهم ولحسن حظهم كانوا انتصروا نصرة عظيمة اذذاك بالقرب من مدينة باليرم عوضتهم بعض مافقدوه فى افريقية وعند ذلك سعى القرطاجنيون فى طلب الصلح فكلفوا أسيرهم ريغولوس بعقده بعد ان حلفوه يمينا صارما بالعودة اليهم ثانية ان لم يفلح فى مأموريته فذهب الى رومية يصحبه رسل من طرف القرطاجنيين الا انه نصح لعزة نفسه ووطنيته أعضاء مجلس السناتو أن لا يقبلوا الشروط التى عرضها عليهم القرطاجنيون فسمعوا نصيحته وقد أرادوا منعه من العودة الى قرطاجنة فلم تقبل شهامته ذلك وأن يخلف وعده حتى ان زوجته وأولاده تضرعوا اليه بالبكاء والنحيب فلم يسمع منهم ما أرادوا ويقال ان القرطاجنيين عذبوه عذابا أليما ثم قتلوه (٢٥٠ قم) وأما فى جزيرة صقلية فكانت حركات الرومانيين الحربية أكثر نجاحا فانهم أخذوا بانورموس وانتصروا على جيش القرطاجنيين عند ما كان يحاول استرجاع البلدة المذكورة

ثم شرعوا فى حصار ليليبوم [1] (٢٥٠ قم) وبنى الرومان اسطولا ثالثا لفتحها فأتلفه اسطول القرطاجنيين امام دريبان وهى المدينة الثانية التى كانت باقية بيد القرطاجنيين بصقلية وقد فقد الرومانيون أسطولا آخر فى البحر ثم استلم هملكار باركا القائد المحنك قيادة القرطاجنيين فنجح فى أعظم حروبه وهزم للرومانيين عدة جيوش وأغار على ايتاليا واستباح بعض جهاتها

ثم أنشأ الرومانيون اسطولا رابعا بعد العناء لانهم كانوا أرادوا ترك المحاربات البحرية لانكسار أساطيلهم فأتلفوا به اسطول القرطاجنيين بالقرب من جزائر ايقاتا الكائنة أمام ليليبوم المتقدمة وذلك تحت قيادة القنصل لاتانيوس كاتولوس وفتحوا ليليبوم المذكورة بعد الحصار الشديد (٢٤١ قم) ولم يرد القرطاجنيون امداد هملكار لمحاربة رومية بل كلفوه بعقد الصلح فأملى الرومان شروطا قوية مجحفة بقرطاجنة غاية الاجحاف منها أن ينسحبوا من صقلية ومن الجزائر المجاورة لها تماما وأن يدفعوا لرومية قدرا جسيما من المال ويطلقوا جميع أسرى الرومان بلا فدية وغير ذلك وكانت صقلية أول المستعمرات الرومانية الاجنبية وبذلك انتهت الحرب البونيقية الاولى بعد أن استمرت ثلاثا وعشرين سنة (٢٦٤ - ٢٤١ قم)

وفى سنة (٢٩١ قم) عبر الرومانيون بحر الادرياتيك بعمارتهم وحاربوا الايلليريين واستظهروا عليهم وأرسلوا الى الولايات اليونانية سفارة لتبين لها سبب هذه الحروب فاقتنعت الولايات بذلك ثم فى سنة (٢٢٥ قم) حاربوا الغالة سكان فرنسا الاقدمين فكسروهم ووصل الرومان الى جبال الالب

(١) وتسمى الآن مارساله واقعة بالنهاية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية وكانت مركزا حصينا للقرطاجنيين

(الفصل التاسع)

الحرب البونيقية الثانية

(٢١٨ - ١٤٦ ق م)

بينما كان الرومانيون مشتغلين بالحروب مع أمم الغالة فى جبال الالب كان القرطاجنيون يبحثون على طريقة ينتقمون بها من الرومانيين ويتخلصون من عار الجزية التى كلفوا بدفعها وكان ظهر فيهم وقتئذ قائد شهير يدعى انيبال بن هملكار وكان مبغضا للرومانيين فأغرى أهل بلده على محاربة الرومانيين وذلك بعد ان افتتح بهم هملكار المذكور بلاد نوميديا وموريتانيا وغيرها وبعد موته افتتح اسدروبال قسما عظيما من اسبانيا وشيد مدينة قرطاجنة بها ثم شرع القرطاجنيون تحت قيادة انيبال فى محاربة ساغنتوم [1] المدينة اليونانية وكانت محالفة لرومية فدافعت عن نفسها طويلا ولم يفتتحها الا بعد حصار ثمانية شهور (٢١٩ ق م)

وكان الرومان عقدوا مع اسدروبال محالفة بان لا يتجاوز نهر الابر باسبانيا (٢٢١ ق م) ثم طلب الرومان من حكومة قرطاجنة ان تسلم لهم الجنرال انيبال فرفضت الطلب فأشهرت الحرب على قرطاجنة (٢١٨ ق م) وهى الحرب البونيقية الثانية

ولما أشهر الرومان الحرب على قرطاجنة استعد انيبال بما يلزم من الجنود والاقوات وكان جيشه يبلغ مائة ألف مقاتل فسار قاصدا ايتاليا مارا من وسط اسبانيا والغالة فوصلها بعد سبعة شهور قاسى فيها من الاهوال ما لا يوصف وانضم اليه فى طريقه كثير من أهالى الغالة ثم حارب الرومان فى بلادهم فكسر القنصل سيبيون وكسر زميله سمبرونيوس على نهر تريبيا (٢١٧ ق م) وهزم أيضا القنصل فلامينوس عند بحيرة تراسيمينوس (بحيرة پيروز) وفى خلال ذلك أقام الرومان فابيوس مكسيموس بوظيفة دكتاتور فدافع بغاية الشهامة وصد انيبال الا أنهم اتهموه بالخيانة لمطاولته فى الحرب وفى سنة (٢١٦ ق م) حاربه القنصلان ڤارون وأميلوس پاولوس فكسرهما انيبال فخاف الرومانيون بأسه ودخل مدينة كابو قاعدة بلاد كامبانية وفى خلال ذلك أخذت رومية تنظم حالتها وجيشت جيوشا جديدة لمقاومة انيبال وقد أظهر الرومان لذلك من جميل الخصال وجليل الاعمال ما خلد لهم فى التاريخ ذكرا حسنا اذ قد تبرعت الامة بالاموال اللازمة وانخرط جميع الشبان ضمن تلك الجنود أما انيبال فانه لما لم ترد له من قرطاجنة نجدات جديدة مع تكرار طلبه وشدة احتياجه أخذت قوته تنحط لعدم خروج فابيوس لمحاربته وفى سنة (٢١١ ق م) فتح مرسلوس الملقب لجسارته بسيف رومية مدينة سرقوسه لان القرطاجنيين كانوا استولوا عليها بعد موت ملكها المحالف لرومية وقتلوا بها

---

(١) أو ساغونت مدينة اسبانيولية قديمة كانت واقعة بالقرب من مصب نهر بلنسية أسسها الاغريق فى بلاد خصبة وقد اشتهرت فيما بعد وصارت مركزا مهما للتجارة وكانت محالفة لرومية ولا تزال اطلالها الآن بالقرب من مدينة مورفيدو الحالية

أرخميدس [1] المهندس الشهير وسنة (٢٠٧ ق م) جدد سيبون الحرب فى اسبانيا واستولى على مدينة قرطاجنة الاسبانيولية ولانتصاراته على القرطاجنيين عين قنصلا فى صقلية ثم تقدم بجيش وأسطول عظيم جدا الى افريقية وضايق القرطاجنيين بجيشه الجسيم (٢٠٤ ق م) وحارب حربا شديدة نجح فيها برا وبحرا ولما اشتد الامر بالقرطاجنيين وضايقتهم جيوش سيبون طلبوا من انيبال ان يحضر سريعا من ايتاليا ولما علم حالة بلاده فضل الذهاب اليها لمساعدتها عن بقائه بايتاليا سيما وانه لم يبق لديه الا القليل من جيشه فاقلع مسرعا حتى أرسى بخليج قابس

وكان القرطاجنيون ينتظرونه بفروغ صبر ولما صعد الى الشاطئ عسكر بالقرب من بلدة زاما الواقعة بالجنوب الغربى من قرطاجنة وقبل الشروع فى القتال تقابل مع سيبون المذكور ليعرض عليه الصلح وقال له ان قرطاجنة تتنازل لرومية عن صقلية وسردينيا و اسبانيا و يكون البحر الفاصل بيننا فماذا يبقى لكم بعد ذلك فقال القائد الرومانى يبقى لسيبيون شرف الانتصار على أنيبال ورفض ما عرض عليه من شروط الصلح

ولما رأى أنيبال ان لابد من الحرب عبى جيشه بطريقة أدهشت الرومان الا ان طائر السعد لم يرفرف على قومه فى هذه المرة فانكسروا وتشتتوا سنة (٢٠٢ ق م) ولما رجع أنيبال الى قرطاجنة بعد أن غاب عنها ٣٥ سنة نصح أهلها بقبول الصلح وكان من شروطه ان يترك القرطاجنيون جميع املاكهم الخارجة عن قسم افريقية وان لا يشهروا حربا حتى بافريقية من غير استئذان رومية وان يدفعوا فى خمسين سنة مبلغا يوازى ١٠,٠٠٠ وزنة من الذهب وان يردوا للرومان جميع أسراهم وكذا من التجأ اليهم ويسلموا جميع سفنهم ما عدا عشرا منها ولما عاد سيبيون الى رومية قابلته بترحاب واجلال لا مزيد عليهما ولقبوه بالافريقى ورسموا بان تمثاله يوضع فى هيكل جوبيتير

(الفصل العاشر)

محاربة الرومانيين لبلاد اليونان وسوريه

(1) أرخميدس هو أشهر المهندسين الاقدمين ولد فى سرقوسه سنة (٢٨٧ ق م) وكان بينه وبين هيار ملك سرقوسه قرابة نصيبية وكان الملك المذكور يفتخر به وقد تعلم منذ صغره كل العلوم التى كانت تدرس فى بلده ثم توجه الى مصر وكانت حينئذ مهد العلوم وكان اليونان وغيرهم يأتونها فى طلبها وأقام فيها عدة سنين يستفيد من علمائها قال ابن العنبرى ان ارخميدس اخذ كل معارفه من الا ليات عن المصريين ثم رجع الى سرقوسه وقد اكتسب من الشرق فوائد جمة وتفرغ هناك لدرس العلوم الرياضية والطبيعية ولم ينقطع عن الدرس الا لخدمة وطنه ولما أثار الرومانيون سنة (٢١٢ ق م) حربا على هيار واستظهروا بعض الاستظهار فى صقلية ثم حصروا سرقوسه نفسها وأخذ اليأس من الاهالى كل مأخذ حتى عزموا على الاستسلام بشروط معيبة أخذ ارخميدس يشجعهم و يقوى عزائمهم و يقال انه أقام آلات كبيرة وراء أسوار المدينة أحبطت مساعى المهندسين الرومانيين وألقت الخوف فى قلوب عساكرهم ولم يقبل علماء العصر الحاضر ما رووه عنه من عمل المرايا التى كانت تحرق سفن الرومانيين وقد جرب بعضهم مسئلة المرايا واحراقها للسفن فتحققت بعض التحقق ومع ذلك فان قصة احراق الاسطول الرومانى بمرايا ارخميدس من الامور التى لا يسلم العقل السليم بصحتها ولما قتل أحد الجنود ارخميدس و بلغ مرقولوس ذلك تكدر جدا وأحسن الى أقاربه و بنى له ضريحا جعل عليه كرة مصوتة من اسطوانة كما كان يتمنى وهو حى سنة (٢١٢ ق م) ولارخميدس المذكور اكتشافات فى الهندسة والا لات وقوة المياه كافية لتخليد ذكره اهـ

ولما علا شأن الرومان بالحروب التى فاز بها سيپيون الافريقى وصاروا أمة فاتحة أشهروا سنة (٢٠٠ ق م) حربا على مقدونية بحجة ان ملكها أخل بالعهود مدة ما كانت رومية تحارب أنيبال السابق ذكره وساعد القرطاجنيين فلذلك أرسل الرومانيون عدة قواد الى بلاد اليونان وانتشب القتال وكان سجالا الى ان انتصر اخيرا القنصل فلامينيوس على جيش فيليبش الثالث ملك مقدونية انتصارا يستحق الذكر فى واقعة سينوسيفاكه ببلاد تساليه فالتزم ملك اليونان أن طلب الصلح ثم عقدت معاهدة بينهما موجبة لذلة وحقارة اليونانيين وكان منها ان تنازلوا عن جميع سفنهم للرومان وأعطى ملكهم أحد أولاده المدعو ديمتريوس رهينة عند الرومان (١٩٦ ق م) وبذلك صارت لهم سطوة على الاغريق

اعلم انه لما رحل الرومان عن قرطاجنة بعد عقد المشارطة المذكورة أخذ أنيبال فى اصلاح ما اعوج من أحوال قرطاجنة فنظم ماليتها وجندها ومجالسها وكان يحرض القرطاجنيين على عدم الوفاء بالمشارطة المذكورة لاشتغال رومية اذ ذاك بمحاربة المقدونيين فخاف مجلس الرومان من ذلك لما بلغه وأرسل لقرطاجنة وفدا يطلب منها رأس ذلك القائد الجسور ولما كان القرطاجنيون بهم مهم أمر التجارة جداهموا باجابة مطلوب رومية فعند ذلك هرب أنيبال والتجأ الى انتيخوس ملك سورية (١٩٥ ق م) فقابله بالترحاب وكان أنيبال يحسن له الهجوم على رومية ولولا اطماعه فى بلاد اليونان لمنح أنيبال ما طلب ثم استعد انتيخوس لمحاربة اليونان ولما عبر بجيوشه الى بلادهم زحفت عليه جيوش رومية فتحصن بمضيق ترموپيل الشهير ظانا انه بذلك سد باب بلاد اليونان على الرومان الا ان القائد كاتون كان يعرف الطريق التى منها عبر الفرس هذا المضيق سابقا فى درب بالجبل وانقض على جيش السوريين فهزمهم فتقهقر انتيخوس الى أفسوس

ثم عبر الرومان الدردنيل تحت قيادة لوسيوس سيپيون وتعقبوا انتيخوس وهزموا جنوده بالقرب من مغنيسيا وبذلك اضطر انتيخوس لان يتنازل عن جميع اسيا الصغرى الواقعة الى الجهة الاخرى من جبال طوروس وأن يدفع للرومان قدرا عظيما من المال ويسلم لهم انيبال ثم ان الرومان أخضعوا أبعد الامم التى تسكن تلك الجهات أما انيبال فانه التجأ الى پروسياس ملك بثينا (١) وطلب القائد فلامنيوس رأس ذلك البطل الشهير فخاف پروسياس عاقبة الاباء ولما علم انيبال بانه مأخوذ تناول سما كان معه وفى رواية انه أمر أحد العبيد فقتله (١٨٣ ق م) وفى هذه السنة مات سيپيون قاهر انيبال

وفى سنة (١٧١ ق م) قام پرسى بن فيلبش بعد موت أبيه وقصد التخلص من رق الرومانيين وبعد أن هزم لرومية عدة جيوش قهره أخيرا القنصل پول اميل فى واقعة پيدنا وهى مدينة بمقاطعة مقدونية ثم قبض عليه وبعث به الى رومية أسيرا (١٧٠ ق م) مع جماعة من أكابر اليونان وكان من ضمن الاسرى المذكورين پوليب المؤرخ الشهير ثم جزأ الرومان بلاد مقدونية الى أربع جمهوريات جعلوها تحت حمايتهم لتضعف عن المقاومة بتشتيت قوتها وفى سنة (١٤٦ ق م) شق

(١) بثينا بلاد قديمة واقعة بالشمال الغربى من آسيا الصغرى وكان أشهر مدنها نيقية ونيقوميديا وسكانها من أصل تراسى وكانت خاضعة بالاسم لاسكندر المقدونى ولم يتمكن السلوقيون من اخضاعها مع ما بذلوه من العناية فى ذلك وقد تنازل عنها ملكها نيقوميد الثالث للرومان وهذه البلاد داخلة الآن ضمن ولايتى قسطمونى وخداوندكار

اندريسكوس بن بيرسى المذكور عصا الطاعة فهزمه الرومان وأخذوه أسيرا ومن ذلك الوقت صارت مقدونية اقليما رومانيا محضا وكذا صارت بلاد اليونان بأجمعها (١٤٦ ق م)

(الفصل الحادى عشر)

الحرب البونيقية الثالثة

(١٤٦ ق م)

كان الرومان لما أخضعوا قرطاجنة جعلوا مسينيسا ملك نوميديا مراقبا عليها ليمنع تلك الجمهورية التعيسة من اصلاح شأنها فاتخذ ذلك الملك هذه المأمورية وسيلة له فى الاستيلاء على أراضى ومدن قرطاجنة فتشكى القرطاجنيون من تلك المعاملة التى لا تجيزها العهود والمواثيق الى سناتو رومية فأرسلت رومية وفدا لتحقيق تلك التشكيات ولما وصل ذلك الوفد أظهر رئيسه كاتون التشيع لجهة مسينيسا وأخذ ينظر فى أحوال قرطاجنة وما وصلت اليه من الثروة والقوة فاندهش من قيامها سريعا من كبوتها بعد الحرب البونيقية الثانية ورآها مستعدة وتحت يدها كثير من السلاح والجنود فرأى أنه لا يجب على رومية أن تستريح قبل ملاشاة هذه الجمهورية ولما رأى وسائل الاستعداد عند القرطاجنيين رجع الى رومية منزعجا من ذلك وحرض أهل بلاده على عمل شديد للتخلص من كل خوف يخشونه فى المستقبل وكان يختم كل جملة من كلامه بقوله يلزم هدم قرطاجنة

ولما طرحت مسئلة قرطاجنة على أعضاء المجلس فى رومية كان من رأى أولاد سيبون أنه لابد لرومية من خصم تخافه لئلا تخلد للراحة معجبة بما نالته من الظفر والنصر فى مواقع القتال وهو رأى حكيم ومع ذلك لم يصغوا اليه ورجحوا رأى كاتون ولما فتحت أبواب الحرب بين مسينيسا والقرطاجنيين أرسل الرومان سيبون ليراقب نتيجتها وكانت التعليمات المتزود بها تنحصر فى أنه لو انتصر أهل قرطاجنة يجبرهم المندوب الرومانى على تسليم سلاحهم أما لو قهروا فانه يشجع مسينيسا على متابعة انتصاراته وقد اتفق أن غلب أهل قرطاجنة مسينيسا سنة (١٥٢ ق م) ومع ذلك أمرهم الرومان بتسليم أسلحتهم فاستلم منهم القنصل مرتيوس سانسورينوس عددا عظيما جدا من الاسلحة على اختلاف أشكالها ولما صاروا عزلا أعلنوهم بأن قد صدر الامر بهدم قرطاجنة وابعادهم عن البحر الى داخل القارة ولما سمعوا هذا الخبر المزعج تحولوا من حالتهم أى حالة التجار الى أبطال حرب ونزال والتجؤا الى مدينتهم يستعدون بكل وسائل الدفاع فحولوا معابدهم وقصورهم ومساكنهم الى معامل ومصانع لعمل الاسلحة واشترك فى ذلك الكل من هرم وشيخ وكهل وشاب وامرأة إذ هو الواجب المقدس يطالب به الوطن أهله فى تلك الحالة حالة اليأس وعدم النصير وتولى أسدروبال أحد قوادهم قيادة الجيش ونازل الرومان فأوقع بهم مرارا ثم عين الرومان سيبون أميليان قنصلا ولما استلم زمام الجيش شجعه ونظم ما اختل من أركانه وكان أول أعماله أن سد خليج

قرطاجنة ليمنع عن المدينة وصول الاقوات والذخائر ويجبر سكانها على التسليم جوعا ثم هاجم المدينة المرة بعد المرة بنشاط الى أن استولى عليها وعلى قلعتها ولم يبق أمامه مايقاومه الا معبد ديانة حيث التجأ أسدروبال ومن معه اليه ولما رأى ذلك القائد أن لا قبل له على المقاومة عزم على التسليم فوبختــه زوجته على ذلك وقبل مبارحته طعنت ولديه فقتلتهما ثم ألقت نفسها فى اللهيب مخافة أن تتحمل ذل الاسر وامتهان العبودية

ثم أسلم الرومان المدينة الى اللهب بعد أن استباحوها قتلا ونهبا ولعنوا كل من يقدم على عمارتها ثانية ونقلوا من بقى من القرطاجنيين الى إيتاليا وفرقوهم فى أقاليمها وخربوا كذلك كل مدينة عاونت قرطاجنة كما أنهم حصنوا كل مدينة حافظت على الوفاء الرومانى ومن وقتها صارت قرطاجنة اقليما رومانيا محضا (١٤٦ ق م) وفى سنة (١٤٠ ق م) فتح الرومان لوزيتانيا [١] بعد ماقتل حاميها البطل الشهير فيرياتوس ثم ألحقت مملكة برغامس [٢] من بلاد ميسيا بمملكة الرومانيين بوصية أتالوس الثالث آخر ملوكها ثم أضافوها الى ولاية آسيا وجعلوا مدينة برغامس عاصمتها وقد انحطت سريعا لانها خسرت كنوزها الادبية بعدما نقل كتبها أنطونيوس الى مكتبة الاسكندرية

(الفصل الثانى عشر)

الحروب الداخلية

انه بعد الفتوحات المذكورة قامت برومية ثورات ونزاع بين الاعيان والشعب بسبب النظام الذى وضعه طيباريوس غراكوس سنة (١٣٣ ق م) بخصوص تقسيم الاراضى بين الاغنياء والفقراء وقامت الحروب الجوغرطية نسبة الى جوغرطا ملك نوميديا (١١٠ - ١٠٢ ق م) فصادفت فيها العساكر الرومانية فشلا وكان جوغرطا ارشى كثيرا من أعيان الرومان لمساعدته على نوال مطلوبه ولما توالت هزيمة العساكر الرومانية أمام جوغرطا عينت رومية ماريوس قنصلا فانتصر على جوغرطا وأخذه أسيرا الى رومية فمات بالسجن (١٠٢ ق م) وأعقب حروبه حروب صقلية (١٠١ ق م) وفى خلالها استحكمت خصومات السياسة بين الرومانيين وفى سنة (٩٩ ق م) انتهت حروب العبيد فى صقلية بعد جملة خسائر لحقت الرومان

(١) هى قسم من الاقسام الخمسة العظيمة التى كانت منقسمة اليها اسبانيا مدة الرومان وكانت واقعة بالجنوب الغربى بين غالديسيا ثم الاوطركونه وقرطاجنه شرقا وأشهر مدنها كالابيس واوليوسيبو وهى عبارة عن بلاد البرتقال الحالية تقريبا

(٢) مدينة قديمة من بلاد ميسيا على بعد ثلاثة أميال من نهر كيكوس القديم وكان يطلق هذا الاسم قديما على جبل مشهور بكونه مقدسا وكانت برغامس عاصمة لمملكة برغامس الشهيرة فى التاريخ افتتحها الفرس ثم اسكندر المقدونى ثم أهالى تراسه ثم سلوقس الاول ملك سوريا ثم استقلت (٢٨٠ ق م) ومن ملوكها اتالوس الثالث الذى أوصى بكل ملكه للرومان فأضافوه الى ولاية آسيا وجعلوا برغامس عاصمتها الا انها انحطت سريعا بفقدها كنوزها الادبية التى نقلها انطونيوس الى مكتبة الاسكندرية ثم تقهقرت تلك المدينة فى أيام ملوك بيزانطية وقد ورد ذكرها فى التوراة ثم خربت فى حروب العثمانيين ويوجد الآن فى موقعها مدينة تدعى برغامه الى الشمال من أزمير تابعة للواء قرهسى من ولاية خداوندكار ويقال انها مسقط رأس جالينوس الطبيب الشهير اه

وبمجرد ما تخلص الرومان من حرب أفريقية ضد جوغرطا إذ بأمم السامبر [1] والتوتون [2] أغاروا على بلاد الغالة من جرمانيا بعد أن عبروا نهر الرين وكان عددهم يربو على ٣٠٠ ألف نفس ففزع الرومان ووجهوا عليهم الجيوش يتلو بعضها بعضا فسحق المذكورون منها ستة ومن حسن طالع الرومان أن تلك الامم المتبربرة لم تسر على رومية بل ذهبوا بعد انتصارهم الى داخل بلاد ايلليريا وعاثوا فيها مدة ثلاث سنوات فكان بذلك الوقت الكافى للرومان فى استدعاء ماريوس من أفريقية وتكليفه بحماية بلاد ايتاليا ولما سار اليهم ونازلهم تمكن من قهرهم ففرح الرومان من ذلك فرحا لا يوصف ولقبوه بالمؤسس الثالث لرومية لاعتبارهم إياه مثل كاميل المتقدم ورومولوس المؤسس الاول

﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

فى حروب داخلية أخرى

ماريوس وسيلا

اعلم أنه لما فتحت رومية بلاد ايتاليا صار سكانها الاقدمون حلفاء الرومان إلا أن هؤلاء لم يمنحوا أولئك المساواة فى الحقوق المدنية والسياسية التى كان يتمتع بها الرومان مع أنهم كانوا يؤدون كل ما يفرض عليهم بدون أن يعود عليهم فائدة فأثار ذلك غضب ليڤيوس دروسوس أحد عظماء رومية ورأى فى هذا الاستثناء عارا على الرومان وطلب ازالة هذا الفاصل وأن لا يكون فرق بين الرومان والتليان فغضب الرومان من ذلك وثاروا على ليڤيوس وقتلوه فتعصب التليانيون وشقوا عصا الطاعة فكان ذلك أول هذا الحرب الملى وقد أوقع العصاة الرعب فى قلوب الرومان لتجمعهم ومطالبتهم بحقوقهم ووجه الرومان عليهم القائد سيلا فقتل منهم مقتلة عظيمة ومع ذلك اضطر الرومان لان يمنحوا العصاة مطالبهم (٨٨ ق م) ثم حصلت المزاحمة بين سيلا وماريوس فانتصر ماريوس على سيلا لميل الامة اليه وعينوه لمقاتلة متريدات ملك بلاد بونت فاغتاظ سيلا من ذلك وعصى أوامر رومية وزحف عليها يقود جيشا وأضرم النيران فى بعض جهاتها ودخلها قهرا وقتل من يكرهه وطلب ماريوس فخاف منه وهرب على سفينة حتى أتى افريقية فمنعه عاملها من النزول وفى تلك الاثناء كان سافر سيلا لقتال متريدات الذى كان يحكم على آسيا الصغرى وبلاد تراسه ومقدونية وبلاد اليونان

وكانت حدوده ببلاد آسيا ممتدة من جبل كوه قاف الى البحر الاسود وكانت سفنه الحربية على

---

(١) السامبر أمة لا يعرف أصلها على التحقيق قال بعضهم انها من الجنس الجرمانى لم تسكن الا بلاد غوتلندة فى القرن الاول قبل الميلاد وقال آخرون انهم من السلت النازلين على شواطئ بحر قزوين وقد رحلوا من بلادهم بسبب فيضان مياه بحر بلطيق (١٤٤ ق م) فنزلوا الى الجنوب من قبائل التوتون وغيرهم وقهروا جيش القنصل بابيريوس كاربون عند جبال الالب (١١٢ ق م) ثم قهروا غيره من قواد رومية وبعد أن أغاروا على اسبانيا رجعوا الى ايطاليا فحاربهم الرومان وأخيرا قهرهم ماريوس كاتولوس (١٠١ ق م) فتفرقوا حينئذ وأقام بعضهم بايطاليا وبقى البعض الآخر بغوتلندا

(٢) التوتون أمة من جرمانيا كانت منازلها على شواطئ بحر بلطيق وقد انضموا الى قبائل السامبر والامبرون وغيرهم عند الاغارة على جنوبى أوروبا .

غاية من الكثرة بهذا البحر وكان يذهب دائما اليها أجرعسا كرمن الامة الاسكوثية (قدماء التتر) وكانت بلاد آسيا اذ ذاك مفتوحة الارجاء لاغاراته وكان بمكان من الثروة والغنى لان مدائنه لكونها على بحر بنطش كانت تتجر تجارة بحرية رائجة مع أمم دونها فى الصنائع والتجارة وكان متريدات ذبح جميع من عمالك من الرومان فتقدم سيلا وفتح أثينا وغيرها الى أن تلاقى بجيوش متريدات وانتصر عليهم ولما طلب متريدات الصلح أملى عليه سيلا شروطا صعبة فلم يقبلها متريدات وقال له ماذا تبقى لى من ممالكى فقال له سيلا أبقى لك اليد التى ختمت بها الامر بقتل المائة وخمسين ألف رومانى

وبينما كان سيلا يقاتل متريدات حصل برومية فتن فعاد اليها ماريوس وكل منفى ثم استطالت المحاربات ببلاد الرومان بين سيلا ونصرائه من جهة وغيره من اتباع ماريوس من الجهة الاخرى ولما نال سيلا مرغوبه وصفا له الوقت قتل ونفى كثيرا من الرومان وسامهم الذل والاحتقار ومد يده فى المظالم حتى كرهته الاهالى وأخيرا قبض على منصب الدكاتورية وغير النظامات القديمة ونزع من الامة القوة التى كانت نالتها وسلمها ليد الاشراف فانقلبت بذلك الجمهورية من ديمقراطية الى أرستقراطية صرفة وجود أيضا الامة من جميع حقوقها حتى سعى فى إيجاد أمة جديدة تكون أطوع اليه من ظله وشتت جنودها فى الاقاليم التى خربها ومن قوانينه انه حرم على الامة التظاهر بمظاهر الابهة وحث على التخلق بالاخلاق الكريمة كما كانت فى أول أمرها مع أنه كان هو بعيدا عنها بالمرة وبعد أن تمم جميع أوامره ومشتهياته ظهر له ان منصب الدكاتورية ليس إلا منصبا حقيرا فاعلن الامة بتنازله عن منصبه والتجأ الى بيت خلوى عاكفا على المطالعة واللهو ثم مات بعد قليل وكان لمونه ذكر شهير وكتبوا على قبره ما يأتى (لم يصنع أحد مطلقا لاحبابه قدر ما صنع ولم يفعل أحد باعدائه قدر ما فعل) (٧٩ ق م)

ولما مات سيلا لم يكن برومية أحسن وارث له الا بومبى صهره لانه كان حاز النصر فى عدة محاربات عينه فيها سيلا ثم أرسله السناتو الى اسبانيا لمقاتلة سورتريوس الشهير وكان عصى لما تحارب سيلا مع ماريوس فانتصر سورتريوس على خصمه فى جميع الوقائع حتى ان متريدات راسله يريد الاتحاد معه على حرب الرومانيين ولم يتمكن قواد رومية من سرتوريوس الا بالخديعة فقتلوه غدرا وبذلك انكمش جميع العصاة واتحسمت المشاكل من أطراف المملكة الرومانية ثم رجع بومبى الى رومية حيث هزم الثوار من العبيد وبعدها أخضع سورية وجعلها ولاية رومانية وذلك بعد ما قهر باسطوله الرومانى جميع قرصان البحر الابيض المتوسط وكان لهؤلاء القرصان قوة بحرية هائلة ولهم بعدة من الشواطئ ثغور وأبراج ومعاقل حصينة وكانوا يجولون بسفنهم من بلاد فينيقية الى مضيق أعمدة هرقل ويمنعون سفن سردينيا وقرصقة من الوصول الى رومية فقبض بومبى على كثير من سفنهم وأحرق لهم أزيد من ألف سفينة وخرب حصونهم وأسر وقتل منهم عددا عظيما وأسكن بعضهم ببلاد اليونان فصار بذلك كأنه المعبود لدى الرومان ثم طلب منه السناتو مقاتلة متريدات وابادته بالمرة وان يزاد على ما هو مقلده من الوظائف قيادة عموم الجيوش الرومانية بآسيا وكان متريدات الذى قهره سيلا استجاش وشرع فى معاكسة الرومانيين لما بلغه موت سيلا

وكان

وكان انتهز حصول بعض ارتباكات حصلت بين الامم الخاضعة لرومية بآسيا وجرهم الى موالاته فأرسل السناتو عليه لوكلوس فلما التقى الجيشان هزم متريدات والتجأ الى صهره تغران ملك أرمينيا بعد أن أمر أخواته ونساءه أن يقتلن أنفسهن مخافة العار من الوقوع فى قبضة الرومان فطلب لوكلوس من تغران أن يسلم متريدات للرومان ولما امتنع عن اجابة مرغوبه دخل بلاده وهزم جيوشه وقهر متريدات أيضا ثم ان بومبي أتى بلاد آسيا سنة (٦٥ قم) وكانت قوى متريدات انفصمت عراها بحيث لم يبق معه أحد ثم ان تغران طلب الصلح من بومبي فأجابه وأبقاه حاكما على أرمينيا بشرط أن يكون محالفا للرومان وبعد ذلك انحدر بومبي الى سورية وفلسطين واستولى عليهما وصيرهما اقليما رومانيا ونهب خزائن هيكل أورشليم ثم عاد الى رومية ظافرا منصورا فقابلوه بالترحاب وأوسعوا له فى الكرامة وكان لاهالى مرسيليا عدة مستعمرات على شواطئ البحر الابيض المتوسط وكانوا أرادوا توسيع بعض جهاتهم ولما استأذنوا رومية ردت رومية مطالبهم الغير الحقة وأرسلت سكستيوس كالفينوس فبدد شمل القبائل التى كانت مرسيليا تدعى حق حمايتهم وأسس مدينة اكس وجعلها قاعدة ذلك الاقليم الرومانى الجديد (١٢٣ قم)

وكانت أمة الهلفيت (السويسريون) نزلوا من جبالهم وأغاروا على بلاد الغالة فى عدد عظيم فتوسل الغاليون الى الرومان بأن يحموا بلادهم من تلك القبائل الهمجية فأسرع قيصر من ايتاليا لما سمع بهذه الاغارة المخيفة ومنعهم من العبور بأرض الرومانيين وتعقبهم مدة خمسة عشر يوما على شاطئ نهر السون ثم نازلهم وقتل منهم أزيد من مائتى ألف واستسلم الباقون فردهم قيصر الى جبالهم الاصلية

ثم وجه بعد ذلك جيوشه بناء على تضرع الغول على الجرمانيين ولكونه كان يحب القتال ويميل الى نوال فخر النزال سار مسرعا نحو بلادهم ولما شاهد الرومان تلك الامم أصحاب القامات الجسيمة والمناظر الخشنة هابوهم جدا وأحجموا عن قتالهم فاجتهد قيصر فى تشجيعهم ثم حمل عليهم حملة شديدة فهزمهم (٥٧ قم) وهرب رئيسهم الى الضفة الاخرى من نهر الرين ومعه بعض من نجا من القتال ثم بعد ذلك تقدم وأغار على بلاد البلجيقة بجيوشه المظفرة فأخضعها بعد وقائع عظيمة يطول شرحها وبعد أن أراد قبائل الفنيت من سكان تلك الجهات مصادمته بأسطول جسيم فلم يفلحوا ولما أراد أن يوطد قدم الرومان فى تلك الاطراف ويمد سلطانهم على كل تلك الاصقاع رأى من اللزوم الاستيلاء على بريطانيا العظمى التى كان يعتبرها القدماء آخر نقطة مسكونة فى العالم

ولما همّ بعبور المضيق الفاصل للجهتين عن بعضهما هبت زوبعة شديدة فكسرت جميع أساطيله تقريبا ثم هزمت جيوشه أمام سكان تلك البلاد فشيد سفنا أخرى ووصل بها الى نهر التاميز وحصل بينه وبين الاهالى عدة وقعات لم يكتسب فيها الا بعض أسرى أرسلهم الى رومية ليظهر لها دخوله فى بعض جهات مجهولة ثم اضطر للعودة سريعا الى بلاد الغالة لظهور العصاة بها فحاربهم وبددطوائفهم فى عدة وقائع يطول شرحها وبعد أن عاملهم بالقسوة والغلظة ألان لهم فى آخر الامر جانبه ورفع الاتاوة عن كثير من مدائنهم ومنح درجات الشرف لكثير من أغنيائهم وعظمائهم

وكان يقصد بذلك ادخارهم لتنفيذ ما رتبه عند اللزوم ونظم منهم جنودا وحصل أنه فى أثناء حروب الغالة حدث بر ومية اضطرابات نشأت عن شراهة بعض الرؤساء وتطلعهم الى المناصب ونوال الشهرة فمن ذلك ان كراسوس داخله الحسد من انتصارات بومبى وقيصر فعبر نهر الفرات قاصدا الاغارة على بلاد البارت (١) فخدعوه حتى أدخلوه أراضى قاحلة عديمة المياه ثم بعد المراوغة والمطاولة هجموا عليه وقتلوه هو ومن معه من الجيوش الرومانية ثم تمكن بومبى بمساعدة شيشرون الخطيب البليغ من ان يقبض على زمام القنصلية بمفرده (٥٢ قم)

ولما استحكمت العداوة بين قيصر و بومبى أراد بومبى ان قيصر يترك قيادة الجنود ويرجع الى رومية فلما امتنع عن ذلك عده السنا تو عدوا عموميا يجب قتاله (٤٩ قم) وكان بومبى يأمل أن ايتاليا تقوم معه كرجل واحد ضد قيصر ولكن خاب ظنه فانه بعد مضى نحو ستين يوما استولى قيصر على رومية وبلاد ايتاليا ولم يستعمل ما استعمله ماريوس وسيلا من قبل من سفك الدماء وتخريب المبانى وهرب بومبى مع من يلوذ به الى بلاد ايلليريا وكانت قوة حزبه الحقيقية باسبانيا فسار قيصر اولا على تلك البلاد وهزم جيوشها واستولى عليها وعاملها بالرفق فسالمته وأطاعته ثم انثنى بعد ذلك لمقاتلة بومبى وكان يسميه القائد الذى لا جنود له ومع ذلك فكان بومبى جمع جنودا جديدة من بلاد اليونان ومصر وبلاد الشرق وكان تحت أوامره عدة أساطيل أما قيصر فانه عند نزوله بمدينة ابولونى احدى مدن ايلليريا القديمة لم يكن معه الا القليل من الجنود والدواب

ولما أعياه انتظار جنوده عزم على الذهاب بنفسه لجمع الجنود وبينما كان يسير فى البحر قامت زوبعة شديدة كادت تغرق سفنه فاضطر للعودة من حيث أتى ثم ان انطوان قائد قيصر تمكن

---

(١) معنى هذا اللفظ المنفيون فى لغة السيتيين وهم أمة من أمم آسيا استوطنوا فى زمان مجهول الجهة الجنوبية الشرقية من بحر قزوين وقد أخضعهم الفرس ثم اسكندر الكبير ثم السلوقيون واستمروا زمنا لا يعلم منهم شئ حتى سنة (٢٥٥ قم) وهو الزمن الذى خرج فيه أحد رؤسائهم المدعو ارساس على انتيوخوس الثانى تيوس وخلفه من بعده ارساس الثانى فى حدود بلاده وتمكن بمساعدة أغريق بلاد بلخ الذين ثاروا على سلوقس الثانى المتغلب على السوريين وفى هذا الوقت ظهرت مملكة البارت أو الفرث وهم الفرس الاول وتكونت حقيقة سنة (٢٣٨ قم) ولما اعترف انتيوخوس الكبير باستقلالهم سنة (٢١١ قم) أمكنهم مد سلطتهم تحت قيادة متريدات الاول أو ارساس السادس الذى انتزع كثيرا من الاقاليم من يد اغريق بكتريانه (بلخ) وأخضع قسما من بلاد الهند وانتزع سنة (١٦٠ قم) من السلوقيين بلاد ميديا وبابل وأشور والجزيرة ونصب أخاه ملكا على الارمن سنة (١٤٩ قم) وأسر ملك سوريا المدعو ديمتريوس الثانى الا أن فراآت الثانى فقد كل هذه الفتوحات ثم قتل فى حرب مع السيتيين وكذا ابنه متريدات الثانى قتله الارمن الذين صاروا مدة ملكهم تغران الامة صاحبة النفوذ فى هذا القسم من آسيا (٨٨ قم) ولما انحط شأن أرمينيا بعد اضمحلال متريدات ملك البونت وصيرورة بلاد سوريا إقليما رومانيا سنة (٦٤ قم) صارت ممالك الرومان مجاورة لبلاد البارت وكان الفاصل بينهما نهر الفرات ثم كان لهم مع كثير من قواد الرومان حروب شديدة انتهت بدخول بلادهم ضمن الدولة الرومانية ثم ان أحد جنود الفرس المدعو ارتكسرسيس أو أردشير ابن أو حفيد ساسان أثار بلاد الفرس والجزيرة وميديا وقتل ارطبان السادس وأسس الدولة الثانية الفارسية أى دولة آل ساسان سنة (٢٢٦ م) وكان للبارت الشهرة الفائقة فى ركوب الخيل والرمى بالنبل وكانت معيشتهم على ظهور الخيل ولهم مهارة عجيبة فى الحروب وكانوا يتصفون بالكبرياء وقساوة الاخلاق والخديعة حتى صار يضرب بهم المثل فى ذلك اعتنقوا دين زرادشت لما أخضعهم الفرس وكان تأسيس دولتهم فى سنة (٢٥٥ قم) وانقراضها سنة (٢٢٦ م) وآخر ملوكهم هو ارطبان السادس المذكور

أخيرا

أخيرا من جمع الجنود له ولما استعد هجم بلاد رومية على بومبي بالقرب من مدينة دورازو بايلليريا فهزم وكادت هذه الهزيمة تكون القاضية عليه لو لم يبادر بالهرب الى مقدونية وتساليا فتعقبه خصمه وحصلت بينهما واقعة فى سهول مدينة فارسال (١) كانت الدائرة فيها على بومبي وفر هاربا وأقلع نحو جزيرة ليسبوس ومن هناك اتجه قاصدا الديار المصرية يريد الاستعانة ببطليموس ديونسيوس وكان تحت وصايته الآن يونان خادم بطليموس الذى كان مستوليا على المملكة خاف من بومبي وقتله وحملت رأسه الى قيصر لما أتى مصر فلم يستحسن هذا العمل القبيح ولفت وجهه وبكى على خصمه

وبمجرد ما وصل قيصر الى مصر ثار أهالى اسكندرية ضده ولم يكن معه غير ٤٠٠٠ جندى ومع هذا فقد خدمه السعد وهزم العصاة وشرع فى فتوحاته بنشاطه الاعتيادى فقصد أولا بلاد آسيا وأخضع الملك فرناس وكان هم بالاستقلال مثل أبيه متريدات (٤٧ ق م) ثم ذهب الى رومية بعد ذلك فقابله عموم الشعب بالترحاب والتهليل وغيرهما من أنواع التكريم ثم عبر بعد ذلك الى أفريقية وحارب خصماءه وأعداء الرومانيين شيعة بومبي مثل كاتون وغيره فانتقم منهم بعد أن هزمهم وقتل كاتون نفسه ثم عاد الى رومية وبينما كان يتمتع بثمرات نصراته العديدة اذ بلغه عصيان اسبانيا بتحريض أولاد بومبي فسافر سريعا ولما انتشب القتال بينه وبين الثوار كادت تنهزم جنوده فشجعهم وحمل بهم حملة منكرة فشتت شمل انصار بومبي وقتل منهم مقتلة عظيمة (٤٥ ق م) وبعودته الى رومية أكبره الشعب وأثنى عليه بكل جارحة ومكافأة له على ذلك منحه السناتو لقب لم يتلقه رومانى قبله أصلا بأن جعله ديكتاتورا دائميا وسماه امبراطورا طول حياته وأقاموا له تماثيلا واعتبروه كمعبود يقام له الصلوات وسموا باسمه أحد الشهور (يوليه) ونقشوا على السكة صورته ورتبوا له خفرا من الاشراف والعظماء

أما هو فبعد أن نال السيادة على رومية وان شئت فقل على العالم أجمع أظهر من جليل الخصال وحميد الفعال ما خلد له ذكرا فمن أعماله العظيمة أن سن لرومية نظامات جيدة وجمع قوانينها ورتب السناتو ترتيبا أعاد له سابق مجده بأن عزل من بين أعضائه كل من لم يتصف بحميد الخصال وبينما كان يتفكر فى اعلاء شأن رومية أكثر مما وصلت اليه تآمر عليه الجمهوريون وقتلوه بدعوى أنه يسعى فى اعادة الحكومة الملوكية (٤٤ ق م) وكان مقتله وسط مجلس السناتو وبعد قتله خرج قتلته فى الطرق شاهرين سيوفهم ولم يتعرض لهم أحد بسوء

ثم ان انطوان تمكن بعد موت قيصر من القبض على الحكومة وجمع مجلس السناتو وقرأ عليهم وصية قيصر ثم ان الشعب ثار يريد الانتقام من القاتلين فانتهز انطوان ذلك ورتب له خفرا يبلغ ٦٠٠٠ جندى واستولى على الوظائف وامارات الجيوش وأخضع الامة لمظالمه القاسية وفى تلك الاثناء ظهر أوكتاف صهر قيصر وكان سنه ١٩ سنة الا انه كان ذكيا فطماعا وجذب الامة اليه واستهوى لارادته فرقة عظيمة من الجيش وبذلك صار تحت امرته عدد عظيم من الجنود وساعده شيشرون الخطيب الشهير على اغراضه فقام يخطب فى مصلحته مؤملا أنه بذلك يستميل أوكتاف

(١) مدينة قديمة ببلاد تساليا تسمى الآن فرساله

فى خلع انطوان ثم يتخلص بعد ذلك من أوكاف وكان انطوان خرج من رومية لقتال بعض قتلة قيصر فخرج اليه أوكاف والقنصلان هيرتوس و بانسا فانهزم انطوان و بقى أوكاف بمفرده يقود الجيوش المنصورة لموت القنصلين أيضا فى الواقعة المذكورة

ولما خلا الجو لاوكاف سار الى رومية وألزم السناتو بأن ينادى به قنصلا رغما عن الامة ورغما عن كونه لم يبلغ السن المطلوب وحدث بعد ذلك عدة مشاغبات استقر الرأى فيها على القاء مقاليد الحكومة الى ثلاثة وهم انطوان واوكاف وليبيد وكان قائد الخيالة فى عهد قيصر وان ينفرد كل واحد منهم بالحكم مدة خمس سنوات بلا معارض ولا منازع وقد لحق برومية فى مدة حكمهم مالا يوصف من المظالم وقاست الامة أهوالا لانهم كانوا يعتقدون ان ما حصل لقيصر لم يكن الا من استعماله المرحمة والشفقة فقتلوا من أعضاء السناتو والعظماء عددا عظيما وكان من ضمن من ذهب ضحية تلك المظالم شيشرون الخطيب الشهير وفعلوا برأسه أفعالا تقشعر منها الابدان (٤٢ قم)

وبينما كان هؤلاء الثلاثة يعيثون فى المظالم برومية كما تقدم كان رؤساء الحزب الجمهورى خصوصا كاسيوس وبروتوس يعيثون ببلاد آسيا وكانا التجآ اليها ولما بلغ الخبر رومية سافر انطوان وأوكاف وتلاقيا مع خصميهما ببلاد مقدونية فدارت الدائرة على بروتوس وكاسيوس وبعد تلك الواقعة اقتسم انطوان وأوكاف المملكة وذهب انطوان الى آسيا لجلب الاموال الضرورية لمكافأة الجنود

ولما كانت أموال المعابد وخزائن المدن نهبت فى الحروب السابقة ضرب انطوان على العقارات ضريبة جمع منها أموالا طائلة وعكف ببلاد آسيا على الملاذ وانهمك فى النعيم وظهر بمظاهر الاجلال والعظمة وأتته ملكة مصر كليوباترة بمدينة تارس بكيليكيا وصعدت نهر سيدنوس على سفينة فاخرة مؤخرها من الذهب الخالص وشراعاتها من الارجوان النقى ومجاذيفها من الفضة الخالصة

وبينما كان انطوان على تلك الحالة انتهز أوكاف فرصة غيابه للاستيلاء على رومية وبلاد ايتاليا فعارضت زوجة انطوان وابنه الامة على أوكاف فثارت وحصلت جملة وقائع انتهت بهزيمة شيعة انطوان وقتل ابنه ولما علم انطوان بما حصل أتى مسرعا ومعه اسطول مؤلف من ثلثمائة سفينة وكادت الحرب تقع بين الاثنين لولا تداخل الامة بالصلح بينهما (٣٩ قم)

وبينما كانت رومية تستعد لملاقاة الرئيسين المذكورين ظهر سكستوس بن پومپى يقود أسطولا عظيما ومنع الاقوات الآتية من سردينيا وسيسليا عن رومية ثم انتهى الامر بالصلح على شرط أن يأخذ سكستوس سيسليا وقورصقة وسردينيا وبلاد اليونان وتعويضا يبلغ ثمانية عشر ألف ألف درهم وفى مقابلة ذلك تعهد سكستوس بان لا يقبل الفارين ببلاده وان يرسل الحنطة الى بلاد ايتاليا كالمعتاد ولما تم الصلح تعانق الرؤساء الثلاثة وتعشوا سوية بسفينة سكستوس وبعدها حدث ما أدى الى الحرب بينهم فانتصر سكستوس فى واقعة بحرية وكان يفتخر لذلك ويقول ان الامواج والرياح تسير بأمره رخاء حيث يشاء

ثم تغيرت الامور وانتصر انطوان على سكستوس الذى ذهب الى بلاد الشرق وقتلوه هنالك (٣٥ قم) ولما بقى أوكاف وانطوان بمفردهما يدبران أمر الدولة الرومانية حدثت بينهما البغضاء

لتخالف

لتخالف أعمالهما وتناقض أقوالهما فان انطوان كان يسير على شهواته منكباً على الملاهي واللعب وكل ما من شأنه الحط بقدره فكان يظهر بمظاهر مختلفة وملابس متنوعة وكانت سيرته مع ملكة مصر كليوباتره ملأت الافواه حتى كان يقال انه صار يفضل الاسكندرية على رومية ولو ساعدته المقادير لنقل اليها تخت المملكة

اما أوكتاف فكان بعكس ذلك يسعى في ايجاد النظام والامن في الغرب وعرف بالاعتدال والحكمة والتبصر ولم يكن يبذر الاموال كما كان يفعل انطوان بل كان يجد في الاعمال النافعة وبناء القنوات لجلب المياه وغيرها كاقامة الملاعب العمومية والاعياد الملية بكرم حبب فيه الامة ووسع حدود المملكة بفتوحات جديدة ولما رأى أوكتاف ان الوقت أتى لمعاقبة انطوان على أفعاله وتبذيره أعلن عليه السناتو الحرب وكان يقول ان حربنا ليست موجهة على انطوان ولا على غيره من الرومانيين بل حربنا موجهة ضد الملكة التي تحلم بسقوط الكابيتول وجنازة الدولة ولما التقى الجيشان طلب انطوان من أوكتاف أن لا يطاوله القتال بل يتم الحرب في واقعة واحدة تكون الفاصلة وكانت كليوباتره طلبت من حبيبها انطوان انه اتريدأن تتنزه الطرف بمشاهدة واقعة بحرية فلم يسع انطوان الا الانصياع لما أمرت ثم حدثت الواقعة عند مدخل خليج امبراسي بالقرب من رأس اكسيوم على الشاطئ الغربي من بلاد اليونان (٣١ ق م) وكان انطوان أول من فتح باب الحرب باسطوله المشكل من ٥٠٠ سفينة حربية وبعد أن أظهر الطرفان بسالة غريبة واقداما عجيبا ولم يكن تم النصر لاحدهما على الآخر انداسطول كليوباتره المركب من ستين سفينة نشر قلوعه وهرب بين سفائن المتحاربين

ولما رأى انطوان هذه الحركة التي أوقعت الاختلال في اسطوله فقد رشده وفر هو أيضا تاركا ميدان القتال تابعا عشيقته ثم سلمت سفنه للعدو وكذا قائد الجيش البري المدعو كانيديوس لما رأى نفسه ان الملكة وانطوان تركاه ذهب الى معسكر أوكتاف مع جيشه مذعنا له بالطاعة

ولما علم انطوان بهذه الاخبار المكدرة هم بقتل نفسه فنعه من ذلك أصحابه ثم عاد الى الاسكندرية والتقى بكليوباتره وانزوى في برج هناك عازما على المعيشة بعيدا عن الخلق الا أن قلبه لم يطاوعه على فراق من أخذت لبه ولعب هواها بجوارحه فعاد بعد قليل الى قصر كليوباتره منكبا على مسراته وملاذه ويقال انه عقد مع أصحابه وأصحاب كليوباتره عقدا كان أول شروطه أن يموتوا سوية بعد أن يتمتعوا بجميع أنواع الملاذ أما أوكتاف فانه بعد هزيمة خصمه سار بتبعه الى الاسكندرية ولما ظهر بجيشه وسفنه أمام الاسكندرية طلب منه انطوان التصريح له بالذهاب الى أثينا ليعيش هناك كأحد الناس أما كليوباتره فكانت ترغب في تاج مصر لاولادها وكان أوكتاف وعدها بنوال مرغوبها لو سلمت له في انطوان

ولما رأى انطوان ان كليوباتره قد خدعته أمر أحد عبيده بأن يقتله فامتنع العبد عن ذلك وقتل نفسه فقال انطوان عند ذلك انه يعلمني ما يجب علي فعله وتناول سيفه وطعن به نفسه فخر صريعا أما كليوباتره فلم تعش بعده طويلا لانها كانت تعلم أن أوكتاف لم يبق عليها الا ليجعلها في عداد الغنائم التي يأخذها معه الى رومية دلالة على انتصاره فلهذا فضلت الموت على ذلك الازدراء ويقال انها اقتلت

نفسها بثعبان جلبه لها فلاح فى سلة تين ثم وجدت قتيلة ملقاة على سرير من الذهب مغطاة بملابسها الملوكية وبعد ذلك دخلت بلاد مصر ضمن الولايات الرومانية وعاد أوكتاف الى رومية فلقبوه بلقب أغسطس أى العظيم وحكم على كل الدولة منفردا بالسلطة (٣٠ ق م)

(الفصـــل الرابع عشر)

سقوط الجمهورية الرومانية وأسباب ذلك

عظمة الرومان

لو تبصر عاقل فى أحوال رومية منذ نشأتها وما وصلت اليه من العظمة لرأى فى العناصر التى كونتها أسباب ارتفاعها العظيم السريع وقد أظهر مجلس أعيانها (السناتو) التبصر والمهارة فكان يدير جميع الاعمال ويوجه مجهودات الامة نحو غاية واحدة وهى توسيع أراضى الجمهورية وإنه وان كان ارتكب مظالم عديدة فى بعض الاوقات الا أنه مع ذلك أفاد الرومانيين إفادة لا تقدر وكان له تحت تصرفه جنود اتصفوا بالاقدام وخوض المعامع وقواد مهرة اشتهروا بالحزم وأصالة الرأى بحيث لم تبلغ أمة من الامم ما بلغه الرومان فى المعارف الحربية بحسب ما وصل الينا وكانت التربية كلها منصرفة فى جعل الجندى يتصف بخصلة الشدة والقوة اللذين هما نتيجة نظام قوى وكانوا يعودونه أيضا على تحمل المشاق والصبر على المؤلمات وكانت أمة الرومان التى ولدت أبطالا دافعوا عن بلادهم بما خلد لهم الذكر الجميل متصفة ببساطة الاخلاق وعلو النفس وعدم المحاباة لدرجة عظيمة ولم يكن لديها شئ أعز عليها من منازلها وحقولها وكانت متمسكة بآداب الدين بسيطة المعيشة تمارس جميع فضائل الابطال ثم وان كانت الانشقاقات التى ظهرت بينهم فى أول الامر عطلت قوى الامة مدة من الزمن إلا أنه لما تحدت طائفة الاعيان مع بقية الاهالى بما أجراه الجانبان من التساهل لم يعطل نهضتها الحربية بعد ذلك معطل أصلا ولقد كانت فتوحاتهم سبب اضمحلالهم وملاشاتهم فقد تفرقت الامة بجميع البلدان وسفكت دماء أبطالها فى مواقع النزال ولما ضعف أمرها عوضت أولادها فى الحروب بجنود أخذتهم من الارقاء المحررين فلم يكن لهم ما كان لاولئك من الخصال والاحساسات وعند ذلك تجدد بين الاعيان وبقية الاهالى الحروبات القديمة وبحصول هذه المنازعات ضعف عامل الوطنية والاخلاص فى قلوب الوطنيين وفسدت الاخلاق وعم الاختلال حتى حصل أن حزب الامة والاعيان تفانوا فى مقاتلة بعضهم بعضا وسقطت الامة ومجلس أعيانها فى هوة الاستعباد وقام الظلم الملوكى فألزمهم باطاعة أوامره واجتناب نواهيه وكانت الجنود أثناء حروب الاحزاب التى تجتهد فى القبض على السلطة العليا يخضعون لمن يحسن مكافأتهم ويكثر لهم العطاء من الرؤساء وكان ماريوس هو أول من ارتكب هذا الخطأ الفاحش والكرم المشؤم لانه عوضا عن أن يضم الى أعلامه أهل الوطن الحقيقيين جمع فى جيشه كثيرا من

مختلفى

مختلفي الاجناس والغايات جذبهم الى محبته بأن تركهم ينهبون ويخربون ما أرادوا ومتى أرادوا وقد كانت جنود سيلا وپومپيوس تقاتل بقصد الحصول على الغنيمة ليس الا أما جيوش قيصر فهي وان اتصفت بخلاف ذلك الا ان اخلاصهم لم يكن الا لنفس رئيسهم فقط وعوضا عن أن يخدموا البلاد كانوا آلات للمظالم لكل من يريد استعمالهم في فائدة اطماعه وكانت الامة اذ ذاك تمتهن للغاية الحرف اليدوية فكان العبيد هم المكلفون بالقيام عليها ولم يكن لها من التسلية وتمضية الوقت أثناء الفراغ الا التردد على أمكنة اللهو واللعب ومحلات الاجتماعات العمومية ولما سلب ظلم القياصرة من المجامع العمومية المذكورة ما كان لها من القوة والتأثير صارت الامة تتردد على محلات قتال الحيوانات المفترسة وأمكنة المصارعة ولما كان السناتو يوزع على الامة الحنطة اللازمة لغذائها بلا مقابل صارت لا تتطلع اذ ذاك الا الى شيئين وهما الخبز والالعاب تاركة ما اتصفت به قديما من الشرف والكرم وكان برومية في عهد قيصر أكثر من ثلثمائة ألف من المحتاجين الذين لا صناعة لهم وكانوا يعيشون من صدقات السناتو أو من النقود التي يمنحها لهم الناس بالطرقات وكانت جميع الاملاك والثروة محصورة في قبضة بعض الاعيان فكان لهم مزارع واسعة جدا حتى انهم لا يتمكنون من مشاهدتها الا وهم ركوب على الخيل وكان لهم برومية من القصور الفاخرة والمتنزهات الجليلة الغناء ما لا يحيط به الوصف وكانوا محاطين بالخدم والحشم المستعدين في كل وقت لاقضاء شهواتهم وكانوا يصرفون قسما عظيما من حياتهم في الولائم الفاخرة وكان لمهرة الطهاة عندهم المنزلة الرفيعة فكانوا يفوقون أمهر الصناع والمصورين اعتبارا

ومن الاسباب التي ساعدت كثيرا على هذا التغير الذي حصل للرومانيين دخول التمدن الاغريقي حينما دخل بلادهم عقب الحرب البونيقية الاولى وقد أفاد كثيرا في تقدم الفنون والعلوم والآداب ونبغ برومية عدة من فحول الشعراء مثل اينوس وبلوت وتيرانس ولوكريس وكاتول وغيرهم وقام أيضا كثير من الخطباء مثل شيشرون وسيلا وغراك وغيرهم ومن المؤرخين مثل قيصر وسالوست وان كان يعاب عليهم أنهم قلدوا زملاءهم من الاغريق تقليدا حط من شهرتهم

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

عصر الامبراطورية وقيام القياصرة

اعلم ان دولة الرومان كانت تحد في هذا الوقت شمالا بنهر الرين ونهر الطونة أو الدانوب والبحر الاسود ونهر الفرات وجنوبا بصحارى بلاد العرب وبلاد اثيوبيا وصحراء لوبيا الشهيرة بليبيا ومن الغرب والشمال ببحر الظلمات أو المحيط الاطلانطيقي الذي كان يدعى بالمحيط الاكيتاني والمحيط البريتاني والمحيط الجرماني أو الشمالي وكانت هذه الدولة الواسعة الاطراف تقسم الى ثمانية وعشرين إقليما اقتسم إدارتها أغسطس مع مجلس السناتو فترك للسناتو الاقاليم الخاضعة لرومية خضوعا تاما وكان عددها ثلاثة عشر إقليما منها سبعة باوروبا وهي صقلية وسردينيا وقرصقة وبلاد الغالة النربونية وقسم منتيكا (الاندلس) من اسبانيا ومقدونية واخائيه ببلاد اليونان وجزيرة أقريطش

(كريد) وثلاثة با سيا وهى مملكة برغامس القديمة وبثنيا وبافلاغونيا (ولاية قسطمونى) وبلادبون وجزيرة قبرس وثلاثة بأفريقية وهى بلادنوميديا (الجزائر) وأفريقية الحقيقية أو أراضى قرطاجنة قديما وبلادسيرينائيك (برقه)

وحفظ أغسطس الاقاليم الغير خاضعة تماما ليتمكن بذلك من وجود القوى العسكرية تحت يده يفعل بها ما يشاء وهذه الاقاليم كان عددها خمسة عشر إقليما منها عشرة باوروبا وهى بلاد الغالة السلتيه وبلاد اكيتانه وبلاد البلجيقه وبلاد تركونه باسبانيا وبلاد لوزيتانيا وبلاد ديتا بالسويسره (بريزون وتيرول وشمال لومبرديا) وبلادفنديليسيا (بالشمال الشرقى من بلاد السويسره والتيرول) وبلادنوريكيا (من بلاد النمسا) وبانونيه (بين الدانوب شمالا وايلليريا جنوبا) وبلادموسيا ودلماسيا (خروات) وايلليريا وأربعة فى آسيا وهى كابكيا وغالاسيه وسوريه وفينيقية وواحد فى أفريقية وهو مصر

ولما رأى أغسطس نفسه سيدا على الدولة الرومانية وتلقب بلقب امبراطور وان الامة قد أنهكتها الحروب بادر بقفل هيكل جانوس [1] ليثبت أن أمياله سلمية محضة وقد توصل الى ان صارت ارادته لا ترد وأوامره لا تنقض واستحوذ على جميع الوظائف العالية بين دينية وسياسية وأخذ فى إمالة الامة اليه بما كان يبذله للعامة من الاموال والاقوات وإقامة الافراح والولائم والاعياد ليشغل الامة عن التداخل فى أعمال الحكومة وكان يحترم أعضاء السناتو احتراما زائدا

ولما كانت الدولة الرومانية محتاجة الى وجود جيش دائمى بالنسبة لموقعها واغارة الامم المتوحشة على أطرافها فى كل وقت اهتم اغسطس بتنظيم جيش مدرب قوى وأخرج العبيد من بين الفرق الرومانية وجعل للجندى علوفة شهرية قدرها ١٣ فرنكا تقريبا وحدد مدة الخدمة العسكرية وجعل للجنود معاشا متى تركوا الجيش وخصص لحماية المدينة جنودا وكان الجيش البرى يتركب من عشرين فرقة كل فرقة عددها ٦٠٠٠ جندى موزعة على جميع حدود المملكة وكان الرومانيون قبل ذلك لا يعرفون فرق العساكر البرية الدائمة وصنع أغسطس دورصناعة للبحرية وكان الغرض الاصلى من عمارة السفن التى أحدثها انما هو حفظ الذخائر الحربية والوصول الى أجزاء المملكة بحرا وذلك لان الرومانيين كان تحت حكمهم البحر الابيض الرومى والبحر الاسود وكان فى ذلك الزمن لا يسافر بحرا الا فيه ولم يكن لهم وقتئذ دوبزاحمهم فى التملك على ذلك البحر وسلح أغسطس أيضا أربعة أساطيل كلفها بخفارة الاقاليم وحفظ الدولة من جهة البحر وكانت هذه الاساطيل ترسو بمدن رافين وميزين وفريجوس والبحر الاسود وقد أدت هذه

(١) جانوس شخص ورد ذكره فى خرافات الرومان اعتقدوا انه اتى من بلاد اليونان قديما واستعمر قطعة أرض صغيرة شيدت عليها مدينة رومية وكان شيد مدينة كان هو ملكها ويقولون ان الاله وهبه خاصية معرفة الماضى والمستقبل وكان يوجد حسب اعتقادهم بين سنتى ١٤٠٠ و ١٤٥٠ ق م ولما أتى روملوس لتأسيس رومية كان جانوس فى صف المعبودات الكبيرة وكان الرومان يتضرعون اليه فى الشدائد ويشخصونه برأس ووجهين اشارة الى انه يعلم الماضى والمستقبل وبيده اليسرى مفتاح كأنه يفتح السنة الجديدة المسمى أول شهورها باسمه (ينابر) وفى يده اليمنى قضيب وهو سلاح البوابين عند الرومان وقد شيد نوما لهذا المعبود هيكلا خارج رومية وكان هذا المعبد يستمر مفتح الابواب مدة الحرب مغلقها مدة السلم وكان هذا الهيكل يسع جميع أعضاء السناتو ولم يغلق مدة زمن يبلغ ألف سنة الا ثمان مرات

التغيرات ضرورة لتعديل فى مالية البلاد وأصلحت كذلك جباية الاموال وجعلت للدولة ميزانية مالية ثابتة قدرها المؤرخون بنحو ٩٦٠ مليونا من الفرنكات

وقد اشتهر عصر اغسطس فى تاريخ الرومان بالتقدم فى المعارف والآداب حتى سمى بالعصر الذهبى حيث نبغ فيه فى الشعر مثل فيرجيل وهوراس واوفيد وغيرهم وفى التاريخ مثل تيتليف وتروغ وبومبيه وغيرهم وكانت حاشية اغسطس تصبو الى المعارف والعلوم فكان ذلك من الاسباب الداعية لارتقائها بعصره وكثرت أيضا دور الكتب وشيد أغسطس برومية مبانى فاخرة بين عمومية وخصوصية وحث الامة على تحسين رومية بقدر ما تصل اليه استطاعتهم

ومع ما كان عليه زمن أغسطس من السكينة والسلم اضطرته الاحوال للقيام ببعض الحروب لقمع الامم المستقلة النازلة بداخل الدولة أو لحماية أطرافها من الاغارات فمن ذلك حصول الثورات بجهات جبال الالب واسپانيا فأرسل على العصاة ترانيتيوس ڤارون فأخضعهم وبعد ذلك أشهر حربا على العرب وأهل ايتيوبيا ولكنها لم تأت بما كان يؤمله وضم الى الدولة أراضى بعض القبائل المتوحشة الكائنة بجنوبى نهر الدانوب وبعد ذلك صارت تلك الاراضى حدودا للدولة من تلك الجهة (١٥ ق م) وأرسل قواده على الجرمانيين فأخضع قسما عظيما من بلادهم ضم الى الدولة الرومانية الان عاملا المدعو ڤاروس لما لم يحسن القيام بحكومة تلك الجهات خرج عليه الجرمانيون وحاصروه ثم انقضوا عليه وقتلوه هو ومن معه من الجيوش فأكبر ذلك أغسطس لما بلغه حتى يقال إنه شق ثيابه وصرخ قائلا (ڤاروس ڤاروس رد الى جنودى) ولبس لذلك شعار الحداد وتضرع الى المعبودات فى طلب النصر ثم بادر بارسال القواد والجنود فانتصروا على الثوار نصرا مبينا ثم مات أغسطس قبل ان يعلم بانتصار الرومان (١٤ م)

وفى أيام هذا القيصر كان ظهور عيسى بن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فكان ميلاده قبل الهجرة بستمائة واثنتين وعشرين سنة بعد ولادة ابن خالته يحيى بن زكريا بثلاث سنوات وبمولد عيسى عليه السلام الذى حصل بعد نحو عشرين سنة مضت من ملك أغسطس أرخ النصارى تواريخهم وكان من خبره عليه السلام ما هو معلوم وكانت ولادته بقرية بيت لحم من عمل القدس وقدمت بعد ولادته رسل ملك فارس فى طلبه ومعهم هدية فلما علم هيروس نائب قيصر على بيت المقدس طلبه ليقتله فسارت أمه مريم به وعمره سنتان على حمار ومعها ابن عم لها وهو يوسف النجار حتى قدموا الى أرض مصر فسكنوها مدة أربع سنين ثم عادت به أمه ومعها يوسف النجار وعمر عيسى ست سنين فنزلت به مريم قرية الناصرة فى جبل الخليل فاستوطنتها ثم أوحى اليه بأن يدعو بنى اسرائيل الى عبادة الله تعالى فطاف القرى ودعا الناس الى الله تعالى وأبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى باذن الله وبكت اليهود

وقام من بعده طبريوس ابن زوجته ليفى كانت ولدته من زوجها الاول كلود طبريوس نيرون وكان يتصف طبريوس المذكور بما لا يحمد من الخصال فكانت أقواله غير أفعاله وكان يخاف من جيرمانيكوس ويضمر له الشر ولو أن أغسطس أوصاه بمحبته وكان جيرمانيكوس محبوبا جدا لدى الامة لانتصاراته على أعدائها فطلبه طبريوس الى رومية وبعد أن عمره

بالانعامات والهدايا أرسله الى الشرق لردع أمة البارت والارمن وعين فى ذلك الوقت بيزون حاكما على سوريه وأوصاه سرا بعرقلة مساعى جيرمانيكوس فقام بيزون بما عهد اليه ودس لجيرمانيكوس السم فمات سنة (١٨ م) ولما وصلت زوجته وأولاده الى رومية قابلها الشعب بالترحاب وكان حزن كثير لموت جيرمانيكوس ثم أقيمت القضية على بيزون امام السناتو وشهد عليه الشهود بذنبه وتخلى عنه طيبريوس فقتل نفسه

ولما تخلص طيبريوس بذلك من عدويه شرع فى اظهار مظالمه فانتزع من الامة كثيرا من امتيازاتها وأعطاها للسناتو وتغلب عليه بأن أمر أعضاءه بعدم الاقتراع بعد ذلك الا بصوت جهورى بحضور الملك أو نوابه وبذلك استعبد السناتو وحط من شأنه كثيرا وتتبع الاشراف والعظماء فقتل منهم ونفى كثيرا وانتخب أحد أصحابه المدعو سيجان وجعله وزيرا ومنحه سلطة مطلقة عامة ولما رأى سيجان المذكور أن عائلة طيبريوس أخذت فى عرقلة مساعيه الرديئة لانه كان يسعى لان يكون امبراطورا أثار عليها غضب طيبريوس فقتل منها كثيرا ثم أشار على طيبريوس ان يعتزل رومية ليستريح من مشاق الاعمال لضرورة ذلك اليه لكى ينفرد هو بالسلطة فى رومية فانصاع لرأيه وسافر الى جزيرة كابرى (Caprée) [1] وهناك عكف على ملاذه البهيمية وكانت تصله أخبار رومية من سيجان الذى أخش فى المظالم

ثم ان طيبريوس انتخب سيجان لان يكون قنصلا معه وأجاز ذلك السناتو لمدة خمس سنوات ثم ان طيبريوس قلب له ظهر المجن لما علم بخبث نيته وصمم على قتله فتم له ما أراد وأخذ العامة جسمه فصنعوا به أعمالا وحشية وكذا قتلوا أولاده الثلاثة (٣١ م)

وبعد موت سيجان أطلق طيبريوس يده فى المظالم فكان يقتل البرىء والمسىء بلا تمييز بينهما وكان يحضر اعدام من قضى عليهم فرحا فخورا فكان ذلك سببا فى حنق الامة عليه ثم ان الهموم احتاطت به من كل جانب كأن نفسه الخبيثة استشعرت بما ارتكبت من فظائع الامور فأخذ جسمه فى الهزال وقواه فى الاضمحلال وأخذيهيم فى البلاد فلا يجد له راحة ولما وافاه أجله هللت الامة وطارت فرحا ومدة حكمه ٢٣ سنة (سنة ٣٧ م) ومع ذلك فقد احتفلوا به عند موته وقبل موته بأربع سنين رفع عيسى بن مريم الى السماء وقصة رفعه مشهورة حاصلها أنه لما تنبأ وأظهر المعجزات وأمر اليهود بالزهد والتوبة من المعاصى لم يصدقه إلا اثنا عشر رجلا وكذب به عامة اليهود واتهموه بما هو برى عمنه ثم اتفقت أحبارهم على قتله وطرقوه ليلة الجمعة فقيل انه رفع عند ذلك وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بيلاطس النبطى شحنة القدس من قبل طيبريوس وراودوه على قتله وهو يدفعهم عنه حتى غلبوه على رأيه فأمكنهم منه وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه الله اليه وله من العمر ٣٣ سنة وثلاثة أشهر فصلبوا الذى شبه لهم كما أخبر الله تعالى والى هذا الملك تنسب مدينة طبرية بالشام

وقام من بعده كيبوس كاليغوله بن جرمانيكوس وكان من صغره تعود على مواقف النزال لانه تربى وسط الجنود فكانوا يحبونه ولهذا لما جلس على التخت ابتهجت الامة به وظنوا أنه سيكون

(١) جزيرة صغيرة بخليج نابولى

امبراطورا

امبراطورا عظيما خفف عن الامة بعض ما كانت تشكو وتئن منه ومنحها الحرية بعد الظلم ولكنه أصيب بعد قليل بخلل فى قواه العقلية فانقلب الى وحش مخيف فكان يرتكب من الاعمال الشنيعة مالا يوصف ومن الدنايا القبيحة مالا يعرف وصار يبذر بجنونه ما كان طبريوس جمعه من الاموال ليستعين به عند الحاجة ولما نضبت ثروته صار يقتل الاغنياء ليصادرهم ويستولى على أموالهم ومن أعماله فى ذلك أنه باع فى أسواق مدينة ليون أثاث وجواهر أسلافه بحجة أن أشياء منها كانت ملكا لقيصر وأغسطس وطبريوس وكان يجبر الاغنياء على ابتياعها بثمن فاحش ومن أعماله الجنونية أنه اتخذ لحصانه وكان يحبه كثيرا اصطبلا من الرخام ومذودا من العاج وعدة من الارجوان وقلادة من اللؤلؤ حتى وهبه منزلا تاما به من العبيد والاثاث شئ كثير وأمر بأن يذهب الناس و يأكلوا عنده حتى يقال انه كان فى نيته ان يرشحه الى منصب القنصلية وكانت حياة الامة عنده لا تساوى الاقليلا فكان ينادى فى المجتمعات بأعلى صوته ويقول إنه يرجو المولى أن يكون للامة الرومانية رأس واحدة حتى يتمكن من قطعها بضربة واحدة ومن أعماله الحربية أنه أشهر على الجرمانيين حربا وعلى البريتون أخرى ففى الاولى منهما حمل فى محفة على أعناق العبيد بعد أن أمر سكان المدن المجاورة بأن ينظفوا ويرشوا بالماء الطرق التى يسير فيها ثم لما وصل الى شاطئ نهر الرين أمر بعض الألمان من حاشيته بأن يختبؤا فى غابة ثم هجم عليهم وأخذهم أسرى ورجع بهم الى وطنه وفى المحاربة الثانية قاد جيشه الى شاطئ البحر ثم أمر بضرب الابواق علامة على الحملة واقتصر بأن جمع من شواطئ البحر بعض القواقع ورجع بها مسميا اياها غنيمة الاوقيانوس ومن جنونه أنه أراد أن الامة تعبده فشيد لنفسه هيكلا وعند رجوعه من بلاد الغالة عمل فى رومية أعمالا منكرة جدا ثم حنق عليه أحد العظماء المسمى كاسيوس شيرياس بسبب ثقل جنونه وضربه بخنجر فقتله وكان حكمه أربع سنوات ثم أخذ جسمه سرا وأحرق حسب العادة ودفن (٤١ م)

وقام من بعده كلوديوس وهو ابن دروزوس أخو طبريوس وكان كاليغوله أبقاه على قيد الحياة لعدم خوفه منه وكان كلوديوس لما قتل كاليغوله مختبئا فى القصر الملوكى ولما وجده العسكر أخذوه وهو يرتعد وقالوا له كن ملكا علينا ثم أخذوه وطافوا به حتى أوصلوه الى المعسكر فلم يكن من القنصلين والسناتو والامة الا تثبيت هذا الانتخاب الذى وقع على أبله بعد مجنون وكان يضرب ببلهه المثل وكان كلوديوس مع ذلك يتحلى ببعض حلى العلم وقد كذبت قوانينه ما كانت ترميه به الامة من البله وله من الاعمال المفيدة نصيب وافر فقد أصلح حالة العبيد ورفع بعض المظالم وكان يميل الى العدل وكان ضعيف العزيمة فكان لا يتصرف فى شئ الا بحسب ارادة خواصه وقد انتهزت زوجته ساليمن تلك الحالة فرصة وانكبت على الملاهى الفاضحة ولوثت قصر ملوك رومية بأعمالها الخبيثة وفى عصر هذا الامبراطور التعيس انتصرت الجيوش الرومانية فى كل مكان نصرا مجيدا فدخل قائده أولوس بلانيتوس بريتانيا العظمى وتوصل لان يعمل مالم يتمكن قيصر ولا أغسطس من عمله وذلك باستيلائه على الجزء الجنوبى من الجزيرة المذكورة وأسس به مستعمرة وخضع الجرمانيون بالارادة لرومية وصارت بلاد تراس اقليما وماتيا واستولوا

بالشرق على بلاد ارمينيا وأخضعوا بلاد ليديا نهائيا وضمت فلسطين الى سورية وأخضع بوليونوس رجيتا بأفريقية المغاربة ولما سئم كلوديوس من زوجته المذكورة قتلها وتزوج بعدها بأخرى كانت تماثلها في الصفات القبيحة ثم تمكنت من أن دست له السم فقتلته لبعض أغراضها بعد أن حكم ١٤ سنة (٥٤ م)

وقام بالامر بعده نيرون وكان سنه ١٧ سنة وكان مؤدبه الفيلسوف سينيك وقد اتصف في أول حكمه بالعقل والاعتدال فأزال المظالم ورفع الضرائب وأعان أعضاء مجلس السناتو ومنح الجنود راتبا من الحنطة وأظهر الكرم لكل الطبقات وكانت أمه اغريبين تريد أن تضع في قبضتها كل قوة فكانت تقابل السفراء بنفسها وتكتب للملوك والامراء وتحضر مفاوضات السناتو خلف ستار وكانت هي الحاكمة في الحقيقة ولما رأى سينيك وبوروس مؤدبيه ذلك أوغرا صدر الملك الشاب على أمه وبذرا في قلبه بذور العداوة نحوها وحرضاه على التباعد عنها فلما رأت منه ذلك ابتعدت عن المداخلة في الاعمال وقربت منها بريكانيكوس كأنها تريد اصعاده على التخت مكان ابنها فبادر نيرون وسقى خصمه سما زعافا فمات من ساعته ثم قتل زوجته وثنى بأمه

وبعد ذلك انكب نيرون على الملاهي والملاذ وكان يلعب بنفسه في التياترات وغيرها ولما نضبت خزائنه صار يقتل ويصادر الاغنياء لاخذ أموالهم ثم التفت إلى بوروس وسينيك فدس السم للاول ونفى الثاني لانهما كانا ينصحانه ليعدل عن الطريقة التي يسير فيها ومن أعماله أيضا أنه أمر باحراق مدينة رومية بحجة أن مبانيها رديئة البناء وطرقها ضيقة معوجة فأشعلوا بها النيران من عشر جهات دفعة واحدة فاستمرت بها النيران مدة ستة أيام وسبع ليال وكان أثناء ذلك يشرف على هذا المنظر من أعلى برج يترنم بقصيدة من انشائه ثم أمر فشيدوا له قصرا فسيحا سموه بالبيت الذهبي صرفوا عليه أموالا طائلة أخذت من المدن الحرة والاقاليم المفتحة والامم المتحالفة ولما كان الرأى العام يتهمه باحراق رومية تخلص من ذلك بأن ألقى تبعته على النصارى فاضطهدوا وعذبوا عذابا شديدا وكان يزعم أن دينهم صيرهم مكروهين عند الجنس البشرى وأن التعذيبات العادية ليست كافية بالنسبة اليهم فأخذ بعضهم وأمر فوضعوا داخل جلود بعض الحيوانات وألقوا الى الكلاب فأكلتهم وأخذ غيرهم وألبسوا قمصانا مدهونا بالقار وأشعلت فيهم النيران وكان الامبراطور يشاهد تلك المناظر البشعة بنفسه وهو الذى قتل بولص وبطرس الحواريين (٦٦ م) وكان قتل بطرس بالصلب ولما أرادوا صلبه طلب ان يصلبوه بحيث تكون رأسه الى أسفل ورجلاه الى أعلى على عكس صلب السيد المسيح على زعمهم أما بولص فقطع رأسه لانه كان رومانيا ثم تآمر عليه بعض رعيته خوفا على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم فلما اكتشف على حزبهم أخذهم ونكل بهم تنكيلا ومن ضمنهم مؤدبه سينيك

وفي هذا العصر كانت الجيوش الرومانية منصورة في الغرب والشرق معا فكان قائده سيوليتونيوس يقمع العصاة ببريتانيا العظمى ويثبت قدم السلطة الرومانية بتلك الجهات وقائده في الشرق المدعو كوربولون يحارب أمة البارت وينتصر عليهم النصرات العديدة ثم غدر نيرون بهذا القائد الشجاع وقتله بمدينة كورانته حينما ذهب نيرون اليها ليحضر الالعاب الاولومبيادية

ثم ان الامة تألبت على هذا الظالم الغشوم وخرج الثوار بأطراف المملكة واختل نظامها فضاقت الدنيا فى عينيه وانسدت أمامه أبواب الحيل وأراد قتل نفسه مرارا ثم ان السناتو اعتبره عدوا عموميا للوطن ولما بلغه ذلك تناول خنجرين فى آن واحد وطعن بهما نفسه فى رقبته وساعده على ذلك كاتب سره أبافروديت وفى مدته انقرضت عائلة أغسطس سنة (٦٨ م)

واعلم أنه بعد موت كلود كانت كل فرقة من الجنود تجتهد فى أن ينتخب الامبراطور من بينها فأدت هذه الاثرة الى المخاصمات والى احداث نوع فوضى وكان الجنود انتخبوا فى أول الامر غالبه حاكم اسبانيا ونادوا به امبراطورا فانشرح من ذلك صدر الجنود والاهالى أملا فى الحصول منه على العطايا المعتادة التى عوّدهم عليها سلفه من القياصرة عند التولية الا أن ظنهم قد خاب ومن أعماله أنه قتل وزراء نيرون واجتهد فى اصلاح الميزانية وأخيرا خرجت الامة عليه خصوصا لبخله وقتلوه سنة (٦٩ م) بعد أن حكم سبعة شهور

ثم قام بعده أوتون وكان مقربا عند نيرون ولما جلس على التخت فرق العطايا على الامة والجنود وقد اتصف بالحلم والمهارة الا أن بعض أشياعه مالوا عنه الى فيتيليوس الذى كانت الجيوش الرومانية نادت به امبراطورا بجرمانيا وكانت قواده تتقدم على رومه بقصد خلع أوتون الذى لما بلغه ذلك ترك حالة الرفاهية التى كان عليها وترأس على جيوشه فلما التقى الجيشان انكسر أوتون وهرب ثم قتل نفسه بعد أن حكم ثلاثة شهور

أما فيتيليوس فلم يشترك بنفسه فى تلك الواقعة بل ان قواده هم الذين ساروا أمامه ليأخذوا له التاج وكان يتبعهم من بعيد ولما وصل ايتاليا تفرج على موقع القتال الذى انتصر فيه قواده ثم تقدم ودخل رومية وجلس على التخت وكان يمضى أيامه فى الاكل والشرب ظانا ان الدولة ولمة لا تنتهى وكان يصرف على مأكله ومشربه أموالا طائلة ويقال ان أخاه ليسيوس لما دعاه قدم له فى أكلة واحدة ألفى سمكة لذيذة وسبعة آلاف طائر وتصور مرة ان يصنع مائدة جسيمة تشتمل على أكباد الاسماك النادرة وأمخاخ العقبان والطواويس وألسنة الطائر المسمى بالنحاف ونخاع بعض الاسماك ويقال انه لتحضير هذه المائدة لزم الحال لان تسير السفن من أول خليج البنادقة لغاية مضيق قابس قصد صيد الاسماك المطلوبة وكان هذا الامبراطور الذى يأكل خراج الدولة على سفرته سفاكا للدماء بقدر ما كان شرها فقتل كثيرا من أصحابه وأقاربه ثم تآمر عليه الجنود ونادوا بعزله

ولما بلغ الامة الرومانية التى سئمت هذه الحالة أن الجيوش نادت بفسباسيان امبراطورا فرحت لذلك جدا ثم بايع قواد جميع الجنود والاساطيل هذا الامبراطور الجديد ولما دخل قائده المدعو انطونيوس بريموس رومية خلع فيتيليوس نفسه واختفى بيت أحد عبيده ولما وجدوه أخيرا سحبوه على وجهه وأحضروه الى الميدان العمومى ومزقوا ملابسه ووضعوا حبلا فى عنقه وكتفوا يديه وبعد أن عرّضوه وقتا للاهانات والسباب قطعوه اربا اربا وحكم ثمانية شهور سنة (٧٠ م)

وكان فلافيوس فسباسيان المذكور من عائلة حقيرة فى ايتاليا الوسطى وكانت له شهرة فى حرب بريتانيا مدة كلوديوس ثم تعين لقمع العصاة ببلاد اليهود وبينما كان يطارد العصاة نادى به الجنود امبراطورا فبادر بالعودة الى رومية تاركا قيادة الجيش لابنه طيطوس وكان

فيسباسيان يتصف بالقناعة والنشاط والعدل فاصلح المحاكم ونظم الجيش ورتب المالية وفى زمنه شق الغول والجرمان عصا الطاعة فجرد عليهم وقاتلهم وبعد قتال استمر زمنا أذعنوا للطاعة وكان طيطوس أبقاه فيسباسيان يطارد اليهود ويحاصر أورشليم الأ أن تلك المدينة امتنعت عليه فلما أعيته الحيل فى الاستيلاء عليها بنى حولها سورا حصينا وأرسل للمحاصرين أحد أبناء جلدتهم وهو يوسيفوس المؤرخ يطلب منهم التسليم فلم يقبل اليهود وكانوا يزعمون بالمدينة أن المسيح سيظهر عن قريب ويخلصهم من أعدائهم لان اليهود ببلاد فلسطين كانوا يعتقدون أن حكم دين عيسى عليه السلام عليهم قد آن أوانه وان الرومان هم خلفاؤه وأعوانه وأنهم ينفصلون عن رومه أو يستقلون بأنفسهم فكانوا يقومون على الرومان ويقاتلون ولاة أمورهم

ولما انقطعت المواصلات بين داخل المدينة وخارجها بتضييق الحصار عزت الاقوات وفشا القحط حتى أكل بعض الناس أولادهم وعند ذلك هاجم طيطوس المدينة وأعمل السيف فى أهلها حتى أبادهم عن آخرهم وكانوا يزيدون عن ٧٠٠,٠٠٠ ألف نفس وخرب المدينة تماما حتى جعل عاليها سافلها وأحرق هيكل سيدنا سليمان عليه السلام وخربه حتى لم يبق منه حجرا على حجر سنة (٧٠ م) ثم عاد طيطوس الى رومية فتوظف باحدى الوظائف الخطيرة وكان فيسباسيان يتصف بالبخل إلا أنه استعمل جميع أموال الحكومة فى المنافع العمومية وساعد أعضاء السناتو على احتياجهم وأصلح كثيرا من المدن المتخربة والطرق وقنوات المياه وشجع على اقتناء العلوم والفنون وغير ذلك ثم اعتراه مرض مات به ولما استشعر بخروج روحه قال يجب أن لا يموت الامبراطور الا قائما فأوقفوه فمات وهو على تلك الحالة سنة (٧٩ م) ومدة حكمه عشر سنوات

وقام بالامر بعده طيطوس وكان اشتهر فى حروب جرمانيا وبريتانيا وأنهى حروب اليهود كما أحب الرومان ولم يكن محبوبا عند الامة فكانت تلصق به التهم وتنتقد أعماله وأفعاله حتى شبهته بنيرون الظالم ثم اتضح أنها مخطئة فى حكمها لانه كان سخيا محبا لفعل الخير والمساعدة بعيدا عن الفتك بالرعايا وقد عفا عن أرادل الحلمه عمن أساء اليه وحتى عن الذين هموا بقتله وقد شيد مبانى عمومية وخصوصية كثيرة وفى زمنه حصلت حوادث مفجعة ببلاد ايطاليا وذلك أنه بعد أن مضى على حكمه أربعة شهور ثار بركان ويزوف بورانا هائلا فخرب بلاد كامبانيا وطمرت طفحاته المصهورة كثيرا من المدن خصوصا هركولانوم وبومبى سنة (٧٩ م) ومات فى هذه الحادثة بلين (١) أحد مشاهير العلماء القدماء وأصاب رومية الطاعون ثم القحط ثم الغرق ثم الحريق وقد خفف طيطوس ويلات الذين تخربت بلادهم واستعمل أموال العائلات التى هلكت فى اصلاح القرى التى تخربت وبعد حريق رومية تعهد للسكان بتعويض كل ما فقدوه فباع لذلك ما يملكه حتى آنيته والحاصل أنه كان من الملوك الذين اشتهروا فى رومية بحب الاصلاح ثم مات مسموما سمه أخوه دومسيانوس بعد أن حكم ٢٧ شهرا (٨٠ م)

وقام بالامر بعده أخوه دومسيانوس المذكور وكان جسورا شريرا وقد سعى مرارا فى خلع

(١) هو عالم رومانى طبيعى شهير له مؤلف فى المواليد الثلاثة يتركب من ٣٧ قسما ولا يزال لهذا الكتاب اعتبار للآن بين العلماء

أخيه وقد أظهر فى أول حكمه طيبة وحلما وبشاشة وتشجيعا للمعارف التى كان يصبو إليها ويشتغل بها وشيد برومية مبانى عظيمة وأعاد بناء الكابيتول فوسعه وحسنه ولما أيقن من تمكن قدمه فى السلطة انقلبت حسناته سيئات وأسرف فى أموال الامة وصادر الاغنياء وطرد من رومية الفلاسفة والمنجمين وأمر أن لا يغرس بها كرم حتى فاق نيرون فى المظالم وقد كان فيه من الجبروت بقدر مافيه من الجبن وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الجبناء غالبا جبابرة فيستعينون على حفظ أنفسهم بالجبروت لفقدهم نخوة الشجاعة وقد نكل بالنصارى تنكيلا ونفى بعض أقربائه الذين اعتنقوا الدين النصرانى وقتل من النصارى مقتلة عظيمة وجردهم من أموالهم ومن ضمنهم القديس يوحنا الحوارى بعد أن عذبه تعذيبا شديدا وكان هذا الظالم يريد أن يشتهر بالفتوحات كما اشتهر نيرون من قبل فأغار على الجرمانيين ورجع منصورا بحسب ظنه وكان فى ذلك الوقت انتصر قائده المدعو اغريكوله نصرات حقيقية فى بريتانيا العظمى وتمكن من توسيع حدود الدولة لغاية خليجى فورث وكليد وقهر أهل ايكوسيا وكان دوميسيانوس يرى سروره فى احتقار السناتو والاعيان ثم لما علمت زوجته أنه صمم على قتلها أغرت عليه أحد عبيده فقتله سنة (٩٦ م) وهو آخر الامبراطرة المسمون فى التاريخ بالاثنى عشر قيصرا

وبموت دوميسيانوس زالت عائلة فلافيان ولم يتفق الجنود على انتخاب امبراطور فسعى السناتو بان نادى بنرفا ملكا وكان من عائلة رومانية شهيرة وقد اتصف بالحلم والكرم ومن أعماله رد المنفيين الى بلادهم ومنع اضطهاد النصارى وتقليل المغارم وتفريق الاراضى على الفقراء وهو أول من فتح للدولة الرومانية عصرا سعيدا وهو المسمى بالعصر الذهبى للرومانيين لانه تعاقب فيه على تخت رومية امبراطرة اشتهر ذكرهم فى التاريخ بحامد الخصال وجليل الافعال وكانت عادتهم أن يعينوا قبل موتهم من يخلفهم على التخت لتجنب الحروب الاهلية ولم يكونوا من عائلة واحدة بل ان نرفا أولهم عين تراجان وريثا له وهذا عين ادريان الذى عين انطونيوس الذى عين أخيرا مارك أوريل الا ان نرفا كان ضعيفا خائر العزيمة فاستهانت به الامة ولما رأى منها ذلك صمم على انتخاب خلف له فتبنى تراجان وجعله خليفة له مع ان له أقارب لم يلتفت اليهم بل نظر الى خير المملكة وكان تراجان أمهر قواده يتصف بالفضائل وعلو النفس ولما عين لهذا المنصب الجليل بعد موت سلفه دخل رومية راجلا فى زى بسيط محتقرا بذلك هذه المناصب الزائلة (٩٨ م)

وأول عمل شرع فيه أن فرق على الامة الاموال ولم يكن يميل الى الأبهة والعظمة الملوكية وكان يهزأ بالتعظيمات التى تؤديها الامة لتماثيل العظماء المتخذة من البرونز أو الرخام ورد الى السناتو مطلق الحرية فى الانتخاب وأنشأ باطراف المملكة طرقا عسكرية لتسهيل المواصلة بين أجزائها وابتنى كثيرا من الجسور والثغور فمن ذلك ثغر انكونه على جون البنادقة بايطاليا وذلك لتكثير المتاجر والمعاملات وقد اجتهد فى تجهيز بناء هذه الميناء فى سنة واحدة فاعترف له مجلس السناتو بانه يستحق التعظيم والتبجيل فبنوا له هيكلا بالمدينة المذكورة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وفى زمنه اضطهدت النصارى وقتل منهم خلق كثير حتى ان تراجان عند مروره بانطاكية قتل أسقفها اشرقتله واتسعت حدود الدولة الرومانية كثيرا وافتتح بلاد هنكاريا الحالية ورومانيا وصيرهما أقاليم رومانية

ثم أغار على أمة البارت واستولى على أرمينيا نهائيا وصيرهما إقليما رومانيا فهادنه الملوك وهابته وهادنته حتى ملوك الهند وافتتح مدينتى سيلوقية واكتيزيفون أو المدائن وضم بلاد أشور الى الدولة الرومانية وتذكارا لهذه النصرات الجليلة أقاموا له برومية عمودا لايزال للآن وبعد أن استراح قليلا بانطاكية من أتعابه هب الى الفتوحات ثانية وسافر بالاوقيانوس الهندى ويقال انه كان يريد أن يصل الى ماوصل اليه اسكندر الكبير وبينما كان يريد الذهاب الى بلاد اليهود لقمع ثورتها فاجأه الموت بمدينة سيلينونت أو تراجانو پوليس بكليكيا فأخذ رماده بعد الحرق ودفن تحت العمود المسمى باسمه وحكم ١٩ سنة وموته سنة (١١٧ م)

وقام بأمر الدولة بعد تراجان أدريان حاكم سورية وكان يميل الى السلام وأهم حروبه كان مع اليهود وقد دمر مدينة أورشليم تماما وابتنى مكانها مدينة جديدة سماها ايليا كابيتوليتا وأنشأ للمشترى هيكلا مكان هيكلها (١٣٨ م) وقتل فى هذه الحروب أكثر من ٦٠٠،٠٠٠ من اليهود ومابقى منهم أخذ وبيع كأتباع الماشية ولم تقم بعد ذلك لليهود قائمة وتشتتوا فى جميع أنحاء الكرة ولما لم يكن يميل الى الفتوحات وتوسيع الدولة ترك غالب الجهات التى كان فتحها تراجان من قبل وجعل نهر الدانوب آخر حدود الدولة من تلك الجهة وشيد بشمال بريتانيا العظمى سورا حصينا طوله ٣٠ فرسخا لصد اغارات أهالى ايقوسيه وكان ادريانوس يميل الى الفنون والعلوم وانشأ برومية وغيرها من المدن كثيرا من الآثار ولايزال بعضها باقيا يشاهد الآن وأحدث فى الادارة الرومانية اصلاحات كثيرة وقسم الوظائف العمومية الى ثلاث طبقات وهى طبقة وظائف المملكة وطبقة وظائف القصر الملوكى وطبقة وظائف الجيش وسن نظامات عادلة وجمع قوانين المملكة فى قانون واحد ثم أخذ فى السياحة مدة إحدى عشرة سنة فطاف جميع الاقاليم المهمة ومنها مصر ممتحنا الادارات منشطا العمال باحثا عن الاخلاق والعوائد والمعتقدات ولما زار مصر أراد أهلها تخليد ذكر سياحته فضربوا سكة من الحديد مرسوما عليها تاريخ سفره وصورة مدينة الاسكندرية كأنها انسان يستقبل هذا القيصر وهو قادم فى سفينته وصوروا القيصر يتلقى هدايا تلك المدينة كأنه يمد يده للاسكندرية وهى تمد يدها اليه للتحية ولهذا أطلق عليه الامم لقب مصلح العالم ثم عكف على ملاذه بعد ذلك ثم انقلبت حالته وارتكب مايقدح فى سيرته الاولى ثم مرض مرضا ثقيلا ومات بعد أن تحمل آلاما صعبة بعد ان حكم ٢٠ سنة (١٣٨ م)

وقام بالامر بعده انطونيوس وكان عهد له ادريانوس بالامر قبل وفاته وتولى فى زمنه مناصب عالية ومن حسن طالعه ان مؤرخه كان مارك اوريل الشهير الامبراطور الآتى الذكر وقد اتصف هذا الامبراطور بسعة المدارك وقوة الجاش والرفق والعدل بين الرعية حتى لقبوه بأبى الجنس البشرى وقد تمتع الرومان فى زمن حكمه الذى بلغ نحو العشرين سنة بسكينة تامة وعدل شامل حتى أزهرت التجارة والصناعة واتسعت دائرة الفنون والعلوم كثيرا ولم يطلق يده فى أموال الدولة والرعية كما فعل أسلافه بل استعمل الأموال فى تخفيف الآلام وتشييد المبانى النافعة وكان يقول ان سعادة الامة هى ثروة الملوك وهو قول حكيم عاقل متبصر فى الاحوال ولما عصى يونان

الاسكندرية عليه وقتلوا عاملها عليها أتى بنفسه يقود جيشا وعمارة بحرية فأدب العصاة وفى عصره كان بعصر بطليموس (١) الفلكى الشهير ولكن لما كانت العصمة لله ولرسله لم تخل سيرة هذا الامبراطور من غلطات ارتكبها وكان موته سنة (١٦١ م)

ثم تولى بعده مارك أوريل المؤرخ الفيلسوف المتقدم الذكر بعهد من انطونيوس المتقدم وكان تقلب فى كثير من الوظائف واشتغل بدراسة وتقرير الفلسفة العالية والآداب النبيلة ولم يكن يقصد غير خير رعاياه وكانت وجهته تحقيق قول أفلاطون حيث قال (ما أسعد الامم اذا كان ملوكها فلاسفة أو كانت الفلاسفة ملوكا) وفى زمنه اضطهدت النصارى اضطهادا شديدا وهو الاضطهاد الرابع بدولة الرومان وكانت النصرانية امتدت كثيرا فى الشرق والغرب وحصل فى زمنه طاعون ومجاعة برومية وكذا فيضان نهرى التبر والبو وفى تلك الاثناء شق الجرمان باوروبا والبارت والفرس بآسيا عصا الطاعة فانزعج الرومان بهجومهم على عمالكهم حتى خشى على المملكة من التمزيق وكانت مدينة رومية فى أثناء هذه الاخطار محكومة بحاكمين مختلفى الامر والنهى فى سائر المدن والامصار وذلك أن القيصر مارك أوريل كان من فرط حرصه أشرك معه فى القيصرية لوقيوس ويروس فارسل القيصر على الفرث أو البارت من يقوم بقمعهم وسار مارك أوريل بنفسه ضد الجرمان فاوقع بهم فى كل مكان وأظهر فى تلك الحرب دراية و إقداما عظيمين ومما يؤاخذ به هذا الامبراطور اطلاقه السراح لزوجته تقلب أحوال الدولة كما تشاء وبينما كان مارك أوريل يسعى فى قطع دابر الثوار من الجرمان وادخال بلادهم فى عداد الاقاليم الرومانية أصابه مرض بمدينة فينا من أعمال أوستريا فمات بها وحزن عليه الشعب كثيرا سنة (١٨٠ م) ويقال انه مات مسموما وكان هذا الامبراطور متمسكا بمذهب زينون (٢) الحكيم أحد الفلاسفة المتقشفين فكان من شيبته زاهدا فى الدنيا ينام على الفرش

(١) قلوديوس بطليموس الرياضى اليونانى المصرى الشهير يقال انه ولد بمدينة بيلوز (الطينة) ونشأ فى الاسكندرية فى القرن الثانى للميلاد وقلما يعرف شئ حقيق عن أخبار حياته وله الكتاب الشهير المسمى عند اليونان سنتكسيس وعند العرب مجسطى يبحث عن العلاقة بين الارض والسماء وتأثير الكواكب فى الارض وهو يجعل الارض فى وسط المسكونة وبقى نظام بطليموس المؤسس على مذهب ارخوس مقبولا عموما الى أيام قوبرنيك ولولا العرب لكان كتابه المذكور ضاع ولم يقف عليه المتأخرون فانهم ترجموه فى خلافة المأمون بن الرشيد وقد جعل بطليموس هذا رابعا بين الرياضيين القدماء أى بعد اقليدس وابلونيوس وارخميدس وهو الذى عرف زاوية انكسار الضوء وبها توصل الى معرفة أمور فلكية وقد ألف بطليموس جغرافية عمومية بقيت الى القرن السادس عشر الميلادى دستورا لهذا الفن وهو أول من استعمل العرض والطول وبهما عين موقع كل البلاد والمدن وبرهن على كروية الارض وأول من اتخذ جزيرة الحديد احدى جزائر السعادات (فناريه) مبدأ للطول وقد اشتهر أيضا بفن الموسيقى والتنجيم والتاريخ اه

(٢) زينون فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة قبرس (٣٥٠ ق م) وكان يتعاطى التجارة فى أول أمره ثم تعاطى الفلسفة ودرس على كراتيس وزينو كراتيس وبوليمو وغيرهم ثم عكف على التدريس وفتح مدرسة فى أثينا فطارت له شهرة واسعة وتقاطرت اليه الطلبة من كل مكان وكان بطليموس فيلادلف ملك مصر يأمر سفراءه فى أثينا بنقل كلامه له ولازم التدريس نحو خمسين سنة ومات شيخا كبيرا مكرما مخلد الذكر وكان رأس فرقة الرواقين نسبة الى الرواق الذى أسس فيه مدرسته وكان من تعاليمه عدم المبالاة بصروف الزمان و إحسان السيرة واتباع الفضائل ونبذ

البابسة ويعودبدنه على الرياضة الشاقة كما يروض عقله على النظر فى دقائق الامور والتفكر فى أحوال الكائنات

وقام بالامر بعده ابنه المدعو كود الذى اتصف بخبيث الاعمال من صغره حيث تولى وظائف مهمة فأسرف فى جميعها وكل ذلك من تساهل أمه واطلاقها له عنان شهواته وبمجرد ما جلس على التخت عقد الصلح مع الجرمان ليتفرغ الى مشتهياته الدنيئة وأدخل فى الجيش الرومانى أزيد من عشرين ألفا من الامم الهمجية وبذلك أطلعهم على أسرار العسكرية الرومانية ومناوراتها بدون ان يتبصر فى ذلك وكان يتباهى بقوته البدنية فكان يضرب الفيل العظيم برمحه فيخرج سنانه من الجهة الاخرى وله غير ذلك من الافعال الدالة على قوته

وفى زمنه اختلت الادارة الرومانية لسوء تصرفه فزاد فى المكوس وباع الوظائف وصادر الاغنياء فحنقت عليه الامة وصارت تتمنى موته من يوم الى يوم ثم تآمر عليه بعض خواصه ودسوا له السم فقتلوه بعد ذلك وأمر السناتو فالقى جسمه فى نهر التبر (١٩٢ م) وكان شديد الشغف بالمصارعة يتباهى بذلك وله فى هذا الامر أخبار غريبة ضربنا عن ذكرها صفحا

وبعد أن تمتعت الدولة الرومانية مدة قرن من الزمان بالراحة والرفاهية وعظم اسمها وازداد مجدها وقعت فى حالة تشويش واضطراب وحروب مدة قرن وكثر خلع الملوك وقتلهم بعد تنصيبهم بقليل وعاثت الامم الهمجية بالحدود وتمكن بعض رؤسائهم من نوال منصب الملوك وتظاهرت الاقاليم بحب الانفصال فكان هذا ابتداء انحلال الدولة الرومانية

وأول هؤلاء الملوك برتيناكس الذى تولى المملكة بعد موت كود وكان شحنة رومية وقد اتصف هذا الملك بحسن التربية والميل للعدل والاقتصاد وقد رد الى السناتو ما كان سلب منه من الحقوق والوظائف وأخمد الثورات بالاقاليم وسعى بقدر الامكان فى رتق ما فتقه كود من قبل ثم خرج عليه بعض أرباب الحكومة فقتلوه بعد أن حكم ثلاثة أشهر (١٩٢ م)

وقام بالامر بعده ديديوس جوليانوس وكان ابتاع المنصب الملوكى لان القضاة بعد موت برتيناكس كانوا أشهروا المنصب الملوكى فى المزاد فاشتراه ديديوس المذكور بمبلغ طائل فلما علمت الامة ذلك اغتاظت جدا وأخذت تهزأ بالقضاة وتسب الملك علانية ولما وصل هذا الخبر الى الجيوش الرومانية الموزعة بالاقاليم الخارجية نبذوا الطاعة وانتخب كل إقليم امبراطورا خاصا من بين القواد وكان ممن انتخب سبتيم سفيروس قائد الجيوش ببلاد ايلليريا فأسرع بالسير الى رومية لقربه منها واستولى عليها فعند ذلك استعان ديديوس بالسناتو لحمايته فلم يكن من السناتو الا أن أصدر حكما بقتله بعد أن حكم سبعين يوما (١٩٣ م)

الرذائل وقسم العلم الى ثلاثة أقسام المنطق والطبيعة والآداب وعنده ان القسمين الاولين انما هما توطئة للاخير وكانت مباحثه تنحصر غالبا فى تعريف الحقيقة وقال انها مدركة بالحوادث يثبتها العقل وان كل الافكار صادرة عن الحواس وفى مباحثه الطبيعية قال ان العالم والانسان مبدآن وهما العامل والمعمول فالعامل انما هو الله والنفس البشرية والمعمول هو الجسم والمادة وان الله يدبر كل شئ بحسب نواميس العقل أو النظام العالى ولم يكن عنده خير الا الفضيلة ولا شر الا الرذيلة وقال ان الشهوات البشرية انما هى ضعف وأمراض فى النفس وكان يحث على عدم الاكتراث بنوازل الطبيعة ولم يكن يقول بخلود النفس الشخصى ولم يبق من كتاباته الا القليل اهـ

أما سبتيم سفيروس فانه بعد أن وطد قدمه على التخت سار على رأس جيش لقمع القواد الذين ادعوا الملوكية بالاقاليم فتمكن من ابادتهم ثم تتبع العصاة فنكل بهم فى كل مكان واضطهد النصارى فامر بقتلهم وتعذيبهم وتشريدهم وهو الاضطهاد الخامس وفى عصره اغار البارت على بلاد العراق فاضطر الى الرجوع الى الشرق واستولى على سلوقية وبابل والمدائن وأوقع بالعصاة ثم عاد الى رومية مارا بمصر ولما سكنت الاضطرابات أحسن السيرة وشجع الصنائع والعلوم وقصد مجلسه العلماء والمشرعون وكان موته بمدينة يورك من أعمال بريتانيا العظمى وكان ذهب اليها لمحاربة أهل ايقوسيا لما خرجوا عليه وأوصى أولاده بالعدل والسعى لجلب المنفعة للرعايا (٢١١ م)

ثم قام بالامر من بعده ولداه كراكلا وجيتا وكانت أخلاقهما متضادة فلم يتمكنا من المعيشة سوية باتفاق فكان جيتا وديعا حليما وكان كراكلا متكبرا شديدا وحشى الطباع وكان أبوهما يرى فيهما ذلك وأنبأ به قبل موته ثم ان كراكلا قتل أخاه جيتا ليخلو له الجو وقتل أيضا أكثر من عشرين ألف نفس بتهمة أنهم من شيعة أخيه وكان يغمر الجنود بالاموال فلهذا كانوا يطيعون أوامره ومن أعماله الجنونية أنه أمر بقتل جميع سكان الاسكندرية لينتقم منهم على هجو البعض منهم له ثم قتله بعض الحكام (٢١٧ م)

ثم انتخب الاعيان مكرينوس ولما نادوا باسمه امبراطورا لم يميل الى حزب من الاحزاب فكان هذا التردد سبب موته ثم خرج عليه الجنود لضعفه وعزلوه ونصبوا بسيانوس من عائلة سفيروس وكان قبل ذلك بمدينة حمص من أعمال سورية كاهنا فى معبد الشمس ولذلك سموه هيليوغبال ولما بلغ مكرينوس ما فعله الجنود وكان بانطاكية أسرع فى العودة لمقاتلة خصمه الا انه هزم وفر ثم قبضوا عليه وقتلوه ومدة حكمه أربعة عشر شهرا (٢١٨ م)

ولما وقع هذا الامر قام بسيانوس المشهور باسم هيليوجابال ولم يكن يبلغ من العمر اذ ذاك أزيد من ١٥ سنة وكان هذا الامبراطور الذى ألقى الرومانيون اليه مقاليدهم فى هذه المرة مخنث الطباع يظهر لرعيته فى مظاهر نسائية لا تليق بالشهامة الرومانية فمن ذلك أنه شكل مجلسا من النساء وشيد على جبل بلاتان هيكلا فاخر الحجر الذى كان يعبده بحمص رمزا على الشمس وقد بذر الاموال وصرفها بصفة جنونية بحيث لو قابلناها باسراف فتيليوس لما وجدناها تذكر بجانبها الا أن هذا الامبراطور لم يحكم كثيرا لارتكابه هذه القبائح المخجلة بل تآمروا عليه وقتلوه شر قتلة وألقوا جسمه فى نهر التبر (٢٢٢ م)

ثم قام بالامر بعده اسكندر سفيروس انتخبه القضاة ولصغر سنه جعلوا أمه نائبة عنه فى الاحكام فقامت بالامر أحسن قيام وطردت من القصر الملوكى كل السفلة الذين خدموا هيليوغبال وبسيانوس من قبل وعالجت جروح الدولة بما قدرت عليه من الحكمة والمهارة بحيث كان زمنها أحسن زمن انتظمت فيه الادارة الرومانية وتمكن هذا الامبراطور بمساعدة مشاهير المشرعين الرومانيين من ان يسن للدولة قوانين عادلة صائبة وكل ذلك كان بارشادات والدته وأعطى الوظائف لمستحقيها ولقد كانت فضائله هذه سببا فى معاداة البعض له على حد قول الشاعر

ان نصف الناس أعداء لمن * ولى الاحكام هذا ان عدل

فتآمر عليه القضاة لانه منع عنهم ما كانوا يتمتعون به من الرشاوى مدة القياصرة السابقين

وأحد ثوا ثورة برومية وقتلوا وزراء الامبراطور ونصحاءه وفى زمنه قامت ثورات شديدة بآسيا حاصلها ان ادعى أحد الفرس المدعو ارتخشار أنه من ذرية كيروش وقتل ملك البارث المحالف للرومان وكسر جيوشه وكتب الى سفير يوس كتابا يتهدده فيه ان لم يسحب عساكره من جهات آسيا فبادر سفير يوس بالسير على هذا المدعى بنفسه وكسر جيوشه فهرب ارتخشار المذكور ولم تقم له بعد قائمة

وفى تلك الاثناء حصلت ثورة ببلاد الجرمان اضطرته للعودة سريعا ولما كانت عادة الايام معاكسة أصحاب المشروعات العظيمة والافكار العالية وعرقلة مساعيهم فى كثير من الاحيان حتى كأن ذلك لنظام اقتضاه الخالق جل جلاله لحكم لا تصل اليها عقولنا اضطربت الجنود وخالفوا أوامر هذا الامبراطور العظيم الذى كان لا يتكلم الا بمحامد الاخلاق والنظام وكان المتآمرون من الجند تحت مشورة رجل يدعى مكسيمونوس صنيعة سفير يوس وربيب نعمته فدخلوا عليه ليلا وذبحوه بعد أن قتلوا حرسه وامه (٢٣٥ م) وهو آخر القياصرة المسمون فى تاريخ الرومان بالافريقيين وقد تحسنت حالة الجنود فى زمنه كثيرا وتعهدهم بالملابس واللوازم الا انه كان يعاقب كل من يأتى منهم أمرا مخالفا للنظام أشد العقاب فبذلك صلحت أحوال الجنود واستقامت سيرتهم وصاروا مثالا للادب والطاعة وفى أيامه حصل ببلاد الشرق انقلاب عظيم وذلك بذهاب دولة أمة البارث أو الفرس الاولى وظهور اردشير بن بابك رأس الدولة الساسانية ففتح الاقاليم والمدن حتى عظم اسمه وهابته الملوك

ثم بعد موت سفير يوس حصلت اضطرابات وانشقاقات وتلوث الكرسى الملوكى بجلوس بعض من لا خلاق لهم من البرابرة مدة من الزمان من سنة (٢٣٥ م) الى سنة (٢٦٨ م) فكان أولهم مكسيمونوس قاتل سفير يوس وهو غوطى الاصل وكان عظيم الخلقة وافر القوة ومما يحكى عنه فى ذلك أنه كان يستأصل الاشجار بيديه ويكسر بيده أسنان الفرس ويرمى فى ساحة المصارعة ثلاثين مصارعا بدون أن يستريح ويأكل فى اليوم الواحد نحو عشرين كيلوغراما من اللحم ويشرب خمسا وعشرين ليترا من النبيذ وقد ارتكب السيآت فى حكمه بحيث عامل البلاد وأهلها معاملة بلاد افتتحها بالسيف وقد قتل من النصارى كثيرا وكذلك قتل اثنين من الباباوات ولما كانت أفعاله لا تحملها الرومان حصل الاضطراب للمملكة وأول من ابتدأ به بلاد أفريقية فانتخبت الجيوش بها نائب قنصلها المدعو غورديانوس

ولما علم السناتو بذلك صادق عليه واعتبر مكسيمونوس عدوا عموميا أما غورديانوس فلم يمكث الا ستة أسابيع ومات حزنا على ابنه الذى قتله عامل مكسيمونوس على بلاد موريتانيا فعند ذلك انتخب السناتو شيخين من أعضائه وولاهما المملكة سوية وهما بوبيانوس وبالبينوس وكانا من أصحاب الاستحقاق فرضيت بهما الامة

أما مكسيمونوس فلما علم بذلك استشاط غضبا وقصد رومية بنية قتل جميع سكانها الا أن الجنود لم توافقه على هذا القصد السيء فقتلوه وفرحت الامة بذلك وبعدها غضب القضاة على بوبيانوس وبالبينوس وقتلوهما وانتخبوا بدلهما غورديانوس الثالث وكان محبوبا لدى السناتو والامة معا وعمره

لما انتخب كان ثلاث عشرة سنة وفي زمنه كان أول ظهور قبائل الفرنك ولهم معهم حروب وحارب أيضا الفرس والغوط وانتصر عليهم ولما عاد الى رومية قتله أحد الحكام المدعو فيليب واستولى على تاج المملكة (٢٤٤ م) ويدعى فيليب هذا بفيليب العربي وكان أبوه رئيس منسر أما هو فقد تقلب في كثير من مناصب الدولة ولما جلس على التخت أتم حرب الفرس بان تنازل لملكهم سابور ابن اردشير عن بلاد ميز وبوتاميا ولم يكن هذا الامبراطور يهتم بامور الدولة أكثر من اهتمامه بأموره الخصوصية

ثم قامت الثورات في كل جهة وانقضت البرابرة كالغوط وغيرهم على أطراف الدولة فانتهز الجنود فرصة ذلك لتنصيب من يرغبونه من الملوك وفي تلك الاثناء قتل فيليب العربي بينما كان يقاتل شخصا يريد اغتصاب المنصب الملوكي وذبح ابنه أيضا في رومية (٢٤٩ م)

ثم قام بعده ديسيس أو ديسيوس فتمكن من تسكين الحال نوعا في الظاهر لان الاضطرابات وان كانت خمدت نيرانها الا انها بقيت كامنة حتى تظهرها الايام مشتعلة كما ستعلمه ومن أعمال هذا الامبراطور أن أصدر منشور الجميع الحكام بالاقاليم يأمرهم فيه بقتل النصارى والبحث عنهم وتعذيبهم أشد العذاب قبل قتلهم فنفذ هذا الامر بكل قساوة وقتل منهم خلق لا يحصى ثم مات بينما كان يقاتل الغوط (٢٥١ م) وكانت عبادة الشمس والقمر لا تزال سائدة في ذلك العصر متمسكا بها في بلاد مصر والنوبة ولم يتحول عن دين الصابئة أحد من العائلات المصرية والنوبية فكان ذلك جميعه مما يقوى عزم المصريين على اثارة الفتن والشرور ضد النصارى وصار تعذيبهم بعد من أبرك المصالح فاقتفوا أثرهم وكثر التفحص عنهم فهربوا الى صحارى الصعيد الاعلى بمصر وترهبوا وكانت هذه الطائفة التي هربت أول من ترهب وسكن الديور ويقال ان من مثيري الفتن على النصارى هم اليهود وعباد الاصنام من المصريين فكانت الحكومة الرومانية بالديار المصرية تساعد المتعصبين فكان هذا كله مما يقوى عزم المصريين على اثارة الفتن والشرور ويبعثهم على القيام على الرومانيين وعدم الانقياد لهم وكان المصريون يساعدون من تحزب على الحكومة وخرج عن طاعتها من أمراء الرعايا والاغراب ويعينون كل من هم بخلع الامبراطور والغالب أن أرباب الافتيات على الحكومة الرومانية انما هم من الاجانب فكانت نتيجة ذلك كله حصول الفتن والحروب الداخلية وما ترتب على ذلك من القحط والوباء مما أهلك أهالي مصر وقلل عددهم وكان مما يقوى المصائب الرومانية انتخاب القياصرة من أرباب الخمول والدناءة

وبعده انتخب السناتو غالوس ورضى الجيش بذلك فبادر بعقد الصلح مع الغوط ليرجع الى رومية ويتفرغ للملاذ النفسانية ثم ان الغوط لم يراعوا شروط المحالفة السابقة وأغاروا على حدود الدولة الرومانية ثانية فقهرهم القائد اميليانوس الذي نادت به عساكره المنصورة امبراطورا بعد ذلك

ولما علم غالوس بذلك قصده على رأس جيش الا ان جنوده خانته وقتلته وحصل مثل ذلك أيضا لخصمه بعد تنصيبه بقليل ثم انتخبت الجنود الرومانية ببلاد الغالة فالريانوس ولم يتمكن اميليانوس من قتاله لان جنوده قتلته كما قلنا

وفى ذلك الوقت عمت الفوضى أطراف المملكة وصار المنصب الملوكى ألعوبة فى يدى القادرين وأصحاب الاطماع من الجنود وأغار الالمان والغوط والفرس وغيرهم على أطراف الدولة واستباحوها قتلا ونهبا وتحريقا وعم القحط الاقاليم وفتك الطاعون بالاهالى فارتبكت أحوال فالير يانوس وارتعدت فرائصه خوفا واتهم النصارى بالدسائس فأمر بقتلهم فقتل منهم خلق كثير وهذا هو الاضطهاد الثامن المأمور به من طرف ملوك رومية

ثم جهز ابنه غاليانوس وأرسله ضد الفرنك ببلاد الغالة واسبانيا وسار بنفسه على الغوط فقهرهم الا أنه وقع أسيرا فى يدى سابور ملك الفرس الذى استعبده وامتهنه وكان يأخذه معه مكبلا فى الحديد من مدينة الى أخرى وبعد أن قتله أمر بدبغ جلده وصبغه باللون الاحمر وعلقه بهيكل الفرس تذكارا لانتصاره على الرومان وبينما كان فاليريانوس فى قبضة الفرس كان ولده غاليانوس يدير حركة الدولة بمفرده وخرج الثوار فى كل جهة فاضطربت الاحوال زيادة عما كانت عليه وانتخب كل جيش رومانى بالاقاليم امبراطورا عليه فاتفق اذ ذاك ان وجد منهم تسعة عشر امبراطورا فى آن واحد أما غاليانوس فى تلك الحالة فلم يقاتل منهم أحدا مفضلا جانب السلم عاكفا على مسراته ولعبه الى ان قتله أحد ضباطه بينما كان يريد السير لمقاتلة أحد هؤلاء الادعياء بجهات ايلليريا (٢٦٨ م)

وبعد ذلك أخذت الدولة الرومانية فى القيام تدريجا من سقوطها بارتقاء القياصرة الايلليريين على تختها وانتهت تلك المدة المسماة بمدة الفوضى العسكرية ولما قتل غاليانوس كما تقدم قام بالأمر بعده كلوديوس الثانى الغوطى وكان قبل ان يرتقى الى المنصب الملوكى حاكما باقليم ايلليرية وهو أول الملوك الذين ينسبون الى هذا الاقليم الذين ردوا الى الدولة الرومانية بعض ما كان لها من السطوة وصادق السناتو بكل فرح على انتخابه وقد حقق كلوديوس ثقة الامة فيه وكان قائدا عظيما وسياسيا ماهرا ومدبرا محنكا وأول أعماله قمع الغوط بمقدونية وكانوا أغاروا على ممالك الرومان الواقعة على سواحل البحر الاسود وكتب الى السناتو يقول اننا هزمنا الغوط ولاشينا أسطولهم المركب من ألفى سفينة وامتلأ ميدان القتال بالخوذ والجثث وأخذنا منهم عددا عظيما من الاسرى بحيث نال كل جندى ثلاثة أرقاء ثم مات بعدها بالطاعون بقليل (٢٧٠ م)

وقام بعده بالامر أورليانوس بعهد منه ومن أعماله الحربية قهر السرمات (١) والغوط والمركومان (٢) والوندال ثم أغار بعد ذلك على الزباء المعروفة عند الاوروباويين بزنوبيا ملكة تدمر وكانت تحكم على جزء من الاقاليم الرومانية بالمشرق فانتصر عليها فى وقعتين بانطاكية وحمص ثم قبض عليها بينما كانت تعبر الفرات ولما أتت الى حضرته سألها الامبراطور المذكور كيف انها

---

(١) أمة قديمة كانت منتشرة شمالى أوروبا من بحر بلطيق الى بحر بنطش وقد استخدمهم متمردات فى جيوشه لما حارب الرومان ثم لاشى الغوط دولتهم بالقرن الثالث قبل الميلاد ثم اختلطوا بجنس الصقالبة وسيأتى ذكرهم بأز يديان فى دولة الروسيا

(٢) المركومان أمة من الامم القديمة بأوروبا كانوا بجرمانيا ثم استوطنوا بلاد بوهيميا ثم أغاروا بعد ذلك على ايطاليا وقد تكبد مارك أوريل كثيرا من المصاعب حتى ردهم على أعقابهم

تجاسرت على قتال ملوك الرومان فأجابته قائلة انى أعترف بك امبراطورا لانتصارك أما غاليانوس وخلافه فلم يكونوا ملوكا (٢٧٣ م)

ثم قصد بلاد الغالة وانتصر على تتريكوس العاصى ثم دخل رومية بأبهة وموكب يعادل ما كان يفعله الرومان مدة سطوتهم العظيمة وتبع عربته الملوكية المزينة بافخر الزينات وأجملها أسراء منهم الزباء [1] وعليها من الحلى والجواهر ما لا يوصف وقد اهتم هذا الامبراطور فازال كثيرا من مصائب الدولة واضطهد النصارى وقتل كثيرا من مطارنتهم وأساقفتهم وقسسهم ثم قتله أحد عبيده بينما كان يستعد لقتال الفرس (٢٧٥ م)

وقام بعده تاسيتوس انتخبه السناتو من الايليريين وهو وان كان شيخا واسع المعرفة فى الادارة كريم النفس الا ان الدولة اذ ذاك كانت تحتاج الى بطل مقدام فى امكانه قمع الجنود المتمردة ورد البرابرة الثائرة ومع هذا فان تاسيتوس المذكور لم يمكث زمنا طويلا بل مات أو قتل فى رواية بعد أربعة شهور من حكمه

ثم انتخب جيش الشرق بروبوس مكانه وكان قائدا ماهرا فقتل من البرابرة نحو ٤٠٠,٠٠٠ محارب ببلاد الغالة وغيرها ونجى من إغارتهم نحو سبعين مدينة ثم تعقب غيرهم من البرابرة الذين كانوا يعيشون فى الاقاليم فرد بذلك الى العلم الرومانى مهابته السابقة ثم انتقل من هنالك الى بلاد الشرق وقمع بعض العصاة بآسيا الصغرى فهابه الفرس وطلبوا منه الصلح فأجابهم الى ذلك بشروط توافقه جدا وكان يقول لا يجب ان الجندى يأكل خبزه بلا عمل يؤديه لهذا كان يأمر الجنود وقت السلام بفلاحة الارض وتوسيع نطاق الزراعة وتشييد الحصون وبناء الطرق ولما لم يرق ذلك فى أعين الجنود تآمروا عليه وقتلوه وتسبب عن موته حزن عام فى جميع الدولة وتأسف عليه الكل حتى الجيش الذى كان شق عليه عصا الطاعة وشيدوا له قبرا فاخرا كتبوا عليه ما يدل على اعتبارهم له (٢٨٢ م)

ثم اتفقت الجند على تولية كاروس فاستمر فى قتال البرابرة وانتزع من الفرس بلاد ميزوبوتاميا ومدينتى سلوقيه والمدائن الا ان الجنود قتلته فى هذه التجريدة ويقال انه أصيب بصاعقة فمات وخلفه ولداه كارينوس ونوميريانوس وبينما كان هذا الثانى يقصد محاربة الفرس قتله أحد الحكام الرومانيين وعند ها نادى الجنود باغسطس قائد حرس القصر الملوكى المدعو دقلديانوس فقتل قاتل نوميريانوس ثم سار على رومية لخلع كارينوس حيث كان منهمكا على ملاذه

وبينما كان دقلديانوس على أبواب رومية كان كارينوس مضطجعا على سرير من الورد يحيط به المغنون والمطربون والمضحكون غير مهتم بشىء الا انه مع ذلك انتبه من غفلته لما علم بقصد دقلديانوس وقابله بجنان ثابت وقهره الا انه لما كان متكبرا وعاتيا عند جنوده ذبحوه بعد نصرته بحيث ان دقلديانوس المقهور توصل الى الجلوس على تخت المملكة كما كان يتمنى (٢٨٤ م) وهو آخر الملوك الايليرية الذين بمساعيهم الفاضلة سرت روح الحياة والقوة فى جسم الدولة الرومانية الهزيلة

(١) تعرف بزنوبية ملكة تدمر وهى الزباء الشهيرة فى تواريخ العرب وسيأتى ذكرها عند الكلام على ملوك المناذرة بالعراق

أما أصل هذا الامبراطور الشهير فمن عائلة حقيرة وكان فى أول أمره جنديا بسيطا ثم ترقى مدة بروبوس الى أن ارتقى لوظيفة القنصلية وقيادة الحرس الملوكى ولما نال منصب الملوكية تفكر أنها عبء ثقيل لا يقوى على حمله شخص واحد فلهذا انتخب مكسيميانوس لقتال البورغوند (١) والفرنك والالمان الذين كانوا يعيثون ببلاد الغالة فانتصر عليهم وشتتهم الا أنه لم يتمكن من التغلب على كارسيوس الذى انتخبه الجيوش الرومانية ببريتانيا العظمى امبراطورا ولهذا اضطر دقلديانوس ومكسيميانوس بأن يعقدا معه صلحا

ولما قامت الثورة بكثير من أقاليم السلطنة الرومانية أوجد منصبين عالين فصارت الدولة بذلك تحت إمرة أربعة أمراء ثم وزعوا بينهم الاقاليم الثائرة فكان الشرق من نصيب دقلديانوس وايتاليا وافريقية وجزائر البحر من نصيب مكسيميانوس وصار للدولة أربع عواصم مختلفة فكانت نيقوميديا ببلاد بثينا عاصمة المشرق وميلان عاصمة ايتاليا وتريف وارل عاصمة لبلاد الغالة وسيرميوم عاصمة لبلاد ايليريا أما رومية فلم يكن لها مدخلية فى هذا الترتيب الحديث ولم يكن للسناتو أدنى سلطة بل كان هؤلاء الاربعة بيدهم زمام السلطة المطلقة وأوامرهم معتبرة كقوانين يجب السير بموجبها بدون انتظار مصادقة السناتو عليها وبذلك أزالوا كل أثر للحكومة الجمهورية

ثم ان دقلديانوس التفت الى الضرائب فعدل توزيعها وأدخل النظام فى جميع فروع الادارة وانتصر هو ورفقاؤه على العصاة بكل الجهات حتى ببلاد بريتانيا واضطر الفرس فتنازلوا للدولة عن بلاد ميزوبوتاميا وعن خمسة أقاليم أخرى بجهات نهر الدجلة واعادة ما كان لرومية من النفوذ على ارمينيا

ثم انتقل دقلديانوس الى مصر وفرق شمل عصاتها وذلك أنه كان على مصر نائب يدعى اخليوس وكان قد تغلب عليها النفسه واستبد بحكمها فبادر دقلديانوس اليه وحاصر مدينة الاسكندرية وقطع خلجان النيل لتصريف مياهه التى تجرى فيها السفن ليمنع عن هذه المدينة الميرة والذخيرة فضيق على خصمه واستولى على الاسكندرية بعد حصار ثمانية أشهر فهدأت الاحوال وساد الانتظام وعم الامن وارتاحت الخواطر حتى كان الاربعة الذين اقتسموا الدولة يحكمون بفكر واحد ووجهة واحدة واتفق أن أحرق القصر الملوكى بنيقوميديا فاتهم دقلديانوس النصارى باحراقه ولهذا طير الاوامر الى الآفاق بقتلهم وهدم بيعهم واحراق كتبهم وتعقبهم أينما وجدوا فجرت المذابح الهائلة بكل مكان ولم يشفقوا على أحد غير مفرقين بين عبد وحر وشيخ وصبى وذكر وأنثى واستمر على ذلك مدة عشر سنوات ويسمى هذا العصر فى تاريخ الكنيسة عند النصارى بعصر الشهداء وقد اتخذه أقباط مصر مبدأ لتاريخهم وذلك سنة (٣٠٢ م)

(١) البورغوند أمة كانت نازلة بجرمانيا الشمالية بين نهرى أودر وويستول على شاطئ نهر وارطا طردهم قبائل كانت بتلك الجهة يقال لهم جبيد فى أواخر القرن الثالث من الميلاد فذهب بعضهم ونزل بجزيرة بورنهولم بصر بلطيق وأغار بعضهم على بلاد الغالة حيث صدهم الامبراطور بروبوس فنزلوا بالقرب من منابع نهرمين وبعد ذلك أى فى سنة (٤٠٦ م) بعد ان اعتنقوا الديانة النصرانية دخلوا ثانيا بلاد الغالة وأمكنهم الاقامة بها وكانوا أقل توحشا من قبائل الجرمان الاخرى وكان غالبهم نقريبا يحترف حرفتى النجارة والحدادة ولم يعاملوا سكان البلاد التى احتلوها بفظاظة كغيرهم من القبائل المتوحشة وتخلقوا سريعا بالاخلاق والعوائد الرومانية

ولما

ولما كان دقلديانوس يريد أن يظهر للرومانيين أعماله العظيمة ذهب الى رومية ودخلها باحتفال فائق الوصف وكان آخر احتفال رأته تلك المدينة ثم اعتراه مرض فتنازل عن منصبه وحمل مكسيميانوس على التنازل أيضا وانزوى بقصر له في بلاد دلماسيا مفضلا الراحة عن الاشتغالات الدولية وكان مكسيميانوس بعد ذلك يحسن له العودة الى منصبه فكان يقبح له فكرته ويقال إنه لما رأى كثرة الثورات بالمملكة حزن ومات غما (٣١٣ م)

ثم انه بعد تنازل دقلديانوس ومكسيميانوس ارتقى رفيقاهما غالير وكونستانس الاصغر الى مرتبة الامبراطورية وانتخب غالير اثنين وهما سفير وس ومكسيمانوس وبذلك صارت الدولة بأجمعها في يد غالير وكان وحشيا ظالما مستبدا أزال كل أثر للحرية وكان ينتظر بفروغ موت رفيقه كونستانس لميل الناس اليه حتى انه كان يريد أيضا قتل قسطنطين بن كونستانس الذى لما علم بذلك هرب الى أبيه ببلاد الغالة ثم مات كونستانس بعد ذلك بقليل بمدينة يورك من اعمال بريطانيا (٣٠٦ م)

وبموته نادى الجيش بقسطنطين امبراطورا وكان هذا الامير اشتهر من صغره بالجسارة والتبصر وجميل الصفات الا أن غالير لم يصدق على هذا الانتخاب ولقبه فقط بلقب قيصر مبقيا وظيفة الملوكية لرفيقه سيفير غير ان الامة كانت سئمت من قساوة سفير فثارت عليه وعزلته وانتخبت مكسانس ابن مكسيميانوس الذى كان تنازل مع دقلديانوس ثم ان مكسانس أشرك معه أباه في الحكم وبذلك صار للرومانيين ستة ملوك في آن واحد وهم غالير وسفير وقسطنطين ومكسيمنوس ومكسانس ومكسيميانوس ثم قامت الحروب بين هؤلاء الستة الملوك فتقاتلوا مع بعضهم زمنا حتى قتلوا وماتوا جميعا ولم يبق منهم الا قسطنطين الذى تحارب مع مكسانس وانتصر عليه ولما كانت الحرب بينهما كانت رايات قسطنطين عليها علامة الصليب وهى أول مرة ظهر فيها الصليب على الرايات (٣١٢ م) وأقاموا له قوس نصر برومية تذكارا لهذا الانتصار ثم صفا له الجو ولرفيقه ليسينيوس الذى كان غالير أبقاه هو ومكسيمنوس بالشرق كما كان الغرب لقسطنطين ومكسانس

ولم يبق الحال على ذلك زمنا طويلا كما كانت العادة في آخر أيام الدولة الرومانية لتزعزع أركانها واضطراب أجزائها وسريان الاضمحلال في عروقها حتى ظهرت العداوة بين قسطنطين ورفيقه ليسينيوس وسببها تساهل قسطنطين مع النصارى وأمره بالكف عن معاداتهم وتعصب ليسينيوس عليهم حتى أدى ذلك لكراهة قسطنطين المتهم باحتقار آلهة الدولة الرومانية فانتشب الحرب بينهما وكانت الدائرة فيه على ليسينيوس ثم تصالحا بعد أن تنازل ليسينيوس عن بلاد مقدونية واليونان ودلماسيا وغيرها الى قسطنطين (٣١٤ م) الا أن ليسينيوس كان يبحث سرا عن الوسائل الموصلة لقهر خصمه والانتقام منه فأشهر عليه الحرب بعد مضى تسع سنوات من المصالحة والتقى جيشهما بالقرب من مدينة اندرينو بل (أدرنه) وبعد قتال عنيف انهزم جيش ليسينيوس البرى وانتصر ابنه كريسيوس على أساطيل ليسينيوس فخرق وأغرق منها كثيرا بغليبولى ثم ان قسطنطين قبض على خصمه ونفاه الى سلانيك ومع هذا كان لا يزال يحرض على الفتن فقتلوه (٣٢٤ م) وهو آخر من اضطهد النصارى من ملوك الرومان وبذلك خلص أمر المشرق لقسطنطين مستقلا فيه بلا معارض ثم أعلن قسطنطين اذ ذاك رسميا حبه للنصارى

وعوض عليهم خسائرهم بسبب اضطهادات ليسينيوس وأمر المدن بهدم الاصنام وصرح للقسس بأخذ الاوقاف وقبول الهدايا وعافاهم من الخدمة العمومية وأمر بالانقطاع عن العمل يوم الاحد ومنع المصارعين من المصارعة

وفى زمنه ظهر اريانوس الذى شوش بمذهبه وأقواله المعتقدات النصرانية وانضم اليه كثيرون وقالوا بقوله وهو انكار ألوهية المسيح فأراد عند ذلك قسطنطين أن يضع حداً للاضطرابات التى أحدثها المذهب المذكور فجمع حينئذ بمدينة نيقية ازنيق جميع أساقفة النصرانية فذهبوا اليها من كل صوب وكان عددهم ٣١٨ أسقفا وشكلوا المجمع المسكونى الاول (٣٢٥ م) وهناك أقروا جميعا على فساد مذهب اريانوس بعد المناقشة فيه ومن ضمنهم الامبراطور

ولما كانت مدينة رومية مدينة أسست على الدين الوثنى ولا يصلح ان تكون بعد مركزا للدين النصرانى الحديث الذى صار دين المملكة أراد قسطنطين ان يبتعد عنها لانه كان ينوى الغاء السناتو وتناسى الحالة القديمة الرومانية بالمرة ولهذا عزم على انشاء مدينة جديدة يتخذها عاصمة له فوقع اختياره على مكان مدينة بيزانس الكائنة على التخوم بين أوروبا وآسيا ولكونها مطلة على ثلاثة بحار فى مكان نزه وبعد أن خططها بمحه شيد أسوارها وأنشأ بها أجل كنيسة بالمشرق وهى كنيسة القديسة صوفية وأنشأ بها أيضا كثيرا من المبانى الفاخرة والطرق الفسيحة والميادين البهجة (٣٣٠ م) وكان يشجع على سكناها ويحسنه لكل من أراده فبعد مضى سنوات قليلة ازدادت عمارتها واتسع نطاقها وسميت رومية الثانية ومن أعمال قسطنطين انه غير النظام الادارى للدولة تماما وقبض على زمام السلطة المطلقة واهتم بجعل المنصب الملوكى وراثيا كما أراد دقلديانوس وأحدث ملابس ونياشين جديدة للوظائف التى اخترعها أيضا وجعل له ولحاشيته ووزرائه ألقابا فخيمة ورتبا عالية وفصل القوة الملكية عن القوة العسكرية انفصالا تاما ليأمن بذلك ثورات الجيش وليبقى لاولاده المملكة من بعده وقسم الجيوش الى ثلاث فرق وجعل عدد الآلاى ١٥٠٠ جندى بعد ان كان ٦٠٠٠ جندى وقد نجم عن هذه التغيرات تقليل الثورات الا أن موظفى الحكومة ازداد عددهم ولهذا وجد نفسه مضطرا الى زيادة الضرائب فى الوقت الذى تعطلت فيه الفلاحة والصناعة بسبب اغارات الامم المتوحشة على الدولة الرومانية وفى هذا الوقت ابتدأت تلك الحروب التى تسبب عنها سقوط الدولة الرومانية وكانت بين عمال الخزينة الاميرية والمتمولين وكان موت قسطنطين سنة (٣٣٧ م) فحزنت عليه الامة وقد اتصف بكثير من الفضائل الممدوحة كاتصافه بكثير من الرذائل الممقوتة

(الفصل السادس عشر)

فى تقسيم الدولة الرومانية

اعلم أن حكم قسطنطين قد اشتهر بثلاثة أمور مهمة وهى أولا مرسوم ميلان سنة (٣١٣ م) الذى أباح به جعل الدين النصرانى دينا عموميا وثانيا تغيير الدولة الى مملكة ادارية وذلك أن قسم الدولة

الى

الى عمالات عظيمة والعمالات الى أبرشيات والابرشيات الى مقاطعات وجعل العمال كسلسلة يتناولون أوامره بالتدريج من الاعلى الى الأدنى وجعل له مجلسا مكونا من مشيرين يلقب الواحد منهم بلقب قونت وعين للجنود قوادا يلقب الواحد منهم بلقب دوق وهذا الترتيب العظيم اتخذته فيما بعد الامم الحديثة نموذجا نسجت عليه وثالثها تغييره للعاصمة وانتخابه القسطنطينية عاصمة جديدة لحسن موقعها ثم ان هذه الترتيبات وان كانت مفيدة وحصل منها فائدة عظيمة لتلك الدولة الهرمة الا انها لسوء الحظ أتت متأخرة بعد ان نخر سوس الفتن والاضطراب عظامها وعم الفقر بازدياد الضرائب لاحتياج الدولة اذ ذاك للاموال اللازمة لبقاء هذا النظام الجديد الذى أحدثه قسطنطين المذكور فضعف أمر الوطنية وفشا الدخيل بين الامة وقبض على زمام الادارات قوم ليس لهم من الصفة الرومانية غير الملابس واللغة وهى أمراض لو أصابت جسم أى دولة لاودت بها وكان قسطنطين قبل موته قسم ممالكه بين أولاده الثلاثة وهم قنسطانس وقنسطنطين وقنسطان وأعطى أيضا ولدى أخيه حصصا معلومة فأعطى دالماس مقدونية و بلاد اليونان وأعطى أمنباليان بلاد ابون وكبادوكيا وأرمينيا ولما لم ترق هذه القسمة فى أعين أولاد قنسطنطين قامت الحرب بينهم على قدم وساق وانتهت بقتل امنباليان ودالماس واقتسم إذ ذاك أولاد قنسطنطين الثلاثة الدولة الرومانية فكانت آسيا ومصر وتراس من نصيب قنسطانس الذى كانت القسطنطينية عاصمة له وكانت ايتاليا وايليريا الغربية وأفريقية من نصيب قنسطان و بلاد الغالة واسبانيا و بريتانيا من نصيب قنسطنطين الثانى ومع ذلك فان داء الحسد والغيرة تطرق اليهم فوقعت الحرب بينهم ففى القتال الاول قتل قنسطنطين الثانى (٣٤٠ م) واستولى قنسطان على ما كان له من البلدان و بذلك انقسمت الدولة الى قسمين وهما الشرق وكان لقنسطانس والغرب وكان لقنسطان ثم اشتغل كل منهما بمقاتلة أعدائه الى ان قتل قنسطان ببلاد الغالة بينما كان يريد قتال بعض الثوار (٣٥٠ م) وحكم ١٣ سنة

و بعد موته ثارت بعض الجنود وانتخبوا امبراطورا غيره واستمر الحال بين قتال وسلام وصعود وهبوط الى سنة (٣٥٣ م) حيث استقل فيها قنسطانس بأمر الدولة وفى تلك الاثناء أغارت الامم البربرية على جهات الرين والدانوب فاضطر قنسطانس لأن يجعل له معينا فعين جوليانوس او يوليونوس حفيد قنسطنطين و زوجه باخته هيلانه وأرسله الى بلاد الغالة لمقاتلة العصاة فأوقع بهم فى كل مكان قابلهم فيه و بعد أن رد السكينة إلى بلاد الغالة اجتهد فى تحسين أحوالها فاتخذ مدينة لوتيس (باريس الحالية) عاصمة له و بها كان يراقب سير العمال وساعد الاهالى على التجارة والفلاحة وخفف الضرائب و بنى الحمامات ومجارى المياه والملاعب العمومية ولم يهمل شيأ يساعده على جلب الرفاهية العمومية وكان جوليانوس عالى الهمة واسع القريحة وكان درس بالقسطنطينية وأثينا وهام حبا فى الفلسفة القديمة وعبادة الاوثان ثم حصل بينه و بين قنسطانس ما اوغر الصدور فجردا الجيوش على بعضهما ولما هما بالقتال وكانت الحرب بينهما كقاب قوسين أو أدنى مات قنسطانس سنة (٣٦١ م) ببلاد كيليكيا بمدينة المصيصة وكان قنسطانس عين جوليانوس امبراطورا من بعده قبل موته

فلما تفرد جوليانوس بالسلطة وتمهدت له الاحوال نفى كثيرا من خدمة القصر الملوكى ممن اشتبه

في سيرهم وسيرتهم وقرب اليه الفلاسفة والعلماء والكهنة وكل من هو متعلق بأذيال الدين القديم وخلع دين النصرانية بعد أن اعتنقه وهدد النصارى بالقتل والنفي وأمر بمحوهم من الوجود وكان يسعى في ايجاد التحزبات ضد النصارى ويغريهم ببعضهم ليمعنوا أنفسهم بأنفسهم وأبطل جميع الامتيازات الممنوحة الى القسس ومنع عنهم ما كانوا يتناولونه من الدولة على سبيل المساعدة ورمم معابد الوثنية من أموال الكنائس

ثم إن جوليانوس أعلن على الفرس حربا مدة ملكهم سابور ذي الاكتاف فانتصر عليه نصرة عظيمة بالقرب من نهر الدجلة واستولى على المدائن ثم ان الفرس كمنوا له فخرجوا عليه فجاءة فأصابه سهم كان السبب في موته (٣٦٣ م) فانتخب الجيش اذذاك جوفيانوس وكان رئيس الحرس القيصري مخافة حصول الاضطراب ولكي يخلص الجيش من تلك الورطة الخطرة اضطر جوفيانوس ان يعقد مع الفرس صلحا كما يشتهون وبموجبه تنازل لهم عن الخمسة الاقاليم الواقعة على الضفة الاخرى من نهر الدجلة وعن خمس عشرة قلعة رومانية كانت لحراسة أطراف الدولة في تلك الجهة ولم تطل مدة هذا الامبراطور فانه قتل بعد سبعة شهور من حكمه (٣٦٤ م) وسبب ذلك هو عقده صلحا مخلا بشرف الرومان وكان على سيرة سلفه من اضطهاد النصارى

وانتخب الجنود بعده فالانتينوس وكان شجاعا حازما حاد الطباع ولما رأى حمل الدولة ثقيلا أشرك معه أخاه فالانسيوس وجعله على المشرق واختص هو بأمر المغرب المهدد من جميع الجهات لان قبائل البربر أغارت في عدد عظيم على حدود الدولة وكذا ثارت بريتانيا العظمى وأفريقية فجرد فالانتينوس على كل العصاة فهزمهم ثم سن للدولة قوانين عادلة الا أنه كان قاسيا جدا حتى وصفوه بالهمجية فكان يعاقب بالموت على من اقترف ذنبا ولو صغيرا ثم مات سنة (٣٧٥ م)

وخلفه ولداه غراسيانوس وفالانتينوس الثاني وفي زمنهما حصل انقلاب عظيم بين الامم البربرية النازلة حول الدولة الرومانية وذلك ان قبائل الهون [1] التي أتت من آسيا الوسطى واخترقت بلاد

(١) الهون أمة متبربرة شهيرة قال بعضهم انها من أصل اسيوي ومن الجنس المغولي لا يختلفون في شيء عن القبائل المسماة هيونغ نو التي خرجت من البلاد الكائنة في شمال صحراء كوبي وأغارت على بلاد المانچو والصين وهدموا السور العظيم واحتلوا تلك البلاد (٢١٠ — ٥٤ ق م) وقال البعض وهو المرجح انهم من فنلانده وكانوا ينتقلون من مكان الى مكان يسكنون الخيام ومعيشتهم على ظهور خيولهم قباح المنظر صغار العيون مستدير وها مفرطحو الانوف وفي القرن الرابع من الميلاد كانت طائفة منهم تسكن غربي بحر قزوين بين مصب نهر تريك ومضيق دربند وكان لهم محاربات عديدة مع آل ساسان من الفرس وطائفة منهم وهم الذين يسميهم الاغريق بالهون البيض بسبب حضارتهم وحسن أخلاقهم كانوا يستوطنون الجهة الشرقية من بحر قزوين على شواطئ نهر اكسوس جنوبي التركستان الحالية وبعدما مكثوا في تلك الجهات وضايقوا الفرس زمنا طويلا انحلوا في الاتراك واخترقت طائفة أخرى منهم جبال القوقاز مع ملكهم المدعو بالامير وأخضعوا أمة الالان القاطنة بين نهري ولغا والدون ونازلوا الاستروغوط وقهروا ملكهم هرمانريك (٣٧٦ م) وبعد أن اقاموا في سكون مدة انتشروا بآسيا الصغرى وبلاد ترانسه وفي مدة ملكهم أتيلا الشهير هددوا القسطنطينية وأخضعوا قسما عظيما من جرمانيا ومدوا اغاراتهم حتى بلاد الغاله وايطاليا وبموت هذا الملك سنة (٤٥٣ م) ضعف أمرهم وذهب أحد اولاده المدعو ارمالك الى بلاد آسيا وأخذ معه بعض القبائل واستوطن كثير منهم البلاد التي تسمت فيما بعد هنكاريا وفي القرن السادس من الميلاد كان بعض قبائلهم يتحدثون مع ملوك القسطنطينية وطورا مع الفرس ويخدمون بين عساكرهم الخيالة وسيأتي على الهون كلام طويل في تاريخ الروسيا

القوقاز تحت قيادة ملكهم بالامير أخضعت قبائل بربرية أخرى نازلة بين نهر ولغه (أتل) والدون ثم تلاقوا مع قبائل الغوط [1] التي كانت دولتهم تمتد من نهر الدون الى نهر التيس ومن البحر الاسود الى بحر بالطيق وكانوا منقسمين الى قسمين الوزيغوط (الغوط الغربيون) والاستروغوط (الغوط الشرقيون) ولم يمكن للغوط مقاومة قبائل الهون ودان لهم بالطاعة الاستروغوط والوزيغوط فهاجروا تحت قيادة رئيسهم أتاناريك وأرسلوا رسولا الى الامبراطور فالانتينوس ليسمح لهم بالنزول جنوبي نهر الطونة أي الدانوب فتردد فالانتينوس ابتداء في قبول مطالبهم إلا أن وزراءه أشاروا عليه بنجحهم مايطلبون ناظرين الى المنافع التي يمكنهم أن يستفيدوها من هؤلاء الرعايا الحديثين وكان ذلك غلطة عظيمة لانها فتحت ملجأ لعدد عظيم من البربر وسط دولة على شفا جرف السقوط وعاهدهم فالانتينوس على قبول المذهب الارياني لانه كان من مروجيه وقد أخذ من رؤسائهم أولادهم رهائن عنده ليقوموا بما تعهدوا به ثم لما رأى الغوط قبح معاملة الرومان لهم شقوا عصا الطاعة وأغاروا على بلاد تراس وتساليا ومقدونية مخربين كل ما وجدوه في طريقهم فأسرع فالانتينوس لقتالهم والتقى معهم بمدينة أدرنة فنازلهم قبل أن تصل اليه الامدادات الرومانية فهزم جيشه تماما وقتل هو في الواقعة (٣٧٨ م)

لما قتل فالانتينوس كما قلنا انتقلت الدولة الرومانية الى أولاد فلانسينانوس الاول وغراسيانوس وفلانسينانوس الثاني ولما علم غراسيانوس عدم مقدرته على جمع الغرب والشرق تحت حكمه لصغر سن فلانسينانوس الثاني سيما وإنه كان يجب عليه قمع إغارات الوزيغوط الذين تسلطوا على الشرق بعد واقعة أدرنه والجرمان والفرس وغيرهم ولا يمكنه مقاومة كل هؤلاء الاعداء بمفرده وكان القونت تيودوثيوس صاحب الخدم الجليلة في الدولة قتله فالانتينوس بأفريقية لما أخبره منجم بأن اسم خليفته يبتدأ بكلمة (ثيود) فلهذا قتل أعاظم الناس المسمون بثيودود وثيودوز وثيودات وثيودول وغيرهم وكان لثيودوثيوس ولد ذكي نجيب كفء لادارة الاعمال فطلبه غراسيانوس من بيته وسلم اليه وظيفة الامبراطورية وولاه على الاقاليم التي كانت طائعة لفلانتينوس وأبقى لنفسه بلاد الغالة واسبانيا وبريتانيا وايلليريه الغربية وإيطاليا وأفريقية وان كانت هذه الثلاث جهات خاضعة اسما لفلانسينوس الثاني فقام تيودثيوس بما عهد اليه أحسن قيام ورد النظام الى الجنود وانتصر بهم على الغوط وأوقع الفشل بينهم وعقد مع رئيسهم أتاناريك معاهدة مفيدة للرومانيين وأذن لهم بالاقامة في بلاد تراس وموسيا وجند منهم نحو أربعين ألفا خصصهم بحراسة نهر الدانوب

(١) الغوط أمة عظيمة جرمانية وجدت في القرن الثالث قبل الميلاد كانت متوطنة بلاد أسكنديناوا و شمالي جرمانيا وفي القرن الرابع من الميلاد نزلت الى جهات الدانوب وأخذت بعيد ذلك تشن الغارة على دولة الرومان وقد حاربهم الامبراطرة مكسيمنوس وغرديانوس الثالث ودوسيوس واضطر غاليانوس ان يدفع لهم جزية وقد خربوا بلاد اليونان الان كلوديوس الثاني انتصر عليهم عدة مرات ولهذا لقبوه بالغوطي وفي زمن أورليانوس احتلوا بلاد داسيا تراجان ونهبوا آسيا الصغرى وكانت دولتهم في سنة (٣٥٠ م) تمتد من نهر تيس الى الدون ومن بحر بلطيق الى البحر الاسود وكانوا ينقسمون الى ثلاث طوائف عظيمة وهي الوزيغوط (الغوط الغربيون) والاستروغوط (الغوط الشرقيون) والجبيد وقد اعتنقوا الدين النصراني على مذهب أريوس ولما أغار الهون على أوروبا (سنة ٣٧٦ م) طردوا قبائل الغوط على الدولة الرومانية

أما غراسيانوس فلم يكن أقل من رفيقه عملا في ايجاد الرفاهية والامنية ببلاد الغرب وقد ساعد على انتشار العلوم والمعارف وتساهل مع النصارى فلم يتعرض لهم بسوء

ثم قامت الجنود ونادوا بشخص من بريتانيا يقال له مكسيموس وكان رئيسا عليهم ولما بلغ خبر ذلك الى غراسيانوس فر من باريس الى ليون لان جنوده كانت عصته أيضا فقابله حاكم تلك المدينة باحسن مقابلة ثم غدر به وقتله (٣٨٣ م)

أما تيودثيوس فلما كانت الامور تستدعى بقاءه ببلاد الشرق اضطر لان يعقد معاهدة مع ذلك الدعى واعترف به امبراطورا فاستولى مكسيموس على بريتانيا و بلاد الغالة واسبانيا ثم جهز الجيوش وأغار على رومية قاصدا محاربة فلانسينانوس الثانى مع انه كان اشترط على نفسه احترام حقوقه فاضطر ذلك الملك الصغير الى الهرب الى بلاد الشرق مع أمه فقابلهما تيودثيوس بما يليق بمقامهما وأخذ فى جمع الجنود بكل سرعة لينتقم من ذلك الخائن ثم سار نحو عدوه فانتصر عليه عدة انتصارات ثم قبض عليه أخيرا وأمر بقتله ومما يعاب على هذا الامبراطور بعد ذلك الانتقام ان أمر بقتل أهالى سلانيك عن آخرهم لانهم عصوا حاكمهم وقتلوه غير مفرق بين برىء وعاص فقتلوا منهم نحو ٧٠٠٠ نفس مع انه عفا عن أهل انطاكية قبل ذلك لارتكابهم أمرا أغضبه كثيرا ولما رجع فلانسينانوس الثانى الى مركزه من بلاد الغالة خرج عليه ثائر فرنكى يسمى أربوغاست وكان أربوغاست هذا نافذ الكلمة له شيعة عظيمة و بذلك تمكن من قتل فلانسينانوس (٣٩٢ م)

ثم ان أربوغاست المذكور انتخب مكان فلانسينانوس أحد أصدقائه المدعو أوجين فأرسل تيودثيوس جنوده لقتال هذا المتعصب ولما التقى الجيشان هبت ريح شديدة ألقت العثير فى أعين جنود أربوغاست فأطبق عليهم جيوش تيودثيوس فهزموهم ووقع أوجين أسيرا فى قبضته فقتله أما أربوغاست فبعد أن هام على وجهه أياما قتل نفسه لما قطع الامل من حظه

وكان تيودثيوس آخر امبراطور رومانى اجتمع له زمام المشرق والمغرب وكان تتبع أتباع أريانوس فقتل وشتت منهم كثيرا وأجرى فى حكمه عدة تنظيمات انتعشت بها الدولة ورد المظالم وخفف الضرائب وعاقب اللصوص وقطع دابر الاشقياء والثوار وأعطى الوقت الكافى للمتهم للمحاماة عن تهمته واعتنى كثيرا باصلاح السجون وقبل موته عين ابنه هونوريوس امبراطورا على بلاد الغرب و بعد موته تولى ابنه الثانى أرقاديوس أمر المشرق ومن هذا الوقت صارت الدولة الرومانية مقسومة الى قسمين شرقية وغربية (٣٩٥ م) وبعدها ابتدأت اغارات القبائل البربرية على الدولة فكانت هى ابتداء ذلك العصر الحديث المسمى فى التاريخ بالاعصر الوسطى ولله الامر من قبل ومن بعد

(الفصل السابع عشر)

الامبراطورية الغربية بعد التقسيم

كان عمر هونوريوس لما تولى المملكة سنة (٣٩٥ م) لا يزيد عن ١١ سنة وكان قسمه

من

من الدولة يشتمل على ايتاليا وجزائر القسم الغربى من البحر الابيض المتوسط وأفريقيـة وموريتانيا وبلاد الغالة واسپانيا وبريتانيا وبانونيا ودالماسيا وغيرها من الايالات الثانوية وكان الامبراطور تيودوثيوس قبل موته يريد أن يشترك ولداه فى الحكم معا الا أنهما انفردا ولصغرسن هونوريوس كما تقـدم كان استيليكون القائد العام للجيوش وصيا عليه وبعـد قليل قام الوزيغوط يعيثون فى الدولة تحت قيادة ملكهم الاريك الذى أغار على تراسة ومقدونية ثم اتجـه الى الجنوب حتى وصـل بلاد بيلوپونيز ولم يتعرض بأذى لمدينة أثينه وبعد أن عاث فيها صعد نحو ايبيريا وايلليريا لان أرقاديوس كان حرضـه على الاغارة على روميـة حيث الغنائم الوافـرة والاموال المتكاثرة ليصرفـه بذلك عن القسطنطينية فلما استعد للاغارة على ايتاليا قابلته جيوش روميـة تحت قيادة القائد استيليكون وانتصرت عليـه وردته مدحورا فرجع منتظرا فرصة أخرى تمكنه من مرغوبه

وكان هونوريوس امبراطورا جبانا غـير جدير بمركزه فسمع أقوال الوشاة فى استيليكون أحسن رجل دافع عن تخته وقتله ظلما بدون تحقيق (٤٠٨ م) فعند ذلك ظهر الاريك وقصـد رومية على رأس جيش عظيم فحاصرها ثم استولى عليها بالتسليم وتعهد سكانها بدفع مبلغ وافر من الاموال ولما عصت بعد ذلك لعدم وفائها بما تعهدت به اعاد الكرة عليها وافتتحها عنوة (٤١٠ م) ونهبها وأحرق جانبا منها وكانت رومية لم تر البربر قبل ذلك منذ ثمانية قرون

وبعد أن نهب الوزيغوط رومية وأخذوا منها غنائم وافرة سار وامع ملكهم قاصدين جنوبى ايتاليا ليجتاز وامنها الى أفريقيـة ولكنه مات بتلك الاثناء ولما كانت جنوده لا تريد أصلا ان يقع جسم رئيسهم الشهير فى أيدى الاعداء حولوا مجرى نهر هناك ودفنوه به ثم أطلقوا فيـه المياه ثانيـة وقتلوا بعـد ذلك الاسرى الذين سخروهـم فى تحويل مياه النهر المذكور لكى لا يعلم أحد بقبر الاريك وخلفه أخوه أدولف ثم ترك الوزيغوط ايتاليا وساروا الى اسپانيا حيث تنازل لهم هونوريوس عن جنوبى الغالة واسپانيا وأسسوا هناك مملكة كانت قاعدتها مدينة تولوشة (طولوز) (٤١٩ م) بعـد أن سادوا على ايتاليا أربع سـنوات وكانت سطوة الرومانيـين تضعف يوما بعـد يوم حتى التزم هونوريوس ان يتنازل عن بلاد بريتانيا وجرمانيا ثم مات هونوريوس عقب ذلك بعد أن حكم ٢٨ سنة (٤٢٣ م) ولما دخل الوزيغوط بلاد اسپانيا وجدوا بها قبائل السويف والوندال فطردوا الاولى الى الشمـال والثانيـة الى الجنوب وبقى الوندال بوادى النهر الكبير الذى تسمى فيما بعد باسمهم واندالسيا (الاندلس) وأسسوا دولة قوية تصفها بافريقيـة والنصف الآخر بأوروبا وفى هذا الزمن كان ابتداء استيطان أمم الفرنك فى شمال بلاد الغالة (٤٢٨ م)

وبعـد موت هونوريوس قام فـلانسينانوس الثالث وكانت امه تحكم بالنيابة عنه لصغر سنه وتضـعضعت أحوال الدولة جدا واستولى الوندال على أفريقية من بونيفاسيوس قائد الرومان وكان يتهـددها أيضا خطر جسـيم وذلك أن قبائل الهون الذين أتوا على شواطئ الدانوب والرين استصحبوا معهم كل القبائل الذين قابلوهم فى طريقهم وكان يقودهـم رئيس جسور وحشى وهو أتيلا الشـهير وكان جمع تحت يده القوية جميع قبائل الهون (٤٣٢ م) وكان يلقب نفسـه بعـذاب الله وكان يقول ان النبات لا ينبت بعد حيث سار فرسه وفى أول أمره هدد الدولة الشرقية

ثم انقض على الغربية وخرب ونهب وأحرق عدة مدن ببلاد الغالة وغيرها ثم تحارب حربا شديدا مع أمم الوزيغوط ومحالفيهم ثم تقدم الى ايتاليا سنة (٤٥٢ م) وكانت الامم تفر من وجهه والتجأ بعضها الى مستغدرات بحر الادرياتيك وأنشؤا بها أكواخا على عمد من الخشب ومنها نشأت فيما بعد مدينة البندقية الشهيرة وبينما كان أتيلا بقصد رومية خرج له البابا ليون متوسلا اليه ومتعهدا له بدفع خراج فعدل عند ذلك أتيلا عن رومية ثم مات فجأة فى السنة التى تلتها (٤٥٣ م) وكان بين أتيلا وجانسريك ملك الوندال علاقة أكيدة جدا وكان جانسريك يخشى باس الغوط فزوج ابنه بابنة ملكهم ثم لما أهانها وطردها اتحد مع أتيلا ملك الهون فصار لا يمكن لامبراطورى المشرق والمغرب المحالفة على التعاون ضد هذين الملكين سيما وان امبراطورية المغرب كانت فى حالة ضيق لانه لم يكن عندها قوة بحرية لان قوتها البحرية كانت اذ ذاك كلها بالمشرق ببلاد مصر وجزيرة قبرص وسواحل الشام وبلاد اليونان لانها كلها أقاليم تجارية

وبموت أتيلا انقسم الهون الى قبائل وزال شرهم ثم انه فى سنة (٤٥٥ م) تفرد جانسريك ملك الوندال بالسلطة لموت أتيلا حليفه وكان أقوى منه جنانا وأشد غلظة وكان مستوليا بجيوشه على أفريقية كما سبق وعلى البحر المتوسط الابيض باساطيله العديدة القوية التى كان ينازل بها اساطيل القسطنطينية ولما انتهز فرصة حصول الاضطرابات فى رومية وقيام المخاصمات بين أمرائها الاخيرين أغار على ايتاليا ولم تتمكن البابا ليون فى هذه المرة من رده كما فعل مع أتيلا بل استولى على المدينة وأسلمها للنهب والسلب مدة أربعة عشر يوما وقد ارتكب بها الوندال من الاعمال الوحشية والافعال القاسية ما تذوب لذكره الافئدة أما جنسريك فترك رومية فى قبضة ملوك لا حيثية ولا قيمة لهم أصلا وانسحب منها ثم استولى عليها رجل أجنبى من ضباط الجيش يدعى اودواكر وتلقب سنة (٤٧٦ م) بملك ايتاليا وذلك لان الدولة الغربية كانت فقدت قبل ذلك جميع أملاكها الخارجية وحصلت هذه الحادثة وهى ارتقاء هذا الاجنبى بدون ان يلتفت اليها أحد تقريبا لحصول الاضطرابات والاختلالات بجميع أجزاء الدولة ومع ذلك فلم يتمتع أدواكر زمنا طويلا بغنيمته حيث أقبل الاستروغوط الذين كانوا تخلصوا من حكم الهون وأرادوا مثل غيرهم من الامم البربرية تكوين دولة من أنقاض الدولة الرومانية فأغاروا على ايتاليا مع ملكهم تيودوريك وأخضعوها سنة (٤٩٣ م) وبذلك صار تيودوريك من أغنى وأقوى ملوك البربر الا ان دولته لم تمكث زمنا طويلا وبعد موته سنة (٥٢٦ م) أسرعت الدولة الرومانية الغربية فى السقوط الى هوة الفناء

والحاصل انه من بعد موت هونوريوس ابن تيودوتيوس جلس على سرير رومية عشرة ملوك ولما لم يكن لهم من الاعمال ما يستحق الذكر وكانت الاضطرابات والانشقاقات عامة بجميع أطراف الدولة وكانت قبائل البربر مثل الغوط والوندال وغيرهم تنقض على تلك الدولة إشباعا لجشعهم وارضاء لشهواتهم رأينا من اللزوم عدم التعرض لذكرهم بالتفصيل الا انا رأينا ان نذكر واقعة بحرية حصلت سنة (٤٦٧ م) زمن انتيموس أحد أولئك الملوك فنقول

انه لما عاثت الوندال بجهات السلطنة وهددت الدولتين الغربية والشرقية اتحد الامبراطوران على مناضلة الوندال وجهزا عمارة مؤلفة من ١١١٣ سفينة حربية وبها جيش مؤلف

من

من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل وأقلعت من القسطنطينية الى قرطاجنة تحت امارة باسيلكوس صهر لاون فأزلت الجيوش بافر يقية عند رأس بونه واجتمعت مع جيش هرقليس الذى كان أخضع طرابلس الغرب وعمارة مارسيلينوس القادمة من سردينيا وزحف بهم جميعا على جنسريك ملك الوندال الذى تحايل عليه فى طلب المتاركة فاجابه وعقدت شروطها ثم نازل جنسريك العمارة الامبراطورية المذكورة ليلا وانتصر عليها واستولى على صقلية وألحقها باملاكه

ومن النوادر الغريبة ان آخر ملوك رومية يدعى أغسطس رومولوس كاسم المؤسس لها وقد صحف اللاتينيون اسمه تحقيرا فسموه اغسطولوس وبه انتهت الامبراطورية الغربية بعد أن بقيت مفترقة عن امبراطورية الشرق مدة ٨١ سنة وقله الامر من قبل ومن بعد ثم صارت تعرف فى التواريخ باسم ايتاليا وسيأتى تاريخها الحديث فى الجزء الثالث

الباب السابع

الامبراطورية الشرقية أو الدولة السفلى أو البوزنطية

(٤٩٥ - ١٤٥٣ م)

﴿ الفصل الاول ﴾

قيامها وضعفها ثم تلاشيها وأسباب ذلك

غلب هذا الاسم على الدولة الرومانية منذ ولاية قسطنطين وقال بعض المؤرخين بل غلب عليها منذ ولاية فاليريانوس وأطلق عليها الدولة الاغريقية منذ تيودوثيوس وتاريخها عبارة عن أعمال فسادية واختلالية وهرج ومرج وفوضى بفروع الحكومة وقد تخاطف أجزاءها الامم الضعيفة المنحطة وفتكت بجسمها ثورات القائمين بخدمة القصر الملوكى وأخضعها أرباب الظهور العسكرى ولهذا كان تاريخها عبارة عن ذكر اغتصابات وجرائم اختفى أثناء حصولها كل احساس يوجد العظمة الادبية عند الامم ويزيد فى كرامتها وقد عزمنا على تلخيص مجموع تاريخها باحثين عن أهم الاسباب الادبية التى تسبب عنها انفكاك عراها وخرابها الذى كان ملازما العظمة الرومانيين محولا معها منذ وجدت ثم نستنتج من ذلك الاسباب الباعثة على سقوطها النهائى فنقول

اعلم أنه فى القرن الرابع الميلادى كانت السلطنة الرومانية مشرفة على الاضمحلال الكلى كما مر بك مما ذكرناه فى تاريخ رومية وفقد الاسم الرومانى كل ما كان له من الشأن والتأثير وضعفت كذلك السطوة الشديدة التى كانت لفاتحى الرومانيين على غالب الامم المقهورة وقبض المتسيطرون على كثير من الوظائف الادارية والعسكرية وصارت التخوم لزيادة امتدادها مهددة لعدم حمايتها حماية كافية ونجم عن احتياجات الطبقات العالية المتزايدة على الدوام وعن تبذير الملوك الذى لم يسمع بمثله أن زادت الدولة فى الضرائب زيادة فاحشة فأسرعت الاقاليم بطرح النير الرومانى الثقيل لانها

كانت تئن من مظالم الحكام لما اتصفوا به من الجشع لارضاء لشهياتهم ومشتهيات من يسعون فى توطيد سلطتهم من الملوك

وقد أدرك الملوك من أول حكم دقلديانوس أن شخصا واحدا لم يعد يكفى لمقاومة الاسباب العديدة المؤدية بالدولة الى الانحلال وأنه اذا كان لايزال فى الامكان نجاة العالم الرومانى فليس لذلك وسيلة أحسن من تجزئة السلطة الملوكية وخصوصا من تحريرها تحريرا مطلقا من الوصاية التى تجريها عليها الطبقة العالية (البطارقة) من الامة غير أن هذا العلاج الاول كان أضر بها مما هى فيه لانه زيادة عن تطبيقه الذى يؤدى ضرورة الى الحرب الاهلية تتصادم جميع الاطماع المتعادية التى تظهر عند ذلك وزيادة عن تزايد الضرائب الثقيلة التى يستلزمها ايجاد ثلاث أو أربع حواش ملوكية مع مايلزم للثلاثة أو الاربعة ملوك الذين يتقاسمونها من المصاريف كان من الواضح أن كل شريك فى الدولة لابد وأن يوجه نظره الى غرض خصوصى وهو السلطة العليا ويبذل كل مساعيه لقطع الخطوة الاخيرة التى تعوقه عن نوالها

هذا من جهة الملوك أما ما يختص برتبة الاشراف وما نحوه من الامتيازات فان ذلك هو الآفة الاصلية للعمل الذى شرع فيه قيصر وتممه اغسطس وخلفاؤه من بعده وهى آفة ملازمة لنفس نظام الدولة ولم يكن فى مقدرة أحد أن يقف فى طريق تقدمها المتزايد على الدوام

وقد سعى دقلديانوس فى ذلك وحل فرقة الحرس المكونة من الطبقة العالية أى البطارقة ولكنه اضطر أن يعوضها بحرس آخر شبيه لها فى نظامها مسمى باسماء مختلفة ولما صعد قسطنطين على التخت سعى فى كسر شوكة طبقة الاشراف من الجنود وتعويض وظائفها بوظائف أخرى ملكية فنجح الى نقطة معينة غير أنه أدرك من ذلك الوقت أن الاقامة فى رومية ليست ممكنة بعد للملوك فنقل الى القسطنطينية كرسى الدولة وكان ذلك سببا لزوال الدولة الرومانية وهذا قول بعض المؤرخين لانه كان عملا مشؤما عليها لانها اهلكت بنفس القوة التى تأسست عليها وهى القوة العسكرية وحيث تحقق ان القوة العسكرية مستند سريع العطب فالاحسن للدولة ان تستند على القوانين والنظامات وبعد أن مضى نحو ثلاثة قرون على اغتصاب قيصر للسلطة الملوكية حدث بالدولة ثورات عديدة وارتباكات وفساد وما ماثلهما وافتتح الرومان الدنيا وبذروا أموالها اشباعا لشهواتهم كالتفرج على جيوش المصارعين تتلاطم فى الملاعب مع الحيوانات المفترسة بجميع أنواعها وقتل أزيد من ١٠٠,٠٠٠ نصرانى ارضاء للامة وغير ذلك ولم يكن فى مقدرة احد ان ينسى رومية القديمة حريتها المفقودة والمفاخر السابقة التى نالتها مدة الجمهورية

ولما شاهد قسطنطين كل ذلك حدثته نفسه بان يشيد رومية أخرى جديدة ازاء القديمة ويقطع تماما كل وصلة بينه وبين العوائد القديمة ويترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة وأفكارهم التى لاتزال تتمنى على الدوام أيام الجمهورية ويحدث بناء متينا على تلك الاطلال العديدة المتراكمة الا أنه قد خاب فى مسعاه إما بسبب ان عمله هذا كان مستحيلا أو انه لم يكن فى مقدرته اخراج هذا العمل من القوة الى الفعل وربما كان اخطأ فى اعتبار أن النصرانية أقوى واسطة لهذا العمل اعما من المحقق ان أهم أسباب الزوال التى ظهرت فى أول قيام الدولة السفلى كانت شدة المناظرات الدينية وتعدد المذاهب التى نجمت عنها وقد أحدثت المجادلات بين الارثودوكس والمبتدعة والميل لاقامة البراهين التى اشترك

فيها حتى الملوك ضرراً عظيماً لهذا النظام الحديث بقدر ماسببه طيش ومطالب طبقة الاشراف مدة النظام القديم برومية وكانت المسائل الدينية تنقسم الى أقسام ثانوية لاعداد لها وكل فرقة تدافع عن معتقدها بدفاع المستميت حتى استولت الفوضى على الامور الدينية كما استولت على أجزاء الحكومة وزيادة على ذلك فان طبقة الاشراف والبطارقة لم تكن تركت قسمها من المملكة وكذا المصارعون وخدمة الملاعب وكانت كل هذه الطبقات المتعودة على المعيشة من كرم الملوك تبعتهم الى القسطنطينية وقد انحطت سيرة جميع هذه الطبقات الطفيلية المذكورة درجة عما كانت عليه بمجيئها الى المشرق وبقدر ذلك ازدادت قوتهم ووقاحتهم حيث شوهد بعدها بقليل ان حوذيي الملاعب العمومية صار في امكانهم نقل التخت لكل من يمكنه ان يبذلهم في العطاء وحتى ان الديانة النصرانية خضعت لاحتياجات المعيشة الشرقية فلم تمانع في نشويه الانسان فقد شوهد كثير من الخصيان المنحطين عن درجة الرجال بيدهم السلطة العالية بالنيابة عن الملوك الذين كانوا لا يزالون أقل منهم قدرة وقد بلغ الفساد منتهاه لما توصل الجدال الطويل والمشاجرات الغير المنقطعة الحاصلة بين المذاهب الدينية الى ايجاد التفرق الديني بالشرق ثم أتت بعد ذلك المخاصمات بين الباباوات وبطارقة القسطنطينية الذين كانوا يحرمون بعضهم بعضا وغرست عنصر الانحلال وسط هذه الجمعية البالية وشغل البغض ضد اللاتينيين المكان الذى كان يجب أن يشغله البغض ضد الامم المتبربرة التى كانت تحاصر الدولة من جميع اطرافها وازدادت الفرق الدينية زيادة عظيمة واكتسبت أهمية زائدة حتى ان الامبراطرة كانوا يهتمون بتقريب أتباع رئيس الكنيسة الاغريقية منهم أكثر من اهتمامهم بملاقاة الفرس والبلغار فى ميدان القتال وكان الغرب الارثودوكسي المتبربر ينظر شذرا الى الشرق المتمدن الفاسد الاخلاق المتفرق الاوصال ومن ذلك الوقت صارت القسطنطينية المحاطة بالاعداء غنيمة يصطادها أشدهم جسارة وأعظمهم قوة أما هى فلم يكن لديها ما ينجي الدول لا قوة الاسلام وحميتهم فى الازمنة الوسطى ولا التبصر وحرية الافكار الحافظة للجمعيات فى الازمنة الحديثة

وكانت عساكر غودوفر وادوبويون وبودوان دوفلاندر القاسية العقول والاجسام لا تفهم شيأ من جميع دقائق المسائل المظلمة التى كانت موضوع الجدال بين أرباب المذاهب المختلفة بتلك المدينة بل كانوا لا يرون فيها الا النفى الكلى والجزئى للمذاهب التى هى أساس معتقدهم فلذلك أزالوا عند مرورهم بتلك المدينة تلك الانقاض الاخيرة للتمدن الرومانى وقد تمم هؤلاء المتبربرون عملهم الى غايته باتمام تقويض بنيان الدنيا القديمة وأوجدوا مكانا فسيحا لاطلاق قيد الفكر الجديد وقد كان استيطان اللاطينيين بالقسطنطينية حادثا جديدا فى تاريخ اضمحلال الدولة السفلى ولما خرجوا منها ظهرت بها على التدريج آثار الانحلال الذى عجل حدوثه أولئك القوم وسقطت بنفس الاسباب التى أوجدتها وابتدأت ثانيا المقاتلات الدينية بقوة أشد مما سبق وتكرر حدوث الاغتصابات باليد المتسلحة فانهال البلغار على جميع التخوم وانقض الاتراك العثمانيون الذين كانت تزداد قوتهم من ضعف أعدائهم سكان الدولة السفلى بقوة وجراءة عليها قصد الاستيلاء على القسطنطينية فافتتحوها سنة (١٤٥٣ م) أى قبل اكتشاف أمريقا ببعض سنوات

(الفصل الثانى)

خلاصة تاريخ الدولة الشرقية وقياصرتها

قسم بعض المؤرخين تاريخ هذه الدولة الى ست مدد وقد اخترنا اتباع هذا التقسيم لما فى ذلك من فائدة القراء والتسهيل عليهم فى تلخيص تاريخها تلخيصا مفيدا فنقول

المدة الاولى

(٣٩٥ - ٥٦٥ م)

المدة الاولى تبتدأ من سنة (٣٩٥ م) وهى السنة التى مات فيها تيودوثيوس بعد أن قسم الدولة الرومانية بين ولديه هونوريوس واركاديوس الى سنة (٥٦٥ م) وهى السنة التى كانت نهاية حكم يوستنيانوس الاول الذى هو أعظم امبراطور فى تلك المدة

أما ملوك هذه المدة فهم **اركاديوس** (٣٩٥ - ٤٠٨ م) وهو أول امبراطور للدولة الشرقية كما علمت والابن البكرى لتيودوثيوس الاكبر وكان ملكا ضعيفا تغلب عليه وصيه المدعو روفينوس واوتروب أكبر حجابه واودوكسى زوجته لانه كان صغير السن لما تولى على المملكة ولم يتمكن هذا الامبراطور لضعفه من منع تقدم الامم المتبربرة ومن أعماله حمايته مذهب اريانوس [1] ثم مات غير مأسوف عليه من رعيته فى السنة المذكورة وفى زمنه أمر أن تغلق هياكل الاصنام المصرية وتعتنق الناس دين النصرانية دون غيره

---

(١) اريانوس أواريان أواريوس هو صاحب بدعة مشهورة فى النصرانية ولد بمدينة سيرينايك (برقه) فى نحو سنة (٢٨٠ م) ومات فى سنة (٣٣٦ م) وكان قسيسا ورئيس ابرشية بالاسكندرية سنة (٣١٨ م) وفى تلك الاثناء حصل بينه و بين مطران الاسكندرية المدعو القديس أتانا س جدال كان يدعى فيه ان المسيح عليه السلام مخلوق تام الخلقة مشابه جدا للمولى سبحانه وتعالى ولكنه ليس هو هو ففند قوله هذا القديس ثم حكم عليه مجمع نيقية بالنفى (٣٢٥ م) لانه لم يردان يعترف أصلا باتحادا لصفات الثلاث فى الثالوث المقدس وكان اريوس شاعرا وموسيقيا كما كان هارمونيوس والانتينوس المبتدعين وكان جعل مذهبه هذا أناشيد ومغانى يتغنى بها وبذلك تمكن من نشره بين الامة ثم ساعده اوزيب مطران نيقوميديا وتمكن من حمل القيصر قسطنطين على اصدار العفو عنه ثم مات فجأة فى نفس يوم دخوله القسطنطينية وقالت شيعته انهم سموه ورأى أخصامه فى موته معجزة للسيد المسيح وقد امتد مذهبه كثيرا مدة الامبراطور قسطنس ووالانس وكان المطارنة الاريوسية بقصر الملك يحرضون الملوك على التداخل فى أعمال الكنيسة وكانوا يمدحون اعمال الملوك ويتملقون لهم باقوال لم يكونوا يسمعونها من مطارنة الارثوذكس وقد نهب الملك تيودوس كنائس الاريوسيين ومنعهم من الاجتماعات غير ان ذلك لم يلاش هذا المذهب فقد كانت جميع الامم المتبربرة تقريبا اعتنقته ماعدا الفرنك منهم وفى ابتداء القرن السادس كان الملك تيودوريك بايطاليا والاريك ببلاد الغالة واسبانيا والسويف بغاليسيا والوندال بافريقية يتمذهبون بمذهب اريوس وقد تمكن المطارنة الذين أظهروا القوة فى الدفاع عن الوحدة الكاثوليكية من التغلب على هذه البدعة وتمكن البابا غريغوار الكبير من محوها تماما من اسبانيا فى أواخر القرن السادس وهدمت فتوحات الفرنك ما بقى منها ببلاد الغالة الجنوبية وايطاليا وزالت تماما من أفريقية لما قهر بليزير الوندال اه

وقام

وقام بعده تيودوثيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) وهو ابن اركاديوس وحفيد تيودوثيوس الاول وكان يتصف بالضعف كوالده وتغلب عليه في حكمه وزيره المدعو انتيميوس وكان رجلا عاقلا ثم تغلبت عليه أخته بولخيريا وقد اجتهدت في اصلاح شأنه وستر عيوبه وجعله جديرا بالمنصب وايقاع مهابته في قلوب الرعية وساست البلاد سياسة حسنة وحاربت الفرس لفتكهم بالنصارى فانتصرت عليهم (٤٢٣ م) وألزمتهم بالتنازل للامبراطورية عن نصف أرمينيا وكان ملك الفرس اذ ذاك كسرى بهرام جور بن يزدجرد الاثيم وفي زمنها تغلبت الامبراطورية الشرقية على الغربية ونصبت عليها فالنتينيانوس الثالث الذي كافأها بان تنازل لها عن ايلليريا الغربية المشتملة على بلاد بانونيا ودلماسيا وفوريكوم الآن قبائل الهون أغارت على بعض جهات الدولة حتى التزمت بولخيريا المذكورة بتنفيذ ما أملوه من الشروط عليها وهي زيادة الجزية المضروبة على القسطنطينية لامة الهون وان تسلم لهم دولة الرومان احدى المينات التي على نهر الطونه لتكون خالصة حرة لا ولاء للرومان عليها وان لا تعقد دولة القسطنطينية معاهدة أصلا مع أي عدو من أعداء الهون فقبلت بولخيريا والقيصر ذلك بلا معارضة وتراسل القيصر وأتيلا ملك الهون وانحط شأن الرومان جدا لدى أتيلا حتى جعلهم كعبيد لاوامره وفي السنة الخامسة عشرة من ملك هذا القيصر كان ايقاظ أصحاب الكهف من رقدتهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز وقصتهم معروفة وكان من المتغلبين على هذا الامبراطور أيضا زوجته أودوكسيا وكذا الخصي كريساف حاجبه ومن الحوادث التي حدثت وحصلت في عصر هذا الملك المجادلات الدينية بين شيعة نسطورس [1] وأصحاب المشيئة الواحدة وقد تسبب عن هذه المجادلات انعقاد مجمع مدينة افسوس (٤٣١ م) وفي زمنه صدر القانون المسمى بالقانون التيودوني (٤٣٨ م) وهو أول قانون رسمي عرف لذلك الزمن .

وبعد موته ارتقى الى المنصب الملوكي مرسيانوس (٤٥٠ - ٤٥٧ م) وهو من عائلة صغيرة وقد تدرج من صغره في وظائف الدولة الى ان ترقى الى العضوية في السناتو وارتقى حاله أيضا حتى تزوجت به بولخيريا المتقدمة الذكر بعد موت تيودوثيوس وكان نودي بها امبراطورة على الشرق بعد موت أخيها ويتصف هذا الامبراطور بالشجاعة وقد توصل لدفع اغارات الهون وردهم وحسن لرئيسهم أتيلا الاغارة على الدولة الغربية وبذلك تمكن من ابعاده عن بلاده الان أتيلا رفع مقدار الجزية السنوية التي تدفعها له الدولة الشرقية من ٧٠٠ وزنة من الذهب الى ٢١٠٠ وزنة ثم توفيت بولخيريا (٤٥٣ م) وحكم مرسيانوس المذكور بعدها مستقلا أربع سنوات وفي

(١) نسطوريوس صاحب بدعة مشهورة ولد بمدينة جيرمانيسيا من بلاد سوريا عينه الملك تيودوز الصغير بطريركا للقسطنطينية (٤٢٨ م) وكان من أعماله في أول أمره طرد اتباع اريوس من هذه المدينة ثم شرع في أن يعلم بوجود شخصين متميزين في نفس عيسى عليه السلام وانه لا يصح أن يقال ان عيسى هو اله وانسان أو انسان واله وان السيدة مريم هي أم المسيح وأم الاله ونما عارض القديس سيريل بطريرك الاسكندرية في قوله هذا حكم مجمع افسوس على نسطوريوس المذكور (٤٣١ م) بالتفنيد وعزله من وظيفته ثم نفاه تيودوس بصعيد مصر حيث مات ثم اجتهد قياصرة القسطنطينية في تعقب اتباعه ومصادرتهم واحراق كتبهم ولكن ذلك لم يجد نفعا ثم انتقل النسطوريون الى بلاد الفرس ولا زال يوجد الآن لهم اتباع بين الكلدانيين أو النساطرة بسوريا

مدته عقد مجمع خلقدونيا (١) وهو المجمع المسكونى الرابع عند النصارى

ثم قام ليون الاول (٤٥٧ - ٤٧٤ م) ويلقب بالكبير وكان صعوده على التخت بمساعى أحد عظماء الدولة المدعو اسبار الذى غشه فيما بعد فى محاربة الوندال ولما هزمت جنوده قتل أسبار المذكور وجميع عائلته وكان غيورا على المذهب الاورثودكسى وقد هزم القبائل المتبربرة فى عدة وقائع حتى ساد الامن فى جهات الدولة

وبعد موته قام بالامر ليون الثانى (٤٧٤ م) وهو ابن زينون ولم يكن عمره لما صعد على التخت يتجاوز الاربع سنوات ولم تطل مدته حيث مات فى تلك السنة

وقام بالامر بعده والده زينون الاول (٤٧٤ - ٤٩١ م) وكان يتولى قبل ذلك رياسة الحرس وكانت له حظوة عند الامبراطور ليون الاول لانه أظهر له المساعدة فى تعزيز مركزه ضد اسبار واردابوريوس القائدين خصميه ثم صار بعد ذلك صهره وبعد موت ليون الاول أشركه ابنه ليون الثانى فى الحكم لصغر سنه ثم ان فيرنياز وجة ليون الاول وباسيليكوس عمه تآمرا عليه وطرداه من القسطنطينية وجلس باسيليكوس المذكور مكانه (٤٧٥ م) الا أن زينون التجأ الى الايسوريين والغوط فساعداه على نوال مركزه ثانية وقد كافأ الغوط على ذلك بأن صرح لهم بالاغارة على رومية غير أنه ارتكب بعد انتصاره على أعدائه فظائع كثيرة وفى تلك الاثناء احترقت دار كتب القسطنطينيه وكان بها على ما يقال ١٢٠,٠٠٠ كتاب ثم وقع بينه وبين الغوط الذين ساعدوه على نوال مركزه حروب عادت عليه بالخسران وعصى عليه كثير من قواد جيشه فتمكن من ادخالهم تحت دائرة الطاعة وكان يميل الى الشهوات والملاذ النفسانية كثيرا حتى كرهته الناس وكانت نهاية أيامه أن دفنته زوجته المسماة اريادنى حيا وهو سكران وحصل فى زمنه حروب دينية سفك فيها كثير من الدماء بين الارثودكس والقائلين بطبيعة واحدة

ومن بعده جلس على سرير المملكة اناستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨ م) وهو من عائلة حقيرة وكان من موظفى القصر الملوكى وقد دعته اريادنى زوجة زينون لتتزوج به وتجلسه على التخت فتم له ذلك وقد اتصف هذا الامبراطور فى أول حكمه بالصلاح والعدل ثم تغيرت أطواره لما أظهره من القساوة والبخل وانحيازه الى بعض الطوائف حتى كرهه الناس وبينما كان يشتغل بالمجادلات الدينية كانت الفرس والبلغار يعيثون فى أقاليم الدولة ويحرقون وينهبون ولما جرد عليهم هزم ولم يتمكن من عقد الصلح معهم الا بأن دفع لهم مبالغ وافرة من الاموال ثم مات فجأة ويقال ان قد أصابته صاعقة ومن أعماله ابطال المصارعة مع الحيوانات الكاسرة واحاطة القسطنطينية بسور حصين عظيم ارتفاعه ثلاثة أمتار ليقيها من اغارة البلغار

وبعد موته خلفه يوستنيوس الاول بتعضيد الجنود (٥١٨ - ٥٢٧ م) وكان فى أول أمره راعيا ثم جنديا ومازال يترقى حتى وصل زمن الامبراطور ليون الى أعلى الوظائف وكان امبراطورا عاقلا تمكن من اطفاء الثورات الدينية زمنا وكان يضطهد القائلين بالطبيعة الواحدة

(٢) خلقدونيا مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شواطئ البوسفور مقابل القسطنطينية وكانت تسمى بمدينة العميان بنيت سنة (٦٨٥ ق م) وقد زالت الآن وبنى على أطلالها القرية اللطيفة المسماة قاضى كوى اهـ

فعضده

فعضده قساوسة الارثودكس الاقوياء وقبل موته تبنى ابن أخته المدعو يوستينيانوس وعهد اليه بالامر من بعده ودخلت طوائف اللاظ فى حكم القسطنطينيه وكانوا قبل ذلك يدفعون الخراج لملك فارس فكان هذا سببا لانتقاض الصلح بين فارس والروم

ولما مات يوستينيوس خلفه يوستينيانوس الاول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) وكان أبوه فلاحا بسيطا وهو أشهر ملوك هذه المدة وقد وصلت الامبراطورية فى زمنه الى أوج المجد وكان له قائد يدعى بليساريوس أو بليزير اشتهر فى كل محاربانه بالانتصار فمن وقائعه الشهيرة محاربته الوندال بافريقية (٥٣٢ — ٥٣٤ م) والغوط بايتاليا (٥٣٥ — ٥٥٠ م) وانتصاراته على الفرس (٥٢٨ — ٥٣٢ م) و (٥٤٠ — ٥٥٦ م) ففى محارباته مع الوندال لم يتيسر ليوستينيانوس المذكور أن يجهز الأسطول امركبا من خمسين سفينة فقط حتى انه لما أرسى بها القائد بليزير على البر لم يجد باقيا معه من عدد العسا كر سوى خمسة آلاف رجل لاغير فما كان أعظم جراءته فى هذا المشروع مع ان القيصر ليون كان أرسل عليهم عمارة بحرية مؤلفة من جميع سفن بلاد المشرق الرومية وكان بها من العدة مائة ألف مقاتل وما قدر على فتح بلاد أفريقية بل اسقط فى يديه ان قد أضاع المملكة هدرا وهيهات أن تفلح أمثال تلك العمارات البحرية الجسيمة ولا تلك الجيوش البرية العظيمة فانها حيث كانت تذهب بكل عمارية الدولة وزخرتها كانوا اذا بعدت عليهم الشقة أو أصابهم بعض المصيبة لا يجدون من عدلهم يدا الاعانة ولا ما يجبر بعد ذلك خللهم واذا فقد بعض الشئ فلا معول على ما بقى منه فان السفن الحربية وسفن الحمولة والخيالة والمشاة والذخائر وجميع المهمات الحربية كالشئ الواحد بحيث لو فقد منها البعض لاخل بالهيئة الاجتماعية الكلية ويبطل بذلك عملها ومع كل ذلك فقد استولى بليزير على أفريقية بهذه القوة الصغيرة لاستعداده ومهارته ووقع ملك الوندال فى يده أسيرا ولما تم لهذا القيصر الظهور على الوندال أمر قائده بليزير المذكور بفتح ايطاليا ونزعها من يد الغوط فاهتم القائد بكل ما فى امكانه الا انه لم يتمكن منه تماما وبقى الى أن أتمه القائد نرسيس فهو الذى ظفر بهؤلاء المتوحشين وانتصر عليهم وذلك لان سلطتهم بايطاليا كانت أخذت فى الضعف بخلافها فى مملكة اسبانيا فكانت عظيمة جسيمة وكان يحكمهم ملوك أصحاب قوة وتدبير وحسن نظر وحصل ان أتاناجلدوس ملك الغوط باسبانيا استعان بالرومان على خصمه ملك ايطاليا فوجه الروم بعد انتصارهم على ايطاليا البطريق بيبريوس لمساعدة اسبانيا وبعد ان قام بما يجب عليه استولى على مدن بلنسية وقرطبة وسائر مدن أقاليم الاندلس الشرقية وأضافها للدولة القسطنطينية ولا زال جزء من الاندلس فى يد القسطنطينية حتى سنة (٦٢٤ م) اما سبب محارباته للفرس فلان كسرى أنوشروان كان نقض الصلح باغراء الارمن والغوط ولما هجم الفرس على الشام وكانت تابعة للروم طردهم بليزير منها الان أمة اللاظ التى كانت تابعة لملوك القسطنطينية وواقعة على سواحل البحر الاسود دخلت فى طاعة كسرى فاغتنم كسرى هذه الفرصة وشرع فى تجديد سفن حربية بثغور البحر الاسود بمساعدة أمة اللاظ التى كانت لها المهارة فى الملاحة وبذلك كان يمكن لا كاسرة فارس أن يوسعوا ادارة نفوذهم بسفنهم الحربية وان يتجولوا فى جهات البحر المتوسط الابيض بالعبور من خليج القسطنطينية الان طائفة اللاظ ومن اتبعها بالدخول فى حوزة الفرس ندموا فيما بعد على فعلهم هذا لانهم سيتغربون عن بلادهم فنقضوا عهدهم والتحقوا بالقسطنطينية وأعانوها على طرد

الفرس من ممالكها (٥٥٥ م) ثم استمر الحرب بين فارس والروم زمنا وانتهى بأن رد كل من الطرفين ما كان استولى عليه من ممالك الآخر فصارت بذلك حدود بلادهما كما كانت الآن أعظم فخر نا له هذا الامبراطور هو سنه القوانين المسماة باسمه وذلك انه عهد لجمعية من علماء الشريعة جمع واصلاح جميع الاوامر والمنشورات التى صدرت مدة جميع من سبقه من الملوك وجعلها قانونا واحدا وقد اهتم يوستينيانوس أيضا بالمسائل الدينية بغيرة ومعرفة فاق فيها اسلافه ومن اعماله اصلاح كنيسة أجياصوفيا بالقسطنطينية وابطال مدرسة الفلاسفة الوثنية فى أثينا ومن مشاهير قواده أيضا نارسيس الخصى المذكور الذى تولى قيادة الجيوش بعد بليساريوس وهو الذى لاشى قوة الاستروغوت فى ايتاليا (٥٥٥ م) ورد ايتاليا وصقلية الى الدولة الشرقية

وفى زمن يوستينيانوس أدخل دود القزالى أوروبا وجلبه اليها قوم من الصين أرسلهم اليها يوستينيانوس وانتشر التمدن واتسعت المعارف وكان ليوستينيانوس زوجة تدعى تيودوره اشتهرت بجمالها كما اشتهرت بميلها الى الملاهى وقد أثرت عليه تأثيرا عظيما ولوثت حكمه بما ارتكبته من خسيس الاعمال ويقال انها السبب فى نكبة بليساريوس وقد كتب كثير من المؤرخين تاريخ هذا الامبراطور لشهرته وقد وقع فى أيام هذا القيصر فتن عظيمة بالقسطنطينية وحدث طاعون شديد هلك فيه كثير من أهالى أوروبا ووقعت فى مدته الزلازل الهائلة منها زلزلة سنة (٥٤٧ م) هدم فيها مدن عظيمة وفى زمنه أيضا أحرق أمير جنده نارسيس مدينة اسكندرية لامتناع أهلها عن قبول البطريرك تيودسيس

(الفصل الثالث)

المدة الثانيـــة

(٥٦٥ - ٧١٧ م)

تمتد هذه المدة من موت يوستينيانوس الى سنة (٧١٧ م) وهو العصر الذى جلست فيه العائلة الايسوريانية على سرير المملكة الرومانية الشرقية نسبة الى بلاد ايسوريا مقاطعة بآسيا الصغرى

وملوك هذه المدة هم *يوستينوس الثانى* (٥٦٥ - ٥٧٤ م) وقد استبشر الناس به فى أول حكمه وتمكن من رد اغارة الفرس أولا الا ان اللومبارديين اغتصبوا قسما كبيرا من ايتاليا ونهبت قبائل الافار [1] الولايات الواقعة على الطونة ثم لما تهددت الدولة باغارة القبائل المتبربرة والفرس عقد هذا الامبراطور مع الاتراك النازلين بجهات بحر طبرستان معاهدة ضد الفرس الذين

(١) الافار أمة من أصل تتارى كانت لها السلطة من القرن الخامس للبلاد بجهات جبال التاى بآسيا وقد خرب الصينيون قسما من مملكتهم (٥٥٢ م) وفر الذين بقوا من القتل الى أوروبا مع خانهم المدعو واركونى واستوطنوا بلاد داسيا (٥٥٨ م) ثم أخضع أحد رؤسائهم المدعو بايان مملكة الجبيد والبوهيم حتى خافته الدولة الاغريقية التى لم تنج من شرهم الا بهدية عظيمة أرسلتها لهم ثم حاصروا القسطنطينية (٦٢٦ م) ثم ان خلفاء هذا الرئيس استولوا على بلاد دلماسيا الا أنهم أضاعوها (٦٤٠ م) ثم دخلوا ايطاليا وأخضعوا الصقالبة والبلغار ثم فقدوا ما افتتحوه شيأ فشيأ الى أن أخضعهم الملك شرلمان تماما اهـ

كانوا

كانوا أعداء الفريقين وهو أول اتحاد حصل بين الترك والروم وأرسل الترك سفيرا منهم الى القسطنطينية فقوبل بالترحاب ثم عكف بعد ذلك يوستينوس المذكور على القصف والخلاعة وأظهر القسوة فى أعماله وترك زمام الحكومة الى صوفية زوجته التى جرت الوبال على الدولة ثم ان هذا الامبراطور فقد الرشد فى آخر أيامه وكان أشرك صهره المدعو طبريوس قسطنطين معه فى الحكم

وفى السنة الرابعة من حكم هذا القيصر كانت ولادة النبى صلى الله عليه وسلم ومات فى زمنه أيضا كسرى أنوشروان وتولى بعده ابنه هرمز وكان عاقلا عادلا ينظر فى مظالم الرعية بنفسه روى عنه انه يوم ملك نطق بمقالة بليغة احتوت على كثير من الحكم لهذا رأينا ايرادها هنا وهى

الحلم عماد الملك والعقل عماد الدين والرفق ملاك الامور والفطنة ملاك الفكرة أيها الناس ان الله خصنا بالملك وعمكم بالعبودية وكرم مملكتنا فأعتقكم بها من عبوديتنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لامرنا وقد أصبحتم فرقتين احداهما أهل قوة والاخرى أهل ضعة فلا يستأكلن منكم قوى ضعيفا ولا يغش ضعيف قويا ولا تتوطن نفس أحد من الغلبة الى ضيم أحد من أهل الضعة فان فى ذلك وهنا للملك ولا يرومن أحد من أهل الضعة الاخذ بأخذ الغلبة فان فى ذلك انتشار ما نحب نظامه وزوال ما نحاول قوامه وفوت ما نحاول دركه واعلموا أيها الناس ان حاجتكم الينا فى نفس حاجتنا اليكم وحاجتنا اليكم هى مسد لحاجتكم الينا وان الثقيل مما أنتم منزلوه منا من أموركم خفيف والخفيف مما نحن مجشموكم ثقيل لعجزكم عما نحن مضطلعون واضطلاعنا لما أنتم عنه عاجزون وانما تحمدون حسن ملكتنا اياكم وفضل سيرتنا فيكم اذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ولزمتم ما أمرناكم به ميزوا بين الامور المتشابهات وأنزلوها منازلها ولا تسموا النسك رياء ولا الرياء مراقبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم حزما ولا الرحمة نقمة ولا الصنع عفافا ولا الاخذ بالفضل ذلة ولا العماية غفلة ولا العذر ضرورة ولا الورع اجتهادا ولا الخيانة غنما ولا القصد تقتيرا ولا البخل اقتصادا ولا الزهو مروءة ولا التوانى تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السفه صرامة ولا العجب كمالا ولا ما لا يكون كائنا ولا كائنا ما لا يكون ولا المعاتبة مفاسدة أيها الناس اجتنبوا المرذولات من هذه الامور المتشابهات وثابروا على ما تحظون به عندنا فان وقوفكم عند أمرنا منجاة لكم من سخطنا وتنكبكم معصيتنا سلامة لكم من عقابنا فأما العدل الذى نحن عليه مقتصرون وبه نصلح وتصلحون فأنتم فيه عندنا مستوون وستعرفون ذلك اذا رفعنا أهل القوة عن أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها الا المستحق منهم الحباء والشرف لنجدة توجد عنده أو بلاء حسن يظهر منه واعلموا أيها الناس انا قارنون سوطنا وسيفنا ومستعملوهما بتثبت وحسن روية فيمن غمص نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهيناه عنه فانا لا نكاد نصلح رعايانا ونضبط أمورنا الا ان ننكل بمن خالف أمرنا وتعدى سيرتنا وسعى فى فساد سلطاننا فلا يطمعن أحد فى رخصة منا ولا ترجون هوادة عندنا فانا غير مداهنين فى حق الله الذى قلدنا فوطنوا أنفسكم على الطاعة أو المجازاة اه

وبعد موته قام بالامر **طبريوس الثانى** المذكور بعهد منه (٥٧٤ - ٥٧٦ م)

وكان قبل ان يشرك فى الحكم رئيس الحرس مدة يوستينوس الثانى وكانت زوجة يوستينوس المذكور هى التى نصحت زوجها بالعهد اليه لانها كانت تأمل ان تكون زوجة لطبريوس فيما بعد ولما خاب أملها تآمرت عليه تريد قتله ولما علم طبريوس بذلك عفا عنها ثم التفت الى الفرس

فناز لهم وكانت الحرب بينهما سجالا ولم ينجح فى عقد الصلح معهم ومن أعماله أيضا رد اغارة الافار بأن دفع لهم مبلغا من المال وكانت الرعية ترجو منه خيرا لها وللدولة اذ فاجأته المنون بعد ان حكم قليلا وكان هذا القيصر شديد التمسك بدين النصرانية ولما رأى ان مصر تميل الى مذهب اليعقوبية بذل جهده فى تثبيت هذا المذهب فيها وجعله عموميا بين نصاراها وأيد كنيسة اليعقوبية

وقام بعده موريس (٥٧٦ - ٥٨٣ م) ويدعى أيضا مرسيوس طبروس ومن أعماله أن رد كيخسرو الثانى ملك الفرس الى التخت بعد ان طرده رعاياه وعقد معه صلحا مفيدا وساعد ايتاليا على اللومبارديين ثم اضطر هو أيضا الان يدافع عن نفسه من اغارات ملك الافار وبينما كان سائرا لمحاربته خانته جنوده بتحريضات فوكاس فقتلوه هو وأولاده الستة ومن التأليفات التى ألفت فى عصره اثنا عشر كتابا فى الفنون العسكرية توجد المتأخرون وطبعت بعد الترجمة بمدينة أو بساله (١٦٦٤ م) وفى زمنه قبض أبرويز على أبيه هرمز ملك الفرس وسمل عينيه ولبس التاج وطال ملك ابرويز الى ان خلفه ابنه شيرويه فى السنة السادسة من الهجرة وكان قد بعث اليه النبى عليه السلام كتابه مع دحية الكلبى يدعوه الى دين الاسلام فزقه ابرويز فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه كل ممزق ثم حصلت ببلاد الفرس ثورات داخلية وبعد أن خنق ابرويز أباه لحق بملك الروم موريس هذا مستنجدا به على خصمه فلامه موريس على ما فعله بابيه أولا وثانيا ثم أنجده بجيش جرار على خصمه فتمكن ابرويز من الجلوس على تخت الفرس ثانية ثم تآمر عليه الجنود وقتلوه

لما قتل الجنود موريس بجهات الدانوب نصبوا مكانه فوكاس المتقدم الذكر (٥٨٣ - ٦١٠ م) فقصد القسطنطينية وانهمك فى الملاذ والخلاعة وأخذ فى مصادرة الناس وكان ظلوما جبانا حتى انه فى زمنه انتزع الفرس من الدولة جهات ميزوبوتاميا وأرمينيا وسوريا وقسما من آسيا الصغرى وغيرها ثم خرجت عليه الاهالى لظلمه وطلبوا حاكم بلاد أفريقية لمساعدتهم ضده فارسل الحاكم ابنه المدعو هرقل ومعه اسطول عظيم فتمكن بمساعدة الاهالى من خلع فوكاس بعد واقعة بحرية جرت بين الطرفين بمياه القسطنطينية ثم قطع رأسه فوق سفينته

ولما أراح الله الدولة الشرقية من فوكاس وأعماله قام بالامر من بعده هرقل الاول (٦١٠ - ٦٤١ م) وقد اشتهر حكمه بالنكبات التى أصابت الدولة لان الافار أغاروا عليها باوروبا كما أن الفرس انتزعوا منها آسيا الصغرى وفلسطين ومصر ولما رأى نفسه فى أشد المضايقة عزم على ترك القسطنطينية التى لم يبق له سواها واتخاذ قرطاجنة عاصمة له فرده البطريرك عن هذا الفكر ثم ان طالع النصر رمق بعينه تلك الدولة بعد ذلك فازت مجدا عظيما بانتصار هرقل عدة نصرات على كيخسرو الثانى ملك الفرس واسترداد آسيا الصغرى حتى جهات الدجلة وعقد معهم معاهدة من شروطها ان يردوا الاسلاب التى كان الفرس أخذوها قبلا من بيت المقدس عند استيلائهم عليه ومن ضمنها خشبة الصليب كما يقال فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على فارس بعد الغلب وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة ثم سارت جنوده بحرا حتى أرست على طرابزون وتعاهد مع الخزر وأغار على خسرو أبرويز حتى كاد أن يتغلب على حدود مملكته وبدد شمل التتار المعاهدين للفرس وهزمهم بعد ذلك قرب القسطنطينية وفى تلك الاثناء كان قائده المدعو بونوس يقاتل القبائل

المتبربرة لردهم عن القسطنطينية فتمكن من مراده ومع هذا فقد أصاب الدولة بعد ذلك ضعف عظيم جلبه عليها أمراؤها (٦٣٢ - ٦٤١ م) وصار هرقل لا يهتم الا بالمجادلات الدينية تاركا أعمال الدولة لوزرائه وربما التمسنا له فى ذلك عذرا لانه لما رأى ان تلك المجادلات هى السبب فى اضعاف الدولة أراد أن يجعل لذلك حدا نهائيا بحيث يلزم بتداخله كل طائفة بالتمسك بمعتقداتها ويزيل من صدورهم غل الشحناء التى مضى عليها زمن طويل

وقبل هذا العصر بقليل بعث النبي عليه أفضل الصلاة وأتم السلام الى كافة الخلق بشيرا ونذيرا وأخذ شأن الاسلام ينمو بالتدريج حتى تمكن رجاله من تهديد دولة الروم هذه لانه سنة (٦٣٢ م) ساق أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشا اسلاميا تحت قيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم فافتتحوا كثيرا من مدن سوريا وغيرها بعد أن هزموا جيوش الروم فى عدة وقائع شهيرة ثم افتتحوا دمشق (٦٣٢ م) ثم أورشليم (٦٣٧ م) واستولوا أيضا على بلاد ميزوبوتاميا وسوريا وفلسطين ومصر وكانت كلها تابعة للروم كما لا يخفى وهرقل هذا هو الذى أرسل له النبي عليه الصلاة والسلام مكتوبا [1] يدعوه فيه الى الاسلام كما أرسل الى كثير من الامراء والسلاطين

وبينما كان العرب يمزقون احشاء الدولة الرومانية جهة المشرق كما وعدهم النبي عليه الصلاة والسلام قام على ضفاف الطونة عدة ممالك صقلبية ولم يمض الا القليل حتى خرجوا على الدولة وخلعوا كل سلطة لها عليهم ثم مات هرقل سنة (٦٤١ م) وترك ولدين هرقل قسطنطين وهرقليوناس وبعد موته قام ابنه هرقل الثانى ولم يحكم الا بضعة أشهر وكان أشرك معه فى الحكم أخاه لابيه هرقليوناس ولما علم أن أباه كان أودع أموالا عظيمة عند بيروس بطريرك القسطنطينية وأوصاه بأن يسلم هذه الاموال الى الملكة مارتين أم أخيه هرقليوناس فيما اذا انتابتها مصيبة استولى على هذه الاموال التى كانت سبب موته لان مارتين لما علمت بذلك دست له السم

وقام بالامر بعده هرقليوس قسطنطين الثالث ولم يحكم الا ثلاثة شهور ومات سنة (٦٤١ م) ثم قام بالامر من بعده هرقليوناس بن مارتين وأشرك أخاه هرقليوس قسطنطين معه فى الحكم لان سنه لم يكن يتجاوز ١٥ سنة ولما مات أخوه مسموما كما تقدم استقل هو بالحكم منفردا وكان مكروها لدى الرعية لسوء تصرفه ثم خرج عليه قوم وأنزلوه من على التخت وجدعوا انفه ونفوه فمات فى منفاه ولم يحكم الا بضعة شهور (٦٤١ م)

---

(١) أما صورة المكتوب فهى كما نقلها مؤرخوا الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى قيصر ملك الروم سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ويشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فأسلم تسلم فانى رسوله الى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون فان أبيت فعليك اثم الاكارين اهـ وكان جواب قيصر الروم عليه كما يأتى

من قيصر ملك الروم لاحمد رسول الله الذى آمن به عيسى بن مريم أنه أحمد قد جاء فى كتابك مع رسولك وأنا أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا مكتوبا فى الانجيل بشر بك عيسى بن مريم وانى دعوت الروم ليؤمنوا بك فأبوا ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ووددت انى آتى عندك فخدمتك وغسلت قدميك والسلام اهـ

ثم نصبوا من بعده قسطنطين الثانى (٦٤١ - ٦٦٨ م) وهو ابن هرقل الثانى وفى زمنه أغارت جيوش العرب على كثير من مدنه باسيا فافتتحوها واستولوا بما صار لهم اذذاك من الاساطيل الحربية على جزيرتى قبرس ورودس وذلك فى خلافة سيدنا معاوية رضى الله عنه وكسر أيضا اللومبارديون جيوشه بايطاليا ولما احتاطته الرزايا وحفت به البلايا خرج من القسطنطينية والتجأ الى جزيرة صقلية وهناك أخذ يجمع الاموال من الناس ظلما وبكل قساوة بدعوى تجهيز الجنود على العرب فكرهته الاهالى وتآمروا عليه وقتلوه وهو فى الحمام بمدينة سرقوسه بعد ان حكم نحو ٢٧ سنة وكان بينه وبين البابا عداوة شديدة

ثم قام بالامر من بعده قسطنطين الرابع بوغوناتس (٦٦٨ - ٦٨٥ م) وفى مدته حاصر المسلمون القسطنطينية بحرا ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لان النيران الاغريقية التى كان يستعملها الروم اذ ذاك وكانت سرا مصونا لا يعلمها سواهم أضرت بسفن المسلمين ضررا بليغا وأحرقت منها عدة وفى تلك الوقائع مات أبو أيوب الانصارى رضى الله عنه وكان من المجاهدين فدفن خارج السور وشيدوا له قبرا ثم بنى عليه سلاطين آل عثمان مسجدا فاخرا لايزال للآن من المزارات المشهورة

وقام بعده ولده يوستيناوس الثانى (٦٨٥ - ٧١١ م) ويلقب دينوتميت أى الاجدع وفى سنة (٦٩٤ م) خرج عليه رعاياه فقبضوا عليه وجدعوا أنفه ونفوه الى بلاد القريم فبقى فى منفاه عشر سنوات تغلب فى أثنائها على المملكة اثنان من القواد وهما ليونتيوس وطيباريوس السيماريوس ثم ان ملك البلغار المدعو تربيليوس ساعده بعد ذلك وأجلسه على التخت ثانية (٧٠٥ م) ولم يلبث ان أساء السيرة فقتلوه (٧١١ م)

وقام بالامر من بعده فيليبكوس بارداس (٧١١ - ٧١٣ م) وهو أرمنى الاصل وكان خدم ملوك القسطنطينية وترقى الى وظائف سامية وكان أكد له بعض المنجمين بصعوده على التخت فاتفق ان فرط منه قول ذلك مرة فنفاه طباريوس الثالث المتقدم (٧٠١ م) الى جزيرة ساموس ثم نفاه أيضا يوستينياوس الثانى ثانية سنة (٧١٠ م) الى مدينة خرسون ببلاد القريم وهناك انضم عليه بعض الثوار ونادوا به ملكا ثم نظم جيشا ودخل به القسطنطينية فلم يقاومه أحد أصلا (٧١١ م) وكان حاد الطباع غشوما كثير الرذائل فلهذا كرهته الرعية فتآمروا عليه وخلعوه وفقأوا عينيه ونفوه فمات فى منفاه وكان له يد فى قتل الامبراطور يوستينياوس الثانى (٧١٣ م)

وقام بعده أنستاثيوس الثانى (٧١٣ - ٧١٩ م) وكان كاتب سر الامبراطور فيليبكوس الذى عند موته صارت الدولة بلا رئيس ولما كانت الامة تعهد فى انستاثيوس الصلاح والفضائل والمعارف الملكية والعسكرية انتخبوه امبراطورا وكان أول شئ ابتدأ به تنظيم الادارة تنظيما موافقا وأعاد نظام بعض فرق عسكرية وقاوم جيوش الاسلام فى بعض وقائع وان لم يمكنه ان يتغلب عليها وقد نظم مالية البلاد تنظيما حسنا ومع ذلك اضطر للتنازل عن التاج لخصمه

تيودوثيوس

تيودوثيوس الثالث واعتزل الامور الدنيوية ومكث فى دير بمدينة سلانيك (٧١٥ م) ثم سعى فيما بعد بمساعدة البلغار لان يجلس على التخت مكان ليون ايسوريانوس الان الزمن لم يساعده فقبض عليه بعض الخونة وسلموه الى ليون فى مقابلة مال وعدهم به فقطع رأسه (٧١٩ م)

وقام بالامر بعده تيودوثيوس الثالث المذكور (٧١٥ - ٧١٧ م) وكان قبل ارتقائه الى منصب الامبراطورية جابيا للخراج ببعض الاقاليم وقد نصبه الجيش ونادى باسمه امبراطورا وكان توقف فى أول الامر عن قبول هذا المركز فلم يقبلوا منه ثم اضطر انستاثيوس للتنازل له عن التاج كما تقدم وبعدها بقليل ترك المنصب هو أيضا حينما عارضه ليون الثالث وعاش مع الرهبان (٧١٧ م)

﴿ الفصل الرابع ﴾

المدة الثالثة

(٧١٧ - ٨٦٧ م)

تمتد هذه المدة من صعود العائلة الايسوريانية على التخت بجلوس ليون الثالث الى سنة (٨٦٧ م) حيث تغلبت العائلة المقدونية بجلوس الامبراطور باسيلوس الاول وملوك هذه المدة هم ليون اولاون الثالث (٧١٧ - ٧٤١ م) الايسورى وهو ابن رجل كان يصنع النعال وكان هو يتجر فى الحيوانات فى شبيبته ثم التف عليه بعض الاشقياء وأفهموه انه يمكنه ان ينال الدولة لانه قد نالها كثيرون مثله بل أقل منه ولهذا انتظم فى الجيش لينال الرتب الرفيعة التى تكون فيما بعد أعظم وسيلة لادراك مرغوبه وصار يترقى بالتدريج لما اشتهر به من الاقدام والجراءة الى ان انتخبوه أمبراطورا بعد عزل تيودوثيوس الثالث وقد رد هجوم العرب عن القسطنطينية حين اغارتهم عليها وكان هذا الملك لا يرضى بوجود الصور والتماثيل فى الكنائس والمعابد فلهذا أمر بتكسيرها جميعها وأصدر بذلك أمرا أحدث عنه هرج بعموم الدولة وكان ذلك أصل القوة الدنيوية التى حازها الباباوات لان الرومان لما غضبوا من اهانته رموز ديانتهم لهذا القدر عصوا أوامره وطردوا ضباطه وتحالفوا على حماية كرسى الباباوات وهموا أيضا بانتخاب امبراطور آخر فمانع البابا غرغوار الثانى فى ذلك وجهز لاون أسطولا قويا لافتتاح ايتاليا ومعاقبة رومية فلم يتم له ما قصد لتشتيت الزوابع شمل سفنه وكان ظهور هذا المذهب وهو مذهب تكسير الصور سببا لحصول عدة فتن لان بعض الملوك كان يؤيده ويجتهد فى تعميمه والبعض يمانعه ويجتهد فى محوه

ومن بعده قام قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) وكان على مذهب أبيه فى كراهة الصور وكان يكره الرهبان ويكرهونه ولهذا اقفل عدة من الاديرة بدعوى أن سكانها كسالى مفسدون واستخلص من العرب قسما من بلاد سوريا وأرمينيا وألف لهم أسطولا أمام قبرس ومات بينما كان يحارب البلغار الذين كانوا لا ينفكون عن النهب والسلب فى أرض الامبراطورية

ومن بعده جلس ابنه ليون الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠ م) وكان جده من خانات خوارزم وكان على مذهب والده وجده أيضا من كراهة الصور حتى انه لم يحترم زوجته ايرينى بل نفاها لكونه رآها تحفظ بعض الصور المقدسة عند النصارى

وقام من بعده ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٢ م) تحت وصاية امه ايرينى ولما رأت منه انه يسعى فى التخلص من وصايتها والاستقلال بالحكم ارتكبت أمرا وحشيا وذلك بأن قلعت عينيه لتبقى لها الوصاية والنفوذ عليه فمات بعد قليل

وقام بالامر من بعده أخوه نيقفور لوغوتيت (٧٩٢ - ٨١١ م) وكان قبل ان يتولى المنصب الملوكى بوظيفة حافظ للخاتم الملوكى ومن أعماله نفى الملكة ايرينى الى جزيرة ليسبوص وفقأ عينى بردان خصمه وقد عقد مع شارلمان معاهدة لتحديد تخوم الدولتين وهو الذى قاتله هرون الرشيد الخليفة العباسى وانتصر عليه انتصارا باهرا وألزمه بحمل خراج سنوى اليه وغير ذلك من الشروط لانه كان كتب مكتوبا قاسيا الى الخليفة يقول له فيه من نيقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى (يريد ايرينى) اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها والا فالسيف بيننا وبينك اه فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب على ظهر الجواب بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نيقفور كلب الروم وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه اه

قال أبو الفداء فى تاريخه ثم سار الرشيد من يومه حتى نزل على هرقلة (١) ففتح وغنم وخرب فسأله نيقفور المصالحة على خراج يحمله له كل سنة فاجابه (٨٠٦ م) ثم ان البلغار كبسوا نيقفور وهزموه وقتلوه فى الحرب (٨١١ م) وكان على مذهب سابقيه من كراهة الصور

وقام بالامر بعده ميخائيل الاول (٨١١ - ٨١٣ م) وكان صهر نيقفور المذكور وقد اتصف بحسن السلوك فى جميع الوظائف التى تولاها قبل أن جلس على تخت المملكة وبذلك مال اليه الاهالى وأحبوه ولما مات نيقفور فى السنة المذكورة اتفق الشعب وكبراؤه على تنصيب ميخائيل هذا فكان من أوائل أعماله أن أحسن الى نساء وأطفال الجنود العديدة التى مات رجالها وأبناؤها أو أقاربها فى الحروب بين اليونان والعرب أو بينهم وبين البلغار ولطف غضب أصحاب المذهب القائلين بتكسير الصور لانهم مدة نيقفور كانوا اضطهدوا الارثودكس اضطهادا شديدا سالت فيه الدماء وبعد ذلك أغار البلغار على بعض جهات الدولة فلما حاربهم هزموه هزيمة منكرة ثم اقتضى الحال لحضوره الى القسطنطينية لظهور بعض الثورات فسلم قيادة الجنود الى ليون أو لاون الارمنى الذى انتهز تلك الفرصة فى القبض على زمام السلطنة بمساعدة من معه من الجنود (٨١٣ م) ونفى ميخائيل الى جزيرة بروتى حيث ترهب وعاش بها الى سنة (٨٤٦ م) ثم لما ترأس لاون على

(١) مدينة قديمة من آسيا الصغرى كانت فى أواخر الدولة الرومانية قبل تأسيس القسطنطينية قاعدة لارشية بلاد تراس وتسمى الآن ابركلى اه

الجنود

الجنود كما تقدم قادها أحسن قيادة وانتصر بها على البلغار فنادوا به امبراطورا مكان ميخائيل المتقدم (٨١٣ - ٨٢٠ م) ثم أغار على البلغار فنكل بهم أيضا وبعدها أساء السيرة نحو أقاربه باضطهاد القائلين بعدم تكسير الصور من الكنائس فكرهه الناس وانحرفوا عنه الى أن ذبحوه (٨٢٠ م) بكنيسة اجياصوفيا وكان رئيس تلك المؤامرة ميخائيل الالثغ الذى جلس مكانه

وقبض على الاحكام بعده ميخائيل الثانى الالثغ (٨٢٠ - ٨٢٩ م) وكان محبوبا عند ليون المتقدم وقبل ان يجلس على التخت كان مسجونا لان الامبراطور لاون كان اتهمه بالمؤامرة ولما مات خرج من سجنه وساعدته المقادير الى أن جلس على التخت وكان كسابقيه من الحزب الذى يكره الصور والتماثيل وفى زمنه افتتح منه بنو الاغالب جزيرة صقلية وكلابره وغيرها وافتتح الاندلسيون جزيرة اقريطش وفى آخر حياته انكب على الملاهى والملاذ وأفرط منها فعاجلته المنون (٨٢٩ م)

ثم قال بعده ابنه طوفيل (ثيوفيلوس) (٨٢٩ - ٨٤٢ م) وتتبع أثر كل من كانت له يد فى قتل أبيه فقبض عليهم ونكل بهم تنكيلا وأظهر الحقد الشديد ضد تعظيم التماثيل والصور وقضى حياته تقريبا فى حروب مع المعتصم الخليفة العباسى ومن أشهر تلك الحروب واقعة سنة ٢٢٣ هجرية (٨٣٧ م) اذ خرج طوفيل فى جمع عظيم حتى بلغ زِبَطْرة (١) وقتل وسبى ومثل بمن وقع فى يده من المسلمين ولما بلغ المعتصم ذلك وأن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى الروم وامعتصماه استعظمه ونهض من وقته وجمع العساكر وسار فى تلك السنة وبلغه ان عَمُّورِيَة (٢) مولد طوفيل أشرف عندهم من القسطنطينية وانه لم يتعرض أحد اليها منذ كان الاسلام وتجهز المعتصم جهازا لم يعهد قبله مثله من السلاح وحياض الادم وغير ذلك وسار المعتصم حتى نزل على نهر قريب من البحر بينه وبين طرسوس يوم وجعل عسكره ثلاث فرق فرقة مع الافشين حيدر بن كاوس ميمنة وفرقة مع اشناس ميسرة وفرقة مع المعتصم فى القلب وبين كل فرقة فرسخان وأمرهم المعتصم باحراق القرى وتخريب بلاد الروم ففعلوا ذلك حتى وصلوا الى عمورية فاول من قدمها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين فاحدقوا بها وكان نزوله عليها السنة خلون من رمضان من هذه السنة وأقام عليها المنجنيقات وجرى بين المسلمين والروم قتال شديد يطول شرحه وآخره أن المسلمين خربوا فى السور مواضع بالمنجنيق وهجموا البلد وقتلوا أهله ونهبوا الاموال والنساء وأقبل الناس بالسبى والاسرى الى المعتصم من كل جهة وأمر بعمورية فهدمت وأحرقت وكان مقامه على عمورية خمسة وخمسين يوما وفى ذلك امتدح أبو تمام المعتصم بقصيدته التى مطلعها

السيف أصدق انباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

---

١ زبطرة بلدة فى تركية آسيا بين ملاطية وسميساط وذكر ابن الاثير فى حوادث (١٢٥ ﻫ) وفيها خرج الروم الى زبطرة وهو حصن قديم كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهرى فاخربته الروم الآن فبنى بناء غير محكم فعاد الروم وأخربوه أيام مروان بن محمد الحمار ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال فلما كانت خلافة المأمون طرقه الروم فشعثوه فأمر المأمون بترميمه وتحصينه ثم قصده الروم أيام المعتصم (٢٢٣ ﻫ)

(٢) عمورية هى مدينة بروسة الشهيرة قصبة ولاية خداوند كار الآن كما قاله ابن دحلان فى الفتوحات الاسلامية ولكن نظن انها ليست هى بل انها بلدة أموريوم القديمة المسماة الآن سورى حصار وهو الاقرب لان لفظة عمورية هى بلاشك تعريب لفظة أموريوم

ثم ارتحل راجعا ولما بلغ ذلك طيوفيل وانثليس فى مقدرته منعه مات غماسنة ٨٤٢ م وسبب اغارة طيوفيل على بلاد الاسلام وايقاعه باهل زبطرة ان بابك الخرمى وهو صاحب بدعة ورئيس طائفة تعرف بالجاويدانية أو البابكية أو السبعية وهم من الاسماعيلية لما ضيق الافشين قائد المعتصم عليه وأشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم يعلمه ان المعتصم قد وجه عساكره ومقاتلته اليه ولم يبق على بابه أحد فان أردت الخروج عليه فليس فى وجهك أحد يمنعك فخرج طيوفيل فى أكثر من مائة ألف مقاتل فصنع به المعتصم ما ذكر

وقام بأمر المملكة بعده ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير (٨٤٢ – ٨٦٧ م) تحت وصاية امه وكان عمه المدعو برداس قد استولى على عقله وحرضه على اضطهاد أمه تيودورا ففعل ثم بعد ذلك بقليل خنق الامبراطور عليه وقتله وفى سنة ٨٦٦ م أغارت الروس على الدولة وهمت بمحاصرة القسطنطينية فاضطر ميخائيل لرد غارتهم ثم تآمر عليه باسيل المقدونى الذى كان أشركه ميخائيل معه فى المملكة وقتله ليجلس مكانه وفى زمنه انشقت الكنيسة الاغريقية عن الكنيسة اللاتينية (٨٥٢ م) وبه انتهت ملوك المدة الثالثة

(الفصل الخامس)

المدة الرابعة

(٨٥٢ – ١٠٥٦ م)

هذه المدة تبتدئ بصعود العائلة المقدونية على التخت وتنتهى سنة (١٠٥٦ م) بصعود عائلة كومنين على التخت وملوكها هم

باسيل الاول المقدونى (٨٦٧ – ٨٧٨ م) وهو من عائلة فقيرة وكانت له حظوة عند الامبراطور ميخائيل الثالث لمهارته فى سياسة الخيل ولما رأى ميخائيل منه نباهة وإقداما أشركه معه فى الحكومة (٨٦٦ م) اعترافا بفضله من كونه نجاه من عدوه برداس ولما علم باسيل ان ميخائيل يسعى فى هلاكه سعى هو سرا حتى قتله وقبض بمفرده على زمام السلطنة فاحسن الادارة وأصلح بعض الاحوال واطفأ الفتن الدينية واسترد قيسارية من المسلمين وانتصر على الاغالبة أيضا فى صقلية ومنعهم من دخول أقليم دالماسيا وراغوزه وانتشرت فى زمنه العدالة بما سنه من القوانين والنظامات فذاق الناس لذة العدل ثم مات (٨٧٨ م)

وقام بعده ابنه ليون اولاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٧٨ – ٩١١ م) ولما جلس على التخت طرد البطريرك فوتيوس وكان من أعدائه ثم أراد محاربة المجر والبلغار والمسلمين فلم ينجح فى واقعة منها بل ارتد مقهورا وكان طلب من الاتراك أن يساعدوه على بنى العباس فاتخذ الاتراك هذا الطلب فرصة وسيروا اسطولا افتتح جزيرة ساموس واستولى أيضا دوقات لومبارديا

على

على أعظم قسم كان باقيا للدولة الشرقية فى ايتاليا وافتتحت أساطيل بنى الاغلب مدينة سالونيك ولم يستقروا فيها طويلا لان سفن البنادقة طردتهم منها ومع كل هذه الحوادث وهذا الضعف تمكن من رد أساطيل الروسيا لما أرادت اجتياز البوسفور وهى أول مرة هاجم الروس فيها القسطنطينية وعقد مع أوليغ كبيرهم معاهدة (٩١١ م) أما سبب تسميته بالفيلسوف فلانه كان يميل لاهل الفضل والعلم ويحث على اقتناء المعارف التى هو كان عارفا بها أيضا وقد نشر مجموع القوانين المسماة باسيليك وكان أبوه شرع فى جمعها وتقنينها وكان اليونان يسيرون بموجبها حتى افتتح المسلمون القسطنطينية وله من الاعمال غير ما ذكر

وقام بالامر بعده أخوه اسكندر ولم يحكم الا سنة واحدة وعمل أعمالا عادت بالوبال على مملكته ثم أنزلوه لارتكابه رذائل وقبائح وكان مشاركا له فى الحكم أخوه قسطنطين السابع تحت وصاية أمه وبعده اشترك مع قسطنطين المذكور رومانوس ليكابينوس بارادة أمه وكان قبل ارتقائه أمير البحر مدة قسطنطين السابع وبعد نفى رومانوس أشرك الامبراطور قسطنطين المذكور على التعاقب معه أولاده الثلاثة وهم خريستوف وانياوس وقسطنطين الثامن ثم جرد على البلغار الذين كانوا ضايقوا دولته ولم يتمكن من طردهم الا بأن زوج حفيدته الى بطرس ملك البلغار (٩٢٧ م) وفى زمنه أيضا أغار المجر والروس على الدولة وخربوا وسلبوا وقد تمكن مرة من احراق الدونانمة الروسية بالنيران الاغريقية ثم تآمر عليه ولداه ابتين وقسطنطين ونفياه الى دير (٩٤٥ م) حيث مات به (٩٤٨ م) أما قسطنطين الثامن فانهم نفوه الى جزيرة تنيدوس ثم الى سيموتراكى ولما أراد أن يفر منها قبض عليه وقتل (٩٥٩ م)

وقام بالامر من بعده رومانوس الثانى وهو حفيد المتقدم (٩٥٩ - ٩٦٣ م) وكان دس السم لابيه ليقتله ويجلس مكانه ولما جلس التفت الى الملاهى والملاذ تاركا أشغال الدولة وأخرج أمه واخواته من القصر الملوكى ولم يعطهم شيأ يتعيشون منه ويقال ان الحالة التى وصلن اليها من الفاقة كانت سببا فى ارتكابهن الفاحشة وفى زمنه استولى قائده نيقفور فوكاس على جزيرة اقريطش من المسلمين (٩٦١ م) ثم تمكنت أمه من أن تدس له السم فمات (٩٦٣ م)

ومن بعده جلس على التخت نيقفور الثانى فوكاس المذكور (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وكان يتصف بالاقدام وجميع الصفات العسكرية وكان يتولى قيادة عموم الجيوش أثناء صغر سن أولاد رومانوس الثانى وقد استرد من الاسلام بلاد كيليكيا وبعض سوريا وقبرس الا أنه أغضب رعاياه بما فرضه عليهم من الضرائب وكان تقدم مرة يريد الاغارة على العرب بصقلية فقابلوا اسطولهم وهزموه شر هزيمة ثم ان أحد قواده المسمى يوحنا ذيميس تآمر عليه وقتله (٩٦٩ م)

وقام من بعده يوحنا الاول المذكور (٩٦٩ - ٩٧٦ م) الملقب ذيميس أى الصغير ومن أعماله انه حارب الروس وأخذ منهم بلاد البلغار ثم تقدم الى سوريا بالامداد لجنوده حيث كانوا هزموا (٩٧٢ م) واسترد بلاد فلسطين ما عدا مدينة أورشليم ومع ذلك فلم تبق فلسطين فى قبضته غير أيام قليلة ومات ببلاد كيليكيا أثناء رجوعه وقد اتهموا الخصى باسيليوس بدسه السم له (٩٧٦ م)

وقام بعده باسيلوس الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) وهو ابن رومانوس الثاني وكان يحكم بالمشاركة مع أخيه قسطنطين وفي أول الامر كان قسطنطين المذكور ضعيفا جامد القريحة منهمكا على الملاذ بخلاف أخيه الذي انتصر في حروبه مع البلغار وأهل خوارزم (١٠١٦ م) وضم بلاد البلغار الى الدولة اليونانية وأسر من البلغار ١٥٫٠٠٠ أسير وقد ارتكب في حقهم أشد الفظائع حيث انه أمر فقلعت عيونهم جميعا الا واحدا في المائة يكون دليلا يقود الآخرين الى بلادهم ثم مات (١٠٢٥ م) بينما كان يستعد لمحاربة الاسلام وحكم خمسين سنة

وقام من بعده أخوه قسطنطين التاسع (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م) ولما كان ضعيف العزيمة منكبا على الشهوات ثارت الامة عليه ولم يحكم الا بعض سنوات بعد موت أخيه (١٠٢٨ م) وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر

وخلفه رومانوس الثالث ارجير (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م) وكان من الاغنياء وعضوا من مجلس الشيوخ انتخبه قسطنطين التاسع لان يكون خليفته وصهره وفي أول أيامه أظهر الجدارة بالمنصب من حيث انه أحسن السيرة ثم حارب الاتراك فانتصروا عليه عدة مرات وهزموا جيوشه سنة (١٠٣٠ م) فاستولت عليه الاحزان ثم أساء السيرة وأظهر الغلظة والشدة على رعاياه كأنه يريد أن ينتقم منهم على ما حل به من الهزيمة امام الاتراك ثم ان زوجته الاميرة زوا تعشقت ميخائيل بلافلاغونيان أمين أموال الحكومة وصممت على تنصيبه ملكا وأخذت تسير في هذا الطريق فدست السم الى زوجها لكنها لما رأت ان فعل السم بطيء قبضت عليه وهو في الحمام وخنقته

وقام بعده ميخائيل الرابع المتقدم الذكر وكان قبل ذلك يتعاطى حرفة الصرافة (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) ولما كانت الامبراطورة زوا تحبه اتخذته وسيلة لتتخلص به من الامبراطور زوجها فأجلسته على التخت الا انه كان ضعيف العزيمة ولهذا ترك الاعمال يديرها الخصي يوحنا أخوه وقد انتصر هذا الامبراطور على المسلمين والبلغار بعض نصرات ثم استولت عليه الاحزان وأخذته سريرته بما ارتكبه من قبيح الاعمال فاعتزل الملك وأقام بدير الى أن مات سنة (١٠٤١ م)

وخلفه ميخائيل الخامس القلافطي (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) ولما جلس على التخت وأخذ يدير الاعمال داخله الخوف من مكايد الامبراطورة زوا فنفاها الا أن الامة قامت عليه ثم قبض عليه وسملت عيناه وحبسوه في دير

وقام بعده قسطنطين العاشر الملقب بالمصارع جلس على التخت بمساعي زوا المذكورة (١٠٤٢ - ١٠٥٦ م) ولما كان لا يهمه الا الانصباب على الملاهي ترك الاعمال يتصرف فيها العمال والنواب كما يرغبون فعظم شأن السلاجقة [1] واستولوا على كثير من أرض الدولة الرومانية وليس له من الاعمال شيء يذكر وفي زمنه انفصلت الكنيسة اللاتينية عن الارثوذكسية انفصالا تاما

(١) دولة السلاجقة من أقوى دول الاسلام نشأت في عهد بني العباس وسيأتي الكلام عليها في أول تاريخ الدولة العثمانية

الفصل السادس

المدة الخامسة

(١٠٥٦ - ١٢٠٤ م)

هذه المدة تمتد من جلوس اسحق الاول كومانينوس على سرير الدولة الى سقوط الدولة الاغريقية الاولى واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية (١٢٠٤ م) اما ملوكها فهم

اسحق الاول كومانينوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩ م) وكان ابن أحد الحكام ولما يكن أهلا للحكم لضعفه تنازل الى قسطنطين دوكاس بعد أن حكم قليلا ثم دخل أحد الاديرة زهدا وأقام به الى أن مات سنة (١٠٦١ م)

وجلس قسطنطين دوكاس الحادي عشر المذكور (١٠٥٩ - ١٠٦٧ م) وكان من صفاته الاقدام وطهارة الاخلاق الا انه كان ينقصه الاستعداد لما تولى المملكة التي كانت في غاية من الضعف والانحطاط وفي حكمه أغارت القبائل السيتية على الدولة وخربت بعض جهاتها ولم يوقف تقدمها الا ظهور الطاعون بينهم واستولى النورمانديون تماما على جهات كلابريا وامتد نفوذ الدولة السلجوقية التي كانت آخذة في الارتقاء وزيادة النفوذ بمساعي سلاطينها او وزرائها الذين كانوا يؤدون النصيحة في الخدمة كما تفرضه عليهم الواجبات الدينية والملية ولما مات قسطنطين المذكور ترك الدولة لاولاده الثلاثة ومنع زوجته الزواج من بعده في وصيته

وقام بالامر من بعده رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ - ١٠٦٩م) وهو صهر رومانوس الثالث وكان حكم عليه بالموت لكونه تآمر على الامبراطور السابق فرأته الملكة اوديكسيا فعشقته ومالت اليه ثم تزوجته غير ملتفتة لليمين الذي أقسمته بين يدي زوجها قسطنطين الحادي عشر عند موته من أنها لا تتزوج من بعده وفي زمنه قامت الحرب بينه وبين السلجوقيين وكانت في أولها سجالا ثم انه وقع بينه وبينهم واقعة نهائية (١٠٦٩ م) دارت فيها الدائرة على عسكر الروم ووقع رومانوس أسيرا في يد ألب أرسلان الذي عامله بالرفق والشفقة كما تقتضيه مكارم الملوك ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق بأن لا يقيم في وجهه سلاحا وفي أثناء غيابه خرج سكان القسطنطينية عن طاعته ونادوا بميخائيل السابع بن أودوكسيا ملكا ولما أتى رومانوس سعى بكل ما يقدر عليه في استرداد التاج فلم يوفق في عمله الى أن وقع أسيرا في يد ميخائيل الذي قلع عينيه وسجنه فمات في سجنه بعد أيام قليلة

وقام بعده ميخائيل السابع دوكاس (١٠٦٩ - ١٠٧٨ م) وكان تنصيبه امبراطورا بالقسطنطينية في نفس السنة التي تولى فيها سلفه لانه عند ذهابه الى الحرب مع السلجوقيين عصت عليه الاهالي وانتخبوا ميخائيل هذا ونادوا به ملكا كما قلنا وكان ضعيف الرأي خاوي العزيمة تآمر عليه نيقوفوروبوتونياتس أحد قواده وخلعه من الملك وسجنه بأحد الاديرة ثم عينوه مطرانا لمدينة أفسوس وفي زمنه استظهر السلاجقة على أكثر آسيا الصغرى

وقام بعده نيقفوروبوتونياتس المتقدم الذكر (١٠٧٨ - ١٠٩٥ م) وفي تلك الاثناء

نادت الجنود بـبلاد يالمريا بنيقوفور برينوس امبراطورا ولما بلغ خبر ذلك الى الامبراطور القسطنطينى أرسل على عدوه جيشا تحت قيادة الكسيس كومينينوس فقبض عليه وقلع عينيه وأخذ فى تعذيبه الان هذا القائد بعد أن أدخل البلاد فى دائرة الطاعة رأى انه مهدد هو أيضا من بوتونياتس وان سيناله ما نال نيقفور برينوس من الجزاء فشق عصا الطاعة وانضمت اليه الجنود ونادوا به ملكا (١٠٨١ م) ثم انه أرسل نيقوفور برينوس الى أحد الاديرة ليقضى فيه ما بقى من أيامه

وجلس الكسيس كومينوس المذكور على التخت قوة واقتدارا (١٠٩٥-١١١٨ م) وهو ابن حنا كومينينوس أخى الامبراطور اسحق كومينينوس اختلس الملك من نيقوفور بوتونياتس المتقدم وانتصر على السلاجقة فى بعض وقائع خفيفة وقد قهر النورمانديون جيوشه وكانوا تحت قيادة ملكهم غيسكارد وقد اشتهرت أيام هذا الامبراطور لتعلقها بالحروب الصليبية التى كان من أسباب حصولها هذا الامبراطور حيث طلب من الدول الغربية مساعدته على المسلمين الذين كانوا استولوا على جميع أقاليم الدولة الرومانية تقريبا فأذن البابا أربانوس الثانى باقامة الحملة الصليبية الاولى

ولما شاهد جيوش الصليبيين تمر من وسط بلاده غير مراعية للحقوق الملية ولا الاحساسات الانسانية لم يراع نصوص المعاهدة المعقودة بينه و بينهم ورد جيوشه التى كان أمد بها الصليبيين لمحاصرة انطاكية ومع ذلك فانه افتدى النصارى الذين أسرهم السلاجقة فى الوقائع التى حصلت بينهم و بين الصليبيين اما فى الحملة الصليبية الثانية فكان الوفاق أكثر منه فى الحملة الاولى بينه و بين الصليبيين وكان من بنود المعاهدة ان يقوم الكسيس بتجهيز عدد معين من العساكر وكان للصليبيين حق المحافظة على الايالات التى يستخلصونها من يد الاسلام كاقطاعات من الامبراطورية ولكن لم يقم أحد الفريقين بما تعهد به للآخر وقد استرد هذا الامبراطور بمساعدة الفرنسيس مدينة نيقية وجميع الجزء الغربى من آسيا الصغرى ولما مات كتبت ابنته تاريخ حياته

وملك بعده يوحنا الثانى كومينوس (١١١٨ - ١١٤٣ م) وهو ابن الكسيس المتقدم وكان حصل بينه و بين أمه ايرينى بغضاء أزالته بسببها عن التخت وعينت ابنتها أنا مكانه ومع ذلك فقد تمكن من الجلوس على التخت ثانية بدون ان يريق لذلك نقطة دم ثم جهز الجنود وحارب الفرس فهزمهم وطردهم من بلاد فريجيا وأخرج السيتيين أيضا من بلاد تراس واسترد بعد ذلك قسما من آسيا الصغرى ومد حدوده الى بلاد سوريا وكان يتصف بالطيبة والشفقة لم يأمر مدة حكمه أصلا باعدام أحد وما بينما كان يتصيد

وخلفه ابنه مانويل كومينوس (١١٤٣ - ١١٨٠ م) وفى حكمه سنة (١١٤٧ م) غدر بالصليبيين الذين كانوا تحت قيادة كونراد ملك المانيا ولويس الشاب ملك فرانسا وساعد كثيرا باتحاده مع السلاجقة على خيبة مساعيهم فاغتاظ الصليبيون وأمراء النصرانية من ذلك حتى ان روجير ملك صقلية المحالف للصليبيين حمل على بلاده ودخل بلاد اليونان ونهب مدينة طيبة وكورنثه وكثيرا ما حارب هذا الامبراطور المجر والصرب وغيرهم من الامم العاصية وفى (١١٧٦ م) أوقع جيش السلاجقة بجيشه فأباده عن آخره با سيا الصغرى تحت قيادة السلطان عز الدين سلطان

قونيه ومع ذلك فانه تمكن بعد قليل من السنين من قهر السلطان عز الدين المذكور قريبا من نهر مياندر وكذا استولى على جزيرة قورفو انتقاما من روجير ملك صقلية لاغارته على بلاد اليونان وكانت وفاته سنة (١١٨٠ م) وكان ملكا محاربا الا انه فاسد الاخلاق قليل الصلاح

وقام بعده ابنه *الكسيس الثانى اندرونيكوس* (١١٨٠ – ١١٨٤ م) تولى المملكة وهو فى سن ١٢ سنة تحت وصاية والدته مارية التى أحدثت بما لها من سوء الاخلاق ثورة عليها فخلعوها من الوصاية ونصبوا مكانها اندرونيكوس كومينينوس فاجتهد فى تتويج هذا الامبراطور الشاب واشترك معه فى الحكم بأمره الا انه خنقه بعد ذلك بقليل (١١٨٤ م) وكان الكسيس المذكور متزوجا بامرأة فرنساوية وهى ابنة لويس السابع

وخلفه *اسحق الملقب بالملك* (١١٨٤ – ١٢٠٤ م) نادت به الامة امبراطورا وأجلسته على التخت فى نفس الوقت الذى كان اندرونيكوس أمر فيه بقتله ويرمى هذا الامبراطور بقبائحه الكثيرة وعدم لياقته لمنصب الملوكى ولهذا خلعه أخوه الكسيس وقلع عينيه وفى أيامه حاول ملك صقلية الاستظهار على الامبراطورية (١٢٠٣ م) فلم يفلح واسترجع البلغار ما كان لهم من الاستقلال

وجلس مكانه أخوه *الكسيس الثالث* المذكور الا أن الصليبين ساعدوا اسحق المتقدم وأجلسوه على التخت ثانية ومع ذلك فلم يمض عليه ستة شهور حتى خلعه أخوه ثانية وأمر به فقتل

وقام بالامر بعده *الكسيس الخامس دوكاس* الملقب مورزوفل أى كثيف الحواجب ولم يحكم غير بضعة شهور ثم خلعه الصليبيون لانه كان أشهر عليهم الحرب فاستولوا على القسطنطينية مرة ثانية (١٢٠٤ م) وانتخبوا مكانه بودوان قونت بلاد فلاندر وكان يقود جيش الصليبين ولما قبض بودوان على الكسيس أمر به فألقى من أعلى سارية بالقسطنطينية بسبب تآمره على سيده

وفى عهد الامبراطور بودوان (بلدوين) قسمت الاملاك الامبراطورية الاوروباوية الى أربعة أقسام أولها الاملاك الامبراطورية وهى تشمل ربع مدينة القسطنطينية (وأما الثلاثة الارباع الباقية فقسمت بين الفرنساويين والبندقيين والترافيين) وبعض قلاع على ساحل آسيا والجزائر القريبة من الدردنيل والسيادة على الولايات الخاصة بالامبراطورية وثانيها مملكة سلانيك وكانت تشمل مقدونيا وقسما من اغريقية وثالثها ساحل الاراضى الواقعة على بحرى الادرياتيك وايجى وقسم من موره وكثير من جزائر سيكلاده واسپوراده وجزيرة كريد وثغر بيونت وبلاد كليبولى وهذا القسم أعطى لجمهورية البنادقة ورابعها اقطاعات كثيرة أعطيت للفرسان الفرنساويين من أهمها دوقية أثينا وبيوتيا وامارة اخائية وموره

أما أملاك الامبراطورية بآسيا فكانت لا تزال بعد هذه القسمة قائمة بآسيا يحكمها تيودوروس لاسكاريس الذى انتخبه مجلس الاعيان بالقسطنطينية امبراطورا واتخذ مدينة نيقية عاصمة له وقامت امبراطورية طرابزون على الشواطئ الجنوبية الشرقية من البحر الاسود لان أميرين من عائلة كومانينوس وهما الكسيس وداود أعلنا استقلالهما عند سقوط الامبراطورية البوزانطية باستيلاء الصليبين عليها ولقب أحد خلفائهما نفسه امبراطورا

الفصل السابع

استيلاء الصليبيين على القسطنطينية

قبل ان ننتقل الى ذكر المدة السادسة وماجرياتها نرى من الضرورى ان نذكر أسماء وأعمال الفرنساويين الذين استولوا على القسطنطينية مدة الحروب الصليبية وان كانت جرت عادة المؤرخين عدم اعتبار تلك المدة البالغة نحو نصف قرن من تاريخ الدولة السفلى فنقول

ان أولهم بودوان الاول وكان قونتا بمقاطعة فلاندرا احدى مقاطعات فرانسا قديما ولما قامت الحروب الصليبية انضم اليها بجيشه مع غالب أمراء أوروبا ولما أتى القسطنطينية اذ كانت طريقه الى الشرق أجلس على تختها الكسيس الرابع بن اسحق الملك المعزول بعد أمور يطول شرحها ولما خلا تخت القسطنطينية من المستحق جلس هو على التخت وصار امبراطور الدولة الشرقية (١٢٠٤ م) فكان عمله هذا سببا فى ايغار صدور الاغريق عليه فاستغاثوا بملك البلغاريين المدعو يوانيس وقد كان يوانيس المذكور يتمنى ذلك لرغبته الزائدة للتداخل فى أمور القسطنطينية فأتى بجيش عظيم وهجم على بودوان بينما كان يحاصر مدينة أدرنه لعصيانها عليه فقهره وأخذه أسيرا ثم أمر بقتله بعد أن أذاقه من العذاب ألوانا (١٢٠٦ م) ومع ذلك فقد وقع الشك فى موته لانه بعد مضى نحو العشرين سنة على هذه الحادثة ظهر شخص ببلاد فلاندر مدعيا انه بودوان المذكور

ومن بعده قام على تخت القسطنطينية أخوه هنرى دوهينوت (١٢٠٦ - ١٢١٧ م) وذلك انه لما وقع بودوان أسيرا فى يد البلغار كما تقدم انتخب هنرى هذا نائبا عنه ثم استقل امبراطورا وبعد ان حارب البلغار وملوك الاغريق الذين بآسيا عدة محاربات انتصر فى أغلبها مات مسموما بينما كان يستعد للسير على ميخائيل طاغية بلاد الصرب (١٢١٧ م) وقد اشترك هذا الملك فى الحملة الصليبية الرابعة

ومن بعده جلس بطرس دوكورتينى وروبرت دوكورتينى (١٢١٧ - ١٢٢٨ م) بانتخاب الجنود الفرنساوية وبعد جلوس الاول منهما بقليل أسره تيودوروس أمير ابيروس بينما كان يحاصر مدينة دوراز ولتخلى البندقيين عنه ومات ماسورا سنة (١٢١٧ م) وبعد أسره استمرت زوجته يولاند تحكم بالنيابة عنه ثم بعد فترة أى بعد تحقق موته خلفه ابنه الاصغر روبرت دوكورتينى (١٢٢١ - ١٢٢٨ م) ولم يهتم بشؤن الدولة أصلا بل انكب على شهواته النفسانية حتى ان امبراطور نيقية المدعو ناسيوس استولى على أقاليم آسيا الصغرى وأخضع طاغية ابيروس مدينة ادرنه (١٢٢٤ م) ولما رأى ان رعيته غضت عنه الطرف ولم تبادر باسعافه هرب الى بلاد الغرب وسعى باطلا فى الحصول على مساعدة ولما لم ينجح عاد ومات فى موره وقام من بعده

بودوان الثانى (١٢٢٨ - ١٢٦١ م) وهو ابن بطرس دوكورتينى وكان عمره لا يتجاوز ١١ سنة ولهذا اقاموا له حنادوبريان وصيا لادارة الاحكام باسمه الى ان يبلغ رشده وفى عهده عقد

ملك

ملك البلغار المسمى أسان مع دوكاس فاناسيوس امبراطور نيقية محالفة وتهدد الامبراطورية اللاتينية بالدمار ثم وقع بين البلغار والاغريق عداوة أدت الى القتال فلم ينتهز بودوان المذكور تلك الفرصة لتقوية بلاده بل سافر عدة مرات الى أوروبا يطلب من أهلها رجالا وسلاحا ومالا للمساعدة الا ان ملوك أوروبا لم تلتفت اليه فارتبكت أموره وكانت النتيجة ان ميخائيل باليولوغوس امبراطور نيقية استولى على القسطنطينية (١٢٦١ م) وهرب بودوان المذكور الى ايطاليا حيث مات (١٢٦٣ م) وهو آخر امبراطور فرنساوى جلس على تخت القسطنطينية



الفصل الثامن

المدة السادسة

(١٢٦٣ - ١٤٥٢ م)

لما رجعت الدولة الى ملوك الاغريق باستيلاء ميخائيل المذكور على القسطنطينية جلس على تختها الملوك الآتية أسماؤهم وهم

ميخائيل الثامن باليولوغوس (١٢٦١ - ١٢٨٢ م) وعائلته من أشهر العائلات الشرقية وهو رأسها وكان قبل نائبا للدولة مدة صغر سن حنا السكريس امبراطور نيقية ثم أراد أن يستقل بالامر فمهد أسبابه وقلع عيني يوحنا السكريس المذكور كما جرت عادتهم بذلك ولما نجح فى الاستيلاء على القسطنطينية واستردها من بودوان الثانى كما تقدم نقل اليها عرش السلطنة وقام بعدة محاربات فى بلاد اليونان وبحر الارخبيل انتصر فى أغلبها وهادن الاتراك العثمانيين والبلغار وبذل كل مجهوداته فى ايجاد التوفيق والالتئام بين الكنيسة اليونانية والكنيسة الغربية لانفصالهما عن بعضهما تماما كما سبق القول وكان ذلك سببا فى حقد القساوسة والامة عليه ثم مات بينما كان يحارب أهل تراسه ولما كان أهل جنوه ساعدوا بسفنهم اغريق القسطنطينية مدة ميخائيل هذا على طرد اللاتنيين وارجاع الدولة لهم كافؤهم بامتيازات تجارية مهمة

وقام من بعده ابنه *اندرونيكوس الثانى* (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) وكان مشاركا لوالده ميخائيل المتقدم فى الحكومة قبل موته ولما جلس على التخت مستقلا ظهرت عليه علامات الارتباك فى الاعمال وعدم الاستعداد فى السياسة ففرق الكنيستين الاغريقية واللاتينية عن بعضهما وأثقل كاهل الامة بالضرائب التى فرضها عليهم لتجنيد الجنود من الكتلانيين لايقاف تقدم العثمانيين الذين كانوا يهددون أملاكه باسيا وقلل عيار النقود المتداولة وأضعف التجارة والصناعة جدا ثم تآمر عليه حفيده اندرونيك الثالث وخلعه (١٣٢٨ م) فذهب وأقام فى دير حتى مات (١٣٣٢ م)

وقام من بعده *اندرونيكوس الثالث باليولوغوس* الملقب بالشاب (١٣٢٨ - ١٣٤١ م) وهو ابن ميخائيل باليولوغوس وحفيد اندرونيكوس المتقدم ولما قتل أخاه خطأ أتى على رأس جيش طالبا أن يشركه جده فى الحكم ولما نال بغيته تغلب على جده وأبقاه داخل القصر وقبض هو على

زمام السلطة ولما كان العثمانيون لايزالون يفتتحون أملاكا بآسيا وغيرها ويهددون الدولة الشرقية بقرب الزوال ولاتتمكن جيوشها من الوقوف امامهم لانتظام جنود العثمانيين وتدربهم على القتال وشجاعتهم ومهارة قوادهم استغاث بملوك أوروبا وعقد لذلك محالفة مع كثير منهم أخصهم بالذكر ملك فرانسا فيليب وملك نابولى والبابا فلم يأت ذلك بفائدة وافتتح العثمانيون نيقية ونيقوميديه وأغاروا على سواحل أوروبا وقد اهتم هذا الامبراطور اهتماما أكيدا فى رفاهية أمته فقلل الضرائب وأزال غيرها مما كانت الامة تتضرر منه ومع ذلك فلم يتمكن من التغلب على الموانع التى كانت تعوق مقصوده فمات غما وحزنا (١٣٤١ م)

وخلفه ابنه يوحنا الخامس باليولوغوس (١٣٤١ - ١٣٩١ م) وكان اصغر سنه تحت وصاية امه ووصاية يوحنا كانتا كوزين ثم إن أعمال الامبراطورة اضطرت يوحنا كانتا كوزين المذكور للسعى فى القبض على السلطنة من غير مشاركة الامبراطورة فتمكن من ذلك مشاركا الامبراطور فى الحكومة وزوجه من ابنته ثم تنازل عن حق المشاركة (١٣٥٥ م) مضطرا ولما استقل يوحنا الخامس بالحكم منفردا حصلت بينه وبين أولاد كانتا كوزين عدة وقائع لسبب مدعياتهم الغير الحقة وكذلك حصل بينه وبين ابنه المدعو اندرونيكوس محاربات وبذلك افتتح العثمانيون أولا بعض أراضى باروبا فاستولوا على غليبولى (١٣٥٧ م) وفتح السلطان الغازى مراد ادرنه (١٣٦١ م) واتخذها عاصمة له فاستغاث يوحنا بالبابا طالبا مساعدته وعرض عليه اتحاد الكنيستين ومع ذلك فلم يفز بما كان يتمنى ثم استولى السلطان مراد على مقدونيا وقسم من البانيا ولهذا اضطر يوحنا حينئذ لان يوقع على معاهدة يعترف فيها بخضوعه للسلطان مراد متعهدا بدفع جزية سنوية ولما تولى السلطان بايزيد بعد مراد استولى على كثير من مدن آسيا ومع كل هذه المصائب التى أحاطت بالدولة الشرقية فى مدة هذا الامبراطور خصوصا يقال انه كان يميل الى اللهو والخلاعة لايهتم باصلاح دولته الا قليلا ثم مات بعد أن حكم زمنا طويلا

وقام بعده بالامر ابنه مانويل الثانى باليولوغوس (١٣٩١ - ١٤٢٥ م) وكان لما مات أبوه رهينة عند السلطان مراد يرافقه فى حروبه فهرب من بلاد السلطان عندما بلغه موت أبيه وبمجرد وصوله الى القسطنطينية نادوا به ملكا وفى زمنه حاصر السلطان بايزيد القسطنطينية غير انه اضطر لرفع الحصار عنها لحاربة المجر ولما عاد اليها بعد انتصاره عقد مع امبراطورها صلحا أملاه عليه ولم يحاصرها خوفا من حصول بعض حركات فى عمالكه (١٣٩٧ م) غير انه فى (١٤٠٠ م) حاصرها حصارا شديدا وضيق على سكانها وكاد يفتتحها الا ان اغارة تيمورلنك على السلطنة العثمانية اضطرت بايزيد الى الرجوع الى آسيا مسرعا فخرجت بذلك القسطنطينية من الضيق الى الفرج موقتا واسترد مانويل بعض ماخسره من البلدان منتهزا فرصة اشتغال أولاد السلطان بايزيد بالمنازعات طلبا للسلطنة وفى سنة (١٤٢٢ م) مدة حكم السلطان مراد الثانى ساق على القسطنطينية جيشا اعظيما واستعمل المدافع فى حصارها وكان ذلك أول استعمال المدافع فى الحروب ببلاد الشرق ولولا حصول نزاع بين أعضاء العائلة الملوكية العثمانية لما رجع عنها السلطان مراد الا بعد الفتح وقبل أن يرفع الحصار عنها عقد مع امبراطورها صلحا كان منه احداث

محلة خاصة بالمسلمين واقامة قاض مسلم ليحكم بين أهالى ملته وشيدبها جامعا وكان مانويل فى كل هذه الحوادث يستغيث باورو بابلا فائدة

ولما مات قام من بعده ابنه يوحنا السابع اوالثامن پاليولوغوس (١٤٢٥ - ١٤٤٨ م) ولما رأى ضعفه أمام العثمانيين كتب الى البابا يستنجده و يصف له حالته و يعرض عليه توحيد الكنيستين الشرقية والغربية بشرط أن البابا ينادى فى أمم أورو با بتجهيز حملة صليبية جديدة لمساعدته حتى ذهب بنفسه الى مجمع فلورانسه المعقود تحت رياسة البابا أوجانيوس الرابع وتوسل بذلك لاعضائه فنودى فى ذلك المجمع باتحاد الكنيستين الا أنه لم يحصل فى الشرق فملا وحصل سنة (١٤٤٤ م) أن السلطان مرادخان حاصر القسطنطينية وكانت هى الباقية فقط لملوك الدولة الشرقية ولما ضيق عليها الحصار تضرع اليه الامبراطور المذكور مجيبا كل مايسأله فانصرف السلطان عنه كرما منه وحلما بشرط أن يقوم بأداء الجزية كالمعتاد ولم تتمكن أورو با من اسعافه مع تحريض البابا لهم على ذلك لاشتغالهم بالفتن الداخلية ثم مات يوحنا المذكور من الغم الذى اعتراه من قرب سقوط مملكته وتشريق عائلته

وقام من بعده أخوه قسطنطين الثالث عشر دار كوسيس (١٤٤٨ - ١٤٥٣ م) وهو آخر امبراطور لهذه الدولة لان السلطان محمد الفاتح خامس سلاطين ال عثمان افتتح القسطنطينية فى عصره وكانت الدولة عند قعوده على تخت المملكة على شفا جرف هار ولم يبق لها الا القسطنطينية وقطعة صغيرة من الارض حولها وكان السكان لفساد أخلاقهم وتفشى الترف بين أمرائهم واستيلاء الفرنج على جنودهم ينظرون الى تقدم العثمانيين بلا كبير اهتمام

أما الامبراطور فانه استنجد بأمراء أورو با وأمير الكرج وكان تزوج بابنته فلم يجبه أحد الى مطلوبه وكان كل ماتحصل عليه من تلك التوسلات والتضرعات هو أن أحد أشراف الجنويزيين المدعو يوحنا يوستنيانى أنجده بنحو ألفى جندى من الجنويزيين والبنادقة وأربع سفن حربية وتمكن بذلك من الدخول الى القسطنطينية ويقال ان حرس القسطنطينية اذ ذاك كان لا يتجاوز اثنى عشر ألف جندى و زحف العثمانيون بجيش مؤلف من (٤٠٠,٠٠٠) مقاتل وكان بمدخل المينا سلسلة ضخمة من الحديد تمنع دخول سفن الهاجمين وتحميها قلاع ترمى بالنيران الاغريقية وغيرها من آلات الدفاع على كل من قرب منها ولما لم تتمكن السلطان محمد الفاتح من رفع تلك السلسلة أمر فصنعوا طريقا كسوه بالاخشاب ودهنوها بالشحم لسهولة الانزلاق وسحبوا عليها عدة أساطيل الى أن أنزلوها أمام القسطنطينية داخل المينا وهو عمل من أتعب وأعظم الأعمال التى وردت فى التاريخ وبعد حصار دام ٥٣ يوما سقطت القسطنطينية (١٤٥٣ م) ومات الامبراطور موت الابطال مدافعا عن السور وسيأتى كل ذلك مفصلا فى تاريخ العثمانيين

وكان لقسطنطين هذا أخوان وهما دمتريوس وتوماس بقيا بعد الفتح فى بلاد مورة فى حال استقلال الى ان خضعا مع باقى الامارات اللاتينية (١٤٦٠ م) وكذا سقطت دولة طرابزون (١٤٦١ م) وكان آخر ملوكها يدعى داود وبذلك زال مابقى من تلك الدولة الرومانية القديمة الجسيمة بعد أن مضى عليها (٢٢٠٦) من السنين بعد تأسيس رومية و (١٤٩٨) سنة بعد توطيد الدولة بمساعى قيصر

واذا ما بحثنا الآن عن درجة تأثير الدولة السفلى على أحوال الامم الحديثة وعلى ما كان لها من القوة فى ارتقاء العقل الانسانى لا نجد لها عملا أكبر من تشريع الشرائع التى سنها يوستينيانوس وجمعت فى عدة قوانين وصارت فيما بعد عبارة عن مجموع القوانين الرومانية وقد اعتبرت هذه القوانين أصلا لجميع الشرائع الوضعية تقريبا ولا تزال تدرس للآن بمدارس أوروبا ويمكن أن يضاف الى الفوائد التى عادت من الدولة الشرقية على بنى الانسان بعض الاختراعات أو التطبيقات الحديثة كجلب دود القز وتكثيره بالبلاد واتخاذ الانسجة منه وطواحين الهواء التى نقلت الى بقية أوروبا فى نهاية القرن الثانى عشر من الميلاد أما من خصوص النيران الاغريقية التى كانوا يستعملونها فقد فقدت فلا لزوم للكلام عليها ولم يشتهر بهذه الدولة فى علوم الادب الا تآليف عالمين من علمائها وهما سقراط وفوكاس أما من جهة البناء والعمارة فكان لهم فيه اليد الطولى حتى ان فن العمارة الغوطية مأخوذ عنه غير أن أعظم مجد للاغريق فى الازمنة الوسطى هو حفظهم لاهل أوروبا بعض المؤلفات المهمة من التآليف اليونانية القديمة ونقلهم أسرار لغة هوميروس ومنياندر وغيرهما ومن الثابت أن هذا اللسان وان اعتراه التبديل والتغيير وطرأ عليه الدخيل بين طبقات الامة الا أنه كان على نقاوته متكلما به بين الطبقات العالية ولما تشتت الاغريق بافتتاح القسطنطينية وغيرها نشروا بأوروبا لغتهم وأخذ كثير منهم يدرسها فى كثير من المدن العظيمة ولا ننسى انه نجم عن مجادلاتهم الدينية التى استمرت زمنا طويلا طريق الامتحان والانتقاد وهما الشيئان الضروريان للحرية الانسانية

أما الآداب والسياسة فاعمالها فيهما لم تأت بفائدة لانطفاء نور جميع الافكار العالية والاحساسات الشريفة التى أوجدها تسلطن الحرية فى جمهوريات الاغريق ورومية حتى انهم نسوا أسماء مواطنهم وانمحت من جميع النفوس محبة الوطن التى أنتجت كثيرا من الشجعان لانه كيف يمكن أن يتعلق الانسان بمحبة أرض يولد فيها عبدا خاضعا لسيد ليس له من السيادة والعظمة فى الحقيقة الا الرسم الزائل وقوته الوقتية كان زمامها فى قبضة طائفة من الجنود وما مالهم ولهذا كان يلزم عدة قرون لاصلاح الانحطاط الذى طرأ على الافكار بسوء تصرف هذه الدولة وخروجها عن جادة الحق فى أحكامها

الباب الثامن

تاريخ العرب القدماء

(الفصل الاول)

جغرافية بلاد العرب

حدود بلاد العرب

تحد بلاد العرب شمالا بالشام وفلسطين والجزيرة وشرقا بالعراق والجزيرة أى البلاد الواقعة بين الدجلة والفرات المسماة عند قدماء اليونان باسم ميزوبوتاميا وعند العرب ببين النهرين أو الجزيرة

وخليج

وخليج العجم وجنوبا بالمحيط الهندى وغربا بخليج ومضيق باب المندب والبحر الاحمر وترعة السويس ويبلغ مسطحها ٣٫٠٧٠٫٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ولا يعلم عدد سكانها بالضبط ويؤخذ من روايات المؤرخين والجغرافيين أنهم يزيدون عن ١٥ مليونا من الانفس وداخلها عبارة عن نجد عظيم يتركب من سهول وصحارى حارة المناخ جدا أما شواطئها فبعضها عظيم الخصوبة من أشهر محصولاتها البن المنسوب الى بلاد اليمن ويعرف عند أهل أوروبا ببن مخا ولا نظير له فى الجودة ومن حاصلاتها أيضا القطن والصمغ والمر والعود وقصب السكر والنارجيل والطيوب والحناء والزنجبيل والطرفاء والنخل وهو كثير ببعض جهاتها عظيم الفائدة والحنطة والشعير والفوة والفلفل والرمان واللوز والفستق والمشمش والسفرجل والتفاح والليمون والتين والورد والنرجس والبنفسج والنيلة وأنواع القثاء والبطيخ والبان وغيرها كثير وأخصب أراضيها وأجودها الجهات الجنوبية أى بلاد اليمن المسماة عند الرومان واليونان ببلاد العرب السعيدة تمييزا بينها وبين الجهات الشمالية التى سموها ببلاد العرب الصخرية

ومن حيوانات بلاد العرب الخيل المطهمة الشهيرة والجمال ويعتمدون عليها كثيرا لشدة الحاجة اليها ولصبرها على الجوع والعطش زمنا والحمير والجواميس وبقر الوحش والضأن والغزلان وهى كثيرة فى البرارى والاسد والضبع والنمر والذئب والوعل والثعلب وابن آوى واليربوع وغيرها

ومن طيورها النعام والقطا والحجل والصقر والحبارى والحمام واليمام والنسر والبازى والعقاب والغراب والهدهد والرخم وكثير من الطيور المائية على شاطئ البحر وغيرها ويكثر الجراد فى بعض السنين فيتلف مزروعاتها

أما معادنها فكثيرة لا يستخرج منها الا القليل وقد كان لها سابقا فى ذلك شهرة عظيمة خصوصا بلاد اليمن وليس بها أنهر كبيرة تصلح للملاحة بل ينحدر من بعض جبالها بعض جداول تغوص فى الرمال وكانت تجارة هذه البلاد فى الازمنة القديمة واسعة جدا وحتى فى الايام المتأخرة قبل خرق برزخ السويس

(الفصل الثانى)

أقسام بلاد العرب

تنقسم بلاد العرب الى عدة أقسام اختلف المؤلفون فى عددها أشهرها اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين ويعدها البعض من بلاد العراق

وتنقسم بلاد اليمن الى خمسة أقسام حضرموت وشحر ومهرة وعمان ونجران ويقال ان سبب تسمية حضرموت بهذا الاسم هو أن حضرموت بن قحطان كان أول من نزلها وكان اسمه عامرا واذا حضر حربا أكثر فيه من القتل فصاروا يقولون عند حضوره حضرموت فأطلق هذا الاسم على الارض التى كانت تسكنها قبيلته ثم أطلق بعد ذلك على جهة متسعة شرقى عدن بالقرب من البحر كثيرة الرمال ويقال ان بها قبر هود عليه السلام ويقال ان اليمن سمى بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق

ومن أشهر مدن اليمن صنعاء وهى قاعدته وكانت قديما عاصمة ملوك اليمن وبقربها معادن للفحم الحجرى لم تستغل للآن وهى حسنة الاسواق واسعة التجارة وبقربها موقع مدينة مأرب المسماة سبأ نسبة لعبد شمس الملقب بسبأ يقال انه بنى هناك سدا عظيما وساق اليه السيول من مكان بعيد وشيد جانبا كبيرا من المدينة على السد المذكور وفى بعض السنين تراكمت الامطار فدفعت السد وهلك خلق كثير فسميت هذه الحادثة بسيل العرم (١) وفى تلك النواحى كتابات بالحرف المُسْنَد المعروف بالخط الحميرى ومن مدنه ايضا صَعْدَة الى الشمال الغربى من صنعاء وتشتهر بالجلود وبها مدابغ كثيرة وزَبِيد الى الغرب من صنعاء وبيت الفقيه واقعة وسط الارض التى ينبت بها البن والى الجنوب من زبيد حصن تَعِز كان مقام ملوك اليمن

وبلاد الحجاز وهى واقعة فى شمالى اليمن شرقى البحر الاحمر وتمتد الى خليج العقبة وعلى ساحلها جملة جزائر صغيرة تلتجئ اليها صغار السفن عند الحاجة وسمى حجازا لوقوعه بين نجد وتهامة وأشهر بلاده مكة المكرمة المسماة قديما مكورابا ولا تخفى شهرتها وأهميتها والمدينة المنورة المسماة أيضا يثرب وبها قبر فخر الكائنات عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وفى شمالها جبل أحد المشهور ويقال لها طيبة أيضا والطائف وهى بلدة خصبة طيبة المناخ كثيرة البساتين والعيون والجداول واقعة شرقى مكة ومن أشهر بلاده أيضا خيبر وهى واقعة بالشمال الشرقى من المدينة على طريق قوافل الشام وكان بها سبعة حصون مشهورة عند العرب وهى ناعم والقموص حصن أبى الحقيق وحصن الشق وحصن النطاط وحصن السلالم وحصن الوطيح وحصن الكتيبة ويوصف بكثرة الحميات وكان للعرب فعلة مستغربة يفعلونها عند دخول تلك المدينة تحفظا من الحمى كما قالوا

وقسم تهامة وهو على ساحل البحر الاحمر بين اليمن جنوبا والحجاز شمالا وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التَّهَم وقيل سميت بذلك لتغير هوائها فى كل وقت

وبلاد نجد وهو جنوبى الشأم وغربى العراق وشرقى الحجاز وشمالى اليمامة وأراضيها جيدة الخصوبة وقد لهجت بها الشعراء كثيرا وفيها أرض العالية التى حماها كليب وائل بن ربيعة وأفضى ذلك الى حرب البسوس التى يضرب بها المثل وتشتهر بالخيل المطهمة وقاعدتها مدينة الرياض وهى مربعة الشكل محاطة بأسوار منيعة حولها البساتين الجميلة وكانت مركزا للوهابيين وهدمها المرحوم ابراهيم باشا ثانى ولاة العائلة المحمدية العلوية المصرية والى الشمال منها جبل شمر أى جبل طى قصبته مدينة الحائل وأشهر مدنها أباناو وهى التى ولد فيها محمد بن عبد الوهاب شيخ مذهب الوهابية

وقسم اليمامة أو العروض وهو بين نجد واليمن ويتصل بالبحرين شرقا والحجاز غربا ومن مدنه اليمامة وكانت مدينة عظيمة ذات مياه ونخل وهى مدينة مُسيلِمة الكذاب

(١) العرم السيل الذى لا يطاق دفعه وعلى هذا يكون سيل العرم من باب اضافة الشئ الى نفسه لاختلاف اللفظين

الفصل

﴿ الفصل الثالث ﴾

الثغور البحرية ببلاد العرب

من أشهر ثغور بلاد العرب عَدَن وهي على الساحل الجنوبي من بلاد العرب واسعة التجارة والاراضي التي حولها مجدبة لاتنبت شيأ وهي الآن بيد الانكليز من (١٨٣٩ م) ومُخا وهي من المدن الشهيرة على البحر الاحمر والمركز الاصلي لتجارة البن ومنها يصدر الى جميع الاقطار والحُدَيدة وهي من أشهر مدن اليمن أيضا واقعة على البحر الاحمر على بعد مائة ميل الى الشمال الغربي من مخا وترسو عليها مراكب حجاج الهند وجدة على ساحل الحجاز على بعد ٦٥ ميلا من غربي مكة وهي أحسن ثغور البحر الاحمر ويبلغ عمق المياه بمينائها الى ١٧ قامة وقد اهتمت الدولة الآن بتحسين مينائها ولها تجارة واسعة خصوصا في زمن الحج ويتردد عليها كثير من مراكب الدولة العثمانية والحكومة المصرية والدول الاوروباوية وبها للاهالي كثير من السفن الشراعية لايتجاوز محمول أكبرها ٨٠ طنا ويَنْبُعُ بشمالي جده وبمينائها صخور كثيرة وهي ثغر المدينة المنورة وتروج بضاعتها في زمن الحج وأكثر أهلها من قبيلة جهينة

ومن الثغور الثانوية التي على البحر الاحمر لحية وهي ثغر ببلاد اليمن قليل العمق واقع على البحر الاحمر على بعد ٢٩٠ كيلومترا من الشمال الغربي من مخا ولها تجارة في البن والحبوب مع القاهرة عن طريق جده ويبلغ عدد سكانها ٦٠٠٠ نسمة وليث وقنفذة والمويلح والوجه وضبا وغيرها ولا أهمية لها ومن ثغور بلاد العرب الشهيرة مدينة مسقاط وهي مدينة حصينة ببلاد عُمَان وربما كانت هي موسكا القديمة وهي ثغر مهم على جون صغير من الخليج الفارسي وقاعدة امام مسقط وسكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس وتحمل اليها جميع حاصلات شواطئ أفريقية الشرقية وبلاد الهند وسومطرة وجاوه وغيرها كالارز والسكر والقطن والتمر والصمغ والجلود والعاج وغيرها وهي سوق تباع بها اللآلئ المستخرجة من جهات هرمز وبها تبنى أحسن السفن الموجودة بثغور بلاد العرب وكان البورتغال استولوا عليها سنة ١٥٠٧ م ثم طردهم العرب منها سنة ١٦٤٨ م ولامام مسقاط وهو أغنى التجار ببلاد العرب أزيد من ٧٥ سفينة تجارية والقَطيف وهي ببلاد الاحساء وبقربها في خليج العجم جزائر البحرين بها مغاص لؤلؤ ليس له مثيل في العالم وظفار وهي قصبة بلاد شحر وبينها وبين الهند تجارة ويكثر باراضيها النارجيل والى شمالي ظفار رمال الاحقاف وهي بلاد عاد

وبالسواحل العربية كثير من المراسي للسفن الشراعية الصغيرة خصوصا في خليج فارس وخليج عمان وبعد الدخول من مضيق هرمز تكون الاجوان الصغيرة التي على ساحل جزيرة العرب صالحة لمرسى السفن الشراعية وكذا الحال بالجهات القريبة من جزائر البحرين

﴿ الفصل الرابع ﴾

الامة العربية

قال العلامة ابن خلدون اعلم ان العرب منهم الامة الراحلة الناجعة الخيام لسكناهم والخيل

لركوبهم والانعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والاثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حللا متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل ويتقلبون دائما فى المجالات فرارا من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد أخرى وانتجاعا المراعى غنمهم وارتيادا لمصالح ابلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختص والذلك بسكنى الاقليم الثالث فمصر والبمن والحجاز ونجد وتهامة وما وراءذلك لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالارياف الآهلة بمن سواهم من الامم فى فصل الربيع وزخرف الارض لرعى الكلا والعشب فى منابتها والتنقل فى نواحيها الى فصل الصيف لميرة الاقوات فى سنتهم من حبوبها وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من اضرارهم بافساد السابلة ورعى الزرع مخضرا وانتهابه قائما وحصيدا الا ما حاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلطان عليهم فيها ثم ينحدرون فى فصل الخريف الى القفار لرعى شجرها ونتاج ابلهم فى رمالها وما أحاط به عملهم فى مصالحها وفرارا بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد الى دفء مشاتيها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء مابين الاقاليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الايام شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجانا على رؤسهم لقنوا من أمم البربر فى حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية وهجروا تنكب القسى

اما اشتقاق اسمهم فقال قوم انه اشتق من الابانة لقولهم اعرب الرجل عما فى ضميره اذا أبان عنه وقال آخرون ان بعض أولاد سام بن نوح استوطنوا العراق وطردهم من هنالك بنو حام فذهب بعضهم شمالا الى بلاد أشور وبعضهم ذهب غربا وتسموا عربا لهذا السبب لان اللغة السامية الاصلية لا غين فيها فلفظة عرب بمعنى غرب ولعله الاصح وقال آخرون بل الاصح أنهم نسبوا الى عربة [1] ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كانوا عليه من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر

شعوب العرب وأصلهم اعلم أن العرب أقدم الامم بعد الطوفان وأشدهم بأسا وأعزهم نفسا وتنسب الى يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وورد فى التوراة أن قحطان رزق بثلاثة أولاد وهم المزداد ومعربه المضاض ومنه تشعبت أهل اليمن من حمير والتبابعة وكهلان وهدر ومات أى حضر موت ثم لما كثر عددهم سكنوا البرارى والقفار كما تقدم ثم بعد ذلك افترقت منهم طائفة سكنت فى جهات مختلفة انتخبتها وصار لهم فيها المدن والقرى ولذلك عدهم المؤرخون فرقتين قالت على الاولى عرب البادية وعلى الاخرى عرب الحضر وصار لبعضهم دول وقبائل اشتهرت بالعزم والحزم وقد امتاز العرب عموما بالقوة والشجاعة واختصت بالبسالة والبراعة وكان ديدنهم شدة البأس وترنمت القبائل فى ذلك برقيق الاشعار يذكرونها فى معرض الفخار فاكتسبت هذه الشعوب شهرة عظيمة خصوصا بعدما شنوا الغارة على الممالك المجاورة لهم وغزوها وأغاروا على فراعنة القطر المصرى (٢٠٠٠ ق م) وانتصروا عليهم وامتلكوا منهم بلادهم وأقاموا لهم بها دولة قوية اشتهرت ملوكها بالرعاة أو العمالقة ودام ملكهم نحو خمسة قرون وهذا أقوى دليل على شدة بأس هذه الامة وقدمها فى تلك الاعصار

(١) قال صاحب القاموس والعربة ناحية قرب المدينة أقامت قريش بها فنسبت العرب اليها اه

وقد

وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام بائدة وعاربة ومستعربة أما البائدة فهم العرب الاولى الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم وانقطاع أسباب العلم بآثارهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وكانت مواطن عاد باحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر ولما انتحلوا عبادة الاصنام أبادهم الله وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال وكانوا أهل كفر وبغى وأما جديس وطسم فكانت ديارهم باليمامة وهى اذذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا وأما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية فكانوا على عهد عاد وكانوا يعاصرون بعضهم بعضا وبعد أن سالمتهم الايام احقابا قلبت لهم ظهر المجن كما هو الحال فى جميع الامم البائدة فاندثروا بتمامهم

وأما جرهم الثانية فهم من ولد قحطان وبهم اتصل اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وكانت مساكن بنى قحطان بالحجاز ولما أسكن ابراهيم الخليل ابنه اسمعيل عليهما السلام فى مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة لان أصل اسمعيل عليه السلام ولسانه كان عبرانيا ولذلك قيل له ولولده العرب المستعربة

وأما العرب العاربة فهم بنو سبا واسم سبأ عبد شمس وقالوا انه لما أكثر الغزو والسبى سمى سبأ وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان لسبأ عدة أولاد منهم حمير وكهلان وعمرو واشعر وعاملة بنو سبا وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التبابعة من ولد سبأ المذكور وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبأ خلا عمران وأخيه مزيقيا فانهما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلب بن مازن بن الازد والازد من ولد كهلان من سبأ وفى ذلك خلاف وقيل لهم عاربة لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم بأخلاقهم

أما من حيث المعتقد فى الجاهلية فكانت العرب أصنافا فصنف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى كما أخبر عنهم التنزيل (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وهم الذين أخبر عنهم الله بقوله تعالى (أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد) وصنف عبدوا الاصنام وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان وُدّ لكلب وهو بدُومة الجندل وسواع لهُذَيل ويغوث لمَذْحِج ولقبائل من اليمن ونَسْر لذى الكلاع بأرض حمير ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف والعُزّى لقريش وبنى كنانة ومَناة للاوس والخزرج وهُبَل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة وكان إساف ونائلة بين الصفا والمروة

وكان منهم من يميل الى اليهودية ومنهم من يميل الى النصرانية ومنهم من يميل الى الصابئة ويعتقد فى أنواء المنازل اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك الا بنوء (١) من الانواء ويقول

(١) النوء النجم مال للغرب والمطر وأصل النوء سقوط نجم بالغدق فى المغرب وطلوع نجم يحياله من ساعته فى المشرق فى كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فان لها أربعة عشر يوما وانما يكون ذلك لنجوم الاخذ وهى منازل القمر وهى ثمانية وعشرون نجما فلكل نجم رقيب هذا هو الاصل ثم سموا كل نجم منها باسم فعله ثم قالوا استقينا بنوء كذا واستمطرنا به ثم كثر حتى سموا الاثر الذى يحدث بسقوط كل منها أو عند سقوطه نوأ ولا يفرقون بين أن يقولوا نوء نجم كذا وان يقولوا مطر نجم كذا وهم يضيفون الامطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقال الاصمعى الى الطالع منها فى سلطانه فيقولون مطرنا بنوء كذا

مطر بانبوء كذا وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن وكانت علومهم علم الانساب والانواء والتواريخ وتعبير الرؤيا وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت شريعة الاسلام بها فكانوا لا ينكحون الامهات والبنات وكان أقبح شئ عندهم الجمع بين الاختين وكان يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه الضيزن وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار وكانوا يكبسون فى كل ثلاثة أعوام شهرا ويغتسلون من الجنابة وكانوا داوموا على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار ونتف الابط وحلق العانة والختان وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى وغير ذلك مما يعلم من المفصلات

(الفصل الخامس)

دول العرب قبل الاسلام

ملوك التبابعة

وهم بنو حمير وقيل لهم تبابعة لانه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يكونوا يسمون الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن لشئ من هذا يسمى ملكا ولا يقال له تبع كما قاله المسعودى

واعلم ان أعظم دول العرب فى الازمنة القديمة التبابعة ملوك اليمن وأول من ملك منهم قحطان ابن عابر بن شالح المتقدم ذكره وكان أول من لبس التاج (٢٠٣٠ ق م) وقام من بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ويسمى يمنا وقيل به سميت اليمن وهو أول من حياه ولده أبيت اللعن وأنعم صباحا وقيل انه أول من نطق بالعربية ثم ملك بعده ابنه يشجب وكان واهى العزيمة استبد عماله بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس ولما أكثر من الغزو والسبى سمى سبأ كما تقدم وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء وبنى مدينة مأرب على ثلاثة مراحل منها وهو الذى بنى فى مأرب السد المشهور

وتحرير خبر السد على ما قاله العلامة ابن خلدون ان سبأ اتخذ سدا ما بين جبلين بالصخر والقار فحقن به ماء العيون والامطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون اليه فى سقيهم وهو الذى سمى العرم ومات قبل اتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده فأقاموا فى جناته عن اليمين والشمال ودولتهم يومئذ أوفر ما كانت وأترف وأبزخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث اه (١)

وملك من بعده حمير ولده وقيل هو أول من تتوج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وصار الامر الى شداد

(١) ولا تزال آثار هذا السد باقية للآن وهى من أغرب الآثار ولا ينقصها الا اصلاح قليل لتعود الى ما كانت عليه من الفائدة اه

فغزا

فغزا البلاد الى ان بلغ أقصى المغرب وبنى المبانى والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف الى أن استقر فى الحرث وهو تبع الاول ومن بنيه التبابعة وقد لقب الحرث بالرائش لانه راش الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من الغنائم والسلب ثم ملك ابرهة ذو المنار ثم أفريقش أو أفريقس (١٠٩٨ ق م) وذهب بقبائل العرب الى أفريقية ويقال انها سميت به وساق البربر اليها من أرض كنعان فأنزلهم بها ثم ملك بعده أخوه عمرو ذو الاذعار ولم يحسن السيرة فى الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو انك ما جهلت وصيتى * اياك فاحفظها فانك ترشد
يا عمرو لولا الله ما ساد الورى * فيما مضى الا المعين المرفد
يا عمرو من يشرى العلى بنواله * كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يحصد

ولما ذعرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين ذى الاذعار وشرحبيل قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك ثم ملك بعده ابنه الهدهاد (١٠٦٥ ق م) ثم ملكت بعده بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن ٢٠ سنة وقام بعدها مالك ناشر النعم لانه قلد أعيان رعيته أطواق الانعام والمنن ويقال انه سار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل ولم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد فيعطب ثم قام بعده ابنه شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو التبع الاخير وهو المشهور من ملوك التبابعة ذو المغازى والآثار البعيدة فكان من أشد ملوك العرب نكاية فى الاعداء وأبعدهم مغارا (٨٠٠ ق م) ويقال انه سار بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف مقاتل فوطئ أرض العراق وخراسان وفتح مدائنهم وخرب مدينة الصُّغد وراء جيحون وبنى هناك مدينة سميت باسمه هذا وعربته العرب فصار سمرقند ثم شخص من اليمن غازيا مرة ثانية ومر بالحيرة فتحير عسكره فقيل لتلك البلاد الحيرة ثم رجع الى اليمن وهابته الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية باغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة ثم عاد الى غزو بلاد فارس فوطئ الممالك وذللها وعمد الى الصين وكانت مدة ملكه ٣٧ سنة وملك من بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلا حتى ملك عمرو بن عامر الازدى وقيل له مُزَيقيا لانه كان يلبس كل يوم بدلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيما يلبسه وقيل انه على عهده صار سيل العرم سنة (٣٠٢ م) فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبا

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك الى ذى نواس (٤٨٠ م) واسمه زرعة ولما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن

فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان هذا الدين وقع اليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين ولما كان ذو نواس يدين و يتعصب لليهودية اتخذ اخدودا مضطرما وكان كل من لم يتهود القاه فى الاخدود فقيل له صاحب الاخدود و يقال ان رجلا من أهل نجران أفلت من القتل وسار حتى قدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس

(الفصل السادس)

استيلاء الحبشة على اليمن

لما قدم ذلك الرجل على قيصر مستصرخا مستنجدا بعث قيصر الى ملك الحبشة يأمره بنصره فجهز النجاشى السفن والعساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم يدعى أرياط وعهد اليه بقتل اتباع ذى نواس وسبيهم وتخريب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحل اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس ما نزل به و بقومه وجه بفرسه الى البحر فكان آخر العهد به وانقرض أمر التبابعة (٥٢٩ م) ووطئ من ثم أرياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك وعلى ذلك انتهى ملك حمير من اليمن مدة ذى نواس المذكور

وقال بعض المؤرخين ان اغارة الحبشة على اليمن كانت فى عهد ذى جدن (١) آخر ملوك حمير فعليه يكون آخر ملوكهم وقد اختلف المؤرخون فى أسماء ومدد ملوك اليمن اختلافا عظيما لانه ليس فى جميع التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير وملك من بعدهم اليمن أربعة من الحبشة وثمانية من الفرس ثم صارت اليمن للاسلام

ولما استتب الامر لارياط خرج عليه أحد رؤساء جيشه وحزب معه رعاع الحبشة وانحاز الى أرياط عظماء الحبشة وغطاريفهم فلما اقتتلوا دارت الدائرة على أرياط فقتله خصمه فأقاموا أبرهة ملكا وهو الملقب بالاشرم ولما بلغ النجاشى قتل أرياط اغتاظ جدا وحلف بالمسيح ان يطأ أرض أبرهة و يجز ناصيته و يريق دمه فلما بلغ أبرهة ذلك جز ناصيته وجعلها فى حق وجعل شيأ من دمه فى قارورة ووضع قليلا من تراب اليمن فى جراب وأنفذ ذلك الى النجاشى ملك الحبشة مع هدايا كثيرة وطائف جزيلة وكتب اليه يعترف له بالعبودية و يحلف له انه فى طاعته وانه بلغه يمين الملك فأنفذ اليه ذلك لكى يبر قسمه فاستحسن النجاشى ذلك وعفا عنه وأقره فى ملكه

ولما كان موسم الحج أخذ الناس يتجهزون له فرأى ذلك أبرهة وسأل عن الامر فقيل له انهم يحجون الى بيت الله بمكة قال فما هو قالوا بيت من حجارة قال لأبنين لكم بيتا خيرا منه فكتب الى قيصر بالصناع وأنواع الرخام والفسيفساء وبنى بصنعاء كنيسة يقال لها القُلّيس (٢) الى جانب

(١) واسمه علس بن الحرث الحميرى قيل له ذو جدن لانه أول من غنى باليمن والجدن حسن الصوت

(٢) كان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعا وحوله سور بينه و بين القليس مائتا ذراع مطيف به من كل جانب وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجروب منقوشة مطابقة لا يدخل بين أطباقها الابر مطبقة به وكان له باب من نحاس يفضى الى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقود مضروبة بالفسيفساء مشجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة ثم يدخل من البيت الى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها صلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تغشى عين من نظر اليها من بطن القبة تؤدى ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الابنوس (كذا) مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة اه لابن اسحق

غمدان

غُمْدان (١) لم يرأحسن منها في زمانها وأمر الناس بحجها وكتب الى النجاشي انى قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها ولست بمنته حتى أصرف اليها حجاج العرب وتبطل الكعبة

فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة (٢) من بنى فُقَيْم فأتى وأحدث فى الكنيسة ولحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك وأن الرجل الذى فعل ذلك هو من البيت الذى يحج اليه فغضب جدا ودعا الناس الى حج القليس وحلف ليسيرن الى البيت فيهدمه وأمر الحبشة فتجهزوا وخرج بثلاثة عشر فيلا يقال لاكبرها محمود وسار قاصدا الكعبة فسمعت العرب به فرأوا جهاده حقا عليهم فخرج عليه رجل من أشراف اليمن يقال له ذونفر وقاتله فهزم ذونفر وأخذ أسيرا ثم حبسه ثم مضى على وجهه فخرج عليه نفيل بن حبيب الخثعمى فأخذ أسيرا وضمن لابرهة أن يدله على الطريق فتركه وسار حتى اذا مر على الطائف خرج عليه مسعود بن معتب فى رجال ثقيف فأتوه بالطاعة وبعثوا معه دليلا يقال له أبو رغال فلما نزلوا المُغَمَّس بين الطائف ومكة هلك أبو رغال فرجمت العرب قبره من بعد ذلك وهذا ولا شك لانه خان وطنه وباع أمته لاجنبى ثم بعث أبرهة الى مكة خيلا من الحبشة عليها رجل يقال له الاسود بن مقصور فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم سيد قريش يومئذ فهموا بقتال الاسود ثم علموا انهم لا يقدرون عليه فأحجموا وبعث أبرهة حُنَاطة الحميرى الى مكة وقال له سل عن سيد قريش وقل له انى لم آت لحربكم وانما جئت لهدم هذا البيت فان منعتم فالحرب بينى وبينكم فلما بلغ عبد المطلب ذلك قال البيت لله ولخليله ابراهيم فان يمنعه الله والا فما لنا من يدافع فانطلق حناطة بعبد المطلب الى أبرهة فأدخل عليه وكان عبد المطلب جليلا عظيما وسيما فأجله أبرهة وأكرمه ونزل عن سريره وجلس معه على بساط وأجلسه بجانبه وقال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال عبد المطلب أن يرد على أباعرى فقال أبرهة بلسان الترجمان قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى ابلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فقال عبد المطلب أنا رب الابل وللبيت رب يمنعه فقال أبرهة ما كان ليمنع منى ثم أمر بردابله فلما أخذها قلدها وجعلها هديا وبثها فى الحرم وانصرف عبد المطلب الى قريش وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤس الجبال ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله جل وعلا ويستنصرونه سبحانه وتعالى على أبرهة وأنشد عبد المطلب أبياتا يدعو بها الله سبحانه وتعالى لخلاص الكعبة الحرام

ثم انطلقوا فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وهو مجمع على هدم البيت والرجوع الى اليمن

---

(١) الغمدان قصر باليمن بناه يَشْرُح بار بعة وجوه أحمر وأصفر وأبيض وأخضر وبنى داخله قصرا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعا

(٢) وهم نسأة الشهور من كنانة كان من ينسأ الشهور منهم يقف عند جمرة العقبة ويقول اللهم انى ناسئ الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أجاب اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك فى الرجبين يعنى رجبا وشعبان أنفروا على اسم الله تعالى وذلك قوله تعالى انما النسئ زيادة فى الكفر ويقال ان يفعل ذلك القَلَمَّس اه

فلما وجهوا الفيل ألقى الفيل نفسه الى الارض فضربوه فأبى فوجهوه الى اليمن فقام يهرول و وجهوه الى الشأم ففعل كذلك ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك فوجهوه الى مكة فسقط الى الارض وأرسل الله جل جلاله عليهم من البحر طيرا أبابيل (٢) أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار واحد فى منقار الطائر واثنان فى رجليه فقذفتهم بها وهى فى مثل الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم الا سقط وأصابه فى موضع الحجر من جسده كالجدرى والحصبة فهلك وأرسل الله جل جلاله سيلا ألقاهم فى البحر وخرج من سلم مع أبرهة هاربا يبتدرون الطريق الذى جاؤا منه و يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق فقال نفيل فى ذلك من أبيات

حمدت الله اذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل * كأن على للحبشان دينا

وأصيب أبرهة فى جسده فسقطت أعضاءه عضوا عضوا حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ثم انصدع صدره عن قلبه ومات و يلقب أبرهة أيضا بصاحب الفيل وذلك العام بعام الفيل وهو مولد سيدنا ونبينا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

ولما مات أبرهة تولى بعده ابنه يكسوم (٥٧١ م) وبه كان يكنى واستفحل ملكه وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم ثم هلك وقام من بعده أخوه مسروق وهو ابن ريحانة بنت علقمة التى كان انتزعها أبرهة لما أساء السيرة من زوجها أبى مرة ذى يزن و تزوجها فولدت له ابنه هذا وابنته البساسة و كانت ولدت لذى يزن من قبل ولدا يقال له سيف بن ذى يزن واسمه معدى كرب فتربى عند أبرهة وكان آخر من ملك اليمن من الحبشة سيء السيرة كثير العسف

قال ابن خلدون ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الاذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وقدم على قيصر يوستنيانوس يستجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين النصارى فرجع الى كسرى أنوشروان وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكى اليه واستمهله النعمان الى حين وفادته على كسرى ثم أوفد معه وسأله النصر على الحبشة فشاور كسرى أهل دولته فقالوا فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معه فان هلكوا كان الذى أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته الى ملكك فأحصوا ثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكرمهم نسبا وكان وهرز الديلى فتواقفوا للحرب وأمر وهرز ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك وقال أرونى ملكهم فأروه اياه على فيل عليه تاجه و بين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه فتنكس عن دابته ودار وابه فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم من اليمن بعد أن توارثه منهم أربعة فى ثنتين وسبعين سنة (٦٠١ م) وانصرف وهرز الى كسرى بعد ان خلف سيفا على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم اليه على فريضة يؤديها كل عام و جعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه و نزل قصر الملك وهو رأس غمدان ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة و يقتلهم حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب فخرج يوما وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب

(٢) قيل معنى أبابيل كثيرة وقيل متتابعة وقيل مختلفة الالوان وقيل أقاطيع كالابل المتقطعة جمعا بعد جمع وقيل هى مرض الجدرى والدمامل وهذا مذهب بعض علماء الافرنج و يستفاد من كلام بعضهم أن أول ظهور مرض الجدرى انما كان فى بلاد العرب فى سنة الفيل اهـ

فقتلوه

فقتلوه فارسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للاسلام

(الفصـــل السابع)

ملوك العرب فى غير اليمن

خبر ملوك المناذرة بنى كهلان بالعراق

أما اخبار العرب بالعراق فى الجيل الاول فلم يصل الينا تفاصيلها وشرح حالها لانه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام فكانت تَنُوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الأزد من بنى كهلان ممن تمزق الى العراق فقال مالك أو ملك بن فهم الازدى لمالك بن القضاعى نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوانا فتحالفا وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى صاغرة فخرجوا عن البحرين وسارت الازد الى العراق مع ملك بن فهم الازدى وسارت قضاعة الى الشام مع القضاعى وأول من تملك على تَنُوخ فى العراق مالك بن فهم (١٩٥ م) وكان منزله بالانبار [1] ثم ملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعده ابن أخيه جَذِيمة الابرش وهو أشهر ملوك الحيرة [2] (٢٥١ م) وكان ثاقب الرأى بعيد المنار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أول من غزا بالجيوش وشن الغارات على قبائل العرب وأول من نصب المجانيق فى الحرب وكان معجبا بنفسه مفرطا فى التيه وكان به برص فأ كبرته العرب على أن تنعته به اعظاما فسمته جَذِيمة الابرش وجذيمة الوضاح واستولى على السواد ما بين الحيرة والانبار وسائر القرى المجاورة ببادية العرب وكان يجبى أموالها وغزا طسما وجديسا فى منازلها فى اليمامة وطال ملكه الى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذيمة ملك معد وبعض اليمن وغزا فى آخر عمره الشام فقتل عمرو بن حسان

---

(١) الانبار هى فيروزسابور (Peris apour) مدينة شهيرة فى العراق بولاية بغداد بينها و بين بغداد عشرة فراسخ وهى الى غربيها على الفرات قرب مخرج نهر عيسى قيل سميت بذلك لانه كان يجمع بها أنابير الحنطة والشعير والتبن وهى جمع انبار ومعناه الاهراء وكان دخول العرب من تنوخ هذه المدينة فى أيام ملوك الطوائف قيل أول من بنى الانبار سابور بن هرمز المعروف بذى الاكتاف وقال ابن الاثير بنيت الحيرة والانبار أيام بختنصر ثم تحول أهل الحيرة الى الانبار وفتحت الانبار فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ هـ على يد خالد بن الوليد وحصلت بها وقعة حينئذ سميت ذات العيون وكانت الانبار منزلا لابى العباس السفاح انتقل اليها من الحيرة سنة ١٣٤ هـ وبنى بها القصور و بها توفى و ينسب الى الانبار جماعة من أهل العلم

(٢) قال ياقوت وغيره الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعموا أن بحر فارس يتصل به وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية فى زمن نصر بن ربيعة ثم بنى لخم وتوصف بالبياض لحسن عمارتها و بهجتها وكان من تنصر من لخم بعد النعمان بن المنذر قد بنوا فيها الكنائس العظيمة والقصور الجليلة والحصون المنيعة وكانت فى تلك الايام وما بعدها الى ما بعد الفتح الاسلامى ذات زروع وأشجار وأثمار وصناعة جميلة وكفاية فى الارزاق والمحاصيل والآلات والصنائع من كل ما يحتاجون اليه فى معيشتهم والمشهور ان سبب تسميتها بالحيرة أن تبعا لما أقبل بجيشه و بلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيرة وكان فتحها على يد خالد بن الوليد سنة ١٢ هجرية اهـ

العمليقي ابن أذينة والد الزباء المسماة نائلة ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على أخذ الثار وأخذت في الحيلة على جذيمة وأطمعته بنفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار أبيها وكان ملكه نحو ستين سنة وكان له نديما جذيمة نديم الفرقدين وهما نديمان كان له اذا شرب قدحا صاحب لهما قدحين ولا ينادم غيرهما حتى ضرب بهما المثل فقالوا كندمى جذيمة

وورث الملك من بعده ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ م) وأمه رقاش وهو الذى استهوته الجن كما ورد فى أخبار العرب وكان أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب اللخميين وأول ملك يعده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق اليه ينتسبون

ثم هم عمرو بطلب الثار من الزباء بخاله جذيمة واستشار عمرو قصير بن سعد وهو ابن جارية لجذيمة وكان أديبا ناصحا فحرضه على الاخذ بالثار عاجلا فقال كيف لى بها وهى أمنع من عقاب الجو وكانت الزباء قد سألت كهنتها عن أمرها وكيفية موتها فقالوا انا نرى قتلك يكون على يد عمرو بن عدى فحذرت عمرا من ذلك اليوم واتخذت لنفسها سربا من مجلسها الى حصن لها داخل مدينتها حتى اذا فاجأها أمر دخلت السرب ومضت الى الحصن ثم دعت برجل مصور حاذق فى صناعته وأرسلته الى عمرو بن عدى متنكرا وقالت له صوره قائما وجالسا ومنفصلا ومتنكرا ومتسلحا بهيئته وألوانه وذلك حتى اذا رأته فى أية حالة كانت فيها تعرفه ففعل المصور ما أمرته به وأتى اليها بالصور

وأما قصير فقال لعمرو اجدع أنفى واضرب ظهرى ودعنى واياها ففعل به عمرو ذلك وخرج قصير حتى قدم على الزباء فأدخل عليها فلما رأته أجدع قالت لأمر ما جدع قصير أنفه فذهبت مثلا ثم قالت ما الذى أراه بك ياقصير قال زعم عمرو أنى غدرت بخاله وزينت له المسير اليك ومالأتك عليه ففعل بى ما ترين فأقبلت اليك وقد عرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك فأكرمته ورأت ما أعجبها من حزمه وحذقه ودرايته ومعرفته بأمور الملك فلما عرف أنها وثقت به قال ان لى بالعراق أموالا كثيرة ولى بها طرائف وعطر فابعثينى لأحمل مالى وأحمل اليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها من التجارة فتصيبين أرباحا وبعض ما لا يكون غنى للملوك عنه فسرحته ودفعت اليه أموالا وجهزت معه الدواب فسار حتى قدم العراق وأتى عمرو بن عدى متخفيا وأخبره الخبر وقال جهزنى بالبز والطرف لعل الله يمكننا من الزباء فتصيب منها ثأرك فأعطاه ما طلب وعاد به الى الزباء فأعجبها ذلك كثيرا وزادت ثقتها بقصير ثم جهزته بعد ذلك بأكثر مما جهزته فى المرة الاولى فسار الى العراق ولم يدع بها طرفة الا قدم بها عليها حتى تعجبت منه ثم عاد الثالثة وقال لعمرو اجمع لى ثقات أصحابك وجندك وهيئ لهم الغرائر وهى كالصناديق فلما تهيأت جعل كل رجلين فى غرارتين على ظهر بعير وجعل معقد رؤسهما فى باطنهما وقال لعمرو اذا وصلنا أقفك على باب السرب ثم أخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قاتلوه وان أقبلت هى الى السرب فاقتلها أنت فلما تم ذلك سار قصير مجدا حتى اذا قرب سبق اليها وبشرها بكثرة ما حمل اليها من المال والتحف والثياب وكان يسير بالليل ويكمن فى النهار لراحة القوم فأشرفت الزباء من قصرها وأبصرت الابل مثقلة بالاحمال تسير الهوينا وتكاد قوائمها تسوخ فى الارض فقالت ياقصير

ما للجمال مشيها وئيدا * أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا باردا شديدا * أم الرجال جثما قعودا

ثم

ثم دخلت الابل المدينة فلما توسطتها انيخت وخرج الرجال من الغرائر ودل عمرو على باب السرب ثم وضعوا السيف فى أهل البلد وأقبلت الزباء تريد الخروج من السرب فلما أبصرت عمرا عرفته بالصورة فمصت سما كان بخاتمها وقالت بيدى لا بيد عمرو وتلقاها عمرو بالسيف فقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة

ثم عاد الى العراق وجلس على سرير الملك بعد خاله جذيمة وبقى ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدا برأيه وأمره يغزو المغازى ويصيب الغنائم وتجبى اليه الاموال وتفد عليه الوفود دهره الاطول لا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم ازدشير بن بابك فى أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له معاديا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم وما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة فكان أناس من العرب يحدثون أحداثا فى قومهم أو تضيق معيشتهم فيخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة فكان ذلك على أكثرهم هجنة وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو بن عدى باتخاذه اياها منزلا وعظم شأنها الى أن وضعت الكوفة ونزلها عرب الاسلام

وملك بعده ابنه امرؤ القيس البدء أى الاول ومن بعده ملك ابنه عمرو وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس وكان ملكه فى أيام سابور ذى الاكتاف ثم ملك بعده اوس بن قلام العمليق (٣٦٣ م) ثم ملك آخر من العماليق يدعى جَحْجَبا أحد بنى فاذان ثم رجع الملك الى بنى عمرو بن عدى بن نصر اللخميين وملك منهم امرؤ القيس الثانى (٣٩٠ م) ويعرف بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار

ثم ملك بعده النعمان الاعور السائح وهو بانى الخورنق (١) والسدير (٢) وكان النعمان هذا فى أيام يزدجرد ملك الفرس فدفع اليه ابنه بهرام ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فاسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى اشتمل على ذلك بمارضيه وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية فى الاعداء وأبعدهم مغارا فقد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين الشهباء وأهلها الفرس ودوسر وأهلها تنوخ فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب وكان صارما حازما ضابطا لملكه قد

(١) الخورنق قصر فى العراق يقال ان سبب بناء يزدجرد الاثيم له أنه كان لا يبقى له ولد فسأل عن منزل برى صحيح فدلوه على ظاهر الحيرة فدفع ابنه بهرام جور الى النعمان وأمره ببناء الخورنق مسكنا له وأمره باخراجه الى بوادى العرب وكان الذى بنى الخورنق رجلا اسمه سنمار فلما فرغ من بنائه تعجبوا منه فقال لو علمت أنكم توفونى أجرى لعملته يدور مع الشمس فقال له النعمان وانك لتقدر على ما هو أفضل منه ثم القى من رأس الخورنق فهلك فضربت العرب بجزائه المثل وقد ذكرت العرب هذا القصر فى أشعارها وضربت به الامثال فى أخبارها وروى أن سنمار ابنى الخورنق فى ٦٠ سنة فكان يبنى السنتين والثلاث ويغيب الخمس سنين وأكثر من ذلك وأقل فلا يوجد ثم يأتى فيحتج فلم يزل يفعل هذا الفعل ٦٠ سنة حتى فرغ من بنائه فصعد النعمان على رأسه ونظر الى البحر تجاهه والبر خلفه فرأى الحوت والضب والظبى والنخل فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط فقال له سنمار انى أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله فقال له النعمان هل يعرفها أحد غيرك قال لا قال لا جرم لادعنها وما يعرفها أحد ثم أمر به فقذف من أعلى القصر فتقطع فضربت العرب به المثل

(٢) والسدير قصر بناه النعمان أيضا

اجتمع له من الاموال والخول والرقيق مالم يملكه أحد من ملوك الحيرة وبقى فى الملك ٣٠ سنة ثم تزهد وخرج عن الملك فى زمن بهرام جور بن يزدجرد ويقال إن سبب زهده فى الدنيا وتركه الملك ما روى أنه أشرف يوما على الخورنق فاعجبه ما أوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه عليه فقال لاصحابه هل أوتى أحد مثل ما أوتيت فقال له حكيم هذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزول أم شئ كان لمن قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الى وسيزول عنى قال فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فاين المهرب قال إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس مسوحا وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا فعلت ذلك فما لى قال حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى قال فاى خير فيما يفنى والله لأطلبن عيشا لا يزول أبدا فانخلع من ملكه ولبس المسوح وساح فى الارض وتبعه الحكيم وجعلا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا

ولما تزهد النعمان تولى الامر ابنه *المنذر الاول* (٤٢٠م) وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام جور لتربيته بين العرب وخلوه عن آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر العساكر لبهرام اطلب ملكه وحاصر مدينة الملك فاذعنت له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده وشغل باللهو الى موته وملك مكانه *النعمان الثانى* وكان زاهدا ثم ملك بعده أخوه الاسود وهو الذى انتصر على غسان عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ويقال إن الاسود قتلته غسان وانتصرت عليه وكان ملكه فى زمن فيروز وملك بعده أخوه *المنذر الثانى* ثم ابن أخيه *النعمان الثالث* ثم ملك بعده *علقمة الذميلى* (٥٠٣م) وذميل بطن من لخم ثم ملك بعده *امرؤ القيس الثالث* وهو الذى بنى قصرى العُذَيب والصِّنَّبر ولما هلك امرؤ القيس هذا ملك *المنذر الثالث* ابنه ويقال له ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه يقال لها ماء السماء لحسنها واسمها ماوية واشتهر المنذر المذكور باسمه فقيل له المنذر ابن ماء السماء ويقال إن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وقيل إن كسرى قباذ طرده عن ملك الحيرة وملك موضعه *الحرث بن عمرو الكندى* الملقب باكل المرار وكان شديد السلطان ثم ولى بعده *عمرو مضرط الحجارة* وهو ابن المنذر ابن ماء السماء ولثمان سنين مضت من حكمه كان مولد النبى عليه الصلاة والسلام ثم ملك بعده أخوه *قابوس* (٥٧٨م) وكان فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وضعف قتله رجل من يشكر وسلبه ثم ملك بعده *المنذر الرابع* ثم *النعمان الرابع* أبو قابوس وهو الذى تنصر وتنصر معه أهل الحيرة وبنى فى حاضرة ملكه الكنائس وملك اثنتين وعشرين سنة وقتله كسرى برويز وسبب مقتله كانت وقعة ذى قار بين العرب والفرس وهو صاحب النابغة الذبيانى وهو الذى بنى الغَرِيَّين [1] ومن

(١) كان المنذر ابن ماء السماء قد نادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فاغضباه فى بعض المنطق فى مجلس شرب فأمر بأن يحفر لكل واحد حفيرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل بهما ذلك حتى اذا أصبح سأل عنهما فاخبر بهلاكهما فندم على ذلك وغمه ثم ركب حتى نظر اليهما فامر ببناء الغَرِيَّين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فاول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يومر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين ولبث على ذلك برهة من دهره ولم يترك هذه العادة الوحشية الا لما تنصر اهـ

بعده

بعده انتقل الملك عن اللخميين الى اياس بن قبيصة الطائى وفى زمنه بعث النبى عليه الصلاة والسلام ثم ملك بعده آخر ثم عاد الملك الى اللخميين فتولى المنذر بن النعمان بن المنذر وسمته العرب المغرور واستمر مالكا للحيرة حتى افتتحها خالد بن الوليد (١٢ هـ) وكانت المناذرة آل نصر بن ربيعة فى آخر أمرهم عمالا لل كاسرة على عرب العراق

﴿ الفصل الثامن ﴾

الغساسنة ملوك الشام

ومن ملوك العرب ملوك غسان آل جفنة وكانوا عمالا للقياصرة على عرب الشام وأصلهم من اليمن والازد بنى كهلان لان الازد لما أحست بمأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فتشام قوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصير ومشربهم فسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغسانى بادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة وكانوا يدينون بالنصرانية ولما نزلت غسان بأرض الشام كان لها قوم من سليح فضربوا على الغساسنة الاتاوة ثم وقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحا من الشام وصاروا ملوكا واستقر ملك الغساسنة نحو أربعمائة سنة

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وملك بعده ابنه عمرو وبنى بالشام عدة أديرة ثم ملك بعده ابنه ثعلبة ثم ابنه الحرث ثم جبلة واشتهر بكثير من المبانى ثم ملك بعده ابنه الحرث وكان يسكن البلقاء وملك بعده ابنه المنذر الاكبر ثم ملك بعده أخوه النعمان ثم ملك بعده جبلة ثم أخوه الايهم واشتهر بالمبانى أيضا ثم أخوه عمرو بن الحرث ثم جفنة الاصغر وهو الذى أحرق الحيرة وبذلك سموا ولده آل محرق ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر ثم النعمان الثانى ثم جبلة وهو الذى حارب المنذر بن ماء السماء وكان ينزل بصفين ثم ملك بعده النعمان الثالث ثم ملك أخوه الحرث ثم ابنه النعمان الرابع وهو الذى أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين ثم ملك بعده المنذر الثانى ثم ملك أخوه عمرو ثم أخوه حجر ثم ابنه الحرث ثم ابنه جبلة الرابع ثم ابنه النعمان ويكنى بأبى كرب ثم الايهم بن جبلة وهو صاحب تدمر وله عدة مبان ثم بعده أخوه المنذر ثم أخوه شراحيل ثم أخوه عمرو ثم أخوه جبلة الخامس ثم جبلة السادس بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان وأسلم فى خلافة عمر رضى الله عنه ثم تنصر كما سنذكره

﴿ الفصل التاسع ﴾

ملوك كنده

ومن مشاهير ملوك العرب أيضا كندة وهم من بنى كهلان وكندة لقب لاحد آبائهم [١] وكانت بلادهم فى شرقى اليمن ومدينة ملكهم تدعى دمون وكانت التبابعة يصاهرونهم ويولونهم على بنى معد بن

(١) وهو ثور بن عفير أبو حى من اليمن لانه كند أباه النعمة أى كفر بها ولحق باخواله اهـ

عدنان بالحجاز وأول ملوكهم يدعى حجر آكل المرار وكانت كندة قبل أن تملك حجرا عليهم بغير ملك فأكل القوى الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائرا الى العراق استعمله عليهم فسدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقى وحده فى مملكته مطاعا حسن السيرة (٥٠٣ م)

وبعده ملك ابنه عمرو يقال له المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحرث وكان قوى الملك وافق كسرى بن فيروز على الزندقة والدخول فى مذهب المجوس ويقال ان قباذ طرد المنذر ابن ماء السماء اللخمى عن ملك الحيرة وملك الحرث المذكور موضعه فعظم شأن الحرث فلما ملك أنوشروان أعاد المنذر وطرد الحرث المذكور فهرب وتبعته عدة قبائل فظفروا بأمواله وبعض من بنى حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وهرب الحرث الى ديار كلب ومات بها وكان الحرث المذكور ملك ابنه حجرا على بنى أسد كما ملك باقى بنيه على قبائل العرب ثم ان حجرا المذكور بقى أمره فى بنى أسد حتى تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة بموضع يقال له دمون من أرض اليمن فلما بلغ امرؤ القيس الخبر حلف ان لا يقرب لذة حتى يدرك ثأره من بنى أسد فاستنجد ابنه المذكور الشاعر الطائر الصيت بكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه وهربت بنو أسد منهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموعه خوفا من المنذر فسار الى موثر الخير بن ذى جدن من ملوك حمير صريخا بنصره بخمسمائة رجل من حمير وبجمع من العرب بسواهم وجمع المنذر لامرئ القيس ومن معه وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الاساورة فانهزم امرؤ القيس وفرت حمير ومن كان معه ونجا بدمه وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من قبيلة الى أخرى حتى قصد السموأل بن عاديا فأكرمه وأنزله وأقام عنده امرؤ القيس الى ماشاء الله ثم سار امرؤ القيس الى القيصر يوستنيانوس ملك الروم بالقسطنطينية مستنجدا وأودع دروعه عند السموأل وعند عودته خائبا من عند قيصر مات عند جبل يقال له عَسيب وهو آخر ملوك كندة على مايعلم ومن بنى كندة بطون كثيرة كان منهم بالاندلس بنو صُمادح وبنو ذى النون وبنو الافطس من ملوك الطوائف

ولما مات امرؤ القيس سار الحرث بن أبى شمر الغسانى الى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكان امرؤ القيس لما تفرقت عنه جموعه التجأ الى السموأل بقصره المسمى بالابلق وترك عنده مائة درع وأموالا وترك أيضا ابنته حتى يرجع من عند قيصر فامتنع السموأل من تسليم ذلك الى الحرث وكان بين تلك الدروع خمسة شهيرة مسماة كانت لبنى آكل المرار يتوارثونها وكان الحرث قد أسر ابن السموأل فلما امتنع من تسليم ذلك الى الحرث قال الحرث إما أن تسلم الدروع وإما قتلت ابنك فقال السموأل لست أخفر ذمتى فاصنع ماشئت فذبح ابنه بمرأى منه فضرب به المثل فى الوفاء لذلك

(الفصل العاشر)

ذكر عدة من ملوك العرب

منهم عمرو بن لحى بن حارثة من ولد كهلان بن سبأ كان ملكا على الحجاز كثير الذكر فى الجاهلية واليه

تنسب خزاعة وهو أول من جعل الاصنام على الكعبة وأقام هُبل أعظم أصنامهم وحمل العرب على عبادتها وطاعتها

ومن ملوك العرب أيضا زهير بن حباب بن هبل الكلبي وكان يسمى الكاهن لصحة رأيه وكان مأمون النقيبة واجتمعت عليه قضاعة فغزا بهم غطفان لانهم بنوا حرما مثل حرم مكة فلما بلغ زهيرا ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حي ثم نادى في قومه وأبلغهم ما بلغه وقال إن أعظم مأثرة ندخرها بين العرب أن نمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهما قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم وأخذ أموالهم وكان زهير المذكور قد اجتمع بأبرهة الاشرم الحبشي صاحب الفيل فأكرمه وفضله على غيره من العرب وأمره على بكر وتغلب فاستمر أميرا عليهم حتى خرجوا عن طاعته فغزاهم وقتل فيهم وأسر وجوههم مثل كليب ومهلهل وغيرهما وأخذ الاموال والسبايا وعاد وله حروب يطول شرحها ولما أسن وثقلت همته وكف بصره استخلف على القوم ابن أخيه عبد الله بن حكيم وقال يوما ألا إن الحي ظاعن فقال عبد الله ألا إن الحي مقيم فقال زهير من هذا المخالف علي فقالوا ابن أخيك فقال أعدى الناس للمرء ابن أخيه ثم شرب الخمر صرفا حتى مات

ومن ملوك العرب أيضا كليب بن ربيعة بن الحرث بن وائل وكان ملكا على بني معد وقاتل جموع اليمن وهزمهم وعظم شأنه وبقي زمانا من الدهر ثم داخله زهو شديد وبغى على قومه فصار يمنعهم مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويقول وحش أرض كذا من جواري فلا يصاد ولا ترد ابل مع ابله ولا توقد نار مع ناره وبقي كذلك حتى قتله جساس بن مرة في حرب شهيرة تدعى حرب البسوس ولما كانت هذه الحرب من الحروب التي اشتهرت بين العرب أحببت ذكرها هنا مفصلة بقدر ما يحتمله المقام نقلا عن ثقات المؤرخين فأقول

البسوس امرأة من العرب ضرب بها المثل في الشؤم فقيل أشأم من البسوس لانه بسببها ثارت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة حتى كادوا يفنون بعضهم بعضا وسببها أن هذه المرأة كانت نازلة على جساس ابن أختها فنزل بها رجل يقال له سعد بن شمر بن طوق الجرمي وكان له ناقة اسمها سراب ترعى مع ابل جساس وكان كليب قد حمى أرضا بالعالية (وهي من جهات نجد) فلم يكن يسمح أن يرعى فيها مع ابله غير ابل جساس لانه كان متزوجا بجليلة بنت مرة أخت جساس فخرج كليب يوما يتعهد الابل ومراعيها فرأى بها سراب فأنكرها فقال له جساس هذه ناقة جارنا الجرمي فقال لا تعد هذه الناقة الى هذا الحمى فقال جساس لا ترعى ابلي مرعى الا وهذه معها فقال كليب لئن عادت لاضعن سنان سهمي في ضرعها فقال جساس لئن وضعت سهمك في ضرعها لاضعن سنان رمحي في لبتك ثم تفرقا وخرج كليب أيضا الى الحمى فرأى سراب فرماها فأصاب ضرعها فولت تعج حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب لبنا ودما فلما رأى ما بها صرخ بالذل وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت اليه فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت واذلاه وكان جساس يسمع صياحها فسكتها وسكت الجرمي وقال لهما اني سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة سأقتل غلالا وقيل عليان وكان فحل ابل كليب لم ير في زمانه مثله وقيل انما أراد جساس بمقالته كليبا فبلغ كليبا قوله فقال ما تمنى جساس من عليان ودونه خرط القتاد في الليلة الظلماء وقد ظن أنه يقتصر على قتل هذا الجمل

ثم أصابت القوم سماء فمروا بنهر فاراد جساس نزوله فامتنع كليب قصداً للمخالفة ثم مروا على مكان فأراد جساس النزول فامتنع كليب أيضاً ثم مروا بآخر فجرى الامر على ذلك حتى نزلوا مكاناً يقال له الذنائب وقد كلوا وأعيوا وعطشوا فأغضب ذلك جساساً فجاء وقال لكليب أطردت أهلنا من المياه حتى كدت تقتلهم فقال كليب مامنعناهم من ماء الا ونحن له شاغلون فقال له هذا كفعلك بناقة جارخالتي فقال له أوذكرتها أما انى لو وجدتها فى غير ابل مرة لاستحللت تلك الابل فعطف عليه جساس وطعنه فالقاه مشرفاً على الموت ثم أتم قتله فثارت بعد ذلك تلك الحروب الهائلة بسبب تلك الناقة حتى قالوا أيضاً أشأم من سراب ثم قام أخوه مهلهل وجمع قبائل تغلب واقتتل مع بنى بكر وجرى بينهم عدة وقائع مشهورة ومن ملوك العرب زهير بن جذيمة وكانت له إتاوة على هوازن يأخذها كل سنة فى عكاظ أيام الموسم وكان يسوم هوازن الخسف فكان فى قلوبهم منه عداوة ثم قتلوه

ومن ملوك العرب قيس بن زهير العبسى وله حروب وأيام مشهورة ويقال إنه بعد حروبه انفرد عن بنى عبس وتاب وتنصر وساح فى الارض حتى انتهى الى عمان فترهب بها زماناً ويقال إنه تزوج لما انفرد عن بنى عبس وولد له ولد اسمه فضالة بقى حتى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وللعرب غير ذلك ملوك كثيرة لا حاجة لذكرهم لتشتت أخبارهم وتفرق أيامهم

(الفصل الحادى عشر)

ذكر علوم العرب وآدابهم

فاما علم العرب الذى كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا موسومين بين الامم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لايامها والشاهد على حكامها به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لا يهنؤون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج

قال الصفدى ما كان للعرب ما تفتخر به الا السيف والضيف والبلاغة وكانوا كل حول يتقاطرون على سوق عكاظ (۱) ويتبايعون ويتناشدون ويتعاكظون ولقد بلغ كلف العرب

(۱) عكاظ قرية بالصحراء بين النخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر مدة عشرين يوماً تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً يتقنعون حتى لا يعرفوا وان كانت هذه السوق يبيعون فيها ويشترون الا أن الغرض الحقيقى منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج أفكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم وأول ما يبرز الشاعر فى الميدان يظهر الشجاعة والحماس ويتمانى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ويلبس عليه من الملابس ما يدل على شعار مرتبة ولادة نار شرف ولا مجد بين قومه فلا تكاد تنقلب تشخص اليه أبصار الحاضرين وتحدق به الاعين وتتأمل فى مشيته حتى يصعد الى محل الخطابة فينشد بصوت جهورى

بالشعر

بالشعر وتفضيلهم له الى أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات ويقال لها معلقات لانها علقت فى أستار الكعبة أما الكتابة فحكوا أن ثلاثة نفر من طى كانوا على دين عيسى فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقلة القرطاس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كتاب والأميين والامى من كان لا يعرف بالكتابة فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والاميون بمكة

أما من جهة الملاحة فلم نقف لهم فى ذلك العهد على أخبار قويمة يعتد بها بل غاية ما نعرفه انه كان لبعض القبائل منهم عدة سفائن اتخذوها على مثال ما عند مجاوريهم من الامم المتمدنة فكان لهم منها التعاطى التجارة بين بلادهم وسواحل افريقية وجهات الهند ثم توسعوا فى الملاحة قليلا حتى بلغوا زنجبار وجزائر القمر وما بعد من شواطئ الهند وبذلك انتشرت بعض عوائدهم وتوطن منهم نفر فى بعض الجهات حتى كثر نسلهم وامتد نفوذهم

الباب التاسع

(الفصل الاول)

دول العرب بعد ظهور الدين الاسلامى

لما ولد سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وترعرع حفظه الله من رجس الجاهلية فشب على حميد الخصال وممدوح الفعال حتى بدت عليه مظاهر النبوة ودلائل الرسالة وهو فى سن الحلم يعلم ذلك من طالع سيرته الشريفة ووقف على أخلاقه المنيفة صلوات الله عليه وسلامه

ولما بلغ سن الاربعين بعثه الله سبحانه وتعالى رسولا ونبيا نابخا بشر بعثته المطهرة شرائع الماضين من الانبياء عليهم السلام فأخذ صلى الله عليه وسلم يدعو العرب أولا الى الاسلام وعبادة خالق الانام وترك الضلال والاخذ بحميد الخصال وكانت العرب اذ ذاك تعبد الاصنام ولا تعرف الحلال من الحرام يصرفون أوقاتهم بالغارات ويحاربون بعضهم بعضا على أقل الهفوات فشق عليهم الامر واستعظموه وتجهروا عليه وآذوه فأوحى الله اليه بترك مكة والهجرة الى المدينة فهاجر اليها فى السنة الحادية عشرة من البعثة (١٦ يوليه سنة ٦٢٢ م) وهذه الحادثة هى مبدأ التاريخ عندنا معاشر الاسلام وكانت ولادته عليه الصلاة والسلام عام الفيل ١٢ ربيع الاول

قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة على البديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن الغالب على فحول الشعراء أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقدر غيرهم على الاتيان به فى حول كامل ومنهم من كان بخلاف ذلك ومثل عكاظ فى ذلك سوق ذى المجاز خلف جبل عرفات وسوق مجنة وغيرها وكانت هذه الاسواق بسيطة مجردة من الزينة والزخرفة لكنها مهيبة محترمة يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات بلاد العرب ويقوم الشاعر وأرباب المجلس قعود فينشد الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها وكانت العرب اذا أتت فى الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل الدخول فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل اهـ

سنة احدى وخمسين قبل الهجرة (دسمبر سنة ٥٧١ م) وقد انتشر دين الاسلام بقسم عظيم من بلاد العرب وتسامعت به العرب فأقبلت على اعتناقه لحثه على الفضائل وطعنه فى الرذائل الا أن بعض المتعصبين للوثنية قاوموه أشد المقاومة فحصلت بينه و بينهم الغزوات المشهورة التى من أعظمها بدر الكبرى وغزوة بنى قَينُقاع وأحد و بنى النَّضِير وذات الرِّقاع و بدر الثانية والاحزاب وقريظة وبنى المصطلق وخيبر وكان النصر فى جميعها للاسلام

وفى السنة العاشرة للهجرة حج النبى عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وعلم الناس مناسك الحج والسنن ونزل قوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) فبكى أبو بكر رضى الله عنه لما سمعها فكأنما استشعر أنه ليس بعد الكمال الا النقصان وانه قد نعيت الى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس خطبة بين فيها الاحكام منها

يا أيها الناس إنما النسئ زيادة فى الكفر فان الزمان استدار كهيئة يوم خلق الله سبحانه وتعالى السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا وتم حجته وسميت حجة الوداع لانه لم يحج بعدها ثم وعك ومرض صلى الله عليه وسلم ولما تزايد به المرض أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ثم توفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر وكان عمره ثلاثا وستين سنة ودفن بالمدينة فى حجرته صلى الله عليه وسلم حيث قبض وكان دفنه صلى الله عليه وسلم على الاصح ليلة الاربعاء وبقى ثلاثا لم يدفن وكل أولاده عليه الصلاة والسلام من خديجة الا ابراهيم فانه من مارية القبطية وأولاده الذكور من خديجة القاسم وبه كان يكنى والطيب والطاهر وعبد الله ماتوا صغارا والاناث أربع فاطمة زوج على وزينب زوج أبى العاص ورقية وأم كلثوم تزوج بهما عثمان رضى الله عنه واحدة بعد أخرى وتزوج صلى الله عليه وسلم خمس عشرة امرأة وتوفى عن تسع غير مارية القبطية سريته

قال ابن خلدون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يئس من اسلام قومه فى أول الامر يعرض نفسه على وفود العرب وحجاجهم أيام الموسم أن يقوموا بدين الاسلام وينصروه حتى يبلغ ما جاء به من عند الله وقريش يصدونهم عنه و يرمونه بالجنون والشعر والسحر كما نطق به القرآن العظيم وبينما هم فى بعض المواسم عند العقبة لقى رهطا من الخزرج فقال لهم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى يهود قالوا نعم قال ألا تجلسون أكلمكم فجلسوا معه فدعاهم الى الله وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض تعلموا والله انه النبى الذى تعدكم يهود به فلا يسبقنكم اليه أحد فاجابوه لما دعاهم وصدقوه وآمنوا به وأرجؤوا الامر فى نصرته الى لقاء قومهم وقدموا المدينة فذكروا لقومهم شأن النبى عليه الصلاة والسلام ودعوهم الى الاسلام ففشا فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم وافى الموسم فى العام المقبل اثنا عشر منهم فوافوه بالعقبة الاولى فبايعوه على الاسلام بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب ومعناه انه حينئذ لم يؤمر بالجهاد وكانت البيعة على الاسلام فقط كما وقع فى بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيأ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن الآية وقال لهم فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيأ فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة

له وان ستر ثم عليه فى الدنيا الى يوم القيامة فأمركم الى الله سبحانه وتعالى ان شاء عذب وان شاء غفر وبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين فكان يصلى بهم وكان منزله على أسعد بن زرارة وغلب الاسلام فى الخزرج وفشا فيهم وبلغ المسلمون من أهل يثرب ٤٠ رجلا ثم أسلم بعض الاوس وأوعب الاسلام بنى عبد الاشهل وأخذ من كل بطن من الاوس ثم رجع مصعب الى مكة وقدم المسلمون من أهل المدينة معه فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق فبايعوه وكانوا ثلثمائة وسبعين رجلا وامرأتين بايعوه على الاسلام وان يمنعوه ممن أراده بسوء ولو كان دون ذلك القتل وأخذ عليهم النقباء اثنى عشر تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس

ولما علمت قريش بذلك خرجوا فى طلب القوم ولم يمكنهم الله مما أرادوا ثم كانت بيعة الحرب لما قدم المسلمون المدينة فبايعوه على السمع والطاعة بالعسر واليسر والمنشط والمكره وأثرة عليهم وأن لا ينازعوا الامر أهله وأن يقوموا بالحق أينما كانوا ولا يخافون فى الله لومة لائم ولما تمت بيعة العقبة وأذن الله لنبيه فى الحرب أمر المهاجرين الذين كانوا يؤذون بمكة أن يلحقوا باخوانهم من الانصار بالمدينة فخرجوا أرسالا وأقام هو بمكة ينتظر الاذن فى الهجرة فهاجر من المسلمين كثير وكان عمر بن الخطاب فيمن هاجر هو وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان ثم أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فهاجر وصحبته أبو بكر ثم تلاحق به المهاجرون واستوعب الاسلام سائر الاوس والخزرج وسموا الانصار يومئذ بما نصروا من دينه وخطبهم النبى عليه الصلاة وأتم السلام وذكرهم وكتب بين المهاجرين والانصار كتابا وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم ثم كانت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قومه فغزاهم وغزوه ثم كان الظهور والظفر له كما تقدم وصبر الانصار فى المواطن واستشهد من أشرافهم ورجالاتهم كثير هلكوا فى سبيل الله

ولما فتحت مكة سنة ثمان من الهجرة ظهر أمر الاسلام وعظمت سطوته ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم بعد فتح مكة وغزوة حنين فيمن كان يستألفه على الاسلام من قريش وسواهم وجد الانصار فى أنفسهم وقالوا أسيوفنا تقطر من دمائهم وغنائمنا تقسم فيهم مع أنهم كانوا ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فتح بلاده وجمع على الدين قومه أنه سيقيم بارضه وله غنية عنهم وسمعوا ذلك من بعض المنافقين وبلغ ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم وقال يا معشر الانصار ما الذى بلغكم عنى فصدقوه الحديث (فقال ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى وعالة فأغناكم الله ومتفرقين فجمعكم الله فقالوا الله ورسوله أمن فقال لو شئتم لقلتم جئتنا طريدا فآويناك ومكذبا فصدقناك ولكن والله انى لأعطى رجالا استألفهم على الدين وغيرهم أحب الى ألا ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والبعير وتنقلبون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رحالكم أما والذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار الناس دثار وأنتم شعار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار) ففرحوا بذلك ورجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الى يثرب فلم يزل بين أظهرهم الى أن قبضه الله سبحانه وتعالى اليه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة العامة كتب الى الاقيال

والملوك يدعوهم الى الاسلام وذلك فى سنة سبع من الهجرة فأرسل الى كسرى (١) پرويز بن هرمز عبد الله بن حذافة فمزق كسرى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وقال يكاتبنى بهذا وهو عبدى ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال مزق الله ملكه فاستجاب الله منه وأسلم باذان عامل كسرى على اليمن وأسلم معه أناس كثير من فارس وأرسل دحية بن خليفة الكلبى الى هرقل ملك الروم فأكرم هرقل دحية ووضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مخدة ورد دحية ردا جميلا وأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب مصر المسمى جوريج بن منى فأكرم حاطبا وأهدى الى النبى صلى الله عليه وسلم هدية وأرسل عمرو بن أمية الى النجاشى ملك الحبشة وأسلم على يد جعفر ابن أبى طالب حين كان عنده فى الهجرة وأرسل غيرهم الى ملوك العرب بجزيرتهم فنهم من أطاع ومنهم من عصى فأخذهم الله أخذا وبيلا

﴿ الفصل الثانى ﴾

دولة الخلفاء الراشدين

١١ – ٤٠ هـ

أبو بكر الصديق رضى الله عنه (١١ – ١٣ هـ) لما انتقل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى الدار الآخرة اتفقت كلمة المسلمين على مبايعة أبى بكر الصديق وكان النبى لما اشتد به المرض أمره بالصلاة بالناس والصلاة عماد الدين كما لا يخفى فتمت له البيعة سنة ١١ هـ وهو من سادات قريش وأشرافها وفى مبدإ خلافته ارتدت عدة قبائل من العرب عن الاسلام وتوقف بعضها

(١) صورة المكتوب الذى أرسله عليه السلام الى كسرى بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله أدعوك فانى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم وان توليت فعليك اثم المجوس والسلام

وصورة ما كتبه الى ملك الروم مذكورة عند الكلام على هرقل فلتراجع

وكتب الى المقوقس يقول

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون – فكتب اليه المقوقس بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد عبد الله من المقوقس عظيم القبط أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه وقد علمت ان نبيا بقى وكنت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وبكسوة وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام

وكتب الى النجاشى بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى الاصحم ملك الحبشة سلام عليك فانى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى عليه السلام فخلقه من روحه ونفخه وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعنى وتؤمن بى وبالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين فاذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فانى أدعوك وجنودك الى الله وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى اهـ منشا تغريدون بك

عن

عن دفع الزكاة فاهتم أبو بكر رضى الله عنه وأرضاه بقتالهم وأنفذ لذلك الجيوش يقودها كبار الصحابة وأبطال المجاهدين فانتصر عليهم بعد أن بدد شمل جيوشهم

ومن الحوادث التاريخية المهمة ادعاء قوم ببلاد العرب النبوة وكان يتزايد شرهم في خلافة أبي بكر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وهم الاسود العنسى واسمه عبهلة بن كعب ويقال له ذو الحمار وكان استولى على اليمن واستفحل أمره بها فقتله المسلمون بممالأة زوجته بصنعاء قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة ودام أمره أربعة شهور ومنهم مسيلمة الكذاب ادعى النبوة أيضا ببلاد اليمامة وكان يؤذن له ويشهد له بالرسالة وكان يسجع لقومه اسجاعا يزعم انها قرآن يأتيه وكان فى أول أمره ادعى النبوة استقلالا ثم مشاركة مع النبي عليه الصلاة والسلام فبعث اليه أبو بكر الجيوش تحت قيادة خالد بن الوليد واستمرت الحرب بينهما سجالا ثم تغلب المسلمون وظفروا بمسيلمة فقتلوه ومنهم سجاح بنت الحرث ادعت النبوة فى بني تميم وتغلب وبنى ربيعة ولما كانت ضعيفة قليلة الأتباع لم يهتم أبو بكر بأمرها بل التفت لما هو أهم من ذلك فى إعلاء كلمة الدين بتوسيع نطاق الاسلام فكتب الى خالد يأمره بالزحف على العراق فسار اليها وافتتح الحيرة صلحا سنة (١٢ هـ) فكانت أول مكان افتتح من العراق وكان أبو بكر وجه قبيل ذلك أبا عبيدة بن الجراح فى زهاء عشرين ألف مقاتل الى الشأم ولما بلغ هرقل ملك الروم دخول العرب بلاد الشأم وجه الجيوش لقتالهم وكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة يأمره بالمسير لنجدة أبي عبيدة وحصل بين المسلمين والروم عدة وقائع أشهرها واقعة أجنادين واليرموك سنة (١٣ هـ) وكانتا سببا فى فتوح بلاد الشأم ثم فتح المسلمون بُصْرى (١) وكانت قوية منيعة وفى تلك الاثناء توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى جمادى الثانية سنة (١٣ هـ) وعمره ٦٣ سنة

ومن أعماله رضى الله عنه أيضا أنه أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي عليه الصلاة والسلام وذلك لما رأى كثرة من قتل من المسلمين فى حرب مسيلمة من القراء والمهاجرين والانصار

عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ) بويع بالخلافة يوم مات أبو بكر الصديق وأول خطبة خطبها على الناس قال أيها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف من القوى حتى آخذ الحق منه وكان جيش المسلمين لما تولى الخلافة يحاصر دمشق وعزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيش وولى مكانه أبا عبيدة لخوفه افتتان الناس بخالد

(١) ويسميها الاتراك اسكى شام هى قصبة كورة حوران بسوريا الى الجنوب الشرقى من دمشق واقعة فى بسيط من الارض وقد كانت من أجل المدن واعظمها محيط أسوارها أربعة أميال وكان لها رساتيق وعمارات وقرى وبها أسواق رائجة وتجارة واسعة وفى جنوبها قلعة منيعة وفيها آثار مع بديع وكثير من المساجد والمعابد القديمة وأسوارها الآن وأبنيتها خربة فيها نحو ستين بيتا للمسلمين وجامعان ومسجد ومن آثارها القديمة بيت ينسب الى الراهب بحيرا وآثار هيكل للاونان متقن البناء وكانت قلعتها من أعظم معاقل الشام وأمنعها وكان لهذه المدينة شهرة عظيمة فى أيام الملوك المقدونيين وملوك الرومان وافتتحها الاسكندر ثم تغلب عليها ملوك سوريا ثم الرومان وسموها طريانو بصرى وكانت مقاما لجنودهم مدة اسكندر سفيروس وبها ولد الامبراطور فيلبس العربي وحازت أهمية كبيرة مدة قسطنطين الكبير وزادت عمارتها مدة دولة تدمر افتتحها العرب سنة ١٣ هـ من صاحبها رومانوس صلحا بعد أن اقتحموا المدينة ولهذه المدينة ذكر فى أخبار الحروب الصليبية وذكر ما أورق كتب العرب وأشعارهم اهـ

وكتب اليه بذلك بالسبب الحاصل له على ذلك (١) ولما فتحت دمشق بعد حصارها سبعة أشهر اضطربت أحوال دولة الروم جدا واستولى القلق على هرقل فصار ينهزم أمام المسلمين حتى خرج من الشام قاصدا القسطنطينية ويقال انه التفت الى الشام وقال السلام عليك ياسوريا سلام لااجتماع بعده ثم فتحت بعلبك وحلب (٢) وانطاكيه (٣) والقدس وطال حصاره وامتنع على المسلمين أمره وطلب نائب هرقل به وكان يدعى صفرونيوس من أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل

---

(١) وهذه صورة كتابه الى أبي عبيدة عامر بن الجراح بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحى فان الله لا يستحيى من الحق وانى أوصيك بتقوى الله العظيم الذى لا يبقى ويفنى سواه الذى استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل انى أرجو لكم النصر واياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة وأغمض عن الدنيا عينيك واله عنها قلبك واياك ان تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيرا أو سفرا طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فاحزم الناس الخارج الى غيرها واتق الله فى سرك ونجواك وتفكر فى زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيها الخمس والسلام اه

(٢) لما نازل أبو عبيدة وخالد بن الوليد مدينة حلب من أعمال قنسرين كان بها جمع عظيم من الروم فجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه المسلمون ثم بعد ذلك طلب أهلها الصلح فأجابهم أبو عبيدة الى ذلك غير ان قلعتها امتنعت عليه وبها جمع من الروم كثير فلما أعيا أمرها المسلمين كتب أبو عبيدة الى عمر الفاروق رضى الله عنه يستأذنه فى ترك قلعة حلب والانصراف الى الجهات التى لم تفتح بعد فورد له منه الكتاب الآتى وهو

بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك على مع رسالة فسرنى ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحى التى قربت من انطاكيه فهذا بئس الرأى أتترك رجالا ملكت دارهم ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه فاهذا رأى فيضعف رأيك ويعلو ذكره عاصنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فبث الخيل فى السهل والسعة واكففها فى المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتى عليك وعلى جميع المسلمين وقد أنفذت اليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متواليا ان شاء الله تعالى اه

(٣) ولما فتح انطاكية بعث الى الخليفة يعلمه بذلك وانه لم يرد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها مخافة أن يخلد العسكر الى الراحة فورد اليه منه الكتاب الآتى وهو

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره مليا على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معينا لطيفا وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى فى كتابه العزيز يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وكان يجب عليك ان تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الابدان النصبة فى قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنظر أمرى الذى آمرك به أن تدخل الدروب خلف العدو فأنت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صوابا فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك

دمشق بشرط أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب متوليا أمر الصلح فكتب أبو عبيدة الى عمر بذلك فقدم وفتحه واستخلف على المدينة على بن أبى طالب كرم الله وجهه وفتحت جميع مدن فلسطين وكذلك مرعش وغيرها سنة ١٦ هـ

ومن الفتوحات التى تمت فى خلافة عمر رضى الله عنه فتح بلاد الفرس فبدأ بالعراق أولا لانه لما ولى الامر لم يكن له هم الا العراق فعقد لابى عبيد بن مسعود على زهاء ألف رجل وأمره بالمسير الى العراق فالتقى مع الاعاجم ثم حمل العرب حملة رجل واحد فانهزم العجم لاحقين بالمدائن وقتل مهران قائدهم فى الواقعة ثم ان عمر وجه سعد بن أبى وقاص على بلاد الفرس وكانت له بها وقائع عظيمة وأعمال جسيمة وما زالوا يتقدمون ويفتحون البلدان والحصون حتى تم لهم فتح بلاد العجم وازالة ملكها وكانت الاموال والغنائم والآنية الذهبية والفضية التى غنمها المسلمون من تلك البلاد خصوصا من دار ملكهم المسماة عند العرب بالمدائن وعند الفرنج اكتيزيفون تفوق حد الوصف وكان لكسرى يزدجرد ملك الفرس فى ذلك الوقت بساط طوله ٦٠ ذراعا فى ٦٠ ذراعا وكان على هيئة روضة قد صورت فيه الزهور بالجواهر على قضبان الذهب ولما قطع عمر هذا البساط وقسمه بين المسلمين أصاب على بن أبى طالب منه قطعة باعها بعشرين ألف درهم فعلى هذا تبلغ قيمة هذا البساط الملايين من الدراهم أما يزدجرد ملك الفرس فما زال يتقهقر أمام الاسلام من مكان الى مكان بعد أن استغاث بالصين والصُّغْد وغيرهما ثم التجأ أخيرا الى ملك الترك بفرغانة فأقام هنالك مع حاشيته زمن عمر كله ثم مات أما ما بقى من عسكره فانهم صالحوا المسلمين

وبعد فتح سوريا حدث بجيش المسلمين طاعون شديد اشتهر بطاعون عمواس وهى قرية كان أول ظهور الطاعون بها ومات به أبو عبيدة بن الجراح واستخلف على الجيش معاذ بن جبل الانصارى فمات أيضا بالطاعون واستخلف عمرو بن العاص ومات من المسلمين فى هذا الطاعون ٢٥ ألف نفس فضعف أمرهم وطمع فيهم العدو ولما ارتفع الوباء سار عمر الى الشأم فقسم مواريث الذين ماتوا بالطاعون ثم رجع الى المدينة

﴿ فتح بلاد مصر ١٨ - ٢٠ هـ ﴾

لما قدم عمر بن الخطاب فى تلك السنة لقسمة المواريث اختلى به عمرو بن العاص وقال له ائذن لى أن أسير الى مصر وقال له ان فتحناها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب من ذلك وقال هذا تغرير بالمسلمين لان قدمهم لم ترسخ بعد فى البلاد التى فتحوها حديثا وكانت جيوشهم موزعة فى أنحاء سوريا والعراقين وبلاد الفرس وأرمينيا وغيرها وقد مات منهم بالطاعون عدد عظيم وما زال عمرو بن العاص يحرضه على فتح مصر ويعظم أمرها لديه ويهون فتحها عليه حتى ركن الى قوله وأذن له فى المسير ويقال ان عمرو بن العاص كان ذهب الى مصر فى الجاهلية وعرف موقعها وبلادها وقوة أهلها ولما استوثق عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إن العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه انه لم يكن له فى الحجاز أهل ومن اراد ان يشترى الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته اهـ منشآت السلاطين لفريدون بك

من قوله عقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من قبيلة علىّ وقال له سر وأنا مستخير الله فى سيرك وسيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص فى جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس

ثم ان عمر بن الخطاب استخار الله سبحانه وتعالى فكأنه تخوف على المسلمين فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو بقرية يقال لها رفح (١) فتخوف عمرو ابن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحه يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول وصار يدافعه حتى نزل العريش فسأل عنها وعن أى أرض تكون فقيل له انها من مصر فدعا بالرسول وقرأ الكتاب على المسلمين ثم قال هيا بنا الطاعة لامر أمير المؤمنين وما زالوا يجدون فى المسير حتى بلغوا الفرما (٢) وكانت معقلا حصينا على حدود مصر فقاتل الروم بها قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه ثم تقدموا وكانوا لا يدافعون الا بالامر الخفيف حتى أتوا بلبيس وكانت حصينة فافتتحوها بعد قتال شديد وكان بها ابنة المقوقس وهو نائب الروم على مصر السفلى ولما قبض المسلمون عليها أرسلها عمرو الى أبيها معززة مكرمة فوقع لديه ذلك أحسن موقع وكتب عمرو بن العاص الى عمر يخبره بالفتح ويطلب منه المدد فأمده بأربعة آلاف رجل فسار عمرو بمن معه حتى نزل على حصن قوى على شاطئ النيل من الضفة الشرقية يقال له بابل أو بابليون شيده الفرس قديما وقت استيلائهم على مصر وهذا الحصن كان أمام مدينة منفيس أو منف التى على الضفة الغربية وكانت مقر المقوقس وأخذ عمرو فى مقاتلة الروم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام ألف وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعُبادة بن الصامت ومَسْلَمة بن مُخَلَّد واعلم أنه صار معك اثنا عشر ألفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة اه وكان الروم قد خندقوا عليهم وألقوا بالخنادق حسك الحديد ولما امتنع الحصن على المسلمين لمنعته وتيقظ الروم قال الزبير انى أهب نفسى لله سبحانه وتعالى وأرجو أن يفتح علىّ فوضع سلما الى جانب الحصن وصعد

(١) مدينة قديمة حصينة على تخوم سوريا ومصر الى جنوبى غزة انتصر فيها بطليموس الرابع على انطيوخوس الكبير (٢١٧ ق م) وأخذ منه فلسطين وأرض البقاع قال ياقوت رفح منزل فى طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر وهو أول الرمل خرب الآن تنسب اليه الكلاب وقال المهلبى بعد ان ذكر رفح وانها عامرة ان كلابهم اضر كلاب الارض بسرقة ما يسرق منه الكلاب ومن رفح الى غزة ١٨ ميلا اه

(٢) قال فى تقويم البلدان انها بلدة على شاطئ بحر الروم خراب وهى بالقرب من قطية على بعد يوم وقال ابن حوقل وبها قبر جالينوس وعن ابن سعيد ان الفرما بقرب بحر الروم من بحر القلزم حتى يبقى بينهما نحو سبعين ميلا ويقال انها قرية أم اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام قال المقريزى وكانت الفرما على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة حصينة وبها قبر جالينوس الحكيم بنى بها المتوكل على الله حصنا (٢٣٩ ﻫ) وقال غيره يذكر أهل مصر انه كان منها طريق الى جزيرة قبرس فى البر فغلب عليه البحر ويقولون انه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الابلق وفى سنة ٥٠٩ ﻫ وصل بغدوين الى أعمال الفرما فسير اليه الافضل بن أمير الجيوش العساكر فلما علم بتواصلها وتحقق عدم امكان الاقامة أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق وهدم المساجد فاحرق مساجدها وجميع البلد وفى عودته مات فى الطريق وآخر أمرها انه خربها الامير شاور لما خرج منها متوليها أخوه ضرغام فاستمرت خرابا لم تعمر بعد اه

عليه

عليه وتبعه كثير من العسكر حتى كاد السلم ينكسر ولم يكن الروم يعلمون بشئ من ذلك فلم يشعروا الا وقد دهمهم العرب فاخذوا فى الفرار وعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فهرب هو وجماعة من أكابر القبط لما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ولحقوا بجزيرة وسط النيل وأمروا بقطع الجسر الذى يوصل بينها وبين الحصن وكان مصنوعا من سفن متلاصقة بجانب بعضها ولم يتركوا فى الحصن غير الحامية ومعهم بعض السفن راسية فى النيل يتخابرون بها مع المقوقس أو يهربون بها اذا استولى العرب على الحصن وكان مكث المسلمين على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر

ولما استولى المسلمون على الحصن أرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يوبخه على فعله ويخوفه من جيوش الروم وان النيل قد أحاط بهم فاصبحوا أسراء فى أيديهم وطلب منه أن يرسل اليه قوما من عنده لتقرير أمر الصلح فرد عمرو بن العاص رسل المقوقس ردا جميلا وأرسل معهم من يتكلم فى أمر الصلح وكانت طلبات عمرو تنحصر فى ثلاثة شروط وهى إما الدخول فى الاسلام فيكونوا للمسلمين اخوانا ويكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وان أبوا فالجزية والا فالقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لاحدهم رغبة فى الدنيا ولا نهمة وانما جلوسهم على الارض وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا الحر فيهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقدروا على الخروج من موضعهم

ثم بعد أن شاور المقوقس أصحابه طويلا ونظروا فى الامر مليا لم يجدوا لهم وسيلة أحسن من طلب الصلح ودفع الجزية وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول انى لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الى بها فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط فلم يكن لى أن أفتات عليهم وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ورجعوا الى قولى فأعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك لنا جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك السؤال فقالوا لا نجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كلها فيأ لنا وغنيمة كما صار القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ما عهد الى أمير المؤمنين فى عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الى فيها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال من الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شئ منها فشرط

هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية فرض عليهم الدينارين رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر مليونا من الدنانير كل سنة وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام عليه لازما له مفترضا عليه ومن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه بما فعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا ولما تم الصلح أرسل عمرو بن العاص الى الخليفة يعلمه (١) بما حصل وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه وجه الامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون ومن معك من الروم فى حال القبط أن لا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم ومثل ذلك من كلمات التوبيخ والتأنيب وكتب ملك الروم مثل ذلك الى جماعة الروم فلما ورد كتاب هرقل بذلك الى المقوقس لم يرض أن يخرج مما دخل فيه من الصلح وقال لعمرو انما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى وقد تم الصلح فيما بيننا وأنا متم لك على نفسى والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه ثم طلب من عمرو بعض أمور منها أنه ان مات يأمر بدفنه فى كنيسة أبى حنش بالاسكندرية فأجابه عمرو الى ما طلب

ثم أتت جيوش الروم نجدة لمن بمصر من الجنود والتقوا مع العرب مرارا فكانت النصرة للعرب وما زالوا يقاتلون الروم حتى أدخلوهم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن وكان القبط يمدون المسلمين بما يحتاجونه من الاطعمة والعلوفة ولما كانت مدينة الاسكندرية واقعة على ساحل البحر كانت سفن ملك الروم تختلف اليها بجلب الذخيرة والجنود

(١) لما ورد كتاب عمرو بن العاص الى الخليفة بفتح مصر أجابه منشطا داعيا وسأله أن يصف له مصر فكتب اليه بعد الديباجة

ورد الى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان يدر حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن المخائل أو ورق الاصائل فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته وطمى فى درته فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم فاذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندا وغذاه من تحت الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذ هى عنبرة سوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء والذى يصلح هذه البلاد ويقر قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ولا يستأدى خراج ثمرة الا فى أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال على هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله يوفق الحسن المآل ا ه

والعدد

والعدد ويقال ان ملك الروم أراد الحضور بنفسه الى الاسكندرية ليقوم بالمدافعة عنها وبينما كان يستعد لذلك مات (سنة ٢٠ هـ) وبذلك رجع كثير من الروم ممن قد توجه الى الاسكندرية وما زال العرب يواقعون الروم ويشددون الحصار ويعملون كل حيلة ممكنة حتى استولوا على تلك المدينة العظيمة التي كانت معدودة من أوائل مدن العالم ثروة وسكانا وكان فتحها يوم الجمعة شهر محرم (٢٠ هـ) (٢٢ دسمبر ٦٤٠ م) بعد ان حاصروها أربعة عشر شهرا

ثم ان عمرو بن العاص ترك العدد الكافي من الجنود وأخذ يتعقب من هرب من الروم في البر وكان الروم تراجعوا بسفنهم الى الاسكندرية وقتلوا حاميتها من المسلمين الامن هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعا وفتحها ثانية وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره أن لا يجاوزها ويقبح رأيه في اتباعه من هرب ويقال انه كان بالاسكندرية وقت الفتح أربعة آلاف حمام وأربعون ألف يهودي وأربعمائة ملهى للملوك وكان بمينائها وقت الفتح أكثر من مائة مركب من المراكب الكبار حملوا فيها ما قدروا عليه من الرجال والمال والمتاع والاهل وقد أحصى سكانها يومئذ فكانوا كما يروى ستمائة ألف سوى النساء والصبيان

وقد روى بعض المؤرخين خطأ أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية الشهيرة بموجب كتاب وصله من أمير المؤمنين لما استأذنه في ذلك والحقيقة أن تلك المكتبة الشهيرة كان احترق معظمها سابقا في حروب كليوباتره ونقل كثير من كتبها الى القسطنطينية وروميه وغيرهما كما حققه أشهر مؤرخي الاوروباويين وغيرهم

ثم عاد عمرو بن العاص الى المكان الذي كان نزله المسلمون عند محاصرتهم لحصن باب اليون وكان عمرو ترك به فسطاطه منصوبا فبنى المسلمون حوله بيوتا واختطوا خططا صارت فيما بعد مدينة أطلق عليها اسم الفسطاط وهي مصر العتيقة وبنى بها جامعه المشهور للآن وقد تقدمت بها فيما بعد العمارة وكثرت بها الاسواق والامكنة حتى كانت من أكبر مدن الاسلام ومن الاعمال المفيدة التي أجراها عمرو بن العاص بمصر أن فتح خليجا يوصل النيل بالبحر الاحمر لسهولة المواصلة مع بلاد العرب ونقل الغلال وما ماثلها الى تلك البلاد وبه تمكن من نقل الحبوب الى بلاد العرب في أوقات القحط وكان ذلك الخليج يسمى بخليج أمير المؤمنين وأبطل عادة قبيحة كان يجري عليها أهل مصر من القديم وهي أنهم يلقون في النيل عند زيادته بنتا بعد أن يزينوها بأفخر زينة وغير ذلك من البدع القبيحة ثم أرسل عمرو بن العاص جيشا لفتح بلاد برقة فصالحهم أهلها وعمر بن الخطاب هو أول من وضع التاريخ وذلك أنه أتاه صك محله شعبان فقال لا أدري أشعبان هذا أم غيره فلما استشار أصحابه في ذلك أشاروا عليه بوضع مبدإ يؤرخون به الكتب فاتفقوا على جعل سنة الهجرة تاريخا لانها من أشهر حوادث الاسلام وبها علت كلمته وازدادت سطوته وكان قبل ذلك للعرب في اليمن والحجاز تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفا عن سلف وكانوا يسمون كل سنة بما يقع فيها من الحوادث المهمة فكانوا يؤرخون بعام الفيل وموت لؤي وغير ذلك ولما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة أمر بالتاريخ فكانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من قدومه

وكان عمر رضى الله عنه حسن السيرة كثير الغزو والجهاد ثابتا صبورا قنوعا فتحت فى زمنه الفتوحات الكبار والاقاليم الشاسعة وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وكان أبو بكر يدعى بخليفة رسول الله فلما تولى عمر كانوا يقولون ياخليفة خليفة رسول الله فقال هذا أمر يطول كلما جاء خليفة قالوا ياخليفة خليفة خليفة .... بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم فلزمه من ذلك الوقت وصار لقب الخلفاء بعده وقيل بل دعا به الصحابة فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به وعمر أول من عس فى عمله ليلا لحفظ الدين والناس وهابه الناس هيبة عظيمة وزاد فى الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه وهو أول من وضع الديوان فى الدولة الاسلامية أى رتب الجرائد للولاة والقضاة والجنود وغيرهم

ويقال ان سبب ذلك مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمته فسعوا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل به عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلمه بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبروه له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة النبى عليه الصلاة والسلام وما بعدها الاقرب فالاقرب وكان ذلك فى محرم سنة ٢٠ هجرية

وفى خلافة عمر بنيت البصرة (١٤ ﻫ) واختطت الكوفة (١٧ ﻫ) وتحول اليها سعد بن أبى وقاص ومن معه من الجنود وكان معاوية وهو من قواد الجيوش بالشام كتب الى عمر فى شأن جزيرة قبرس وغزوها يقول ان قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرس وصياح ديوكهم ليحمله على الاذن له بغزو البحر فكتب عمر الى عمرو بن العاص يستوصفه البحر (١) فلما وصفه له هاله الامر وكتب الى معاوية يقول من كتاب والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا وبالله لمسلم واحد أحب الى مما حوت الروم فاياك أن تعرض لى فى ذلك فقد علمت مالقى العلاء منى اﻫ

ثم مات عمر بن الخطاب رضى الله عنه مطعونا طعنه أبو لؤلؤة فيروز عبد المغيرة بن شعبة بخنجر فى خاصرته وتحت سرته (٢٣ ﻫ) وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأياما ودفن عند النبى عليه الصلاة والسلام وأبى بكر الصديق رضى الله عنه وعهد بالخلافة الى النفر الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهم على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بعد أن عرضها على عبد الرحمن بن عوف فأبى وكان عمر رضى الله عنه طويل القامة أبيض أصلع أشيب وكان عمره ٦٣ سنة وكان له من الفضل والزهد والعدل والشفقة على المسلمين ماضربت به الامثال وسارت به الركبان

عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٤ - ٣٥ ﻫ) لما مات عمر اجتمع النفر الذين عهد اليهم بالخلافة فانتخبوا عثمان بن عفان رضى الله عنه ولما بويع صعد المنبر وقام خطيبا فحمد الله وتشهد ثم أرتج عليه فقال ان أبابكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وان أول كل أمر

(١) لما ورد كتاب عمر الى عمرو بن العاص كتب له يقول بعد الديباجة هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ان ركد أقلق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود ان مال غرق وان نجا فرق اﻫ

صعب وان عشت فسأتيكم الخطب على وجهها ثم نزل ولم يغير من العمال أحدا لوصية عمر اذ أوصى ببقاء عماله سنة انما عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن ابى وقاص عملا بقول عمر أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعدا فانى لم أعزله عن سوء ولا خيانة

وفى أوائل خلافته خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان ذلك بتحريض الروم من القسطنطينية لانه عظم عليهم فتح المسلمين للاسكندرية لانها كانت تمير القسطنطينية بالغلال والاقوات وسار من القسطنطينية جيش عظيم عليه قائد خصى يدعى منو يل ومعهم اسطول عظيم فلما أرسوا على الاسكندرية قابلهم سكانها بالترحاب فسار اليهم عمرو بن العاص لما بلغه الخبر فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون وقتلوا منهم فى المدينة مقتلة عظيمة واستولوا على السفن التى أتت بهم وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور قائلا والله لاجعلها كبيت الفاجرة يؤتى من كل مكان وكان عثمان رضى الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر قبيل ذلك وولاها عبد الله بن سعد بن سرح أخاه من الرضاعة فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة فى الحرب وهيبة فى قلوب الاعداء ففعل

وبما غنمه المسلمون فى هذه الواقعة من السفن وبالسفن التى غنموها عند فتحهم بلاد الشام تمكنوا من الغزو فى البحر فغزا عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس الاندلس فأتياها من قبل البحر وغزا معاوية فى خلافة عثمان أيضا فى البحر بعد أن استأذنه وألح عليه فأذن له وقال لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ثم سار المسلمون من الشام الى قبرس وكذا عبد الله بن أبى سرح من مصر اليها فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على الجزية كل سنة بعد قتل وسبى كثير من قبرس (٢٨ هـ) وفى هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الانصارية كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال لها انها فى أول من يغزو فى البحر كما فى صحيح البخارى

وغزا معاوية الروم فى البحر أيضا بعد الاغارة على بلاد افريقية وذلك أن قسطنطين بن هرقل خرج فى جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الاسلام فخرجوا فى ستمائة مركب وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية وعلى أهل مصر عبد الله بن أبى سرح بحرا ثم تلاقى الفريقان وربطوا سفنهم بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وصبر الفريقان صبرا لم يصبر قط فى موطن مثله ثم أنزل الله النصر على المسلمين وانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشريد ثم قصد قسطنطين صقلية وكانت تابعة للروم فسأله أهلها عن حاله فلما أخبرهم حنقوا عليه وأضمروا له الشر وبينما كان فى الحمام هجموا عليه وقتلوه ورجع من كان معه الى القسطنطينية (٣١ هـ) وكان قسطنطين يقصد بما جمعه من الجنود والاساطيل افتتاح مدينة الاسكندرية وتسمى هذه الواقعة بواقعة السوارى

وفتح فى زمن عثمان رضى الله عنه أيضا خراسان وكرمان [1] وسجستان [2] وكابل وافريقية

---

(١) وتسمى قديما كرمانيا مقاطعة من بلاد الفرس بالجنوب الشرقى بين كوهستان شمالا وفارستان ولارستان غربا ومضيق هرمز جنوبا و بلوخستان (سجستان ومكران) شرقا ومن أشهر مدنها كرمان وكانت هذه البلاد تابعة للسلاجقة اهـ

(٢) معرب سيستان وكانت قديما تسمى ساقستان أى بلاد الساقة وهى ولاية بالجنوب الغربى من أفغانستان يتبعها قسم داخل حدود بلاد العجم وهى على مجرى نهر الهندمن الاسفل بها كثير من خرائب المدن القديمة اهـ

ولما بلغ عثمان رضى الله عنه ماوقع فى أمر القرآن الشريف من أهل العراق فانهم يقولون قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لاننا قرأنا على أبى موسى الاشعرى وأهل الشام يقولون قرآننا أصح لاننا قرأنا على المقداد بن الاسود وكذلك غيرهم من الامصار فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه وكان مودعا عند حفصة زوج النبى عليه الصلاة والسلام كما تقدم ويحرق ماسواه من المصاحف التى بايدى الناس ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف حملت الى الامصار وقال عثمان لمن تولوا نسخ المصاحف ان اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم (٣٠ ﻫ)

وفى سنة (٣٥) من الهجرة تكلم قوم من الكوفة فى حق عثمان رضى الله عنه ورموه بالتشيع الى أقاربه وأصدقائه قائلين بانه يولى الولايات لمن لا يصلح منهم لها وتكلم غيرهم بمثل ذلك فلما بلغ عثمان رضى الله عنه مايقال أرسل من عنده من يكشف له الخبر ويوقفه على تظلم المسلمين فرجعوا اليه بعد حين وأخبروه برضا الناس عنه وعن أعماله وأن القائم بتلك الاقوال نفر قليل لغايات ومع ذلك فما زالت الفتنة تتسع وينتشر أمرها حتى عمت عدة أقاليم وفى آخر الامر قدم جمع من مصر وجمع من الكوفة وجمع من البصرة وكان هوى المصريين مع على وهوى الكوفيين مع الزبير بن العوام وهوى البصريين مع طلحة

ثم ان عثمان رضى الله عنه حذرهم الفتنة فلم يسمعوا له وحصبه الناس وهو على المنبر حتى وقع مغشيا عليه فأدخل داره وتكاثرت الجموع ومنعوه الصلاة ولزم أهل المدينة بيوتهم وعثمان رضى الله عنه محصور فى داره ودام ذلك أربعين يوما وفى آخر الامر تسوروا عليه داره ونزلوا عليه فقتلوه وكان صائما يتلو فى المصحف سنة (٣٥ ﻫ) ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة الا أياما وعمره نيف وثمانون سنة ومكث ثلاثة أيام لم يدفن وكان عثمان رضى الله عنه معتدل القامة حسن الوجه وبقتل عثمان رضى الله عنه انفتح باب الشر والفتن وزالت مهابة الخلافة من قلوب الناس حتى أدى ذلك الى ماحصل بعد من الحروب الداخلية التى كانت وبالا على الامة الاسلامية

وكان سبب حنق الناس على عثمان رضى الله عنه زعمهم انه ولى الاعمال قوما لا يصلحون لها كما تقدم وقبضوا على كتاب مزور عن لسانه الى عبد الله بن أبى سرح عامله على مصر بقتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وغير ذلك مما هو مبسوط فى التواريخ فمن شاء فليراجعه

على بن أبى طالب رضى الله عنه (٣٥ - ٤٠ ﻫ) لما مات عثمان كما تقدم اجتمع المهاجرون والانصار وفيهم طلحة والزبير وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال أن أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك بها حتى غلبوه فى ذلك ويقال ان الزبير وطلحة رضى الله عنهما ادعيا فيما بعد الاكراه على البيعة وتمالآ على نقض امارة على فلحق على رضى الله عنه بهم وناجزهم الحرب وقتل الزبير وطلحة بعد أمور يطول شرحها وسميت هذه الواقعة واقعة الجمل لان السيدة عائشة رضى الله عنها كانت مع المتألبين على على وكانت فى الواقعة راكبة جملا

ولما بلغ معاوية والى الشام اذ ذاك خبر الواقعة دعا أهل الشام الى القتال فاطاعوه وانضموا اليه على على رضى الله عنه الذى اتهموه بقتل عثمان أو التحريض على قتله بسكونه وآخر الامر خرج

على

على من الكوفة واقتتلوا قتالا شديدا دام أياما سالت فيها الدماء أنهرا فى مكان يقال له صفين [1]
(٣٧ هـ) ثم تهادنوا وافترقوا وفى النفوس حزازات لان التحكيم لم ينصف عليا رضى الله عنه ومن ذلك الوقت استقل معاوية رضى الله عنه بملك الشام وكان على يحرض من بقى له من الاتباع والنصراء على قتال أهل الشام فتقاعدوا عنه وكان يخطب فيهم الخطب البليغة ويأتى عليهم الاقوال التى تشجع الجماد فلم ينفع ذلك لامر أراده الله سبحانه وتعالى

ولما استمرت المخاصمات بين أمراء الاسلام زمنا تعاهد ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن ابن ملجم وعمرو بن بكر التميمى والبرك بن عبد الله التميمى وكانوا من الخوارج الذين قاتلهم على بالنهروان [2] وقالوا لو قتلنا أئمة الضلالة أرحنا منهم البلاد فقال ابن ملجم أنا أكفيكم عليا وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا وأن لا يفر أحد منهم عن صاحبه الذى توجه اليه واستصحبوا سيوفا مسمومة وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تمضى من رمضان (٤٠ هـ) ان يثب كل واحد منهم بصاحبه واتفق مع ابن ملجم المذكور رجل من أشجع يقال له شبيب وكمنا فى المسجد فلما خرج على ونادى بصلاة الصبح علاه شبيب بالسيف وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه فانهال الناس على ابن ملجم وقبضوا عليه وأحضروه مكتوفا بين يدى على رضى الله عنه ودعا على قبل موته الحسن والحسين ابنيه رضى الله عنهما ووصاهما قائلا أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شئ زوى منها عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا ولا تأخذكما فى الله لومة ولما حضرته الوفاة رضى الله عنه كتب وصيته العامة ثم قبض رضوان الله عليه أما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيف فاخطأ وأمسك البرك فقال له انى أبشرك فلا تقتلنى فقال بماذا قال ان رفيقى قتل عليا هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر فقال بلى ان عليا ليس معه من يحرسه فقتله معاوية وأما عمرو بن بكر فانه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو الى الصلاة وكان قد أمر خارجة بن أبى حبيبة صاحب شرطته أن يصلى بالناس فخرج خارجة المذكور للصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن انه عمرو بن العاص فقتله فأخذه الناس وأتوا به عمرا فقال من هذا قالوا عمرو فقال من قتلت أنا قالوا خارجة فقال عمرو اردت عمرا فأراد الله خارجة فذهبت مثلا ولما مات على رضى الله عنه أخرج عبد الرحمن بن ملجم من الحبس فقتلوه وكان على رضى الله عنه كما وصفه بعض أصحابه بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب قال الواصف كان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه ونحن مع تقريبه لا نكاد نكلمه هيبة له لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله اهـ وكانت مدة خلافته رضى الله عنه خمس سنين الا ثلاثة أشهر وعمره ثلاثا وستين سنة وقيل غير ذلك واختلف فى موضع قبره فقيل دفن مما يلى قبلة المسجد بالكوفة وقيل عند قصر الامارة وقيل حوله ابنه الحسن الى المدينة ودفنه بالبقيع والاصح وهو الذى عليه الجمهور ان قبره بالمكان المشهور بالنجف من أعمال بغداد الذى يزار اليوم

(١) مكان قرب الرقة بشاطئ الفرات اهـ (٢) ثلاث قرى أعلى وأوسط وأسفل بين واسط وبغداد اهـ

الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه (٤٠ - ٤١ ﻫ) لما توفى على بايع الناس ابنه الحسن وكان على رضى الله عنه قبل موته يتجهز لقتال معاوية فاتفق مقتله ولما بويع الحسن بلغه مسير أهل الشام الى قتاله مع معاوية فتجهز الحسن وخرج من الكوفة ووصل الى المدائن واستقر بها خمسة أشهر وأرسل جيشا لمقاتلة معاوية ولما رأى المناوشة بين أصحابه قال لا حاجة لى فى هذا الامر وقد رأيت أن أسلمه الى معاوية فيكون فى عنقه تباعته وأوزاره فقال له الحسين أخوه أنشدك الله أن لا تكون أول من عاب أباه ورغب عن رأيه فقال لابد من ذلك وقد اخترت العار عن النار وبعث الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا وقال ان أجبت اليها فأنا سامع مطيع فأجاب معاوية اليها ثم دخل معاوية الكوفة فبايعه الناس وكتب الحسن رضى الله عنه وأرضاه الى قائد جيشه يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ثم لحق الحسن وأهل بيته بالمدينة لانه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال ونعم ما فعل وكانت خلافته بضع شهور

ولما تخلى الحسن رضى الله عنه عن الخلافة صارت ملكا عضوضا كما ورد فى الحديث الشريف وأقام الحسن رضى الله عنه الى أن توفى وبه انقضت خلافة الخلفاء الراشدين ويسمى هذا العام بعام الجماعة لاجتماع المسلمين فيه على خليفة واحد

(الفصل الثالث)

دولة بنى أمية

(٤١ - ١٣٢ ﻫ)

اعلم أن الامويين وبنى هاشم هم من روابط العرب حيا واحدا ينتمون لعبد مناف وهم من أشراف عرب قريش وساداتها وكانت بنو أمية أكثر عددا من الهاشميين وكان لهم قبل الاسلام شرف وفخر وشهرة عظيمة ولما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو من بنى أمية حدث بين بنى أمية وبنى هاشم خلاف بخصوص خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه لانه هاشمى وتحدث الناس بالعصبية الطبيعية الغريزية فى العالم ولما كانت أحزاب علىّ أقوى وميل الصحابة اليه أرجح لفضله ومنزلته ثبت له مركز الخلافة رغما عن بنى أمية وغيرهم وفى خلال الحروب الداخلية التى سبق ذكرها نهض معاوية بن أبى سفيان الاموى وكان والى الشام يطلب الرياسة لنفسه والاخذ بثار عثمان المقتول ظلما ورفض حق علىّ فى الخلافة وانضم اليه نفر من الصحابة والتابعين اجتهادا منهم وطلبا للحق من وجهه حسب ما أدى اليه اجتهادهم رضوان الله عليهم جميعا ولما انتهت الحروب الداخلية المتقدمة بين علىّ ومعاوية وانتهى أمر التحكيم بما هو معلوم ومات على رضى الله عنه على الصفة المتقدمة قويت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن رضى الله عنه حتى انه لما رأى ذلك خلع نفسه من الخلافة خوفا من تفاقم الامر وتجديد الحروب وحقنا لدماء المسلمين وسلم الامر الى معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية

وكانت البيعة العامة لمعاوية فى ربيع الثانى (٤١ ﻫ) (٦٦١ م) فدانت له البلدان واتخذ مدينة دمشق مركزا للخلافة وامتدت أحكامه على مصر والحجاز وخراسان وغيرها

من البلدان التى دانت للاسلام وقد اهتم كثيرا فى إصلاح الامور ورأب الصدوع وولى الولايات من يسدد له أمر السلطنة ويؤكد له الملك منهم عمرو بن العاص ولاه مصر طول حياته لانه كان وعده بأن تكون مصر له طعمة ان هو نال الخلافة لأنه كان له أعظم مساعد وأقوى عضد فى نواله الخلافة

ثم التفت معاوية لتوسيع نطاق الاسلام ومد كلمته فجهز الاساطيل والجيوش لغزو القسطنطينية وكانت الاساطيل فى زمن معاوية كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها فى البحر فترجع غانمة ظافرة وافتتح بها عدة جهات من ذلك جهات مضيق الدردنيل وجزيرة قبرس وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس وغنم المسلمون من هذه الجزيرة تمثالها الشهير (١) وكان فتحها على يد جنادة بن أبى أمية الازدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم فلما توفى معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها وكان معاوية رضى الله عنه يقصد بكل هذه الغزوات البحرية تهديد ملوك الروم وايقاع الخوف فى قلوبهم ليتم له الاستيلاء على مدينة القسطنطينية لانه فى (٤٨ هـ) جهز جيشا كثيفا تحت قيادة سفيان ابن عوف وأرسل أيضا الاساطيل العديدة التى تزيد عددها عن ١٣٢٠ سفينة فاوغل الجيش فى بلاد الروم حتى وصل مقابل القسطنطينية وأخذوا فى محاصرتها برا وبحرا وكان فى ذلك الجيش ابن عباس وعمر بن الزبير وأبو أيوب الانصارى ويزيد بن معاوية رضى الله عنهم واستمر المسلمون يحاصرون القسطنطينية الى (٥٠ هـ) ولم يتمكنوا من فتحها لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية (٢) بسفنهم وفى أثناء الحصار مات أبو أيوب الانصارى ودفن بالقرب من سور المدينة

(١) يقال ان هذا التمثال صنعه الرودسيون (٣٠٣ ق م) بعد انتصارهم على ابن لانتيفونس المسمى ديمتريوس الملقب بليوكريتس أى الفاتح الذى أغار عليهم (٣٠٤ ق م) عندما حضر باساطيله لمحاربة بطليموس الاول فباعوا الادوات الحربية التى اغتنموها بعد انتصارهم على ديمتريوس المذكور وصنعوا بثمنها ذلك التمثال من النحاس الاصفر ووضعوه فوق مدخل المينا وكانت السفن الداخلة والخارجة تجرى بين ساقيه ويقال ان علوه كان ٧٠ ذراعا وبين قدميه مسافة تبلغ ٥٠ قدما واستمر ذلك التمثال قائما حتى حدثت زلزلة (٢٢٣ ق م) فأوقعته وبقى مطروحا فى مكانه مدة ٧٩٨ سنة الى أن فتح العرب الجزيرة فى خلافة معاوية (٦٧٥ م) وباعوه لرجل يهودى من أورفا كسره وحمله على تسعمائة جمل كما يقال

(٢) النار الاغريقية مركب مخصوص يخرج منه دخان كثيف ولهيب محرق يستمر مدة ولم يكن يؤثر على خط مستقيم فقط بل كان يحرق يمينا وشمالا وأعلى وأسفل وكان الماء لا يطفئه بل يزيد به اشتعالا وكان الروم يسمون هذا الحراريق بالنار المائعة وكانوا يستعملونها فى حروبهم البرية والبحرية وفى الحصار يقذفون بها من أعالى الاسوار بالاحجار وقطع الحديد والحراب والنبال ويلقونها فى الكتان المنغمس بالزيت ويضعونها أحيانا فى قوارب من حديد ويشعلونها ثم يتركون تلك القوارب تسير على المراكب بقوة الريح فتحرقها وتحرق أى شىء صادفته وأحيانا يرشقونها فى مكعبات حديدية مركزية جاعلين أفواه تلك المكعبات أشبه برؤس تقذف من أفواهها الحراريق المذكورة ويقال ان الذى اخترعها مهندس رومى يقال له كلينيكوس أصله من مدينة هليوبوليس فى مصر ويقال انها كانت مركبة من مخلوط من أجزائه النفط والقطران والكبريت وقال البعض انها من اختراع الصينيين وقال آخر انها من اختراع الهنود وقال غيره غير ذلك وبقيت هذه النار سرا محفوظا بغاية الكتمان عند ملوك القسطنطينية وكهنتها وكانوا يقولون انها سر أوحت به الملائكة الى أحد كهنتهم والغالب ان العرب عرفوا هذا المركب فاستعملوه فى حروبهم فيما بعد اهـ

ولا يزال قبره بالقسطنطينية يزار للآن وعليه مسجد مشيد ثم اضطر المسلمون الى العودة وقد فقدوا أكثر أساطيلهم وعددا عظيما من جيوشهم

ومن الفتوحات العظيمة التى تمت زمن معاوية فتح بلاد افريقية وكانت بلاد افريقية قبل فتحها تماما تابعة لعامل مصر فلما تولى معاوية الخلافة كان عليها عقبة بن نافع الجهنى من طرف عمرو بن العاص والى مصر وكان عمرو أوعز اليه بفتح البلاد فأوغل فيها وبنى مدينة القيروان (٤٥ هـ) ثم ان معاوية ولى عقبة المذكور بلاد افريقية وأمده بجيش قوى مؤلف من ١٠,٠٠٠ مقاتل (٥٠ هـ) فسار عقبة بهذا الجيش مع من التحق به من الافريقيين وقاتل جيوش الروم فى عدة وقائع الى أن انتصر عليهم فى واقعة عظيمة كانت فيها جيوش الروم تزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل وأسر منهم ثمانين ألفا وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم وبذلك تهدمت قوة الروم فى تلك الجهات وبعد أن فرق الغنائم واستراح بجيشه الزمن الكافى تقدم جهة الغرب بطريق طنجة لما كان لها من الذكر العظيم والصيت عند العرب ولما نزل على طنجة قابله حاكمها وكان يدعى يليان (جوليان) فاهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه وكانت طنجة وما والاها من المدن تابعة لملوك الغوط بالاندلس ثم ان عقبة سأل يليان عن الاندلس فعظم الامر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وتعالى وهم بالسوس الادنى وهم كفار لم يدخلوا فى النصرانية ولهم بأس شديد فسار عقبة اليهم وقاتلهم وقتل منهم كثيرا وبعث خيله فى كل مكان هربوا اليه ومازال سائرا منصورا حتى بلغ ساحل بحر الظلمات (٦٢ هـ) ولما وصله دفع بجواده فى لجة الماء وصاح قائلا والله لو علمت بعده أرضا لسرت مغازيا فى سبيل الله ثم قفل راجعا بعد أن ضرب الجزية على أمم البربر وفى عودته قتله البربر غيلة لانه كان أرسل معظم جيشه الى القيروان وبقى فى نفر قليل ثم حضر البربر بعد ذلك تحت قيادة كسيلة أحد أمرائهم وحاصروا القيروان وافتتحوها وتقلص بذلك ظل المسلمين من تلك الاطراف وبقيت عاصية حتى قوى أمر عبد الملك بن مروان بعد فتنة ابن الزبير فأنفذ الى زهير بن قيس البلوى بجيش وولاه افريقية فاتى وافتتحها ثانية (٦٩ هـ)

وفى تلك الغزوة أى قبل توغل عقبة بن نافع الجهنى فى بلاد افريقية بنى مدينة القيروان (٤٥ هـ) المذكورة لتكون معقلا لعسكر المسلمين وأهليهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد وجعلها مقر ولاة افريقية وكان مقام الولاة قبل ذلك بزويلة وبرقة وكان عقبة المذكور فى أثناء عمارة المدينة المحكى عنها يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر فى دين الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وقد أنكر الناس على معاوية رضى الله عنه بعض أمور منها استلحاقه زياد بن عبيد وكان زياد عاملا لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه على فارس وقصة استلحاقه مبسوطة فى التواريخ ولما تولى معاوية الخلافة امتنع زياد بفارس ولم يدخل فى طاعة معاوية وأهم معاوية أمره وخاف أن يدعو الى أحد من بنى هاشم ويعيد الحرب ومازال معاوية يستعمل الحيل حتى أحضره اليه واستلحقه ثم ولاه البصرة والكوفة (٤٥ هـ) فجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة فخافه الناس خوفا شديدا ومنها أنه استخلف ابنه يزيد (٥٦ هـ) وبايعه أهل الشام والعراق

وامتنع من البيعة له الحسين رضى الله عنه وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وامتنع سكان المدينة لامتناعهم وكذا غالب أهل الحجاز غير أنهم بايعوا فى آخر الامر وأصر المذكورون على الامتناع ولم يطلب معاوية البيعة لابنه يزيد الا بعد موت زياد سنة (٥٣ هـ) فلم يزل يروض الناس لبيعته عدة سنوات ويشاور ويعطى الاقارب ويدانى الاباعد حتى استوثق له من أكثر الناس وكتب له بذلك عهدا وكانت وفاة معاوية سنة (٦٠ هـ) ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما وكان عمره ٧٥ سنة وكان معاوية مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعطاء محسنا الى رعيته وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحراب وله فى الحلم أخبار كثيرة

واعلم أن معاوية كان من بنى دول وسائس أمم وراعى ممالك ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه أحد اليها منها أنه وضع البريد [1] لوصول الاخبار بسرعة واخترع ديوان الخاتم فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يتمكن أحد من تغييرها

يزيد الاول ابن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) لما تولى يزيد الخلافة لم يكن له هم الا أخذ البيعة من الذين امتنعوا عن البيعة له فى خلافة والده خصوصا سيدنا الحسين رضى الله عنه فلذلك كتب الى عامله على المدينة بالزام سيدنا الحسين رضى الله عنه وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر بالبيعة فامتنع الحسين رضى الله عنه وابن الزبير ولحقا بمكة ولم يبايعا واجتمع أهل مكة وماوالاها من القرى على ابن الزبير وتحصنوا بمكة وهزموا جيشا العامل المدينة أرسله عليهم وشق أيضا أهل الكوفة عصا الطاعة وخرجوا على يزيد وكاتبوا الحسين فى ذلك فأرسل سيدنا الحسين رضى الله عنه الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ البيعة عليهم فلما وصل الى الكوفة بايعه بها ثلاثون ألفا منهم النعمان بن بشير الانصارى والى الكوفة فأرسل يزيد عبيد الله ابن زياد فقدم الكوفة ورأى ما عليه الناس فخطبهم وحثهم على طاعة يزيد ثم تفرق الناس عن مسلم ولم يبق معه غير ثلاثين رجلا ثم قبض على مسلم وضرب عنقه وبعث عبيد الله برأسه الى يزيد سنة (٦٠ هـ)

ثم استعد سيدنا الحسين رضى الله عنه فيمن بايعه وخرج يريد الكوفة وقد نهاه عن ذلك قوم فلم يقبل وبعد ذلك تفرق عنه غالب من خرج معه وقابله فى الطريق الحر صاحب شرطة عبيد الله بن زياد فى ألف فارس ومازال به حتى قبل الذهاب الى ابن زياد بعد أن كان أراد الانصراف الى حيث أتى فلم يقبل منه ومازالوا سائرين حتى نزل الحر مع سيدنا الحسين رضى الله عنه على مكان ليس به ماء بناء على ماورد اليه من عبيد الله ثم أقبل من الكوفة عمر بن سعد بن أبي وقاص بأربعة آلاف فارس أرسله ابن زياد لحرب الحسين رضى الله عنه فسأله الحسين فى أن يمكن امامن العود وإما أن يجهز الى يزيد بن معاوية وإما أن يمكن من اللحاق بالثغور فكتب عمر الى ابن زياد يسأله فى ذلك فلم يقبل ابن زياد شيأ من ذلك وأرسل مع شمر بن ذى الجوشن الى عمر بن سعد إما أن تقاتل الحسين وتقتله وإما أن تعتزل

(١) البريد ان يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيرها فرسا مستريحا وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة ومعناه اللغوى اثنا عشر ميلا وهى الغاية التى قدروها بين بريد وآخر وفائدته حفظ الاموال وسرعة وصول الاخبار ومتجددات الاحوال وسيأتى عن البريد كلام أكثر تفصيلا اه

ويكون الامير على الجيش شمر وفى آخر الامر حصل القتال بين الحسين رضى الله عنه وأصحابه وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا وبين عمر بن سعد ومن معه من الجنود وقد أظهر الحسين رضى الله عنه وأتباعه فى هذه الحرب جسارة وإقداما لا يوصف ولما اشتعلت نيران الحرب وحمى وطيسها اشتد بالحسين العطش فتقدم ليشرب فرمى بسهم فوقع فى فيه ثم تكاثر عليه القوم واحتزوا رأسه الشريفة سنة (٦١ ﻫ) قيل ان الذى نزل واحتز رأسه هو شمر وقيل هو سنان بن أنس النخعى وقتل مع الحسين رضى الله عنه من أولاد على أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين رضى الله عنه أربعة وقتل عدة من أولاد عبد الله بن جعفر ومن أولاد عقيل وأهينت النساء ووطئت الاجسام ثم بعث عمر بن سعد الرؤس والنساء والاطفال فى حالة غير مرضية الى عبد الله ابن زياد الذى جهز النساء والاطفال بما يصلحهم وأرسلهم الى المدينة وكانت هذه الواقعة المشؤمة فى مكان يدعى كربلا

واختلف فى موضع الرأس الشريف فقيل جهز الى المدينة ودفن عند أمه وقيل دفن عند باب الفراديس وقيل إن خلفاء مصر نقلوا من عسقلان فى وزارة طلائع بن رزيك فى خلافة الفواطم رأسا الى القاهرة ودفنوه بها بغاية التعظيم والتبجيل وبنوا عليه مشهدا فاخرا وهو المعروف الآن بمشهد الحسين وكان عمر الحسين رضى الله عنه لما قتل ٥٥ سنة وأشهرا

ولما حدثت هذه الواقعة المشؤمة وانتشر خبرها فى ممالك الاسلام غضب الناس غضبا شديدا وكرهوا يزيد وانضم كثير منهم الى الذين خرجوا عليه وقوى أمر عبد الله بن الزبير والتف عليه كثير واتفق أيضا أهل المدينة على خلع يزيد بن معاوية وأخرجوا نائبه عثمان بن محمد بن أبى سفيان سنة (٦٣ ﻫ) ولما علم يزيد بذلك اضطربت أحواله وجهز جيشا مع مسلم بن عقبة وأمره بقتال أهل المدينة فسار مسلم فى عشرة آلاف فارس من أهل الشام حتى نزل على المدينة من جهة مكان يدعى الحرة وكان أهل المدينة استعدوا للقتال وخندقوا عليهم ثم إن مسلما طلب منهم الكف عن القتال فلما لم يقبلوا حاربهم مسلم حربا شديدا حتى افتتح المدينة وأباحها للجند ثلاثة أيام يقتلون وينهبون وأخذ على من بقى البيعة ليزيد على أنهم خول وعبيد له ويقال إن قتلى الحرة كانوا زهاء عشرة آلاف نفس ولما فرغ مسلم من المدينة سار بالجيش إلى مكة (٦٤ ﻫ) فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى مكة وأقام يزيد على الجيش مقامه الحصين بن نمير السكونى فقدم الحصين مكة وحاصر عبد الله بن الزبير أربعين يوما وبينما هم كذلك إذ ورد إلى الحصين الخبر بموت يزيد فأرسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه الى ذلك وكان الحصين رمى البيت الحرام بالمنجنيق [1] وأحرقه بالنار ويقال

(١) المنجنيق آلة ترمى بها الحجارة وغيرها معربة (من جه نيك) بالفارسية ومعناه ما أجملنى استعملها القدماء كثيرا فى حروبهم وورد ذكرها فى مؤلفاتهم وهى مؤلفة من عمود طويل قوى موضوع على عربة ذات عجلتين وفى رأسها حلقة أو بكرة يمر بها حبل متين طويل فى طرفه الاعلى شبكة على هيئة كيس توضع فيه الحجارة أو براميل بها مواد نارية مشتعلة ثم يحرك ويرفع العمود على جرارة بواسطة دواليب وحبال فيندفع من الشبكة ما وضع فيها من المقذوفات ويسقط على الاسوار المرتفعة بين جيوش الاعداء فيقتل ويحرق كل ما يلقيه وبعد ان استعملوه مدة طويلة على هيئته الاصلية وجدوا ان الذين يذهبون به لاضرامه يظلون عرضة لنيران الاعداء وسهامهم لانهم لا يأتون بفائدة ما لم يقتربوا من الاسوار على امد قريب لتصل قذائف المنجنيق وآلاته والبرميل المنقذف منه والابراج التى ترافقه لوقاية رجال المنجنيق ولصعود بقية الجنود على الاسوار وقد بطل استعمال هذه الآلة بعد اختراع البارود والاسلحة النارية اﻫ

ان الحسين قال لعبد الله بن الزبير لما علم بموت يزيد من الرأى ان ندع دماء القتلى بيننا وأقبل لأبايعك واقدم الى الشام فامتنع عبد الله بن الزبير من ذلك ولو قبل لتم له الامر لحنق الناس على يزيد واستخفافهم بخلافته بعد ان صدر منه ما صدر وكان يزيد موفر الرغبة فى اللهو والقنص وقد اتهمه بعض المؤرخين بشرب الخمر والفسق وغير ذلك عامله الله بما يستحق وكانت خلافته ثلاث سنين وستة أشهر وأياما وعمره ثمان وثلاثون سنة وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية أقام يزيد معها بين أهلها فى البادية وتعلم الفصاحة ونظم الشعر وقد كان يزيد شاعرا بليغا

معاوية الثانى بن يزيد وتولى بعده ابنه معاوية الثانى ولم تكن ولايته غير ثلاثة أشهر ثم تخلى للعبادة ومات بالطاعون أما عبد الله بن الزبير فقد قويت شوكته وعظم اسمه بعد موت يزيد وادعى الخلافة وأطاعه العراق والحجاز وخراسان واليمن ومصر والشام الا بلاد الاردن فانها بايعت مروان ابن الحكم

خلافة مروان بن الحكم (٦٥ هـ) لما مات معاوية ولم يعين من يخلفه أجمع رأى بنى أمية على تولية مروان بن الحكم وكان من أعرفهم بسياسة الملك ولما دخل الشام أذعن أهلها له بالطاعة وقاتل من بها من شيعة ابن الزبير فهزمهم ثم ان ابن الزبير أرسل عليه الضحاك بن قيس وافترق الناس بالشام فرقتين مروانية وقيسية ثم جرت أمور يطول شرحها وآخر الامر التقى الفريقان بغوطة دمشق واقتتلوا وكانت الهزيمة على الضحاك وقتل الضحاك وقتل معه جمع كثير وعند ذلك دخل مروان دمشق ونزل فى دار معاوية وبذلك استوثق الشام لمروان بن الحكم وفر منها كل من تظاهر بالميل لابن الزبير ولما جاءته بيعة الاجناد قال له أصحابه لا يتخوف عليك الامن خالد بن يزيد فتزوج أمه فانك تكسره بذلك فتزوج بها مروان

ثم ان مروان خرج لمصر وبعث أمامه عمرو بن سعيد بن العاص بجيش فدخل مصر وقهر عامل ابن الزبير عليها وبايع لمروان ثم ان مروان عاد الى الشام (٦٤ هـ) وبذلك صار مروان خليفة بالشام ومصر وابن الزبير خليفة بالحجاز والعراق واليمن وكانت وفاة مروان مخنوقا (٦٥ هـ) وهو ابن ثلاث وستين سنة وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما وسبب موته أنه لما أراد الخروج الى مصر قال لخالد بن يزيد وجه أعرنى سلاحا ان كان عندك سلاح فأعاره سلاحا ولما رجع من مصر وقدم الشام قال له ابن يزيد رد على سلاحى فابى عليه فألح عليه خالد فشتمه مروان بالفاظ قبيحة لحط من شأنه فى أعين الناس فدخل الى أمه باكيا وشكى اليها ما قاله مروان على رؤس أهل الشام فقالت له لا عليك فانه لا يعود اليك بمثلها فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياما ثم جاء الى أم خالد فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه المخاد ثم غطته حتى قتلته ثم خرجن فصحن وشققن ثيابهن يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين فقال عبد الملك ابنه والله لولا أن يقول الناس انى قتلت بابى امرأة لقتلتك بأمير المؤمنين وهو الرابع من خلفاء بنى امية عند من يجعله من خلفائهم والاول من دولة بنى مروان

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) بويع له بالخلافة بعد موت أبيه مروان بن الحكم وفى أوائل خلافته خرج عليه المختار بالكوفة واجتمع عليه خلق كثير وبايعوه

على المطالبة بدم الحسين رضى الله عنه لان الناس لم يكن ذهب من فكرهم ما لحق باهل البيت رضوان الله عليهم من الهوان والصغار سيما وان الفتن كانت لا تزال ضاربة أطنابها وابن الزبير مستقل بجهات الحجاز ومعه جمع كثير

ثم تجرد المختار لقتال قتلة الحسين رضى الله عنه بعد أن استولى على الكوفة وظفر بشمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد بن أبى وقاص وخولى الاصبحى وابن عمر بن سعد بن أبى وقاص وغيرهم من الرؤساء الذين خضبوا أيديهم بدماء أهل البيت وقتلهم وبعث برؤسهم الى محمد بن الحنفية بالحجاز (٦٦ هـ) ثم ان المختار لما صفا له الوقت ادعى دعاوى باطلة واتخذ كرسيا وادعى أن فيه سرا وأنه لقومه مثل التابوت لبنى اسرائيل ثم بعث الجنود لقتال عبيد الله بن زياد وكان بالموصل فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت أصحاب بن زياد وقتل هو فى المعركة وأحرقت جثته وانتقم الله سبحانه وتعالى لسيدنا الحسين رضى الله عنه بالمختار وان لم تكن نيته جيدة

ثم ان ابن الزبير ولى أخاه مصعبا البصرة فقاتل المختار بالكوفة وقتله فخلا وجه على ابن الزبير ولفساد مدعياته بعد أن فرق جموعه (٦٧ هـ) واستولى مصعب على العراقين ونال غرضه فسار اليه عبد الملك بن مروان فى جيش كثيف وقاتل مصعبا حتى قتله وبعد ذلك استقام أمر العراق لعبد الملك

ثم ان عبد الملك أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى الى عبد الله بن الزبير لما رآه من نفاذه وجلادته وحسن رأيه وبعد أن نازل ابن الزبير زمنا ورمى البيت الحرام بالمنجنيق تسلل غالب من كان مع ابن الزبير وأبى ابن الزبير أن يسلم نفسه أنفة منه وفى آخر الأمر تغلب الحجاج على ابن الزبير فقتله ثم صلبه ودامت محاصرة الحجاج لابن الزبير سبعة أشهر (٧٣ هـ) وكانت خلافة ابن الزبير تسع سنين لانه بويع له (٦٤ هـ) لما مات يزيد بن معاوية وبعد ذلك اجتمع الناس على طاعة عبد الملك بن مروان

ولما تقلص ظل الفتن من البلدان واستوثق أمر الخلافة لعبد الملك التفت الى بعث البعوث للجهاد وكان بنو أمية أبطلوا ذلك منذ تولى يزيد الخلافة لما هم فيه من الفتن الداخلية والحروب القومية فارسل الى عامله على أفريقية زهير بن قيس البلوى وكان مقيما ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما تقدم فبعث اليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها وحضه على الطلب بدم عقبة فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها فزحف زهير فى عدد عظيم (٦٩ هـ) والتقى مع كسيلة فى جهة القيروان واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب دموية وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر وبذلك ذل البربر وفنيت فرسانهم واضمحل أمر الفرنجة أيضا وخاف البربر من زهير خوفا شديدا واستقر جمهورهم بديار المغرب الاقصى

ثم ان زهيرا ترك القيروان ورجع الى برقة فوجد اسطول الروم على قتالها فى جموع عظيمة من قبل ملك الروم ومعهم أسرى من المسلمين فاستغاثوا به وكان فى فئة قليلة من أصحابه فهجم على الروم وقاتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه ونجا الباقون الى دمشق فاخبروا الخليفة بما وقع وبعد ذلك اضطربت بلاد المغرب واشتدت بها نيران الفتن فبعث عبد الملك الى عامله على مصر حسان بن النعمان الغسانى وبعث اليه بالمدد فزحف اليهم (٦٩ هـ) فى أربعين ألف مقاتل وبعد أن

استراح

استراح سار قاصداً مدينة قرطاجنة وهى المدينة العظمى قريعة رومية وضرتها وكان بها يومئذ من جموع الافرنج مالا يحصى فصمد اليها وافتتحها وتحملوا في المراكب الى صقلية والاندلس ثم أمر بتخريب قرطاجنة لعصيانها عليه بعد ذلك واعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأن لم تغن بالامس ثم قاتل الافرنج ببلاد صطفورة وبنزرت وهزمهم وقاتل امرأة كاهنة كانت صاحبة نفوذ عظيم انحاز اليها غالب البربر وأطاعوها وكانت تدعى داهية وقد قتل من المسلمين في وقائعها جمع كثير ولم تزل الكاهنة والبربر يتعقبون حسان والعرب حتى أخرجوهم من جهات قابس ولحق حسان بطرابلس فلقيه هنالك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه ثم ان الكاهنة أمرت بتخريب المدن والضياع والمراعى والمزارع لصد أطماع العرب وكانت المدن والضياع من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة كما رواه المؤرخون فخربت الكاهنة كل ذلك ومحت جماله فشق ذلك على البربر واستأمنوا الى حسان وكان عبد الملك قد بعث اليه بالمدد فأتمنهم واستعمل الحيلة في قتلها وأخيرا التقى معها وقتلها شر قتلة وبذلك استأمن اليه باقى البربر وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفا لا يفارقونه في مواطن الجهاد فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم فانصرف حسان الى القيروان مؤيدا منصورا وثبت ملكه واستقام أمره فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم افريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر ثم أوعز اليه الخليفة باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء السفن والآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد فبنى بها ما يزيد عن ٧٠٠ سفينة ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاول من بنى الاغلب على يد أسد بن الفرات كما قلناه في المقدمة ثم ان حسان استخلف على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح وارتحل الى المشرق بما جمعه من الاموال والذخائر وأهدى الى أمير مصر عبد الله مائتى جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيرا مما بيده ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكى اليه ما صنعه به عمه عبد الله فأنكر ذلك ثم أهدى اليه حسان من غريب النفائس ما استعظمه الوليد وشكره عليه ووعده برده الى عمله فحلف حسان أن لا يلى عملا لبنى أمية أبدا وكان عبد الملك ولى الحجاج الثقفى العراق بعد مقتل ابن الزبير فلما ذهب اليها أفحش في الظلم وأخذ بالظنة وقتل كثيرا فخرج عليه الخوارج من كل جهة واستفحل أمرهم وكانوا سببا في تعطيل الفتوحات الاسلامية زمنا طويلا وتوفى عبد الملك (٨٦ هـ) وكانت مدة خلافته بلا منازع منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر وكان بخيلا حازما عاقلا فقيها عالما دينا الا أن الدنيا استهوته بعد خلافته وعمره ستون سنة وهو أول من ضرب السكة في الاسلام وكانت الصوائف وهى الجيوش التى كانت تجهز في أوان الصيف لسد الثغور وقتال العدو تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين واستمر ذلك التجهيز من صدر الاسلام الى أواخر الدولة العباسية ولما اشتدت الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبد الملك ملكهم على أن يحمل اليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين ولم يستمر هذا التعهد زمنا طويلا لانه بعد ذلك بقليل انتصر المسلمون على الروم في وقائع عديدة وفتحوا من بلادهم كثيرا

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٩٦ هـ) وهو من أكبر خلفاء بنى أمية همة وأعظمهم قدرا وشهرة لان في أيامه امتدت فتوحات العرب الى داخل افريقية وتوغلت

الجيوش الاسلامية فى سهولها ونجودها حتى وصلوا الى جبال الاطلس القصوى وخضعت لهم
جميع القبائل البربرية النازلة بالشمال والجنوب واستولوا على مدنها وقلاعها وتفشت الديانة
الاسلامية بين شعوبها وقبائلها وفتح فى زمنه أيضا الفتوحات الكثيرة ببلاد ماوراء النهر وبلاد
الترك وفتح مسلمة بن عبد الملك الفتوحات الكثيرة ببلاد الروم وفتح محمد بن القاسم الثقفى بلاد الهند
وغير ذلك من الفتوحات

وكان لما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق كما تقدم وكثرت الفتن ببلاد البربر وخلت أكثر
البلاد ولى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير (٨٧ هـ) افريقية والمغرب وكان موسى عاقلا
كريما شجاعا ورعا تقيا لم يهزم له جيش قط ولما قدم أخذ فى رتق الفتق ولم الشعث وبعد أن تمهدت
له الديار المغربية وحسنت أحوالها وصلح نظامها باقامة قسطاس العدل فيها بعث ابنه عبد الله غازيا فى
البحر الى جزيرة ميورقه ومنورقه فغزاهما ورجع بالسبى الكثير وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه
هو الى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبى حتى قال بعضهم
انه لم يسمع فى الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ثم تقدم الى مدينة سبته فصانعه صاحبها يليان
(جوليان) الغوطى بالهدايا وأذعن للجزية وكان نصرانيا فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه
على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى فقبل منهم (٨٨ هـ) ثم ولى طارق بن
زياد الليثى مدينة طنجه وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم
باقامة العدل وهدم معالم الجور والظلم وان يعلموا البربر القرآن والفقه

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب للوليد يعلمه بذلك فورد عليه جوابه يأمره فيه
بغزو الاندلس وفتحها فكتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بذلك (٩٠ هـ) بعد ان يخضها بالسرايا
ويعلم عوراتها وثغورها وشواطئها حسب أمر الخليفة فجهز طارق الجيوش والاساطيل وعبر الى
الاندلس فى اثنى عشر ألفا من البربر وخلق يسير من العرب من سبته الى الجزيرة الخضراء وصيرهم
جيشين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك
النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وأداروا الاسوار على أنفسهم للتحصن (٩٢ هـ)
فلما علم ملك الغوط باسبانيا المدعو لذريق (رودريك) أمر أحد قواده المدعو أديكوس فالتقى
مع العرب وحاربهم فهزم فعرض الامر على الاهالى القريبين الى دار الملك فجمع رودريك حكام
الولايات والدساكر والاساقفة والاشراف ونحوهم وقر رأى الجميع على محاربة العرب بقوة لطردهم
من البلاد وكانت عساكر رودريك نحو مائة ألف أما أصحاب طارق فكانوا زهاء اثنى عشر ألفا كما
تقدم ومعهم بعض الجنود الذين أرسلهم بصحبته يليان حاكم طنجه وسبته لان يليان كما روى بعض
المؤرخين كان ينقم على رودريك ملك الغوط فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى
بنات بطارقتهم وذلك أنه كان من عادة أكابر العجم بالاندلس ان يبعثوا أولادهم الذين يريدون
التنويه بهم الى دار الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته
حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم استئلافا لآبائهم فاتفق ان
فعل ذلك يليان فبعث بابنته له جميلة تكرم عليه الى دار رودريك فوقعت عليها عينه فأعجبته وأحبها ولم
يتمالك ان استكرهها فافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها سرا فأحفظه ذلك وقيل غير ذلك من

الاسباب التي ينتحلها بعض المؤرخين لبيان أسباب الفتوحات والحقيقة على مانظن أن الامر بعيد
عن ذلك كله وان العرب لم يتوسعوا في فتوحاتهم ويخضعوا الممالك ويستعبدوا الملوك الا بعامل
القوة التي منحهم الله سبحانه وتعالى اياها وأراد أن تعلو قدمهم في البلدان والا فأين العرب من قوة
الروم وشدة بأسهم واتساع ملك فارس ونظامهم وسياستهم وملوك الهند وجيوشهم وأمراء الترك
وشجاعة جنودهم اذ لم يكن في سابق علمه تقدست ذاته أن هذه الامة الخاملة الذكر المتفرقة القبائل
المتعودة على الرحلة وشظف العيش تدين لها القياصرة وتعنو لامرها الاكاسرة

ولما رأى طارق كثرة جيوش الاعداء وانتظامهم وحسن ملابسهم واختلاف أزيائهم وهم
بالعدة الكاملة والسلاح الجيد وما عليهم من الخوذ والحديد السابغ هاله الأمر وخاف على جيشه
القليل فأمر باحراق السفن التي كانت تقلهم ليقطع عن قومه كل أمل في العودة ثم قام فيهم خطيبا
مشجعا منشطا وقال ان العدو أمامنا والبحر وراءنا فاختاروا أيهما شئتم ثم التقى مع جيوش الغوط
ودارت رحى الحرب ساعة انقضت في أثنائها ابطال العرب وصناديد البربر على جيوش الغوط وأمرائهم
المطرفين فبددوا شملهم وجندلوا أمراءهم فولوا الادبار وقتل منهم عدد عظيم وترك رودريك مركبته
وكانت من العاج الناصع يجرها بغلان أبيضان وهرب ولم يعلم أين ذهب وقد وجدوا جواده وتاجه
ورداءه ويظن انه مات غريقا في نهر قريب من هناك واتصلت الحرب بين الفريقين ثمانية أيام
وكانت بفحص شريش (كسيريس) ويقال انه بعد هذا النصر المبين أشار يليان على قائد العرب
بأن يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلا ان الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبددوا
والشعب في وجل عظيم فأرسل رجالك تستولي على ماقرب من المدائن واذهب أنت الى طليطلة دار
الملك ولا تفسح لهم في الوقت فيختاروا ملكا وكتب طارق الى موسى بن نصير يعلمه بالفتح والغنائم
فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير إذنه ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به
واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج في عسكر ضخم (٩٣ ﻫ) من وجوه العرب والموالي
وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق (مضيق جبل طارق) مابين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى
الاندلس

أما طارق فرأى من حسن تدبيره اتباع نصيحة يليان وتقدم بجيوشه نحو الشمال وافتتح أحد
قواده قرطبة (كوردو) بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر وسار هو نحو طليطلة تخت الملك فوجدها مغلقة
الابواب حصينة الاسوار والابراج فحاصرها زمنا وقطع القوت عن سكانها حتى اضطروا الى طلب
الصلح فعقد معهم صلحا أباح فيه حرية الخروج لمن أراده من السكان وترك للنصارى سبعة كنائس
وحرية الدين والشرائع وأبقى لهم قضاتهم وكذلك فعل مع اليهود ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به
من المدن بجهات قسطيلة (كاستيل) وغيرها وغنم أموالا جزيلة فمن ذلك المائدة النفيسة الطائرة
الصيت في مؤلفاتهم المسماة بمائدة سليمان وهي التي كان الروم أتوا بها من المشرق وأخذها الغوط
منهم حين إغارتهم على رومية قال بعض المؤرخين ان تلك المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود عليهما
السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم وانما في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم
أوصى بماله للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات من الذهب والفضة وكانت
تلك المائدة بطليطلة مما صيغ من ذلك وكانت من أفخر الادوات قيمة وترصيعا ثم عاد طارق الى

طيطلة بطلب من موسى بن نصير لانه حسده وخاف أن لا يترك له بلادا يفتحها ولا يشاطره الشهرة ورفعة الصيت وتقدم موسى فافتتح جهات وادى يانه وغيرها ولما تلاقى مع طارق بطليطلة وبخه على ما كان منه من عدم اطاعته ولم يسمع منه قولا ويقال انه ضربه وسجنه ثم أطلقه بناء على ما ورد له من الخليفة ولما خرج من السجن سار بجيش فافتتح بلاد طركونة وسرقسطه وبرشلونة وغيرها وأخذت بعد ذلك سفن الاسلام تتردد بكثرة على هذه الثغور ولم يزل العرب يطاردون الغوط الى أن أجاز وهم جبال البرانس أو البرنات وكان فى تلك الاثناء عبد العزيز بن موسى يحاصر مدنا بحرية جهة الجنوب

ويقال إن موسى بعد أن تم له فتح الاندلس كان أجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز دروب الاندلس الى الشام ويخوض اليه ما بينهما من بلاد الاعاجم مجاهدا فيهم ومستلحما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة فى دمشق ونما الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين فى دار الحرب ورأى ان ما هم به موسى تغرير بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسر الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو وكتب له بذلك عهدا منه ففت ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد ان أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز عليها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة وولى على طنجة ابنه عبد الملك ورجع موسى الى القيروان (٩٥ ﻫ) ثم ارتحل الى المشرق (٩٦ﻫ) تاركا ابنه عبد الملك على افريقية وبذلك صارت الاندلس والمغرب بين أولاده واندرجت ولاية الاندلس يومئذ فى ولاية المغرب فكان صاحب القيروان ناظرا فى الجميع وقدم موسى على الوليد بن عبد الملك قبل وفاته بثلاثة أيام بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبى منهم أربعمائة أمير غوطى عليهم التيجان والمناطق الذهبية ودفع اليه ما معه من الذخائر والاموال فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حتى أفضى الامر اليه فنكبه ونكب أهل بيته أجمع وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش وأمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك وكان سبب غضب سليمان على موسى انه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وبلغه الخبر بمرض الوليد وافاه كتابه يستحثه على القدوم ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبطه فأسرع موسى اللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته كما قلنا فلما تولى سليمان الخلافة غضب عليه لما كان منه ونفاه الى المدينة المنورة وبها كانت وفاته (٩٨ ﻫ) ثم ثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته ويقال ان ذلك كان باغراء الخليفة سليمان لانه خاف أن يخرج عليه متى علم بما حصل لابيه ويقال ان الجنود ثاروا به من تلقاء أنفسهم لما تزوج أجيلونة زوجة الملك رودريك وانه كان يحدث نفسه بلبس تاج ملوك الغوط

وكان عبد العزيز خيرا فاضلا افتتح فى ولايته مدائن كثيرة ويقال ان رأس عبد العزيز لما أحضرت بين يدى سليمان أمر فاحضروها الى موسى وكان بالسجن فلما رأى الرأس قال انا لله لقد قتلتم رجلا صواما قواما ثم بكى بكاء شديدا وأرسل سليمان على الاندلس من قبله محمد بن يزيد الحر وكان عادلا حسن السيرة أما طارق فانهم وان لم يهينوه لم يكافئوه على ما قام به من الفتوحات العظيمة واعلاء شأن الاسلام وهذه وصمة فى تاريخ سليمان بن عبد الملك لا تنسى أبدا

وبدخول

وبدخول الاندلس فى قبضة الاسلام انتظمت أحوالها وتحسنت حالتها وعم العدل ربوعها وانتشرت المدنية فى بلدانها وأمنت سبلها ونمت زراعتها وتجارتها وصناعتها فزادت مداخيلها وقويت شوكتها وهابتها الامم المتاخمة وتقربوا الى ولاتها أولا وملوكها ثانيا بالهدايا النفيسة والطرف الفاخرة استجلابا لمودتهم وطمعا فى مهادنتهم وبلغ ايرادها فى زمن الولاة نحو اثنى عشر ألف ألف وخمسة وأربعين ألف دينار ما عدا الجبايات وأموال الفتوحات ونحوها مما لا يحد وكان هذا المبلغ فى ذلك العصر أعظم من كل مداخيل ملوك أوروبا

وقد نبغ من هذه البلاد العدد الذى لا يحصى من العلماء والفقهاء والشعراء والادباء وراج فيها سوق العلوم واتسع بها نطاق الحضارة حتى صارت تناطح السحاب رفعة وتقابل الجبال قوة ودامت على ذلك دهرا طويلا ثم أخذ نجمها فى الافول وبدرها فى المحاق الى أن استردها الاسبانيول سكانها الاصليون حينما استنام حكامها من المسلمين وهذه سنة الله فى الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلا

وكان الوليد مشغوفا بالبناء وتشييد المبانى الفاخرة والقصور الشاهقة فمن ذلك مسجده الشهير بدمشق أنفق عليه أموالا طائلة وطلب من ملك الروم بالقسطنطينية فحمل اليه الفسيفساء المذهبة والاصباغ والصناع ويقال انه جعل به ستمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل وكان العرب يسمون هذا المسجد بلاط الوليد وجدد ووسع أيضا مسجد المدينة المنورة ووضع المنابر بالبلدان وأعطى المحرومين حتى أغناهم عن سؤال الناس وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا

وفى زمن الوليد امتد حكم الاسلام مسافة مائتى يوم من المشرق الى المغرب من بلاد التتار الى بحر الظلمات لانهم تملكوا العرب والعجم والشام والهند والسند وأفريقية وسردينيا واسبانيا ونحوها وفى زمنه أيضا ضربت النقود بصورة جديدة وبالغوا فى تخليص الذهب والفضة من الغش وأمر أيضا بعدم استعمال اللغة اليونانية وأرقامها فى الحسابات وجعل الدواوين بالعربية وكان الوليد لحانا لان والده عبد الملك كان تراخى فى تأديبه لشدة حبه إياه فلم يوجهه الى البادية ليتعلم الفصاحة والشعر وكانت وفاة الوليد سنة (٩٦ هـ) بدير مران وكانت خلافته تسع سنين وسبعة أشهر

وفى زمن الوليد أتى أحد الروم مظهرا الاسلام وبعد أن نال لدى الوليد حظوة أظهر له أن له معرفة بالدفائن والكنوز فصدقه الوليد وأصحبه بمن يلزم فحفر فى بعض جهات الشام وأظهر عدة دفائن مما حمل الوليد على أن صدقه أن تحت منارة (١) الاسكندرية أموالا عظيمة فجهزه مع جماعة من ثقاته الى الاسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة فلما استشعر بذلك هرب فى مركب كانت معدة له ثم انهم بنوا ما تهدم بالجص والآجر وركبوا المرآة كما كانت الا أن عملها كان بطل

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) لما مات الوليد كان سليمان

---

(١) هذه المنارة المشهورة كانت مشيدة بجزيرة صغيرة تدعى فاروس قريبة من الاسكندرية وصلت بالمدينة سنة (٢٨٥ ق م) بجسر من الاحجار وكانت من المرمر الابيض ارتفاعها ٣٠٠ ذراع (١٨٥ متر) وكان لها عدة طبقات تأخذ فى الصغر كلما ارتفعت والذى شيدها هو سطرات المهندس الشهير بأمر بطليموس فيلادلف وكانت تقاد النيران فى رأس تلك المنارة مدة الليل لهداية السفن وقد بلغت تكاليفها ما يساوى من الفرنكات

بالرملة فلما وصله الخبر بعد سبعة أيام سار مسرعا الى دمشق فدخلها وتمت له البيعة على أحسن مايكون وكان من أول أعماله أن أخذ فى تجهيز الجيوش والاساطيل لغزو القسطنطينية وذلك فى مدة انسطاسيوس قيصر ولما ثبت قدمه فى الخلافة سير تلك الجيوش (٩٨ هـ) مع أخيه مسلمة بن عبد الملك وكانت قوته البحرية مؤلفة من ١٨٠٠ سفينة كل سفينة تحمل مائة نفر بسلاحهم وسبب ذلك ان ملك الروم كان مات وتنازع الملك من بعده عدة وأتى أحد أقاربه المدعو ليون وأخبر سليمان بن عبد الملك بموته وضمن له فتح بلاد الروم لوقوع المنافسات والمشاحنات بين سكان القسطنطينية وفتح مسلمة فى طريقه عدة مدائن وبعد أن عبر بوغاز كاليبولى من المكان المسمى ممر العرب أخذ فى حصار القسطنطينية

وكان انسطاسيوس لما علم من جواسيسه بعبر العرب أخذ فى تحصين المدينة وتقوية أسوارها وشحن المخازن والساحات بالاقوات والذخائر وركب المنجنيقات على الاسوار وغيرها من الآلات لقذف النيران الاغريقية واستمر العرب فى الحصار حتى ولى الخلافة عمر بن العزيز وكانوا فى تلك الاثناء يزرعون ويقلعون واتخذوا بيوتا من خشب لاقامة العسكر مدة الشتاء ثم ان الروم لما اشتد بهم الحال ولم يجدوا لهم نصيرا أرسلوا الى مسلمة يطلبون دفع الجزية عن كل رأس دينار فلم يقبل ثم انهم تحايلوا على ليون الذى كان شجع العرب على محاصرة القسطنطينية ووعدوه بمال وضمنوا له أن يولوه المملكة ان هو صرف عنهم المسلمين فلما استوثق منهم بذلك وجلس على سرير الملك تحايل على مسلمة حتى ثبط عزيمته فوقع الفشل فى جيش المسلمين وأخذهم الروم من كل جهة وكادوا يهلكون عن آخرهم بعد أن أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شئ غير التراب ولم يتمكن سليمان من أمدادهم لدخول الشتاء وتراكم الثلوج فى الطريق فلما ولى عمر بن العزيز أرسل لهم الخيل والقماش والطعام الكثير فى عمارتين جديدتين الواحدة ٤٠٠ سفينة مشحونة قمحا من الاسكندرية والثانية ٣٦٠ سفينة من أفريقية وكان مضى على مسلمة من حين خروجه الى أن عاد ثلاثة عشر شهرا وأمرهم بالانصراف عن القسطنطينية وفى زمنه أيضا أغزى مسلمة بن عبد الملك جهات بلاد الترك ففتح وغنم وغزا أيضا عامل خراسان سعيد بلاد الصغد والخزر وغزا أيضا عماله جهات الغور والاندلس وسمرقند وماوراء النهر وغير ذلك

وكان سليمان بن عبد الملك عادلا فصيحا جميلا وسميا نشأ بالبادية عند أخواله بنى عبس وكانت ولايته يمنا وبركة افتتحها بخير وختمها بخير فأما افتتاحها بخير فرد المظالم واخراج المسجونين وأما ختامها بخير فاستخلافه عمر بن عبد العزيز ولم ينقم المؤرخون عليه شيأ الا نكبة موسى بن نصير وكانت وفاته سنة (٩٩ هـ) متخوما لانه كان شرها أكولا وله فى ذلك حكايات غريبة وكانت ولايته سنتين وعشرة أشهر ونصفا وهو ابن ثلاث وأربعين سنة

٤ و١٧٣ و٣٨٤ وقد زعزعت الزلازل بنيانها عدة مرات حتى ان ارتفاعها لم يكن الانحو ٢٣ مترا فى سنة (١١٨٢ م) ثم سقطت تماما سنة (١٣٠٣ م) وفى عهد احمد بن طولون بنى فى اعلاها قبة من خشب فهدمتها الرياح وبنى الملك الكامل صاحب مصر مكانها لما انهدمت مسجدا وأما ماروا وسؤرخو العرب بخصوص هذه المنارة والمرآة التى كانت بأعلاها فلم يقطع بصحته وقد تقدم الكلام على المرايا المحرقة عند ذكر ارخميدس بصحيفة ٩١ فلتراجع اهـ

خلافه

خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ ﻫ) ولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك وخطب الناس فى أول ولايته فقال أيها الناس والله ما سألت الله هذا الامر قط فى سر ولا علانية فمن كان كارها الشىء مما وليته فالآن اﻫ فقال بعض الحضور سبحان الله وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يقولوا هذا ويقوله عمر وقد اشتهر رضى الله عنه بالعدل وطبق ذكره الارض فى ذلك وهادنه الملوك وأذعنت له بالطاعة تقربا اليه واستجلابا للعهد، وفى عصره امتد الاسلام فى ديار البربر كثيرا لانه استعمل على المغرب اسمعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر وكان خير أمير وخير وال لم يزل حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى تم إسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم فى الدين وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيأ ولا يجرى على نفسه من الفىء درهما فقيل له لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ان عمر بن الخطاب لم يكن له مال وأنا مالى يغنينى

واعلم أن العرب وان كانت مساعيهم ذهبت أدراج الرياح فى حماتهم هذه المرة على القسطنطينية وخسروا الكثير من الرجال والسفائن الا أن جيوشهم كانت لا تزال منصورة بشمال الاندلس فان نوابهم فى تلك الاطراف كانوا لا ينفكون عن الاغارة صيفا وشتاء على جنوبى فرانسا وساعدهم على ذلك سقوط الدولة المروونجية (١) وقد كان عمر رضى الله عنه بما اتصف به من القناعة والزهد يميل الى تقليل الفتوحات خوفا من تشتيت أمر الاسلام بالممالك حتى يقال انه لو أفسح الله فى الاجل لكان رد المسلمين الذين باسبانيا الى هذه الجهة من افريقية ورد من كان ذهب منهم الى جهات الصين وفرغانة والخزر وهو رأى حكيم غاية فى الاصابة ومن محاسنه أنه أبطل سب على من المنابر وقد كان بنو أمية يسبون عليا عقب كل صلاة من عهد معاوية لما كان بينهما مما مر ذكره بك وأمر فابدلوا السب بقراءة قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى الآية ومرض عمر بن عبد العزيز بارض حمص ومات بدير سمعان واشترى من صاحب الدير موضع قبره باربعين درهما ويرى الناس أن يزيد بن عبد الملك دس اليه السم مع خادم كان يخدمه لان بنى أمية علموا من أفعاله أنه ان امتدت أيامه أخرج الامر من أيديهم وأنه لا يعهد بعده الا لمن يصلح للخلافة ويقال ان مسلمة بن عبد الملك دخل عليه فى مرضه فوقف عند رأسه وقال جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيرا فلقد عطفت علينا قلوبا كانت نافرة وجعلت لنا فى الصالحين ذكرا وكانت وفاته سنة (١٠١ ﻫ) وولادته بحلوان بأرض مصر

خلافة يزيد الثانى بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ ﻫ) وقام بالامر من بعده يزيد الثانى ابن عبد الملك بناء على ما أوصى به سليمان بن عبد الملك وفى أيامه خرج يزيد بن المهلب بن أبى صفرة واجتمع اليه جمع كثير وقوى أمره وشاع ذكره فارسل يزيد عليه أخاه مسلمة فقاتله حتى قتله هو وجميع آل المهلب وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة وفى زمنه غزا المسلمون جهات الصغد واقتتلوا مع الترك ان القفجاق فغنموا مغانم كثيرة ولم يحصل فى زمنه من الفتوحات العظيمة ما يقتضى التدوين وكانت وفاته ببلاد البلقاء من أرض الشام وهو ابن أربع وثلاثين سنة وكانت ولايته أربع سنين وشهرا وكان به ميل الى اللهو والطرب والاسراف كتب الى عمال عمر بن

(١) اسم العائلة الملوكية الاولى التى حكمت بلاد فرانسا وآخر ملوكها يدعى شيلديريك الثالث (٧٥٢ م) اﻫ

عبد العزيز أما بعد فان عمر كان مغرورا أغررتموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم اليه فى انكسار الخراج والضريبة فاذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طاعتهم الاولى أخصبوا أم أجدبوا أحبوا أم كرهوا حيوا أم ماتوا والسلام اهـ وقبل موته عهد بالخلافة من بعده لاخيه هشام ثم من بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك

خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) لما مات يزيد بن عبد الملك

كان هشام بالرُّصافة (١) فجاءته الخلافة على البريد فركب من ساعته وسار الى دمشق وبويع بالخلافة من يومه

وفى زمنه كانت الحروب لاتزال مستعرة بين المسلمين والترك وحصل أن قوى المسلمون عليهم فانتصروا وغنموا اشياء كثيرة وقتلوا من الاتراك مقتلة عظيمة وقتلوا ملك الترك وكان المتولى لحرب الترك أسد بن عبد الله القسرى ودخلوا فى هذه الغزوة بلاد فرغانة ونحو قند وخجندة وأصابهم تعب شديد وقتل منهم كثير (١٠٦ هـ) وغزا عامله أيضا نصر بن سيار بلاد ما وراء النهر ففتح وغنم

ولما كانت بلاد المغرب لاتزال محط الفتن والاضطرابات وكان البربر قتلوا عاملها بشر بن صفوان ولى هشام على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (١١٠ هـ) ولما قدم القيروان نظر فى أمر المغرب والاندلس معا وولى من قبله على الاندلس أربعة ولاة الواحد بعد الآخر وهم عثمان ابن أبى نسعة وحذيفة بن الاحوص والهيثم بن عبيد ومحمد بن عبد الله الاشجعى ولما حدث من هذا الوالى ما أغضب الخليفة عزله وولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا وكان قبل ذلك على مصر (١١٤ هـ) فولى الولاة على الاقاليم واستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وكان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية غزا فى بلاد الغالة غزوات كثيرة رجع منها منصورا غانما وتقدم حتى وصل الى مدينة بوردو (٢) بفرانسا (١١٤ هـ) ودخل كثير من تلك البلاد فى الاسلام ولما رأى النصر معقودا بلوائه عزم على فتح بقية بلاد الغالة فقطع جبال البرانس وفتح الحصون والمدن وامتدت عساكر الاسلام ببلاد اكيتانية وبورغونية ولما رأى الغاليون أى الفرنساويون ماحل بهم من الخراب والدمار انتخبوا فارسا منهم يقال له كرلوس من حاشية ملكهم وكان مقداما ذاذهاء وفطنة محبوبا عند أصحابه وهو المسمى فى كتب العرب قارله وعند الفرنج (شارل مارتيل) ويقال انه أمر الاهالى أن

---

(١) الرصافة اسم لعدة أماكن ذكرها ياقوت وغيره أشهرها - (١) رصافة بغداد وكانت بالجانب الشرقى اتخذها المنصور معسكرا لجنوده وامتدت عمارتها فى خلافة المهدى بنيت سنة ١٥٩ هـ وينسب اليها جماعة من أهل العلم - (٢) رصافة هشام قال القزوينى وهى مدينة فى البرية قرب الرقة احدثها هشام بن عبد الملك لما وقع الطاعون بالشام وكان هشام يفزع اليها فى بعض الاوقات ويؤخذ من كلام ياقوت انها بنيت قبل الاسلام وان هشاما عمرها ولعله الاصح (٣) رصافة قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسماها بذلك تشبيها لها برصافة هشام وينسب اليها جماعة من أهل العلم والادب - (٤) رصافة أبى العباس موضعها بالانبار - (٥) رصافة البصرة بلدة صغيرة - (٦) رصافة الحجاز ويقال لها أيضا عين الرصافة - (٧) رصافة الكوفة أحدثها الخليفة المنصور - (٨) رصافة نيسابور - (٩) رصافة واسط قرية بالعراق - (١٠) رصافة بلنسية بلد من أعمالها ذكرها ابن خلكان اهـ

(٢) وتسمى فى كتب العرب برديل أو بردال

لايعارضوا

لا يعارضوا العرب ولا يخاطروا بأنفسهم قائلا ما معناه الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل ما يصادره فهم فى اقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر فكان كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء وذلك فى ولاية عبد الملك بن قطن على الاندلس

ثم جمع شارل جنوده وما أتاه من جنود جرمانيا وغيرها المساعدته وتقابل مع العرب بين مدينتى طور و بواتيه وكان وصوله اليهم بغتة ثم تلاقى الجيشان واشتبك المغرب مع المشرق وبقى الحرب سبعة أيام وفى آخرها انجلت عن هزيمة العرب وقتل عبد الرحمن وفر من بقى الى بلادهم (١١٤ ﻫ) وقد انتشر خبر هذا الانتصار فى كل أوروبا فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب وكان ذلك آخر ما تفكر العرب فى فتح فرانسا وكانت هذه الواقعة فى مكان يسميه العرب بلاط الشهداء

وقد أصلح عبيد الله بن الحبحاب أمور المغرب حتى تمكن سلطانه وهو الذى بنى جامع الزيتونة بتونس واتخذ بها دار صناعة لانشاء المراكب البحرية وذهبت جنوده غازية الى الجنوب حتى جاوزوا السوس الاقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة وهو الذى غزت أساطيله جزيرة صقلية (١٢٢ ﻫ) وضرب على أهلها الجزية وانتشر المسلمون فى سائر الجزيرة وفى هذا الوقت انتقض البربر لان العمال أساؤا السيرة وساعدهم على ذلك خروج العسكر الى صقلية وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت فى البربر وتلقنها رؤسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الامم الهاعى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والاسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم ولما بلغ الخبر بذلك الى الخليفة هشام عزل عبيد الله عن المغرب وكتب اليه بالقدوم (١٢٣ ﻫ) وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشا كثيفا لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألف مقاتل على ما قيل وبعد قتال شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدى سبا ولما سمع الخليفة ما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته ووجه حنظلة بن صفوان الكلبى واليا على المغرب (١٢٤ ﻫ) والتقى مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الاصنام فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم وأحصيت القتلى فى ذلك اليوم فكانوا ١٨٠ ألفا وكتب حنظلة بذلك الى الخليفة ففرح فرحا شديدا ثم ولى حنظلة بن الخطار حسام بن ضرار الكلبى من قبله واليا على الاندلس (١٢٥ ﻫ) فاستقام لهما الامر حينا من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى أن تطرق الخلل الى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها بما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان الحمار آخر خلفائهم

وفى زمن هشام (١٢٢ ﻫ) خرج زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ودعا الى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالى على الكوفة يوسف بن عمر الثقفى فجمع العسكر وقاتل زيدا فاصاب زيدا سهم مات منه ثم صلبوا جثته وبعثوا رأسه الى هشام فأمر بنصب الرأس بدمشق ولم تزل جثته مصلوبة حتى مات هشام وولى الوليد فأمر باحراق جثته فأحرقت ولم يكن فى بنى مروان أعطر

ولا ألبس من هشام يقال انه خرج حاجا فحملوا ثيابه على ستمائة جمل وكانت وفاة هشام (١٢٥ ﻫ) بالرصافة بمرض الذبحة وعمره ٥٥ سنة وكان هشام حازما سديد الرأى غزير العقل عالما بالسياسة ويوصف بالبخل والحرص يقال انه جمع من الاموال مالم يجمعه خليفة قبله

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ ﻫ) قام بالخلافة بعد موت هشام وكان الوليد بالبادية مع أصحابه خوفا من هشام ولما اشتد به الضيق أتاه الفرج بموت هشام وأول شئ نظر فيه أن كتب الى عامله أن يأتى الرصافة يحصى مافيها من أموال هشام وولده وكان الوليد عاكفا على البطالة وحب القيان والملاهى والشراب ومعاشقة النساء وغيرها من أنواع الفسوق وكتب الى المدينة فحملوا اليه المغنين ولما ثقل ذلك على الرعية والجند رموه بالكفر فدعا يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى نفسه واجتمعت عليه اليمانية ولما اجتمع أمره وكان مقيما بالبادية لوخم دمشق سار فى نفر قليل حتى نزل على دمشق ودخلها ليلا وكان بايع له أكثر أهلها الذين كانوا ارتحلوا عنها لمجىء الوباء ثم اجتهد يزيد فقبض على عبد الملك بن محمد بن الحجاج عامل الوليد على دمشق ثم جهز جيشا الى الوليد وجرى بينه وبين الوليد قتال كثير وكان الوليد هرب الى حمص ثم تفرق الناس عنه فركب بمن بقى معه وقاتل قتالا شديدا حتى انهزم عنه أصحابه ثم دخلوا عليه قصره واحتزوا رأسه ووضع الرأس على الرمح وطيف به فى دمشق (١٢٦ ﻫ) فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وعمره ٤٢ سنة

وفى زمنه خرج عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع فى بلاد الاندلس وكان حاول التغلب عليها فلما قدم أبو الخطار واليا عليها من قبل حنظلة بن صفوان أمير إفريقية أيس منها وركب البحر الى المغرب واحتل تونس ودعا لنفسه فأجابوه ثم قوى أمره وخافه حنظلة فارتحل الى المشرق (١٢٧ ﻫ) ودخل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب فكان أول متغلب عليه ولما ولى مروان بن محمد الجعار الخلافة بعث اليه بعهده وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم ورأى الخارجية قد أعضل وتواثبوا على الامر بكل مكان داعين الى بدعتهم ولما عظم الخطب واقعهم عبد الرحمن بن حبيب (١٣١ ﻫ) فظفر بهم وفل جموعهم ولما استتب له الامر غزا صقلية وسردانية فأثخن جيشه فى سكانهما حتى أذعنوا الى الجزية ودوخ عبد الرحمن أمر المغرب وكان مهيبا معظما جليل القدر

خلافة يزيد الثالث ابن الوليد (١٢٦ ﻫ) بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد وأمه فارسية ابنة يزدجرد بن كسرى ولما قتل الوليد قام يزيد بن الوليد خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس انى والله ماخرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة فى الملك ومابى اطراء نفسى ولا تزكية عملى وانى لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ولكننى خرجت غضبا لله ودينه وداعيا الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حين درست معالم الهدى وأطفئ نور أهل التقوى وظهر الجبار العنيد المستحل للحرمة والراكب للبدعة والمغير للسنة فلما رأيت ذلك أشفقت ان غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم وأشفقت أن يدعو كثيرا من الناس الى ماهو عليه فيجيبه من أجابه منكم فاستخرت الله فى أمرى وسألته أن لا يكلنى الى نفسى ودعوت الى ذلك من أجابنى من أهلى وأهل ولايتى وهو ابن عمى فى نسبى وكفئ فى حسبى فأراح الله منه العباد وطهر منه

البلاد ولاية من الله وعونا بلا حول ولا قوة ولكن بحول الله وقوته و ولايته وعونه أيها الناس ان لكم على ان وليت أموركم أن لا أضع لبنة على لبنة ولا حجرا على حجر ولا أنقل مالا من بلد الى بلد حتى أسد ثغره وأقسم بين أهله ما يقوون به فان فضل رددته الى أهل البلد الذي يليه ومن هو أحوج اليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ولا أحد يعوزكم فتفتنوا فتنة أهاليكم فان أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به وان ملت فلا بيعة لي عليكم وان رأيتم أحدا هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل في طاعته أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ثم نزل اه

ولما ولي يزيد الخلافة لم يبايعه مروان بن محمد والي الجزيرة ولم يحصل في مدته القصيرة من الفتوح ما يستحق الذكر وذلك لان البلاد كان هب عليها عاصف الثورة والاضطرابات وأخذت أركان دولة بني أمية في التزعزع بخروج كثير من الخوارج وقيام الشيعة لاهل البيت وغير ذلك مثل عصيان أهل حمص وأهل فلسطين وامتناع نصر بن سيار بخراسان ومخالفة مروان ابن محمد وغير ذلك وسمي يزيد الناقص لانه نقص الناس العشرات التي كان زادها الوليد وقررهم على ما كانوا عليه أيام هشام وكان ديناو رعا وكان موته بدمشق بعد خمسة أشهر واثني عشر يوما من خلافته وعمره ٤٦ سنة

خلافة ابراهيم بن الوليد (١٢٦ - ١٢٧ هـ) يقال ان الوليد بايع له بالخلافة من بعده ويقال ان قوما افتعلوا عهدا عن لسان يزيد بالبيعة له ثم من بعده لعبد العزيز بن الوليد وأشهدوا عليه وكانت أمه بربرية ولم يتم له الامر وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة وقوم يسلمون بالامارة وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بامارة وجماعة تبايع وجماعة يأبون أن يبايعوا فمكث أربعة أشهر حتى قدم مروان بن محمد والي الجزيرة فخلع ابراهيم وولي الامر بنفسه ثم سار ابراهيم فنزل الرقة على شاطئ الفرات واستقامت بعد ذلك الخلافة لمروان بن محمد

خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ) وهو آخر خلفاء بني أمية وكان أحزمهم وأنجدهم وأبلغهم ولكنه ولي الخلافة والامر مدبر عنهم وفي زمنه اتسع خرق الثورات وعمت الاضطرابات فتلافاها بما أمكنه ولولا أمر الله سبحانه وتعالى لتمكن من قطع شأفتها وقد أرسل (١٢٨ هـ) محمد بن يزيد بن هبيرة الى العراق لقتال من به من الخوارج وكانت الدعوة تجددت بخراسان لبني العباس وقوي حزبهم (١٢٩ هـ) وذلك انه من عهد يزيد الاول (١٠١ هـ) كان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يدعي الخلافة فأرسل اثني عشر نقيبا الى العراق وخراسان وما وراء النهر ليجزبوا الناس اليه ويدعون الى بني العباس ويطعنون في بني أمية لاغتصابهم الخلافة وكان محمد المذكور قوي حزبه مدة يزيد الاول وفي زمن مروان هذا ظهر أبو مسلم الخراساني وكان أبو مسلم يختلف الى ابراهيم بن محمد ليوقفه على ماجريات الاحوال وبمساعيه بايع أهل خراسان لابراهيم ولما حج ابراهيم ومعه أخواه أبو العباس وأبو جعفر وولده وعمه شهره أهل الشام والبوادي والحرمين وبلغ ذلك مروان وكان قد وقع بين أبي مسلم داعية آل العباس ونصر بن سيار أمير خراسان مكاتبات طويلة بخصوص ما قام به أبو مسلم من الدعوة لآل العباس انتهت

بقتال قتل فيه أبو مسلم بعض عمال نصر المذكور واستولى على ما بأيديهم وكتب نصر بن سيار الى مروان بن محمد يعلمه بالحال وان أبا مسلم يدعو الى إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وكتب فى آخر الكتاب

أرى تحت الرماد وميض نار ＊ ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم ＊ يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ＊ أأيقاظ أمية أم نيام

وكان ابراهيم الامام وأهله يقيمون بالشراة من الشام بقرية يقال لها الحُمَيمة (١) فأرسل مروان الى عامله بالبلقاء أن يسير الى إبراهيم بن محمد المذكور فشده وثاقه وبعث به اليه فأخذه مروان وزجه فى الحبس بحران (٢) حتى مات

وفى (١٣٠ هـ) قوى أمر أبى مسلم واستولى على مدينة مرو ونزل قصر الامارة وهرب نصر ابن سيار ومات بعد ذلك بسنة ثم سار قحطبة وهو من شيعة ابراهيم بن محمد فى جيش كثيف من خراسان طالبا يزيد بن هبيرة أمير العراق من جهة مروان فلما التقيا انهزم ابن هبيرة وعدم قحطبة ثم بويع أبو العباس السفاح بالكوفة بعد مجيئه من الحميمة لان ابراهيم الامام لما قبض عليه مروان كان أوصى بالخلافة الى أخيه السفاح وبقى مستخفيا فى الكوفة زمنا ثم ظهر وسلم عليه الناس بالخلافة ودخل دار الامارة بالكوفة (١٣٢ هـ) ثم خرج الى المسجد وخطب وصلى بالناس وبايعه الناس ثم ولى الولاة وبعث البعوث

وكان مروان بن محمد لما اشتدت وطأة بنى العباس خرج من حران يطلب أبا عون عبد الملك المستولى على شهرزور من جهة بنى العباس ثم تلاقيا على نهر الزاب (٣) وكان مروان فى مائة ألف وعشرين ألفا ولما دارت رحى الحرب بين الطرفين داخل عسكر مروان الفشل وصار لا يريد أمرا الا وكان فيه الخلل حتى تمت الهزيمة على عسكره وكان مع مروان ابراهيم بن الوليد الخليفة المخلوع (١٣٢ هـ) ولما انهزم مروان أتى الموصل فطرده أهلها فأتى حران فأقام بها أياما

---

(١) الحميمة بليدة بالبلقاء من أرض الشام اهـ

(٢) حران قال ياقوت مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وقصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهى على طريق الموصل والشام والروم قيل سميت بهاران أخى ابراهيم عليه السلام لانه أول من بناها وقال قوم انها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وكانت منازل الصابئة وفتحت فى أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم قال ابن حوقل وبها سدنة الصابئة السبعة عشر وفيها تل عليه مصلى للصابئة يعظمون قدره وينسب الى ابراهيم وكان للصابئة فيها هيكل على اسم هرمس أما المدينة فخراب الآن وبها اطلال مبان قديمة وينسب الى حران جماعة من أهل العلم والادب

(٣) الزاب اسم عدة أنهر بالعراق قيل ان الذى حفرها ملك من ملوك الفرس القدماء اسمه زاب وأشهرها الزاب الاعلى أو الاكبر ويقال له المجنون لشدة جريه واسمه القديم ليكوس أو زاباتوس أو زابا أو زابيس ومخرجه من جبال كردستان غربى بحيرة أورميا ويصب فى الدجلة جنوبى الموصل والزاب الاسفل أو الاصغر واسمه القديم كبروس ويخرج من جبال قرب اذربيجان وعليه كان مقتل عبيد الله بن زياد بن أبيه وبين بغداد وواسط زابان آخران يسميان الزاب الاعلى والزاب الاسفل أيضا ويوجد ببلاد المغرب من افريقية نهر وصقع يقال لهما الزاب قال ياقوت والزاب كورة عظيمة ونهر جار بأرض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها

ثم حمل أهله وخيله ومضى منهزما الى حمص لما دنا منه عسكر السفاح ومن حمص الى دمشق ومنها الى فلسطين وكان السفاح كتب الى عمه عبد الله بن علي باتباع مروان فسار عبد الله في أثره ثم أرسل السفاح في أثره أخاه صالح بن علي بن عبد الله فسار وراءه حتى نزل مصر ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه في كنيسة بقرية بوصير وانهزم أصحاب مروان عنه فقتل قتله رجل كوفي (١٣٢ هـ) المذكورة

ثم رجع صالح المذكور من الشام بعد أن ترك بها حامية وواليا ولما وصل الرأس الى السفاح وهو بالكوفة سجد لله شكرا ثم أخذت نساء مروان وبناته الى صالح بن علي فأمر بحملهن الى حران أما ولدا مروان عبد الله وعبيد الله فانهما هربا الى أرض النوبة ومنها الى الحبشة ثم عبر عبد الله مضيق المندب الى أرض العرب في خلافة المهدى وكان عمر مروان لما قتل اثنتين وستين سنة وأمه كردية وكان يلقب بالحمار لقوته وصبره على القتال وبالجعدى لانه تعلم على جعد بن درهم وكانت مدة خلافته خمس سنين وأشهرا ومات معه كاتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب الشهير وبمروان انقرضت دولة بني أمية وكانت مدة خلافتهم ٩٠ سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام منذ اعتزل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة وخرج منهم أربعة عشر خليفة وامتد ملكهم من بحر الخزر الى المحيط الاطلانطيق ومن نهر الكانج الى شمالى اسبانيا

الفصل الرابع

الدولة العباسية

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ)

خلافة السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) لما اضطرب حبل بني أمية انتقل الملك الى آل العباس واعلم ان الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة والنجدة الا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة حتى كانت أواخرها فانتشر الخير واضطرب الامر كما سيجيء

وأول من تولى الخلافة منهم أبو العباس السفاح وكان كريما وقورا عاقلا كثير الحياء حسن الاخلاق تحول لما بويع بالخلافة الى الأنبار وولى أقاربه الولايات ولما استوثق له الامر ودانت له الجهات تتبع بقايا بني أمية ورجالهم فوضع السيف فيهم وكان اجتمع من بني أمية عند عبد الله بن علي بن عباس نحو تسعين رجلا فلما اجتمعوا عند حضور الطعام دخل سديف الشاعر فأنشده

لا يغرنك ماترى من رجال * ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويا

ثم أمر عبد الله بهم فضربوا بالعمد حتى وقذوا وبسط عليهم الانطاع ومد عليهم الطعام وأكل

الناس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا جميعا وبالغ بنو العباس فى استئصال شأفتهم حتى نبشوا قبورهم بدمشق فنبش قبر معاوية ونبش قبر يزيد ابنه ونبش قبر عبد الملك ونبش قبر هشام فوجد صحيحا فأمر بصلبه فصلب ثم أحرقه بالنار وذراه وصار يقتل بنى أمية حيث وجدوا فلم يفلت منهم غير رضيع أو من هرب الى الاندلس واستصفوا أموال من صحبهم أو خدمهم ولم تطل مدة السفاح فمات بالانبار (١٣٦ ﻫ) واستوزر السفاح حفص بن سليمان أبا سلمة الخلال وكان سمحا كريما فصيحا عالما بالاخبار والاشعار والسير والجدل حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة وكان لما استوزره فوض الامر اليه وسلمه الدواوين ولقب وزير آل محمد ويقال ان أبا سلمة المذكور تغير على بنى العباس لما رآهم يفعلون خلاف ما بويعوا عليه فسعى فى قلب دولتهم ومبايعة آل على فلما علم السفاح بذلك تغير عليه وكتب الى أبى مسلم يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة المذكور من نقل الدولة عن بنى العباس فلما قرأ أبو مسلم الكتاب فطن لغرض السفاح فأرسل قوما من أهل خراسان قتلوا أبا سلمة وفى خلافته استولى قسطنطين ملك الروم على ملاطية (١٣٣ ﻫ) وكان عمر السفاح لما مات ٦٣ سنة ومدة خلافته أربع سنين وخمسة أشهر

خلافة المنصور (١٣٦ - ١٥٨ ﻫ) كان السفاح قبل موته عهد بالخلافة من بعده الى أخيه أبى جعفر المنصور ثم من بعده الى ابن أخيه عيسى بن موسى وجعل العهد فى ثوب وختم عليه ودفعه الى عيسى بن موسى وكان أبو جعفر المنصور فى الحج لما مات السفاح فأخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى وأرسل يعلمه بذلك وبموت السفاح وكان أبو مسلم الخراسانى فى الحج مع أبى جعفر فبايع أبو مسلم أبا جعفر وبايعه الناس ولما لم ترض هذه البيعة عبد الله بن على بن العباس عم المنصور بايع لنفسه وشق عصا الطاعة فأرسل أبو جعفر أبا مسلم لقتال عمه وكان بأرض نصيبين وطال القتال بينهما واجتهد أبو مسلم بأنواع الخداع والحيل حتى هزمه هو وأصحابه ففر الى جهة العراق واستولى أبو مسلم على عسكره وكتب بذلك الى المنصور ثم ان المنصور قبض على عمه المذكور وكان مستخفيا عند أخيه سليمان بن على من حين هرب وأعدمه وكان المنصور تغير خاطره على أبى مسلم وحقد عليه أفعالا مغايرة ثم قتله وللمؤرخين فى سبب ذلك أقوال كثيرة مختلفة قالوا انه لما نجا كان أبو مسلم يظهر الكبر ويكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق وينشئ المصانع فاشتهر بذلك وعلا صيته وعند رجوعهما كان أبو مسلم يتقدم المنصور ولذلك أراد بعد هزيمة عمه أن يبعده عن مركز الخلافة فولاه مصر والشام فلم يرض أبو مسلم ويقال أيضا ان أبا مسلم لما استولى على معسكر عبد الله بن على وجد به أموالا كثيرة فأخذها لنفسه ولم يظهر منها شيئا للمنصور وقيل غير ذلك مما هو مبسوط فى التواريخ ثم ان المنصور أرسل الى أبى مسلم يدعوه اليه فلم يجب معتذرا بأعذار واهية وطالت بينهما المكاتبات فى ذلك وآخر الامر تحايلوا على أبى مسلم حتى حضر المدائن وكان بها المنصور فلما دخل عليه قبل يده فقابله المنصور بالترحاب ثم أمره بالانصراف لاخذ الراحة ولما كان من الغد أكمن المنصور له بعض حراسه فلما حضر اليه أخذ المنصور يعدد سقطاته وأبو مسلم يعتذر ثم خرج الحرس باشارة من المنصور فقتلوا أبا مسلم سنة (١٣٧ ﻫ) وكان أبو مسلم كما علمت هو الذى مهد لبنى العباس الجلوس على تخت الخلافة وهو الذى جذب الى حزبهم أهالى خراسان وغيرها وبمساعيه الغريبة وأعماله العجيبة وخطبه البليغة تربع بنو العباس فى دست الخلافة الاسلامية وكان أبو مسلم ذا رأى

وتدبير

وتدبير ومروءة وكان فتاكا قاسي القلب سوطه سيفه وفي خلافة المنصور (١٣٩ هـ) سار جيش عظيم ليعمر مدينة ملاطية ويصلح أسوارها وقلاعها من تخريب الروم ولما علم ملك الروم بمجيء جيش العرب أراد ملاقاتهم فلم يقدر على ذلك

وفي خلافة المنصور تأسست الدولة الاموية بالاندلس وذلك أن السفاح لما قتل بني أمية لم ينج منهم الا الرضيع ومن هرب الى الاندلس كما تقدم وكان من الهاربين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك فانه سار من جهات الفرات الى جبال المغرب وكان واليها اذ ذاك عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع وبعد أن هام على وجهه زمنا في قفار أفريقية آواه بعض شيعة بني أمية بالمغرب الاقصى ومازال مستخفيا حتى مكنته الفرصة وسكنت عنه العيون فعبر في نفر قليل الى الاندلس فتلقاه أهلها بالترحاب وأقاموه ملكا عليهم (١٣٩ هـ) واستقام أمره بالاندلس وبنى بقرطبة المسجد الجامع وغيره من المباني الفاخرة ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان في أول أمره يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان ومن يومئذ خرجت الاندلس عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق

ومن الحوادث المهمة التي حصلت في خلافة المنصور خروج الراوندية عليه وهم قوم من خراسان من أتباع أبي مسلم يقولون بالتناسخ وكان المنصور حبس قوما منهم لاتيانهم أمورا مخلة بالدين فغضب الراوندية وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم في جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ٦٠٠ رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب وخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه الخلق وحاربوا الراوندية حتى بددوهم

وبعد ثورة الراوندية كره المنصور الاقامة بالهاشمية بجوار أهل الكوفة فانه كان لا يأمن على نفسه منهم وخرج يرتاد له موضعا يسكنه وكان أهل الحذق أشاروا عليه بأن تكون اقامته على نهر الصراة [1] لانه بين أنهار لا يصل اليه عدوه الا على جسر فاذا قطع الجسر لا يمكنه الوصول ويكون هو متوسطا بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون الدجلة والفرات والصراة خنادق مدينته تجيئه الميرة من البحر والبر فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ولما أراد البناء جعل عليه أربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين (١٤٥ هـ) وكمل بناؤه سنة (١٤٩ هـ) وفي أيام المنصور قامت العائلة البرمكية واشتهرت بالسخاء والمروءة وكان السفاح قد استوزر بعد أبي سلمة خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية وكان خالد فاضلا جليلا كريما حازما يقظا خف على قلب الخليفة وكان عظيم المنزلة عنده كثر عليه الوافدون ومدحه الشعراء وانتجعه الناس فلما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته وأكرمه واستشاره

وفي زمن المنصور وبهمته أخذ العرب في دراسة علوم الفلك والطب وغيرهما وأمر المنصور أيضا فترجموا له من اللغات الاجنبية عدة مؤلفات من الفلسفة والطب والفلك وكانت وفاة المنصور سنة (١٥٨ هـ) ببئر ميمونة على أميال من مكة وهو محرم بالحج وعمره ٦٣ سنة وكان رحب الجبهة

(١) الصراة نهر بالعراق

كأن عينيه لسانان ناطقان صارما مهيبا ذا جبروت وسطوة تتبع الخوارج والشيعة وأصحاب الملل والنحل فأفناهم قتلا وتشريدا ولما كان يخاف على دولة بني العباس من أن تتزعزع أركانها بقيام الاحزاب وكانت الدولة جديدة غضة لم تتأصل جذورها بعد قبض على أحد عشر رجلا من بني الحسن ابن علي كرم الله وجهه وحبسهم (١٤٤ ﻫ) ولما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه واستولى على المدينة وتبعه أهلها ومالوا اليه أرسل المنصور عليه ابن أخيه عيسى بن موسى وجرى بينهما قتال آخره أن محمد بن عبد الله المذكور قتل هو وجماعة من أهل بيته وأصحابه وانهزم من سلم منهم وكان محمد كثير الصوم والصلاة وكان يلقب بالمهدي وبالنفس الزكية وكان أخوه ابراهيم ابن عبد الله مستخفيا والمنصور يجتهد في القبض عليه فقدم البصرة ودعا الناس الى بيعة أخيه محمد بن عبد الله قبل أن يبلغه قتله فبايعه جماعة وعلا ذكره فلما رأى سفيان بن معاوية أمير البصرة اجتماع الناس على ابراهيم سعى في القبض عليه وآخر الامر استقرت لمحمد البصرة وأرسل فاستولى على الاهواز وواسط ولم يزل ابراهيم بالبصرة يفرق العمال والجيوش ثم أجمع على المسير الى الكوفة وكان المنصور قد استدعى عيسى بن موسى من الحجاز وجعله على الجيش الذي وجهه لقتال ابراهيم وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه ابراهيم وقتل وأخذ رأسه وبعث به الى المنصور (١٤٥ ﻫ) وأمر كذلك أيضا عامله بمصر فسد الخليج الذي كان حفره عمرو بن العاص لحمل الاقوات الى بلاد العرب

وفي خلافة المنصور مات الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت وقيل ان والده من أهل كابل وكان أبو حنيفة عالما زاهدا وربما راوده المنصور في أن يلي القضاء فامتنع وكانت وفاته في سجن بغداد ليلي القضاء فلم يفعل كما هو مشهور (١٥٠ ﻫ) وقد أهان المنصور أيضا مالك بن أنس الامام صاحب المذهب وضربه بالسياط بعد أن جرده ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب بذلك أمرا عظيما وسبب ذلك انه كان بلغه انه لا يرى الايمان ببيعة بني العباس شيأ لان يمين المكره ليست لازمة فغضب المنصور وفعل به ما فعل ويقال ان الذي فعل به ذلك جعفر بن سليمان بن أبي جعفر المنصور ولم يزل مالك بعد ذلك الضرب في علو ورفعة وكانت وفاته بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع في خلافة الرشيد (١٧٩ ﻫ) وعهد المنصور بالخلافة من بعده لولده المهدي وأوصاه وصية غاية في البلاغة والحكمة

خلافة محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ ﻫ) كان أبو جعفر عهد بالخلافة من بعده للمهدي وبعده لعيسى بن موسى فأبى عيسى البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة ثم قبل بها بعد ذلك مضطرا وعهد المهدي لابنه موسى الهادي وفي زمنه بعث جندا كثيرا الى بلاد الهند فركبوا البحر من بلاد فارس ونزلوا أرض الهند وفتحوا فتوحات كثيرة ثم أصابهم وباء وفي رجوعهم عصفت عليهم الريح عند ساحل حران فانكسرت عامة مراكبهم ونجا منهم قليل وحج المهدي في أول خلافته وفرق في الناس أموالا عديدة وحفر الآبار والمصانع (١) وأقام الاميال (٢) على طريقه ويقال انه أنفق في حجه هذا ستة آلاف ألف دينار وكان المهدي شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد

(١) المصنع كالحوض يجمع فيه ماء المطر
(٢) واحدها ميل وهو منار يبنى للمسافر يهتدون به في الطريق

والزندقة

والزندقة وكانت أيامه شبيهة بايام أبيه فى الفتوق والحوادث والخوارج وكان المهدى يريد الاستيلاء على بلاد الاندلس فارسل الى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عامل افريقية بالذهاب الى الاندلس داعية لبنى العباس فخرج بعمارة كثيرة ونزل بساحل مُرْسية وكاتب عامل سَرَقُسطه فى طاعة المهدى فلم يجبه فقصد بلاده فيمن معه من البربر فهزمه العامل وعاد الى تدمر ثم سار عبد الرحمن صاحب الاندلس وأحرق سفائن ابن حبيب تضييقا عليه فاعتصم ابن حبيب المذكور بجبل بنواحى بَلَنْسية ثم اغتاله بعض البربر وحمل رأسه الى عبد الرحمن الاموى (١٦٢ هـ)

ثم ان المهدى تجهز لحرب الروم (١٦٥ هـ) وجمع عسكرا كثيفا وخرج من بغداد وتغلغل فى بلاد الروم فغنم وفتح ثم جهز لابنه الرشيد لغزو الروم ثانية فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية وكان المتولى على الروم اذ ذاك ملكة يقال لها ايرينى زوجة لاون الملك وذلك ان ابنها المدعو نيقوفور كان صغيرا هلك أبوه وهو فى حجرها فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد فجرى الصلح بينهم على الفدية وإرسال الادلاء واقامة الاسواق فى طريقه فأجابته الى ذلك وكانت الفدية ٧٠ ألف دينار كل سنة وهو الذى رتب البريد [1] بين اليمن ومكة والمدينة وبغداد وغيرها واستعمل لذلك

(١) البريد كلمة فارسية الاصل معناه مقطوع (بريدن ـ اوقطع) وسبب تسميته بذلك ان دارا بن بهمن من ملوك الفرس أول من رتبه وجعل له دواب خصوصية مبتورة الذنب تمييزا لها عن غيرها فسميت بريد ذنب فلما عربت حذفوا جزأها الاخير فقالوا بريد و يطلق فى اللغة على حامل الرسائل العمومية والخصوصية وعلى الخيال ومسافة قدرها أربعة فراسخ أو اثناعشر ميلا ومابين المنزلين والفرانق أى الذى يدل البريد على الطريق وقالوا أيضا ان اسمه أخذ من الشئ ينصب فى موضع فيبرد فيه اى يثبت واطلقوه على الدابة ايضا ثم اشتقوا منه فعلا (ابرد يبرد) وقد اختلفوا فى تعيين البلاد التى نشأ فيها البريد ولا غرابة فى ذلك فهى عادة المؤرخين توصلهم اليها الابحاث الدقيقة التى لولاها ماوصلوا الى طريق الصواب ويؤخذ مما رواه المؤرخون ان البريد قديم الاستعمال قال ديودور الصقلى ان البريد كان مرتبا عند الاشوريين والبابليين منذ القرن الثامن قبل المسيح وان ديجوسيس لما تملك على الماديين رتب البريد فى القرن السابع قبل الميلاد الا ان هيرودوت روى ان اول من رتبه داراموس دولة الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ومع ذلك فيمكن التوفيق بين هذين القولين المختلفين فى الظاهر وقال من يوثق بكلامه من المؤرخين ان البريد كان موجودا فى الصين فى القرن العاشر قبل الميلاد وهو أقدم الاخبار التى وصلت الينا وقد عرف الرومان أيضا فائدته فرتبوه فى ممالكهم ويقال ان أول من رتبه يوليوس قيصر وقيل انه كان موجودا قبل ذلك فى زمن جمهورية الرومان ولما أتى العرب واتسعت ممالكهم بالفتوحات رتبوا البريد وكان أول من أقامه فى الاسلام منهم أمير المؤمنين المهدى على المشهور أقامه فيما بين مكة والمدينة واليمن وجعله بغالا وابلا (١٦٦ هـ) وقال ابوالفدا ان اول من رتب البريد معاوية وكان هشام بن عبد الملك فى الرصافة لما مات يزيد اخوه فجاء مخبر الخلافة بالبريد وقيل عبد الملك بن مروان وان الوليد بن عبد الملك استعمل البريد فى نقل الفسيفساء من القسطنطينية الى دمشق عند مابنى الجامع الاموى وجامع مكة والمدينة والقدس وقيل ان البريد كان تعطل فى زمن المهدى فرتبه ليصل اليه خبر ابنه هرون عند ما كان يحارب الروم وبقى امر البريد فى خلافة بنى العباس الى ان غلبت سطوة بنى بويه على الخلفاء وعوض بالسعاة

الابل والبغال وصارت الاخبار والمراسلات تأتيه متواصلة (١٦٦ هـ) وفى زمنه ظهر المقنع الخراسانى وكان رجلا غريبا ادعى النبوة والربوبية واستمال اليه جماعة فجهز المهدى عليه الجنود فقتلوه ويقال انه هو الذى قتل نفسه بيده لما حاصروه وتوفى المهدى بماسبذان وكانت خلافته نحو عشر سنين وعمره ٤٣ سنه ويقال انه مات مسموما

خلافة موسى الهادى (١٦٩ - ١٧٠ هـ) لما توفى المهدى كان الرشيد معه فى ماسبذان فكتب الى الهادى يعلمه بذلك والبيعة له وتتبع الهادى الزنادقة كأبيه وكان الهادى يحارب أهل طبرستان فلما بلغه الخبر بادر بالمسير الى بغداد فوصلها بعد عشرين يوما فوجد أخاه أخذ البيعة له وفى السنة الاولى من خلافته ظهرت دعوة الحسين من أولاد علىّ ومعه جماعة من أهل بيتهم واشتد أمر الحسين المذكور فقاتله عامل الهادى فى المدينة عمر بن عبد العزيز وآل الامر بينهما الى انهزام عمر ومبايعة الناس الحسين وأقام الحسين فى المدينة مع أصحابه يتجهزون ثم لحقوا بمكة واتفق أنه كان حج تلك السنة جماعة من بنى العباس وشيعتهم فلما علموا ذلك انضم اليهم جماعتهم وقوادهم واقتتلوا مع الحسين فقتل الحسين وانهزم قومه وأفلت من المذكورين ادريس بن عبد الله بن الحسن فذهب الى مصر مختفيا ومنها الى المغرب الى أرض طنجة وبقى هنالك الى أن تملك تلك البلاد ومنه جاءت الدولة

وكان البريد أيضا مستعملا عند الدول الاسلامية التى أتت بعد بنى العباس فكان له فى كل مركز أمير اخور وشاد ورجال يناط بهم احضار المعالم والخيل وعليها التشاهير أى الطقومة وفى كل بريد صفائح من النحاس أو من الفضة بقدر كف اليد على احد وجهيها لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وعلى الوجه الثانى مناقب حاكم الوقت فان كانت بلاد الشام يكتب عليها اسم نائب السلطنة فى الولاية التى منها ابتدأ السير وتكسى الصفيحة بشرابة من حرير أصفر ويعلقها البريد فى رقبته بحيث تكون الشرابة بين كتفيه وكانت تسلم لكاتب السر فاذا تعين أحد لرآسة البريد أعطاه كاتب السر صفيحة من هذه الصفائح ومكتوبا بخط يده ويرسله الامير آخور لاستلام الخيل اللازمة واسم ذلك الشخص يكون مكتوبا فى سطرين من آخر التذكرة فاذا رجع رد الصفيحة له وكان للبريد عدة طرق مسلوكة بين القاهرة ودمشق وقد رتب الملك الظاهر بيبرس البندقدارى البريد بين القاهرة ودمشق حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق فى اربعة ايام ويعود فى مثلها فصارت اخبار الممالك ترد اليه فى كل جمعة مرتين ويحكم فى سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة (٦٥٩ هـ) وكان البريد بمثنى بمصر فى اربع جهات الاولى الى قوص واسوان والثانية الى حدود الاسكندرية والثالثة الى ثغر دمياط والرابعة الى جهة الفرات وهى حد المملكة الشرقى وتنقسم هذه الاخيرة الى جملة فروع

ومازال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق وله بكل مركز عدة من الخيول مع مايلزمها من السواس والسواقين وغيرهم حتى استولى تيمورلنك على دمشق (٨٠٣ هـ) فخربت مراكز البريد واختل بانقطاعه الامن فى طريق الشام وغيرها وكان لا يركب خيل البريد احد الا بمرسوم سلطانى وكانت الطرق بسببه عامرة يوجد بها عند كل بريد مايحتاج اليه المسافر ولكثرة الامن كانت المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أوماشية ومازال امر البريد بين انتظام واختلال حتى اتت البرد الحديثة (البوسطة) فمحت اثره تماما الا فى بعض الممالك فانه لا يزال مستعملا منتظما كما فى دولة المغرب الاقصى وقد تقدم كلام عن البريد ايضا بصحيفة ١٩١ اهـ

الادريسية

الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية (٤٦٣ هـ) كما سيذكر ذلك بتاريخ مراكش ولم يحصل في زمن الهادي القصير حوادث أخرى تستحق الذكر وسبب وفاته كما روى انه لما ولى الخلافة كانت أمه الخيزران تستبد بالامور دونه وكلمته يوما في أمر لم يجد الى اجابتها سبيلا فقالت لابد من الاجابة اليه فغضب الهادي وقال والله لاقضيتها لك قالت اذا لا أسألك حاجة أبدا قال لا أبالي فقامت مغضبة فقال مكانك والله لئن بلغني أنه وقف في بابك أحد من قوادي لاضربن عنقه ماهذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك فانصرفت وهي لا تعقل من الغضب وكانت تتصرف في أمور الدولة حتى صار معظم العقد والحل بيدها ويقال ان الهادي لما مرض وضعت عليه جواريها فقتلوه بالجلوس على وجهه وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر

خلافة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) جلس هرون الرشيد بن محمد المهدي على تخت الخلافة وعمره ٢٢ سنة وأشهر واستوزر يحيى بن خالد وألقى اليه مقاليد الامور وهو من أعظم ملوك الاسلام همة ونجدة وشهرة فاضت ينابيع العلوم في خلافته وتفجرت أنهر الحضارة في عصره وعمل اعمالا فاق بها من تقدمه من ذلك أنه أمر بعزل الثغور [1] كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عمالة واحدة وسماها العواصم [2] واجتهد في ترميم الثغور واقامة معالم الاسلام وتشييد المعاقل والحصون وفي أوائل حكمه مات بقرطبة عبد الرحمن الاموي المشهور بالداخل بعد أن ملك بالاندلس ٣٣ سنة وخلفه ولده هشام وخرج الرشيد حاجا (١٧٣ هـ) وقسم في الحرمين أموالا كثيرة وكان حجه ماشيا على اللبود تفرش له من منزل الى منزل وفي أوائل خلافته (١٧٥ هـ) ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسين والتف عليه كثير من الديلم [3] فجهز عليه الرشيد الفضل بن يحيى ومازال به الفضل يلاطفه ويبذل له الامان حتى استرضاه وأتى به الى الرشيد فأكرمه ثم حبسه حتى مات وظهرت فتنة في دمشق بين المضرية واليمانية انتهت بالمصالحة بين الطرفين بمساعي عامل الرشيد على دمشق بعد أن قتل من الطرفين جمع كثير وفي (١٨٠ هـ) توفي هشام صاحب الاندلس وكانت خلافته سبع سنين وسبعة أشهر وخلفه ولده الحكم ولم يستقر له الملك الا بعد قتال عنيف حصل بينه وبين عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل وفي تلك الفتنة اغتنم الفرنج فرصة القتال فذهبوا إلى الاندلس وفتحوا مدينة برشلونه كما سيأتي بتاريخ الاندلس ثم ظهرت عدة اضطرابات في بعض الجهات فتمكن الرشيد بحكمته من قمعها وفي (١٨١ هـ) غزا الروم ففتح وغنم وولى ابراهيم بن أغلب افريقية وهو رئيس دولة الاغالبة كما سيأتي الكلام عليهم في

---

(١) الثغور في الاصل مواضع المخافة من فروج البلدان وكانت مدنا بين الاسلام والروم أشهرها ملطية والحدث ومرعش والهارونية نسبة الى هرون الرشيد وعين زربة وأذنة وطرسوس والمصيصة وغيرها اه

(٢) والعواصم بلاد قصبتها انطاكية

(٣) أمم قديمة معاصرة للترك في أيام الفرس القدماء ولهم في التواريخ أخبار كثيرة كالترك وقد خرج منهم بعض دول كبيرة بالمشرق وفي الخلافة العباسية كانت دولة بني بويه بالعراق منهم وكانت أيضا قبلها دولة بني مرداويج بجرجان وأخيه وشمكير بعده ثم أولاده بعده وقد ذكر ابن خلدون وابن الاثير شيأ كثيرا من أخبار الديلم وبلادهم بالقسم الشمالي الغربي من فارس يحدها شمالا ناحية تاليس الروسية وجنوبا سلسلة البرز الفاصلة بينها وبين اذربيجان وعراق العجم ومازندران وشمالا الشرق بحر قزوين وهي بلاد جيلان أيضا ومن أحسن عمالات فارس

تاريخ تونس وفى (١٨٢ هـ) خرج الخزر من مدينتهم باب الابواب [١] (دربند) وأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف وانتهكوا أمرا عظيما لم يسمع بمثله وسبب ذلك ابنة خاقان الخزر التى كانت حملت الى الفضل بن يحيى البرمكى وماتت فى الطريق بمدينة بردعة [٢] وفى تلك السنة غزا المسلمون الصائفة وبلغوا أفسوس [٣] مدينة أهل الكهف الشهيرة وقد أراد هرون أن الامر يستمر فى أولاده من بعده بدون أن يحصل بينهم نزاع أو خلاف يؤدى الى ما لا تحمد عقباه فبايع لولده الامين بولاية العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعد الامين وضم اليه من همذان الى آخر المشرق وسلمه الى جعفر بن يحيى البرمكى وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه واثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ثم فى (١٨٦ هـ) قصد الرشيد الحج واستصحب معه أولاده الثلاثة وفرق بالمدينة أموالا طائلة ثم سار الى مكة فأعطى العطايا وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابى العهد وأشهد فيهما بالوفاء على الامين والمأمون وأخذ عليهما الايمان المغلظة وأشهد على ذلك من حضر من أرباب الدولة وعلق الكتابين فى الكعبة ليشهد جميع المسلمين على ذلك ومع ذلك فكان الرشيد لا يزال يتفكر فى أن تسيل الدماء بعد موته فجدد البيعة للمأمون وأرسل الى المأمون فجدد له العهد على الامين لانه كان اذ ذاك فى طبرستان (١٨٩ هـ)

ومن الحوادث الشهيرة التى ألفت فيها المؤلفات وأفرد المؤرخون لها الفصول والابواب حادثة الايقاع بالبرامكة وحاصلها أن الرشيد أوقع بالبرامكة لتكبرهم وعظمتهم واتيانهم ما يخل بسياسة الدولة ونظاماتها وكرامتها فقتلهم عن آخرهم واستصفى أموالهم وكانت شيأ يجل عن الوصف وقد تحامل بعض المؤرخين على الرشيد بسبب هذه الفعلة الشنعاء ولكن لو تدبروا الامر لوجدوا أن الحق بيده ولا يصح أن يوجه اليه اللوم الا من جهة أنه كان من المروءة وحسن الصنيع أن يخفف عنهم ما أصابهم من العذاب ولما كانت مسئلة الايقاع بالبرامكة من المسائل الطويلة العريضة ضربنا عن أمر التفصيل فيها صفحا فمن شاء فليراجعها فى المطولات

(١) باب الابواب أو دربند مدينة حصينة ببلاد طاغستان واقعة على الشاطئ الغربى من بحر الخزر أهلها مسلمون وأرمن ويهود وبها سور عتيق غاية فى العلو مسافة ١٢٠ ميلا مارا بطرسان أقامه الفرس لحماية أنفسهم من غزوات البرابرة الشمالية ولا يعرف بانيها بعضهم ينسبه لاسكندر والبعض لكسرى الاول وسنة ١٧٢٨م استخلصها العرب من الخزر واستولى عليها الفرس والترك والمغول وهى الآن للروس من سنة (١٧٩٥ م)

(٢) مدينة بأقصى آذربيجان وهى قصبة تلك البلاد بناها قباذ الملك وليس بين العراق وخراسان بعد الرى مدينة أكبر ولا أخصب ولا أحسن موضعا من أفق بردعة كما قاله الاصطخرى

(٣) كانت احدى المدن الايونية الاثنى عشر موقعها على الجانب الجنوبى من نهر قيسطرة على مسافة ٦٠ كيلومترا من ازمير قال استرابون ان الذين عمروها هم الكاريون ثم تداولها الفرس والمقدونيون والرومانيون وعند وفاة اسكندر استولى عليها ليسيماخوس وسماها ارسيناوى وكانت مدة الرومان محطا للتجارة ويقال انها مسقط رأس أميروس الشاعر الشهير وكان من أعظم وأفخر مبانيها هيكل ديانه الذى يعد من عجائب الدنيا السبع وكان تمثال ديانه الذى به من العاج مزينا بنقوش ذهبية غاية فى الاتقان وقد أحرق هذا الهيكل أرستراط يوم ولادة اسكندر الاكبر ويقال انه أضرم فيه النار ليشهر اسمه ولكن أهل افسوس نهوا عن أن ينطق أحد باسمه ليكون ذلك جزاء له وعقابا وقد التأم فى تلك المدينة عدة مجامع نصرانية أهمها مجمع أساقفة آسيا (١٩٦ م) وليس للمدينة المذكورة الآن من الآثار الا بعض اطلال شيدت فوقها عدة قرى وموقعها الآن ناحية اياسلوغ من ولاية آيدين

وكان هرون الرشيد معاصر الشرلمان الكبير ملك فرانسا وقد ترددت بينهما السفراء وتهاديا وكان من ضمن هدية الخليفة اليه أشياء نفيسة من صنائع المشرق منها ساعة دقاقة يقال إن أهل فرانسا لما رأوها داخلهم الذهول والحيرة حتى ظنوا أن ذلك سحر ومنها شطرنج بديع الصنعة وغير ذلك مما يدل على توفر الصنائع وتقدم الحضارة فى الشرق وتأخر الغرب ويقال إن هرون الرشيد كان يقصد من محالفة شارلمان إغراءه على الهجوم على بلاد الاندلس لمحو آثار بنى أمية أعدائه من تلك الاطراف ثم ضم الاندلس الى عمالات هرون الرشيد

وكان الروم خلعوا ملكتهم أيرينى (١٨٧ هـ) وملكوا عليهم نيسوفورس المعروف فى كتب العرب باسم نيقوفور فكتب الى هرون الرشيد كتابا يقول فيه أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والا فالسيف يقضى بيننا فلما وصل الكتاب الى هرون الرشيد وقرأه اغتاظ جدا وكتب من ساعته من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقوفور زعيم الروم فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه ثم ركب من ساعته حتى نزل على هرقلة فى مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفا من المرتزقة سوى من لا ديوان له من الاتباع والمتطوعة ففتح وغنم وأرسل القواد بالجيوش فعاثوا وغنموا وهزمت جيوش الروم شر هزيمة وأذعن ملكهم لدفع الجزية كما كانت أيرينى من قبل ولما نقض أهل قبرس العهد استعمل الرشيد حميد بن معيوب قائدا على الاساطيل التى بسواحل الشام ومصر فسارت الى قبرس ونازلتها وهزمت الثوار وخربت وسبت وبلغ سبى أهل قبرس ١٧ ألفا وكان من بينهم أسقف قبرس ولما عقدت الهدنة بين الروم والمسلمين وكان أقبل فصل الشتاء وانصرف المسلمون عنهم خرج ملك الروم بجيوشه وعاث فى تلك الجهات فركب عليهم الرشيد ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وجرح نيقوفور فى هذه المحاربة جروحا بليغة ولم يزل العرب يخربون ويفتحون ويسلبون ولايات اليونان فى البحر الاسود الى قبرس حتى رجع نيقوفور عن العصيان وطلب الصلح فتم الحال على أن تبقى مدينة هرقلة خربة وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسم نيقوفور واسم أولاده الثلاثة وكان الرشيد يسير على خطة المنصور فى بذل الاموال فلم ير خليفة قبله أبذل منه وكان لما يقعد عن الغزو يغزو بالصائفة كبار أهل بيته وقواده

ومن الذين خرجوا على الرشيد فى خلافته رافع بن الليث فيما وراء النهر (١) وكان من أعظم الثوار وأشدهم بطشا ومن الليث هذا خرجت الدولة الصفارية ثم فى (١٩٣ هـ) اشتد المرض على الرشيد بجرجان (٢) فسار الى طوس (٣) ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان عمره

(١) يطلق هذا اللفظ عند العرب على البلاد والجهات الواقعة بآسيا الى ماوراء نهر جيحون المشتملة على بلاد الصغد الشمالية وقسم من بلاد بلخ وتسمى عند الفرنج ترانس أوكسيان اهـ

(٢) قال ياقوت هى مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعضهم يعدها من هذه وبعضهم يعدها من تلك وهى من أعمال مازندران خرج منها كثير من الادباء والعلماء والفقهاء ولها مياه كثيرة وضياع عريضة فتحت سنة ٢٢ هـ على يد سويد بن مقرن صلحا على الجزية أما الآن فهى بلد لا أهمية لها

(٣) طوس كانت قديما عاصمة لبلاد خراسان واقعة على النهر المضاف اليها وقد خربها التتار ولم يبق منها الا بعض أطلال بالقرب من مدينة مشهد

٤٦ سنة وولايته نحو ٢٣ سنة وأشهر وكان الرشيد دعاقلا مهيبا عالي الهمة حليما حسن التدبير ميالا للعلماء والشعراء حتى قيل إنه لم يجتمع على باب ملك أو سلطان من العلماء والشعراء مثل ما اجتمع على باب هرون الرشيد وكانت زوجته زبيدة وهي التي أجرت الماء الى مكة من عين قريبة منها وصرفت على ذلك أموالا طائلة ولا تزال تلك العين للآن تدعى بعين زبيدة ومنها شرب أهل مكة وقد تعهدها الملوك والسلاطين بعد ذلك بالاصلاح الى يومنا هذا

خلافة الامين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) لما توفي الرشيد بويع للأمين بالخلافة في عسكر الرشيد وكان المأمون حينئذ بمرو وكان الأمين ببغداد ولما وصله خاتم الخليفة والبردة والقضيب ببغداد أخذت له البيعة وتحول الى قصر الخلافة ثم قدمت عليه أمه زبيدة وكانت بالرقة ومعها خزائن الرشيد فتلقاها ابنها الامين بالانبار ومعه وجوه أهل بغداد ولم يمض على جلوس الأمين على تخت الخلافة زمن طويل حتى دبت عقارب السعاية بينه وبين أخيه المأمون وهذا ما كان يخشاه الرشيد رحمه الله ويريد تجنبه ولذلك أخذ على أولاده أوثق العهود وأغلظ الايمان باتباع ما اشترط في وصيته كما تقدم ولكن ما الحيلة وقد أراد الله وقوع الحرب بين الأخوين وافتراق أهل الدولة الى فرقتين متعاديتين مما عاد بالوبال على جسم المملكة الاسلامية وهذا الوبال وان لم يظهر له أثر محسوس في خلافة المأمون لكنه سيؤول الى نتيجة سيئة يظهر فعلها مدة من ولي الخلافة من بعد الأمين

وكان أول ظهور العداوة والبغضاء بين الاخوين ان أبطل الامين اسم المأمون من الخطبة وكان يخطب لهما الى سنة (١٩٥ هـ) وأمر الامين فخطب لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان موسى المذكور طفلا صغيرا وأمر أيضا بابطال ما ضرب به المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان فنمى الشر بينهما ثم تقاتلا وجهز كل منهما الجيوش على صاحبه وكانت الحرب بينهما سجالا زمنا ولما انتصرت جيوش المأمون سار طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين من قواد المأمون وحاصرا الامين ببغداد (١٩٧ هـ) وتراموا بالمجانيق ودام الحصار مدة سنة ومنع طاهر دخول الميرة الى بغداد فغلت بها الاسعار ووقع بها النهب والحريق فتضايق الامر على الامين وفارقه أكثر أصحابه وخصيانه وأخذ الامين أمه وأولاده الى مدينة المنصور وتحصن بها وكتب طاهر الى وجوه أهل بغداد سرا يعدهم ان أعانوه ويتوعدهم ان لم يدخلوا في طاعته فأجابوه ونادوا بخلع الامين فنجا الامين بنفسه وركب حراقة أعدها له هو وكان وعده بالامان وحفظه سليما فلما سار الامين في الحراقة بنهر الدجلة خرج عليه أصحاب طاهر من مكمن فرموا الحراقة بالحجارة فانقلبت بمن فيها فشق الامين ثيابه وسبح الى بستان فأدركوه وحملوه الى طاهر فبعث اليه جماعة من العجم وأمرهم بقتله فاحتزوا رأسه فأمر طاهر بنصبه على برج من أبراج بغداد فلما رآه الناس سكنت الفتنة ثم جهزه طاهر الى المأمون وصحبته خاتم الخلافة ودخل طاهر المدينة ونادى مناديه من لزم بيته فهو آمن ثم صلى بالناس وخطب للمأمون (١٩٨ هـ) وكانت مدة خلافة الامين أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ٢٨ سنة وكان الامين كثير اللهو واللعب منقطعا الى ذلك مشتغلا به عن تدبير مملكته حتى أرسل الى جميع البلدان في طلب أصحاب الملاهي وضمهم اليه وأجرى عليهم الارزاق وفرق على أهل بيته وخواصه وخصيانه أموالا عظيمة وكان له خمس حراقات في الدجلة على صورة الاسد وعلى صورة الفيل

وعلى

وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس وأنفق فى عملها مالاً عظيما وقد ذكرها أبو نواس فى شعره ولما قتل الامين استوثق الأمر بالمشرق والمغرب للمأمون

خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) لما أفضت الخلافة الى المأمون اجتهد فى رأب الصدوع وسد الفتوق واصلاح ما تشعث من بنيان الدولة الا ان الايام لم تسالمه تماما ولم تصف له كما يحب فخرج عليه فى أول خلافته ابن طباطبا العلوى من أولاد على بن أبى طالب بالكوفة يدعو الى الرضا من آل النبى عليه الصلاة والسلام وبايعه أهل الكوفة واستوثق له أهلها فوجه الخليفة اليه جيشا فهزمه ابن طباطبا وبذلك اشتد ساعده ثم بايعه غير أهل الكوفة وامتدت حروبه زمنا وسالت فيها الدماء أنهارا واهتم الخليفة بأمره جدا وقلق له حتى مكنه الله منه وهزمه هرثمة قائد الخليفة وبدد جيوشه وقتل أبا السرايا وكان القائم بأمر طباطبا ثم استبد بالامر من بعد ابن طباطبا ولم تكد نار هذه الحرب تخمد الا وظهر ابراهيم بن موسى بن محمد العلوى باليمن واشتد أمره وكان فتاكا لقب بالجزار لكثرة من قتل وظهرت أيضا ببغداد ثورة واشتد أذى فساقها وشطارها على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية ونهبوا القرى مكابرة وبقى الناس معهم فى بلاء عظيم حتى قام بعض أهالى بغداد وتعرضوا للثوار فبددوهم حتى استقامت الامور

ولما رأى المأمون كثرة الثوار وخروج الكثير من آل البيت طلبا للخلافة واجتماع الناس عليهم وأن ذلك ربما أدى الى ضعف الدولة الاسلامية وملاشاتها جعل عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر ولى عهد المسلمين والخليفة من بعده وأخذ البيعة له بذلك على الناس فلما رأى بنو العباس ذلك صعب عليهم الأمر وكان أشدهم حنقا المنصور وإبراهيم ابنا المهدى وامتنع أهل بغداد عن البيعة وأظهروا الرغبة فى البيعة لابراهيم بن المهدى بالخلافة وخلع المأمون لانهم نقموا عليه أشياء منها جعله الخلافة فى آل على بن أبى طالب وإخراجها عن بنى العباس وأظهر العباسيون لذلك غضبا شديدا وأخذوا يبحثون عن الطرق المؤدية الى جعل الخلافة فى بنى العباس حتى إن أهل بغداد بايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى (٢٠٢ هـ) وخلعوا المأمون وكانت كل هذه الفتن أثناء غياب المأمون بخراسان ولما نمى الخبر اليه سار الى العراق ولما قرب من بغداد فر الثوار واختفى ابراهيم بن المهدى وشيعته وعادت الخطبة باسم المأمون ومازال ابراهيم مختفيا حتى ظفر به ومع ذلك لم يؤاخذه بل أحسن اليه واتفق أيضا موت على بن موسى الرضا الذى بايعه المأمون بولاية العهد ولما مات كتب المأمون الى أهل بغداد يعلمهم بذلك ولما دخل المأمون بغداد انقطعت الفتن بقدومه وفر أصحاب الفساد كما سبق وكان المأمون من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وحكمائهم وأتم رجال بنى العباس عزما وحزما وفراسة وفهما وكان أخذ من العلوم بقسط وضرب فيها بسهم وتأدب وتفقه وبرع فى فنون التاريخ والأدب والنجوم ولما كبر اعتنى بالفلسفة وعلوم الاول وهو الذى استخرج كتاب اقليدس وأمر بترجمته وتفصيله وعقد المجالس فى خلافته للمناظرة فى الاديان والمقالات وفى خلافته ترقت العلوم وتفشت بين العرب وهو أول من قاس الدرجة الارضية وعرف مقدارها وكان عظيم العفو جوادا بالمال وكان يقول لو يعلم الناس ما أجد فى العفو من اللذة لتقربوا الى بالذنوب وكان فيه دهاء وسياسة وله غزوات بجهات بلاد الروم والثغور غنم فيها وفتح

وكان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من اقليم الى آخر فانه جال فى بلاد الشام ومصر (٢١٦ هـ) وتفرج على آثارها فأعجبه ما رأى وهو الذى فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الاكبر وفى خلافته مات الامام الشافعى وهو محمد بن ادريس ابن العباس رضى الله عنه ودفن بمقامه المشهور بمصر (٢٠٤ هـ)

ومما عابه الناس على المأمون تكليفه الخلق بالقول بخلق القرآن وكان يكتب الى عماله بالامصار فمن قال من العلماء بخلق القرآن أطلق سبيله ومن لم يقل به ضرب وربما قتل وكان من النفر الذين لحقتهم الاهانة من ذلك الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صاحب المذهب المشهور وكانت وفاة المأمون (٢١٨ هـ) بحمى اصابته ولما مرض المأمون أوصى الى أخيه المعتصم بحضرة ابنه العباس بتقوى الله سبحانه وتعالى وحسن سياسة الرعية فى كلام حسن طويل ثم قال للمعتصم عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله فى عباده ولتؤثرن طاعة الله على معصيته وكلام من هذا القبيل وكانت وفاته بطرسوس (١) وخلافته ٢٠ سنة وخمسة أشهر وأياما وكان شديد الميل الى العلويين والاحسان اليهم

خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) لما بويع المعتصم تشعب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فأرسل المعتصم الى العباس وأحضره فبايعه العباس ثم خرج العباس الى الجند فقال لهم قد بايعت عمى فسكتوا وانصرف المعتصم الى بغداد ومعه العباس بن المأمون ولخوفه من أن توقع به الجنود استخدم نحو خمسين ألفا من التركمان واتخذهم لنفسه حراسا وولاهم محافظة الثغور والحدود وكانوا يزدادون يوما عن يوم ومن هذا الوقت أخذت شوكتهم فى النمو وبأسهم فى الظهور حتى صاروا أصحاب الحل والعقد خصوصا فى أيام من تولى الخلافة بعده فكانت القوة بأيديهم وليس للخلفاء معهم الا الاسم فقط كما ستقف عليه وكان المعتصم يقول كأخيه المأمون بخلق القرآن وكان يغلظ التنكيل بمن لم يقل بخلقه ومن ذلك الامام أحمد بن حنبل فانه لما لم يجب الى القول بخلق القرآن جلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيده وحبسه

وحدث فى خلافته (٢٢٣ هـ) ان تيوفيل ملك الروم خرج فى جمع عظيم وأغار على بلاد الاسلام فقتل وسبى ومثل بمن وقع فى يده من المسلمين ولما بلغ المعتصم ذلك وأن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى الروم وامعتصماه استعظمه ونهض من وقته وجمع العساكر وجهزها بما لا يماثله أحد من السلاح والآلة والعدد وخرج قاصدا مدينة عمورية لانها الذى الروم وأشرف من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد منذ كان الاسلام فلما وصلها (٢٢٣ هـ) جعل جيشه ثلاث فرق بين كل فرقة وفرقة فرسخان وساروا يخربون ويحرقون حتى وصلوا عمورية وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد يطول شرحه آخره استولى المسلمون على المدينة المذكورة بالقوة ووضعوا السيف فى أهلها وهدموها عن آخرها وبينما كان فى الطريق عند رجوعه بلغه ان العباس بن

(١) قال أبو الفداء طرسوس مدينة مشهورة كانت ثغرا من ناحية بلاد الروم على ساحل البحر الشامى اه وكانت قديما قصبة بلاد كيليكيا وهى مولد بولس الحوارى وسكانها الآن ٣٠٠٠٠ نسمة وتضاهى اسكندرونة فى رداءة المناخ وهى من أعمال ولاية اطنه اه

المأمون بايعه جماعة من القواد وانه يريد الوثوب عليه ويأخذ الخلافة منه فقبض المعتصم عليه وحبسه ومنع عنه الماء حتى مات

وكان الرشيد ابتدأ في تشييد مدينة السامرا (١) القديمة فلما أتى المعتصم أكملها وجدد بناءها (٢٢٠ هـ) وسماها سر من رأى فخففها الناس الى سامرا وصارت دار الملك من لدن المعتصم وفي خلافة المعتصم خرج عليه كثير من الثوار وأصحاب الاقوال والمدعيات فمكنه الله من رقابهم جميعا وكانت وفاة المعتصم بسر من رأى (٢٢٧ هـ) وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وهو أول من أضيف الى لقبه اسم الله تعالى من الخلفاء وكان المعتصم بالله طيب الاخلاق لكنه اذا غضب لا يبالي بمن قتل وما فعل وكان سديد الرأي قويا يقال انه كان يحمل ألف رطل ويمشي بها وانتشأ عاميا يكتب كتابة مغشوشة ويقرأ قراءة ضعيفة وهو أول من أدخل التتار والاتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الاعاجم وبلغ غلمانه الاتراك ثمانية عشر ألفا وألبسهم أطواق الذهب والديباج

خلافة الواثق بأمر الله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) لما جلس الواثق على تخت الخلافة ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم بدمشق فبعث الواثق اليهم جنودا قاتلوهم بمرج راهط حتى انهزموا وصلح أمر دمشق وأرسل عمارة بحرية تحت قيادة أسد بن الفرات لفتح جزيرة صقلية ففتحها (٢٢٨ هـ) وأرسل أيضا زيادة الله ابراهيم بن الاغلب أمير افريقية جيشا الى الجزيرة المذكورة في أسطول جسيم ولما وصل اليها التقى باسطول الروم في تلك المياه فحمل عليه حملة منكرة قتل فيها جنود الروم وأخذ أساطيلهم ثم التقى باسطول آخر فهزمه وغنم ما فيه وتفرق المسلمون في الجزيرة يغنمون ويسبون ويفتحون وكانت لهم وقائع شهيرة بجهات جبل النار الذي بتلك الجزيرة وكان بنو الاغلب يهتمون كثيرا في انشاء الاساطيل وتسييرها بالبحار ويقال انه في تلك المدة استعمل العرب بيت الابرة في الاسفار البحرية وسهل بها السفر خارج باب المندب

(١) هي بلدة مركز قضاء بولاية بغداد الآن واقعة في الشمال الغربي من بغداد على تل بجانب الدجلة بها قبر الامام على الهادي والامام حسن العسكري ويعتقد الشيعة ان المهدي يخرج منها في آخر الزمان ويأتيها منهم سنويا أكثر من عشرة آلاف زائر لزيارة الامامين المذكورين وبالقرب منها برج قديم مرتفع وبقايا قصور وبها من قبور الخلفاء قبر الواثق وقبر المتوكل وابنه المنتصر وأخيه المعتز والمهتدي والمعتمد بن المتوكل قال ياقوت سامرا لغة في سر من راى مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة قيل انها كانت مدينة عتيقة من مدن الفرس وقال الشعبي ان اسمها سامرآ ومعناه طريق سام لان سام بن نوح كان يمر بها عند مسيره وقد جددها المعتصم العباسي ونزلها سنة (٢٢١ هـ) وسماها سر من راى وقالوا ان هذا الاسم مختصر من سر ومن راى ولما خربت وتشوهت سميت ساء من راى وسبب بناية المعتصم لها انه لما ضاقت بغداد عن جنوده وأراد استحداث مدينة بنى سر من راى ثم أمر عسكره بالبناء فعمر الناس حولهم حتى صارت بلدا عظيمة وكانت وفاته بها سنة (٢٢٧ هـ) وقام بعده ابنه الواثق بها حتى مات ولما أتى المتوكل زاد في عمارتها واشتق لها من دجلة قناتين وبنى المتوكل بسر من راى عدة قصور العروس والقصر المختار والوحيد والجعفري والمحدث والغريب والشيدان والبرج والصبح والمليح وغيرها ولم تزل سر من راى في صلاح وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق الى آخر ايام المنتصر بن المتوكل ولما استبد الاتراك بالعمل وفسدت دولة بني العباس أخذت سر من راى في التناقص الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من راى بالكلية المعتضد بالله ثم خربت حتى لم يبق منها الا المواضع المذكورة بعد ان لم يكن في الارض احسن ولا اعظم ولا اجمل ولا اوسع ملكا منها اهـ

و بخليج فارس ووصلت سفنهم الى زنجبار وجنوب افريقية وتمكنوا من التجول فى بحر الظلمات حتى وصلوا الى جزائر الخالدات ومن هذا الوقت أيضا جعلوا جزيرة الحديد احدى تلك الجزائر مبدأ الخطوط الاطوال

وكان الواثق من أفاضل خلفاء بنى العباس لبيبا فطنا فصيحا شاعرا وكان يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته وكان يبالغ فى اكرام العلويين والاحسان اليهم وفرق فى الحرمين أموالا عظيمة حتى انه لم يبق فى أيام الواثق بالحرمين سائل ولما بلغ أهل المدينة موته كانت تخرج نساؤهم كل ليلة الى البقيع يندبن الواثق لفرط احسانه اليهم وقد سلك مذهب أبيه المعتصم وعمه المأمون فى امتحان الناس والزامهم القول بخلق القرآن وكان موته بداء الاستسقاء (٢٣٢ ﻫ) وعمره ٣٢ سنة وفى خلافة الواثق أغار النورماندیون على بلاد الاندلس وامتد شرهم كثيرا وزحفوا حتى دخلوا إشبيلية ثم تقوى المسلمون عليهم وزحفت عليهم جنود صاحب الاندلس فهزموهم وأخذوا منهم عدة سفن

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧ ﻫ) كانت البيعة له بالخلافة بمدينة سر من رأى وعمره ٢٦ سنة وفى أول خلافته عقد البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة وكان المتوكل شديد البغض لسيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنه ولاهل بيته ولذلك أمر بهدم قبر الحسين وهدم ماحوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه وله فى كراهة على رضى الله عنه وأولاده حكايات ولولا ذلك لكان من أحسن الخلفاء سيرة سيما وانه منع الناس عن القول بخلق القرآن وفى خلافته (٢٣٧ ﻫ) فتح العباس ابن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة وكانت دار الملك بها وكان ملكها يسكن قبل ذلك بسرقوسة فلما أخذها المسلمون انتقل الملك الى قصريانة وتوفى فى خلافته (٢٤١ ﻫ) الامام أحمد بن حنبل وكان مجتهدا ورعا زاهدا صدوقا وكان المتوكل عزم على الاقامة بدمشق واتخاذها دار ملك لولا أنه استثقل ماءها فرجع الى سر من رأى

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية كما علمت وافتتح جالية الاندلس اقريطش اغتاظ الروم جدا وجهز وانحو ٣٠٠ مركب عليها ثلاثة أمراء فأخذت بالجولان فى عرض البحر المتوسط الابيض وكانت تنتهز الفرص للايقاع بالمسلمين فى كل مكان فمن ذلك أنهم فى (٢٣٨ ﻫ) انتهوا الى مدينة دمياط بنحو مائة مركب وخرجوا منها على غرة من أهلها وكانت دمياط فارغة من الجند فأحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ثم رجعوا ويقال انه لم يعرض لهم أحد فى طريقهم

وكان المماليك من الاتراك والديلم والتتار كثر عددهم وعظمت سطوتهم منذ أن قبضوا على زمام الجيش والولايات من عهد المعتصم وانتشروا ببغداد حتى استولوا على المملكة فصار بيدهم الحل والعقد والولاية والعزل الى أن حملهم الطغيان على العدوان وسطوا على الخليفة باتفاق مع ابنه المنتصر وبغا قائدهم فدخلوا عليه فى مجلس أنسه وعنده الوزير الفتح بن خاقان فصاح الفتح ويلكم هذا سيدكم ورمى بنفسه عليه فضربوهما بالسيف فقتلا جميعا (٢٤٧ ﻫ) وفى خلافته افتتح بغا قائد

جنوده

جنوده مدينة تفليس بعد أن حاصرها ودعا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار وكانت منازلها من الخشب فاحترقت واحترق بها نحو خمسين ألفا وحصلت فى خلافته زلازل هائلة (٢٤٢) ه سمع لها أصوات منكرة بقومس ورساتيقها حتى تهدمت الدور وهلك خلق كثير وامتدت الى الشام وفارس وخراسان واليمن وخسف الجبل الاقرع وسقط فى البحر فمات أهل اللاذقية من ذلك

ومن الحوادث التى حدثت فى خلافة المتوكل اغارة البجاة [1] على أرض مصر وكانت بين أهل مصر والبجاة هدنة من لدن الفتح وكان فى بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخمس الى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن وكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار فى غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وان بين بلادهم وبين المسلمين مسيرة شهر ولابد فيها من الازواد وان فنيت الازواد هلك العسكر فامسك عنهم ثم ولى المتوكل محمد بن عبد الله القُمى اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب الى عامل مصر عنبسة بن اسحق بتجهيز العساكر معه فسيره فى ٢٠ ألفا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقا وتمرا وأدما الى سواحل بلاد البجاة وانتهى الى حصونهم وقلاعهم فزحف اليه ملكهم فى اضعاف عسكر القمى على المهارة وطاول الاسلام على أن تفنى أزوادهم ثم جاءت المراكب وفرقها القمى على أصحابه فناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورا وأمر القمى عسكره باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كانوا

وفى خلافته غزا المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان الاساطيل فافتتح حصن انطاكية وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وعمره نحو أربعين سنة

خلافة المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨ ه) لما جلس المنتصر على تخت الخلافة لم يتمتع بها لاستيلاء المماليك على ادارة المملكة وضربهم على يده فدسوا الى طبيبه ليسمه ففصده بمبضع مسموم فمات لستة أشهر من مبايعته ويحكى أنه بات ليلة فى وعكه وانتبه فزعا يبكى فسألته أمه ما يبكيك قال افسدت دينى ودنياى رأيت أبى الساعة وهو يقول قتلتنى يا محمد لاجل الخلافة والله لا تتمتع بها الا أياما ثم مصيرك الى النار فاستمر موهوما من هذا المنام فما عاش بعد ذلك الا أياما قلائل وفى خلافته افتتح المسلمون عدة مدائن فى صقلية وكان عمره لما مات ٢٥ سنة وخلافته ستة أشهر ويقال إنه مات بالذبحة

خلافة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ ه) وهو أحمد بن محمد بن المعتصم بايعه الامراء وأكابر المماليك ولم يولوا أحدا من أولاد المتوكل لئلا يطالب بدمه وكانت أيامه أيام فتن ومحن وحروب وخروج خوارج وكان المستعين مستضعفا فى رأيه وتدبيره وعقله وكانت أيامه شديدة الاضطراب والشغب بين العامة والاتراك ببغداد خصوصا وفى آخر أيامه اتفق اثنان من المماليك

(١) ويقال بجاة وبجة وتسمى بلاد البشارية أيضا وهى بلاد بالجهة الشرقية من النوبة واقعة بين البحر الاحمر والنيل متصلة بأعلى صحراء عيذاب وتمتد من صعيد مصر الى ساحل البحر الاحمر مما يلى جزيرة سواكن وبانع ودهلك وأول بلاد الحبشة وقصبتها سواكن وفيها معدن الزمرد وقد سكن تلك البلاد قوم من العرب من ربيعة بن نزار وللبجاة أخبار طويلة فى التواريخ اه

المقدمين وهما بغا الصغير و وصيف فقتلا باغر التركي فشغبت الترك وحصروا المستعين و بغا الصغير و وصيفا في القصر بسامرا فهرب المستعين و بغا ووصيف في حراقة وانحدروا الى بغداد واستقر بها المستعين فاخرجوا المعتز من الحبس وولوه على أموال المستعين بسامرا وأموال أمه ففرق على الجنود وعقد المعتز لاخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل وجهزه مع خمسين ألفا من الترك لحرب المستعين وتحصن المستعين ببغداد وجرى بين الفريقين قتال كثير ثم اتفق الامراء على خلع المستعين وألزموه بذلك (٢٥٢ ه) وخلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وعمره ٣٤ سنة

خلافة المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ ه) لما استولى المعتز على الخلافة كانت الثوارت عمت تقريبا جميع أطراف الدولة وكان المعتز صحيح العقل جيد السيرة الا أن المماليك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة وصار منصب الخلافة ألعوبة في يدهم واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاؤا أبقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه ثم بعد مبايعة المعتز أخرج المستعين من قصر الرصافة الى مكان آخر واستلموا منه البردة والقضيب والخاتم ونفوه الى البصرة وكان به من يحفظه ثم أمر المعتز أحد خواصه فقتله وفي خلافة المعتز استبد بعض العمال بعمالاتهم وقطعوا ما كان يحمل من الخراج الى دار الخلافة فتغلب يعقوب الصفار على جهات هراة وكرمان وفارس وغيرها وأقطع المعتز أحمد بن طولون بلاد مصر فبقيت له ولاولاده من بعده بعد أن استقل بها زمنا وكانت لهم بها دولة عظيمة قوية لها أخبار يطول شرحها سيأتي ذكرها في الكلام على تاريخ مصر ثم تآمر المماليك الاتراك على المعتز وخلعوه (٢٥٥ ه) وسبب ذلك انهم طلبوا أرزاقهم منه فلم يكن عند المعتز مال يعطيهم فارسل الى أمه في ذلك فقالت ما عندي شئ فاتفق الاتراك والمغاربة والفراعنة على خلع المعتز فساروا الى بابه واستأذنوا فامر لبعضهم بالدخول فلما دخلوا هجموا عليه وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس يعذبونه ثم أدخلوه سردابا وجصصوه عليه فمات وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر تقريبا

خلافة المهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ ه) لما جلس المهتدي على كرسي الخلافة كانت الثورات لا تزال تمزق جسم الدولة العباسية حتى استقل كثير من العمال بعمالاتهم فنقص الخراج ونضبت الخزائن فأدى ذلك لتكرار الثورات من الجنود وغيرهم فزالت مهابة الدولة من النفوس وتقلص ظل سلطان الخليفة وتطاول كثير من السوقة على شق عصا الطاعة حتى انه من أشهر الحوادث في تاريخ بني العباس ظهور صاحب الزنج [1] كان في هذه المدة (٢٥٥ ه) وله وقائع كثيرة وقد قتل ونهب وحرق كثيرا حتى خافه الناس وفرت من امامه الجنود

(١) صاحب الزنج يدعى علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس ولما ظهر جمع اليه الزنج الذين كانوا يكنسون السباخ جهة البصرة وادعى انه علي بن محمد بن أحمد من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ولما صار له جمع وقوة بالتفاف الكثير عليه ممن يميل الى الخروج على الدولة عبر نهر الدجلة وأخذ في شن الغارة وكان صاحب الزنج المذكور قبل ذلك متصلا بحاشية المنتصر في سامرا يمدحهم ويستمنحهم بشعره ثم انه شخص من سامرا (٢٤٩ ه) الى بلاد البحرين وادعى نسبته في العلويين كما تقدم وأقام في الاحساء ثم سار الى البصرة (٢٥٤ ه) وخرج بعد ذلك بسنة واستفحل أمره وبث أصحابه في الجهات للاغارة والنهب ثم تقدم وملك الابلة عنوة وقتل فيها خلقا كثيرا ثم استولى على عبادان فالاهواز بالسيف (٢٥٦ ه) ثم تقدم وحاصر البصرة واستولى عليها وأخربها وقتل من

وكانت أم المعتز بالله الخليفة السابق اختفت لما هجم الجنود على ولدها يريدون قتله وكان طلب منها خمسين ألف دينار يدفعها للجنود اتقاء شرهم ومنعا لما أصابه من ضررهم فقالت إنه ليس لديها من النقود شئ ولما ظهرت فى أوائل خلافة المهتدى وكان اسمها قبيحة (١) ظهر لها ببغداد أموال عظيمة تجل عن الحصر

أما المهتدى فلم يتمكن من فعل شئ أصلا لان الجنود الاتراك لم تمهله وعجلت بقتله وسبب ذلك انه كان أراد أن يقتل أحد مقدمى الاتراك المسمى موسى بن بغا لقتله صالح بن وصيف وكان موسى المذكور فى حرب مع بعض الخوارج فكتب المهتدى الى بلكيال من مقدمى الاتراك أيضا بأن يقتل موسى ويكون مكانه فكانت النتيجة اتفاق الاثنين عليه وتآمرهما على خلعه وقتله فسار بلكيال الى سامرا ودخل على المهتدى فحبسه المهتدى وقتله وركب من ساعته لقتال موسى فانهزم الاتراك الذين معه وانضموا الى موسى فلما رأى المهتدى ذلك هرب واختفى ثم انتهى الامر بخلعه وقتله وكانت خلافته أقل من سنة وعمره ٣٨ سنة وأمه رومية وكان ورعا كثير العبادة يتشبه كثيرا بعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) لما خلع المهتدى اجتمع كبراء الدولة وأخرجوا أبا العباس أحمد بن المتوكل من السجن وبايعوه بالخلافة ولقب المعتمد على الله وكانت الفتن لا تزال قائمة وأشدها فتنة صاحب الزنج واشتداد أمر الحسن بن زيد العلوى بطبرستان (٢) واستيلاؤه على جرجان وخروج الروم على الثغور وفتك يعقوب الصفار بجهات بلخ وكابل وظهور أمر بنى سامان وتفشى قوتهم وخروج خارجى مجهول الاسم ببلاد الصين التابعة للدولة

وجده بها (٢٥٧ هـ) وتقدم سنة (٢٦٥ هـ) حتى صار على مقربة من بغداد ودخل النعمانية وغيرها من ضواحى بغداد وفر أهل السواد الى بغداد والتجؤا بها ثم ان المعتمد جهز أخاه الموفق فى جيش عظيم وسيره لمقاتلة صاحب الزنج فامتدت الحروب بينهما زمنا ثم ان الموفق تمكن من قهر صاحب الزنج وطرده من الاهواز وسار مسرعا قاصدا مدينة صاحب الزنج وكانت حصينة للغاية واسمها المختارة فلما اشتد الحصار بأهلها خرج أكثرهم بالامان وضعف الباقون عن حفظها فسلموها (٢٦٧ هـ) ومازال الموفق يقتفى أثر صاحب الزنج حتى قتله وغرق غالب أصحابه وقطع رأسه وطيف به على رمح فى المدن وكثر ضجيج الناس بالتحميد وعاد الموفق منصورا والرأس بين يديه وتوالى عالم كثير من الزنج على الموفق يطلبون الامان فأمنهم وكانت أيام صاحب الزنج من يوم خروجه الى أن قتل ١٤ سنة وأربعة أشهر وأياما اهـ

(١) قال المؤرخون ان الاموال التى وجدت لقبيحة أم المعتز بعد ظهورها بلغت ألف ألف دينار كانت فى مطمورة تحت الارض ووجد لها فى سفط قدر مكوك زمرد وفى آخر قدر مكوك لؤلؤ ومقدار كيلجة ياقوت أحمر لا مثيل له وغير ذلك من النفائس فنودى ذلك كله وأعطى الى صالح بن وصيف فقال صالح قبح الله قبيحة قد عرضت ابنها للقتل لاجل ٥٠ ألف دينار وعندها هذا كله والمكوك هو نصف الويبة والكيلجة من وسبعة أثمان المن والمن رطلان والرطل اثنتا عشرة أوقية والاوقية أستار وثلثا أستار والاستار أربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة أسباع الدرهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة شعيرتان والشعيرة ستة خرادل أو عرض ست شعرات من شعر بغل توضع بجانب بعضها اهـ

(٢) بلاد واسعة من بلاد الفرس شمالا قاعدتها دماوند وتقسم الى الدامغان شرقا وطبرستان الحقيقية غربا وكانت هذه البلاد قديما يسكنها أقوام يقال لهم تابير ومن مدنها قومس اهـ

العباسية (٢٦٤ هـ) ولما اشتغل المعتمد باطفاء كل هذه الثورات ورتق جميع هذه الفتوق انتهز الاجناد تلك الفرصة وتغلبوا على الامر وقل خوفهم من القصاص لاشتغال المعتمد بما ذكر ولما تضايق المعتمد من تلك الاحوال سيما وان أخاه الموفق كان يحقد له ويحط من مقامه أراد المعتمد الذهاب الى مصر للاستعانة باحمد بن طولون على أخيه فلم يتمكن من ذلك حتى ان الموفق اضطره لان يأمر الخطباء بلعن أحمد بن طولون على المنابر لكونه قطع خطبة الموفق لان المعتمد كان جعله ولى العهد من بعد ابنه المفوض

ومن الحوادث التى وقعت فى خلافة المعتمد حصول واقعة بين ابن الموفق وهو المعتضد وبين خمارويه بن طولون آخرها ان المعتضد انهزم هو وأصحابه (٢٧١ هـ) ثم صفت الاحوال بعد ذلك للمعتمد بوفاة الموفق بالله (٢٧٨ هـ) بداء الفيل ولما مات بايعوا ابنه المعتضد بولاية العهد بعد المفوض واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه يتولاه ومن الحوادث المهمة أيضا فى خلافة المعتمد ظهور القرامطة (١) وهم قوم خرجوا من سواد الكوفة لهم مذهب مخصوص يخالف مذهب أهل السنة ولهم فى تاريخ الاسلام شهرة بما ارتكبوه من الفظائع كالقتل والنهب والحريق وغير ذلك

وكان الروم لما علموا بقيام الفتن واضطراب الاحوال بالدولة العباسية أرادوا الاغارة على الثغور وردما فقدوه من المدن والضياع ومع ذلك فان الجنود الاسلامية الموكل اليها حفظ الثغور كانت لا تفتر عن مناجزتهم والفتك بجيوشهم حتى اضطروهم لطلب الهدنة مرارا وغنموا منهم غنائم كثيرة جدا وفى (٢٦٦ هـ) لقى اسطول المسلمين اسطول الروم عند صقلية فظفر الروم بهم ولحق من سلم منهم بصقلية وكانت وفاة المعتمد (٢٧٩ هـ) وكان منهمكا فى اللهو والقصف وكانت خلافته ٢٣ سنة

(١) القرامطة قوم يعرفون بهذا الاسم وكان الشخص الذى دعاهم الى مذهبه ودينه قدم من نواحى خوزستان الى سواد الكوفة فمرض بقرية من سواد الكوفة فحمله رجل من أهل القرية يقال له كرميته ومعناه باللغة النبطية أحمر العين لحمرة عينيه فلما تعافى شيخ القرامطة المذكور سمى باسم ذلك الرجل ثم خفف فقالوا قرمط ودعا قوما من أهل السواد والبادية ممن ليس لهم عقل ولا دين الى دينه فأجابوه اليه وكان مادعاهم اليه انه جاء بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة انه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل وان المسيح تصور فى جسم انسان وقال انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن ذكريا وانك روح القدس وعرفه ان الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها وان الاذان فى كل صلاة ان يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا اله الا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحا رسول الله أشهد أن ابراهيم رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله وأن القبلة الى بيت المقدس وان الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيأ ويقرأ فى كل ركعة الاستفتاح وهو المنزل على محمد بن أحمد ابن الحنفية وهو

الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لاوليائه بأوليائه قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام وباطنها اوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى واتقونى يا أولى الالباب وأنا الذى لا أسئل عما أفعل وأنا العليم الحكيم وأنا الذى أبلو عبادى وامتحن خلقى فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى أدخلته فى جنتى وأخلدته نعيمى ومن زل عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى وأنا الذى لم يعل جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذللته وبئس الذى أصر على أمره ودام على جهالته وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون ثم يركع ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز وان النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة لكن الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ذى ناب وكل ذى مخلب اه

وايا ما

وأياما وكان أخوه الموفق قد تحكم عليه وضيق عليه فكان للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بأمير المؤمنين ولأخيه الموفق الامر والنهي وقود العساكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء

خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) بويع له بالخلافة ثاني يوم وفاة المعتمد وكان خمارويه بن طولون خاف منه جدا لئلا ينتقم منه فاستعمل كل الحيل لمرضاته وأخذ يتحفه بالهدايا العظيمة والنفائس ذات القيمة واجتهد حتى ان الخليفة خطب منه ابنته قطر الندا كما سيأتي في سيرة بني طولون وكان المعتضد شهما عاقلا فاضلا حسن السيرة ولي والدنيا خراب والثغور مهملة فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته وكثرت الاموال وضبطت الثغور وكان قوي السياسة شديدا على أهل الفساد حاسما للاطماع عساكره عن أذى الرعية وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين منهم بنو الصفار وكان عظم أمرهم وفخم شأنهم واستولوا على أكثر بلاد العجم فقام المعتضد في اصلاح المتشعب من مملكته واقامة العدل في رعيته حتى مات وكان يرسل السرايا ويجهز الطوائف بما يمكن من جيد السلاح والكراع فتغير على بلاد الروم وتفتح وتعود ظافرة وفي خلافته قتل خمارويه ذبحه بعض خدمه على فراشه (٢٨٢ هـ) وقتل أيضا ابنه جيش لاختلاف الجند عليه لصباه وتقريبه الاراذل وتهديده قواد أبيه فقتلوه ونهبوا داره ونهبوا مصر أيضا وأحرقوها واختل حال هرون بن خمارويه من بعده وانحل نظام مملكته (٢٨٤ هـ) واستولى الخليفة على كثير من البلدان التي كانت في قبضته وكان المعتضد يبيح الطعن والامن على معاوية وابنه وأبيه وكتب بذلك الى الاقطار ومات المعتضد (٢٨٩ هـ) وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأياما وكان شهما مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن المظالم خوفا منه وكان عفيفا

خلافة المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان المعتضد أخذ له البيعة من الجنود وكبراء الدولة قبل موته بثلاثة أيام وكان بالرقة (١) لما مات أبوه وفي أوائل خلافته اشتدت شوكة القرامطة وحصروا دمشق بعد ان هزموا جيش أميرها طغج بن جف ثم ان أهل دمشق لما رأوا من قوة القرامطة صالحوهم على مال دفعوه اليهم فانصرفوا عنهم واستولوا على حمص وغيرها وكانوا لا يرحمون صبيا ولا امرأة ولا شيخا ثم ان الخليفة خرج بنفسه الى حرب القرامطة فأوقع بهم قرب حماه (٢٩١ هـ) وتبعهم العسكر يقتلونهم وهرب رئيسهم صاحب الشامة ثم قبضوا عليه فقتله المكتفي وطيف برأسه ببغداد ثم تقدمت جيوش المكتفي الى مصر وصاحبها هرون بن خمارويه فانهزم عنه غالب قواده وانضموا الى عسكر الخليفة ثم حدث بينه وبين جيش الخليفة عدة وقعات الى أن حدث في معسكر هرون خصومة أدت الى قتله ولما قتل قام عمه شيبان بالامر فطلب الامان

(١) مدينة مشهورة على نهر الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام وتعد من بلاد الجزيرة ويقال لها الرقة البيضاء وكانت قاعدة ديار مضر وفتحت صلحا (١٧ هـ) وهي قديمة العهد جدا بناها اسكندر المقدوني واستوطنها الرشيد (١٨٠ هـ) وبنى فيها قصرا جميلا آثاره باقية للآن وهي الآن من ولاية ديار بكر وبها آثار رومانية وينسب اليها جماعة من العلماء ويسمى بهذا الاسم عدة مدن رقة واسط والرقة السوداء ومدينة بقوهستان ومدينة بين مدين بين بحر القلزم وجبل الطور وكان بها عندما خرج سيدنا موسى من مصر ببني اسرائيل قوم من لخم يعبدون البقر وآثارها باقية فيما بين فاران والقلزم ومدين اهـ

من قائد الخليفة فآمنه ثم هرب ليلا فلم يوجد واستولى قائد جند الخليفة وهو محمد بن سليمان على مصر وقبض على بنى طولون واستصفى أموالهم وحملهم إلى بغداد (٢٩٣ هـ) وبعد فتح مصر استولى القرامطة على دمشق ثانية وأوقعوا بجيش الخليفة وغنموا منه غنائم وافرة تقووا بها وبذلك اشتد ساعدهم وأغاروا على الحجاج فى طريق العراق وقتلوهم عن آخرهم وكانت عدة القتلى عشرين ألفا (٢٩٤ هـ) فجهز الخليفة العسكر فهزموهم وقبضوا على رئيسهم المدعو ذكرويه وقتلوه وكانت وفاة المكتفى بالله (٢٩٥ هـ) وخلافته ست سنين وستة أشهر وأياما وعمره ٣٢ سنة وأمه تركية

خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٢٩٦ هـ) بويع بالخلافة يوم مات المكتفى وليس له من الاعمال ما يؤثر فى هذه المرة لانه ولى الخلافة ثلاث مرات كما سيأتى وضعف أمر الخلافة فى أيامه وكان سمحا كثير الانفاق فتغلب الجند عليه واتفقوا على خلعه لانهم كانوا ينكرون عليه استيلاء النساء والخدام على الامور وكثرة ما أخذوا من الاموال والضياع ونهبت دار الخلافة وأخذ منها أموال عظيمة وبايعوا مكانه ابن المعتز بالله

خلافة الراضى بالله (٢٩٨ هـ) لما بايعوا المعتز لقبوه الراضى بالله فلم تطل أيامه لان المريدين للمقتدر تغلبوا على شيعته وخلعوه من الخلافة فلم يتولاها الا يوما واحدا ثم قبض عليه وقتل فى حبسه وقالوا انه مات حتف أنفه وكان ابن المعتز أكثر العباسيين فضلا وأدبا ومعرفة بموسيقى وأشعر الشعراء مطلقا فى التشبيهات المبتكرة الغريبة وكانت خلافته يوما واحدا كما مر

ولما قتل ابن المعتز استقام الامر للمقتدر بعد الاضمحلال وهذه خلافته الثانية ثم جرت بين المقتدر وبين مؤنس المظفر أمير الجيوش منافرة أدت الى خلع المقتدر ومبايعة أخيه القاهر ثم أعيد المقتدر ثالثة وحمله الجنود على أعناقهم الى دار الخلافة فجلس على السرير وصفح عن أخيه القاهر وقال قد علمت انه لا ذنب لك فشكر احسانه ثم وقع بينه وبين مؤنس الخادم حرب فتوغل المقتدر فى المعركة فضربه أحد البربر فسقط الى الارض فقال لضاربه ويحك أنا الخليفة فقال له أنت المطلوب وذبحه بالسيف (٣٢٠ هـ) واحتزوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ما عليه حتى سراويله وكان المقتدر قد أهمل أحوال الخلافة وحكم فيها النساء والخدم وكانت خلافته كلها أربعة وعشرين سنة واحد عشر شهرا وأياما وعمره ثمانية وأربعون سنة

وفى زمنه ظهرت الدولة العلوية الفاطمية بافريقية (٢٩٦ هـ) وهى التى انتقلت فيما بعد الى مصر وأسست القاهرة وهى من دول الاسلام الكبيرة وسيأتى ذكرها فى تاريخ تونس ومصر وكان العلويون يتطلعون الى مصر فجهزوا عليها جيشا فاستولوا على الاسكندرية والفيوم فسير المقتدر اليهم جيشا مع مؤنس الخادم فاجلاهم عن ديار مصر (٣٠١ هـ) وبعد ذلك بقليل أى فى (٣٠٦ هـ) جهز المهدى العلوى جيشا كثيفا مع ابنه القائم الى مصر مرة ثانية فوصل الى الاسكندرية بحرا واستولى عليها ثم تقدم حتى دخل الجيزة وبعض جهات الصعيد فبعث المقتدر مؤنسا الخادم وجرى بينه وبين القائم عدة وقعات ووصل الى الاسكندرية من افريقية ثمانون مركبا نجدة للقائم وأرسل المقتدر مراكب من طرسوس الى قتال مراكب القائم وكانت خمسة وعشرين مركبا

فالتقت

فالتقت المراكب بالمراكب على رشيد واقتتلوا واقتتلت العساكر في البر وكانت الهزيمة على عساكر المهدي ومراكبه فعادوا الى افريقية بعد أن قتل منهم وأسر

وفي عهد المقتدر أيضا انقرضت دولة الادارسة العلويين من المغرب (٣٠٧ هـ) وسيأتي الكلام عليها على حدتها عند ذكر دول مراكش وفي زمنه أيضا امتد أمر القرامطة جدا وصاروا يقتلون السابلة والحجاج واستولوا أيضا على البصرة والكوفة ورئيسهم اذذاك أبو طاهر وأخذوا منهم أموالا عظيمة وكانوا ينهبون ثم يعودون الى بلاد هجر [1] موطنهم بالغنائم وفي (٣١٧ هـ) أتوا مكة يوم التروية فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام ودخل الكعبة وقلعوا الحجر الاسود من الركن ونقلوه الى هجر وقتلوا أمير مكة وأصحابه وقلعوا باب البيت الحرام وطرحوا القتلى في بئر زمزم وأخذوا كسوة البيت فقسموها بينهم

خلافة القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) لما جلس هذا الخليفة على التخت لم تستقم له الامور بل تكدر صفوه ثم قبض عليه وسملت عيناه فكان يستعطي في شوارع بغداد وسبب ذلك أنه كانت حصلت بينه وبين مؤنس وحشة بسبب ان مؤنسا كان حنق على القاهر ومنع دخول أي امرأة الى دار الخلافة حتى يعرف من هي وكان القاهر استمال اليه جماعة في الباطن للقبض على مؤنس ثم قبض عليهم بتهمة انهم اتفقوا على خلعه فشغب الجند أصحاب مؤنس وكانوا غالب العسكر وثاروا بسبب ذلك وطلبوا اطلاقه فقتل الخليفة مؤنسا وغيره من المقبوض عليهم من مقدمي الاتراك وطيف برؤسهم ببغداد ونودي هذا جزاء من يخون الامام ثم جعلت تلك الرؤس في خزانة الرؤس على جاري عادتهم في ذلك

وفي خلافة القاهر كان ظهور دولة بني بُوَيْه [2] وهي من الدول العظيمة المتفرعة عن دولة

---

(١) مدينة واقعة على جبال العارض ببلاد العرب وكانت قاعدة البحرين وقيل ناحية البحرين كلها هجر وهو الصواب ويكثر بها التمر وفي المثل كمستبضع التمر الى هجر

(٢) بنو بويه دولة من الديلم ملكت العراقين والاهواز وفارس وساست الرعية أحسن سياسة وعظم شأنهم وعلا قدرهم في الخلافة العباسية حتى تغلبوا على الخلفاء وقطعوا البر بالصحفوا عن الخليفة أخبارهم وحركاتهم ببغداد وكان ابتداء ظهورهم سنة (٣٢٢ هـ) في خلافة الراضي بالله العباسي فاستطال ملكهم ١٢٦ سنة ثم صار للسلاجقة وكان أبوهم يدعى بأبي شجاع بويه بن فناخسرو والذي ساق نسبه ابن ماكولا الى سابور ذي الاكتاف الفارسي وكان رجلا جيدا متوسط الحال فماتت زوجته وخلفت له ثلاثة أولاد وهم أبو الحسن علي الذي لقب عماد الدولة وأبو علي الحسن الملقب ركن الدولة وأبو الحسن أحمد الملقب معز الدولة وكان خرج من بلاد الديلم جماعة من القواد وانتشروا في البلاد ليملكوها وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم وخرج أولاد بويه في جملة من خرج ثم التصقوا بمرداويج صاحب جرجان وقزوين والري وهمذان وطبرستان وغيرها فأحسن وفادتهم وخلع على بني بويه وقلد كل واحد من هؤلاء القواد ناحية من نواحي الجبل وكتب لهم بذلك العهود وقلد علي بن بويه وهو عماد الدولة بلاد الكرج وكان عماد الدولة كريما حليما ثم ندم مرداويج على تولية أولئك القواد فكتب الى عماله بمنعهم عن المسير وان كان بعضهم قد خرج للبرد وكان عماد الدولة خرج الى عمله فلما أتى عماد الدولة بلاد الكرج أحسن الى الناس وافتتح قلاعا وظفر منها بذخائر كثيرة فشاع ذلك وقصده الناس وأحبوه وكتبوا الى مرداويج يشكرون عماد الدولة ثم حصل بين مرداويج وعماد الدولة وحشة فكتب الى عماد الدولة والى تواد الكرج يستدعيهم اليه وتلطف بهم فدافعه عماد الدولة واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعهم فجبى مال الكرج وقويت بذلك نفسه وسار الى أصفهان فاستأمن اليه عاملها المظفر بن ياقوت لما بلغه من كرمه ثم حصل بين عماد الدولة والمظفر المذكور قتال شديد انهزم فيه ياقوت واستولى عماد الدولة على أصفهان وعظم في عيون الناس لانه هزم بجيشه القليل جيش المظفر الكثير ولما علم

بنى العباس وفى (٣٢٢ هـ) خلع القاهر بما ظهر منه من الغدر وغشه فى اليمين بالأمان للذين قتلهم فاجتمعوا عليه وأحدقوا بالدار وأوثقوا الابواب فهرب القاهر الى سطح حمام ثم قبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه وكان كل ذلك باغراء الوزير ابن مقلة وكان مختفيا خوفا منه وكانت خلافته سنة وستة أشهر

خلافة الراضى بالله (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) وهو ابن المقتدر وفى أيامه ضعف أمر الخلافة العباسية فكانت فارس فى يد ابن بويه والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الاخشيد والاندلس فى يد بنى أمية والمغرب وافريقية فى يد القائم العلوى بن المهدى والبصرة فى يد بن رايق وخوزستان فى يد البريدى وكرمان فى يد أبى على بن الياس والرى وأصفهان والجبل يتنازعها ركن الدولة بن بويه وأخو مرداويج وخراسان وماوراء النهر فى يد بن سامان [1] وطبرستان وجرجان فى يد الديلم [2] والبحرين واليمامة فى يد القرامطة ثم لم يبق فى يد الراضى سوى بغداد وماوالاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وعم الخراب وفى خلافة الراضى سار الدُمُسْتُق [3] الى بلاد الاسلام ففتح ملاطية وغيرها وعظم

الخليفة بذلك استعظمه وبلغ خبر هذه الواقعة مرداويج فخاف على مابيده من البلاد وأخذ يعمل الحيل فى القبض على عماد الدولة فلم يفلح ثم استولى عماد الدولة على ارّجان وغيرها من المدائن وعظم أمره واشتدت سطوته ثم ملك شيراز وقهر المظفر فى وقعة عظيمة وأرسل له الخليفة الراضى الخلع واللواء سنة (٣٢٢ هـ) ولما قتل مرداويج انضمت عساكره الى عماد الدولة فعظم أمره واستولى على بغداد سنة (٣٣٤ هـ) وتغلب على الخليفة المطيع لله وملك غيرها من المدن وولى إمارة بغداد لاخيه معز الدولة وامارة أصفهان لركن الدولة ثم توفى سنة (٣٣٨ هـ) وكان قبل ذلك جعل ابن أخيه ركن الدولة المسمى عضد الدولة ولى عهده لانه لم يكن له ولد وكان عماد الدولة أمير الامراء فصار ركن الدولة أمير الامراء بعده ومعز الدولة مستوليا على العراق والخلافة كما قلنا واشتهر عضد الدولة اشتهارا عظيما واشتدت شوكته ونفذت كلمته وكان أطول بنى بويه مدة فى الملك وأقواهم سلطة وأشهرهم ذكرا وهو الذى استوزر الصاحب بن عباد المشهور واستولى على ممالك أبيه ركن الدولة بعد وفاته سنة (٣٦٦ هـ) وعلى ملك بنى حمدان سنة (٣٦٧ هـ) وفتح ديار مصر سنة (٣٦٨ هـ) ثم وقع بينه وبين اخوته وقائع واستولى على غالب ما بأيديهم من الممالك ووقعت أيضا الوقائع بين الاخوة وبعضهم وبين أولادهم ومازالت جهات العراق وفارس وجرجان وخوزستان وما يتبعها من الممالك تتقلب فى أيدى هذه العائلة ويخطب لهم ببغداد الى سنة (٤٤٧ هـ) حينما توفى أبو كاليجار وملكها ابنه الملك الرحيم ببغداد وانتزعها منه طغرل بك السلجوقى وفى كل هذه المدة كان آل بويه أصحاب الحل والعقد بالدولة العباسية ولم يكن للخليفة معهم الا الاسم فقط فسبحان من لا يزول ملكه اهـ

(١) سامان هو جد دولة ملكت ماوراء النهر للدولة العباسية قال ابن خلدون أصل بنى سامان هؤلاء من العجم وكان جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها وينتسبون فى الفرس الى بهرام خشنش الذى ولاه كسرى أنوشروان مرزبان أذربيجان وأصل دولتهم فيما وراء النهر ان المأمون لما ولى خراسان اصطنع بنى أسد هؤلاء وعرف لهم حق سلفهم واستعملهم ولما انقرض أمر بنى طاهر واستولى الصفار على خراسان عقد المعتمد لنصر بن أحمد السامانى على أعمال ما وراء النهر واستمروا يحكمون تلك الجهات اذا مات أحدهم قام الآخر مكانه بعهد من الخليفة الى ان تغلبت عليهم الدولة الغزنوية سنة (٩٩٩ م) اهـ

(٢) الديلم هم من الدول المتفرعة من الدولة العباسية وكان ابتداء ملكهم فى القرن الثالث وهم من المهاجرين النازلين على الامام على نزحوا الى جبال كيلان ومازندران ثم ساروا الى بغداد وملكوها وجعلوا الخليفة فى قبضتهم من لدن المستكفى (٣٣٠ - ٤٢٠ هـ) وكانت دولتهم من أعظم الدول الى ان تغلبت عليهم ملوك غزنة اهـ

(٣) دمستق هو أرمانوس بطريق الصرقام بأمر الامبراطور قسطنطين بن لاون والدمستق هذا وقعات مع جنود

أمره على المسلمين ومن الحوادث المهمة في خلافة الراضي فتنة الحنابلة ببغداد وذلك انه عظم أمرهم فصاروا يكبسون دور القواد والعامة فان وجدوا نبيذا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ونحو ذلك فنهاهم صاحب الشرطة عن ذلك فلم يفد ثم انه هددهم بالسيف ان لم يرجعوا فقل أذاهم وفي خلافة الراضي (٣٢٣ هـ) تولى الاخشيد مصر وضم اليها البلاد الشامية واستقر بمصر وكانت لذريته الاخشيدية بمصر الدولة المشهورة وسيأتي ذكرها

وفي زمنه ضعف أمر القرامطة ووقعت بينهم الفتن فاستقروا في بلاد هجر وكانت وفاة الراضي سنة (٣٢٩ هـ) وخلافته ست سنين وعشرة أيام وعمره اثنتين وثلاثين سنة وكان يميل الى الفضلاء والأدباء سمحيا شاعرا وهو آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة جالس الجلساء وآخر خليفة كانت نفقته وجراياته وخزائنه ومطابخه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين

خلافة المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) لما مات الراضي اجتمع كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد فانتخبوا للخلافة إبراهيم بن المقتدر وعرضوا عليه الالقاب فاختار المتقي بالله وفي أول خلافته حصل ببغداد فتن وثورات أعقبها غلاء عظيم وفي سنة (٣٣١ هـ) أرسل ملك الروم يطلب من المتقي منديلا زعم ان المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وان هذا المنديل في بيعة الرها [1] وانه ان أرسله أطلق عددا كثيرا من اسراء المسلمين فاستفتى المتقي القضاة والفقهاء في ذلك فاختلفوا فقال بعضهم دفعه اليهم واطلاق الاسرى أولى وقال بعضهم ان هذا المنديل لم يزل في بلاد الاسلام ولم يطلبه ملك الروم منهم فيدفعه اليهم غضاضة وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير فقال ان خلاص المسلمين من الاسر والضنك أولى من حفظ هذا المنديل فأمر الخليفة بتسليمه اليهم وأرسل من يتسلم الاسرى فاطلقوا

وفي خلافته (٣٣٢ هـ) خرجت طائفة من الروس في البحر الى نواحي أذربيجان وركبوا في البحر الى نهر الكر فانتهوا الى مدينة برذعة فخرج اليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان فلقوا الروس فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون وقتلوا عن آخرهم ثم دخل الروس البلد وحصل بينهم بعد ذلك وبين المسلمين وقائع كان النصر فيها لهم ثم بعد أمور يطول شرحها وضعوا السيف فيمن بقي ببرذعة حتى

بني العباس خصوصا في زمن بني بويه والعرب يطلقون هذا اللفظ على كل من يلي بلاد الروم التي هي شرق خليج القسطنطينية اهـ

(1) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام كما قاله ياقوت وكانت مدينة عظيمة واسعة الاقطار عامرة الديار وتتصل بحران والغالب على أهلها دين النصرانية وبهذه المدينة أكثر من مائتي كنيسة ودير ولم يكن للنصارى أعظم منها وبكنيستها العظمى منديل للمسيح كما رواه ابن الاثير وأخذها كسرى من يد الروم وكان فتحها صلحا على يد عياض بن غنم سنة (١٧ هـ) وفي الحروب الصليبية دخلت في يد الفرنج فاستردها منهم عماد الدين زنكي بن آقسنقر سنة (٥٣٩ هـ) وبعد قتل آقسنقر استولى عليها جوسلين ملك القدس ثم طرده منها نور الدين محمود بن زنكي ثم فتحها صلاح الدين الايوبي سنة (٥٧٨ هـ) واسمها الآن أورفا وهي قاعدة لواء الى جنوبي ديار بكر وشرقي حلب تابع لولاية حلب وكانت تسمى قديما ايدسا أوادسا وسميت أيضا كاليرهوى ثم الرها عند العرب قيل انها بنيت ايام السلوقيين وبها الآن جامع جليل ينسب للخليل ابراهيم عليه السلام ومقام لايوب الصديق واضرحة لجابر الانصاري وابي عبيدة بن الجراح والبديع الهمذاني وغيرهم وبها آثار برج قديم يقال انه قصر النمرود اهـ

أفنوهم عن آخرهم ولم ينج الا الشريد وغنموا الاموال واستعبدوا السبي ثم ان المرزبان بن محمد ملك الديلم استنفر الناس وقاتل الروس وقتل أميرهم ومازال بهم حتى طردهم

ولما اشتد الامر بالمتقي وضايقه العمال جدا وخاف على نفسه كتب الى الاخشيد صاحب مصر يشكو اليه حاله فسار الاخشيد من مصر الى الرقة واجتمع بالمتقي وحمل اليه هدايا عظيمة واجتهد بالمتقي أن يسير معه الى مصر أو الشام ليكون بين يديه فلم يفعل ثم أشار عليه بالقيام من الرقة وخوفه من تورون أمير الامراء فلم يفعل ثم عاد الاخشيد الى مصر وسار الخليفة الى بغداد بعد أن أخذ اليمين على تورون بأن لا يخونه ثم قبض تورون على المتقي وسمله وخلعه من الخلافة وحبسه (٣٣٢ هـ) وكانت خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وأياما

خلافة المستكفي بالله (٣٣٢ - ٣٣٤ هـ) لما قبض تورون على المتقي بايع المستكفي بالله ثم بايعه عامة الناس ولم تطل مدته لان الديلم قبضوا عليه بدسيسة معز الدولة بن بويه الذي كان قدم بغداد وقابله الخليفة بالتكريم والتعظيم وأمر أن تضرب ألقاب بني بويه على الدنانير والدراهم تعظيما لشأنهم ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وكانت مدة خلافة المستكفي سنة وأربعة أشهر وفي خلافته اشتدت شوكة أبي يزيد الخارجي الاباضي بأفريقية وهزم جيوش العلويين

خلافة المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) لما تولى الخلافة كما أراد معز الدولة والديلم سلموا اليه المستكفي فسمله وبقي محبوسا الى ان مات وفي خلافته ازداد أمر الخلافة إدبارا ولم يبق لها من الامر شيء وتسلم نواب معز الدولة العراق بأسره ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه اياه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته ثم حصل قتال ببغداد بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه وانحط مقام الخليفة جدا واشتد الغلاء ببغداد وعدم القوت حتى أكل الناس الجيفة وكثر فيهم الموت

وفي خلافته أهمل أمر الثغور زيادة عما كان عليه لوقوع الاضطرابات داخل الدولة وبذلك وجد الروم فرصة فأغاروا على بلاد الاسلام وافتتحوا حلب والمصيصة وانطاكية وطرسوس وغيرها من المدن وغنموا وسبوا شيأ كثيرا ولحق عسكر الاسلام هزيمات كثيرة ثم تقوى المسلمون ودخلوا بلاد الروم وأوغلوا تحت قيادة سيف الدولة وقتلوا الدمستق وهزموا جيشا عظيما كان جمعه الروم من الروس والصقالبة والبلغار (٣٤٠ هـ) وحصل ببغداد فتنة عظيمة (٣٥٣ هـ) بين أهل السنة والشيعة سببها ان معز الدولة أمر أن يغلق الناس دكاكينهم عاشر يوم من محرم ويعطلوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح ويعلنوا بالنياحة وتخرج النساء مسبلات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن على الحسين ففعل الناس كذلك ولم يقدر أهل السنة على منعه

وفي خلافته انشأ معز الدولة السعاة ببغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعا فنشأ في أيامه فضل ومرعوش وفاقا جميع السعاة وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا وأربعين فرسخا هكذا قاله أبو الفدا وغيره وتعصبت لهما الناس وكان أحدهما ساعي السنية والآخر ساعي الشيعة وفي خلافته أرسل المعز لدين الله العبيدي قائد جيشه أبا الحسن جوهر غلام والده المنصور بجيش كثيف الى الديار المصرية فامتلكها بعد موت كافور (٣٥٦ هـ) كما سيأتي ذكر

ذلك وقتل الروم ملكهم نيقوفور وكان ذلك لخير المسلمين لان نيقوفور جلب على مملكتهم مدة ملكه مالا يقدر من البلاء والخراب وقصد القرامطة بلاد مصر فهزمهم العلوية بمدينة عين شمس (المطرية)

ولما رأى سبكتكين أمير الامراء المتغلب على بغداد عجز المطيع من ثقل لسانه لسقوط فالج عليه وتعذر الحركة له وهو يتستر طلب اليه ان يخلع نفسه و يسلم الامر الى ولده الطائع فأجاب المطيع لتسع وعشرين سنة وكسر من خلافته (٣٦٣ هـ)

خلافة الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) لما تولى كانت الخلافة فى اضطراب وفتن كما كانت أيام سلفه وكان مغلوبا عليه من قبل أمرائه وما كان له الا العظمة الظاهرة وكان شديد القوة فى خلقه حدة كريما شجاعا بطلا جوادا الأن يده كانت قصيرة وفى خلافته ابتدأت دولة آل سُبُكْتَكين [1] ملوك غزنه (٣٦٦ هـ) وفى خلافته (٣٧٥ هـ) قصد القرامطة الكوفة مع نفرين من ساداتهم ففتحوها ونهبوها فجهز عليهم صمصام الدولة جيشا فانهزم القرامطة وكثر القتل فيهم وانخرقت هيبتهم وأرسل العزيز صاحب مصر العلوى (٣٧٨ هـ) عسكرا مع قائده منير الخادم فاستولى على دمشق وطرد منها بكجور واستقر منير فى امارة دمشق وأحسن السيرة فى أهلها وحدث فى زمنه أيضا فتنة عظيمة ببغداد بين الاتراك والديلم ودام القتال بينهم أياما حتى أدى الى ضعفهم وفى خلافته أيضا ابتدأت دولة بنى مروان [2] (٣٨٠ هـ) ثم ان بهاء الدولة بن عضد الدولة قبض على الطائع لله طمعا فى أمواله فدس اليه من جذبه عن تخته من الديلم وأشهد عليه بالخلع (٣٨١ هـ) وكانت خلافته سبعة عشر سنة وثمانية شهور ولما تولى القادر حمل اليه الطائع فبقى عنده مكرما الى أن توفى الطائع (٣٩٣ هـ) ولم يكن للطائع فى ولايته من الحكم ما يستدل به على حاله

خلافة القادر بالله أحمد (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) لما خلع الطائع لله كان القادر بالله مقيما بالبَطيحة [3] محتميا بها عند مهذب الدولة صاحب البطيحة وكان موسعا عليه ولما حضر الى بغداد

---

(١) ويقال لهم الغزنوية أيضا وذلك ان نصر الدين محمود بن سبكتكين أسس دولة فى شرق بلاد العجم (٣٦٦ هـ) واتخذ غزنة عاصمة له وكان له ولبنيه من بعده دولة هنالك دامت الى سنة (٥٧٨ هـ) وكان سبكتكين من غلمان اسحق صاحب جيش غزنة السامانية وكان سبكتكين مقدما عند مولاه أبى اسحق المذكور لعقله وشجاعته فلما مات أبو اسحق ولم يكن له ولد اتفق العسكر وولوا سبكتكين عليهم لكمال صفات الخير فيه وحلفوا له وأطاعوه ثم عظم شأن سبكتكين وارتفع قدره وفتح فى بلاد الهند فتوحات جليلة اهـ

(٢) جدهم هو أبو على بن مروان تقلد الامارة من الخليفة العزيز بالله العلوى صاحب مصر وكان فى قبضته ولاية حلب ونواحيها ولما قتل قام بعده أخوه ممهد الدولة وأضاف فى زمنه الى امارته عدة بلاد وبقيت دولتهم الى سنة (٤٥٣ هـ) اهـ

(٣) البطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديما قرى متصلة وأرضا عامرة فاتفق فى أيام كسرى أبرويز انزادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضا بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية وولى بعده ابنه شيرويه فلم تطل مدته ثم ولى نساء لم تكن فيهن كفاءة ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحرب والجلاد ولم يكن للمسلمين دربة بعمارة الارضين فلما القت الحرب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية قرارها استفحل أمر البطائح وانفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحى ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء اليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الارز وتغلب عليها فى أوائل أيام بنى بويه أقوام من أهلها وتحصنوا بالمياه والسفن وخرجت تلك الارض من طاعة السلطان وصارت تلك المياه لهم كالمعاقل الحصينة الى ان انقضت دولة الديلم ثم دولة السلجوقية فلما استبد بنو العباس بملكهم ورجع الحق الى نصابه رجعت البطائح الى أحسن النظام وجباها عمالهم كما كانت فى قديم الايام اهـ ياقوت

خروج الامراء والكبراء والعلماء المتقدم وفى أول خلافته غزا ملك الروم بلاد الشام ففتح وغنم وشغبت الجنود أيضا ببغداد كما هى عادتهم وتمردوا وطغوا ولم يسكتوا الا بنوالهم ما يطلبون واستولى ملك الترك هرون بغراخان على بلاد بخارى وهزم نوح بن منصور السامانى وكان هرون المذكور دينا حسن السيرة عادلا

وفى خلافة القادر توفى العزيز بالله الفاطمى صاحب مصر وتولى ابنه الحاكم (٣٨٦ ھ) وهو الذى ادعى الربوبية كما هو المشهور وقتل عند عين حلوان بمصر (٤١١ ھ) وفى خلافته كان ابتداء دولة بنى حماد ملوك بجاية بافريقية (٣٨٧ ھ) وانقراض الدولة السامانية من وراء النهر (٣٨٩ ھ) أزالها الكخان ملك الاتراك بعد أن قبض على عبد الملك ابن نوح آخر أمرائها وسمل باقى بنى سامان وكانت دولتهم قد امتدت وطبقت كثيرا من الارض وكانت من أحسن الدول سيرة وكان ابتداء دولتهم (٢٦١ ھ) وانقراضها فى هذه السنة المذكورة

وكانت الفتن فى بغداد قائمة على قدم وساق حتى هاجر كثير من الامراء والعلماء من تلك المدينة الزاهرة وتخرب بها مبان كثيرة وعاث المفسدون بجوانبها حتى صارت مهددة فى كل لحظة ولما علا شأن الدولة الفاطمية وتحدث الناس بها وكثر ضررها بما كان يجاهر به عمالها وشيعتها من الاقوال المخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة رأى الخليفة والقضاة والفقهاء ببغداد ضرورة إعلام الناس باصل تلك الدولة وما ينتحله ملوكها فكتب محضر ببغداد يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة وجماعة من الفضلاء وغيرهم يقولون ان هذا الناجم فى مصر (يريدون الحاكم) هو وسلفه كفار وفساق زنادقة ملحدون معطلون وللاسلام جاحدون أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الانبياء وادعوا الربوبية وغير ذلك (٤٠٢ ھ) وفى خلافته أيضا كان انقراض الدولة الاموية من الاندلس وقيام الدولة العلوية بها (٤٠٧ ھ) وكانت وفاة القادر بالله (٤٢٢ ھ) وقد امتدت خلافته حتى أنافت على احدى وأربعين سنة وفى أيامه تراجع وقار الدولة العباسية وعمار ونقها وأخذت أمورها فى القوة وذلك لاسباب أعظمها تلاشى سطوة الديلم ببغداد وقيام الناس عليهم

خلافة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ ھ) وكان والده القادر عهد اليه بالخلافة قبل موته بسنة فلما توفى أثبتوا له ذلك وبايعوه بالخلافة وفى السنة الاولى من خلافته قدم ملك الروم رومانوس الى الشام وفتح أماكن وكان ذلك بدسيسة بعض المسلمين الذين كثر دخولهم تحت طاعة ملك الروم فى تلك المدة مدة الثورات والاضطرابات الداخلية علهم أن ينالوا بسبب ذلك بعض المناصب والولايات وفى (٤٢٦ ھ) انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين واعتدوا على الناس باموالهم وجلال الدولة أمير الامراء عاجز عنهم والخليفة أعجز وانبث العرب فى البلاد ونهبوا الاطراف ووصلت الروم الى حلب فالتقاهم صاحبها شبل الدولة وهزمهم

وفى خلافته ابتدأت الدولة السلجوقية (٤٣٢ ھ) وسيأتى ذكرها على حدتها وانقرضت دولة بنى بويه (٤٣٥ ھ) وأسلم من الترك خلق كثير من تلقاء أنفسهم وتفرقوا فى بلاد الاسلام ولم

يتأخر عن الاسلام سوى الخطا [1] والتتار بنواحى الصين ولما رأى آل باديس بافريقية شناعة معتقد العلويين بمصر قطعوا الخطبة لهم وخطبوا للقائم العباسى خليفة بغداد فكان ذلك سببا فى ارتقاء شأن الخلافة العباسية ثانية بافريقية ولما علم القائم بذلك أرسل للمعز بن باديس الخلع والاعلام على طريق القسطنطينية فى البحر وكان الغلاء كثير الوقوع من وقت ماضعف أمر الخلافة العباسية لحصول الثورات المتتابعة والاضطرابات المتوالية التى كانت تخرب السواد وتشتت الزراع ومن ذلك حدث (٤٣٩ هـ) بالعراق غلاء عظيم حتى أكل الناس الميتة وخلت أسواق بغداد عن المأكولات بالمرة وأعقب ذلك (٤٤١ هـ) حصول الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة وقد تكرر حدوثها عدة مرات وعظم الامر حتى بطلت الاسواق وتوقفت الاعمال وشرع أهل الكرخ [2] فى بناء سور عليهم وشرع السنية ومن يجرى مجراهم فى بناء سور على خطتهم وكان الأذان بأماكن الشيعة بحى على خير العمل وكتبوا فى مساجدهم محمد وعلى خير البشر وبأماكن السنية الصلاة خير من النوم وفى (٤٤٢ هـ) جهز المستنصر الفاطمى جيوش العرب بالاموال فساروا واستولوا على برقة وهزموا جيوش المعز بن باديس ثم عاثوا فى الارض ومازالوا يهزمون جيوشه حتى التجأ الى المهدية (٤٤٩ هـ) ونهب العرب البلدان وسبب ذلك قطع المعز بن باديس خطبة العلويين كما تقدم

وفى خلافته ظهر شخص يقال له البساسيرى كان مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة واسمه ارسلان وهو منسوب الى مدينة بسا بفارس وكان يتعصب للفاطميين بمصر وجرت بينه وبين عسكر الخليفة وقائع عظيمة وأهوال كبيرة ودخل بغداد بالقوة وطرد الخليفة منها ثم تغلبوا عليه وقتلوه وشتتوا شمل جيوشه (٤٥١ هـ) وفى خلافته أيضا (٤٦٢ هـ) حصل القحط الشديد بمصر الذى أكل فيه الناس الميتة والجلود وغيرها حتى ان الخليفة المستنصر العلوى باع كل مايملكه ودام هذا القحط زمنا طويلا حتى خربت البلاد وعفت الآثار وحدث فى تلك السنة ان ملك الروم المدعو ارمانوس خرج فى جموع كثيرة من الروم والروس والشركس وأغار على بلاد الاسلام فقابله ألب أرسلان وفل جوعه وأخذه أسيرا ثم ان الروم توسلوا الى ألب أرسلان فاطلقه بعد ان أخذ عليه شروطا من حمل المال سنويا واطلاق الاسرى وغير ذلك وكانت وفاة القائم (٤٦٧ هـ) وخلافته ٤٤ سنة وثمانية أشهر وأياما

خلافة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) لما قاربت الوفاة القائم بامر الله عهد بالخلافة من بعده لحفيده المقتدى بامر الله هذا فجلس على تخت الخلافة وكانت الاحوال مختلة والنظامات معتلة وكان الامر فى الدولة بيد أمراء الاقطاعات الذين تغلبوا من زمن مديد على اجزاء الخلافة الاسلامية هذا فى الشرق أما فى جهات الغرب أى بلاد الاندلس فان الافرنج كانوا قد استطالوا على بلاد الاسلام لضعف شأنهم وتفرق كلمتهم وان كان يوسف بن تاشفين هزم الافرنج فى عدة وقائع واسترد للاسلام ما كان استولى الفرنج عليه الا ان هذا الظفر لم يدم زمنا طويلا لان الدولة كان سرى فى جسمها الدخيل وأصيبت بتشتت الاهواء حتى ان بلاد الاندلس لم تلبث بعد ذلك زمنا طويلا فتغلب عليها الفرنج تماما ولله الامر من قبل ومن بعد وتراكض الفرنج أيضا الى

---

(١) أمة قديمة بشمال آسيا لعلهم الروس

(٢) هو الجانب الغربى من مدينة بغداد

الجزائر التى كانت فى تصرف المسلمين بالبحر المتوسط الابيض وتغلبوا عليها ومن ذلك انه فى (٤٨٤ ﻫ) استولوا على جزيرة صقلية بعد ان حاصروها مدينة مدينة ولضعف الاسلام فى ذلك العصر للاسباب التى ذكرناها لم يتمكن من امداد تلك الجزيرة المهمة وكان الذى استولى عليها هو الملك روجير الاول بن تانكريد بعد ان بقيت فى يد الاسلام مدة مائتى سنة

وكانت وفاة المقتدى بامر الله (٤٨٧ ﻫ) وكان من نجباء بنى العباس قوى النفس عالى الهمة دينا صالحا ومن صلاحه ان السلطان ملكشاه من آل سبكتكين قصد أن يظهر الحنق والحيف عليه بقوله له اخرج من بغداد فتلطف به المقتدى فابى فاستمهله عشرة أيام فامهله فصار الخليفة يصوم ويتضرع الى الله فنفذ دعاؤه وهو مظلوم فهلك السلطان ملك شاه قبل مضى عشرة أيام بحمى محرقة (٤٨٥ ﻫ) وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى وكان ملكشاه المذكور من أعظم الامراء وأحسنهم طارذكره وخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام شمالا الى آخر بلاد اليمن وحملت له ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وكانت أيامه أيام عدل وسكون وأمن فعمرت البلاد ودرت الارزاق وله أخبار كثيرة وكانت وفاة المقتدى بامر الله فجأة وخلافته ١٩ سنة وأشهرا وأمه أرمنية الاصل

خلافة المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ ﻫ) لما جلس هذا الخليفة على تخت الخلافة كانت الاضطرابات والتقلبات لاتزال سائدة هذا الامير يقتل ذلك وهذا السلطان ينتزع ما بيد أولئك وهكذا من الفتن والمحن والاحن التى كانت سببا فى تطلع الفرنج الى بلاد المشرق وقيامهم يدا واحدة لتخليص بيت المقدس من أرجاس الاسلام كما يدعون وان كان القصد من ذلك خلاف ما به يجاهرون فابتدأت تلك الحروب ذات الذكر الشهير المسماة فى التاريخ بالحروب الصليبية التى استمرت زيادة عن الاربعة قرون وكان ابتداؤها فى خلافة المستظهر بالله هذا (٤٩٠ ﻫ) وقد كانت الممالك الاسلامية فى ذلك العصر يتنازعها خلافتان اسلاميتان العباسية ببغداد والعلوية بمصر والدول المتفرعة عنهما وقام البابوات وعظماء النصرانية وكبراؤها يحرضون أهل أوروبا على الرحيل متجندين متسلحين لخلاص بيت المقدس من يد الاسلام وسيأتى ذكر ذلك على حدته

وفى خلافته كان ابتداء الدولة الخوارزمية [1] (٤٩١ ﻫ) وفى (٤٩٠ ﻫ) عبر الفرنج خليج القسطنطينية وأغاروا على مملكة آل سلجوق واستولوا على قونية وغيرها وقتلوا كثيرا ونهبوا كثيرا وانهزمت جنود قلج أرسلان أمامهم ثم أغاروا على بلاد الاسلام واستولوا على انطاكية وغيرها وملكوا أيضا بيت المقدس (٤٩٢ ﻫ) بعد حصاره زمنا ولبثوا يقتلون فى

(١) اولهم محمد خوارزمشاه بن انوشتكين وكان انوشتكين مملوكا اشتراه ملك من السلاجقة ولما كان حسن الطريقة كبر مقامه وعلا محله وصار مقدما مرجوعا اليه وولد له محمد خوارزمشاه المذكور فرباه والده أنوشتكين واحسن تأديبه فانتشأ محمد عارفا اديبا وتقدم بالعناية الازلية واشتهر بالكفاءة وحسن التدبير ثم تولى محمد بن انوشتكين المذكور بلاد خوارزم فأحسن السيرة ورد المظالم وقصر اوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب اهل العلم والدين فعلا ذكره وعظم محله عند السلطان سنجر ولما توفى خوارزمشاه محمد المذكور ولى بعده ابنه المسمى اتسز فمد ظلال الامن وافاض العدل وكانت دولة آل خوارزم من الدول العظيمة واستولت على ممالك السلاجقة ايران ودامت الى غزوة التتار اه

المسلمين

المسلمين بالقدس اسبوعا وغنموا مالا يقع عليه الاحصاء وفر من بقي من السكان الى بغداد ومصر فعظم الخطب وفي خلافته أيضا عظم أمر الباطنية (١) وخافهم الناس وكان ملوك الفرنج يغيرون على

(١) ويقال لهم الاسماعيلية هم فرق من غلاة الشيعة أصلهم من بلاد فارس ظهروا في القرن الثالث من الهجرة ثم انتشروا في بلاد العرب وسورية وافريقية وينتسبون الى اسمعيل بن جعفر الصادق لقولهم بامامته ويقولون ان الامامة انتقلت من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة للحجة على الخلق وان كان له شوكة ظهر واظهر دعوته ولما كانوا يعتقدون بقاء الامامة في العلويين سموا الائمة الذين لم يظهروا بعد اسمعيل بالمستورين أو المكتومين وهم ثلاثة محمد المكتوم ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد الحبيب وبعد ظهر ابنه عبيد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في المغرب فهو من الائمة الظاهرين ولا تخلو الارض عندهم من امام اما ظاهر بذاته أو مستور كما تقدم ويدور عدد الائمة عندهم على سبعة ولذلك سموا بالسبعية لزعمهم ان النطقاء بالشريعة سبعة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام واسمعيل بن جعفر سابع النطقاء وقيل غير ذلك وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته فكل من النطقاء يغير شريعة من قبله فيتمم شريعته سبعة أئمة بعده يسمون بالمستورين ولهم في ترتيب رؤسائهم ترتيب غريب وأصل دعوتهم كانت على يد رجل يقال له ابن ديصان ثم انتشرت قليلا ببلاد فارس وافريقية والبحرين ومنهم القرامطة السابق ذكرهم وجميع تعاليمهم تقريبا مخالفة للشريعة الاسلامية وقد أنشأ الحاكم بأمر الله العبيدي مدرسة لدرس تعاليمهم وسماها دار الحكمة وكان أساسها التعليم بقلب الدولة العباسية بالمشرق وكان من أكبر دعاتهم بالمشرق رجل يقال له ذكرويه بن مهرويه ولما قتل (٢٩٤ هـ) انحلت عقدتهم وضعف أمرهم قليلا غير ان مذهبهم بقي منبثا في الاقطار سرا ثم فشت أذيتهم في الامصار وامتدت شوكتهم وكانوا يخربون ويفسدون ويستبيحون الدماء لاسيما أيام رئيسهم بابك الخرمي حين سموا بالبابكية والخرمية والقرامطة ولما عجز خلفاء بني العباس عن تحصين امامتهم وكف الغوائل عنها انتشر الاسماعيلية واستولوا على القلاع وعظم ضررهم خصوصا في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي وكان امتداد شوكتهم في أواسط القرن الخامس الهجري حيث انبثت دعوتهم في حلب وبغداد وفارس وكثرت شيعتهم وكان لهم ببلاد جيلان من فارس قلعة حصينة تسمى آلَمُوت جعلها سيدهم أو رئيسهم الحسن بن الصباح مركزا لدولتهم وكان يقال له أيضا شيخ الجبل وبه يعرفون في كتب الفرنج وكان الحسن المذكور شهما عالما بالهندسة والحساب والجبر وغير ذلك وقويت شوكة الحسن جدا حتى استولى على هوى أتباعه كل الاستيلاء وكان قسم طائفته الى ثلاث رتب الدعاة والرفاق والفداوية وهؤلاء الاخيرون هم الذين كان يستعملهم الملوك في قتل أعدائهم غدرا وبذلك يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة في مقاصد من يستعملهم ومن ذلك اسمهم والفداوية تذكر كثيرا في تواريخ الحروب الصليبية ولما كانوا يتعاطون الحشيشة للاسكار وكان ذلك من قواعد مذهبهم سموا بالحشاشين ثم ان الصليبيين أفسدوا هذا اللفظ وقالوا أساسين Assassins وبسبب ما كان يبدو من هذه الطائفة من الاعمال الدموية صارت تدل عند الفرنج على كل قوم يقتلون غيرهم غيلة سواء كانوا من الحشاشين أو غيرهم

وأما التعاليم الدينية التي وضعها ابن الصباح لطائفته فأساسها هذا المبدأ ليس شيء صحيحا وكل شيء مستحل ومنها ان جميع الرتب يجب أن تكون للمختارين قليلين وان روح القدس يحل في الرئيس وان أوامر الرئيس آتية من لدن الله وقد وضع لدعاته قوانين يسلكون بموجبها تسمى مراتب وهي الرزق ثم التأنيث ثم التشكيك ثم العهد أو القسم ثم التدليس ثم التأسيس ثم الخلع ثم التأويل ويقال له السلخ وفي عهد ابن الصباح قتل تبعته كثيرين من الملوك والوزراء والمقدمين كالمسترشد بالله العباسي والآمر باحكام الله العبيدي ونظام الملك الوزير وابنه فخر الملك أبو المظفر وبعض ملوك الافرنج وللاسماعيلية أخبار ووقائع مذكورة في تواريخ العرب فمن أراد مفصلا فعليه بها ثم انه في (٦٥٠ هـ) لما استفحل التتار سار هلاكو من بغداد وخرب قلاعهم وقتل رئيسهم وكان يدعى ركن الدين وزحف بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس الى قلاعهم التي بالشام فخرب كثيرا منها ثم تتبعت الملوك هذه الطائفة في جميع الاقطار وجعلوا يقتلونهم حيث وجدوهم وبذلك سقطت سلطتهم التي كانت تضطرب لها الممالك وتمزقت مملكتهم وكانت ممتدة

النواحى فيقتلون وينهبون ويفتصون ومن ذلك انهم استولوا على عكا بعد حصارها برا وبحرا وكانت لخلفاء مصر وفعلوا باهلها أفعالا شنيعة (٤٩٧ هـ) وكان ملوك الاسلام اذذاك مشتغلين بقتال بعضهم بعضا وقد تفرقت الآراء واختلفت الاهواء وتمزقت الاحوال وتيتمت العيال وكانت وفاة المستظهر (٥١٢ هـ) وخلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر وأياما

خلافة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩ هـ) وهو ابن المستظهر وكان ولى عهد خطب له ثلاث وعشرون سنة فى حياة أبيه وفى السنة الاولى من خلافته مات بلدوين الاول ملك القدس وكان قصد بلاد مصر (٥١١ هـ) فانتهى الى الفرما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها ثم رحل عنها راجعا الى الشام وهو مريض فهلك فى الطريق قبل وصوله الى العريش ولا يزال يسمى باسمه للآن سبخة هناك فيقال سبخة بردويل أو بغدويل أو بلدوين وخلفه قريبه بلدوين ديبورغ وفى خلافته كان ابتداء دولة الموحدين بالمغرب على يد محمد بن تومرت وسيأتى ذكر دولتهم وانقرضت دولة المرابطين وفى خلافته أيضا مات الآمر باحكام الله العلوى قتله الباطنية بمتنزه له (٥٢٤ هـ) وقد حصل خلاف كثير بين المسترشد والسلطان مسعود بن ملكشاه واقتتلا فانهزم المسترشد وأسر (٥٢٦ هـ) ولما أسره السلطان جعله فى خيمة ووكل به من يحفظه فقصده جماعة من الباطنية فدخلوا عليه وقتلوه ومثلوا به (٥٢٩ هـ) وكان عمره لما قتل ٢٣ سنة وثلاثة أشهر وخلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وأياما وكان شهما فصيحا عالى الهمة

خلافة الراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ) وهو ابن المسترشد بالله وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته ثم بعد قتله جددت له البيعة وفى أول خلافته افتتح الفرنج جزيرة جربة من أعمال افريقية وهرب من بقى بها من المسلمين

وكان السلطان مسعود لما بايع الراشد حلفه أن لا يحاربه ولا يجند عليه جنودا وانه متى فعل شيأ من ذلك خلع نفسه فحصل اختلاف بين مسعود وابن أخيه داود وقتال فكان الراشد ممن تداخل فى شئ من ذلك فاستفتى مسعود فيه العلماء وذكر لهم أشياء توجب الخلع فأفتوا بخلعه (٥٣٠ هـ) وليس فى خلافته ما يستحق الذكر سوى أن المحاربات كانت قائمة على قدم وساق بين أمراء المسلمين وملوك الفرنج الصليبيين واعلم انه بعد خلع الراشد وخلافة المقتفى دخل جماعة من الباطنية على الراشد ممن كانوا بخدمته فقتلوه وكان مهيبا شديد البطش (٥٣٢ هـ) وكانت مدة خلافته احدى عشر شهرا واحدى عشر يوما

خلافة المقتفى لامر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) وهو ابن المستظهر وكان عالما دمث الاخلاق خليقا بالامارة كامل السؤدد بيده أزمة الامور كان لا يجرى فى خلافته أمر وان صغر الا بتوقيعه وجرت فى أيامه فتن وحروب بينه وبين سلاطين العجم كانت الغلبة فيها له وثار فى أيامه العيارون

من سواحل البحر المتوسط الى داخل تركستان وكان مدة تغلب هذه الطائفة نحو ١٥٠ سنة على أنهم لم ينقرضوا تماما فقد بقى منهم الى الآن شرذمات ببلاد فارس وعلى سواحل نهر السند وفى ناحية القدموس من جبل النصيرية وناحية الخوابى من قضاء جبلة وغيرها حتى فى نفس حماة وبلاد حلب ونفس دمشق ولهم حى بدمشق يعرف بحارة الحشاشين ولهم للآن رئيس روحى يسمونه الداعى مقره باليمن أو الهند اه

والمفسدون

والمفسدون فنهض بقمعهم أتم نهوض وفى خلافته افتتح المسلمون كثيرا من الحصون والقلاع والمدن التى كانت بيد الافرنج واستظهروا عليهم فى عدة مواقع وأغار ملك الروم (٥٣١ هـ) على بلاد الارمن والفرنج ثم سار الى الشام وحاصر عدة مدن منها حلب الا أنه لم ينل منها ما كان يؤمل وفى خلافته افتتح الفرنج طرابلس الغرب (٥٤١ هـ) بسبب اختلاف كان بين أهلها واستولوا على المهدية بافريقية وكان حصل بافريقية قحط شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضا ففارق الناس القرى ودخل أكثرهم فى صقلية فاغتنم رجار (روجير) صاحب صقلية هذه الفرصة وجهز اسطولا مؤلفا من نحو ٢٥٠ مركبا وشحنها بالسلاح والمقاتلة وجعل عليها مقدما يقال له جورج وساروا من صقلية الى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهدية وصقلية وساروا منها وأشرفوا على المهدية ولما علم أهلها بذلك ورأوا ضعف حالهم وقلة المؤنة عندهم اتفقوا على اخلاء المهدية وكان أميرها حسن ابن على الصنهاجى وأخذوا معهم ما خف حمله وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية ثم دخل المهدية وليس بها أحد ودخل جورج مقدم الافرنج الى قصر الامير حسن فوجده على حاله لم يعدم منه الا ما خف حمله ووجد الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وغرائب التحف مما يقل وجود مثله وبقى الامير المذكور ينتقل من بلد الى بلد حتى ظهر عبد المؤمن وافتتح المهدية فجعله فيها واليا وحصل فى خلافته أيضا قحط شديد وغلاء عم خراسان والعراق والشام والمغرب (٥٤٣ هـ) وفى خلافته كان ظهور الدولة الغورية [1] (٥٤٣ هـ) وفى خلافته (٥٤٨ هـ) ظهر أمر الغز [2] وعاثوا فى البلاد وقتلوا كثيرا من العلماء والصلحاء والقضاة بنيسابور وخربوا المدارس وعملوا كل عظيمة وفى خلافته أيضا لما اشتد ظلم الافرنج باهل افريقية ثاروا وقتلوا

---

(١) كان ابتداؤها فى آخر دولة بنى سبكتكين وملوكها هم الذين محوها وابتداء ملكهم سنة (٥٤٣ هـ) وأول من ملك منهم رجل اسمه حسين بن الحسن ملك جبال الغور فى بلاد العجم وكانوا عمالا لبنى سبكتكين وكانت لهم شدة وشوكة ورعا انتسبوا الى بهرام شاه آخر ملوك سبكتكين وامتدت الدولة الغورية الى الهند والسند ومن أشهر ملوكهم غياث الدين الغورى وتلقب بقسيم أمير المؤمنين وله فتوحات كثيرة (٥٤٩ - ٥٩٩ هـ) ومحمود ابنه وهو آخرهم قتله بعض جيوش خوارزمشاه سنة (٦٠٤ هـ) وكانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جمالا الا أنها لم تطل اهـ

(٢) الغز هم طائفة من الترك كانوا بما وراء النهر فلما ملكه الخطا قبيل ذلك أخرجوهم منه فقصدوا خراسان وكانوا كفارا وكان من أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجمانا بين الفريقين حتى صار من أسلم منهم قيل منه انه صار ترجمانا ثم قيل تركمانا بالكاف المعجمة وجمع على تراكمين ثم اسلم الغز جميعهم فقيل لهم تراكمين ولما قدموا الى خراسان اقاموا بنواحى بلخ مدة طويلة ثم عن للامير قماج مقطع بلخ ان يخرجهم من بلادهم فامتنعوا الخارب بهم فهزموه وتبعوه يقتلون ويأسرون وكانوا قبل ذلك تضرعوا اليه ان يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم فى مقابلة مال يحملونه اليه فلم يقبل وبعد هزيمته عاثوا فى البلاد فجمع السلطان سنجر السلجوقى عساكره وسار اليهم فى مائة الف فارس فاعتذر اليه الغز مما وقع منهم وبذلوا له الاموال الكثيرة ليكف عنهم فلم يجبهم ولما وقعت الحرب بينهم انهزم سنجر وعساكره وتبعهم الغز يقتلون واسروا السلطان سنجر ومعه جماعة من الامراء فضرب الغز اعناقهم ما عدا سنجر فانهم احترموه وقبلوا الارض بين يديه وقالوا له نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك ثم دخلوا معه مرو وهى كرسى خراسان ثم حصل بين سنجر والغز امور انتهت بأن نزل سنجر عن سرير الملك سنة (٥٥١ هـ) ولحق بخانقاه مرو واستولى الغز على البلاد ثم قام بعض مماليك سنجر واستقلوا ببعض البلاد وطردوا الغز عنها اهـ

من الفرنج عددا عظيما وسار عسكر عبد المؤمن فملك عنابة وخرجت جميع افريقية عن حكم الافرنج ماعدا المهدية وسوسه ثم افتتحهما بعد ذلك بقليل

وكانت وفاة المقتفي لامر الله (٥٥٥ هـ) وكانت خلافته ٢٤ سنه وثلاثة أشهر وأياما وكان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى لايفوته منها شئ وقد تمكن بمهارته من ازالة تغلب بني سلجوق عليه حتى انه في (٥٥١ هـ) امتنع من الخطبة للسلطان محمد بن محمود السلجوقي فجاء بعسكره وحاصر بغداد ثم انصرف من غير طائل

خلافة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وفي أول خلافته تآمر عليه بعض الجوارى بدسيسة أمه يردن قتله فلما فطن لذلك قبض على أم أخيه أبي علي وسجنها هي وهو وقتل الجوارى المتآمرات وفي خلافته سنة (٥٥٨ هـ) ضعفت الدولة الفاطمية بمصر بما كان من القتال بين شاور وضرغام وآل رزيك وزراء العاضد لدين الله العلوى وقتل ضرغام كثيرا من أمراء المصريين لما تمكن من الوزارة لتخلو له البلاد ومازالت هذه الدولة آخذة في الانحطاط حتى خرجت البلاد من يد الفواطم بارسال نور الدين محمود بن زنكي عسكرا الى مصر مقدمهم أسد الدين شيركوه ومعهم شاور وزير العاضد وكان قد سار من مصر هاربا من ضرغام فلحق شاور بنور الدين وبذل له ثلث أموال مصر ان هو أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الى مصر فوصل اليها وقتل ضرغام عند قبر السيدة نفيسة رضي الله عنها وأعاد شاور الى الوزارة (٥٥٨ هـ) ومع ذلك فقد غدر شاور ولم يف بما شرط على نفسه فقصده نور الدين واستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر ولما بلغ الفرنج حركة نور الدين عليهم راسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بالجنود ووصل الشام سالما

وكان أمر الفرنج الصليبيين قد تزعزع وضعف بأسهم ووقع في يد المسلمين كثير من مدنهم وأمرائهم وجيوشهم ثم عاد شيركوه الى مصر وافتتح منها عدة بلاد مثل الجيزة والاسكندرية ثم أتى الملك الشهير والغضنفر الكبير صلاح الدين الايوبي صاحب المواقف الشهيرة والاعمال الخطيرة في حروب الصليبيين بلاد مصر (٥٦٤ هـ) وهو رأس الدولة الايوبية وكان أتى مصر لتخليصها من يد الفرنج على ماسنذكره مفصلا في تاريخ هذه الدولة

وكانت وفاة المستنجد ابن المقتفي سنة (٥٦٦ هـ) وسبب موته ان عضد الدين استاذداره كان خاف منه هو وقطب الدين قيماز أكبر أمراء بغداد فاتفقا مع الطبيب على ان يصف له وهو مريض مايكون سببا في هلاكه فوصف له دخول الحمام فلما دخل أغلقوا عليه الباب فمات وكان المستنجد حسن السيرة شهما أطلق كثيرا من المكوس وكان شديدا على أهل العيث والفساد وكانت خلافته احدى عشرة سنة

خلافة المستضيء بالله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان اسمه الحسن ولم يل الخلافة من تسمى بهذا الاسم غيره وفي أول خلافته امتد نفوذ صلاح الدين بمصر وانتظمت له الاحوال وانتصر على

اعدائه

أعدائه بها وقطع الخطبة للعاضد لدين الله العلوي وجعلها باسم الخليفة العباسي وكان ذلك بناء على أمر نور الدين ولم يحصل من ذلك بمصر ما كان صلاح الدين يخافه ثم بعد ذلك بقليل مات العاضد بعد ان اشتد مرضه (٥٦٧ هـ) وبه انقرضت دولتهم وجميع من خطب لهم منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة فسبحان من لا يزول ملكه ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الى بغداد ضربت لها البشائر أياما وسير الخليفة الخلع الى نور الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت أيضا الاعلام السود شعار بني العباس ومن هذا الوقت كثر استعمال حمام البطاقة أو الرسائل (١) وصار له منزلة عظيمة لشدة الحاجة اليه في نقل الاخبار السريعة فاتخذوا له أمكنة معلومة من القلاع واعتنوا بأمره مزيد العناية

وفي خلافته لما مات نور الدين محمود وهو من أعظم ملوك الاسلام قويت سلطة صلاح الدين واستبد بالامور وخضعت له البلاد وأطاعته الامراء وكانت وفاة المستضيء (٥٧٥ هـ) وخلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأمه أرمنية وكان عادلا حسن السيرة كريم النفس كثر ثناء الخلق عليه وأظهر من العدل أضعاف ما عمله أبوه وأعطى أموالا جزيلة وكان شديدا على أهل الفساد

(١) حمام الرسائل هو نوع مشهور بسرعة طيرانه وكثرة هدايته وحمله الرسائل ويربى تربية مخصوصة وهذا الحمام كان يستخدم في الحروب والمحاصرات والتجارة وغيرها لحمل الاخبار واول حمامة من هذا النوع هي التي ورد في الآثار ان نوحا عليه السلام ارسلها من الفلك وقت الطوفان لتأتيه بخبر الارض وقد ورد ذكره في التاريخ وقد ثبت ان مصارعا كان يأخذ معه الى الالعاب الاولمبية ببلاد اليونان حمامة فكان اذا تغلب على مصارعيه يعلق في عنقها قطعة من الارجوان ويطلقها فتبلغ بيتها في نفس يوم اطلاقها فيعرف ذلك أهله وأهل بلده وكان الذين لا يقدرون على الذهاب الى سباق العجلات برومية قد عاير سلون اليه أصدقاءهم أو غلمانهم ومعهم حمام الرسائل فكانوا عند نهاية السباق يطلقونه مصبوغا بلون الحزب الفائز فترجع الى أوكارها فيعرف أصحابها من اللون هل ربحوا أو خسروا وفي سنة (٤٣ ق م) حاصر انطونيوس مدينة مودينة ببلاد ايطاليا فأرسل رئيس الحكومة الى حاكم احدى المدن رسالة مربوطة بخيط في عنق حمامة فأجابه برسالة معلقة برجلها ويقال ان هذه أول مرة استخدم فيها الحمام في الحروب ولم يعرف المسيحيون هذا الحمام الا (١٠٩٨ م) لما حاصروا أورشليم فكان القائد العربي في قلعة الحصار بين انطاكية وأورشليم يميل الى التسليم فخابر قومه بواسطة الحمام وعند ذلك شاع خبر الحمامة التي انقض عليها طير جارح فسقطت بين عساكر الصليبيين فعرفوا مقاصد العرب بالاطلاع على الرسالة التي وجدوها تحت جناحيها واستعمل السلطان صلاح الدين الايوبي حمام البطاقة في حصار عكا (١١٨٩ - ١١٩١ م) فحملت اليه خبر وصول الملك لويز التاسع الى مصر وأخبار حرب المنصورة التي دارت فيها الدائرة على الصليبيين ولما افتتح السلطان نور الدين الاقاليم الكثيرة ورأى أنه لا بد له من الوقوف على أخبار سلطنته سريعا رتب حمام الرسائل لا سيما في مصر وشيد لها في كل جهاتها أبراجا وأقام لها نظارا وحراسا يراقبون وصولها ليلا ونهارا وكان ينفق على ذلك أموالا طائلة وجعل بين كل برج وآخر ١٢ ميلا ومتى حصل أمر ذو بال كان يعلق في عنق حمامة قارورة صغيرة من الذهب الرقيق جدا كالورق داخلها رسالة ورقها رقيق جدا يسمى ورق الطير كانوا يذكرون فيها تاريخ اليوم والساعة التي طارت فيها الحمامة وكان يطلق حمامة أخرى حاملة نفس الخبر خوفا من فقدان الاولى وكان أكثر هذا الحمام من حمام العراق المطوق العنق بالبياض لانه يدجن سريعا ويتعلم في برهة قصيرة وكان يبلغ ثمن الزوج منه ألف دينار وقد استخدم الاوروباويون من الصليبيين حمام الرسائل أيضا وقال قنصل فرانسا بالشرق بالقرن السابع عشر ان خدمة حمام البطاقة كانت حاصلة في أيامه في اسكندرونه لتبليغ أهالي الداخلية خبر وصول سفن التجارة واستمرت عادة ارسال الاخبار مع الحمام في اسكندرونه الى القرن الثامن عشر ويقال انه لا يزال يوجد للآن في بعض قرى حلب حمام أشقر من بقايا حمام سلاطين مصر وسوريا وأمرائها والبطاقة مأخوذة من لفظة بتاكيون باليونانية ومعناه ورقة أو رسالة اهـ

خلافة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وكان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيرا بالامور متوقد الذكاء والفطنة طالت مدته وصفا له الوقت والملك نوعا وأحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه حتى كان يمشى فى الليل فى دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم وفى أيامه كان ظهور صلاح الدين واستيلاؤه على مصر واستخلاصه بيت المقدس من الصليبيين (٥٨٥ هـ) بعد أن تقاتل الفريقان أشد قتال يكون وكان بيت المقدس فى يد الصليبيين من سنة (٤٩٢ هـ) وازالة دولة الفاطميين وفى خلافته أراد الصليبيون المسير الى المدينة المنورة للاستيلاء عليها فجمع عز الدين فرخشاه الايوبى جيشا وقصد ذلك الجيش الذاهب الى المدينة فانتصر عليه ومزق شمله واستولى صلاح الدين على اليمن بعد موت توران شاه ووقوع الخلاف بين نوابه (٥٧٧ هـ) وفى خلافته كان انقراض دولة سلاجقة ايران (٥٩٠ هـ) وكان آخرهم طغرل بك بن أرسلان شاه وأولهم طغرل بك ملك العراق (٤٣٢ هـ) وقد ترقى شأن الخلافة نوعا كما تقدم بمساعى هذا الخليفة فانه استولى على بلاد خوزستان من أولاد شمله واستولى أيضا على عدة مدن منها مدينة تُسْتَر (٥٩١ هـ) وهمذان وأصفهان وغيرهما من بلاد العجم وفى خلافته اتسع ملك أمراء الغور أصحاب غزنة بما فتحوه من بلاد الهند وبعد موت الملك العظيم والبطل الشهير صلاح الدين الايوبى واستقرار ملك مصر والشام فى بدنيه ثارت عوامل الشحناء والبغضاء بينهم حتى أدى ذلك الى وقوع القتال بين بعضهم وبذلك استرد الفرنج كثيرا من البلدان التى كان استخلصها صلاح الدين من أيديهم كما تراه مفصلا فى حروب الصليب ودولة بنى أيوب

ولما استقر الملك العادل أخو صلاح الدين بدمشق (٦٠٤ هـ) وصل اليه التشريف [1] من الخليفة الامام الناصر وللملك الاشرف والملك المعظم ابنى الملك العادل ولوزيره صفى الدين بن شكر صحبة شهاب الدين السهروردى ووصل من الخليفة للملك العادل أيضا تقليد بالبلاد التى تحت حكمه وخوطب الملك العادل فيه بملك الملوك (شاهنشاه) خليل أمير المؤمنين فقابل الملك العادل الرسول بغاية الاكرام وأنزله أعظم منزلة تكون ثم توجه الشيخ شهاب الدين المذكور بعد ذلك الى مصر فخلع على الملك الكامل بها وجرى فيها نظير ما جرى فى دمشق من الاحتفال ثم عاد السهروردى الى بغداد مكرما معظما

وفى خلافته أيضا قصد الصليبيون مدينة دمياط واستولوا عليها (٦١٤ هـ) بعد ان قتلوا وأسروا فلما رأى الملك الكامل ملك مصر ذلك ابتنى مدينة المنصورة ونزل فيها بعسكره وتقدم الفرنج لحصارها وكانت بين المسلمين والصليبيين عدة وقائع فى آخرها طلب الصليبيون الامان فاجابهم الملك الكامل الى ما طلبوا وكتبت معهم شروط الصلح وأخذوا من الفرنج على ذلك رهينة لتنفيذ ما اشترطه المسلمون ثم تسلم المسلمون دمياط وكان الفرنج حصنوها جدا (٦١٨ هـ) ومن الحوادث الشهيرة

(١) كان ذلك التشريف أو الخلعة عبارة عن جبة أطلس أسود بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر فطوق به الملك العادل وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا تقلده وحصان أشهب بمركب ذهب وعلم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة هذه كانت خلع بنى العباس على الملوك لانهم سود وتوكانت خلعة ابنى الملك العادل ووزيره عبارة عن عمامة سوداء وثوب اسود واسع الكم اهـ

فى خلافة الناصر ظهور التتار وتملكهم فى المدة القريبة أكثر بلاد الاسلام ولم تفجع المسلمون منذ ظهر الاسلام بمثل هذه الفجيعة (٦١٦ هـ) وكانت وفاة الخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢ هـ) وخلافته نحو سبعة وأربعين سنة وعمى فى آخر عمره واتصف فى آخر أيامه بقبيح السيرة والظلم وقد تخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة الى رمى البندق والاشتغال بأنواع الطيور ويقال انه هو الذى كاتب التتار وأطمعهم فى البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزمشاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزمشاه بهم عن قصد العراق

خلافة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) لما توفى الامام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله فأظهر العدل وأزال المكوس وأخرج المحبوسين وظهر للناس وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون الا نادرا ومدته تسعة أشهر ولم يجر فيها ما يسطر وكان متواضعا محسنا الى الرعية جدا قيل انه فرق ليلة عيد النحر على الفقراء مائة ألف دينار فلامه الوزير على ذلك فقال دعنى أفعل الخير فانى لا أدرى كم أعيش فلم يلبث أن توفاه الله وأثابه على عمله الصالح ولم يتشيع كأبيه

خلافة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان المستنصر شهما جوادا يبارى الريح كرما وجودا وكانت هباته وعطاياه أشهر من أن يدل عليها وأعظم من أن تحصى وله الآثار الجليلة منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية بناها ببغداد على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخليفة وجعل لها أوقافا جليلة وكان المستنصر يقول انى أخاف أن الله لا يثيبنى على ما أهبه وأعطيه لان الله سبحانه وتعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب وكانت أيامه طيبة والدنيا فى زمانه ساكنة والخيرات دارة والاعمال عامرة وفى خلافته كانت الواقعة المشؤمة على الاسلام بالاندلس قرب طليطلة انهزمت فيها المسلمون هزيمة قبيحة وهذه الواقعة هى التى هدت دعائم الاسلام بالاندلس (٦٢٤ هـ) وذلك أيام العادل عبد الله بن يعقوب وفى خلافته أيضا طغى التتار واستولوا على كثير من البلدان وعاودوا الكرة على بلاد جلال الدين بن خوارزمشاه (٦٢٥ هـ) وغيرها من بلاد الاسلام وسفكوا وخربوا وكانت وفاته سنة ٦٤٠ وخلافته سبع عشرة سنة الا شهرا

خلافة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) لما مات المستنصر بالله اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وكان المستعصم ضعيف الرأى قليل الخبرة واهى العزيمة فاستبد كبراء دولته بالامر خصوصا وزيره ابن العلقمى فانه كان عدواله يداريه فى الظاهر وينافقه فى الباطن ولما كان تدبيره على ازالة الخلافة من بنى العباس أذن للجند بالتفرق والذهاب الى حيث شاؤا فعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن فصار ابن العلقمى يكاتب هلاكوخان ملك التتار (١) ويستحثه لقصد بغداد ويخبره عن صورة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر فزحف هلاكو بجيش جرار الى بغداد والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمى عنه سائر الاخبار الى أن وصل الى بلاد العراق واستأصل من بها قتلا وأسرا ثم تقدم قاصدا بغداد

(١) التتار اسم عام لقبائل عديدة ظهرت فى أواسط آسيا وأخذت الشهرة العظيمة فى القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر من الميلاد وأول ما عرف اسمهم فى أوربا فى القرن الثانى عشر وهم أمة عظيمة من أمم الترك

وأرسل الى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم وجمع من قدر عليه وبرز لقتاله بأربعين ألف مقاتل فثبتوا معه ترفهم على حد السيوف من اقبال الفجر الى ادبار النهار حتى عجزوا عن الاصطبار وولوا الادبار بالادبار وأعقبهم التتار ووضعوا السيف فيهم وقتلوا من المسلمين فى ثلاثة أيام ما ينيف عن ثلثمائة وسبعين ألف نفس وسبوا ورموا كتب مدارس بغداد فى بحر الفرات فكانت لكثرتها جسرا يمرون عليها ركبانا ومشاة وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الاسلام وأخذوا المستعصم وأولاده وأتباعه وجماعته وأتوا به الى هولاكو فاستبقاه أياما الى ان استصفى أمواله ودفائنه ثم رمى رقاب أولاده وأتباعه وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة ويرفس بالارجل الى ان يموت ففعل به ذلك سنة (٦٥٦ هـ) وانقطعت خلافة بنى العباس وهم سبعة وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم

ويقال ان مؤيد الدين بن العلقمى وزير المستعصم كان رافضيا وكان أهل الكرخ روافض أيضا وحصل فى وزارته أن حدثت الفتنة بين السنية والشيعة كما كانت تقع فى غالب الاحيان

ينقسمون الى عدة فروع وقيل ان هذا اللفظ صينى معناه الامم البادية وكان خروجهم من حدود الصين ثم انتشروا فى آسيا الوسطى وزال بهم اسم المغول مع ان المغول كانوا أولى بالذكر لانهم تسلطوا واقبل التتار على البلاد بفتوحات خانهم الاعظم جنكيزخان غير ان التتار لما دخلوا بكثرة فى جيوش جنكيزخان وكان لهم اليد الطولى فى الفتوحات تسلطوا على التوالى على القوة المغولية واشتهروا دونهم وقد اتصل بعض الباحثين عن أصل المغول والتتار فجعلهم من أصل واحد وزعم ان المغول من سلالة رجل يقال له ترك وان المغول والتتار والاتراك جميعا قبائل عرفت قديما باسم عام وهو مساجيت أو سيت ثم انقسمت هذه الامة وسميت فروعها بأسماء مختلفة حسب الظروف والاماكن والعادات والطباع وقد فصل ملطبرون بين أمتى التتار والمغول فصلا بينا وقسم كل أمة منهما الى عدة طوائف مختلفة

وكان أول من خرج من ملوكهم جنكيزخان عام عشر وستمائة للهجرة واستقلوا بالممالك التى افتتحوها بجهات خوارزم وخراسان وكرمان وعراق العجم وفارس وأذربيجان وعراق العرب والجزيرة وغيرها ثم انقسمت دولته بين بنيه فكان لبنى دوشيرخان بلاد القفجاق ولبنى هلاكو بن طولى خان خراسان والعراق وفارس وأذربيجان والجزيرة والروم ولبنى جغطاى خوارزم وما يليها واستمرت هذه الدول الثلاث نحو مائة وثمانين سنة الى ان انقرض ملك بنى هلاكو (٧٤٠ هـ) بوفاة أبى سعيد ملك بغداد آخرهم وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته وما زالت تلك الاملاك فى يدهم حتى ظهر فى القرن الثامن للهجرة بتركستان وبخارا أمير اسمه تيمورلنك فى جموع من المغول والتتار ينسب هو وقومه الى جغطاى فسار الى خراسان وملكها ثم ملك أذربيجان وأعمالها (٧٨٧ هـ) ثم ملك أصبهان وبغداد ثم ملك سائر البلاد ثم كانت السيادة للدولة العثمانية وبها انقرضت دول التتار الى الآن

وأما تفصيل حوادثهم من أول ظهورهم فقد ذكر أكثرها ابن الاثير فى النصف الاول من القرن السابع للهجرة وكان ظهورهم فى بلاد الاسلام (٦١٧ هـ) ولما ظهروا خربوا البلاد وقتلوا العباد وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة ولم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبى ولا صبية وخربوا المدن وحرقوا المدارس والزوايا والقصور والحانات وغيرها وقد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه عمارة وأهلا فى نحو سنة وكانوا لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فمعهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التى يركبونها فكانت تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات فهم ان نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من الخارج وكانت ديانتهم قبل اسلامهم عبادة الشمس يسجدون لها عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف أباه وقيل ان سبب طروقهم بلاد الاسلام ان خوارزمشاه قتل منهم تجارا كانوا أتوا الى بلاده ثم انهم لذلك أغاروا على بلاده ودخلوا بخارا (٦١٦ هـ) وما زالوا يستولون على البلاد والاصقاع والدساكر يخربون ويحرقون وينهبون ويبيدون الى ان انقرضوا كما تقدم اهـ

في

فى أواخر خلفاء الدولة العباسية ولما وقعت الفتنة أمر ابن الخليفة والدويدار العسكر فنهبوا الكرخ وسبوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى فكاتب التتار وأطمعهم فى بغداد كما قلنا وكان عسكر بغداد يبلغون مائة ألف فارس فحسن العلقمى للمستعصم طرق الاقتصاد حتى تمكن من تقليل تلك الجيوش ثم أرسل أخاه الى التتار يستحثهم فساروا قاصدين بغداد ولما بلغ الخليفة ذلك أخرج جنوده القليلة لقتالهم تحت قيادة ركن الدين الدويدار فالتقى بالتتار على مرحلتين من بغداد ولما دارت رحى الحرب انهزمت جنود الخليفة ودخل بعضهم بغداد وقصد بعضهم الشام ثم تقدم هلاكو نحو بغداد ونزل عليها من الجانب الشرقى وأرسل فرقة من جيشه نزلت بالجانب الغربى وحاصروا بغداد ثم خرج مؤيد الدين العلقمى الى هلاكو فتوثق منه لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم قائلا ان هلاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج الى هلاكو فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزل فى خيمة ثم استدعى الوزير باقى فقهاء وقضاة وأماثل بغداد فاجتمع هناك منهم غالبهم ولما تكاملوا هجمت عليهم التتار وقتلوهم عن آخرهم وكان منهم ابن الجوزى وأولاده ثم عبر التتار الجسر ودخلوا بغداد (١) ووضعوا السيف فى أهلها وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ودام القتل والنهب والسلب أربعين يوما ثم نودى بالامان واستولوا من قصور الخلافة

(١) بغداد مدينة شهيرة بالعراق قاعدة ولاية تسمى باسمها عدد سكانها ١٥٠,٠٠٠ نفس بين عرب وترك وعجم وأكراد وهنود وهى واقعة على جانبى نهر الدجلة وعرضه هناك ٧٠٠ قدم ثلثها على ضفته اليمنى وهو الجانب الغربى المسمى بالكرخ والثلثان الآخران على اليسرى وهو الشرقى المسمى بالرصافة ويصل بين الجانبين جسر من القوارب طوله ٢٥٠ مترا وللمدينة قلعة حصينة مهمة وبالمدينة أسواق كثيرة وخانات عديدة وقهاوى وحمامات ومساجد وجوامع حسنة مفروش داخلها بالقاشان وعلى نصف فرسخ من الجانب الشرقى مسجد وقبر الامام موسى الكاظم وبالجانب الغربى معمل لبناء السفن ومدرسة للصناعة يمتد من المدينة الى ظاهرها طريق حديدى مسيرة نحو ساعتين أما موقع المدينة فجميل تحف بها البساتين والنخيل وهواؤها فى الصيف شديد الحرارة جدا حتى يقيم أهلها نهارا فى سراديب تحت الارض وفى الشتاء يشتد البرد جدا وبها آثار من دور الخلفاء وقصورهم ومن المقابر المشهورة ببغداد قبر الامام أبى حنيفة وقبر الامام ابن حنبل وقبر أبى بكر الشبلى وغيرهم وكانت هذه المدينة قديما جليلة الشأن عظيمة الشهرة عم اسمها جميع انحاء العالم المتمدن واسعة التجارة والعمارة والزخرفة وقدساء العلم فيها زمنا طويلا وعلت قدمه سيما فى أيام الرشيد والمأمون فانشأ المأمون فيها مرصدا فلكيا وأمر فاستخرجوا له كتب الحكمة من اليونانية والسريانية وغيرهما فاتسع بذلك نطاق العلوم وكثرت العلماء والفضلاء وقد خرج من بغداد فطاحل الائمة فى كل العلوم والفنون وبلغ سكانها فى تلك الايام نحو مليونين من الانفس وأقامت بها الدولة العباسية المصانع الجليلة والقصور المنيفة سيما دار الخلافة فقد كان بها من الاثاث والماعون والمعادن النفيسة ما يجل عن الوصف وقد زارها كثير من السياحين ووصفوها وصفا يختلف باختلاف زمن ورودهم عليها قال ابن جبير فى رحلته الى بغداد انها وان لم تزل حاضرة الخلافة العباسية فقد ذهب أكثر رسمها فلا حسن فيها يستوقف البصر الا دجلة وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء فيزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة فقد تصوروا ان الدنيا تصغر دون بلدهم ويظنون ان أسماء الفخار فى نصب الا ان ليس لهم ورع ولا ذمة فى البيع والشراء الا ان الفقهاء والوعاظ يحملون عن مثل ذلك ولكنهم يضربون فى وعظهم فى حديد بارد ثم قال بعد ان ذكر خطط بغداد وحمامات بغداد كثيرة قيل بين الجهة الشرقية والغربية نحو ألفى حمام وجميعها مطلية بالقار الصقيل فتظهر كالرخام الاسود النقى وأما المساجد ببغداد فلا يأخذها التقدير والمدارس بها نحو الثلاثين كلها بالجهة الشرقية وهى كالقصور وأشهرها النظامية التى ابتناها

وذخائرها على ما لا يحصيه العدد والضبط والقيت كتب العلم التى كانت فى خزائنهم بدجلة فعبرت عليها الجنود معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن وعزم هولاكو على احراق بغداد فلم يوافقه مستشاروه وأما ابن العلقمى فلم يتمتع بالحظوة لدى هلاكو الا أياما قلائل ثم اطرحه بعد ان وقف منه على أسرار الدولة وأحوالها وخزائنها وغير ذلك فصار ابن العلقمى عرضة لعذابين وهدف الشقاءين تنغيص السريرة على ما أتاه من الفعل القبيح وغض نظر هلاكو عنه هذا زيادة عما سيلاقيه يوم الحساب من شديد العقاب ثم ساءت حالته وعض يد الندم ولات حين مندم ثم مات غما فى أوائل سنة (٦٥٧ هـ)

وبعد دخول التتار بغداد انقطعت الخلافة ثلاث سنين ونصف سنة الى ان ذهب بعض من سلم من القتل من بنى العباس الى مصر ونزل على ملكها الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩ هـ) وأقيمت الخلافة بمصر كما سيأتى ذلك مفصلا بتاريخ مصر فمدة الخلفاء العباسيين من بيعة أبى العباس السفاح الى قتل المستعصم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة

الوزير نظام الملك ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة وبالجملة فشأن هذه المدينة أعظم من ان يوصف وأين هى مما كانت عليه وقد بنيت بغداد فى نواحى مدينة سلفكة القديمة بناها الخليفة أبو جعفر المنصور وشرع فى تخطيطها سنة (١٤٥ هـ) وأتم بناءها سنة (١٤٩ هـ) وجعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب اليه من بعض وسماها مدينة السلام وسمى القسم الذى بناه الى الجانب الغربى بالزوراء وقيل بل الزوراء اسم لكل بغداد لان أبا جعفر جعل أبواب المدينة الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة وقال ياقوت والزوراء اسم لدجلة بغداد سميت بذلك لميلها وانعراجها

أما اسم بغداد ففيه أقوال مختلفة منها انه كان فى موضع بغداد سوق تقصدها تجار الصين فيربحون ويقولون بغ داد أى عطية بغ وبغ اسم ملكهم وقيل بل بغ اسم صنم وداد بمعنى أعطى والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل ذلك وقيل انه كان فى موضع بغداد قرية تسمى باسمها وسماها المنصور مدينة السلام لان دجلة كان يقال له وادى السلام وفى لفظ بغداد ثمان لغات بغداد وبغداد وبغذاذ وبغداذ ومغداد ومغداذ وبغدان وبغذان وبغذين

قالوا ولما عزم المنصور على ابتناء المدينة شاور بعض من كان يقيم بمكانها فحسن له رأيه فى البناء وقال له يا أمير المؤمنين انك تكون على نهر الصراة تجيئك الميرة فى السفن من الشام والرقة والغرب وطوائف مصر وتجيئك الميرة من الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل وغيرها فى دجلة وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها فأنت بين أنهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل اليك ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وقريب من البر والبحر والجبل فازداد المنصور عزما على النزول فى ذلك الموضع وقيل غير ذلك ولما شرع المنصور فى البناء كتب الى البلدان بطلب الصناع والفعلة وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة والفضل وقوم من ذوى الامانة والمعرفة بالهندسة وكان من جملتهم الحجاج بن ارطاة وأبو حنيفة فخطط المدينة وحفر الاساس وضرب اللبن وطبخ الآجر فكان أول ما بدأ به منها انه أمر بخطها بالرماد فدخلها من أبوابها وفصلانها ورحابها وطاقاتها وهى مخططة بالرماد ثم أمر أن يجعل على الرماد حب القطن ويشعل بالنار ففعلوا فنظر اليها بالليل وهى تشتعل ففهمها وعرف رسمها وأمر أن يحفر الاساس على ذلك الرسم ووكل بها أربعة من القواد ووكل أبا حنيفة بعد الآجر واللبن وجعل المنصور عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا وجعل فى البناء القصب والخشب ووضع بيده أول لبنة وقال باسم الله والحمد لله والارض يورثها من يشاء من عباده ثم قال ابنوا على بركة الله ونقل أبواب مدينة واسط وغيرها فجعلها على بغداد

(الفصل

الفصل الخامس

تاريخ الاندلس

وصف الاندلس

الاندلس إقليم عظيم من مملكة إسبانيا واقع فى جنوبيها وهو كريم البقعة جيد التربة متفجر العيون كثير الانهار منها نهر الوادى الكبير وليس فى ذلك الاقليم أجمل منه منظرا ولا أقوى اندفاعا ويمتد فى هذا الاقليم جبال سيرا نيفادا جنوبا وسيرامورنا شمالا وأوديته كثيرة البساتين الانيقة والجنان النضرة وهو معتدل الهواء أكثر الايام لا يزيد القيظ به زيادة تضر بالابدان وكذا سائر فصوله فى أعم السنين تأتى على قدر من الاعتدال والفواكه تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم لان الساحل ونواحيه يبادر بباكوره كأن الثغر وجهاته والجبال يكون بها بارد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيهما من ذلك حتى يكاد طرفاها كهنه يلتقيان

وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة والبر والبحر والسهل والوعر والضياع والبقاع شئ كثير وكان فى أول أمره قليل العمران ولكن عقب أن دخله

وعمل لها سورين السور الداخل أعلى من الخارج وبنى قصره فى وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وكان اللبن الذى يبنى به ذراعا فى ذراع وكان مقدار النفقة على بناء بغداد والمسجد والقصر والاسواق والفصلان والخنادق والابواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين ألف درهم وروى بعضهم أكثر من ذلك ولما أكمل المنصور بناء المدينة أقطع أصحابه القطائع فعمروها وسميت بهم ثم بنى قصره الكبير المعروف بالخلد وحول الاسواق الى الكرخ وقد ازداد بهاء بغداد وعمارتها مدة الرشيد ثم توالت عليها الاحن فخرب قسم عظيم منها بما حدث فيها من الفتن والاضطرابات والحريق والغرق والزلازل فلما أتى عضد الدولة من آل بويه عمرها (٣٦٩ ﻫ) فعمر مساجدها وأسواقها فقرت به بغداد وقرت عيون أهلها وازدادت رفعة وتحسنت كل أحوالها ثم بعد ذلك اضمحل أمرها بما كان يحدث فيها كل وقت من الفتن والمشاغبات التى أعجزت الخليفة ووزراءه وجنوده عن قمعها وكانت من الاسباب التى ساعدت طغرل بك السلجوقى على الاستيلاء عليها وفى (٤٤٩ ﻫ) حدث بها غلاء شديد حتى أكل الناس الميتة والكلاب وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى ثم وقع بها حريق (٤٥١ ﻫ) فأحرق الكرخ وغيره وأحرقت خزانة الكتب التى وقفها أردشير الوزير ونهب بعض كتبها وكان بها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد منها مائة مصحف بخطوط بنى مقلة وبعد ذلك انتابها الحريق مرة وفيضان دجلة مرة أخرى فتهدم قسم عظيم منها ونزح كثير من سكانها ورغب الناس عن سكناها وفى (٦٥٦ ﻫ) دخلها التتار واستولوا عليها وقتلوا المستعصم آخر خلفاء بنى العباس وكثيرا من العلماء والفضلاء والوجهاء وقد وجد التتار بها من الاموال والذخائر والتحف والنفائس ما قضوا به عجبا وبقيت بغداد بيد بنى هولاكو الى (٧٣٦ ﻫ) فكان آخرهم أبوسعيد ومن بعده اضطربت دولتهم وقامت مكانها دولة من أسباطهم تولوها الى (٧٩٥ ﻫ) التى قدم فيها تيمورلنك ملك المغول فاستولى عليها ونهبها وصادر أغنياءها وأكثر فيها من التخريب والتحريق ثم استولى عليها احمد بن اويس حاكمها الذى كان بها قبل مجىء المغول بمساعدة الظاهر برقوق سلطان مصر (٧٩٧ ﻫ) ثم استردها تيمورلنك ثانية (٨٠٤ ﻫ) وقتل من أهلها خلقا كثيرا جدا ثم استصفى أموالها وخربها وبقيت بغداد بيد بنى تيمور الى (٩٠٦ ﻫ) التى فيها استولى عليها الشاه اسمعيل الصفوى ملك ايران ثم استولى عليها العثمانيون سنة (٩٤١ ﻫ) ومازالت تتنقل فى يد العجم والعثمانيين الى ان استقرت بيد الدولة العلية العثمانية (١٠٤٨ ﻫ) استولى عليها المرحوم السلطان مراد الرابع ومن ذلك الوقت استراحت من الاضطرابات والحروب واخذت فى التقدم رويدا رويدا وهى الآن مركز مهم للتجارة اﻫ

العرب أخذ يتسع بكثرة الابنية ووفور السكان ومد العمران والعمارة حتى لم يكن له مثيل في جميع أقاليم المعمور

واعلم ان كلمة اندلس مأخوذة من اندلوشيا بالاسبانيولية وأصل هذه فاندلوشيا نسبة الى الفندال أو الوندال وهم أمة خشنة نزلته في القرن الخامس للميلاد وقد أطلق العرب هذا اللفظ على جميع البلاد المعروفة الآن باسم إسبانيا والبرتغال فهو عندهم عبارة عن شبه الجزيرة الشاملة لهاتين المملكتين من باب اطلاق البعض وارادة الكل وقد بلغ الاندلس في مدة دول العرب من المدنية والحضارة والثروة ما لم يبلغه إقليم آخر ومن أراد زيادة البيان فعليه بالمؤلفات الكبيرة وسيأتي وصف هذه البلاد وصفا جغرافيا عند الكلام على تاريخ مملكة إسبانيا

أمراء بني أمية بالاندلس

(٩٢ - ١٣٨ ھ)

اعلم انه لما افتتحت الاندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير كما تقدم الكلام على ذلك مفصلا في خلافة الوليد الاموي ونكب موسى بن نصير ومولاه طارق كما علمت صار خلفاء بني أمية يولون عمالا على الاندلس الى ان انقرضت دولتهم بظهور بني العباس أما الولاة الذين حكموا الاندلس مدة بني أمية فهم طارق بن زياد ثم الامير موسى بن نصير وكلاهما لم يتخذ سريرا للسلطنة ثم عبد العزيز بن موسى ابن نصير وسريره إشبيلية ثم أيوب بن حبيب اللخمي وسريره قرطبة ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي ثم السمح بن مالك الخولاني ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثم عنبسة بن سُحيم الكلبي ثم عذرة بن عبد الله الفهري ثم يحيى بن سلمة الكلبي ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ثم حُذيفة بن الاحوص القيسي ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد عبد الله الاشجعي ثم عبد الملك بن قطن الفهري ثم بلج ثم بشر بن عياض القشيري ثم ثعلبة بن سلامة العاملي ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي ثم ثوابة بن سلامة الجذامي ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وبه انتهت الولاة الذين تولوا الاندلس من غير موارثة أفراد عددهم عشرون ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير ومدتهم منذ تاريخ الفتح وهو يوم الاحد لخمس خلون من شوال سنة (٩٢ ھ) الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة وهو يوم عيد الاضحى لعشر خلون من ذي الحجة (١٣٨ ھ) ستة وأربعون سنة وخمسة أيام ثم كانت دولة بني أمية

أما الوقائع المهمة التي حدثت منذ الفتح الى ظهور دولة بني أمية بالاندلس فقد تقدمت لك متفرقة في أوقاتها من خلافة الخلفاء من بني أمية وغاية الامر في المدة المذكورة أنها كانت عبارة عن توثيق قواعد الملك وتمكين سطوة العرب بتلك الاطراف من فتح معاقل واخضاع أمم وانشاء مدن وحصون وتسهيل مواصلات وشق أنهر وغير ذلك من عوامل الحضارة

﴿ الفصل السادس ﴾

خلفاء بني أمية بالاندلس

(١٣٨ - ٤٢٢ ھ)

انه بعد أن زالت دولة بنى أمية من دمشق وانتقل الملك الى آل العباس وتولى الخلافة منهم أبو العباس السفاح (١٣٢ هـ) كما تقدم أخذ هذا الخليفة ومن أتى بعده فى استئصال الامويين وإبادتهم قتلا وتشريدا فلم يفلت منهم الا الرضيع وعبد الرحمن الاول الملقب بالداخل وهو ابن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ثم هرب من وجه بنى العباس الى مصر ومنها الى برقة فنزل على أخوال له هناك بطرابلس فلما شعر به عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عامل بنى العباس فر منه عبد الرحمن الاموى المذكور الى قوم بمكناسة من البربر ثم لحق بمليلة وأرسل بدرا مولاه الى جماعة من موالى المروانيين بالاندلس وأشياعهم فاجتمع بهم وبثوا له فى الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق ذلك قيام فتنة بين المضرية واليمانية فاجتمعت اليمانية الى أمره ورجع اليه مولاه بدر بالخبر فركب السفن واجتاز البحر (١٣٨ هـ) فى خلافة أبى جعفر المنصور ولما وصل بايعه قوم من اشبيلية وشذونة وقرطبة ووصل خبره الى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الاندلس فأتى اليه وحاربه فهزمه عبد الرحمن الاموى وملك القصر منه ثم اشتد ساعده وبايعه أهل مالقة وشريش وسائر الجهات واستقام له الامر تماما (١٤١ هـ) فاستقر بقرطبة وقطع الخطبة عن العباسيين وبه تجددت خلافة الامويين بالاندلس واستلحم الثوار بالبلاد ووفد اليه جماعة من المشرق من أهل بيته لما علموا بقيام دولتهم منهم عبد الملك بن عمر المروانى وقد ساعده فى كثير من الحروب

ولما استقر قدم عبد الرحمن الاموى بالاندلس أخذ فى بناء المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق عليهما أموالا عظيمة وبنى أماكن وقصورا ومساجد أخرى وكانت وفاته (١٧٢ هـ) ولم يكن له سوى لقب أمير وعليه جرى بنوه من بعده ولم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة الكبرى فى مقر الاسلام ومنتدى العرب حتى عبد الرحمن الناصر ثامنهم بالاندلس فتلقب بأمير المؤمنين لضعف خلفاء بنى العباس وغلبة الاعاجم عليهم وتوارث أولاد الناصر لقب أمير المؤمنين واحدا بعد الآخر الى ما بعد المائة الرابعة من الهجرة وكان لما اشتغل مسلمو الاندلس بعبد الرحمن الداخل وفتن اليمانية والمضرية وغير ذلك قوى أمر الجلالقة وعمد ملكهم ابن أدفونش وهو الفونس الكاتوليكى ملك استوريا الى الثغور فأخرج المسلمين منها وتملك مدينة لك [1] وبرتقال [2] وسمورة [3] وقشتالة وشقوبية وصارت للجلالقة حتى استردها المنصور بن أبى عامر آخر الدولة

وكان عبد الرحمن وجد الاندلس ثغرا قاصيا عاطلا عن حلية الملك فأرهف أهله بالطاعة السلطانية وأخذهم بالآداب فأكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة ودون الدواوين وفرض الاعطية وأعطى الالوية وجند الاجناد وأوثق الاوتاد حتى اعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروه ولم

---

(١) Luque مدينة باسبانيا من قسم الاندلس بمقاطعة قرطبة

(٢) مدينة بورتو Porto احدى مدائن البرتقال وعاصمة ولاية منهو وثغر تجارى عظيم على الشاطئ الايمن من نهر دورو بالقرب من مصبه وهى ثانى مدينة بالبرتقال ومدينة العلم عندهم وكانت قاعدة هذه المملكة حتى سنة (١١٧٤ م) وقال الفاضل المحقق أحمد زكى أفندى فى رحلته وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وبنى سويف وبندرها بنى سويف الى ان قال ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيئا يذكر لانهم كانوا يجيئونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم اهـ

(٣) Zamora مدينة إسبانيولية قاعدة ولاية مضافة اليها واقعة على الشاطئ الايمن من نهر دورو ولا يزال بها اطلال مبانى عربية وقد بقيت زمنا تنتقل من يد الاسبانيول الى يد العرب

يلبث ان دانت له بلاد الاندلس واستقام له أمرها فانقاد له عصيها وذل له أبيها واستولى على أريكته ملكا قاهر العدوه وحامى الذماره وكان عبد الرحمن يقعد للناس ويسمع منهم ويقضى بينهم ويتوصل اليه من أراد

وفى زمنه أرسل أبو جعفر المنصور العلاء بن مغيث الى الاندلس فى جيش داعيا الى جعفر المنصور واجتمع اليه خلق فقاتله عبد الرحمن وقاتله وهزمه ثم قتله وكانت لعبد الرحمن مع الفرنج غزوات رجع منها ظافرا وخلافته نحو ٣٣ سنة ومن أعماله الحسنة ادارة قرطبة بسور

هشام بن عبد الرحمن (١٧١ - ١٨٠ هـ) لما مات عبد الرحمن قام بالامر بعده ابنه هشام وكان هشام لما مات أبوه بمدينة ماردة واليا عليها وكان أبوه توليه فى صباه ويرشحه للامر وكان الداخل كثيرا ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاما اذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكر الامور الحرب ومواقف الابطال وما أشبه ذلك واذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان وكان هشام عالما تقيا جوادا زاهدا يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد وفى أيامه فتحت مدينة أربونة الشهيرة [١] (١٧٧ هـ) واشترط على المعاهدين من أهل جليقية [٢] من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة وبنى منه مسجدا هناك وقاسى من المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبا ثم كانت الدائرة له وانتشرت جيوشه ببلاد الغالة الغربية حتى وطئت أرض بريتانيا الصغرى (١٧٧ هـ) وله بقرطبة وغيرها من المبانى العمومية شئ كثير وهو الذى جدد القنطرة التى يضرب بها المثل بقرطبة وكان بناها السمح الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز وأكمل جامع قرطبة الذى كان شرع أبوه فيه ثم توفى (١٨٠ هـ) وكان من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد وعمره أربعون سنة وأشهر

الحكم بن هشام بن (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) لما انقضى عهد هشام قام بالامر بعده ابنه الحكم بعهد منه وفى أول حكمه استكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر

(١) أربون بلد فى طرف الثغر من أرض الاندلس قال ياقوت بينها وبين قرطبة على ما ذكره ابن الفقيه ألف ميل وقال ابن خلدون انها قاعدة البسائط من البر الكبير التى كانت فى يد القوط قبل الفتح ولذلك قال بعضهم انها ليست من مدن الاندلس وقال أبو الفداء ان موسى بن نصير انتهى اليها فى الفتوح وبقيت أقصى ثغور المسلمين من الاندلس وخرجت من يد المسلمين سنة (١٣٠ هـ) مع غيرها وعلى ذلك كان الغالب عندنا ان مدينة اربونة هى نربون الحالية (Narbonne) من أعمال فرانسا

(٢) (Galice) اقليم واقع بالشمال الغربى من جزيرة اسبانيا بين المحيط الاطلانطيقى شمالا وبلاد البرتقال جنوبا وقشتالة القديمة شرقا وكان يسكنها أقوام اشتهروا بالجسارة والاقدام ولذلك تمكنوا من حفظ بلادهم من الرومان والقرطاجنيين ثم بعد أن دخل العرب بلاد اسبانيا واستولوا عليها دخلت جليقية فى حكمهم الا انهم لم يستقروا بها طويلا لجدب أرضها وقلة سكانها وتوحشهم بل كانوا يترددون عليها بالغزوات من وقت الى آخر ومن أمهات مدنها سنتياغو وقد يسميها العرب غليسية اهـ

الامور

الأمور بنفسه وفي خلال فتنة حدثت بينه وبين بعض أقاربه اغتنم الفرنج فرصة واستولوا على ثغر برشلونة (١٨٥ هـ) وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونه وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لانه في صدر ولايته كان قد انهمك في اللذات وترك الحكم لوزرائه فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته واجتمع اليهم خلق كثير فقاتلهم الحكم وغلبهم وشتتهم في البلاد وهدم دورهم ومساجدهم ولحق من بقي منهم بأرض فاس وبالاسكندرية ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر وغلبهم وأجازهم بسفنهم الى جزيرة اقريطش (كريد) فلم يزالوا بها الى (٣٥٠ هـ) التي هاجمهم فيها أرمانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية باسطول جسيم مركب من ٧٠٠ سفينة وملكها من يد عبد العزيز بن شعيب صاحبها الذي كان بها من أولاد أبي جعفر البلوطي وهم الذين أدخلوا أنوار التمدن الاسلامي الى تلك الجزيرة وشيدوا بها المعاقل والحصون والمدن منها قندية وكان يقال لها الخندق وله مع الفرنج حروب كثيرة مذكورة في التاريخ انتصر في أغلبها والحكم هو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان من أفحل بني أمية بالاندلس وأشدهم إقداما ونجدة وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء وكانت له عيون يطالعونه باحوال الناس وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالاندلس ومدة ملكه ٢٦ سنة وقد رماه بعض المؤرخين بما ينافي حسن السيرة

عبد الرحمن الاوسط أو الثاني بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) لما مات الحكم قام بالامر بعده ابنه عبد الرحمن بعهد منه وفي أول حكمه جهز الجيوش الى بلاد الفرنج فأثخنوا فيهم وفتحوا اقلاعا وانتسفوا حصونا وأوغلت جيوشه حتى انتهت الى أرض بريطانية [1] وافتتح ابنه محمد بنبلونة [2] وقتل غرسية صاحبها وكان من أكبر ملوك تلك الجهات وهو غرسية الاول كسيمينيس ملك نافار وفي أيام عبد الرحمن ظهر المجوس (النورمنديون) [3] ودخلوا إشبيلية فارسل عليهم عبد الرحمن العساكر من قرطبة فنزل المجوس من مراكبهم وكانت لهم مراكب صغيرة عديدة يسيرون بها في البحار والانهار بمهارة عجيبة وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب ثم أتت العساكر مددا من قرطبة فقاتلهم المجوس فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجوس الى شذونة [4] ثم أتى الامر الى صاحب الاسطول فتجهز وأتى الى إشبيلية فأقلع المجوس بعد أن أغاروا وسبوا ثم ذهبوا الى أشبونة [5] فأوقعوا بها فتعقبهم الاسطول ثم انقطع خبرهم بعد

(١) مقاطعة قديمة من فرانسا واقعة بالجنوب الغربي منها

(٢) أو عبلونة مدينة حصينة باسبانيا قاعدة ولاية نافار وبها آثار عظيمة يقال ان الذي أسسها هو بومبي الروماني وقد حكمها المسلمون اثنتي عشر سنة فقط (Pampélune)

(٣) كان يطلق هذا الاسم في القرون الوسطى على قرصان أهل اسكندناوة الذين أغاروا على كثير من جهات اوروبا ثم استقروا اخيرا في بلاد انكلترة وسيأتي ذكرهم مفصلا في تاريخ فرانسا وانكلترة

(٤) شذونة مدينة بالاندلس من اعمال أشبيلية ينسب اليها جماعة من اهل الفضل

(٥) اشبونة أو لشبونة مدينة كانت من مدن الاندلس سابقا وهي الآن قاعدة بلاد البرتقال وينسب اليها جماعة من اهل الفضل عند العرب (Lisbonne)

طرقهم اشبونة وسكنت البلاد (٢٣٠ هـ) وكان النورمانديون لما أغاروا على البلاد خربوا بعض المدن والحصون والمباني فأصلحها عبد الرحمن بعد ذهابهم وفي ملكه حاصر المسلمون مدينة ليون (١) واستولوا عليها

ولما ضيق المأمون والمعتصم من خلفاء العباسيين على ملوك القسطنطينية وهزموا جيوشهم وعاثوا في بلادهم أرسل ملكها (٢٢٥ هـ) هدية فاخرة الى الامير عبد الرحمن يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه من المشرق حتى اذا تورط عبد الرحمن في حرب مع بني العباس هدأ بال ملك القسطنطينية واسترد ما استولى عليه المسلمون بالمشرق من بلاده الآن عبد الرحمن لما علم ذلك امتنع عنه وخافه ثم كافأه عن الهدية وبعث اليه رسولا يدعى يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهورا في الشعر والحكمة فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس ثم توفي سنة (٢٣٨ هـ) لاحدى وثلاثين سنة من إمارته وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون وكثرت الاموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وأقام الجسور وبنيت في أيامه الجوامع بكور الاندلس وزاد في جامع قرطبة وترك من الاولاد ١٥٠ من الذكور و ٥٠ من الاناث وكان عبد الرحمن مولعا بالسماع مؤثراله على جميع لذاته ولما قدم عليه (٢٠٦ هـ) ذرياب المغني من العراق مولى المهدي ومتعلم ابراهيم الموصلي ركب بنفسه لتلقيه على ما حكاه ابن خلدون وبالغ في اكرامه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعة الغناء بالاندلس

محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) لما مات عبد الرحمن ولي مكانه ابنه محمد وأول حكمه استمد أهل طليطلة الذين خالفوه ملكي جليقية والبشكنس (٢) فلقيهم الامير محمد على وادي سليطة وأوقع بهم وقتل من أهل طليطلة والفرنج عددا عظيما وظهرت مراكب المجوس مرة ثانية ببعض جهات الاندلس وعاثوا وأسروا فقابلتهم أساطيل الامير وغنموا منهم مركبين وقتل من المسلمين جمع كثير وله في بلاد الفرنج غزوات كثيرة قاد بعضها بنفسه وكانت وفاته (٢٧٣ هـ) لخمس وثلاثين سنة من إمارته

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ) لما حكم بعد أبيه لم تطل مدته وأقام في الملك سنتين الا نصف شهر وخلفه أخوه وليس له من الاعمال ما يدونه التاريخ

عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) وفي أيامه ثارت الثوار بنواحي الاندلس وخرج المتغلبون في تلك السنين حتى قل الخراج وتعطل الغزو وكان من الخوارج في أيامه ابن مروان

(١) كان يطلق هذا الاسم قديما على مقاطعة عظيمة ببلاد إسبانيا واقعة بين بلاد استوري شمالا وقشتاله القديمة شرقا واستيرامادور اجنوبا وغليسية والبرتقال غربا اما المدينة ففيها آثار ومقابر لعدة أمراء وملوك وقد أسس الرومان هذه المدينة في القرن الاول من الميلاد وافتتحها العرب (٧٢٢ م)

(٢) هم أمة البسك (Basques) أمة غربية كانت منذ عصر قديم ساكنة على سفوح جبال البرانس وقد استمروا محافظين على استقلالهم ولم يمكن للقرطاجنيين ولا الرومان ولا الغوط ولا العرب ولا الفرنساويين ولا الاسبانيول احداث تغيير في صفاتهم وأخلاقهم وكان الرومان يسمونهم قنطبرة ولهم لغة خاصة بهم وقد اشتهروا في كل عصر بالشجاعة ومحبة الحرية

ببطليوس (١) وابن تاكيت بماردة (٢) ولب ابن محمد بسرقسطة (٣) وطليطلة (٤) ومطرف ابن موسى بن ذى النون الهوارى بشانت مارى (٥) وابن حفصون فى ببشتر ومالقة ورندة (٦) وغيرهم وكانت وفاة عبد الله سنة ٣٠٠ ومدة ملكه نحو خمس وعشرين سنة وخلفه أخوه

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وكانت ولايته من الغريب لانه كان شابا وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واحتازها دونهم ووجد الاندلس مضطربة بالمخالفين محترقة بنيران المتغلبين فأطفأ تلك النيران واستنزل أهل العصيان واستقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه واستفحل فى زمنه ملك بنى أمية بالاندلس وهو أول من

---

(١) مدينة حصينة بأسبانيا اسمها القديم باكس أوغسطا حرّفها العرب الى بطليوس ومنها اسمها الحالى عند الاسبانيول وهى قاعدة ولاية مضافة اليها وبها آثار قلعة عربية وآثار أخرى عربية من جملتها جامع ولما كانت واقعة على التخوم وبها حصون منيعة كانت مطمحا لعين العدو وغرضا للحروب كثيرة وكانت فى أيام العرب من مدن الاندلس الجليلة المشهورة بنى بها بنو الافطس المبانى الجليلة ولما وقعت الفتنة بالاندلس بقيت فى يد سابور الفتى العامرى ثم دخلت فى ولاية بنى الافطس واستولى عليها منهم يوسف بن تاشفين ثم أخذها الفونس التاسع ملك لاون سنة (١٢٣٠ م) وينسب لبطليوس جماعة كثيرة من أهل العلم (Badajoz)

(٢) ماردة وكانت تسمى قديما امريتا أوغوسطا (Mérida) مدينة باسبانيا ببلاد استرامادورة من إقليم بطليوس واقعة على الشاطئ الايمن من وادى يانه أسسها أغسطس وبها آثار قديمة كثيرة بين عربية ورومانية استولى عليها العرب سنة (٧١٥ م) ثم استردها الفونس الحادى عشر ملك ليون سنة (١٢٢٨ م)

(٣) (Saragosse) مدينة من إسبانيا كانت تسمى قديما سيزاريا أوغسطا وكانت قاعدة بلاد أراغون واقعة على نهر ابره وقد أسسها أغسطس سنة (٢٧ ق م) وقيل بل أنشأها الفينيقيون استولى عليها العرب سنة (٧١٢ م) قال ياقوت سرقسطه بلدة مشهورة بالاندلس أعمالها تتصل بأعمال تطيلة انفردت بصنعة السمور ولطف تدبيره والثياب الرقيقة المضافة اليها استردها الفرنج سنة (٥١٢ هـ) وينسب اليها كثير من العلماء والمشاهير وكان بها متنزهات كثيرة أشهرها قصر السرور ومجلس الذهب ولما اقتسم الاندلس أصحاب الاطراف والرؤساء وتغلب كل انسان على شئ منه كانت سرقسطة والثغر الاعلى بيد منذر بن يحيى التجيبى سنة (٤٠٧ هـ)

(٤) (Tolède) وقد زارها الفاضل المحقق أحمد ذكى أفندى قال فى سياحته انها مدينة عربية محضة لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولا أتذكر ان مدينة فى مصر حفظت هذا الشكل العربي المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان وتبدل الاحوال الى ان يقول وقد رأيت فيها من آثار العرب ما ينطق بفضلهم ويخرس كل متعصب عليهم وقال أيضا انها كانت تسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك ويقول مؤرخو العرب ان معناها بلسانهم قيصر أنت فارح وهى قاعدة ولاية مضافة اليها وقد اشتهرت بسيوفها فى أيام العرب ولما تفرق شمل الاندلس استقل بها ابن يعيش ثم اسمعيل بن ذى النون ثم استردها الفونس الحادى عشر وصيرها قاعدة قشتالة ثم صارت قاعدة لجميع إسبانيا

(٥) شانت مارى وربما كانت هى شانت برية والتى ذكرها ياقوت بقوله مدينة متصلة بحوز مدينة سالم بالاندلس وهى شرقى قرطبة وهى مدينة كبيرة كثيرة الخيرات لها حصون كثيرة اهـ وربما كانت سانت مارى الحالية

(٦) رندة (Ronda) مدينة بولاية مالقة من اسبانيا ولها ذكر فى دولة العرب بالاندلس قال ياقوت رندة معقل حصين بالاندلس من اعمال تاكرنا وهى مدينة قديمة وينسب اليها جماعة من اهل العلم والفضل ولها ذكر فى دولة بنى حفصون وبها الآن آثار عربية قائمة افتتحها الاسبانيول سنة (١٤٨ م)

تسمى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالى الترك على بنى العباس وبلغه ان المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه (٣١٧ هـ) فتلقب بالقاب الخلافة وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزمه رودمير ملك الجلالقة (٣٢٧ هـ) فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الطوائف فى كل سنة فاوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج مالم يطؤه قبل فى أيام سلفه ومدت اليه أمم الجلالقة وغيرهم من وراء الدروب يد الاذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتماد فيما يعن فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة (كستيلة) وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما الى ملك العدوة فتناول سبتة وأطاعه بنوادريس أمراء العدوة وملوك زناتة وبربر وأجاز منهم اليه الكثير وبدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ولما وفدت اليه رسل قسطنطين ملك الروم احتفل بهم احتفالا شائقا فائق الوصف يليق بمقام هذه الخلافة الضخمة حتى انبهر الرسل من هول المجلس وأكبروا ما رأوه

وفى خلافته صارت مدينة قرطبة عاصمة الاندلس مركزا للعلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن فكانت قرطبة تناظر بغداد وبعد أن أذعنت لعبد الرحمن الناصر تلك الاقاليم ونفذت كلمته وارتفع سلطانه شرع فى تشييد المبانى والقصور الفاخرة بجده وأبيه الا أنه فاق عليهما فمن قصوره العجيبة الفخيمة الروضة جلب الماء اليه من الجبال واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر حتى من بغداد والقسطنطينية والناعورة وساق اليها المياه من أعلى الجبل على بعد المسافة وجرها فى أقنية غريبة الصنعة عدها ابن خلدون من عجيب الآثار التى يحتاج فى عملها الى بذل الاموال وتكاثف الرجال وقد ذكرها المقرى فى تاريخه وعدها من غرائب المبانى وكان ينتهى الماء الى بركة عظيمة عليها أسد بديع الصنعة يجوز الماء الى عجزه فيمجه فى بركة من فيه فيبهر الناظر وتسقى من مجاجه جنات هذا القصر على سعتها وتستفيض على ساحاته ومنها مدينة الزهراء واتخذها دار الملك وأنشأ بها من القصور والمبانى المختلفة والبساتين ما يجل عن الوصف واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة البناء متباعدة السياج ومسارح للطير مظللة بالشباك واتخذ فيها دار الصناعة وآلات السلاح والحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن مما ذكره المؤرخون وأبدعوا فى وصفه فن شاء فليراجعه وكان فى الزهراء ثلثمائة سارية من الرخام النفيس وأكثر من خمسة عشر ألف باب غريبة الصنعة وبقى بناؤها أربعين عاما وجلبوا رخامها الملون من أفريقية وقرطاجنة وسفاقس والقسطنطينية والشام وغيرها واتخذ له مجلسا يدعى بالمؤنس جمع فيه من غريب الصنعة والزخرفة والاصباغ ما لا يمكن للقلم وصفه ومنها قصر الزهراء وكان متناهيا فى الجلالة والفخامة أبوابه من خشب الارز الملبس بالذهب والفضة منقوشا نقشا يحير الالباب وكان أشرف هذه المجالس وأبهاها مجلس قصر الخلافة وصفه المقرى فى نفح الطيب فمن شاء فليراجعه وكان غاية فى ابداع الصنعة

وكان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من أبعد مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستقام السلم والعدل فى أيامه واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراجت أسواق الزراعة والتجارة ففاضت الاندلس بينابيع النعم وأحدقت بها مجارى

الثروة

الثروة وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلثمائة مدينة صغيرة وزاد عدد قراها ومزارعها عن اثنى عشرة ألف قرية ومزرعة واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشي فيها بضوء السرج الممتدة عشرة أميال

والناصر أول من اهتم بأمر البحرية فأكثر من بناء السفن الحربية ورتب الاساطيل على مثال أساطيل الافرنج وأتقن صناعتها وعدتها وفي أيامه تقوت الاساطيل بالاندلس وزاد عددها عن مائتى سفينة وكان لها جملة مرافئ الا انها تتردد في الكثير على بجاية والمرية وكان أمر الاساطيل يعهد لامير من عظماء الدولة يدبر أمرها ويأمر برسها في السواحل والمين واليه يرجع أمرها وقد تمكن الناصر بهذه الاساطيل من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج وكانت جباية الاندلس في أيامه خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف هذا من الكور والقرى ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار أما أخماس الغنائم فلا تحصى ولما مات الناصر خلف في بيت المال كما روى بعض المؤرخين خمسة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات) وكان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر ومع ما وصلت اليه أيام الناصر من العظمة والغنى والصفاء يحكى انه وجد بخطه ان أيام السرور والتي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا وعدت تلك الايام فكانت أربعة عشر يوما وكان للناصر من الوزراء والحجاب من ارتفع ذكرهم وعلا قدرهم وخلافته خمسون سنة

الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) لما توفي الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ولده وولى عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه الا شخصه وفي أول ولايته طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكم بنفسه واقتحم بلاد الفرنج واستولى على مدينة شانت اشتابين [1] وغيرها فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أرسل الجنود بعد ذلك الى بلاد الجلالقة والبشكنس وجهات برشلونة وقشتالة فغنمت وسبت وعظمت فتوحات الحكم وتقوت الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلمرية [2] من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه فعمرها الحكم واعتنى بها (٣٥٢ هـ)

وكان النورمانديون لا يزالون يعيشون في الجهات الغربية والجنوبية من أوروبا ينقضون على البلاد كلما مكنتهم الفرصة وفي (٣٥٤ هـ) ظهروا في مراكبهم بالبحر المحيط وأفسدوا بسائط أشبونة وناوشهم الناس القتال فرجعوا الى مراكبهم وأخرج الحكم القواد لحراسة السواحل وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ثم وردت الاخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل ووفد عليه في خلافته بعض ملوك الفرنج فقابلهم بما يليق بمقامه وهادنه الامراء والملوك فهادنهم وقبل هداياهم ورسم لبعضهم بهدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين ففعل ثم ان الحكم مد سلطانه على بر العدوة فاوطأ عساكره بلاد المغرب الاقصى والاوسط وتلقى دعوته ملوك زناته من مغراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم

---

(١) Saint-Sébastien مدينة واقعة بشمالي اسبانيا على لسان من الارض وهي ثغر تجاري عظيم

(٢) (Coïmbra) احدى مدن بلاد البرتغال وهي دار العلوم ومحط الفنون ببلادهم

وزاجوا بها دعوة الشيعة فيما بينهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية وكان الحكم محبا للعلوم مكرما لاهلها جماعا للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله روى قيم خزانة كتبه أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرست وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليه بضائعه من كل قطر وكان يبعث فى شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلبوا له منها الى الاندلس مالم يعهدوه وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك وكان عددها فيما قيل أربعمائة ألف مجلد وانهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزانة من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع أكثرها فى حصار البربر مدة المنصور بن أبى عامر الآتى ذكره ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم اياها عنوة

ومما يذكر مجيء أردوان بن أدفونش الى المستنصر بالله دون أمان يقصد له أو ذمة تعصمه فأمر المستنصر فتلقوه بالترحاب وأنزلوه فى قصر من أفخر قصور الخليفة وجلس له الخليفة فى يوم معين وقابله وأكرمه ثم قام الامير للانصراف لا يولى الخليفة ظهره وقد تكنفه الفتيان فأخرجوه وقد علاه البهر وأذهله النظر وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة ثم صبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة وكانت من غالى المنسوجات وثمين الاقمشة مما لا يوجد له نظير عند أحد من ملوك أوروبا ولما عاد كان لسانه لهجا بذكر ما رأى من عظمة الملك وفخامة الدولة مما لم يسمع بمثله أبدا وكل ذلك مفصل فى كتب التواريخ كابن خلدون ونفح الطيب وغيرهما وكانت وفاته (٣٦٦ هـ) مدة ملكه ست عشرة سنة

هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) لما تولى هشام الملك كان صغيرا سنه تسع سنين وكان الحكم قبل موته استوزر له محمد بن أبى عامر ونقله من خطة القضاء الى وزارته وفوض اليه أموره وترقت حال ابن أبى عامر عند الحكم الذى تلقب بالمؤيد ثم سما بعد ذلك لابن أبى عامر أمل فى التغلب على هشام لمكانته فى السن وثاب له رأى فى الاستبداد ففكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض وكان عظيما فى قومه وكان له فى الفتح أثر وعظم أمر ابن أبى عامر هذا وغلب على المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا فى النادر من الايام يسلمون وينصرفون وأرضخ للجند فى العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا ببعض كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصلهم وفرق جموعهم ثم لما خلا له الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة من أولياء الدولة من العرب وغيرهم رجع الى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وغيرهما فتغلب على هشام واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو فى جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع

لها

لها وردا الامور اليها وترديد الغزو والجهاد فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالامر وبنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيى بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ومحى رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه فى السكة والطرز وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد للاستيلاء على الرتبة وقهر من تطاول اليها من العلية فظفر من ذلك بما أراد وغزا ستا وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ولا فل له فيها جيش ولا أصيب له بعث وأجاز عساكره الى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستوثق لملك المغرب وخضعت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه ثم هلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء (٣٩٤ ﻫ) بمدينة سالم [1] عند منصرفه من بعض الغزوات ودفن بها وزارته ٢٧ سنة

وكان المنصور فى أول أمره يجلس بدكان عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له من الخدم والمرافقين للسلطان الى أن طلبت السيدة أم المؤيد من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت عليه الحكم ورغبت فى تشريفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع ثم ترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية وتمكن من قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ثم ترقت به الحال الى أن وصل الى مرتبة الوزارة كما تقدم وقد قام المنصور وغير ذلك بانشاء كثير من المبانى العمومية كالمساجد والقناطر وغيرها وقد اتصف بمحامد الخصال كالعدل والمروءة واغاثة الملهوف والخوف من الله والبعد عن الظلم وغير ذلك وقد وطئت خيل الاسلام فى وزارته أراضى وبلادا لم تطأها من قبل منها مدينة شانتياقو [2] قاصية غليسية وبها كنيسة معظمة جدا عند أهل الاندلس ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها (٣٨٧ ﻫ) وكان المنصور لما عزم على غزو هذه المدينة تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجالة البحريين وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة الى أن خرج بموضع على نهر دويرة [3] فدخل فى النهر الى المكان الذى عمل

(١) مدينة بالاندلس تتصل باعمال باروشة وكانت من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها شجرا وماء وكان طارق بن زياد وجدها خرابا فعمرت فى الاسلام والاسبانيول يسمونها الآن (Medina Celi) وهى من أعمال سوريا على الضفة اليسرى من نهر شالون

(٢) أوشنت أقرب مدينة شهيرة ببلاد غليسية من اسبانيا باقليم كرونيا وقد اشتهرت بكنيستها العظيمة الشهيرة التى يحج اليها كل سنة آلاف من الناس وبها قبر القديس يعقوب استولى عليها العرب (٩٩٧ م) وأخذوا من كنيستها أموالا طائلة وتسمى عند الفرنسيس (Saint-Jacques de Campostelle) وعند الاسبانيول (Santiago de Campostelle)

(٣) نهر عظيم باسبانيا وبلاد البرتقال منبعه من بلاد سوريا ويروى بلاد سوريا وبرغش وبلد الوليد وزامورة وليون وسلمنقة وغيرها ويصب بالمحيط الاطلنطيقى ويسمى عند الاسبانيول (Duero)

المنصور على العبور منه فعقد هنالك من هذا الاسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا فى التزود منها الى أرض العدو

ولما توفى المنصور قام بالامر بعده فى الوزارة ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه فى السياسة والغزو والحجر على الخليفة وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين الى ان مات سنة (٣٩٩ هـ) ثم قام بالامر بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة هشام ولما تم له الاستبداد على الخليفة والاستقلال بالملك دونه كأبيه من قبل ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد ان يوليه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكتب عهده الى الناس عامة (٣٩٨ هـ) وشهد الوزراء والقضاة وسائر الناس على ذلك وتسمى بعدها بولى العهد وكان هذا العمل سببا فى زوال النعمة عن بيت ابن أبى عامر لان أهل الدولة نقموا عليه وكان أسرع الناس لذلك كراهة الاموية والقرشيون فغصوا بأمره وأسفوا من تحويل الامر جملة من المضرية الى اليمانية فاجتمعوا لشأنهم وأجمعوا أمرهم فى غيبة من المذكور فى بلاد الجلالقة فى غزاة من صوائفه وخلعوا هشاما المؤيد بعد أن قبضوا وقتلوا كثيرا من أرباب الدولة (٣٩٩ هـ) وبايعوا محمد ابن هشام

محمد بن هشام المهدى (٣٩٩ — ٤٠٠) لما طار الخبر الى عبد الرحمن المذكور بما حصل وتسامع الجند انفض جمعه وقفل الى الحضرة حتى اذا قرب منها تسلل عنه الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى لما رأوا من سوء تدبيره وانتقاض أمره وأغروه بسيده ثم قبض عليه وقتل وحمل رأسه الى المهدى وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن وكانت الاموية تعتدى على رؤساء البربر وزناتة لما كان من مظاهرتهم العامريين وتنسب تغلب المنصور على الدولة اليهم فسخطتهم القلوب وكرهتهم العيون ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس ولفظت ألسنة أهل المدينة بكراهتهم وأمر المهدى ان لا يركبوا ولا يتسلحوا وامتنع عن مقابلة رؤسائهم وانتهبت العامة دور بعضهم وكان المهدى يظهر لهم المحبة فى حضورهم وفى قلبه منهم حزازات وكان يجاهر بسوء الثناء عليهم ولما بلغهم انه يريد الفتك بهم تمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم واشتوروا فى مبايعة هشام بن سليمان بن الناصر وفشا فى الخاصة حديثهم فعوجلوا عن مرامهم وأغرى بهم السواد الاعظم فثاروا بهم وطردوهم من المدينة ثم قبض على هشام وأخيه أبى بكر وأحضرا بين يدى المهدى فضرب عنقيهما ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتآمروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله وذهبوا به الى طليطلة فاستجاش بابن أدفونش (الفونس الخامس ملك قسطيلة) فأمده ثم نهض فى جموع البرابرة والنصارى الى قرطبة وبرز اليه المهدى فى كافة أهل البلد وخاصة الدولة فكانت الدائرة عليهم وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفا ودخل المستعين قرطبة (٤٠٠ هـ) أما المهدى فانه لحق بطليطلة واستجاش بابن أدفونش ثانية فنهض معه الى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة ودخل المهدى قرطبة وملكها وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا فى البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء فخرج المهدى ومعه ابن أدفونش لاتباعهم فكروا عليهم فانهزم المهدى وابن أدفونش ومن معهما وتبعهما

المستعين الى قرطبة فأخرج المهدى هشاما المؤيد للناس و بايع له وقام بأمر حجابته (٤٠٠ ﻫ) فلم ينفعه ذلك وحاصرهم المستعين والبربر ولما خشى أهل قرطبة من اقتحام البربر المدينة أغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدى وانه سبب الفتنة فقتلوا المهدى (٤٠٣ ﻫ) واجتمعوا على المؤيد ومع ذلك لم يغن هذا عن أهل قرطبة شيأ الى ان جهدهم الحصار وعدمت المرافق ولم يزل الامر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة (٤٠٣ ﻫ) وقتل هشام ولما ظن المستعين ان قد استحكم أمره توائبت البرابرة والعبيد على الاعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة وافترق شمل الجماعة بالاندلس وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة مثل ابن عباد باشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن أبى عامر ببلنسية وابن هود بسرقسطه ثم خرج على المستعين المذكور سنة (٤٠٧ ﻫ) شخص من القواد يدعى خيران العامرى وكان من أصحاب المؤيد وترك قرطبة لما ملكها المستعين هو و جماعة كبيرة من العامريين وكان اذ ذاك على ابن حمود العلوى يملك سبتة وأخوه القاسم بن حمود أميرا على الجزيرة الخضراء من الاندلس فلما رأى الامير على العلوى خروج خيران على المستعين عبر البحر ونزل مالقة وقدم عليه خيران وغيره من الثغور وكان أمر هشام المؤيد قد خفى عليهم منذ استولى سليمن على قرطبة فبايعوا على بن حمود المذكور على طاعة المؤيد ان ظهر خبره (٤٠٦ ﻫ) ثم قصدوا سليمن بقرطبة وقامت بينهم حروب أخذ فيها سليمن أسيرا فقتلوه هو وأخوه وأبوهما الحكم (٤٠٧ ﻫ) وملك بن حمود قرطبة وفتشوا فى القصر فلم يجدوا المؤيد فيه وكان اختفاء أمر المؤيد من أعظم الاسباب فى نوال ابن حمود الملك لانه عقب ذلك أشاع موت المؤيد ودعا الناس الى نفسه فبايعوه وتلقب بالمتوكل على الله وقيل الناصر لدين الله

أما خيران فانه لما لم يجد المؤيد خرج عن طاعة ابن حمود وترك قرطبة باحثا عن واحد من بنى أمية يبايعه الى ان حظى بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر وكان مستخفيا بمدينة جيان [(١)] فأخذه و بايعه ولقب بالمرتضى

خلافة عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨ - ٤١٢ ﻫ) لما بايع خيران ومن انضم اليه المرتضى اتفق على ذلك أيضا أكثر أهل الاندلس مثل أهل شاطبة و بلنسية [(٢)] وطرطوشه [(٣)] وغيرها فلما بلغ ذلك ابن حمود جمع الجموع بقصد الانطلاق اليهم وكان دخل الحمام قبل ذهابه ليغتسل فوثب عليه غلمانه (٤٠٨ ﻫ) وقتلوه وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر أما المرتضى فانه لم ينتظم أمره مع

(١) مدينة ببلاد الاندلس من اسبانيا قاعدة ولاية مضافة اليها وكانت فى مدة العرب زاهية زاهرة خصوصا بعد سقوط قرطبة وتسمى عند الفرنج (Jaen)

(٢) بلنسية كورة ومدينة مشهورة بالاندلس متصلة بحوزة كورة تدمير وهى شرقى تدمير وشرقى قرطبة وهى برية بحرية ذات أشجار وأنهار وتعرف بمدينة التراب وتتصل بها مدن تعد فى جملتها و بينها و بين تدمير أربعة ايام ومنها الى طرطوشه ايضا اربعة ايام ملكها الفرنج سنة (٤٨٧ ﻫ) واستردها الملثمون الذين كانوا ملوكا بالغرب قبل عبد المؤمن سنة (٤٩٥ ﻫ) واهلها خير اهل الاندلس يسمون عرب الاندلس بينها و بين البحر فرسخ و ينسب اليها جماعة وافرة من اهل العلم بكل فن وتسمى عند الفرنج (Valence) اﻫ

(٣) قال ياقوت مدينة بالاندلس تتصل بكورة بلنسية وهى شرقى بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة

كل ذلك لانه لما علم العسكر بقتل بن حمود دخلوا البلد ثانية و بايعوا مكانه أخاه القاسم بن حمود ولقبوه بالمأمون فبقى ملكا على قرطبة وغيرها الى سنة (٤١٢ هـ) وفى هذه السنة سار القاسم الى أشبيلية فخرج عليه يحيى بن أخيه ودعا الناس الى نفسه فأجابوه وخلع عمه وأقام بقرطبة حتى قفل عمه فنهض الى مالقة والجزيرة الخضراء واستولى عليهما (٤١٣ هـ) ودخل القاسم قرطبة وحصل بينه و بين أهلها قتال شديد دام نحو شهرين وأخيرا انتصر الاهلون وأخرجوه فتفرق عنه عسكره وانهزم الى شريش (١) فتبعه يحيى بن أخيه وقبض عليه وسجنه حتى مات بالسجن سنة (٤٣١ هـ) بعد موت يحيى المذكور ولما جرى ذلك خرج أهل أشبيلية عن طاعته وطاعة ابن أخيه يحيى وولوا عليهم قاضيهم أبا القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمى فانفرد بأمر أشبيلية وكانت ولاية القاسم نحو ثلاث سنين

عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤ هـ) لما انتصر أهل قرطبة على القاسم بن حمود وقع اختيارهم على رجل أموى اسمه عبد الرحمن بن هشام وهو هذا ولقبوه بالمستظهر الا أنه لم يمكث فى الملك طويلا لان محمد بن عبد الرحمن بن الناصر لدين الله ثار عليه بعد شهرين من خلافته فاتبعه الغوغاء وقتل بالمستظهر وتلقب بالمستكفى

محمد بن عبد الرحمن المستكفى (٤١٤ - ٤١٦ هـ) لما قتل المستظهر بالله بايعوا بالخلافة لمحمد هذا ولقبوه بالمستكفى فلم تطل مدته أيضا فأقام سنة وأربعة أشهر وخلع ففر ومات مسموما وهو والد الاديبة المشهورة ولادة بنت المستكفى وبعد ذلك لم يبايع أهل قرطبة أمويا مدة بل اجتمعوا على طاعة يحيى بن على حمود وكان بمالقة يخطب له بالخلافة ثم خرجوا عن طاعته (٤١٨ هـ) ثم قتل بعد ذلك يحيى المذكور فى حرب بينه و بين القاسم بن عباد حاكم اشبيلية (٤٢٧ هـ)

هشام بن عبد الرحمن الناصر المعتمد على الله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ) لما خرج أهل قرطبة عن طاعة يحيى العلوى بايعوا هشام بن عبد الرحمن ولقبوه المعتمد على الله وكان هشام بالثغر مقيما عند ابن هود وأقام مترددا فى الثغر ثلاثة أعوام ولما اشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف اتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة فقدم وأقام بها يسيرا ثم خلعه الجند (٤٢٢ هـ) فسار مخلوعا الى سليمن بن هود وأقام عنده الى أن مات (٤٢٨ هـ)

أمية بن عبد الرحمن (٤٢٢ هـ) لما خلع أهل قرطبة المعتمد على الله طلب أمية هذا البيعة فقالوا نخشى عليك أن تقتل فان السعادة تولت عنكم يا بنى أمية فقال بايعونى اليوم

مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعدى جملتها نحلها التجار و يسافر منها الى سائر الامصار استولى الفرنج عليها (٥٤٣ هـ) وكذلك على جميع حصونها وتسمى عند الفرنج (Tortose)

(١) مدينة باسبانيا من قسم الاندلس بمقاطعة قادس بالقرب من الشاطئ الايمن من الوادى الكبير بها آثار عربية وبهذه المدينة كان انتصار طارق على ملك القوط المدعو رودريك (لذريق) حيث قتل وتسمى عند الفرنج (Xerès)

واقتلوني غدا فبايعوه ثم لما اشتدت الفتن فى هذه السنة اختفى ولم يظهر خبره وقيل قتل وهو آخر خلفاء بنى أمية بالاندلس وبه انتثر سلك الخلافة بالاندلس وقامت الطوائف بعد الخلائف والبقاء لله وحده ومدة ملكهم كلها مائتان وأربع وثمانون سنة لان أول ملكهم بالاندلس كان سنة (١٣٨ هـ) وعدتهم ستة عشر خليفة وكانت دولتهم من أعظم الدول شأنا وأضخمها سلطانا كثرت جنودهم وامتدت سطوتهم وعلا ذكرهم وطار اسمهم وارتقت فى زمنهم المعارف والفنون والصنائع وعم الامن وانبسط الرخاء وكثرت الاموال يشهد بذلك العمائر والمبانى والمدن والدساكر التى شيدوها أو أصلحوها فانها بها من عجائب الصنعة ودقة النقوش وإحكام البناء ما يبهر العقول ولا يمكن أن تقوم به أمة من الامم الا اذا بلغت النهاية فى الارتقاء ومن أراد الوقوف على تفصيل أحوالهم فعليه بالمطولات ثم خانهم الدهر ومال عليهم الى أن سقطوا سنة الله فى عباده ولن تجد لسنته تبديلا

(الفصل السابع)

دولة العلويين بالاندلس

(٤٠٧ - ٤٦٠ هـ)

لا بأس أن نلم بعض الالمام هنا بدولة العلويين التى قامت بالاندلس لانها من الدول التى كان لها السلطان بهذه البلاد كما مر بك فنقول ان أول ملوكهم بالاندلس هو على بن حمود الادريسى كان دخوله الاندلس للسبب المتقدم ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله ومكث فى الحكم أقل من سنة ثم قتل فى الحمام كما علمت قتله بعض موالى بنى أمية باغراء منهم لانهم رأوا أن الخلافة ستذهب من أيديهم بوجوده وبعده بايع جماعة يحيى المعتلى وبايع جماعة عمه القاسم ولقبوه الواثق وانتشرت الفتنة بينه وبين عمه القاسم الى أن قبض على عمه (٤١٥ هـ) ثم حبسه ثم قتله (٤٢٧ هـ) وخلع يحيى المعتلى (٤١٧ هـ) وقتل (٤٢٩ هـ) اغتاله بعض أصحابه وعند خلعه استدعى أهل مالقة أخاه ادريس ولقبوه المتأيد وكانت وفاته (٤٣١ هـ) ولما قبض على القاسم لحق ولده محمد بالجزيرة الخضراء فتملك بها وتلقب بالمعتصم ومات (٤٤٠ هـ) وقام من بعده ولده القاسم بالمدينة المذكورة

وبعد يحيى المعتلى بويع ادريس بن الناصر على (٤١٩ هـ) واستمر الى أن توفى (٤٣١ هـ) وبويع بعده الامير يحيى وخلع (٤٣٢ هـ) ثم بايعوا حسن المستنصر العالى وخلع (٤٣٨ هـ) وبويع بعد خلعه محمد بن ادريس المهدى فزحف عليه العالى المخلوع ففر فبايعوا محمدا المستعلى بعد وفاة العالى (٤٤٦ هـ) وتغلب عليه باديس بن حبوس (٤٤٩ هـ) فسار الى مليلة فبايعه أهلها وكانت وفاته (٤٦٠ هـ) ثم اشتد الامر بالعلويين وصارت الخلافة أضحوكة لا اعتبار لها فكان يحكم فى بقعة من الارض لا تزيد عن ثلاثين فرسخا أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ثم انقسم ملك الاندلس الى طوائف الى أن استولى عليهم يوسف بن تاشفين كما سيأتى فى تاريخ دولة الملثمين عند الكلام على دول المغرب الاقصى ومدة حكم العلويين بالاندلس (٥٣)

وكان ملوك الطوائف يتباهون فى أحوال الملك حتى فى الالقاب فآل أمرهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمى وذلك بما فى جزيرتهم من أسباب الترف والخصب والغنى التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة وقد كان بنو حمود من ولد ادريس العلوى الذين توانبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية يتعاظمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس وكان اذا حضرهم منشد لمدح أومن يحتاج الى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقوله له الخليفة قال ابن شرف الشاعر

مما يزهدنى فى أرض أندلس * أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

ولنذكر أسماء ملوك الطوائف المذكورين الذين اقتسموا الاندلس قبل ظهور دولة يوسف ابن تاشفين فنقول كان باشبيلية (١) وأعمالها محمد بن عباد وأولاده من بعده وببطليوس وأعمالها محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده وبطليطلة وأعمالها ابن يعيش ثم اسماعيل بن ذى النون وبسرقسطة وأعمالها سليمن بن هود الجذامى وأولاده من بعده وبطرطوشة وأعمالها لبيب العامرى وببلنسية وأعمالها المنصور المغافرى وبالسهلة وأعمالها عبود بن رزين البربرى وبدانية (٢) وأعمالها الموفق العامرى وبمرسية (٣) وأعمالها بنو طاهر ثم

---

(١) أشبيلية مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة على شاطئ الوادى الكبير وهى المدينة الرابعة باسبانيا مبنية وسط سهل خصب جميل محاطة بسور من بناء الرومان به نحو ١٦٦ برجا وبها مبان فاخرة وآثار عظيمة وقصر من بناء العرب وهى من أقدم المدن استردها الملك سان فرديناند من المسلمين سنة (١٢٤٨ م) وقال ياقوت اشبيلية مدينة كبيرة عظيمة وليس بالاندلس اليوم أعظم منها وتسمى حمص أيضا وبها قاعدة ملك الاندلس وسريره وبها كان بنو عباد ولقاءهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة غربى قرطبة وبينهما ثلاثون فرسخا وكانت قديما فيما زعموا قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيهم الاعظم الى أن قال ويطل عليها جبل الشرف وهو جبل كثير الفواكه ومما فاقت به على غيرها من النواحى زراعة القطن فانه يحمل منها الى جميع بلاد الاندلس والمغرب وينسب اليها خلق كثير من أهل العلم وقال القزوينى إن من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى وأن المد يصعد فى نهرها ٧٢ ميلا وقال آخر بها أسواق وتجارات رابحة أما الشرف فهو تل عال من تراب أحمر مسافة ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان وبلغت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام (٣٥١٠٠) دينار وكان استيلاء بنى عباد على اشبيلية سنة (٤٢٤ ﻫ) ثم أخذها يوسف بن تاشفين سنة (٤٨٤ ﻫ) واستولى عليها عبد المؤمن سنة (٥٤١ ﻫ) بعد حصار وتسمى عند الفرنج Seville

(٢) دانية مدينة باسبانيا باقليم اليكانت حصينة واقعة على البحر المتوسط أسسها الفوسيون الذين أسسوا مرسيليا وكان بها هيكل على اسم المعبود ديان ومنها اسمها ولها تجارة واسعة قال ياقوت دانية مدينة بالاندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقا مرساها عجيب يسمى السمان ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز واهلها أقرأ أهل الاندلس لان مجاهدا العامرى أميرها كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا فى بلاده وتسمى عند الفرنج Dénia

(٣) مرسية مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة بالجنوب الشرقى من مدريد وهى مدينة جميلة فى مكان خصب جميل لطيفة المناخ وقد كانت قليلة الاهمية فى الازمنة القديمة ثم لما استولى عليها العرب حازت شأنا أعظم ما

استولى

استولى عليها ابن عباد وبالمرية (١) وأعمالها خيران العامرى وبمالقة (٢) وأعمالها بنو حمود وبغرناطة (٣) وأعمالها حبوس الصنهاجى

وبهذه الصفة تفرقت ممالك الاندلس بعد أن كانت مجتمعة لخلفاء بنى أمية وكان لكل هذه المدائن العظيمة قرى كثيرة وبساتين وضياع وخراجات وكل ملك من ملوكها تحت أمره أمراء وعمال وقد كان استرداد الاسبانيول لبلادهم من يد المسلمين بالتدريج شيأ فشيأ وذلك لما مال المسلمون الى الحضارة وسجدوا أمام هيكل الترف فأخذت ريحهم فى السكون وجسارتهم التى ضربت بها الامثال فى الانكماش بحيث قد صدق عليهم قول شارل مارتيل حينما فزع اليه سكان فرانسا يستشيرونه فيما يفعلونه مع العرب عند مهاجمتهم لبلادهم وقد سبق ذكر هذا القول فى صحيفة (٢٠٣) من هذا الكتاب وكان جرثومة هذا الخذلان والتقهقر البقية التى أبقاها المسلمون فى أول الفتح بناحية من شمالى اسبانيا لانهم لما استولوا على البلاد أجلوا عنها سكانها المعاندين لهم الى الشمال الامن بقى مسالما لهم كما هو المعلوم قال عيسى بن أحمد الرازى فى أيام عنبسة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية علج خبيث يقال له بلاى (Pélayo) – (Pélage) من واقعة أخذ النصارى بالاندلس وجد الفرنج فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك ولقد استولى المسلمون بالاندلس على النصرانية وأجلوهم وافتتحوا بلادهم حتى بلغوا اربونة من أرض الفرنج وافتتحوا بلبونة من جليقية ولم يبق الا الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له بلاى فدخلها فى ثلاثين رجلا وعشر نسوة ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيا المسلمين أمرهم واحتقروا بهم وقالوا ثلاثون علجا ما عسى أن يجى منهم فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا خفاء به وفى (١٣٣ هـ) أهلك الله تعالى بلاى المذكور وملك بعده ابنه الى أن قال واتصل ملكهم الى اليوم فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم اه

وكان أول ما استرده الفرنج من مدن الاندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بالله ابن المأمون بن يحيى فى مدة الفونس السادس ملك قشتيلة وليون بعد حصارها سبع سنين وقد نشأ

وبلغت درجة سامية لما تفرقت خلافة قرطبة واستردها الفونس العاشر ملك قشتالة من العرب سنة (١٢٦٥ م) وتسمى عند الفرنج Murcie

(١) المرية مدينة باسبانيا على شاطئ البحر المتوسط قاعدة عمالة مضافة اليها استردها فرديننذ الكاثوليكى من يد المسلمين سنة (١٤٨٩ م) وتسمى عند الفرنج (Almeria) قال ياقوت المرية مدينة كبيرة من كورة البيرة وكانت هى وبجانة بابى الشرق منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرسى السفن والمراكب يضرب ماء البحر سورها وتعمل بها الوشى والديباج فيجاد عمله ودخلها الفرنج من البر والبحر سنة (٥٤٢ هـ) ثم استرجعها المسلمون سنة (٥٥٢ هـ) وفيها يكون ترتيب الاسطول الذى للمسلمين ومنها يخرج الى غزو الافرنج وينسب اليها جماعة من أهل العلم اه

(٢) مالقة مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها وهى ثغر حصين على البحر المتوسط جنوبى مدريد وقد حسنها الاسبانيول حديثا ولا يزال بها الآن بستان عربية قديمة منها قلعة ودار صناعة يسميها الاسبانيول Atarzana وهو ولا شك محرف من لفظة ترسانة وبها أيضا مسجد لطيف وكل هذه الآثار متخربة الآن وبها أيضا مكان حصين من بناء العرب تسميه الاسبانيول Alcazaba أى القصبة وهى خربة أيضا وغير ذلك من المبانى العربية وهى مدينة واسعة التجارة وقد أسسها الفينيقيون وكانت مشهورة زاهية مدة القرطاجنيين والرومان وقد استردها الملك فردينند الكاثوليكى سنة (١٤٨٧ م) قال ياقوت مالقة مدينة عامرة بالاندلس من أعمال ريه سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية واصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد التجار والمراكب اليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشدونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها أى الرساتيق وقد نسب اليها جماعة من أهل العلم ويسميها الفرنج Malaga

(٣) غرناطة سيأتى ذكرها فى دولة بنى الاحمر

عن أخذها واقعة الزلاقة المشهورة ثم استولوا على بلنسية صلحا (٦٣٢ ه) والمرية عنوة بعد أن تملكها ابن الاحمر (٦٢٦ ه) واستولوا على شرقى الاندلس وأجلوا عنه العرب (٦٤٥ ه) وعلى قرطبة [1] (٦٤٥ ه) وعلى مرسية صلحا (٦٣٦ ه) ثم حاصر فرديناند ملك قشتيلة مدينة

---

(١) قرطبة مدينة ببلاد اسبانيا وقاعدة العمالة المضافة اليها واقعة ببلاد الاندلس على الشاطئ الايمن من نهر الوادى الكبير وهى مؤسسة على سفح جبال سيرامورينا وسط أراض خصبة جميلة هواؤها جيد للغاية وقد بلغت فى العز والحضارة مبلغا لم تبلغه مدينة أخرى بالدول الاسلامية غير بغداد وقد اضمحلت كثيرا بعد استيلاء الاسبانيول عليها ولها سور عظيم شاده الرومان ثم أكمله العرب وحصنوه وبها كثير من البساتين النضرة وكنيستها الكتدرائية الجميلة الشهيرة أصلها المسجد الجامع الذى أسسه عبد الرحمن الاول الاموى سنة (٧٩٢ م) وهى من أعجب المبانى وأفخرها طولها ٢٠٧ أمتار وعرضها ١٤٧ مترا وبها ٨٥٠ اسطوانة من المرمر النفيس والرخام الصقيل النادر الوجود ولها عشرون بابا وست عشرة قبة ومن مبانيها الباقية من آثار العرب القنطرة العجيبة التى على نهر الوادى الكبير المعروفة بالجسر التى أسسها عمر بن عبد العزيز وقلعة حصينة وبقايا قصر من قصور الخلفاء كان اتخذه الاسبانيول قصرا لجمعية التحكيم القسيسى وقد أسس الرومان هذه المدينة سنة (١٥٢ ق م) ثم استولى القوط عليها سنة (٥٧٢ م) ثم العرب سنة (٧١١ م) وكانت فى زمنهم عاصمة الخلافة الغربية وكان عدد سكانها يزيد اذ ذاك عن ٤٠٠٠٠٠ نفس وقد اشتهرت مدارسها شهرة عظيمة ببلاد أوروبا وخرج منها كثير من فحول العلماء فى كل فن وكان بها دار كتب تشتمل على أزيد من ٦٠٠٠٠٠ مجلد وغيرها من دور الكتب الخصوصية حتى قال بعض العلماء ان قرطبة أكثر بلاد الله كتبا وذلك ولا شك لاشتغال عامة أهلها بالعلوم و ٩٠٠ حمام عمومى و ٦٠٠ مسجد وكان استيلاء الاسبانيول عليها سنة (١٢٣٦ م) على يد الملك فرديناند الثالث ملك قشتالة وكان بهذه المدينة كثير من المعامل والمصانع خصوصا معامل الجلود والبسط وفيها يقول بعض علماء الاندلس

بأربع فاقت الامصار قرطبة ❊ منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ❊ والعلم أعظم شئ وهو رابعها

قال فى المسهب كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع أعلام الانام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل من المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة فى الرواية اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهى من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الانهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالازهار وقال السلطان يعقوب المنصور إن ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة الديار المنفسحة الكبيرة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة المشيدة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج الناضر والمحرث العظيم والشعراء الكافية والتوسط بين شرق الاندلس وغربها اه وكانت قبة الاسلام وحضرة الامام ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر وبحر درر القرائح ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر وبها أنشئت التاليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة والسبب فى تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لانواع العلم والادب قال ابن سعيد ولاهلها رياسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم الا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بامورهم وقال أيضا واتصلت العمارة بقرطبة أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضا وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير الى أن قال ولم تزل قرطبة فى الزيادة منذ الفتح الاسلامى الى سنة أربعمائة فانحطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن الى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو لها سنة (٦٢٣ ه) قالوا وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر الى ثلاثة آلاف ألف دينار وقد أسس بها الخلفاء من المبانى الضخمة والقصور المنيفة والمساجد العظيمة ما سارت بها الركبان الى كل البلدان خصوصا ما شيد منها بها عبد الرحمن الناصر وقد اتى على ذكرها صاحب نفح الطيب قال ابن حوقل التاجر الموصلى وكان طرق تلك البلاد وأهل قرطبة متمولون متخصصون وأكثر ركوبهم البغلات من

اشبيلية الى أن فتحها (٦٤٥ ه) بعد أن حاصرها سنة وخمسة أشهر ثم بعد ذلك انحاز المسلمون الى غرناطة والمرية ومالقة وغيرها وضاق الملك بعد اتساعه وبقوا هنالك الى أن حصل لهم ماسنقصه عليك ملخصا فى تاريخ بنى الاحمر

أما بنو الاحمر ملوك الاندلس فكانت دولتهم بعد ملوك الطوائف ولما كانت دولتهم من أكبر دول ملوك الطوائف ولها مع الاسبانيول وملوك المغرب الاقصى وقائع شهيرة أردنا ذكرها هنا مفصلة بعض التفصيل ليكون المطالع على بصيرة من تسلسل الحوادث الاندلسية فنقول

(الفصل الثامن)

دولة بنى الاحمر

(٦٢٩ - ٨٩٧ ه)

كانت هذه الدولة آخر دولة اسلامية ببلاد الاندلس ومنها استرجع الاسبانيول ما كان بقى بيد المسلمين باسبانيا وباستيلاء الاسبانيول على ملك بنى الاحمر انقرضت الدولة الاسلامية من اسبانيا

وأصل بنى الاحمر هؤلاء من ارجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببنى نصر وينسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان أول أمرهم فى آخر دولة الموحدين بنى عبد المؤمن وكانوا قبل ذلك تحت أمرهم وذلك أنه لما فشل الموحدون وضعف أمرهم وكثر الثوار بالاندلس وتنازل ملوكه عن حصونه للعدو استقل بأمر الجماعة هنالك محمد بن يوسف الثائر بمرسية وقام بدعوته للعباسيين وتغلب على شرقى الاندلس جميعه عند ذلك خرج الشيخ محمد بن يوسف بن نصر ابن الاحمر على ابن هود فبويع له (٦٢٩ ه) على الدعاء للامير أبى زكريا الحفصى صاحب افريقية حين بويع بالخلافة وأطاعته جيان وشريش (٦٣٠ ه) وكان محمد الشيخ يلقب بابى دبوس وقد استظهر على أمره أولا بقرابته من بنى نصر وباصهاره بنى اشقيلولة ثم بعد ذلك بايع محمد الشيخ لابن هود (٦٣١ ه) عند ما وصله كتاب الخليفة البغدادى ثم ثار باشبيلية أبو مروان الباجى عند خروج ابن هود عنها وعودته الى مرسية فراسله محمد بن الاحمر فى الصلح على أن يزوجه من ابنته فأطاعه ودخل اشبيلية (٦٣٢ ه) ثم فتك بالباجى وقتله ثم ان أهل اشبيلية دعوا لابن هود وأخرجوا ابن الاحمر عنهم فتغلب على غرناطة (٦٣٥ ه) بطلب أهلها ثم استولى أيضا على جيان وغيرها وكان الفونس ملك قشتالة قد تغلب على النواحى بعد هزم جيوش ابن الاحمر ثم تغلب على قرطبة (٦٣٣ ه) ثم نازل اشبيلية (٦٤٦ ه) ومعه ابن الاحمر فدخلها صلحا بعد سنتين من حصارها واستولى أيضا على طليطلة وشلب وطلبيرة (٦٥٩ ه) ثم ملك مرسية (٦٦٥ ه) ولم يزل العدو

خورهم وجبنهم أجنادهم وعامتهم ويبلغ ثمن البغلة عندهم ٥٠٠ دينار وأما المائة والمائتان فكثير لحسن شكلها وألوانها وقدودها وعلوها وصحة قوائمها اه وتسمى عند الفرنج Cordoue وعند الاسبانيول Cordoba ومنه الاسم العربى

يستولى على الاندلس شيأ فشيأ الى ان الجأ المسلمين الى سيف البحر ما بين رندة غربا والبيرة شرقا ولم يبق للمسلمين غير سيف البحر البالغ عرضه مرحلة ولما رأى ابن الاحمر ذلك تفكر فى الامر مليا وأخذ فى الاستعداد طمعا فى استرجاع جزيرة الاندلس فلم يمكنه ذلك وتلاحق به غزاة من زناتة وتوجين ومغراوة وبنى مرين وكان أعلاهم كعبا وأكثرهم غزوا بنى مرين وفى (٦٠٦ هـ) عقد للغزاة يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب وأجازهم فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل فتقبلهم ابن الاحمر مسرورا وتمكن بهم من دفع العدو واسترداد بعض الحصون والمدن وكانت وفاة محمد بن يوسف ابن الاحمر (٦٧١ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه محمد الفقيه وكان عالما فقيها فاضلا أوصاه أبوه قبل موته باستصراخ زناتة من بنى مرين ملوك المغرب وان يوثق بهم عهده وفى (٦٧٢ هـ) أجاز محمد الفقيه الى يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين عندما تم له الاستيلاء على بلاد المغرب والتغلب على مراكش مستصرخا فأجاب صريخه وأجاز عساكر المسلمين من بنى مرين وغيرهم الى الجهاد ثم أتى هو على أثرهم واستولى على الجزيرة الخضراء وكانت لابن هشام أحد الثوار فنزل بها وجعلها مركزا بالجهاده ومقرا لجيشه ثم استبد ابن الاحمر بملك ما بقى من الاندلس وأورثه عقبه واستولى على جميع ما بأيدى المسلمين من ملكها مثل الجزيرة الخضراء وطريف ورندة التى كانت بيد بنى مرين وكانت وفاة الفقيه (٧٠١ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه محمد الملقب بالمخلوع وكان ضعيف العزيمة استبد عليه وزيره ابن الحكم اللخمى من مشايخ رندة فحجره واستولى على أمره الى أن ثار به أخوه أبو الجيوش نصر فقتل الوزير المذكور واعتقل أخاه (٧٠٨ هـ) وكان أبوهما محمد الفقيه استعمل على مالقة الرئيس أبا سعيد ابن عمه اسمعيل بن نصر وطالت فيها امارته وهو الذى تملك سبتة وغدر ببنى العزفى بها على عهد المخلوع وبدعوته وكان أصهر اليه بابنته وكان له منها ابنه الوليد اسمعيل فلما استولى أبو الجيوش على غرناطة واستبد بسلطانها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وكان بنو ادريس بن عبد الله ابن عبد الحق أمراء على الغزاة بمالقة وكان كبيرهم عثمان بن أبى العلاء فداخل أبا الوليد فى الخروج على السلطان أبى الجيوش نصر وتناول الامر لضعفه وضعف بطانته وأقربائه فعزم أبو الوليد على ذلك واعتقل أبا الجيوش وبايعه الناس وثار بمالقة (٧١٧ هـ) الرئيس أبو سعيد فزحف اليه من غرناطة أبو الوليد وهزم عساكره وثار أهل المدينة بأبى سعيد وأحيط به وصالحهم على الخروج الى وادى آش فلحق بها وجدد بها ملكا الى أن مات سنة (٧٢٢ هـ) أما أبو الوليد فانه دخل غرناطة وأثل بها لنفسه ولبنيه ملكا جديدا وسلطانا فسيحا ونازل الفونس بغرناطة سنة (٧١٨ هـ) فكسر جيشه وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم تردد على بلادهم مرارا كثيرة غازيا وقد بلغ أبو الوليد من الغزو والشوكة مبلغا عظيما ثم غدر به بعض قرابته (٧٢٧ هـ) طعنه غدرا عندما انفض مجلسه بباب داره

وقام بالامر من بعده محمد بن الاحمر وفى زمنه حدث اضطراب بمملكة غرناطة فتقوى الاسبانيول من ذلك وعزموا على مهاجمة الثغور فاستصرخ ابن الاحمر بالسلطان أبى الحسن المرينى فجهز له العساكر (٧٣٣ هـ) ثم استراب بنو أبى العلاء رئيس الغزاة وزناتة بمداخلة

أبي الحسن فتشاوروا في أمر محمد وغدروا به يوم رحيله عن الجبل الى غرناطة وقتلوه طعنا بالرماح (٧٣٣ هـ)

ولما قتل محمد قدم بنو أبي العلاء أخاه أبا الحجاج يوسف ولما أخذت له البيعة واستقر في الملك سعى في الاخذ بثار أخيه فنكب بني أبي العلاء وغربهم الى تونس وقدم على الغزاة يحيى بن عمران بن عبد الحق ثم استدعى السلطان أبا الحسن لان طاغية الاندلس لما رأى اشتغال السلطان بقتال أهل تلمسان اعتز على المسلمين ونازل ابن الاحمر بغرناطة مرارا ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على قتاله فأجاز السلطان ابنه أبا مالك عندما تم له فتح تلمسان وأوعز اليه بالدخول الى دار الحرب وعقد له على كثير من زناتة والمتطوعة فخارب الاسبانيول وتوغل في بلادهم وأكثر القتل والسبي وغنمت عساكره غنائم وافرة وعند منصرفه دهمه الاعداء بجنود كثيرة لعدم تبصره بالحروب وأدركوه قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وقتلوا كثيرا من قومه واحتووا على معسكره وما فيه من الاموال ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن شرع في اجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل ثم بعد أن أزاح علل الجنود ارتحل الى سبتة فتسامعت أمم الاسبانيول باستعداده فاستعدوا هم أيضا للدفاع وأخرج أيضا طاغية الاسبانيول أسطوله الى بحر الزقاق لمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدوة وبعث الى ملوك بني حفص بأفريقية بتجهيز أسطولهم اليه فبعثوا اليه عشرين أسطولا مملوءة بالعساكر وتوافت الاساطيل بسبتة فكانت تزيد عن المائة ثم أقلعوا نحو أسطول الفرنج الذي بالزقاق فهزموه شر هزيمة واستلحموا جنوده بالسيف وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم الى سبتة فعظم الفتح وكثرت الغنائم والاسرى واستبشر السلطان بذلك ثم لما استكملت اجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع حاشيته (٧٤١ هـ) ونزل على مدينة طريف وكانت بيد الاسبانيول فأحاط بها عساكره ووافاه بها ابن الاحمر بعسكر الاندلس ثم استعد ملك الاسبانيول وبث أساطيله في بحر الزقاق ووافاه المدد من بلاد البرتقال ولما انتشب القتال كان للعدو جيش كمين خلف عسكر المسلمين فخرج عند انتشاب القتال وعمد الى محلة السلطان فانتهبها بعد أن قتل من بها من الحراس والخدم والنساء ثم أضرموا النار بالمحلة فلما أحس المسلمون بذلك ظنوا ان قد أحيط بهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم وكثر فيهم القتل والاسر وفر السلطان ناجيا بنفسه ولحق ابن الاحمر بغرناطة كرسي مملكته ثم ان الطاغية طمع في المسلمين بعد ذلك ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها فاستولى عليها بعد أن حاصرها ومنع القوت عن حاميتها (٧٤٢ هـ)

اما السلطان أبو الحسن فانه لما عاد الى مملكته كان يحدث نفسه بالعودة الى الجهاد فبعث في المدائن حاشرين للاستنفار وأخرج قواده الى سواحل البحر لتجهيز الاساطيل حتى كمل منها عدة وافرة ثم ارتحل الى سبتة لمشارفتها وأرسل الجنود الى الجزيرة الخضراء مع وزيره ولما بلغ الطاغية ذلك جهز أساطيله وسيرها الى بحر الزقاق ثم أقبل الطاغية من أشبيلية في جنود عديدة وأناخ على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين مؤملا أن يستولى عليها كما استولى على طريف وأقبل السلطان أبو الحجاج بن الاحمر بعساكر الاندلس ومع ذلك لم يفلح المسلمون في هذه الحرب واشتد الحصار على حامية الجزيرة الخضراء وأصابهم الجهد فسألوا من الطاغية الامان على ان ينزلوا عن البلد فبذل لهم الامان وخرجوا فوفى لهم وأجازهم الى المغرب (٧٤٣ هـ) فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاده

خير منزل وأكرم مثواهم ثم مات ابن الاحمر مقتولا طعنه أسود مدسوس عليه في الصلاة يوم عيد الفطر سنة (٧٥٥ ﻫ)

وقام بالامر من بعده ابنه محمد الغني بالله واستبد عليه رضوان الحاجب فقام بأمره وغلب عليه وحجبه وكان اسمعيل أخوه مسجونا ببعض قصور الحمراء وكانت له ذمة ومصاهرة مع أبي يحيي محمد ابن عبد الله بن اسمعيل بن محمد بن الرئيس أبي سعيد بن الاحمر وجده محمد هو الذي دعاه عثمان أبو العلاء للملك كما تقدم فدخل أبو يحيي الرئيس بالحيلة الى رضوان وقتله وأخرج صهره اسمعيل ونصبه للملك (٧٦٠ ﻫ) أما محمد الذي خلع فلحق بوادي آش وسار الى السلطان أبي سالم المريني ولحق به كذلك رئيس الغزاة يحيي بن عمر لخوفه على نفسه فأكرمهما أبو سالم غاية الاكرام وقام أبو يحيي الرئيس بأمر اسمعيل ودبر ملكه ثم دبت بينهما السعايات فآل الامر الى ان غدر أبو يحيي باسمعيل وقتله هو وجميع اخوته (٧٦١ ﻫ) واستبد بملك الاندلس ونكث العهود التي كانت بين أسلافه وملك الاسبانيول وامتنع عن دفع الجزية المرتبة له فأتى ملك الاسبانيول لحربه فانتصر عليه المسلمون انتصارا باهرا بوادي آش وكان أبو سالم ملك بني مرين أرسل الى ملك الاسبانيول في أمر محمد المخلوع ورده الى ملكه فوعده بالمساعدة ثم أجازه اليه فلقيه بالاكرام وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون المسلمين لانه نقض عهده وخالف قوله ففارقه المخلوع ورجع الى بني مرين ثم تمكن المخلوع من مدينة رُنده وزحف منها الى مالقة (٧٦٥ ﻫ) فافتتحها وفر الرئيس أبو يحيي من غرناطة ملتجئا الى ملك الاسبانيول ثم تقدم السلطان محمد المخلوع فيمن انضم اليه ودخل غرناطة بعد أن قتل حاجب الرئيس المذكور واستولى على ملكه وقدم على الغزاة يحيي بن عمر الذي كان معه واختص ابنه عثمان ثم نكبهما بعد سنة وقد علا اسم هذا السلطان وامتد نفوذه وسادت كلمته حتى دخل بنو مرين في طاعته وصار هو الذي يوليهم ويعزلهم وارتفع شأنه وقوى سلطانه حتى فاق ملوك عصره واسترجع من يد الاسبانيول كثيرا مما كانوا أخذوه من أسلافه بجيان وأبده وغيرهما من المعاقل وكان له في الجهاد مواقف مشهورة ودخل قرطبة فعاث في نواحيها وخربها ورجع ظافرا غانما ومنع الجزية التي كانت تحمل للملوك الاسبانيول بعد أن قهرهم ولما رأى الاضطرابات بين أمراء الاسبانيول اغتنم تلك الفرصة وقوى ثغور بلاده وهو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب المشهور ولما تشوق الى استرجاع الجزيرة الخضراء الى ملكه كاتب ملك مراكش وفاس وكان يومئذ السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن واتفقا على ان يزحف ابن الاحمر بعساكره ويمده ملك المغرب بالمال والاساطيل لتعذر جمع العسكر عليه اذ ذاك وأوعز صاحب المغرب الى أساطيله فعمرت وسارت وبعث فيها مالا كثيرا وذخائر وافرة ثم زحف ابن الاحمر وحاصر الجزيرة ولما أيقن سلطانها وحاميتها بالهلكة لبعدهم عن الصريخ سألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد (٧٧٠ﻫ) ولم تزل الجزيرة تحت نظره الى أن رأى من المصلحة هدمها خشية استيلاء الفرنج عليها فهدمت (٧٨٠ ﻫ) وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس وكانت وفاة الغني بالله (٧٩٣ﻫ) ومن بعده ضعف ملوك بني الاحمر

وقام بالامر من بعده ابنه يوسف وفي زمنه اختلت دولة بني الاحمر واستولى الفرنج على كثير من مدنهم وقراهم وحصونهم وجرت فتن وخطوب بين بني الاحمر يطول شرحها وتضعضعت أيضا

أركان دولة بني مرين وخرج عليها الثوار من كل ناحية واستطال الاسبانيول والبرتقال على مدن المغرب الساحلية فاستولوا على بعضها وما زال أمر بني الاحمر في تناقص وسطوتهم في انكماش الى أن كانت دولة السلطان أبي الحسن علي منهم فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل لانه لما قدم من بلاد الاسبانيول وكان التجأ اليهم وتمت له البيعة بمالقة ومكث بها مدة اشتد الخلاف وعظمت الفتن بما هو حاصل بين هذين الاخوين عند ذلك وجد العدو فرصة الى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ ذمتهم (٨٨٠هـ) وفي آخر الامر انقاد أبو عبد الله لابي الحسن بتوسط رجال الاسلام فسكنت أحوال الاندلس بعض السكون ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وانضم اليه كثير من أهل الاندلس وأشياخها ولما أسره الاسبانيول في بعض الوقائع تراجع الناس الى طاعة أبي الحسن ثم نزل لاخيه أبي عبد الله الزغل عن الامر لما كف بصره ثم ان ملك الاسبانيول عمد لاسيره أبي عبد الله بن أبي الحسن فوعده ومناه كذبا وبهتانا وأرسله للتشغيب على عمه طلبا لتفريق دولة بني الاحمر وأمده بالمال والرجال كي يتم له بذلك ما يريد من الاستيلاء على مملكة المسلمين في تلك الاطراف ثم طالت الفتنة بين العم وابن الاخ وافترق الناس فرقا واضطرب الحبل فكان ذلك من أعظم الاسباب التي أعانت الاسبانيول على التمكن من مملكة غرناطة والتهامها ثم ان ابن الاخ استولى على غرناطة بينما خرج العم عنها لمحاربة الاسبانيول وكان ذلك سببا في خذلان العم الذي احتمى بوادي آش ثم أتى الاسبانيول وحاصروا مالقة ولما لم يجد أهلها مقدرة على القتال نزلوا على الامان فاستولى العدو عليها في أواخر شعبان (٨٩٢هـ) ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها وأصلها ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد أن استهوى العدو قواده بالاموال الجزيلة ثم ان ملك الاسبانيول وهو فرديننـد الكاثوليكي راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد في أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه وله الخيار في أي بلاد الاندلس شاء ولما شاور رعيته اتفق الناس على الامتناع ومحاربة العدو بكل الممكنات ولما علم الاسبانيول بذلك ضاعفوا استعداداتهم وقووا جيوشهم وعزموا على منازلة غرناطة بعد أن استولوا أثناء هذه الفتن على حصون كثيرة بحيث لم يبق لبني الاحمر الا غرناطة وأعمالها وفي (٨٩٦هـ) أقبل العدو الى خارج غرناطة بالعدد والعدد وكان جيشه ستين ألفا من جيوش قشتاله وأراغون غير المدد الكثير الذي أمدته به أوروبا فأفسد الزرع وقطع الاشجار وهدم القرى وكان الناس في أول الامر يظنون أنه عازم على الانصراف فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين ومع ذلك كان الاسبانيول على بعد من المدينة والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال (٨٩٧هـ) ثم طمع العدو في غرناطة [1] بسبب الجوع والغلاء دون

(١) غرناطة مدينة اسبانيولية بقسم الاندلس قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة عند ملتقى نهر شنيل بنهر دارو وسط سهل واسع خصب وبكنيستها قبر الملك فرديننـد الكاثوليكي وزوجته ايزابيلا وهو الذي فتح هذه المدينة من يد بني الاحمر كما تقدم في تاريخهم وكان تأسيس هذه المدينة في القرن العاشر قبل الميلاد وكان يحمي هذه المدينة وقت محاصرة

الحرب والقتال وفر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع الناس مع من يشار اليه من أهل العلم والوجاهة وتكلموا مع السلطان أبى عبد الله وان العدو يزداد كل يوم وهم لا مدد لهم ولا طعام يأتيهم وكانوا يظنون انه ينصرف عنهم فخاب ظنهم فاتفق الرأى بعد أخذ ورد على ارتكاب أخف الضررين وشاع ان الكلام فى الصلح وقع بين رؤساء الجندين فاتفقوا على شروط عقدت بها الطرفين بين (٢) الوثائق ثم قرئت على أهل غرناطة فانقادوا لها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتاله فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء وذهب بعد ذلك الى مراكش فأقام بمدينة فاس فى سلطنة السلطان محمد الشيخ الوطاسى كماذكر فى دولة الوطاسيين ولما دخل الاسبانيول المدينة عينوا لها حكاما ومقدمين من طرفهم ثم دخل أهل البشرات أيضا فى هذا الصلح وبقى الاسبانيول يراعون الشروط التى اشترطوها على أنفسهم مدة

فردينند وايزابيلا لها سور يحصنها به ألف وثلاثون برجا وكان بها من السكان ما يربو على أربعمائة ألف نفس وكان بها معامل كثيرة لصناعة الاقمشة الحريرية الفاخرة وبعد ان استردها الاسبانيول وطردوا المسلمين منها نهائيا سنة (١٦٠٩ م) فقدت ما كان لها من الاهمية التجارية والصناعية التى كانت حازتها مدة الاسلام ومن الآثار العربية الباقية بهذه المدينة قصر الحمراء وكان مسكنا لملوك بنى الاحمر وكان غاية فى الجمال والزخرفة قال بعض علماء الفرنج انه ليس فى امكان العقل الانسانى ان يتخيل أو يبدع أحسن من النقوش والاصباغ التى احتوى عليها قصر الحمراء قال القلقشندى أما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء أكابر وشعراء أفاضل ولو لم يكن لها الا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها اه ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل اليها أهلها فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود وفى قبليها جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وينسب اليها كثير من أهل العلم ولو لم يكن منها الا لسان الدين بن الخطيب لكفاها فخرا وقال ياقوت غرناطة وقيل أغرناطة قال الانصارى وهى أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الاندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلوم فى القديم ويعرف الآن بنهر حدّارة يلقط منه سحالة الذهب الخالص وعليه أرحى كثيرة فى داخل المدينة وقد اقتطع منه ساقية كبيرة تخترق نصف المدينة فتعم حماماتها وسقاياتها وكثيرا من دور الكبراء وتسميها الفرنج (Grenade) والاسبانيول (Granada)

(٢) الشروط كانت سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعته وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وان لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وان لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وان يفتك جميع من أسر فى غرناطة حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ومن أراد الجواز الى العدوة لا يمنع ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب ويتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركنا ذكره اه

قليلة

قليلاً الى أن تمكن قدمهم وعلموا أن لاناصر للمسلمين تعدلوا عن مراعاة تلك الشروط وأذاقوا من بقى من المسلمين فى تلك البلاد أنواع الاضطهادات خصوصاً المشكلة المحكمة المعروفة بمحكمة التحرى القسيسى (انكيزسيون) فكان لها من القسوة ما يخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية وهذه المحاكم كان أمر الباباوات بانشائها الحديثة الدين ظاهراً والسياسة باطناً ولكن الاسبانيول أضافوا عليها أعمال البربرية وحشية وأحرقوا وهدموا وغيروا وبدلوا جميع آثار المسلمين بتلك الاطراف حتى لم يبق لهم الآن بتلك البلاد من الآثار الا ما حفظته الايام وبخروج المسلمين من اسبانيا طوعاً وكرهاً رجعت تلك البلاد الى حالتها القديمة من التأخر والانحطاط اذ فارقها علماء العرب وأرباب الصنائع والمهارة فيهم وانحطت درجتها وقل سكانها فتعطلت الايدى عن الزرع كما أنهم لما هاجروا الى شمالى افريقية خصوصاً أدخلوا الى تلك البلاد كثيراً من أنواع الحضارة ونزلوا بالوديان الخالية والبرارى المقفرة فصيروها فى قليل من الزمن جنة فيحاء وروضة غناء قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير

الباب العاشر

ممالك المغرب

﴿ الفصل الاول ﴾

مراكش والجزائر وتونس وطرابلس

مملكت مراكش

اعلم ان لفظ المغرب يطلق فى عرف أهله على ناحية من الارض معروفة بعينها يحدها من جهة الغرب المحيط الاطلانطيقى أو بحر الظلمات ومن جهة المشرق بلاد برقة وما خلفها الى الاسكندرية ومصر فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار وبلاد طرابلس وما دونها الى جهة البحر المحيط داخلة فيه ويحدها من جهة الشمال البحر الرومى المعروف بالبحر المتوسط الابيض ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر وهى المعروفة عند علماء الجغرافيا بالصحراء الكبرى وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق

وكانت هذه البلاد قديماً تسمى بلاد البربر واستعمر الفينيقيون قسماً منها وهو بلاد قرطاجنة (٨٨٦ ق م) ثم قويت شوكة قرطاجنة فيما بعد وصارت خصماً عنيداً للدولة الرومانية ثم استولى عليها الرومانيون وعلى جميع شمالى أفريقية وفى (٤٢٨ م) دخل اليها الوندال من إسبانيا وتملكوا هنالك ثم استفتحها المسلمون ولما ضعفت قوة العرب فى تلك النواحى استنجدوا بالعثمانيين فأنجدوهم ومن ثم انقسمت الى أقسام شتى خاضعة للدولة العثمانية ومازالت كذلك حتى قويت فيها الولاة والعمال واستقلوا فى بلادهم وسيأتى الكلام على ذلك مفصلاً فى أبوابه

ثم ان بلاد المغرب كان يقسمها العرب فى صدر الاسلام الى ثلاث ممالك مملكة أفريقية وهى المغرب الادنى وكانت قاعدتها فى صدر الاسلام مدينة القيروان وسمى أدنى لانه أقرب الى بلاد

العرب ودار الخلافة ومملكة المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بنى مزغنان أومزغنة ومملكة المغرب الاقصى وسمى أقصى لانه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة ويقال لهذين القسمين بر العدوة لانه يعدى من فرضهما الى بلاد الاندلس أما الآن فتنقسم بلاد المغرب الى أربع ممالك وهى طرابلس وقاعدتها طرابلس وتونس وقاعدتها تونس والجزائر وقاعدتها الجزائر ومراكش وقاعدتها فاس أومراكش

سكان هذه البلاد القدماء — كان العرب يطلقون على كل القبائل التى كانت مواطنها بلاد المغرب بافريقية على حدود المملكة الرومانية القديمة لفظ بربر قيل ان هذا الاسم مأخوذ من لفظ باربارى الذى كان القدماء يسمون به القبائل الغريبة ولم يكن فى الاصل مختصا بامة واحدة ولفظة فارفاروس اليونانية كلفظة بيلبوس اللاتينية مأخوذة من اللفظ أوالصوت الذى يصدره الالثغ ثم صار علما عند اليونان يراد به كل من لم يتكلم بلغتهم ولهذا سموا ايطاليا بربارياثم أطلق الرومان هذه الكلمة على كل الطوائف التى ليست يونانية ولا تليانية ولما أخضع الرومان الشعوب المختلفة كانوا يطلقون لفظ رومانى على كل تبعتهم من أى طائفة واسم بربرى على من لم يخضع لهم ولذلك سموا كل البلاد التى لم تخضع للرومان أوخضعت ثم عصت باسم باربريكوم أى بلاد البربر ولما كان مركز الغرب الجغرافى يسمح لهم باتصالهم بأهل أفريقية الشمالية جاروا الرومان على التسمية المذكورة وسموا سكان شمالى أفريقية باسم بربر

أما ابن خلدون فقال ان اسمهم مأخوذ من رطانة لغتهم وان أفريقش بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وأفريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار باسمه كما زعموا وسميت أفريقية سمع رطانة هذا الجيل من الاعاجم وعى اختلافها وتنوعها فتعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر وقيل غير ذلك أما مواطن هؤلاء البربر فقال ابن خلدون انها المغرب القديمة قال ملؤا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظعن أهل الغز ومنهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ولا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الملس ومكاسبهم الشياه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان من نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ولغتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها وقال غيره ان هذا الاسم لم يكن مخصوصا بهم بل كانوا يعرفون باسم مازيغ ومعناه عندهم حر أوسيد

وقال شهاب الدين الفاسى انه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستفتحت مصر وكان عليها عمرو بن العاص قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤس واللحى فقال لهم عمرو ما أنتم وما الذى جاء بكم فقالوا رغبنا فى الاسلام لان جدودنا قد أوصونا بذلك فوجههم عمرو الى عمر رضى الله عنه وكتب اليه يخبرهم فلما قدموا عليه وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان

عمر فقال لهم من أنتم قالوا نحن بنو مازيغ وقد ذكر كثير من مؤلفي الفرنج وغيرهم ان مازيس أمة كانت تسكن هذه الجهات

وقال ابن خلدون وأما شعوب هذا الجيل و بطونهم فان علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومازغيس و يلقب مازغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر و يقال لشعوب برنس البرانس وهما معا أبناء بر وشعوب البرانس يجمعهم سبعة أجذام وهي أزداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأدريغة وزاد بعضهم لمطة وهسكورة وكرفلة وقد تناسل من هذه الاجذام بطون كثيرة وقسمهم ابن رشيق الى خمس قبائل وهي غمارة وهوارة وزناتة وصنهاجة ومصمودة

وكان الرومان يقسمونهم كذلك وهذه القبائل تنقسم الى أكثر من ستمائة بطن ونخذ أمام جمع أنساب هذه الامة فقد اختلف فيه المؤرخون قالوا انهم من العرب وقيل ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق وانهم من بقية قوم جالوت الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت فلما قتل جالوت دخلوا المغرب فخلوا في جبالها وقاتلوا أهلها ثم صالحوهم على شيء يأخذونه منهم من أهل البلاد وقيل لما قتل طالوت وكانت منازلهم في فلسطين تفرقوا في البلاد ونقلهم أفريقش من سواحل الشام وأسكنهم أفريقية وسماهم بربرا وقيل غير ذلك مما يطول شرحه والارجح على ما ذكر مؤرخو اليونان والعرب واليهود أنهم من فلسطين أو جالية هاجرت من آسيا على طريق أفريقية الى المغرب وقد أنكر ابن خلدون كل هذه الاقوال وقال انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وان اسم أبيهم مازيغ وكان البربر قبل الاسلام دينهم المجوسية شأن الاعاجم كلها بالمشرق والمغرب الا في بعض الاحيان يدينون بدين من تغلب عليهم من الامم فان الدول العظيمة كانت تتغلب عليهم وغزتهم ملوك اليمن مرارا فدانوا بدينهم ولما غزاهم أفريقش اختطوا على الارياف مدنا عظيمة وثيقة المباني شهيرة الذكر خربها المسلمون عند الفتح وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ماشاء الله في قوة وعدة وعدد وملوك و رؤساء وأقيال وأمراؤها لا ينالون بذل ولا ينالهم الروم والفرنج و ربما كان بعض هؤلاء البربر يتدينوا بدين اليهودية عند استفحال ملك بني اسرائيل لقرب الشام وسلطانه منهم فلما نجم ادريس الاكبر بالمغرب محا جميع ما كان في نواحيه من بقايا الاديان وقد نال عمال خلفاء بني أمية من هؤلاء القبائل مشقات عظيمة وطالما خرجوا على الخلفاء وقتلوا الجيوش ونهبوا الامصار مما هو مذكور في المطولات وانتشرت بينهم النحل والبدع فتدينوا بها ومالوا اليها كما ستقف على بعضه ولما ظهرت الدولة العبيدية (٢٩٦ هـ) بظهور أبي عبد الله الشيعي كان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بافريقية وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلا بعد آخر داعين تارة للامويين بالاندلس وتارة للعباسيين بالمشرق الى أن استقلوا بالدعوة لأنفسهم كما سيأتي عند ذكر كل دولة من دولهم

أما أخلاقهم فقال ياقوت البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم الى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا وكم زاعم فيهم انه المهدي الموعود به فاجابوا

دعوته ولمذهبه انضلوا وكم ادعى فيهم مذهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرمة واستباحوا المنكرات ونهبوا الاموال وغير ذلك من القبائح

الفصل الثاني

دولة المغرب الاقصى أو مراكش

وصفها الطبيعي

هذه البلاد واقعة بين الدرجة ٢٨ و ٣٦ من العرض الشمالي والدرجة ٣ و ١٤ من الطول الغربي وتحد شمالا بالبحر المتوسط الابيض ومضيق جبل طارق وغربا بالمحيط الاطلانطيقي ومن الجنوب الشرقي بالصحراء الكبرى ومن الشمال الشرقي بوادي ملوية وجبال تازة ويبلغ مسطحها ٨١٥٠٠٠ كيلومترا مربعا ويزيد عدد سكانها عن ثمانية ملايين وهم أخلاط بين عرب وبربر وعبيد أما البربر فهم من المصامدة وعوالم من صنهاجة ومضغرة واوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة الى المصامدة ويساكنهم فيها أيضا عالم من العرب أهل الخيام انتقلوا من جزيرة العرب الى افريقية ثم انتقلوا من أفريقية اليها أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون في نسبهم الى رياح وجشم فأما رياح فهم من بني هلال بن عامر بن صعصعة وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهي نسبهم الى مضر ويضاف اليهم قبائل أخرى

وتخترقها من الغرب الى الشمال جبال أطلس التي من ضمنها جبل درن وهو أرفعها ويرويها عدة أنهار منها نهر ملوية وسبو وتنصيف ودرعة وغيرها وهي حارة المناخ صيفا في الاودية والسهول ويوجد بجبالها الحديد والنحاس ومن حاصلاتها الوافرة الحبوب والارز ولاهلها عناية خاصة بتربية الخيل كعناية أهل المغرب عامة ويكثر بها الضأن وأصوافه جيدة ناعمة وبها كثير من الاشجار المثمرة كالبلوط والفلين والصنوبر والفستق والارز والنخيل وقصب السكر ويكثير من مدنها معامل واسعة لدبغ الجلود المعتبرة ونسج الاقمشة الصوفية الجيدة وديانة السكان هي الاسلام وبينهم كثير من اليهود استوطنوها بعد أن طاردهم الاسبانيول من بلادهم وهي تنقسم الى جملة عمالات لكل عمالة حاكم مخصوص ولها جيش يبلغ نحو ٢٠,٠٠٠ جندي غالبهم من السودان وكلهم خيالة تقريبا وملكها مستقل مطلق التصرف في الامور السياسية وكانت هذه البلاد تدعى قديما موريتانيا أخضعها على التعاقب القرطاجنيون والرومان والوندال والاغريق ثم العرب

وقد اشتهرت هذه المملكة قديما بالاعمال البحرية أثناء الدولة العلوية والاموية ودولة المرابطين والموحدين والاشراف وكانت سفنهم تجول على الدوام بجهات المحيط الاطلانطيقي وتتردد على جزائر الخالدات (قناريا) وافتتحت أساطيلها خصوصا أساطيل الموحدين جزائر ميورقه ومنورقة وفورسقة ومدينة جنوة وهددت كثيرا من سواحل أوروبا واستولت مرارا على ثغر الاسكندرية وحاربت في وقائع بحرية شهيرة بسواحل بلاد الاندلس وغيرها والمائة تقهقرت صارت ثغورها البحرية مأوى لكثير من سفن القرصان الذين طالما اغاروا في البحار وهددوا تجارة أوروبا بالبحر الابيض المتوسط خصوصا

(الفصل

﴿الفصل الثالث﴾

ثغور مراكش البحرية

أشهر المين بهذه المملكة الآن هي طنجة واقعة على الخليج المضاف اليها على بعد مائتي كيلومتر من جنوبي جبل طارق وبها قلعة وقصر عظيم وبعض بطاريات مدفعية لاداء الرسوم المتبعة وهي مقر قناصل الدول الاجنبية ولها تجارة واسعة وقد شيد هذه الفرضة القرطاجنيون مدة دولتهم

وسلا وهي فرضة حصينة على المحيط الاطلانطيق عند مصب نهر بورغرب على ضفته الشمالية تجاه مدينة الرباط أهلها يبلغون عشرة آلاف أكثرهم من نسل إسلام اسبانيا وهي مسورة وأهم صادراتها الصوف وميناها صغيرة لا تلج فيها السفن الكبيرة وكانت في أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ملجأ للقرصان ودمرها الفرنساويون (١٨٥١ م) وخربوا أكثرها ومنها الى مراكش عشر مراحل وكان بها في دولة الموحدين دار صناعة عظيمة بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي من أهل اشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الاجرام ورفع الاثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية واصيلا أو أزيلة أو أرسيلا (بوليبازيليس القديمة) واقعة على بعد ٤٤ كيلومترا من طنجة الى الجنوب الغربي عدد سكانها عشرة آلاف وهي الآن محصنة وكان لها أهمية في مدة الرومان خربها الاسبانيول (١٨٦٠ م) بمدافعهم وعرفت قديما ببصرة الغرب وقال ابن خلدون انها كانت معرضا للغزاة من ملوك البربر

وسبتة أو سوتا وهي الآن لاسبانيا محصنة على السواحل الشمالية تجاه مدينة جبل طارق تبعد عنها ١٧ ميلا سكانها نحو عشرة آلاف وهي على شبه جزيرة متصلة ببر مراكش ببرزخ ضيق حصين وهي جيدة البناء وبها يقوم حاكم عسكري ورئيس لسجون اسبانيا بسواحل أفريقية أما مرفؤها فغير أمين وتجارتها قليلة استولى عليها فيليب الثاني ملك اسبانيا (١٥٨٠ م) وقد حاصرها أهل مراكش مرارا فتعسر فتحها عليهم وفي أوائل القرن التاسع عشر استولت عليها الجيوش الانكليزية مدة قصيرة ثم ردوها الاسبانيا وكانت مرساها في صدر الاسلام أجود مرسى على البحر كما قاله ياقوت وينسب اليها جماعة من أعيان أهل العلم وكانت حين فتح الاسلام لهذه البلاد منزل يليان ملك غمارة فابقوه عليها بعد أن عاهدهم ولما هلك يليان استولى العرب عليها صلحا من أيدى قومه فعمروها

وتطوان وهي فرضة بولاية فاس في الطرف الغربي من البحر المتوسط على بعد ٣١ ميلا من سبتة الى الجنوب الغربي وعدد سكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس وهي على بعد سبعة فراسخ من جبل طارق ويحيط بها سور يعلوه أبراج ولها قلعة حصينة وبها مبان جميلة وجوامع فاخرة يبلغ عددها نحو أربعين جامعا وميناها مكشوف ليس به ما يقيه من جهة الشرق ولا يصلح الا للسفن الصغيرة وفي البلدة معامل للجلود والسيوف والاسلحة النارية ولها تجارة واسعة بداخل البلاد وتأخذ منها مدينة طارق كل ما يلزم لها من الاقوات استولى عليها الاسبانيول عنوة (١٨٦٠م) الا أنهم تركوها في السنة التالية

وأغادير وهى أقصى فرض مراكش الى الجهة الجنوبية واقعة على المحيط الاطلانطيق ببلاد السوس وسكانها نحو ستة آلاف نفس ومرفؤها أحسن مرافئ مراكش استولى عليها البورتقاليون مدة طويلة وسموها سانتا كروس ثم غلبهم عليها المغاربة (١٥٣٦ م) فطردوهم منها وكانت كبيرة محصنة الا أنها ثارت على السلطان محمد (١٧٧٣ م) ففتحها وخربها ونقل سكانها الى مغادور

ومليلا وهى فرضة صغيرة على البحر المتوسط الابيض تبعد عن فاس ٢٢٥ كيلومترا وعن سبتة بنحو خمسين كيلومترا وسكانها لا يزيدون عن ألفى نفس بما فى ذلك حاميتها من الاسبانيول وتشتهر بالعسل الجيد وهى تابعة لاسبانيا من (١٤٩٦ م) وقد جعلوها منفى لاصحاب الجرائم عندهم وكانت تسمى قديما روسادير كولونيا

ومغادور وهى مدينة حصينة لها مرفأ جيد على المحيط الاطلانطيق تبعد عن مراكش بنحو ٢١٨ كيلومترا وسكانها يبلغون ١٨٠٠٠ نفس بينهم كثير من اليهود وبها قصر للملك ومعامل للجلود والاقمشة الصوفية والحريرية ومعامل للاسلحة ومن صادراتها زيت الزيتون واللوز والصوف والجلود والشمع وريش النعام وغيرها أسسها السلطان محمد بن عبد الله سنة (١١٧٤ ﻫ) (١٧٦٠ م) وقد خرب الفرنساويون بعضها (١٨٤٤ م) ويوجد ببلاد مراكش مرافئ وثغور بحرية أخرى لكنها قليلة الاهمية مثل ثغر آسفى وأزمور والمعمور وغيرها

الفصل الرابع

ملخص تاريخ مراكش قبل الاسلام

علم الفينيقيون هذه البلاد قبل الميلاد بنحو ١٥٠٠ سنة وكان اذذاك يحكمها ملوك مستقلون من أهاليها من منذ الاعصر القديمة ومن أشهرهم ذكرا فى التاريخ جوغورطا وفى سنة (٣٠ ق م) أعطى أغسطس قيصر للمكهاجو بلاد الجيتول وهم أمم بربرية كانت تسكن تلك الجهات قديما ولما استولى عليها أهل قرطاجنة كان لهم بثغورها عدة أساطيل وبمدنها جنود للمحافظة والحماية ولما اتسع نطاق الدولة الرومانية بالتغلب على أملاك قرطاجنة دخلت مراكش فى قبضة الدولة المذكورة (٤١ م) وكان ذلك فى عصر الامبراطور قلوديوس وتحت قيادة سويتونيوس بولينوس وسموها موريتانيا وكانوا يقسمون القسم الخاضع لهم منها اذذاك الى ثلاثة أقسام وهى موريتانيا القيصرية وقاعدتها قيصرية (شيرشيل بعمالة الجزائر) وموريتانيا السيتيفيانية وقاعدتها سيتيفيس (ستيف) بعمالة قسطنطينية وموريتانيا الغربية أو موريتانيا التانجيتانية وقاعدتها تنجيس (طنجة) وفى القرن الرابع من الميلاد لما انقسمت دولة الرومان الى قسمين ضموا القسمين الاولين الى ابريشية افريقية والقسم الثالث الى ابريشية اسبانيا وحدث بها بعد ذلك عدة ثورات متوالية بقصد التخلص من رق عبودية الرومان ثم أغار عليها الوندال (٤٢٩ م) وذلك انه لما حصل النفور بين ايسيوس وبونيفاس وهما من مشاهير الرومانيين وأصحاب النفوذ والكلمة بالدولة وشى ايسيوس بخصمه عند بلاكيديا النائبة فى السلطنة عن ابنها الصغير فالنتنيانوس الثانى

وكان

وكان بونيفاس حينئذ حاكم افريقية فلما أرسلت الملكة تدعوه اليها أرسل اليه ايسيوس سرا يعلمه بأن الملكة عزمت على الايقاع به ويغريه بالتخلص من ذلك بشق عصا الطاعة فكبر هذا الامر على بونيفاس وأعلن العصيان لكن لما لم يكن عنده العدد الكافى من الجنود للمدافعة بهم استعان بالونداليين غير ملتفت لنصيحة من نصحه بان ذلك فيه الوبال على الدولة وكان ملك تلك الامة يدعى اذذاك جنسريك فكان هذا الامر أشهى ما يبتغيه وبادر باغتنام الفرصة للدخول فى ذلك الاقليم الغنى فاجتازهو وجنوده وكانت عدتهم ٨٠ ألف محارب مضيق هرقل (جبل طارق) واستعانوا بأقوام من الاهالى وانضم الى جيشهم كل مبغض للرومان

ولما علمت ابلاكيديا أن ما فعلته خطأ أرسلت الى بونيفاس تعفو عنه أماهو فاجتهد فى رد تلك المصيبة عن بلاد افريقية بالصلح والمسالمة فذهبت مساعيه أدراج الرياح ثم أرسل الى جنسريك يتوعده ويتهدده ان رفض الصلح فاحتقر جنسريك تهديداته وتحصن بونيفاس فى احدى المدن المنيعة وصد الوندال عن قصدهم نحو أربعة عشر شهرا وفى تلك الاثناء أرسلت القسطنطينية عمارة بحرية وجنودا لمساعدة بونيفاس على حرب هؤلاء المتوحشين وكان على تلك الجيوش قائدان اشتهرا بالشجاعة وحسن الرأى ولكن تلك المعاونة لم تفد فائدة ولم تأت بالنجاح المطلوب فلم يمكن لهؤلاء الابطال الثلاثة الذين كانت أعمالهم منصرفة لحماية الدولتين تخليص الاقليم فترك بونيفاس افريقية (٤٣١ م) وبعد ذلك بقليل اضطر فالنتنيانوس على ترك هذا الاقليم للوندال (٤٣٥ م)

ثم أغار جنسريك على المدن والبلدان التى كانت تابعة للرومان فى افريقية واستولى عليها ودخلت افريقية الرومانية كلها تحت تسلط الوندال ومخرت سفنهم العديدة فى البحر المتوسط الابيض وبحر الظلمات وافتتحت أهم جزره وتطاولت على أساطيل القسطنطينية نخشى بأسهم الدولتان لان جنسريك حث الويزيغوط على مقاتلة رومان المغرب والاستروغوط على رومان المشرق ولما استحكمت العداوة بين الوندال والرومان أغار الوندال تحت قيادة جنسريك على رومية واستولوا عليها ومكث النهب بها مدة خمسة عشر يوما وأسروا من أهلها نحو ستين ألفا منهم زوجة فالنتنيانوس وبنتاها ومكث جنسريك أكثر من عشرين سنة قاهرا منصورا حتى ارتعدت منه فرائص سلطنة المغرب والمشرق وحرق وشتت الاساطيل التى أرسلت لمقاتلته ولما مات (٤٧٧م) صارت مملكة الوندال دائمة الاضطراب بثورات المغاربة وبحثهم على خلع طاعة الوندال الى أن أعاد القائد الشهير بليزير افريقية الغربية الى حكم قياصرة القسطنطينية (٥٤٤م) ومازالت بلاد افريقية تابعة لدولة القسطنطينية حتى ظهر الاسلام وفتحت جيوشه معظم الاقطار وأخضعت لحكمه الملوك والقياصرة

﴿ الفصل الخامس ﴾

دخول الاسلام بلاد مراكش

الدول الاسلامية التى قامت بمراكش لما تقدمت جيوش العرب بالفتح الاسلامى فى خلافة عمر رضى الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية وفرغ منهما سار فى (٢١ هـ)

وافتتح برقة المسماة انطابوليس أو بنطابوليس وصالحه أهلها على الجزية ثم تقدم الى طرابلس واستولى عليها بعد أن حاصرها وافتتح صبرة ولما فرغ من ذلك استأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى التقدم الى افريقية فمنعه فامتثل وعاد الى مصر فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل الى افريقية ولا كان من البربر اسلام ولما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه وتولية عبد الله بن أبى سرح على مصر سار الى افريقية (٢٦ ﻫ) لغزوها بأمر من الخليفة الذى قال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فاستعد عبد الله فى جيش يبلغ ١٠٠٠٠ مقاتل وخرجوا الى افريقية وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان عبد الله بن أبى سرح استأذن عثمان رضى الله عنه فى ذلك واستمده فاستشار عثمان رضى الله عنه الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر فى المدينة وفيهم جماعة من الصحابة ثم ساروا مع عبد الله ابن سعد (٢٦ ﻫ) ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فأوقعوا بجيش للروم عندها ثم تجاوزوها الى افريقية وبثوا السرايا فى كل ناحية وكان على تلك البلاد حاكم من طرف ملوك القسطنطينية يقال له جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع ١٢٠,٠٠٠ من العساكر ولقيهم قريبا من سبيطلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه الى الاسلام أو الجزية فاستكبر ثم كانت الدائرة على الروم فانهزموا وقتل منهم كثير منهم جرجير ثم حاصر ابن أبى سرح سبيطلة ففتحها وبعد وقائع يطول شرحها صالحه أهل افريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار فعلت كعب الاسلام فى تلك الجهات وانساحوا فى البسائط بالغارات ثم رغب الفرنج والبربر فى السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبى سرح ثلثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ففعل ثم رجع المسلمون الى المشرق بعد مقامهم بافريقية سنة وثلاثة أشهر ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل افريقية صالحوا المسلمين بذلك القدر الجسيم من المال غضب وبعث بطريقا يأخذ منهم مثل ذلك فامتنعوا فغار بهم وهزمهم وطرد الملك الذى ولوه عليهم بعد جرجير

ثم ان معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ولى المغرب معاوية بن حديج السكونى وأرسل معه جيشا ضخما (٤٥ ﻫ) فقاتل الروم وقهرهم رغما عن الامدادات التى أتت لهم بطريق البحر من القسطنطينية وافتتح معاوية أيضا سوسة وغيرها ثم وجه جيشا فى البحر الى صقلية فى مائتى مركب فأثخنوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الاسلام فى البربر ثم عاد الى مصر بعد أن خلد آثارا حسنة ثم عزله معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه عن افريقية وأقره على مصر فقط وولى افريقية عقبة ابن نافع الفهرى (٥٠ ﻫ) استقلالا وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة افريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فاذا رجعوا عنها ارتدوا كما قلناه فيما تقدم

ثم رأى عقبة أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجمع والاعياد فاستشار من معه فقالوا نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطو علينا الافرنج فانظر لنا

بنظر

بنظر الله ثم شرع فى بناء القيروان وقال هذه أوسع لابلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية وافرنج الجزيرة وبنى بها المسجد الجامع وبنت الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكملت فى خمس سنين (٤٥ - ٥٠ هـ) ثم عزله معاوية عنها وولى على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد الانصارى فاستعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر دينار (٥٥ هـ) فقدم القيروان ولم يرض أن ينزلها للشئ كان بينه وبين عقبة ثم حصل بين أبى المهاجر وكسيلة الاربى أحد عظماء البربر وقد تقدم خبره فى زمن الفتح حرب فهزمه أبو المهاجر حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الاسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه وهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاوسط

ولما توفى معاوية بن أبى سفيان وولى بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع واليا على المغرب (٦٢ هـ) مرة ثانية ولما قدم القيروان استخلف زهير بن أبى قيس البلوى على القيروان وخرج فى جيش كثيف ففتح وغزا وفتح بلاد الجريد فتحا ثانيا وصالح أهل فزان وسار الى الزاب وتاهرت فشتت جموع البربر ومن انضم اليهم من الفرنج ثم تقدم الى المغرب الاقصى فأثخن فى أهله الى أن وصل الى البحر المحيط فكان عقبة أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاقصى وأذعن له يليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ودله على عورات البربر وبلاد المصامدة والسوس فتوجه عقبة نحوهم وكانوا كالبهائم على دين المجوسية فنزل على مدينة وايلى (قصر فرعون) وهو يومئذ من أكبر مدن المغرب فافتتحها ثم توجه الى بلاد السوس وهزم البربر واتبعهم الى صحراء لمتونة ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط فانتهى الى بلاد أسفى وأدخل قوائم فرسه فى البحر ووقف ساعة ثم قال لاصحابه ارفعوا أيديكم ففعلوا ثم قال اللهم انى لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك لتعلم أنما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو ان تعبد ولا يشرك بك شئ اللهم انا مدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والاكرام ثم انصرف راجعا

وكان كسيلة الأربى المتقدم الذكر فى جيش عقبة قد استصحبه فى غزواته وكان يستهين به ويمتهنه مخالفا وصية أبى المهاجر فلما قفل من غزواته هذه صرف العساكر الى القيروان أفواجا ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقى فى قليل من الجند فطمع فيه أعداؤه وراسلوا كسيلة واجتمعوا واتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى اذا لحقوهم ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم وما زالوا يقاتلون البربر حتى قتلوا عن آخرهم وكانوا زهاء الثلاثمائة من الصحابة والتابعين ولا تزال مقابرهم للآن بتلك الجهات من المزارات المباركة وبعد الواقعة زحف كسيلة على القيروان وكانت دار الامارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الامر فقام زهير بن قيس البلوى فيهم خطيبا مشجعا محرضا فخالفه حنش بن عبد الله الصنعانى لانه لما رأى ان لا طاقة للمسلمين على مدافعة البربر وان النجاة أولى نادى فى الناس بالرحيل فاتبعوه الا قليلا منهم وبقى زهير فى أهل بيته ثم اضطر الى الخروج وسار الى برقة فأقام بها مطلا على المغرب ومنتظر المدد من الخلفاء

أما كسيلة فاجتمع عليه جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره واستولى على القيروان (٦٤ هـ) وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقم بها الا أصحاب الذرارى والاثقال

فا منهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميرا على البربر ومن بها من العرب خمس سنين ووافق ذلك مهلك يزيد بن معاويه وفتنة الضحاك بن قيس وحروب آل الزبير واضطراب أمر الخلافة بالمشرق ومازال الامر على ذلك حتى استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت الى المغرب وتلافى أمره فبعث الى زهير وكان لايزال مقيما ببرقة منذ مهلك عقبة كامرا بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان من يد كسيلة المتغلب وحضه على الطلب بدم عقبة وكان أمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها فزحف زهير الى المغرب (٦٩ هـ) وجمع له كسيلة سائر البربر والتقى معه بمكان يقال له ممس من نواحي القيروان ثم انهزمت البربر بعد حروب شديدة وقتل كسيلة ومعه وجوه من البربر ومن لايحصى من عامتهم واتبعهم العرب الى وادى ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وبادت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة وخاف البربر من العرب خوفا شديدا فالتجؤا الى الحصون وقلال الجبال واستقر جمهورهم بديار المغرب الاقصى وملكوا مدينة وليلى ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر الى أن قدم عليهم ادريس بن عبد الله فقاموا بدعوته

وفي اثناء رجوع زهير الى المشرق وجد أسطولا للروم يقاتل برقة وبأيديهم أسراء من المسلمين فاستغاثوا به وهو في قليل من أصحابه وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه ونجا الباقون الى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع وبذلك اضطربت أحوال المغرب وقامت بها الفتن وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم وكان من أعظمهم شوكة ملكة يقال لها داهية كانت تدعى التكهن وعلم الغيب فبعث عبد الله بن مروان الى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني يأمره بجهاد البربر وبعث اليه بالمدد فزحف اليهم (٦٩ هـ) في ٤٠,٠٠٠ مقاتل ولما دخل القيروان واستراح بها هو وجنوده من عناء السفر خرج يريد قرطاجنة وكانت أعظم مدن المغرب فافتتحها وكانت منيعة بها مالا يحصى من جموع الفرنج والروم وقتل أكثر من بها ونجا فلهم في المراكب الى صقلية والاندلس ثم أمر بتخريبها واعفاء رسمها ثم تقدم وتقابل مع الفرنج والبربر عند بنزرت وهزمهم ثم قصد بعد ذلك الكاهنة داهية وزحفت هي اليه فاقتتلوا أمام جبل أوراس حيث مسكنها قتالا شديدا ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هنالك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه فأقام ببرقة وبنى بها قصوره المعروفة وأخذت الكاهنة في اخراج العرب عن بلاد المغرب وأمرت بتخريب المدن والحصون والمزارع والمراعى لقطع أطماع العرب وكانت شيأ يفوق الحصر والوصف كما قاله ابن خلدون وغيره فخربت ديار المغرب ومحت جماله فشق ذلك على البربر واستأمنوا الى حسان ولما أتى المدد الى حسان وجد السبيل الى تفريق أمرها ثم دس عليها من أعلمه بحالها ثم زحف الى الغرب (٧٤ هـ) فأوقع بها وبجموعها وقتلها واقتحم جبلها عنوة واستأمن اليه من سلم من القتل ثم أسلموا وحسن اسلامهم ثم انصرف حسان الى القيروان مؤيدا منصورا وثبت ملكه واستقام أمره فدوّن الدواوين وكتب الخراج على عجم افريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر وفي هذا الوقت أوعز اليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة حرصا على مراسم الجهاد كما سبق في المقدمة واستمر حسان واليا على المغرب

الى

الى أن عزله عبد الله بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب اذ ذاك اليه فاستخلف على المغرب رجلا من جنده وارتحل الى المشرق بما جمعه من نفائس الذخائر و رائع السبي ثم قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك

ولما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد فكتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى عمه عبد الله بن مروان وهو على مصر أن يبعث بموسى بن نصير الى أفريقية فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت فى البلاد فوجه البعوث الى النواحى وبعث ابنه عبد الله فى البحر الى جزيرة ميورقة فغنم وسبى ثم خرج موسى غازيا وتتبع البربر وتوغل فى جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الادنى ثم تقدم الى سبتة فصانعه صاحبها إليان وأذعن للجزية وكان نصرانيا فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة ثم غزا طنجة وافتتح درعة [1] وصحراء تافيلالت [2] (٨٨ هـ) وولى على طنجة طارق بن زياد الليثى وأنزل معه ٢٧٠٠٠ من العرب و ١٢٠٠٠ من البربر ثم كان بعد ذلك خبر افتتاح جزيرة الاندلس كما تقدم لك فى خلافة الوليد من بنى أمية أما حال البربر فلم يستقر اسلامهم ويهدأ بالهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الاندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقر واهنالك فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية كما سيأتى ولما ارتحل موسى بن نصير الى المشرق ونكبه الخليفة سليمان وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وكان ولاه إياه بعد عودته ولى مكانه محمد بن يزيد (٩٧ هـ) وكان الخليفة قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك

وكان محمد هذا عادلا حسن السيرة قاتل المخالفين بثغور المغرب ولم يزل واليا عليها حتى مات فى ولايته وبعدها صارت بلاد الاندلس تابعة فى الحكم لعامل افريقية وبعده ولى عمر بن عبد العزيز على المغرب اسمعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر فقدم القيروان (١٠٠ هـ) وكان خير أمير وخير وال أسلم على يده البربر جميعهم وبث فيهم من علمهم أمور الدين ولما تولى الخلافة يزيد ابن عبد الملك ولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج الظالم المشهور فأساء السيرة ووجه عنبسة بن سحيم الكلبى واليا من قبله على الاندلس ثم ثار أهل المغرب بأبى مسلم فقتلوه (١٠٢ هـ) وولوا عليهم محمد بن يزيد ثانية وكان غازيا بصقلية وكتبوا الى الخليفة يعلمونه بما فعله يزيد الثقفى وما فعلوه به فأقرهم على ذلك ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبى وكان واليا على مصر (١٠٣ هـ) فمهد المغرب وسكن أرجاءه واستصفى بقايا آل موسى بن نصير ثم وفد على

---

(١) قال ياقوت هى مدينة صغيرة بالقرب من جنوبى المغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ودرعة غربيها وأكثر تجارها يهود وأكثر غرسها القصب اليابس جدا ينسحق اذا دق وينسب الى درعة محمد بن ناصر الدرعى العربى النحوى مجدد الطريقة الشاذلية وله عندهم شهرة عظيمة وغيره من العلماء والفضلاء

(٢) أو تافيلالت أو طفيلالت قسم من مراكش واقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من جبال أطلس خصب الاراضى يرويه نهران وقلما يقع فيه مطر وأهم حاصلاته كانة التمر ومن مدنه أبوان ورسانى وبين تافيلالت ومراكش والجزائر والسودان تجارة مهمة وربما كانت هذه البلاد هى مملكة سجلماسة القديمة

يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات وبويع هشام فرده هشام الى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان

ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه (١٠٩ هـ) ولما مات بشر بن صفوان ولى الخليفة هشام على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (١١٠ هـ) وكان له النظر فى أمر المغرب والاندلس معاثم عزل عبيدة لاربع سنين وستة أشهر من ولايته وتولى بعده عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا وكان قبل ذلك والى مصر فقدم القيروان (١١٤ هـ) واستعمل على طنجة والمغرب الاقصى عمر بن عبيد الله المرادى وعلى السوس وماوراءه ابنه اسمعيل وكان عبيد الله محمود السيرة ولما تمكن سلطانه بنى جامع الزيتونة بتونس وقيل انه هو الذى أتمه فقط لان أول مخطط له حسان بن النعمان وجعل بتونس أيضا دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية وله غزوات فى بلاد السودان وكذا بجزيرة صقلية (١٢٢ هـ) فافتتح سرقوسة وكان واليه على طنجة قد أساء السيرة فى برابرة المغرب الاقصى وكثر عيثه فى أحوال البربر فشقوا عصا الطاعة وجرأهم على ذلك مسير العساكر الى صقلية وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت فى البربر وتلقنها رؤسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب فكان ذلك من أقوى البواعث فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم وكان رئيس الخوارج بتلك الجهات يدعى ميسرة المضغرى المعروف بالخفير جمع اليه الجموع وزحف الى عمر بن عبيد الله بطنجة فقاتله وقتله (١٢٢ هـ) وولى عليها من قبله عبد الاعلى بن جريج الافريقى ثم قتله عامل السوس اسمعيل ابن عبيد الله وكان ميسرة المذكور لما استولى على طنجة والمغرب الاقصى قد بايعه بالخلافة البربر وخاطبوه بامير المؤمنين واضطرب الحبل بالمغرب وفشت بدعة الخارجية بين جميع قبائله ولم يتمكن ابن الحبحاب من ملاشاة أمر ميسرة ثم إن ميسرة أساء السيرة فى البربر فقتلوه وولوا عليهم مكانه خالد بن حبيب الزناتى وقوى أمره فارسل عليه عامل المغرب جيوش الخليفة فانهزمت فى واقعة سميت واقعة الاشراف وبعد ذلك انتقض البربر جميعه على ابن الحبحاب وانتهى الخبر بذلك الى الخليفة هشام فعزل ابن الحبحاب (١٢٣ هـ) وولى مكانه كلثوم بن عياض القشيرى ووجه معه جيشا كثيفا لقتال الخوارج بلغ عدده مع من انضم اليه سبعين ألفا فزحف بذلك الجيش بعد أمور يطول شرحها هو وحبيب بن أبى عبيدة والتقيا مع البربر على وادى سبو [1] من أعمال طنجة فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبى عبيدة وكثير من الجند وافترقت العساكر الى الاندلس ومصر والقيروان

ولما سمع الخليفة هشام بما حصل لكلثوم وأصحابه قامت قيامته ووجه حنظلة بن صفوان الكلبى واليا على المغرب (١٢٤ هـ) ولما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث الا يسيرا حتى زحف اليه الصفرية وعليهم عكاشة وعبد الواحد ومن تبعهم من البربر فقاتلهم حنظلة بظاهر القيروان فهزمهم واستلحمهم وقتل رؤساءهم وكتب بذلك الى الخليفة ثم تعقب البربر فى كل مكان واستقامت له الامور واطفأ الفتن من الاندلس ولم يزل على المغرب فى أحسن حال الى أن طرق الخلل الخلافة الاموية

(١) ويقال له المحمود وهو نهر ببلاد مراكش يروى مدينة فاس وينبع من أطلس ويجرى الى الشمال ثم الى الغرب ويصب فى المحيط عند المهدية

وخفت

وخفت صوتها بما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد الفاسق وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار وفى هذا الوقت كان ظهور صالح بن طريف البرغواطى (١) الذى ادعى النبوة وكان من أهل العلم والخير

ثم ان عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع استولى على المغرب قهرا وهرب حنظلة الى المشرق (١٢٧ ﻫ) وكان عبد الرحمن أول متغلب على بلاد المغرب ولما ولى مروان الحمار الخلافة بعث اليه بعهده وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم فانتقضوا من جميع البقاع وتواثبوا من الاطراف بكل مكان فزحف اليهم عبد الرحمن وفل جموعهم واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من أفريقية (١٣٥ ﻫ) ثم أغزى جيشا فى البحر الى صقلية وآخر الى سردينيا فأثخنوا فى أمم الافرنج حتى أذعنوا للجزية وهو الذى أراد قتل عبد الرحمن الداخل الاموى لما تلاشت الخلافة الاموية فلم يتمكن من ذلك وهرب منه وكان من أمره ما كان ومازال أمر عبد الرحمن مطاعا بالمغرب حتى انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق وبويع المنصور وكتب الى عبد الرحمن بالطاعة والبيعة فاجاب ودعا له ثم تآمر عليه الجنود لما كان من خلعه طاعة العباسيين وقتلوه على فراشه (١٣٧ ﻫ) ومن بعده تغلب الياس بن حبيب أخوه على المغرب الى (١٣٨ ﻫ) ومن بعده استولى حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفى هذه السنة خرجت الاندلس عن طاعة أمير المغرب واستقل بها عبد الرحمن المروانى ثم قتل حبيب عبد الرحمن المذكور (١٤٠ ﻫ) وبموته انقرض أمر آل عقبة من المغرب

(١) كان الضلال الذى شرعه لهم انهم يقرون بنبوته ويصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار وان الاضحية واجبة على كل شخص فى الحادى والعشرين من محرم وشرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخاصرتين وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة الا من حرام وصلاتهم ايماء لا سجود فيها الكنهم يسجدون فى آخر ركعة خمس سجدات ويقولون عند تناول الطعام والشراب باسمك يا كسراى وزعم أن تفسيره باسم الله وأمرهم أن يخرجوا العشر من الثمار وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة فى اليوم ولا تحرم المرأة عليهم بشئ من ذلك وأمرهم بقتل السارق حيث وجدوه وزعم أنه لا يطهره من ذنبه الا السيف وان الدية تكون من البقر وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها وقد وقتهم فى الاوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ولاتهم على سبيل التبرك فكان يبصق فى أكفهم فيلحسونه ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنا يقرؤنه فى صلواتهم ويتلونه فى مساجدهم فزعم انه نزل عليه وانه وحى من الله تعالى اليه ومن شك فى ذلك فهو كافر والقرآن الذى شرعه لهم ثمانون سورة سماها لهم باسماء النبيين وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هرون وسورة بنى اسرائيل وسورة الاسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الجمل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة ابليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وفصل وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال أنا صالح المؤمنين الذى ذكر الله فى كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وكان ظهور صالح فى خلافة هشام سنة (١٢٧ ﻫ) وزعم أنه المهدى الاكبر الذى يخرج فى آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلى خلفه وأن اسمه فى العربى صالح والسريانى مالك وفى العجمى عالم وفى العبرانى روبيل والبربرى واريا ومعناه الذى ليس بعده نبى ثم خرج الى المشرق بعد أن ملكهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدينه فتوارثوا ضلاله من بعده الى أن جاءت دولة المرابطين فمحوا أثره عنهم اﻫ

وكان لهم وجاهة معروفة بين أهلها لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الاقطار واختطاطه مدينة القيروان كرسي الامارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الاسلام والدين كله في صحيفته فنالوا بذلك شرفاً خاصاً زيادة على شرف القرشية فكان يكون لهم الشرف في بعض الاحيان حتى على الولاة فضلاً عن غيرهم

واستولى من بعده على المغرب عبد الملك بن أبي الجعد وتعقب العرب بقتلهم واستطال البربر على أهل القيروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا واستحلوا من المحرمات مالم يستحله فاتح قبله واشتد البلاء على أهل القيروان وافترقوا في النواحي فراراً بانفسهم وشاع خبرهم في الآفاق فقام حينئذ عبد الاعلى بن السمح المعافري من رجالات العرب وكان على رأي الاباضية منكر الفعل البربر وشايعه على ذلك برابرة طرابلس ثم زحف بهم على طرابلس فملكها وكذلك ملك القيروان (١٤١ ﻫ) فعظم شأنه وتسامع به العرب فاتوا النجدته وكاتب الخليفة المنصور عامله بمصر يستحثه على ارسال الجنود وفي خلالها ظهرت دولة بني مدرار [1] ووفد جماعة على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج وشكوا اليه تسلقهم على كرسي الامارة بالقيروان فوجه المنصور محمد بن الاشعث الخزاعي واليا على مصر وأمره باستنقاذ أفريقية من البربر فوجه محمد بن الاشعث أبي الاحوص عمر العجلي (١٤٢ ﻫ) فهزمت جنوده ثم خرج محمد بن الاشعث بنفسه الى المغرب في أربعين ألفاً وتلاقى مع أبي الخطار قريباً من طرابلس فاوقع به ابن الاشعث وقتله واستلحم جموعه (١٤٤ ﻫ) وضبط المغرب أحسن ضبط وخافه البربر ثم ثار عليه الجنود فقفل الى المشرق (١٤٨ ﻫ) وفي ولايته قامت بمدينة تاهرت [2] (١٤٤ ﻫ) دولة ابن رستم واستقلت عن نظر ولاة المغرب وكان يسلم

(١) دولة بني مدرار (١٤٠ – ٣٦٦ ﻫ) لما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة فنقضوا طاعة العرب وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود واختطوا مدينة سجلماسة (١٤٠ ﻫ) ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقيروان ثم انهم سخطوا على عيسى وقتلوه (١٥٥ ﻫ) وولوا عليهم بعده كبيرهم أبا القاسم المكناسي الى ان هلك (١٦٧ ﻫ) وكان يخطب للمنصور ثم للمهدي من بني العباس ولما هلك ولوا عليهم ابنه الياس ثم قام من بعده عدة أمراء الى أن كانت إمارة اليسع بن المنتصر (٢٧٠ ﻫ) وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين وابنه أبو القاسم من المشرق فدخلا سجلماسة متنكرين وكان الخليفة المعتضد بالله العباسي قد أوعز الى اليسع هذا بالقبض عليهما فقبض عليهما وأودعهما السجن الى أن افتكهما مقيم دولتهما أبو عبد الله الشيعي فانه اقتحم سجلماسة وأخرجهما من السجن وقتل اليسع (٢٩٦ ﻫ) ومن أشهر أمرائهم أيضاً الشاكر بالله رفض الخارجية ونادى بالدعوة العباسية وأخذ بمذهب أهل السنة واتخذ السكة باسمه وكان في غاية العدل واستمر الى أن زحف جوهر الكاتب قائد المعز العبيدي على المغرب الاقصى (٣٤٧ ﻫ) فتغلب على سجلماسة وفر الشاكر بالله هذا ثم قبض عليه بسجلماسة متنكراً ثم لما انتقض المغرب على الشيعة ودانت زناتة لطاعة الحكم المستنصر صاحب الاندلس خرج بسجلماسة شخص من ولد الشاكر بالله وتلقب بالمنتصر بالله ثم قتل (٣٥٢ ﻫ) ومازال الامراء من بني مدرار يتولون عمل سجلماسة الى أن انقرضوا (٣٦٦ ﻫ) وآخرهم أبو محمد المعتز كان معاصر المنصور بن أبي عامر اﻫ

(٢) فرضة حصينة بعمالة وهران من بلاد الجزائر قال عنها ابن حوقل انها قسمان قديمة وحديثة وقال ابن خلدون ان الذي أسسها عبد الرحمن بن رستم اختطها سنة (١٤٤ ﻫ) في سفح جبل كزول وقال ياقوت تاهرت اسم لمدينتين متقابلتين باقصى المغرب يقال لاحداهما تاهرت القديمة والاخرى تاهرت المحدثة وكانت قديماً تسمى عراق الغرب اﻫ وينسب اليها جماعة من الافاضل وكانت هذه المدينة مقاماً لرئيس الاباضية والصفرية والواصلية وبقيت عاصمة لبني رستم (١٣٠) سنة

على

على أمرائها بالخلافة ثم انقرضت على يد العبيديين أواخر المائة الثالثة ولما رجع ابن الاشعث الى المشرق واتصل بالمنصور ذلك أرسل الى الاغلب بن سالم التميمى بعهده على المغرب (١٤٨ ه) وهو جد الاغالبة ملوك أفريقية وكان من ذوى الشجاعة والرأى ومن أصحاب أبى مسلم بخراسان وكان لما أتاه عهد الخليفة واليا على طبنة من بلاد المغرب ولاه عليها ابن الاشعث فانتقل الى القيروان واستقام أمره وما زال يقاتل الخوارج الى أن قتل (١٥٠ ه) ولما بلغ الخليفة المنصور مقتله وجه عمرو بن حفص أخا المهلب بن أبى صفرة واستقام له الامر فى أول ولايته ثم ثار البربر عليه بافريقية وعمت الثورة أطرافها ونبغت رؤس الفتنة فى كل جهة وحاصروا عمرو بن حفص بالقيروان ولما بلغه أن المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم أنف من ذلك وقال لا خير فى الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار انما هى رقدة ثم أبعث الى الحساب وخرج فقاتل حتى قتل (١٥٤ ه) وكان عمرو هذا بطلا سمحا يلقب هزارمرد ومعناه بالفارسية ألف رجل

ثم قدم يزيد بن حاتم بن المهلب فى ستين ألفا ولما بلغه خبر عمرو بن حفص عزم على الاستماتة والتقى مع البربر بنواحى طرابلس فهزمهم وشردهم وقتل رؤسهم (١٥٥ ه) ودخل القيروان فهدها ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكانا وجدد بناء جامعها وضبط الامور أحسن ضبط وفى ولايته ركدت ريح الخوارج من البربر وتداعت بدعتهم الى الاضمحلال واستمر يزيد بن حاتم ضابطا لامر افريقية والمغرب الى أن توفى (١٧٠ ه) فى خلافة هرون الرشيد وكان يزيد من السمحاء الامجاد والفضلاء الانجاد ولما بلغ الرشيد وفاته ولى على المغرب أخاه روح بن حاتم فقدم القيروان (١٧١ ه) وكان يزيد قبله قد أذل الخوارج ومهد البلاد فكانت أرض المغرب ساكنة وفى أيامه اجتاز الامام ادريس بن عبد الله ببلاد افريقية ومصر ناجيا من واقعة فج التى كانت بمكة ولم يزل روح واليا على افريقية الى ان مات (١٧٤ ه) ثم ولى المغرب من بعده حبيب بن نصير المهلبى ثم الفضل بن روح بن حاتم وقتل (١٧٨ ه) وبه انقرضت دولة آل المهلب من المغرب ثم ولى هرون الرشيد هرثمة بن عيسى ولما رأى ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد فاعفاه ثم ولى الرشيد على افريقية محمد بن مقاتل العكى فاضطربت عليه افريقية وبلغ الرشيد ذلك وطلب أهل افريقية من ابراهيم بن الاغلب وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب الى الرشيد فى الولاية عليهم فكتب الى الرشيد فى ذلك على ان يترك المائة ألف دينار التى كانت تحمل من مصر الى افريقية اعانة للولاة بها وعلى ان يحمل هو من افريقية الى الخليفة أربعين ألفا وبلغ الرشيد غناءه وكفاءته فاستشار فيه أصحابه فاشاروا عليه بولايته فكتب له بالعهد على افريقية (١٧٤ ه) وسيأتى ذكر دولتهم عند الكلام على تونس وفى هذه المدة انقسم المغرب الى ثلاث ممالك فكان بنو الاغلب بافريقية والقيروان وبنو خزر المغراويون بالمغرب الاوسط وتلمسان وبنو ادريس بالمغرب الاقصى

الفصل السادس

دولة الادارسة بالمغرب الاقصى

(١٦٩ - ٣١٣ ه)

اعلم أنه لما كانت (١٦٩ هـ) فى خلافة موسى الهادى العباسى خرج بالمدينة الحسين بن على ابن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان معه جماعة من أهل بيته منهم ادريس ويحيى وسليمن بنو عبد الله بن الحسن المثنى وهم إخوة محمد النفس الزكية فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادى على المدينة عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وكانوا يكنون بذلك عن الامام المستور الى أن يقدر على اظهار أمره وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياما ثم خرجوا الى مكة فى ذى القعدة من السنة المذكورة فانتهى الحسين الى مكة وانضم اليه جماعة من عبيدها وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بنى العباس وشيعتهم فمنهم سليمن بن أبى جعفر المنصور ومحمد بن سليمن بن على والعباس بن محمد بن على وانضم اليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروها أمام بنى العباس ثم جمعت رؤس أصحابه فكانت مائة ونيفا واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا فى كل وجه وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ أو فخ على ثلاثة أميال من مكة ثم حمل رأس الحسين ومعه باقى الرؤس الى الهادى فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضبا عليهم أما يحيى أخو محمد النفس الزكية فانه فر من الواقعة المذكورة الى بلاد الديلم من جهة المشرق ودعا الناس الى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته ولما خافه الرشيد أمنه وحلف اليه فحضر الى بغداد فأكرمه الرشيد ووصله بأموال كثيرة ثم حبسه حتى مات فى السجن

أما ادريس أخوه فانه لما فر من الوقعة المذكورة لحق بارض مصر فحمله واضح مولى صالح ابن المنصور وعامل البريد يومئذ الى بلاد المغرب وكان واضح يتشيع لآل البيت ولحق ادريس بالمغرب الاقصى فنزل بمدينة وليلى [1] (١٧٢ هـ) فأجاره اسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير البربر وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع فى ذلك وانتهى الخبر الى الرشيد بافعله واضح مع ادريس فقتله وصلبه ولما بايع البربر ادريس خطب الناس فقال بعد الحمدلة والصلاة لاتمدن الاعناق لغيرنا فان الذى تجدوه عندنا من الحق لاتجدوه عند سوانا ثم وفدت عليه قبائل زناتة وغيرها من كافة البربر بالمغرب الاقصى فبايعوه أيضا ودخلوا فى طاعته فتمكن سلطانه وقويت شوكته ثم اتخذ جيشا عظيما من وجوه البربر وخرج غازيا الى بلاد تامسنا ثم زحف الى بلاد تدلا ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد يدينون بدين اليهودية والنصرانية والاسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يده (١٧٢ هـ) ثم غزا فى السنة التالية من كان تحصن منهم فى المعاقل والجبال حتى دخلوا فى الاسلام طوعا وكرها ثم خرج بعد سنة أيضا للغزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل البربر فبايعه صاحبها محمد بن خزر فأمنه ادريس وقبل بيعته وبنى مسجد تلمسان وأتقنه (١٧٤ هـ) ثم عاد الى مدينة وليلى منصورا

ولما نال ادريس ما نال من التمكن والقوة واتصل خبر ذلك بالخليفة العباسى هرون الرشيد

---

(١) هى قاعدة جبل ذرهون وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل يقال انها المسماة اليوم بقصر فرعون اهـ

وبلغه

و بلغه ان ادريس قد استفحل أمره و كثرت جنوده وانه عازم على غزو إفريقية خاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه ان لم يتدارك الامر الآن ربما عجز عنه في المستقبل وشاور الرشيد نصحاءه فاشاروا عليه بمن يقتله غيلة و وقع اختيار الرشيد في ذلك على رجل من موالي والد الرشيد اسمه سليمن و يعرف بالشماخ فاحضروه وأعلمه بما يريد منه ووعده على قتل ادريس الرفعة والمنزلة العالية و زوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره وأصحبه الرشيد كتابا الى واليه على افريقية ابراهيم بن الاغلب وقيل الى روح بن حاتم عاملها ثم قدم الشماخ على ادريس مظهرا النزوع اليه فيمن نزع متبرئا من الدعوة العباسية منتحلا للدعوة الطالبية فاختصه ادريس وعظمت منزلته لديه وكان الشماخ ممتلئا من الادب والبلاغة والظرف عارفا بصناعة الجدل فكان اذا جلس الامام ادريس الى رؤساء البربر تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الامة ويقرر ذلك ويحتج لامامة ادريس وانه الامام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب ادريس فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل الا معه وكان راشد مولى ادريس قلما ينفرد عنه لانه كان يخاف عليه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد و يترقب الفرصة من ادريس الى أن غاب راشد ذات يوم فدخل الشماخ على ادريس فجلس معه كالعادة وتحدث مليا ولما لم ير الشماخ راشدا بالحضرة انتهز الفرصة في ادريس وكان ادريس يشتكي وجع الاسنان واللثة فأعطاه سما في سواك يستاك به وقيل سمه بطريقة أخرى ولما علم الشماخ ان السم تمكن من ادريس خرج مسرعا فارا الى الشرق ومات ادريس (١٧٧ هـ) ويقال ان راشدا لحق بالشماخ في هربه وطعنه فقطع يمناه وشج رأسه وقيل إن الشماخ هرب منه ورؤى بعد ذلك في بغداد مقطوع اليد

ادريس بن ادريس (١٧٧ - ٢١٣ هـ) لما توفي ادريس لم يترك ولدا الا حملا من أمة بربرية فاتفق وجوه البربر على جعل مقاليد الامور لراشد مولى ادريس لعلو منزلته عندهم وفضله ودينه حتى تلد الجارية فقام راشد بأمر البربر تلك المدة ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلاما أشبه الناس بأبيه ادريس فأخرجه راشد الى رؤساء البربر حتى نظروا اليه فقالوا هذا ادريس بعينه فسماه راشد ادريس و بايعه البربر وكفله راشد مولى أبيه وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن ثم علمه الحديث والسنة والفقه في الدين والعربية و رواه الشعر وأمثال العرب وحكمها وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك فلم يمض عليه مقدار من العمر يبلغ احدى عشرة سنة الا وقد ترشح للامر فبايعه البربر عن طاعة واخلاص بجامع وليلي (١٨٨ هـ)

وكان ابراهيم بن الاغلب عامل افريقية للرشيد قد دس الى بعض البربر الاموال واستمالهم حتى قتلوا راشدا مولاه (١٨٦ هـ) وقام بكفالة ادريس من بعده أبو خالد يزيد بن الياس العبدى ولم يزل على ذلك الى أن بايعوا الادريس وقد أظهر ادريس من صغر سنه من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة ولما استقام أمره وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وفدت عليه الوفود من البلدان ووفود العرب من افريقية والاندلس فجعل له منهم بطانة وأدنى منزلتهم وكان ابراهيم بن الاغلب لا ينفك عن التضريب بين البربر واستفسادهم على ادريس فلم ينجح

ولما كثرت الوفود على ادريس وضاقت بهم مدينة وليلى أراد أن يبني لنفسه مدينة فركب يوما في حاشيته وتخير بقعة واختط مدينة فاس الحالية (١٩٢ ﻫ) وجعلها بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به وأبواب تختص به وأنهر فاصلة بينهما ولما فرغ من بنائها اتخذها دار ملكه وصار يغزو منها قبائل البربر العاصية والخارجية وغيرهم وكانت وفاته (٢١٣ ﻫ) ودفن بفاس وقد انتظمت له كلمة البربر ومحا دعوة الخوارج وقطع المغرب عن دعوة العباسيين وضرب السكة باسمه

محمد بن ادريس (٢١٣ - ٢٢١ ﻫ) لما مات ادريس قام بالامر بعده ابنه محمد بعهد منه ولما تولى قسم المغرب بين اخوته باشارة جدته فاختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم لذلك من القبائل والبلاد واختص عمر بقبائل صنهاجة وغمارة وغيرهما واختص داود ببلاد هوارة وتازة وقبائل مكناسة وغيرها واختص يحيى بأصيلة والعرائش وبلاد ورغة وغير ذلك واختص عيسى بسلا وتامسنا وما انضم اليهما من القبائل واختص حمزة بمدينة وليلى وأعمالها واختص أحمد بمدينة مكناسة وغيرها واختص عبد الله باغمات وجبال المصامدة والسوس الاقصى وبقيت تلمسان لاولاد عمه سليمان بن عبد الله واستمرت بأيديهم الى أن تلاشى أمرهم بها بدخول العبيديين ثم أقام محمد بن ادريس بدار ملكه من فاس واخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وآمنوا سبلها ثم حصلت الفتن بعد ذلك بين الاخوة فافترقوا وتحاربوا ثم صفا الامر لمحمد بعد ذلك الى أن مات بمدينة فاس (٢٢١ ﻫ) بعد ان عهد بالامر لابنه علي ابن محمد المعروف بحيدرة وقام من بعده

علي بن محمد بن ادريس (٢٢١ - ٢٣٤ ﻫ) لما مات محمد بن ادريس كان علي ابن محمد صغير السن فقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب والبربر وأحسنوا كفالته وطاعته وسار بسيرة أبيه وجده في العدل فكان الناس في أيامه في أمن ودعة وكانت وفاته (٢٣٤ ﻫ) وعهد بالامر لاخيه يحيى

يحيى بن محمد بن ادريس (٢٣٤ - ٢٥٠ ﻫ) لما جلس يحيى على تخت بني ادريس امتد سلطانه وعظمت دولته واستمر عمران مدينة فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الرياض ورحل اليها الناس من البلاد البعيدة وفي زمنه بني مسجد القرويين الشهير بمدينة فاس وقام من بعده

يحيى بن يحيى (٢٥٠ - ٢٩٢ ﻫ) لما مات يحيى الاول قعد يحيى الثاني على تخت الادارسة فأساء السيرة وكثر عبثه في الحرم فثاروا عليه وأخرجوه من قصره وأشارت عليه زوجته بالاختفاء بعدوة الاندلس بفاس ريثما تسكن الفتنة فتوارى بها فمات من ليلته أسفا على ما صنع بنفسه وكتبت زوجته الى أبيها علي بن عمر بن ادريس صاحب الريف والسواحل تعلمه الخبر وتستدعيه واستدعاه أيضا أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء الى فاس فاستولى عليها وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر ابن ادريس صاحب الريف وتارة يكون في عقب القاسم بن ادريس ولما دخل علي بن عمر مدينة

فاس

فاس بايعه الناس ودخلت الكافة فى طاعته وخطب له بجميع المغرب الى ان ثار عليه عبد الرزاق الفهرى من الخوارج الصفرية وحصل بينه وبين على بن عمر حرب شديدة كان الظفر فى آخرها لعبد الرزاق فانهزم على وفر بنفسه ودخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الاندلس وخطب له بها وامتنع عنه أهل عدوة القرويين وبعثوا الى يحيى بن القاسم المتقدم ويعرف بالعوام فوصل اليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم ثم قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الاندلس فدخلها وبايعه أهلها وكان للامير يحيى بن القاسم حروب كثيرة مع الصفرية ثم اغتاله الربيع بن سليمان (٢٩٢ هـ) وفى زمنه حدث قحط شديد ببلاد المغرب وغلاء بالاندلس والمغرب وافريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة الى الشام وحدثت زلزلة عظيمة تهدمت منها المبانى وانحطت منها الصخور من الجبال وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الاندلس وجميع بلاد العدوة واستمرت المجاعة والوباء الى (٢٨٥ هـ) ولما قتل يحيى العوام ولى الامر من بعده يحيى الثالث بن ادريس وخطب له بفاس وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الادريسى أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان بطلا شجاعا ذا دين وورع لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه فى الدولة والسلطان الى أن طمع على ملكه عباب العبيديين القائم بافريقية فاغرقه وذلك ان عبيد الله المهدى أول الخلفاء العبيديين لما استولى على افريقية أراد تملك المغرب الاقصى فاغزاه قائده مصالة بن حبوس فزحف الى المغرب الاقصى (٣٠٥ هـ) وانتهى الى فاس فبرز اليه يحيى بن ادريس لمدافعته فى جموع العرب والبربر والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد الى فاس ثم تقدم مصالة الى فاس وحاصرها الى أن صالحه يحيى على مال يؤديه اليه وعلى البيعة لعبيد الله المهدى فقبل يحيى الشرط وأبقى عليه مصالة فى سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة وعقد لابن عمه موسى بن أبى العافية المكناسى على ماسوى ذلك من بلاد المغرب وبذلك دخل المغرب الاقصى فى يد العبيديين واندرجت دولة الادارسة فى دولتهم (٣٠٧ هـ) ثم ان موسى أوغر صدر مصالة على يحيى فقبض عليه وقيده بالحديد واستصفى أمواله ثم نفاه الى أصيلا ثم ساءت حالته بعد ذلك وافتقر ومات بالمهدية (٣٣٢ هـ) ثم خرج من الادارسة شخص يقال له الحسن بن محمد ويعرف بالحجام وطرد عامل العبيديين على المغرب واستولى على فاس فاجتمع الناس على بيعته ودخل فى طاعته أكثر قبائل البربر وكانت دولتهم أخذت فى الانحلال ودولة عبيد الله المهدى فى الاقبال فملك الحسن المذكور عامين ولم يتم له مطلب وانقرضت دولتهم فى جميع المغرب الاقصى وحمل أغلب الادارسة الى المهدى المذكور وولده الامن اختفى بالجبال (٣١٣ هـ) وبعد (٣٤٠ هـ) ثار ادريس من ولد محمد بن القاسم فاعاد الامامة لهذا البيت ثم تغلب على بر العدوة عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر الاندلسى وخطب فى تلك البلاد لبنى أمية بالاندلس ثم رجع عبد الملك الى الاندلس فاضطربت دولة بر العدوة فتغلب على فاس بنو أبى العافية الزناتيون حتى (٣٦٣ هـ) ثم ظهر يوسف ابن تاشفين أمير المسلمين واستولى على تلك البلاد واستأصل ذرية ابن أبى العافية بالمغرب وكانت دولة ابن أبى العافية بالمغرب ١٤٠ سنة (٣٠٥ - ٤٤٥ هـ) وكانوا متمسكين بدعوة الشيعة فكانوا كنواب عنهم بالمغرب الاقصى

وكان للادارسة ببلاد الريف دولة صغيرة لبثت على سبيل الاستقلال كما كانت لهم أولا بفاس بالمغرب انما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب أفريقية وإما من المروانيين أصحاب الاندلس و بقيت بلاد الريف بيد بنى ادريس يتوارثونها فلما انقرضت دولتهم بفاس على يد موسى بن أبى العافية تحازمن بقى منهم الى بنى عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة يقال لها حجر النسر و بقوا هنالك الى أن ذهبت رياستهم عاما (٣٦٣ هـ) ومن أشهر أمرائهم أبو العيش أحمد بن القاسم وعلى ذلك تكون مدة الادارسة بالمغرب من يوم بويع ادريس بن عبدالله (١٧٢ هـ) الى أن قتل الحسن بن كانون قتله المنصور بن أبى عامر الاندلسى (٣٧٥ هـ) مائتى سنة وثلاث سنين وشهرين تقريبا وكان عمالهم بالمغرب من السوس الاقصى الى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس وكان ينازعهم الملك دولتان عظيمتان دولة العبيديين بافريقية ودولة بنى أمية بالاندلس وكانوا زاجون الخلفاء الى ذروة الخلافة و يقعدبهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم

(الفصل السابع)

دولة العبيديين بالمغرب الاقصى

(٣٠٥ - ٤٢٧ هـ)

ومن الدول العظيمة التى استولت على بلاد المغرب الاقصى هذه الدولة المسماة أيضا بالمهدية والفاطمية والعلوية وسيأتى تاريخ أوليتهم وكيفية ظهورهم واستيلائهم على أفريقية عند الكلام على مملكة تونس أما استيلاؤهم على بلاد المغرب الاقصى فهو أنه لما بايع الشيعة عبيدالله المهدى أول خلفاء العبيديين وتوطدت قدمه سمت همته الى تملك المغرب الاقصى فاغزاه قائده مصالة بن حبوس فزحف مصالة الى المغرب الاقصى (٣٠٥ هـ) ولما انتهى الى فاس خرج لحربه يحيى بن ادريس فى جموع العرب والبربر فكانت الدائرة على يحيى كما تقدم ثم أتى مصالة الى فاس وحاصرها الى أن صالحه يحيى على جزية يؤديها والبيعة لعبيدالله المهدى ثم ولى العبيديون على المغرب غير يحيى موسى بن أبى العافية فكان هو وأولاده من بعده عمالا للعبيديين كما تقدم ولما بايع أهل المغرب آل مروان بالاندلس أرسل القاسم بن عبيدالله المهدى المتولى بعد أبيه قائده منصورا الخصى (٣٢٣ هـ) فافتتح فاس وكتب أهلها بيعتهم الى أبى القاسم وخطبوا له على منابرهم وكتبوا اسمه فى سكتهم ثم عاد منصور الى القيروان ولما بايع أبو العيش أحمد بن القاسم الادريسى لعبدالرحمن الناصر وخطب له على المنابر وعمت دولته بلاد الغرب أرسل المعز لدين الله العبيدى قائده جوهر بن عبدالله الرومى المعروف بالكاتب فى جيش كثيف وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار (٣٤٧ هـ) ولما اتصل خبره بخليفة الناصر على بلاد العدوة يعلى بن محمد اليفرنى صاحب طنجة حشد قبائل زناتة وخرج لملاقاة جوهر فالتحمت الحرب بين الفريقين ثم كانت الدائرة على خليفة الناصر المذكور وقتل يعلى وأرسل رأسه الى القيروان ثم تقدم جوهر وافتتح سجلماسة عنوة و بعدها تقدم نحو فاس (٣٤٩ هـ) و بعد حصارها اقتحمها عنوة بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا وهدم أسوارها ثم سار جوهر فى بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبى و يفتح البلاد والمعاقل نخافته البربر وفرت أمامه ومازال سائرا حتى انتهى الى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله

فى

فى قلال الماء وأرسلها الى مولاه المعز ثم انصرف راجعا بعد ان دوخ البلاد وأثخن فيها وقطع دعوة المروانيين منها وردها الى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر المغرب ثم عاد الى المهدية غانما ظافرا

ولما نكث بعض عمال العبيديين دعوتهم وتمسك بدعوة المروانيين بالاندلس خوفا منهم لقرب بلاده من بلادهم وأخذت الدعوة للامويين تتراجع بالمغرب الاقصى أرسل المعز لدين الله العلوى بلكين بن زيرى الصنهاجى فقاتل زناتة لانهم أول من جاهر بدعوة المروانيين وملك المغرب باسره وقطع منه دعوة الاموية وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب وانصرف ثم استفتح الحكم المستنصر الاموى ثانية بلاد المغرب الاقصى على يد قائده غالب الاموى الطائر الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء وجهزه فى جيوش وافرة وقال له عند وداعه يا غالب سر مسير من لا اذن له فى الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس فقدم غالب بلاد المغرب بجيوشه فافتتحه حتى دان له جميعه وغرب آل ادريس الى الاندلس ووطئ جميع بلاد المغرب ودوخ ملوكه وفرق العمال فى نواحيه وقطع دعوة بنى عبيد من جميع جهاته ورد الدعوة الى الامويين (٣٦٤ ﻫ) وفى (٣٦٩ ﻫ) زحف بلكين بن زيرى الصنهاجى عامل العبيديين على افريقية الى المغرب الاقصى وافتتح مدينة فاس فاستصرخ بعض الامراء المنصور بن أبى عامر الذى خرج فى عساكره الى الجزيرة الخضراء وأتت اليه ملوك زناتة فلما رأى بلكين الصنهاجى ذلك كر راجعا على عقبه وعاث ببلادنا مستنا من جهات المغرب وقطع منها ومن غيرها دعوة بنى أمية وبعد موته رجعت الدولة لهم وعفا عنهم المنصور بن أبى عامر وبقيت فى عقبهم الى أن ظهرت دولة الملثمين أو المرابطين

﴿ الفصل الثامن ﴾

دولة الملثمين بالمغرب الاقصى

(٤٦٢ - ٥٤٢ ﻫ)

ويقال لهم أيضا المرابطون وهم من صنهاجة وكان لصنهاجة بالمغرب دولتان عظيمتان احداهما دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين بافريقية ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين وقد سبقت الاشارة اليهم والاخرى دولة المُلَثَّمين بالمغرب الاوسط والاندلس وكان موطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان وهم أمم وقبائل كثيرة وانما قيل لهم الملثمون لانهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلا وقد اختلف المؤرخون فى سبب اللثام وكان دينهم فى أول الامر المجوسية الى أن أسلموا بعد فتح الاندلس وكانت الرياسة فيهم للمتونة وكان لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية الى الاندلس ثم افترق أمرهم بعد ذلك وما زال لصنهاجة أمراء يتولون الملك حتى ابراهيم بن يحيى الكدالى الذى ارتحل الى المشرق برسم الحج (٤٢٧ ﻫ) ولما قضى حجه قفل الى بلاده فمر فى عوده بالقيروان فلقى بها فقيها يقال له أبو عمران الفاسى فحضر درسه وتأثر بوعظه وتعرف به فسأله الشيخ المذكور عن بلاده وما ينتحل أهلها من المذاهب فعلم منه أن الجهل سائد فيها وأن نياتهم جيدة فى تعلم العلوم فارسل معه شخصا يقال له عبد الله بن ياسين الجزولى وكان من حذاق الطلبة وأهل الفضل والدين والسياسة ثم شرع الفقيه يعلم القوم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم

بآداب الشرع ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويلجهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة ويستميلهم الى الخير حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم تمر عليه الا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل فسماهم المرابطين للزومهم رابطته ثم حارب بعض القبائل لعدم تمسكها بقواعد الدين بعد أن نصحهم كثيرا فانتصر عليهم فعلا ذكره في جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان وطار له ذكر في العالم وأحبته الناس ولما مات يحيى بن ابراهيم جمع عبد الله بن ياسين رؤس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر واللمتوني وعبد الله بن ياسين هو الامير في الحقيقة لانه صاحب الامر والنهي واستقام الامر ليحيى وظهرت دولته واتسع ملكه وذلك بحسن نظر عبد الله بن ياسين ثم اجتمع فقهاء سجلماسة وغيرها وكتبوا الى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر كتابا يرغبون اليهم في الوصول الى بلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة الفسق من الامراء فخرج يحيى وعبد الله في عسكر عظيم من المرابطين (٤٤٧ ﻫ) وحصل بينهما وبين أمير مغراوة قتال كان النصر فيه لهما ثم تقدما ودخلا سجلماسة فأقاما بها حتى أصلحا شأنها ثم انصرفا الى بلادهما ولما توفي يحيى ابن عمر المذكور في بعض غزواته في بلاد السودان تولى مكانه أخوه أبو بكر بن عمر سنة (٤٤٨ ﻫ) وكان له حروب عظيمة انتصر في غالبها وكان على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين ثم قويت شوكة أبي بكر وتسمى بأمير المسلمين ومات (٤٦٢ ﻫ) فاتفقت كلمة أشياخ المرابطين على يوسف بن تاشفين لما يعلمونه من فضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه فبايعوه ثم سار الى المغرب وافتتحها مدينة مدينة وحصنا حصنا واتسع ملكه وقوي أمره وطلب تقليدا من خلفاء بني العباس وبعث في ذلك الى الخليفة المستظهر بالله العباسي عبد الله بن محمد العربي الاشبيلي ووالده القاضي أبا بكر بن العربي الامام المشهور فتلطفا في القول وأحسنا في الابلاغ وطلبا من الخليفة ان يعقد لامير المسلمين بالمغرب والاندلس فعقد له وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما الى نظره من الاقطار والاقاليم ولما ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه (١) ولما استفحل أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب ودوخ بلاده واستنزل ثواره وعظم صيته عزم على بناء مدينة يأوي اليها بحشمه وجنده وتكون حصنا له ولارباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه (٤٥٤ ﻫ) فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الانيقة واتخذها عاصمة للمرابطين ثم جند الجنود واستكثر من القواد وافتتح مدينة فاس وغيرها وامتد ملكه وعظم شأنه وضخم أمره وتلقب بأمير المسلمين وعليه جرى خلفاؤه من بعده

وفي هذا الوقت كان ملك الاسلام بالاندلس تضعضع وافترق الى ملوك كثيرين كما تقدم ولما ظهر أمر يوسف بن تاشفين أرسل اليه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية يعلمه بحال بلاد الاندلس وما آل اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة فأبطأ عليه يوسف لانه كان مشغولا بفتح بعض البلاد الساحلية كسبتة ومليلية وغيرهما ولهذا ذهب المعتمد بن عباد بنفسه الى

(١) كان نقش ديناره لا اله الا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وعلى الدائرة ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وكتب على الصفحة الاخرى عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته اﻫ

المغرب لاستنفار يوسف الى الجهاد ولما التقيا أخبره ابن عباد بحال الاندلس وما هو عليه من الضعف وشدة الخوف فقال له يوسف ارجع الى بلادك وجهز حالك فانى على أثرك فرجع ابن عباد الى الاندلس ونزل ليوسف بن تاشفين عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ثم دخل يوسف سبتة ونظر فى أمرها وأمر ببناء الاساطيل بها وقدمت عليه الجنود فشرع فى اجازتها الى الاندلس (٤٧٩ هـ) ثم عبر هو فى أثرها فى موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجادهم واجتمع اليه عسكر الاندلس وجرى بينه وبين الادفونش وهو الفونس السادس ملك قشتاله قتال شديد نصر الله فيه المسلمين وانهزم الفرنج وقتل منهم ما لا يحصى وهذه الواقعة المسماة بواقعة الزلاقة هى أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالاندلس وبعد ذلك ملك يوسف غرناطة وأخذها من صاحبها عبد الله بن باديس الصنهاجى ثم غلب على ملوك الطوائف بعد أن استفتى العلماء فى ذلك لانحراف ملوك الطوائف عن الاستقامة ومساعدة بعضهم الاسبانيول وعدم نجدتهم له فى حروبه معهم فصار له ملك الاندلس والمغرب كله وله سيرة طويلة مذكورة بالتواريخ واستمر نافذ الكلمة الى ان توفى (٥٠٠ هـ) فكانت مدة ملكه ٣٨ سنة وكان حازما سائسا للامور ضابطا لمصالح مملكته مؤثرا لاهل العلم والدين كثير المشورة لهم حتى ان الامام الغزالى لما سمع بسيرته عزم على التوجه اليه فبلغه خبر وفاته وهو بالاسكندرية ويقال انه وجد فى بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب وكان مع ذلك رحمه الله زاهدا فى الدنيا وزينتها وزهرتها متقشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها

وقام بالامر من بعده أمير المسلمين على بن تاشفين بعهد منه وكان له غزوات بالاندلس ووقائع كثيرة وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لانه صادف البلاد ساكنة والاموال وافرة والرعايا قائمة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة فسار فى طريق أبيه واهتدى بهديه وتوفى سنة ٥٣٥ هـ فمدة ملكه ٣٥ سنة وفى زمنه استولى الفرنج على كثير من حصون المسلمين ومدنهم من ذلك سرقسطة لعدم تناصرهم وتخالفهم وفى زمنه كان ظهور المهدى صاحب دعوة الموحدين واستفحال أمرهم عند ما فشت كلمتهم فى عموم البربر بالمغرب

وقام من بعده ابنه أبو المعز تاشفين بعهد من أبيه ثم قتل سنة (٥٣٩ هـ) فى الحرب التى كانت بينه وبين عبد المؤمن بن على رئيس الموحدين فى واقعة يقال لها واقعة كهف الضحاك بالقرب من جبل تيطرى وهرب تاشفين فى حماية محمد بن ميمون قائد البحر للمرابطين وبوصوله الى وهران لحقته الموحدون وقتلوه سنة (٥٤٢ هـ)

وقام بعده فى مراكش ابنه ابراهيم فخلعوه لجهله بتدبير الملك ثم ملك عمه اسحق بن على بن يوسف ابن تاشفين وفى أيامه كان انقراض دولة المرابطين أو الملثمين على يد عبد المؤمن خليفة محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين فكانت مدة دولتهم نحو ثمانين سنة وكانت دولتهم مدة سطوتها تمتد من مدينة أفراغة من قاصية شرق الاندلس الى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الاندلس وبر العدوة من جزائر بنى مزغنة الى طنجة الى آخر السوس الاقصى الى جبال الذهب من بلاد السودان

الفصل التاسع

دولة الموحدين بالمغرب الاقصى

(٥١٤ - ٦٦٨ هـ)

ظهور محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

كان للمصامدة وهم من أكبر قبائل البربر في صدر الاسلام بجبال درن بمراكش عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لاخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم وكان منهم قبل الاسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدى وقيامهم بدعوته وكانت لهم دولة عظيمة من لمتونة بالعدوتين ومن صنهاجة بافريقية وأصل المهدى من هرغه من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت وزعم كثير من المؤرخين ان نسبه في أهل البيت وكان أهل بيته أهل نسك ورباط وكانت ولادته (٤٨٥ هـ) وشب المهدى قارئا محبا للعلم ثم ارتحل لطلبه الى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار العلم ثم لحق بالاسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جماعة من فحول العلماء وأفاد علما واسعا وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ولقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بما في صدره فأراده عليه ولما حج أقام بمكة مدة مديدة وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعا ناسكا متقشفا كثير الاطراق مقبلا على العبادة وكان شجاعا فصيحا في لساني العرب والبربر ثم خرج من مكة الى مصر ومنها الى الاسكندرية وركب البحر متوجها الى بلاده ولما انتهى الى المهدية وكانت يومئذ ليحيي بن باديس وهناك علا ذكره وقصده الناس ثم انتقل الى بجاية ووجد ببعض قراها عبد المؤمن صاحب دعوته وغيره ممن التف عليه ثم توجه بمن معه الى مراكش وبها يومئذ أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فشرع محمد بن تومرت في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى حسن ظنون الناس فيه ثم بلغ أمير المسلمين عنه انه يقول هو وأصحابه بتغيير الدولة ولما أرادوا القبض عليه فر وخرج من مراكش الى بلادة اغمات ومن هناك ذهب هو وطائفته الى جبل تينملل فأكرمهم أهله من المصامدة وأجابوا دعوته وتبعوا أمره على القيام بالدين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبايعوه على انه المهدى المنتظر ثم انتشر ذكره وجاءته الناس من كل فج وسمى أتباعه الموحدين وكان ابن تومرت يذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الاسلام وما غير فيها وما حدث من الظلم والفساد وانه لا تجب طاعة دولة من هذه الدول ثم أرسل عليهم على بن تاشفين جيشا فهزموه ثم آخر أثخنم منه (٥١٩ هـ) فحاصرهم في جبلهم وضيق عليهم وكاد المصامدة يتخذلون عنه فأعمل الحيل الغريبة في ذلك هو وأصحابه حتى مالوا اليه واستماتوا في صحبته ثم نازل جيش أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٢٤ هـ) وبعد أن أوقع به جمع جيشا آخر وسار لحصار مراكش وفي تلك الاثناء مرض المهدى ومات (٥٢٤ هـ) وكان أوصى بأن الامر من بعده لعبد المؤمن ابن على رفيقه ووزيره

ولما بويع عبد المؤمن تسمى بأمير المؤمنين ولم يزل يقوى ويعلو أمره حتى صار له جيوش كثيرة

ووقع

ووقع بينه وبين المرابطين حروب يطول ذكرها قتل فيها من الطرفين أكثر من مائة ألف ثم ملك فاس ومراكش وغيرهما واتسع ملكه واستولت جيوشه على ثغور سبتة وسلا وطنجة ودخل فى زمرته رجال الموحدين وفى (٥٤٠ هـ) من ملكه نزع على بن عيسى بن ميمون قائد أساطيل المرابطين طاعتهم وانحاز الى الموحدين فتقوى الموحدون بذلك وأخذوا فى الاكثار من بناء السفن والاساطيل بجميع الثغور ثم ان عبد المؤمن جهز فى السنة المذكورة يوسف بن مخلوف بجيش عظيم من الموحدين وأرسله بالاساطيل لفتح الاندلس من يد عمال المرابطين وصار بعد ذلك يرسل الجيوش تباعا الى الاندلس الى ان استولى عليها تماما (٥٤٥ هـ) وأزال منها دولة المرابطين ثم تقدم بعد ذلك عبد المؤمن بنفسه الى أفريقية وساق أسطولين بحرا تحت قيادة يحيى بن عبد العزيز ففتح الجزائر وتونس والمهدية ثم استولى على كثير من ثغور الاندلس وبلاده التى كانت وقعت فى يد الاسبانيول وانتصر انتصارا عظيما على الملك الفونس ملك طليطلة وبينما كان عبد المؤمن يستعد لغزو الفرنج بالجيوش الكثيرة والاساطيل العديدة وافته منيته (٥٥٨ هـ) وكان فصيحا فقيها عالما بالاصول والجدل والحديث مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية ذا حزم وسياسة واقدام فى الحرب ميمون النقيبة لم يقصد قط بلدا الا فتحه ولا جيشا الا هزمه محبا لاهل العلم والادب مكرما لوفادتهم مروجا لبضاعتهم ومن آثاره بناء مدينة جبل طارق (٥٥٥ هـ) ومن أعماله أيضا أنه أمر فى هذه السنة بتكسير بلاد أفريقية والمغرب فكسر من برقة من جهة الشرق الى السوس الاقصى من جهة الغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ثم أسقط من التكسير الثلث فى الجبال والغياض والانهار والسباخ والحزون والطرق ومابقى قسط عليه الخراج

وكان عبد المؤمن كثير الاهتمام بحماية بلاده من العدو برا فانه لما تمهد له ملك المغربين وأفريقية والاندلس وأطاعته سائر الاقطار تفرغ لشأنه وتاقت نفسه للجهاد فعزم على غزو بلاد الفرنج برا وبحرا فأمر (٥٥٧ هـ) بانشاء الاساطيل فى جميع سواحل ممالكه فانشؤا له منها ٤٠٠ قطعة فمنها بحلق الوادى والمهدية ١٢٠ قطعة ومنها بطنجة وسبتة وبادس ومراسى الريف ١٠٠ قطعة ومنها ببلاد أفريقية ووهران ومرسى هنين ١٠٠ قطعة ومنها ببلاد الاندلس ٨٠ قطعة ونظر فى استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح وأمر بضرب السهام فى جميع ممالكه فكان يضرب له منها كل يوم نحو عشرة قناطير

وقام بالامر من بعده أكبر أولاده محمد بعهد منه ولم يتم له الامر لانه كان على أمور لا يصلح معها للملك من إدمان شرب الخمر واختلال الرأى وكثرة الطيش وجبن النفس فاضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع وكانت ولايته ٤٥ يوما (٥٥٨ هـ)

وقام بالامر من بعده أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن فبايعه الناس وأول شىء فعله بعد البيعة ان سرح الجيوش المجتمعة للجهاد الى بلادهم وقبائلهم وكان والده جمعهم بقصد الغزو كما سبق وكتب الى البلاد بتسريح السجون وتفريق الصدقات ثم أتته البيعة من جميع بلاد أفريقية والاندلس ماخلا قرطبة وبجاية فان ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك ثم قدما عليه فاحسن وفادتهما ولما استقام له الامر وثبت قدمه أرسل الجيوش الى جزيرة الاندلس فأنقذوا عدة مدائن كان يحاصرها الاسبانيول وفتحوا غيرها عنوة وصلحا ثم تاقت نفسه للغزو والعبور الى بلاد الاندلس بقصد اصلاح

حالها وجهاد العدو بها فعبر اليها فى مائة ألف من العرب والموحدين (٥٦١ ﻫ) وتسلم جميع بلاد شرق الاندلس من أولاد محمد بن مردنيش ثم خرج قاصدا الغزو فأثخن فى بلاد العدو ورجع الى أشبيلية وبنى بها مسجدا عظيما وصنع على وادى اشبيلية جسرا من القوارب وحصن سورها وجلب اليها ماء غزيرا ثم تجهز على مدينة قفصة من أفريقية وافتتحها (٥٧٦ ﻫ) ولما بلغه منازلة أدفونش بن شانجة مدينة قرطبة عبر بالجيوش من سبتة وتقدم نحو الشمال يريد حصار شنترين وبينما هو على حصارها وقد فارقته جيوشه ليلا بغلطة قواده خرج عليه المحصورون لما رأوه فى نفر قليل وقاتلوه حتى جرح جرحا بليغا ثم مات فى عودته الى مراكش (٥٨٠ ﻫ) وكان رقيق الطباع حلو الالفاظ طيب المجالسة أعرف الناس وأحفظهم بأيام العرب الجاهلية والاسلام وكان فقيها حافظا لان أباه هذبه وقرنه بوباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف فنشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ومن قراءة العلم بين أفاضل العلماء وكان ميله الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الادب وبقية العلوم وكان له دار كتب جمع فيها كثيرا من المؤلفات المهمة وكان ممن صحبه من العلماء الوزير أبو بكر محمد بن الطفيل الفيلسوف الشهير ومنهم ابن رشد المعروف بالحفيد وغيرهما من فحول الادباء والعلماء وكان يوسف بعيد الهمة ضابطا لمملكته عارفا بالسياسة جوادا ومدة ملكه ٢٢ سنة

لما توفى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بويع ابنه أبو يوسف يعقوب وفى أول دولته أغار ابن غانية المسوفى صاحب جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة بأسطوله على بجاية على حين غفلة من أهلها سنة (٥٨١ ﻫ) فافتتحها ثم استولى على الجزائر ثم على مليانة فأرسل عليه يعقوب بن يوسف الجيوش ففر ابن غانية الى الصحراء فى أخبار طويلة ثم عاود ابن غانية الاغارة على بلاد أفريقية وظاهره على ذلك قرة قوش الغزى من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها ولما بلغ يعقوب الملقب بالمنصور ذلك نهض بنفسه ثم تلاقى مع جيوش ابن غانية الذى كان يساعده قرة قوش الغزى وانتشب الحرب فكانت الهزيمة أخيرا على ابن غانية وأفلت من المعركة بنفسه ومعه خليله قرة قوش ثم سار يعقوب الى مدينة قابس وكانت لقرة قوش فافتتحها واسترد غيرها من المدن التى كان افتتحها ابن غانية سنة (٥٨٤ ﻫ) وبعد ذلك بسنة تحرك الى الاندلس برسم الغزو فعبر من قصر المجاز الى الجزيرة الخضراء ومنها حتى نزل شنترين [1] وشن الغارة على أشبونة وأبلغ فى النكاية بها ثم انصرف الى بر العدوة بسبى كثير وقبل اغارته على أشبونة كان وصل اليها أسطول مؤلف من ٦٠ سفينة عليه عشرة آلاف من جنود المانيا وجهات الرين السفلى وبلاد الفلمنك وكانوا آتين من زيارة بيت المقدس فأنزل هذا الاسطول تلك الجنود على شواطئ غاليسيا بجهات سان جاك (شانت ياقوب) بقصد زيارة كنيستها فانتشر الخبر بين السكان بأن هؤلاء القوم أتوا لسرقة رأس القديس ونهب الاموال المدخرة بكنيسة تلك المدينة فحملوا السلاح جميعا وأتوا لصدهم حتى اضطروهم للنزول فى سفنهم ثانية وفى هذا الوقت أيضا أقبل أسطول آخر للانكليز والفلامان الى مدينة أشبونة فتعاهد معهم سانشو ملك البرتغال على

(١) شنترين مدينة ببلاد البرتغال من مقاطعة استرامادورة واقعة على الشاطئ الايمن من نهر تاجه استردها الفونس الاول من يد المسلمين سنة (١١٤٧ م) وتسمى عند الفرنج (Santarem)

محاربة المسلمين ويقال أيضا ان الاسطول الاول الذى صده أهالى غاليسيا أتى وانضم الى هذا الاسطول وبذلك صار ملك البرتغال معضدا بأسطول جسيم فلهذا أرسل جيشا على مدينة بيجا (١) ويابورة (٢) للاستيلاء عليهما وكان الموحدون أخذوهما منه فى السنة الماضية فلما سمع المنصور بذلك وباستيلائهم على بعض مدنه وقتلهم غالب من بها من السكان والحامية أرسل عليهم جيشا قويا تحت قيادة والى قرطبة وماز الوا ينازلونهم حتى استردوا منهم جميع ما استولوا عليه من المدن وأخذوا منه عددا عظيما من الاسرى ومقدارا وافرا من الغنائم سنة (٥٨٧ هـ)

وكانت الفرنج فى الحروب الصليبية قد ملكوا سواحل الشام فى آخر الدولة العبيدية فلما استولى السلطان صلاح الدين على ديار مصر والشام وأخذ فى منازلة الفرنج وقوى عليهم أتت الامدادات من أوروبا بالاساطيل واعترضوا أسطول صلاح الدين فى البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئذ فبعث صلاح الدين الى المنصور سنة (٥٨٥ هـ) يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام وأوفد عليه أبا الحرث بن منقذ من بيت ملوك شيزر طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج والامدادات المتواصلة اليهم وبعث معه الى المنصور بهدية نفيسة

ولما وقف المنصور على كتاب صلاح الدين ورأى تجافيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك وأسرها فى نفسه وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة ورده الى مرسله ولم يجبه الى حاجته وهذا دليل عظيم على تفرق كلمة الاسلام فى ذلك الوقت فان المنصور أخذته العزة لانه لم يخاطب بألقاب العظمة والجلالة حيث كانت عنده أعز من ضياع بلاد المسلمين وزوال مملكتهم عامله الله بما يستحق

ولما علم الفرنج بالاندلس اشتغال المنصور بأمر أفريقية وحروب ابن غانية قام الفونس هنرى كيز ملك البرتغال ووسع حدوده من جهة الجنوب واستولى على عدة حصون فى تخوم مملكة الموحدين واستعد أيضا فردبنند ملك ليون للاغارة على جهات وادى يانه واستولى على بعض المدن وكان يرسل الامداد لمحمد بن سعد بن مردنيش ليشجعه على مناضلة الموحدين فكتب المنصور الى قواده بالاندلس يوبخهم على ذلك فخرجوا فى جيوش كثيرة واستردوا ما فتحه الافرنج بعد حصار واستولوا على غيره ثم عادوا بالسبى الكثير ثم لما انتهى الخبر بأن الفرنج عاثوا فى بلاد الاندلس عيثا فظيعا تجهز لقتالهم فى جيش عرمرم وعبر البحر (٥٩١ هـ) واتصل الخبر بالفونس التاسع ملك قشتالة فجمع خلقا كثيرا وأقبل بهم نحوه وجرى بين الطرفين قتال بمكان يقال له الارك (٣) وبعد أن دارت رحى الحرب زمنا بين الطرفين انهزم الفرنج وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة واحتووا على جميع ما كان لهم من الاموال والذخائر وأنواع السلاح التى تفوق الحصر ورجع أمير المؤمنين ومعه من السبى والاسرى والغنائم شئ كثير مبسوط فى التواريخ وهذه الواقعة من أكبر وقائع الاسلام بالاندلس ثم تلاقى الموحدون والفرنج بعد ذلك (٥٩٢ هـ) قرب طليطلة فانهزم الفرنج أيضا وغنم المسلمون ما معهم من الاموال

---

(١) بيجا مدينة صغيرة ببلاد البرتغال كانت تسمى قديما باكس جوليا لها أسوار قديمة عليها أبراج (Beja)

(٢) مدينة حصينة ببلاد البرتغال كانت تسمى قديما أيبورا بها مبان رومانية قديمة وبقايا هيكل للمعبود ديان استولى عليها العرب عند فتح أسبانيا سنة (٧١٥ م) ثم استردها الفرنج منهم سنة (١١٦٦ م) وتسمى عند الفرنج (Evora)

(٣) هى مدينة ببلاد قشتالة الجديدة تسمى عند الفرنج (Alarcos) اشتهرت بالواقعة المذكورة

والسلاح ثم تقدم بعد ذلك وفتح عدة حصون بجهات طليطلة مثل قلعة رباح ووادى الحجارة (١) ومجريط (مدريد) وجبل سليمن وبينما كان المنصور يجهز على الفرنج بلغه خبر على بن اسحق المعروف بابن غانية وانه دخل أفريقية ثانية يريد الاستيلاء عليها ففت ذلك فى عزمه وهادن ملوك الفرنج ولو أراد لافتتح فى هذه الغزوة طليطلة لولا خروج والدة ادفونش وبناته ونسائه باكيات بين يديه وسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن بها ثم تمكن المنصور من قهر ابن غانية وطرده من أفريقية وقد شيد المنصور بالاندلس والمغرب كثيرا من المبانى الفاخرة كالمساجد والمدارس والمارستانات والحصون والصوامع والقناطر والآبار وحصن عدة مدن بالاندلس والمغرب وكان المنصور ذا رأى وحزم ودين وسياسة وهو واسطة عقد ملوك الموحدين وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وقد أخذ المنصور البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله فلما تمت جلس فى محل الخلافة وجرت الاحكام والاوامر باسمه وعلى يديه فى حياة أبيه ثم دخل المنصور قصره فلزمه (٥٩٥ ﻫ) وقد اختلفت الروايات فى أمره فمن الناس من يقول انه ترك ما كان فيه وتجرد وساح فى الارض حتى انتهى الى بلاد المشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ومنهم من يقول انه لما رجع الى مراكش توفى بها وقيل توفى بمدينة سلا وقيل انه دفن بعد موته بالقرب من قرية المجدل من أعمال البقاع العزيزى القريبة من دمشق

لما مات يعقوب المنصور جددت البيعة لولده **محمد الناصر لدين الله بن يعقوب** فى اليوم الذى مات فيه أبوه ولما تمت له البيعة أخذ فى اصلاح مدينة فاس وتحصينها وكان أمر ابن غانية لما هلك المنصور قوى واستولى على طرابلس والمهدية وبلاد الجريد وتونس (٥٩٩ ﻫ) فأطاعه أهل البلاد وانتظمت له أعمال افريقية وفرق العمال وخطب للخليفة العباسى ولما اتصل هذا كله بالناصر امتعض من ذلك وخرج لحرب ابن غانية (٦٠٠ ﻫ) فبعث الاسطول فى البحر تحت قيادة يحيى بن أبى زكريا وسار هو على الجيش البرى ولما قرب الناصر من افريقية استعد ابن غانية لملاقاته ثم أخذ يفر من أمامه من مدينة الى أخرى ثم التقت به جيوشه فهزمته وفتح الناصر المهدية بعد حصار طويل (٦٠٢ ﻫ) ثم تحرك الناصر الى المغرب بعد أن رتب أموره وسدد ثغوره واستخلف على افريقية ثقته ووزيره أبا محمد عبد الواحد أبى حفص جد الملوك الحفصيين ثم بعث جيوشه واسطوله على جزيرة ميورقة التى كانت لبنى غانية المسوفيين وكان امتنع فتحها على والده فافتتحها واستمرت فى يد عماله حتى أخذها الفرنج (٦٢٧ ﻫ)

وكان الفونس ملك قشتالة دخل اقليم الاندلس مع جيش عظيم وأخذ فى التخريب والنهب والاسر ولما امتلأت يده من الغنائم رجع الى بلاده ثم تقابل مع ملكى نافار وأراغون وعقد معهما عهدا حربيا ليمحو عنه العار الذى لحقه بهزيمة الارك ثم أخذ فى الاستعداد وجمع الجنود وأغار على اقليم الاندلس وتقدم حتى وصل أبواب مرسية ثم رجع الى طليطلة بالغنائم الوافرة ولما اتصلت الاخبار بالناصر وهو بمراكش بما صنعه الفونس ومحالفيه واستطالته على ثغور المسلمين أهمه ذلك

(١) مدينة باسبانيا بمقاطعة قشتالة الجديدة وقاعدة عمالة مضافة اليها استولى العرب عليها سنة (٧١٤ م) عند فتح اسبانيا ثم استردها منهم الفونس السادس ملك قشتالة سنة (١٠٨١ م) وتسمى عند الفرنج (Guadalajara)

وأقلقه وأخذ في الحركة للجهاد ففرق الاموال على القواد وكتب الى جميع بلاد افريقية والمغرب يستنفر المسلمين للغزو فأجابه خلق كثير وتسارع الناس اليه من البوادي والامصار فلما تكاملت لديه الجنود عبر الى الاندلس واحتل مدينة طريف فتلقاه هنالك قواد الاندلس ورجالها ثم تقدم بهذا الجيش الذي كان يبلغ عدده (٦٠٠) ألف مقاتل كما رواه المؤرخون وأمر كل فرقة من جيشه ان تنزل ناحية فاهتزت جميع بلاد الفرنج لذلك وخافوه فأخذوا في تحصين بلادهم واخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب اليه أكثر امرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو (٦٠٨ هـ)

ثم زحف الفونس ملك قشتالة ومن انضم اليه من ملوك أراغونية ونافار وغيرهما من أمراء أوروبا وكان نادى فيهم أنوسان الثالث بابا رومية بحرب المسلمين لان ملك قشتالة كتب له قبل ذلك يستنجده ويعلمه بما صارت اليه حالة الاسبانيول من الضعف وقلة المعين وأرسل أيضا الفونس عظماء كهنته الى بلاد فرانسا وأواسط أوروبا بالطلب النجدة وتلاقى الجيشان بمكان يعرف بحصن العقبان (١) ثم ضرب المصاف ونصبوا للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وقعد امامها على درقته وفرسه قائم بازائه ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول امام العبيد مع الوزير ابن جامع وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ثم تناوش الفريقان زمنا ولم تكن الا ساعة حتى انهزم عسكر الاندلس وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب وركبتهم الفرنج بالسيف ثم فر الناصر وامامه كبكبة عظيمة من العبيد محيطة به والفرنج في أعقابهم تقتل وتاسر حتى أقبل الليل وكانت هذه الهزيعة المنكرة خامس عشر صفر (٦٠٩ هـ) فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والاندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج الى ان تدارك الله سبحانه وتعالى الامر بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني كما سيأتي وكان السبب في هذه الهزيمة المنكرة نصارى الاندلس الذين أظهروا الاسلام خصوصا وزيره أبا سعيد بن جامع لانه كان تمكن من الناصر وأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الرأي منهم عن بساطه وانفرد هو به فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف جلبت الكرة على المسلمين كما بسط ذلك مؤرخو العرب وبعد زمن قليل تراجعت الفرنج الى الاندلس بعد هذه الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين فلقيهم أبو زكريا بن أبي حفص وزير الناصر قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بذلك ولما قدم الناصر منصرفا من وقعة العقاب أو العقبان أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فبايعه كافة الموحدين (٦٠٩ هـ) ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه وانغمس في لذاته حتى مات مسموما بتدبير وزرائه عليه (٦١٠ هـ) وقال ابن الخطيب ان الناصر صرف همه بعد تلك الواقعة المشؤمة الى غزو الاندلس للاخذ بالثار في عزم لم يبلغ اليه ملك قبله ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت (٦١٠ هـ) فانحل العزم وتفرقت الجموع فمدة ملكه خمس عشرة سنة

لما مات الناصر بويع ابنه يعقوب يوسف (٦١٠ هـ) وقام أمراء الموحدين بأمره

(١) وهو حصن باسبانيا شمالي جيان اشتهر بهذه الواقعة التي انهزم فيها الناصر (١٦ يوليه ١٢١٢ م) وتسمى هذه الواقعة أيضا بواقعة لورقة (Lorca) أما الحصن فيسميه الفرنج (Navas-de-Tolosa)

واستبدوا عليه لانه ولى أعمامه وأقاربه العمالات وكان جميعهم يطمع فى الملك وفى زمنه فشل أمر الموحدين وأشرفت دولتهم على الهرم واستولى الفونش التاسع ملك الاسبانيول على الحصون التى أخذها المسلمون وهزم حامية الاندلس وكان يوسف فى أثناء ذلك يشتغل عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب وظهر فى مدته أيضا بنو مرين بجهة فاس (٦١٣ ه) ولم يتمكن من منع تقدمهم بل استطالت يدهم على كثير من النواحى بعد ان هزموا له عدة جيوش وفى عصره أيضا انهزم المسلمون هزيمة منكرة بالاندلس فضعف أمرهم جدا وتسمى هذه الواقعة بواقعة قصر أبى دانس (٦١٤ ه) وفى عصره أيضا استبد الحفصيون بملك افريقية واقتطعوها عن نظر بنى عبد المؤمن وكانت وفاته من نطحة بقرة شرود فى بستانه لانه كان مولعا باستنتاج الحيوان (٦٢٠ ه)

وبعد وفاته اجتمع الموحدون وبايعوا عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن وكان فى سن الشيخوخة فاستقام له الامر نحو شهرين ثم اتحد الموحدون وبعض عمال الاندلس على عبد الواحد فخلعوه ثم قتلوه (٦٢١ ه) وهو أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن

ثم قام بالامر من بعده أبو محمد عبد الله العادل بن المنصور بويع له البيعة الاولى بمرسية من بلاد الاندلس ثم التاث عليه الامر بعد أمور يطول شرحها فانحرف عنه الموحدون وبايعوا أخاه أبا العلاء ادريس بن يعقوب صاحب الاندلس (٦٢٤ ه) وكان العادل خيرا فاضلا وبعد ذلك ندم الموحدون على مبايعتهم أبى العلاء فنقضوا بيعته وبايعوا يحيى بن الناصر ابن المنصور وكان شابا غرا ليكون أطوع لهم وبعد ذلك بقليل اضطربت الاحوال على يحيى وانتقضت البلاد وعم الفساد ببلاد المغرب واستحوذ بنو مرين على ضواحيه واقتضوا جباياته وكان من أشهر الثوار فى زمنه محمد بن أبى الطواجين الكتامى وكان ينتحل صناعة الكيمياء ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وكثر تابعوه ثم نبذوا طاعته لما علموا بأمره ثم قتلوه

أما بلاد الاندلس فانه لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الاندلس وقام على رأس الثوار بها رجل من أعقاب بنى هود الجذاميين وكسر جيوش الموحدين بالاندلس وخطب للخليفة المستنصر العباسى صاحب بغداد ثم دانت الاندلس جميعها لابن هود (٦٢٩ ه) ثم استقر الامر بالاندلس بين ابن الاحمر وابن هود وتجاذبا حبل الملك بها زمنا وفى تلك الاثناء استولى الفونش المتقدم الذكر على كثير من حصون الاندلس ومدائنه ثم استقر ابن الاحمر فى الملك وأورثه بنيه من بعده

ولما علم أبو العلاء المأمون ان الموحدين نقضوا بيعته وبايعوا ابن أخيه يحيى كتب الى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين فأرسل له جيشا من الفرنج على شرط أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو وان يبنى فى مراكش اذا دخلها جيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم وان من أسلم منهم لا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم وغير ذلك فرضى المأمون بجميع ما طلب عامله الله بما يستحق فكان بذلك أول من أدخل عساكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها ثم تقدم بجيوشه الى أن التقى بجيش يحيى فانهزم يحيى ودخل المأمون

مراكش عنوة وبايعه الموحدون وأمر بعد ذلك بتغيير السنن التي ابتدعها المهدي للموحدين ومحا كذلك اسم المهدي من السكة والخطبة ثم انتقم من أشياخ الموحدين على ما فعلوه معه فقتلهم جميعا ومع ذلك فان الايام لم تسالمه فخرجت عليه الثوار من كل جهة فمات غما (٦٢٩ هـ) فكانت أيامه أيام شقاء وعناء افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر وقد ذهبت نخوة دولة الموحدين على يده وكان فصيح اللسان فقيها حافظا للحديث عارفا بالقرا آت مقدما في علم اللغة والعربية والادب وأيام الناس كاتبا بليغا

لما مات المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد (٦٣٠ هـ) بمساعي أمه وكانت من دهاة النساء ثم اقتتل جيش الرشيد مع جيش يحيى فانهزم يحيى وما زال الرشيد يحارب جموع يحيى حتى بدد شملهم وقتل يحيى أخيرا (٦٣٣ هـ) وبايعه غالب الموحدين الذين كانوا مع يحيى وكانت أحوال دولة الموحدين في زمنه مضطربة الحبل كما هي العادة في أواخر الدول لتفرق الاهواء وتشتت القلوب وانحلال العزائم ومن الوقائع الشهيرة في زمنه منازلة فرنج جنوة مدينة سبتة بسفن لا تحصى ونصبهم عليها المنجنيقات وآلات الحصار حتى استولوا عليها ولما لم يتمكن الموحدون من نجدتها لما هم فيه من الفتن والشغب صالح أهل سبتة الفرنج في الافراج عنهم فقبلوا وأقلعوا بسفنهم وفي زمنه أيضا انتشر بنو مرين ببلاد المغرب وامتد نفوذهم وقهروا جيوش الرشيد مرارا ثم مات الرشيد غريقا في بعض صهاريج بستانه بمراكش (٦٤٠ هـ)

لما مات الرشيد بايع الموحدون أخاه لابيه أبي الحسن علي السعيد وفي أول حكمه استفحل الخطب واتسع الخرق وبايع كثير من مدن المغرب أبا زكريا الحفصي صاحب أفريقية ولما حصل ذلك جمع السعيد الجموع العديدة وسار بها نحو أعدائه الحفصيين وغيرهم فسالمته مدن كثيرة وأذعن له بالطاعة في مسيره عدة قبائل ومع ذلك فلم تساعده الايام حيث قتل بينما كان يتطلع أخبار العدو (٦٤٦ هـ)

ولما قتل السعيد اجتمع كبراء قواده وبايعوا عبد الله ابنه الا انه قتل في الطريق ثم ان فل الموحدين بمراكش بايعوا عمر المرتضى عامل مدينة رباط فاستقام أمره وقاتل بني مرين فهزمهم واستخلص منهم عدة مدائن الا انه لما أراد أن يستخلص من يدهم مدينة فاس هزمت جنوده ففر الى مراكش في جمع قليل من الاشياخ والفرنج وأقام بها معرضا عن بني مرين طول حياته وفي زمنه خرج عليه ثائر شهير يدعى بأبي دبوس واستولى على مراكش وغيرها من المدن (٦٦٥ هـ) ففر المرتضى منهزما والتجأ الى أحد عماله فلم يجره وقبض عليه لحزازة في نفسه منه وسلمه الى الثائر المذكور فقتل في السنة المذكورة وكان متصوفا زاهدا فاضلا عفيفا

وبعد مقتل المرتضى اجتمع كافة الموحدين وأهل الحل والعقد والفقهاء وغيرهم وبايعوا أبا دبوس بمملكة مراكش وأعمالها وتلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله فنظر في راحة الرعايا وبذل العطاء ورفع المكوس ثم تقاتل أبو دبوس بجيوش الموحدين مع عبد الحق أمير بني مرين فانتصر عبد الحق على خصمه وقتله وبذلك تم له الاستيلاء على جهات فاس ومراكش بأجمعها (٦٦٨ هـ) وفر الموحدون الذين بمراكش الى جبل تينملل (١) فبايعوا اسحق بن ابراهيم أخا المرتضى

(١) قال ياقوت تينملل جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البرابرة بين أولها ومراكش نحو ثلاثة فراسخ بها كان

فبقي هنالك الى (٦٧٤ هـ) ثم قبض عليه وجيء به الى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وغيره من أقاربه فقتلهم جميعا وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الارض وكانت مدة ملكهم مائة وأربعة وسبعين سنة

وقد كانت دولة الموحدين من أعظم الدول وأقواها وأضخمها وقد نالت الشهرة العظيمة في الاعمال البحرية وكانت مملكتها واسعة الاطراف حصينة الاكناف نالت من السلطة وارتفاع الشأن مالم تنله دولة المرابطين فكانت تحد جنوبا بالصحراء الكبرى وغربا ببحر الظلمات وشرقا بالرمال الفاصلة لها عن مصر وشمالا ببحر الروم ومضيق طارق الواقعة بشماله بلاد الاندلس التي كانت الغرض التي ترمي اليه فتوحات الموحدين وكانوا يملكون بها جميع القسم المسمى الآن ببلاد الاندلس بتبعه مدن اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية بحيث كانت جميع شواطئ الوادي الكبير تابعة لهم وكان يفصل مملكتهم بالشمال الشرقي عن مملكتي قشتالة وابن سعد الذي كان يحكم بلنسية ومرسية المعاهد لنصارى اسبانيا جبال شاهقة وحصون منيعة ووديان ضيقة وكان للموحدين غير ماذكر عدة مدن على الشاطئ الايمن من وادي يانة الذي كانوا يملكون جميع شاطئه الايسر وكان لهم أيضا جميع القسم الجنوبي من بلاد البرتقال الحالية المسماة باقليم الغرب وبذلك كانت دولة الموحدين عرضة من هذه الجهات لاغارات أعدائهم

(الفصل العاشر)

دولة بني مرين بالمغرب الاقصى

(٦١٤ - ٨٩٠ هـ)

أولية هذه الدولة وأصلها اعلم ان بني مرين هم من جيل زناتة بالمغرب وكانوا قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فجيج الى سجلماسة الى ملوية وربما يتخطون في ظعنهم الى بلاد الزاب ويتصل نسب مرين جدهم بزناتة ابن يحيى أبي الجيل وللنسابين أقوال مختلفة عن أصلهم ضربنا عنها صفحا ولما هم يعقوب المنصور ملك المرابطين بغزو فرنج الاندلس استنفرهم الى غزوة الارك فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن وكان رئيسهم اذذاك محيو بن أبي بكر اصابته في تلك الواقعة جراحات هلك منها (٥٩٢ هـ) أما سبب دخولهم بلاد المغرب فانه لما كانت وقعة العقاب بالاندلس (٦٠٩ هـ) وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب حتى خلت البلاد من أهلها وحدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي أهلك الناس الا قليلا ومات الناصر بايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لايحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية كما تقدم فتضافرت هذه الاسباب على الدولة الموحدية فاضعفتها حينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا في ملاشاتها وكان بنو مرين يومئذ يتنقلون بين قفار المغرب وصحاريه لايدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون اليها ضريبة ولا يعرفون تجارة ولا حرفا انما شغلهم الصيد والغارات على أطراف البلاد وكانوا يترددون على منابت الكلا صيفا ثم يرحلون عنها شتاء ولما كانت (٦١٠ هـ)

أول خروج محمد بن تومرت المسمى بالمهدي الذي أقام الدولة ومات فصارت لعبد المؤمن ثم لولده اهـ وجبل تينملل أنهار جارية وأشجار وزروع والطريق اليه صعب فلا جبل أحصن منه

أقبل بجمعهم على عادته للميرة فلما أطلوا على المغرب ألفوه قد تبدلت أحواله و بادت خيله ورجاله فاغتنموا الفرصة وأقبل من كان منهم لا يزال فى وطنه وانتشروا فى نواحى المغرب واقتسموا بالغارات والنهب بسيطه ولجأت الرعايا من ذلك الى الحصون والمعاقل وكان رئيسهم لما دخلوا المغرب عبد الحق ابن محيو ولما كثر عيثهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم رفعت الشكايات الى خليفة مراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر فجهز لهم جيشا كثيفا وأمر عماله باستئصالهم ثم لما التقى الجمعان كان الظهور لبنى مرين على الموحدين (٦١٣ هـ) وزحف الامير عبد الحق الى بعض المدن فافتتحها وفرق جميع الاسلاب والغنائم على جنوده بحيث لم يمسك لنفسه منها شيأ فكان ذلك من أكبر الاسباب فى اجتماع القلوب عليه ثم تضافر الموحدون مع كثير من عرب المغرب على قتال بنى مرين وطردهم من البلاد ولما علم بنو مرين بذلك اجتمعوا الى أميرهم عبد الحق فصبرهم وقال لهم يا معشر مرين اما مادمتم فى أمركم مجتمعين وفى آرائكم متفقين وكنتم على حرب أعدائكم أعوانا وفى ذات الله اخوانا فلا أخشى ان التقى بكم جميع أهل المغرب وان اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم ثم بايعوه على السمع والطاعة وعدم الاختلاف ثم نهضوا مع أميرهم للقاء عدوهم فكانت بينهم حروب دموية قتل فيها الامير عبد الحق وكبير أولاده ادريس (٦١٤ هـ) ولما رأت بنو مرين ماوقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت أن لا يدفن حتى يؤخذ بثاره ثم استأنفوا القتال وصبروا صبرا جميلا فنصرهم الله على عدوهم وشردوهم فى الشعاب والاودية واحتووا على أموالهم وكان عبد الحق مشهورا بالتقى والفضل والدين موصوفا بالعدل والانصاف وكان لقومه فيه اعتقاد غريب

ولما قتل عبد الحق بايع بنو مرين ابنه الامير أبا سعيد عثمان ولما رأى الامير أبو سعيد ما عليه دولة الموحدين من الاضمحلال وما نزل بالمغرب من الجور والعسف سار على رأس جيش فأخضع المدن والحصون وضرب عليها الاتاوة فى كل سنة ومازال ذلك دأبه حتى مات قتيلا (٦٣٨ هـ)

ولما هلك الامير أبو سعيد قام بالامر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق فاقتفى طريق أخيه فى تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وباديته وحصل بينه وبين الرشيد بن المأمون حرب كان النصر فيها له ثم ان الموحدين جمعوا جموعهم ونازلوا بنى مرين فهزموهم وقتل أميرهم أبو معرف (٦٤٢ هـ)

وقام بالامر بعده الامير أبو بكر بن عبد الحق وهو الذى رفع شأن بنى مرين وأوصل مملكتهم الى مرتبة الدول القوية وهو أول من جند الجنود منهم وضرب الطبول ونشر البنود وأول شئ بدأ به تقسيمه بلاد المغرب وقبائله بين بنى مرين وأقطع كلا منهم ناحية جعلها له طعمة وكان هذا الامير فى أول أمره يدعو لابى زكريا بن أبى حفص صاحب أفريقية وباسمه افتتح مدينة مكناسة (٦٤٣ هـ) ولما انتهى الخبر الى السعيد صاحب مراكش بتغلب الامير أبى بكر على البلدان وجم لذلك وفاوض وزراءه وأعاظم دولته وأراهم كيف أن بنى مرين اقتطعوا الامر عنه شيأ فشيأ حتى لم يبق للموحدين غير مدينة مراكش وما حولها بعد أن امتد ملكهم على المغربين وأفريقية والاندلس كما سبق شرح ذلك فى آخر دولتهم ولما تجهز السعيد لحرب أبى بكر والحفصيين وخرج فى جمع كثيف علم الامير أبو بكر

أن لا طاقة له بلقائه ففر وتحصن فى قلعته أما السعيد فانه تقدم الى مكناسة وفاس واستولى عليهما ثم حاصر الامير أبا بكر بقلعته فعند ذلك طلب الامير أبو بكر الامان وأرسل له ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالامان ولما هلك السعيد أثناء محاصرته تلمسان انتهز الامير أبو بكر الفرصة فى فل الموحدين وانتزع منهم ما بايديهم واتخذ من يومئذ المركب الملوكى ثم صار الى مكناسة فدخلها بالامان (٦٤٦ هـ) ثم بايعه أهل فاس على شرط الذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم وبعد ان افتتح غيرها من المدن رجع الى فاس فاقام بها واستقامت له الاحوال فعمرت القرى وأمنت الطرقات وسارت التجار وصلح أمر الناس ومازال الامير أبو بكر يفتتح البلدان ويقهر القبائل حتى طار ذكره وارتفع أمره ولذلك أجمع المرتضى ملك الموحدين النهوض بنفسه الى بنى مرين (٦٥٣ هـ) فى جمع كثيف ولما التقى الجمعان وصدقهم بنو مرين الجلاد اختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى فرجع الى مراكش مقهورا واستولى بنو مرين على معسكره وانتهبوا أمواله وامتلأت أيديهم من الغنائم وكانت وفاة أبى بكر بمدينة فاس (٦٥٦ هـ)

وقام بالامر من بعده الامير أبو حفص عمر الا أن كبراء بنى مرين وأهل الحل والعقد فيهم مالوا الى مبايعة عمه يعقوب بن عبد الحق ثم انتهى الامر بعد جدال بينهما على أن يقتطع يعقوب ابن عبد الحق لنفسه قسما من البلاد وبذلك خلص الامر لعمر واستمر بفاس أشهرا الى ان غلب عليه عمه المذكور

أما الامير يعقوب بن عبد الحق فانه لما انفصل عن الامير عمر بولاية الجهة التى أخذها لنفسه اجتمع عليه كافة بنى مرين ولاموه على ما كان منه من التخلى عن الملك وعدوه من أنفسهم المظاهرة الى أن يتم أمره فاجاب وبايعوه ولما خرج بجيشه يريد مدينة فاس قابله الامير عمر بجموعه ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه مقادا الى فاس مغلوبا ثم ان عمه عفا عنه وأقطعه مدينة مكناسة (٦٥٧ هـ) واستبد يعقوب بالامر ونفذت كلمته ببلاد المغرب خصوصا بعد قتل الامير عمر واقتفى مذهب أخيه الامير أبى بكر فى فتح أمصار المغرب وتدويخ جهاته وكان من أعظم أعماله انقاذه مدينة سلا من أيدى الاسبانيول وكانوا استولوا عليها (٦٥٨ هـ) ولما انتهى السلطان يعقوب من أمر الثوار عليه من أهل عشيرته صمم على منازلة الموحدين فى دار ملكهم فحشد الجيوش لذلك وخرج قاصدا حصار مراكش (٦٦٠ هـ) فقابلتهم جنود الموحدين خارج مراكش وكان بينهم حرب بعد العهد بمثلها ولم تكن غير ساعة حتى هزمت عساكر الموحدين هزيمة منكرة وأخيرا تم الامر لبنى مرين بفتح مراكش بمساعدة أبى دبوس ابن عم المرتضى خليفة الموحدين وقائد حربه ولما فر المرتضى من مراكش نزل على صهره ابن عطوش فقتله كما تقدم ثم ان أبا دبوس نقض عهد الوفاء المعقود بينه وبين السلطان يعقوب واستبد بحكم مراكش ثم كان بين يعقوب ونصراء أبى دبوس حرب شديدة انتصر فيها بنو مرين (٦٦٦ هـ) وآخر الامر تمكن يعقوب من فتح مراكش لنفسه خالصة وقتل أبا دبوس فى ساحة القتال (٦٦٨ هـ) ثم أغزى أولاده وقواده البلدان ففتحوها ودخلوا أقطارها ومحيت من وقتئذ آثار الموحدين وزالت دولتهم والامر لله وحده

ولما رسخت قدم يعقوب بالمغرب واتسع سلطانه قطع دعوة الحفصيين أصحاب تونس وافريقية بعد ان كان يدعو اليها هو واخوته من قبله وكان بنو أبى حفص يفرحون لذلك ويهادون بنى مرين

ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما أراد السلطان يعقوب افتتاح سجلماسة بعد ان انتظم فى ملكه جميع بلاد المغرب وانتزعها من أيدى بنى عبد الواد المتغلبين عليها نهض اليها (٦٧٢ ﻫ) فى جموع بنى مرين وقبائل المغرب ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات[1] وغير ذلك قال ابن خلدون ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة بارئها وهو يدل على ان البارود[2] كان

(١) واحدها عرادة من آلات الحرب أصغر من المنجنيق ترمى بالحجارة المرمى البعيد قيل هى من التعريد بمعنى العدو

(٢) البارود مزيج مركب من نيترات البوتاس والفحم والكبريت يستعمل دافعا وتاريخ اختراعه ومخترعه مجهول ومن العبارة الآتية تعلم السنون التى استعمل فيها البارود حسب رواية بعض ثقات المؤرخين وهو انه فى سنة (٨٠ م) كان الصينيون بحسب رواياتهم قد أخذوا عن الهند استعمال البارود وقال ميرانه فى سنة (٢١٥ م) ذكر يوليوس أفريقانوس طريقة تحضير البارود وفى سنة (٦٦٨م - ٤٨ ﻫ) أوضح كلينيكوس من هالبوبوليس (بعلبك) للبيزانطيين استعمال النار الاغريقية والمظنون انها كانت مخلوطا كالبارود محتويا على راتينج وبترول ومن المحقق انها لم تكن سائلا كما ذكر فى صحيفة ١٨٩ من هذا الكتاب لانه فى رأى بعض المؤلفين انها كانت تستعمل لدفع كرات حجرية من الانابيب وربما كانت مع ذلك مخلوطا كمخلوط الاسهم النارية أو الكرات المحشوة وفى سنة (٧١ ﻫ - ٦٩٠ م) استعمل العرب على مكة المكرمة سلاحا ناريا أخذوا استعماله عن الهند وفى سنة (٨١١ م - ١٩٦ ﻫ) استعمل الامبراطور لاون الخامس الارمنى سلاحا ناريا وفى سنة (٨٤٦ م - ٢٣٢ ﻫ) ذكر مرقس غراخوس أحد المؤلفين اليونانيين فى كتابه (خط يقال انه موجود فى اكسفورد) مخلوطا مركبا من ليبره (١) من الكبريت وليبره (٢) من الفحم وليبره (٦) من ملح البارود وفى سنة (٨٨٠ م - ٢٦٧ ﻫ) صنع لاون الملقب بالفيلسوف أسهما نارية لعساكر الامبراطورية الرومانية الشرقية وفى سنة (١٠٧٣ م - ٤٦٦ ﻫ) حاصر سليمن ملك المجر مدينة بلغراد وأطلق عليها المدافع وفى سنة (١٠٨٥ م - ٤٧٨ ﻫ) جرت موقعة بحرية بقرب طليطلة فأطلقت سفن تونس نارا كالرعد وفى سنة (١٠٩٨ م - ٦٣٠ ﻫ) استعملت السفن اليونانية المدافع فى حربهم مع البيزيين (جمهورية من ايطاليا) وفى سنة (١٢٣٢ م - ٦٣٠ ﻫ) استعمل التتار فى محاربة الصينيين أنابيب نارية وفى سنة (١٢٣٨ م - ٦٣٦ ﻫ) استعمل دون جايم (Jayme) الاول ملك الاراغون عند حصار مدينة بلنسية كرات نارية كانت تنشق وفى سنة (١٢٤٧ م - ٦٤٥ ﻫ) أطلقت الاسبانيول على اشبيلية المدافع وفى سنة (١٢٤٩ م - ٦٤٧ ﻫ) لما زحف الملك لويس التاسع ملك فرانسا على دمياط عندما كان الملك الصالح بن الكامل مريضا فدافعت جيوشه عن نفسها بكرات نارية محشوة وكان الصليبيون فى تلك الموقعة وغيرها يخشون الكرات المذكورة كثيرا وفى سنة (١٢٨٠ م - ٦٧٩ ﻫ) توفى البرنس مانيوس فى ايطاليا وكان راهبا واعظا ذكر بعض المؤلفين القدماء انه وضع باللاتينية بعض ألفاظ بمعنى اطلاق المدافع وما أشبه ذلك وفى سنة (١٢٩٤ م - ٦٩٤ ﻫ) توفى روجر باكون وهو الذى أشار فى تآليفه اشارة واضحة الى صفات البارود المخربة وما يحدثه من الرعد والبرق أمر مشهور ويوجد الآن فى معمل الاسلحة بامبرغ من باڤاريا مدفع قديم مؤرخ فى سنة (١٣٠٣ م - ٧٠٣ ﻫ) وفى سنة (١٣٠٨ م - ٧٠٨ ﻫ) كان للاسبانيول مدافع امام جبل طارق وفى سنة (١٣١١ م - ٧١١ ﻫ) أطلق هنرى السابع امبراطور المانيا على براشيا المعروفة الآن باسم برازا (جزيرة فى الادرياتيك) بقرب ساحل دالماشيا مدافع ذات صوت كالرعد وفى سنة (١٣١٢ م - ٧١٢ ﻫ) كان لعرب الاندلس مدافع أمام بازا المسماة عندهم بسطة (مدينة فى ولاية غرناطة) ولم يزل فيها الى الآن بعض مدافع من المدافع التى استعملها العرب وقتها وفى سنة (١٣٣٦ م - ٧٣٧ ﻫ) أطلقت المدافع على مرتوس (من أعمال الاندلس) وقد زعم بعض المؤرخين ان الصينيين عرفوا خواص البارود وكانوا يستعملونه للدافع فى حروبهم قبل الميلاد بقرون متعددة غير انهم لم يأتوا على ذلك ببراهين جيدة أما تاريخ استعماله فى الهند فلا يزال مجهولا ونسب بعضهم اكتشافه الى كيماوى خلط أجزاء فى هاون بوجه الاتفاق فجاءت متوافقة

موجودا فى ذلك التاريخ وان الناس كانوا يستعملونه فى حروبهم وبعد ان أقام السلطان على حصار المدينة المذكورحولا كاملا افتتحها (٦٧٣ هـ) وكمل بفتحها فتح بلاد المغرب جميعها حيث لم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته

وكانت ملوك الاسبانيول بالاندلس اقتطعوا من يد المسلمين غالب حصونهم واستولوا على مدينتى قرطبة واشبيلية قاعدتى أهل الاندلس والتجأ ابن الاحمر بمن معه من المسلمين الى سيف البحر معتصمين بمعاقله وحصونه واتخذ ابن الاحمر مدينة غرناطة قاعدة له وابتنى بها السكنى حصن الحمراء فلما ضايقهم العدو عزموا على ارسال وفد منهم الى السلطان يعقوب يستنصرونه فأوفدوا لذلك جميع مشيخة الاندلس عليه فلقيهم أحسن ملتقى وأكرم مثواهم وأمر من وقته بتجهيز الجنود وحشد العساكر وجهز أسطولا لعظيم النقل لهم (٦٧٣ هـ) وعقد راية الحرب لابنه على خمسة آلاف فارس فتوغلوا فى ديار العدو ثم عادوا وقد امتلأت أيديهم من الاموال والسلاح وهى أول نصرة انتصر فيها المسلمون على الاسبانيول بعد واقعة العقاب المتقدمة الذكر ثم انه لما علم السلطان بان العدو أخذ فى الاستعداد للخروج على بلاد المسلمين عزم على الخروج بنفسه الى دار الحرب ثم كانت بينه و بين قائد الفونش ملك قشتالة المدعو فى تواريخ العرب بالدون نونه واقعة عظيمة انتصر فيها بنو مرين نصرا مبينا (٦٧٤ هـ) وغنم بنو مرين من الاسبانيول أموالا لا تحصى وفى (٦٧٥ هـ) دعا السلطان جميع قبائل العرب الى الجهاد للغزو وفرغ الاندلس فنزل على اشبيلية فانتسف أرباضها بعد ان هزم حاميتها وافتتح عدة معاقل وبعد ان استراح أياما ندب الجنود الى غزو قرطبة (٦٧٦ هـ) ثم ارتحل عنها بعد ان استولى على بعض

وغطى الهاون بحجر فلما اشتعل المخلوط اندفع الحجر الى مسافة بعيدة وذهب كثيرون الى أن مكتشفه يدعى بارتولد شورتس وهو راهب من هرتس أو ربلندو بعد اكتشافه اطلع عليه أهل البندقية سنة (١٣٨٠ م – ٧٨٢ هـ) فى أثناء الحرب التى كانت حاصلة بينهم و بين الجنوز بين فغاظ ذلك ممالك ايطاليا لمخالفته قوانين الحروب العادلة وقال غيره من المؤرخين انه لما حاصر الفونس التاسع ملك قشتالة العرب سنة (١٣٤٣ م – ٧٤٤ هـ) أطلقوا عليه بعض هاونات من مدافع كان يسمع لها صوت كصوت الرعد القاصف وتثبت هذه الرواية ما ذكره بدروس أسقف لاون فى تاريخ الملك الفونس المذكور وقال غير ذلك والحاصل ان مخترع البارود لم يزل مجهولا والظاهر ان العلماء مختلفون فيه وفى زمن اختراعه وقد تبين انهم ربما خلطوا اختراع البارود بازمان معرفته التى امتدت من قطر الى قطر والمظنون انه لم يحصل لاستعماله أهمية فى الحرب قبل أوائل القرن الرابع عشر للميلاد ثم استعملت المدافع بعد ذلك وامتد استعمالها عند الامم شيأ فشيأ وكان للانكليز سنة (١٣٧٨ م – ٧٨٠ هـ) ٤٠٠ مدفع امام سانت مالو وفى سنة (١٣٩٧ م – ٨٠٠ هـ) فتحت بعض المعادن بالبارود واستعمله العثمانيون فى حصار فينا العاصمة سنة (١٥٢٩ م – ٩٣٦ هـ) وكانت دولة انكلترة تبتاع البارود من اسوج وغيرها من البلدان الى ان شرعت معاملها بصناعته فى سنة (١٥٦٠ م – ٩٦٨ هـ) ومازال أهل أوروبا يتوسعون فى عمل البارود والمدافع الضخمة و يجيدون صناعتهما لما لهما من الفوائد العظيمة فى الحروب حتى توصلوا الى اختراع أنواع كثيرة من البارود منها صنف للحرب وصنف للصيد وصنف للالغام وصنف للتجارة الخارجية ومن أحسن أصناف البارود المخترع وأقواها النوع المسمى بارود القطن وهو شديد الفرقعة جدا و يحصل من القطن ببعض عمليات كيماوية و يستعمل فى الالغام البحرية وخلافها وصناعة البارود و بيعه فى فرانسا وانكلترة وأكثر ممالك أوروبا محصوران فى الحكومة و بعض الدول تمنع دخوله لبلادها من بلاد أجنبية وفى هذا الوقت الاخير توصلوا من طول البحث ودقة المراقبة الى اختراع أنواع كثيرة من بارود بلا دخان له وقد كاد استعماله يكون عموميا فى سائر الممالك ومن البارود أيضا نوع هائل الفرقعة شديد الصوت عظيم التأثير يسمى بالديناميت و بيع هذا النوع وصناعته ممنوعتان فى كل الممالك لما يحدث عنه من الاخطار المريعة اهـ ملخصا من دائرة المعارف

حصونها

حصونها كل ذلك والعدو لا يجسر على ملاقاته ثم ان الفونش جنح الى السلم وبعث القسيسين والرهبان للوساطة فأحالهم السلطان يعقوب على ابن الاحمر ليرى فى ذلك رأيه ولما وصلوا الى ابن الاحمر قالوا جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر ولا حرب وأقسموا له الايمان المغلظة فأجابهم ابن الاحمر الى مطلوبهم بعد عرضه على أمير المسلمين فانعقد الصلح وقفل السلطان يعقوب من غزوته جاعلا طريقه على غرناطة احتفاء بابن الاحمر وخرج له عن الغنائم كلها ثم عاد السلطان غانما منصورا بعد أن استولى على مالقة برضا محمد بن اشقيلولة أميرها (٦٧٧ ﻫ) وقد اهتزت الدنيا بعقدمه وامتلأت القلوب سرورا بنصرته ثم وقعت بعد ذلك الفتن بين السلطان وابن الاحمر واستحكمت البغضاء وعاهد ابن الاحمر الادفونش على نصرته فنكث لذلك الادفونش عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزى أساطيله الجزيرة الخضراء واتفق ابن الاحمر والادفونش على منع السلطان يعقوب من عبور البحر وراسلا أيضا أعداء السلطان بجهات الغرب للخروج عليه وازال العوائق المانعة له من حركته وكان السلطان هم بالجواز الى أرض الاندلس لولا خروج الثوار عليه فارسل لذلك ولى عهده بجيش لانقاذ أهل الجزيرة الخضراء مما هم فيه من الضيق (٦٧٨ ﻫ) وكان السلطان قد كتب الى الثغور باعداد الاساطيل وعمارتها لحمل الجيش ورأى ابن الاحمر ما نزل باهل الجزيرة فندم على فعلته وأعد أساطيل من المنكب والمرية ومالقة فبعثها مددا للمسلمين حتى بلغت أساطيل المسلمين بعد ذلك ٧٢ أسطولا واجتمعت كلها بمرفأ سبتة فى أحفل زى وأكمل استعداد ثم أقلعت حتى أتت الجزيرة الخضراء وأساطيل العدو يومئذ تناهز الاربعمائة أسطول ثم التحم القتال بين الطرفين فلم يكن غير قليل حتى اختل مصاف الاعداء فتساقطوا فى البحر واستولى عليها المسلمون وأسروا قائدها ولما رأى الباقون من الجنود البرية ما حل بالاساطيل داخلهم الرعب وفروا الى حينهم

وفى (٦٨١ ﻫ) قدم على السلطان يعقوب كتاب من ملك قشتالة المدعو هراندة مع وفد من بطارقته مستصرخا به على ابنه شانجة [1] الخارج عليه فى طائفة من الاسبانيول وانهم غلبوه على أمره زاعمين انه شاخ وضعف عن تدبيرهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأملا لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان هذه الفرصة وسار فى الحال معهم حتى احتل الجزيرة الخضراء ودعا بالنفير الى الجهاد فاجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس ثم قدم عليه هراندة فأكرم السلطان وفادته قال ابن خلدون لما اجتمع هراندة بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما لقدره ثم التمس من السلطان أن يمده بشئ من المال يستعين به على حرب أعدائه فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه ثم تقدم السلطان مع الطاغية ودخل دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانجة الخارج عليه مع شيعته فقاتلها أياما ثم رحل الى جيان وطليطلة ومجريط ثم عاد بعد أن خرب حصون تلك المدن ودك أسوارها وانتسف مزارعها وامتلأت أيدى الجنود من الغنائم وهذا هو الجواز الثالث للسلطان يعقوب الى الاندلس ثم تقرر الصلح بين السلطان وابن الاحمر ففرح الناس بذلك وتجددت عزائم المسلمين ثم عزم السلطان (٦٨٣ ﻫ) على الجواز الى الاندلس برسم الجهاد مرة رابعة فافتتح حصونا وغنم أموالا لا تحصى وعاد بعد ذلك الى بلاد المغرب بعد عرض

(١) هو سانشو الرابع (Sancho) ملك قشتاله وليون وهو الابن الثانى لالفونس العاشر ملك قشتاله وعلى ذلك يكون هراندة المذكور هو الفونس العاشر

الاسطول بالجزيرة الخضراء ولما رأى شانجة ملك الاسبانيول ما حل ببلاده وقومه من النهب والقتل والصغار أوفد وزراءه على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء يطلبون منه السلم والمهادنة فقبل السلطان منهم واشترط عليهم ماقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته فى ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين وعدم الدخول بينهم فى فتنة فقبل شانجة ذلك وأكد فى الوفاء بهذه الشروط ثم رغب شانجة فى الوفادة على أمير المسلمين لعرض الصلح عليه وكان السلطان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء شانجة وقومه فاحتفلوا وتأهبوا (٦٨٤ هـ) ثم تقدم شانجة فلقيه أمير المسلمين باحسن مبرة وأتم كرامة وقدم له شانجة بين يديه هدية من طرف بلاده وكمل عقد السلم وقبل شانجة سائر الشروط ثم انقلب الى قومه وسأله السلطان ان يبعث اليه بكتب العلم التى بايدى الاسبانيول منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه ثلاثة عشر حملا ثم مرض السلطان يعقوب ولم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف الى ان توفى بقصره من الجزيرة الخضراء بأرض الاندلس (٦٨٥ هـ) وقد كان رحمه الله حليما متواضعا جوادا منصور الراية صواماقواما مقربا للعلماء ولما استقام له الامر بنى المبانى الخيرية كالبيمارستانات للمجانين والمجذومين والعمى والفقراء وأجرى على الكل المرتبات والنفقات وبنى المدارس لطلبة العلم وأوقف عليها الاوقاف الكثيرة

لما مات السلطان يعقوب بايع الوزراء والاشياخ أولاده وولى عهده *الناصر لدين الله يوسف* (٦٨٥ هـ) ولما استتب له الامر فرق الاموال فى الناس وأجزل صلات الجنود وأزال المكوس وكف أيدى الظلمة واعتنى كثيرا بتأمين الطرق لتمهيد أمر التجارة ثم اجتمع مع ابن الاحمر وعقد معه صلحا دائميا وتنازل له عن الثغور الاندلسية التى كانت لابيه ماعدا الجزيرة الخضراء ورُندة وطريف ثم نفرقا على أحسن ما يكون من المصافاة ثم وفدت عليه وفود شانجة ملك الاسبانيول مجددين عقد الصلح الذى أعطاه لهم السلطان يعقوب ومن أول ملكه تآمر عليه بنو ادريس وبقايا الموحدين فأبادهم قتلا وتشريدا وفى (٦٩٠ هـ) بلغه وهو عائد من حصار تلمسان ان شانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فأوعز السلطان الى قائد المسالح بالاندلس أن يوطئ الخيل أرض الاسبانيول ويحاصر مدنهم ويخرب ديارهم ثم التحق به السلطان يوسف وأخذ فى اجازة البحر مع جنوده وكان شانجة بعث أساطيله الى بحر الزقاق لتمنع جيوش المغرب من العبور فأمر السلطان يوسف قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا ولما تقدمت تلاقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق وكانت الهزيمة على المسلمين وقتل قواد الاساطيل فأمر السلطان باستئناف العمارة ثم أغزاهم ففروا من وجهه وملكت أساطيله بحر الزقاق وبذلك تمكن من العبور ثم دخل دار الحرب وأثخن فى الاعداء وردد الاغارات على اشبيلية وشريش وغيرهما ولما أقبل الشتاء رجع الى الجزيرة الخضراء (٦٩١ هـ) ثم ان ابن الاحمر اتحد مع شانجة على منع السلطان من الجواز مرة أخرى ولذلك ساعده على الاستيلاء على مدينة طريف لانها أعظم ثغور بحر الزقاق واليها تلتجئ أساطيل السلطان العديدة فتقدم شانجة وحاصر طريف براو بحرا حصارا شديدا وكانت الاقوات والمدد من الرجال والسلاح تصله من ابن الاحمر ولما أصاب أهل طريف الجهد راسلوا شانجة فى الصلح فصالحهم (٦٩١ هـ) ولم يوف لهم شرطه

على

على نفسه لابن الاحمر فندم ابن الاحمر على فعله ورجع الى التمسك بالسلطان يوسف فأوفد عليه وزيره فى وفد لتجديد العهد وتأكيد المودة ولما عاد اليه الوفد بما يرغب طار فرحا وعزم على الحضور بنفسه الى السلطان لتأكيد العقد وطلب مساعدته فى نصرة بلاد الاندلس فقابله السلطان وأكرم وفادته وأتحفه ابن الاحمر بهدية كان من أحسنها موقعا لدى السلطان المصحف الكبير الذى يقال انه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة

وكان السلطان يميل لفتح باب المراسلة والمهاداة مع ملوك مصر ليساعدوا ركب الحج المغربى على قضاء الفريضة براحة تامة بما أنهم أصحاب الحرمين الشريفين ففى سنة (٧٠٣ ﻫ) بعث السلطان مع ركب الحاج المغربى هدية الى ملك مصر لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون استكثر فيها من الخيل والمطايا الفارهة وغير ذلك من تحف المغرب وأرسل له صاحب مصر هدية عظيمة من الثياب والحيوانات الغريبة وغيرها وكانت وفاة السلطان (٧٠٦ ﻫ) مطعونا طعنه خصى اسمه سعادة وكان السلطان يوسف مهيبا جوادا مشفقا على الرعية يتفقد أحوالها بنفسه شجاعا هماما وهو أول من هذب ملك بنى مرين وأكسبه رونق الحضارة وعزة السلطان وفى عصره كان ظهور البارود واستعماله فى الحرب وهو أول من جعل المولد النبوى عيدا من الاعياد فى جميع بلاده وفى زمنه أيضا (٦٩٣ ﻫ) كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم الذى عم بلاد المغرب وأفريقية ومصر

وقام بالامر من بعده السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله وفى زمنه ظهر كثير من الثوار ببلاد المغرب وكانت وفاته (٧٠٨ ﻫ) وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر

وقام بالامر من بعده السلطان أبو الربيع سليمان وفى زمنه استراح الناس وكثرت الارزاق وتنافس الناس فى البناء واستفحل العمران وفى زمنه أيضا خرج أهل سبتة على بنى الاحمر ورجعوا الى طاعة بنى مرين (٧٠٩ ﻫ) فخاف ابن الاحمر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد شوكة بنى مرين لاستيلائهم على فرضة سبتة فبادر الى عقد السلم مع السلطان أبى الربيع وأوفد لذلك رسله متبرعا بالنزول عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونهما ترغيبا للسلطان فى الجهاد فقبل منه ذلك وبعث اليه أبو الربيع بالمدد أموالا وخيولا واتصلت بينهما المسالمة الى أن توفى السلطان المشار اليه وكانت وفاته (٧١٠ ﻫ) بعد أن أثخن فى حاشية الخوارج عليه وشيعتهم بالقتل والسلب

وقام بالامر من بعده السلطان أبو سعيد عثمان وكان من أهل العلم والحلم جوادا متواضعا غير ميال لسفك الدماء ولما بايعوه سرح الكتب الى النواحى فى طلب البيعة وقام بالامر أحسن قيام واستوثق له الملك وتفقد الدواوين وحط المغارم فصلح حال الناس فى أيامه وأنشأ كذلك الاساطيل العديدة بدار الصناعة من مدينة سلا (٧١٠ ﻫ) ثم خرج عليه الامير أبو على ابنه وهزم جيوشه وحاصره بمدينة تازا ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه على أن يخرج له السلطان عن الامر ويقتصر على تازا وجهاتها فرضى السلطان بذلك وشهد الوزراء والقواد عليهم ثم عادت اليه الدولة من حيث لا يحتسب ورد عليه حقه المسلوب بلا تكلف ثم أقطع ابنه الثائر سجلماسة (٧١٥ ﻫ) فأقام بها دولة عظيمة وافتتح كثيرا من جهاتها ولما كانت (٧١٨ ﻫ) أغار دون بدرو (بطره) ملك قشتالة على مدينة غرناطة لانقطاع غزو بنى مرين عن الاندلس واشتغال من أتى بعد السلطان

يوسف بن يعقوب بحصار تلمسان وبالثوار ببلاد المغرب عازما على استئصال بقية المسلمين بالاندلس ولما رأى أهل الاندلس ذلك وأن لاقبل لهم على مقاومة جيش العدو البالغ مائة وخمسة وثلاثين ألفا بين مشاة وفرسان بعثوا بصريخهم الى السلطان أبي سعيد وقدم عليه وفدهم بمدينة فاس الا أنهم لم يفلحوا وأخفق سعيهم ورجعوا الا أن عثمان بن أبي العلا شيخ غزاة الاندلس من بني مرين أنجد غرناطة فشتت شمل ذلك الجيش وخلص أهل غرناطة من ضيقتهم ووقعت في يد أهل غرناطة وجيشه كثير من الاموال والاسرى ممالا يحصى وكان من جملة الاسراء امرأة دون بطره وأولاده ووردت البشائر بهذه النصرة العظيمة الى جميع البلاد وبعد ذلك طلب الفرنج الهدنة فعقدت لهم وكانت هذه الواقعة من أشهر الوقائع وكانت وفاة السلطان أبي سعيد (٧٣١ هـ) بينما كان يستعد لزواج ابنه وولي عهده بفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن زكريا الحفصي

وقام بالامر من بعده السلطان المنصور بالله ابو الحسن علي وكان أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والاندلس وبعد عقد البيعة له من عموم الطبقات ورسوخ قدمه في الملك حدث بينه وبين أخيه أبي علي قتال كان آخره مقتل أبي علي المذكور بعد أن دام ملكه بسجلماسة وجهاتها تسع عشرة سنة وأشهرا وكان الاسبانيول استولوا على جبل الفتح منذ (٧٠٩ هـ) وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين حتى صار شجا في صدر الدولتين المرينية والاحمرية وبقي الحال على ذلك الى مبايعة السلطان أبي الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب فبادر السلطان محمد بن اسمعيل من بني الاحمر الى الوفادة عليه والمفاوضة في أمر الجهاد فقدم عليه (٧٣٢ هـ) فاعظم السلطان أبو الحسن مقدمه وأركب الناس الى لقائه وفاوضه ابن الاحمر في شأن المسلمين بالاندلس وكيف أن الاعداء استولوا على جبل طارق ومع أن السلطان أبا الحسن كان مشغولا يومئذ بفتنة أخيه أبي علي الا أنه أمده بالجنود من بني مرين وأنفذهم لمنازلة جبل الفتح وأمر قائد الاساطيل بالسير مع ذلك الجيش وأرسل ابن الاحمر في الاندلس حاشرين فأقبل الناس عليه من كل جهة وأحاطوا بجبل الفتح وضيقوا عليه الحصار الى أن فتحوه (٧٣٣ هـ) وشحنوه بالمقاتلة والسلاح بعد أن أحكموا حصونه وكان بين السلطان أبي الحسن وصاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون مراسلة ومصاحبة وأرسل له السلطان هدية عظيمة ذكرها ابن خلدون وغيره

ولما كان السلطان أبو الحسن يميل الى الجهاد أوعز الى ابنه أبي مالك أمير الثغور الاندلسية بالدخول في دار الحرب (٧٤٠ هـ) وجهز اليه العساكر وأنفذ اليه الوزراء فشخص أبو مالك وتوغل في الغزو ثم عاد بالسبي والغنائم وفي أثناء عودته دهمه جيش الاسبانيول على حين غفلة فقتل وقتل الكثير من جنوده واحتوى الاسبانيول على المعسكر بما فيه ولما بلغ الخبر بذلك والده أبا الحسن أمر وزراءه بتجهيز الاساطيل وعرض الجنود واستنفار أهل المغرب كافة ثم رحل الى سبتة يريد العبور ولما علم ملوك الاسبانيول بذلك استعدوا للدفاع وأخرج ملك قشتالة الفونس الحادي عشر اسطوله الى بحر الزقاق لمنع السلطان من الاجازة أما السلطان فانه استحث أساطيل المغرب وبعث الى أصهاره الحفصيين بتجهيز اسطولهم فارسلوا اليه بسبتة ١٦ اسطولا وتوافت أساطيل المغربين بسبتة حتى ناهزت المائة ثم زحفوا الى اسطول الاسبانيول وتواقفوا ولما ثم قربوا الاساطيل

بعضها

بعضها من بعض فلم يمض الا القليل حتى ظفر المسلمون بعدوهم وخالطوهم فى أساطيلهم واستلحموهم طعنا وضربا وأخذوا جميع ما بقي من أساطيلهم مجنوبة الى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها (٧٤٠ ﻫ) وهذه الواقعة من أشهر الوقائع البحرية التى انتصر فيها بنو مرين وكان من نتائجها امتداد سلطانهم فى البحر كامتداده فى البر وانتعاش نفوس أهل غرناطة ومسابقتهم الى ميدان القتال لرد ما سلبه الاعداء منهم ثم أخذ السلطان فى اجازة العساكر وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة الى العدوة ثم أجازهو فى اسطوله مع خاصته ونازل طريف وكانت بيد الاسبانيول وبعد أن حاصرها هو وسلطان الاندلس من بنى الاحمر طويلا فنيت أزوادهم واختلت أحوالهم وكانا فى أثناء الحصار يرسلان السرايا للاغارة والتخريب حتى وصل بعضها الى أبواب مدينة شريش وشذونة وكادت تفتح حصن الارك لولا ايقاع حاميته ببعض تلك السرايا ولما طلب حامية الحصن المذكور من ملك قشتالة ارسال الميرة والجنود اليهم تعذر عليه ذلك لانتشار جنود بنى مرين فرأى من الموافق أن يمنع المدد عن جنود بنى مرين فارسل لذلك اسطولا جديدا قدم له أغلب سفنه أهل جنوة ليجول فى بحر الزقاق ويمنع جيوش بنى مرين من العبور ويقطع كل مواصلة بين الاندلس والمغرب فكان نصيب هذا الاسطول من الهزيمة نصيب الاسطول الاول ثم تجامع ملوك الاسبانيول وملك البورتقال وبعد ان تعاهدوا زحفوا على المسلمين وناشبوهم القتال فاختل عسكر بنى مرين بعد قتال امتد من أول النهار وأغار الاسبانيول على فسطاط السلطان وقتلوا حراسه وأسروا نساءه ثم قتلوهن ومثلوا بهن وأضرموا المعسكر نارا فلما أحس المسلمون بذلك اختل نظامهم وارتدوا على أعقابهم وأسر من بنى مرين وغيرهم عدد عظيم (٧٤١ ﻫ) وولى السلطان أبو الحسن منهزما الى الجزيرة الخضراء وكانت هذه الواقعة أعظم واقعة حصلت بين جيوش الدولتين ثم ان ملك الاسبانيول عاد بعد ذلك بقليل واستولى على قلعة بنى سعيد ثغر غرناطة وكان السلطان أبو سعيد الغرناطى يريد معاودة الكرة فحشد لذلك اساطيله فتلاقت مع أساطيل الاسبانيول ببحر الزقاق فكانت الدائرة على أساطيل المسلمين لان ملك أراغون وملوك ايطاليا واسبانيا كانوا أمدوا ملك قشتالة باساطيل عديدة وتغلب الاسبانيول على بحر الزقاق ثم أقبلت جنود عظيمة عليها كثير من قواد الاسبانيول وأناخت على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز وطاولتها الحصار ولم يتمكن السلطان من اغاثة الجزيرة الخضراء لوفرة أساطيل الاعداء اذ ذاك ببحر الزقاق ولما اشتد الامر بحامية الجزيرة الخضراء وقلت أقواتهم سألوا ملك قشتالة الامان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وأجازهم الى المغرب (٧٤٣ ﻫ) وخضع السلطان لما جرت به المقادير ثم بعد ذلك حصل بينه وبين أولاد أبى بكر الحفصى فتن أدت الى استيلائه على تونس وأعمالها (٧٤٨ ﻫ) وبذلك امتدت ممالكه ما بين مسراته من طرابلس الى السوس الاقصى من هذه العدوة والى رندة من عدوة الاندلس فدخل المغرب بأسره فى طاعته وأقطع بنى مرين البلاد والضواحى وخفتت الاصوات وانقبضت أيدى أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين فى هذه المدة ثم خرج عليه ابنه أبو عنان واستولى على المغرب وبقى أبوه بتونس يرجو الايام ويأمل الكرة والاطراف تنتقض والخوارج تتجدد ثم حسن له بعض وزرائه النهوض من تونس الى المغرب (٧٤٩ ﻫ) لان أحد أولاد أبى بكر الحفصى خرج عليه أيضا واستولى على كثير من الجهات بتونس حتى انه هم بمحاصرة مدينة تونس نفسها فجمع أمواله وشحن أساطيله بالاقوات

(٧٥٠ هـ) ولما أقلعوا هبت عليهم ريح شديدة أغرقت غالب سفنه واجفانه وغرق الكثير من بطانته وقذف الموج بالسلطان فالقاه على صخر قرب الساحل وهو في آخر رمق من الحياة ثم أدركته سفينة من بقية السفن كانت سلمت من الغرق فاخذته وأنزلته بمدينة الجزائر وقال صاحب نفح الطيب إن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو ستمائة سفينة غرقت كلها ونجا هو على لوح ثم قصد بعد ذلك موطنه ودار ملكه بالمغرب الاقصى في حالة رديئة ومعه بعض الاهل والاتباع وكانت بلاد المغرب الاقصى استولى على جميعها ابنه أبو عنان كما تقدم ولم تساعد المقادير السلطان أبا الحسن بل ولت الدنيا عنه وانتقل الملك الى يد ابنه بعد أن صرف أبو الحسن كل مجهوده في الحصول عليه ثانية فلم يفلح ثم مات طريدا (٧٥٢ هـ) وكان السلطان أبو الحسن من أكبر الملوك وأعظمهم هيبة وكان يحتفل بالعلم وأهله وقد شيد بمراكش وغيرها عدة مدارس وأوقف عليها الاوقاف الجليلة وله غير ذلك من المباني العمومية شيء كثير

ولما مات السلطان أبو الحسن استقل ابنه أبو عنان بالملك تماما (٧٥٢ هـ) بلا منازع وافتتح كثيرا من جهات المغرب الاوسط ثم خرج عليه أخوه أبو الفضل ببلاد السوس باغراء ملك الاسبانيول الا أن أبا عنان قبض عليه أخيرا وقتله (٧٥٥ هـ) وبذلك انفض أمر الخوارج وتمهدت له الدولة أياما وكانت وفاة السلطان أبي عنان (٧٥٩ هـ) قيل خنقه وزيره وكان أبو عنان فارسا فقيها عالما بالمنطق وأصول الدين حافظا للحديث كاتبا بليغا وله كثير من الآثار كالمدارس والزوايا وغيرها

وقام بالامر من بعده ابنه السلطان السعيد بالله ابو بكر وكان وزيره يستبد عليه بالامر لا يملك معه ضرا ولا نفعا ولم يمكث في الملك طويلا بل خلع بعد تسعة شهور من ولايته وكان نازعه في الملك أحد أقاربه المدعو منصورا فلم يتم لهما الامر وانصرفت وجوه أهل المغرب عنهما الى المستعين بالله ابي سالم (٧٦٠ هـ) وكان الناس قبل ظهور أمر أبي سالم يتحدثون بتوليته المغرب وان الملك صائر اليه بعد وفاة أبي عنان وكان في زمن حكم أخيه أبي عنان يقيم ببلاد الاندلس ولما مات أخوه استأذن بني الاحمر في العودة الى بلاده فمنعوه فتوسل في ذلك بملك قشتاله وطلب منه أن يحمله الى بر العدوة يطلب ملك أبيه فأسعفه فلما أتى وعرفه الناس تسايلوا اليه من كل فج وتركوا أمر المنصور والسعيد وبايعوا أبا سالم (٧٦٠ هـ) وفي أول ملكه التجأ اليه الغني بالله بن الاحمر ووزيره ابن الخطيب الشهير مخلوعين (٧٦١ هـ) فأجل السلطان قدومهما وركب للقائهما وبالغ في اكرامهما ورتب لهما من الجرايات ما يقوم بحاجتهما ومازال السلطان أبو سالم في ملكه حتى خرج عليه بعض وزرائه وأغروا عليه الجنود لخلعه بسبب تقديمه بعض الوزراء وايثاره لهم على الآخرين ولما أراد عقاب أعدائه انسل عنه الجنود فوجا بعد فوج فطلب النجاة بنفسه ثم قبضوا عليه أخيرا وقتلوه وأحضروا رأسه بين يدي الوزير الثائر عمر بن عبد الله (٧٦٢ هـ) وكان رحمه الله دمث الاخلاق بعيدا عن الشرور

وبايعوا من بعده السلطان أبا عمر تاشفين الا أن الوزير الثائر عمر بن عبد الله استبد بامر الدولة ونصب هذا السلطان يموه به على الناس ثم جرت خطوب يطول شرحها مثل قتل جند

الاسبانيول

الاسبانيول المجمل ورئيسهم غرسية بن أنطون ومن هذا الوقت ظهر الاختلال والفتور في جسم دولة بنى مرين وأخذت الثوار تظهر في كل مكان ولما علم الوزير عمر بن عبد الله أن الامر لا يستقيم له بتولية هذا السلطان بادر فاستقدم أبازيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن تقدم وخلع الوزير المذكور السلطان أباعمر (٧٦٣ ﻫ)

وكان هذا السلطان الملقب بالمتوكل على الله محجوبا للوزير عمر بن عبد الله المذكور وكان قبل ولايته التجأ الى ملك قشتاله خوفا على نفسه ولما طابوه من ملك قشتاله سمح به بعد عقد شروط مجحفة بحال بنى مرين ومذهبة لسطوتهم أمضوها معه وبذلك يعلم حال ملوك المغرب وقتها وما وصلوا اليه من الضعف أمام ملوك الاسبانيول بعد أن كان الامر النافذ لهم والسلطان الضخم لملكهم وقد زاد في زمنه اضطراب أمر الدولة الى أن قتله وزيره عمر بن عبد الله المذكور لما أحس منه بالفتك به وذلك لانه كان مستبدا بامره ووضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره (٧٦٨ ﻫ)

ولما مات أبوزيان أخرج الوزير عمر بن عبد الله عبد العزيز بن الحسن وكان في بعض القصور محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور فأجلسه على سرير الملك وبايعه ثم فتحت الابواب لسائر الوزراء والحجاب والقواد للبيعة فتم أمره وثبت ملكه وجرى الوزير معه على عادته من الاستبداد ومنعه التصرف في أمور المملكة فانف السلطان عبد العزيز من ذلك ولم يرضه لنفسه وعزم على الفتك بوزيره ثم قبض عليه وبعد أن وبخه أمر الخصيان بقتله فهبروه بالسيوف ثم تتبع السلطان حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع واستبد بالملك منفردا ثم جهز الجيوش لفتح البلدان الثائرة وعقاب بعض الخوارج فتم له أمره ثم أراد ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الاسبانيول بعد أن مهد أمر الثوار فكتب الى ابن الاحمر أن يزحف اليها بعساكره وعليه عطاؤهم وامدادهم بالمال والاساطيل فأجاب ابن الاحمر وأمده السلطان بالمال وأوعز الى قائد أساطيله بسبتة بالتجهيز فأقلعت حتى رست أمام الجزيرة الخضراء ثم زحف ابن الاحمر بجنوده وآلاته وبعد حصار بقى أياما قليلة أيقن الاسبانيول بالهلاك ان لم يسلموا فسألوا الصلح فأجابهم ابن الاحمر ونزلوا عن البلد (٧٧٠ ﻫ) ولم تزل تلك المدينة بيد ملوك غرناطة الى أن رأوا من المنفعة هدمها خشية استيلاء الاسبانيول عليها مرة أخرى فهدمت (٧٨٠ ﻫ) ثم ان السلطان عبد العزيز افتتح تلمسان وغيرها وكانت وفاته (٧٧٤ ﻫ) وهذا السلطان هو الذى أنعش دولة بنى مرين بعد تلاشيها وأعاد اليها شبابها بعد الهرم وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد وهو الذى ألف المؤرخ الشهير العلامة ابن خلدون تاريخه الكبير باسمه وقد وفد عليه لسان الدين ابن الخطيب وزير بنى الاحمر فاكرم وفادته (٧٧٣ ﻫ) وغمره بجليل النعم والعطايا

وقام بالامر من بعده السلطان السعيد بالله ابو زيان محمد (٧٧٤ ﻫ) تولى الامر وهو صبى ولذلك استبد عليه وزير أبيه أبو بكر واستقل بالامر آمرا وناهيا الا أن هذا الوزير لم يهنأ باستقلاله اذ خرج عليه بعض مدعى السلطنة باغراء ابن الاحمر ملك غرناطة لما كان بينه وبين الوزير المذكور من الحقد وقدم لابن الاحمر ما يريد حيث خلع السعيد بالله (٧٧٦ ﻫ) وغربه الى بلاد الاندلس

وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله ابو العباس احمد ويقال له ذو الدولتين لانه ولى الملك مرتين وكان الغالب عليه فى أموره وزيره محمد بن عثمان وفى زمن هذا السلطان استحكمت المودة والالفة بينه وبين ابن الاحمر وزاد نفوذ ابن الاحمر فى بلاد المغرب حتى صار له بذلك تحكم فى دولة بنى مرين وأصبح المغرب كانه من بعض ايالات الاندلس وذلك بما كان لابن الاحمر من تقليد الامر لهذا السلطان وبما كان تحت يده من أبناء ملوك المغرب المرشحين للامر فكان أبو العباس وحاشيته يصانعون بنى الاحمر لذلك وفى زمن هذا السلطان تمكن ابن الاحمر من قتل الوزير ابن الخطيب الشهير لانه كان بلغه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز وغيره على تملك أرض الاندلس وقطع دعوة بنى الاحمر منها فاتهم له ما ريد بأن ادعوا على ابن الخطيب كلمات من الزندقة زعموا انها صدرت منه فى بعض تأليفه فاحصوها عليه ورفعوها الى القضاة وبعد أن سجنوه أياما دخل عليه لفيف من أهل الاندلس فقتلوه فى محبسه (٧٧٦ هـ) وفى عهد هذا السلطان كانت بلاد المغرب مقسومة الى قسمين قسم له وقسم لامير مراكش عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ثم حصل بين السلطان ابن الاحمر وسلطان المغرب أبى العباس عداوة أدت الى خلع أبى العباس (٧٨٦ هـ) وأرسل أبو العباس مقيدا الى ابن الاحمر بعد خلعه فبقى عنده محتاطا عليه

وقام بالامر من بعده السلطان المتوكل على الله ابو فارس موسى بويع بعد خلع أبى العباس وقام بامر الدولة وزيره مسعود بن ماساى مستبدا عليه فى يده كل الامر والنهى ولما انتبه السلطان بعد ذلك لامره ورأى استبداد الوزير عليه استنكف من ذلك وأسر الى بطانته بالفتك بالوزير ولما علم الوزير بذلك دس عليه من قتله بالسم (٧٨٨ هـ) فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وقام بالامر من بعده السلطان المنتصر بالله ابو زيان محمد ولم يمكث فى السلطنة الا أياما ثم خلع وغرب الى الاندلس مع أهله وقام بالامر من بعده السلطان الواثق بالله ابو زيان محمد بن أبى الفضل وكان قبل ولايته عند ابن الاحمر بالاندلس وكان وزيره مسعود يستبد بالامر عليه فلما أراد هذا الوزير استرداد مدينة سبتة من يد ابن الاحمر الى بنى مرين كما كانت استشاط ابن الاحمر غضبا وأطلق لذلك السلطان أبا العباس من اعتقاله وبعثه الى المغرب فى طلب ملكه وللتشغيب على مسعود المذكور الجاحد لاحسانه ثم عبر السلطان أبو العباس البحر فى جيش وتقدم به الى مراكش وهرع الناس الى الدخول فى طاعته ثم خلع الواثق بالله بشرط أن يبقى ابن مسعود وزير السلطان أبى العباس فقبل ذلك منه وغرب الواثق الى الاندلس (٧٨٩ هـ)

ولما تم الامر على ما ذكرنا جلس على تخت المغرب الاقصى السلطان ابو العباس بن ابى سالم مرة ثانية فلما رسخت قدمه فى الملك قبض على الوزير ابن مسعود وعلى حاشيته وأقاربه فهلكوا من العذاب ثم التفت الى تنظيم ملكه وتوسيع دائرته فاستولى على تلمسان وغيرها وشرد كثيرا من الثوار وكانت بينه وبين سلطان مصر اذ ذاك الظاهر برقوق مودة فتراسلا وتهاديا وكانت وفاة هذا السلطان (٧٩٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله ابو فارس عبد العزيز وكان شفوقا رقيق القلب لا يميل الى سفك الدماء فارسا شاعرا وليس له من الاعمال ما يدون وكانت وفاته (٧٩٩ هـ) ودولته ثلاث سنين وشهرا

وقام

وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله ابو عامر عبد الله وليس له كذلك من الاخبار ما يذكر وكانت الامور والتصرفات في هذه المدة والتي قبلها بيد الوزراء لاستبدادهم بأمور الدولة من عهد طويل مضى لاختلالها وضعف سلاطينها وكانت وفاته (٨٠٠ هـ) ودولته سنة وخمسة أشهر

وقام بالامر من بعده أخوه السلطان ابو سعيد عثمان وسنه ست عشرة سنة وكانت جميع التصرفات في دولته بالوزراء والحجاب والسلطان منكب على لذاته لا يعلم من أمور الدولة شيأ كما هي الحالة الغالبة في أواخر الدول وحصل في زمنه خصام بينه وبين السلطان أبي فارس الحفصي صاحب تونس فحدثت بينهما وقائع كادت توقع مدينة فاس في يد الحفصي لولا أن السلطان أبا سعيد جنح الى السلم ثم تصالحا وتهاديا وفي مدة هذا السلطان استولى البرتقال مدة ملكهم حنان الاول (٨١٨ هـ) على مدينة سبتة بعد أن حاصروها طويلا واستمرت في ملكهم مدة تزيد عن مائتي سنة الى أن ملكها منهم الاسبانيول عند استيلائهم على بلاد البرتقال وكان ذكر البرتقال في هذا الوقت انتشر في الآفاق وانتهوا بسفنهم الى البعيد من سواحل أفريقية وقد هم هذا السلطان بالاستيلاء على جبل طارق بطلب أهله الذين سئموا حكومة ابن الاحمر وتحققوا أن سلطان بني مرين أقوى منه شوكة وأقدر على خلاصهم مما عساه أن ينالهم من يد الاسبانيول فلم يفلح وهزمت جنوده وأسر أخوه رئيس الجيش الذي أرسل لذلك ثم ان ابن الاحمر اغتاظ من فعل السلطان المريني فاتفق مع أخيه عبد الله وأمده بالمال والجنود وأرسله الى المغرب فتبعه عدد وافر من القبائل الذين كانوا يستثقلون حكم أبي سعيد فنهض أبو سعيد لمحاربته فكانت الدائرة عليه ورجع مغلوبا في قليل من جنوده الى مدينة فاس فقبض عليه أهلها الى أن سلموه لاخيه عبد الله فزجه في السجن الى أن مات (٨٢٣ هـ) ولما استقل عبد الله بأمر المغرب هدأت الامور رفوعا واستقامت الاحوال ولم يكن لاهل المغرب منغص غير استيلاء البرتقال على سبتة ولم تطل مدة هذا السلطان حيث تآمروا عليه وقتلوه (٨٢٤ هـ)

وبعد قتله تنازع الملك بعده اثنان من اخوته وكثرت الثوار والخوارج بالبلاد وانتثر عقد بني مرين ووصل الضعف والانحلال الى جميع أجزاء دولتهم ونادت أهالي كل جهة بقائم يحكمهم وهكذا الى أن اتفق بعض أهل الحل والعقد من أصحاب العقول على تولية شخص من بني مرين لينتظم الشمل ويقوى الامل بعودة هذه الدولة المحتضرة فانتخبوا السلطان عبد الحق بن أبي سعيد (٨٦٠ هـ) وهو أطول سلاطين بني مرين مدة وأعظمهم شقاء ومحنة وكانت أمه اسبانيولية وفي زمنه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعى الى الانحلال وكانت جميع تصرفاته بيد الوزراء والحجاب وقبل ذلك أي (٨٤١ هـ) أراد البرتقال الاستيلاء على طنجة وبعد أن حاصروها وضيقوا عليها أغار عليهم سلطان فاس وسلطان مراكش ومنعاهم عن فتحها وأوقعا بهم وأسرا قائد جنودهم المدعو فرديناند وغيره من الوجوه والاعيان ولذلك طلب البرتقال الصلح فسألهم السلطان على أن يردوا اليه سبتة بعد أن يطلق أسراهم فرضوا بذلك ثم حصل ان مات فرديناند في سجن فاس فاستمرت سبتة في يدهم

ولما كانت الوزراء والحجاب يستبدون بأعمال السلاطين كما قلناه حين صار سلطان بني مرين

ا - مما بلا جسم وكان السلطان عبد الحق عالى الهمة ولم يرق فى عينه استبداد وزرائه وحجابه عليه أوقع ببنى وطاس وكانوا حجاب الدولة ووزراءها وهم مبدأ الشرور وجرثومة الفتن حتى ان يحيى ابن يحيى منهم لما تولى الوزارة واستقل بها أخذ يغير ويبدل فى مراسم الملك وعوائد الدولة ويزيد وينقص فى عدد الجنود وينقض ما أبرمه الوزراء من قبله ولو كان صالحا وعامل الرعية بالظلم وعزل الرؤس وقدم الاذناب عزم السلطان على استئصالهم لمشاركتهم له فى الملك بلا حق فأوقع بهم حتى خاص البلاد منهم ثم صفا الوقت للسلطان بعد ذلك الا أنه لم يستمر زمنا طويلا لانه بتقريبه اليهود اليه أغاظ أهل دولته فقاموا عليه وخلعوه ونادوا ببيعة الشريف ابى عبد الله الحفيد وكان يلى نقابة الاشراف بفاس والتف عليه كثير من خاصة الناس وعامتهم ثم أوقعوا باليهود فقتلوا منهم عددا عظيما بمدينة فاس خصوصا وكان السلطان عبد الحق غائبا فى بعض النواحى فلما اتصل به الخبر أقبل مسرعا الا أن نيات الجنود اضطربت عليه وصاروا يتسللون عنه ثم قبض عليه الخوارج أخيرا وبعد أن أهانوه ضربوا عنقه (٨٦٩ هـ) وبه انقرضت دولة بنى مرين من المغرب وكانت مدتهم مائتين وتسعا وتسعين سنة من قيام عبد الحق أولهم وكان بنو مرين أنفسهم يعظمون هؤلاء الاشراف الادارسة ويدعون الله سبحانه وتعالى برفع منزلتهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التى كان يجب أن تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعى فكان بنو مرين يرون فى أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الاشراف فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدبون معهم ما أمكن وبقى هذا الشريف فى الملك بمدينة فاس وابنه وزير له الى أن خلعه أبو الحجاج يوسف الوطاسى (٨٧٥ هـ) وقام من بعد دولة بنى مرين بالمغرب الاقصى دولة بنى وطاس

واعلم أنه فى أواخر دولة بنى مرين استولى البرتقال على غالب ثغور المغرب الاقصى التى كانت محفوظة منذ عهد الفتح الاسلامى من طروق أمم الفرنج وغيرهم الى القرن التاسع الهجرى ولم تكن أمة من الامم تحدث نفسها بغزو شئ من بلاده بل أهله هم الذين كانوا يغزون الفرنج وغيرهم فى بلادهم ويحامون عن بلاد الاندلس وسواحل أفريقية وغيرها ولما تداعت دول المغرب من بنى حفص بأفريقية وبنى زيان بالمغرب الاوسط وبنى مرين بالمغرب الاقصى وبنى الاحمر بالاندلس وأشرفت على الهرم حدثت الفتن بين المسلمين واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات الى بلاد من يتربصون الفرصة للكرة عليهم ولما استفحل أمر الاسبانيول والبرتقال خصوصا وكثرت أسفارهم البحرية واستولوا على عدة جزائر بالبحر المحيط وكشفوا بعض سواحل السودان وغيرها مالوا الى تملك سواحل المغرب الاقصى فاستولوا على سبتة (٨١٨ هـ) بعد حصارها ست سنين وعلى قصر المجاز أو قصر مصمودة (٨٦٢ هـ) وعلى طنجة (٨٦٩ هـ) وعلى أصيلا (٨٧٦ هـ) وعلى مدينة آنفى وبعض جهات السوس فى السنة المذكورة وغير ذلك من الثغور العديدة بحيث لم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد أهله الا القليل

(الفصل الحادى عشر)

دولة بنى وطاس ونسبهم وأوليتهم

(٨٧٦ - ٩٦١ هـ)

قال

قال صاحب الاستقصا ان بنى وَطاس فرقة من بنى مرين غير انهم ليسوا من بنى عبد الحق ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما تقدم كان لبنى وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيه النزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون الى الرياسة ويرومون الخروج على بنى عبد الحق وقد تكرر ذلك منهم ثم أذعنوا الى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق فى وجوه الاعمال والولايات واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها وقال ابن خلدون ان بنى الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل فى بنى مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتونى لحقوا بالبدو ونزلوا على بنى وطاس ووشجت فيه عروقهم حتى لبسوا جلدتهم ولم يزل السر متربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنوفهم اهـ وكان لكثير من بنى وطاس المراتب العالية والوظائف العظيمة فى دولة بنى مرين فمنهم من ساعد على ارتقائها وتنظيم أحوالها ومنهم من امتدت يده الى العبث بها وارادة الاستبداد بسلاطينها كما هو مذكور فى المطولات

وأول من ولى السلطنة من دولة بنى وطاس هو السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ (٨٧٦ هـ) بعد قهره للحفيد وكان قبل ذلك ملك مدينة أصيلا وضواحيها ولما رأى زوال دولة بنى مرين واضطراب الامور وطمع كل من كانت توسوس له نفسه بالاستيلاء عليها وحيازة ابن الاحمر لجميع ثغور الاندلس التى كانت لبنى مرين وقيام الفرنج للتغلب على المغرب جمع جندا عظيما واستولى على مدينة فاس بعد أن حاصرها وضيق عليها ولما تمت له البيعة التفت لتدويخ القبائل فدخلوا فى طاعته وفى زمنه استولى الاسبانيول تحت رئاسة ملكهم فردينند الخامس الكاثوليكى ملك أراغون وزوجته ازابيلا ملكة قشتاله على مدينة غرناطة (٨٩٧ هـ) ومحيت دولة بنى الاحمر من الاندلس ولم يبق بها للمسلمين سلطان وتفرق سكانها أيدى سبا فذهب غالبهم الى بلاد المغرب الاقصى والى تونس وطرابلس ومصر وغيرها ولما سقطت غرناطة قدم على السلطان محمد الشيخ سلطانها أبو عبد الله بن الاحمر فاستوطن فاس تحت رعاية السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه بقصيدة طنانة من انشاء وزيره أبى عبد الله محمد العربى يقول فى مطلعها

مولى الملوك ملوك العرب والعجم * رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن * دار الزمان عليه دور منتقم

وهى طويلة وأصحبها برسالة فى هذا المضمون غاية فى البلاغة وأقام ابن الاحمر بمدينة فاس بأهله وأولاده وحاشيته معززا مكرما الى ان أدركته الوفاة (٩٤٠ هـ) وفى عصر هذا السلطان (٩٠٧ هـ) استولى البرتقال على ساحل البريجة بين أزمور وتيط وشيدوا بها مدينة جديدة حصينة ولم تمكن بنو وطاس فى تلك المدة من مقاتلة هؤلاء البرتقال لاشتغالهم مع برتقال سبتة وطنجة وغيرهما ولم يكتف البرتقال أيضا بذلك بل استولوا على سواحل السوس فاحتلوا مدينة أكادير وكانت وفاة السلطان محمد الشيخ (٩١٠ هـ)

وبعد وفاته بايعوا ابنه محمد الملقب بالبرتقالى وفى عصره استولى البرتقال على غالب الثغور وضايقوا المسلمين أشد المضايقة وقد اهتم هذا السلطان بأمرهم كثيرا وردد عليهم الجيش بعد الجيش حتى شغل بمقارعتهم عن النظر فى أحوال البلاد المراكشية فكان ذلك من أكبر الاسباب لظهور

دولة الاشراف السعديين كما سيأتى (٩١٥ هـ) وكان البرتقال استولوا على ثغر أصيلا مدة والده فلما ولى هذا الملك حاصرهم بها (٩١٤ هـ) ثم تمكن من دخولها وقاتل البرتقال وسط الازقة يومين ثم جاء المدد الى البرتقال فتقهقر المسلمون لكنهم لم يتركوا المدينة الاخرابا ليس بها حجر على حجر ثم جد البرتقال فى اصلاحها وبقيت فى يدهم الى أن استردها المسلمون فيما بعد وفى تلك السنة أيضا استولى البرتقال على ثغر أزمور وبعدها افتتحوا أيضا ثغر المعمورة (٩٢١ هـ) الا أنهم لم يقووا على البقاء بها حيث استردها هذا السلطان وفى عصر هذا السلطان أيضا استفحل أمر الاشراف السعديين بجهات السوس وطرد سلطانهم أبو العباس الاعرج البرتقال من تلك الجهات ودخل فى طاعته أهل مراكش فانتقل اليها (٩٣٠ هـ) بعد أن انتزعها من يد بنى وطاس وكانت وفاة هذا السلطان الوطاسى (٩٣١ هـ) وقام بالامر من بعده أخوه السلطان ابوحسون ثم قبض عليه أحد أقاربه وخلعه فى السنة المذكورة

وقام بالامر من بعده السلطان ابو العباس احمد (٩٣٢ هـ) وحصل بينه وبين السعديين وقائع انتهى الامر فيها بالصلح بين السلطان الوطاسى وبين أبى العباس السعدى سلطان مراكش وقسمت بينهم البلاد حقنا للدماء وتقرر الصلح بينهما بذلك (٩٤٠ هـ) ولم يمكث الحال على هذا زمنا طويلا بل تغيرت الاحوال بين الوطاسيين والسعديين فانتشب القتال بينهم ودام أياما إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين (٩٤٣ هـ) ثم إن السلطان أبا العباس أراد الاخذ بالثار من السعديين فعقد مع برتقال آسفى والجديدة وأزمور هدنة بثلاث سنوات وكتب البرتقال بذلك لملكهم ثم حدث القتال بين الوطاسيين والسعديين فكانت النصرة فى هذه المرة أيضا للسعديين (٩٥٢ هـ) وبذلك استولى سلطانهم محمد الشيخ السعدى على مكناسة (٩٥٥ هـ) ثم افتتح فاس بعد حصارها وأسر سلطانها أبا العباس الوطاسى (٩٥٦ هـ) ثم قبض على الوطاسيين أجمع وبعثهم مقيدين الى مراكش وكانت وفاة أبى العباس الوطاسى بمراكش (٩٦٠ هـ) وبذلك استقل الشيخ السعدى بأمر المغرب

وقام بالامر من بعده السلطان ابوحسون الوطاسى مرة ثانية وكان لما قبض الشيخ السعدى على بنى وطاس عند استيلائه على فاس فر أبو حسون هذا الى الجزائر واستنجد بالعثمانيين الذين كانوا استولوا على المغرب الاوسط وانتزعوه من يد بنى زيان ومازال أبو حسون يحضهم على مساعدته للاستيلاء على المغرب الاقصى ويعدهم بالظفر والغنائم والاموال الجزيلة الى أن أجابوه الى مطلبه وأقبلوا معه فى جيش كثيف تحت قيادة صالح باشا المعروف بصالح رئيس النائب عن خير الدين باشا بربروس الذى كان وقتها بالقسطنطينية واستولوا على فاس بعد حروب عظيمة وفر منها الشيخ السعدى (٩٦١ هـ) ففرح الناس بأبى حسون فرحا شديدا ثم ان أبا حسون جمع الجند العثمانيين الذين نصروه وأجلسوه على كرسى آبائه مبلغا من المال وصرفهم من فاس لشكاية الناس منهم وتخلف منهم نفر يسير

أما السلطان محمد الشيخ السعدى فانه بعد فراره وصل الى مراكش واستقر بها وأخذ فى استنفار القبائل وبقية الجنود لقتال أبى حسون ولما اجتمع له ما أراد نهض الى فاس فقابله السلطان

ابو

أبو حسون ثم دارت الحرب بينهما فكانت الهزيمة على أبي حسون ثم استولى السعدى أخيرا على فاس (٩٦١ هـ) وبمقتل السلطان أبي حسون انقرضت دولة الوطاسيين أو الدولة المرينية الثانية من المغرب

وقد كان البرتقال بعد قيام دولتهم وتقدمها في الفتوحات والاكتشافات تمد أنظارها للاستيلاء على بلاد مراكش خصوصا لما رأت اختلال دولة بني مرين وقيام الثوار عليها في كل جهة وانتثار عقدها الا أنها لما كانت مهتمة بالاكتشافات البحرية الجديدة وتوسيع نطاق مستعمراتها بجهات الهند خافت من ان الاشتغال بذلك يصرف قوتها عن بلاد المغرب فسعى ملوكها في ايقاع العداوة والبغضاء بين بني حفص ملوك أفريقية وبين بني مرين ملوك المغرب وساعدتها الفرص والاقدار على ما أرادت وتمكنت من دسيستها هذه بوقوع الخصام بين الطائفتين المذكورتين وقد ساعدت هذه الاحوال أيضا الاسبانيول على مرغوبهم الاوهو طرد ما بقى من المسلمين بارض الاندلس واستئصال سلطانهم منها فهاجموا مدينة غرناطة بحجة تمنع ملوكها من دفع الجزية المضروبة عليهم لملوك إسبانيا وذلك بعد ان استولوا على ما يتبعها من الحصون والمعاقل ولما تم لهم ذلك كما سبق في تاريخ بني الاحمر طمعت نفوسهم الى الاستيلاء على ما خلف البحر من ثغور المغرب الادنى والاوسط فاستولوا على بجاية (٩١٠ هـ) ووهران (٩١٤ هـ) وغيرهما وضعف بنوزيان عن مقاومتهم ثم أرادوا التغلب أيضا على مدينة الجزائر لولا ان صدهم عنها خير الدين باشا وأخوه أوروج وطردوهما من تلك الاطراف تماما كما سيأتي مفصلا في تاريخ الجزائر والدولة العثمانية

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

دولة الاشراف السعديين وأوليتهم ونسبهم

(٩١٥ — ١٠٦٩ هـ)

كان هؤلاء السعديون يدعون أن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية بن الحسن السبط بن على رضى الله عنهم قالوا والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب أن أهل مدينة درعة من مدن المغرب الاقصى كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا فقيل لهم لو أتيتم بشريف الى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لاهل سجلماسة فعادت عليهم بركته وهذا القول هو المعروف المتداول عند الكافة وان خالفه بعضهم وأما سبب تسميتهم بالسعديين فمن قبيل التفاؤل بأيامهم لاغير

وأول ملوكهم *القائم بامر الله ابو محمد* عبد الله بن عبد الرحمن وكان مبدأ أمره بالسوس وقت أن احتاطت به البرتقال واستولت على شواطئه وقد استحكمت شوكته وقتئذ لعدم وجود أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام في تلك البلاد لان بنى وطاس كانت فشلت ريحهم ببلاد السوس ولم يكن لهم من الملك والنفوذ الا في حواضر المغرب مع ما فيه من الضعف فلذلك اجتمع الناس على أبي محمد هذا وبايعوه فانتدبهم لمقارعة البرتقال فقاموا معه جميعا (٩١٧ هـ) فمكنه الله من التغلب على البرتقال

وطردهم من البلدان فقويت شوكته وعظم سلطانه وزادت محبة الناس فيه وعظم قدره وكانت وفاته (٩٢٣ هـ) وكان صالحا نشأ على عفاف وحج البيت الحرام وكان مجاب الدعوة لقى جماعة من العلماء الاعلام فى وفادته على الحرمين الشريفين ويقال انه كان يعلن بالدعوة فيقول فى كل محفل بلا خوف انه سيملك البلاد ويكون له شأن عظيم وذلك لرؤيا رآها كما قالوا

وقام بالامر بعده ولده السلطان ابو العباس احمد الاعرج وكان ولى العهد لابيه مدة حياته واجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق بلا تردد فلما استقام له الامر بذل المجهود فى جمع العساكر وتعبية الجيوش الى الثغور وشن الغارات على العدو وكان البرتقال قد أناخوا بشواطئ البحر وعاثوا فى مدن السوس الساحلية فما زال يقارعهم حتى أجلاهم عن تلك البقاع ولما طار صيته اذ ذاك ودخلت فى طاعته سائر البلاد السوسية كاتبه أمراء مراكش يرومون الدخول فى طاعته فسار اليهم ودخل مدينتهم (٩٣٠ هـ) واستولى عليها فأتى اليه ملك فاس أبى عبد الله الوطاسى المعروف بالبرتقالى الى أن كان منهما ما مر فى تاريخ الوطاسيين وكان لابى العباس أخ يدعى بأبى عبد الله محمد الشيخ وكان السلطان أبو العباس يستشيره فى كل أموره ويفاوضه فى المهمات فكانت كلمتهما واحدة ورأيهما متحدا الى أن دخلت بينهما الوشاة فتنافرا ثم تقاتلا زمنا طويلا وكان معظم قبائل السوس يميل الى الشيخ لما كان له عندهم من جليل المنزلة ورفيع القدر فعظم أمره ببلاد السوس وغلب على أخيه أبى العباس وقبض عليه وعلى أولاده وأتباعه وأودعهم السجن فأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان وزيرا تابعا (٩٤٦ هـ) وفى سلطنة أبى العباس أحمد الاعرج هذا اهداه ملك فرانسا المدعو فرنسيس بهدايا فاخرة وأتحاف عالية غالية (٩٤٠ هـ) لتحسين العلاقات بينه وبين فرانسا ولكى يعامل الشريف المذكور أسراء الفرنسيس معاملة حسنة فحصل ملك الفرنسيس على مرغوبه بذلك وتراجعت التجارة بين بلاد الغرب وفرانسا

ولما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ ببلاد السوس واجتمعت عليه الكلمة من سكانه صرف همته الى جهاد العدو الذى كان لا يزال له بعض الجهات الساحلية والحصون البحرية فانتصر عليهم واستأصلهم من تلك النواحى تماما (٩٤٨ هـ - ١٥٤٢ م) ولما استقل بالامر ببلاد السوس هاجم مراكش وكانت توقفت عن بيعته لهذا الوقت مخافة من الوطاسيين فافتتحها وبايعه أهلها وخلص له بذلك ما كان بيد أخيه المخلوع (٩٥١ هـ) ولما تم له الاستيلاء على مراكش طمحت نفسه للاستيلاء على بقية المغرب وأمصاره ودساكره وقطع دابر الوطاسيين فجمع الجموع وما زال يستفتحها بلدا بلدا حتى أتى على أعمالها فاستولى على مكناسة بعد حصار وقتال (٩٥٥ هـ) ثم ألح بعد ذلك على فاس فامتنعت عليه زمنا طويلا الى أن فتحها (٩٥٦ هـ) ولما دخلها قبض على الوطاسيين أجمع وبعثهم مكبلين الى مراكش عدا أبا حسون منهم فانه فر الى الجزائر مستجيرا بالعثمانيين فاعانوه كما مر ثم تاقت نفسه لاخضاع المغرب الاوسط فحاصر مدينة تلمسان وكان استولى عليها حسن باشا ابن خير الدين باربروس الشهير وانقرضت منها دولة بنى زيان (٩٥٢ هـ) فتمكن من فتحها (٩٥٧ هـ) الا أنه لم يتمتع بالبقاء فيها زمنا طويلا لان العثمانيين بعد ان استجاشوا كروا عليها وأخرجوه منها عنوة فعاد الى مقره من فاس ولما استولى أبو حسون بمساعدة العثمانيين على مدينة

فاس

فاس كامر وفرّ منها أبو عبد الله الشيخ ثم عاد اليها ثانية واستفتحها عنوة فصفا له أمر المغرب ودانت له أقطاره (٩٦٠ هـ) ولما كان هذا السلطان يحقد على الاتراك لاستيلائهم على المغرب الاوسط وانهم أغراب ليسوا من سكان هذه البلاد وكان يطيل لسانه بالقذف فى حق السلطان سليمان القانونى ويتربص الفرص للايقاع بهم واخراجهم من تلك البلاد ولم تفد وساطة الامام أبى عبد الله الخروبى الذى أرسله والى الجزائر للتوسط فى الصلح وعقد المهادنة أضمر له العثمانيون الشر حتى أوقعوا به فى مملكته وقتلوه فى خبر طويل (٩٦٤ هـ) وكان السلطان عبد الله هذا مولعا بتدبير أمر الرعية حازما يقظا ماضى العزيمة قوى الشكيمة كثير الغزوات عالى الهمة لقب بالمهدى وكان من أئمة عصره عنى بالعلم صغيرا وتعلق بأهدابه كثيرا حتى بلغ فيه الى درجة الرسوخ وكان يقول ينبغى للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصلح بطول أمله وكثيرا ما كان ينشد

الناس كالناس والايام واحدة * والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

ولما بلغ خبر مقتله الى خليفة مراكش بادر فقتل أبا العباس الاعرج المخلوع وأولاده جميعا مخافة أن يبايعه أهل مراكش

وقام بالامر من بعده ولده السلطان ابو محمد عبد الله الغالب بالله وكان ولى عهد أبيه ولما أتته الاخبار بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه عامة أهلها (٩٦٤ هـ) ثم بايعه أهل مراكش فاستوثق له الامر وتم له ملك أبيه (٩٦٥ هـ) ولم تطمح نفسه فى الزيادة على ما ملك أبوه من قبل بل التفت الى ممالكه يحصنها ويقوم ما اعوج من أمورها وفى السنة الاولى من حكمه أغار عليه حسن باشا ابن خير الدين باشا حاكم تلمسان الا انه رجع مهزوما وبعد ذلك صارت عمارة العثمانيين تتردد دائما على مدينتى حجر باديس وطنجة ولما تخوف منهما اتفق مع الاسبانيول على العثمانيين وتنازل لهم عن مدينة حجر باديس ليحتلوها وبذلك يقاطع الاسبانيول على العثمانيين البحر فاخلاها لهم وفى مدة هذا الشريف قصد البرتقال الاستيلاء على بعض سواحل مملكة المغرب الاقصى وحضروا لذلك باسطول حربى عظيم وبينما كانوا يحاولون الاقتراب من الشاطئ ظهرت زوبعة شديدة فالقت بسفنهم على الشاطئ فانكسرت وبذلك استولت المغاربة على ما كان بذلك الاسطول من الاموال والذخائر وكان من ضمنها ١٥٠٠ مدفع فتقووا بها وركبوها فى معاقلهم (٩٨٠ هـ) وكانت وفاة هذا الشريف (٩٨١ هـ) وكان حسن السياسة خبيرا بأحوال الملك لين الجانب صلحت الرعية فى ملكه الا انه يؤاخذ بما كان من تنازله عن حجر باديس للاسبانيول اذ بذلك جعل لهم المدخلية فى أمور المغرب الاقصى بعد أن انقطعت مادتهم عن تلك الاطراف وله غير ذلك من الامور التى لا تليق بملوك الاسلام لمخالفتها الشرع الشريف قال بعضهم من كلام الأن الملوك لا يستغرب فى حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم ويستهينوا عظائم الامور لتطيعهم الرعية ساعة كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله تعالى يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله اهـ

وقام بالامر من بعده الشريف ابو عبد الله محمد المتوكل على الله (٩٨١ هـ) وكان ولى عهد أبيه

واستمر أبو عبد الله هذا منتظم الحالة الى أواخر (٩٨٣ هـ) ثم قدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش من الترك فبدد ملكه وسبب ذلك اضماره الفتك لعميه أحمد وعبد الملك وكانا مقيمين بسجلماسة مدة أيام أبيهما فلما توفي وولي الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد الى تلمسان خوفا على أنفسهما منه وأقاما عند واليها حسن باشا بن خير الدين باربروس ثم لحق بهما أخوهما عبد المؤمن ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ومنها ركب عبد الملك وأخوه البحر الى القسطنطينية متراميين على السلطان سليم الثاني بن السلطان سليمان وكان في ذلك الوقت بالقسطنطينية أيضا رسول أبي عبد الله محمد المتوكل كان حضر اليها يحمل هدية فاخرة للسلطان سليم الثاني وكان تصادف وفاته وجلوس السلطان مراد الثالث الذي لما علم بالتجاء الشريف عبد الملك اليه طالبا مساعدته لنوال سلطنة مراكش والقيام بها بدعوته لانه أحق بها من غيره رثى لحاله ووعده بالمساعدة سيما وانه اتبع المسالمة التامة مع الدولة بينما كان قانع على باشا بالجزائر وعلى ذلك كتب الى رمضان باشا والي الجزائر بالتوسط بين الشريف عبد الملك والسلطان محمد المتوكل ليحمل المتوكل على أن يتنازل لعبد الملك عن بعض المقاطعات من بلاد المغرب يستغلها ويحكمها بالاستقلال فلما عرض ذلك الوالي على المتوكل رفضه رفضا قطعيا فعند ذلك جهز الوالي المذكور سنة (٩٨٣ هـ) جيشا قويا مؤلفا من ٥٠٠٠ مقاتل وانضم معه شيعة عبد الملك وقبيلته وزحف الجيش يريد مراكش وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل ورؤس أجناده ويعدهم ويمنيهم وبعد حروب يطول شرحها وفرار المتوكل واستيلاء عبد الملك الملقب بالمعتصم على فاس ومراكش وغيرهما ورجوع المتوكل ثانية واستيلائه عليهما استجاش أبو عبد الله محمد المتوكل المخلوع بسبستيان ملك البرتقال وشكا اليه ما ناله من عمه المعتصم وطلب منه الاعانة فلبى ملك البرتقال دعوته واشترط عليه في مقابلة ذلك أن يكون له سائر سواحل المغرب فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه وللحال جمع ملك البرتقال جموعه وأساطيله المركبة من ألف مركب وخرج من بلاده يريد بلاد المغرب وكان كبراء دولته حذروه عاقبة هذا الخروج فلم يسمع قولهم ولج في آرائه وملك الطمع قلبه ثم خرج من طنجة في جيش عدده ١٢٥،٠٠٠ مقاتل (١٥٧٨ م - ٩٨٦ هـ) فاغتاظ لذلك أهل المغرب لاستعانة ملكهم باعدائهم الذين يطمعون بابصارهم من زمن طويل للاستيلاء على بلاد المغرب خصوصا وان سبستيان هذا كان يحاربهم في (١٥٧٥ م) بجهات طنجة وقد كان ذلك من أكبر الاسباب في هزيمة المتوكل ثم انضم المتوكل بمن معه من الاجناد والحاشية الى جيش سبستيان وخرج على تمام الاهبة والاستعداد من مدينة طنجة وكانت للبرتقال وتقدما الى الشرق فالتقيا بعد مدة بجيش عبد الملك وأخيه أحمد ثم دارت رحى الحرب بين الطرفين وعند الصدمة الاولى توفي عبد الملك في محفته ولم يعلم أحد بوفاته غير صاحبيه وأخيه خوف انتثار عقد الجنود وصار الحاجب يتردد بين المحفة والقواد ويقول السلطان يأمركم بكذا ويريد منكم كذا تقدم يا فلان وتأخر يا فلان وهكذا كأن السلطان على قيد الحياة ثم أراد الله وانتصر جيشه نصرا عظيما ووقع في يده من الغنائم ما لم ير أهل المغرب مثله قبل ذلك ثم فتشوا بين القتلى فوجدوا سبستيان غريقا في النهر وكذا المتوكل وغيرهما من حاشيتهما وقد كان المتوكل فقيها أديبا قوي العارضة الا أنه

كان

كان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال بأحد عسوفا على الرعية وكانت مدة سلطنة عبد الملك أربع سنين وكان يتزيا بزى الاتراك ويجرى مجراهم فى كثير من شؤنه

وقام بالامر من بعده الشريف *ابو العباس احمد المنصور بالله* (٩٨٦ هـ) وبعد أن استوثق له الامر كتب الى السلطان مراد ابن السلطان سليم والى سائر ممالك الاسلام المجاورين لبلاده يعرفهم بانتصاره فارسل السلطان مراد رسلا معهم هدية وهى سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن وغير ذلك وهاداه أيضا كثير من ملوك أوروبا وكان المنصور لما تربع فى دست الملك كأنه نسى أو تناسى ما للسلطان العثمانيين عليه من اليد لانه هو السبب فى اقعاده هذا المقعد فحدث عن ذلك نفرة بين المنصور والسلطان مراد ودبت بينهما عقارب الوشايات حتى كادت تضطرم بينهما نيران الحرب وبالفعل أمر السلطان قائد العمارة أن يتجهز للذهاب الى بلاد المغرب فلما اتصل الخبر بالمنصور من بعض قناصل الانكليز ارتاع قلبه وأرسل رسلا يعتمد عليهم بهدية جليلة الى القسطنطينية تلافيا لما فرط واعتذارا عما سلف فتوصل الرسل الى مخاطبة السلطان بتلطف حتى زال ما بصدره واعتذروا له عن تأخر المنصور عن الجواب فقبل السلطان مراد الاعتذار وتقبل الهدية وكتب الى القبودان باشا بالرجوع عن منازلة بلاد المنصور وأرسل السلطان أيضا رسلا الى المنصور يلومه على التراخى فى أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين وأرسل معهم بعض كبراء دولته فصفت القلوب وزال ما بالنفس (٩٨٩ هـ) وقد اتسع ملك المنصور وامتد نفوذه حتى استولى على بلاد تنبكتو وكانم وكاغو وغيرها من بلاد السودان الاوسط وهادنته ملوك التكرور ومثل ملك برنو وغيره وقد كان المنصور من أجل ملوك الغرب ابتنى المبانى العظيمة من ذلك القصر الشهير المسمى بالبديع صرف عليه من الاموال ما لا يحصر وفرشه بانواع الرخام والفسيفساء والطنافس والحرائر مما يحير الابصار ويستوقف العقول وكانت وفاته (١٠١٢ هـ) بالوباء الذى كان انتشر فى تلك السنين وعم بلاد المغرب تقريبا وكان حسن السياسة حازما يقظا مشاورا فى مهمات الامور ومن حسن فكره أنه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها الى عماله فاذا سقط الكتاب فى يد عدو أو غيره لا يدرى ما فيه ولا يعرف ما اشتمل عليه وكان يعطى ذلك العامل خطا يفك به رسائله اليه وهذا يدل على ان هذه العلامات التى تسميها الفرنج الآن بالشفرة قديمة الاستعمال استعملها العرب قبلهم بقرون

وقام بالامر من بعده ابنه السلطان الشريف *أبو المعالى زيدان* باتفاق أهل الحل والعقد وكان المنصور استخلفه فى حياته الا أن أهل مراكش لما كتب اليهم بالبيعة لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس أخاه لانه خليفة أبيه بدار ملكه التى هى مراكش ولان الخاصة من حاشية أبيه كانت تميل الى أبى فارس لمعرفتهم بأخلاقه وأطواره أكثر من معرفتهم بأحوال أخيه المذكور ولما علم زيدان بذلك جهز لقتال أخيه جيشا كثيفا وأعطى قيادته لاخيه المدعو بالشيخ وكان مسجونا فى سجونه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق بالطاعة وعدم شق العصا ثم انحرف الناس عن زيدان الى أخويه أبى فارس والشيخ وتسللت عنه الجنود اليهما فقوى حزبهما ولما رأى زيدان أن لا نجاة الا بالفرار فر والتجأ الى فاس متحصنا بها فانحرف عنه أهلها أيضا مع أنهم كانوا بايعوه عن رضا وقلب والله ظهر المجن فلما رأى منهم ذلك فر الى تلمسان تاركا بلاد مراكش الى أخويه أبى فارس والشيخ وكانت أمهما واحدة

أمة من إماء المنصور (١٠١٢ ﻫ) وصفت البلاد بعد ذلك الى الشيخ واستبد بالامر وانفرد بالسلطنة ثم ظهر منه سوء السيرة وخبث السريرة وصادر العمال واستصفى أموال الاغنياء وغير ذلك مما حمل الناس على كراهته ثم جهز جيشا لقتال أخيه أبي فارس بمراكش وأمر عليه ولده عبد الله ولما وقعت الحرب بين الطرفين تمت الهزيمة على أبي فارس ففر بنفسه ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فأباحها لجيوشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد من شرب الخمر والانعكاف على اللذات متجاهرا بالمعاصى (١٠١٥ ﻫ) وعند ذلك ندم أهل مراكش على ما كان منهم من العصيان على زيدان فكاتبوه بتلمسان يطلبون مجيئه ولو منفردا وكان زيدان يستمد مساعدة والى الجزائر فلم يفلح فى مراده ثم ذهب زيدان ودخل مراكش فقابله أهلها بالترحاب والتهليل وتحزبوا معه وقتلوا حاكم المدينة الذى ولاه عليهم الشيخ وخرج عبد الله ابنه فارا بجنوده من أهل فاس بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة (١٠١٥ ﻫ) وقدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس فى أسوإ الاحوال ثم ان الشيخ جهز ابنه عبد الله بجيش عظيم لاسترداد مراكش ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث اليه قائد جيوشه المدعو مصطفى باشا فى جيش عظيم (١٠١٦ ﻫ) فالتقى الجمعان فكانت الهزيمة على مصطفى باشا بعد أن قتل من جيشه عدد عظيم ثم تقدم عبد الله الى مراكش وبرز اليه أهلها فى جيش عظيم ثم انهزموا ودخل عبد الله مراكش وفر زيدان الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ولما دخل عبد الله مراكش أفحش فى القتل والتضييق على السكان فرحل جانب عظيم منهم الى الجبال واتفقوا فيما بينهم على تولية محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان الشريف محمد الشيخ وكان له من حميد الخصال ما عطف القلوب عليه ثم التفوا عليه فخرج عبد الله لقتالهم لما علم بذلك والقبض على أميرهم هذا ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الادبار (١٠١٦ ﻫ) وتشتتوا على وجوههم فى البلاد حتى وصلوا فاس فى حالة سيئة أما محمد ابن عبد المؤمن فانه لما دخل مراكش صفح عن الذين تخلفوا من جيش عبد الله بن الشيخ فكان ذلك سببا فى ايغار الصدور عليه وكاتب أهل مراكش سرا الشريف زيدان فأتاهم وخيم بظاهر مدينتهم وامتنع أهل مراكش من مساعدة ابن عبد المؤمن فانهزم ودخل زيدان مراكش وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ

وقد ذكرنا فيما سبق ما كان من استيلاء الاسبانيول على غرناطة وأعمالها (٨٩٧ ﻫ) والتزام أهل غرناطة طاعة فرديناند والبقاء تحت حكمه على الشروط التى ذكرناها وكان الاسبانيول قد نقضوا تلك الشروط عروة عروة ولهذا كان أهل الاندلس كثيرا ما يهاجرون الى بلاد الاسلام أثناء هذه المدة غير ان عامتهم كانوا تخلقوا بأخلاق الفرنج وأثر ذلك فيهم أثرا ظاهرا لطول صحبتهم لهم ونشأت أعقابهم بين أظهرهم وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جندا كبيرا وبهم فتح المنصور اقليم السودان واستمر الحال على ذلك الى أن كانت (١٠١٦ ﻫ) فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها وقال صاحب نفح الطيب خرجت ألوف بفاس وألوف اخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله سبحانه فى الطرقات ونهبوا أموالهم وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل منهم من هذه المضرة اﻫ ولما أتوا تونس أوسع لهم عاملها التركى

عثمان ذاى الكرامة وأباح لهم بناء القرى فى مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم ووصل جماعة منهم أيضا الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام

ثم ان الشيخ بن المنصور لما ملته النفوس من قساوته وكان بعث ابنه عبده الله مرة ثالثة الى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها خرج عبد الله من فاس ولما التقى الجمعان كانت الهزيمة على عبد الله (١٠١٦ هـ) وفر فى نفر من أصحابه ووقعت محلته فى يد السلطان زيدان وانضم اليه جيش عبد الله فعفا عنهم واستفحل أمر السلطان زيدان ومالت اليه قلوب أهل المغرب جميعا فعند ذلك خاف الشيخ ففر فى أهله وحشمه الى العرائش فاحتل فى القصر الكبير ولحق به ابنه عبد الله مهزوما وبعد أن استولى على فاس نهض الى القصر الكبير وانقض على الشيخ وحزبه ولما اتصل خبر ذلك بالشيخ فر الى العرائش ومنها ركب البحر الى فيليب الثالث طاغية الاسبانيول مستصرخا به على السلطان زيدان (١٠١٧ هـ) ولما استقر زيدان بفاس بلغه خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فخرج اليه مسرعا واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا ولما علم عبد الله بذلك زحف الى فاس فيمن انضم اليه فبرز اليه مصطفى باشا (١٠١٨ هـ) والتقى الجمعان ثم أجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا وهزيمة جنوده فدخل عبد الله بن الشيخ فاسا مع عمه أبى فارس فى السنة المذكورة ومع ذلك فان عبد الله لم يتمتع طويلا بهذا الفتح لان زيدان لما سمع بمقتل وزيره واستيلاء عبد الله على فاس أقبل مسرعا وحاصرها وكان عبد الله يستعد لمقاتلة الاسبانيول الذين كانوا نزلوا على مدينة العرائش ثم انهزم الناس عن عبد الله ففر واستتب الامر لزيدان الذى أهان أهل مراكش اهانة فاضحة وفعل عسكره بالمدينة أفعالا منكرة (١٠١٩ هـ) ثم وقعت الحرب بين زيدان وعبد الله بعد ذلك بأيام فانهزم زيدان ورجع الى فاس وأعرض عن التطلع لها وصرف عنايته الى ضبط مراكش وأعمالها وتوارث بنوه السلطنة من بعده وبقى عبد الله بن الشيخ الى أن هلك وقام بأمر فاس من بعده ثوارها

وقد تقدم فرار الشيخ المأمون من العرائش الى ملك الاسبانيول مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان الا أن ملك الاسبانيول لم يقبل ان يعده فعرض عليه الشيخ ان يترك أولاده عنده رهنا ويعينه بالمال والرجال حتى اذا ملك أمره بذل له ما شارطه عليه فاشترط عليه ملك الاسبانيول تخليته مدينة العرائش وتمليكه اياها فقبل الشيخ ذلك وتعهد به ثم خرج قاصدا بلاد المغرب (١٠١٨ هـ) ولما سمع أهل فاس خافوا من شوكته وذهب اليه جمع من علماء فاس وأعيانها التهنئته بالقدوم ففرح بهم وأطلق لهم المدافع تعظيما وإرهابا وحنق الناس من ذلك كثيرا ولاموا العلماء على تهنئتهم لرجل استعان باعداء بلادهم عليهم سيما وانه اشترط لهم التنازل عن قسم من بلادهم وتسامع أهل المغرب كافة بما كان من استنصار الشيخ بالاسبانيول فقاموا وقعدوا وأنكروا ذلك أشد الانكار خصوصا حينما أخرج الشيخ أهل العرائش منها ليفى لملك الاسبانيول بما وعده ثم قامت العلماء تحض الناس على خلع الشيخ والاستعداد لمقاتلة الاعداء واسعاف سكان العرائش وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وانكار الخاصة والعامة عليه أفعاله وتنازله طوعا عن بلد من بلاده الى الاعداء احتال فى ذلك وكتب سؤالا الى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما دخل بلاد الاسبانيول باهله

وأولاده منعوه من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش وانهم ما تركوه يخرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنا على ذلك فهل يجوز له ان يفدى أولاده من أيدى النصارى بهذا الثغر أم لا فاجابوه بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من يد العدو باعطاء بلد من بلاد الاسلام له جائز وانا موافقون على ذلك وكانت هذه الفتوى بعد أن وقع ماوقع وامتنع جماعة كثيرة من مشاهير العلماء عن الفتوى ثم ان الشيخ بن المنصور اجتمع عليه جمع من أهل الفساد فعاث بهم فى البلاد فلته القلوب لمارأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته وتمليكه ثغرا من ثغور مراكش للاعداء ثم اجتمع الناس عليه وقتلوه وسط محلته (١٠٢٢ هـ) وكان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس فى محاربات مع اخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوار ولم يخل قط من سنة من سنى دولته من هزيمة عليه ووقيعة باصحابه وحدث بينه وبين اخوته معارك شديدة وكان زيدان فقيها متضلعا فى العلوم وله تفسير على القرآن وكانت وفاته (١٠٣٧ هـ)

وبويع من بعده ابنه عبد الملك ولما تمت له البيعة خرج عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب الى ان هزمهما واستولى على ما كان بيدهما وفر أحمد فدخل حضرة فاس واتسم بسمة السلطان وضرب السكة باسمه ثم توفى قتيلا (١٠٥١ هـ) وكان عبد الملك ابن زيدان فاسد السيرة مدمنا على شرب الخمر متهتكا ومازال على ذلك حتى قتل وهو سكران (١٠٤٠ هـ)

وقام بالامر من بعده أخوه الوليد بن زيدان وكان مقتصرا على ما كان لاخيه وأبيه من قبله ولم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها وعظمت الفتن بفاس واقتسم المغرب فى أيام أولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الاندلس أيام طوائفه وتضعضعت أحواله وضعفت جيوشه وفترت همته وتلاعب الاسبانيول والبرتقال بسياسته أياما وبذلك ضاعت الفتوحات السودانية وفقد المغرب سطوته بتلك الاطراف ولما استفحل أمر الثوار استقل جزء عظيم من بلاد السوس واقتطعه عدة خوارج كابى حسون السملالى وغيره وكان الوليد متواضعا لين الجانب دينا رضيته الخاصة والعامة وقد فتك بكثير من الاشراف من اخوته وبنى عمه وكان يكرم العلماء ثم ثار عليه جنده وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدرا (١٠٤٥ هـ) ولما قتل الوليد أجمع رأى أرباب الدولة على مبايعة أخيه محمد الشيخ فاخرجوه من سجنه حيث كان سجنه أخوه تخوفه منه الخروج عليه فسار فى الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة وكان خصوصا لايميل الى سفك الدماء محبا للراحة مقبلا على فعل الخير وكانت وفاة السلطان محمد الشيخ (١٠٦٤ هـ)

ولما توفى السلطان محمد الشيخ بويع ابنه ابو العباس احمد ولم يستقر له أمر لان أخواله قويت شوكتهم فى أيامه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فحاصروه وضايقوه بمراكش أشهرا ولما ذهب اليهم لطلب الصلح قبضوا عليه وقتلوه غيلة وأقبلوا الى مراكش مسرعين (١٠٦٦ هـ) وولوا عليهم أميرهم عبد الكريم بن أبى بكر الشيبانى وبقتل السلطان أبى العباس أحمد انقرضت دولة السعديين من آل زيدان وانطوى بساطها فسبحان من لا يزول ملكه ومدة ملكهم مائة وخمسون

سنة

سنة وبعد انقراض دولة الاشراف السعديين قام بمراكش دولة صغيرة تعرف بدولة الشبانات وأولها الرئيس عبد الكريم الذى لما دخل مراكش دعا الناس الى بيعته فبايعوه (١٠٦٩ هـ) فانتظمت له مملكة مراكش وأعمالها وسار فى الناس سيرة حسنة ولم يزل على ذلك الى أن مات (١٠٧٩ هـ) ومن الحوادث التى ظهرت فى زمنه الغلاء المفرط وبايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم وبقى فى مراكش الى أن قدم المولى الرشيد وقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا

الفصل الثالث عشر

دولة الاشراف السجلماسيين

قال النسابون ان نسب هذه الدولة متصل برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض العلماء يقول ما ولى المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء تافيلات أى سجلماسة وأصلهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وكان أول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم فى أواخر المائة السابعة فى أوائل الدولة المرينية وقيل ان سبب مجيئه الى سجلماسة إعلاء قدر الدولة المرينية لانها لما أتت رفعت قدر الاشراف واحترمتهم ولم يكن بسجلماسة أحد من آل البيت الكريم وكان حسن المشار اليه متصفا بالصلاح والزهد وله مشاركة حسنة فى كثير من العلوم وبقى بين أهل سجلماسة يعظهم ويهديهم الى طريق الرشاد حتى وافته منيته ولم يخلف الا ولدا واحدا كان يدعى المولى محمد وبقى مكرما منظورا اليه بعين الوقار والاحترام هو وأولاده من بعده الى أن كان منهم المولى أبو الحسن على الشريف الذى دعاه أهل غرناطة لما ضايقهم الاعداء يلتمسون منه العبور اليهم ليكون شيخا للغزاة والمجاهدين وتنازلوا له ولمن يحضر معه عن أموال جزيلة برسم الجهاد ومن أولاده السيد على المثنى وهو جد الاشراف الحاليين الحاكمين بمملكة مراكش وكان له ولد يدعى الشريف محمد وهو أول من تولى الرياسة منهم وكان يقول ان هذا الامر لابد أن يصير الى بيته ولما تلاشى أمر المغرب فى أواخر دولة الاشراف السعديين وكثر به الثوار استصرخ الشريف محمد بابى حسون السملالى صاحب بلاد السوس اذ ذاك فأتى اليه مسرعا على رأس جيش عظيم (١٠٤٣ هـ) ولما رأى أعداء الشريف ما بينه وبين أبى حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبى حسون وصدقوه المحبة والخدمة كل ذلك ليفسدوا ما بينه وبين المولى الشريف وما زالوا يجدون فى ذلك حتى استحكمت العداوة بين الشريف وبين أبى حسون ثم ان أبا حسون كتب لعامله على سجلماسة فقبض على الشريف وأرسله اليه مكبلا فاعتقله أبو حسون الى أن افتكه ولده محمد بمال جزيل (١٠٤٧ هـ) وأقام بسجلماسة الى أن توفى (١٠٦٩ هـ) وبينما كان الشريف فى حبسه كان ابنه محمد يسعى فى تأليف القلوب عليه وجمع جيشا ليرد به أخصامه فتم له ذلك جيدا لما كان اتصف به عمال أبى حسون من سوء السيرة والتضييق على الناس حتى ملتهم النفوس ثم أوقع بعمال أبى حسون وطردهم من بلادهم بعد قتال شديد ولما اشتد ساعده وقوى أمره عزم حزبه على البيعة له فبايعوه (١٠٥٠ هـ) فى حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة

فاستتب أمره وطارد كره واذا أراد الله أمراهيأ أسبابه ثم شمر المولى محمد لمضايقة أبي حسون وأهل السوس وجرد كل منهما على صاحبه ثم انتصر المولى محمد وانهزم أبو حسون الى بلاد السوس واستولى محمد على درعة وأعمالها فاتسعت ايالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته ثم وقعت الحرب بينه وبين صاحب فاس ومكناسة الرئيس عبد الله محمد الحاج الدلائى فكانت الهزيمة أولا على محمد الشريف ثم تصالحا ثم تحاربا فكانت الهزيمة هذه المرة على صاحب فاس واستيلاء محمد ابن الشريف عليها بمساعدة أهلها (١٠٦٠ هـ) ثم خرج منها مقهورا واستولى عليها محمد الحاج ثانية وجعل عليها ابنه أحمد أميرا ولما رأى المولى محمد أن لا طاقة له بالاستيلاء على فاس صرف عنايته الى جهات تلمسان فأخضع قسما من بنى يزناسن وهزم جيشا للعثمانيين كان خرج لقتاله من تلمسان (١٠٦٠ هـ) وصار يشن الغارات على القبائل والقرى والدساكر حتى اضطربت أحوال المغرب الاوسط وهم سكانه بخلع طاعة العثمانيين ثم ان والى الجزائر عثمان باشا جهز عليه جيشا عظيما فخاف المولى محمد لقاءه فكر راجعا الى سجلماسة بعد أن فرق العرب الذين كانوا معه ولما رجعت عسكر العثمانيين الى الجزائر أخبروا واليها بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة المذكور فأجمع رأيه ورأى ديوانه على ارسال رسالة الى المولى محمد فلم تأت بالمطلوب وردها المولى محمد أشنع رد ثم ان المولى الرشيد ابن الشريف على أخو المولى محمد خرج عليه بعد وفاة أبيه ولما وقعت الحرب بينهما كانت أول رصاصة فى نحر المولى محمد فكان فيها حتفه (١٠٧٥ هـ) وكان المولى محمد شجاعا لا يبالى بالعظائم ولا تخطر بباله الاوجال

ولما قتل المولى محمد ابن الشريف على أقبلت جميع جنوده وأتباعه الى المولى الرشيد بن الشريف فبايعوه البيعة العامة وخضع له قسم عظيم من أعراب البادية فعظم أمره وعلا كعبه ثم أرسل الرسل والرسائل لاهل الطاعة والعصيان ثم تقدم ففتح تازا (١) وسجلماسة بعد أن حاصرها تسعة أشهر الى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير وفى (١٠٧٦ هـ) استولى على مدينة فاس بعد حصارها فاستقام له أمرها وصلحت أحوالها بعد أن قتل من أهلها عددا عظيما ثم مال على كثير من الثوار والخوارج فأفناهم قتلا وتشريدا ولما فرغ من ذلك خرج يقصد مراكش (١٠٧٩ هـ) فاستولى عليها وقتل رئيسها أبابكر بن عبد الكريم الشيبانى ولما اتسع ملكه واستقر له الامر ضرب السكة باسمه ولما كان أمر بلاد السوس يهمه جدا لاستقلاله ووجود طائفة معاندة له به وهم بنو حسون سار اليهم (١٠٨١ هـ) فافتتح ديارهم وقلاعهم واستولى على بلادهم وكانت وفاة المولى الرشيد (١٠٨٢ هـ) جمح به فرسه فى بستان فاصابه فرع شجرة فهشم رأسه يوم عيد الاضحى وفى زمنه (١٠٧٩ هـ) تنازل ملك البرتقال مدة ملكهم كارلوس الثانى لبدرو الثانى ملك الاسبانيول عن مدينة سبتة بمعاهدة وقعت بينهم بمدينة أشبونة ولا زالت فى يدهم الى الآن والرشيد أول من ضرب فلوس النحاس المستديرة وكانت قبل ذلك مربعة وله من الآثار عدة مبان كالقناطر والمدارس والآبار وكان محبا للعلماء مؤثرا لاغراضهم مولعا بمجالستهم حتى كثر العلم فى أيامه واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء

(١) تازا بلد حصينة شمن مراكش على وادى سبو على بعد نحو ٦٠ ميلا عن فاس الى الشرق بها عدة جوامع من أضخمها وأجملها وأمتنها الجامع الكبير وهى مركز التجارة بين الجزائر وتلمسان وفاس وبينها وبين فجيج وتافيلت طرق للقوافل

وقام

وقام بالامر من بعده أخوه المظفر بالله أبو النصر الشريف اسمعيل (١٠٨٢ ﻫ) وكان سنه يوم بويع ستا وعشرين سنة وفى أول سلطنته خرج عليه ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد والتف عليه طوائف من بلاد السوس ودخل أيضا فى طاعته أهل مراكش فخرج اليهم وقاتلهم وهزمهم ودخل مراكش عنوة (١٠٨٣ ﻫ) فعفا عن أهلها ثم عصى عليه أيضا أهل فاس وقتلوا قائده بها وأعلنوا بدعوة أبى العباس أحمد ثم التقى بأبى العباس أحمد وظفر به وقتله (١٠٨٤ ﻫ) ثم حاصر فاسا فأذعن أهلها الى الطاعة وخرجوا اليه تائبين فعفا عنهم (١٠٨٤ ﻫ) وكانت مدينة مكناسة الزيتون وهى من المدن القديمة ببلاد المغرب بناها البربر قبل الاسلام ولما جاء الموحدون حاصروها زمنا طويلا ثم افتتحوها عنوة فى أواسط المائة السادسة وخربوها ثم بنوا بدلها مكناسة الجديدة المسماة تاكرارت واعتنى بها بنو مرين من بعدهم وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا وكانت فى مدتهم كرسى الوزارة كما كانت فاس كرسى الامارة ولما كانت مكناسة الجديدة طيبة الهواء عذبة الماء اتخذها المولى اسمعيل عاصمة له وبنى بها قصوره وجعل لها سورا حصينا وفرض العملة على القبائل مناوبة وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر وبينما كان يهتم بأمر مكناسة خرج عليه كثير من الثوار فتغلب عليهم ولما تم له بناء مكناسة الجديدة (١) اتخذ له جيشا من السودان

(١) مكناسة مدينة ببلاد مراكش احدى المدن الثلاث التى يقيم بها ملك مراكش واقعة على سفح جبل ولها ثلاثة أسوار خلف بعضها عليها أبراج وهى كثيرة المصانع والمعامل خصوصا مصانع الجلود الجيدة المعتبرة ابتدأ المولى اسمعيل فى بنائها سنة (١٠٨٤ ﻫ) واستمر قائما على بناء حصونها بنفسه وكلما أكمل قصرا أسس غيره ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الاخضر وجعل له بابين وجعل بهذه القصبة عشرين بابا عادية فى غاية السعة والارتفاع مقبوة من أعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضى منه العجب وجعل فى هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط وجعل بها اهريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبوا يسع زرع أهل المغرب وجعل بجواره سواقى للماء فى غاية العمق مقبوا عليها وجعل فى أعلا الاهراء جامسة تدير الشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة وجعل بها اسطبلا عظيما لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ فى مثله مسقف الجوانب على أساطين وأقواس عظيمة فى كل قوس مربوط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا يقال انه كان مربوطا بهذا الاسطبل اثنا عشر ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسراء الفرنج يتولى خدمته وفى هذا الاسطبل ساقية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر وأمام كل فرس منها ثقب لشربه وفى وسط هذا الاسطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة وفيه أيضا هرى عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على أساطين عظيمة وأقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل وينفذ اليه الضوء من شبابيك فى جوانبه الاربع كل شباك ينيف وزنه على قنطار من الحديد وفوق هذا الهرى من أعلاه قصر يقال له المنصور ولا يقصر ارتفاعه عن مائة ذراع خمسون فى الاسفل وخمسون فى الاعلى وفيه عشرون قبة فى كل قبة طاقة عليها شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل الى الجبل وكل قبة مسقفة بالاحجار وغير ذلك ثم أربع قباب منها متقابلة متسعة كل واحدة منها سبعون شبرا فى مثلها وباقى العشر بن أربعون ويجاور هذا الاسطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب طوله فرسخ وعرضه ميلان ويتخلل هذه القصور التى فى داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الاخرى ورحاب عظيمة مربعة الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف قال بعضهم وقد شاهدنا آثار الاقدمين فى المشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك فى دولهم ولا شاهدناه فى آثارهم بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان المولى اسمعيل فى قلعة مكناسة دار ملكه ولم تزل تلك البنايات على طول الدهر قائمة كالجبال ولم تخلقها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج ولا آفات الزلازل التى تخرب المبانى العظام والهياكل الجسام ومن يوم مات المولى اسمعيل

وجعله فرقا وطوائف مرتبة منظمة ترتيبا عجيبا يخالف بترتيبه وأحكامه ما رآه أهل المغرب للآن وبذلك استغنى عن الانتصار بالقبائل ثم ان المولى إسمعيل قصد المغرب الاوسط بجيش عظيم وأقبل اليه من عرب تلك البلاد عدد عظيم فبايعوه وساروا في خدمته ولما علم والى الجزائر بذلك وبما انه يؤدى الى العصيان أرسل جيشا عظيما من الترك لصده فسار هذا الجيش حتى نزل أمام محلة السلطان على وادى شاف ولما رأى الاعراب وغيرهم من الذين اجتمعوا الى المولى إسمعيل عظم جيش الترك وضخامة مدافعه وجودة أسلحته تسللوا عنه ليلا بحيث لم يبق معه الا عسكره الذى جاء بهم من المغرب فقفل راجعا الى بلاده دون قتال وترك للعثمانيين ما كان استولى عليه من المغرب الاوسط (١٠٨٩ هـ) وصار الحد بينهما وادى تافنا وبعد ذلك خرج عليه إخوته الثلاثة فأوقع بهم (١٠٩٠ هـ) ثم التفت الى محاربة الاسبانيول واخراجهم من البلدان التى استولوا عليها ببلاد المغرب فافتتح المعمورة المسماة بالمهدية عنوة بعد حصار هامدة (١٠٩٢ هـ) ثم التفت بعد ذلك الى مدينة طنجة وكان أخذها الانكليز من البرتقال ووجه عليها جيشا تحت قيادة على بن عبد الله الريفى فضيقوا عليها وشددوا الحصار الى أن تركها الانكليز وركبوا سفنهم وهربوا فى البحر (١٠٩٥ هـ) بعد أن خربوا المدينة وهدموا أسوارها وأبراجها وفتح أيضا مدينة العرائش وكانت بيد الاسبانيول (١١٠٠ هـ) بعد أن حاصرها مدة خمسة أشهر ويروى ان لويز الرابع عشر ملك الفرنسيس أعان المولى اسمعيل على فتح هذه المدينة وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها الزاد ثم بعد ذلك كان الفتح ووقع حاميتها باجمعهم فى يد أهل مراكش وأخذ منها المولى إسمعيل مقدارا عظيما من البارود ونحو مائة وثمانين من المدافع ولما فرغ من أمر العرائش وجه جيشا لمحاصرة مدينة أصيلا وكانت بيد الاسبانيول أيضا ولما اشتد الحصار بالاسبانيول وتضايقوا طلبوا الأمان فامنوهم ثم تمكنوا من الفرار فى سفنهم ليلا ودخل جنود مراكش فملكوها (١١٠٢ هـ) ثم سار ذلك الجيش بعينه الى سبتة فنزل عليها وحاصرها وأمده السلطان بعسكر من عبيده وحرضهم على الجد والاجتهاد ودام القتال أياما حتى ان السلطان اتهم القواد الذين كانوا على حصارها بعدم النصح فى افتتاحها ومع ذلك لم يتيسر فتحها ثم ان المولى إسمعيل رأى من المصلحة تفريق بلاد المغرب على أولاده فى حياته ليستقروا على ذلك ولا يتنازعوا بعد موته وكانت وفاة المولى إسمعيل (١١٣٩ هـ) وقد مكث فى الملك زمنا فقد كان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت وكان بعض أولاده يعبرون عنه بالحى الدائم وقد استوفى مدة السلطنة بشرتها لانه وليها فى إبان اقتداره عليها ولم يستبد عليه أحد ولا تعرض له منغص خلاف بعض الثوار من أولاده وغيرهم وفى مدة سلطنته (١٠٩٢ هـ - ١٦٨١ م) أراد لويس الرابع عشر ربط الوصلة بينه وبين السلطان إسمعيل لعقد معاهدة يستفيد منها وأراد المولى اسمعيل أيضا الارتباط مع لويس ليساعده على العثمانيين بالجزائر والاسبانيول المستولين على

والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بانقاضها الى وقتنا هذا وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب وما أتوا على نصفها هذه مدة مائة سنة وأما الجدران فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بنى آدم ولا يقوم به مال اهـ

بعض

بعض ثغوره وحصلت المخابرة بين الطرفين وأرسل المولى اسمعيل من طرفه وفد الملك فرانسا معه كتاب بتفويض حق المخابرة فى أمر المعاهدة لرئيس ذلك الوفد كما أن له الحق فى التصديق على الاتفاقية وأوصى السلطان أيضا رئيس ذلك الوفد فى أن يفاتح ملك فرانسا فى أمر اقترانه باحدى أميرات العائلة الملوكية الفرنساوية وهى الاميره ديكونتى تأييدا للروابط المحبة وتمكينا للوصلة بين الطرفين الا أن هذا الوفد لم يصادف نجاحا فعاد وأغلقت أبواب المخابرة وبذلك ضعف ما كان لفرانسا من النفوذ القليل الذى كانت حازته بالبلاد المراكشية وكانت دولة المولى اسمعيل واسعة الاطراف امتدت جنوبا الى تخوم السودان وانتهت الى ماوراء نيل السودان وهو نهر النيجر وشرقا الى بسكرة (١) من بلاد الجريد من نواحى تلمسان وكان شغفا بالعمارة والمبانى وكان ملكا جليلا عظيم القدر لا تزال آثاره للآن قائمة بالبلاد المراكشية ويقال انه ترك خمسمائة ولد من الذكور ومن البنات مثل ذلك وكان يدربهم مدة حياته على أعمال الزراعة والفلاحة والفروسية لسداد رأيه وجودة نظره لتدوم لهم معيشتهم بعده فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخاصة بعد موته وزوال رداء الملك الساتر لهم بين العامة قال صاحب الاستقصا أما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشئ فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك فلا يلحق ضخامة مصانعه ماشيده الاكاسرة بالمدائن ولا الفراعنة بمصر ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية ولا اليونان بانطاكية والاسكندرية ولا ملوك الاسلام ودولهم العظام كبنى أمية بدمشق وبنى العباس ببغداد والعبيديين بافريقية ومصر والمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين بالمغرب اه وقد أوقف على الحرمين الشريفين شيأ كثيرا

وقام بالامر من بعده السلطان المولى *أبو العباس أحمد المعروف بالذهبى* اجتمع القواد والرؤساء والاعيان والقضاة فبايعوه بعد وفاة أبيه (١١٣٩ هـ) ولم يكن أبوه عهد اليه بالامر من بعده ثم قدم عليه قواد القبائل وأعيان الامصار مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر رتبته وافتتح أعماله بقتل عمال أبيه وأركان دولته ولم يهتم هذا الشريف بامر الدولة كابيه وقد استبدت عليه فى كثير من الاحوال العبيد الذين كان والده ألف منهم الجيش العظيم الذى مر ذكره ولم يقتل من قتل من رؤساء الدولة الا باشارتهم وغمرهم باحساناته وفرق عليهم الاموال والعطايا ففرحت به الجنود وتمسكوا بحبل ولائه وبعد قليل من مدته خرج عليه الثوار فاغضى عنهم لانعكافه على لذاته وترك الناس وشأنهم فانحطت هيبة السلطنة وانفك نظامها لاسيما مع ما أصيبت به من قتل أساطينها القائمين بامورها وكان ذلك منتهى مراد العبيد حيث انطلقت أيديهم فى الفساد واستولوا على جميع مناصب الدولة فعم الفساد وامتدت أيدى النهب فى الطرقات وكثرت الشكايات بباب السلطان ثم اتفق أهل فاس مع عبيد الديوان على خلع هذا الامير وتولية

(١) بسكرة مدينة عظيمة من بلاد المغرب بافريقية كانت قاعدة بلاد الزاب واقعة على مرحلتين من قلعة بنى حماد وعلى مرحلة من طبنة ويطل عليها جبل أوراس وكانت مسورة منيعة حصينة جدا كثيرة النخل والشجر والعشب وكانت تعرف ببسكرة النخيل وكانت هذه المدينة أولا للاغالبة ثم الشيعة ثم صنهاجة ثم صارت قصبة بنى مزنى ولها فى أيامهم أخبار مهمة وهى الآن فى ولاية قسطنطينية من بلاد الجزائر امتلكها الفرنساويون سنة ١٨٤٤ م وبساتينها مشهورة بكثرة نباتاتها واتساع فلاحتها وهواؤها جيد للغاية اه

أخيه المولى عبد الملك فاجابوهم الى ذلك وحالفوهم على الوفاء وفاوضوا القواد والكبراء فى ذلك فوجدوا منهم ميلا لمرادهم وتحققوا سوء تدبيرهم فى انتخابهم المولى أحمد هذا ثم خلعوه وسجنوه (١١٤٠ هـ) وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على أعيانها الا أنه لم يحكم التدبير فى ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم ثم اجتمع أمراء الجيش والاعيان وبايعوا المولى ابا مروان عبد الملك وكتبوا ببيعته الى الآفاق الا أنه أساء السيرة فاختل أمره وفسدت عليه القلوب وكان من أكبر الاسباب فى ذلك أن منع العطاء عن العسكر والوفود كما جرت به العادة فأضمروا له الشر وترقبوا وقت الفرصة للايقاع به ولما انتهى خبر ذلك اليه أخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم لينفعوه يوما ما ظنا منه انهم يقاومون العبيد واجتهد فى التضريب بين البربر والعبيد ليأمن شر الاثنين الا أن العبيد اطلعوا على مكنون ضميره فاحترسوا منه وصمموا على عزله ورد أخيه المولى أحمد لسلطانه وبسط يده فيهم وقد اجتهد المولى أبو مروان فى ردهم عن مرادهم وبعث لهم بالوعاظ والنصحاء لوعظهم ونهيهم عن الثورة فلم يزدهم ذلك الا نفورا ثم خلعوا شعار الطاعة ونادوا بالمولى أبى العباس سلطانا وفر المولى أبو مروان الى فاس محتميا باهلها فوعدوه الدفاع عنه والقيام بامره (١١٤٠ هـ)

أما المولى أبو العباس أحمد الذهبى فانه قدم من سجلماسة مسرعا فبايعوه وكتبوا ببيعته الى الآفاق وفرق الاموال والثياب على العسكر والعلماء والاشراف وبالغ فى ذلك وقد تخلف عن بيعته أهل فاس ولم يقدم عليه أحد منهم لانهم كانوا يكرهونه فلما عادت الدولة اليه ثانية تخوفوا منه جدا وجددوا البيعة للمولى عبد الملك الملتجئ اليهم وأعلنوا بنصره ثم ان المولى أحمد كتب اليهم يأمرهم بتسليم أخيه اليه وان يدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا بحرب فجاهروا بالخلاف وأغلقوا الابواب فبعث اليهم المولى أحمد من يعظهم ويخوفهم أمر الفتنة فلم يصغوا اليه وقتلوه وصلبوه فجرد عليهم المولى أحمد الجيوش (١١٤١ هـ) وحاصر فاسا ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار وأغار الجنود على بسيطها فانتسفوا أثمارها وخربوا مزارعها وأمر الرماة بموالاة اطلاق المدافع ورمى الحجارة ليلا ونهارا حتى عمها الخراب وتهدم قسم عظيم من دورها وهلك عدد وافر من رجالها ثم اضطر أهل فاس فى آخر الامر بعد أن ضعفوا عن القتال لطلب الصلح وتسليم المولى عبد الملك ففعلوا وانتهى الحرب وقبض المولى أحمد على أخيه عبد الملك وغربه الى مكناسة وعاد السلطان اليها فمرض بها ولما أحس من نفسه بالموت أمر باخيه فخنق (١١٤١ هـ) قالوا وكان المولى أحمد أشبه الناس بالامين بن هرون الرشيد العباسى فى زيه ولهوه وانكبابه على الشهوات وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الاحوال وتراكمت الاهوال

وقام بالامر من بعده المولى عبد الله بن اسمعيل وكان بسجلماسة يوم وفاة المولى أحمد فكتبوا اليه بالبيعة ونادوا باسمه وأعلنوا بنصره ثم أقبل المولى عبد الله مسرعا حتى قدم مدينة فاس فقابله الاعيان من العلماء والاشراف والقواد وغيرهم وسلموا عليه ولما استقر بكرسى المملكة سعى الوشاة بينه وبين أهل فاس وأفسدوا نيته عليهم فمنع أعطياتهم وجاهر بعداوتهم لعدم حسن سياسته فنادوا بخلعه فعندذلك سار اليهم بقود جيشا عظيما حتى ألقى الحصار على مدينتهم وأمر

الجنود

الجنود بالتخريب والفساد وقطع الاشجار وطم النهر الذى يستقون منه فانحبس عنهم ماؤه وأمر باطلاق المدافع والرمى بالمنجنيقات ليلا ونهارا حتى اشتد الامر وانعدمت الاقوات (١١٤٢ هـ) فبعثوا فى الصلح وتوسلوا اليه بعلمائهم وأشرافهم وبعد ذلك نهض لقتال البربر وكانوا خرجوا عليه فتمكن من الايقاع بهم ثم مال بعد ذلك على أهل فاس فقتل كثيرا من أبطالهم وهدم مدينة الرياض من حضرة مكناسة وكانت تحوى كثيرا من المنازل الفاخرة والقصور العامرة بأن أمر الجنود فهدموا البيوت على الناس وهم نيام فلم يستيقظوا الا والبيوت تتساقط عليهم فمن أسرع وخف بحمل متاعه وأثاثه نجا ومن لا معين له أو تراخى فى حمل متاعه ضاع تحت التراب وتفرق سكانها فى الضياع والمدن بحيث لم تمض عشرة أيام حتى صارت مدينة الرياض تلا من التراب لم يبق بها غير الاسوار والجدران فكان كل ذلك سببا فى النفرة منه وافساد الدولة عليه ثم أمر جنوده أيضا فقتلوا من الناس خلقا كثيرا وعند ذلك كتب اليه أهل الديوان ينكرون عليه قتله الناس ظلما بلا موجب ولما رأى كثرة التشغيب عليه أمر الناس بالاستعداد لحرب القبائل العاصية فشغلهم بذلك عن الخروج عليه وولى على فاس عاملا وأمره بمضايقة أهل فاس وتغريمهم وفر الناس الى البوادى والجبال وهاجر كثير منهم الى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال (١١٤٥ هـ) ثم وقعت العداوة بين هذا السلطان وبين العبيد لاسرافه فى قتلهم حتى كاد يأتى على عظمائهم ويقال انه قتل منهم أكثر من عشرة آلاف فأجمعوا على خلعه وقتله ولما رأى ذلك منهم فر من مكناسة ليلا الى بلاد السوس فأقام بها نحو ثلاث سنين (١١٤٧ هـ)

ولما فر المولى عبد الله من مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على بيعة المولى *أبى الحسن بن اسمعيل* المعروف بالاعرج وكان بسجلماسة فأقدموه عليهم (١١٤٧ هـ) ثم بايعه أهل فاس ومكناسة ثم قدمت عليه الوفود ببيعتهم وهدايا هم فأجازهم وفرق الاموال على الجنود حتى أرضاهم ثم انتقض عليه أهل فاس فتوسط العلماء فى ذلك حتى أزالوا الخلاف الذى بين الطرفين وفى (١١٤٩ هـ) قام السلطان المخلوع المولى عبد الله يريد القبض على زمام السلطنة وساعده على ذلك طائفة من الجنود وأعلنوا بيعة المولى عبد الله فعند ذلك فر أبو الحسن الى بعض قبائل العرب ونزل بديارهم فأكرموه وقام بينهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها باشارة أخيه السلطان المولى عبد الله (١١٦٩ هـ) ثم وثب عليه العبيد وقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه المولى عبد الله بدعوى أنه أفسد عليهم بلادهم فأخذه وأرسله الى سجلماسة فأقام بها الى ان مات ولما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة اجتمعت كلمة الجنود على بيعة السلطان عبد الله فبايعوه وتبعهم فى ذلك أهل فاس وسائر القبائل ثم انه أوقع بأعيان فاس ومكناسة فخلعوا طاعته وخرجوا عليه وأخذوا فى نهب الطرقات ثم اجتمعوا وتحالفوا على خلعه فخلعوه (١١٥٠ هـ)

ولما خلع الناس الشريف المولى أبا الحسن بايعوا أخاه المولى *محمد بن عربية* وكان مختفيا بفاس فأخرجوه وأخذوا عليه العهود وهيؤا له كل ما يحتاج اليه من آلة السلطنة ثم بايعه عبيد الديوان فتم أمره وعند ذلك فر المولى عبد الله الى بلاد البربر وأقام هنالك ثم قدمت الوفود من سائر

الاقطار على المولى محمد فأكرمهم وأجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد الا ان ذلك لم يقنعهم واستزادوه وشددوا عليه فى الطلب لانهم السبب فى توليه مركز السلطنة ولانهم أصحاب الحل والعقد فى المملكة حيث أصبحوا بها كجنود التركمان بالدولة العباسية فاضطر المولى المشار اليه الى اطلاق يده فى النهب واستخراج الحبوب والاقوات من دور أهل مكناسة غصبا وصار كلما علم بمن عنده قمح أوشعير قبض عليه وصادره الى أن يظهر ما عنده فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس وانقطعت السبل ونبغت الثوار فامتنع الخراج ولذلك أخذ السلطان فى مصادرة الاغنياء من أهل فاس ومكناسة فعظمت المحنة ودنست الطرقات باللصوص حتى أصبح أهل المدن لايجسرون على الخروج الى ضواحيها كل ذلك والسلطان معرض عنه لايلتفت اليه وهلك فى تلك المدة من الناس جم غفير وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عربية هذا أيام نحس ووبال كل ذلك من استبداد العبيد بالامور وافتياتهم وتحكمهم فى الدولة حسب أغراضهم وأهوائهم وعمت المجاعة حتى مات خلق كثير ولولا أن الله سبحانه وتعالى سخر الاسبانيول والبرتقال والفرنسيس وغيرهم لجلب الاقوات للمتاجرة بها لمات أهل البلاد جوعا ثم ثار العبيد على المولى محمد بن عربية وقبضوا عليه وقيدوه ووكلوا به من يحفظه فى دار منفردة واستقدموا أخاه المولى المستضى بن اسمعيل من سجلماسة سنة (١١٥١ هـ)

لما قبض العبيد على المولى محمد بن عربية نادوا ببيعة أخيه المستضى ، وكتبوا بذلك الى الآفاق وفرح الناس واستبشروا ولما قدم بايعوه واستقر بمكناسة دار المملكة واستتب له الامر وأول شئ بدأ به تغريب أخيه مقيدا الى سجلماسة فسجن بها الا ان الاحوال كانت لاتزال على ماهى عليه من الاضطراب والفساد ولانقطاع الخراج افتقرت الدولة فى أيام هذا السلطان واحتاج الى المال ليرضى به العبيد ولما لم يمكنه الحصول عليه مع ما فرضه من المغارم أخذ فى بيع التافه من محفوظات السلاطين حتى أبواب المنازل والقباب النحاسية والشبابيك ورخام القصور وغير ذلك ثم ان المولى المستضىء أسرف فى القتل والعسف ثم شغب العبيد عليه (١١٥٢ هـ) ففر الى مراكش وكان أهلها بايعوه ثم استنفر شيعته للقتال فقعدوا وتسللوا عنه ولم يبق معه الا القليل وما زال مقيما بمراكش الى (١١٥٥ هـ) حتى بايعوه ثانية كما سيأتى

لما فر المستضىء من مكناسة بايع العبيد المولى عبد الله (١١٥٣ هـ) ثم بايعه أعيان الدولة وخطبوا له على منابرهم وزينت لذلك مدينة فاس ولم يرض المولى عبد الله دخول مكناسة لخوفه من القيام عليه فتولى العبيد النقض والابرام واستبدوا على الدولة وكثر قطاع الطريق فعم الضيق ثم أقبل السلطان الى مكناسة (١١٥٣ هـ) وقتل من أهلها خلقا كثيرا عقابا لهم على ما فعلوه وأطلق العبيد بمكناسة يفعلون الافاعيل الشنعاء ومن اشتكى عوقب وسجن وكان هذا الملك يعلم بما سيلم به من العبيد لاستيلائهم على الدولة وتحكمهم فى أمورها فلم يدخل دار المملكة ثم شغبوا عليه (١١٥٤ هـ) ففر الى فاس ومنها فر الى بلاد البربر ولما فر المولى عبد الله استقدم عبيد الديوان المولى زين العابدين بن اسمعيل وكان بطنجة فبايعوه (١١٥٤ هـ) وقدمت عليه وفود القبائل والامصار فقابلهم بما يجب وتم له الامر الا أن أهل فاس لم يبايعوه ولما كان لايحب التعرض الى الناس فى

اموالهم

أموالهم ولا يميل الى العسف والمظالم ولم يرد ان يمد يده الى مال أحد نقص رواتب العبيد قليلا فكان ذلك سبب انحرافهم عنه وامتنعوا عن محاصرة مدينة فاس لما عصت عليه ثم طالبوه بالرواتب وشددوا فى اقتضائها ولما لم يكن عنده ما يرضيهم به شغبوا عليه وعصوا أوامره وكان السلطان المولى عبد الله مقيما بجبال البربر مطلا على الحضرة متحفزا للوثبة فلما علم بما فيه المولى زين العابدين من الاضطراب نزل من الجبل ودخل فاس (١١٥٤ هـ) ولما اتصل خبره بالمولى زين العابدين خشعت نفسه وضاق صدره وترك مكناسة الى حيث يأمن على نفسه فكان ذلك آخر العهد به

لما فر السلطان المولى زين العابدين اجتمع العبيد واتفقوا على ارجاع المولى عبد الله وبعثوا اليه فى ذلك طائفة من قوادهم فسر بقدومهم وجددت له البيعة وزينت له مدينة فاس الا أن العبيد لطغيانهم وتمردهم وعمى بصيرتهم كانوا لا ينفكون عن الثورة والخروج على السلاطين لكل أمر يرون فيه عدم الملاءمة لمصلحتهم ولذلك فانهم لما رأوا ان المولى عبد الله لا يزال يقيم بجبال البربر بعد أن بايعوه ولم ينتقل الى مكناسة دار الملك ارتابوا من ذلك وقلبوا له ظهر المجن على عادتهم واستدعوا المولى المستضىء من مراكش ليبايعوه ولما انتهى خبر ذلك الى المولى عبد الله أخذه المقيم المقعد وشمر عن ساعد الجد وألف بين قبائل العرب والبربر وأهل فاس وجمع منهم جيشا قويا حالفه على الموت دونه ثم أقبل المستضىء (١١٥٥ هـ) ودخل مكناسة فى جيش العبيد وغيرهم ثم أقبل بعد ذلك المولى عبد الله بجر خلفه أمم البربر فى عدد لا يحصى ولما رأى الجعان وعلم العبيد وشيعة المستضىء أن لا طاقة لهم على حرب عبد الله فروا اليلا ونجوا بأنفسهم فشكر الناس الله على ذلك وفى السنة التالية لهذا التاريخ استجاش المولى المستضىء على المولى عبد الله بالباشا أبى العباس الريفى فأمده بجيوش لا تحصى كاملة العدة فدهش أهل فاس بذلك وارتجت الارض واستجاش أيضا المولى عبد الله بقبائل البربر وأهل فاس ثم دارت رحى الحرب بين الطرفين فانهزم المستضىء ووزيره الريفى وغنم منهما أعداؤهما أموالا وافرة وغنائم نفيسة وكثيرا من المدافع والبارود وكان أمر هذه الواقعة فتحا عظيما على المولى عبد الله وشيعته ثم راجع طائفة من العبيد المولى عبد الله وأقبلت عليه قبائل المغرب بالهدايا من كل صوب فرحب بهم وألان لهم القول (١١٥٦ هـ) ثم ان أحمد الريفى استعد بعد ذلك هو والمستضىء وأقبلا فى جموع عديدة للاستيلاء على فاس والقبض على المولى عبد الله فتلاقوا جميعا قرب فاس فكانت الهزيمة فى هذه المرة أيضا على المستضىء ووزيره الذى قتل فى المعركة ووقعت جميع أموال وسلاح وأمتعة جيش الريفى فى يد المولى عبد الله وكان الريفى هذا ممن اشتهروا بعلو الهمة له آثار كثيرة بطنجة وتطاوين وغيرهما ولما انتهى المولى عبد الله من أمر الريفى ذهب قاصدا طنجة فاستولى عليها وعفا عن سكانها وخضعت اليه قبائل تلك الجهات وبينما كان المولى عبد الله منصرفا من طنجة اعترضه أخوه السلطان المستضىء فى نحو ثلاثين ألفا من الجنود بين فرسان ومشاة فكانت الدائرة على المستضىء أيضا (١١٥٦ هـ) ثم ان أهل مراكش تآمروا على المولى المستضىء ومنعوه دخول مدينتهم ورفضوا دعوته وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله (١١٥٨ هـ) ومازالت البلاد تلفظ المستضىء الى ان أقام أخيرا بطنجة قانعا من الغنيمة بسلامة المهجة ثم دخل أهل مراكش بعد ذلك فى طاعة الشريف المولى عبد الله ثم ان المولى عبد الله ارتكب بعد ذلك من الاعمال ما قبض عنه

قلوب الناس خصوصا البربر الذين كانوا نصروه وآووه فلذلك زحفوا عليه بجموعهم ففر منهم الى مكناسة (١١٥٩ ﻫ) ثم بعد ذلك جرت أمور يطول شرحها بين السلطان المولى عبد الله وبين أهل فاس وغيرهم ثم ان العصاة راجعوا طاعته ثم قلب له العبيد ظهر المجن وبايعوا ولده محمدا (١١٦٢ ﻫ) بمكناسة وبعثوا اليه ببيعتهم وهو بمراكش الآن محمدا ارد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبوه فى حق والده وتألفهم بشئ من المال وأعرض عن الخوض فى أمر البيعة فرجع وفد العبيد من عند محمد وقد أيسوا من اجابته اياهم ولما رأى المولى عبد الله ان القلوب قد نفرت عنه وأن العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده محمد تلافى أمره وأخذ فى استصلاح الرعية وتألفها وفرق على العبيد أموالا ثم ان محمدا أقبل الى مكناسة ولما وجد العبيد لا يزالون يخطبون باسمه على المنابر عاتبهم على ذلك وقال لهم انى برىء منكم ومن فعلكم هذا وانما أنا خديم والدى فتركوا الخطبة وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم فى طاعته وكانت هذه هى البيعة السابعة للعبيد مع المولى عبد الله لانهم خلعوه قبل ذلك ست مرات (١١٦٣ ﻫ) ثم انحرفوا عنه ثانية فصالحهم بواسطة ولده السيد محمد وكانت وفاة المولى عبد الله (١١٧١ ﻫ) ودفن بفاس ولما كان يتصف به من الشدة والبطش نفرت عنه قلوب الجند والرعية لما سفك من دمائهم بغير سبب ظاهر وقد عقد بينه وبين الفلمنك معاهدة بها تصرح للفلمنك بتنصيب قناصل فى بعض مدن المغرب الاقصى وان يكون الصلح والامان بين المملكتين أما أخوه المولى المستضى فانه كاتبه بعد فراره منه كما تقدم مسترضيا سائلا عفوه فرسم له بالاقامة بمدينة أصيلا (١١٦٤ ﻫ) فاشتغل هنالك بالتجارة ثم رحل الى سجلماسة فاستوطنها الى أن توفى بها (١١٧٣ ﻫ)

لما توفى المولى عبد الله بن اسمعيل كان الناس قد سئموا الهرج والفتن وملوا الحرب وملتهم وكانت حال الرعية مع المولى عبد الله مثل الفوضى الذين لا وازع لهم فكان ذلك من أقوى الاسباب التى صرفت وجوه أهل المغرب كله الى بيعة السلطان سيدى محمد وجمعت كلمتهم عليه لا سيما ما كان قد ظهر منه أيام ولايته من حسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأى وتمام المعرفة بادارة الامور على وجهها حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف وحضرها العلماء والاعيان وغيرهم وبايعه أيضا أهل مراكش حيث كان مقيما وقدمت عليه الوفود بهداياهم من كل فج من الجبال والسهول بحيث لم يتخلف عنه أحد من أهل بلاده ثم خرج يريد مدينة فاس فعرج على مكناسة وبعد أن قوم ما اعوج من أمورها ارتحل الى فاس فدخلها على أصوات التبجيل والتهليل وهش للناس وألان لهم جانبه واختلط بهم وفرق على الفقهاء والاشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين والجنود وأزاح علل الجميع ولم يحرم أحدا ثم عاد الى مكناسة مقر السلطنة وبعد أن مهد ما يجب تمهيده وأصلح ما يلزم اصلاحه خرج الى الثغور البحرية متفقدا أحوالها (١١٧٣ ﻫ) فنزل تطاوين وبنى بها أبراجا حصينة ومنها ذهب الى طنجة جاعلا طريقه على سبتة وكانت للاسبانيول كما تقدم ووقف عليها ونظر فى حصونها وأبراجها ولما تحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجد سار الى العرائش بعد أن نظر فى أحوال طنجة وأنزل بها حامية ومنها توجه الى سلا فبنى بها أبراجا على البحر وأمر التجار فاشتروا له أدوات

المراكب

المراكب القرصانية وأرسل الى بلاد السويد من يشترى له بعض لوازم السفن والبارود وأرسل أيضا غيره الى بلاد الانكليز ليشترى له منها سفنا وعددا للمراكب وغيرها من المدافع ولما كان له ولوع فى الجهاد بالبحر اتخذ له مراكب حربية تكون فى غالب الاوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش وكان سفرها فى البحر مقصورا على شهرين فى السنة لعدم صلاحية المراسى فى غير هذا الوقت فلهذا فكر فى طريقة يتأتى بها سفر سفنه فى سائر أيام السنة فبنى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه وليكون ثغرا تجاريا وحصنه بالمدافع وجعل به أبراجا على صخور داخل البحر وشحنه بالعدد والجنود فصار القاصد للمرسى لا يدخلها الا تحت رمى المدافع من هذا البرج وغيره وقد عمرت هذه المدينة فى زمن قريب ولما كان هذا السلطان كثير الولوع بأمر الجهاد بالبحر كما سبق وكانت سفنه كثيرة التردد على ثغور الفرنج فتجوس خلال سواحلهم فتقتل وتأسر وتغنم وتسبى أسرع كثير من أمم الفرنجة فى مهادنته وقد تعرضت سفنه عدة مرات لسفن الفرنسيس فغنمت منها وأسرت فاغتاظ الفرنسيس من ذلك وهاجموا ثغر سلا بسفنهم (١١٧٨ هـ) وأطلقوا عليها مدافعهم فهدموا كثيرا من الدور وفر السلطان الى خارج البلد وكانت حصون سلا تصب عليهم من مدافعها ما اضطرهم لترك المدينة بعد ان لحق بهم ضرر عظيم ثم هجموا على ثغر العرائش وأطلقوا عليها مدافعهم فهدموا دورها ومسجدها (١١٧٩ هـ) ثم اقتحموا المرسى فى خمسة عشر قاربا مشحونة بنحو ثلاثة آلاف من العسكر معهم ما يلزمهم من الميرة والسلاح والذخائر وتصاعدوا على مجرى الوادى الى مراكب السلطان التى كانت هنالك فخرقوا سفينة منها وكان المسلمون غنموها منهم قبل ذلك وعمدوا الى أخرى فكسروها بالمعاول ثم تكاثر عليهم الجنود والاهالى وقاتلوهم حتى ردوهم على أعقابهم ولما رجعوا وجدوا العرب قد سدوا عليهم فم المرسى وأقاموا لهم على صخرة هنالك ومنعوهم الخروج وهبت ريح شديدة فكانوا اذا توسطوا الوادى ليخرجوا ردتهم الريح واذا انحازوا الى أحد الشطين رماهم الجنود والسكان بالرصاص حتى قتلوا معظمهم ثم سبحوا اليهم وأخذوا منهم احد عشر قاربا ونجا أربعة وبعد ذلك عقدت شروط الصلح مع الفرنسيس أما الاسرى فقد توسط ملك الاسبانيول فى فدائهم ففدوا بمال عظيم وكان تقرير الصلح بينه وبين الفرنسيس سنة (١١٧٩ هـ) على يد الرئيس أبى الحسن على مارسيل الرباطى أرسله السلطان الى بلاد الفرنسيس لهذا القصد ولقبض مال أسارى العرائش

ولما كان يريد تجديد المواصلة بينه وبين السلطان الاعظم سلطان آل عثمان السلطان مصطفى بعث اليه بالفقيهين السيد الطاهر السلاوى والسيد الطاهر الرباطى فى سفينتين وأصحبهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق وسروج مرصعة وأسياف محلاة بالذهب مرصعة بالياقوت وحلى من عمل المغرب فقبل السلطان العثمانى الهدية وأكرم وفادة الرسولين ثم كافأ المولى محمدا على ذلك بمركب موسوق من الآلات الحربية والمدافع والمهاريس والبارود وعدد كثيرة لمراكب القرصانية ولما كان يخاف معاودة الكرة من الفرنسيس أو غيرهم على ثغر العرائش شحنه بآلات الجهاد واعتنى بأمره جدا وشيد به المعاقل والابراج ورتب به جماعة من رؤساء البحر وقوما من أهل الاجادة فى رمى المدافع ومن حسن بصيرته أيضا اجتهاده فى تجنيد الجنود المختلفة الطبقات واعادة فرق العبيد بعد أن انحل نظامها وركدت ريحها وما ذلك منه الا استعدادا لما ظن حصوله من أمم أوروباسيما وقد كانوا فى ذلك

الوقت يسعون بغاية الجد والنشاط للتداخل فى أمر الممالك الاسلامية خصوصا المغربية منها ولما كانت المصافاة لم تستقر بعد تماما بينه و بين الفرنسيس عقد معهم معاهدة مؤلفة من عشرين شرطا مرجعها الى المهادنة والصلح والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقير والاحترام من الجانبين (١١٨٠ هـ) ولما وردته هدية السلطان مصطفى العثمانى فرح لذلك كثيرا وأرسل الى الاستانة خديمه الرئيس عبد الكريم التطاونى وأصحبه بهدية نفيسة فى مقابلة هديته اليه فعاد من الاستانة العلية يحمل لمولاه هدية أعظم من الاولى وهى مركب موسوقة بالمدافع والمهاريس النحاسية مع عددها وعدد مراكب قرصانية أخرى من سوارى ومخاطيف وقلوع وقنب (غمنات) وحبال وبراميل وغير ذلك من الآلات البحرية وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بصب المدافع والمهاريس والكور والبمب وبصناعة المراكب القرصانية وبينهم معلم مجيد فى الرمى بالمهراس ولما وصلوا اليه فرح بهم جدا وفاوضهم وأراد أن يحيى آثار دار الصناعة التى كانت بسلا على عهد الموحدين وبنى مرين ثم فرق هؤلاء المعلمين على الثغور فتخرج على أيديهم نجباء من أهل المغرب توارثوا هذه الصناعة منهم

ومن الامم الاوروباوية الذين عقد معهم المولى السلطان محمد معاهدات أمة الدانيماركة عقد معها شروطا مرجعها الى تمام الصلح والامن من الجانبين أيضا وتعهد فيها ملك الدانيمارك للسلطان كل سنة بدفع خمسة وعشرين مدفعا من المعدن وزن كورتها من ثمانية عشر رطلا الى ٢٤ رطلا وأن يدفع معها غير ذلك من أدوات السفن والربالات شيأ كثيرا وعقد مثل هذه المعاهدة أيضا مع ملك السويد الا أن قدر المال الذى يدفع من جانبه أقل من المبلغ الذى يدفعه ملك الدانيمارك وكان ذلك فى مقابلة التصريح بالاتجار لتجار هاتين الامتين ببعض ثغور بلاد المغرب (١١٨١ هـ) ولما كان هذا السلطان يميل الى الفخر وحب الرفعة وانتشار الصيت صاهر شريف مكة الشريف سرور وبعث اليه مع ركب الحج المغربى ابنته وأصحبها بولده الاكبر وخليفته الاشهر المولى على ومعه شقيقه المولى عبد السلام وأصحبهما بهدية لامير طرابلس الغرب وأخرى لامير مصر والشام وهدية عظيمة لاهل الحرمين الشريفين ومالا كثيرا يفرق على أشراف الحجاز واليمن وجوائز سنية للعلماء والنقباء وغيرهم بمكة والمدينة وبعث معهما عدة من وجوه أهل المغرب وكان فى جهاز ابنته ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلى واليواقيت والجواهر وكان يوم دخولها يوما مشهودا حضره عامة أهل الموسم الاعظم من الآفاق ولما كان هذا السلطان متصفا بالأنفة والشهامة كان لا يقر له قرار من أجل استيلاء البرتقال على مدينة من بلاده وهى الجُدَيْدَة [1] ولذلك فانه بعد أن استشار أهل الرأى حاصرها حصارا شديدا (١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) وركب عليها المدافع فخربت دورها وأسوارها وكتب حاميتها الى ملك البرتقال بذلك فوردت عليهم بعد مدة مركب من أشبونة ظنوه مددا لهم فاذا بها قد أتت بكتاب ملكهم يأمرهم بالخروج وترك البلد للمسلمين فخرجوا بعد أن اشترط السلطان عليهم أن لا يخرجوا الا بثيابهم التى على أبدانهم ولا يحملون معهم شيأ غيرها فامتثلوا الا انهم قبل

(١) الجديدة وتسمى عند الفرنج مازغان أو ماز كان وهى مدينة بمملكة مراكش واقعة بالشمال الغربى من مدينة مراكش وثغر صغير على بحر الظلمات قريبا من مصب وادى أم الربيع وقد اضمحلت الآن أسسها البرتقاليون سنة ١٥٠٠ م وكانوا يسمونها كاسترو ريال Castro - Reale

خروجهم

خروجهم صنعوا بالمدينة لغما من البارود أوقده رجل منهم تبرع لهم بذلك بقي بالمدينة فلما دخل المسلمون أشعل اللغم فانفجر وقتل به من الجنود نحو خمسة آلاف وتهدم قسم من سورها وكان الفضل في هذا الفتح لعلم الرمي التركي المسمى الحاج سليمان أحد الذين أرسلهم السلطان مصطفى كما تقدم ولارتباط المودة بين هذا السلطان وملك الاسبانيول أرسل له ملك الاسبانيول يرجوه في التوسط بينه و بين باي الجزائر في فكاك أسرى الاسبانيول الذين عند أهل الجزائر وأن يفك في مقابلتهم من عنده من أسرى المسلمين الجزائريين فقبل السلطان ذلك وتم الامر على ما يحب (١١٨٢ هـ) ثم تطلع لعزة نفسه وشرف محتده وسعيه في لم شمل بلاده ومنعها من تسلط الاجانب عليها ان يحاصر مدينة مليلية وكانت للاسبانيول فاحاطت بها عساكره ونصب عليها المدافع والمهاريس وشرع في رميها (١١٨٥ هـ) فكتب اليه ملك الاسبانيول يعاتبه على حصارها و يذكره مهادنة الصلح الذي انعقد بينهما على يد كاتبه السيد الغزال فاجابه السلطان بان ما عقد بينهما من الصلح والمهادنة خاص بامر البحر وأما المدن التي بالبر فالتنافي لا مهادنة فيها فكيف يحق له ادعاء المهادنة وكان الغزال لما ذهب الى بلاد الاسبانيول بهذا الصدد خدعوه في الكتابة لعدم مهارته في الامور السياسية وجعلوه يوقع على صلح عام في البر والبحر ولما بعث ملك الاسبانيول عقد الصلح للسلطان فاذا هو عام في البر والبحر فكف عن حربها وأفرج عنها وشرط على ملك الاسبانيول حمل الآلات الحربية من مدافع ومهاريس و بمب وكور و بارود وغيرها من الاشياء التي تركها حول مليلية وان يحملها له في البحر و يردها الى الثغور التي جلبت منها المنافي جرها في البر من المشقة فقبل ذلك وحمل بعضها الى تطاوين و بعضها الى الصويرة ثم ان السلطان عزل الغزال عن كتابته و وبخه على عدم التفاته لما وقع منه ثم ان العبيد خرجوا على السلطان محمد بن عبد الله و بايعوا ابنه المولى يزيد وعظمت فتنتهم جريا على مذهبهم القديم فلما علم السلطان بخبرهم أرسل عليهم فبدد شملهم وقبض على رؤسهم ثم عفا عن ابنه يزيد وكان انضم اليهم (١١٨٩ هـ) ثم تفكر في أمر ثورات العبيد وأفعالهم المتكررة المنكرة فأخذ في تشتيت قوتهم وتبديد عصبيتهم ففرقهم على الثغور والرباطات والمعاقل ليأمن شرهم ومع ذلك فانهم ثاروا بالثغور وأضروا باهلها في مزارعهم وأموالهم وأعراضهم ولما رأى السلطان أمرهم وان تأديبهم بالتفرقة لم يفد فيهم عزم على حسم بلائهم وقطع عروقهم فخرج من مراكش للايقاع بهم فتم له ما يريد وذلك انه بعد أن جمع أكثرهم في مكان معين دعا اليه رؤساء القبائل فلما حضروا قال لهم إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وأسلحتهم وكل مالهم فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادهما فوثبوا على العبيد من غير ان تكون منهم وقفة واقتسموهم في أسرع من لمح البصر وتوزعوهم وصيروهم عبرة لمن اعتبر وقد كان قيام هؤلاء العبيد سببا لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب فسرى فسادهم في القبائل كلها عربا و بربرا و بعد أن مهد الجهات الجنوبية خصوصا جهات سجلماسة خرج للطواف في انحاء مملكته للنزهة وتفقد العمال بنفسه لكثرة عنايته بأمر الرعية ثم عاد منشرحا مسرورا بعد مدة الى عاصمته

ولما أتى ميعاد الحج هيأ الركب بما يلزم وأرسل فيه رسلا من أقاربه وحملهم قدرا عظيما من المال على وجه الامانة لاشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن وصلات أخرى لناس معينين ولما كان يدأب

دائما فى توثيق عرا المحبة والمواصلة بينه وبين القسطنطينية دار الخلافة الاسلامية أمر رسله المذكورين بالذهاب أولا الى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم الى الحجاز مع أمين الصرة الذى يخرج كل سنة من دار الخلافة الى الحجاز وكان سفرهم الى القسطنطينية فى السفن العثمانية وأرسل معهم كتابا الى السلطان عبد الحميد الاول فلما وصلوا الى القسطنطينية (١١٩٧ هـ) وجدوا أن الصرة قد سافرت الى الحجاز فاضطروا للاقامة بها الى العام القابل ثم سافروا صحبة الركب وأرسل السلطان عبد الحميد الاول الى المولى محمد جواب (١) مكتوبه اليه وتخوف المولى محمد على رسله من ابنه المولى يزيد العاصى عليه احتاط لهذا الامر كثيرا ومع ذلك فان المولى يزيد لحقهم وهم بمدينة جدة وهجم عليهم وقت القيلولة فى جمع من أصحابه وهم بدار شيخ الركب فانتزع منهم ما قدر عليه الان أمير مكة الشريف سرور وأحضر اليه المولى يزيد وألزمه برد المال وتهدده فرد البعض وجحد البعض ولهذا السبب تبرأ السلطان المشار اليه من ولده وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها الى الآفاق فعلق أحدها بالكعبة والآخر بالحجرة النبوية والثالث ببيت المقدس والرابع بضريح الامام الحسين بمصر وكتب الى السلطان العثمانى يرجوه ان لا يقبله عنده اذا التجأ اليه (١١٩٩ هـ)

ولما كانت مملكة فرانسا تود من زمن طويل إحكام الصلات بينها وبين مملكة المغرب الاقصى كانت تتزلف اليها بكل ما فى وسعها من حسن القول والفعل حتى تمكنت من عقد معاهدة تجارية بينها وبين السلطان محمد على يد سفيرها بمراكش المدعو الكونت دى بونبون فأفادتها كثيرا (١٧٨٧ م - ١٢٠٢ هـ) ثم ان المولى يزيد لما لم يتمكن من نوال غرضه بالخروج على أبيه عاد من المشرق وقصد سجلماسة ثم التجأ الى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه وأخذ فى استعطاف والده وما زال الامر بينهما فى تردد حتى توفى السلطان محمد (١٢٠٤ هـ)

وقد كان السلطان محمد محبا للعلماء وأهل الخير مقربا لهم لا يغيبون عن مجلسه فى أكثر الاوقات جماعا للكتب جلب منها من بلاد المشرق كتبا نفيسة ولما فاته الاشتغال بفنون العلم فى حال الصغر عكف أولا على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها حتى بلغ فى ذلك الغاية القصوى ولما تولى الامر بعد وفاة أبيه زهد فى التاريخ والادب بعد التضلع منهما وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها ورتب لذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم وكان عالى الهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخاطب الملوك ويهاديهم حتى علا صيته وطار ذكره وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ويضع الاشياء مواضعها فيعرف مقادير الرجال ويؤدى حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم ويراعى لاهل السوابق سوابقهم ويتفقد أحوال خدامه فى الصحة والمرض ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك وكان من الشجعان المذكورين فى وقته يباشر الحروب بنفسه وكان يقتنى الرجال ويصطفيهم ويعدهم لايام الكريهة وقد خلد آثارا كثيرة بالمغرب من مدارس وأضرحة ومساجد وحمامات وقلاع وحصون وبيمارستانات وكانت عطاياه متواصلة لاهل الحرمين الشريفين وكان كثير الاعتناء بالاساطيل وجلب الآلات الحربية والمعدات البحرية وكان لديه من المراكب عشرون كبارا وثلاثون صغارا وبلغ رؤساء البحر كلها ستين رئيسا جميعها مراكبها

(١) قد ذكر المرحوم جودت باشا صورة هذا الجواب فى الجزء الثانى من تاريخه المشهور بصحيفة ٣٢٢ فمن شاء فليراجعه

وبحريتها

وبحريتها وبلغ عسكر البحرية فى وقتـه ألفا من المشارقة و ٣٠٠٠ من المغاربة ومن الطوبجيـة ألفين وقد هابتـه ملوك الفرنج ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمتـه فى البحر وقد سالمهم جميعا الا الأمة المسكوف فانه لم يسالمها ولم يقبل هداياها لمحاربتها العثمانيـين وكان بعد أن استقرت المودة بينه وبين العثمانيين يخطب للسلطان عبد الحميد الاول على المنابر وكانت تلك أول خطبـة خطبها ملوك المغرب الاقصى لسلاطين آل عثمان ولو ألهم الله الذين جلسوا بعده على سرير مملكة المغرب الاقصى واستمروا على الخطبـة للخليفة العثمانى الذى يعترف بخلافته جميع الاسلام فى الممالك المتفرقة لازدادت الالفة وتلاصقت القلوب وتم الاتحاد بين هاتين الامتين العظمتين وصارتا يدا واحـدة على أعدائهما وكان اقتـدى بذلك غير مملكة مراكش من الممالك الاسلامية الاخرى نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم الامتين ما فيه الصالح العام

ولما توفى السلطان محمد وبلغ منعاه المولى يزيد وهو بالحرم المشيشى بايعه الاشراف ثم بايعه أهل تطاوين وطنجة والعرائش وأصيلا وما يجاورهذه البلاد من القبائل ثم قدم عليه وفد أهل فاس فبايعوه ثم أتت الوفود من كل جهـة فاستتب له الامر ولما دخل مكناسـة قدمت عليه قبائل المغرب كلها فبايعته وقد كان هذا السلطان شديد العناية جدا باخراج الاسبانيول من مدينة سبتة لانه كان يشق عليـه أن يرى ثغرا من أهم ثغوره فى يد أعـدائه فكان منـه لما ولى الامر أن أظهر معاداة الاسبانيول وصمم على حربهم فتفادى ملكهم من حربه بكل وجـه وبعث بسـفينة عليها رسول من أعظم قواده لتهنئته بالملك والتملق له فاعرض عنـه ولم يحفل به ولا بهديته بل عمـد الى من كان بثغوره من الاسبانيول تجارا وغيرهم وقبض عليهم وكبلهم بالسـلاسـل وساقهم الى سجن طنجـة فاستمروا بها الى أن ظفر مركب للاسبانيول بمركب مراكشية وأسرها بمن فيها ولذلك وقع التفادى بينه وبين ملك الاسبانيول فى أولئك الاسرى بأسرى طنجة ثم استعد لمحاصرة مدينة سبتة واستنفر الناس لحربها والمرابطة عليها ثم سار هو بجيشه فاحاط بها وركب عليها المـدافع والمهاريس وأقام على حصارها مـدة وكاد يفتحها لولا عصيان قبائل بلاد الحوز عليه وبيعتهم لاخيـه المولى هشام لانه لما اتصل به خـبر ذلك وهو على حصار سـبتة أقلع عنها لتـدويخ القبائل العاصيـة فاسترد مراكش وهزم جيش المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فاصيب برصاصـة فى خده فعاد الى مراكش جريحا وتوفى من جرحـه بعد أيام قـلائل (١٢٠٦ هـ) وقد كان من السمحاء الابطال أصحاب النجدة والهمم العاليـة

وبعد وفاته اتفق الجميع على مبايعة المولى سليمان لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الاوصاف الجيدة التى تفرد بها عن غيره ولما تمت له البيعة وفدت عليه وفود القبائل من العرب والبربر فبايعوه الا أن بعض أهل رباط الفتح انحرف عن بيعته وكان أول ما ابتـدأ به من الاعمال بعد البيعة أن بعث بتجريدة من الخيـل الى رباط الفتح لمقاتلة أهلها المنحرفين عنه الى التمسك بدعوة المولى مسلمـة الا أن تلك التجريدة فشلت وقتل قائدها فعظم بذلك أمر المولى مسلمة الذى أرسل جيشه يشن الغارة على بلاد المولى سليمان ولما كثر عيثهم فى الرعايا سار السلطان المولى سليمان لصد جيش مسلمة فالتقى معهم على نهر سبو وأوقع بهم وقعة شنعاء وفر من بقى على قيد الحياة من قواد جيش مسلمة فلحقوا به ثم أوقع أيضا بجيش آخر كان يقوده المولى مسلمة بنفسه فتفرق عن المولى مسلمـة من كان معـه من

العرب والبربر ومازال مسلمة يفر من طلب أخيه له من مكان الى مكان حتى نزل تلمسان وأقام بها وكان يود الالتجاء الى الجزائر فلم يمكنوه ثم عاد الى سجلماسة فعفا عنه المولى سليمان ولما لم يطب له مقام بها سار الى المشرق فنزل عند حموده باشا ابن على باى صاحب تونس فرحب به وبالغ فى بره ثم قصد مصر ومنها توجه الى مكة ثم عاد الى مصر ثانية وساء حاله وضاقت عليه الارض بما رحبت ثم طلب من والى تونس أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان ففعل ورسم له أخوه بالاقامة فى سجلماسة بعيدا عن الفتن فلم يقبل ومازال يتردد فى بلاد المشرق حتى مات فاستراح من تعب الدنيا

أما السلطان المولى سليمان فانه تفرغ بعد فرار أخيه الى ادخال الجهات الخارجة عليه فى دائرة طاعته فتم له مراده وولى أخاه الطيب أمر الثغور وأنزله طنجة فمهد له الامر بتلك الاطراف (١٢٠٨ هـ) الا أن مدينة مراكش ومايتصل بها من البلاد كانت فى يد المولى هشام كما تقدم وقد استقام بها أمره وخطب له على منابرها الى أن انحرف أهل مراكش عن طاعته وبايعوا المولى حسين بن محمد فدخل مراكش واستولى عليها (١٢٠٩ هـ) أما هشام فانه فر ونزل على أحد وزرائه فاكرم مثواه وسار فى طاعته وبذلك افترقت الكلمة بعمالة مراكش واتقدت نار الفتنة بين قبائلها زمنا كل ذلك والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الحوز ومراكش متربص الفرصة الى أن ملوا الحرب وملتهم وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون اليه ويسألونه الذهاب الى بلادهم لمبايعته ولما فرغ من أمر بعض الثوار قصد مراكش فبايعه أهلها (١٢١١ هـ) أما سلطانها المولى حسين فانه فرعنها فاستقامت أمورها وصلح حالها ورتب بها حامية ثم عاد الى فاس ظافرا منصورا وبعد ذلك أخذ فى غزو الجهات التى كانت لاتزال خارجة عن طاعته فتم له غالب ما أراده

وباستيلاء المولى سليمان على ثغور المغرب البحرية انقطعت منها أعمال القرصان وتشتت شملهم ورأى أن من المناسب ربط علائق المودة بينه وبين دول أوروبا ليتسع نطاق التجارة وقد مدحه مؤرخو الاوروباويين على ذلك وأرسل أيضا سفارة مخصوصة الى نابليون الاول مدة أن كان امبراطورا فقابلها أحسن مقابلة وأوسع لها الكرامة للغاية ولما هاجت الفتنة بين عرب تلمسان وواليها العثمانى لانحرافه عن أصحاب الطرق والمنتسبين اليهم وسوء اعتقاده فيهم وقتله للبعض منهم (١٢٢٠ هـ) سار أتباع الطائفة الدرقاوية واجتمعوا على شيخهم أبى محمد عبد القادر الشريف ونزلوا بجهات الصحراء وأخذوا فى الاغارة على نواحى تلمسان وقتلوا كل من وجدوه من عساكر العثمانيين وبعث باى الجزائر الى والى وهران العسكر وأمره بقتال العرب فنهض اليهم الا أنه عاد مهزوما فكتب عند ذلك الباى المذكور الى المولى سليمان يعرفه بما ناله منهم ويطلب منه ان يبعث اليهم شيخهم الاكبر أبا عبد الله محمد العربى ليعظهم ويردهم عما هم عليه فبعث السلطان المشار اليه الشيخ المذكور ومعه بعض العلماء الا أنه لم يتمكن من ردع العرب بل زادوا فى تظاهرهم فاتهم الباى السلطان بانه هو الذى يغريهم ولما لم يتمكن والى الجزائر من حسم هذه النازلة بالسلم قابلهم بعساكره ومدافعه فانهزموا شر هزيمة وأبعدوا المفر ثم زحفوا بعد ذلك الى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها وكاتب أهل تلمسان سلطان المغرب الاقصى يطلبون منه الدخول فى طاعته وفتحوا أبواب المدينة وقابلوا المحاصرين بالترحاب وبايعوا السلطان المولى سليمان وأرسلوا له وفدا منهم أما

حامية

حامية تلمسان من الاتراك فانهم التجؤا الى قلعتها وكتبوا الى والى الجزائر يعلمونه بما حصل أما المولى سليمان فانه ردالوفد وأرسل معه من يسعى فى الصلح بين الطرفين وكتب الى الباى بما أزال شكه وأبطل وهمه متبرئا من أن يكون السبب فى الحرب ولما تم الصلح بين والى تلمسان وبين رعيته عادت رسل المولى سليمان ومع ذلك فان العثمانيين لم يتمكنوا من اخضاع تلمسان تماما والنظر فى أحوالها لسبب القحط الذى كان عم تلك الاطراف حتى عدمت الاقوات وجلا أهل تلمسان عنها الى بلاد المغرب وكذا عربها بين بادية وحضر فكتب الباى الى المولى سليمان بذلك يرغب اليه ان يرد أهل تلمسان فابوا ومازالوا مقيمين بلاده ولهم مرتبات من طرفه حتى ارتفع القحط واخصبت البلاد ورخصت الاسعار فتراجعوا حينئذ الى أوطانهم وبهذه الوقائع اطمأنت البلاد المغربية ورتع سكانها فى بحبوحة الامن والخصب والرخاء والسرور حتى كانت هذه المدة غرة فى جبين ذلك العصر الا انها لم تدم زمنا طويلا ككل المسرات فانعكست الاحوال وتراكمت الاهوال واتسع نطاق الفتنة وتم هذا على السلطان فى آخر عمره مالم يتم على أحد من ملوك دولته وذلك بفتنة البربر التى كان ابتداؤها سنة (١٢٢٦ ﻫ) وفى تلك المدة كان انتشر مذهب الوهابية واستولى ابن مسعود الوهابى على الحرمين الشريفين ووصلت رسله وكتبه الى جميع بلاد الاسلام يدعو الناس الى دعوته والتمسك بمذهبه ولما أتى كتابه الى بلاد المغرب أجاب عليه علماء فاس بالاستحسان اذ الفتوى كما يقال على قدر السؤال وأرسل الجواب مع المولى ابراهيم ابن السلطان سليمان حين سافر الى الحج (١٢٢٦ ﻫ) فكان سببا فى تسهيل الامر على المولى ابراهيم وكل من معه من الحجاج حتى قضوا مناسكهم بالامن والامان والبر والاحسان

ولما رأى هذا السلطان عدم القدرة على مجاراة الفرنج فى البحار وان ايجاد السفائن ببلاده لاتسبب له الا المعرة والمشاكل بينه وبين دول أوروبا التى اتسعت أعمالها البحرية وانفرجت مسالك أساطيلها فى المياه أمر فابطلوا الجهاد فى البحر ومنع رؤساءه من التلصص فيه وفرق بعض سفنه القرصانية على الايالات المجاورة له مثل الجزائر وطرابلس (١٢٣٠ ﻫ) ومابقى منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر رأسا بعد أن كانت سفن المغرب الاقصى أكثر وأحسن من سفن صاحب الجزائر وتونس

ولما اشتدت فتنة البربر وخذلت عدة جيوش السلطان ومحا القوة البحرية سقطت هيبته وزال وقعه من القلوب وسرى الفساد الى الجند الذين قتلوا قائدهم الاعظم وكان من أكبر أخصاء السلطان ولما توالت الفتن على السلطان وانفتقت عليه الفتوق صار الناس كانهم فوضى لاوازع لهم وقام عامة أهل فاس على عاملهم وأرادوا عزله فتعصبت له طائفة أخرى حتى أدى ذلك الى الحرب وسفك الدماء ولما بلغ ذلك السلطان وهو بمكناسة ينظر فى أمر فتنة البربر زاده ذلك وهنا على وهن وكتب الى أهل فاس كتابا شحنه بالوعظ والعتاب فامتثلوا وقد تطاول البربر على الطرقات فسدوها وعلى أموال التجار فنهبوها وعلى الاعراض فرقوها حتى ان السلطان نفسه لم يأمن من شرهم حين ماترك مدينة مكناسة قصد الاقامة بمدينة فاس (١٢٣٥ ﻫ) وكذا عمت الثورة غالب الامصار وارتكب بها البربر والجنود أفحش الاعمال وبقى المولى سليمان مقيما بمراكش والفتن بفاس وسائر بلاد المغرب قد تجاوزت الحد وعم أذاها وخرج أهل فاس عن طاعة المولى سليمان

وبايعوا ابنه ابراهيم (١٢٣٦ ﻫ) على كره منه الا انه لم يبق بعد ذلك طويلا حيث مات بمدينة تطاوين فاختفى حزبه بموته ثم دعا أهل تطاوين الى بيعة أخيه المولى السعيد بن يزيد فاختلفت كلمتهم وبينما هم فى ذلك اذ ورد عليهم الخبر بمجيء السلطان من مراكش فخافوا وهربوا الى فاس ولما تراكمت هذه المحن على المولى سليمان سئم الحياة وأراد ان يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام ويتخلى هو للعبادة وكان يقول ذلك مرارا ثم لما ساورته الهموم اعتراه المرض الذى كان سبب وفاته ولما أثقله أعاد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به الى فاس اذ كان خليفته بها وكانت وفاته سنة (١٢٣٨ ﻫ) وقد كان عادلا يرفق بالرعية والضعفاء والمساكين وأبطل كثيرا من الجبايات الغير العادلة التى كانت مضروبة على حواضر المغرب وبلاده وقد اتفق أهل عصره على أنه أحلم الملوك فى زمانه وأملكهم لنفسه عند الغضب ومذهبه درء الحدود بالشبهات والتماس التأويل وقبول العذر وكان متمسكا بآداب الدين ومحافظا عليه وكان يميل الى العلم والعلماء ويؤثر المعتنين بالعلوم بمزيد البر حتى تنافس الناس فى أيامه فى اقتناء العلوم واتصال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله فى دولته وسعة أرزاقهم وكان كثير الاهتمام بأمر ما تصدع من المبانى العمومية أو تخرب منها فأصلح منها عددا عظيما وجدد غيرها ولا تزال باقية للآن وقد حصن أيضا غالب الثغور وختم حياته بأعظم عمل يعمله الملوك قبل وفاتهم وهو العهد للمولى عبد الرحمن دون أبنائه وإخوته لكمال فضله واحرازه خلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بنى أبيه وعشيرته

وقام بالامر من بعده ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وكان المولى سليمان قدمه على جميع أولاد السلاطين حتى على أولاده كما سبق لما اتصف به منذ نشأته من الصيانة والعفاف وترك ما لا يعنى والجد فى الامور كلها والورع والدين وفى حياة المولى سليمان ولاه ثغر الصويرة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام ثم استخلفه على مدينة فاس أم أمصار المغرب وكان لما حضرته الوفاة جدد له العهد (١٢٣٨ ﻫ) ولما وصله العهد وهو بفاس بايعه القضاة والقواد والاعيان وعامة الناس وسروا به وكتبت البشائر الى البلدان فأتت بيعات أهل الامصار وهدايا هم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته ثم أتته قبائل البربر التى كانت عصت على المولى سليمان وتجامعت وأقرت فيما بينها على مداومة الحرب وقتل كل من يتكلم بالعربية بالمغرب ولما قدموا عليه بهدايا هم ووفودهم قابلهم السلطان بغاية الاحسان ولما فرغ المولى عبد الرحمن من أمر الوفود التفت الى النظر الى أحوال المملكة وتثقيف ما اعوج من أحوالها لان فتنة البربر وغيرهم التى استمرت زمنا طويلا فى أواخر سلطنة المولى سليمان كانت جرت على البلاد أنواع الرزايا وأوقعت الخراب فى غالب مدن المغرب وأمصارها فخرج من فاس فى جيش عظيم بعد ان نظم أمورها ونزل رباط الفتح (١٢٣٨ ﻫ) وزار كذلك مكناسة ومراكش وغيرهما وما زال يتفقد ثغور بلاده ومدنها ويعتنى بأمرها ويخضع القبائل العاصية ويذل النواصى المتشامخة حتى دان له المغرب وصار طوع يمينه

وكان المولى عبد الرحمن لما طاف على ثغور المغرب ومراسيه (١٢٤٣ ﻫ) رأى من الموافق احياء سنة الغزو فى البحار التى كان أبطلها المولى سليمن لان فى ذلك تقوية لسلطنة مراكش ونهوضا

يذكرها

بذكرها بين الدول البحرية فأمر بانشاء الاساطيل وضمها الى ما كان باقيا منها من آثار جده المولى محمد ثم أمر رؤساء البحر بثغرى سلا ورباط أن يخرجوا فى السفن الحربية ويطوفوا حوالى بلاد المغرب وما جاورها فلما خرجوا صادفوا سفنا تجارية تابعة لمملكة أوستوريا (النمسا) فقبضوا عليها وأخذوها غنيمة بحجة أنه ليس لدى ربابينها ورقة التصريح (باسبورت) حسب الشروط المقررة بينهم وبين دول أوروبا ووضعوا بعض تلك السفن بالعرائش وبعضها بطنجة ولما بلغ الخبر لدولة استوريا جهزت ست سفن حربية أغاروا على مرسى العرائش (١٢٤٥ هـ) وأخذوا فى القاء القنابل عليها طول النهار حتى خربوا كثيرا من أسوارها ودورها ثم أنزلوا نحو خمسمائة من الجنود الى البر وتمكنوا من إحراق عدة سفائن خاصة بالسلطان كانت راسية بالمينا وكانت تحميهم قنابل المدافع التى تطلق من سفنهم ومع ذلك فان الاهالى والحراس انقضوا عليهم وفتكوا بهم وقتلوا منهم عددا عظيما وأسروا جملة منهم ثم عاد الباقون الى سفنهم وكانت هذه الواقعة سببا فى اعراض المولى عبد الرحمن عن الغزو فى البحر لانه رأى أنه يستحيل عليه مجاراة شوكة الفرنج فى البحار ولان الغزو فى البحر صار يثير الخصومة والمدافعة والتجادل والنزاع بين دولة مراكش ودول أوروبا حتى كاد عقد المهادنة ينفصم بين الطرفين وأكد ذلك استيلاء الفرنساويين على ثغر الجزائر مع ما كان عليه من المنعة سيما وان الانكليز والفرنساويين كانوا ينقمون على دولة مراكش لما كان يأتيه قرصانها من الاعمال المغايرة للنظامات الدولية وبعد الواقعة المذكورة عقد المولى عبد الرحمن الصلح مع دولة استوريا على شروط مضمونها المخالطة فى البيع والشراء مع الامان والاحترام من الجانبين والصلح الدائم بين الدولتين لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان وكان عقد هذا الصلح بواسطة دولة الانكليز حيث أصحبت مأمور أوستوريا بمأمور من طرفها فقدما على السلطان بمكناسة (١٢٤٦ هـ) ولما استولى الفرنساويون على الجزائر (١٢٤٦ هـ) ووقع بأهلها ما وقع للاسباب التى سنذكرها مفصلة بتاريخ بلاد الجزائر اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا فى شأنهم واتفقوا على الدخول فى بيعة المولى عبد الرحمن وأقبلوا الى عامله بمدينة وجدة [1] وعرضوا عليه التوسط لهم فى قبول بيعتهم ليأمنوا جانب الفرنسيس ثم أرسلوا وفدا منهم فقدم على السلطان بمكناسة ولما أخبروه بمرادهم استفتى العلماء فى ذلك فأفتى جلهم بنقيض المقصود وهو عدم الاقرار على بيعتهم لأن فى رقبتهم بيعة للخليفة العثمانى ومع ذلك فانهم لما ألحوا عليه بطلب الدخول فى بيعته التزمها وعقد عليهم لابن عمه المولى على بن سليمن وأصحبه بكتيبة من الجنود وأرسل له أخرى فيها رماة البندق والطوبجية فلما دخل المولى على تلمسان فرح به الناس وقدمت عليه وفود القبائل والنواحى للبيعة للمولى عبد الرحمن الذى اعتنى بأمر هذه الناحية وبذل المجهود فى إمدادها وحصن تلمسان وادخر بها شيأ كثيرا من البارود والمدافع ومع ذلك فقد افترقت كلمة العرب الذين هناك لقلة همتهم ومال معظمهم للدخول فى طاعة الفرنسيس عندما استولوا على مدينة وهران فى تلك الأيام ووقع الاختلاف أيضا بين قواد جيش السلطان فتحاسدوا فلما علم السلطان ذلك رأى من المصلحة استرجاع

(١) وجدة مدينة من مملكة مراكش على حدود الجزائر بالقرب من نهير مضاف اليها يصب فى وادى ملوية وبالقرب منها كانت الواقعة الشهيرة بين الفرنسيس حين استيلائهم على بلاد الجزائر والمراكشيين (١٨٤٤ م) واعتبرت حدا بين المغرب الاقصى والمغرب الاوسط بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الجزائر اهـ

تلك الجيوش وبعد رجوعها قامت فى البلاد ثورة فحاصر فاس وأذل عصاتها وعفا عنهم وفى تلك
الاثناء انتخب أهل المغرب الاوسط الفقيه المرابط محيى الدين عبد القادر المختارى ليكون أميرا عليهم
ويقاتل بهم الفرنسيس الذين استولوا على بلادهم فتمنع من ذلك لكبر سنه وولى عليهم ابنه الحاج عبد
القادر فقبلوه فقام الحاج عبد القادر بما عهد اليه أحسن قيام وانتصر على الفرنسيس فى عدة وقائع
حتى أنشأ له دولة مستقلة بقيت عدة سنين مهيبة الجانب الى أن وقع له ما وقع مما سيأتى ذكره بتاريخ
بلاد الجزائر ولما تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد الجزائر (١٢٥٩ ه) صار الحاج عبد
القادر يتنقل فى أطرافها تارة بالصحراء وتارة ببنى يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استصحب
فى هذه التنقلات من هو من رعية المولى عبد الرحمن أو جنده فغضب الفرنساويون من ذلك وأخذوا
فى شن الغارة على بلاد المولى عبد الرحمن واستولوا على مدينة وجدة التابعة لمراكش محتجين بامداد
المولى عبد الرحمن عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة وهجوم جيش السلطان الذى
على الحدود على جيش الفرنسيس وغير ذلك ولما رأى المولى عبد الرحمن ان الحمية الدينية قد دبت
فى رؤس رعيته غضبا للماحل باخوانهم أهل الجزائر وتعدى الفرنساويين على بلاد المغرب الاقصى
أمر بالاستعداد وارهاف الحد لما عسى ان يحدث ووجه ابن عمه المأمون بن الشريف فى كتيبة الى
مدينة وجدة ثم عززه بكتيبة أخرى وأخذ السلطان فى الاستعداد وحشد الجنود فجمع جيشا من
الفرسان مؤلفا من ثلاثين ألف فارس عقد عليه لولده وخليفته المولى محمد الذى سار حتى نزل بوادى
إسْلِي من أعمال وجدة فأقبل اليه الامير عبد القادر وكان انحط أمره وتضعضعت قوته ولم يبق معه
الا القليل من الجنود واجتمع بابن السلطان وتكلم معه فى أمر الفرنسيس وأعلمه بكيفية قتالهم
واستعداداتهم ونبهه الى أمور مفيدة جدا وملاحظات سديدة لو اتبعها لعادت عليه بالنفع والظفر
الا أن بعض من كان بالمجلس من حاشية المولى محمد انتهره بألفاظ ثقيلة ولم يصغ محمد لنصيحته
استكبارا منه وجهلا بمواقف القتال فتركه عبد القادر وانصرف ثم وقعت الحرب بين الفرنسيس
وجيش سلطان مراكش فكانت الهزيمة على جيش مراكش وفقد معظمه وتشتت من بقى منه فى
الصحارى واستولى الفرنساويون على غالب ما معه من العدد الحربية والاموال وذلك لرداءة انتظام
هذا الجيش وعدم مهارة قواده وجهلهم بالفنون الحربية وتخاذلهم وفساد نياتهم فاصابهم الله بما
أراد (١٢٦٠ ه - ١٨٤٤ م) وفر ابن السلطان حتى انتهى الى مدينة تازا فاقام بها ريثما اجتمع
عليه الفارون ولما اتصل خبر هذه الواقعة بالمولى عبد الرحمن اغتم لذلك جدا وتحير فى أمره وكان برباط
الفتح فنهض الى فاس ومما زاد غمه وصول الخبر اليه بهجوم الفرنسيس على طانجة والصويرة واطلاق
مدافعهم عليهما ووقوع النهب والقتل بمدينة الصويرة من الغوغاء الذين بالبلد والقبائل المجاورين
لها لانهم لما رأوا العدو ظنوا أنه سيدخل المدينة فمدوا أيديهم بالنهب والسلب والقتل وغير ذلك مما زاد
حيرة السلطان وأقامه وأقعده وخبر ذلك كما رواه مؤرخ فرنساوى أن الحكومة الفرنساوية فهمت
أن الضرورة تدعوها لان تضم لاعمالها الحربية بحدود مراكش أعمالا بحرية أخرى تقوم باجرائها
على سواحل مراكش فجمعت اسطولا حربيا وعقدت لواءه للبرنس جوانفيل Joinville
فقصد هذا الاسطول مدينة طنجة وخرب حصونها كما مر ومع ذلك فكأن هذه التأديبات لم تكن

كافية لردع أهل مراكش عن غيهم فان السلطان أمر بجمع جيوش عديدة أخرى من فاس وضواحيها وكانت فرانسا أرادت أن تسوى ذلك بطريق المراسلات والصلح فلم تنجح وخرج ابن السلطان يقود بنفسه جيشا مؤلفا من ٢٠٠٠٠ مقاتل فرأى القائد الفرنساوى العام عند ذلك أن من المصلحة الشروع حالا فى مقاتلة هذا الجيش مخافة أن عواقب الاهمال تجعل القبائل النازلة بمقاطعة وهران الوقت الكافى لشق عصا الطاعة على الفرنسيس ولذلك فانه فى يوم ١٣ أغسطس (١٨٤٤) فى الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك الجيش الفرنساوى وفى يوم ١٤ منه فى الساعة الثانية صباحا سار قاصدا معسكر المراكشيين وفى الساعة الثامنة شاهدوا معسكر المراكشيين ممتدا على أكثر من أربعة كيلومترات على الشاطئ الايمن من وادى أسلى وسعى أهل مراكش فى منع الجيش الفرنساوى من العبور فصدته رجالتهم وبمجرد ما استعد جيش الفرنسيس للقتال على الشاطئ الآخر هجم عليه من جناحيه ومؤخره خيالة المراكشيين الا أنهم عادوا مهزومين بمقابلة رجالة الفرنسيس لهم بالبنادق وبعد قليل وقع الاختلاط فى جيش المراكشيين الغير المنتظم وفر امام الفرنساويين بسبب اطلاق المدافع عليه ثم تقدم الجيش الفرنساوى وبعد أن قاومه جيش المراكشيين وقتا قليلا استولى على المكان الذى نزل به ابن السلطان وعند ذلك اتجه المارشال بوجود الفرنساوى يقصد محلة المراكشيين فاستولى بعد هجوم عنيف على المدافع التى كانت تحمى خيام ابن السلطان وغنم الفرنساويون غنائم وافرة وتشتت شمل المراكشيين ففروا الى كل وجهة ولذلك تلقب المارشال بوجود (Bugeaud) بلقب دوك أسلى وفى نفس مساء يوم الهزيمة اطلق البرنس جوانفيل مدافع اسطوله على مغادور بحيث خربها بتمامها فاصبحت فى اليوم الثانى تلا من الانقاض فلذلك طلب السلطان عقد الصلح فعقد على الشروط الآتية وهى ان الفرق العسكرية الكثيرة من الجيوش المراكشية النازلة على حدود الجزائر والتى فى نواحى وجدة تحل وتفرق عساكرها فى الحال وأن يعاقب الذين كانوا السبب فى المخاصمات التى ارتكبها المراكشيون فى أرض الجزائر وأن ينفى الامير عبد القادر من أرض مراكش أو يحجر عليه فيها وأن لا يعطيه بعد ذلك السلطان قوما من رعيته الخاضعة له ولا يمده بمعاونة ما من أى نوع وان تحدد الحدود تحديدا تاما منتظما بين البلادين وبذلك حصلت السكينة وضرب السلام أطنابه على جميع بلاد الجزائر ثم صار تحديد التخوم بعد ذلك بين المملكتين كما تقضى به شروط الصلح فتم ذلك ١٢٦١ هـ (١٨ مارث ١٨٤٥ م) اهـ

ولقد كان انكسار سلطان مراكش فى هذه الوقائع سببا فى امتناع مملكتى الدانيمارك والسويد من دفع ما كانا يؤديانه كل سنة من الاموال الى سلطنة مراكش فى مقابلة عدم التعدى على سفنهما التجارية وكثر تردد تجار الافرنج على مراسى المغرب وازدادت مخالطتهم ومعازجتهم لاهله وكثرت تجاراتهم فى السلع التى كانوا ممنوعين منها وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل ومن وقتئذ زادت علاقات الدول الاوروباوية فتداخلت بسياستها المشهورة مع حكومة مراكش حتى وصل كل منها الى نقطة النفوذ المعينة لها لذلك الوقت وقد كان من أسباب تزاحم دول أوروبا وأطماعهم الظاهرة وتحاسدهم بقاء الجامعة المراكشية واستمرار استقلالها لحد الآن

وقد أراد الامير عبد القادر الجزائرى أن ينتقم بعد ذلك من المولى عبد الرحمن لتخليه عن اعانته مع القدرة عليها ولانه منع رعيته من الانضمام لجيشه مساعدة له فأخذ يرسل الجواسيس والعيون الى

مملكة مراكش ويكاتب حاشية السلطان قصد إثارة الفتن فوجه عليه عند ذلك المولى عبد الرحمن جيشا عظيما جعل قيادته لولده المدعو المولى محمد وأخذ هذا الجيش يطارد الامير وجيشه حتى شتتهم وهزمهم بعد أن فل كتائبهم وحطم جنودهم وقدر أوامنه ومن جنوده من الاقدام والمهارة والصبر على القتال ما قضوا منه عجبا وضربت به الامثال أما الامير عبد القادر فانه لما هزم رأى أن الأحسن له مسالمة الفرنسيس سيما وانهم كانوا يعدونه بحسن المعاملة والاكرام وعدم الضيم ففر ملتجئا اليهم وترك محلته وما بها الجيش سلطان مراكش فاستولى عليها (١٢٦٤ هـ) وستأتي بقية أخبار المرحوم عبد القادر مفصلة عند الكلام على تاريخ الجزائر

ولما اشتدت المجاعة (١٢٦٨ هـ) وأكل الناس كل موجود من النبات وأكلوا الجيف والميتة وكان تجار الفرنج يترددون على الثغور البحرية يجلبون الحنطة للمتاجرة بها تصادف في تلك الاثناء وصول مركبين للفرنسيس فيهما حنطة فارتطما بساحل سلا فتسارعت العامة اليهما وانتهبوا ما بهما ثم كسروهما وأخذوا ألواحهما وعددهما فتكلم عند ذلك قنصل الفرنسيس مع والي سلا على المركبين المذكورين يطلب التعويض لاصحابهما ومعاقبة الجانين فأطلع الحاكم المولى عبد الرحمن على طلب القنصل منكرا حصول تعدى أهل سلا على المركبين المذكورتين ولما لم يحصل الفرنساويون مع المولى عبد الرحمن بالكلام على طائل هجموا (١٢٦٨ هـ) على مدينة سلا بأسطول مؤلف من خمس سفن حربية وقباق كبير به نحو ستين مدفعا ولما قرب من المدينة أخذ في اطلاق النيران عليها اطلاقا هائلا مدة تسع ساعات حتى تخرب قسم عظيم منها واندك غالب حصونها أما قلاع المدينة فانها لم تقو على اطلاق النيران الا زمنا يسيرا لضعفها وعدم جودة مدافعها فتقهقر الحامية وتركوا القلاع أما الفرنساويون فانهم أقلعوا البلا ولم يشعر بهم أحد وبعد هذه الواقعة أمر المولى عبد الرحمن فحصنوا هذه المدينة تحصينا جيدا وابتنى بها قلعة منيعة لا تزال باقية للآن ووضع بها عدة مدافع اشتراها من بلاد الانكليز وكانت وفاة المولى عبد الرحمن بن هشام بمدينة مكناسة (١٢٧٦ هـ) وكان عظيم السيرة تقيا ورعا عالما عادلا صرف همته منذ ولى الامر في اصلاح ما اختل من أمور هذه الدولة حتى تمكن من غالب ما يريده وله بالمغرب آثار كثيرة مثل المراسي والقلاع والاسوار والمساجد والجوامع والبيمارستانات

وقام بالامر من بعده ابنه المولى محمد وكان يتميز عن باقي اخوته بالبر بأبيه ويتصف بالسكينة والوقار والتقوى ولما رأى منه والده ذلك فوض اليه الامر وألقى زمام مملكته بيديه ولم يدخر عنه شيأ من أمور الملك فكان له مدة أبيه منزلة عالية ودرجة رفيعة ونفوذ تام ولما جلس على التخت أخذت له البيعة من كل الطبقات والبلدان ولم يتخلف عنها أحد الا ما كان من المولى عبد الرحمن بن سليمان ابن محمد فانه لما توفي المولى عبد الرحمن بايعه بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة وبعض البربر والجنود الا انه لم يتم له الامر واضمحل أمره وفي أول حكم هذا السلطان انتشبت الحرب بينه وبين الاسبانيول أصحاب مدينة سبتة وسبب ذلك ان العادة كانت جارية مع أهل سبتة من الاسبانيول وأهل البلاد المجاورة لها أن يتخذ كل من الفريقين محلا للحراسة على الحدود التي تفصل أرض سبتة عن بقية المملكة وكان الاسبانيول يتخذون هنالك بيوتا صغيرة من الاخشاب وأهل البلاد المكلفون بالحراسة يتخذون اخصاصا من البردى ونحوه فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد

الرحمن

الرحمن بنى الاسبانيول على الحدود بيتا من الحجر أوقلعة فى رواية أخرى ووضعوا فوق بابه علامة مملكتهم فقال لهم الحراس لابد من هدم هذا البيت لان العادة لم تجر ببنائه وتخذوا بيوتا من خشب فامتنع الاسبانيول من ذلك فعمد الاهالى الى ذلك البيت وهدموه وأنزلوا العلامة وأهانوها وحقروها وقتلوا من الاسبانيول أناسا وضيقوا وشنوا على سبتة الغارات فرفع أهل سبتة أمرهم الى سفيرهم بطنجة فكلم هذا نائب السلطان فيها وشكا اليه ما نال أهل سبتة من عيث الاهالى فدافعه النائب بكلام وطمن خاطره بمعاقبة المعتدين فلم يقبل السفير وقال لابد من حضور اثنى عشر رجلا منهم بطنجة وسماهم باسمائهم ولابد من قتلهم جزاء فعلهم فعظم الامر على النائب وتحير فى أمره وأبلغ الامر الى سفير الانكليز هنالك فطمن خاطره ووعده بالمساعدة وانه لو حضر الاشخاص المذكورون لايناالهم شئ فقوى عزم النائب ولما علم الاهالى بمطالب سفير الاسبانيول وانه سيكتب الى السلطان فى تسليم الاثنى عشر رجلا منهم التجؤا الى شريف وزان السيد الحاج عبد السلام بن العربى وسألوه اخبار السلطان بما عزم عليه النائب وطلبوا منه تصريحا سلطانيا للقبائل المجاورة ليساعدهم وهم يكفونهم أمر القتال وفى تلك الاثناء مات المولى عبد الرحمن وولى ابنه المولى محمد ولما قدم مكناسة بعد اجتماع الكلمة عليه كتب له الشريف المذكور بمطلوب أهل ريف سبتة فشاور السلطان فى ذلك بعض حاشيته فمال الى الحرب وكان ذلك هو الرأى الراجح عند السلطان لانه رأى من العار عليه ان يسلم للاسبانيول فى مطالبهم مع ان رعاياهم هم المعتدون ولم يكن ذلك من حسن السياسة فى شئ لضعف مملكته عن محاربة الاسبانيول ثم ان المولى محمدا أرسل رسولا مفوضا من طرفه الى طنجة لمخابرة سفير اسبانيا فى تلك المسئلة وزوده بالتعليمات اللازمة فلم تنته مأموريته بالسلم وشدد المأمور المذكور فى عدم اجابته مطلوب سفير اسبانيا وعند ذلك خرج السفير من المدينة وأخذ معه حاشيته وخدمه وخلع علامة مملكته ورايته وركب البحر الى بلاده وأخبر الرسول السلطان بما وقع فكتب السلطان الى الثغور يخبرهم بقطع العلائق بينه وبين الاسبانيول ويشدد عليهم بأخذ الاهبة وأن يكونوا على حذر ثم أخذ فى أهبة الحرب وتعبية الجنود وارسالها الى جهة سبتة وبعد أيام برز الاسبانيول من سبتة فى جيش عظيم كامل العدد والاستعداد يبلغ ٢٠٠٠٠ مقاتل (١٢٧٦ هـ) وعند ذلك قام أهل الريف جميعا لمقابلة هذا الجيش الذى كان تحت قيادة الجنرال المسمى أودونيل (O'Donnéll) أما جيش المراكشيين فكان تحت قيادة المولى العباس أخى السلطان ثم دارت رحى الحرب بين الطرفين وكانت سجالا زمنا حتى فنى من الجهتين خلق كثير وكان الاسطول الذى جهزته اسبانيا لمساعدة هذا الجيش البرى يسير فى البحر فى محاذاة الجيش البرى يحمل له السلاح والذخيرة والاقوات ويدافع عنه عند اللزوم ولولا ما اتصف به أهل المغرب من الجسارة والاقدام والصبر على القتال وتحمل المشاق والذب عن بلادهم لفشلوا فى أول مصادمة حصلت بينهم وبين الاسبانيول لما كانوا عليه من حسن التعليم وجودة النظام والاسلحة وتوفر الاقوات والملابس وكثرة الاساطيل التى كانت تسايرهم فى البحر وفى آخر الامر تقهقر جيش المراكشيين وتغلب الاسبانيول واستولوا على مدينة تطاوين (١٢٧٦ هـ ١٨٥٨ م) وكان جيش الاسبانيول لما دخل تطاوين يبلغ ٧٠٠٠ كلهم مقاتلة بغاية الاستعداد وكمال الشوكة واستولى

الاسبانيول على ما بالمدينة من الاموال ولم يكن بها غير مدفع واحد وقليل من البارود أما المدفع فنقله الاسبانيول الى بلادهم وأما البارود فانهم أعدموه وعمد الاسبانيول الى مسجد سيدى عبد الله البقال فحولوه الى كنيسة ثم ان الاسبانيول أخذوا أول أمرهم فى معاملة السكان بالحسنى ولم يسوموهم خسفا ولا كلفوهم عملا ليتألفوهم بذلك وفى أثناء الحرب ذهب أسطول اسبانيا وأطلق نيرانه على ثغر أصيلا فانهدم وأتلف كثيرا ثم ان المولى العباس قائد الجيش العام كاتب القائد الاسبانيولى بأمر الصلح ففرح العسكران بذلك الا أنه بالنسبة لتشديد الجنرال أودونيل فى مطالبه لما اجتمع بالمولى العباس تأخر عقد الصلح لان السلطان لم يقر على تلك الشروط ثم كانت بعد ذلك عدة وقائع كان النصر فى جميعها لاهل مراكش ومع ذلك فان أمر الصلح انقضى على ما طلب الاسبانيول تقريبا ولم يخفف منه الا القليل وانعقدت المعاهدة فى ٢٦ ابريل (١٨٦٠ م) ٤ شوال (١٢٧٦ ﻫ) وأهم شروط هذا الصلح هى ان يدفع السلطان اليهم مائة مليون من الفرنكات والتنازل لهم عن قطعة أرض جنوبى سبتة وأن يكون لهم فرضة بحرية على المحيط وهى المسماة عندهم سانتا كروز وان يكون لهم الحق فى اقامة وكيل فى مراكش والتصريح لقسسهم بانشاء المدارس والاديرة وعلى ذلك يخرجون من تطاوين وما استولوا عليه من الارض التى بين تطاوين وسبتة وان يكون لاسبانيا نفس الامتيازات والحقوق التى منحت لاعظم الدول الاوروباوية الاخرى وبعد سنة من تاريخ الصلح خرج الاسبانيول من ثغر تطاوين بعد ان مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا وواقعة تطاوين هذه هى التى أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال الفرنج بها وانكسر أهلها انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثر ببلادهم حماية الدول الاوروباوية للرعايا فنشأ عن ذلك ضرر عظيم واختلاط واختباط لازالت هذه الدولة تتعثر فى أذياله الى الآن فنسأل الله ان يصلح حالها ويقوم ما اعوج من أمورها وان يولى عليها من يصلح من شأنها

وكان هذا الانكسار سببا فى أن المولى محمدا التفت الى التنظيمات العسكرية الاوروباوية فادخلها فى بلاده ورتب له عسكرا على الترتيب الحديث وكان ابتدأ فيه مدة أبيه بعد هزيمة ايسلى حينما شاهد جنود الفرنسيس وما هى عليه من حسن النظام وكمال الاستعداد ثم جد فيه فى هذه الايام فرتب منه ما تيسر وفرض لذلك ضرائب على العقارات والمتاجر ليمكنه القيام بمصاريف هذا النظام الحديث (١٢٧٧ ﻫ) وكتب الى الامصار منشورا يخبرهم فيه بعزمه على ذلك وبما فرضه من المكوس (١) ورتب من طرفه سفراء فى أكبر دول أوروبا ليكونوا واسطة بينه وبين الدول ولما

(١) فمن ذلك ما كتبه لامناء مرسى الدار البيضاء وبعد فانا لما أخذنا فى جمع النظام للمصلحة المتعينة الواضحة المبينة المقرر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير واختبر لما صبر عليه بشهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير فلكيف ان جمعنا منه عددا معتبرا يحصل به المراد ويكون قذى فى أعين أهل العناد اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم اذ لابد من كفايتهم والا انحل نظام جمعهم ومن ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة فى الدين فأشاروا بفرض اعانة لاضرر فيها على الرعية وسطروها فى ورقة وهى كلا شئ بالنسبة لمرتبة الملوك فى مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية والضرورة وأحكام تخصها كما هو معلوم مقرر ومسطر فى غير ما ديوان محرر ثم اقتضى نظرنا أن نسند الامر فى ذلك لاهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريرا تنشرح له الصدور ويعمل بمقتضاه فى الورود والصدور وان كان جلهم يعلم هذا اذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها الا بجند قوى بالجند ولا جند الا بمال وهو لا يكون الا من الرعية على وجه لا ضرر فيه وقد أخذ الناس هذه سنة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين

كانت واقعة تطاوين ورأى اليهود أنهم عوملوا معاملة سيئة من طرف الاهالى والقبائل رأوا ان من المصلحة لهم طلب مساعدة بعض دول أوروبا فكتب بعضهم الى تاجرهم المشهور بلوندرة وهو الموسيو روتشلد يطلبون وساطته الى الدولة الانكليزية لماله من الوجاهة والاعتبار فسعى روتشلد لدى حكومة الانكليز فى ذلك لتخاطب سلطان المغرب فى أمر اليهود فقبلت الحكومة الانكليزية هذا الطلب بكل نشاط وأرسلت الى سفيرها لدى الدولة الشريفية يبذل المجهود فى ذلك ومساعدة الشخص الذى أرسلته فى هذه المهمة بكل مايقدر عليه من الطرق السلمية الودادية فقام السفير بهذه المأمورية أحسن قيام ولما قدم ذلك الرسول على السلطان بمراكش وقدم له مامعه من الهدايا سأله تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان عن رده مخفقا وأعطاه ظهيرا (١) تمسك به الرسول المذكور وكان يهوديا يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لليهود من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولما أخذ اليهود هذا الظهير كتبوا منه نسخا وفرقوها على جميع يهود المغرب ثم ظهر منهم تطاول وطيش وتعد على الناس لاسيما سكان الثغور منهم حتى انهم هموا بالحصول على بعض الاستقلال فلهذا لما أحس ملك مراكش بذلك عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وأن ذلك الايصاء انما هو فى حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم وأما سعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لايعنى فيعاملون بما يستحقونه من الادب فسكن طيش اليهود لذلك الا ان كثيرا منهم تحايل بقوة الدراهم لدى قناصل الاوروباويين حتى نال منهم حماية وقد صارت هذه الحمايات الآن بدولة المغرب من الاسباب المربكة لسياستها المانعة لها فى كثير من الاحوال عن تنفيذ أحكامها وان كانت لاتعترف بها رسميا

وقد كان المولى محمد بن عبد الرحمن رأى فى سفير فرانسا وعماله جفاء فى الالفاظ وتمييزا يخرج أحيانا عن حد الادب وعدم تأن وتمسك بالتافه من الاقوال فاراد مخابرة ملك الفرنساويين نابليون بونابرت الثالث فى ذلك فارسل له قائد جيشه محمد بن عبد الكريم وعامل سلا محمد بن سعيد السلاوى ليخاطباه فى شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم الى المغرب وان يكون انتخابهم من بيوت الاعيان وممن

ومراكش فى ذلك وسلكوا فى ترتيبه أحسن المسالك ولا نشك ان بركة ذلك تعود عليهم فى أموالهم وأولادهم وأنفسهم فبوصول هذا اليكم قوموا على ساق الجد فى القبض من الناس بالباب نحو ما فى الورقة المشار اليها ولا دخل للنصارى فى ذلك والله أسأل ان يبارك للمسلمين فى مالهم ويعوضهم خلفا آمين والسلام فى الثانى والعشرين من رجب الفرد عام سبعة وسبعين ومائتين وألف ا هـ من الاستقصاء

(١) ونص الظهير المذكور بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع فى سماء المعالى شمسه المنير وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا ان يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الاحكام حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وان لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى نفوسهم ولا فى أموالهم وان لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لان الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن لا نوافق عليه لا فى حقهم ولا فى حق غيرهم ولا نرضاه لان الناس كلهم عندنا فى الحق سواء ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فانا نعاقبه بحول الله وهذا الامر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا فى حق من يريد وتشديدا ليزيد اليهود أمنا على أمنهم ومن يريد التعدى خوفا الى خوفهم صدر به أمرنا المعتز بالله فى ٢٦ شعبان المبارك سنة ١٢٨٠ هـ

يتصف بالتأنى وحسن السيرة والوقوف عند الحدود وأصحبهما بكتاب وهدية ولما بلغ الرسولان مدينة باريس وأديا المأمورية أنابوليون قابلهما بما لا مزيد عليه من البر والكرامة وعين لهما ما يلزم من الخدم والحشم ثم عادا بعد أن أقاما نحو الشهر بباريس (١٢٨٢ هـ)

ولما عزمت فرانسا على إنشاء المعرض الدولى العام وخاطبت دول الارض ليشاركوها فى ذلك أخبرت دولة المغرب الاقصى فى هذا الامر فأرسل المولى محمد وفدا من طرفه ومعه كل شئ غريب مما اختص به قطر المغرب وكانت وفاة المولى محمد بن عبد الرحمن (١٢٩٠ هـ) بداره بمراكش فى البستان المسمى بالنيل وكانت أيامه فى أولها شديدة بما وقع لجيوشه من الهزيمة وما أعقبها من الغلاء والموت ثم اتسع الحال وحصل الامن وأمنت الطرقات وخضعت قبائل العرب ورخصت الاسعار وفى زمنه لاحت على الناس سمة الحضارة الاوروباوية وقد كان يبنى أمره على الشرع الشريف لا يشذ عنه وله بالمغرب آثار عظيمة منها فبريقات لعمل السكر وأخرى لعمل البارود وهو أول من أمر ببناء فنارات على ساحل البحر قرب طنجة

وقام بالامر من بعده ابنه المولى حسن وكان غائبا عن الحضرة فكتب اليه رؤساء الدولة بما حدث من موت أبيه واجتماع الناس على بيعته فقدم مسرعا ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الامصار ببيعتهم وهديتهم وفى أول حكمه خرج بجيشه ووزرائه وكتابه وحاشيته بقصد رؤية الامصار الكبيرة وبعض الثغور البحرية لينظر فى أمورها ويدخل فى دائرة الطاعة بعض من سولت له نفسه الخروج عن الجامعة الملية ولما نزل مكناسة أثناء تجوله أقام بها زمنا طويلا لقمع ثورة بعض القبائل العاصية ثم شرع المولى حسن فى جمع العسكر الجديد وتنظيمه وتدريبه زيادة على ما كان فى حياة والده واهتم بامره حتى كان يستعرضه ويرتبه بنفسه واعتنى أيضا بتشييد الحصون والمعاقل وجلب الاسلحة الحديثة الكثيرة وأرسل عدة من شبان بلاده الى بعض مدارس فرانسا والمانيا لتعليم الفنون العسكرية والعلوم الرياضية وأرسل أيضا سفارة الى بلاد أوروبا بقصد الذهاب الى بلاد فرانسا وبلاد الانكليز وبلاد ايطاليا وبلاد البلجيقا وأرسل معها هدايا نفيسة لملوك هذه الممالك وكان الغرض منها زيادة تمكين العلائق الودادية بين دولته والدول المذكورة ثم عادت بعد تأدية الغرض على أكمل وجه (١٢٩٣ هـ)

وقد كان المولى حسن لما رأى ضعف حكومته أمام دول أوروبا الساعية على الدوام فى الحصول على المنافع التجارية والسياسية فى بلاده والبحث على ما يكون به زعزعة أركان هذه الدولة أشار رؤساء دولته عليه بتجديد العلاقات الودادية بينه وبين الدولة العثمانية ليكون فى اتحادهما معا مأمن له ولقومه سيما وان الاسبانيول وغيرهم من أهل أوروبا كانوا يشددون فى نوال بعض الامتيازات فأرسل من طرفه (١٢٩٣ هـ) السيد ابراهيم السنوسى وكيل حكومته فى الديار المصرية الى الاستانة العلية للمخابرة بهذا الشأن وعقد اتفاقية بين الطرفين فسافر هذا المأمور السياسى وبينما كان يتخابر مع الحكومة العثمانية ظهرت علامات الحرب الروسية العثمانية التى سبقها قيام بعض الايالات التابعة للدولة فكان ذلك من الاسباب التى حالت دون بلوغ المرام وعاد المأمور المذكور الى بلاده

وحصل انه فى أوائل (١٢٩٧ هـ) أن قام المسلمون على اليهود فى بعض جهات مراكش

لما وقع منهم من التعدى وتظاهرهم بعدم احترام أوامر الدولة المراكشية وقبض بعض القبائل الثائرة على الحكومة على يهودى وأحرقه حيا فاضطرب لذلك اليهود وهاجر كثير منهم الى إسبانيا والى غيرها من الممالك الاوروباوية ثم عادوا بعد أن حصلوا على حمايات من الدول المذكورة ولما كانت دولة المغرب الاقصى لا تقبل هذه الحمايات ولا تقر عليها رسميا كما سبق أرادت دولة اسبانيا التداخل لتعضيد اليهود وكانت تنتظر هذه الفرصة من زمن بعيد فلم يقبل المولى حسن ذلك واستفحل الامر بين المملكتين حتى كادت تقع الحرب بينهما الا ان اسبانيا لما كانت تخاف من مناظرة الدول الاوروباوية الاخرى ذات المصالح التجارية والسياسية بمراكش طلبت منهن عقد مؤتمر فى مدريد عاصمة اسبانيا (١٢٩٧ هـ - ١٨٨٩ م) ولما عقد المؤتمر أظهر مندوبو فرانسا وانكلترة مساعدة دولة المغرب أما مساعدة فرانسا لمملكة مراكش فلانها مجاورة لاملاكها بالجزائر وتخاف من حصول ثورة ببلاد الجزائر ان هى ساعدت اسبانيا وأما انكلترة فلسعيها للحصول على مركز سياسى لدى حكومة مراكش ومخافة أن يعلو قدم بعض الدول الاوروباوية بمراكش فيكون فى ذلك خسارة عليها وتهديدا للبحر الزقاق لما انها تمتلك عليه مدينة جبل طارق الحاكمة على المضيق المذكور الذى هو الطريق المهم لاملاكها الهندية ولذلك ضاعت مساعى اسبانيا هدرا ولم تستفد من عقد المؤتمر الا القليل

وقد سعى المولى حسن من أول ولايته فى ترقية شأن بلاده وادخال ما يفيد من النظامات الاوروباوية فاستفاد بعض الشئ لنفور رعيته عن قبول العوائد الافرنجية التى عم شيوعها فى بلاد المشرق ولان الغالب منهم لا يزال على الحالة البدوية ينزلون السهول والوديان وينتجعون منابت الكلا ومن حسن تبصره أيضا انه لما رأى ان بلاد السوس الاقصى مضى عليها زمن طويل لا تعرف لاحوال ملك المغرب الاقصى هيبة ولا تشعر له بنفوذ وبعد عهد سكانها باجراء الاحكام فيما بينهم نهض اليها غازيا (١٢٩٩ هـ) وأمر القبائل بحمل الاقوات والذخائر الى مرسى الجديدة ومرسى الدار البيضاء [١] ليحمل منهما فى المراكب الى ساحل السوس الاقصى وسبب ذهابه بنفسه الى تلك البلاد أن الاسبانيول كانوا يتطلعون لتملك بعض المراسى السوسية وكثيرا ما كانت مراكبهم الحربية والتجارية تتردد الى تلك النواحى فتستهوى أهلها باسباب التجارة ورؤساءها بالهدايا ونيل الارباح وكانوا يسكنون اليهم ولا ينفرون منهم ولما تكلم المولى حسن فى هذا الخصوص مع سفيرهم فى طنجة احتج بأن صلح تطاوين كان منعقدا على فتح بعض المراسى السوسية فلذلك رأى المولى حسن النهوض الى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه ولما احتلها جنوده أنشأ بها مرسى للسفن فى مكان يسمى أساكا وبعد أن مهد أمورها وولى عليها الولاة والقضاة وأبقى بها الحراس تجاوزها الى صحراء فيليم فوفدت عليه هنالك أشياخ القبائل وكبراؤها خاضعين مطيعين وفرحوا بقدمه لانهم لم يكونوا هم ولا آباؤهم من قبل رأوا بأرضهم ملكا من ملوك المغرب وسبب ذهابه الى تلك البلاد أن الانكليز كانوا استولوا على احدى مراسيه المسماة طرفاية فلما وصلها أمر جنوده فطمسوا آثار الانكليز بها وفر من كان بها من تجارهم وشيد هنالك مرسى أساكا المذكورة ووضع بها حامية لحفظها ثم

(١) ثغر حصين أيضا من بلاد مراكش على البحر المحيط

ققفل راجعا الى بلاده أما الانكليز فانهم أقاموا الحجة على ذلك وطلبوا تعويضا لما لحق تجارهم من الاضرار والخسائر فدفعها المولى حسن كطلبهم وبذلك انقضى الامر بين الطرفين

وفى زمنه أيضا بعد هذه الغزوة المذكورة أصدر أمرا بمنع جلب التبغ الى بلاده بعد أن استفتى العلماء وحث الناس على عدم تعاطيه ولم يصرح بادخاله الا فى مدينة طنجة بشرط ان يكون بقدر احتياجات سكانها من الفرنج لا غير وبينما كان المولى حسن غازيا بصحراء تافيلالت (١٣١٠ هـ) الواقعة بالجنوب الشرقى حدثت حرب بين زناتة الريف وبين الاسبانيول من أهل مليلة وما والاها فحقتهم زناته محقا وشردوا بهم من خلفهم استئصالا وقتلا وكان السبب فى ذلك أنهم اقترحوا على المولى حسن ان يزيدهم فى مساحة أرض مليلة على عادتهم فى كثرة الاقتراحات والطلبات كلما رأوا فرصة خصوصا ان وجدوا تساهلا واغماضا فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الطرفين قريبا من تربة ولى الله وار ياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتبركون به ويدفنون عنده موتاهم ثم ان الاسبانيول بنوا مخافر عساكرهم بمحل يشرف على تربة الولى المذكور فراودهم أهل الريف عن التخلى عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا على الامتناع وربما اسمعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم فى ذلك لان الاسبانيول منذ كانت لهم الغلبة فى حرب تطاوين وأهل المغرب منهم فى عناء شديد من كثرة ما يتعنتون ويجنون عليهم ويسمعونهم من محفظات الكلام وصريح الملام لاسيما أوباشهم ورعاعهم واذا رفعت الشكاية بهم الى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف حصل بينهم وبينهم ما حصل فلما قدم المولى حسن من هذه السفرة وفد عليه سفير الاسبانيول يطلب الانصاف من أهل الريف فى هذه النازلة ودار الكلام بين الاسبانيول والمولى حسن فى هذا الخصوص وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل فوقع الفصل على أن يدفع المولى حسن عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الفرنكات خلاف المصاريف العسكرية التى قامت بها اسبانيا ولما تم عقد المصالحة بهذه الكيفية بين الاسبانيول ومملكة مراكش مما ظهر منه ضعفها وعدم بصيرة رجالها بالامور السياسية أرادت دولة انكلترة فى أواسط سنة (١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م) أن تنال امتيازا يخولها حق المداخلة فى مملكة مراكش فارسلت لذلك مأمورا من طرفها يدعى السر شارل ايوان سمث وهو من رجال السياسة المبرزين لدى حكومته وأصحبته بلائحة يقدمها للمولى حسن الا أن هذا المأمور لم يفز بمطلوب حكومته وأخفق سعيه مع ما استعمله من أنواع التهديد والجفاء فى القول زيادة عما فى اللائحة المذكورة من الشروط (١) التى

(١) كانت اللائحة المذكورة تشمل المواد الآتية أولا - تخفيض تعريفات تصدير القمح والشعير ثانيا - حرية تصدير بهائم الركوب والنقل كالجمال والحمير والخيول والبغال الخ ثالثا - دخول السفن التجارية بجميع مرامى مراكش وحرية نقل التجار لمحصولات هذه السلطنة منها رابعا - انشاء المحاكم المختلطة خامسا - ابطال الرقيق سادسا - تحوير اتفاقية مدريد المبرمة فى (١٨٨٠ م) وتعديل المادة (١١) منها المتعلقة بالتصريح للاجانب بشراء الاراضى الزراعية سابعا - انشاء وكالة قنصلية بمدينة فاس ورفع العلم البريطانى عليها ثامنا - اعطاء امتياز بانشاء خط تلغرافى بين طنجة وموغادور ويتصل بالمدائن الموجودة على ساحل البحر تاسعا - أن تخول لشركة انكليزية الحق فى انشاء بنك باسم الحكومة

لاتقبلها

لا تقبلها الا دولة انحطت عن مصاف الدول بالمرة ولا نظن الامر وصل بمراكش الى هذا الحد فرفض الشريف المولى حسن تلك اللائحة رفضا باتا ومن وقتئذ فاز الكونت دو بيني رئيس السفارة الفرنساوية بطنجة بترويج سياسة دولته فى حكومة مراكش وكانت وفاة المولى حسن بن محمد (١٣١١ ﻫ) ومدة سلطنته احدى وعشرون سنة وخمسة أشهر وكان من خيار الملوك وله بالمغرب آثار باقية

وقام بالامر من بعده ابنه المولى عبد العزيز وهو الملك الحاكم الآن على تلك البلاد نسأل الله أن يمده بقوته ويوفقه الى ما فيه صلاح أمته وكان ارتقاؤه على سرير المملكة يوم الخميس ثالث ذى الحجة من شهور عام احد عشر وثلثمائة وألف وهو فى وسط الشبيبة من عمره حائزا لذكاء فائق ومعارف وافرة وفى أول حكمه سعى بعض أقاربه فى نوال الملك وحركوا بعض القبائل فانتشرت الثورة فى بعض جهات مملكته كما يحصل ذلك فى أول حكومة كل ملك يحكم هذه البلاد وما ذلك الا لنقص فى النظام وتأخر فى تدبير الاحكام ودلالة على ميل قبائل هذه المملكة للثورة وشق عصا الطاعة عند كل فرصة مما كان سببا فى تأخرها عن مجاراة الدول فى الوقت الحاضر وفتح لهن بابا للمداخلة والقيل والقال حتى انه عند حدوث الثورة المذكورة بادرت انكلترة وفرانسا والمانيا وايطاليا واسبانيا والبرتقال وأرسلوا سفنهم الحربية الى مياه طنجة للمحافظة على رعاياهم وحقوقهم ولما رأى عبد العزيز ذلك وخاف اتساع الخرق اهتم بتلافى الامر سريعا والقبض على المحركين للثورة من رعاياه وبث جنده فى الجهات العاصية حتى أذعنت القبائل الى الطاعة وعند ذلك عادت سفن الدول المذكورة الى بلادها واعترفت أوروبا رسميا بسلطنته ثم قامت اسبانيا تطالب بالقسط الاول من التعويضات الحربية التى تعهد المولى حسن المتوفى بدفعها بسبب حوادث مدينة مليلية أو مليلة كما تقدم وحضر لذلك من اسبانيا مأمور يدعى بالكونت دى مناو بنو فدفعت اليه مراكش مطلوبه ثم سعت فرانسا بعد ذلك فى نوال الحق بأن يكون لها بمدينة فاس وكيل سياسى فنالت غرضها فى ذلك ولم يكن قبل ذلك لدولة من الدول الاوروباوية وكيل سياسى بفاس بل كانت القناصل لا يصرح لها بالاقامة فى غير مدينة طنجة ولما ثبت قدم المولى عبد العزيز اهتم كثيرا فى تحسين علاقاته مع الدول الاوروباوية وفى تنظيم جيش قوى للملكة وادخال النظامات التى تساعد على احالة البلاد وقد ظهر منه هذا الميل عند ماتشرف مندوبو دول أوروبا بمقابلته بعاصمته حقق الله له ما يريد وأعانه على وقته

أما من خصوص القوة العسكرية لهذه البلاد فان لها جيشا دائما مرتبا من حرس منهم خيالة يقال لهم مخزنية يبلغ عددهم أربعمائة فارس وهم ينالون مراكزهم بالوراثة وجيش من الرجالة يؤخذ من بين الاهالى بالقوة يسمى بالعسكر يبلغ عدده ١٠,٠٠٠ راجل وفرقة من الخيالة الغير المنتظمة يبلغ عددها تقريبا ألفى رجل أما جيش المتطوعة فيبلغ عشرة آلاف من الرجالة و ٨٠٠٠

المراكشية عاشرا — انشاء فرق من البوليس بمدينة طنجة يرأسها الضابط الانكليزى المستر آلن مكلين الحادى عشر — اعطاء امتياز عناء طنجة الثانى عشر — انشاء سوق عمومى ومذابح عمومية بمدينة طنجة الثالث عشر — اعطاء الحق للانكليز بتشييد الحصون الحربية على هضبة جبل مارشاتى الرابع عشر — اعطاء امتياز قطع شجر الفلين الموجود بتطاوين والعرائش لاحد رعايا جلالة الملكة الخامس عشر — التنازل للدولة الانكليزية عن عدد أراضى تشيد فوقها بناء البريد الانكليزى ومكان السفارة لهذه الدولة بطنجة السادس عشر — اعتراف السلطان بسيادة دولة الانكليز على رأس جوبى التابع لمراكش اﻫ عن المؤيد الصادر فى ٢٤ م سنة ١٣١٠ عدد ٧٦١ نقلا عن جريدة يقظة مراكش

من الخيالة وعلى ذلك يكون مقدار الجيش بأجمعه فى وقت السلم نحو ٣٠،٤٠٠ نفر وهذه الجنود معفاة من جميع الاداء للدولة وهم مع غيرهم من القبائل القائمون بحمايتها مع اعطاء الدولة اليهم المعاشات والسلاح والخيل وعلى بقية القبائل زيادة عن الزكاة والعشر أن يدفعوا للدولة مقادير معينة من الخيل أما عند حدوث الحروب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج اليه من الكراع والذخيرة ولا زال سلاحهم على الطرز القديم وكذلك حركاتهم العسكرية الا انه منذ نحو ثلاثين سنة ابتدؤا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد كما سبق ذكره كذلك وألفوا جيشا يحتوى على ١٦،٠٠٠ نفر وكان معلومه من عساكر تونس ولكنه تبدد بهرب أغلبه لكن المولى حسن أخذ فى تنظيم جيش آخر على مقتضى الطرز الجديد وهو الجيش المذكور فى أول هذه الفقرة

أما القوة البحرية فقد انحطت كثيرا بهذه المملكة حتى لم يعد لها الآن منها شىء أصلا خلاف طراد طربيدى من الفولاذ طوله سبعون مترا وعرضه عشرة أمتار وحولته ألف ومائتا طونيلاطة وقوته البخارية تعادل ألفين وخمسمائة حصان وسرعته فى الساعة ثمان عشرة عقدة وبه أربعة مدافع من عيار اثنى عشر سانتيمترا ولها مركب أخرى من ذوات الرفاس طولها سبعة وثلاثون مترا وعرضها احد عشر مترا وحولتها ألف ومائة وأربع وستون طونيلاطة وقوة آلاتها تعادل مائة وأربعين حصانا وسرعة سيرها نحو عشر عقد فى الساعة وتسمى احسانية أما الاهالى فلاشتغالهم بالتجارة فى جميع أقطار الدنيا تقريبا كان لكثير منهم مراكب شراعية تجارية وقد امتدح مؤرخو الفرنج وكتابهم نشاط أهل مراكش واستعدادهم الفطرى للسير فى البحار واقتحام أهوالها وهذه ولا شك صفات ورثوها من أجدادهم الذين نالوا الشهرة التامة فى سير البحار والغزو فيها ولو التفتت هذه البلاد بتوفيق الله الى حالتها البحرية لامكنها احداث قوة بحرية عظيمة تعيد بها مجدها السابق وعزها القديم وما ذلك على الله بعزيز خصوصا وان بلادها واقعة على بحرين عظيمين من أكبر بحار الدنيا مواصلة وتجارة سيما وبشواطئها مرافئ وفرضات عظيمة أمينة للسفن وبجبالها غابات ومعادن كثيرة ربما تكون كافية لها من أن تحتاج الى البلاد الاجنبية الاخرى لو استغلتها

الباب الحادى عشر

بلاد الجزائر

﴿ الفصل الاول ﴾

وصفها الطبيعى وثغورها البحرية

وصفها الطبيعى — تحد هذه البلاد شمالا بالبحر المتوسط الابيض وشرقا بتونس وغربا بمراكش وجنوبا بالصحراء الكبرى وحدودها على العموم ليست معينة جيدا وتخترقها جبال الاطلس من الغرب الى الشرق وأهم أنهرها وادى شلف وطوله نحو مائتى ميل وهو يصب فى البحر المتوسط وأما

الانهر التى تجرى من الجهة الجنوبية من جبال أطلس فتغور فى الصحراء وليس منها ما يصلح لسير السفن وتنضب مياهها تقريبا فى الصيف الا انها تفيض فى الربيع وتكسب الارض خصوبة وأكثر من نصف هذه البلاد صحار بها واحات كثيرة خصبة وقد ازداد عدد واحاتها بالآبار الارتوازية التى حفرها الفرنساويون وهواء الجزائر على الاكثر حار الا أنه لا يشتد الا متى غلبت ريح السموم التى تهب من الصحراء ومن حاصلاتها الحبوب بانواعها والثمار والازهار وتكثر بها الحيوانات الاهلية من جميع الانواع وبها كثير من الحيوانات المفترسة أشهرها الاسد والفهد والنمر ويستخرج من شواطئها بالقرب من مدينة بونة المرجان وتنقسم هذه البلاد اداريا الى ثلاث مقاطعات وكل مقاطعة الى عمالات أما المقاطعات المذكورة فهى الجزائر ووهران وقسطنطينة ويبلغ مسطحها (١٠٠٥٦٨) ميلا مربعا ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين من النفوس تقريبا غالبهم أهل اسلام وبينهم كثير من الاوروباويين واليهود البالغ عددهم نحو (٣٥٠٠٠) وهم أكثر طبقات الاهالى غنى ولا يزال بداخلية هذه البلاد آثار قديمة كثيرة خصوصا بولاية قسطنطينة وكانت ادارة هذه البلاد سنة (١٨٥٩ م) بيد وزارة خصوصية الا انها ألغيت سنة (١٨٦٠ م) ثم جعل لها حاكم عام عسكرى تخضع له جميع الحكام الملكيين والعسكريين ولما قامت الجمهورية بفرانسا سنة (١٨٧٠ م) جعلت لها حاكما ملكيا وقد كان لسكان هذه البلاد شهرة عظيمة فى التلصص البحرى حتى أوقعوا الرعب فى قلوب ممالك أوروبا البحرية ولذلك كان كثير منهم يدفع لاهلها مبلغا كل سنة فى مقابلة عدم التعرض لسفنهم التجارية وغيرها التى تجول فى البحر المتوسط الابيض فكانت بذلك فى الاعصر الوسطى وأول الحديثة من أشهر الممالك البحرية كما سيأتى ذلك

ثغورها البحرية — مدينة الجزائر وهى أهم وأعظم مدن هذه البلاد يبلغ سكانها ٧٥٠٠٠ نفس وكانوا مدة العثمانيين مائة ألف وهى مدينة حصينة مبنية على هيئة مدرج وأهم ثغر للحط والترحال بتلك البلاد يتردد عليها كثير من السفن التجارية وهى عاصمة بلاد الجزائر ومقر الحاكم العمومى ورأس المقاطعة المنسوبة اليها مبنية على السفح الشمالى من جبل بوجادين ولذلك كان منظرها جميلا جدا ومما يزيده جمالا بياض بيوتها الباهر فانها قائمة على مساطب على جانب الجبل ويقال ان أول من اختط الجزائر الامير بلكين بن زيرى وفى المدينة منارة للسفن ومسلحة ودار صناعة وكثير من الجوامع والحمامات والمعاقل ومرساها أمين جدا وأول من أنشأه خير الدين باشا بار باروس (٩٣٧ﻫ) وقد أصلحه الفرنساويون (١٨٦٢ م) ثم انشئت طريق حديدية من الجزائر الى مدينة البليدة طولها ٣٠ ميلا وسلك برقى بين الجزائر وفرنسا وقد صارت مدينة الجزائر الآن من أعظم مراكز التجارة حاصلاتها الحبوب والصوف والجلود والتبغ والحديد والنحاس والمرجان والوارد اليها البن والسكر والخمر والارواح والاقمشة وقد ذكر ابن خلدون هذه المدينة وقال انها كانت من أعمال صنهاجة ومختطها بلكين بن زيرى فنزلها بنوه من بعده ثم صارت للموحدين وانتظمها بنو عبد المؤمن فى أمصار المغربين وافريقية ولما استبد بنو أبى حفص بأمر الموحدين وبلغت دولتهم بلاد زناتة وكانت تلمسان ثغرا لهم واستعملوا عليها ولاتهم كان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة وقال ياقوت كانت من حواضر بنى حماد بن زيرى بن مناد الصنهاجى وتعرف بجزائر بنى مزغنان أو مزغنة

ووهران وهى ثغر حصين وقاعدة المقاطعة المضافة اليها بينها وبين مدينة الجزائر طريق حديدى واقعة فى منتهى خليج وسكانها نحو ٦٠,٠٠٠ نفس غالبهم من الاوروباويين وقد بنى ميناها التجارى (١٨٥٧ م) وكانت السفن ترسو قبل ذلك على المرسى الكبير الذى يبعد عن وهران بنحو ثمان كيلومترات الى الشمال الغربى وبقربها معادن عظيمة لاستخراج الرصاص وقد أسس هذه المدينة عرب الاندلس حينما طردهم الاسبانيول على اطلال مدينتين قديمتين واستولى الاسبانيول على هذه المدينة من (١٥٠٥ - ١٧٩١ م) وحصنوها تحصينا عظيما

وفيليب فيل وهى مدينة حصينة واقعة عند مصب الوادى الكبير وسكانها نحو ١٩٠٠٠ نفس ويكثر بضواحيها غابات شجر الفلين ومقالع حجر الجرانيت وتتصل مع مدن بلاد الجزائر العظيمة بطريق حديدى وكان تأسيسها زمن الملك لويس فيليب الاول (١٨٣٨ م) على أطلال مدينة قديمة رومانية

وبونة اوعنابة وهى واقعة بمقاطعة قسطنطينة على البحر المتوسط وكانت تسمى قديما هيبون أسست فى أواخر القرن السابع للميلاد وكان لشركة افريقية الفرنساوية بهذه المدينة نزلة تجارية من زمن لويس الرابع عشر الى (١٧٨٩ م) وينسب اليها جماعة من أهل العلم منهم أبو عبد الملك مروان بن محمد الاسدى البونى فقيه مالكى أصله من بلاد الاندلس له كتاب فى شرح الموطأ توفى (٤٤٠ هـ) قاله ياقوت وبهذه المدينة معدن حديد وهى من بلاد الجزائر المشهورة واقعة على مسافة كيلومتر واحد من نهر كبير يصب فى خليج باسمها ولها تجارة واسعة فى الحنطة والجلود والعناب فلذلك أطلق عليها عنابة أيضا وموقعها حسن لانه مركز حربى عظيم الاهمية فانها شبه فرضة عظيمة بين رأسين ممتدين فى البحر الى مسافة بعيدة لكنها ليست مرفأ أمينا للسفن وقد تعطل بها (١٨٣٥ م) أربع عشرة سفينة منها البريق حربى وهواؤها غير جيد للصحة وماؤها ردىء وكان بها فى أيام الاتراك سبع عيون ولم يبق منها الآن الا عين واحدة ويستعين أهلها بماء المطر يخزنونه فى الصهاريج والبعض يجلب الماء من مسافة بعيدة وسكانها نحو ٢٢٠٠٠ نفس

وارزو وهى ثغر بحرى بمقاطعة وهران على خليج مضاف اليها وتسمى قديما بورتوس ديوينى وكذا ارسيناديا وتعتبر أحسن ثغر طبيعى فى بلاد الجزائر وبقربها ملاحات مهمة وتخرج منها طريق حديدى ومن صادراتها الحلفاء ويبلغ سكانها ٦٠٠٠ نسمة وتسميها الفرنساويون أرزو وبها آثار رومانية جميلة وصهاريج متسعة وهى مركز للجيوش الفرنساوية

مستغانم وتسمى قديما كارتنا وهى من أعمال وهران واقعة على مسافة قليلة من البحر قريبا من مصب شلف يبلغ سكانها ١٢٠٠٠ نفس ولهذه المدينة قلعة حصينة ويقسمها نهر عين صفرة الى قسمين ولها تجارة واسعة فى الثمار الجافة والحبوب والجلود استولى عليها الفرنساويون (١٨٣٣ م)

تنس أو تنز ثغر صغير على البحر المتوسط لا يزيد سكانه عن ٤٠٠٠ نسمة وهى بمقاطعة الجزائر وبقربها كثير من الاطلال الرومانية احتلها الفرنساويون (١٨٤٣ م) وبقربها مناجم

نحاس

نحاس يستغل الآن وتنس الجديدة وهى على مسافة كيلومتر من القديمة وقال أبو عبيد البكرى بين تنس والبحر ميلان وهى آخر افريقية مما يلى الغرب بينها وبين وهران ثمان مراحل والى مليانة فى جهة الجنوب أربعة أيام والى تاهرت خمس مراحل أوسط وهى مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهى على نهر يأتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة ويستدير بها فى جهة الشرق ويصب فى البحر وتسمى تنس الحديثة وعلى البحر حصن ذكر أهل تنس انه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة وتنس الحديثة أسسها وبناها الملاحون من أهل الاندلس (٢٩٢ هـ) وسكنها فريقان منهم من أهل البيرة وأهل تدمير وأصحاب تنس من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكان هؤلاء الملاحون من أهل الاندلس يشتون هنالك اذا سافروا من الاندلس فى مرسى على ساحل البحر فيجتمع اليهم بربر ذلك القطر فرغبوهم فى الانتقال الى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنا ففعلوا وقتئذ زادت ثروتها وصار لهم فيها أربعمائة بيت وهى الآن أبهج مما كانت عليه قبلا وبها قناطر رومانية أصلحت وجرت فيها الماء فى مسافة خمسة كيلومترات وفيها منابع ويقال ان أهلها القدماء اشتهروا بالسحر وان منهم كان سحرة مصر فى أيام فرعون موسى عليه السلام

وشرشيل وتسمى قديما ايول وجوليا كوساريا وكانت قاعدة قسم من أقسام موريتانيا وقد خربها الوندال ثم العرب ثم أعاد بناءها عرب اسبانيا المهاجروا بلادهم وقد بلغت اذ ذاك درجة عظيمة استولى عليها الندر بادوربا الاميرال الاسبانيولى الشهير (١٥٣١ م) ثم الفرنساويون (١٨٤٠ م) وبقربها اطلال رومانية عظيمة ويبلغ سكانها ٦٫٠٠٠ نفس

ودلى وهى ثغر صغير على البحر المتوسط سكانه نحو ١١٠٠٠ نفس وبقربها اطلال رومانية وقد حصنها الفرنساويون الذين احتلوها (١٨٤٤ م) ومن صادراتها الحبوب والثمار

بجاية وهى مقاطعة قسطنطينة واسعة المرفا أمينة لهاجون يدعى سيدى يحيى من أحسن مرافئ الجزائر عمقه من اثنى عشر الى عشرين مترا واقع بين رأسى كافالو وكاربون قريبة من مصب نهر صمام أو وادى الساحل يشقها نهر يقال له وادى الابزاز وللمدينة عدة قلاع لحمايتها ولها تجارة واسعة فى الزيت والحبوب والشمع والاصواف وكانت ذات أهمية عظيمة زمن الرومان ووصلت فى القرون الوسطى مدة العرب الى درجة سامية وحصنوها تحصينا منيعا ثم استولى عليها الاسبانيول (١٥٠٩ م) وبقيت فى يدهم ٤٥ سنة وحصنها شارلكان (١٥٤١ م) ثم استولى عليها العثمانيون (٩٦٣ هـ) ثم دخلت فى حوزة الفرنسيس (١٨٣٣ م) وسكانها يبلغون الآن ٥٫٠٠٠ نسمة وورد فى كتب العرب أنها بنيت سنة (٤٥٧ هـ - ١٠٦٤ م) بناها الناصر بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين وكانت قاعدة بنى حماد وسميت الناصرية قصدها الناس برا وبحرا حتى أثرى أهلها واشتهروا فى التجارة بالمغرب والصحراء والمشرق وكان بها دار صناعة لكثرة أخشابها وكان من صادراتها الحديد المستخرج من معادنها والادوات اللطيفة والثمار والحبوب والزيت والشمع المسمى بالفرنسوية باسمها (بوجى) (Bougie)

وكول ويسميها الفرنسيس كولو وتسمى قديما كاو يس ماجنوس وهى ثغر بحرى بمقاطعة قسطنطينة ولها مرسى جيد وبقربها مناجم مهمة لاستخراج الحديد وكانت مدينة زاهية زاهرة مدة الرومان والوندال واستمرت زمنا طويلا مستقلة بين أمراء تونس وقسطنطينة وكان لها تجارة مع البندقية وجنوة وغيرهما استولى عليها العثمانيون (١٥٢٠ م) ثم الفرنسيس (١٨٤٣ م) وسكانها يبلغون ١٢٠٠ نسمة

جيجلى بلدة حصينة بمقاطعة قسطنطينة شرقى بجاية وتسمى قديما ايجلجياس وكانت مركزا مهما للتجارة وخربتها الزلازل (١٨٥٦ م) ولها قلعة حصينة ذات أسوار وأبراج وحول مرفئها خط من الصخور يمتد من الشرق الى الغرب يحميه من رياح الشمال وينتهى هذا الخط بصخور مرتفعة على احداها منارة لهداية السفن وقد شرعوا فى سد الفتحات الكائنة بين هذه الصخور وتشييد رصيف عليها يمكن للسفن العظيمة أن ترسو فى فرضتها البالغ عمقها عشرون مترا وكان استيلاء الفرنسيس عليها سنة (١٨٣٩ م) ولها تجارة واسعة وبسواحل الجزائر مراس أخرى ليست مهمة مثل مرسى الزيتون وغيرها

(الفصل الثانى)

تمهيد تاريخى

كانت هذه البلاد الى (١٨٣١ م - ١٢٤٧ هـ) قسما من أقسام المملكة العثمانية وهى واقعة فى شمالى قارة افريقية بين تونس شرقا ومراكش غربا قال المؤرخون ان أقدم أهالى الجزائر الذين وصلت الينا أخبارهم هم من النوميديين والمغاربة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهما من بطون البربر والاولون منهم كانوا يسكنون المقاطعات الجبلية من الشرق والمغاربة كانوا يسكنون فى الغرب حيث شيدوا لهم مدنا كثيرة زاهرة فى السواحل كان بينها وبين أوروبا تجارة عظيمة وفتح الرومان هذه المملكة بعد استيلائهم على قرطاجنة (١٤٦ ق م) ثم شيدوا فيها عدة حصون لصيانتها من القبائل الجبلية البربرية التى كانوا يخشون بأسها فى تلك الازمان ولا يزال يوجد للآن بعض اطلال هذه الحصون وبعد أن تقلص ظل الرومان من تلك الجهات استولى الوندال عليها وبقيت فى يدهم الى (٥٣٤ م) ثم افتتحها القائد الشهير بليزير أو بليساريوس للامبراطورية الشرقية وفى خلال ذلك كان يصيبها من الضعف والقوة والفشل ما يصيب دولة القسطنطينية وما زالت على ذلك حتى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أذن لعبد الله بن سعد عامله على مصر أن يتقدم بالفتوحات الافريقية فزحف اليها (٢٨ هـ) بقوة مركبة من نحو عشرين ألف مقاتل وبعد وقائع دموية استولى عليها كما تقدم بيانه فى تاريخ العرب ومراكش وفى ولاية عقبة ابن نافع افتتح المسلمون غيرها من ممالك تلك الاطراف وقد اتخذ العامل المشار اليه مدينة القيروان من أعمال تونس حصنا يحتمى به وقت الحاجة ويحفظ به الاموال والذرارى وغيرها

ومن تاريخ الفتح الاسلامى المذكور أخذ أهالى تلك البقاع فى السير فى طريق المدنية فحسنت أحوالهم وتهذبت طباعهم واستنارت قرائحهم وعلت مداركهم باعتناقهم الديانة الاسلامية أما طوائف البدو والرحل فبقوا فى الجبال على حالتهم البربرية الى أن اتسعت فتوحات الخلفاء من بنى

أمية بدخولهم اسبانيا التى شيدوا فيها دعائم حكومة من أضخم الحكومات عزا وثروة وحضارة وبقيت هذه البلاد زمنا طويلا خاضعة لسلطنة الخلفاء الامويين الى أن ظهرت الدولة العباسية التى فى عهدها صارت بلاد الجزائر بلادا مستقلة تحت سلطنة الدولة الزيرية المنسوبة الى يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وهى الدولة التى استبدت فيها من (٩٧٠ م - ٣٦١ هـ) الى (١١٤٨ م - ٥٤٣ هـ) ثم استظهر على الجزائر روجير الثانى النورماندى ملك صقلية وفى (١١٥٩ م - ٥٥٤ هـ) استولت على الجزائر دولة الموحدين المراكشية وفى أيامها كانت سواحل الجزائر مملوءة بالاساطيل القوية الشهيرة وكان لها شأن عظيم فى البحر المتوسط الابيض وكانت تجتمع بثغر بجاية وبقيت الجزائر تحت سلطنتهم الى سنة (٦٦٩ هـ) حيث تغلبت دولة بنى زيان أصحاب فاس عليها وطردوا الموحدين منها ونزلوا تلمسان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم فشيدوا فيها القصور وغرسوا الرياض والبساتين وأجروا اليها المياه الوافرة فأصبحت من أعظم أمصار المغرب ثم أخذت نيران الحرب تشتعل بين دولة بنى زيان الصنهاجيين المذكورة وبين الاسبانيول الذين توالت انتصاراتهم فى المقاطعات الاندلسية وفى خلالها هاجر كثير من عائلات المسلمين واليهود من الاندلس وسكنوا الجزائر (٨٥٦ هـ) وباتحادهم مع أهاليها المشهورين فى سلك البحار أخذوا فى تعقب سفن النصارى خصوصا الاسبانيول منهم لما أتوه معهم من الاعمال الوحشية والافعال البربرية وبذلك تكدر صفو البحر المتوسط الابيض واستحال السير فيه على سفن أهل أوروبا وانتشر التلصص فى جميع جهاته ولذلك استولى الاسبانيول على مدينة بونة (٨٦٧ هـ) لحماية تجارتهم وفى سنة (٩١٥ هـ) استولى الكردينال كسيمينيس الاسبانيولى على وهران ثم على مدينة الجزائر وبذلك صارت كل البلاد خاضعة للاسبانيول وقد أنشؤا هناك معاقل وحصونا ولكن قبل موت ملكهم فرديناند بقليل (٩٢٢ هـ) استدعى أمير بلاد متيجة [1] لمساعدته أوروج بار باروس رئيس القرصان الذى اشتهر وقتئذ بأعماله فى البحر المتوسط فطرد هذا الرئيس الاسبانيول من مدينة الجزائر كما هو فى الفصل الآتى

﴿ الفصل الثالث ﴾

عائلة بار باروس واستيلاؤها على الجزائر

انه بعد أن ظهرت هذه العائلة وعلا ذكرها واشتهر اسمها كما سيأتى فى تاريخ الدولة العثمانية قصد أوروج قبودان أخو خير الدين مدينة تونس باسطول عظيم فعقد شرو وطامع سلطانها محمد الحفصى ليتنازل له عن ثغر بحرى لوقاية سفنه وأن يعطيه فى مقابلة ذلك خمس ما يغتنمه من حروبه البحرية فقبل الحفصى ذلك ثم لحقه أخوه خير الدين بسفائن أخرى بعد قليل فخرج الاثنان وأخذا فى التجول فى البحار والغزو يهددان السفن الاسبانيولية والايتاليانية وغيرها ويستولون عليها أو على ما فيها كلما سمحت لهم الفرص فوقع الرعب فى قلوب الاسبانيول خصوصا وفى (٩١٨ هـ) تقدم

(١) متيجة سهل عظيم بمقاطعة الجزائر جنوبا بين سلسلتى جبال اطلس ولشهرته بالخصوبة والانبات سماه العرب أم الفقير وبه عدة مدن منها بوفريك وبنى مريد وجوانفيل وغيرها

أوروج قبودان المذكور باربعة سفائن واستولى على قلعة بجاية من يد الاسبانيول الا انه جرح فى الحرب فأرسله أخوه خير الدين الى تونس للمعالجة وترأس هو على الاسطول بمفرده ثم قصد سواحل اسبانيا فهاجمها وخلص منها عددا عظيما من مهاجرى العرب وضمهم الى قوته وبذلك تقوت عساكره ثم قصد جزيرة منورقة وضرب قلعتها واستولى على ما بها من الآلات والاموال وعلى كثير من السفن الاسبانيولية ثم عاد بالجميع الى تونس ظافرا غانما وزادسروره لما وجد أخاه شفى من جراحاته فتقاسما الاموال بعد اخراج ما يخص أمير تونس حسب المشارطة وفى اثناء ذلك أعدت جمهورية جنوة اسطولا عظيما وأرسلته للتجول فى البحار فتلاقى مع خير الدين المشار اليه ولما اشتبك القتال بين الاسطولين انتصر اسطول خير الدين على الاعداء واغتنم منهم ستة سفائن بما فيها وأحرق لهم قدرا وافرا من سفنهم ثم عاد بغنائمه الى مينا جربه للاستراحة واصلاح ما لحقه الضرر من سفنه (١٥١٣ م - ٩١٩ ﻫ) وفى التى بعدها خرج أوروج قبودان وأخوه باسطولهما وهددا كثيرا من الجهات وأخيرا هاجما قلعة جيجلى بسواحل بلاد الجزائر وكانت بيد الجنويزيين وساعدتهم قبائل العرب بالنظر لما لحقهم من سوء معاملة حاميتها لهم فتمكنا من فتحها واغتنام جميع ما بها ثم ان خير الدين انتخب من الغنائم نفائس مما يليق تقديمه للملوك وشحنها فى سفينة وأرسلها الى الاستانة مع مفتاح القلعة المذكورة هدية الى السلطان سليم وفى خلال هذه المهمات أوروج قبودان واستقل أخوه خير الدين بالامر ولقب باربروس وبعد هذه الانتصارات اتفق القبودان المذكور مع قبائل من العرب والرئيس سليم التمى الشهير أمير بلاد متيجة على الاستيلاء على مدينة الجزائر وكانت بيد الاسبانيول فتقدم بسفنه بحرا بعد أن أخرج منها بعض الرجال الى البر وهاجم المدينة المذكورة من كل جانب وبعد محاربة دموية استولى على قلاعها عنوة ثم سلمت له المدينة صلحا وفى خلال ذلك مات سليم التمى المذكور مسموما لخوف ولده من الهيجان الذى كان حاصلا اذ ذاك وهرب الى اسبانيا ومن هذا الوقت صارت الجزائر فى قبضة خير الدين المشار اليه

وروى مؤرخو الافرنج انه فى (١٥١٦ م - ٩٢٢ ﻫ) أى قبل موت فردينند ملك اسبانيا هاجم أوروج باربروس مدينة الجزائر وطرد الاسبانيول منها ثم قتل أمير متيجة سليم السابق ذكره واستولى على المدينة المذكورة والبلاد التابعة لها ولم يمض الا القليل حتى استظهر على تنس وتلمسان (١٥١٧ م) ثم قهره الاسبانيول وقتلوه (١٥١٨ م) فطلب أخوه خير الدين الذى خلفه مساعدة السلطان سليم الاول بعد أن اعترف له بالطاعة فأقامه السلطان سليم وزيرا لمدينة الجزائر وأرسل لمساعدته فرقة من العساكر العثمانية واسطولا من الاساطيل التى كانت تجوب البحار تحت امارة قواد عثمانيين وبذلك تمكن خير الدين من دفع قوة الاسبانيول ومن جعل نفسه صاحب الكلمة النافذة ببلاد الجزائر وكان خير الدين اوفر حظا من أخيه لانه لم يقع فى أيامه ما وقع فى أيام أخيه من الاضطرابات بحرب الاسبانيول لاشتغالهم اذ ذاك بحرب فى أوروبا فتمكن خير الدين من ترتيب أمر السياسة والضبط والربط ببلاد الجزائر ترتيبا غريبا وصف الله الجو فى الغزو فى البحار بالعزم الزائد والقوة التامة وزاد فى فتوحاته ووسع فى مملكة الجزائر بداخل أفريقية فأخذت شهرته تتزايد وصيته ينمو

الفصل

الفصل الرابع

خضوع سواحل البربر للعثمانيين

لما دخلت بلاد الجزائر (١٥١٧ م - ٩٢٣ هـ) فى قبضة السلطان سليم وانتشر خبر ذلك بين شعوب العرب بتلك الاصقاع أخذ عرب الاندلس يسترجون من الدولة العثمانية مساعدتهم على الاسبانيول واتفق فى تلك الاثناء وفاة السلطان سليم (١٥١٩ م - ٩٢٦ هـ) وجلوس السلطان سليمان القانونى بعده على التخت ولما عرضوا عليه الاسترحام المذكور رق لحال المسترحين وصمم على ارسال حملة لمساعدتهم وتخليصهم من ضيقتهم ولما نمى الخبر الى حكومة اسبانيا أخذ شارلكان ملكها يسعى فى محالفة أمراء البروتستانت أعدائه ومحالفة فرانسا وكانت من ألد خصومه ومع ذلك فان السلطان سليمان أرسل من قبله القبودان سنان باشا لاستطلاع رأى خير الدين فى ذلك ودعوته الى الحضور الى الاستانة فاشاعت اسبانيا عند ذلك قصدا أنها عزمت على مهاجمة الجزائر وكان بليمان الجزائر سبعة آلاف من أسرى الاسبانيول وغيرهم فلما علموا بهذا الخبر طاروا فرحا وهاجوا وماجوا وتمردوا وكانت اسبانيا تقصد من ذلك منع خير الدين من الذهاب للاستانة ليقع الخلل فى المناسبات والروابط التى تجمع خير الدين بالدولة العثمانية ولكن خير الدين أطاع الامر ورأى أن من المصلحة العمومية اعدام أولئك الاسرى ليأمن غائلتهم وكان من ضمنهم ابن ملك جزيرة رودس ولما أتم ما عزم عليه أخذ يقوى استحكامات الجزائر ويزيد فى قلاعها مظهرا أتم الطاعة للسلطان ثم عين أميرا يقوم مقامه أثناء غيابه يدعى حسن أغا الطواشى وكان من مشاهير الرجال خافته سكان شواطئ أوروبا وكسر للفرنج عدة أساطيل قوية أما خير الدين فانه بعد أن أوصى وكيله هذا بما يجب اتباعه شحن أربعين سفينة بالهدايا وأقلع بها يقصد الاستانة وفى أثناء ذهابه عرج على صقلية لاخذ الميرة منها وغزا بعض السواحل التابعة للجنويزين وضبط بعض سفن قرصانية للفرنج ثم عرج على فرضة ناوارين حيث قابل القبودان أحمد باشا أمير الاساطيل العثمانية المرسلة لامداد قلعة قورون ثم أقلع منها ولما وصل القسطنطينية عرض خضوعه على السلطان سليمان وسلم له مفاتيح مدينة الجزائر فأكرم السلطان وفادته وبالغ فى اكرامه وأسكنه بسراى أحمد باشا الكائنة فى آت ميدان وأنعم عليه بلقب باشا وأخذ خير الدين باشا يفاوض وزراء الدولة فى أمر الاسبانيول وصدر له الامر بمقابلة الصدر الاعظم ابراهيم باشا لهذا الخصوص وكان الصدر بمدينة حلب فذهب اليه وفاوضه ثم عاد الى الاستانة وأمر السلطان بأن يجهز لخير الدين باشا أسطولا عظيما حربيا ليضمه الى سفنه ولم يمض زمن طويل حتى تجهزت السفائن المذكورة وما يلزمها من الاسلحة والجنود وكانت احدى وستين سفينة

خيبة شارلكان فى حملته على الجزائر — بينما كان خير الدين باشا بالاستانة انتهز شارل الخامس أى شارلكان الفرصة للاستيلاء على الجزائر ثانية الا أنه عاد مهزوما فى خبر طويل وقد روى بعض مؤرخى الفرنج ذلك بما معناه قال لما توالت انتصارات خير الدين ووكيله حسن أغا بالجزائر على أساطيل الفرنج بالبحر المتوسط وامتدت اغاراتهما على جميع شواطئ أوروبا الجنوبية تقلص ظل

الفرنج وخافوا على تجارتهم وأساطيلهم وتعددت الشكايات من رعايا شارلكان مضمونها ان مصالحه وشعائر المروءة توجب عليه ان يقمع أهل الجزائر التى صارت منذ محاربة شارلكان لتونس مأوى لارباب الصيال وان يقطع دابر هؤلاء المتغلبين أشد أعداء الفرنج وبناء على ذلك أوطمعا منه فى ازدياد فخاره الذى حازه بانتصاره فى المرة الاولى على بلاد أفريقية أصدر أمره قبل سفره من مدريد الى بلاد هولاندة وايطاليا وغيرهما بتسليح الاساطيل وجمع جيش قوى ولم تفتر همته ولم يصغ لقول نصحائه من ان الواجب عليه الاهتمام بالمدافعة عن بلاد الامبراطورية ولا استهزاء أعدائه به حيث كانوا يقولون انه لعدم اقتداره على مقاومة السلطان شرع فى الذهاب الى بلاد أفريقية وغير ذلك فلم تؤثر فيه هذه الاقوال وان كان فى الحقيقة دون السلطان شوكة وقوة ولم يلتفت أيضا الى نصح البابا له ولا الى نصح الامير اندريا دوريا القائد البحرى الشهير الذى كان يلح عليه بعدم السفر ويفهمه انه يخشى على الاساطيل اذا دنت من سواحل الجزائر لاشتداد أرياح فصل الخريف الا انه لما كان من طبعه عدم العدول عما صمم عليه لم يلتفت الى قول البابا ولا الى قول اندريا ولم ينشأ عن ذلك كله الا زيادة التصميم على هذا الغرض وكان عدد الجيش الذى أخذه شارلكان ٢٠،٠٠٠ راجل ومن الخيالة ٢٠٠٠ ما بين اسبانيولية وايطالية والمانية وكان أغلب هؤلاء الجنود قد مارسوا الحروب وعركوا الخطوب وبرعوا فى الحيل الحربية والدقائق العسكرية وكان مع الامبراطور أيضا ٣٠٠٠ من أعظم أشراف اسبانيا وايطاليا اختاروا السفر معه بمحض ارادتهم ليقاسموه الفخر ولما كانت طائفة فرسان مالطة تود محو قوة الاسلام برا وبحرا وتدأب فى ذلك ليلا ونهارا أمدت الامبراطور لما علمت بتجريدته هذه بنحو ألفين من جنودها معهم نحو المائة من أبطال هذه الطائفة ولما دنا الامبراطور بأساطيله البالغ عددها ٣٧٠ سفينة اشتدت الرياح وهاجت العواصف وبعد مكابدة المشاق سكن الهواء مدة يسيرة فانتهز الامبراطور تلك الفرصة وبادر باخراج عساكره الى البر قريبا من مدينة الجزائر ولم يمانعهم أحد فى خروجهم وللحال سارت تلك الجيوش تقصد مدينة الجزائر ولم يكن عند أميرها حسن أغا المتقدم الذكر من العساكر سوى ثمانمائة من الينكجرية و ٥٠٠٠ من الاهالى نصفهم من الجزائر والنصف الآخر من غرناطة ومع ذلك فانه رد طلب الامبراطور بالتحقير والكبرياء حينما طلب منه التسليم ثم ان حسن أغا لمهارته وتيقظه ونشاطه خرج مع عساكره ولما التقى مع عسكر الفرنج قاتلهم وبعد زمن قليل هزمهم وبدد شملهم وقتل منهم عددا عظيما وأودع فى قلوب الباقى الرعب ثم عاد وعساكره فى غاية الانتظام والترتيب وقد أعقب دمار الجيش بالبر دمار الاساطيل بالبحر حيث قامت زوبعة شديدة فانقطعت السفن من مراسيها وتكسرت بتصادمها مع بعضها أو مع الصخور وقذفت الامواج كثيرا منها الى البر وابتلعت بعضها وبذلك ضاع من السفن الحربية العظيمة خمس عشرة سفينة ومن سفن النقل مائة وأربعين سفينة وغرق من الرجال ثمانية آلاف كانوا بها ومن حاول النجاة منهم وعام حتى وصل الى البر ذبحه العرب ولم يرثوا لحاله أما الامبراطور فكان ينظر الى هذه الاحوال بعين الحيرة والدهشة ولم يتمكن من فعل شئ سوى انه خلص بعض الجنود الذين وصلوا الى البر من قبضة العرب ثم اضطر للرحيل لنفاد الاقوات وكثرة الجرحى والمرضى فى الجيش وضياع أغلب جنوده لأن أهل الجزائر وجيش الينكجرية كانت تهجم عليهم فى كل وقت ولم يصلوا الى المكان الذى

يتزلون منه الى السفن الباقية الابتق الانفس وقد أظهر الامبراطور رفى هذه المصائب الكبيرة صبرا عظيما وتجلدا غريبا ولما أقلعت بهم السفن من رأس تامندفوست [1] (١٥٤١ م - ٩٤٨ هـ) هبت عليهم ريح عاصفة شتت السفن عن بعضها بحيث ذهب بعضها الى اسبانيا وبعضها الى ايطاليا وانتشر بذلك خبر خيبة الامبراطور وعودته مهزوما أما الامبراطور رفانه بعد أن كابد مشقات عظيمة من تلك العاصفة فقاضطر الى الوقوف بثغر بجاية عدة أسابيع ثم سافر الى اسبانيا مكسور القلب

خير الدين باشا فى خدمة الدولة وابتداء تعيين الولاة من قبلها للجزائر — انه بعد وصول خبر هذه الحوادث الى الاستانة وجه السلطان سليمان مسند القبودانية أى رياسة البحرية الى خير الدين باشا وأسند ولاية الجزائر للرئيس صالح بك الذى أخذ فى تقوية الحصون وتوسيع مرفأ الجزائر وبناء الاستحكامات وفى تلك الاثناء فتح شارلكان حربا على فرنسوا الاول ملك فرانسا فاستنجد هذا بالدولة العلية فعقدت معه اتفاقا ضد الامبراطور شارلكان وامضت معه أول معاهدة تجارية بينها وبين فرانسا وكانت تلك المعاهدة تشتمل على شرط مضمونه عموم سريانها فى جميع الممالك العثمانية ومن ضمنها الجزائر وبذلك اعترفت فرانسا من وقتها ان بلاد الجزائر من أملاك الدولة العثمانية ثم أخذت فرانسا تمد تجارتها مع أهالى الجزائر طبقا لمنطوق المعاهدة المذكورة ثم لما عقدت باقى الدول المعاهدات التجارية مع الدولة العلية ذكرت فيها الجزائر ضمن ولايات الدولة حتى ان جميع المشاكل التى حدثت بعد ذلك بين الدول المذكورة وبين أهل الجزائر صار تسويتها بمبادلة المخابرات مع خارجية الدولة العلية على الصورة المذكورة فى كثير من أبواب هذا التاريخ وبعد ارتباط الدولة مع فرانسا بالمعاهدة التجارية المذكورة طلبت فرانسا من الدولة ان تصرح لاثنين من تجار مرسيليا بان يحدثا لهما فى جهة عنابة من أعمال الجزائر بناء مخصوصا لاستخراج المرجان فى مقابلة دفع رسم اتفق عليه بين الطرفين فرخصت لهما الدولة العلية بذلك وأمرت عاملها هناك بمساعدتهما عند الحاجة وقد امتدت تلك التجارة الى (١٧٩٩ م - ١٢١٤ هـ) ولغاية التاريخ المذكور لم يكن لفرانسا قنصل بمدينة الجزائر

وفى تلك الاثناء كانت انتقلت طائفة فرسان رودس المسماة بفرسان سان جون الى مالطة لاستيلاء العثمانيين على رودس فاهتموا بامر الاساطيل ولما أخذت سفنهم تمخر فى البحار ظهرت المنازعات بينهم وبين حكومة الجزائر واستفحل أمرها حتى صارت مترادفة بدون انقطاع ومن ذلك انتشر أمر التلصص فى البحر المتوسط الابيض حتى أمسى السير فيه تحت أخطار جسيمة وتهددت التجارة البحرية بما كان من العداء بين الطرفين وكان لقرصان الجزائر جسارة غريبة ومهارة عجيبة لما كانوا يفعلونه من الاعمال الهائلة التى أرعبت أكثر الامم الساكنة على سواحله وقد ذكر كثير من المؤرخين بعض تلك الاعمال الدالة على ما كان لهم من الاقدام والحيل التى لا تكاد تصدق لغرابتها ولذلك اهتم الفرنج بأمرهم يريدون محوهم وكتم خصوصا الاسبانيول منهم الا أنه منذ رجوع تجريدة شارلكان بالخيبة لم يتصد الاسبانيول للجزائريين حتى انهم بعد ذلك فقدوا جميع مستعمراتهم بأفريقية

---

(١) Temendfust تمنفوست أو منيفر المسمى أيضا رأس تمندفوست وهو بشمال أفريقية وواقع فى نهاية فرضة مدينة الجزائر وعليه حصن الآن

فأخذت منهم بجاية سنة (١٥٥٢ م) ووهران والمرسى الكبير سنة (١٧٠٨ م - ١١١٩ ﻫ) وقبض الجزائريون منهم على نحو اثنى عشر ألف رجل ولما لم تمكن الاسبانيول من نوال غرضهم تصدى للجزائر دول أخرى لقمعها فمن ذلك انه فى (١٦٥٥ م - ١٠٦٦ ﻫ) هاجمها أسطول انكليزى تحت قيادة الاميرال بلاك فلم ينل مقصده لمناعة قلاعها فى ذلك العهد ومقاومتها مقذوفات السفن وبعد ذلك أتى الدور لدولة فرانسا وكان أول تجريدة وجهتها على الجزائر مدة لويز الثالث عشر تحت قيادة الاميرال بوليو (Beaulieu) الا انها لم تأت بنتيجة تذكر وفى زمن لويز الرابع عشر أرسلت تجريدة عظيمة جدا بقصد تأديب قرصان الجزائر تحت قيادة الدوق بوفور (Beaufort) (١٦٦٣ م) وقد اهتم لويز بهذه التجريدة اهتماما زائدا وكان اسطولها يتألف من ست سفن وست شوانى وكان تحت قيادة هذا القائد الكومندور بواس (Paul) من فرسان مالطة وكان له شهرة عظيمة معروف السطوة والاقتدار عند هؤلاء القرصان ولما خرجت هذه العمارة أخذت تتعقب سفن القرصان بكل نشاط حتى تمكنت من أن تغرق من سفنهم نحو العشرين سفينة واضطرتهم الى عدم مبارحة ثغورهم مدة أشهر ولما تشجع لويز الرابع عشر بهذا النجاح صمم فى السنة التالية على ان يحتل بساحل الجزائر نقطة احتلالا دائما لتتمكن سفن الفرنسيس من معاقبة قرصان الجزائر فى أى وقت شاءت ويمكنها أيضا مراقبة حركاتهم وصدهم كلما همو للاغارة على سواحل فرانسا فاحتلوا ثغر جيجلى ومن هذا الوقت طمعت الحكومة الفرنساوية فى انشاء مستعمرة دائمية على هذا الشاطئ واذا ساعدتها الظروف تمد جناح سطوتها على تلك الجهات وتحدث لها المستعمرات التى لم تتمكن اسبانيا من ايجادها ولذلك فان لويز الرابع عشر بعد ان نظر فى هذا الامر طويلا وعلم بالفوائد التى تعود عليه منه اناط الدوق بوفور المتقدم بقيادة أسطول مؤلف من ١٦ سفينة عليها ٦٠٠٠ مقاتل وسافرت هذه العمارة فى شهر ذى الحجة (١٠٧٤ ﻫ - ١٦٦٤ م) وخرجت منها الجنود الى ثغر جيجلى بدون مقاومة تذكر الا أن النفور الذى حدث بعد ذلك بقليل بين رؤساء الجيش الفرنساوى وقلة الاموال التى خصصت لهذا المشروع اضطرتهم لترك هذه التجريدة التى كانت سعيدة الطالع فى أولها ولم يتيسر لفرانسا بعد ذلك تجديد هذا المشروع بالنسبة للحاربات التى اشتبكت فيها بعد ذلك بقليل ومع ذلك فان هذا المسعى الاولى والخسائر العظيمة التى أصابت أساطيل الجزائريين من أساطيل بوفور المذكور (١٦٦٥ م - ١٠٧٥ ﻫ) أوقعت الرعب فى قلوب الجزائريين واضطرتهم لعقد صلح مع فرانسا فى السنة المذكورة الا أنه لم يستمر طويلا

ومن منذ ماصارت حكومة الوجاقات بالجزائر يديرها حاكم يطلق عليه لفظ داى ظهر نوع من الحقد ضد بلاد فرانسا حتى انها اضطرت لارسال عدة مأمورين الى بلاد الجزائر يطلبون من حكامها تنفيذ المعاهدات المعقودة بين الطرفين بالدقة والصداقة وكانوا ينالون من حكامها وعودا صريحة بذلك الا أنه بمجرد سفرهم من الجزائر تشرع القرصان والحكام فى نقض ماصار الاتفاق عليه حتى انه فى سنة (١٦٨١م - ١٠٩٢ ﻫ) بلغت الحدة والجسارة بوالى الجزائر المدعو بابا حسن باعلان الحرب على فرانسا فاغتاظ من ذلك لويز الرابع عشر وأمر بتجهيز قوة عسكرية عظيمة جدا لارسالها على مدينة الجزائر وكان القائد على هذه التجريدة الاميرال دوكسن (Duquesne)

والاميرال

والاميرال طورڤيل (Tourville) وكانت العمارة التى وجهت لهذا القصد مؤلفة من احدى عشرة سفينة حربية من نوع القليون وخمس عشرة ثمانية من نوع الغالى وخمس أخرى من نوع الغالتا المدفعية وحراقتين وغيرهما من سفن النقل ولما رست هذه العمارة امام الجزائر أخذت فى اطلاق نيرانها عليها (٢٠ شعبان سنة ١٠٩٣ هـ - ١٦٨٢ م) فاحترق من ذلك ثلاث سفن جزائرية كانت بالميناء وقتل من السكان أكثر من خمسمائة من فرقعة المقذوفات التى كان استعمالها فى البحرية لاول مرة فى هذه التجريدة حتى ان عسكر اليكجرية اعتراهم الفزع لما شاهدوا ما نفعله هذه المقذوفات المخيفة ومع هذا فلم يمكن الهجوم على المدينة بسبب هبوب الرياح الشديدة الجالبة للاخطار والتى يكثر حدوثها فى هذه الجهات القريبة من المدارين وعند ذلك أمر الاميرال بالاقلاع والعودة الى ثغر تولون ولم يترك أمام الجزائر الا بعض سفن لمحاصرتها وفى السنة التالية أقبل الجيش البحرى ثانية فى شهر يونيه وعاودت المدفعيات الفرنساوية العديدة اطلاق نيرانها على المدينة وكان بها فى هذه المرة طائفة من مهرة الطوبجية وبها أهوان جديدة تقذف مقذوفاتها على بعد ١٧٠٠ تواز (التواز ستة أقدام) وكان مقدار البمب الذى أطلقته على المدينة فى ليلتين ويوم ٢٢٠ بمبة سقطت كلها فى داخل المدينة وفى مينائها فأتلف بعضها عدة من المبانى وقتل بعضها أقواما وعند ذلك هاج السكان واضطربوا ووقع الرعب فى قلوبهم وتضرعوا الى الحاكم المذكور بعقد الصلح فارسل لذلك قنصل فرانسا ومعه آخرين الا أن الاميرال دوكسن لم يقبل الا بعقد هدنة وطلب أيضا ان يسلموا له جميع الاسرى من النصارى فسلم له الداى منهم ٥٤٦ فقط معتذرا بان ليس لديه الوقت الكافى لجمع الاسرى الآخرين المتفرقين فى الجهات وفى المدن المتباعدة الساحلية وبذلك يطلب اطالة زمن الهدنة فقبل الاميرال بشرط ان يسلموا له كثيرا من أعيان القوم يحجزهم بطرفه رهينة حتى يأمن صدق الحكومة معه ثم طلب دوكسن أيضا انه لا يعقد صلحا الا اذا قبلت منه الشروط الثلاثة الآتية وهى اخلاء سبيل جميع اسرى الفرنسيس وغيرهم من الامم النصرانية وثانيها تعويض يعادل قيمة جميع ما أخذه القرصان من الفرنساويين أو رد تلك الاشياء بعينها وثالثها ان يرسل الداى من طرفه مأمورين الى باريس يطلبون العفو من ملكها عما فعله الجزائريون فى سفن الفرنسيس ولما شاعت هذه الاخبار هاج جنود الجزائر ورفضوا رفضا باتا قبول هذه الشروط خصوصا المتعلق منها برد ما سلبوه من سفن الفرنسيس وكان من بين الرهائن شخص من الابطال يقال له الحاج حسين ويعرف عند الفرنج باسم ميزومورتو (Mezzomorto) أى نصف ميت وأصله نصرانى فطلب هذا الشخص من الاميرال ان يطلق سبيله ليسعى فى جعل الداى والجنود يقبلون طلبات الاميرال الا أن ذلك كان حيلة منه للخلاص لانه بمجرد ما صار فى المدينة ترأس على الجنود وحضهم على دوام المقاومة بدعوى ان الداى جبان لا يصلح للاحكام ونتج من ذلك ان قتل الداى ونادى العسكر والاهالى بتنصيب الحاج حسين المذكور فانقطعت مخابرات الصلح وتفرق الجنود على القلاع لصد الاعداء وأخذ الاميرال الفرنساوى باطلاق مدافعه وصب على المدينة مقذوفات هائلة قتلت وأحرقت عدة منازل فى انحاء متعددة ولما رأى الجنود ما حل بمدينتهم من الدمار قبضوا على القنصل الفرنساوى وأسرى الفرنسيس وربطوهم على أفواه المدافع وأطلقوا النيران عليهم حتى وصل كثير من أعضائهم الى سطح السفن الفرنساوية ولولا ان المقذوفات فرغت من السفن

الفرنساوية لماترك الفرنساويون بالجزائر بيتا قائما كما قال أحد مؤرخيهم وعند ذلك اضطر دوكسن للعودة الى تولون وهو فى غاية التحسر والغيظ وترك أمام الجزائر قسما من العمارة لمحاصرتها على نية العودة فى السنة المقبلة وقد لحق بالجزائريين من ذلك أضرار لا تحصى وفى العام التالى أتى الاميرال طورفيل ومعه عمارة عظيمة فاضطر عند ذلك الداى حسين المذكور الى التوقيع على المعاهدة لقيام ثورة داخلية (١٦٨٤ م - ١٠٩٥ هـ) وعين ديوان الجزائر سفراء للتصديق على معاهدة الصلح ولكن هذا العقاب الذى لحق بالجزائريين لم يردعهم عن غيهم وتعرضهم للسفن الفرنساوية لانه فى سنة (١٠٩٩ هـ) أغاروا على أسطول فرنساوى وأسروا بعض سفنه بعد ان ألحقوا الهوان بمن فيه فصدر الامر اذ ذاك للمارشال استرى (Estrée) بالذهاب واطلاق المدافع على الجزائر وكان تحت قيادته عمارة مؤلفة من ١١ سفينة من سفن الخط و ٨ شوانى و ١٠ مدفعيات وكثير من السفن الخفيفة فوصل اليها فى رمضان سنة (١٠٩٩ هـ - ١٦٨٨ م) وأخذ فى اطلاق المدافع عليها ليلا ونهارا حتى أطلق أزيد من عشرة آلاف قنبلة وأغرق خمس سفن حربية كبيرة وهدم غالب البطاريات وبرج الفنار وقتل من السكان عددا عظيما وجرح نفس الوالى فتضرع الجنود عند ذلك للاميرال يطلبون منه الصلح فعقد معهم شروطا وقع عليها الطرفان فى شهر الحجة (١١٠٠ هـ - ١٦٨٩ م) وكان ذلك أكبر صلح مستديم استمر بين الحكومتين بحيث انه من هذا الزمن الى سنة ١٨٣٠ م لم يحدث بين الجزائر وفرانسا عداوات مستطيلة وبعد ذلك ببضع سنوات أى سنة ١٦٩٤ م اعترفت حكومة الجزائر بشروط خصوصية بما لفرانسا من حق التملك على الساحل الممتد بين مدينتى عنابة وطبرقة زيادة عما لها من حق استخراج المرجان وحق المتاجرة بين عنابة وبجاية فهذه على وجه الاختصار أشهر حوادث تاريخ الجزائر فى المدة المذكورة

قد قلنا فيما سبق انه فى سنة ١١١٩ هـ (١٧٠٨ م) استولى دايات الجزائر على مدينتى وهران والمرسى الكبير وكان الاسبانيا ولم تتمكن اسبانيا من عمل شئ لاشتغالها اذ ذاك بحرب الوراثة ولما تمكن فيليب الخامس ملكها من سرير ملكه (١٧٣٢ م - ١١٤٥ هـ) تفكر فى أن يرد لاسبانيا هذه المستعمرة المهمة وأرسل لذلك الكونت دومونتمار فقام بهذا الامر أحسن قيام لما له من حسن الطالع والاستعداد وكمال العقل والنشاط والاقدام ورد لاسبانيا المدينتين المذكورتين وكان ذلك مدة الداى على الذى لما رأى انكساره امام الاسبانيول اعتراه الخجل وخاف من بقية الجنود ومعرة الهزيمة فهرب الى داخلية البلاد مع عائلته وأمواله

خروج الينكجرية عن حدودهم — لما استفحل أمر الينكجرية فى كافة الممالك العثمانية باظهارهم التمرد والعصيان امتد ذلك ايضا الى وجاقهم بالجزائر وأخذوا يتداخلون فى كل أعمال الحكومة حتى أضروا بسطوة الدولة العثمانية فى الولاية المذكورة ولم يقفوا عند ذلك الحد بل أخذوا يتعدون على الولاة الذين تعينهم الدولة حتى انهم فى سنة ١٧٠٥ م (١١١٧ هـ) طردوا الداى ابراهيم باشا الذى عينته الدولة العلية والباشا وصاروا بعد ذلك يقيمون الولاة بانتخابهم ويطلبون لهم السيف والبراءة من الاستانة بحجة انهم معينون بانتخاب الشعب هناك ثم بعد ذلك يثورون على الولاة فيقتلونهم لاقل سبب حتى انهم فى سنة ١١٤٥ هـ انتخبوا خمسة من الولاة الواحد بعد الآخر وقتلوهم وبذلك اضطربت الاحوال والتاثت الامور وعظم الخطب وارتبكت سياستهم كما علمته وستعلمه

وكانوا متى احتاجوا الاشخاص لادخالهم ضمن زمرتهم أرسلوا سفنا من الجزائر وعليها من أعوانهم من ينتخب لهم كل من اتصف بالشجاعة وقوة البنية وشراسة الاخلاق من أى مكان أرادوه من أقطار الدولة ومن الغريب ان الامتيازات الممنوحة للجزائر من الدولة كانت تبيح لكل فرد من الناس الالتجاء الى سفن الجزائر فكان ينخرط فى سلك اليكجرية لهذا السبب كل سارق ومارق وفتاك وأفاك وبهذا تعلم ما كانت عليه هذه الزمرة الخبيثة من الاخلاق والنظام هذا خلاف من كان يهاجر من نفسه الى الجزائر بقصد الاستظلال بظلها وكانت الانتخابات لمنصب الولاية وغيرها من الخطط السامية تحصل من بين هؤلاء الاشخاص الذين مر وصفهم ولم يكونوا يسمعون لاحد من أهالى الجزائر الدخول فى زمرتهم ولو كان ابن انكشارى متى كانت أمه من أهل البلاد وكان الداى بمجرد انتخابه للمنصب يرسل الى الاستانة هدايا معلومة علامة على خضوعه للسدة السلطانية وكانت شكايات الاهالى متواصلة الى الاستانة لما هم فيه من الحيف والظلم من هذه الطائفة المارقة وكانت الدولة تود لو تخفيف تلك النوازل بما تقدر عليه من الوسائط الا أن ظروف الاحوال لم تكن تساعدها لاشتغالها بالمحاربات المتصلة مع دولة الروسيا خصوصا وكان يود ناذكر الولاة الذين عينتهم الدولة العثمانية لتلك الولاية بعد خير الدين باشا واحدا فواحدا الا انا لم نقف على أسمائهم فيما علمناه من التواريخ وقد عثرنا على أسماء من انتخبهم الانكشارية من الدايات وسنذكرهم مع ذكر أشهر ما حصل فى أيامهم من الحوادث الى ان احتل الفرنساويون تلك البلاد

﴿ الفصل الخامس ﴾

دايات الجزائر

(عبدى باشا) (١١٦٤ – ١١٦٦ هـ) وكان جاهلا غشوما لم يات باعمال تستحق الذكر وعزل بعد سنتين من ولايته

(على باشا) (١١٦٦ – ١١٧٦ هـ) وكان يتصف بالاقدام وحسن الرأى وفى ولايته التى استمرت عشر سنوات جرد حملة على ولاية تونس وحاربها حتى قهرها وألزمها الخضوع لحكومة الجزائر وضرب عليها خراجا تحمله سنويا ثم عزلوه

(بابا محمد باشا) (١١٧٦ – ١٢٠٦ هـ) وكان عاقلا شجاعا بصيرا بالامور ذا حظ عظيم وشهرة ممدوحة امتدت ولايته ٢٧ سنة وفى ولايته (١١٨٤ هـ – ١٧٧٠ م) أرسل الدانيماركيون عمارة حربية الى الجزائر لمعاقبة قرصانها الذين أضروا جدا بتجارتهم وتعدوا مرارا على سفنهم الا أن اسطولهم لم يؤثر أدنى تأثير لانه استمر مدة ثمانية أيام يغدو ويروح امام الفرضة والاستحكامات ولم يعمل عملا فاحتقره الجزائريون ولم يطلقوا عليه مدفعا واحدا اما انكلترة وهولاندة فانهما تجنبا أسباب العداوة وقبلا ان يدفعا للقرصان كل سنة قدرا من المال لاتقاء شرورهم وفى (١٧٧٥ م – ١١٨٩ هـ) قامت اسبانيا بحملتها الاخيرة العظيمة على الجزائر قصد الانتقام واعلاء شأنها بتلك البلاد فأرسلت أسطولا كبيرا مؤلفا من ٤٤ سفينة حربية و ٣٤٠ سفينة نقل تحت قيادة الاميرال كسنيجون وجيشا مركبا من ٣٠٠٠٠ مقاتل معه مائة مدفع تحت قيادة الجنرال أوريلى

(O'Reilly) ولما وصلت هذه القوة الى مياه الجزائر عين الوالى بابا محمد باشا المذكور صالح بك أمير قسطنطينة قائدا على جيش لمواجهة الاسبانيول وصدهم فعبى صالح بك المذكور جيشه تعبية جيدة ووضع امامه ابلا كثيرة تكون له كمتاريس تقيه مقذوفات الاعداء ولما استعد الجيشان أطلق الاسبانيول مقذوفاتهم فأصابت الابل ولم تؤثر فى الجيش وعقب ذلك انقض صالح بك وجيشه بسرعة غريبة على الاسبانيول فكسروهم بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة وهرب الباقى الى السفائن وبذلك خابت هذه الحملة التى كان أرسلها شارل الثالث البوربونى ملك اسبانيا وعاد من بقى من جيوشه وأساطيله بالخيبة أما الجزائريون فقد فرحوا بهذا الانتصار الباهر فرحا شديدا ومدح العربان صالح بك بالقصائد الطنانة وغنم المنصورون من هذه المحاربة غنائم لاتحصى لان الاسبانيول لما انهزموا تركوا جميع الذخائر والمهمات والاموال التى كانت معهم وبذلك امتلأت خزائن البلاد بالاموال الوافرة ثم ان الاسبانيول عاودوا الكرة مرة أخرى فحضروا أمام الجزائر بأسطولهم فى سنتى (١١٩٨ و ١١٩٩ هـ) وأطلقوا قنابلهم على المدينة فلم يأت عملهم بثمرة أصلا ثم أتت سفينة من أسطولهم تحمل علم المكالمة (١٢٠٠ هـ) وطلب الصلح من الداى فقبله الا انه تعهد لهم بدفع ١٤,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات فى مقابلة ماتراضيا عليه ولما علمت دول أوروبا بخيبة هذه الحملة رضيت ممالك نابولى والدانيماركة والاسوج ومدن الاتحاد الثلاثى بدفع جزية سنوية لحكومة الجزائر لحماية سفنهم من تعدى الجزائريين ومع كل ذلك لم تمنع هذه الجزية تعدى القرصان على سفن تلك الدول لان سفن القرصان بالبحر المتوسط كانت عديدة متنوعة ولانها لم تكن كلها تابعة لاهل الجزائر فقط بل كانت تأتى من عدة جهات من سواحل أفريقية وغيرها وكانت وفاة بابا محمد باشا (١٧٩١ م - ١٢٠٦ هـ) فتأسف على وفاته جميع أهل الجزائر لما كان له من الاعمال الحسنة والمشروعات المفيدة وبكفيه فخرا حماية البلاد من تسلط الاجنبى عليها وتولى من بعده

(حسن باشا) (١٢٠٦ - ١٢١١ هـ) ولما قبض على زمام الولاية سار على طريقة سلفه بالتمام فاهتم باصلاح ادارة البلاد وتقويتها وفى أيامه زادت جراءة القرصان حتى غنموا غنائم وافرة وكثر تشكى دول أوروبا من التعدى الذى يقع على سفنها التجارية ولم تكن دولة انكلترة تداخلت لغاية ذلك الوقت فى هذه التشكيات لان الاضرار التى ألمت بسفن تجارة الدول الاخرى لم يصل منها شئ الى سفنها التجارية لعدم ترددها على البحر المتوسط ولما أوجدت فرانسا فى البحر المتوسط سفنا كبيرة حربية لما صعد نابليون الاول على تخت الامبراطورية بعد الثورة الفرنساوية الشهيرة كان ذلك سببا لضعف حركات القرصان فى ذلك العهد وفى السنة الثانية من حكمه تنازل الاسبانيول للجزائر عن ثغرى وهران والمرسى الكبير وكانت الزلازل قد دمرتهما قبيل ذلك ولما حدث القحط بالاقاليم الجنوبية الفرنساوية (١٢٠٨ هـ - ١٧٩٣ م) واحتاجت فرانسا لجلب الميرة لجنودها التمست من هذا الباى التصريح بتصدير الغلال من الجزائر فقبل وتعهد التاجران اليهوديان بقرى وبشناق بتوريد الغلال الى فرانسا وكانت تصفية حسابات هذا التعهد ودفع قيمة الغلال التى وردها بلغت مبلغا عظيما جدا

وصارت

وصارت السبب الاول لحدوث المشاكل والمخاصمات بين الجزائر وفرانسا ونجم عنها استيلاؤها على الجزائر وفى أيام حسن باشا المذكور زادت عمارية الجزائر وتقدمت تقدما عظيما وتوفى بعدان حكم سبع سنوات (١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ) وقام من بعده

(مصطفى باشا) (١٢١٢ - ١٢١٨ هـ) واستمرت ولايته سبع سنوات ولم يحصل فيها من الحوادث ما يستحق التدوين الا انه لما احتلت العساكر الفرنساوية بلاد مصر فى أيامه (١٢١٣ هـ) أمره الباب العالى باعلان الحرب على فرانسا فأطاع الامر وطرد رعايا الفرنسيس من عنابة وغيرها وقبض على قنصل فرانسا بالجزائر وألقاه فى السجن وغير ذلك من الاعمال التى أغاظت الفرنساويين ومع ذلك فان هذا العداء لم يستمر زمنا طويلا لان الفرنساويين تحيلوا حتى عقدوا مع الجزائر صلحا (١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م) وكان من ضمن شروطه التى طلبها نابليون ان القرصان لا يتعرضون فقط لسفن فرانسا بل لكل سفن الممالك الداخلة تحت سيادة فرانسا أو المحالفة لها فقبل الداى هذا الشرط وتعهد باجرائه ومع ذلك فان الاختلالات السياسية والحروب التى كانت أوقعت التفرقة بين ممالك أوروبا مدة عشرين سنة أوقفت الاعمال العدوانية ضد الجزائر فاستفادت الجزائر من ذلك وحصنت ثغورها وحصونها تحصينا جيدا وملأت خزائنها من الاموال التى كانت تغنمها القرصان ولما كان هذا الداى متصفا بالسخاء أخذ يهدى الهدايا ويجود بالانعامات الكبيرة من خزينة المملكة على حاشيته والمقربين اليه فقامت عند ذلك اليكجرية وهاجوا وماجوا قائلين ان سخاء الباشا مضر بخزينة الدولة ولما لم يرتدع عن ذلك عزموا على الفتك به ثم هاجموا قصره ليلا (١٢١٨ هـ - ١٨٠٣ م) وقتلوه وقطعوه اربا ونهبوا ما بها من الاموال ثم ولوا مكانه

(أحمد باشا) (١٢١٨ - ١٢٢١ هـ) وكان المذكور فى سعة من المال ورفاهية من الحال وكان متزوجا بنت السيد قدور الذى يتصل نسبه بسيدى عبد الرحمن الثعالبى الولى الشهير بالجزائر وكانت تجارة السيد قدور هذا أوسع تجارة فى الجزائر وأكثرها رواجا فلما كلفوه بالولاية خاف العاقبة فرفضها مدعيا أنه عزم على السفر الى الحجاز لتأدية الفريضة فأغلظوا عليه فى الطلب ولما لم يمكنه التنحى قبلها مكرها وهذا الوالى هو رأس عائلة القائد عمر قائد بنى سليمن الشهير الذى اتخذ ثغر الاسكندرية وطنا له أتى اليها مع عائلته بعد الاحتلال الفرنساوى وكان الغرض الاصلى من تنصيب اليكجرية لاحمد باشا هو نهب تجارة صهره المتقدم الذكر وذلك انه بعد قبضه على زمام أحكام الجزائر استعمل الشدة الضرورية اذ ذاك وأخذ يبحث عن اليكجرية الذين قتلوا سلفه فاستأصلهم قتلا وتشريدا فتذمر باقى اليكجرية من ذلك وطلبوا منه صدور الامر بقتل اليهود القاطنين بمدينة الجزائر اذ كانا على تهم لا أصل لها بقصد مصادرة أموالهم فمنعهم من مرغوبهم بالفتاوى التى استصدرها من مفتى الجزائر فازداد غضبهم وفاض حنقهم لانهم صدوا بصورة قهرية

ولما وصلت سفن القرصان بالغنائم التى غنموها من سفن التجار الاجانب أراد أحمد باشا أن يوزع الغنائم التى استحضرتها على الارامل ويزوج بها أبناء وبنات الايتام من الفقراء فتذمر اليكجرية حتى لم يعودوا يقدرون على إخفاء ضجرهم فاضمروا له الشر من هذا الوقت وفى اليوم التالى لوصول القرصان دخل الباشا الحمام حسب المعتاد فى كل أسبوع فهجم عليه فئة منهم وقطعوه اربا اربا

وألقوا أعضاءه فى الطريق ثم هجموا على قصره ونهبوه ولم يقتصروا على ذلك فقط بل هجموا على جميع مخازن تجارة صهره السيد قدور ونهبوها أيضا ولم يبقوا له الا ما كان مستورا عنهم ومدة ولايته ثلاث سنوات وانتخبوا بدله

(على باشا) (١٢٢١ هـ) وكان فى أول أمره غسالا فقيرا ثم ترقت به الحال ولذلك يلقب بعلى باشا الغسال ولم يحكم غير ستة شهور حدث فى أثنائها مشاكل واضطرابات عديدة لضعفه وجهله ووصلت أضرار الكبر به بكثير من الافاضل والمعتبرين ثم عزلوه وانتخبوا بدله

(الحاج على باشا بيت المال) (١٢٢١ - ١٢٢٨ هـ) وفى مدة ولايته التى بلغت ست سنوات ونصفا أراد محاربة تونس فجهز عليها جيشا الا أنه لم ينجح وعاد الجيش بالخيبة وكان أشهر رجال القرصان فى ذلك الزمن ببلاد الجزائر رجل يدعى حميدون قبودان خرج مرة ببعض السفن وجاس خلال البحر المتوسط فكان يأخذ كل سفينة غصبا وبذلك استولى على غنائم وافرة ثم عاد بعد زمن غانما ظافرا ولما علم الوالى المذكور بقدومه استعد لزيارته فلبس ملابسه الرسمية وزاره زيارة أظهر له أثناءها كل تلطف وتودد فتعجب رجال الجزائر من ذلك وكان حميدون المذكور على جانب عظيم من الجراءة والاقدام حتى ان كثيرا من العائلات الاسبانيولية كانت تخوف أولادها بذكره ولما كان هذا الوالى يخشى بأس سكان وادى الزيتون لتمردهم وهم من قبيلة قولوغلو ومن أصل عثمانى وخطر فى فكره انهم ربما شقوا عصا الطاعة يوما ما وامتلكوا حكومة الجزائر دعا عمر أغا أغاى العرب وأمره بالتوجه مع رجاله لمحاربة القبيلة المذكورة فجمع عمر أغا كثيرا من جنود العرب وقصد الوادى المذكور لانفاذ ما أمر به الا أنه كان يحقد على الوالى سرا وبمجرد وصوله الى ذلك الوادى اتحد مع تلك القبيلة على قتل الوالى وقرروا لذلك مكيدة يقومون بعملها فاتحدوا مع خادم الوالى لتنفيذ غرضهم واتفقوا معه على أن يغلق باب الحمام عند دخول سيده غلقا محكما وهم يقومون بعملهم فلما دخل الباشا الحمام وأغلق خادمه بابه كما مر عمد المتآمرون الى أتون الحمام وأشعلوه لدرجة شديدة فاشتدت حرارته فاراد الباشا الخروج فلم يقدر فمات خنقا وبعد ذلك كلفوا عمر أغا المذكور بقبول الولاية فرفضها لمكره وأشار بتعيين محمد باشا الخزنه دار

(الخزنه دار الحاج محمد باشا) (١٢٢٨ هـ) وكان عمره لما تولى ٩٠ سنة فلذلك سلم مصالح الولاية لولده الاكبر مصطفى بك وكان نبيها ماهرا فندم عمر أغا على غلطته فى تعيين الخزنه دار لانه لم يكن يخطر ذلك بفكره ولكنه بعد سبعة عشر يوما دبر مكيدة أخرى وهو انه توجه بنفسه الى ثكنة العساكر وقال لهم تعلمون أيها الرفقاء اننا أجلسنا الخزنه دار الحاج محمد باشا على كرسى الولاية لما نعهده فيه من الصفات الحسنة ولكنه سلم مقاليدها لولده مصطفى بك الشاب المتصف بالتبذير فانه بعد أن يفنى أموال الخزينة يدعى حق الولاية خصوصا وانه نجل معتوق مثلنا فلا نقدر على رفضه بعد ذلك فيتملك جميع الاتراك تحت يده فلم يكد يتم كلامه حتى هاجت العساكر وماجت وهجموا على السراى وقتلوا محمد باشا الهرم المذكور وولده مصطفى بك البرقى ونهبوا أموالهما ثم نصبوا فى هذا المنصب المحفوف بالاخطار

(عمر باشا) (١٢٢٨ - ١٢٣٣ هـ) وهو عمر أغا المار الذكر أغاة العرب وامتدت ولايته أربع سنوات وفى خلالها أصدر أمرا الى حميدون قبودان الشهير بالخروج بالسفن لترقب سفن

البحار

التجار واحضار الغنائم كعادته فامتنع بحجة أن الامريكانيين يتجولون بسفنهم الحربية الجسيمة فى البحر فاذا خرج لاشك انهم يهاجمونه وربما وقع هو ومن معه فى أيديهم فأغلظ عليه عمر باشا وقال له أما كنت تخرج فى زمن على باشا وتأتى بالغنائم الكثيرة ولم تكن تحتج بهذه الاقوال وبعد أخذ ورد كثير خرج حميدون مغضبا وقد كان الامريكان ملزمين بحسب الشروط بتقديم قدر من المال فى السنة الماضية لداى الجزائر لتأمين سفنهم التجارية من تعرض القرصان الا انهم أبوا دفع ذلك القدر وقرروا فى (١٢٣١ هـ - ١٨١٥ م) ارسال اسطول الى مياه الشرق تحت قيادة الاميرال ديكاتور (Decatur) للمحافظة على تجارتهم فكان هذا الاسطول هو المتجول اذ ذاك فى البحر المتوسط الابيض ووصل خبره حميدون قبودان وأخبر عنه الداى عمر باشا كما قلناه ولما خرج حميدون قبودان بالسفن السابق ذكرها واتجه نحو تونس هاجمه الاميرال المذكور قبل أن يصل الى موقع قرطاجنة باسطوله وأسر منه فرقاطة واريقا بعد محاربة دموية قتل فيها حميدون قبودان وتمكنت باقى سفنه من الفرار أما الاميرال فانه سار بالاسطول الى جون مدينة الجزائر وخابر الداى وطلب منه تسليم الاسرى الامريكان والتنازل عن الاموال التى كان الامريكانيون يدفعونها لحكومة الجزائر وبعد أن تداول الداى مع كبراء قومه ورأوا انه لا يمكنهم مقاومة الامريكان أذعنوا لطلبهم وأمضوا الشروط المتضمنة ذلك لان جميع السفن الجزائرية كانت خرجت الى عرض البحر وليس بالثغور من السفن ما يكفى لحمايتها ولما كانت انكلترة وهولاندة يحقدان على الجزائريين أيضا اتحدتا سوية لما علمتا بذلك وضمتا قوتيهما معا بقصد نوال ترضية وجعلتا ملتقى سفنهما جبل طارق ثم أقبل اللورد اكسموث (Exmouth) (١٨١٦ م) يقود اسطولا عظيما مؤلفا من ٣٢ سفينة انكليزية وست فرقاطات هولاندية ورسا بها أمام مدينة الجزائر على مقربة منها وأحاطت سفن الاعداء بالمدينة من الشمال الى الجنوب الشرقى وأرسل الاميرال الى الداى كتابا يتضمن الشروط الآتية ويطلب منه التوقيع عليها وهى

أولا تسليم جميع الاسرى من النصارى بلا فدية ثانيا أن يرد جميع المبالغ التى دفعتها حديثا مملكتا سردينيا ونابولى لفدية أسراهما ثالثا ابطال الرقيق رابعا اجراء الصلح مع هولاندة بنفس الشروط التى ستكون للانكليز ولما اطلع الداى على هذه الشروط القاسية الغريبة لم يجاوب عليها وأصدر أمره للبطاريات الامامية فأطلقت نيرانها على سفن الاعداء وكان ذلك اشارة هجوم عام واستمرت الملحمة التى كانت مريعة الى ما بعد الغروب وقد تمكنت السفن المتحدة من تدمير بعض البطاريات الجزائرية واحراق بعض السفن التى كانت راسية فى داخل المينا وفى اثناء الليل قذفت الارياح بعض السفن المشتعلة الى خارج المينا وتقدمت هذه السفن نحو الاسطول الانكليزى الذى لما رأى سير هذه السفن نحوه أقلع سريعا لتجنب أخطار الحريق وفى اليوم الثانى كتب اللورد اكسموث الى الداى وعرض عليه عين الشروط التى كان عرضها عليه قبل القتال فالتزم الداى عند ذلك بقبولها ووقع فى نفس ذلك اليوم على المعاهدة وكان ذلك فخرا عظيما للامة الانكليزية أمام أوروبا أما الاساطيل المتحدة فقد لحق بها اضرار عظيمة وقتل من الاساطيل الانكليزية ٨٨٣ نفرا وفقد الهولانديون مائتى نفس وجرح منهم ثلثمائة الا ان عمر باشا وان كان أظهر فى هذا القتال عزما وشجاعة فان الوجاقات حنقت عليه لما ارتكبه من الخطأ المخجل بالتوقيع على شروط

الصلح فتعصبوا عليه ورموه بسوء التصرف لعدم قبوله نصائح حيدون قبودان الذى فقدته البلاد هو وغيره من الابطال وبضياع ما كان لحكومة الجزائر لذلك العهد من النفوذ البحرى فهجموا عليه فى قصره وقتلوه شر قتلة ونصبوا بعده

(قوجه على باشا) (١٢٣٣ - ١٢٣٤ هـ) ولما كان من أفاضل القوم وممتزوجا بابنة مفتى المالكية بمدينة الجزائر كان له تأثير كبير فى النفوس خصوصا وانه سعيد الطالع فكان ينجح فى كل مشروعاته الحسنة التى يقوم بها وكانت عموم الاهالى تمد له يد المساعدة كلما هم باجراء أمر وأول عمل أجراه نقل دار الحكومة وأموالها الى داخل القلعة لتكون فى مأمن من الغوائل والتعديات ورتب له حرسا من البدو والعبيد ولهذا صار يظهر ما عزم عليه من حصر الولاية فى أولاده وأعقابهم وملاشاة عسكر الينكجرية وبينما كان بهذا السبيل لذلك لم تمهله الايام بل عاجله المنون فى الوباء الذى ظهر ببلاد الجزائر بعد مضى ستة شهور من توليته فحزن عليه الكثير من الناس وكان يشتهر بالعلم ومحبة العلماء وكان سفاكا للدماء يميل للخلاعة ونصبوا بدله

(حسين باشا) (١٢٣٤ - ١٢٤٦ هـ) وكانت وظيفته قبل تنصيبه ناظر الاسطبلات الوالى ولما دعى للولاية طلبوا له حسب المعتاد من الاستانة السيف والقفطان علامة اقرار السلطنة العثمانية له على ولايته وفى الثلاث سنوات الاولى من حكمه هابه الناس واحترموه احتراما كبيرا فداخله من ذلك تكبر وعتو واستبد بالامور كلها حتى صار لا يقبل اشارة أى فرد من كبراء رجال حكومته فظهر الاختلال فى البلاد وكثر العيث ببعض جهاتها وسببه هذا التعاظم الفارغ ثم بعد قليل عادت تعديات قرصان الجزائر وزادت جراءتهم حتى انهم أسروا بعض سفن الطليانيين من البحر المتوسط الابيض وامتدت أعمالهم الى البحر الشمالى فكثرت التشكيات من ذلك وفى تلك الاثناء حصل فتور فى العلاقات وتكدير فى المناسبات بين الجزائر وفرانسا وسببه ان تاجرا يدعى يعقوب كوهين بقرى الليفورنى أحد تبعة دولة ايتاليا تأخر فى دفع رسوم ما يستخرجه من المرجان لحكومة الجزائر فى الميعاد المعين ولما تكررت مطالبته ادعى بان ليس لديه دراهم وان له عند بعض تجار الفرنساويين ديونا ومتى أدوها له سدد المطلوب منه وهو أحد الاثنين اللذين كانا وردا الحبوب الى جيش فرانسا عندما طلب ملكها من حسن باشا ذلك (١٢٠٨ هـ) كما تقدم فلما سمع منه الوالى هذه الاقوال كتب مكتوبا الى ملك فرانسا يطلب منه ان يأمر الفرنساويين المذكورين بتسديد ما عليهم للطليانى المذكور حتى تأخذ حكومة الجزائر حقها وطلب سرعة الجواب وأرسل الوالى مكتوبه المذكور الى الموسيو دوفال (Duval) قنصل جنرال فرانسا بمدينة الجزائر ليقوم بتوصيله (١٨٢٣م - ١٢٣٩ هـ) ثم بعد ان مضى على ذلك شهر ذهب القنصل لزيارة الوالى فى عيد الفطر مع كثير من الاوروباويين وبدخوله عليه سأله الوالى قائلا انى طلبت سرعة الجواب لتحصيل المطلوب من بقرى اليهودى وقد مضى شهر على ذلك ولم أحصل على المراد فجاوبه القنصل المذكور بغلظة وأنفة على مسمع من بعض حاشيته ان ما كان عنده جملة باشاوات مثل جنابك جميعهم ينتظرون جوابات بجوابك والمعتاد عندنا أن كل الجوابات تخرج بالدور فعندما يأتى دور جوابكم يصلكم

ولما كان القنصل لا يتكلم باللغة التركية وترجمت أقواله للوالى بالفاظ جافية شديدة وكانت

الحدة

الحدة ظاهرة على القنصل وقت كلامه اغتاظ الداى لذلك جدا وضرب القنصل بذبة (منشة) كانت فى يده وأخذ الباى يرغى و يزبد و يطعن فى حكومة فرانسا وملكها أما القنصل فانه بادر بالخروج وقد كان فى ذلك الوقت يوجد دائما بمياه الجزائر سفينة حربية من كل دولة من دول أوروبا مستعدة لانفاذ أوامر قنصلها و بخروج قنصل فرانسا من سراى الباى سار الى سفينته ثم أقلعت به بعد أيام وأشيع فى الجزائر اعلان الحرب على الفرنساويين ولما بلغ الاهالى هذا الخبر تكدروا وحسبوا له ألف حساب لتيقنهم من ضعفهم ولما سافر القنصل وأخذ الباشا و رجال حكومته يفكرون فيما عساه يحدث من ذلك أشار أحد أصحاب الرأى والفكر وهو والد على رضا باشا مؤلف تاريخ حوادث الجزائر على الباشا بزيادة الاهتمام بالتجهيزات الحربية واصلاح القلاع وتقوية الحصون وجمع الجنود واعداد الاساطيل بحيث تكون مستعدة للمقاومة عند اللزوم لانه شاهد حين ما كان بفرانسا للاتجار ماهى عليه جنود فرانسا وأساطيلها من الاستعداد وحسن النظام والكثرة ومع تأكيده لهم ذلك لم يهتموا بقوله كما يجب بل خدعتهم أفكارهم الفاسدة وآراؤهم العقيمة لجهلهم بما هى عليه ممالك أوروبا اذ ذاك من التقدم والعدو فى طريق الارتقاء

وقد روى صاحب صفوة الاعتبار هذه الحادثة كما يأتى ولما كانت مخالفة من بعض الوجوه لما رويناه أردنا نقلها هنا ليكون المطالع ملما بكل ما قيل فى هذه الحادثة الشهيرة التى تسبب عنها انسلاخ بلاد مهمة من الدولة العثمانية كبلاد الجزائر قال اعلم ان الدولة الفرنساوية لما ترقت فى المعارف والقوات سيما فى الاعصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية فى شغلها الشاغل من أعمال الينكجرية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاة الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والى الجزائر مستبدا ظلوما مرتشيا قليل التدبر وحصل منه اهانة لقونصل فرانسا وذلك على ما فى تاريخ ابن الضياف أن أحد التجار اليهود الاغنياء الجزائريين الملقب بيقرى أبو جناح له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس وتداعوا فى خسائر من الجهتين وانتصر حسين باشا لرعيته بالالحاح على قونصل فرانسا فى انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرانساويون الى التاجر الجزائرى مالا وافرا وأضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعا وراجعا لرعيته وتلك عادة ألفوها ولما قرب دفع المال واذا بتجار آخر فرنساويين قاموا على بقرى المذكور بدين أوقفوا عليه المال الذى يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطلب من القونصل رفع الايقاف وقال ان أرباب الدين الفرانسيس الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق فى المال الذى يدفعه الفرانساويون فامتنع من ذلك القونصل مستندا الى أن المال المعرقل مال المدين والغرماء لهم حق فيه الا اذا ضمنه من يرضون بذمته وكان المدين نفسه مغرى بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه فأعرض الباشا عن القونصل وكاتب دولة فرانسا فى غرضه فأرسلت المكتوب الى القونصل وأمرته بالجواب عنه ولما قدم القونصل الى الباشا لبعض مآرب خاطبه الباشا فى استبطاء جواب مكتوبه المشار اليه الى دولة فرانسا فقال له القونصل ان المكتوب أرسلته الدولة الى وأمرتنى بالجواب عنه فسأله عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه

احتقاره وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القونصل وطرده وبقى آسفا على مافاته من مال بقرى وتهددت فرانسا الوالى المذكور على اهانة نائبها وألحت عليه بأن يطلب منها الرضا ويعترف بالخطأ فأبى وأصر مع أمر الدولة العثمانية له بذلك والنصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالى وقد كانت فرانسا فى شغل من داخليتها فى ذلك الوقت لان ذلك كان اثر حروب نابليون الاول وكانت أيضا متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانية حتى رضيت فرانسا بأن يكلف الباشا أى انسان كان فى باريس بطلب الترضية لكى تندفع عنها المعرة ولا تلحقه هو مذلة بارسال أحد من موظفيه الى القونصل أو تولا إلى باريس وكان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب ما أمكن لاشتغالها بحروبها وأحزابها الداخلية فاصر الوالى على رأيه وأرسلت فرانسا أسطولها وحاربت بلد الجزائر واستولت عليها وحمل ذلك الوالى الى باريس ثم مات فى الاسكندرية وقد نسب المؤرخ المذكور منشأ أعمال الباشا المشار اليه إلى كونه لا غيرة له على الوطن من حيث كونه لم يكن من أبناء ترابه ولذلك خاطر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف وانحلال عرى عصبيته ونفرة الاهالى من جوره اه

الارتباكات التى منعت الدولة العثمانية من التداخل فى مسئلة الجزائر بالقوة

اعلم أن الدولة العثمانية وقت حدوث مسئلة الجزائر كانت مشتغلة بقمع عصيان اليونان (١٢٣٦ هـ - ١٨٢٠ م) الذين ساعدتهم دول أوروبا خصوصا فرانسا منهم على نوال استقلالهم وكانت الدولة أشرفت على التمكن مع ذلك من اخماد الثورة واعادة النظام للبلاد بما بذلته من المساعى الجمة ثم قامت دولة الروسيا منتصرة الى اليونانيين وأدخلت فى دائرة اتفاقها (١٨٢٦ م - ١٢٤١ هـ) كلا من انكلترة وفرانسا واتفق الجميع على تداخلهم حربيا فى مسئلة اليونان وأرسلوا أساطيلهم تهديدا للعثمانيين ثم أمضوا فى سنة ١٨٢٧ م وفاقا فى لوندرة لاجبار الدولة على الاعتراف باستقلال اليونان وقد تم الامر بان أحرقت أساطيل الدول المتحدة أسطولى الدولة العثمانية والحكومة المصرية وسفن الجزائر وتونس بمياه مدينة نافارين (١٢٤٣ هـ) كما سيأتى مفصلا فى تاريخ الدولة العثمانية ولما تم ذلك طلبت الدول الاوروباوية من الدولة العثمانية الاقرار على استقلال اليونان فعارضتهم الدولة بالطرق السياسية فانفردت دولة الروسيا بتنفيذ مطالب اليونان معضدة من الدولتين الاخرتين ثم انتهى الامر باعلان الروسيا الحرب على الدولة (١٨٢٨ م - ١٢٤٣ هـ) ولما كانت جيوش الدولة فى وقتها مشتتة بانحاء كثيرة للمحافظة على سلامة المملكة العثمانية وقد أصابها الضعف من طول زمن المحاربات لم تتمكن من توقيف سير الروس فاستولوا على كثير من القلاع والحصون بآسيا وأوروبا ثم لما دنوا من دار الخلافة العثمانية التزمت الدولة أن تطلب الصلح فاجيب طلبها (١٢٤٥ هـ - ١٨٢٩ م) وعقدت معاهدة أدرنة الشهيرة التى أبيح فيها للروسية حق السير من البحر الاسود الى الابيض المتوسط بالسفن الحربية واعترفت الدولة باستقلال اليونان

وفى

وفي خلال ذلك ظهرت مسئلة الجزائر المذكورة وبعد تمام الصلح بين الدولة والروسيا أخذت الدولة تهتم بمسئلة الجزائر بقدر ما تسمح لها به الظروف فتخابرت مع فرانسا ومع محمد علي باشا والي الديار المصرية وحسين باشا والي الجزائر وقد اتفق انه لما حاصر اسطول فرانسا سواحل الجزائر كان اسطول الولاية المذكورة المركب من عشر فرقاطات وسفينتين من نوع القرويت خارج المينا فلم يتمكن من العودة الى مينا الجزائر والتجأ منه فرقاطة وقرويت الى ثغر الاسكندرية فضمهما المرحوم محمد علي باشا والي الديار المصرية الى أساطيله وفي تلك الاثناء طلبت فرانسا من محمد علي باشا وساطته في مسئلة الجزائر فتعهد لها باخضاعها بشرط أن تمده بعشرين سفينة حربية تتركها له بعد تسوية المشكلة ويقوم بدفع الجزية المعينة على الجزائر للسلطنة الا أن هذا الاتفاق لم يتم لاسباب سياسية منها أن مركز محمد علي باشا في ذلك الوقت كان يقضي عليه بان يحافظ على نفوذه الذي لم تستقر قواعده بعد في القطر المصري وان اتفاقه مع فرانسا ضد اسلام الجزائر يكون سيئا للاقوال التي كان يجب عليه تجنبها الا أنه قبل التوسط السلمي فقط وأرسل سفينة حربية الى الجزائر عليها مأمور يحمل كتاب نصيحة لواليها حسين باشا وطلب منه الجواب فيما يراه ولما رست السفينة بلغ ذلك المأمور رسالته وكان جواب حسين باشا عليها الرفض ولما أقبل المساء دقت الطبلة للجنود (الترمبيطة) اذ كانت هي المستعملة في الجيش المصري اذ ذاك ولما سمعها حسين باشا ارتاب في أمرها وقال إن هذه الطبلة من مستعملات الفرنج وأمر بمنع دقها ثم أرسل لربان السفينة بمبارحة الجزائر حالا والالحاق به العذاب فالتزم القبودان المصري بالعودة الى الاسكندرية وعرض الكيفية على المرحوم محمد علي باشا ولما علم ملك فرانسا شارل العاشر بخيبة وساطة محمد علي باشا أرسل من طرفه الى الجزائر غليونا كبيرا ولما وصل الى الجزائر رفع العلم الابيض اشارة الى طلب المكالمة مع حكومتها ورسا في محل قريب من المينا وخرج منه بعض ضباط مع الموسيو بريتونير M. de la Bretonnière ومعهم الموسيو بيانكي صاحب القاموس المعروف ترجمانا الى البر وأخبروا بانهم حضروا للمكالمة مع الباشا الوالي فاذن لهم بذلك ولما صاروا بحضرته قالوا له ياسيدنا ربما ان قنصلنا وقع منه بعض أمور مخلة بالاداب ولكن لا يليق بجنابكم أن تضربوه بمثل المنشة ومع كل ذلك فانا حضرنا نطلب منكم الصلح وقد أحضرنا معنا في هذه السفينة كثيرا من الاموال برسم تقديمها لجنابكم ورجاؤنا منكم أن ترسلوا معنا شخصا الى فرانسا لتظهر للاهالي هناك كأنكم أنتم الذين طلبتم الصلح لتسكن هياجهم وبعد ذلك نتفق على ما ترغبون لان ملكنا يميل دائما للصلح ونظن أن هذا الرأي يفيدكم جدا فلما سمع الباشا منهم هذه الاقوال ظن أن طلب دولة فرانسا لهذا الصلح هو للخوف من الجزائر ليس الا فاظهر العنف والشدة قائلا بحماقة زائدة لا نقبل الا الحرب فلطف الترجمان المذكور كلام الباشا لما ترجمه للضباط وتأسف من معاملة الباشا وأخذ يتلطف بالباي قائلا ياسيدي انك ستتأسف كثيرا على هذه التصميمات المضرة فاصر الباشا على أقواله وكررها فعاد الموسيو بريتونير مع الضباط الى سفينتهم كما أتوا ولم يكتف الباشا بذلك بل أمر السفينة الفرنساوية بالاقلاع حالا وأمر حراس القلعة باطلاق القنابل عليها اذا قربت من القلعة فلما أقلعت هبت عليها الريح حتى اضطرتها للدنو من القلعة فقال جملة من مشاهير قبودانات بحرية الجزائر للباي يامولانا ان قربها من القلعة هو بحكم الريح فلم يلتفت لاقوالهم وأمر بالرمي عليها فقالوا له ياسيدنا ان السفينة لازالت

ناشرة العلم الابيض الدال على المكالمة وان نظامات البحرية عموما لاتجوز ذلك فاظهر الباشا الغضب وقال ان كل من يتأخر عن الرمي عليها يقطع رأسه فالتزمت العساكر باطلاق القنابل على السفينة التي لم تتخلص من جانب القلعة الابشق الانفس فلما وصلت الى تولون وأخبرت بما حصل صمم ملك فرانسا على ارسال حملة جسيمة لاخضاع الجزائر وصدرت الاوامر الى دور الصناعة بتجهيز المراكب والجيوش بالاستعداد ولما انتشر خبر ذلك أخذ قنصل الفلمنك بحكومة الجزائر ينصح الحكومة باتخاذ التدابير اللازمة للدفاع لانه كما روى كان يحب الجزائريين وقال ليحيى أغا اغاة العرب وكان وقتئذ قابضا على القوة البحرية في الجزائر ربما ان فرنسا تهاجم الجزائر من طريق سيدي فروج فيلزم الاهتمام باقامة الاستحكامات في النقطة المذكورة فقبل يحيى أغا هذه النصيحة لما رآها صوابا وابتدأ بتشييد قلعة على النقطة المذكورة لتمنع نزول عساكر العدو منها فلما بلغ الباشا الوالي خبر تشييد هذه القلعة غضب على يحيى أغا وعزله من وظيفته ونصب عليها بدله صهره ابراهيم أغا وكان من أجهل رجال عصره خصوصا بالامور الحربية ثم أصدر أمر ابنفي يحيى أغا المذكور وأرسل خلفه من قتله في الطريق فتأسف عليه عموم الجنود والعربان لكونه كان من أمهر رجال الحرب في الجزائر له معرفة بالخدع العسكرية فضلا عن كونه كان محبوبا عند الناس كافة

الفصل السادس

استيلاء الفرنساويين على الجزائر

لما صممت فرانسا على اخضاع الجزائر جهزت عليها قوة مؤلفة من ثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف خيال تحت قيادة الجنرال بورمون Bourmont الذي اشتهر بخيانته لنابليون بونابارت في واقعة وترلو واسطول جسيم مركب من خمس وخمسين سفينة نقل و ٣٤٠ مركبا وستين بارجة حربية تحت قيادة القبس أميرال دوبيري Duperré والكونترأميرال روزاميل Rosamel ثم خرجت العمارة المذكورة من ثغر تولون (٢٥ مايو ١٨٣٠ م الحجة ١٢٤٥ هـ) وقت الظهر عند هبوب نسيم لطيف ثم لما أقلعت سارت في هيئة عجيبة وتنظيم غريب وكانت المرتفعات المحيطة بمرسى تولون بها من الخلائق عدد لا يحصى أتوا من كل الجهات للتفرج على هذا الاستعداد العظيم وكان بين رجال هذه التجريدة كثير من العلماء والادباء والكتاب والمصورين وغيرهم ولم يأت المساء حتى كانت جميع السفن على ظهر البحر مصطفة على خط عمودي تحفظ كل سفينة المسافة المعينة لها حسب أوامر الاميرال وفي أثناء السير هبت ريح شديدة فرقت الاساطيل عن بعضها ثم اجتمعت أخيرا بجزيرة ميورقه حيث اضطرتها الارياح المخالفة الى البقاء لغاية ١٠ من شهر يوليو ولما تحسنت الرياح تركت مياه ميورقه واتجهت في البحر على ترتيبها المعتاد وفي الثالث عشر من الشهر المذكور شاهد الملاحون الارض عند الصباح فابتهج الجنود وظهرت عليهم علائم السرور ولما صارت العمارة على بعد قليل من الشاطئ جمع الاميرال السفن المخصصة للحصار وعبى سفن القتال ومر بها على مرأى من قلاع مدينة الجزائر وأشار لجميع العمارة بالدنو من رأس سيدي فروج ولم يمض ذلك اليوم حتى رست كل السفن في جون شبه جزيرة سيدي فروج وباتت العساكر تأخذ أهبتها

للنزول

للنزول الى البر عند الصباح وكانت تلك الليلة مقمرة لطيفة الهواء وفي اليوم التالي الموافق ١٤ من الشهر المذكور ابتدأ نزول الجنود من السفن في الساعة الثالثة من الصباح وقد كان القواد يظنون أن رأس سيدي فروج أو على الاقل طرف ذلك الرأس به من الحصون ما يصدهم ولهذا كانوا يتفكرون في أنه لو وجد به بعض مدافع من ذوات العيار الكبير لصيرت النزول متعذرا محفوفا بالاخطار فاستولى القلق على الضباط وصاروا يعملون الفكرة فيما يجب لذلك من الحيل وقد ارتكب أهل الجزائر أعظم الغلطات لعدم تحصينهم تلك النقطة لان خلوها من الاستحكامات كان من أعظم الاسباب في نجاح تلك التجريدة نجاحا عظيما وكان قصد أهل الجزائر من عدم تحصين هذه النقطة هو ترك ميدان خال للفرنساويين ليسهل الفتك بهم والاستيلاء على ما معهم من الذخائر عقب خروجهم من السفن كزعمهم كأنهم واثقون من الانتصار وقد اقتصروا على وضع أربع بطاريات على المرتفعات الموازية للشاطئ تتركب الواحدة منها من مدفعين أو ثلاثة ومن بعض الهوانات وبذلك تمكن الفرنساويون من النزول الى البر بكل ترتيب وانتظمت جيوشهم للقتال واستعدت مدافعهم واستولت فرقة من بحاراتهم على برج سيدي فروج ثم تقدم الجيش الى الامام وشرع الجزائريون يرمون عليه ببنادقهم ثم بعد قليل وقع الرعب في قلوب بعض العربان الذين كانوا يطلقون المدافع من بعض المرتفعات ففروا ووقع الهرج بينهم وبذلك تركوا مواقعهم التي كان يتأتى لهم منها الفتك ببقية الجنود التي لا زالت تخرج من السفن بلا ممانع

وفي أثناء هذه الحركات تمكنت جميع البيادة والطوبجية من الخروج الى البر وأنزلت بعدهم الذخائر والاقوات والخيول وكان خروجها بسرعة عجيبة وترتيب تام لان من أسباب نجاح هذه التجريدة اخراج هذه الاشياء الى البر بسرعة سالمة لانه ربما اضطرت العمارة لرفع مراسيها على حين فجأة لوجودها في خليج معرض لهبوب جميع الارياح وكان من الضروري ان يكون في يد الجيش أقواته والذخائر الضرورية للدفاع ومما يثبت هذا القول تكبد اسبانيا الخسائر العظيمة التي خسرتها سابقا في هذه الجهات للاسباب المذكورة وبينما كانت الجنود الفرنساوية تخرج الى البر كانت طائفة أركان حرب الجيش الفرنساوي تشتغل في انشاء خط استحكام ليحمي شبه جزيرة سيدي فروج من جهة البر لان الفرنساويين أرادوا جعلها مستودعا عاما لمهمات الجيش أثناء حصار مدينة الجزائر وقد تم لهم ذلك في مدة قريبة ووضعوا بها ٢٦ مدفعا من مدافع العمارة وسكن القائد العام مع جميع أركان حربه في المباني التابعة لزاوية سيدي فروج وفي الخامس عشر من الشهر المذكور أخذت جميع خطوط الاستحكامات الامامية في اطلاق نيرانها لظهور الجزائريين أمامهم وفي هذه المناوشات تمكن الفرنساويون من معرفة حالة الذين يحاربونهم فوضح لهم مقدار الصعوبات والاخطار التي تتهددهم في هذه الحرب وشاهدوا فرقا من العربان كثيرة على بعد عظيم لا يمكن لبنادق الفرنسيس إصابتها أما بنادق العربان الطويلة فكانت مقذوفاتها تصل الى العساكر الفرنساوية وكانوا مهرة جدا في استعمالها والاصابة بها ولما كان بعضهم مختفيا خلف الاشجار والبعض يركب خيلا سريعة العدو ولا يثبتون في مراكزهم كانوا بذلك يفرون من كل هجوم منتظم ويقبضون على كثير من الجنود الفرنساوية ولهذا اضطر الجيش الفرنساوي فيما بعد الى ترتيب فرقة مخصوصة وتسليحها بالقربينات ذات المرمى البعيد للتغلب

على هذا الفوقان الذى كان للعرب عليهم وفى الصباح يوم ١٦ منه قامت زوبعة شديدة على حين بغتة فكانت الارياح تهب من البحر بقوة عظيمة فوقع الاختلاط والهرج بين السفن التى قطع بعضها مراسيها الا ان هذه الزوبعة لم تمكث طويلا ولو بقيت بضع ساعات لكان قضى على العمارة الفرنساوية وربما كانت خابت هذه التجريدة أيضا فى مساعيها كما خابت فيما قبل تجريدة شارلكان بنفس هذه الحوادث ولما هدأت الريح بعد ذلك أخذت السفن مراكزها ولم يفقد منها الا بعض سفن النقل وغيرها من السفن الخفيفة ولهذا أمر الاميرال باخراج جميع ما بالسفن سريعا مخافة حدوث حادث آخر يعوقهم عن اخراج ما بها وبعد أيام قلائل تحولت شبه جزيرة سيدى فروج الى مدينة فرنساوية وكانت حركات الجيش الفرنساوى قاصرة لهذا الوقت على الاستكشافات وحفظ المراكز حتى ظن الجزائريون الضعف فيه وكان الجزائريون نازلين فى معسكرهم الواقع على بعد أربعة كيلومترات من النقط الامامية الفرنساوية تحت قيادة ابراهيم أغا القائد العام للجيش الجزائرى وكان جيشهم يتألف من نحو ٤٠,٠٠٠ بين عربان وينكجرية وغيرهما من رجال القبائل وكان الداى أمر أن لا يعطى للعرب الا القليل من البارود والرصاص خوفا من تمردهم وفى التاسع عشر من الشهر عند انبلاج الصباح هجمت الفرقة الاولى من جيش الاتراك على الجيش الفرنساوى وأغارت جيوش قسطنطينة ووهران على الجناح الايمن منه للاحاطة به وأعملوا سيوفهم وبنادقهم وفر الفرنساويون أمامهم وبعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة أتت لهم نجدات كبيرة فتمكنوا من رد جيش الاتراك فى جميع النقط التى هجم منها وأخذت مدافعهم السريعة الاطلاق فى القاء القنابل على جيش الجزائر حتى اضطرته للتقهقر وأخذوا فى تعقبه حتى أخرجوه من خطوطه المستحكمة واستولوا على ما بها من المدافع والخيام والذخائر وغيرها وقد كانت هذه المقاتلة عظيمة أظهر فيها الطرفان جراءة وإقداما غريبين وكانت خسائر الجزائريين أضعاف خسائر الفرنساويين وبعد هذا الانتصار قوى أمل الفرنساويين فى الاستيلاء على الجزائر وتشجعت جنودهم وبقى الفرنساويون فى مراكزهم لا يخطون الى الامام الى يوم ٢٤ يونيه لانهم كانوا ينتظرون وضع المدافع الجسيمة وغيرها من آلات الحصار فوق المرتفعات التى منها يحاصرون المدينة ولما رأى ابراهيم أغا عدم تحرك الفرنسيس ظن ان ذلك لضعفهم فهاجمهم فى يوم ٢٤ من الشهر المذكور عند الصباح بقوة أعظم من المرة الاولى ومع ذلك ارتد خائبا ثم أخذ العرب يطلقون مدافعهم من المراكز المرتفعة التى احتلوها فكانت تسبب للفرنسيس أضرارا جمة وزيادة على ذلك فان طوائف مسلحة كثيرة كانت تهاجمهم من وقت الى وقت فتقتل منهم وتنهب وكانت المرتفعات التى لهم أعلى من المرتفعات التى احتلها الفرنسيس ولهذا كانت نيران العرب تؤثر فى الجيش الفرنساوى تأثيرا خطرا حتى كان يتعين على الفرنساويين احتلال تلك النقط وفى يوم ٢٩ عند الصباح استعد الجيش لمهاجمة الجزائريين ثم سارت صفوفه لمهاجمتهم فهاجموهم وبعد مقاومة قليلة أخرجوهم من مواقعهم واستولوا عليها وبذلك احتلوا النقط المرتفعة التى منها يشاهدون مدينة الجزائر وقلاعها وضواحيها الا أن الفرنسيس رأوا من الضرورى لهم قبل حصار مدينة الجزائر الاستيلاء على قلعة حصينة هناك يقال لها قلعة الامبراطور المعروفة بقلعة مولاى حسن وهى القلعة التى استولى عليها الجزائريون بالخدع الحربية من يد الاسبانيول عندما هاجموا الجزائر

وعادوا بالخيبة وهى واقعة على بعد ٨٠٠ متر من المدينة فوق مكان مرتفع يحكم على ماحواليه من الجهات ولما أراد الفرنساويون أن ينشؤا لهم بالمرتفع الذى احتلوه استحكاما أطلق عليهم الجزائريون من تلك القلعة نيرانا قوية متواصلة فلم يتمكنوا من بنائه الا بعد زمن ومشقة وفى تلك الاثناء كانت الجنود تخرج من القلعة المذكورة وتهاجم الجنود الفرنساوية بحمية

وبينما كان الجيش البرى يجرى هذه الاعمال والمناوشات كانت العمارة البحرية تحت قيادة القبس أميرال دوبيرى تجتهد فى تخريب البطاريات الموجودة على الميناء والحصون البحرية لتتفرق قوة الجزائريين فى الدفاع عن بلادهم وفى اليوم الرابع من شهر يوليو أخذت جميع البطاريات الفرنساوية تطلق نيرانها من البر والبحر بشدة على المدينة فتخرب من ذلك بطاريات واستحكامات وحصون الجزائريين فكانت القنابل المفرقعة تسقط وسط الاستحكامات فتقتل من الجنود عددا عظيما ومع ذلك كانت نيران الجزائريين قوية متواصلة حتى ان البطاريات الفرنساوية لم تتمكن من التغلب عليها الا بعد زمن طويل

ولما علم الداى بهذه الاخبار المحزنة وان غالب الطوبجية قتلوا أو هربوا أمر من بقى فى القلعة بوضع النيران فى مستودعات البارود وبعد خروج الجنود منها موملا بذلك قتل الفرنسيس تحت انقاضها وبينما كان الفرنساويون يطلقون نيرانهم اذ سمعوا فرقعة واحدة صوتها ثلاثا ارتجت له الآفاق وأظلمت منه السماء ورأوا فى الجو مدافع وقنابل وأحجارا وأخشابا طائرة كانت تتساقط عليهم من كل جهة ودخانا كثيفا غطى منظر المدينة والبحر ثم ان الفرنسيس ذهبوا الى تلك القلعة للاستيلاء عليها فوجدوها خالية خاوية وكان الجزائريون أخلوها قبل ذلك وأخلوا أيضا الاستحكامات الصغيرة القريبة منها وبذلك تمكن الفرنسيس من وضع بطارياتهم قريبا من أسوار المدينة وقد كان الداى حسين باشا يظن أن هذه القلعة تصد الفرنسيس وتقاومهم الى مجىء فصل الامطار فيكون قهرهم من أبسط الامور

ثم ان الاهالى ازداد غضبهم وحنقهم على الداى الذى حلت به المصائب من كل جهة لجهله وجبروته واضطروه للمكالمة فى أمر الصلح فارسل أحد وزرائه المسمى سيدى مصطفى الى القائد العام الفرنساوى وزوده بالتعليمات الآتية وهى أن الداى يتنازل عن جميع حقوقه التى له على فرانسا ويدفع مصاريف الحرب ويطلب السماح من ملك فرانسا ويرد للتجار الفرنساويين جميع الامتيازات التى كانت لهم ويزيدهم أخرى كل ذلك بشرط أن يترك الفرنسيس البلاد فقال القائد الموسيو دوبورمون انه لا يمكنه فتح باب المخابرة أصلا قبل أن يحتل المدينة التى لابد وأن تسلم اليه ثم ان الداى لما وصله جواب القائد الفرنساوى أرسل له مندوبين آخرين أحدهما يدعى سيدى محمد بودار به والثانى سيدى محمود وكانا يحسنان اللغة الفرنساوية جدا لاشتغالهما بالتجارة بمرسيليا فقابلا القائد وتكلما معه وأظهر له الصعوبة شروطه خصوصا الشرط الذى فيه ان المدينة تسلم له بلا شرط يفعل فيها كيف شاء وقالا له ان الاهالى يفضلون الموت على التسليم بهذه الكيفية ومازالا حتى تنازل القائد المذكور قليلا عن مطالبه الشديدة وبعد تبادل المخابرات بين الطرفين قرر القائد شروط التسليم (١) بمعاهدة وقع عليها الطرفان فى صباح ذلك اليوم وهو الخامس من يوليه وفى الساعة

(١) أولا ان يسلم للجيوش الفرنساوية فى الساعة العاشرة حصن القصبة وجميع الحصون الاخرى التابعة لمدينة

المعينة دخل الجنود الفرنساوية المدينة بلا ممانع ولما رأى قائد العمارة العلم الفرنساوي يتموج على قلاع المدينة أتى بسفنه ودخل المرسى وبعد أن استقر قدم الفرنساوية فى المدينة سلم الداى حسين باشا بنفسه للقائد العام مفاتيح خزائن الامتعة وكان بها من الذهب والفضة والحلى على ما يروى ما تزيد قيمته عن ٤٨٫٦٨٤٫٥٢٧ فرنكا ولو أضفنا الى ذلك قيمة الاصواف والحبوب التى وجدت بمخازن الولاية وأثمان السبعمائة مدفع من البرونز التى كانت بقلاعها بلغت قيمة ذلك ٥٥٫٦٨٤٫٥٢٧ من الفرنكات وهذا المبلغ يزيد عن مبلغ المصاريف التى صرفت على تلك التجريدة التى بلغت قيمتها حسب التقدير الرسمى ٤٨٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك هذا خلاف ثمانمائة مدفع أخرى من الحديد ومقدار عظيم من المقذوفات والبارود والذخائر الحربية وقيمة الاملاك العمومية التى كانت تشتمل فى العاصمة على نصف المنازل التى تبلغ قيمتها وحدها أكثر من ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات وقد أرسل الفرنساويون الى بلادهم مقدارا عظيما من الاموال التى وجدوها منها ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الريالات نقدا واستولى الفرنساويون أيضا على ١٧ سفينة حربية بجميع أسلحتها ومهماتها

ولما كانت اقامة الداى واليكجرية بمدينة الجزائر مضرة بصالح الفاتحين وكانت حياة الداى حسين باشا غير مأمونة وسط قومه الغاضبين عليه الذين كان بعضهم بل معظمهم ينسب اليه ما أصابهم لجبروته وتكبره وبعضهم لضعفه حتى ان الفرنساويين رأوا من الضرورة أن يرتبوا له فرقة تقوم بحراسته اضطر وحينئذ لبارحة المدينة وجعلوا له حق اختيار المكان الذى يريد الذهاب اليه وبعد أن توقف قليلا رضى بالسفر الى مدينة نابولى فرضى القائد العام بذلك أيضا وخصص له فرقاطة من العمارة الفرنساوية تدعى جاندارك سافرت به وباتباعه وحرمه وأمواله الوافرة الى تلك المدينة وبصحبته ابراهيم أغا صهره ورئيس جيوشه وبعد أن أقام بتلك المدينة زمنا انتقل منها الى مدينة ليفورنو ثم قصد الاسكندرية فقبله فيها محمد على باشا والى الديار المصرية وخصص له معاشا واستمر مقيما بتلك المدينة الى أن مات (١٨٢٨ م - ١٢٥٤ هـ) أما الجنود اليكجرية العزب الذين كانوا يحتلون ثكنات الجزائر وعددهم ١٥٠٠ فحملهم الفرنساويون الى ازميرهم وغيرهم من الجنود المتزوجين ومنحوا كل واحد منهم قدرا من المال قبل سفرهم وبعد ذلك ألف القائد العام لجنة للنظر فيما تقتضيه الترتيبات الحديثة التى أراد الفرنساويون ادخالها فى تلك البلاد ليستقر لهم بها المقام

وباستيلاء الفرنسيس على هذه البلاد تخلصت أوروبا من الضرائب المخزية التى كانت

الجزائر وكذا أبواب تلك المدينة ثانيا يتعهد قائد الجيش الفرنساوى اسمو داى الجزائر بأن يترك له أمواله الخصوصية وأملاكه يتصرف فيها كيف شاء ثالثا تعطى للداى الحرية التامة فى الذهاب مع عائلته وأمواله الى المكان الذى يختاره ومادام مقيما بالجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنساوى ويخصص له حرس يقوم بحراسته وحراسة عائلته رابعا يتعهد القائد الفرنساوى باعطاء جميع العساكر نفس الرعاية والحماية التى تكون للداى خامسا تبقى حرية القيام بشعائر الدين الاسلامى ولا يلحق بحرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم أدنى ضرر وتحترم نساؤهم ويتعهد القائد العام بشرفه باجراء ذلك سادسا يكون التوقيع على هذه الاتفاقية قبل الساعة العاشرة صباحا وتدخل الجيوش الفرنساوية عقب ذلك الى

تدفعها سنويا بالحكومة الجزائر فى مقابلة عدم التعرض لسفنها التجارية (١) ولما استولى الفرنسيس على الحاضرة وضواحيها أصرت بقية الجهات على الامتناع من الطاعة لفرنسا لانها انما أرادت الانتقام من الوالى حسين باشا وقد حصل فانفرد بالحكم فى الجهات الشرقية من القطر الحاج أحمد باى باى قسطنطينة والجهات الجنوبية والغربية تفرقت تحت رؤساء القبائل ورام الفرنساويون محاولة الاستيلاء عليهم بالرفق بأن يتولى الامر فى وهران والى تونس حسين باى بارسال أحد عائلته أو أحد موظفيه ليقوم مقامه وعلى ذلك أرسل الوالى المذكور عاملا من جهته معه شرذمة من الحرس فلم ينفذ أمره فى مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجتمعت الجهات الغربية والجنوبية بعد ذلك على مبايعة الامير الجليل صاحب الذكر الشهير السيد عبد القادر بن محي الدين الحسينى فقام بالمدافعة عن البلاد كما يجب ولازمه النصر مدة طويلة الى أن كان من أمره ما مر بك بعضه فى تاريخ مراكش

وفى خلال ذلك أخذت فرانسا فى مخابرة الدولة العثمانية قاصدة كما تدعى تسليم مدينة الجزائر اليها بموجب شروط يتفق عليها وبينما كانت المخابرات جارية والمحررات تتردد بين الطرفين لتسوية هذه المسئلة قامت فى فرانسا الثورة التى خلع فيها شارل العاشر وتولى بعده لويز فيليب (٢٢ يوليو ١٨٣٠ م) فعزم هذا الملك الجديد على ابقاء الجزائر فى قبضة فرانسا وأرسل الجنرال كلوسيل (Clausel) قائدا عاما للجيوش التى بها عوضا عن المارشال بورمون ولما وصل هذا الجنرال الى مدينة الجزائر أبعد جميع الجنود العثمانية ومأمورى الاتراك الذين كانوا لذلك الوقت مباشرين الاحكام من مراكزهم وأعلن بدخول البلاد فى حكم الفرنسيس نهائيا فقامت عند ذلك جميع قبائل العرب والبربر على الفرنساويين واشتعلت نيران الخلاف وهاجر كثير من الامراء ومأمورى البلاد منها وقصدوا الشرق فاختار بعضهم الاقامة فى جزيرة كريد والبعض فى إزمير والبعض فى ثغر الاسكندرية والبعض بنفس مدينة الجزائر بشرط ملازمة السكينة واتباع أوامر وقوانين الفرنساويين بها ولما بلغ الدولة العثمانية ذلك أقامت الحجة على فرانسا

القصبة ويستولون على قلاع المدينة وقلاع البحرية اه الامضاآت حسين باشا الكونت دو بورمونت اه من صحيفة ١٨٣ من تاريخ الجزائر تأليف روى (J. J E. Roy)

(١) كانت مملكة السيسليتين تدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٤٠٠٠ غرش اسبانيولى وتقدم هدايا بقيمة ٢٠،٠٠٠ غرش ولم تكن سردينيا تدفع جزية سنوية الا انها عندما تغير قنصلها كانت تدفع قدرا عظيما وذلك بمساعدة انكلترة واما الممالك الكنيسية التى تحميها فرانسا فلم تكن تدفع لا جزية ولا هدايا قنصلية وحكومة البرتقال كانت تدفع القدر الذى تدفعه حكومة السيسليتين واسبانيا كانت تقدم هدايا فاخرة عند تغيير قنصلها أما أوستريا فانها كانت معافاة من الجزية والهدايا بوساطة الدولة العثمانية وكانت انكلترة تدفع ٦٠٠ ليرة انكليزية كلما غيرت قنصلها رغما عن الاتفاق المعقود بين الجزائر وبينها سنة ١٨١٦ م حينما هاجم اللورد اكسموث تلك البلاد وكانت هولاندة تدفع هدية مثل انكلترة وكذا الممالك المتحدة الامريكانية ومملكة هانوفر وبريم وكانت بلاد السويد والدانيمارك تقدمان سنويا مواد حربية وذخائر تبلغ قيمتها ٤٠٠ غرش أسبانيولى وهذه الممالك الاخيرة كانت تدفع زيادة من ذلك كل عشر سنوات ١٠،٠٠٠ غرش أسبانيولى ويقدم كل منها هدية عند تجديد قناصلها وكانت فرانسا تقدم للداى هدية عند تعيين قنصلها الجديد والقرش الاسبانيولى المذكور يزيد قليلا عن الريال المصرى اه من تاريخ الجزائر تأليف روى صحيفة ١٨٥

لاستيلائهم على بلاد تابعة لها فلم تنل شيأ ومن وقتئذ ضاعت ولاية الجزائر من يد الدولة العلية باستبداد حاكمها وعدم تبصره فى الامور فلا حول ولا قوة الا بالله ومع كل ذلك فقد امتد عصيان العرب زمناطويلا قام فى خلاله المرحوم الامير عبد القادر المشار اليه بحروبه المشهورة مدافعا عن البلاد وأصر العرب على عدم الرضوخ لحكم الاجنبى كما هى صفتهم فالتزمت فرانسا بسوق جيوش عديدة وضاعفت همتها الاخضاع أولئك العرب وقد استمرت تلك الحروب الى سنة ١٨٤٨ م - ١٢٦٤ هـ

الامير عبد القادر الحسينى - (١٢٤٦ - ١٢٦٤ هـ) لما استولى الفرنساويون على ثغر الجزائر وما حوله وقعت الفوضى وهاجت الفتن بين قبائل العرب واستقلت الجهات تحت رؤسائها فانفرد بالحكم فى الجهات الشرقية الحاج أحمد باى قسطنطينة والجهات الجنوبية والغربية استقل بالحكم فيها رؤساء قبائلها وبايع أهل تلمسان وما حولها المولى عبد الرحمن ملك المغرب الاقصى فقبل بيعتهم كما مر فى تاريخ مراكش وكان الفقيه المرابط محيى الدين عبد القادر الحسينى نازلا وسط حلة الحشم عند المشاشيل وكان متظاهرا بالخير والصلاح وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلب العلم وقراءة القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بنى عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم وأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيى الدين المذكور فذهبوا اليه وعرضوا عليه ما فى أنفسهم فتجافى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ فتطارحوا عليه فاشار عليهم بولده الحاج عبد القادر وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وانما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحبا عليه ومشيرا بما تدعو الضرورة اليه ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بنى عامر والحشم وزحف الى وهران وكان الفرنسيس قد استولوا عليها منذ سبعة أشهر فاوقع بهم وقعة شنعاء قتل فيها وأسر وأبلغ فى النكاية ورجع مظفرا منصورا فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه ومع ذلك لم يتمكن من فتح المدينة الا أنه اضطر الجنرال ديميشيل (Desmechels) لان يعقد معه معاهدة يعترف له فيها بالاستقلال والامارة وسلم له حق احتكار التجارة بجميع اقليم وهران وبعد ذلك فى سنة ١٨٣٥ م - ١٢٥١ هـ انتصر على الجنرال تريزيل (Trézel) نصرة عظيمة بالقرب من بلدة مكتنة كانت سببا فى ازدياد نفوذه ولما جرد عليه الفرنساويون جيشا تحت قيادة المارشال كلوزل (Clausel) لم يستفيدوا من ذلك شيأ يذكر غير احتلالهم مدينة مسكرة احتلالا موقتا ولما سمع أهل تلمسان بانتصارات الامير عبد القادر وهم أحوج ما كانوا الى من يقوم بامرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وانهم يبايعونه على بيعته فاجابهم الحاج عبد القادر الى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للمولى عبد الرحمن وخطب به على منابر عملكته وكتب اليه يعلمه بانه من بعض خدمه وقائد من قواد جنده فاستقام أمر الحاج عبد القادر وثبت قدمه فى جهات تلمسان ثم انحرف عليه بعض القبائل لانهم كانوا معادين لقبيلة الحشم وازدادت عداوتهم ونفرتهم منه لما قرب اليه الحشم فساروا الى وهران ودخلوا فى حماية الفرنساويين وحصلت بينهم حروب صعبة وكان

رئيس تلك القبائل رجلا يقال له مصطفى بن اسمعيل كان هو السبب الاكبر فى استيلاء الفرنساويين على بلاد المغرب الاوسط وكانت جل الحروب التى حدثت بين الجزائريين والفرنساويين فى تلك المدة على يده الى أن قتل (١٨٤٣ م - ١٢٥٩ هـ)

ولما اتصل الخبر بالمولى عبد الرحمن وما عليه الحاج عبد القادر من جهاد العدو وحماية بيضة المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لانه رأى أنه قام بنصرة الاسلام حين لا ناصر له فى تلك الجهات فصار المولى المشار اليه يمده بالخيل والسلاح والمال وطالت الحرب بين الامير وبين الفرنسيس حتى انه أخرجهم من تلمسان صاغرين بعد أن كانوا استولوا عليها ولما خاف الفرنسيس منه على مستعمرتهم الجديدة عقد معه الجنرال بوجود (Bugeaud) معاهدة تعرف بمعاهدة تفنا (اسم لنهر ببلاد وهران) (١٨٣٧ م) وكان القصد منها تعيين حدود بين المستعمرة الفرنساوية وبين ممالك الامير عبد القادر وقد قوبلت هذه المعاهدة فى فرانسا بغاية التحقير لانها احطت بمقام الفرنساويين جدا ولذلك اجتهدوا فى نقضها حتى نقضها الامير (١٨٣٩ م - ١٢٥٥ هـ) بتعديه على الاملاك الفرنساوية لانه بينما كان يتخابر مع الحاكم العام الفرانساوى ويرسل وزراء مفوضا عنه الى باريس كان يستعد استعدادا تاما لتهيئة ثورة عمومية كادت توقع الخراب والدمار بفرنسيس الجزائر ولما انتشرت هذه الثورة وأغارت جيوش عبد القادر على المدن الفرنساوية استمد المارشال بوجود دولته فلما أمدته خرج بجيش عظيم وأخذ فى مطاردة جنود عبد القادر وانقض عليهم بالاغارات المتتابعة حتى تمكن من ان يفرق عن الامير غالب القبائل المنضمة اليه بما كان يبذله من الاموال والهدايا وقابله أيضا الدوق دومال (Daumal) وهزم جيشه واستولى على محلته وكان الامير فى كل هذه المدة يكاتب ملك المغرب الاقصى وعلماءه بطلب مساعدته فكان المولى عبد الرحمن يمده بالمال والرجال الى ان استولى الفرانساويون (١٢٥٩ هـ - ١٨٤٣ م) على جميع بلاد المغرب الاوسط وصار الامير عبد القادر يتنقل فى أطرافها فتارة بالصحراء وتارة ببنى يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استكثر فى هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده فاستطال الفرنساويون لذلك على أراضى المغرب الاقصى وكان ما كان من هزيمة جيش المولى عبد الرحمن بايسلى وهى التى تقدم ذكرها باوفى بيان عند الكلام على سلطنته ببلاد مراكش ولما هزم جيش المولى عبد الرحمن والتزم بعدم امداد عبد القادر حسب الشروط التى عقدت بينه وبين الفرنساويين غضب عبد القادر وطعن على المولى عبد الرحمن لعدم نجدته له فى هذا الوقت الذى ليس فيه للمسلمين ناصر ولذلك فسدت نية الامير على المولى عبد الرحمن واشتد الامر بينهما حتى تحاربا وهزم الامير عبد القادر (١٢٦٤ هـ - ١٨٤٨ م) ولما ضاقت السبل بالامير استأمن للفرنسيس على يد الجنرال لاموريسير (Lamoriciér) (١٨٤٨ م) المذكورة ثم حمل الى تولون معززا مكرما وفى سنة ١٨٥٣ م - ١٢٦٩ هـ أطلق سراحه نابليون الثالث فذهب الى الاستانة ثم الى بروسه ثم الى دمشق وله فيها أعمال بيضاء ثم زار بعد ذلك مدينة باريس (١٨٦٧ م) فقوبل فيها بغاية الترحاب والتكريم وكانت وفاته بدمشق الشام سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م وولادته سنة ١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م بعسكر من أعمال

الجزائر وله عدة تآليف معتبرة رحمة الله عليه وقد أظهر هذا الامير فى الوقائع بينه وبين الفرنسيس شجاعة لا توصف ومهارة وتدبيرا وإقداما وحيلا حربية دلت على علو مكانته وعظيم قدرته وقد أتى فى بعض الوقائع بما هو خارق للعادة حتى عده البعض من الكرامات كطفر فرسه الازرق به ستين متراحين أحاطت به العساكر الفرنساوية كالحلقة وراموا القبض عليه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر وأسلمتهم ذلك المدى ونجا راكضا الى منعته ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة اعترف بها الفرنساويون رسميا ضرب فيها السكة باسمه وانشأ مصانع المدافع والبنادق والبارود وغيرها من الادوات الحربية وكان فى أول أمره دعا الحاج أحمد باى باى قسطنطينة ليتحدا معا ويكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى أن وهن أمره لانفراده واستولى الفرنساويون على ما كان تحت يده أما الامير عبد القادر فبقى مدافعا ومهاجما الى ان سولت الغلطات النفسانية المخالفة للديانة والسياسة لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرنساويين على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط النجاة الى جهات الصحراء فاضطر الى التسليم كما قلناه وكان اذ ذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه بباريس حين مجىء الامير اليها فحصلت منه مودة للامير ويقال انه وعده بالمساعدة لو أفضى اليه ملك فرانسا ولما ساعدته الايام واستولى على منصب الامبراطورية أراد تنفيذ وعده فلم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر

ولما خرج السيد عبد القادر من الجزائر خف الخطب جدا على فرانسا الا أن جبل الزواوة بقى ثائرا عليها ولم تتمكن من تسكينه الا بخدع الرؤساء بالاموال والهدايا والمواعيد ولا زالت الثورات بعد ذلك تتوالى الى الآن ومن أشهرها ثورة المرابط السيد أبى زيان (١٨٤٩ م) وثورة السيد لالا التى حصلت سنة ١٨٦٤ م وغيرهما وقد تمكنت فرانسا بما لها من الدهاء وحسن السياسة من قمع كل هذه الثورات ولما عادت الراحة الى ربوع بلاد الجزائر اهتمت فرانسا فى مد الخطوط الحديدية والتلغرافية لتمكين قدمها وسنت للبلاد قوانين ونظامات مناسبة لحالتها وأصلحت جميع ثغورها وحصنت ما رأته واجب التحصين منها وانشأت بداخلها القلاع والمعاقل والطرق العسكرية وكل ذلك احترازا من ثورة تقوم بالبلاد

وقد كان نابليون الثالث يهتم بأمر الجزائر جدا حتى انه فى سنة ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م قال فى كتاب منه الى حاكم الجزائر العام ان الجزائر ليست مستعمرة فرنساوية بل مملكة عربية وانه لا يجوز ان يصادر الاهالى فى شىء من ملكهم بل يجب ان تكون القبائل أصحاب الاملاك فى البلاد التى يقطنونها وان يسن نظام دقيق للملك الشخصى وغير ذلك ولما زار الجزائر بعد ذلك (١٨٦٥ م - ١٢٨٢ هـ) أعلن أيضا هناك الاهالى شفاها بنفس ما تضمنه الكتاب المذكور ثم أخذ فى تطمينهم وتسكين حدتهم وازاحة كثير من عللهم وكان يركن للعرب كثيرا حتى انه توغل فى داخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة منفردا عن الحامية الفرنساوية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم وفرحوا بقدمه ومالوا اليه والى انصافه وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاد به مسرورا موقنا بانصاف مطالبهم ومحبا خالصا وعاطفا حنوا عليهم

واختص منهم فى باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته وأكرم مقامهم ورفع شأنهم واتخذ كوكبة من فرسانهم يصحبونه فى ركوبه بملابسهم العربيــة والحاصل انه من وقت ماتم لفرانسا اخضاع عموم ولاية الجزائر وضعت ادارتها فى يد حاكم عام وفى سنة ١٨٥٨م - ١٢٧٥ ﻫ أصدر الامبراطور نابليون الثالث أمرا جعل فيــه البرنس نابليون رئيسا لوزارة خصوصيــة تشكلت لادارة أشغال الجزائر ففصلت المقاطعات الملكية عن البلاد العسكرية وأقيمت مجالس عموميــة ولما اتضح ان هذا الترتيب غير واف بالمراد جعلت الادارة سنة ١٨٦٠ م - ١٢٧٧ ﻫ بيد حاكم عام عسكرى يخضع له جميع الحكام الملكيين والعسكريين وتعين لها أولا المارشال بليسير (Pélissier) (١٨٦٠ - ١٨٦٤ م) ثم المارشال ماكماهون (Mac-Mahon) (١٨٦٤ - ١٨٧٠ م) ولما قامت الجمهورية فى السنة المذكورة جعلت الادارة تحت حاكم ملكى وتعين لها الموسيو دوبوزى (du Bouzet) والموسيو اليكسيس لامبير (Alexis Lambert) بلقب قوميسير فوق العادة ثم الاميرال جيدون (Gueydon) (١٨٧١ - ١٨٧٣ م) ثم الجنرال شانزى (Chanzy) (١٨٧٣ - ١٨٧٩ م) وفى مدته أدخلت المدن الجزائرية وبعض القرى تحت الحكم المدنى ثم خلفه الموسيو البير غريفى (Albert Grévy) (١٨٧٩ - ١٨٨١ م) ثم الموسيو تيرمان (Tirman) (١٨٨١ م) وجعلت له الرياسة على الادارة الملكية والعسكرية معا وتظمت الادارة وقتئذ على هيئة النظام الادارى المعمول به فى فرانسا وبلغ عدد سكان ولاية الجزائر فى السنة المذكورة (٣٫٣١٠٫٤١٢) نسمة وقد كانت سفن الجزائر التجارية فى سنة ١٨٦٨ م مؤلفة من ١٤٧ سفينة شراعية محمولها ٤٠٩٨ طنا وأكثر ملاحيها وربابنتها من الوطنيين الذين لبثوا حائزين لشهرتهم فى سلوك البحار الى يومنا هذا

الباب الثانى عشر

تاريخ تونس

(الفصل الاول)

وصفها الجغرافى

تسمى هذه البلاد فى كتب العرب والروم بافريقية وهى واقعة فى الدرجة ٣٣°٣٣′٧٫١″٥ من العرض الشمالى والدرجة ٥°٣٫٠′٩″ من الطول الشرقى من خط نصف نهار باريس وتحدها شمالا بالبحر المتوسط الابيض وشرقا بالبحر المذكور وطرابلس الغرب وجنوبا ببلاد الصحراء الكبرى وغربا ببلاد الجزائر ويبلغ مساحتها نحو ٧٠٠٠٠ من الاميال المربعة ويزيد سكانها الآن عن ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة أكثرهم عرب وبربر أما سكان السواد فهم خليط من الاتراك والمغاربة واليهود والتليانيين والفرنساويين وغيرهم من أجناس أخرى مختلفة وقد عرف الفينيقيون

هذه البلاد وأهميتها منذ ألفى عام قبل المسيح عندما كانت سفنهم تمخر بالبحر الابيض المتوسط لتأسيس المستعمرات و يوجد بسواحل هذه البلاد جملة خلجان أشهرها خليج أو بحيرة بنزرت التى حصنها الفرنساويون حديثا وخليج أو بحيرة تونس وخليج قابس والجهات الغربية من هذه البلاد جبلية كثيرة الغابات يبلغ ارتفاع بعض جبالها الى ألفى متر ومن جبالها جبل أوريس بجهة الجنوب ومن أنهارها نهر مجردة والوادى الكبير وزوارا ومليانة وجميعها لا تصلح لسير السفن و يوجد بداخلها بحيرات مالحة أشهرها بحيرة القيروان و بحيرة الجريد أما مناخها فيقرب من مناخ بلاد الجزائر صحى بالجهات القريبة من البحر شديد الحرارة كثير التغيرات الفجائية بجهات الصحراء ولا تزال الفلاحة بها متأخرة جدا مع جودة أراضيها وكثرة محصولاتها التى منها الحنطة والخضراوات والتمر والتين والزيتون والتوت والبرتقال والعنب والقطن والنيلة والزعفران وقصب السكر والتبغ و يستخرج المرجان بشواطئها و بها الخيول الجيدة ومن حيواناتها الاسود والفهود والضباع وغيرها ومن معادنها الفضة والنحاس والرصاص والزيبق والملح و بها مياه معدنية كثيرة ولها تجارة جيدة مع بلاد السودان بداخل افريقية وكانت هذه البلاد عند استيلاء الفرنساويين عليها مقسومة الى ١٨ عمالة تسمى بالاوطان يحكمها عمال يقال لهم قواد ينوب عنهم خلفاء ومشايخ مكلفون بجباية الاموال وكانت ايراداتها سنة ١٨٨٤م (١٤,٩٥٧,٠٠٠) فرنك ومصاريفها تقرب من ذلك وكانت ديونها الخارجية (١٨٠,٠٠٠,٠٠٠) من الفرنكات وشواطئها غير منتظمة كثيرة التلسنات والرؤس التى منها الرأس الابيض الذى هو أبعد نقطة الى الشمال بافريقية وقد اشتهرت هذه البلاد بالعمارية بعد ما أسس فيها أهل فينيقية مستعمرة قرطاجنة التى أتى سكانها من مدينة صور (٨٨٦ ق م) على الصورة المشروحة فى صحيفة ٨٧ من هذا الكتاب ثم زادت العمارية فى أيام العرب خصوصا بعد ان شيد فيها عقبة بن نافع مدينة القيروان (٥٠ هـ) كما تقدم فى تاريخ المغرب ولما اختل أمر دول العرب فتحت الدولة العلية العثمانية تونس (٩٨١ هـ) ومن وقتها صارت معدودة من ضمن ولاياتها الافريقية ومع توالى السنين والايام واشتغال الدولة العلية بالحروب التى فتحت عليها فى أوروبا فى القرن السابع عشر والثامن عشر نال ولاتها الاستقلال الادارى وعدت فى القرن التاسع عشر من الولايات الممتازة وأخذ حبل تعلقها السياسى بالباب العالى يتراخى عن خطته المرسومة له من عهد الفتح العثمانى حتى صارت كأنها ولاية مطلقة التصرف فى كافة شؤنها فأخذت الدول الاوروباوية من وقتئذ تجتهد فى امتداد نفوذها والتداخل فى شؤنها حتى تمكنت فرانسا من نوال الفرصة واحتلت جيوشها البلاد (١٨٨١ م) فى زمن قنصلها الجنرال المسيو روستان كما سيأتى مفصلا فى هذا التاريخ

(الفصل الثانى)

ثغور تونس وملخص أخبارها البحرية

مدينة تونس وهى العاصمة وسكانها يبلغون ١٥٠,٠٠٠ نسمة و يقال ان مرفأها الحالى كان سابقا أراضى كثيرة الجنات والمياه والزرع والفاكهة فغلب عليها ماء البحر المالح فصارت المدينة

في منتهى جون يعرف بجون أبي سعيد على بحيرة طولها ستة أميال وعرضها ثمانية ولها فم يتصل بالبحر يعرف بفم أو حلق الوادي وكانت حصينة ولما نازلها حسان بن النعمان الازدي في أيام عبد الملك لافتتاحها كما سأله الروم ان لا يدخل عليهم وان يضع عليهم الخراج فأبى عليهم الى ذلك وكانت لهم في المرسى المذكور جملة سفن فركبوها ونجوا بأنفسهم وتركوا المدينة خاوية على عروشها فدخلها حسان عنوة (٧٠ هـ) وبنى فيها مسجدا وأحكم بناءها وأصلح ميناها ومد على مدخلها سلسلة من الحديد وجعلها رباطا للمسلمين تمنع الداخل اليها والخارج منها الا بأمر الوالي وفي سنة ١١٤ هـ بنى بها عبد الله بن الحبحاب جامعا ودور الصناعة فاشتهرت بصناعة السفن الحربية وقتئذ وقال ياقوت ان بها قبر المؤدب محرز يقسم به ملاحو المراكب واذا جاش عليهم البحر يحملون من تراب قبره معهم وينذرون له ولهذه المدينة قلعة عظيمة منيعة تشرف على البحر وعدة حصون أخرى ومرفؤها حسن جدا اهـ وكانت تسمى قديما ترشيش وروى بعض مؤرخي العرب في سبب تسميتها تونس قولا بعيدا عن الصحة وبهذه المدينة معامل كثيرة لنسج الاقمشة الصوفية والحريرية المعتبرة وغيرها وهي حصينة

ومناستير وهي قاعدة ولاية ولها سور وحصون ومرساها تجاري وسكانها نحو ١٢٠٠٠ نسمة وهي دون سوسة في الحضارة والمعارف ومن صادراتها الاقمشة الصوفية والبرانس وزيت الزيتون والصابون بينها وبين تونس ومرسيليا مواصلات بحرية

وقابس وسكانها ٩٠٠٠ نسمة وهم على البداوة ولها مرسى قليل التجارة وبها آثار قديمة رومانية

وكركنة وهي جزيرة واقعة بالبحر المتوسط بخليج قابس على بعد ١٥ كيلومترا من الشاطئ قليلة الاراضي قليلة السكان وكانت تسمى قديما سيرسينا وترسو بها بعض السفن الشراعية وبجزيرة جربة التابعة لتونس والقريبة من قابس عدة مراس صغيرة صالحة لان تلتجئ اليها السفن الصغيرة وقت الزوابع أما الجزيرة فيسكنها قوم من البربر وبها بساتين كثيرة بينها وبين البر الكبير مجاز طولها من المغرب الى المشرق ستون ميلا وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلا ومن ناحية الشرق ١٥ ميلا وقد اختص أهلها بالنسج وعمل أثواب الصوف الجيدة وكان أهلها قديما على رأي الخوارج فتحت سنة ٤٧ هـ ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في انشاء الاساطيل وغزو الساحل ثم غزاهم علي بن يحيى بن باديس (٥٠٩ هـ) بأساطيله الى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد ثم تغلبت النصارى عليها (٥٢٩ هـ) عند تغلبهم على سواحل أفريقية ثم أخرجهم أهلها منها (٥٤٨ هـ) ثم غلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والاسبانيول وغيرهم الى أن غلب عليها عبد المؤمن بن علي فاستقام أمرها الى أن استبد أمراء بني حفص بأفريقية ثم افترق أمرهم باستبداد أبي زكريا ابن اسحق بالناحية الغربية واشتغل صاحب الحضرة بشأنه فتغلب عليها حينئذ أهل صقلية (٦٨٨ هـ) وبنوا بها حصن القشتيل ولم تزل عساكر المسلمين تتردد عليها الى أن فتحت أيام السلطان أبي بكر واستضافها ابن مكي صاحب قابس فأضافها اليه ثم وقعت في يد السلطان أبي العباس (٦٧٤ هـ) ثم استولى عليها الاسبانيول (١٣١٠ م)

ثم أخرجوا منها عنوة (١٣٣٦ م) ثم استردوها (١٥٥٨ م) فجلاهم عنها العثمانيون فى نفس هذه السنة بعد معركة شديدة قتل فيها من الاسبانيول خلق كثير وبقيت معدودة من أملاكهم تابعة لولاية تونس الى أن احتلها الفرنساويون عند امتلاكهم تونس ويبلغ مسطح هذه الجزيرة ٤٦ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ٤٥٠٠٠ نفس ولهم مهارة فى الصناعة والتجارة وبها آثار رومانية وقوس نصر على اسم انطونيوس وقيروس

وصفاقس وهى ثغر تجارى من أشهر ثغور تونس واقعة على خليج قابس على بعد ٢٢٥ كيلومترا من الجنوب الشرقى لتونس وسكانها يزيدون عن ١٦٠٠٠ نسمة ومن صادراتها الزيت والمنسوجات والصوف والقطن والتمر والاثمار والعنب والرياحين ويمر عليها كثير من البواخر التى تقصد تونس ومرسيليا استولى عليها الفرنساويون عند استيلائهم على تونس بعد ان أطلقت أساطيلهم القنابل على قلاعها وكانت تأوى الى مرساها سفن الحكومة فى الشتاء لانها أمينة وقال ياقوت عن صفاقس انها مدينة من نواحى أفريقية اذا خرجت من قابس تريد الغرب جئتها الى المهدية والغالب على غلتها الزيتون وهى منيعة ذات سور من حجر بينها وبين المهدية مرحلتان ومرفؤها غير أمين اه

المهدية وتدعى أفريقية وهى مدينة عظيمة من أعمال تونس بناها رأس دولة العبيديين عدد نفوسها ٨٠٠٠ أكثرهم من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس وهى واقعة على بعد ١٥٠ كيلومترا من الجنوب الشرقى لتونس ولها مرسى عظيم على ساحل البحر المتوسط الابيض وكانت قديما منيعة جدا استولى عليها شارلكان وغيره وأخيرا استخلصها العثمانيون وبقيت الى ان احتلها الفرنساويون (١٨٨١ م)

سوسة وهى ثغر تجارى حصين له ثلاث قلاع عظيمة وهى واقعة على البحر على بعد ١١٠ كيلومترا من الجنوب الشرقى من تونس عدد نفوسها ١٠٠٠٠ نفس ومن صادراتها الزيت والصوف ويمتد منها طريق حديدى الى خيرون احتلها الفرنساويون (١٨٨١ م) ولاهلها حضارة وبقايا من العلوم

بنزرت وهى مدينة حصينة وثغر عسكرى بها قلاع شيدت على الطرز الجديد واقعة على بحيرة داخل الجون المضاف اليها عدد أهاليها ١٠٩٠٠ ولها تجارة رائجة بينها وبين جميع المدن التى بساحل أفريقية وكانت تسمى قديما فى زمن الرومان هيبوزاريتوس استولى عليها الفرنساويون (١٨٨١ م) وقد صارت الآن من أعظم الموانى الحربية تسع أكبر الاساطيل ويوجد فى سواحل هذه المملكة جملة مراس أخرى للسفن ضربنا عن ذكرها صفحا لقلة أهميتها لان المتردد عليها هى السفن الشراعية الصغيرة فقط مثل مدينة الحمامات وغيرها

أخبارها البحرية قد اشتهرت هذه البلاد من القديم فى الاعمال البحرية ودامت لها هذه الشهرة مدة القرطاجنيين وكذا زمن الوندال والبوزنطيين ولما فتحها العرب شيد فيها حسان بن النعمان دار الصناعة (٨٠ هـ) فكثرت السفن فى مرافئها واشتهرت أساطيلها بالغزوات البحرية وفى ١١٤ هـ شيد أيضا عبيد الله بن الحبحاب بها دور الصناعة فزادت أساطيلها قوة وصار لها الشأن العظيم فى فتح جزائر البحر المتوسط الابيض والغزو فى سواحل أوروبا وامتدت شهرة أساطيلها فى زمن دولة الاغالبة لان

أساطيلهم

أساطيلهم كانت تجول فى البحر المتوسط وفروعه بحيث أرعبت أساطيل الاوروباويين حتى امتنع يومئذ الفرنج من ركوب البحر خشية ملاقاة الاساطيل الاغلبية ثم ان أساطيل بنى الاغلب صارت تهاجم سواحل أوروبا وخصوصا سواحل مقاطعة بروفانسه من أعمال فرانسا ولما قامت الدولة العبيدية شيد المهدى بمدينة المهدية دار صناعة جسيمة خرج منها أساطيل حازت أهمية وشهرة فائقة فى تاريخ البحرية فغزوا بها جنوة وسواحل ايطاليا وغنموا منها غنائم وافرة ولما أتت دولة بنى زيرى الصنهاجيين بقيت الاساطيل والاعمال البحرية فى تونس على شأنها واستمرت شهرتها أيضا فى زمن دولة الموحدين الا انه فى أواخر دولة الحفصيين أهمل أمر الاساطيل وقل الاعتناء بها فضعف أمرها جدا حتى تمكن الاسبانيول والبرتقال من الاستيلاء على أكثر سواحل شمالى افريقية ثم لما افتتح العثمانيون ولاية تونس اهتم عمال الدولة فيها بأمر الاساطيل فاشتهرت فى تونس الاعمال البحرية والغزوات ثانية وتزايد عدد سفنها حتى صارت فى زمن الدايات عمال الدولة صاحبة الشهرة الفائقة والاقدام الغريب فى غزو البحار وعد ملاحوها من أكبر رجال التلصص البحرى وبهذا ارعبت سفن التجارة الاوروباوية وسدت المسالك البحرية فى وجوهها ولما عم الرعب وكثرت التشكيات أرسلت دولة انكلترة اسطولا (١٦٥٤ م) تحت قيادة الاميرال بلاك لردعهم واقتدت بها فرانسا فى ذلك فأرسلت اسطولا آخر (١٦٨٦ م) تحت قيادة الاميرال جان ديستري وأرسلت هولاندة أيضا اسطولا ثالثا فأتت هذه الاساطيل يعقب بعضها بعضا وانتقمت من تونس ثم استمرت أساطيل فرانسا تهدد تونس بعد ذلك كلما لاحت لها الفرصة وأخيرا اضطر التونسيون (١٨١٦ م) لترك الاعمال القرصانية بالبحار

﴿ الفصل الثالث ﴾

تاريخها القديم

(٨٨٦ ق م — ٦٤٧ م)

اعلم ان تاريخ ولاية تونس وشعوبها يرتبط ارتباطا كليا بتاريخ المغرب من القديم وقد شرحنا ذلك مفصلا فى أول تاريخ دولة مراكش ولما أسس الفينيقيون (٨٨٦ ق م) مدينة قرطاجنة زادت العمارية فى تلك البلاد وأخذت تتقدم فى الرفاهية لان أهل قرطاجنة اهتموا بتوسيع نطاق نفوذهم بالجهات المتصلة بمستعمراتهم هذه ثم أخذوا فى تشييد الاساطيل وجعلوا ملاحيها من العبيد وعليهم رؤساء من أهل قرطاجنة ونظموا لهم جيشا كبيرا عساكره من الاغراب وقواده من أشراف قرطاجنة وبهذه الطريقة تقدمت الجمهورية المذكورة بالتدريج فصارت مهيبة الجانب فى القرن السابع قبل الميلاد لما كان لها من الجيوش والاساطيل التى صيرتها قوية الشوكة فوسعت أملاكها بالاستيلاء على شمالى افريقية فخضعت لها جميع البلاد من أول بنطابوليس [1] (بلاد برقة) الى

---

(1) كانت تسمى هذه البلاد قديما (Cyrénaïque) سرينائيك وهى واقعة على ساحل البحر المتوسط الابيض بين خليج سدرة غربا ومصر شرقا وصحراء ليبيا جنوبا وكانت قاعدتها سيرين ويقال لها الآن قرين وهى خربة

أعمدة هرقل (جبل طارق) ثم بعد ذلك استولت على جميع النزلات والمستعمرات التي كانت الفينيقية في البحر المتوسط الابيض ولذلك زادت في سفنها وأساطيلها المحافظة على تجارتها التي أخذت في الاتساع فتمكنت من ذلك حتى صار لقوة قرطاجنة البحرية الشأن الاول ولم يبق في امكان دولة أخرى من دول البحر المتوسط مقاومتها وفي القرن الخامس قبل الميلاد انشأت قرطاجنة أساطيل جديدة كثيرة فزادت بذلك قوتها البحرية وبها أمكنها أن تضيف الى أملاكها جزائر منورقة وميورقة وقورسقا وسردانية ومالطة وكثيرا من سواحل اسبانيا وشيدت فيها المستعمرات والمدن التي منها مدينة ماهون المسماة باسم الجنرال القرطاجني ماهون أوماغون [١] بجزيرة منورقة فزادت تجارتها وثروتها وتقدمت بحريتها ومدت أسفارها الى بحر الظلمات باكتشافات هملكون [٢] الشهير وقد استمرت قرطاجنة على هذه الدرجة من القوة زمنا طويلا حافظت أثناءه على شأنها واتساع تجارتها ومد نفوذها الى أقصى البلاد وكان الفضل في ذلك لحسن قوانينها التي سنتها التوطيد دعائم جمهوريتها وتدبير مجلس أعيانها المؤلف من مائة عضو

ولما زادت قرطاجنة قوتها العسكرية والبحرية ساقتها الاطماع كما هي العادة للاستيلاء على جزيرة صقلية فأرسلت لذلك أساطيل جسيمة وجيوشا جرارة فتمكنت بعد القتال الطويل من الاستيلاء على الجزء الغربي من الجزيرة المذكورة وكان معظم ما بقي من البلدان بتلك الجزيرة مستعمرات للاغريق الذين لما قامت بينهم وبين دولة الفرس الحروب في أوائل القرن الخامس اتخذت قرطاجنة ذلك فرصة مناسبة لاخراج الاغريق من أملاكهم التي بصقلية فساقت جيشا تحت قيادة القائد الشهير هملكار [٣] الا أن جيلو قائد الاغريق انتصر عليه ورده مقهورا حتى التزمت قرطاجنة أن تخضع للمعاهدة التي عقدتها بينها وبين الاغريق (٤٨٠ ق م) وكانت هذه المعاهدة مضرة بصوالحها ثم ان قرطاجنة أعادت الكرة على الجزيرة المذكورة بعد ان قوت أساطيلها (٤٠٩ ق م) ففاز قائد جيوشها انيبال [٤] وهملكو وانتصرا على الاغريق فخاف دونيسيوس ملك سرقوسة وطلب الصلح من قرطاجنة فعقدته معه الا انه بعد ذلك أخذ يستعد لمحاربة القرطاجنيين ونقض المعاهدة التي بينه وبينها (٣٩٧ ق م) فاشتعلت نيران الحروب بين الطرفين وبعد عدة وقائع انتصر ماغون [٥] قائد أساطيل قرطاجنة على اغريق صقلية (٣٩٦ ق م) ثم تقدم وحاصر

وكانت تسمى هذه البلاد أيضا بنطابوليس أي المدن الخمس لانها كانت تشتمل على خمس مدن يونانية وهي سيرين أو قرين وهسيريس أو برنيس وبرسى أو بطوليماس وأرسنوى وابولونى وكانت عظيمة الخصوبة جيدة الفلاحة اه

(١) ماهون أوماغون أميرال قرطاجني استولى على جزائر بالبار باسم مملكته سنة ٧٠٢ ق م وأسس بمنورقة احداها ثغرا وهو المسمى الآن بورماهون

(٢) هملكون هو ملاح قرطاجني يقال انه أول من دخل الى الجهات الشمالية من المحيط الاطلنطيق واكتشف جزائر كستريد المسماة الآن سورلنج أوسيللى الواقعة امام عمالة كورنواى من بلاد الانكليز

(٣) هملكار قائد قرطاجني قهره جيلون بصقلية في نفس يوم واقعة سلامين (٤٨٠ ق م)

(٤) أنيبال بن جسكون قائد قرطاجني أراد ينتقم لجده هملكار بسبب هزيمته عدينة هميرة من صقلية فخرب المدينة المذكورة وغيرها ومات بالطاعون عندما كان يحاصر مدينة جرجنت من صقلية (٤٠٦ ق م)

(٥) ماغون قائد قرطاجني قهر ٣٩٦ ق م لبتين أخا طاغية سرقوسة في واقعة بحرية وقد تمكن الطاغية بنفسه من قهره فيما بعد في وقعتين قتل في الثانية منهما (٣٨٣ ق م)

سرقوسة

سرقوسة براً وبحراً وقد استمرت هذه الحروب فى صقلية مدة طويلة وكان النجاح فى معظمها لقرطاجنة ثم كان الفوقان لمملكة سرقوسة أخيراً فخاف سكان جنوبى ايطاليا منها والتجأ قوم منهم الى الرومان واستعانوا بهم على هيرو بمنوس طاغية سرقوسة اذ ذاك فاضطر ملك سرقوسة المذكور لطلب المساعدة من أهل قرطاجنة على الرومان فاعانوه الا أن الرومان انتصروا على جيش سرقوسة وقرطاجنة معاً وأخيراً خاف ملك سرقوسة من اطماع القرطاجنيين فتعاهد مع الرومان على طرد جيوش قرطاجنة التى كانت تعدها الرومان خصماً شديداً لها وبسبب ذلك قامت الثلاثة حروب البونيقية السابق شرحها فى تاريخ الرومان وانتهت باستيلاء الرومان على مدينة قرطاجنة واحراقها (١٤٦ ق م) وصارت أراضيها ولاية رومانية

ومن ذلك الوقت أخذت دولة الرومان فى التقدم بتلك الاطراف فاستولت على جميع البلاد التى كانت لقرطاجنة بالكيفية السابق ذكرها فى تاريخ رومية والغرب وأخذت أساطيلها تجول فى البحار بلا منازع الى ٤٢٩ م حينما كان بونيفاس حاكماً من قبل الرومان على افريقية فحصل اذ ذاك أن أحد القواد الرومانيين المدعو ايتيوس طعن فى سيرة بونيفاس عند بلاقيد يا نائبة السلطنة الرومانية فطالبته هذه الى الحضور وأوعز اليه ايتيوس سراً وحرضه على العصيان بحجة ان نائبة السلطنة المذكورة تقصد قتله فاستعان بونيفاس بالوندال فلبى ملكهم المدعو جنسريك طلبه ومن هذا التاريخ دخلت الوندال بلاد البربر بافريقية تحت قيادة ملكهم المذكور ولما تمكن من بلاد البربر عسر على الرومان اخراجه منها وفى ٤٣٥ م فتح جنسريك مدينة قرطاجنة وجعلها تخت مملكته الجديدة ومن وقتها اتسعت مملكة الوندال خصوصاً بعد ان أخضعت جميع بلاد موريتانيا الجديدة وموريتانيا القديمة (الجزائر وتونس) ثم اهتمت فى بناء السفن حتى صار لها أساطيل عظيمة فى تلك البلاد تمكنت بها من ضم جزائر سردانية وقورسقة وجزائر بليار الى مملكتها وصارت سفائن الوندال بعد ذلك تزعج سواحل بحر الظلمات وبحر الروم وتطاولت على جيوش القسطنطينية وأساطيلها ولم يكتف جنسريك بذلك بل انه بعد ان أكثر من بناء الاساطيل وتقويتها أرسل فى ٤٥٥ م عمارة عظيمة ودخل بها نهر تبر وأخرج جيوشه وافتتح رومية وبقيت عساكره تنهب المدينة المذكورة مدة خمسة عشر يوماً واغتنم الوندال منها غنائم وافرة وفتكوا بالسكان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ولم يرق قلب جنسريك لتضرعات البابا لاون الاول الكبير الذى سعى بكل الوسائل فى تخفيف مصاب رومية ثم مكث جنسريك أكثر من عشرين سنة قاهراً منصوراً مهيباً ترتجف من ذكره سلطنتا المشرق والمغرب وقد شتتت أساطيله وأحرقت عمارات الدولتين الشرقية والغربية وبعد موته (٤٧٧ م) أخذت مملكة الوندال فى الانحطاط حتى سنة ٥٣٣ م التى أرسل فيها الامبراطور يوستنيانوس القائد الشهير بيليساريوس قائداً عاماً على جيش برى يبلغ ٣٥٠٠٠ مقاتل وعمارة مؤلفة من ستمائة سفينة واستولى القائد المذكور على قرطاجنة وأسر جليمير ملك الوندال واسترد جميع البلاد التى كانت خضعت للوندال الى مملكة بوزنطية وبقيت هذه البلاد خاضعة لملوك الروم بالقسطنطينية الى أن فتحها العرب (٢٧ ﻫ - ٦٤٧ م)

(الفصل الرابع)

تونس بعد الفتح الاسلامى

البحرية فى عهد عمال الخلفاء

(٢٧ هـ - ١٨٤ هـ)

لما تقدمت الجيوش الاسلامية لفتح افريقية تحت قيادة عبد الله بن أبى سرح فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٧ هـ ٦٤٧ م) وتقدم بها حتى وصل الى مدينة سفيتوله المسماة سبيطلة وعاد منصورا صارت حوادث وأخبار دول المغرب جميعها مرتبطة ببعضها الان الولاة الذين كان يعهد اليهم ادارة شؤنها كانت لهم السلطة العامة على عموم ولايات افريقية فلهذا ذكرنا مجمل أحوالها ومدة ولاية ولاتها فى تاريخ دولة مراكش ورأينا أن نقتصر فى هذا الفصل على ذكر ما وصلت اليه القوة البحرية فى تونس فى عصر الولاة المشار اليهم فنقول

لا يخفى ان الجيوش الاسلامية لما كانت تغزو البلاد الافريقية كانت تجد فى بعض ثغورها وسواحلها سفائن من سفن الروم فتستولى عليها وبذلك تمكن معاوية بن حديج السكونى فى مدة ولايته من العبور ببعض الجنود الى جزيرة جربة القريبة من ساحل تونس وغزوها فتم له فتحها (٤٧ هـ) ثم جهز جيشا فى أسطول مركب من مائتى سفينة وأغزى به جزيرة صقلية فعاد بالغنائم الوافرة ولما تولى عقبة بن نافع الفهرى اهتم بتشييد مدينة القيروان (٥٠ هـ) لتكون ملجأ لجيوش العرب عند الحاجة فزادت بها عمارية البلاد التونسية ولكن عندما اضطربت الخلافة بالمشرق بعد مقتل سيدنا الحسين رضى الله عنه وقامت الثورات ارتد البربر وأخرجوا العرب من افريقية فضعف شأن الاسلام فيها زمنا وزالت مهابته حتى كاد يتقلص ظله ولما جلس عبد الملك ابن مروان على تخت الخلافة وعزم على اعادة فتحها عين لذلك حسان بن النعمان الغسانى وأمده بالجيوش (٧٣هـ - ٦٩٢ م) ففتح مدينة قرطاجنة وجميع المدن التى على البحر ما عدا مدينتى هيبيونة (بونه) وهيوزاريتوس (بنزرت) فقد امتنعتا عليه لانه لم يكن تحت يده اذ ذاك قوة بحرية تساعده على الفتح كما سبق بيانه فى تاريخ المغرب الاقصى ولما أتاه أمر الخليفة عبد الملك بن مروان المشار اليه باتخاذ دار الصناعة فى تونس اجتهد فى تشييدها فتم له ذلك (٧٦هـ - ٦٩٥ م) فكانت أول دار صناعة شيدت فى البلاد الاسلامية كما رواه ابن خلدون وأبو الفداء وغيرهما من المؤرخين وابتنى بها نحو سبعمائة سفينة مع ما يلزمها من الآلات والادوات الحربية كما سبق فى المقدمة وبهذه الاساطيل تمكن من حفظ الفتوحات الاسلامية بسواحل افريقية من هجمات أساطيل الدولة الرومية خصوصا وقد صارت هذه الاساطيل فيما بعد أكبر مساعد لولاة افريقية على فتح جزيرة صقلية وارتفع للعرب بها شأن عظيم فى البحار حتى انه فى عهد الخليفة سليمان ابن عبد الملك لما غزت جيوشه القسطنطينية وفقد العرب معظم قوتهم فى حصارها وامتنعت عليهم العودة لما نالهم من الضنك وشدة البرد تمكنت افريقية باساطيلها من امداد تلك الجيوش (٩٩ هـ)

بالميرة

بالميرة والذخائر وذهب لنجدتهم عمارة مركبة من ٣٦٠ سفينة ولما وصلت تلك السفن الى القسطنطينية ارعبت الروم وانعشت الغزاة المذكورين وعادت بمن بقى منهم سالما وقد أفادت هذه الاساطيل أيضا موسى بن نصير عندما تعين واليا على افريقية فاغزى بها ولده عبد الله جزيرة منورقة (٨٧ ﻫ) وساعدته أيضا عند فتح الاندلس على نقل الجيش الذى وجهه لفتحها وكذا لما هم بالذهاب الى بلاد الاندلس بنفسه وجد لديه من الاساطيل ما تمكن به من عبور بحر الزقاق وقد كان لهذه الاساطيل منفعة أخرى عظيمة فى نقل أخبار الجيش المحارب ولولا تلك الاساطيل لتعذر بل استحال عليه تنفيذ هذا الفتح العظيم فى الزمن القليل كما تقدم فى تاريخ الامويين

ولما تولى عبيد الله بن الحبحاب على افريقية انشأ فى تونس دار صناعة أخرى (١١٥ ﻫ) وشيد بها عدة سفن فازدادت بها قوة بحرية العرب وأمكنه فتح سرقوسة من أعمال صقلية (١٢٢ ﻫ) وقد استمرت دور الصناعة فى البلاد التونسية تبنى بها المراكب فتزيد بها القوة البحرية حتى انه لما تعين عبد الرحمن بن حبيب عاملا على افريقية تمكن بتلك الاساطيل من غزو جزيرة صقلية وسردينيا واستولى عليهما وأذعن أهلهما للجزية ولما كان منتصف سنة ١٨٤ ﻫ وجه الخليفة هرون الرشيد ولاية القيروان الى ابراهيم بن الاغلب رأس دولة الاغالبة الذين اكتسبوا الشهرة فى الاعمال البحرية بسواحل وجزائر أوروبا وكانت ولاة افريقية لغاية الوقت المذكور تنتخب من عائلات مختلفة الا أنه بعد ابراهيم الاغلب انحصرت فى عقبه ولاية البلاد المذكورة فاستبدوا بأعمال تونس ونحوها من لدن الفتنة أى من ١٨٤ ﻫ الى ٢٩٦ ﻫ كما سيأتى مفصلا فى هذا الباب

الدول الاسلامية التى حكمت الديار التونسية

(الفصل الخامس)

دولة بنى الاغلب

(١٨٤ - ٢٩٦ ﻫ)

هذه الدولة تنسب الى الاغلب بن سالم وقيل سوارة بن عقال بن خفاجة بن عبد الله بن عباد ابن محرث والاغلب هو ممن قام مع أبى مسلم الخراسانى فى دعوة العباسيين وفى عهد المنصور ولى الاغلب افريقية فقدم الى القيروان (١٤٨ ﻫ) وقتل فى حروبه مع حسن بن حرب الكندى (١٥٠ ﻫ) وسمى الشهيد ولم يقم من بنيه أحد من بعده الا فى عهد الخليفة هرون الرشيد حيث كان ابراهيم بن الاغلب واليا على بلاد الزاب فلما رأى أن أهالى أفريقية تميل الى ولايته عليهم وتبغض محمد بن مقاتل الذى كان واليا على افريقية وقتئذ لظلمه كاتب ابراهيم المذكور الرشيد يطلب الولاية لنفسه بشرط أن يترك المائة ألف دينار التى كانت ترد لافريقية من خراج مصر اعانة لها وغير ذلك فكتب له الرشيد بعهده (١٨٤ ﻫ) ففرح أهل أفريقية بذلك جدا ولما كانت سنة ١٨٦ ﻫ خرج عليه رجل يقال له حمديس من رجالات العرب فارسل عليه ابراهيم بن الاغلب جيشا تحت قيادة ابراهيم بن عمران فهزم حمديس وجموعه بعد أن قتل منهم عددا عظيما ثم اهتم ابن الاغلب

بتمهيد أمر المغرب الاقصى وكانت ظهرت فيه دعوة العلوية لادريس بن عبد الله الذى لما توفى نصب البربر ابنه مكانه وقام راشد مولى أبيه بكفالته ولما كبر ادريس واستتب أمره وطاعته البربر خافه ابن الاغلب فدس على راشد من قتله وأتى له برأسه كما سبق شرح ذلك بتاريخ مراكش ثم خالف أهل طرابلس ابراهيم (١٨٩ هـ) فساق عليهم جيشا وكان من قواده ولده عبد الله فحاربهم وأعادالى طرابلس السكينة وتمكن أيضا من اطفاء ثورة عمران بن مجالد الربيعى الذى قام بها على ابراهيم فى تونس (١٩٥ هـ) وبذلك جمع الكلمة فى البلاد ووطد الامارة وتوفى (١٩٦ هـ) وبنى فى أيامه مدينة العباسة قرب القيروان فصارت دار أمراء بنى الاغلب وفى أيامه (١٩٥ هـ) أغزى أساطيله جزيرتى قورسقة وسردانية فاستولى عليهما

وقام بالامر من بعده ابنه ابو العباس عبد الله بعهد منه (١٩٦ - ٢٠١ هـ) وكان بطرابلس الغرب فى حرب البربر فصالح البربر على أن يكون له البلد والبحر وما كان خارجا عن ذلك لهم وكان ابراهيم أوصى ولده الآخر زيادة الله أن يبايع لاخيه بالامارة ففعل وأخذ له البيعة على الناس بالقيروان وكتب له يستقدمه فقدم (١٩٧ هـ) وكانت أيامه أيام هدوء وسكون وفى عصره هاجم المسلمون بأساطيلهم مدينة نيس وغيرها وعادوا بالغنائم الوافرة والاسلاب الثمينة (٢٠٠ هـ) وقد نكد من ذلك شارلمان جدا ولم يقدر على فعل شيء ثم انه كان تمكن من التغلب على بعض أساطيل العرب أولا الا أنهم بعد ذلك نالوا من سفنه منالا عظيما وأغاروا على جملة بلاد من أملاكه وفى خلال ذلك كانت سفن سردانية لا يكنها أن تجتاز البحر الذى بين هذه الجزيرة وايطاليا من غير أن تكون عرضة للخطر من سفائن عرب أفريقية وأساطيل الاندلس فخرج بونيفاس من أمراء توسكانة مع أخيه بيرارد باسطول جسيم قاصدا جزيرة سردانية فوجد فيها جماعة من أصدقائهما البحريين فكانوا أدلاء لهما فى توجههما الى الساحل الافريقى فلم يزالا حتى خرجا بمن معهما من الفرنج بين أوتيكه [1] وقرطاجنة فلما أحس المغاربة بهم وكانت سفنهم فى وقتها ضعيفة لم يقدموا على البعد من الساحل وحصل بين الفريقين خمس وقائع كان الظفر فى أكثرها للفرنج وكانت وفاة أبى العباس سنة ٢٠١ هـ

وقام بالامر من بعده زيادة الله بن الاغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) بتقليد من قبل المأمون العباسى وفى أوائل ولايته خرج عليه بعض الثوار من أطراف البلاد فتمكن من قمعهم واسترداد بجاية والزاب وطرابلس (٢٠٩ هـ) ممن كان استولى عليها من الخوارج الذين كدروا صفو الراحة فى أول ولايته وبعدها استقام له الامر فاهتم بتشييد الاساطيل والاكثار من القوة البحرية ثم أرسل اسطولا قويا وجيشا عظيما (٢١٢ هـ) تحت قيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان الى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها منذ ما طرد والوندال من شمالى أفريقية فلما وصل أسد اليها نازلها وفتح جزءا

(١) مدينة قديمة فى افريقية قرب جون قرطاجنة على مسافة وجيزة من تونس الحالية الى الشمال الغربى وفى موقعها الآن قرية يقال لها بوشطر ويقال ان بناءها كان قبل بناء قرطاجنة بنحو ٢٨٧ سنة وان الذين اختطوها هم الصوريون ولما سقطت قرطاجنة أخذت أوتيكه قسما من أرضها وجعلت مركز الحاكم الرومانى وقد ورد ذكرها فى الوقائع التى حصلت بين سيلا ومريوس وبين قيصر وبومبه مما يدل أنها كانت بلدة عظيمة ولما افتتحها العرب فى أواخر القرن السابع من الميلاد دكوا أبنيتها ولا تزال للآن بعض آثارها باقية اهـ

منها ثم حصلت بعد ذلك غزوات بين عمال ابن الاغلب و بين الروم بتلك الاطراف أشهرها التى حصلت فى سنتى ٢١٣ و ٢١٤ هـ وكانت الحرب فيها سجالا وفى سنة ٢٢١ هـ حصلت واقعة بحرية بين اسطول العرب واسطول الروم فى مياه صقلية انتصر فيها العرب وغنموا من الروم تسع سفائن ثم ولى الروم الادبار بعد ان غرق منهم عدة سفائن أخرى وكانت وفاة زيادة الله (٢٢٣ هـ)

ولقد كانت اطماع أمراء أفريقيا فى صقلية أشد منها فى جزيرتى سردانية وقرسقة أما كون هذه الجزيرة الخصبة لم تقع فى أيديهم الا بعد هاتين الجزيرتين فلذلك الان قياصرة اليونان اعتنوا بشأنها وعدوا التملك عليها من أهم الامور لان دولة القسطنطينية كانت تستعين بها على قمع المدن البحرية من بلاد ايطاليا وكان عند الولاة الذين يحكمون عليها وسائط قوية لاسيما اسقفهم العديدة التى كانت تزيد فى قوة هذه الوسائط

وقام بالامر من بعده اغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ) ويكنى بابى عقال وكان محسنا عادلا أزال المظالم وزاد فى أرزاق العمال والجنود فكف أيديهم عن الرعية وأرسل سنة ٢٢٤ هـ سرية الى صقلية ففتحت وعادت ظافرة وفى السنة التالية أرسل اسطولا قويا وجيشا عظيما الى جزيرة صقلية أيضا فانتصر انتصارا باهرا وافتتح عدة حصون منها حصن البلوط وفرلورة ثم قصد اسطول المسلمين بعد ذلك قلورية [1] ففتحها ثم التقى باسطول صاحب القسطنطينية فهزمه وفى سنة ٢٢٦ هـ سارت سرية للمسلمين بصقلية الى قصريانة ففتحت وأحرقت وسبت فلم يخرج أحد لصدهم فسارت الى حصن الغيران وكان به أربعون غارا فغنمتها جميعها وتوفى الاغلب (٢٢٦ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه ابو العباس محمد بن الاغلب (٢٣٦ - ٢٤٢ هـ) ودانت له البلاد وبنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية (٢٢٧ هـ) فاحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم عند قيامه بالثورة وثار على أبى العباس أخوه أبو جعفر ثم اتفقا على أن يستوزره أبو العباس الا أنه لما نال المنصب استبد عليه وحصل بينهما وقائع الى أن ظفر محمد بأخيه ونفاه الى مصر (٢٤٢ هـ) وفى أيامه حصلت عدة حروب بحرية منها أنه فى سنة ٢٢٨ هـ غزا فى البحر الفضل بن جعفر الهمذانى ثم قصد صقلية ونزل مسينى [2] باسطوله وبث السرايا وحاصرها برا وبحرا وغنم غنائم كثيرة

---

(١) قلورية هى بلاد واقعة بايطاليا الجنوبية بالنهاية الجنوبية الغربية مكونة لشبه جزيرة يغمرها البحر المتوسط غربا ومضيق مسينى جنوبا وخليج طرنت شرقا وكان يسكنها قديما طوائف من الاغريق ثم انتقلت الى حكم الرومان ثم الى العرب ثم استولى عليها النورمانديون حينما قهروا المسلمين بصقلية (١١٣٠ م) وهى عرضة للزلازل قال ياقوت قلورية جزيرة فى شرق صقلية وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب اليها فيما أحسب أبو العباس القلورى ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثم بيش ثم نامل ثم ملف ثم سلورى قال ابن حوقل وهى جزيرة داخلة فى البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالقة اهـ وتسمى عند الفرنج كلابر (Calabre)

(٢) مسينا او مسينى مدينة حصينة بصقلية فى الطرف الشمالى الشرقى منها وهى ثغر حربى تجارى وأول مدينة من ايطاليا الجنوبية واقعة على المضيق المنسوب اليها وبها عدة مدارس علمية و يحيط بها سور وقلعة عظيمة حديثة وعدة حصون أخرى و بها بيعة قديمة شهيرة من صادراتها الحرير والاصواف والاثمار والانبذة والزيت والزعفران قال ياقوت مسينى بليدة على ساحل جزيرة صقلية مما يلى الروم مقابل ريو وهو بلد فى برالقسطنطينية الواقف فى مسينى يرى من فى ريو اهـ

واستأمن اليه أهل نابل من اعمال ايطاليا وصار واسعه واستمر الفضل يحارب الروم فى تلك المياه مدة سنتين والحصار مستمر على مسينى ولما أعيته الحيل فى فتحها أرسل بعض الجنود فصعدوا على جبل مطل على المدينة ثم انحدروا منه اليها وأهل المدينة مشتغلون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه فلما رأى أهل البلدان المسلمين قد دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وتم للفضل الاستيلاء على المدينة بهذه الحيلة ثم فتح أيضا مدناغيرها وفى سنة ٢٢٩ هـ خرج أبو الاغلب العباس بن الفضل فى سرية فقابله الروم فى جمع عظيم وبعد قتال شديد انهزمت الروم بعد مقام صعب وفى سنة ٢٣٢ هـ عصت مسينى واستنجدت ببطريقهم العظيم فوعدهم بالمساعدة ولما علم المسلمون بذلك شددوا الحصار على المدينة حتى فتحوها وكانت وفاة هذا الامير سنة ٢٤٢ هـ

وقام بالامر من بعده ابو ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب (٢٤٢ - ٢٤٩ هـ) فاحسن السيرة وأكثر العطايا الى الجند وكان يميل الى البناء ومايعود على المملكة بالعمارية والرفاهية فبنى بارض أفريقية حصونا كثيرة بلغت عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد وأكثر من شراء العبيد وادخالهم ضمن جيوشه وفى ولايته (٢٤٤ هـ) فتحت مدينة قصر يانة [1] التى بها دار الملك بصقلية وكان قبل ذلك بسرقوسة [2] وذلك ان العباس والى صقلية من قبل الاغالبة سير الجيوش عليها وعلى سرقوسة وسير جيشا آخر مع الاساطيل بحرا فلقيهم أربعون شلنديا (نوع من السفن) من سفن الروم فحصلت بينهما واقعة بحرية شديدة انتهت بانهزام الروم وأخذ المسلمون منهم عشرة شلنديات بما فيها من المقاتلة والسلاح وعاد العباس الى التشديد فى حصار قصر يانة فبث السرايا وأرصد العيون الى ان قبضوا على بعض الروم فدلوه على الموضع الذى يملك منه المدينة ونصب العرب عليه السلالم وصعدوا الجبل ليلا حتى وصلوا الى أعلى سور المدينة عند انشقاق الفجر والحراس نيام لايدرون فوضعوا السيف فيهم وفر من بقى منهم حيا ووقع الرعب فى قلوب السكان ثم فتحت الابواب ودخل العرب فاستولوا على المدينة وأرسل الخبر بالفتح الى أفريقية ففرح ابن الاغلب بذلك جدا وأرسل فبشر المتوكل على الله العباسى بهذا الفتح ولما بلغ ملك الروم خبر استيلاء المسلمين على قصر يانة أرسل (٢٤٥ هـ) أسطولا مركبا من ٣٠٠ شلندى وعساكر تحت قيادة بطريق من بطارقته فلما وصل بأساطيله الى سرقوسة حضر اليه العباس من بَلَرْم [3] وحاربه وشتت شمله فولى

(١) قصر يانة مدينة من صقلية فى وسطها على جبل شامخ بها قلاع كان مشيده الامبراطور فردريك الثانى وبها مغاير قديمة لدفن الموتى قال ياقوت قصر يانة اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية على سن جبل ا هـ وتسمى هذه المدينة عند الفرنج كاستروجيوفانى Castro-Giovanni

(٢) سرقوسة هى قاعدة ولاية بجزيرة صقلية وفرضة بحرية على الشاطئ الشرقى منها تبعد عن قطانية الى الجنوب بنحو ثلاثين ميلا وهى محصنة بها آثار قديمة كثيرة ولها تجارة واسعة وكانت قديما أكبر مدينة فى صقلية وكانت مؤلفة من خمس مدن متلاصقة ولذا كانت تسمى نطابوليس استولى عليها الرومان واليونان والروم والعرب وبها مدافن متسعة تحت الارض دفن فيها كثير من اليونان والرومان والمسيحيين والاسلام ولهذه المدينة ذكر شهير فى التواريخ القديمة ويقال ان الذى أسسها هو ارخياس الكورانتى (٧٣٤ ق م) وقال ياقوت انها أكبر مدينة بجزيرة صقلية وكان بها سرير ملك الروم قديما اهـ ويسميها الافرنج (Syracuse)

(٣) بلرم قصبة ولاية بجزيرة صقلية واقعة فى الجانب الشمالى منها على جون عميق فى سهل خصب جميلة المناظر جدا ميناها رحيب بها قلعة وحصون لحمايتها وقد اشتهرت بكثرة كنائسها وجمالها وهذه المدينة أقدم المستعمرات

منهزما بما بقى من سفنه وغنم المسلمون منه مائة شلندى وفى سنة ٢٤٦ هـ نكث كثير من قلاع صقلية العهد فخار بهم العباس وهزمهم وأعاد السكينة ثم حصن قصريانة وغيرها من مدن الجزيرة وكانت وفاته (٢٤٧ هـ) ثم نبش الروم قبره وأخرجوه وأحرقوه لكثرة ما قتل منهم وفل من جموعهم وكانت ولايته احدى عشرة سنة وبعده انتخب مسلمو صقلية ابنه عبد الله الا انه فى سنة ٢٤٨ هـ وجه صاحب أفريقية امارة صقلية الى خفاجة بن سفيان فأكثر الغزو فيها وفتح عدة حصون وكانت وفاة أبى ابراهيم أحمد بن الاغلب هذا سنة ٢٤٩ هـ

وقام بالأمر من بعده أخوه زيادة الله بن الاغلب (٢٤٩ - ٢٥٠) وجرى على سنن سلفه ولم يحصل فى أيامه ما يستحق الذكر لقصر مدته حيث توفى بعد سنة من ولايته

وقام بالامر من بعده أخوه محمد بن أحمد الاغلبى ويعرف بأبى الغرانيق (٢٥٠ - ٢٦١ هـ) وكان صاحب لهو وطرب ملازما مجالس الشراب وفى أيامه (٢٥٥ هـ) لما مات خفاجة بن سفيان والى صقلية تولاها ابنه محمد بعهد من ابن الاغلب ولما كان الروم يحاصرون جزيرة مالطة أرسل عليهم أسطولا (٢٥٦ هـ) فلما سمع الروم بقدوم أسطول الاغالبة رحلوا عنها فاحتلها المسلمون وأضافها الاغالبة الى مستعمراتهم ثم قتل محمد بن خفاجة (٢٥٧ هـ) وقام مقامه ابنه محمد باقرار صاحب أفريقية محمد بن أحمد المذكور وبعث اليه بعهده وفى زمنه تغلب الروم على بعض أماكن بصقلية وبنى محمد الاغلبى هذا عدة حصون ومحارس على ساحل البحر على مسير خمسة عشر يوما من برقة الى جهة المغرب وكانت وفاته (٢٦١ هـ)

وقام بالامر من بعده أخوه ابراهيم بن أحمد الاغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وكان محمد عهد بالامر قبل وفاته لولده أبى عقال فاختار الناس بعد موته أخاه ابراهيم هذا وكان عادلا عاقلا حازما أقام الحصون والمحارس على ساحل البحر وزاد فى عدد الاساطيل فأمنت البلاد ورتب الاشارات النارية فى الحصون فكان اذا ظهر عدو توقد النار بساحل سبتة نذيرا فيصل خبره من حصن الى آخر فى ليلة واحدة الى الاسكندرية فكان ذلك من أحسن الاختراعات وأفيد الترتيبات وبنى حول مدينة سوسة سورا منيعا (٢٦٥ هـ) وفى ولايته كثرت غزوات العرب على سرقوسه وكانوا يوقعون بأهلها ويحرقون زرعها ويسلبون حاصلاتها الى أن تملكوها فى ١٤ رمضان سنة ٢٦٤ وكان سبب

الفينيقية بصقلية وأول ما كرزقوتهم بها قصها أهل قرطاجنة ثم الرومان ثم الغوط ثم الروم وكانت عاصمة الجزيرة بعد استيلاء المسلمين عليها وبهذه المدينة ألف الجغرافى الشهير الشريف الادريسى كتابه المسمى بنزهة المشتاق للملك رجار النورمندى قال ابن حوقل بلرم مدينة كبيرة سورها شاهق منيع مبنى من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم وفى بلرم والخالصة والحارات المحيطة بها ومن وراء سورها من المساجد نيف وثلثمائة مسجد وهى محال كانت تلاصقها وتتصل بها الى ان قال وقد رأيت فى بعض الشوارع فى بلرم على مقدار رمية سهم عشر مساجد بعضها تجاه بعض وبينها عرض الطريق فقط فسألت عن ذلك فقيل لى ان القوم لشدة انتفاخ رؤسهم وقلة عقولهم يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد على حدة لا يصلى فيه غيره ومن يختص به وربما كان اخوان ودارهما متلاصقة وقد عمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه خاصا به ينفرد به عن أخيه والاب عن ابنه وبعد ان وصف سكانها بما يشين من الصفات قال ولهذا لا ترى فى صقلية عالما ولا عاقلا بالحقيقة بفن من العلوم ولا ذا مروءة ودين بل الغالب عليهم الرقاعة والضعة وقلة العقل والدين اهـ وتسمى عند الفرنج (Palerme)

ملكها ان جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع قطانية وطبرمين ورمطه وغيرها من بلاد صقلية التى بيد الروم ونازل سرقوسه وحاصرها برا وبحرا وملك بعض أرباضها ووصل من ملك الروم نجدة لها فسير اليها أسطولا فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فأقام العسكر محاصرا لها تسعة أشهر وفتحت وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم مالم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها الا الشاذ الفذ وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها وانصرف المسلمون الى بلدهم آخر ذى القعدة ولما ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه صاحب مصر تقدم فيمن معه واستولى على برقة من يد ابن موهب قائد الاغالبة ثم تقدم وحاصر طرابلس وكان أشرف على فتحها لولا المدد الذى أتى للقائد المذكور من افريقية فهزم العباس وعاد الى مصر مغلوبا (٢٦٧ ﻫ) ثم انه فى سنة ٢٨١ ﻫ انتقل ابراهيم الاغلبى الى تونس واتخذها دار ملكه وبنى بها القصور ثم وقعت حرب بينه وبين ابن طولون صاحب مصر فكان النصر له (٢٨٣ ﻫ) ولما رجعت عساكر مصر مهزومة تفرغ لما كان يتمناه وهو إتمام فتح جميع صقلية فبعث ابنه عبد الله اليها (٢٨٧ ﻫ) يقود أسطولا مركبا من ١٦٠ سفينة فحاصر طَرَبَنَة [١] ثم أغار عليه أهل بلرم بحرا فحاصر مدينتهم برا وبحرا فانهزموا ونهبت أموالهم وهرب كثير منهم الى القسطنطينية وملك أبو العباس المدينة وأرسل عدة من رؤسائهم الى أبيه بافريقية ثم حاصر قَطَانية [٢] فلما امتنعت عليه تركها ثم فى سنة ٢٨٨ ﻫ تجهز للغزو فبنى الاساطيل وسار بها ونزل على دِمُونة ونصب عليها المجانيق وأقام أياما ثم أقلع عنها الى مسينى وغزاها وفتح بعدها ريو [٣] عنوة وغنم من ذلك شيأ كثيرا وشحن المراكب بالغنائم ورجع الى مسينى فهدم سورها ثم جاء المدد اليها من القسطنطينية فهزمه واستولى منه على ثلاثين سفينة وأقام بها الى سنة ٢٨٩ ﻫ ثم دعاه أبوه الى افريقية لانه فى تلك السنة كان قدم عليها رسول المعتضد بعزله من أعمال افريقية لشكوى

---

(١) طربنة مدينة حصينة من صقلية رأس عمالة مضافة اليها واقعة فى الطرف الغربى من الجزيرة على رأس وتشتهر بصناعة أشياء صغيرة من المرجان والعاج وبها بقايا آثار قديمة منها آثار هيكل الزهرة وتسمى عند الفرنج (Trapani)

(٢) قطانية مدينة حصينة من صقلية واقعة على الشاطئ الشرقى قليلة التجارة وهى بسفح جبل اتناو رأس عمالة مضافة اليها وهى ظريفة جيدة المبانى واقعة وسط سهل خصب يسمى هرى ايطاليا وبها دير كان يجتمع به الكهنة الذين يترأسون على طائفة فرسان مالطه وقد أسس هذه المدينة السيباد فى القرن الثانى قبل الميلاد وبها آثار قديمة وقد خربتها الزلازل عدة مرات قال ياقوت قطانية أو قطالية مدينة على سواحل جزيرة صقلية وهى مدينة كبيرة على البحر من سفح جبل النار وتعرف بمدينة الفيل وهى قديمة البناء فيها آثار عجيبة وكنائس مفروشة بالرخام المجزع وفيها صورة فيل بالحجارة وبه سميت مدينة الفيل اﻫ وتسمى عند الفرنج (Catane)

(٣) ريو مدينة حصينة من مملكة ايطاليا قاعدة اقليم مضاف اليها وهى ثغر على مضيق فار مسينى امام جزيرة صقلية تبعد عن مسينى نحو ساعة بالسفينة البخارية سكانها ٢٤٠٠٠ نسمه وهى غنية جيدة المبانى بها معامل للاقمشة الحريرية والروائح العطرية وصادراتها الثمار والزيت وغيرها انتقلت من يد الرومان الى القوط ومنهم الى العرب ومن هؤلاء الى النورمانديين مدة رئيسهم روبرت غسكارد وضمت الى مملكة نابل فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى وأغار عليها ونهبها خير الدين باشا باربروس الشهير (١٥٤٤ م) وأغار عليها آخر يدعى فى كتب الفرنج مصطفى (١٥٥٨ م) وقد خربتها أغلب زلزلة (١٧٨٣ م) وتسمى عند الفرنج (Reggio de Calabre)

الاهالى منه ولما وصل أبو العباس عهد اليه أبوه بولاية افريقية وارتحل هو الى صقلية ونزل على طربنة ثم تحول عنها الى بلرم ثم قصد دمقش وحاصرها ثم فتح أيضا طرميس (١) ثم عبر الى عدوة البحر وخرج فى ساحل ايطاليا ودخل قلورية عنوة ثم عاد الى صقلية وقصد كنسة وحاصرها فاستأمن له أهلها ولم تطل بعد ذلك أيامه فمات (٢٨٩ ﻫ)

وقد نال ابراهيم المذكور فخر إتمام فتح جزيرة صقلية باستيلائه على سرقوسة وغيرها من الاماكن المهمة فى وقت كانت فيه دولة القسطنطينية قد استرجعت شوكتها وصولتها برا وبحرا بما صدر عن القيصر بازيل المقدونى من السطوات البحرية قال بعض مؤرخى الفرنج ينبغى أن يعد فتح الاسلام لسرقوسة من أكبر المصائب المذكورة فى التاريخ فان هذه المدينة لحقها ما لحق مدينة صور وقرطاجنة وقورانثة التى كانت مثلها من حيث كان البحر سببا فى عظمتها وثروتها وقد تكلم على ذلك راهب شاهد استيلاء العرب عليها بعبارة مؤثرة تدل ألفاظها على تعصبه للدين والوطن وقد تأسف أيضا الامير قسطنطين ابن القيصر بازيل غاية الاسف فى التاريخ الذى كتبه على أبيه وعد أخذها من أكبر النكبات التى خدشت عرض هذا القيصر المنصور فى زمن هرمه وقد ترتب على فتح سرقوسه ان صار عرب صقلية يتفكرون فى الاستقلال عن الاغالبة ولما تم فتح صقلية ذهب اليها ابراهيم بن الاغلب بعمارة عظيمة وفتح بعض الحصون القليلة التى كانت لا تزال للروم وعاقب مدينة قلورية (كلابره) لمحالفتها أعداءه كل ذلك ولم تتمكن أساطيل القسطنطينية القوية من المعارضة أصلا وبينما كان ابراهيم يوسع نطاق نفوذه بجنوب ايطاليا أتاه سفراء مدن ايطاليا يخطبون منه الصلح فأمرهم باستمالة أهل بلادهم الى الدخول فى طاعته وأظهر لهم استعداده لفتح مدينة رومية وقد أوقع تهديد ابراهيم الاغلبى لمدينة رومية الرعب فى قلوب السفراء المذكورين لان أهل تلك البلاد كانوا يعانون منذ مدة طويلة ما ينشأ عن مجاورة العرب من المخاوف سيما وان أمبراطرة اليونان وغيرهم لم يمكنهم حمايتهم من اغارة العرب على بلادهم فأى شئ يرجون من الدول الصغيرة الاخرى التى كانت تتنازع الامر فى الاستيلاء على بلادهم ولما استولى المسلمون على بلرم جعلوا بها دار صناعة عظيمة واتخذوها ملتقى لاساطيلهم العديدة التى كانت تتردد على سواحل تلك البلاد ولولا التفات باباوات رومية لحفظ هذه المدينة لتم للعرب الاستيلاء عليها اﻫ

وقام من بعده ابو العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلب (٢٨٩ - ٢٩٠ ﻫ) وكان حازما عاقلا رؤفا أول عمل أجراه انه نشر على العمال منشورا أظهر فيه مقاصده الجميلة نحو الامة ووعد بالعدل والرفق والجهاد ثم عزل ابنه زيادة الله عن ولاية صقلية لما بلغه عنه انه مكب على اللهو والطرب واللذات واضمار الغدر لابيه وولى مكانه محمد بن السرقوسى وفى أيام أبى العباس هذا عظم أمر أبى عبد الله الشيعى القائم بالدعوة للرضا من آل محمد فى الظاهر ليستميل اليه الناس وفى الباطن كان يدعو لعبيد الله المهدى ولكن لم تطل أيام أبى العباس فقتله بعض الخدم وهو نائم باغراء ولده فى شعبان ٢٩٠ ﻫ وأحضر رأسه الى ابنه زيادة الله فسر من ذلك

(١) طرميس مدينة حصينة من صقلية باقليم بلرم واقعة على مصب نهر مضاف اليها سكانها ٢٣٠٠٠ نسمة وبها مدرسة للملاحة ومدارس أخرى وبها معدنية حارة كان لها شهرة قديمة تتجر فى الثمار والحنطة واللوز وغيرها وبضواحيها آثار قديمة وتسمى عند الفرنج (Termini)

وقام بالامر ابنه المذكور وهو ابو مضر زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) بعد قتل أبيه وكان أول مابدأ به ان قتل الثلاثة خصيان الذين قتلوا أباه خوفه منهم على نفسه وان كان هو الذى جرأهم على ذلك ولما استبد بالحكم انعكف على اللذات وأهمل الملك وقتل من الاغالبة كل من قدر عليه من أعمامه واخوته وفى أيامه قوى أمر أبى عبد الله الشيعى القائم بدعوة العبيديين بالمغرب وساعده على بث دعوته حالة أبى مضر فارسل زيادة الله عليه جيشا مؤلفا من أربعين ألف مقاتل عقد عليهم لقائد يدعى ابراهيم من بنى الاغلب فهزمهم أبو عبد الله الشيعى فى عدة مواقع ولما رأى زيادة الله هزيمة جيوشه وعدم مقدرته على مقاومة أبى عبد الله الشيعى جمع ماقدر عليه من الاموال وسار يقصد الشرق حتى انتهى الى طرابلس فأقام فيها أياما ومعه ابراهيم القائد المذكور ثم لمانمى اليه عنه انه يريد الاستبداد بالقيروان بعد خروج زيادة الله منها نبذه وأقصاه ثم تقدم زيادة الله حتى وصل مصر الا أن عاملها عيسى النوشرى منعه عن دخولها حتى يأذن الخليفة المقتدر بالله فعاد زيادة الله الى برقة وكتب الى الخليفة بأمره فأمره المقتدر بالعودة الى المغرب لقتال أبى عبد الله الشيعى وكتب الى النوشرى عامل مصر بامداد زيادة الله بالمال والرجال وفى خلال ذلك أصاب زيادة الله علة سقط شعره منها ويقال انه سم فسار الى بيت المقدس لمقامه به فمات بالرملة ودفن بها (٢٩٦ هـ) وهو آخر الاغالبة وبعده تفرق بنو الاغلب وانقطعت أيامهم والبقاء لله وحده

(الفصل السادس)

دولة العبيديين أو العلويين بافريقية

(٢٩٦ - ٣٦١ هـ)

أصل هذه الدولة فرق من غلاة الشيعة المسماة بالاسماعيلية السابق ذكرها فى صحيفة ٢٣٥ من هذا الكتاب ولما قام أبو عبد الله الشيعى بالدعوة فى بلاد المغرب كان يدعو الى محمد والد المهدى الذى بمدينة سلمية قرب حلب ولما توفى أوصى الى ابنه عبيد الله المهدى وأطلعه على حال الدعاة وشاع ذلك فى خلافة المكتفى بالله فطلب عبيد الله المهدى فهرب هو وابنه أبو القاسم محمد وتوجها نحو المغرب فى زى التجار ولما وصل عبيد الله المهدى الى مصر وكان عامل مصر وقتئذ عيسى النوشرى وقد كتب اليه الخليفة يأمره بالقبض على المهدى الا أنه تمكن من الهرب حتى لحق بسجلماسة فأقام بها ينتحل مهنة التجار وكان صاحبها اليسع ثم وصل كتاب زيادة الله بن الاغلب الى اليسع يعلمه ان هذا الرجل هو الذى يدعو له عبد الله الشيعى فقبض اليسع على عبيد الله المهدى وحبسه بسجلماسة وأقام بالسجن حتى ملك أبو عبد الله افريقية كما تقدم فى آخر دولة الاغالبة ولما لقيه أخوه أبو العباس منطلقا من عقاله استخلفه على القيروان وترك معه أبا زكى تمام بن معارك من قواد كتامة وسار الى المغرب ففرت القبائل من طريقه وخافته زناتة فدخلوا فى طاعته ولما قرب

من سجلماسة أرسل اليسع الى المهدى بمجبسه يسأله عن حاله فانكر ثم سأل ولده أبا القاسم فانكر وضرب رجاله فأنكروا وغا الخبر الى أبى عبد الله فخاف عليهم وأرسل الى اليسع يتلطفه فقتل الرسل فاغذ أبو عبد الله السير وحاصر اليسع ثم هرب اليسع فى الليل هو وأصحابه وخرج أهل البلد الى أبى عبد الله يستعطفونه فجاء الى سجن المهدى فاخرجه منه هو وابنه أبا القاسم واركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديهما وهو يقول هذا مولاكم ويبكى من شدة الفرح ثم أنزله بالمعسكر وبعث فى أثر اليسع فجىء به فجلد ثم قتل وأقام بسجلماسة مدة شهر ونصف ورجع الى افريقية ووصل الى رقادة (٢٩٦ ﻫ) وجدد البيعة للمهدى واستولى على ملك بنى الاغلب بافريقية وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين وقال ابن الاثير انه لما استقر قدم عبيد الله فى المملكة باشر الامور بنفسه ولم يبق لابى عبد الله الشيعى ولالاخيه أبى العباس شيأ من الامر فاغضب ذلك أبا العباس وأخذ يعنف أخاه عبيد الله ويقول له أخرجت الامر عنك وسلمته لغيرك وعبد الله ينهاه عن هذا القول وكان يبلغ المهدى ذلك فيسكت وأخيرا لما جاهر أبو العباس بهذا القول وأعلن على رؤس القبائل بأن هذا ليس المهدى الذى دعونا كم اليه طلبهما المهدى وقتلهما (٢٩٧ ﻫ) وبذلك صفا له الجو فقويت شوكة العبيديين ثم بعث العمال فى النواحى وعين على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبى خنزير من رجالات كتامة فوصل الى مازر (٢٩٧ ﻫ) ثم شغب عليه الناس وشكا أهل صقلية سوء سيرته وكتبوا الى المهدى معتذرين فقبل منهم وولى عليهم أحمد بن قهرب وبوصوله بعث سرية الى أرض قلورية فدوخها ورجعت بالغنائم ثم قامت دعوة العباسيين فى صقلية وبعث الاسطول الى افريقية ولقوا أسطول المهدى وقائده الحسن بن أبى خنزير فقتلوه وأحرقوا الاسطول وسار اسطول بن قهرب الى صفاقس فخربها وانتهوا الى طرابلس ولما بلغ المقتدر العباسى ذلك أرسل الخلع الى ابن قهرب القائم بدعوته وبعد حروب يطول شرحها قامت أهل كبركيت على ابن قهرب (٣٠٠ ﻫ) وحبسوه وراسلوا المهدى فأمر بقتله على قبر ابن خنزير وولى على صقلية أبا سعيد بن أحمد وأعاد اليها دعوة العبيديين وأخذ يحارب الروم بها

ثم ان المهدى أراد فتح الديار المصرية لضعف دولة الاخشيد بها وازالة سلطة بنى العباس أعدائه منها فأرسل ابنه أبا القاسم اليها ومعه أسطول مؤلف من مائتى مركب (٣٠٠ ﻫ) فسار نحو الاسكندرية وافتتحها ثم أرسل جيشا عقد عليه لحباسة بن يوسف فملك برقة ثم الفيوم فساق عليهم المقتدر العباسى جيشا تحت قيادة سبكتكين ومؤنس فأجلوهما عن مصر ثم ان المهدى أعاد الكرة فأرسل (٣٠٢ ﻫ) حباسة المذكور على جيش فى البحر فأخذ الاسكندرية ثم سار طالبا مصر فقابله مؤنس الخادم بجيش الخليفة العباسى وجرت بينهما أربع وقعات بين مصر والاسكندرية استظهر فيها العباسيون ورجع حباسة الى المغرب فقتله المهدى لعدم نجاحه ولاتهام بعض الجنود له بما يقدح فى أمانته ثم ان المهدى أراد تشييد مدينة تكون عاصمة له فاختار بقعة على ساحل البحر كشبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند فأسس بها مدينة دعاها المهدية (٣٠٣ ﻫ) وجعل لها سورا محكما وأبوابا عظيمة وزن كل مصراع من مصاريعها مائة قنطار ولما تم بناؤها اطمأن قلبه على نفوذ الفواطم واستمر العمل فيها ثلاث سنوات واتخذ بها دار صناعة لانشاء السفن ولما تم له ما أراد جهز جيشا عرمرما وأرسله مع ولده أبى القاسم الى مصر فوصل الى الاسكندرية واستولى عليها

ثم تقدم حتى وصل الجيزة وملك أشمون وجملة بلاد من الصعيد فأرسل المقتدر جيشا مع مؤنس الخادم وجرت بينه وبين العلويين عدة وقعات وفى خلال ذلك وصل الى الاسكندرية من المهدية أسطول مؤلف من ثمانمائة مركب نجدة للقاسم وأرسل المقتدر العباسى أسطولا مركبا من خمس وعشرين سفينة من طرسوس فالتقت المراكب بالمراكب على رأس رشيد ثم تحاربوا واقتتلت العساكر فى البر فكانت الهزيمة على جيش المهدى وأساطيله فعادوا الى افريقية بعد ان قتل منهم وأسر ولما لم يرالمهدى نجاحا ببلاد مصر وجه نظره الى بلاد المغرب فافتتح بها عدة جهات وكان من ذلك ان أرسل ولده أبا القاسم (٣١٥ هـ) فى عسكر كتامة الى الغرب ففتح بلد مزاتة ومطماطة وهوراة وسائر بلاد الاباضية والصفرية وجهات تاهرت ودوخ المغرب وعاد ظافرا وكانت وفاة المهدى عبد الله العلوى بالمهدية (٣٢٢ هـ) وأخفى ولده أبو القاسم محمد موته سنة كاملة لينتظم له الامر وينفذ كل ماعزم عليه وكانت ولايته ٢٤ سنة ويقال انه كان للمهدى مذهب يخالف مذاهب أهل السنة وكان يقول ان العالم موجود من الازل وقد تقلب فى صور مختلفة عديدة وان لاشئ ثابت فيه وكان يقول خير الحياة ماصرفت بالتمتعات والنعيم وان لاشئ يجب أن يوقف الانسان عن اللذات الاعدم القدرة عليها

وقام بالامر من بعده ابنه *القائم ابو القاسم محمد* (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وبايعه الناس لما أظهر وفاة المهدى وفى أوائل حكمه كثرت الثوار فخرج عليه ابن طالوت القرشى فى طرابلس وادعى انه ابن المهدى وحاصر طرابلس ثم قتله البربر لعدم ثبوت دعواه وأغزى القائم المغرب وأقام على فاس أحمد بن بكر بن أبى سهل ثم أزاله ميسور الخصى بعد ما استولى على فاس واستمرت جيوشه تحارب حتى ملك المغرب كله ماعدا فاس وأقام دعوة الشيعة فى سائر البلاد وفى سنة ٣٢٤ هـ جهز أبو القاسم أسطولا ضخما لغزو ساحل أوروبا وعقد عليه ليعقوب بن إسحق فافتتح جنوة بعد قتل كثير من أهلها ثم مر هذا الاسطول على جزيرة سردانية فأثخن فيها ثم على قرقيسيا من سواحل الشام وأحرق مراكب العباسيين فيها وعاد بالغنائم الى المهدية ثم بعث خادمه زيدان بالجيوش والمراكب على مصر فملك الاسكندرية ولكن جيش الاخشيدى أجلاه عنها ولما أساء عامله على صقلية السيرة (٣٢٥ هـ) وكان اسمه سالم بن راشد عصت عليه جرجنت فكتب الى أبى القاسم بذلك فجهز اليه عسكرا وحاصروا جرجنت [1] فاستنجد أهل جرجنت ملك القسطنطينية رومانوس الاول فأنجدهم وبينما كانت الاساطيل آتية تلاقت مع أغربة المسلمين فى جون هناك فأحرقت منها عدة ودام حصار جرجنت الى (٣٢٩ هـ) ولما لم تتمكن الروم من نجدتها نزح

(١) جرجنت مدينة قديمة على الشاطئ الجنوبى من صقلية وهى قاعدة عمالة مضافة اليها وتبعد عن البحر بنحو أربعة كيلومترات ولها مينا تجارية مهمة جدا وسكانها يبلغون ١٩,٠٠٠ نفس وبها كنائس شهيرة قديمة ويستخرج من جوارها الكبريت وزيت البترول والى الجنوب الشرقى منها كانت مدينة جرجنت القديمة التى كانت مستعمرة للدوريين (٥٨٢ ق م) واشتهرت بالتجارة والزراعة وقد حكمها حكام لهم شهرة فى التاريخ وهدمها القرطاجنيون (٤٠٥ ق م) ثم قامت ثانية واستولى عليها الرومان (٢١٢ ق م) ثم وقعت فى قبضة العرب (٨٢٧ - ١٠٨٦ م) ثم أخضعها الكونت روجير وكانت مشيدة على عدة تلال وكان بها هياكل دورية بديعة لاتزال اطلالها الى الآن

عنها بعض أهلها ونزل الباقون على الامان الا ان القائد العربي أخذ عظماءهم وأرسلهم للقائم بالمهدية فلما توسطوا البحر أمر مقدم القائم فأغرق بهم السفينة وكان ممن خرج على القائم شخص يدعى بأبي يزيد (٣٣٣ ه) واستفحل أمره وتقدم الى رقادة [1] يريد فتحها فأخرج القائم جيشا لحفظ رقادة والقيروان معا فهزمهم أبو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورقادة ثم سار أبو يزيد يريد القائم فجهز اليه القائم جيشا وجرت بينهما حروب كثيرة وآخرها ان جيوش القائم انهزمت وولت وسار أبو يزيد وحاصر القائم بالمهدية وضايقها واستمر على حصارها الى سنة ٣٣٤ ه ولم يتمكن من فتحها لمنعة حصونها فرحل عنها الى القيروان وتوفي القائم في تلك الاثناء (٣٣٤ ه)

وملك ابنه *اسمعيل المنصور* (٣٣٤ - ٣٤١ ه) فجهز العساكر لملاقاة الثائر الذي قوى أمره وسار بنفسه الى القيروان واستردها من أبي يزيد (٣٣٥ ه) وهزم جيشه وسار المنصور في أثر أبي يزيد وهو يهرب منه من بلد الى آخر ثم عاد المنصور الى بلاد صنهاجة ولما بلغ الى موضع يسمى قرية عمرة اتصل به هناك الامير زيرى الصنهاجي جد ملوك بني باديس الذين سيأتي ذكرهم إن شاء الله فأكرمه المنصور ثم استمر المنصور في تعقب أبي يزيد حتى أدركه في قلعة كتامة فحاصرها ثم ملكها عنوة ولما أراد أبو يزيد الفرار من القلعة قبضوا عليه وحملوه الى المنصور فكبله في الحديد وبقي عنده أسيرا الى أن مات من جراحه (٣٣٦ ه) وكان أبو يزيد على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم وأراح الله أهل المغرب من فاسد بدعته

وكان لما توفي القائم بامر الله كتم ولده اسمعيل المنصور الخبر خوفا من تزايد فتنة أبي يزيد المذكور ولم يعلنه حتى فرغ من أمره وبعد ذلك التفت المنصور لامر الملك فوطد أركانه وقوى بنيانه وولى على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الذي افتتح عدة أماكن عاصية في تلك الجزيرة مدة حكمه وكانت وفاة المنصور سنة ٣٤١ ه وعمره ٣٩ سنة وكان خطيبا بليغا وفارسا مقداما وعهد الى ابنه أبي تميم معد بولاية العهد

المعز لدين الله أبي تميم معد لما جلس المعز على تخت العلويين (٣٤١ - ٣٦٥ ه) بعد وفاة والده وعمره أربع وعشرون سنة أخذ يسوس الامور بحكمة ونشاط ومهارة ولما بلغ الخبر الى صقلية استخلف واليها الحسن بن علي ولده أبا الحسين أحمد وسار هو الى افريقية وبوصوله كتب المعز لولده المذكور يقره على صقلية وقد حصل بين المعز لدين الله العلوي وبين الناصر لدين الله الاموي الاندلسي وقائع بحرية وبرية نشأ عنها تأخير فتوح العبيديين لبلاد مصر وسببها ان عبد الرحمن الناصر لشغفه بانشاء الاساطيل واستطلاع أحوال الممالك البعيدة واجتهاده في نشر متاجر الاندلس وتوسيع نطاقها

(١) قال ياقوت رقادة بلدة كانت بافريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأكثرها بساتين ولم يكن بافريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما ولا أرق تربة منها ويقال ان من دخلها لا يزال مستبشرا من غير سبب بناها ابراهيم بن أحمد بن الاغلب وانتقل اليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا وعمرت الاسواق والحمامات والفنادق فلم تزل بعد ذلك دار الاغالبة الى أن هرب عنها زيادة الله الاغلبي من أبي عبد الله الشيعي القائم بالدعوة العبيدية وسكنها عبيد الله المهدي الى أن انتقل الى المهدية فدخلها الوهن وانتقل عنها سكانها ولم تزل تخرب شيأ فشيأ الى أن ولي المعز العلوي فخرب ما بقي من آثارها ولم يبق غير بساتينها وكان تأسيسها سنة ٢٦٣ ه وحلول المهدي بها سنة ٢٩٧ ه وتخريبها سنة ٤٤٦ ه

كان اتخذ (٣٤٤ ھ) سفينة عظيمة لم يعمل مثلها فى دول الاسلام ولا فى غيرها فى ذلك الوقت وشحنها بالبضائع النفيسة والتحف الغريبة وأرسلها تتردد على جميع ثغور البحر الابيض المتوسط لتبيعها وتعتاض عنها من مصنوعات البلاد الاخرى فاتفق ان تلاقت تلك السفينة بسفينة بها رسول من صقلية الى المعز العلوى معه كتب اليه فقاطع المركب الاندلسى على مركب المعز وأخذها بما فيها ولما علم المعز بذلك اغتاظ جدا وعده اهانة عظيمة فجهز اسطولا كبيرا لغزو الاندلس واستعمل عليه قائدا يدعى الحسن بن على فسار هذا الاسطول حتى وقف امام مدينة المرية وأحرق ما فى مينائها من المراكب وأخذ تلك المركب العظيمة التى لعبد الرحمن وكانت عادت من الاسكندرية وخرج من بالاسطول من الجنود على حين غفلة فعاثوا فى البر وفتكوا وسبوا ثم عادوا الى المهدية ولما علم الناصر بذلك أرسل اسطولا تحت قيادة غالب أمير البحر الى ساحل افريقية فلم يتمكن من عمل شئ لتيقظ الحامية من الجنود الا أنه فى سنة ٣٤٥ ھ أرسل الناصر اسطولا آخر مؤلفا من سبعين سفينة فدخل بعض المرافئ وعاث فى جهات سوسة وغيرها وعاد ظافرا ولما رأى المعز جودة أساطيل الاندلس التفت الى أساطيله فأتقنها وأكثر منها وجعلها تتردد بالغزو على سواحل البحر المتوسط حتى صار لها فيما بعد الشوكة التامة ثم ان المعز جهز أبا الحسين جوهرا الصقلى خادمه فى جيش عظيم وأرسله الى أقاصى المغرب (٣٤٦ ھ) حتى انتهى الى البحر المحيط وجال فى أكثر بلاده ثم عاد الى فاس ففتحها عنوة وكان مع جوهر زيرى بن مناد الصنهاجى وكان شريكه فى الامر واستمر المعز يغزو الجهات فاتسعت أملاك العلويين اتساعا عظيما ولما رأى اضطراب أحوال مصر وكان ينتظر تلك الفرصة الثمينة من زمن وذلك بعد موت كافور الاخشيدى جهز جيشا عظيما يبلغ مائة ألف وأرسله تحت قيادة جوهر (٣٥٥ ھ) الى الديار المصرية فاستولى عليها بلا حرب وأقام فيها دعائم العلويين ثم ان المعز سار من افريقية قاصدا ديار مصر (٣٦١ ھ) بطريق البحر واستعمل على افريقية يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وجعل على بلاد صقلية أبا القاسم على بن الحسن بن على وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتامى واستصحب المعز معه أهله وخزائنه وفيها أموال عظيمة ولما وصل الى الاسكندرية آخر شعبان سنة ٣٦٢ ھ أتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم ثم دخل مدينة القاهرة التى اختطها جوهر (٣٥٨ ھ) وقامت فيها دولتهم الفاطمية وسيأتى ذكرها فى تاريخ مصر مفصلا

وفى هذا الزمن تقريبا كانت انتقلت حكومة بلاد اللومباردية الى أمراء مدينة قبوة [1] فبذلوا غاية

---

(١) قبوة مدينة من مملكة ايطاليا من اقليم كاسرتا سكانها نحو ١٢٠٠٠ نسمة وبها كنائس عظيمة أسسها اللومبارديون (٨٥٦ م) من انقاض قبوة القديمة لتقوم مقام مدينة كاسيلينوم الواقعة على بعد أربعة كيلومترات منها وكانت هذه المدينة أى قبوة القديمة من أعظم مدن ايتاليا القديمة أسستها قبيلة الاتروسك وصارت قاعدة اقليم كمفانيا استولت عليها طائفة السمنيت وكانوا جنودا لدى الاتروسك ثم ارتقت جدا حتى صارت معادلة لرومية ولما أغار انيبال على رومية فتحت قبوة له أبوابها فاحتلها التمضية فصل الشتاء بها هو وعساكره بعد واقعة كان ولما استردها الرومان (٢١١ ق م) انتقموا من أهلها أشد الانتقام وجعلوا المدينة وما يتبعها ملكا لرومانيا ثم انها ارتقت مدة القياصرة وكان لاهلها شهرة فى صناعة الجلود والجوخ وصبغ الارجوان وقد خربها جنسريك ملك الوندال واللومبارديون وكان بها فى عصر الرومان مبان فاخرة ولا يزال يشاهد بعض أطلالها الآن ثم احتلها الفرنسويون سنة (١٧٩٩ م) و (١٨٠٦ م) وجيش غاريبالدى (١٨٦٠ م) وتسمى عند الفرنج (Capoue) أو (Capua) ومنه اسمها عند العرب

مجهودهم

مجهودهم فى إجلاء العرب النازلين بجوارهم فلم ينجعوا مع اعانة كثير من أمراء بلاد ايطاليا لهم ولما رأى البابا يوحنا العاشر ما يتهدد قاعدة النصرانية من وجود هؤلاء العرب دعا المغرب والمشرق لحمل السلاح لطرد هذه العصابة الحربية فبعث القيصر قسطنطين فرقة يقودها قائد يدعى بسانجلي وبينما هى ذاهبة انضمت اليها جمهوريات اللومباردين الثلاث واعانتها باساطيلها وقدم البابا أيضا وحاصر الكل العرب الذين استمروا يدافعون عن أنفسهم ثلاثة أشهر مع الشجاعة العظيمة والصبر التام ثم لما رأوا الكثرة عليهم تركوا حصونهم بعد أن سلموها للنيران ومع ذلك فلم تنج هذه الانتصارات بلاد ايطاليا من العرب لان قسماً عظيماً منهم بقى سائداً بجبل غرغانو ومدينتى ريوو كوزنسة مع تحريض البابا يوحنا الرابع عشر الاهالى والامراء على طردهم (٣٥٩ هـ)

﴿ الفصل السابع ﴾

دولة بنى زيرى الصنهاجيين فى تونس

(٣٦١ - ٥٤٢ هـ)

تنسب هذه الدولة الى صنهاجة وهى قبيلة من قبائل البربر أصلها من حمير وكانت لهم فى أفريقية مدة دولة العبيديين دولة ضخمة فكانوا عمالا للعبيديين ثم تغلبوا واتسع ملكهم واستفحل أمرهم فى افريقية وأول من استعمله منهم المعز لدين الله العلوى عندما سار الى مصر (٣٦١ هـ) يوسف ابن بلكين بن زيرى بن باديس وأوصاه المعز قبل سفره الى مصر بامور كثيرة وأكد عليه القيام بها ثم قال له عندما أراد الانصراف الى عمله ان نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء (اياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية والسيف عن البربر وأن تولى أحداً من اخوتك وبنى عمك فانهم يرون أنهم أحق بالامر منك وافعل مع أهل الحاضرة خيرا) فعاد يوسف بن بلكين وأحسن النظر فى أحوال الدولة والرعية وغزا المغرب فى جموع صنهاجة وبدد شمل الخوارج فيها ثم ان ابن بلكين طلب من المعز العلوى أن يضيف اليه عمل طرابلس (٣٦٧ هـ) فاجابه الى ذلك ثم عاد لحرب المغرب فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط من يد عمال بنى أمية بالاندلس وبدد شمل أمراء تلك الاطراف فبعثوا بالصريخ الى المنصور بن أبى عامر بالاندلس فامدهم على حرب ابن بلكين ولكنه استمر يحاربهم حتى أذهب دعوة بنى أمية من نواحى المغرب وفى خلال ذلك (٣٧١ هـ) سار الامير أبو القاسم بالاساطيل من صقلية يريد الجهاد ولما بلغه ان ملكا من ملوك الفرنج يقال له بردويل [1] خرج بالاساطيل والجموع بقصد محاربة صقلية فحاصر قلعة مالطة [2] وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فعزم أبو القاسم

---

(١) هو بغدوين أو بردويل الرابع ملك بلاد فلاندر (Baudoin IV)

(٢) مالطة جزيرة عظيمة مهمة واقعة بالبحر المتوسط الابيض بين تونس وصقلية فتحها العرب فى أول القرن العاشر من الميلاد وكانت لليونان وبعد ان دافعت عن نفسها زمنا سلمت عنوة وعاملوا اسكانها بالرفق والحسن وأطلقوا لهم حرية الدين كما هى عادتهم فى جميع البلدان التى افتتحوها وقد اختلط سكانها بالفاتحين اختلاطا تاما حتى نسوا لغتهم وعوائدهم ولا زالت للآن لغتهم أكثر ألفاظها عربية وكان مركز هذه الجزيرة موافقا للعرب لان مرافئها الكثيرة كانت ملجأ لسفنهم العديدة وبقوا مستولين عليها مدة ٢٢٠ سنة ثم فى ابتداء القرن الثانى عشر من الميلاد استولى

على اخراجه منها ولكنه لما قارب الجزيرة خاف وجبن فرجع فلما رأى الفرنج رجوعه اقتفوا أثره باساطيلهم ولحقوه والتحم الحرب بينهم فحمل الافرنج على المسلمين فانتصروا أولا في الصدمة الاولى وقتل أبو القاسم ثم عاود المسلمون الكرة فظفروا وانتصروا وفر بردويل في جموعه وفي سنة ٣٧٣ هـ توفي يوسف بلكين بن زيري وخلفه ولده المنصور وكان صاحب عهد أبيه

وقام بالامر من بعده ابنه المنصور (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ) وفي أول حكمه بعث للعزيز بن المعز بهدايا نفيسة يقال ان قيمتها تزيد عن ألف ألف دينار وكان على طريقة أبيه وخرج عليه بعض الثوار ففتك بهم واتسعت مملكته وتوفي (٣٨٦ هـ) وكان أميرا كريما شجاعا

وقام بالامر من بعده ولده باديس بن المنصور (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) وعقد لعمه يطوفت على تاهرت وسرح عساكره تحت قيادة عميه يطوفت وحماد لحرب زنانة فانهزما ثم ولى باديس عمه يطوفت على تاهرت وبعد ذلك وقعت فتن وحروب بين باديس وعمه حماد بن يوسف بلكين يطول شرحها ثم تم الامر باستقلاله فقامت من سنة ٣٨٧ هـ دولة بني حماد ملوك بجاية وأخذت ولايته في الاتساع وقتئذ واستبد بنوه فيها الى أن ظهر عبد المؤمن وملك بجاية (٥٤٧ هـ) ثم توفي باديس (٤٠٦ هـ) وكان من أعظم الملوك حازم الرأى متوقد الذهن يهتم كثيرا باصلاح أمر جيوشه والقيام على تدربها بنفسه ويقال ان سبب موته ما اعتراه من الفرح الشديد حينما عرضت عليه جنوده ورأى جودة نظامها وحسن هيئتها حتى كاد يطير قلبه فرحا *فمن فرح النفس ما يقتل* فمات في تلك الليلة

وبويع ابنه المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ) وعمره ثمان سنوات ثم وصلت اليه الخلع والتقاليد من الحاكم العلوي ولقبه شرف الدولة وكان المعز منتحلا للسنة فأعلن بمذهبه لاول ولايته والمعز هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب الامام مالك وكانوا قبله على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنهما ولما كان يميل لاهل السنة ثار الناس بالشيعة بأفريقية وقتلوهم وسببها انه مر راكبا بالقيروان فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل له عنهم رافضة يسبون أبا بكر وعمر فقال المعز رحمة الله عليهما ورضي الله عنهما فثار بهم الناس وكانت فتنة عظيمة (٤٠٧ هـ) وفي سنة ٤١٦ هـ خرج الروم الى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في شبه جزيرة قلورية الواقعة شرقي صقلية وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم مع ابن أخت الملك فلما بلغ المعز بن باديس ذلك جهز أسطولا كبيرا مركبا من أربعمائة مركب وحشد فيه الجنود والمتطوعين للجهاد وأقلع هذا الاسطول ولما وصل الى جزيرة قوصرة [1] وهي قريبة من بر أفريقية خرج عليه نوء عظيم فأغرق أكثر سفنه ولم ينج منه الا القليل ولما كان يكره الشيعة قطع خطبة

عليها روجير النورمندي حينما فتح صقلية وقد شيد بها العرب عدة مباني ومدن وقلاع وسيأتي ذكرها مفصلا عند الكلام على دولة الانكليز ان شاء الله

(١) جزيرة صغيرة بالبحر المتوسط الابيض تابعة لايطاليا تبعد عن شواطئ افريقية بنحو ستين كيلومترا أرضها جبلية خصبة السهول وهي منفى لاصحاب الجرائم من مدينة نابل تسمى الآن عند الفرنج (Pantellaria) وقديما (Csoyra) ومنه اسمها لدى العرب

العلويين وخطب للقائم العباسي فجاءته الخلع والهدايا والمراسيم على طريق القسطنطينية بحرا وتلاشت لهذه الاسباب دولة العبيديين من أفريقية فعظم ذلك على المستنصر العلوي وأرسل الى المعز باديس يهدده فاغلظ ابن باديس في الجواب واتفق المستنصر ووزيره الحسن بن على البازوري على ارسال قبيلتي زغبة ورياح من العرب للتشغيب وأمدوهم بالاموال فساروا الى أفريقية وهزموا جيوش المعز بن باديس عدة مرات ونزل بأهل أفريقية من ذلك بلاء عظيم واستقلت بعض الايالات ثم توفي المعز (٤٥٣ هـ) وكان كريما حليما شاعرا أديبا ولما مات المعز طمعت نفوس أصحاب البلاد في الاستقلال كما تقدم بسبب اغارة العرب وتغلبهم على بلاد أفريقية

وقام بالامر من بعده ابنه ابو يحيى تميم بن المعز (٤٥٣ - ٥٠١ هـ) ولم يكن له الا ماضمه السور من مدينته وكان يخالف بين العرب ويسلط بعضهم على بعض واستمر يحاربهم ففتح سوسة وأرسل الجيوش على تونس فاستقام له أمرها ثم استمرت الحروب وملك بعض أمصار أفريقية وهزم العرب بقرب المهدية (٤٧٦ هـ) وأخرجهم من القيروان وفي سنة ٤٨٠ هـ نزل على المهدية أسطول مركب من ٣٠٠ مركب وثلاثون ألف مقاتل من الثوار واستولوا عليها وعلى [1] زويلة فبذل لهم تميم للنزول عنها مائة ألف دينار واستخلصها من أيديهم بعد ما نهبوها

ضياع جزيرة صقلية — اما أحوال جزيرة صقلية في الوقت المذكور فكانت مرتبكة والثورات قائمة في كل جهة فتضايق أهلها وخاف المسلمون من اغارة الفرنج الذين يتربصون الفرص لذلك وحضر بعضهم الى أفريقية (٤٢٧ هـ) وعرضوا أحوالهم على المعز بن باديس وطلبوا منه المساعدة على خلع عاملهم أسد الدولة الكلبي المشهور بالاكحل فارسل المعز بن باديس الى صقلية جيشا مع ابنه عبد الله فحاصر والاكحل في الخالصة وقتلوه وحمل رأسه للمعز ثم ان عسكر المعز ارتكبوا أفعالا شنيعة فكرهتهم الناس وتحزبوا عليهم حتى هزموهم بعد ان قتلوا منهم ثمانمائة جندي فعاد من بقي منهم في المراكب الى أفريقية وولى أهل صقلية عليهم حسن الصمصام بن يوسف أخا الاكحل فاضطربت في ولايته أحوال صقلية واستولى الاراذل على الاحكام ثم ثار أهل بلرم على الصمصام وأخرجوه وقدموا عليهم ابن الثمنة من رأس الاخيار وتلقب بالقادر بالله واستبد بمدينة مازر ثم انفرد كل انسان في الجزيرة ببلد فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وأطربنش [2] وغيرهما وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواش بقصريانة وجرجنت وغيرهما وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية ثم وقع القتال بين هذين الرئيسين واستنصر ابن الثمنة بالفرنج الذين بمدينة مالطة مدة ملكهم رجار أور وجير النورمندى وهون عليهم أمر أهل صقلية فسار الفرنج وابن الثمنة الى البلاد التي بأيدي المسلمين (٤٤٤ هـ) واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة وفارق الجزيرة حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصالحين وسار جماعة الى المعز بن باديس الى أفريقية مستصرخين ثم استولى الفرنج على غالب بلاد صقلية وحصونها بلا ممانع ولم يثبت امامهم غير قصريانة وجرجنت

(١) هي زويلة المهدية لا زويلة فزان التي ذكرها ياقوت قال زويلة المهدية مدينة بأفريقية بناها المهدي الى جانب المهدية بينهما رمية سهم فقط وأسكن بها العامة وسكن هو وعسكره المهدية

(٢) هي مدينة طرابنة المتقدمة الذكر

وقاومت قصريانة بعد سقوط جرجنت مدة ثلاث سنين ثم أذعن أهلها أخيرا ثم ملك رجار جميع الجزيرة (٤٦٤ هـ) فاحسن السيرة ولم يتعرض للمسلمين باذى وسمح لهم بان يكتبوا على الدنانير والدراهم على الوجه الواحد منها الا اله الا الله محمد رسول الله وعلى الثانى الملك رجار وهو الذى أدخل الديانة النصرانية الى صقلية وكانت وفاته بمدينة مليطو بأرض قلورية (٤٩٠ هـ) وتولى بعده ولده رجار الثانى وسلك على طريقة ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والحراس وغير ذلك وأسكن فى الجزيرة الفرنج مع المسلمين وأكرم المسلمين ومنع من التعدى عليهم وقربهم واليه ألف الشريف أبو عبد الله الادريسى كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الا انه بسبب الحروب الصليبية التى اشتعل لهيبها فى الوقت المذكور أخذت العرب تهاجر من الجزيرة شيأ فشيأ حتى خلت منهم تماما وفى سنة ٥٠١ هـ توفى تميم بن المعز بن باديس وكان حليما شاعرا وعمره ٧٩ سنة وولايته ٤٦ سنة وخلف من الاولاد مائة ولدين ذكور واناث وكان شجاعا ذكيا محبا للعفو وله شعر حسن وكان محبا للعلماء وأهل الأدب

وقام بالامر من بعده ابنه يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) وكان عمره حين ولى الامر ٤٣ سنة وفتح أمره بافتتاح امكيسة ثم غلب عليها ابن محفوظ الثائر بها وثار أهل صفاقس على ابنه أبى الفتوح فلطف الحيلة فى تفريق كلمتهم ثم راجع يحيى طاعة العبيديين لما رأى ضرورة ذلك ووصلته المخاطبات والهدايا من الخليفة الفاطمى وقد صرف همته الى غزو الفرنج بالبحار فاستكثر من الاساطيل البحرية واقتنى عددا كثيرا من السفن ورددالبعوث الى دار الحرب حتى هابته أمم الفرنج وأغارت أساطيله على جنوة وسردانية وكان له فى ذلك آثار ظاهرة ثم مات فجأة فى قصره يوم عيد الاضحى (٥٠٩ هـ) وخلف ثلاثين ولدا

وقام بالامر بعده ابنه على بن يحيى بعد ان استقدم من صفاقس (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) وبعد ما استتب له الامر نهض الى حصار تونس حتى استقام له الثائر بها وساق الجيوش لردع الثوار ووصل اليه من مصر الخلع والمخاطبات على العادة ثم نهض لمحاربة المغرب (٥١١ هـ) ففتح وغنم وفى خلال ذلك أى بعد ما استتب قدم الفرنج فى صقلية طمعوا فى تملك أفريقية فخرجوا فى أسطول كبير وجم غفير من مشهورى فرسان الفرنج فحاصروا جزيرة جربه ونزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فقتل منهم عدد كثير ثم انهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا نساءها وهلك أكثر رجالها ومن بقى منهم أخذوا لانفسهم أمانا من صاحب صقلية المذكور وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم ثم حدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين أهل طرابلس فارسل عليهم (٥١٤ هـ) أسطولين فأغارا عليها وانتهباها وعادا بالغنيمة ثم هم على بن يحيى بانشاء الاساطيل لمعاقبة رجار على فعله ولكن عاجلته المنية (٥١٥ هـ) وفى رواية أخرى ان أسطول صقلية الاول بعد ان حاصر طرابلس وعلق رجاله الكلاليب فى سور البلد ونقبوه وصل فى خلال ذلك جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوى أهل البلد بهم فخرجوا الى الاسطول الصقلى المذكور وحملوا على رجاله حملة منكرة فهزموهم هزيمة فاحشة وقتلوا منهم خلقا كثيرا ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات

فاغتنمها

فاغتنمها العرب وأهل طرابلس ورجع الفرنج الى صقلية مهزومين والاسطول الثانى قصد المغرب فوصل الى جيجلى من مدن الجزائر فلما رآهم أهلها هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوه فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه الامير يحيى بن عبد العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا الى صقلية بالغنيمة

وقام بالامر من بعده ابنه الحسن بن على (٥١٥ - ٥٥٥ هـ) وعمره اذذاك اثنتا عشرة سنه بعهد من أبيه وقام بتدبير دولته مولاهم القائد صندل الخصى ولما مات تولى تدبير الدولة القائد أبو عز موفق وكان والد الحسن قبل وفاته أرسل الى رجار صاحب صقلية عند وقوع الوحشة بينهما يهدده بالمرابطين ملوك المغرب واتفق فى خلال ذلك ان غزا أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين صقلية وافتتح قرية فسباها وقتل أهلها (٥١٦ هـ) فلم يشك رجار فى أن ذلك باغراء الحسن فساق أساطيله الى المهدية وعليها عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرجى بن ميخائيل الانطاكى وكان قبل ذلك قائدا بحريا عند الامير تميم بن المعز وكان يحيى يشاوره فى مهام الامور ولما مات تميم أعمل جرجى الحيلة فى اللحاق برجار فلحق به فاستعمله على اسطوله وبعثه لحصار المهدية فى ٢٥٠ سفينة وعدد وافر من الجيوش ولما وصل الى جزيرة قوصرة افتتحها وكان الحسن قد استعد لحربهم فلما وصلوا نزلوا الى الساحل وأخذوا فى التخريب والتحريق وسلكوا قصر الدهانين وجزيرة الاملس وتكرر القتال بين الطرفين الى أن غلبهم المسلمون فاقلعوا راجعين الى صقلية وفى سنة ٥٤١ سير روجر أو رجار الثانى كونت صقلية اسطولا تحت قيادة جورجى ميخائيل الى طرابلس الغرب فاحاطوا بها برا وبحرا فخرج اليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس آل الامر فيه الى قتال المسلمين بعضهم بعضا فانتهز الفرصة فرنج صقلية ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج البلد عنوة وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب ملتجئا الى البربر والعرب ثم نودى بالامان فى كافة الناس فرجع من هاجر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها وولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا منه الرهائن وتركوا فيها حامية ورجعوا الى صقلية وألزم ملكهم المذكور أهل صقلية والروم بالسفر اليها وعمرت سريعا وبعدها تقدم محمد بن ميمون قائد المرابطين باسطوله فعاث فى نواحى صقلية فعزم رجار على اعادة غزو المهدية ثم وصل اسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهدية مع قائده مطرف بن على بن حمدون الفقيه فصالح الحسن بن على رجار صاحب صقلية واستمده فامده رجار باسطوله ثم عادت الفتنة بين رجار والحسن بن على ثانية وأرسل رجار (٥٤٣ هـ) اسطولا كبيرا مؤلفا من ٣٠٠ سفينة تحت قيادة جورجى بن مناسل فطلب الحسن المساعدة من ملوك الاسلام ولما لم يجيبوه رحل عن المهدية واتبعه الناس ودخل العدو المدينة فاستولى على ما بها من الذخائر الملوكية التى تركها الحسن فى قصوره ثم بعث رجار اسطولا الى صفاقس فملكها وأخذ سوسة ثم طرابلس واستمر رجار يحارب حتى ملك بلاد الساحل الافريقى كلها وصارت فى حوزته أما الامير حسن فانه ذهب لمقابلة عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليفة امامهم المهدى فى بجاية (٥٤٧ هـ) فاكرم وفادته واستمر فى خدمته وفى سنة ٥٤٨ هـ ثار أهل جربة على فرنج صقلية وتمكنوا من

طردهم منها ثم عادوا باساطيلهم وغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واشتملوا على الرعية وأهل العلم ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والفرنج الى أن فتحها عبد المؤمن باسطول الموحدين ولما علم عبد المؤمن بما حل بالمسلمين تقدم بجيوش الموحدين واستخلص أفريقية من يد الافرنج وفتح المهدية (٥٥٥ هـ) صلحا وأسكن بها الحسن فاقام بها ثمان سنوات ثم استدعاه الامير يوسف بن عبد المؤمن فارتحل باهله يريد مراكش فمات فى تامسنا وبه انقرضت دولة الصنهاجيين من تلك الاطراف وعدتهم ثمانية ومدة ملكهم مائة واحدى وثمانون سنة وذلك من حين ذهاب المعز الى مصر الى أن انقرضت دولتهم وان اعتبرنا أول دخولهم فى الامارة واستعمال العبيديين لهم فانه كان من سنة خمس وثلاثين وثلثمائة فان المدة تكون مائتين وسبع سنين

(الفصل الثامن)

دولة الموحدين بتونس

(٥٥٥ - ٦٠٣ هـ)

قد سبق لنا شرح أخبار دولة الموحدين وأوليتهم بتاريخ المغرب الاقصى ولهذا نستخلص فى هذا الفصل حكمهم فى تونس فقط الى أن قامت بها دولة الحفصيين فنقول انه لما قام أمير المؤمنين عبد المؤمن الكومى القيسى بجيوش الموحدين قصد اخضاع بلاد المغرب الاوسط وتغلب على بجاية وقسطنطينة وعاد الى مراكش انتهت اليه شكوى أهالى أفريقية مما نزل بهم من العرب فبعث اليها ابنه عبد الله فى عساكر الموحدين ففتح البلاد وأخضع بعض القبائل ثم نازل تونس (٥٥٢ هـ) فامتنعت عليه أولا ثم انضم الى أهل المدينة محرز بن زياد وقومه من العرب وبرزوا للموحدين فاوقعوا بهم ثم ان عبد المؤمن زحف الى تونس بجيش عظيم ففتحها ثم نازل المهدية وبها جمع من فرنج صقلية وبعد حصارها أياما فتحها صلحا (٥٥٥ هـ) كما سبق ذكر ذلك فى آخر دولة الصنهاجيين ثم استنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدى الفرنج وبعث ابنه عبد الله الى قابس فاستخلصها من يد بنى كامل واستخلص قفصة من يد بنى الوادو وزغنة من يد بنى بروكس وطبرية من يد ابن علال وجبل زغوان من يد بنى حماد بن خلفة وسقنبارية من يد بنى عباد ومازال يفتح البلاد حتى استولى على غالب جهات المغرب الادنى والاوسط وبعد ان اتم الفتح وانثنى راجعا الى المغرب بلغه أن الاعراب بافريقية ثاروا عليه فسير عليهم العساكر من الموحدين فنهضوا الى القيروان وأوقعوا بالعرب وهزموهم هزيمة منكرة فعادت السكينة الى افريقية وكانت وفاة عبد المؤمن (٥٥٨ هـ)

وقام بالامر من بعده الامير يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) فاستوزر السيد أبا حفص وكان وزيرا لابيه وكان ابن ميمون قائد الاساطيل بايع للموحدين فعينوه قائد الاساطيلهم ولما أصلح شأنها شحنها بالرجالة وخرج للغزو فى البحار وكان يبعث بالغنائم وبالاسرى والعلوج للخليفة أبى يعقوب الى أن هلك (٥٧٩ هـ) وللامير المؤمنين يوسف هذا وقائع وغزوات برية وبحرية سبق ذكرها فى تاريخ المغرب الاقصى والاندلس وكانت وفاته سنة

٥٨٠ ﻫ وكان عالماً حلو الحديث طيب المجالسة أعرف الناس بسياسة الملك وأحفظهم لتاريخ العرب في الجاهلية والاسلام

وقام بالامر من بعده ابنه المنصور يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥ ﻫ) فاستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص واستعد للجهاد فجاز بجيوشه من بر العدوة الى الاندلس وحارب فيها محاربات ذات شأن عظمت فيها فتوحاته خصوصاً بعد واقعة الارك السابق ذكرها في تاريخ المغرب الاقصى وبعد موت لب بن ميمون قام أولاده على سيرة أبيهم في غزو البحار ومن ذلك أنهم في سنة ٥٨١ ﻫ ركبوا البحر في اسطولهم فكانت لهم وقائع شهيرة بساحل البربر خصوصاً بعد استيلائهم على بجاية وفي خلال ذلك حضر أحمد الصقلي قائد أساطيل صقلية مغاضباً الاميرها وقدم خضوعه للمنصور فعينه قائداً على الاساطيل فاحسن ادارتها وقوى سفنها وأقلع بها الى بجاية وملكها وله وقائع بحرية كثيرة سبق ذكر بعضها بتاريخ مراكش وكانت وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمدينة سلا سنة ٥٩٥ ﻫ وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية معرضاً عن مذهب الامام مالك

وقام بالامر من بعده ابنه محمد بن يعقوب (٥٩٥ - ٦٠٣ ﻫ) وتلقب بالناصر واستوزر أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية وفوض اليه شؤونها ولما بلغه (٥٩٦ ﻫ) استفحال ثورة ابن غانية ورجوع السيد أبي الحسن من قسطنطينة منهزماً امام ابن غانية المذكور أرسل السيد أبا زيد بن أبي حفص الى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها وفي تلك الاثناء تغلب ابن غانية على حصن المهدية وثار بالسوس (٥٩٨ ﻫ) ثائر آخر من قبيلة كزولة يعرف بأبي قفصة فأرسل الناصر بن المنصور اليه عساكر الموحدين فشتتوا جوعه وقتل أبو قفصة في الواقعة وفي خلال ذلك بعث الناصر أسطولاً آخر مع عمه السيد أبي العلاء والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص ونازلوا ميورقة وامتلكوها من يد عبد الله أخي علي عامل قسطنطينة فولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر ولما تكالب ابن غانية وأتباعه على أفريقية واستولى على أمصارها وحاصر تونس وملكها وأسر السيد أبا زيد أميرها نهض الناصر من المغرب (٦٠١ ﻫ) لما وصله خبر كثرة الهرج بافريقية وتقدم بالجيوش بعد أن بعث الاسطول في البحر لنظر أبي يحيى ابن أبي زكريا الهزرجي فبعث ابن غانية ذخيرته وحرمه الى المهدية مع أحد خواصه وانتقض أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عامله تاشفين بن الغاني فقصدهم ابن غانية فافتتحها وخربها ووصل أسطول الناصر الى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أتباع بن غانية ونهض الناصر في اتباعه يحارب ابن غانية وأتباعه حتى استرجع جميع البلاد من أيديهم وشردهم عن نواحيها وخيم على المهدية يحاصرها فاجلب ابن غانية جوعه خلال ذلك على قابس فساق عليه الناصر الشيخ أبا محمد الحفصي في عساكر الموحدين وزحف اليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم وأثخن فيهم بالقتل والسبي واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم ورجع الى الناصر بعسكره من حصار المهدية ظاهراً ظافراً ولما عاين أهل المدينة قدومه بالغنائم والاسرى بهتوا وسقط في أيديهم وسألوا النزول على الامان فكمل فتح المهدية ورجع الناصر الى تونس فأقام بها حولا تمكن فيه من تدويخ باقي الثائرين

فيما وراء طرابلس وأثخن فى بنى طمطامة ونفوسة وتبع الموحدون ابن غانية حتى التجأ الى صحراء برقة وانقطع خبره ثم اعتزم الناصر على العودة الى المغرب وقد أفاء على افريقية ظل الرضا وضرب عليهم سرادق الحماية ولما بدا له ان ابن غانية سيخالفه اليها وأن مراكش بعيدة عن الصريخ وانه لابد من رجل يسكن فيها مدة الخلاف و يقيم بها شؤن الملك وقع اختياره على أبى محمد ابن الشيخ أبى حفص وكان لهذه العائلة منزلة كبيرة عند بنى عبد المؤمن ولما سار الخبر بذلك الى أبى محمد امتنع وشافهه الناصر به فاعتذر فبعث اليه ابنه يوسف فاكرم موصله وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقية فى ثلاث سنين وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين وأن لا يتعقب عليه فى تولية ولا عزل فقبل شرطه ونودى فى الناس بولايته ورفعت بين الموحدين رايته وارتحل الناصر الى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من بجاية فقعد مقعد الامارة بقصبة تونس (٦٠٣ ه) وقد ذكرت باقى أخبار دولة بنى عبد المؤمن فى تاريخ مراكش فليراجعها من يشاء

((الفصل التاسع))

دولة بنى حفص وتصاريف أحوالهم

(٦٠٣ - ٩٨٢ ه)

الحفصيون ينسبون الى أبى حفص عمر بن أبى يحيى الهنتاتى وكان من أصحاب المهدى محمد بن تومرت وخواصه المقربين فلما توفى ابن تومرت وبايع الموحدون عبد المؤمن بن على كان أول من بايعه أبو حفص عمر الهنتاتى هذا فجعله عبد المؤمن رئيس وزرائه و بعد ذلك صارت بنو عبد المؤمن على طريقته يولون بنى أبى حفص الوزارة و يقلدونهم الولايات العظيمة وكان الحفصيون يزعمون أنهم قرشيون من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأول من تولى منهم الديار التونسية عبد الواحد بن أبى بكر بن أبى حفص عمر الهنتاتى ولاه الناصر بن المنصور كما تقدم فى تاريخه ولما استقامت الاحوال لعبد الواحد بافريقية ونفذت بها أوامره ونواهيه عاد ابن غانية الى نواحى طرابلس وجمع أحزابه وأتباعه من العرب وأخذ يعيث فى البلاد فارسل عليه عبد الواحد الحفصى قائدا يدعى بأبى محمد (٦٠٤ ه) على عساكر الموحدين فحاربه وانتصر عليه وتفرقت جموعه فتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم وأفلت ابن غانية جريحا ثم رجع أبو محمد الى تونس ظافرا وخاطب الناصر بالفتح فبعث الناصر اليه بالمال والخلع والخيل والكسى للانفاق والعطاء للجنود فزادت بذلك قوة الحفصيين ولما توفى عبد الواحد (٦١٨ ه) افترق أمر الموحدين فيمن يولونه بعده فكانت مع ابنه عبد الرحمن ابن الشيخ أبى محمد فرقة وفرقة مع ابراهيم بن عم اسمعيل ابن الشيخ أبى حفص فترددوا مليا ثم اتفقوا على الامير أبى زيد عبد الرحمن ابن المتوفى

فقام ابو زيد بالامارة بعد أبيه (٦١٨ - ٦٣٤ ه) وأعطوه صفقة أيمانهم وأقعدوه

بمجلس أبيه في الامارة فسكن الثائرة وشمر للقيام بالامر عزائمه وأفاض العطاء وخاطب المستنصر ابن الناصر فيما عن له وخرج في عساكر الموحدين لتمهيد النواحي وحماية الجوانب ثم وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته و وجه ولاية تونس الى أبي العلاء من بني عبد المؤمن ولكن لم تطل أيامه فتوفي وعادت افريقية الى ولاية الحفصيين و بعد منازعات يطول شرحها تولى ابو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٢٣ هـ) ولما تربع في دست الامارة التونسية ولى أخاه أبا زكريا يحيى قابس وأخاه أبا ابراهيم اسحق بلاد الجريد ثم خرج على عبد الله وهو على قابس أصحابه ورجوه وطردوه (٦٣٤ هـ) و ولوا موضعه أخاه أبا زكريا ابن عبد الواحد

ابو زكريا يحيي بن عبد الواحد (٦٣٤ - ٦٤٧ هـ) وكان بويع له أولا بعد موت أبيه بالقيروان (٦٢٥ هـ) ثم لما جاء الى تونس اجتمعوا عليه وجددوا له البيعة وقد اتسع ملكه وعلت كلمته وفي خلال ذلك كان أمر بني عبد المؤمن هوى الى الهبوط وأخذ ريحهم في الفشل ورأى أهل المغرب تقدم أمر بني حفص بافريقية فبايعوهم بالخلافة ٦٣٥ وكان شأن بني عبد المؤمن بالاندلس آخذا في الجمود والزوال أيضا وخرج عليهم ابن هود وقام ابن الاحمر بالثورة في أرجونة واضطربت الاندلس بالفتنة كما تقدم و زحف الاسبانيول الى ثغور الاندلس من كل جانب وتقدم ملك أرغون جاك اوجايم الاول الى بلنسية فحاصرها وكانت حروب الفرنج ممتدة في شاطبة وجيان و بلطيرة ومرسية وغيرها وأهل جنوة من وراء ذلك على سبتة ثم تملك طاغية قشتالة وهو فرديناند الثالث مدينة قرطبة (٦٣٤ هـ) وظفر طاغية ارغون المذكور بكثير من حصون بلنسية فاعتزم زيان بن مردنيش أميرها عند ذلك على غزو من بقي بها من عساكر الفرنج وحصلت حروب استشهد فيها كثير من المسلمين ثم زحف اليها الطاغية المذكور بعد ان استجاش (٦٣٥ هـ) وحاصرها فعند ذلك بايع أهل الاندلس الحفصيين وأرسل ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبيد الله ابن الابار صريخا الى أبي زكريا فأجابهم الى ذلك و بعث اليهم أسطوله مشحونا بمدد الطعام والاسلحة والمال تحت قيادة أبي يحيي بن يحيي الشهيد ابن اسحق بن أبي حفص وجاءهم الاسطول بالمدد وهم في هوة الحصار فنزل بمرسى دانية واستفرغ المدد بها وفي أثناء ذلك سلمت بلنسية الى ملك أرغون (٦٣٦ هـ) وخرج ابن مردنيش الى جزيرة شقر فأخذ البيعة على أهلها للحفصيين ورجع ابن الابار الى تونس فنزل على أمر السلطان أبي زكريا واستمرت القلاقل في الاندلس وأبو زكريا يرسل المدد الى أن توفي (٦٤٧ هـ) وكان ملكا جليلا وملكه ٢٢ سنة وانشأ في تونس أبنية عظيمة شامخة وكان عالما بالادب

وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) وتلقب بالمستنصر ودعي بامير المؤمنين ومن ثم سار لقب أمير المؤمنين مع اللقب الخاص كالناصر والمستنصر وأمثالهما جاريا عليهم كما كان لغيرهم من الخلفاء وعندها سعى عمه أبو ابراهيم في خلعه فخلع و بايع لاخيه محمد اللحياني الزاهد على كره منه لذلك فجمع أبو عبد الله محمد المخلوع أصحابه في يوم خلعه وشد على عميه فقهرهما وقتلهما واستقر في ملكه كما كان ومن أشهر الحوادث التي حصلت في أيامه زحفة الفرنج على تونس

قال ابن خلدون انه فى سنة ٦٦٨ هـ أرسل لويس بن لويس (لويز التاسع) ملك فرانسا الى ملوك النصارى يستنصرهم الى غزو تونس وأرسل الى البابا اكليمنصوس الرابع فأوعز الى ملوك النصرانية لمظاهرته فاجاب جماعة من ملوك الفرنج لغزو بلاد المسلمين فشاع خبر استعداد النصارى للغزو وهم المسلمون بترميم الثغور وأمر المستنصر بسائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل الى الثغور بذلك وباصلاح الاسوار واختزان الحبوب وأوفد السلطان على ملك الفرنسيس رسله ومشارطته على ان يكف عزمه فلم يرض وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله الى تونس (٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م) فاجتمعوا بسردانية ونادى السلطان المستنصر بالنذير بالعدو والاستعداد له والنفير الى قرب المرافئ وبعث الشوانى فى البحار لاستطلاع الخبر فتوالت بعد مدة الاساطيل بمرسى قرطاجنة فنزلوا بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل وأساطيلهم تبلغ ثلثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة وكانوا سبعة يعاسيب فيهم الفرنسيس وأخوه صاحب صقلية والعلجة زوج الطاغية وتسمى الرينة وأنزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت ماثلة الجدران فوصلوا ما فصل الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونضدوا شرافاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا وأقاموا متحرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه فى أساطيله فى البحر من صقلية والعدوة بالرجال والاسلحة والاقوات وبعث السلطان فى ممالكه حشدا فوافته الامدادات من كل ناحية من المغرب والاندلس وقبائل العرب فاتصلت الحرب ومات من الفريقين خلق كثير وفى خلال ذلك هلك ريدفرنس (أى سان لويز او لويز التاسع) يقال أصابه مرض الوباء ولما توفى اجتمع النصارى على ابنه فبايعوه ثم بعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح مع الفرنج بمال دفعه لهم صاحب تونس فرجع الفرنج الى عدوتهم وتفرقت تلك الجموع وبقى المستنصر الى ان توفى (٦٧٥ هـ) اهـ

وقام بالامر من بعده ابنه يحيى بن محمد بن أبى زكريا (٦٧٥ - ٦٧٨ هـ) وتلقب الواثق بالله وكان ضعيف الرأى فتحرك عليه عمه أبو إسحق ابراهيم وكان هرب مدة المستنصر وأقام بتلمسان وغلب على الواثق فخلع أبو زكريا نفسه واستقر أبو اسحق ابراهيم فى المملكة (٦٧٨ هـ) وخطب لنفسه بالامير المجاهد وترك زى الحفصيين مقيما على زى زناتة وعكف على الشراب والملاذ وفرق نواحى المملكة على أولاده فوثبت أولاده على الواثق المخلوع وذبحوه وذبحوا معه ولديه الفضل والطيب وسلم للواثق ابن صغير يلقب بابى عصيدة ثم ظهر انسان ادعى انه الفضل بن الواثق الذى ذبح مع أخيه واجتمعت عليه الناس وقصد أبا اسحق ابراهيم وقهره فهرب أبو اسحق الى بجاية وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز فترك أبو فارس أباه وسار باخوته وجمعه الى الداعى بتونس والتقى الجمعان فانهزم عسكر بجاية وقتل أبو فارس وثلاثة من اخوته ونجا له أخ اسمه يحيى ولما هزم الداعى عسكر بجاية وقتل المذكورين أرسل الى بجاية من قتل أبا اسحق ابراهيم وجاء برأسه ثم تحدث الناس بدعوة الداعى واجتمعت العرب على عمر بن ابى زكريا بعد هربه من المعركة وقوى أمره وقصد الداعى ثانيا بتونس وقهره واستتر الداعى فى دور بعض التجار بتونس ثم أحضر واعترف بنسبه وضربت عنقه وكان الداعى المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد بن مرزوق بن أبى عمار وكان

أبوه يتجر الى بلاد السودان وكان الداعي المذكور فطنا من أهل الحيل والخداع وكان من أمره انه سار الى مصر واجتمع على بعض علمائها ثم عاد الى المغرب ولما مر على طرابلس قابل بها شخصا اسود يسمى نصيرا كان خصيا للواثق المخلوع وكان هرب لما جرى للواثق ما جرى وكان في أحد الداعي بعض الشبه من الفضل بن الواثق فدبر مع نصير المذكور الامر وشهد له بذلك وحصل ما حصل حتى قتل وأخذ أبو حفص منه الملك

ولما استقر لأبي حفص عمر الملك (٦٨٣ - ٦٩٤ هـ) تلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وهو المستنصر الثاني وبادر الناس الى الدخول في طاعته وبعث القاصية بيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازازي على عساكره لاخضاع الضواحي وكان من أعظم الحوادث تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة (٦٨٨ هـ) وكانت المراكب لصاحب صقلية فريدريك الاراغوني وكانوا فيما قيل سبعين اسطولا من غربان وشواني وضايقوا الجزيرة مرارا ثم تغلبوا عليها ونهبوا أموالها وحملوا أهلها أسرا ثم بنوا بساحلها حصنا وشحنوه بالمقاتلة والسلاح واستمرت مراكبهم في تلك المياه الى رأس المائة السابعة وبقيت الجزيرة في ملك الفرنج الى سنة ٧٤٠ هـ ثم استخلصها العرب وكانت أساطيل الحفصيين في العهد المذكور ضعيفة بسبب حدوث الفتن الداخلية ولم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور الى أن توفي (٦٩٤ هـ) وأوصى بالملك من بعده لولده عبد الله وكان صغيرا فلم يرضه الفقهاء فملكوا أبا عصيدة بن يحيى الواثق

وقام بالامر من بعده ابو عبد الله محمد بن يحيى الواثق المعروف بابي عصيدة (٦٩٤ - ٧٤٧ هـ) وتلقب بالمستنصر بالله وهو المستنصر الثالث وانشرحت الصدور ببيعته ورضيته الكافة وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص وقلد وزارته محمد بن برزيكش من مشيخة الموحدين وتوفي في أيامه صاحب بجاية المنتخب يحيى بن ابراهيم بن أبي زكريا وملك بعده بجاية ابنه خالد بن يحيى وبعد ان استقرت له الامور وتمهد ملكه أصابه مرض الاستسقاء فازمن به ثم مات على فراشه (٧٠٩ هـ) ولم يخلف ابنا فأوصى بالامر من بعده الى أبي يحيى الشهيد الا أن الموحدين بايعوا شخصا من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن فأقام في الملك ثمانية عشر يوما ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجاية ودخل تونس وقتل أبا بكر المذكور ولما حصل ذلك كان زكريا اللحياني بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب ابن تومرت بمصر فسار مع عسكر السلطان الملك الناصر قلاوون الى طرابلس الغرب وبايعه العرب ثم سار الى تونس فخلع خالد بن المنتخب وقبض عليه وحبسه ثم قتله قصاصا بابي بكر بن عبد الرحمن المتقدم الذكر واستقر اللحياني في ملك افريقية (٧١١ هـ) ثم بعد ثمانية أيام من ملكه تحرك على اللحياني أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب فهرب اللحياني الى ديار مصر وأقام بالاسكندرية وملك أبو بكر المذكور تونس وخضعت له البلاد خلا طرابلس والمهدية

وبعد هرب اللحياني بايع ابنه محمد أبو ضربة لنفسه واقتتل مع أبي بكر المذكور فهزمه أبو بكر واستقر أبو ضربة بالمهدية وله معها طرابلس ثم وردت على اللحياني وهو في الاسكندرية

مكاتبات من أهل تونس (٧١١ هـ) يذكرون فيها ان أبا بكر متملك تونس المذكور قد هرب وترك البلاد وان الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحيانى و بايعوا نائبه محمد بن أبى بكر من الحفصيين وهو صهر زكريا اللحيانى المذكور وهم فى انتظار وصول اللحيانى الى مملكته وكانت القلاقل فى افريقية شديدة واستقر الامر بها على مبايعة أبى يحيى أبى بكر بعد خلع ابن خربة بن اللحيانى (٧١١ هـ) فساق جيوشه لاخضاع البلاد فانهزم جنده عن بجاية واستولى عليها ابن عمير وكان السلطان أبو يحيى اللحيانى مع تقدمه فى السن بصيرا بالسياسة مجربا بالامور وكانت الاحوال مضطربة فتمكن من اطفاء نار الثورات ولما قام بنو عبد الواد بالثورات ساق عليهم جيوش الموحدين من كل جهة (٧٣١ هـ) ففر بنو عبد الواد وعاد الاطمئنان الى الثغور و بينما كان الناس فى غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب وتحت سرادق من العز وذمة وافية من العدل اذ فاجأهم خبر وفاة السلطان أبى يحيى أبى بكر بتونس فجأة (٧٤٧ هـ) وكانت ولاية العهد لابنه أبى العباس الفضل ولكن تغلب حزب أخيه أبى حفص بتونس ودعوا المشيخة من الموحدين والموالى والجند وأخذ الحاجب عليهم البيعة للامير أبى حفص

وقام بالامر من بعده *أبو حفص عمر* (٧٤٧ - ٧٥٣ هـ) وكان أخوه الامير أبو العباس أكبر منه سنا وكان عاملا ببلاد الجريد فلما بلغه خبر وفاة أبيه وما كان من أهل الحضرة من بيعة أخيه شق عصا الطاعة و جرد على أخيه فهزمه وفى خلال ذلك كان السلطان أبو الحسن المرينى ملك فاس استولى على تلمسان بقصد التقدم لتملك افريقية فانتهز لذلك فرصة وفاة السلطان أبى بكر والخلاف الواقع بين الاخوين بتونس و زحف بجيوشه واستولى عليها (٧٤٨ هـ) وانتزعها من يد أبى حفص وقتله واستولى على مملكة الحفصيين الا أن حزب الحفصيين قوى فيما بعد وانتقضت افريقية على السلطان أبى الحسن من أطرافها فخرج فى أساطيله الى المغرب الاقصى (٧٥٠ هـ) وحدث له ما تقدم ذكره فى تاريخ بنى مرين ومضى المولى أبو العباس الفضل الحفصى الى تونس و بها أبو الفضل ابن السلطان أبى الحسن كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله الى المغرب فلما ظهرت رايات المولى الفضل على تونس نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية وأحاطت الغوغاء بالقصر و رجموه بالحجارة فهرب أبو الفضل المرينى الى وطنه بالمغرب الاقصى ودخل أبو العباس الفضل الى الحضرة و جلس على كرسى آبائه (٧٥٠ هـ) واستبد بملكها ثم قامت أحزاب أخيه ودسوا الدسائس حتى تمكنوا من خلعه (٧٥٣ هـ) ومبايعة ابراهيم المستنصر بن أبى يحيى وكان يومئذ غلاما

ولما قام بالامر *ابراهيم المستنصر* (٧٥٣ - ٧٧٠ هـ) بعد خلع أبى العباس الفضل بايعه بنو كعب واستقام أمر بنى مهلول أصحاب توزر على الطاعة وبعثوا بالجباية والهدية واتبعهم صاحب نفطة وصاحب قفصة وفى أيامه حصلت حادثة طرابلس المغرب وكانت الدول منذ القدم تعتنى بأمر هذا الثغر فكان فرنج صقلية كثيرا ما يحدثون أنفسهم بتملكه وكان ميخائيل الانطاكى صاحب اسطول رجار قد تملكه من أيدى بنى مرزوق من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما سبق ذكره ثم استرده ابن مطروح من يد الفرنج ودخلت طرابلس فى دعوة الموحدين ثم مرت عليها

الايام

الايام الى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه (٧٥٠ هـ) منقطعا عن الحضرة وكان تجار جنوة يترددون اليها فاطلعوا على عوراتهم وصمموا على غزوها والاستيلاء على مرساها فوافوها باساطيلهم (٧٥٥ هـ) وملكوها عنوة ثم داخلهم أبو العباس بن مكى صاحب قابس فى فدائها فقبلوا ذلك فافتداها بمبلغ خمسين ألفا من الذهب فتنازلوا له عنها ورحلوا باساطيلهم بعد ان شحنوها بالغنائم التى اغتنموها منها عند فتحها وفى عهد هذا السلطان انتقض الامير أبو يحيى زكريا بالمهدية ودخل فى دولة السلطان أبى عنان المرينى وطلب منه المساعدة فجهز له الاسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال وساقه الى المهدية لحماية أبى يحيى من جيوش الحفصيين فلما وصل الاسطول وجدها قد رجعت الى ايالة الحضرة ثم قصد السلطان أبو اسحق ابراهيم ادخال بجاية فى الدعوة الحفصية فتقدم اليها بجيشه فدخلها سنة ٧٦١ هـ وفى سنة ٧٦٣ هـ ساق السلطان أسطولا على جزيرة جربة فطلعت عساكره فيها وضايقوا القشتيل بالحصار وهو الحصن الذى ابتناه بها أهل صقلية حين الاستيلاء عليها كما تقدم الى ان تغلبوا عليه وملكوه ودخلت الجزيرة فى حكم الحفصيين واستعمل عليها محمد بن أبى القاسم بن أبى العيون من المقربين وكانت الحروب مستمرة بين السلطان أبى اسحق هذا والسلطان أبى العباس وتوفى فى خلالها (٧٧٠ هـ) بعد أن حكم ١٨ سنة

وقام بالامر من بعده ولده *ابو البقاء خالد* (٧٧٠ - ٧٧٢ هـ) وكان صبيا لم يناهز الحلم وكانت الاحوال فى تونس غير مرضية فتقدم السلطان أبو العباس بجيوشه الى الحضرة فتلقته وفود أفريقية جميعا بالطاعة ولما انتهى الى البلد خيم بساحتها أياما يغاديها القتال ويراوحها ثم كشف عن مصدوقه وزحف الى أسوارها ففرغ عنها المقاتلة وبعدها دخل البلد ودخل السلطان القصر وخلا بما ظفر من ملك آبائه (٧٧٢ هـ) وبعث بالامير أبى البقاء خالد بن المستنصر ابراهيم فى الاسطول الى قسطنطينة فعصفت بهم الريح وانخرقت السفينة وترادفت الامواج الى أن هلك

وقام من بعده السلطان *ابو العباس احمد* (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ) ولما استبد بالامر عقد لاخيه الامير أبى يحيى على بجاية وأرسل الجيوش ففتح سوسة والمهدية وأرسل أسطوله الى طرابلس ثم فتح جزيرة جربة باسطوله من يد الثوار الذين استولوا عليها واحاطت بهم الجيوش برا وبحرا وقبض على محمد بن أبى العيون صاحبها وسجنه الى ان هلك فى سجنه (٧٧٦ هـ) ومن أهم الحوادث التى حصلت فى أيامه منازلة نصارى الفرنج المهدية مدة حروب الصليب قال العلامة ابن خلدون ان أمة الفرنج كانت وراء البحر الرومى فى الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملأت أساطيلهم فضاء الله وتخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة الغلب فى هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين لكثرة أساطيلهم ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وأزاحتهم أساطيل المغرب أياما ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بفرنسا وافترقت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فنمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل أفريقية لغزو بلادهم وشرع فى ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ويتخيرون له أبطال

الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ماقدروا عليه ويصادمون مايلقون من أساطيل الفرنج فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور القريبة من بجاية باسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم عما يتعذر منه أو يكاد فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثار به وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بأفريقية فصم عن سماعها وتطارحوا سهامهم ونكلهم وتداعوا الى نزول المسلمين والاخذ بالثار منهم وبلغ خبر استعدادهم الى السلطان أبي العباس أحمد فسرح ابنه الامير أبا فارس ليستنفر أهل النواحي ويكون رصدا للاسطول هنالك واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم ويجاورهم من أمم النصرانية وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهدية منتصف ٧٩٢ هـ وطرقوها على حين غفلة وهو على طرف البر داخل في البحر كانه لسان دالع فارسوا عندها وضربوا عند أول الطرق سورا من الخشب بينه وبين البر حتى صار المعقل في حكمهم وعالوا عليه بالابراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من بلاد المسلمين وصنعوا برجا من الخشب في جهة البرج يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين وتوافت اليهم الامداد من نواحي البلد فحال بينهم الفرنجة وبلغ الخبر الى السلطان فاهمه أمرها وسرح العساكر تترى الى مظاهرتهم ثم خرج أخوه الامير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو واستنفر المقاتلة من الاعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها بينهم وبين المسلمين جولة جلا فيها أبناء السلطان وكاد الامير أبو فارس منهم ان يتورط لولا عناية الله التي وقته ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المطل عليها من جهة البحر فوجوا الحريقه ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا الى بلادهم وخرج أهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الامراء على ما اعتمدوه في نصرهم اهـ وفي أيامه انتقض أهل قفصة فساق السلطان عليهم الجيش وحاصرها فاطاعت ثم مات السلطان أبو العباس (٧٩٦ هـ) بداء النقرس

وقام بالامر من بعده ابنه ابو فارس عبد العزيز (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ) بمساعدة اخوته لان عمه زكريا كان يطمع في تملك تخت الحفصيين فبينما كان يزور أخاه في مرضه قبضوا عليه قبل وفاة أبيهم وحبسوه فلما تمت البيعة لاخيهم أبي فارس وقبض على الاحكام أمر بنقل ما في بيوت عمه المذكور من الاموال والذخيرة الى قصره حتى استوعبها وضيق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه أحسن قيام وولى اخوته العمالات واستمر في سياسة أجداده الى أن توفي (٨٣٧ هـ) وكان عين قبل وفاته ابنه أبا عبد الله لولاية العهد ولكنه توفي في حياة أبيه

وقام بالامر من بعده أخوه ابو عبد الله محمد بن أبي فارس (٨٣٧ - ٨٣٩ هـ) وكانت مدته قصيرة لم يحصل في خلالها من الحوادث ما يستحق الذكر

وقام بالامر من بعده أخوه أبو عمرو عثمان (٨٣٩ - ٨٩٣ هـ) واستمر سالكا مسالك أجداده وخلف من البنين اثنين الاول يدعى أبا عبد الله محمدا المسعود وكان ولي عهد أبيه ولكن

المنية عاجلته في حياة أبيه والثاني يسمى ابراهيم بن عثمان ولكنه لم يملك لاسباب سياسية وطالت مدة أبي عمرو عثمان نحو ٥٤ سنة

وقام بالامر من بعده ابوزكريا يحيى بن أبي عبد الله المسعود (٨٩٣ - ٨٩٩ هـ) وفي مدته خرج عليه ابن عمه عبد المؤمن بن ابراهيم ووقعت بينهما حروب طويلة قتل في خلالها عبد المؤمن المذكور وكانت الاختلافات قائمة في دول المغرب فاضطربت أحوالها وأخذت الامراء في المقاطعات تستبد بالاحكام وتميل الى الاستقلال عن حكومة تونس واستمرت هذه الحالة مدة طويلة توفي في خلالها أبوزكريا يحيى المذكور (٨٩٩ هـ)

وقام بالامر من بعده ابو عبد الله محمد بن الحسن (٨٩٩ - ٩٣٢ هـ) وكانت سياسة المملكة الحفصية في انحطاط مستمر حتى لم يبق في يد محمد بن الحسن هذا الامدينة تونس وعنابة وما بينهما بعد تلك المملكة الواسعة والسلطة النافذة واستمر في ملكه الى أن توفي (٩٣٢ هـ) ويقال ان الذي قتله هو ابنه مولاي حسن حتى لا يعدل عنه الى غيره من اخوته الاربعة والثلاثين

وقام بالامر من بعده ابنه الحسن بن محمد (٩٣٢ - ٩٣٦ هـ) فاساء السيرة في البلاد وقتل من اخوته جملة فاضطربت عليه المملكة وخرج بعضها عن طاعته وتغلب الاعراب على أكثرها وكان أخوه السلطان المسمى بالامير رشيد فر من القتل والتجأ عند العرب في البادية فاعانه بعض المشايخ وأغار عدة مرات بمن انضم اليه ليستولي على كرسي أبيه لانه حقه حيث كان أكبر أولاده لكنه لم ينجح

وكان وقتئذ خير الدين بابا باروس حاكما على بلاد الجزائر وأحواله ناجحة وقد رتب أمر السياسة والضبط والربط في داخل بلاده ترتيبا عجيبا مستمرا على الغزو والصيال في البحر مع العزم الزائد والقوة التامة في توسيع فتوحاته بافريقية ولما علم أن قوته لا تثبت الا بالدخول تحت حماية السلطنة العثمانية التمس من السلطان سليمان القانوني ذلك فامده بمقدار عظيم من العساكر والذخائر الحربية وعند ذلك عزم على أن يتغلب على بلاد تونس لجودة موقعها وكثرة حاصلاتها وأمن مرافئها لوقاية أساطيله فانتهز لذلك فرصة الفتن والحروب الداخلية التي كانت قائمة بتلك البلاد كما قلنا وصادف فرار الرشيد السابق ذكره من عند عرب البادية خوفا من أن يسلموه لاخيه ملتجئا لحكومة الجزائر وطلب من خير الدين حمايته فقابله بالترحاب وأظهر له مزيد الرعاية والاحترام وكان خير الدين بار باروس عازما على السفر الى الاستانة العلية للمثول بين يدي السلطان سليمان القانوني فكان ذلك من أحسن الاسباب ليطلب منه التصريح والمساعدة في فتح تونس وأخذ معه الامير الرشيد ولما وصل عرض على السلطان مرغوبه وانه سيفتح البلاد باسم الرشيد ثم يضمها الى المملكة العثمانية فاذن له السلطان بما طلب (١٥٣٠ م - ٩٣٦ هـ) وأمده بالرجال والمال والاساطيل ثم أقلع بعمارة مؤلفة من ٢٥٠ سفينة الى أفريقية وبعد ان أغار على ساحل ايطاليا تقدم الى تونس وأخرج عساكره اليها ففر الحسن منها الى اسبانيا تاركا أمواله وخزائنه وكانت الاهالي تميل الى الرشيد فانضموا سريعا الى العثمانيين (٩٣٦ هـ) وحدثت مقتلة عظيمة بين الاحزاب وبعضها ثم بعد دخول الاهالي في طاعة العثمانيين أخذ خير الدين باشا يحصن ثغور تونس

لتدافع عن نفسها عند الحاجة وتولى على تونس أحمد حميدة بن الحسن المذكور

وكان المولى حسن بعد خلعه وطرده من تونس استعان بامبراطور اسبانيا شرلكان فانجده باسطول فيه ٣٠٠٠٠ مقاتل من عساكر اسبانيا وهولاندة والمانيا ونابولى وصقلية وكانت سفن الاسطول مركبة من ٥٠٠ سفينة وركب الامبراطور البحر فى الاسطول من مينا برشلونة ولما رست سفنه امام تونس قامت الحروب وبعد معركة شديدة انهزم خير الدين باشا وفر الى المغرب فدخل المولى حسن المدينة وفاجأتها جيوش الفرنج ونهبوا الدكاكين وسبوا كثيرا وتفرق من سلم من الناس فى الشعاب والبرارى فسلط عليهم رئيس جيوش الفرنج عرب البادية وأعطاهم الاموال فامسكوا منهم جماوافرا وكانت هذه الحادثة تعرف بخطرة الاربعاء وأباح المولى حسن المدينة ثلاثة أيام (٩٤١ ﻫ ١٥٣٤ م) ثم أمر بالكف عنها واستقربها وتراجع الناس الى البلد ثم أراد الفتك ببعض النواحى العاصية فخرج من الحضرة ولما سمع ابنه أحمد حميدة بخروجه وكان بعنابة أتى تونس ودخلها فبايعه أهلها ومالوا اليه وخلعوا أباه الذى فر ثانية الى الاسبانيول وجاء باسطول كبير فكانت بينهم وبين أهل تونس وقعة شديدة دارت فيها الدائرة على الاسبانيول وكان أحمد يكافئ جنوده على الفتك بالاسبانيول حتى صرف فى ذلك أموالا كثيرة ثم قبض على والده وحبسه وسمل عينيه وقد طال ملكه وانتشرت بالعدل أحكامه ولما ولى الملك لم يجد بالخزائن أموالا لان أباه كان قد أتلفها وكان شجاعا مقداما نشيطا حتى قيل انه لم يضع رجله فى ركاب عند ركوبه وجرت بينه وبين خصومه وقائع استظهر فيها عليهم ولم يزل على ذلك الى أن أخذ العثمانيون البلاد تحت قيادة على باشا (٩٧٨ ﻫ) فاستولى على القصبة (١٥٧٠ م) فهرب منها الامير أحمد واستمد الاسبانيول فأتى اسطول عظيم الى حلق الوادى على مال اشترطه إلا أن قائد الاسطول لم يقبل المال وأراد الحصول على أراض فلم يرض أحمد بذلك فخلعه وأقام أخاه محمدا مقامه فقبل محمد بما طلبه الاميرال أما الامير أحمد فانه سافر الى صقلية وأقام بمدينة بلرم وبقى بها الى أن مات وأدخل محمد الفرنج البلاد وشاركوه فى الامر وكثر الفساد لما انتشروا بالبلاد فخاف أهل تونس وهربوا متشتتين واختفى منهم كثير بالدواميس بناحية جبل الرصاص ولذلك عرفت هذه الواقعة بخطرة الدواميس وحصل للناس ضيق عظيم فأرسل اليهم محمد الامان فرجعوا وكان الفرنج قد استولوا على أكثر بيوتهم وقد نهبوا أيضا خزانة الكتب التى بالجامع الاعظم وخربوا المدارس ومزقوا كتب العلم واستفحل أمر النصارى على المسلمين ووقعت بينهم الفتن وتمكن قبطانهم من الامر والنهى فى الحكومة التونسية مشاركا للسلطان محمد بن حسن فوصل الخبر بذلك الى السلطان سليم ابن سليمان العثمانى الذى لما خاف من أن الفرنج يمدون أيديهم الى سواحل أفريقية جهز الاساطيل والرجال وسيرها تحت قيادة سنان باشا (٩٨١ ﻫ - ١٥٧٣ م) وانتزع الملك من الحفصيين بعد قتال شديد وأخذوا محمد بن الحسن أسيرا وانقرض ملكهم فمدة ملك الحفصيين ثلثمائة وتسع وسبعون سنة لان ابتداءه كان سنة ٦٠٣ ﻫ

وقد كانت أيام بنى حفص فى ابتداء أمرهم من غرر الايام وعمت بلاد الاسلام بافريقية وأوروبا وأتتهم البيعة من الاندلس وغيرها من البلاد وارتفع مقامهم وتلقبوا بالقاب الخلفاء وكان أسلوبهم أسلوب العرب وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ولم تكن البنادق ظهرت فى أول مدتهم لكن

ظهرت

ظهرت فى أواخرها وكان عساكرهم يدعون بالموحدين لانهم من أتباع محمد بن تومرت المعروف بالمهدى وامتد سلطان الطبقة الاولى من الحفصيين من تلمسان الى طرابلس الغرب ولما تقهقرت دولة بنى عبد المؤمن من بلاد المغرب وكثرت الفتن تسمى الحفصيون بالخلفاء وجاءتهم البيعة من الاندلس ومكة لعدم الخلافة بالمشرق ولم يزل أمرهم على أحسن حال حتى وقع بينهم التحاسد وافتراق الكلمة فأخذت دولتهم فى الادبار الى أن كان ما كان من حضور العساكر العثمانية الى تونس واستيلائهم عليها مدة السلطان محمد بن الحسن كما تقدم

الفصل العاشر

استيلاء العثمانيين على تونس وقيام الدايات والبايات

قد سبق ذكر الاحوال التى وصلت اليها الديار التونسية بعد حروب خير الدين باشا باربروس والقائد على باشا والاتفاق الذى حصل بين أميرال أساطيل اسبانيا وبين الامير محمد بن حسن واستمرت الاحوال غير هادئة والاضطرابات مستمرة وكثر اضطهاد الفرنج للمسلمين بتونس وزادت الفتوق واستفحلت الثورات ولما سئم الناس من أعمال الامير محمد المذكور لتواطئه مع أميرال الاساطيل الاسبانيولية على جر المنفعة للاسبانيول فقط تذمروا واشتد غيظهم وتمنوا الفرج ولما وصل خبر هذه الثورات والتعديات الحاصلة بتونس الى دار الخلافة العثمانية أصدر السلطان سليم أمره الى الوزير سنان باشا وقبودانه قلنج على باشا بالاستعداد للتوجه الى تونس وفتحها ثانيا واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها فاستعدت الاساطيل وشحنت المراكب بالذخائر وآلات الحرب والرجال وأقلعت من القسطنطينية فى غرة ربيع الاول سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) وكانت مؤلفة من ١٥٠٠ سفينة ولما وصل هذان القائدان الى مياه تونس ورأى الامير محمد كثرة الجيوش والاساطيل سقط فى يده سيما وان قلعة المدينة كانت غير حصينة والمدينة كذلك فتحصن هو ومن تبعه بمكان جعلوا عليه سورا من رمل وخشب وشحنوه بآلات الحرب والميرة وبعد ان نازلت الاساطيل العثمانية أساطيل الفرنج التى كانت مجتمعة فى تلك المياه وانتصرت عليها انتصارا تاما باهرا دخلت العساكر العثمانية تحت قيادة سنان باشا مدينة تونس فاستولت عليها وعلى حصونها ودارت الدائرة على الامير محمد وحاشيته وكانت مدة الحصار والقتال ٤٣ يوما وبه انتهت دولة الحفصيين كما سبق

وبعد ان دخل سنان باشا تونس أمن أهلها وفرض على أهل الصنائع منهم الاعمال وأشغلهم بعمل المدافع والتحصينات ثم رتب القوانين وسن النظامات وأصلح الاحوال واهتم فى تقوية الثغور وتنظيم الادارة ومن ذلك اليوم دخلت البلاد التونسية فى قبضة الحكومة العثمانية وأقيمت الخطبة فى البلاد باسم السلطان العثمانى ثم رجع سنان باشا بالاساطيل الى الاستانة العلية وأبقى بها جنودا من الينكجرية وولى عليها واليا يدعى حيدر باشا وأوصاه بالتيقظ والسهر وهو أول وال عثمانى تولى عليها وأمره سنان باشا أن يصرف من أموال الجباية ما يلزم لتقوية القلاع والحصون الموجودة بالقطر وادارة المصالح الضرورية ولما وصل الى الاستانة بالغنائم قابله السلطان مقابلة حسنة وأنعم عليه انعامات ملوكية وافرة

استبداد الدايات بحكم تونس (٩٩٩ - ١١١٧ هـ) اعلم ان حكم الدايات أى ولاة تونس من اليكجرية ابتدأ بعد الثورة التى قامت بها رؤساؤهم وصاروا من ذلك الوقت يتلقبون بالدايات وتارة بالبايات وتارة بالباشوات وقد اشتهر وامتد حكمهم بلاد تونس بالغزو فى البحار والتلصص بها حتى قطعوا الطريق البحرى على سفن أوروبا بحيث تسبب عن ذلك مهاجمة أساطيلهم لتونس عدة مرات كما سيأتى أما خبر الثورة المذكورة فهو كما تراه

لما عزم سنان باشا فاتح الولاية التونسية على العودة الى دار الخلافة العثمانية رتب بتونس (٩٨٢ هـ) جيشا من عساكر اليكجرية يبلغ عدده أربعة آلاف مقاتل وجعل لكل مائة نفر منهم رئيسا (يوزباشى) ولكل خمسة رؤساء رئيسا (بكباشى) ويكون مرجع الجميع الى الوالى حيدر باشا الذى نصبه على الولاية كما سبق ثم بعد ان سافر بالاسطول مع قلنج على باشا استمرت الاحوال هادئة نوعا مدة ١٦ سنة أمكن أثناءها ايجاد عدة أساطيل واصلاح القلاع وتقوية الثغور الا أن البكباشية الذين كانوا انصبوا للاحكام استعملوا القوة والعنف والشدة والاستبداد لا يعرفون شرعا الا ما تمليه عليهم ارادتهم الشريرة حتى سئمت منهم العساكر والاهالى معا فتعاقد العساكر على الفتك بالبكباشية المذكورين وتواعدوا على يوم معين للايقاع بهم ثم دخلوا عليهم وهم فى الديوان ووضعوا فيهم السيف وتتبعوهم الى منازلهم حتى أفنوهم (٩٩٩ هـ) ثم تحزبت العساكر أحزابا واتخذ كل حزب منهم رئيسا يدعى بالداى وكان عدد الدايات اذ ذاك يقرب من ثلثمائة وكان اذا نزل بهم أمر تجمعوا فى القصبة وتشاوروا الى أن يتفقوا على رأى واحد ولكن قل أن يتم لهم لكثرة الدايات واختلاف الاهواء وكان أكبرهم يدعى ابراهيم داى اشتهر بالشجاعة وكثرة الاتباع غير أنه لما رأى دوام الفتن فارق البلاد الى الحج وقام مقامه حين خروجه موسى داى وأراد أن يستبد بالحكم فلم يتم له ذلك من شدة الاضطرابات التى ألزمته أن يخرج هو أيضا للحج ولم يعد ثم تتابعت فيهم الرؤساء وصار كل واحد منهم يريد الاستقلال وأخيرا قام بينهم اثنان وهم قره صفر داى وعثمان داى وكان عثمان داى هذا أقل الدايات جاها وشهرة الا أن الوقت والظروف ساعداه على مرغوبه ثم وقع بينه وبين الداى قره صفر نزاع فسبق عثمان داى الى القصبة واحتمى بها ولما أراد قره صفر داى الدخول خلفه منعوه بالقوة فخاف بعد ذلك وهرب وانفرد عثمان داى بالسلطة (١٠٠٧ - ١٠١٩ هـ)

ولما تم الامر لعثمان داى أخذ فى تشتيت باقى أكابر اليكجرية ورؤسائهم الذين يخشى بأسهم فهرب كثير منهم خوفا من بطشه فصفا له الجو وكان عثمان داى هذا صاحب رأى وتدبير وشجاعة وقد اهتم بنشر الامن فى انحاء البلاد بحيث لم يمض القليل من الزمن حتى انقطعت جرثومة الشرور من داخلية تونس وتلاشت الفتن فاشتهر اسمه وقد سعى بعض الرؤساء للايقاع به مرارا ولكن حبطت مساعيهم وتمكن من الفتك بهم وكسر شوكتهم وأبعد عن تونس أهل جزيرة جربة لانهم كانوا وقتئذ تحت رعاية حكم ولاية طرابلس الغرب وأكثر هذا الداى بعد ذلك من صناعة السفن وانتقاء الرجال الاشداء لها وصار يرسلها للغزو والصيال فى البحار فكثر فى أيامه ورود الغنائم البحرية

ولما بلغ السلطان أحمد الاول خبر هذه الثورات أرسل (١٠١٣ هـ) الدونما العثمانية تحت قيادة القبودان مصطفى باشا قبادار زاده لتفقد حالة القطر التونسى ولما أقبل أرسى بحلق الوادى فخرج عثمان داى فى جماعة من كبراء الجند وتفاوضوا معه فى حالة البلاد ولما تحقق قبودان باشا المذكور

من انقياد الداى وجماعته لطاعة الدولة العثمانية وعدم اقتدار خزينة تونس على اداء الويركو لكثرة ماصرفته فى قمع الفتن أقلع عائداً الى دار الخلافة العثمانية وعرض الكيفية على الاعتاب الشاهانية ثم فرضت الدولة على ولاية تونس بعض شروط منها اعانة الدولة فى زمن الحرب بالسفائن الحربية مع مايلزمها من الآلات وأن يرسل كل وال عند ولايته هدايا مخصوصة الى دار الخلافة تكون من حاصلات البلاد كالخيل وغيرها والمنسوجات الصوفية والحريرية وماشا كلها وفى السنة المذكورة انتشر بتونس وباء فغلت الاسعار وأصاب البلاد الاهوال الا أن عثمان داى المذكور تمكن من اصلاح الحالة وسن القوانين والنظامات وأمر عماله باتباعها حتى صارت تعرف به فيما بعد وفى عهده حضر الى تونس كثير من مهاجرى عرب الاندلس فقبلهم بالترحاب وأمدهم بالمال والزاد فكثر بهم أهل البلاد التونسية وعمروا عشرين بلدا وكانت وفاة عثمان داى المذكور سنة ١٠١٩ هـ

وقام بالامر من بعده يوسف داى (١٠١٩ - ١٠٤٧ هـ) واستقام له الامر ودانت له البلاد بلا مزيد مشقة لان سلفه كان مهد له البلاد ورشحه للولاية وعقد له على ابنته الا أنه عدل عن زواجها بعد وفاة أبيها وفى أيام يوسف داى هذا كثرت العمارية فى البلاد وامتدت الحضارة وكان مغرما بتجهيز السفن للغزو والصيال فى البحار فكان لمراكبه هيبة عظيمة فى الخارج وشيد فى تونس ابنية جليلة منها فنادق ومدارس وأسواق وجلب الماء العذب الى العاصمة وبنى قنطرة عظيمة على وادى مجردة فصارت منتزها جميلا وفى سنة ١٠٣١ هـ قامت حروب هائلة بينه وبين الجزائر انهزم فيها التونسيون وعاثت العرب فى البلاد فعقد صلحا مع الجزائر وأعاد النظام وكانت وفاته سنة ١٠٤٧ هـ وقد اشتهر ببذل الصدقات واسداء الخيرات والمبرات

وقام بالامر من بعده مراد داى بن عبد الله الشهير بالاسطى (١٠٤٧ - ١٠٥٠ هـ) وأصله من أسرى الفرنج فأمر باقفال الخمارات التى بين الازقة ونظر فى أمر الارزاق والمعايش فكثرت فى أيامه الخيرات ورغد العيش وكان لهذا الداى صولة وهيبة شديدة تآمر عليه جماعة فلما علم بهم قبض عليهم وقتلهم عن آخرهم ليوقع الرعب فى قلوب أعدائه ومن أعماله أيضا انه شيد مدينة عند المكان المدعو غار الملح وأسكنها الاندلسيين

وقام بالامر من بعده احمد خوجه داى ويقال له أوزون خوجه (١٠٥٠ - ١٠٥٧ هـ) وكان لين الجانب شفوقا بالرعية خصوصا على اليتامى منهم وحدث فى أيامه غلاء شديد فلم تأت السفن التونسية بأعمال بحرية ذات شان ولم تطل مدة هذا الداى لانه مات بالوباء الذى ظهر عقب القحط المذكور (١٠٥٣ هـ) ودام سبع سنوات وكان هذا الداى مطاعا فى جيوشه لدماثة أخلاقه

وقام بالامر من بعده الحاج محمد لاظ داى (١٠٥٧ - ١٠٦٣ هـ) وكان حازما حصل فى زمنه راحة للبلاد التونسية وامتد نطاق الامن بها الى أن توفى

وقام بالامر من بعده الحاج مصطفى لاظ دى (١٠٦٣ - ١٠٧٥ هـ) وكانت أيامه أيام هناء وراحة فى الديار التونسية وكان على جانب عظيم من لين العريكة يكره سفك الدماء ولما خرجت فى أيامه السفن للصيال والغزو فى البحار كالمعتاد سنويا (١٠٦٥ هـ - ١٦٥٤ م) صادفت أسطولا

لانكلترة وكان تحت قيادة الاميرال روبرت بلاك فارادت السفن التونسية التعرض له فلم تنل مطلوبها ثم حضر الاميرال المذكور امام حلق الوادى وهدد الحكومة وطلب من الداى منع سفن القرصان من تعدياتها فاجيب طلبه وامتنعت بذلك الاعمال البحرية مدة الا انه فى سنة ١٠٦٦ ﻫ (١٦٥٥ م) خرجت السفائن القرصانية التونسية لعرض البحر كالمعتاد فصادفت أسطولا هولانديا وكان تحت قيادة الاميرال مشيل أدريان روتير الشهير ولما التحم الحرب بين العمارتين انهزمت مراكب تونس شر هزيمة بعد ان ضاع معظمها وفى هذه السنة أيضا انهزمت سفن قرصان تونس والجزائر امام هذا الاسطول الهولاندى بقرب السواحل الافريقية وتوفى هذا الداى (١٠٧٥ ﻫ)

وقام بالامر من بعده *الحاج مصطفى قره كوز داى* (١٠٧٥ – ١٠٨١ ﻫ) وكان أول أعماله ان تعقب أهل الجرائم والمفاسد وقتلهم عن آخرهم فاشتدت هيبته من وقتئذ وخلت تونس من أهل الشر والفساد وانقطعت السرقة من البلاد ومع ذلك فانهم تآمروا عليه ودس له البعض السم فاختلت أحواله فخلع

وأقيم مكانه *محمد حاج اوغلى داى* وفى أيامه حضر أسطول هولاندة تحت قيادة الاميرال روتير الشهير المتقدم الذكر وطلب من الحكومة منع سفائن قرصانها من التعدى على سفائن تجار الفلمنك فتعهدت بذلك وأطلقوا الجملة من أسراهم ثم تلاعبت الايدى بالاحكام لسوء تدبيره وكان أساء السيرة فخلع (١٠٨١ ﻫ)

وقام بالامر من بعده *الحاج شعبان خوجه داى* (١٠٨١ – ١٠٨٣ ﻫ) وفى أيامه أغراه أصحاب الفساد بالفتك بالبايات وهم الباشوات ولاة تونس المنصبين من طرف الدولة وكان تنصيب الدايات برأيهم وانتخابهم بدعوى انهم يبثون الفتن ضد الدايات فلم يتمكن من ذلك وعلم أمره وتسبب عن عمله هذا ان نكب وخلع ثم مات (١٠٨٣ ﻫ)

وقام بالامر من بعده *الحاج محمد منتشا داى* (١٠٨٣ – ١٠٨٤ ﻫ) ولما كان بليدا وكلا تحولت الامور ليد البايات وكان يساعدهم على أغراضهم بجهله وأخيرا خلعوه بعد مضى سنة من تنصيبه وبايعوا الحاج على لاظ وحصلت بسبب ذلك فتنة كبيرة كانت نتيجتها قيام الاهالى عليه وخلعه وولوا عوضه محمد أغا داى ونهب أصحاب على لاظ دور البايات وكان الخطب فى تونس جسيما ثم ظفر أصحاب الباى وولوا الحاج مامى فقتل كل المفسدين وحصل بالحضرة عيث كثير وكان مامى هذا يظهر العفاف فى أول حكمه ولما قوى أمره بمساعدة البايات تغير حاله فخلعوه (١٠٨٨ ﻫ)

وقام بعده بالامر *الحاج محمد بچاره* وكان فيه طيش وأحكامه من الغرائب فخلع بعد قليل وأعيد الحاج مامى فضيق على أهل مدينة تونس ثم اضطر الى الفرار خوفا من بطش الاهالى به وولى بعده أوزون أحمد فلم يرض بالمنصب وهرب بعد يومين فتولى محمد رئيس طاباق وكان من رؤساء البحر

المحنكين وله أسفار وأعمال فى الصيال البحرى يطول شرحها فباشر الامور بشهامة ونفى جماعات من الاكابر وشتت شمل المخالفين له وحصلت فى أيامه فتنة شديدة احترقت فيها أبواب الحضرة وتعطلت المساجد وكثر الاضطراب وغلت الاسعار وحوصرت المدينة فعظم البلاء وبقى ذلك ٢٤ يوما والناس فى ضيق الى ان حصل الفرج وعادت الامنية ولكن لم تطل فوقع الخلاف بين الداى والبايات بسبب حق الرياسة العامة فملت الاهالى من ذلك وأخيرا قتل كل من الباى والداى المذكورين

البايات – اعلم ان البايات هم الحكام أصحاب الولاية من قبل الدولة العثمانية على بلاد تونس وكان كل واحد منهم حائز الرتبة باشا ولما دخلت تونس فى قبضة الدولة العثمانية تقسمت البلاد بين القواد وصار أعظمهم يخرج بالمحلة وكان الاعراب فى قوة واستحوذوا على جل البلاد وكان صاحب المحلة يعاملهم بالرفق والقواد يتعاقبون فى التزامات المحال فكانت أحوالهم مضطربة وكثرت الحكام بالمدينة فكانوا فى جهد مع الرعية وكان العرب أشد شوكة فى أول الامر فكان يعسر الخلاص معهم وأول من سما وأظهر ناموسا لهذه الطريقة وتسمى بهذا الاسم على الحقيقة القائد رمضان من الاعلاج وأصله من أهل الجزائر انتقل الى الديار التونسية وتحصل على هذه الرتبة وكانت فيه سياسة وتدبير فاقتنى المماليك وعلت همته وتخرج من مماليكه عدة رجال أخذوا المناصب فى حياته وتسموا بهذا الاسم قبل مماته فمنهم مراد باى ورمضان باى وحسين باى هؤلاء مشاهير مواليه وكان أعظمهم همة وأبعدهم صيتا وكان فيه حذق زائد وعلم بتدبير الرعية وجباية خراجها استولى فى حياة استاذه على الولاية واستخلفه فى حياته وكان يتفرس فيه النجابة عن غيره وعن أخيه رجب أيضا ولم يزل مراد يترقى الى ان صار بعد أستاذه فى هذه الرتبة ومازال يعلو بعد موت أستاذه ويعظم شأنه حتى انفرد بالكلمة وجاءه التقليد من الباب العالى (١٠٤١ ﻫ)

ولما مات فى تلك السنة قام من بعده ولده محمد باى (١٠٤١ – ١٠٧٢ ﻫ) فانفرد بالامر وباشر الولاية بجنان قوى وأحسن الى الرعية وتخرج من مواليه عدة رجال وكان حسن الاخلاق لين العريكة أبى النفس مفرط الذكاء فاعلا للخير الكثير مقربا للعلماء والفضلاء محسنا الى الفقراء ولما صفا له الحال تجرد لحروب عرب أفريقية الذين كثر فسادهم فأبادهم ثم فتح مدينة الحامة (١٠٤٥ ﻫ) وكانت مدينة حصينة جدا وخربها ثم آمن من هرب من أهلها وأحسن اليهم فلما سمعت البلاد العاصية بذلك جاءته الوفود مستأمنين ثم تمهدت له البلاد بالاقطار الافريقية بما لم يبلغه أحد من سلفه وقد صفا له الدهر وسادت الراحة فى أيامه فلما طار صيته فى الآفاق جاءته الهدايا من ملوك الروم ومصر وغيرهما ووردت له التشاريف السلطانية وازدحمت على بابه العلماء والأدباء الا انه استعفى من منصبه (١٠٧٢ ﻫ) طالبا الراحة لنفسه وقد قسم البلاد بين أولاده وتلقبوا كلهم فى حياته بلقب باى وله فى تلك البلاد مآثر جليلة ومبان شهيرة وكانت وفاته سنة ١٠٧٦ ﻫ

وقام من بعده ابنه مراد باى (١٠٧٢ – ١٠٨٦ ﻫ) وكان من الرجال المعدودين فى مكارم الاخلاق والتدبير جرى على سنن والده ودانت له البلاد الا أن شعبان داى أغرى عليه فخلعه وتولى مكانه ثم قامت فتنة عظيمة (١٠٨٥ ﻫ) فظفر الباى بأعدائه وقتل منهم مقتلة عظيمة ولما عاد لمنصبه ثانية أمن الطرقات والعباد بقتل أهل الفساد وكانت وفاته سنة ١٠٨٦ ﻫ

وقام بالامر من بعده ولداه عبد الله محمد وهو الاكبر وابو الحسن علي ثم دخل المفسدون بينهما فافترقا ووقعت بينهما الفتن ثم اتفقا على تولية عمهما عبد الله وهو محمد الحفصى ثم وقعت الفتن والاراجيف وانقسمت الناس فخرج عند ذلك عبد الله العم عن الحكم خوف اراقة الدماء وتولى عبد الله محمد باى ثانية ثم وقع بينه وبين أخيه قتال فانكسر محمد باى وتولى علي باى البلاد ولم يزالا يتنافسان الى أن انفرد بالامر أبو الحسن علي باى بعد مواقع شديدة بينهما (١٠٨٨ هـ) قتل فيها الباى محمد والداى محمد رئيس طاباق كما سبق فقام بالحكم أحسن قيام وباشر الاعمال الجليلة ونشر لواء العدل وقرب اليه أكمل الرجال وهذا الباى هو والد الباى حسين بن علي تركى أصل الدولة الحسينية الحالية فى تونس وكان اغاة وجاق باجة [1] ولما كانت السفائن القرصانية تخرج سنويا الى البحر للغزو والصيال وقع منها تعديات على سفائن تجار فرانسا فارسلت حكومة فرانسا لذلك اسطولا جسيما (١٠٩٨ هـ - ١٦٨٦ م) تحت قيادة الاميرال جان دسترى لمطاردة قرصان الجزائر وتونس وطرابلس فطاردهم الاسطول وأغرق بعضهم ثم حضر الاميرال امام حلق الوادى وهدد الحكومة التونسية ان لم تمنع سفنها عن التعدى فصالحته وعقدت معه شروطا منها منع القرصان عن التلصص واخلاء سبيل اسراء الفرنساويين وغير ذلك ثم أقلع الاسطول وهدأت الاحوال ثم قامت حروب بين تونس والجزائر انهزمت فيها جيوش علي باى التونسى ووقع أسيرا هو وأخوه فى قبضة الجزائريين (١١١٧ هـ) وعند ذلك بايع الاهالى ولده المدعو المولى حسين وهو أول الدولة الحسينية الآتية

﴿ الفصل الحادى عشر ﴾

الدولة الحسينية الحالية

اعلم ان أول ولاة هذه العائلة هو المولى حسين بن علي باشا المتقدم الذكر (١١١٧ - ١١٥٣ هـ) قال صاحب صفوة الاعتبار ما محصله لما انتخب الاهالى بطيب نفس واختيار منهم حسين بن علي المذكور وسلموا له الامر أقرت الدولة ولايته ولا زالت الولاية متوارثة فى عائلته كبيرا عن كبير الاماذر وأمضت الدولة العثمانية له ذلك فى حياته ومن ذلك التاريخ استقرت الرياسة العامة للباى وصار هو الذى يولى الداى الى أن انقطع هذا اللقب وعوض برئيس الضابطية فى سنة ١٢٧٧ هـ فى ولاية الصادق باشا غير أن استقرار الولاية على نحو ما مر لم يكن بتعهد من الدولة رسميا بالكتابة وانما اقتضاه جريان العمل وذلك ان الدولة العلية كانت عادتها فى الولايات اطلاق التصرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف المملكة مع صعوبة المواصلة الا بعد مدة مديدة لاسيما فى مثل الاماكن التى طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وغيرها ومن كمال الاطلاق الذى اضطر اليه البعد اختيار الوالى لانه اذا مات الوالى أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بثورة عامة يسلم أهل الحل

---

(١) لما طرد سنان باشا الاسبانيول من تونس واستولى عليها باسم الدولة العثمانية رتب بها جندا من الينكجرية قدره أربعة آلاف وكان مرجع ذلك الجيش الى الوالى الذى تعينه الدولة وكانت هذه الجنود منقسمة الى سبعة أوجاقات لكل أوجاق مركز معلوم من القطر

والعقد

والعقد في تلك الجهة بواحد منهم لاجراء ما لابد منه وما يصل الخبر للدولة الا بعد مدة وحيث لم يكن من قصدها الاراحة الممالك الاسلامية واجراء الشرع فيها والادلاء للخضوع للخلافة والانقياد اليها واداء الواجب لها من مال أو غيره لم يكن من فائدتها مخالفة ما يراه أهل الحل والعقد في الصقع الواقع به الواقعة لان ذلك لا يوجد لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائدتها المار ذكرها ولذلك تولى هي من ارتضوه لحفظ أمورهم وحفظ حقوقها وعلى ذلك جرى العمل ببلاد تونس اه

ولما اطمأنت قلوب الناس بعد تولية هذا الباى ولى منصب الداى لمحمد الاصغر واجتهد في مداركة الاستعدادات الحربية لصد اغارة الجزائريين الذين كانوا يتقدمون نحو العاصمة التونسية فتمكن من ايقافهم بل وألزمهم القهقرى بعد ان لحقتهم خسائر جسيمة وكانت رجعتهم على أسوا حال والبدو تنهب أطراف جيشهم ثم بعد ذلك أخذ الداى يستبد ويسيء المعاملة فعزله حسين باشا وعين قره مصطفى دايا ثم قامت العسكر وقتلوا محمدا الاصغر المذكور من غيظهم منه وبعد عودة الباى من حرب الجزائر أخذ في تنظيم الادارة وتشييد المبانى واصلاح الطرق وتأمينها ولما أراد أن يجعل حكم البلاد محصورا في أعقابه خرج عليه ابن أخيه المدعو على بن محمد واستعان بمملكة الجزائر فساعدته (١١٤٨ ه) بجيش قوى حارب به عمه وانتصر عليه ففر الباى مع بنيه الى القيروان فاقتفى على أثرهم وبعد حروب طويلة قتل الباى المذكور (١١٥٣ ه)

وتولى بعده الباى على باشا انتخبه الجنود والاهالى بعد فرار حسين باى الى القيروان (١١٤٨ – ١١٦٩ ه) وبعد ان استتب له الامر عادت عساكر الجزائريين الى بلادهم بعد ان كانوا هموا باحداث القلاقل ليستولوا على المال الذى وعدهم به الباى لما استعان بهم ولما صفت له الايام أخذ يصادر أحزاب عمه ويستصفى أموالهم وفي زمنه سنة ١١٥٣ ه أذنت الدولة العثمانية حكومة تونس بالتنازل عن جزيرة طبرقة التى هى من أجزاء القطر الى الجنويزيين تحت شروط عينتها الدولة منها أن لا يكون للجنويزيين الحق في اقامة حصون بها ولا يتجاوزون في بناء بلدهنالك حدا محدودا وعلى ذلك احتلوها ولما خالفوا شروط المعاهدة المذكورة قام على باشا وارتد منهم الجزيرة ثانية وفسخ المعاهدة ولما كان هذا الباى محبا للعلوم والمعارف شيد جملة مدارس وأوقف عليها أوقافا واعتنى بتحصين البلاد والثغور بآلات الدفاع وأرسى بها جملة سفائن حربية وشيد جملة مبان عظيمة في جهة بلدة باردو ثم تعصب عليه أبناء عمه واتحدوا مع حسين باشا باى الجزائر الذى أمدهم بجيش (١١٥٩ ه) ولما وصلوا بالجيش الى جهة يقال لها الكاف خانهم أميره فخزنوا من عدم النجاح ومات من الاسف أحدهم المدعو محمود باى ولما أخبروا حاكم الجزائر بما حصل أرسل لهم كتيبة ثانية تحت رياسة حسن باى وبها تغلبوا على جيش تونس وأسروا الباى على باشا ثم أرسلوه الى الجزائر فقتل هناك سنة ١١٦٩ ه التى دخل فيها محمد الرشيد باى أخو محمود المتوفى الحاضرة منصورا بجيش الجزائريين وقبض على الاحكام بلا معارض

الباى محمد الرشيد (١١٦٩ ه – ١١٧٢ ه) لما دخل الرشيد الحاضرة منصورا هرعت اليه الخاصة والعامة وبايعوه واطمأنت الاهالى وبعد ما أقام جيش الجزائريين أياما

فى تونس رحل عنها راجعا الى بلاده ولما كان هذا الباى حليما كريما عادلا منصفا اجتمعت عليه القلوب وعقدت على محبته وكانت أيامه أيام رخاء درت فيها الارزاق وامتد الامن بجميع البلاد وكان محبا للمعارف والعلوم فاهتم بنشرها ولم يعمر طويلا فأدركته المنية فى أواسط سنة ١١٧٢ هـ وخلفه أخوه

الباى على باشا الثانى (١١٧٢ - ١١٩٦ هـ) بويع ثانى يوم وفاة أخيه وقد أبقى كافة العمال الذين كانوا قابضين على الادارات فى مدة أخيه وأقر جميع الامور على حالها وكان عالما محبا للمعارف لم تخل مجالسه من المناظرات العلمية والمحاورات الادبية وكان مع ذلك يقظا حتى انه لما قامت الثورة بالبلاد تحت رياسة ابن عمه اسمعيل بن يونس أخمد نارها بكل سرعة وشتت شمل الثائرين وأعاد السكينة الى ربوعها وفى سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) حصلت وحشة بين حكومة تونس والدولة الفرنساوية من خلاف وقع فى مسئلة الاسراء الذين أسرتهم سفن تونس من جزيرة قورسقة قبل استيلاء فرانسا عليها وبسبب حق استخراج المرجان الذى كان أبيح للفرنساويين لمدة سنتين بعدد معلوم من القوارب نظير أداء معلوم فلما استفحل الامر حضر اسطول فرنساوى تحت قيادة الاميرال سوفران الى سواحل تونس وأطلق القنابل على بعض حصونها وتصادف فى وقتها قدوم مندوب من قبل المرحوم السلطان مصطفى خان الى تونس لطلب السفن منها لاعانة الدولة العثمانية على محاربة الروسيا حسب العادة المتبعة من قديم فلما وجد المندوب هذا الخلاف قائما بين الحكومتين تداخل حتى أصلح ذات بينهما ثم أبرمت معاهدة الصلح تحت شروط منها أن تعترف حكومة تونس بامتلاك فرانسا لجزيرة قورسقة وان ترد الاسراء الذين أخذتهم منها بعد استيلاء فرنسا عليها وأن تبيح لاثنى عشر زورقا فرنساويا استخراج المرجان لمدة خمس سنوات مستقبلة وان يصرح لهم بشراء ثلاثة آلاف قفيز من القمح بدون تادية عوائد جمركية عليها وان يدفع الفرنساويون ما جرت به العادة من الهدايا عند عقد الصلح وبذلك عادت الصلات كما كانت قبلا بين فرانسا وتونس على يد مندوب الدولة العثمانية وفى سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) أرسلت حكومة تونس خمس سفائن حربية بجميع أدواتها لاعانة الدولة العلية فى حرب الروسيا المذكور وقد استمر هذا الباى على نشر المعارف والعلوم فى البلاد وشيد دعائم العمارية فيها وبينما كانت الاحوال سائرة على ما يرام مرض مرضا لم ينجع فيه دواء فأدركته المنية فى أواسط سنة ١١٩٦ هـ وكان درب أولاده على الحكم فى المملكة فكان يوليهم الاحكام على التناوب وله كثير من الآثار الخيرية كالمدارس والتكايا والسقايات وغير ذلك وقد عطل الخمور وهدم حاناتها وأقام الجسور وبنى المبانى الباذخة بباردو وكان عالما عادلا ذا صيانة وعفاف وفروسية وقدرة وثقة وحلم وكرم وأقام سوق العلم والادب ولما شاخ قدم ولده حموده باى على ابن أخيه محمود باى فجعل ولده ولى عهده وأجلسه لتعاطى الحكم بين يديه والسفر بالمحال وطلب له من السلطان سليم الثالث الاقرار بالحكم بعده فأجيب ووجهت اليه الخلعة العثمانية سنة ١١٩١ هـ

الباى حموده باشا (١١٩٦ - ١٢٢٩ هـ) كان هذا الباى من ذوى المعارف والاطلاع على السياسة ولما توفى والده استقل بالملك وأخذ يسعى فى فك أسر البلاد من سلطة الجزائر عليها مدة

والبها

واليها بابا محمد باشا فأول عمل أجراه لذلك انه بنى سور العاصمة (١٢١٧ هـ) وأقام حوله الابراج والابواب وشيد الثكنات وأسكن فيها عساكره التركية وأقام هو بينهم وكانت تبلغ أحد عشر ألف مقاتل واهتم بعمل المدافع والبارود وأحضر الاسلحة الجيدة وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع الى الاستانة العلية فأحكم بذلك روابطه مع دار الخلافة العثمانية (١٢١٠ هـ) وفي سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) أصدر اليه السلطان سليم خان الثالث فرمانا بأمره بحرب نابليون بونابارت حينما استولى على الديار المصرية فامتثل الباى الامر وقطع في الحال العلائق والخلطة مع قنصل فرانسا وأرسل أسطولا حربيا لمساعدة الدولة العثمانية وأصدر أوامر لعماله بالمحافظة على أموال تجار الفرنساويين الموجودين بالولاية ولم يتعرض لسفنهم التجارية حتى قالت تجار فرانسا اذ ذاك نحن الآن بدون قنصل أفضل حالا منا بوجود القنصل ثم أعلم الباشا الدولة بالاسباب التي دعته الى هذه المعاملة قائلا ان السبب في ذلك اشتباك مال التونسيين مع مال الفرنساويين فلو حصل التعرض لاموالهم يكون ذلك مضرا بمال التونسيين ومع هذا فقد لامه الكثير على فعلته هذه بلا حق منهم ونشأ من ذلك انه بعد عقد الصلح واعادة العلائق اعترف له نابليون الاول بالجميل وتبودلت بينهما الهدايا وفي سنة ١٢٢١ هـ فتح الوالي صاحب الترجمة حربا على الجزائر لانه كان يسعى كما تقدم في التخلص من السلطة التي لوالي الجزائر على تونس وجهز لذلك جيشا أرسله لحصار قسطنطينة وأرسل عمارة جسيمة هددبها السواحل وكان الجيش تحت قيادة وزيره سليمان كخيا ولكنه انهزم بعد أن حاصر قسطنطينة أربعة شهور فجهز حوده باشا المشار اليه جيشا آخر جعله تحت قيادة صاحب طابعه فانتصر على الجزائريين انتصارا عظيما وبذلك خلصت تونس من سلطة الجزائريين واستمر الخلاف بينهما مدة ثم عقد معهم صلحا واهتم صاحب الترجمة أيضا بتشييد كثير من السفن لتعزيز أسطوله وغزا بها وسبى كثيرا وحارب بها الجزائريين عندما أتت سفنهم الى حلق الوادي (١٢٢٨ هـ) فعطب كثيرا من سفن أسطولهم العظيم وصدهم ولما التجأ اليه ولدا علي باشا القرمانلي حاكم طرابلس (١٢٠٩ هـ) أمدهما بجيوشه كما سيأتي بتاريخ طرابلس فقهر أعداءهما وأجلسهما على كرسي امارة طرابلس وعقد لهما البيعة ورجع غانما ثم استمر باذلا أعظم المجهودات لخير بلاده الى أن فاجأته المنية في شوال سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٣ م) وخلفه أخوه

الباي عثمان باشا (١٢٢٩ - ١٢٣٠ هـ) لما توفي حوده باشا اجتمعت رجال الحكومة للمشورة فيمن يقدمونه للولاية من العائلة الحسينية فتم الامر على تولية عثمان باشا هذا فلما تولى استبد بالامر عليه بعض الاعيان الذين سارعوا لبيعته ولما رأى ابناء عمه أن البلاد قد أشرفت على الخطر والانحلال بعدما اكتسبت قوة في زمن سلفه حوده باشا أجمعوا على خلعه ثم تعصبوا عليه وقتلوه ليلا وذلك في أوائل سنة ١٢٣٠ هـ وقتلوا أيضا ولديه ودفنوا الجميع في مقبرة واحدة وبايعوا من بعده

الباي محمود باشا (١٢٣٠ - ١٢٣٩ هـ) تولى الحكم وهو طاعن في السن ولما كان محبوبا متصفا بالخلال الحميدة لم يتوقف أحد في مبايعته ولما قبض على زمام الاحكام باشر الامور بالعدل والرفق الا أنه لما كان ضعيفا طاعنا في السن وكان ذلك يمنعه من القيام بمهام الحكومة فوض

الامر لابنه حسين باى فاستبد ببعض الامور فثارت عليه الجنود التركية (١٢٣١ هـ) فاجتهد فى تسكين غضبهم بما قدر عليه ثم عادت الحروب مع الجزائر ولما كان ذلك يوجب اهتمام الدولة ونظرها أرسلت سنة ١٢٣٦ من قبلها مأمورا لتسوية الخلاف الواقع بين البلادين فتم لها الامر كما أرادت وتصالح الطرفان وحفظت الوحدة بينهما بالشروط المرضية وفى سنة ١٢٣٧ هـ أرسلت حكومة تونس من قبلها أسطولا مشكلا من سبع سفائن حربية وعززته باثنتين أخريين لمساعدة الدولة فى حرب اليونان وكان هذا الباى مشهورا بالحلم ولين العريكة كريما عالما يفن الشعر بنى ابنية باذخة وأقام كثيرا من المشاهد والزوايا وقد قضى مدته فى أمن ورغد عيش وسرور الى أن أدركته الوفاة وقام بعده

الباى حسين باشا (١٢٣٩ - ١٢٥١ هـ) لما استقل بالحكم فى السنة المذكورة وفدت عليه الوفود من كل الجهات لبيعته وتهنئته وبمجرد جلوسه أصدر الاوامر المشددة الى رئيس البحرية بالاسراع فى انشاء الاساطيل لاهتمامه بأمرها وفى سنة ١٢١٣ هـ أرسل من سفنه عدة لاعانة الدولة العلية فى حرب اليونان وذلك علاوة على الاسطول الذى أرسله والده وقد احترق هذا الاسطول مع أسطول الدولة ومصر والجزائر فى مينا ناوارين لما اتحدت أساطيل الروسية وانكلترة وفرانسا على اغتيال أسطول الدولة كما سيأتى شرح ذلك فى تاريخ الدولة العثمانية وبعد ذلك قامت جملة ثورات فى تونس فتمكن هذا الباى من كبح عمالها

وقد كانت فرانسا مشتغلة فى هذا الوقت بالاستيلاء على الجزائر وبمجرد ماتم لها الاستيلاء عليها قدمت فرقة من الاسطول الذى كان بسواحل الجزائر وطلب رئيسها بامر حكومته من والى تونس ان يزاد على الشروط المعقودة بين فرانسا وتونس عقود منها ان لا تختص الحكومة التونسية بمتجر بل ولا تتجر ومنها ابطال التلصص بسفنها على السفن التجارية وابطال ملك الاسرى وابطال ما كان يقدم من الهدايا وأن يكون للفرنساويين حق التعامل فى القطر التونسى كما يتعامل أهله فقبل الوالى المذكور من قائد الاسطول ما طلب على كره منه ثم عجل وأرسل الى دولة فرانسا التى أخبرها الباى بعكنوبه ان هذه الشروط أخذت عليه غصبا عنه ولما كانت فرانسا وقتئذ مرتبكة بثوراتها الداخلية على ملكها لويز العاشر عدلت تلك الشروط بعض التعديل وبهذه الاسباب لزم فرانسا مراعاة مصالحها ومداخلتها فى حراسة سياسة تونس ولما أقبل المهاجرون من الجزائر فى أوائل سنة ١٢٤٦ هـ بعد دخول الفرنسيس اليها قابلهم الباى بفضله واحسانه وأحلهم محل الامن ثم اتخذ العساكر النظامية من أهل المملكة ووفدت عليه الخلعة (١٢٤٧ هـ) من قبل الدولة العلية وابتنى لسكنى العساكر النظامية تكنة عظيمة وكان شهما اهماما عالى الهمة كريم النفس شجاعا مهيبا ضخما ارتقت فى أيامه البلاد وكانت وفاته فى شهر محرم سنة ١٢٥١ هـ وكان محبوبا لدى رعيته محافظا على شارات الملك وقد منع هذا الباى القبودان العثمانى جنكل أوغلى طاهر باشا من النزول الى بلاد تونس عندما أرسلته الدولة العثمانية للذهاب منها برا لخلع داى الجزائر الذى أعلن الحرب على الفرنسيس وسبب امتناعه ان دولة فرانسا كانت أنذرته لما أعلنت الحرب على الجزائر بانه اذا أعان بشئ أعلنت عليه الحرب وحاصرت بلاده فخشى والى تونس المذكور من ان مرور قبودان باشا من بلاده بعد اعانة للجزائر لانه لا يمكن مروره بلا حامية فاذا دخل الجزائر

بجاية من تونس بعدها الفرنسيس اعانة وأيضا اذا تسامعت العربان بمرور باشاتركى فى وسط الولاية هاجوا لما فى طباعهم من التشكى من الوالى كيفما كانت سيرته ظنا ان الجديد يساعدهم على مرادهم كيفما طلبوا وقد كان ذلك من الغفلة التى سبق بها القدر لانفاذ الامر فى الجزائر وخلفه أخوه الباى مصطفى باشا (١٢٥١ - ١٢٥٣ هـ) بايعه الناس البيعة الخاصة بمجرد وفاة أخيه ولما قبض على الاحكام لم يغير أحدا من رجال الدولة بل أبقى كلا منهم فى مركزه وفى سنة ١٢٥١ هـ أرسل هدية مفتخرة للقبودان خليل رفعت باشا عند قدومه من دار الخلافة العثمانية على طرابلس الغرب لنزعها من أيدى يوسف باشا من آل قرمان ثم طلب القبودان المذكور من تونس اعانة حربية للدولة فارسلت فى السنة المذكورة ثلاث سفن حربية ثم أتبعتها بتسع سفائن تجارية تحمل ثلثمائة من الخيل وفى هذه السنة أرسلت فرانسا أسطولا الى حلق الوادى حذرا من قدوم الاسطول العثمانى المذكور الى تونس عند عودته من طرابلس فتخوف والى تونس المذكور من أن يتهم بالسعى فى ذلك فكتب لقنصل جنرال فرانسا بتونس معتذرا متنصلا من تبعة حضور الاسطول (١) العثمانى ورد عليه القنصل بجواب يعلم من فحواه المطامع ما تضمره فرانسا (٢) لتونس وفى شهر شعبان من سنة ١٢٥١ هـ وفد رسول من الدولة العثمانية يحمل نيشان أمير الامراء وسيفا مرصعا فلبسهما الباى فكان أول من لبس النيشان المذكور وضربت له الموسيقى النظامية لاول مرة وقصد الدولة من ذلك ظاهر خصوصا بعد الامر الذى حصل من حضور الاسطول العثمانى وقد اعتمد الباى فى أعماله على

---

(١) بعد الديباجة فان الدولة الفرنساوية الفخيمة قد وجهت أجفانها المرسى ولا يتنا على مقتضى المحبة والمودة وقابلناهم بالاكرام لان شقوفنا فى مراسى الفرنسيس كانها فى مراسينا ولا يتنافكذلك سفن فرانسا عندنا وأما اقامة الاجفان فى هذا الوقت بحلق الوادى ودونننمة مولانا السلطان بقرب منا وفيها السيد قبودان باشا رعما تنتج لنا مضرة فى الحال أو فى المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله سبحانه وتعالى لنا وجودها الا نهار عما تظن فى جنابنا طنا بضرر منا ومعلوم اننا تحت طاعة مولانا السلطان فى أمره ونهيه وباسمه نخطب فى جوامعنا وعلى سكتنا فلا يخطر ببالنا اننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشئ فالمراد ان تعرف الاميرال بهذه المضرة التى نتوقعها والاعتماد على كمال عقلكم فى حسن التبليغ وسفن الفرنسيس مهما تقرب منا أو تأتى لمرسانا فمرحبا بها ونقبلها بالاكرام على مقتضى قوانين المحبة ولا زائد الا الخير والعافية وكتب فى ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ هـ

(٢) انه بلغنا ووصلنا المكتوب الذى تشرفنا به من عند السيادة وأعلمنا به الاميرال لالاند وعلمنا جميع ما تضمنه وجوابنا عليه هو ما سنذكره وهو أن جنابكم العالى برئ وأجنبى وخارج من الاتفاق الذى اقتضاه نظر الدولة الفرنساوية فى ارسال هذا الاسطول لسواحل تونس وأنتم لا يمكنكم أن تمنعوا دولة فرانسا من ذلك وهو ارسال سفنها لسواحل تونس ولاجل ذلك لا يوجد عليكم لوم ولا عتاب من جانب الدولة العثمانية لانه لا وجه لذلك والدولة الفرنساوية تعلم حقيقة حالكم مع الدولة العثمانية وحاشى جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم نفورا مع دولتكم واغا مرادها ذلك أن يبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق من غير تبديل ولا تغيير لكن الدولة العثمانية لا يمكن لها أن تخترع أمرا جديدا تضر به مصلحة الفرنسيس فى الناحية التى تحت يده فى أفريقية ولاجل أن يمنع ما عسى أن يقع من المضرة أرسل الملك اسطوله لتونس ليمنع به قدوم القبودان باشا لاجل التعرف بما هو مأمور به والاميرال لما بلغه أن القبودان باشا أتى لطرابلس وأعلم أن مراده الاتيان لتونس فى ذلك الحين أرسل الاميرال سفينة من سفنه هناك ليعلم القبودان باشا أن حبيب السلطان الصافى وهو ملك فرانسا لا يمكنه أن يتحمل هذا التعدى بوجه من الوجوه فى المملكة التى تحت يده فى أفريقية لان قدوم دوننمة المسلمين الى تونس يتقوى بها قلب باى قسطنطينة الذى عند نا معه فى التاريخ مكالمة وربما كان بيننا وبينه حرب فلاجل ذلك نعلم قبودان باشا ان لا يقدم ويرجع للمحل الذى جاء منه فان صمم وعزم على القدوم فان الاميرال واجب عليه ان يصده بالمدافعة القهرية اهـ من صفوة الاعتبار

الوزير مصطفى صاحب الطابع وصهره مصطفى أغا وهذا الوالى هو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بالماس وشيد عدة مبان مفيدة واعتنى بالعسكر النظامى وكانت أيامه أيام راحة وهناء وقد توفى فى رجب سنة ١٢٥٣ هـ وخلفه ابنه

الباى المشير أحمد باشا (١٢٥٣ - ١٢٧١ هـ) لما توفى والده تقدم للولاية فاجلسه على كرسيها ابن عمه واخوته وتمت له البيعة فى اليوم بعينه فقام باعباء الحكم أحسن قيام وفى سنة ١٢٥٥ هـ أنعم عليه السلطان محمود بالخلعة السنية ورتبة المشيرية وزاده نيشانا آخر يوضع فى غطاء الرأس والآن بطل هذا النيشان من الدولة العلية العثمانية ولكنه كان مستعملا فى ولاية تونس ثم وظف صاحب الترجمة رجالا ممن يركن اليهم فى الاعمال وجمع كثيرا من العساكر فنظم بهم جيشا وشيد الابراج ونكنة للطوبجية وفى سنة ١٢٥٦ هـ أمرته الدولة العلية بالعمل فى البلاد التونسية بحسب التنظيمات الخيرية التى صار العمل بها فى كافة الممالك العثمانية فقرأ الوالى المذكور أمر الدولة فى موكب مشهور وأعلن فيه بالامتثال غير أنه طلب وقتا للعمل مع مراعاة ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد ثم ألحت عليه الدولة فى اتباع السير على ذلك سريعا فامتثل مبادرا بارسال هدية فاخرة (١٢٥٨ هـ) منها سفينة حربية و ٢٥٠٠٠٠ فرنك وطلب منها امهاله فى التنظيمات حتى يمهد لها الاسباب وفى سنة ١٢٥٩ هـ جمع من العساكر النظامية جيشا يتجاوز عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل وكان يحضر بنفسه لتعليمهم واعتنى كل الاعتناء بتنظيم القوانين العسكرية وجهز ثغر غار الملح بالعدد والعدد وقوى البلاد بالاسلحة النارية والمدافع وبذلك انتظمت له الامور وفى السنة المذكورة تعكر كاس السياسة بينه وبين دولة سردانية حتى كادت تقع الحرب وذلك بسبب منعه اخراج الميرة من البلاد التونسية الى سردانية لقحط حصل بها فاقامت سردانية مدعية ان المنع مخالف للعهود فارسلت الدولة العثمانية من قبلها مأمورا فوق العادة ليبحث عن السبب ولما نظر هذا المأمور فى هذه النازلة دعا الوالى الى الصلح وبقاء ما كان على ما كان ودفعت حكومة تونس تعويضا لتجار سردانية نظير ما خسروه وقد كان هذا الوالى يحدث نفسه بالاستقلال فلهذا سافر الى باريس علّه يجد لذلك مسوغا أو معينا

وقال فى صفوة الاعتبار بعد كلام على تونس والذى استقر عليه القرار من الدولة الفرنساوية من ذلك التاريخ الى الآن هو ما يشير اليه ما رأيته بخط أمين أسرار الحكومة أبى العباس الوزير أحمد بن أبى الضياف ونصه لما اجتمع أحمد باشا بملك فرانسا لويز فيليب فى خلوة قال له ان كنت تروم الاستقلال فلا سبيل اليه والذى تعتمده منى ان فرانسا تحمى بسياستها حالتك التى أنت فيها الآن بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر وأما البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس وأساس حمايتك هو التحبب الى الرعية والرفق بهم سمعنا ذلك منه مشافهة رحمه الله اهـ وقد سافر الوالى الى باريس لمقاصد سياسية ولما عاد منها أرسلت له الدولة العلية من قبلها مأمورا مخصوصا (١٢٦٣ هـ) ليزيل من فكره جميع ما توهمه وصرفت النظر عن مطالبته بالويركو وأيدته فى الولاية مدة حياته فاجاب الدولة بالفرح والسرور ولكنه طلب منها بقاء الامتيازات وانتقال الولاية لاولاده بعد موته وأصر على ذلك ولما كانت الدولة تخاف أن يحصل بينها وبين والى تونس المذكور ما يحمله على طلب

مساعدة

مساعدة فرانسا أمرت عباس باشا الاول والى مصران يخاطبه فى هذا الخصوص (١٢٦٥ ﻫ) فارسل له محررا ودادياينصحه به ان يترك الاوهام التى قامت به و يقول له انه قد ذهب هو بنفسه للاستانة العلية ونال رتبة مع ان أباه وأخاه قد فعلا مالم تحم حوله ولاة تونس وانه لو ساعفه على اللقاء فى بلد معين و يصطحبا معا للاستانة يكون له الحظ الاوفر فأجابه بانه عبد الدولة العثمانية ولم يخطر بفكره شئ مما اتهم به وان قصارى أمره التمسك بالامتيازات السابقة القديمة ثم أرسل عباس باشا رسلا من العلماء وآخرين من التجار للتفاهم مع الوالى فى مقصود الدولة فاظهر لهم غاية آماله من ازدياد المحبة الاسلامية والخضوع للدولة العلية على ماجرى من الامتياز للولاية ومن عدم وجوب قدوم الوالى للاستانة و بذلك اطمأن خاطر الدولة نوعا وان كانت لاتزال تحسب له فى الحقيقة ألف حساب سيما بعد ان علمت بما دار بينه وبين ملك فرانسا من الاقوال وفى سنة ١٢٦٣ ﻫ (١٨٤٦ م) تعكرت الصلات بين فرانسا وولاية تونس بخصوص قبيلة نهد من بلاد باجة لان القبيلة المذكورة منقسمة الى فخذين فخذ تابع لتونس والآخر تابع للجزائر فاستولت فرانسا على القسمين فاعترض الوالى بمحرر كتبه الى قنصل فرانسا فأجابه القنصل ان فرانسا مستعدة ان تعطى لتونس أرضا أخرى عوضا عن قسم باجة وذلك عند تعيين الحدود فاجابه الوالى ان التغيير والتبديل متوقف على مشورة الدولة العثمانية صاحبة النفوذ ولو أن انا التصرف المطلق فى الولاية الا أن التغيير والنقص منها فلا نراه حسنا بغير رضا مولانا السلطان الاعظم وأخيرا تم الامر بتداخل الدولة العلية فى ذلك ولما حصلت حرب القريم (١٢٧٠ ﻫ - ١٨٥٣ م) أرسل والى تونس هذا ١٤ ألف جندى بجميع لوازماتهم الحربية تحت قيادة الفريق رشيد باشا وزير الحرب واسطولا مشكلا من فرقاطة حربية شراعية وست سفن أخرى منها باخرتان تحت قيادة محمد باشا رئيس البحر لمساعدة الدولة العثمانية فانشرح من هذا الاهتمام السلطان عبد المجيد خان حتى كاد يزول ما علق بفكره من جهة الوالى المشار اليه وقد اعتنى هذا الوالى بجمع كثير من الكتب النفيسة ووقفها الجامع الزيتونة بعد ما وضعت فى عشرين خزانة وأقام بالجامع المذكور ثلاثين مدرسا من أشهر العلماء بالتناصف بين حنفية ومالكية وشيد بذلك منار العلم فى بلاد تونس وكان شهما حازما ذا صولة عظيمة عالى الهمة كثير العطايا مدحه العموم وفى آخر حياته أصيب بداء الفالج وتعطل بسببه عن أداء الاحكام أشهرا ثم توفى فى حلق الوادى يوم ١٦ رمضان سنة ١٢٧١ ﻫ وخلفه محمد باشا

الباى المشير محمد باشا (١٢٧١ - ١٢٧٦ ﻫ) بويع له يوم وفاة سلفه المذكور ثم وفدت عليه الوفود من كل جانب للتهنئة وأقر الوزرا فى وظائفهم بلا تغيير ثم أخذ يهتم فى اصلاح أمور المملكة الداخلية وأرسل أربعة آلاف جندى وكثيرا من الخيل والمهمات الحربية لتعزيز القوة التى أرسلت مدة الوالى المتوفى من تونس لحرب القريم ولما انتهى الحرب وعادت العساكر الى تونس فرح بهم الباى وتلقاهم بأعظم البر ووجه التفاته لقائدهم الفريق رشيد باشا ثم أسقط المكوس عن البلاد والاعراب لتضرر الاهالى منها وعوض خزينة الحكومة عن ذلك بفرض ضريبة أخرى هينة على الاهالى وفى سنة ١٢٧٢ ﻫ أطلق الجنود النظامية فاطمأنت بذلك القلوب

وأقبلت الامة على الزراعة والتجارة وغيرهما ومن محاسنه أيضا انشاء المجلس البلدى للنظر فى تنظيم البلاد وفى المصالح العمومية وشيد فى المرسى الابنية الفاخرة وجعلها مقرا لسكناه وفى زمنه زار القطر التونسى ولى عهد الحكومة الانكليزية فأكرم الباى مقدمه وبالغ فى تعظيمه وأهداه هدايا كثيرة متنوعة من النفائس وأراه من عز الملك وفخامة الدولة شيأ كثيرا وكانت وفاته يوم السبت ٢٦ صفر سنة ١٢٧٦ هـ وكان مولعا بالصيد فى الجبال وقام من بعده

المشير محمد الصادق باى (١٢٧٦ - ١٢٩٩ هـ) انتخبه رجال الدولة والاهالى يوم وفاة أخيه فابقى رجال الحكومة فى مناصبهم ثم وردت اليه التشريفات العثمانية يحملها وزير البحرية خير الدين باشا فتلقاه بما يليق من التكريم والتعزيز وبعد ذلك أخذ فى اتمام قانون تونس العام الذى كان سلفه شرع فى سنه واستعمل فيه ألفاظا وتعبيرات سياسية لم يسبق استعمالها كتعبيره عن ايالة تونس بدولة تونس وعن الوالى بملك البلاد ثم وزع منه نسخا على سائر الدول ليكونوا اشهادا عليه ولقب كبار عماله بالوزراء فى مكاتباته مع الدولة العلية ولما نبهه لذلك بعض رجاله قال ان للدولة علينا حق السيادة وطاعتها واجبة علينا ولكن لانهين أنفسنا ثم صنع نياشين جديدة تقلدها هو ورجال حكومته وبذلك أوجد لتونس شكلا سياسيا آخر

ولما قدم الامبراطور نابليون الثالث الى الجزائر سار الباى اليه لملاقاته واحكام العلاقات بين البلادين وسلم له بيده نسخة من القانون المذكور (١٢٧٧ هـ) وبعد عودته ابتدأت المجالس التى أنشأها فى العمل ولما كانت احتياجات الحكومة التونسية قد ازدادت بسبب هذه التنظيمات أصدر الباى أمره بفرض ضريبة جديدة ولما صدرت بها الاوامر هاجت الاهالى وقامت الاعراب وقطعوا الطرق وأفسدوا فساقت عليهم الحكومة جيشا تحت قيادة فرحات أغا وبعد ملاقاته مع الثائرين هزم جيشه وقتل هو فتشجع الثائرون بذلك ونادوا بطلب إلغاء القوانين الجديدة فلم يسع الباى سوى اصدار الاوامر بتوقيف العمل بها ثم خرج اسمعيل صاحب الطابع بقوة عسكرية مؤلفة من خمسة آلاف عسكرى لتسكين الثائرين وأمره الباى باستعمال الملاينة والرفق وقد كادت مساعيه تأتى بالمرغوب لولا اشتداد المرض به فعين مكانه الوزير رستم باشا إلا أنه لم يحسن التصرف فعادت الثورة الى حالتها وانتخب العصاة عليهم على بن غزا فجعل لنفسه وزراء ولقب نفسه بالباى فالتزمت حكومة تونس حينئذ بسوق جيشين آخرين أحدهما مع وزير الحرب أحمد زروق وعدده خمسة آلاف والثانى تحت قيادة الامير على باى وعدده خمسة عشر ألفا وبذلك أمكن تشتيت شمل الثوار والقبض على رئيسهم المذكور فحبسوه فى قلعة حلق الوادى ثم مات فى سجنه ولما عادت الجيوش فى أواخر سنة ١٢٨١ هـ وزع الباى عليهم نشانا جديدا أحدثه للذين قاموا بالحرب المذكور وأحدث نشانا آخر يقال له عهد الأمان ثم أخذ الباى يقوى حصون البلاد وثغورها ولما أراد انفاذ القانون خاف من اعتراض بعض الأمراء فسجن نحو عشرة منهم بمنازلهم ثم قتل الفريق رشيد باشا والفريق اسمعيل السنى وآخرين فارتجت البلاد من هذه الاعمال لعدم وقوع تهمة عليهم ولم تحصل محاكمتهم وقامت القناصل بالاعتراضات الرسمية (١٨٦٤ م) فاعتذر الوالى ووعدهم بعدم وقوع مثل ذلك فى المستقبل ولكن استمرت القلاقل

وقات

وقلت الايرادات وكثرت المصروفات فالتزمت الحكومة أن تستقرض من أوروبا قرضا بعد قرض بدعوى تسوية الديون السابقة فزادت الحالة اشكالا وفى تلك الاثناء اشترت الحكومة أسطولا مؤلفا من سبع سفائن حربية بأثمان عالية منها فرقاطة سميت الصادقية وكانت من نوع القرويت أولا ثم جعلوا لها طبقة علوية فصارت شنيعة المنظر لا تصلح للطبلة ولا للطار وقد أشيع أن الوزير مصطفى باشا الخازندار اكتسب من ابتياع هذا الاسطول مبلغا وافرا إلا أن سوء التصرف الذى كان حاصلا اذ ذاك فى حكومة تونس وسعيها مع عرجها فى التشبه بالدول العظيمة اضطرها لبيع سفن الاسطول المذكور ثانية بأثمان قليلة لا تذكر وذلك فى نظارة رستم باشا على البحرية والحربية وباعت الحكومة أيضا كثيرا من المدافع والمهمات الحربية لتنظيم ماليتها ومع هذه التصرفات المخجلة لم تحصل الحكومة على فائدة وأخيرا شكل الوالى قومسيونا مختلطا لمداواة الاحوال المعتلة (١٢٨٦ هـ) ونصب عليه خير الدين باشا رئيسا ولما استشعر الباى بميل أمته عنه ونفورها منه لسوء تصرفه التجأ الى دار الخلافة فأرسل سنة ١٢٨٧ هـ خير الدين باشا للسعى فى طلب تجديد الفرمان بحفظ الامارة وجعلها كالامارات الممتازة فى الدولة العثمانية ولاحكام الوصلة وربط العلائق الحسنة بينه وبين الدولة العلية فتمكن الوزير المذكور بحسن مساعيه من نوال المطلوب وجددت الدولة الفرمان (١) وأرسلته لصاحب الترجمة مع سيف ونشان مجيدى مرصع صحبة

(١) الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى الوالى بتونس الآن الحائز الحامل النيشان المجيدى الشريف من رتبته الاولى مع النيشان الهمايونى العثمانى المرصع وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله تعالى اجلاله آمين ليكن معلوما عندما يصل توقيعى الرفيع الهمايونى انه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنية ادارة الايالة التونسية التى هى من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة الى عهدتك ذات اللياقة والاهلية كما وجهت سابقا الى عهدة اسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهى الى طرفنا الملوكى الاشرف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قرينا لعلمنا المضىء بالعالم فمأمولنا السلطانى على مقتضى الشيم المرضية التى جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى والجد والاجتهاد فى كل ما ينمى عمران مملكتنا الشاهانية وسعادة أهاليها تبعة دولتنا العلية ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية واعتمادى السلطانى المبذولين فى حقك آنافا وتعرف قدر تلك العناية والاعتماد وتشكرهما ولما كان المقصود الاصلى والمراد القطعى لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الايالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية ونمو عمرانها وتأسيس أبنية الامن والراحة لسكانها يوما فيوما وكان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها ولا يؤدها صرف الهمة والعناية العائدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاتها المطالب ورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيرا الى جناب الخلافة العلية قررت وأبقيت ايالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشرائط الآتية وحيث ان مرغوبنا السلطانى على ما تقدم بيانه انما هو زيادة عمران تلك المملكة الشاهانية وثروة أهاليها وهى الآن فى حالة مضايقة وتأخر فى الواردات لكل من الحكومة والاهالى وقد سمحت السلطنة السنية بعدم ارسال ما كان يرسل باسم معلوم من الايالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لاهالى تلك الايالة ولما كانت الايالة المشار اليها من الاجزاء المتممة لممالكنا الملوكية صدرت ارادتنا السنية بان يكون الوالى بتونس مرخصا له فى تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية وهما السياسية لمن يكون منها أهلا لها وفى العزل منها بمقتضى قوانين العدل وفى اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الاجنبية كما كانت سابقا فيما عدا المواد السياسية العائدة الى حقوقنا المقدسة الملوكية ونعنى بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة باصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون اجراؤه راجعا الى حقوق سلطنتنا

خير الدين باشا وعند وصوله أقام له الوالى احتفالا شائقا جدا وتلى الفرمان فى جمع عظيم من الناس وتقلد الباى النيشان (١٢٨٨ هـ) وأقامت الاهالى زينة شائقة استمرت أياما عديدة وفرحت جميع الطبقات لاحكام العلاقات مع الدولة وعادت لذلك السكينة فى داخلية القطر إلا أن فرانسا لم تقر على ذلك رسميا أسوة بباقى الدول لما كانت تنويه لتلك الولاية الاسيفة من النوايا التى عادت بفقد استقلالها وفى سنة ١٢٩٠ هـ عزل الوزير مصطفى الخازندار من رياسة الوزراء ووجهت لخير الدين باشا مع بقاء رياسة القوميسيون فى عهدته ولما جلس السلطان مراد على تخت الخلافة (١٢٩٣ هـ) أرسل الباى وزير حربيته وبحريته رستم باشا الى الاستانة بالنيابة عنه لتقديم واجب التهانى ولما وقعت حروب الصرب وولايات البلقان فتح الباى اكتتابا للاعانة التطوعية ودفع هو ورجاله مبالغ وافرة ليقتدى بهم الاهالى ولما صعد مولانا السلطان المعظم عبد الحميد خان على تخت الخلافة العظمى بعث ثانيا رستم باشا الى الاستانة لينوب عنه فى أداء فريضة التهنئة ولما وقعت الحرب بين الدولة والروسيا طلبت الدولة الاعانة العسكرية من تونس حسب المتبع الا أنه لم يكن لدى تونس اذ ذاك من العساكر ما يكفى لحفظ النظام فى داخلية البلاد فعقد الباى مجلسا للبحث فى طلب الدولة الذى هو من أحكام الدين من جهة ومن منطوق فرمان سنة ١٢٨٨ هـ من جهة أخرى وبعد المداولة استقر الرأى على اعانة الدولة بالمال فشكل الباى لذلك لجنة جمعت مبلغا عظيما من المال وأرسلته الى الدولة ثم طلبت الدولة نحو ستمائة بغل للاحمال فتطوع بها الاعيان وحملتها السفن العثمانية لان حكومة تونس كانت تخشى من ارسالها بالسفن التجارية لانه لا يؤمن عليها من تعرض سفن الروسيا سيما وأنه كان أشيع حضورها الى البحر المتوسط الابيض لمنع بلاد تونس من الاشتراك فى الحرب وفى مبدا الحرب حذر أحد نواب الدول الاوروباوية الباى من التداخل فى حرب الروسيا

السنية وعند حلول القدر المحتوم فى الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الاكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشيرية الهمايونى كما استمر العمل بذلك الى الآن بشروط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطانى وتزين به السكة التى تضرب هناك علامة علنية للارتباط القديم الشرعى لايالة تونس لمقام الخلافة الجليل وان يبقى السنجق على لونه وشكله ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبى يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة فى الجميع ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوراثة مخصوصا بعائلتك على ان تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقا وان تجرى الادارة الداخلية لتلك الايالة مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل التى يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان فى النفس والعرض والمال فاعلانا لما ذكر أصدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأرسل موشحا أعلاه بخطنا الميمون السلطانى فخلاصة نياتنا الشاهانية اغاهى اصلاح حالة تلك الايالة المهمة ومالا بينكم وتقوية ذلك حالا ومآلا واستكمال أسباب السعادة والرفاهية والامنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطانى ومأمولنا القطعى الملوكى أن يبذل من جهتك الجهد فى حصول ما ذكر ثم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الازمان وعلى أمنية الاهالى القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط امتياز الوراثة الاساسية المقررة فيقتضى أن تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائما سرمدا وبتباعد عن وقوع الحال والحركة على خلافها اذا علمت ذلك فلا بد أن تعرف أنت ومن يقام فى أمر الولاية بالتوارث من أعضاء عائلتك قدر هاته النعمة العلية الشاهانية وتشكروها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاى السلطانى بالغيرة ومزيد الاهتمام باجراء هذه الشروط المؤسسة حرر فى اليوم التاسع من شهر شعبان سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف اهـ من كنز الرغائب

وخوفه

وخوفه قدوم الاسطول الروسي الى مراسي تونس وهدمها بالقنابل وسعى في ذلك أيضا قنصل الروسيا وطلب الوعد من الباي في ذلك فقال الوزير خير الدين باشا ان الوالي لا يستطيع أن يربط نفسه بالكلام من عدم التداخل في الحرب ثم سعى أخصام الوزير خير الدين باشا بالوشايات في حقه عند الباي وفي مقدمتهم مصطفى بن اسمعيل قصد اسقاطه من الوزارة ولم يبقوا شيأ من المفتريات إلا رموه به فلما علم الوزير بذلك وأن أقوالهم صادفت أذنا صاغية قدم استعفاءه (١٢٩٤ هـ) فحقد عليه الباي وبث خلفه العيون ومنع رجاله من الاجتماع بالوزير المذكور ولما انتشر هذا الخبر سأل وزير فرانسا الوالي عن سبب استقالة خير الدين باشا فقال له ان السبب هو خلاف سياسي وقع بيني وبينه لميله للدولة العلية في هذه الظروف الحرجة ثم طلب خير الدين باشا السفر الى أوروبا بقصد التداوي فأذن له الباي وبعد ان أقام بها بعض شهور استأذن في العودة فأذن له ولما عاد الى تونس طلبته الحضرة السلطانية الى الاستانة فأراد الباي منعه فعارضت القناصل الباي بعدم أحقيته في منعه فسافر اليها في رمضان سنة ١٢٩٥ هـ فأكرمته الحضرة السلطانية ثم رقي الى مسند الصدارة العظمى فيها وبعد استقالة خير الدين باشا من وزارة تونس تعين بدله الخازندار محمد باشا ولكنه كان وزيرا بالاسم فقط أما النفوذ فكان بيد غيره ومع ذلك لم تطل مدة حكمه لانه أسقط منها (١٢٩٥ هـ) وانتخب بدله مصطفى بن اسمعيل ويقال انه من عائلة وضيعة ساعدته الظروف حتى دعي الى معية الوالي محمد الصادق باشا فمال له حتى صار لا يعمل شيأ حتى بداخل قصره الاعشورته وكان هذا الوزير يتصف بأخلاق غريبة منها انه كان محبا للتجمل بالملابس المفتخرة المرصعة بالجواهر ويضع في يده عددا وافرا من الخواتم النفيسة ولما قبض على رياسة الوزارة أخذت مطامعه تتزايد فظهرت مشاكل عديدة منها مسئلة وصل سكة حديد تونس بالجزائر ومسئلة صانسي الذي منح قطعة من الاراضي ثم ادعى انه لحقته بعض خسائر فاستفحل الامر بطلباته وتداخل فيها قنصل جنرال فرانسا وهو المسيو روستان الذي لما رأى ان الوزير مصطفى بن اسمعيل يسعى لدى حكومة فرانسا في استبداله بغيره وكان يعلم مطامع الوزير المذكور قابله سرا وعرض عليه المساعدة لنواله الامارة التونسية بعد الوالي الحالي الصادق باشا اذا سعى الوزير في ادخال ولاية تونس تحت حماية فرانسا فصدق هذا الوزير المغرور المغفل أقوال القنصل وتعاهدا على ذلك ثم أخبر القنصل دولته بالكيفية وشرح لها مطامع الدول المزاحمين لنفوذ فرانسا في الولاية المجاورة للجزائر فصرحت له الحكومة الفرنساوية باتباع الطرق السياسية المناسبة اللازم عملها للحصول على المطلوب بواسطة الوزير المذكور

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

دخول تونس تحت حماية فرانسا

لما اغتر الوزير مصطفى بن اسمعيل بوعود قنصل فرانسا أخذ من وقته يطلع القنصل على جميع أسرار حكومة تونس ثم اتفق مع القنصل على الاعمال التي يجريها لتتمكن فرانسا من التداخل فعلا في المسئلة وصار في الظاهر يعاكس سياسة فرانسا ويميل الى الدولة العثمانية حتى انه طلب منها لما

ابتدأت القلاقل ارسال أسطول عثمانى لاستتباب الراحة ومنع التداخل الاجنبى الا أن الدولة لم تجب طلبه لانها كانت مطلعة على كنه الامور الحاصلة فى تونس ولم تكن أيضا الظروف تساعدها على عمل شئ ما بالقوة لانتهاك قواها العسكرية فى حرب الروسية ولما رأى الوزير مصطفى بن إسمعيل أن الدولة غير مستعدة لاجابة مطالبه الخبيثة أخذ يضاد السياسة الطليانية ويعاكس أصحاب الحقوق من الطليان قاصدا بذلك ايغار الصدور حتى يوجد لايطاليا سببا شرعيا للتعرض للحكومة التونسية بالقوة واعلان الحرب عليها فتتداخل حينئذ فرانسا الا أن ايطاليا استعملت الحكمة والرزانة لعلمها بنتيجة ما يحصل من تعكير السياسة بينها وبين فرانسا وكان الوزير المذكور أخذ من قنصل فرانسا فى خلال تلك الاحوال صورة مشارطة لبسط حماية فرانسا على تونس وصار كلما يقابل الباى يعرض عليه أقوالا مزخرفة ويبين له حسن نتائج الحماية الفرنساوية فكان الباى يقابله بالرفض طبعا وعند ذلك يسعى فى خلق الارتباكات والمشاكل حتى يضطر الباى لقبول مايقصد الوزير انفاذه ولما رأى الوزير أن مساعيه كانت تذهب أدراج الرياح لم ير وسيلة لذلك سوى التضييق على بعض القبائل التونسية النازلة بحدود الجزائر لتشق عصا الطاعة على الحكومة وبذا يتيسر لفرانسا المداخلة فلاقت مساعيه لسوء الحظ نجاحا وادعت فرانسا أن وجود الثورة على حدودها غير مأمونة العواقب لانها ربما امتدت منها الى الجزائر فساقت جيشها حينئذ على حدود تونس بدعوى توطيد الامن وهى الوسيلة التى كثيرا ما تتذرع بها دول أوروبا عند قصد المداخلة فى أحوال الدول الشرقية وكان جيشها على قدم الاستعداد لا ينتظر الا صدور الاوامر له بالمسير ولم يمض على ذلك الا القليل من الايام حتى ظهرت مسئلة الحماية المذكورة وقبلها الباى ثم قابله مسيو روستان قنصل فرانسا وعرضها عليه رسميا فصدق عليها فى شهر مايو سنة ١٨٨١ م مع أن الباب العالى منعه قطعيا عن التصديق على شئ من هذا القبيل واحالة كلما تطلبه فرانسا على الدولة وكما هو أيضا منطوق فرمان سنة ١٢٨٨ ﻫ وغيره فلم يكترث بذلك ولما سألته الدولة هل صدق على المعاهدة كما أشيع أجاب بالايجاب وأنه مكره على ذلك ولهذا اتهم كثير من الكتاب هذا الباى بتواطئه مع الحكومة الفرنساوية وكانت المعاهدة المذكورة تشتمل على عشرة بنود (١) جعلت

(١) لما كانت جمهورية فرانسا وحكومة باى تونس يريدان حسم القلاقل المخربة التى وقعت فى حدود المملكتين وفى سواحل تونس أرادا أن يربطا مخالطتهم القديمة التى هى مخالطة مودة وحسن جوار فاعتمدا على ذلك وعقدا معاهدة تعود بالمنفعة على الجهتين المذكورتين ولذلك فقد عين رئيس الجمهورية الفرنساوية الجنرال بريار وكيلا عنه ليتفق مع سمو الباى على الشروط الآتية

أولا — ان المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها المعقودة بين الجمهورية الفرنساوية وحضرة الباى يحتم تقريرها واستمرارها ثانيا — لاجل وصول حكومة الجمهورية الى الطرق المؤدية الى المقصود الذى يهم الطرفين المتعاهدين قبل سمو الباى بأن حكومة فرانسا تضع العساكر الفرنساوية فى المواضع التى تراها لازمة لتقرير الراحة واعادة الامنية فى الحدود والسواحل ولا تترك العساكر تلك الجهات الا عندما تتحقق للقوة العسكرية الفرنساوية والتونسية ان الحكومة التونسية قادرة على تقرير الراحة ثالثا — تتعهد الجمهورية بحماية سمو الباى والمدافعة عن جميع ما يخوف منه لضرر ربما لحق نفسه أو عائلته أو فيما يختص بحكومته رابعا — تتعهد الجمهورية الفرنساوية بالقيام بالمعاهدات الموجودة الآن بين حكومة تونس والدول المختلفة الاوروباوية خامسا — تنصب حكومة الجمهورية لدى سمو الباى وزيرا ينظر فى انفاذ هذه المعاهدة ويكون الواسطة بين الحكومة الفرنساوية

فيها

فيها تونس تحت حماية فرانسا التى يكون لوكيلها المقيم بالولاية حق القيام بجميع الاعمال الخارجية وتتعهد الحكومة الفرنساوية بحماية تونس من جميع الطوارئ وأن يكون لها أكبر نفوذ وما أشبه ذلك من الامتيازات التى جعلت تونس وأهلها فى قبضة فرانسا تماما وتسمى هذه المعاهدة بمعاهدة باردو ولما اعترضت الدول على هذا العمل المغاير للقوانين نشرت الحكومة الفرنساوية فى ٩ مايو نشرة ادعت فيها أن ولاية تونس مستقلة من القديم لانها عاهدت الدول بدون وساطة الباب العالى وأصدرت قوانين عبرت فيها عن نفسها بلفظ دولة وعن واليها بلفظ ملك ولم يذكر بتلك القوانين شئ عن الحقوق السلطانية ولم تعترض دولة من الدول على ذلك حتى ولا الباب العالى نفسه وقد اعترض أيضا ناظر خارجية الدولة العثمانية على تلك الحماية بلائحة (١) مثبتا فيها بالبراهين القوية الدامغة جميع حقوق الباب العالى فى ولاية تونس منبها على جميع الفرمانات والمعاهدات السابق عقدها مع الدول الوارد فيها اسم تونس وعدها من ولايات الدولة ولكن نفذ القضاء وأنكرت فرانسا على الدولة العثمانية قولها ان تونس من جملة أجزاء مملكتها بدعوى أنها لم تعترض على أعمال

وذوى الامر والنهى التونسيين وفى كل الامور المشتركة بين المملكتين سادسا — يكون للنواب السياسيين وللقناصل الفرنساويين بالممالك الاجنبية النظر والوكالة فى أعمال تونس وأعمال رعيتها ويتعهد سمو الباى فى مقابلة ذلك بان لا يعقد معاهدة عمومية بدون علم الحكومة الجمهورية وبدون ان يحصل على موافقتها من قبل سابعا — قد أبقت حكومة الجمهورية الفرنساوية وحكومة حضرة الباى لانفسهما الحق فى تأسيس نظام المالية التونسية ليمكنهما دفع الديون التونسية العمومية ويشمل هذا النظام حقوق أصحاب الدين التونسى ثامنا — تجبر القبائل العاصية بالحدود والسواحل على دفع الغرامة الحربية وتتفق حكومة الجمهورية مع حضرة الباى فيما بعد على شروطها وكميتها وكيفية دفعها وقد ضمن حضرة الباى ذلك تاسعا — يتعهد سمو الباى بمنع ادخال السلاح والآلات الحربية ببلاد الجزائر بان يمنع دخول تلك الاشياء اليها من جزيرة جربة ومرسى قابس وسائر المينات الجنوبية فى المملكة عاشرا — يكون العمل بهذه المعاهدة بعد قبولها من الحكومة الجمهورية وردها فى أقرب مدة ممكنة لسمو الباى تحريرا فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد

الامضاء	الامضاء
محمد الصادق باى	الجنرال بريار

(١) هاك تعريب اللائحة التى أرسلها وزير خارجية الدولة الى سفرائها فى الخارج بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٨٨١ م ان اعلاماتى المختلفة عرفت فطانتكم الوقائع التى صارت فى المسئلة التونسية وقد تسببت بهجوم بعض القبائل البدويين جهة الجزائر ولهذا الهجوم فالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بأنه يلزمها ارسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا من المركز الا بعض فراسخ فمن غير التفات الى ما كنا أكدناه على حضرة الباشا ليأخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة فى المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التى هى محسوبة جزأ متمما للسلطنة المذكورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادى معها لقطع الاختلاف الذى وقع وترتيب حقوق الباب العالى مع منافع فرنسا فى ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد فى ايضاحها كما يلزم وهى سيادة السلطان التى ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهى سيادة لا تنكرها ولا دولة عموما وهذا الحق بقى الى الآن صحيحا ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذاك سنة ١٥٣٤ م بخير الدين باشا وفى سنة ١٥٧٤ م بقليج على باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التى فعلها الباب العالى هى ان جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالى الاول المسمى من السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى فى خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التى تأتى

الباى عند سنه القانون النظامى المتقدم الذكر ونشأ عن هذا الانكار فتور وقتى فى العلاقات الودية بين فرانسا والدولة العثمانية وبذلك ضاعت هذه البلاد بخيانة رجل كمصطفى بن اسمعيل وأمثاله وداست فرانسا القوية على حقوق الدولة العثمانية صاحبة الحق والتى لم تجد لها نصيرا من أوروبا التى تفتخر بعدل التهاو بأنها معينة المظلومين ألا قاتل الله القوة كما قاتل الله الضعف ولما دخلت عساكر فرانسا بلاد تونس هاج الاهالى وقامت الثورات بكل جهات البلاد فوجهت فرانسا عليهم العساكر بحرا وبرا

وقد اشتركت فى الحملة التونسية القوة البحرية الفرنساوية الموجودة بالبحر المتوسط الابيض وكانت وظيفتها اعانة الجيش البرى بهجومها على المدن الحصينة الساحلية التابعة لتونس التى أظهرت الامتناع وقد كان اطلاقها القنابل على حصن طبرقة والاستيلاء على بنزرت وقابس من الاعمال القليلة الاهمية لعدم وجود التناسب بين قوى المتحاربين مما سهل النجاح للفرنسيس الأن هجوم هذا الاسطول على مدينة صفاقس يستحق الذكر والتنويه بسبب مقاومة العرب من سكانها مقاومة شديدة وبسبب ما أظهرت الاساطيل من حسن الترتيب والفوقان وكان القائد العام لها هو الاميرال غارنول Garnault وقد كانت القوة البحرية التى اشتركت فى ضرب مدينة صفاقس تتركب من تسع مدرعات وطرادتين وكشاف واحد وأربع مدفعيات وكان عمق المياه على السواحل التونسية يعرقل الاعمال البحرية ويجبر السفن على الابتعاد عن الساحل بنحو ٦٠٠٠ من الامتار ولا يمكنها أن تحمى زوارق البحارة من الدنو الى الشاطئ الا أن المدفعيات لما كان يمكنها أن تدنو من الشاطئ على بعد ٢٠٠٠ متر كان فى امكانها حماية نزول العساكر الى الشاطئ ولما ابتدأ الفرنساويون فى اطلاق القنابل فى يوم ١٦ يوليه سنة ١٨٨١ كانت هذه السفن تخرج الى البر نحو ٣٠٠٠ من الجنود بين برية وبحرية ولما كسر الفرنساويون أبواب المدينة المذكورة تعين عليهم محاصرة

منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطتهم مع الدول الاوروباوية وتارة تكون فى شأن أحوالهم الداخلية والتى لهاته المدة الاخيرة فان الباب العالى من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فانه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا وباش كاتب الولاية ولم يكن الامن ترحم الدولة العلية ان منحت الوالى أن يسمى هو بنفسه هذين المتوظفين وأيضا فانباط الذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضا وفى وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتى الى القسطنطينية دائما أناس رسميون ليقدموا تعظيمات الوالى وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا أيضا الاذن اللازم من الباب العالى لامور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والاهالى التونسيين طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك الحضرة السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعترف به جميع الدول والآن قد استغاث الوالى بجهد سيدنا الحق ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء الحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية فهو سهل لكن نقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا وفرانسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هـ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضا وجدنا ان كل المعاهدات بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس وفى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ هـ أرسل السلطان فرمانا للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضا الباب العالى بأن قنصل فرانسا يجمع خدمات قناصل الدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نواب بالقسطنطينية كالبرتغال وكتالونى واسبانيا وفينيسيا وفرينسا وغيرهم والقنصل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنساوية

القصبة ثم محاصرة كل بيت التجا اليه العرب وقد بلغت خسائر الفرنسويين بعد استيلائهم على المدينة في مساء اليوم المذكور تسعة قتلى وأربعين جريحا

قال بعض المؤرخين ان ثورة القبائل على جيوش فرانسا هي لاعتبارهم أن ما صار بين الباى وفرانسا مخالف للحقوق المقدسة العثمانية ومخل بالعلائق الدينية والسياسية المرتبطة بها أهالى تونس بالسلطة العثمانية منذ خمسة قرون ولولا رداءة الاسلحة الموجودة بحصون الولاية وبأيدى الاهالى والعربان وعدم تعرض أوروبا لنال التونسيون منزلة أشرف مما نالوها الآن وزيادة عن ذلك فلم يكن للولاية من الجنود المسلحة غير نحو ثلاثة الاف جندى وهكذا أغمضت الدول الاوروباوية صاحبة المصالح فى القطر المذكور النظر عن كثرة الاعتراضات تاركة ذلك الى ظروف الاحوال وطوارئ الازمان ومنهم الدولة العثمانية صاحبة السيادة وبعد هذه الحوادث المحزنة لم يعمر الباى محمد الصادق مدة طويلة فانه توفى يوم السبت ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ الموافق ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٩ فجلس مكانه ولى عهده وأخو الامير المعظم على باى وكانت ولادته سنة ١٢٣٣ هجرية لما توفى محمد الصادق باى ركب الامير على باى فى الموكب الخاص حسب العادة المألوفة وكان مؤلفا من الوزراء وأعيان الحكومة التونسية وحضره المسيو كامبون وزير الجمهورية الفرنساوية

فى المراسى المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناصل الانكليز والهولنديين وغيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرانسا وذلك سند منع التعدى بين الباب العالى والنمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ ﻫ المتقرر بمعاهدة ستوفاق ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ فانه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يحموا على اسم السلطان السفن المتجرية لسلطنة الرومان الفخيمة وأيضا فان الاتفاق الذى تقدم هذا السند وتم فى ١٥ شوال سنة ١١٦١ ﻫ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فان الوالى العام بتونس وهو اذ ذاك فى رتبة بكلر بك ونال اسم على باشا يذكر فى مقدمة كل مكتوب ممضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهى (مولانا السلطان الغازى محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان أستطرد لكم الاذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٤٥ ﻫ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فانه يأمرهم أن لا يتداخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الاذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ ﻫ ١٨٣٠ م فانه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى وأيضا قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ م وذلك الباشا هو الذى سماه السلطان والباى باماوقد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أوروبا من غير ان يعارض ولا من جهة واحدة وزيدكم شيأ آخر وهو انه فى سنة ١٨٦٣ م فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضا الباب العالى كان مسيو دوار وان دولويس وزير خارجية الامبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال انه يلزم اما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضا الباب العالى ليصح هذا القرض وللمدافعة عن حقوق الباب العالى فان الوزير الفرنساوى أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار اليه وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين وانا متحققون بان فكر الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدمناه وانهم يحفظون على حقوق الباب العالى الاخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرانسا وتركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرفهة التونسية المتممة للسلطنة العثمانية والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية فى مضمون هذا التلغراف وتشرح له ما تراه نافعا ولكم الاذن بان تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير اذا طلبكم اﻫ الامضاء مصطفى عاصم نقلا عن صفوة الاعتبار

لدى الباى وقرأ خطبة عظيمة باسم دولته أظهر فيها التعزية والتهنئة وبين الارتباط الموجود بين فرانسا وتونس وقلد الباى فى الحال نيشان الليجيون دونور من الصنف الاول وأطلقت المدافع ايذانا بالرسوم المعتادة وبايع الباى جميع الحاضرين وأعلن المسيو كامبون جميع نواب الدول وقناصلها بوفاة محمد الصادق وتولية ولى عهده على بلاد تونس فأقبلوا فى الحال بملابسهم الرسمية لتقديم رسوم التهنئة والتعزية ومن يوم جلوسه وهو مهتم بمساعدة رجال فرانسا فى إصلاح شؤن البلاد واتمام ما يسمونه بالاصلاحات ليس له المعارضة أصلا فمدوا الخطوط الحديدية والسلوك التلغرافية وشيدوا المبانى المفيدة ووسعوا نطاق التجارة وأصلحوا المرفأ العظيم بحلق الوادى وغيره حتى صار من أحسن المرافئ وأخذت المواصلات التجارية تتزايد بين الجزائر وتونس وجعل الفرنساويون الادارات فى الحكومة مشابهة للجارى فى حكومة الجزائر وأصبح الاهالى يرغبون تقدمهم وإصلاح شؤنهم

أما البحرية فى الحكومة التونسية فليست ذات شأن الآن وقد ورد بالتقويم السنوى البحرى الذى يضعه الموردبروسه فورد أن لها من البوارج ثنتين فقط

﴿ الباب الثالث عشر ﴾

تاريخ طرابلس الغرب

﴿ الفصل الاول ﴾

وصفها الجغرافى

اعلم ان البلاد المسماة طرابلس هى ولاية تابعة للدولة العثمانية رأسا وهى تتركب من بلاد طرابلس الحقيقية وواحة غدامس وجهات برقة وفزان وواحة غات وتمتد شواطئها على البحر المتوسط الأبيض على طول ١٥٠٠ كيلومتر تقريبا وهى محصورة بين بلاد تونس غربا ومصر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا وحدودها ليست معينة تماما الا من جهة البحر ومسطحها يبلغ ١٫٢٠٠٫٠٠٠ كيلومتر مربعا

أما جبالها فهى عبارة عن هضبات صخرية وتلال رملية منها جبال برقة شرقا وهى كأنها الجزر الصخرية محصورة بين البحر المتوسط وخليج بومبه وخليج سدره وبتلك الجهة منخفض عظيم يظن البعض انه خليج قديم من بحرية كثير من البحيرات المالحة والحفريات البحرية وقد أشار السائح رولف (Rohlfs) بانه لو أجرى الماء الى هذا المنخفض ثانية لامكن لاعظم السفن السير حتى تصل بلاد فزان أما هضبة برقة المكونة من الصخور الجيرية فارفع نقطة بها تعلو عن سطح البحر المتوسط بنحو ٣٠٠ متر وبها مرفأ تبروك العظيم وخليج بومبه وهو معرض للرياح ومن أشهر جبال برقة الجبل الاخضر ويزيد ارتفاع بعض قممه عن ألف متر وبالجهة الغربية من بلاد طرابلس الاصلية يوجد كثير من الهضبات الحجرية التى تمتد حتى تصل البحر وهى هنالك مرتفعة ارتفاعا عظيما حتى انها تشاهد كالاسوار وأشهر هذه الهضبات هضبة تسمى حمضة الحمراء وفى نهايتها من جهة البحر جبل

الدويرات وجبل نفوسه والجبال السوداء أما المنطقة الشاطئية التي يختلف عرضها ما بين ٦٠ الى ١٠٠ كيلومتر فانها منخفضة رملية تكثر بها المستغدرات المالحة وبها بعض مرافئ بضواحي مدينة طرابلس أما المسافة الكائنة بين بلاد طرابلس الاصلية وبرقة وهي الكائنة على طول الساحل الجنوبي من خليج برقه فليس بها من الجبال شيء يذكر وأرضها سهلة رملية تمتد تحت مياه البحر فتحدث في قاعه تلالا مضرة بالسفن التي تلقيها عليها رياح الشمال

أما مناخها فمختلف حيث بالشمال منها يعتدل الهواء في بعض الفصول بخلاف الجنوب ومتى هبت رياح الشمال جلبت معها بعض الرطوبة أما بقية الجهات فهواؤها شديد الحرارة لأن جبالها قليلة الارتفاع وبها جهات في الجنوب تمر عليها السنون ولا تنزل بها الامطار أصلا وهواؤها على العموم شديد البرودة ليلا وشتاء وشديد الحرارة نهارا وصيفا ويصل الى درجة لا تطاق من الحرارة متى هبت رياح السموم الجنوبية وليس بها من الانهار الا بعض ودبان تجري زمن الامطار ويشرب أهلها من الآبار ومما اختزنوه من المياه في الصهاريج اذا فهمت ذلك علمت ان النباتات تكون ولا شك قليلة جدا في بلاد كهذه خصوصا في المناطق المتباعدة عن البحر وجهاتها الشمالية تشبه جهات ايطاليا وبلاد اليونان وغيرها من البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الأبيض ويوجد بالجهات المنخفضة منها وعلى سفوح الجبال حيث تحفظ الارض الرطوبة من مياه الامطار زمنا طويلا أشجار ونباتات مختلفة تستمر خضراء طول السنة فمن ثمارها البرتقال والليمون والخوخ والنخيل وهو كثير والشعير والحنطة وأنواع القثاء وبعض الخضراوات والتبغ وغيرها مما يزرعه سكانها هذا بالجهات الشمالية منها أما أقطارها الجنوبية فانها تختلف عن ذلك اختلافا كليا حيث تكثر الصخور والرمال وتقل النباتات جدا فهي الصحراء بعينها حتى يصعب على القوافل اختراقها لانه لا يوجد بها غير آبار على مسافات متباعدة أغلبها ردىء الماء وليس بها من الامكنة الصالحة للسكنى غير الواحات التي من أشهرها غات وغدامس وفزان وكفرة وغيرها ولهذا كان سكان هذه البلاد قليلين لا يتجاوزون المليون والمائة ألف عدا وهم في الشمال أكثر منهم في الجنوب طبيعة وسكانها خليط بين بربر وهم أصل السكان وعرب وسودان ومن بينهم قبائل لا تزال تسكن في كهوف من الجبال خصوصا بالجبل المسمى لهذا السبب جبل الغيران

وكانت طرابلس محطا لاساطيل قرطاجنة والرومان والعرب واشتهرت في الاعمال البحرية في مدة قيام الدايات فيها بالاحكام وخصوصا في مدة حكم عائلة القرمانلي كما سيأتي

﴿ الفصل الثاني ﴾

ثغورها البحرية

من أشهر ثغورها *طرابلس* وهي حصينة وفرضتها جيدة الان عمق مياهها القليل لا يكفي للسفن الجسيمة وهي قاعدة الولاية المنسوبة اليها واقعة على ساحل البحر المتوسط في لسان

داخل فى البحر وتبعد ١٣٥٠ كيلومترا عن جنوب شرقى الجزائر و ٦٥٥ كيلومترا من تونس وعدد نفوسها ٣٥٫٠٠٠ نسمة وبها سراى الحكومة حيث يقيم الوالى وعدة أسواق وجملة جوامع ولها تجارة متسعة مع داخل افريقية وبلاد السودان ومنها تذهب قوافل عديدة الى تلك الجهات وقد ازدادت أهميتها التجارية بعد ظهور مهدى السودان ومن صادراتها العاج وريش النعام والابنوس وغيرهما من حاصلات السودان وقد استولى كثير من ممالك أوروبا على هذه المدينة لاهميتها كما سبق

وبنى غازى واسمها القديم هسپيرس ثم برنيقة مدينة من برقة فى ساحل افريقية واقعة على الساحل الشرقى من خليج سدرة وعدد سكانها مع ملحقاتها نحو ٢٢٫٠٠٠ بينهم كثير من اليهود والسودان وهى فى مكان سهل وأرضها رملية قاحلة على مسافة نحو نصف ميل عن البحر ألا ان ما يلى ذلك خصب غير انه صخرى و يتردد عليها كثير من السفن الشراعية والبخارية وفرضتها تدعى عند الفرنج مار باجوليانا واقعة الى جنوبى المدينة تحيط بها صخور من جهة قلعتها والمدخل اليها من بين تلك الصخور ومرساها متسع اتساعا وافيا يسع أكبر السفن الا أن عمق الماء بها غير كاف الا للسفائن الصغيرة

واجدابية بلدة بقرب ساحل البحر المتوسط الابيض فى لواء بنى غازى من بلاد برقة اسمها اليوم قصرهانى قال أبو عبيد البكرى اجدابية قرية كبيرة فى صحراء أرضها صفاة وآبارها منقورة فى الصفا طيبة الماء بها عين ماء عذب وبها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الاشجار الا الاراك وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم المعروف بالقائم العبيدى ابن عبيد الله المهدى له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة وأهلها ذو يسار وأكثرهم أنباط وبها نبذ من صرحاء لواتة ومرساها على البحر يعرف بالمادور له ثلاثة قصور بينه وبينها ١٨ ميلا وليس باجدابية لدورهم سقوف خشب انما هى قباب طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها وهى رخيصة الاسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجلة أصناف التمر وقال غيره انها كثيرة النخيل

ودرنة هى درنس القديمة فرضة فى شمال أفريقية من أعمال طرابلس الغرب تبعد عن بنى غازى ١٤٠ ميلا الى الشمال الشرقى أبنيتها صغيرة الا أنها مرتبة كانت قديما من مدن بنطابوليس عدد سكانها ٦٠٠٠ يتردد عليها كثير من السفن

وسرت فرضة بحرية بين برقة وطرابلس الغرب ربما كان خليج سيرتيس أو سدرة منسوب اليها قال ياقوت فى معجم البلدان هى مدينة على ساحل البحر الرومى بين برقة وطرابلس الغرب لا بأس بها وفى سمتها من ناحية الجنوب فى البر اجدابية ومنها يقصد الى طرابلس قال البكرى سرت مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور من طوب وبها جامع وحمام وأسواق ولها ثلاثة أبواب وربما نزل المركب بساحلها بالزيت وأهلها أحوج الناس اليه ولكنهم يعمدون الى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكئونها ثم يصفونها فى حوانيتهم وأفنيتهم ليروا أهل المركب ان الزيت عندهم كثير فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم الا على حكمهم وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة وهم يغضبون من ذلك ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربى ولا عجمى ولا بربرى ولا قبطى ولا يعرفه

غيرهم

غيرهم وهم على خلاف أخلاق أهل طرابلس فان أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة ومن سرت الى طرابلس عشر مراحل والى اجدابية ست مراحل

ومسراتا واقعة على بعد ١٧ ميلا شرقى طرابلس المغرب فرضتها على ساحل بحر سفيد لا بأس بها واقعة عند مدخل خليج سدرة عدد أهاليها ١٠٠٠ نفس لها تجارة عظيمة مع داخلية أفريقية والقطر المصرى وبها معمل للطنافس ويوجد فرض صغيرة أخرى مثل مرسى بوريغ ومرسى أوجرا ومرسى بوشيفا وغيرها وعلى جميعها تتردد بعض السفن الشراعية

﴿ الفصل الثالث ﴾

تاريخها قبل الفتح العثمانى

كانت بلاد طرابلس وما يتبعها من البلدان جزأ من أملاك القرطاجنيين ثم استولت عليها الرومان بعد تغلبها على قرطاجنة وكانت فى أيام الدولتين المذكورتين فى غاية العمران والخصب وان كانت بها المياه قليلة ولكن الآثار القديمة شاهدة على انهم اهتموا قديما باخراج منابع المياه من العيون والآبار وكانوا يحفظون ماء المطر فى برك جعلوها لذلك وهى الآن قليلة الخصب والسكان والمعمور من أراضيها أودية خاصة والاقسام التابعة لولاية طرابلس الآن هى برقة وغدامس وفزان وبنى غازى والاخيرة تارة تنفرد بالادارة وتارة تتبع طرابلس وقد فتح المسلمون هذه البلاد بعد ما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٢ ﻫ وذلك فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم صارت تابعة لعمال الخلفاء على افريقية ثم فى عهد العباسيين كانت قلعتها تخربت فلما ولى عبد الرحمن بن حبيب أصلحها من جهة البر وفى عهد الخليفة هرون الرشيد أصلح هرثمة بن أعين القلعة من جهة البحر (١٨٠ ﻫ) ومن وقتئذ أخذت طرابلس تتقدم فى العمران ثم تولاها الاغالبة ثم العبيديون ولما دخلت فى حكم يوسف بن زيرى الصنهاجى عندما انتقل المعز ابن باديس العبيدى الى الديار المصرية واتخذها دار الفواطم تزايدت مظالم شيعتهم فى ولاية طرابلس ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى قامت فيها الثورات ومالت أهالى طرابلس الى الاستقلال لتتخلص من ظلم عمال الفواطم أسوة باقى المقاطعات وفى أثناء تلك الثورات حضر امام طرابلس (٥٤٠ ﻫ) أسطول من صقلية تحت قيادة الاميرال جورجى ميخائيل وحاصر المدينة من كل جانب وكانت الاهالى مشتغلة بانتخاب أمير ليتم به استقلالهم غير ملتفتين الى العدو الذى حاصر مدينتهم فانتهز الاميرال المذكور تلك الفرصة وركب على أسوار القلعة السلالم وصعدت عليها جنوده فاستولى على المدينة بالسهولة ولم تدر الاهالى حتى دهمهم العدو فاندهشوا ولكن الاميرال طيب خاطرهم ووعدهم بنشر العدل فقالوا الوعده ولما استتب له الامر انتخب الامير يحيى بن مطروح وجعله واليا على طرابلس من قبل صاحب صقلية وعين أبا الحجاج يوسف قاضيا عليها ففرح الاهالى بذلك وبعد مدة قصيرة أخذ منهم الرهائن على الانقياد وترك بعض الجنود الفرنجية للمحافظة على القلعة وركب هو سفن أسطوله وعاد الى صقلية وقد تقدم كل ذلك وبعد مضى اثنتى عشرة سنة تقدمت دولة الموحدين بالفتوحات فلما وصلت جيوشها الى

طرابلس قامت الاهالى على الحامية المذكورة فقتلتها وفتحت الابواب للموحدين فامتلكوها بالسهولة (٥٥٣ هـ) ثم عاد ابن غانية الذى كان مقاوما للموحدين فى تلك الاطراف وأخذ يحارب الموحدين وكان شرف الدين قره قوش مملوك صلاح الدين الايوبى صاحب مصر تقدم وتغلب على طرابلس وأخذ يساعد ابن غانية على الموحدين ولكنهم انتصروا عليهما وشتتوا قومهما من افريقية وفتحوا البلاد فيها ومن وقتئذ صارت بلاد طرابلس تابعة لملوك الحفصيين الذين هم فرع من الموحدين ولما ضعف أمرهم واستبد عليهم الولاة فى أطراف مملكتهم كان من جملة من عصى عليهم والى طرابلس فجهز اليه السلطان الناصر الحفصى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل وحاربه وغلبه وولى على طرابلس أبا محمد عبد الواحد بن حفص فقبل الولاية بعد امتناع طويل على شروط كما سبق أولها استمرار ولايته الى أن يعيد البلاد الى أعز ما كانت عليه من الثروة والراحة الثانى ان يستقل بالادارة مدة ولايته بحيث لا يعارض ولا يرد أمره فى شئ الثالث أن ينتخب مقدارا من الجنود حسب ارادته لاعانته فقبل الحفصى منه ذلك واستمر فى الولاية الى أن توفى وخلفه من بعده فيها ابنه وكان على شاكلته فى نشر العدل فارتاحت البلاد وبلغت النهاية فى الغنى فمالت الاهالى للراحة والترف حتى تركوا السلاح بغضا له لما سبق فيها من الفتن قال ابن غلبون فى تاريخه ان تركهم السلاح بالمرة كان سببا لضياع طرابلس وذلك انه قدم على ثغر طرابلس سفينتان اسبانيولتان مشحونتان تجارة من أقمشة وحلى وخلافهما فاشترى جميع ما فيهما رجل واحد ونقد الثمن حالا واستدعى من فيهما لوليمة أعدها لهم وبعد احضار الطعام أخذ ياقوتة فاخرة ذات قيمة عظيمة ودقها فى مهراس بمرأى منهم وذرها على الطعام قائلا هذا الكم مقام الفلفل ثم أحضر بطيخة خضراء وأراد قطعها فلم يجد سكينا فسأل منهم سكينا ولما سأل الاسبانيول عن سبب عدم وجود السكين عنده قال ان الاهالى فى طرابلس كانوا ضجروا من حمل السلاح لبلاوتهم ايام الثورات والمظالم والعدوان فلما استقر الامن والعدل صار حمل السلاح بيننا معيبا ومن حمله أهين بين الاهالى فتعجب الاسبانيول من ذلك ولما عادوا لبلادهم أخبروا دولتهم بما رأوه فطمعت فى طرابلس وكان عندها وقتئذ ابن السلطان الحفصى مستنجدا بها على أبيه كما سبق شرح ذلك فى تاريخ تونس فارسلت اسبانيا أسطولا وجيشا قليلا على طرابلس وامتلكتها باسم أحمد الحفصى المذكور فجار فى البلاد أشد الجور مع الاسبانيول ولما رأى أهل نابولى احدى ممالك ايتاليا وكانت وقتئذ مستقلة تذمر الاهالى تداخلت بينهم بالافساد ووعدتهم بالحماية من ظلم الاسبانيول واتفقت معهم ان تحميهم تحت شرط الاستيلاء على الحصون فقط فقبلوا ذلك ثم بعد ما نالت مقصدها أخذت تتداخل فى شؤن الاهالى لزيادة التمكن منهم فغضب الاعيان منهم وقامت تحافظ على حقوق البلاد وتحصنوا فى تاجورة وحصلت حروب بين الطرفين ولما علم الطرابلسيون بضعفهم أرسلوا وفدا من قبلهم الى دار الخلافة العثمانية مستنجدين بالدولة لانقاذهم من الفرنج ودعوتها للاستيلاء على جميع البلاد الطرابلسية بما انها كانت اذ ذاك أقوى الممالك الاسلامية ولما وصل الوفد الى الاستانة العلية تعجب العثمانيون من شكل المغاربة ولم يجدوا أحدا يفهم لغتهم حتى صادف أحد الخصيان من القصر الهمايونى وكان يدعى مراد أغا ويعرف باللغة العربية على اصطلاح البربر فتكلم معهم وفهم قصدهم فتوسط فى ابلاغه الى رجال الدولة فعينه

السلطان الولاية عليها وارسله بأسطول وفرقة عسكرية صغيرة لان رجال الوفد سهلوا على الدولة الاستيلاء عليها باى قوة كانت

الفصل الرابع

استيلاء الدولة العلية على طرابلس

استبداد اليكجرية بأحكامها — اعلم انه لما وصل مراد أغا السابق ذكره بالقوة الصغيرة المذكورة وشاهد الاحوال ورأى ان قوة العدو أزيد من قوته عرض الكيفية للسلطنة السنية بالتفصيل وفى أثناء ذلك صادف مرور الدونمة العثمانية التى كانت تحت قيادة طورغود باشا الشهير من امام تاجوره قاصدة تونس فتوجه اليها فى الحال مراد أغا مع بعض الاعيان فى زورق صغير وتقابل مع طورغود باشا وأفهمه الكيفية ولكن لما لم يكن عند الباشا الموصى اليه أوامر من الاستانة فى هذا الخصوص لم يقبل مساعدتهم فى أول الامر ثم قبل وقصد مينا طرابلس بالعمارة وحارب الاجانب المستولين عليها فقهرهم وفتحها سنة ٩٥٠ هـ وفى رواية أخرى انه لما وصل تقرير مراد أغا الى السلطان الغازى سليمان القانونى أمر سنان باشا الذى كان تعين لفتح تونس ومعه قلج على باشا ان يعرج بالدونمة على طرابلس ويفتحها فتوجه اليها مع طورغود باشا وفتحها قبل فتح تونس ثم بعد ذلك تعين طورغود باشا واليا على طرابلس فصارت من وقتئذ ولاية عثمانية

ولما كان من عادة الدولة العثمانية فى العصر المذكور ان تطلق التصرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق فى عمل ما يراه صالحا لاتساع أطراف الدولة وصعوبة المواصلات برية كانت أو بحرية سار طورغود باشا فى الولاية على هذا المنوال وأوجد لطرابلس أوجاقا من الجنود مثل أوجاقات الجزائر وتونس ثم اهتم أيضا فى توسيع أطراف ولايته وتشييد سفن القرصان حتى صارت لها قوة بحرية عظيمة فصار يرسلها سنويا للغزو فى البحار فتعود اليه بالغنائم الوافرة وقد استمرت أساطيله على الاغارة والصيال فى بحر سفيد مع العزم الزائد والقوة التامة حتى تمكن فى زمن قليل من اكتساب شهرة فى البحار ووسع فتوحاته فى الساحل الافريقى حتى امتد حكمه على الساحل زيادة عن ٧٥٠ ميلا ثم حصن قلاع طرابلس فجعلها منيعة ولما هاجمها بعد ذلك الاسبانيول بأساطيلهم (٩٦٦ هـ) لم يتمكنوا من نوال شئ بل انهزموا من امام طرابلس بالخيبة ولما أعلنت السلطنة السنية الحرب على مالطة (٩٧٢ هـ) وساقت دونمتها المحاربة أمرت طورغود باشا والى طرابلس المذكور بالمساعدة فتوجه اليها بأسطول مركب من اثنتى عشرة سفينة صغيرة من نوع النيشى ولكنه استشهد فى الواقعة ونقلت جثته الى طرابلس فدفنت فيها فى تربة مخصوصة وكان طورغود باشا محبا للعمارية شيد بطرابلس أبنية فاخرة منها جامعه والحمام الصغير القريب منه وأوقف أملاكا كثيرة

استبداد اليكجرية بأحكام طرابلس — لما مات طورغود باشا خلفه فى الولاية وال آخر

لكنه توفي بعد سنة ثم وجهت الولاية بعده الى جعفر بك وفي ولايته قامت طائفة اليكجرية الذين كان طورغود باشا شكل منهم قوة عسكرية لحماية البلاد وقبضوا على الاحكام مستبدين بها وأخذوا يظلمون وينهبون ويسخرون الاهالي ولما اشتد أمرهم عادت الاضطرابات القديمة الى الولاية فظهر في قصبة تاجورة رجل يدعى يحيى بن يحيى السويدي ودعا الناس الى مساعدته للتخلص من ظلم اليكجرية فعدا العموم على هذا نعمة وتجمعوا حوله فنمى أمره واشتد ساعده ثم قصد الاستيلاء على طرابلس فلما بلغ اليكجرية أمره تجمعوا وهاجموه فقوى عليهم وهزمهم فارتدوا الى طرابلس مسرعين وتحصنوا بها وتبعهم يحيى بجموعه وحاصرهم وكادت المدينة تقع في قبضته لولا ما حصل بينه وبين الشيخ نوير شيخ قبيلة المحامد من الاختلاف الذي انقلب الى ضغائن فتربص الشيخ الى أن انتهز الفرصة في خصمه وقبض عليه وسلمه الى اليكجرية فقتلوه وأرسلوا رأسه الى الاستانة العلية وكانت فعلة نوير هذا سببا في تعظيمهم له ولعائلته حتى إنهم أمروا بأنه متى حضر نوير المذكور أو أحد من أولاده الى طرابلس تضرب له القلعة مدفعا ويخلع الوالي عليه خلعة وبعد أن صفا الجو لليكجرية أطلقوا أيديهم في المظالم ثم انتخبوا من بينهم رجلا يدعى سليمان داي وعينوه واليا على طرابلس وبلغت منهم الجراءة أنهم صاروا لا يخضعون للولاة الذين تعينهم الدولة بالفرمانات بل صاروا في أغلب الاوقات ينتخبون الوالي بمعرفتهم وكان سليمان داي المذكور رجلا غدارا ظالما عذب أهالي تاجورة لقيامهم مع يحيى السابق ذكره فقصد بلادهم وخربها وصادرهم في أموالهم وحيواناتهم فعرضوا عن ذلك سرا الى دار الخلافة فلم تمض سنة ١٠٢٣ هـ حتى أرسلت الدولة سفينتين حربيتين الى مينا طرابلس بدعوى النظر في أمر الولاية كما هي العادة ثم ان القبودان دعا سليمان داي المذكور الى وليمة ولما صار بالسفينة أمر به فقتل وصلب وعين القبودان واليا آخر وأوصاه بالرأفة والعدل فسار بهم زمنا قليلا الا أنه بعد عودة السفينتين عزله اليكجرية وعينوا بدله آخر من شيعتهم يدعى رمضان داي ولما علمت الدولة بذلك أرسلت واليا يدعى محمد باشا الساقزلي فأبقى رمضان داي في وظيفته مخافة الاضطراب وصار الاثنان يحكمان سوية بالاتفاق ثم ان رمضان استعفى من تلقاء نفسه وترك الولاية لمشاطره الذي قام بها أحسن قيام الى أن توفي بطرابلس وتعين بعده عثمان بك الساقزلي واليا بانتخاب العسكر فرفع عن الاهالي الاموال التي كان فرضها عليهم سلفه ففرح الناس به ولذلك اتفق العساكر والاهالي وعرضوا عنه لدار الخلافة فأتى له الفرمان بالاقرار على الولاية ووجهت اليه رتبة الباشا واشترطت عليه الدولة الاهتمام بتجديد القلاع والاكثار من السفن لمحاربة الاعداء فبذل غاية المجهود في ذلك حتى ان دار الصناعة بطرابلس أعدت للحرب بعد زمن قليل ٢٤ سفينة وخرجت تغزو في البحار واغتنمت غنائم كثيرة ثم ان هذا الباشا نهرت نفسه لجمع الاموال فقبض على زمام تجارة البلاد حتى صار هو التاجر الوحيد في الحقيقة لا غيره وكان يتجر في كل الاصناف فتذمر الاهالي من ذلك واتحدوا عليه فعزلوه وقتلوه (١٠٨٣ هـ) وقد شيد عدة مبان عمومية كالمدارس والمساجد والحمامات والخانات وأوقف عليها الاوقاف الكثيرة

وانتخب العسكر من بعده عثمان رئيس فلم ترض سيرته بعض العساكر فعزلوه ثم قتلوه بعد ذلك وانتخبوا بدله بادي جاويش ولم تطل مدته فمات وانتخب بعده مصطفى البهلوان ثم عزل من الولاية

بعد

بعد ثلاثة أيام ونصب بدله ابراهيم داى ابن المصرى وكان ديناً لا يخرج عن نواهى الشرع وأوامره مقدار شعرة البتة فلم يأخذ الناس بالسياسة الزمنية فلهذا خلعه اليكچرية بدعوى عدم صلاحيته للحكم ولما بلغه خبر الاقرار على عزله فر الى الاسكندرية (١٠٨٧ هـ) وكان معاكساً للسياسة الانجليزية مدة حكمه واختاروا بعده ابراهيم چلبى الموره لى ثم خلعوه ثالث يوم وعينوا مكانه مصطفى قبودان فقبل منهم الولاية على شروط منها أن يكون مستقلاً بالحكم فقبلوا وبعد ان سار فى طريق الفلاح زمناً يسيراً عاجلته منيته فانتخبوا بعده عثمان داى فمات بعد شهرين من ولايته وعينوا بعده محمد داى المشهور بتيمور ثم عزلوه وانتخبوا بعده باتفاق الآراء أباظه حسن بك من أمراء العسكرية (١٠٩٤ هـ) فأحسن السيرة وأحبه الناس ولهذا بقى فى هذا العمل المضطرب والكرسى المرتجف مايقرب من سنة ثم هجمت عليه فرقة عسكرية وعزلوه بلا سبب واختاروا بدله التبرزى ابراهيم داى وفى أثناء ولايته وجهت الدولة من قبلها ولاية طرابلس الى وال يدعى خليل باشا علّه يتمكن من تقرير قواعد السلم والسكينة بها ولما حضر وجد الامر بيد ابراهيم داى المذكور وان الاحوال صعبة مضطربة فأقام بطرابلس ولم يتداخل فى أمر ما خوفاً من بطش اليكچرية به ولما كانت الاحوال دائمة الاضطراب بطرابلس من أفعال العسكر وظلم الدايات كما علمت لم يلتفت أحد من العمال لاصلاح القلاع المتهدمة وانعاش القوة البحرية المحتضرة فلذلك اتخذ الاسبانيول ذلك فرصة وطلب قنصلهم فى طرابلس عقد معاهدة تجارية ووداية بين حكومته وطرابلس فعقدوا معه معاهدة تحتوى على بندين البند الثانى منها يجيز له فى حالة ما اذا تخاصم وطنى مع اسبانيولى أن يكون الفصل فى الخصام امام القنصل ولما علمت الدولة بذلك وانه مضر بنفوذها عزلت الوالى خليل باشا وابراهيم داى معاً وعينت على طرابلس واليا يدعى محمد باشا أتى من الاستانة وانتخب اليكچرية شخصاً منهم يدعى امام محمد داى فاتبع هذا الداى العدل وطريق الصلاح نوعاً ووقوف الوالى له بالمرصاد ثم سعى الوالى والداى فى فسخ المعاهدة المذكورة لاجحافها بحقوق الدولة ولما كلما القنصل فى ذلك لم يقبل وحضر اسطول اسبانيولى الى طرابلس مركب من ١٥ سفينة معلناً الحرب فخافت اليكچرية فى أول الامر وأرادت الزام الحكومة بالاقرار على المعاهدة المذكورة ومنح أميرال الاسطول بعض الهدايا الا أن محمد باشا الوالى توقف وألزمهم بالمدافعة فأظهروا الاقدام وانهزم الاسطول من امام طرابلس ثم عاد بعد ان ضم اليه عشر مراكب أخرى ثم أطلق نيرانه على القلاع وكانت فى حالة سيئة فهدم بعضها وأسر مركبين من مراكب طرابلس ثم قبل الوالى والداى رغم أنفهما تلك المعاهدة بعدما حصل وأعقب ذلك عزل امام محمد داى وتعين مكانه قهوجى عثمان داى فلم يقبل أن يشاركه أحد فى الحكم وتعصب اليكچرية على الوالى المذكور فابعدوه عن طرابلس ولما كان عثمان داى غليظ الطبع جافى الاخلاق عزله اليكچرية بعد ثلاثة شهور من حكمه وانتخبوا بدله مصطفى داى الكليبولى ثم قتلوه (١١١٤ هـ) وعينوا بدله باتفاق الآراء خليل بك صهر محمد باشا الوالى السابق فلما جلس أحضر نسيبه من منفاه ومن آثار محمد باشا سوقه المشهور بطرابلس بسوق الترك وبنى به جامعاً عظيماً جميلاً وكانت وفاته سنة ١١١٨ هـ ودفن بتربته المتصلة بالجامع المذكور وكان صالحاً متواضعاً ثم قامت بعض فتن ضد خليل بك الوالى بقصد خلعه لاتيانه بصهره من منفاه ولكن حزبه تغلب على العصاة فازداد نفوذه فى الولاية التى اهتم بأحوالها وأنشأ فيها دار ضرب

للنقود وهو أول وال استعمل الملابس المزركشة فى طرابلس وكان فاضلا ثابت القول يحب العلماء ويميل الى محادثتهم وقد أعاد شأن القوة البحرية المهملة بطرابلس وشيد كثيرا من السفن الحربية وبينما كان هذا الوالى يدأب فى مشروعاته ظهر بين العساكر شخص يدعى ابراهيم أركاو والتف عليه من على شاكلته من أهل الفساد حتى اضطر خليل بك الى أن يهرب لمصر وقبض هذا الشخص على الولاية وأخذ ينتقم من حاشية سلفه بالقوة ثم تآمروا عليه ونفوه الى الاسكندرية وامتد حكمه خمس سنوات وذلك من النوادر الغريبة فى ذلك العصر وكان فى تلك الاثناء اشتهر رجل بين اليكچرية يقال له جن محمد بك استحوذ على تمام النفوذ بما كان له من المنزلة وعين للولاية رجلا يقال له اسمعيل خوجه إمام جامع خروبة بطرابلس ليكون آلة فى يده ففرح هذا الامام بهذا المنصب الذى لم يكن له ببال أصلا وبعد شهرين من ولايته ظهر شخص يدعى بابى موبس محمود بك فقتل محمد بك المذكور وعزل اسمعيل خوجه ورده لوظيفته السابقة وجلس هو على كرسى الولاية واستمرت الاحوال على هذا المنوال الى سنة ١١٢٠ حين ظهرت العائلة الآتية الذكر

(الفصل الخامس)

عائلة القرهمانلى واستبدادها بولاية طرابلس

(١١٢٣ - ١٢٥١ هـ)

لما استقل محمود بك المتقدم الذكر بولاية طرابلس سعى فى ابعاد كل من يخافه من أمراء اليكچرية ليصفو له الجو بلا معارض وكان من بين الامراء شخص يقال له أحمد بك القرهمانلى قد اتصف بالفطنة وحسن النظر وبعض النفوذ فلهذا خافه الداى لانه رآه كرقيب عليه فاجتهد فى ابعاد هذا الرقيب ليستقل بالامر ولما كان أحمد بك المذكور محبوبا لدى الناس لم يتجاسر الداى على قتله جهارا فعمل لذلك حيلة ظن انها تعود عليه بما يشتهى وهى أنه أرسله فى مأمورية بقضاء غريان وأعطاه مكتوبا بختمه الى عامل ذلك القضاء يأمره فيه بقتل أحمد بك بمجرد وصوله وبينما كان أحمد بك يسير قاصدا ذلك العامل حدثته نفسه ففتح المكتوب ووقف على ما فيه فرجع من ساعته وأطلع شيعته من اليكچرية على دخيلة الامر فهاجوا وماجوا وتعصبوا على الداى محمود بك وعزلوه بعد مضى خمس وعشرين يوما من ولايته (١١٢٣ هـ) ونصب الجنود أحمد بك مكانه وهو رأس عائلة القرهمانلى التى استقلت بالحكم فى ولاية طرابلس مدة تزيد عن قرن من الزمان وقد اشتهرت هذه العائلة بالاعمال البحرية حتى ان الدول البحرية الاوروباوية قامت لها بدفع جزية سنوية فى مقابلة منع تعدى قرصانها على سفنهم بالبحر المتوسط الابيض

ولما استقر أحمد بك هذا فى ولاية طرابلس اجتهد فى قطع دابر أصحاب الفساد المعارضين له وكتب الاهالى للدولة يطلبون منها تعيينه واليا عليهم والانعام عليه برتبة باشا وكتب اليكچرية يتظلمون منه ومن أعماله فأرسلت الدولة لاستطلاع حقيقة الخبر القبودان أنجى محمد باشا

بالاساطيل ولما أراد القبودان تحقيق التهمة منع أحمد بك الناس من الذهاب اليه فرجع بخفى حنين (١١٢٥ ﻫ) ثم ان أحمد بك اهتم بتنظيم جيش من الاهالى وفتح بلاد فزان وقمع العصاة وكانت وفاته سنة ١١٥٨ ﻫ قال ابن غلبون وقد تلقب هذا الوالى بأمير المؤمنين وقد استمر هذا اللقب لسلالته من بعده حتى انقرضت من طرابلس

وقام بالامر من بعده ولده محمد باشا (١١٥٨ - ١١٦٧ ﻫ) فسار على سياسة والده وزاد فى صناعة سفن القرصان وأكثر من المحاربات ومخرت سفنه فى البحر بقوة وجسارة لم يسبق لها مثيل فاكتسبت طرابلس بذلك شهرة عظيمة حتى أوقعت الرعب فى قلوب رجال السفن التجارية الاوروباوية واضطرت الدول للسعى وقتئذ فى عقد معاهدات مع طرابلس ودفع نقود سنوية لولاتها لتأمن بذلك على تجارتها وأول من تقدم من الدول دولة انكلترة فعقدت مع محمد باشا المذكور معاهدة بدون استشارة الدولة العثمانية (١١٦٤ ﻫ) تحتوى على ثمانية وعشرين مادة من مقتضاها التصريح لسفن تجارة انكلترة بعاطاة التجارة فى مين طرابلس وعلى كل سفينة انكليزية ان تظهر ورقة الباسپورد عندما تقابل سفن طرابلس والترخيص للقنصل الانكليزى بالتوجه لاى فرضة من فرض طرابلس متى أرادوا واذا حاربت انكلترة قرصان الجزائر وتونس لا تساعدهم سفن طرابلس ولا تتعرض لسفائن انكلترة وما يماثل ذلك من الشروط وكانت وفاة محمد باشا سنة ١١٦٧ ﻫ

وقام بالامر من بعده ولده على باشا بالاستقلال (١١٦٧ - ١٢٠٧ ﻫ) وأكثر هو أيضا من بناء السفن القرصانية والغزو فى البحار فانهالت عليه الغنائم الكثيرة ولهذا زادت له الدول الاوروباوية المرتبات وصرح لقناصلهم بالاقامة فى مدينة طرابلس وقد صدق أيضا على معاهدة انكلترة المتقدمة بتمامها بدون ان يخابر فى ذلك الدولة العلية صاحبة السيادة وعقد أيضا مع جمهورية البنادقة (١١٧٠ ﻫ) معاهدة تحتوى على ٢٣ مادة منها ابطال الحرب بين الطرفين واعادة الصلات كما كانت ومنع تعدى سفن قرصان طرابلس على سفن الجمهورية ومبادلة التجارة وتأييد المحبة ولكن بعد قليل تعدى أحد ضباط بحرية طرابلس ودخل مينا زارا (١) التابعة للجمهورية المذكورة وعاث فيها فحاربوه وغلبوه وأسروا رجال سفنه ولما وصل الخبر الى طرابلس مال البكيرية للصلح وعقدت معاهدة ثانية كانت تحتوى على تسع مواد من ضمنها تأييد الشروط السابقة ولتقدم هذا الداى فى السن أهمل أمور الحكومة ولم يلتفت الى النظامات العسكرية والقوة البحرية وقد طلبت دولة الروسيا منه (١١٨٢ ﻫ) شراء الجزيرة التى فى خليج عبا فقاومهم فى ذلك الباب العالى ودولة فرانسا ثم قامت فى طرابلس بعض فتن وثورات داخلية سعى أثناءها ولده المدعو يوسف بك فى نوال ولاية العهد بعهد أبيه فغضب عليه أخوه الاكبر حسن بك ووالدته ثم قتل حسن بك المذكور وقطعت يد والدته فتوسطت كبراء الامة فى الامر وطلبوا من على باشا الاقرار بولاية العهد لابنه يوسف بك فلم يقبل وقال ان الاحق بها أحمد بك فثار حزب يوسف بك وفى خلال ذلك أصدر السلطان فرمانا بتقليد على باشا الجزائرى ولاية طرابلس فتوجه اليها بدونتمة مركبة من تسع سفائن ولما وصل اليها (١٢٠٧ ﻫ) وأعلن ولايته دخل يوسف بك القلعة مع اتباعه

---

(١) زارا ثغر حصين تابع لدولة النمسا من بلاد دلماسيا واقع على بحر الادرياتيك وبه يقيم قسم من الجيش النمساوى وهو أيضا قاعدة بلاد دلماسيا وبالقرب منه جزائر كثيرة وكان قديما تابعا لجمهورية البنادقة

وأراد المقاومة قائلا اننا ننتصر على هذه السفن القليلة وندافع عن حقوقنا فقال له والده ان محاربة هذه السفن خروج على السلطان واذا فرض وانتصرنا فالدولة العلية أقوى ولاشك انها ترسل علينا عمارة أكبر من هذه بعشر مرات فرضخ لذلك يوسف بك ومن معه من اليكجرية وأذعنوا الامر الدولة وسلموا زمام الولاية لعلى باشا المذكور وخرج أحمد باشا مع ولديه يوسف بك وأحمد بك مع عائلاتهم وقصدوا تونس فقابلهم واليها حموده باشا بالاكرام ورتب لهم المعاش الكافى

ولما قبض على باشا المذكور على ولاية طرابلس (١٢٠٧ - ١٢٠٩ هـ) تمكن بحسن سياسته من اصلاح الاحوال فى طرابلس فاطاعه عموم الاهالى ماعدا قبيلة نوير الموالية لطائفة اليكجرية ثم بعد ذلك أخذت عائلة القره مانلى تدس الدسائس لعلى باشا وتبحث له على مايرتبك أعماله ويعرقل مساعيه لتتمكن من القبض على زمام طرابلس ثانية فالتف عليه جماعة من شيعتهم حسنوا له الاستيلاء على جزيرة جربة بدعوى انها لما كانت لطرابلس كانت لها كالهرى للاقوات والمورد للازواد وقد أخذها التونسيون باهمال عمال طرابلس فجهز عليها على باشا سفنا وقوة عسكرية فاستردها بغاية السهولة وعلى غرة من حاميتها أما حموده باشا والى تونس فانه غضب من ذلك جدا وأضمر السوء لعلى باشا ثم تشاور لذلك مع على باشا القره مانلى وأولاده أحمد بك ويوسف بك وأطلعهم على نيته ثم جهزهم بما يلزم من الجنود والسفن وأرسلهم فاعادوا جزيرة جربة لحكمه ثم ساق الجيوش على طرابلس وأخذ يستميل سكانها بالرغبة والرهبة حتى استولى عليها وأخرج منها على باشا بعد ان حكم ثمانية شهور وأجلس يوسف بك القره مانلى على كرسى ولايتها (١٢٠٩ هـ) وكتب عن لسان أعيان طرابلس وأهاليها محاضر أظهر فيها رغبتهم فى اعادة الولاية المذكورة لعائلة القره مانلى وأرسل تلك المحاضر الى دار الخلافة العثمانية فقبل السلطان طلبهم وأصدر فرمانا (١٢١٠ هـ) باقرار يوسف بك على طرابلس وأنعم عليه بالفرمان والتشريف ورتبة باشا

ولما جلس يوسف بك على كرسى الولاية (١٢١٠ - ١٢٥١ هـ) اهتم فى اعادة الصلات القديمة بينه وبين دولة انكلترة وأقر لقنصلها على المعاهدة القديمة (١٢١٣ هـ) ثم تمكن فى زمن قليل بما غنمه من الاموال فى محارباته الاخيرة من تجهيز فرقاطة وأربعة عشر مركبا وأخرجها لتغزو فى البحار ثم تعود له سنويا بالغنائم الوافرة والتفت الى تنظيم أحوال الولاية حسب اغراضه واتفق ان أسطول طرابلس صادف سفن الدولة السويد فغار بها واستولى منها على سبع سفائن فتوسط الجنرال بونابارت وهو فى القطر المصرى وخلص الاسرى وترك السفن ليوسف باشا وأعاد لطرابلس المبلغ الذى كان مرتبا لها من حكومة السويد فعادت علائق المودة بينهما كما كانت وفى تلك الاثناء أتى أسطول أمريكانى من الولايات المتحدة ومن ضمن قواده تشارلس ستيوارت الشهير وهدد طرابلس بعد ان استولى على مدينة درنة ليجعلها مستعمرة ولما رأى الامريكانيون انه لايمكنهم الاقامة بتلك المدينة تركوها وعقد أميرال الاسطول المذكور مع يوسف باشا معاهدة تحتوى على عشرين مادة منها منع التعدى على سفائن الولايات المتحدة الاميريكانية واطلاق الاسرى واستمرار سير التجارة (١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م)

ولما كانت أعمال القرصان فى الوقت المذكور موجبة لجعل طرابلس فى حرب دائمى مع الممالك

الاوروباوية

الاوروباوية وقع الخلاف بينها وبين جمهورية طوسكانة ثم تمكن يوسف باشا من اعادة الصلات بمعاهدة عقدها مع الجمهورية المذكورة (١٨٢١م - ١٢٣٦ هـ) تحتوى على اثنى عشر بندا وبعد ذلك لما تعرضت سفن طرابلس لمراكب سردانية أرسلت هذه سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) أسطولا مركبا من ست سفائن واجتهد أميراله فى مداركة الامر مع حكومة طرابلس بالمحبة فلم ينجح فاطلق النيران على القلاع وأحرق سفينتين فى المينا ثم انتهى الامر بالصلح بشروط أرضت الطرفين ثم وقعت مقاتلات ما بين سفن طرابلس وسفن مملكة نابولى فتوسط الموسيو وادنجتون قنصل انكلترة فى طرابلس اذ ذاك فى المسئلة حتى أتمها بالمعاهدة التى عقدت بين يوسف باشا ومملكة نابولى (١٢٤٢ هـ - ١٨٢٧ م) ثم ان يوسف باشا اقترض مبلغا من تجار فرانسا المقيمين ببلاده ليصرفه على بعض أعماله وقد نشأ عن هذه السلفة فيما بعد نفور بين طرابلس وتبعة فرانسا أدى الى ان يقطع قنصلها العلائق ويبارح طرابلس ثم أتى أسطول فرنساوى سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) مركب من سبع سفائن حربية تحت قيادة الاميرال روداميل الذى لدى وصوله أرسل بلاغا الى يوسف باشا يطلب منه فيه الجواب فى ظرف ٤٨ ساعة فالتزم يوسف باشا بعقد معاهدة مع الاميرال المذكور تتألف من أحد عشر بندا نالت بها فرانسا منا لا عظيما من طرابلس وأطلقت أسراها ومنعت تعدى قرصان طرابلس على سفنها التجارية ثم ان يوسف باشا أغضب الاهالى بارتكابه مالا يحمد فقام عليه بعض القبائل والاهالى ثم استعفى وولى مكانه ولده على بك ولما كانت الاهالى لاتميل اليه أيضا جاهروا بالعصيان وتبعهم فى ذلك قسم من الجنود ونادوا بمحمد بك حفيد الباشا واليا عليهم وبينما كانت المدافع تطلق من داخل القلعة معلنة بتولية على بك كان الجنود يطلقونها من خارجها لمحمد بك فعند ذلك كتب يوسف باشا الى القبودان خليل رفعت باشا يتضرع له فى التوسط للحصول على فرمان سلطانى ليبقى على الولاية حتى ترتفع الثورات القائمة ضده ولما لم ينل مقاصده حاصره الاهالى فى القلعة وكانت تأتيه الذخائر الحربية والاقوات من جزيرة مالطة بواسطة قنصل انكلترة المعضد له ولما استمر القتال بين على باشا ومحمد بك التزمت الدولة ان ترسل فى أوائل سنة ١٢٥١ هـ عمارة مركبة من ٢٢ سفينة حربية تحت قيادة الفريق مصطفى نجيب باشا ولما وصلت هذه الدونمة الى طرابلس أطلقت المدافع للسلام فجاوبتها القلاع ثم نزل على باشا القرمانلى مع بعض الاعيان لمقابلة القائد المذكور الذى تلقاهم بالترحاب الزائد وأظهر فى خلال حديثه ان حضوره هو للاصلاح بين الطرفين المتنافرين وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر محرم أخرج من المراكب ستة آلاف عسكرى نظامى بمدافعهم ومهماتهم الحربية وأسكنهم بخانات المدينة ثم بعد ذلك بيومين فرقهم على القلاع وأعلن انه لا يجوز لاحد ما ان يمشى بالسلاح خلاف العساكر وأن أمر المحافظة على القلاع قد أحيل على عهدة العساكر النظامية فلا لزوم لبقاء الاهالى بها وحصل كل ذلك ولم يخرج مصطفى نجيب باشا الى البر مطلقا بل كان يصدر الاوامر وهو على ظهر سفينته ثم أخرج أحد أعوانه المدعو محمد شاكر أفندى فجمع المفتى والعلماء والاعيان وأعلمهم انه تعين من قبل السلطنة السنية واليا على طرابلس ثم فتح أبواب القلعة وكانت مغلقة من مدة طويلة فهدأت الاحوال وسكنت النائرة وتخلصت طرابلس من عائلة القرمانلى ثم تعين محمد رائف باشا محافظا على طرابلس وفى سنة ١٢٥٢ هـ تعين القبودان جنكل أوغلى طاهر باشا قائدا عاما

لعسا كرها أتى اليها باسطول مؤلف من اثنتى عشرة سفينة به كثير من الذخائر الحربية ثم أحيلت عليه بعد ذلك ولايتها وكان الاضطراب لا يزال ببعض جهاتها ثم من بعده تعين عليها سنة ١٢٥٣ هـ جشيمه لى حسن باشا فأخذ فى تسكين الاحوال وكان شديد الشكيمة ولذلك فرح الاهالى فيه لما عزل وتعين المشير على باشا (١٢٥٤ هـ) وقد اجتهد فى اصلاحها وجعل الادارة فيها تشبه ادارة سائر الولايات العثمانية ومن وقتئذ صارت الدولة تعين الولاة لهذه الولاية من الاستانة رأسا وأرسلت القوة الكافية لحمايتها وجعلت لها حرسا أهليا وبنت بها القلاع والحصون والثكنات حتى صيرت ميناها وبعض الجهات المستحكمة فيها ذات قوة ومناعة وشيدت فى ميناها بعض عمارات واعتنت فى اصلاح دار صناعتها وبطل عمل القرصان منها بالمرة ولما رأت الدولة العثمانية أن بعض الدول الاوروباوية وخصوصا ايطاليا تنتهز الفرص للتعرض لطرابلس أصدرت الاوامر لولاتها بالشيقظ وتقوية حصونها وزادت فى حاميتها وحامية البلاد التابعة لها وشحنتها بالعدد والعدد وقد اهتمت أيضا بفرضة طرابلس حتى جعلتها فى حالة جيدة صالحة لمرسى السفن الكبيرة

الباب الرابع عشر

تاريخ الدولة العلية العثمانية

الفصل الاول

جغرافيتها الطبيعية

اعلم ان أراضى هذه الدولة تمتد باوروبا وآسيا وأفريقية وأهمها ما كان منها باسيا الاسباب كثيرة ويحتوى كل قسم من الاقسام المذكورة على أراض واسعة مخصبة وأقاليم شاسعة عامرة وصحار قاحلة مجدبة وغير ذلك ويحيط بها جملة بحور وهى البحر الاسود وبحر مرمرة وبحر الارخبيل والبحر المتوسط الابيض والبحر الاحمر والبحر المحيط الهندى وبحر الفرس ولذلك كانت هذه الدولة بكثرة بحورها وخلجانها من أكثر دول البحار ثغورا وأجوانا ومرافئ وفرضا وفيها كثير من الانهار الصالحة لسير السفن والبحيرات ما سنذكره فى مواضعه

الدولة العثمانية باوروبا — تحد أراضى الدولة العثمانية باوروبا شمالا بنهر الدانوب الفاصل لها عن مملكة رومانية وبلاد السرب وبدولة النمسا والمجر ومن الغرب بالجبل الاسود وبحر الادرياتيك وخليج أوترانت وبحر اليونان وجنوبا بمملكة اليونان وبحر الارخبيل ومضيق غيليبولى أو الدردنيل وبحر مرمرا ومضيق البوسفور وشرقا بالبحر الاسود غير داخل فى ذلك بلاد بوسنه وهرسك التى احتلتها دولة النمسا بقرار مؤتمر برلين ويتبعها فى أوروبا جزيرة كريد وطاشيوز وسموترا كى وأمبروولمنى أوليمنوس وتينيدوس المسماة بوغجه اطه وغيرها

ويمتد بها على موازاة بحر الادرياتيك استطالة جبال الالب الديناريه وسلاسل جبال اليونان التى تتصل معها بواسطة هضبة چارطاغ وارتفاعها (٢٥٠٠ متر) وجبال البلقان الممتدة على

موازاة

موازاة بحر الارخبيل والتى يفصل منها جبل دودب أوديسو وتوطاغ وجبال استرانجه ويتخلل هذه الجبال وديان فى غاية الخصوبة وسهول منبتة ومراع نضرة وغابات واسعة جميلة وينحدر من جارطاغ والبلقان جنوبا انهار تصب فى الارخبيل وهى مرتسا المسمى قديما هير وطوله ٢٥ ميلا واستروما ووردار المسمى قديما اكسيوس ومصبه فى جون سلانيك وطوله ٢٠٠ ميل وشمالا نهيرات تصب فى نهر الداتوب الذى يفصل السرب والبلغار ورومانية عن بعضها أما الانهار التى تصب بحر الادرياتيك فليست الأودية تسيل زمن الامطار وأشهرها درينو وهو قسمان درينو الالبانى ودرينو الاسود ويصبان فى بحر الادرياتيك وبوونسا وغالبها صالح للملاحة ويسير بها بعض السفائن الصغيرة واعلم أن البلاد التابعة للدولة العثمانية باوروبا كان بها قديما بلاد تراس ومقدونيا وايلليريا وأبيير ومعلوم ما وصلت اليه بلاد مقدونيا وطن فيلب واسكندر الاكبر من الشهرة والقوة وما كان لها من النفوذ ببلاد الاغريق والشرق وقد أخضع الرومان هذه الجهات الواسعة فى ابتداء القرن الثانى تقريبا قبل الميلاد وبعد سقوط الدولة الرومانية الغربية حفظت الدولة الشرقية هذه البلاد الى ان أغار العثمانيون عليها وانتزعوها منهم

ويبلغ سطح البلاد التابعة رأسا للدولة العثمانية باوروبا نحو ١٦٠،٠٠٠ كيلومتر مربع وبها من السكان نحو ٥،٠٠٠،٠٠٠ نسمة ومناخ هذه البلاد معتدل على سواحل البحر شديد البرودة بالجهات المرتفعة وبجميع حوض نهر الداتوب المتسلطة عليه رياح الشمال ومن الحاصلات النباتية بهذه البلاد الحنطة والذرة والشوفان وتزرع ببلاد البلغار وبوسنه ومقدونيا وكلها تزيد عن حاجة السكان وتنبت بجميع ولاياتها كل أنواع الخضراوات المعروفة وينمو الارز على شواطئ نهر مرتسا والبطاطس فى بلاد البلغار وبوسنه وهرسك وتستخرج الانبذة الجيدة من كريد وابير وجميع جزائر الارخبيل ويزرع على شواطئ الارخبيل الثمار المعتبرة كالبرتقال والليمون والتين وغيرها وكذا الازهار أخصها الورد أما التبغ فيزرع بها بكل مكان وشهرته تغنى عن وصفه ومن مزروعاتها الكثيرة أيضا الزيتون والسمسم وجبال البلقان والبانيا وبوسنة مغطاة بالغابات الواسعة التى من أشجارها البلوط والدردار والجميز والدلب ومن نباتاتها أيضا الكتان والقطن والزعفران وهى آخذة فى الاتساع والانتشار ويكثر بها الضأن والمعز جدا لكثرة المراعى أما معادنها فكثيرة أيضا وان كانت مهملة فيوجد الفحم الحجرى بكريد والبانيا وبلاد الروملى ويوجد الحديد والنحاس بكثرة بجبال البلقان وبها أنواع كثيرة من الرخام والاحجار الجديدة التى تصدر الى الخارج

المملكة العثمانية بآسيا — تشتمل المملكة العثمانية بآسيا على عدة أقسام عظيمة وهى آسيا الصغرى أو بلاد الاناضول وبلاد كردستان والجزيرة المسماة قديما ميزوبوتاميه وسورية وقسم عظيم من جزيرة العرب (١) وهى تحد شمالا بالبحر الاسود وبحر مرمرا وقسم من بلاد كرجستان الروسية وشرقا بكرجستان أيضا ومملكة العجم ومن الجنوب بالخليج الفارسى وبلاد العرب وغربا بالبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط وبحر الارخبيل ومضيق الدردنيل وهى واقعة

(١) ان بلاد العرب وان كانت معدودة من أملاك الدولة العثمانية الا أننا أفردنا لها بابا خاصا لاهمية ذلك بالنسبة لتاريخها ولهذا ذكرنا جغرافية المملكة العثمانية بآسيا مجردة عن بلاد العرب

فى القسم الغربى من قارة آسيا ويبلغ طولها من بحر مرمرا الى خليج البصرة ٢٢٠٠ كيلومتر ومسطحها ١٫٢٥٠٠٠٠ كيلومترامربعا وسواحل هذه البلاد كثيرة الانحناآت والتعرجات والتلسنات حتى يحصل منها عدة خلجان وفرض منها خليج أزميد وكمليك ببحر مرمرا وخليج ادرميد وأزمير ومنداليا واستانكوى ببحر الارخبيل وخليج انطاليه واسكندرونه بالبحر الابيض والشواطئ المذكورة جبلية على العموم تقريبا بها كثير من الفرض والمرافئ الصالحة لحماية السفن الأان الرياح الهابة من الشمال الغربى المتسلطة عليها تجعل البحر الاسود كثير الاضطرابات والتموجات على الدوام تقريبا وكذا تكون الملاحة محفوفة بالاخطار بالبحر الابيض المتوسط لهبوب الرياح الخفيفة به كالبورات المعتاد حدوثها حول جزائر الارخبيل وقد كانت السفن منذ الازمنة القديمة وفى مدة الاعصر الوسطى تتردد كثيرا على ثغور طرابزون وسمسون وسينوب وغيرها من ثغور البحر الاسود وقد كانت سواحل كاليكيا جنوبا ملجأ سفن القرصان الذين كانوا يلتجؤن الى خليجى اضاليه واسكندرونه وبذلك تمكنوا من عرقلة مساعى الملاحة زمنا طويلا بالبحر المتوسط الابيض وأكثر سواحل آسيا العثمانية تلسنا سواحل بحر الارخبيل فيوجد بها خلجان طويلة داخلة فى القارة تحميها منطقة من الجزائر أوشبه الجزائر فتحفظها من تسلط الرياح مثل خليج أدرميد الذى تحفظه جزيرة مديللى وخليج أزمير الغريب الذى يحميه من الجنوب والغرب شبه جزيرة چشمه وخليج اسكالانوفا الذى يسده من الجنوب جزيرة ساموس وخليج منداليا وخليج كوس وسيمى وهما مستطيلان ضيقان بهيئة غريبة عجيبة ولذلك فقد كانت هذه الخلجان فى الازمنة السابقة تحوى عدة مدن نالت بالتجارة البحرية ثروة عظيمة مثل تروادة وفوسيا وأزمير وأفسوس وميليت وهاليكرناس وكنيدو وغيرها اما فى هذه الايام فقد تحولت كل هذه المتاجر الى مدينة أزمير التى بلغت من الفوز والنجاح والثروة درجة لم تنلها أصلا

وبلاد آسيا الصغرى عبارة عن نجد عظيم تكثر به آثار البراكين خصوصا فى الجهات الواقعة على ساحل البحر المتوسط الابيض أى بالاقاليم التى كان يسميها القدماء فريجيا المحترقة ولهذا ترى بها الطفحات والمقذوفات البركانية وتكثر بها الزلازل وينفصل عن الهضبة العظيمة الشهيرة المسماة ارارات الواقعة على حدود بلاد العجم ثلاث سلاسل جبلية عظيمة منها سلسلة جبال ايران وتتجه الى الجنوب وسلسلة جبال طوروس وتمتد الى الجنوب الغربى وسلسلة طوروس الشرقية وتمتد الى الشمال الغربى على موازاة سلسلة طوروس الاخرى وقد اشتهر عند العموم ان سفينة سيدنا نوح عليه السلام وقفت بعد الطوفان على جبل ارارات المسمى أيضا ايكرى طاغ وتمتد سلسلة طوروس الشرقية على موازاة سواحل البحر الاسود ويتفرع منها بعض جبال تصل الى بحر مرمرا ومن أشهر قمم هذه السلسلة قة كومله وبلدز وهما شرقى مدينة طوقات وبلغار طاغ وآلا طاغ وهما بالقرب من قسطمونى وجبل كشيش ورومانيج وهما بالقرب من بروسة ومرادطاغ المتصل بقازطاغ وهما على موازاة سواحل بحر الارخبيل الرومى وبعد انفصال جبال طروس المسماة أيضا جبال قوزان من هضبة ارارات يتكون عند خليج اسكندرونه بالجهة المسماة قوزان نصف دائرة تمتد شعبها الى سواحل بحر الجزائر وأشهر قمم هذه السلسلة هى بنكول طاغ وجعه طاغ وأرجيش طاغ وبه أرفع نقطة بين جبال آسيا العثمانية حيث تبلغ ٤٠٠٠ متر وهو بالقرب من قيصرية وينفصل من

جبال

جبال قوزان سلسلة جبال أخرى تمتد على موازاة الساحل الشرقي من خليج اسكندرونة وتنحدر الى بلاد سوريا حيث تنفصل الى سلسلتين شرقية وغربية تسمى هناك بجبال لبنان وتمتد بسوريا وفلسطين والقسم الاعظم من هذه الجبال مغطى بالغابات العظيمة والمراعى النضرة والحقول الخصبة و بعضها تغطيه الثلوج طول السنة ولما كانت جبال آسيا العثمانية على هذا الوضع المتقدم انقسمت الى أربعة منحدرات أوسطوح مائلة وهى منحدر البحر الاسود و بحر مرمرا ومنحدر بحر الجزائر والبحر المتوسط الابيض ومنحدر الخليج الفارسى ورابعها المنحدر الداخلى ولا أهمية له

أما الانهار التى تروى منحدر البحر الاسود وتصب فيه فهى يشيل ايرمق و يسمى قديما ايريس وقزل ايرمق و يسمى قديما هاليس وسقاريا وفالياس ونهر صوزورلى وهو يصب فى بحر مرمرا ومجارى هذه الانهار متعرجة تحفها صخور وهى سريعة الجريان وفى زمن فيضانها تتسع مجاريها وتكثر مياهها بخلاف فيها طول السنة وهذه الانهار تجلب معها كميات عظيمة من الرمال التى تلقيها عند مصباتها وتحدث منها دلتات وبذلك أصبحت غير صالحة للملاحة ومن أشهر الانهار بعد نهر قزل ايرمق بآسيا العثمانية نهر دليجه ودوه رك وكوك وكلها تصب فى البحر المذكور قرب بلدة بافره بعد ان تعظم و يصب بنهر صوزورلى المذكور نهرا أدرنياس ونيلوفر الذى يأتى من جهات بروسه ثم نهر چوروك صو الواقع على الحدود الشرقية وقد اشتهر فى المحاربات الروسية

وأما الانهار التى تصب ببحر الجزائر فمن أهمها نهير باقر وصارابات أو كدوس ومندرس الصغير وعند مصبه أطلال مدينة أفسوس القديمة ومندرس الكبير و يصب فى البحر الابيض المتوسط نهر سيدنوس المسمى سلافكه وسيحان وجيحان والعاصى المسمى أورونت قديما

أما الانهار التى تصب بالخليج الفارسى أو خليج البصرة فهى شط العرب المتكون من نهرى الدجلة والفرات بعد ما يلتقيان عند بلدة قورنة و يتألف نهر الفرات من نهر قره صو ومراد چاى و ينبع قره صو من جبال دوه بوينى الكائن بالشمال الشرقى من أرضروم و ينبع مراد چاى من جبال ديادين القريبة من بحيرة وان ثم يجتمع هذان النهران قرب المكان المدعو كيان معدنى و يكونان نهرا واحدا ينحدر نحو الجنوب باسم الفرات ومجرى هذا النهر جبلى فى أعلاه منبسط عند أسفله وليست الملاحة متقدمة فى هذا النهر لكثرة ما يوجد على ساحليه من الدواليب المسماة بالناعورات التى يستعملها الاهالى لارواء أراضيهم وغير ذلك أما دجلة فانه يتكون أيضا من عدة أنهار جنوبى بحيرة وان و بعد أن يخترق عدة صخور وجبال ينحدر الى الجنوب و يصب فيه نهر الزاب الكبير وللاعراب بهذا النهر عدة صالات أو كلاك ينقلون عليها المتاجر وهذه الاكلاك وان كانت تذهب من الموصل الى بغداد زمن الفيضان فى مدة ثلاثة أو أربعة أيام الا أنهم لا يقطعون هذه المسافة مدة التحاريق الا فى نحو العشرين يوما

وتكثر البحيرات أيضا فى بلاد آسيا العثمانية ومن أشهرها بحيرة وان وهى أكبرها يبلغ طولها ١٣٠ كيلومترا وماؤها كثير الاملاح وبحر لوط أو البحر الميت وهو ببلاد سوريا وطوله نحو ١٠٠ كيلومتر وماؤه شديد المرارة والملوحة أكثف من ماء البحر وهو منخفض عن البحر المتوسط الابيض بنحو ٤٣٠ كيلومترا بحيث لو حفرت بينهما ترعة لسال الماء

فيها بقوة عظيمة وبحيرة طبرية وبحيرات طوز كول ويكيشهر وآكردير وآقشهر ومنياس وأزنيك وصبانجه ويستخرج الملح من غالبها وهذه البحيرات الاخيرة بجهات الاناضول وغالب هذه البحيرات يجف فى بعض أيام السنة ويصب ببعضها وديان تنحدر اليها من الجبال المجاورة لها

أما مناخ هذه البلاد فيختلف بحسب المواقع فانه فى الهضبة الداخلية غيره فى الجهات المنخفضة الممتدة على ساحل البحر فهو فى الهضبة بارد جاف لانه بارتفاعه معرض للرياح الباردة الآتية من القطب الشمالى التى لا يمنعها مانع بسهول بلاد الروسية وشتاؤه طويل قارس بخلاف صيفه فانه شديد الحرارة ويشبه على العموم مناخ جميع جهات آسيا المرتفعة مع فرق قليل وجميع هذه الاراضى المرتفعة تنقصها الرطوبة وتأتيها من جميع الجهات سحب حاملة للامطار تسوقها الرياح فتصدها أطراف جبال هذا النجد أو أنها تتبدد بسبب حرارة الارض والجو بحيث انه فى بعض الجهات الداخلية تمر الشهور ولا يظهر فى السماء أثر للسحب أما الجهات الشاطئية فمناخها أكثر اعتدالا بسبب مجاورتها للبحر الذى يلطف البرودة والحرارة ويوجد فى البلاد رطوبة كافية بما يتكون عنه من السحب ولذلك فحدر البحر الاسود كثير الامطار الا أن أعظم منطقة ساحلية تمتع بحسن الهواء واعتدال المناخ هى بلاد كاليكيا القديمة القائمة على أراضيها الآن ولاية أطنة وما جاورها من البلاد شرقا وغربا وذلك لتعرضها للجهات الجنوبية وكونها مصونة من رياح الشمال بوجود جبال طوروس التى تكون لها كالسور وتعكس فيها الحرارة الشمسية ومتوسط درجة برودتها شتاء + ١٤ ومتوسط حرارة صيفها + ٢٩ درجة ومن هذه الاختلافات الارضية والمناخية والمائية كانت قابلية الانبات فى هذه البلاد مختلفة أيضا أى انها فى الاراضى العالية غيرها فى المناطق المنخفضة الساحلية فالهضبة الوسطى جبلية باردة فى الشتاء كثيرة الاتربة فى الصيف دائمة الجفاف بحيث تشبه سهول بلاد آسيا فلا يوجد بها الا النباتات الضعيفة والمراعى الضئيلة التى تمرح بها الخيول والبغال ولا يرى بها من النباتات الناضرة الا بالاماكن المصونة من الرياح ويوجد بها أيضا على مسافات متباعدة كثير من الغابات والاشجار المختلفة

أما السواحل والجزائر فتختلف عن ذلك كثيرا لوفرة النبات والاشجار بها وكثرة المياه فمن نباتاتها الارز والقطن والتبغ وعلى سفوح الجبال بها بساتين جميلة نضرة وخمائل لطيفة تغطى تلك السفوح ويكثر بها أيضا الخضراوات والكروم والثمار اللذيذة التى تنقل منها الى كثير من الجهات حتى ان جميع ثمار أوروبا كالتفاح والخوخ والبرقوق وغيرها نقلها لوكولس من شواطئ البحر الاسود اليها وتكثر بها أيضا النباتات والثمار كالبرتقال والزيتون والليمون والرمان والتوت الذى يغذى دود القز والكرم المشهور ويزيد سكان تركية آسيا عن ١٧,٠٠٠,٠٠٠ نفس وهم من أجناس مختلفة غالبهم من الاتراك العثمانيين والعرب والاكراد والاغريق والارمن وبينهم كثير من اليهود وغيرهم من الطوائف والنحل الاخرى العديدة وبهذه البلاد معادن كثيرة منها معادن النحاس بقرب توقات وقونيه وكوشخانه وهناك أيضا معدن فضة ويستخرجون منه قدرا قليلا وفى كل الجبال المجاورة لنهر الفرات والبحر الاسود دلائل على وجود النحاس فيها وبقرب مدينة عرب كير على الفرات معادن فضة وذهب غنية وهناك أيضا معادن للحديد يصنع الاهالى منه

فولاذا

فولاذا وقد وجد فى الايام الاخيرة الزنجفر بالاناضول وكذا الذهب والبلور أما أنواع المرمر والرخام فكثيرة الآن من هذه المعادن ما قد فرغ فى هذه الايام ومنها ما لا يستغل لعدم اعتناء الحكومة والاهالى وقد وجد قديما حجر المغناطيس ببلاد ليديا وتنسب اليه الآن مدينة مغنيسيا

ومن حيوانات آسيا الصغرى الخيل والبقر والغنم والمعز وفى نواحى مدينة انقره نوع من المعزى شعره طويل يشبه الحرير فى الدقة والرونق يصنع منه شالات تعادل شالات كشمير وهنالك أيضا نوع من الغنم حسن الصوف جدا يجز مرتين فى السنة ونوع من الهر كبير الجثة ناعم الشعر لطيف المنظر وفى جبالها كثير من الحيوانات والطيور البرية

(الفصل الثانى)

الثغور البحرية فى الدولة العلية العثمانية

لهذه الدولة على سواحل جميع البحار المهمة التى تحيط بها عدة ثغور ومرافئ مهمة كثيرا أو قليلا رأينا من المناسب ترتيبها على الوجه الآتى

ثغورها بالبحر الاسود — ان أعظم ثغور الدولة العثمانية البحرية وأهمها وأشهرها ثغر الآستانة أو دار السعادة أو استامبول أو اسلامبول أو القسطنطينية وتسمى فى بعض كتب العرب فروق ولها فرضة عظيمة من أحسن الفرض بالعالم واقعة عند مدخل الخليج المسمى بخليج أبى أيوب الانصارى والمسمى عند الفرنج كورن دور أى قرن الذهب وطوله ٦٨٠٠ متر وأصغر عرض له ١٦٠٠ متر ويسع أكثر من ألف سفينة وتدخل به أعظم السفن الحربية وعلى ساحلى هذا الخليج عدة مبان وقرى متصلة بالاستانة معدودة منها ومن أشهرها قرية الفنار وكانت قديما مسكنا للسفراء ويسكنها الآن طائفة الروم وبلدة بلاط وكل سكانها يهود تقريبا وجهة سيدى أبى أيوب الانصارى وله بها مسجد عظيم مبجل عند أهالى الاستانة تحصل فيه بعض الرسوم عند ما يتولى السلطنة سلطان جديد وكلها على الساحل الايسر من الخليج المذكور وبساحله الايمن قرية خاصكوى ويسكنها أرمن ويهود وجهة قاسم باشا وبها نظارة البحرية والسجون وتمتد على شاطئها دار الصناعة العثمانية ومعاملها ومصانعها وأحواضها وكل ما يلزم لتشييد السفن الحربية وغيرها وهذه الفرضة من أحسن فرض العالم كما تقدم لوقوعها فى مكان محفوظ من هيجان البحر فى جميع فصول السنة ولاشتمالها على عمق كاف من المياه التى تحمل أضخم السفن ومن أحياء الاستانة أيضا غلطة وهى بسفح تلة ويحيط بها سور محيطه ستة كيلومترات أسسه الجنويزيون الذين كانوا يقيمون بها قبل الفتح العثمانى وبهذه الجهة مبانى الكرنتينة وجمرك الواردات وبرج شاهق للاخبار بالحريق وبقربه محلة بيرة أى بك أوغلى وبها يقيم سفراء الدول الاجنبية وبها ثكنة عظيمة للطوبجية والطوبخانة وهى بناء عظيم وبه تصب المدافع العظيمة

ولما شيدوا الجسرين الحديدين العظيمين الموصلين ساحلى هذا الخليج ببعضهما صارت المسافة الفاصلة بين الجسرين مرسى للسفن الشراعية وصار ما هو شمالى الجسر الجديد لغاية ساحل سراى

طوله باغجه مرسى للبواخر الحربية والتجارية ومالى جنوبى الجسر القديم حتى منتهى الخليج تقريبا مرسى دار الصناعة العثمانية وبه الآن جميع سفن الدولة الحربية الموجودة بالاستانة ومتى خرج الانسان من الجسر الجديد متجها الى الشمال نحو البحر الاسود وجد على ساحلى آسيا واوروبا عدة مرافئ صغيرة تصلح لوقوف المراكب البخارية والشراعية مابين حربية وتجارية أشهرها بساحل أوروبا بالطه ليمان وبيك وبويجى كوى وأميركون واستينية وطرابيه وبيوك دره وروملى قواق وبساحل آسيا أسكودار وبكلربك وقنديللى وبكقوز وچبوقلى وأناضول قواق والحاصل ان شاطئ البوسفور يصلحان لمرسى متى كان التيار غير مؤثر تأثيرا تخشاه السفن والحركة التجارية بهذه المدينة عظيمة جدا وهى تزداد من سنة لاخرى ففى سنة ١٨٨٢ م دخل ميناها ١٠٫١٦٦ سفينة شراعية ٦٫٤٠١ باخرة وبلغ مجموع محمولها ٦٫٣٩٩٠٠٠ طن

ولما فتح المرحوم السلطان محمد هذه المدينة (٨٥٧ هـ) جعلها عاصمة للدولة العثمانية لاهمية موقعها وتسلطها على جهات البحر الاسود والبحر الابيض ولكونها فى مكان حصين وحرز مكين يمكن المدافعة عنه بالقوة القليلة وكانت قبل استيلاء العثمانيين عليها عاصمة للدولة الرومانية الشرقية أو السفلى وكانت تدعى بالقسطنطينية نسبة لمؤسسها قسطنطين الاكبر (٣٣٠ م) وكانت قبل ذلك تدعى بزانطيوم (بوزنطية) ويزيد سكانها عن ١٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة وبها ٣٥٤ خانا و ١٨٠ حماما و ٥٠ قصرا ونحوها و ١٩٨ تكنة للعساكر ومخافر للحرس و ٦٧٥ جامعا و ٥٢٠ مدرسة اسلامية و ١٤٨ مدرسة عالية و ٦٥ مكتبة و ٢٣١ ديرا و ١٨ مستشفى و ١٧٠ كنيسة منها ٦٠ للروم و ٤٠ للارمن و ١٠ للاتين وباقيها للطوائف الاخرى وبها غير ذلك من القصور الشامخة ودوائر الحكومة الفاخرة شئ كثير جدا أشهرها ديوان السرعسكرية والباب العالى ومستودع الاسلحة الحديث

اما منظر المدينة ففى غاية الجمال والابهة والفخامة تظهر للمقبل عليها كأبدع مايكون من المناظر التى يتخيلها الانسان وهى تنقسم الى عشر دوائر بلدية وبها مقر الفيلق الخامس العثمانى ولما كانت مشيدة على سبع تلال كانت طرقها كثيرة الانحدارات والميول وهذه المدينة من أوسع مدن العالم تجارة وقد ازدادت أهميتها التجارية الآن بارتباطها مع عواصم أوروبا بطريق حديدى وغالب منازل المدينة مشيد بالاخشاب وذلك لكثرة وقوع الزلازل بها وان كانت عرضة للحريق الذى لاتخلو منه ليلة ما ومع ذلك فقد أخذ كثير من الاهالى الآن فى تشييد منازلهم بالاحجار والرخام خصوصا بعد الزلزلة التى حصلت سنة ١٨٩٤ م

ومن أشهر فرض الدولة العثمانية أيضا بساحل الروملى على البحر الاسود بورغاز وهى واقعة فى منتهى الخليج المضاف اليها على بعد ١١٠ كيلومترات عن الشمال الشرقى من أدرنه وهى أهم ثغر تجارى بتلك البلاد ومن صادراتها الحنطة والشعير والذرة والصوف وماء الورد وغيرها سكانها ٥٠٠٠ نفس

وسيزه بولى وهى بساحل الروملى الشرقى أيضا سكانها ٨٠٠٠ نسمة استولى عليها الروس سنة ١٨٢٩ م وهى من أحسن فرض البحر الاسود

ووزنه

ووزنه وهى ثغر حصين بامارة البلغار عند مصب نهر براوادى بينها وبين مدينة رسجق طريق حديدى سكانها ٢٥,٠٠٠ نسمة بها من الجنوب الغربى بحيرة وفرضتها مكشوفة تهب عليها الرياح الشرقية الجنوبية وهى واسعة التجارة فى الحنطة والانبذة والثمار والجلود والعسل وخشب العمارة وغيرها وتشتهر بالانتصار العظيم الذى انتصر فيه العثمانيون تحت قيادة السلطان مراد الثانى على لادسلاس الخامس ملك المجر (١٤٤٤ م) استولى عليها الروس سنة ١٨٢٨ م ثم ردوها الى العثمانيين بعد أن خربوا حصونها ومن هذه المدينة يبحر السياحون القادمون من باريس وويانة الى استانبول والبحيرة المذكورة صالحة لان تكون فرضة للمدينة اذا فتحوا الها ممرا من داخل الفرضة الحالية وهنالك فرض أخرى جيدة لكنها قليلة الاهمية

وأما فرض سواحل الاناضول وآسيا الصغرى الواقعة على البحر الاسود فمن أهمها فرضة أركلى وهى مفتوحة الى الشمال وترسو فيها السفن فى داخل جون قريب من رأس بابا القريب من الفنار ويستخرج من ضواحى هذه المدينة فحم يجرى بمعرفة نظارة بحرية الدولة يستعمل وقودا فى بواخر الدولة العثمانية الحربية والتجارية وكانت هذه المدينة فى آخر أيام دولة الرومان وقبل تأسيس القسطنطينية عاصمة لاسقفيه تراس

وانيه بولى وكانت تعرف قديما باسم أبونو پوليس وهى فرضة قصبة باسمها فى لواء قسطمونى على البحر الاسود تبعد ١٣٠ كيلومترا عن سينوب الى الغرب سكانها ٣,٥٠٠ نفس تصنع فيها السفن الصغيرة ميناها صغيرة حسنة والمدينة فى وادبين جبلين يرويها نهر دوريكان ايرمق وكان وراء أحد هذين الجبلين قلعة خربت وبنى فيها سنة ١٠٢٠ هبرج لمنع اغارة القوزاق ثم هدم بعد مدة

وأماسترا وهى من الفرض العظيمة ولكنها مفتوحة من جهة الشمال الغربى الى الغرب والمدينة واقعة على شبه جزيرة صغيرة وأكبر عمق المياه فيها يبلغ عشرين قامة وهى تابعة لولاية قسطمونى أسستها استريس قريبة دارا آخر ملوك الفرس وبها آثار مهمة استولى عليها السلطان محمد الثانى من الجنوزيين سنة ١٨٥٣ م

وسينوب وهى من أشهر فرض آسيا الصغرى (من بلاد بافلاغونيا قديما) ويقال ان الميلزيين أسسوها وأرسلوا اليها جاليتين احداهما سنة ٧٥١ ق م والثانية بعد أن هدمها السميريون سنة ٦٨٢ ق م ولما انتزعها بركليس من يد طاغيتها أسكن بها ستمائة أثينى ولوقوع هذه المدينة على برزخ كان لها فرضتان وكانت أساطيلها تجعل لها النفوذ فى البحار لغاية البوسفور غربا وهاليس شرقا وبذلك امتدت سطوتها وأسست عدة مدن منها طرابزون وكان من أهم محصولاتها التجارية الزنجفر والاسماك وكانوا يحفظونها داخل أحواض عجيبة وقد أغار عليها متريدات الخامس ملك البونت الا أنه عاد على غير طائل لان أهالى رودس أمدوها بالجنود لمقاومة هذا الملك ومع ذلك فان فرينا خليفة متريدات أخضعها لحكمه وصارت مدة متريدات الاكبر الذى ولد بها عاصمة لبلاد البونت واستولى عليها بعد ذلك لوكلوس الرومانى الذى أعلن بحريتها واستقلالها الداخلى (٧١ ق م) الا ان قيصر أرسل اليها سنة ٤٥ ق م جالية رومانية

نزلت بها ومع حفظها مدة قياصرة الرومان لاهميتها التجارية وثروتها الا الآن مدينة أماسيا انتزعت منها هذا الامتياز بعد أن صارت قاعدة اقليم بافلاغونيا وقد ولد بها عدة من المشاهير منهم الفيلسوف الشهير ديوجنس ولما استولى عليها السلجوقيون من دولة اليونان جعلوها قسما من امارة قسطموني التي بقيت في يد أمراء السلجوقيين تحت سيادة العثمانيين حتى منتصف القرن الخامس عشر من الميلاد وقد فاجأها الروس (١٨٥٣ م) بالاغارة فخرقوا بمينائها عدة سفن عثمانية وهدموا قسما منها ومن متاجرها الآن الارز والثمار والجلود والاخشاب وبها دار صناعة عثمانية عظيمة تبنى بها السفن الحربية الخفيفة ويربو عدد سكانها عن ١٠٫٠٠٠ نسمة وبالجهة الشرقية من سينوب على بعد ثمانية أميال غربي رأس بوزتبة توجد فرضة صغيرة تدعى آق ليمان ويوجد في ولاية قسطموني أيضا (نيلياس) و (كروزه) وهما واقعان على ساحل البحر الاسود ويعدان من المراكز التجارية ولكن السفن التي تقصدهما ترسوا امامهما في الاهوية المعتدلة فقط وذلك لعدم وجود مين بها تحميها من الزوابع

وسمسون فرضة من ولاية طرابزون في آسيا الصغرى واقعة على البحر الاسود في خليج باسمها عدد نفوسها ٣٠٠٠ ولها تجارة واسعة مع بغداد وداخلية البلاد العثمانية في آسيا وأعظم مكان ترسو به السفن بها واقع بالقرب من رأس سمسون عمقه ثمان قامات ومرفؤها عرضة لرياح الشمال ومن أهم صادراتها النحاس والاخشاب والحنطة والتبغ المضاف اليها وغير ذلك

واونيا وهي مشيدة فوق تل مدرج يشتغل أهاليها بالتجارة والصناعة وتكثر بها زراعة العنب ومن صادراتها النبيذ والفواكه والقدان والطنافس وفرضتها عرضة للرياح الشمالية التي يخافها الملاحون

وثونا أوفونو فرضة واقعة خلف الرأس المسمى بها على بعد ٥٠ كيلومترا من الشمال الغربي من كريسون وعمق المياه بفرضتها يبلغ ست قامات على الأكثر وترسو بها سفنها الشراعية مدة الشتاء

وطرابزون مدينة حصينة بآسيا الصغرى على بعد ٩٠٠ كيلومتر من القسطنطينية و ١٤٠ كيلومترا من أرضروم يزيد عدد سكانها عن ٨٠٫٠٠٠ نفس وبها آثار قديمة منها هيكل لابلون ويتردد على مينائها سفن كثيرة ومن متاجرها الكتان والاحبال والتبغ والمنسوجات والخرداوات والاسلحة والسكر والتوابل والبن والزبوت وجوز الطيب والغضار والآنية الزجاجية والجوخ والعلق والنحاس والفضة والحديد وتمر بها سفن الادارة المخصوصة العثمانية وسفن الشركة الفرنساوية والنمساوية والروسية الذاهبة الى القسطنطينية وباطوم وهي مدينة قديمة جدا وكانت مستعمرة لسينوب ثم أخضعها ملوك البونت وابتنوا بها مباني جميلة ولما استولى عليها الرومانيون حسنوها خصوصا في زمن تراجان وأدريان ويوستنيانوس وصارت بعد ذلك قاعدة لبلاد بونت ثم ان الغوط أغاروا عليها وأحرقوها ولما استولى اللاتينيون على مدينة القسطنطينية (١٢٠٤ م) صارت طرابزون عاصمة مملكة مستقلة أسسها الكسيس كومنين الاول حفيد أندرونيل الاول ولما استولى عليها يوحنا الاول بعد الكسيس جعلها عاصمة دولته نكاية في أولاد لسكريس

فيا عبرة القسطنطينية ثم اضمحل أمرها وسقطت درجة ملوكها الذين زوج بعضهم بناته لامراء التركمان ولاحفاد تيمورلنك وغيره من الملوك المجاورين مثل بعض أمراء اللاظ والاباظة ولما افتتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية أخضع هذه المدينة مدة ملكها داود كومنين رغما عن مساعدة أوزون حسن أمير التركمان له (٨٦٥ هـ) وفرضة هذه المدينة غير مأمونة وبجوارها مكان صالح لوقوف السفن الا أنه عرضة لرياح الشمال الغربي وقد أقام بهذه المدينة السلطان سليم الاول ويوجد للدولة على سواحل البحر الاسود في ولاية طرابزون جملة بلاد عظيمة التجارة منها (ريزه) و (كيرەسون) و (أوف) و (تيرەبولي) وهي من المراسي المعدودة ولكن ليس لها فرض تحمي السفن فلذلك لا يمكن للسفن التي تقصدها أن ترسو أمامها الا اذا كانت الاهوية معتدلة

وباطوم وهي واقعة قرب النهر المضاف اليها تبعد ١٥٠ كيلومترا عن الخليج الى الغرب و ٢٦ ميلا بحريا عن طرابزون الى الشمال الشرقي وميناها حسن جدا وهي حصينة لا ترام تقريبا لصعوبة الوصول اليها برا وبحرا وقد نالت أهمية عظيمة لجودة مركزها البحري ولقربها من حدود الروسيا سيما وان مرفأها أحسن مرافئ تلك السواحل حتى يمكن للمراكب الكبيرة أن ترسو فيه على مقربة من الشاطئ وأما المراكب الصغيرة فلا أمن عليها في الشتاء ويقربها معدن البترول (الغاز) وعدد سكانها نحو ألفي نفس بين مسلمين ونصارى وبراكسة وفيها حمامات وجوامع وكانت تابعة للدولة العثمانية قبل حرب هامع الروسيا فهي من أعمال طرابزون وقد حاول الروس الاستيلاء عليها مدة الحرب المذكورة فامتنعت عليهم لحصانتها ثم احتلوها بعد الحرب بمقتضى معاهدة برلين (١٨٧٨ م) وهناك فرض صغيرة أخرى لا أهمية لها

ثغور الدولة على بحر مرمرا — للدولة على هذا البحر كثير من الثغور وأشهرها ازميد أو ازنكميد وهي نيقوميدية القديمة واقعة على مسافة ١٠٠ كيلومتر من الاستانة الى شرقي الجنوب الشرقي على رأس خليج مضاف اليها وهي على الشاطئ الشمالي الشرقي من بحر مرمرا جميلة الموقع حسنة المدخل عدد سكانها يتجاوز ٤٠,٠٠٠ نفس وكانت قديما كرسي مملكة بثنيا وبها ولد ليبانوس المؤرخ وتوفي انيبال الشهير وقسطنطين الكبير وتوطن بها بلنياس وتنازل فيها دقلديانوس عن الملك ولم يبق من أبنيتها القديمة الا القليل ويمكن لاكبر المراكب دخول ميناها وبعد ان افتتحها العثمانيون (٧١٦ هـ) اتخذوا بها دار صناعة عظيمة وقد تقدمت هذه الدار الآن عما كانت عليه حتى صار يصنع فيها أعظم السفائن الحربية من نوع الطرادات والمدفعيات وشيدوا بها كثيرا من معامل آلات السفن حتى وصلت لدرجة يمكن أن تعدمعها الفرضة الثانية للدولة العثمانية وبهذه المدينة أيضا كثير من معامل الحرير والخزف ولها تجارة في الخشب والملح وبها مياه معدنية وهي مركز سفن الطوربيدو

ومودانيه فرضة من ولاية خداوندكار واقعة على الخليج المضاف اليها المسمى قديما سيانوس سينوس سكانها ٢٠,٠٠٠ نفس وتعتبر مينا المدينة بروسه

وكمليك فرضة من ولاية خداوندكار على خليج مودانية أيضا سكانها ٣٠٠٠ نفس بها دار صناعة ومعامل للبحرية

وأردك وكانت تسمى ارنا كى أوارناسى وهى فرضة على الشاطئ الغربى من شبه جزيرة كيزيكة فى بحر مرمرا على مسافة ٧٠ ميلا من الاستانة الى الجنوب الغربى فيها آثار سد قديم فى البحر ويصنع فى جوارها خزف فاخر له سوق رائج ذكر هيرودوتس أن الفينيقيين أحرقوها عند محاربتهم للفرس ثم أعاد بناءها اليونان وحصنوها والى الشرق منها كانت مدينة كيزيكة القديمة وهى أكبر بلدة فى شبه الجزيرة المذكورة وأكثر أهلها يتعاطون الزراعة ولها مرفأ صغير وهى من ولاية قرهسى وفى قضاء أردك مياه معدنية نافعة تحمل الى كثير من البلاد

ورودستو أوتكفور طاغ واسمها القديم بيزنطة فرضة عثمانية حصينة على ساحل تركية أوروبا تبعد ٦٠ ميلا عن كليبولى الى الشمال الشرقى وهى مركز متصرفية فى الروملى بولاية ادرنه عدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نفس محاطة ببساتين جميلة وبها خانات كبيرة واسعة وحمامات وكنائس ولها تجارة واسعة فى الحبوب والصوف والسمسم وكان احتلها الروسيون سنة ١٨٣٩ م ثم أعيدت الى الدولة وهى الآن قليلة الاهمية

وايدنجق واقعة بالقرب من كيزيكة القديمة وقد بنيت من خرابتها وهى قصبة ناحية باسمها من قضاء أردك التابع ولاية قرهسى يكثر بها شجر التوت والكرم ويتردد عليها كثير من السفن الشراعية عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس

وعلى بحر مرمرا فرض أخرى من ولاية قرهسى أشهرها فرضة باندرمه وتشتهر بالضأن لكثرة المراعى فيها

وغليبولى واقعة على الشاطئ الاوروبى تابعة لولاية ادرنه وفرضتها مزدوجة لوقوع المدينة على شبه جزيرة مضافة اليها والمدينة واقعة على بعد ٢١٢ كيلومترا الى الجنوب من القسطنطينية سكانها ٢٠,٠٠٠ نفس وكانت قديما قاعدة ولاية الجزائر وهى محطة لسفن الشركات العثمانية والاجنبية واسعة التجارة ومن حاصلاتها الجلود المشهورة ومن صادراتها الحرير والشرانق والجلود والاصواف والحبوب وبها مبان لطيفة وبساتين ظريفة ويحمى هذه المدينة أكثر من أربع عشرة قلعة وهى أول مدينة استولى عليها العثمانيون باوروبا (٧٥٨ ﻫ) وقد شيد بها السلطان بايزيد الاول برجا عظيما لا يزال للآن أما شبه جزيرة غليبولى فهى محصورة بين بحر الارخبيل ومضيق الدردنيل وبحر مرمرا وخليج ساروس وتتصل بالقارة ببرزخ ضيق بين هذين البحرين الاخيرين وبها اطلال قديمة والحاصل ان أكثر القرى والبلاد الواقعة على سواحل بحر مرمرا تعد فرضا لان أغلب الساحل صالح لرسو السفن والبواخر ويتردد عليها سفن شراعية صغيرة تنقل منها المحصولات الى الاستانة العلية وغيرها

والدردنيل يسمى بهذا الاسم مدينتان واقعتان وسط هذا المضيق الشهير تجاه بعضهما ويسميان أيضا بالقلعة السلطانية أوجناق قلعة فالمدينة التى على ساحل أوروبا سكانها مسلمون عددهم ٧٠٠٠ نفس وتسمى كليد بحر أى سد البحر فقط والتى على الشاطئ الاسيوى سكانها بين مسلمين وروم ويهود وأرمن ويبلغون ٥٠٠٠ نفس وتسمى بالقلعة السلطانية فقط او جناق قلعة وبها يقيم الحافظ العام لقلاع الدردنيل ويقيم بها أيضا قناصل لجميع الامم وتبنى بها سفن تجارية

صغيرة

صغيرة لايزيد محول أكبرها عن ثمانين طنا ويجرى بجوارها نهر يقال له رودوس يصب بالدردنيل بالقرب من القلعة السلطانية والمسافة بين المدينتين المذكورتين لاتزيد عن ثمانمائة ياردة ولذلك تسهل المدافعة فيهما وجميع استحكامات الدردنيل مسلحة بأضخم المدافع وأحدث الاختراعات الدفاعية ويمكن بغاية السهولة والسرعة القاء الآلات الطوربيدية امامها عند اللزوم ولهذا المضيق شهرة عظيمة فمنه اجتاز دارا ملك الفرس الى أوروبا واسكندر الكبير الى آسيا والسلطان سليمان الى أوروبا وقد حافظت الدولة العثمانية على حق منع كل البوارج الاجنبية من المرور فيه فى أى وقت كان بلا رخصة خصوصية وقد اعترفت لها بذلك دول أوروبا فى سنتى ١٢٥٧ و ١٢٧٣ ﻫ (١٨٤١ م و ١٨٥٦ م) [1]

(١) اعلم ان هذا الموقع حصين جدا متسلط على مضيق الاستانة وطوله نحو ميلين وحيث ان القلعة السلطانية حصينة جدا وقبالتها قلعة أخرى مثلها فى الحصن والمتانة يقال لها بابا قلعة وغيرهما من القلاع التى شيدت حديثا على الجانبين كان المرور من هذا المضيق من المحال وكثيرا ما جرى بين الباب العالى والدول الاجنبية معاهدات فيما يتعلق بمرور السفن من هذا المضيق ففى سنة ١١٩٨ ﻫ (١٧٨٣ م) جرت معاهدة بينه وبين الروسيا رخص فيها فى مرور سفن الروسية التجارية ثم بعد محاربة سنة ١٢٤٤ ﻫ (١٨٢٨ م) اشتكت الروسية غير مرة من عدم اجراء الباب العالى ما تعهد به لانه أمر بالقبض على سفن روسية تجارية وأخذ ما فيها من الارزاق والامتعة بدون تعويض شئ على أصحابها ومن ثم جرت معاهدة أخرى سنة ١٢٤٥ ﻫ (١٨٢٩ م) وهى معاهدة أدرنه وفيها رخص فى مرور السفن التجارية لبقية الدول كما رخص لسفن دولة الروسيا وفى سنة ١٢٤٩ ﻫ (١٨٣٣ م) جرت معاهدة ثانية يقال لها معاهدة هنكار أسكله سى بين الباب العالى والروسية مبنية على الهجوم والدفاع وكان من جملة ما تضمنته منع جميع السفن التجارية للدول ماعدا الروسية فأقامت دولة انكلترا الحجة على الباب العالى بواسطة سفيرها بالاستانة ثم فى سنة ١٢٥٧ ﻫ (١٨٤١ م) جرت معاهدة أخرى فى لوندرة بين الباب العالى وانكلترة وأوستوريا والروسية وبروسية لتسوية المسئلة الشرقية وحماية الدولة العلية من المرحوم محمد على باشا والى مصر اذ ذاك حيث كان عازما على الاستيلاء على الاستانة وكانت عساكره زاحفة عليها ويومئذ صرح فى تلك المعاهدة بمنع دخول سائر البواخر من بوغاز جنق قلعة الا اذا اقتضى أمر الدول المذكورة دخولها للمحافظة على الاستانة فيكون لها والحالة هذه ان تتمكن منها وفى معاهدة سنة ١٢٧٣ ﻫ (١٨٥٦ م) أعنى بعد حرب القريم أذن لجميع الدول فى ان يكون لكل واحد من سفرائها باخرة حربية صغيرة فى بوغاز الاستانة قبالة الطوبخانة وصرح أيضا بان البحر الاسود المشترك بين الدولة العلية والروسية يكون على الحيادة يعنى لايسوغ دخول سفن حربية فيه لاى دولة كانت الا انه فى سنة ١٢٨٧ ﻫ (١٨٧٠ م) أعنى بعد حرب المانيا وفرانسا أرسل البرنس غورجيقوف لائحة الى الدول الخمس التى أمضت معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ المذكورة يخبرهم فيها بنسخ الشروط التى تقصر قوة الروسية فى البحر الاسود وفى ١٣ مارس سنة ١٨٧١ م جرت معاهدة أخرى فى لوندرة صرح فيها بان للروسية حقا فى أن يكون لها قوة بحرية فى البحر الاسود ولكن بقيت قضية منع دخول البواخر الحربية من جنق قلعة كما كانت أما عدد ما مر من جنق قلعة من البواخر الحربية لاسباب فوق العادة نحو قدوم بعض الملوك الى الاستانة وغير ذلك من الاسباب فبلغ من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٩٥ م عدة بواخر منها باخرتان انكليزيتان مرتا فى سنة ١٨٦٢ م وفى سنة ١٨٦٦ م مرت باخرة أمريكانية وفى سنة ١٨٦٨ مرت باخرتان لامريكا ومثلهما للاستوريا وباخرة فرنساوية وفى سنة ١٨٦٨ مرت باخرة روسية وفى سنة ١٨٦٩ مرت باخرة بروسية وفى سنة ١٨٧٧ م دخلت الاساطيل الانكليزية لحماية الاستانة من اغارة الروس وفى ١٨٧٩ دخلت باخرة يابانية وفى سنة ١٨٨٤ دخلت بارجة المانية تقل جناب امبراطور المانيا وفى سنة ١٨٩٣ دخلت بارجة يابانية بها ما أمكن نجاته من المهمات التى كانت بالفرقاطة ارطغرل العثمانية التى غرقت بالمحيط الاعظم وفى أواخر سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) دخلت البوارج التابعة للدول الاوروبية العظمى عند ما صدر لها الاذن لتبقى تحت أوامر سفرائهم هناك فصار بذلك لكل دولة سفينتان

ثغور الدولة العثمانية على بحر الارخبيل — من أشهر فرض الدولة ومرافئها على البحر المذكور خليج بزيكه أو بشيكه وهو فرضة عند مدخل الدردنيل على الشاطئ الآسيوى يبعد ٤٨ ساعة بحرية عن القسطنطينية احتلته العمارة الانكليزية فى سنتى (١٨٥٣ و ١٨٧٧ م)

وتندوس وهى بجزيرة تندوس المسماة بوغجه اطه سى وتبعد ٢٤ كيلومترا الى الجنوب الغربى من الدردنيل ومدينة تندوس واقعة حول مرفأ صغير على الشاطئ الشمالى من الجزيرة المذكورة تحميها قلعة تجاه فرضة بشيكه ولهذه الجزيرة ذكر فى حروب تروادة وقد حصل بين العثمانيين والبنادقة عدة وقائع بحرية بجوارها بخصوص الاستيلاء عليها لجودة موقعها

وسلانيك أو تسالونيكى وهى مقر ولاية باسمها وتبعد عن القسطنطينية بنحو ٥٢٠ كيلومترا وهى من الثغور التجارية المهمة موقعها فى داخل الجون المعروف باسمها وكان هذا الخليج قديما يسمى شرمايكوس أو ثرمايس سينوس وهو فرع من بحر ايجى بين ساحل تساليا وشبه جزيرة خلقدونيا وكاسندر طوله ٧٠ ميلا وعرضه ٣٠ وتصب فيه أنهر سالبريا وانجه قره صو وقادور وقد اشتهرت سلانيك بحسن منظرها وجمال جوامعها وفيها آثار قديمة وتجارتها واسعة جدا يخرج منها طريق حديدى الى أسكوب ويتصل بالاستانة وجملة بلاد أخرى من مقدونية ومرفؤها أمين رحب يسع أكثر من ٣٠٠ سفينة جسيمة وقد وسع هذه المدينة كاسندر المقدونى (٣١٥ ق م) وسماها تسالونيكى على اسم زوجته ابنة فيلبش وفتحها الاثينيون (٤٣٢ ق م) وجعلوها أم الثغور المقدونية وبعد معركة بيدنا استولى عليها الرومان وكانت لعهد امبراطوريتهم عاصمة الولايات الايليرية وسنة ٥٢ م جاءها بولس الرسول واعظا ثم فتحها العرب (٩٠٤ م) عندما كانت أساطيلهم تغزو بحر الروم وسنة ١١١٥ م فتحها نورماند يو صقلية وفى أوائل القرن الثالث عشر أخذها المركيز بونيفاس ثم تنازل الروم عنها للبنادقة (١٤٢٥ م) وبقيت فى حكمهم الى أن فتحها العثمانيون فى عهد الغازى السلطان مراد الثانى (٨٣٥ ﻫ — ١٤٣١ م) ومن وقتئذ صارت سلانيك تتقدم فى العمارية والتجارة الى يومنا هذا وقد أصلحت فرضتها وسكانها يبلغون ٨٠,٠٠٠ نسمة وهى أهم ثغر تجارى بتركية أوروبا بعد القسطنطينية وبها قلعة حصينة قديمة ذات سبعة أبراج كالتى بالقسطنطينية وآثار قديمة شتى منها قوس نصر لقسطنطين الكبير واغسطوس ومن سكانها كثير من اليهود من نسل الذين طردهم الاسبانيول فى زمن فرديننددوايزابيلا وبهذه المدينة فابريقات للاقمشة الحريرية والطنافس والجلود ومدابغ ومصابغ للغموط الحمراء ومن تجارتها الحرير والقطن والتبغ والاصواف والنيل والحبوب الزيتية والجلود والشمع الاصفر ويتردد عليها كثير من سفن الشركة العثمانية والشركات الاجنبية

وقوله فرضة واقعة على خليج مضاف اليها من ولاية سلانيك تتردد عليها سفن الشركة العثمانية والسفن الفرنساوية وسكانها ٤٠٠٠ نفس ولها تجارة عظيمة فى التبغ وهى مسقط راس المرحوم محمد على باشا جد العائلة الخديوية

وفى الجهة الشرقية من خليج سلانيك جون كسندره يوجد فى الساحل الشمالى والشرقى منه مواقع كثيرة تصلح لرسو السفن كفرضة كوفو يلتجئ اليها كثير من السفن وليست مأمونة

ولذلك

ولذلك فان السفن عند الزوابع الشديدة تقلع منها وفى شرقى كسندره جون به فرضة اينوروز أو أنوس وفرضة سيكيا وبسواحل جون اورفانو بعض فرض أخرى ليست ذات أهمية وفرضة اينوس وهى قريبة من السابقة

وقره اغاج المعروفة أيضا باسم لاغوس بسنجق غاليبولى من ولاية أدرنه يتردد عليها بواخر العثمانية والنمسا وفرانسا وهى قريبة من جزيرة طاشيوز وبمدخلها كثير من الصخور

وددداغاج وهى أوسع فرضة تجارية بهذا الساحل واقعة بولاية ادرنه غربى مصب نهر مارتيسا ومريج وقد امتد اليها الطريق الحديدى الواصل لدار الخلافة

وسانت انطونيو وهى فرضة عظيمة بجزيرة لمنى (لمنوس) واقعة فى وسط الجزيرة تقريبا حادثة من موقعى پورتليا ومودروس قال القبودان مـين برايسك ان فرضة مودروس المشهورة بسنت انطونيو تسع فى أيام الصيف عمارة كبيرة وفى زمن الشتاء لا يصيبها خطر متى رست السفن بالجهة الداخلة منها

و پاليوپوليس واقعة بخليج بورنه ولهامرفأ جيد جيل بالساحل الشمالى من لمنوس أيضا وكانت هذه الجزيرة المهمة تابعة للاثينيين ثم استولى عليها الفرس ثم استردها الاثينيون بعد واقعة سلامين ثم دخلت تحت حكم ملوك مقدونيا ثم استولى عليها الرومان (١٤٦ ق م) ثم كانت من نصيب الدولة الشرقية حتى زمن الحملة الصليبية الرابعة فاستولى عليها البنادقة ثم فى القرن الرابع عشر انتقلت من يدهم الى الجنويزين هى ولسبوس وغيرها من الجزائر ثم أخضعها السلطان محمد الفاتح (٨٦٧ هـ) ثم استردها البنادقة ولم يخرجوا منها تماما للعثمانيين الا فى سنة ٨٨٣ هـ ولا زالت فى يدهم الى الآن

وبارغه وهى فرضة حصينة تجارية من تركية أوروبا واقعة على بحر اليونان امام كورفو بولاية يانيه على بعد ٩٠ كيلومترا من يانيه الى الجنوب الغربى سكانها ٤٠٠٠ نفس صادراتها الزيت والنبيذ والتبغ والثمار وهى ثغر حر من القرن الرابع للميلاد وقد تمكن سكانها من صد تيه دلنلى على باشا ١٨١٤ م وطلبوا بعد ذلك الانضمام الى جمهورية جزائر بحر اليونان الأن الانكليز باعوها للعثمانيين ١٨١٥ م وعند مجىء على باشا سنة ١٨١٩ م هم سكانها بترك المدينة فرارا من دخولهم تحت حكم المسلمين

جزيرة كريد ويقال لها فى كتب العرب اقريطش طولها ١٧٢ وعرضها ٢٥ ميلا ومحيطها ٥٠٠ ميل ومساحتها ٤٥٠٠ ميل مربع وهى كثيرة الاثمار والاخشاب وسائر الحواصل الزراعية ولا سيما الزيتون ويخترقها من الوسط جبال شامخة ويقال ان أول من سكنها هم الفينيقون وأول من تولاها الملك مينوس صاحب الشرائع المشهورة بين علوم اليونان ثم أتى اليها جماعة من جمهوريات اليونان وتوطنوا فيها الى ان فتحها الرومان (٦٧ ق م) وفى مدتهم فتحها العرب ولم تزل بقاياهم فى نواحى جبل ايدا فى أواسط الجزيرة وبقى استيلاؤهم عليها الى القرن العاشر للميلاد وفيه استولى عليها أهل جنوة الذين وهبوها للماركيز بونيفاس وللدوق مونت فيرات

من ايطاليا ثم باعها المركيز المذكور الى أهالى البندقية سنة ١٢٠٤ م وبقيت معهم الى أن فتحها العثمانيون سنة ١٠٨٠ ﻫ بعد حروب دامت ٢٤ سنة وأشهر فرضها وأعظمها خليج سوده وهو أمين جدا رحب للغاية يمتد من جزيرة سوده الواقعة فى فم البوغاز الى طوزله على طول أربعة أميال يسع أكثر من ٥٠٠ سفينة حربية وأغلب السفن ترسو فى داخل الخليج بقرب طوزله المذكورة لان عمق الماء فيه يختلف من ٥ الى ١٥ قامة وقد اتخذت الدولة هذه الفرضة مركز الاسطول بحر سفيد فلذلك شيدت فيها بعد ثورة (١٢٨٤ ﻫ) دار صناعة فازدادت بها أهمية الجزيرة عن ذى قبل وقد وضع أساس دار الصناعة هذه الفريق حسين باشا الكريدى فشيد فيها الفابريقات المهمة ومعامل الحديد وركب فيها الآلات البخارية وشيد أيضا ثكنة عسكرية ودار المرضى ودائرة للقائد العام وبعض مخازن للادوات والآلات البحرية ولما كان هذا الفريق رئيسا لمجلس البحرية فى الاستانة طلب انشاء حوض لاصلاح السفائن بفرضتها فلما أقروا على طلبه ذهب بنفسه (١٢٩٢ ﻫ) وعين موقعه وابتدأ الحفر فيه ومن أشهر ثغور هذه الجزيرة أيضا خانية وهى أكبر ثغور جزيرة كريد واقعة على الساحل الشمالى منها على بعد ٣٠ ميلا من رسمو و ٦٠ ميلا عن مدينة قندية غربا وعدد سكانها ١٠,٠٠٠ نفس وهى محاطة باسوار منيعة وخنادق عميقة فى حاجة الى الاصلاح أما فرضتها الخارجية فليست أمينة لانها معرضة للرياح الشمالية والداخلية صغيرة لا تصلح الا للسفائن الشراعية الصغيرة وقد كانت فرضة هذه المدينة سابقا أحسن فرض الجزيرة وقد أنشأت الحكومة العثمانية بهذه المدينة (١٢٨٦ م) بستانا زراعيا لتقدم الفلاحة فأفاد السكان كثيرا وبها عدة مدارس ومن أهم حاصلاتها الدقيق والحبوب والمنسوجات والصابون وزيت الزيتون والحرير ويقال ان خانية هى سيدونيا القديمة استولى عليها العثمانيون سنة (١٠٥٣ ﻫ)

ورسمو او ريتمو وهى حصينة تبعد عن قندية ٧٠ كيلومترا الى الجنوب الغربى سكانها ٨٠٠٠ نفس يحيط بها سور وفى داخلها قلعة وفرضتها صغيرة أمينة للغاية ولكنها لا تسع الا السفائن الصغيرة التى لا يتجاوز محمول الواحدة منها ١٥٠ طنا وبوغازها مفتوح الى الشرق والدخول منه صعب جدا وكذا الخروج وكانت قديما بيد البنادقة استولى عليها العثمانيون سنة (١٠٥٧ ﻫ) والسفائن الجسيمة التى تقصد هذه المدينة ترسو فى جهة الشمال الشرقى على بعد نصف ميل حيث عمق المياه فيه يبلغ ثمان قامات

وقندية وتدعى ميغالو كاسترو شيدها عرب الاندلس لما نزلوا هذه الجزيرة وهذه المدينة محاطة باستحكامات قوية جدا وخنادق عميقة ومرفؤها صغير لا يسع الا ١٥ سفينة من السفن الصغيرة التى لا يزيد محمول الواحدة منها عن ١٥٠ طنا ومدخل ميناها مفتوح الى جهة الشرق وكانت قديما بيد البنادقة ثم افتتحها العثمانيون ومن وقتئذ تقدمت تجارتها وكانت مقر الحكومة مدة طويلة وعدد سكانها لا يتجاوز ١٥٠٠٠ نفس والسفن والبواخر الجسيمة التى تتردد على قندية ترسو فى أغلب الاوقات فى شمالى قلعة الفنار على بعد نصف ميل حيث عمق المياه يبلغ ١٨ قامة وفى زمن الشتاء وقت قيام الزوابع ترسو بجزيرة طوشان أو ستانديا الواقعة فى شمالى قندية على بعد ستة

أميال وفى زمن البنادقة كانت السفن الجسيمة تدخل فرضة جزيرة طوشان وتفرغ حمولتها فى صنادل شراعية لنقلها الى قندية وبهذه الطريقة كانت تشحن الصادرات أيضا ولا يزال يوجد للآن بهذه المدينة آثار قديمة عربية ويوجد فى سواحل جزيرة كريد فرض أخرى كفرضة سبينى لونغه أو أسبرلنغه وفرضة قولوجنيا وليمان سنت نيقوله ومرسى اسفا كيا وليمان ليتروس ومرسى سيلينو واياد وملى ولكنها ليست مهمة ولا أمينة ويبلغ سكان هذه الجزيرة عموما ٢١٥,٠٠٠ نسمة بين مسلمين وغيرهم

ثغور الدولة على البحر المتوسط — للدولة العثمانية على سواحل البحر المتوسط الابيض كثير من الثغور المهمة أشهرها ما يأتى

أزمير وهى مدينة من آسيا الصغرى أى الاناطول على الرأس الشرقى من خليج يدعى باسمها وهى واقعة فى حضيض جبل باغوس ويتصل قسم منها بسفحه ويمتد خليجها بانعطاف فى البر على طول نحو ٥٠ كيلومترا وعرض ٢٠ كيلومترا ويحيط به من الجنوب جبال ميماس ومن الشرق جبال باغوس فلذلك كان الماء فيه ساكنا هادئا ومیناها أمين لا خطر فيها البتة على السفن وليس فيها من الصخور ما تخافه السفن الصغيرة لان قاع البحر سهل مستو تقريبا وهذه المدينة تبعد عن القسطنطينية ٤٣٠ كيلومترا الى الجنوب الغربى وعدد سكانها ١٦٠,٠٠٠ نفس منهم ٨٠٠٠٠ نفس من المسلمين والباقى من أجناس مختلفة وبها ابنية جميلة منها خشبية ومنها حجرية وبها اقامة العساكر السلطانية ومنظرها الطبيعى جميل للغاية ولا تشاهد فى میناها الاسفنا راسية وسفنا قادمة وأخرى راحلة بين حربية وتجارية من كل نوع غير ان الكثير من مبانيها غير منتظم ولكثرة الجداول التى تروى أراضيها الجيدة كثرت بها البساتين النضرة والكروم وبها من الآثار بقايا قلعة على قمة جبل باغوس من بناء الجنوبزيين وهذه المدينة من أوسع المدائن الواقعة على البحر المتوسط الابيض تجارة تقصدها التجار من البر والبحر ومن متاجرها الحرير والقطن والصوف وشعر الماعز والطنافس والبسط والتين والزبيب والعقاقير وبعض المجوهرات وغيرها قال بعض المؤرخين ان بانيها هو طانطال ملك سيبيل المنسوبة اليه المقابر الموجودة على التلال الشمالية منها وذهب هيرودوتس ان الايوليين اسسوها سنة ١٠١٥ ق م ثم اغتصبها الكولوفونيون ثم استولى عليها الليديون (٦٣٨ ق م) وخربوها وقصد اسكندر الكبير أن يجعلها مثل الاسكندرية أهمية فنقلها على شاطئ البحر ثم أخذها ملوك برغامس ثم الرومان ثم الجنوبزيون ثم فرسان رودس ثم استولى عليها السلاجقة (٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م) ثم حاصرها أسطول القسطنطينية تحت قيادة جان دوكاس فأستولى عليها سنة ١٠٩٧ م فاخضعها ثانية للسلطنة اليونانية ثم فتحها العثمانيون (٨٢٨ هـ ١٤٢٤ م) فى عهد السلطان الغازى مراد الثانى وهى مسقط رأس أوميروس الشهير وكان له فيها هيكل وبقربه هيكل أسكولابيوس إله الطب وبها ولد أيضا بيون وكينتوس وكانا شاعرين وهى الآن مقر تجارة آسيا الصغرى ويخرج منها خط حديدى عظيم يمر بمعدن مهمة

وميديللى أو ميتلين وهى قاعدة الجزيرة المضافة اليها واقعة على الشاطئ الشرقى وكان بها قديما مبان شهيرة خضعت مع بقية الجزيرة للاثينيين ثم خرجت عليهم (٤٢٨ ق م) مدة حروب بيلوبونيز

فاستردها الاثينيون بالقوة (٣٥٦ ق م) ولما ظاهرت متريدات الكبير أغار عليها الرومان وخربوها (٨٦ ق م) ثم جددها پومپيوس أما جزيرة ميديللي المسماة قديما لسبوس فانها من أعظم جزر بحر إيجي واقعة بالقرب من سواحل آسيا الصغرى وكانت ذات شهرة عظيمة قديما لجودة هوائها وحسن حنطتها ونبيذها وغير ذلك وكان بجبالها غابات كثيرة ومقالع للرخام شهيرة وشاطئها الغربي قاحل الآن بخلاف شاطئها المطل على آسيا فيكثر به الغابات اللطيفة وأشجار الزيتون والكرم والبرتقال وغيرها ويقال ان سكانها الاولين من أمة البيلاج وفي زمن حرب تروادة دخلت هذه الجزيرة في قبضة الملك بريام آخر ملوك تروادة وبعد ذلك بنحو قرن استولى عليها الايوليون ومنها انتشروا على جميع ساحل آسيا وأسسوا به عدة مدن قوية أحدثت باتحادها مع مدن لسبوس المعاهدة الايولينية وبعد زمن طويل امتدت الفوضى بتلك الجزيرة واستقلت كل مدينة بها الى أن نصب الاهالى عليهم ملكا واحدا وقد استولى الفرس عليها في أول حكم كيروش وكانت تقدم لداراوا كسرسيس سفنا في حربهما اليونان ثم استقلت ثم دخلت بالقوة في اتحاد أثينا ثم ثارت في أول حروب بيلوپونيز تريد الانضمام لاهل اسبارطه (٤٢٨ ق م) وعند ذلك أخضع الاثينيون مدينة لسبوس وقتلوا من سكانها أزيد من ألف نفس وخربوا أسوارها واستولوا على أساطيلها ومستعمراتها ثم أخضعها اللقدمونيون بعد انتصارهم (٤٠٥ ق م) وقد تمكنت هذه المدينة من حفظ استقلالها زمنا أثناء وقوع المخاصمات بين لقدمونيا وأثينا ثم أخضعها اسكندر الكبير ثم الرومان وقد خرج منها كثير من المشاهير بين رجال ونساء وبقيت تابعة للدولة الشرقية حتى زمن الحملة الصليبية الرابعة حيث دخلت ضمن بلاد الدولة اللاتينية ثم أخضعها اغريق نيقية (١٢٤٧ م) ثم وقعت في قبضة الجنويزين وبقيت في يدهم الى سنة ٨٦٧ هـ حينما استولى عليها السلطان محمد الفاتح وهي الآن احدى اللوآت الست المكونة لايالة الجزائر وقد وجدوا بها عدة آثار قديمة وبشواطئها عدة فرض تجارية منها كولونيا ويكي ليمان وزيتون ومحيط هذه الجزيرة يبلغ مائة ميل ومتوسط عرضها ٢٥ ميلا وطولها ٢٦ ميلا وعدد نفوسها ٤٠٠٠ نفس ومن العوائد عندهم ان للنساء النفوذ التام على الرجال

ادرميد وتدعى قديما أدرميتوم وهي فرضة على الساحل الشرقي من الخليج المسمى باسمها تبعد ١١٥ كيلومترا عن ازمير الى الشمال في مقابلة جزيرة ميديللي أسسها جالية الاثينيين وهي حسنة الموقع ترويها عدة أنهر وقد صار الآن بينها وبين البحر مسافة أكثر مما كان قبل لان الرمال التي تجلبها الانهار معها ردمت قسما عظيما من البحر وفي نواحيها جبل يسمى قازطاغ به غابات من الصنوبر وغيره يستخرج منها القطران والزفت وأهم تجارتها الصوف وشعر المعزى والزيتون والعفص وتنسب اليها السفينة الادرميتينية التي سافر فيها بولس الرسول وجماعة من الاسراء الى ايطاليا

ساقز أو جزيرة المصطكى وهي جزيرة جبلية عظيمة الخصوبة واقعة قريبا من الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى وتبعد نحو ٨٨ كيلومترا من غربي ازمير يفصلها عن ساحل الاناضول مضيق يدعى مضيق ساقز مساحتها ٥٠٨ أميال مربعة وأكبر عرض لها يبلغ ١٨ ميلا وعدد سكانها

٦٢٠٠٠

٦٢٠٠ نفس وقاعدتها ساقز فى شرقى الجزيرة عند منتصف المضيق المذكور بها قلعة حصينة وسكانها ١٥٠٠٠ نفس جميلة المنظر للغاية كثيرة الغابات والاشجار المثمرة خصوصا شجر الليمون والمصطكى ولها فرضة صغيرة لاتسع الا المراكب الصغيرة جدا والسفن البخارية والشراعية الكبيرة ترسو بها امام القلعة فى المضيق المذكور على ربع ميل من المدينة ولها تجارة واسعة يصدر منها الحرير والقطن والصوف والفواكه والزيت والخمر والمصطكى وكان يسكنها قوم من البيلاج والمقدونيين ثم جاءها قوم من الاغريق وبها نشأ أوميروس الشاعر اليونانى وغيره وقد اشتهر أهاليها من القديم فى سلوك البحار فكانت لهم فيه صولة واقتدار غزاها الفرس (٤٩٤ ق م) وخربوها وبعد واقعة ميكالى انضمت الى الاتحاد اليونانى (٣٧٩ ق م) ثم استقلت (٣٥٨ ق م) ثم أخذها اسكندر الاكبر ثم فتحها الرومان ثم انتقلت للدولة الشرقية الرومانية ثم فتحها الجنويزيون ثم استرجعتها حكومة القسطنطينية ثم أخذها العثمانيون وهاجمها البنادقة (١٦٩٤ م ١١٠٤ هـ) واستولوا عليها فطردهم العثمانيون منها كما سيأتى ذلك مفصلا وفى سنة (١٨٨١ م - ١٢٩٩ هـ) حصلت بها زلزلة شديدة تسبب عنها خسائر جمة

وچشمه وتسمى قديما سيستوس وهى مدينة حصينة من تركية آسيا بولاية آيدين لها فرضة عظيمة جميلة واقعة فى منتهى خليج من بحر الارخبيل وهى امام جزيرة ساقز تبعد عن أزمير بنحو ٦٥ كيلومترا من الجنوب الغربى وسكانها ٦٠٠٠ نسمة وبالشمال الشرقى من ضواحيها ينابيع كبريتية تسمى أيليجة يقصدها بعض الناس للاستحمام وقد دمر الرومان امامها سنة ١٩٣ ق م أساطيل انطيوخس الكبير وأحرق الانكليز والموسكوف بفرضتها تحت قيادة الاميرال الفنستون والاميرال الكسيس أورلوف عمارة العثمانيين التى كانت تحت قيادة القبودان حسام الدين باشا (١١٨٤ هـ - ١٧٧٠ م) ولهذه المدينة تجارة واسعة بالسفن الشراعية بينها وبين جزيرة ساقز

وقوش اطه سى وكانت تدعى قديما نيوپوليس وتسمى الآن أسكله نوفا وهى فرضة عظيمة من ولاية آيدين واقعة على جون ينسب اليها تبعد ٦٦ كيلومترا عن أزمير الى الجنوب سكانها ١٨,٠٠٠ نفس ولها تجارة واسعة فى الحبوب والبن والارز والثمار والصوف وخلافه وهى آخذة فى التقدم ويظن أنها تخلف مدينة أفسوس فى الاهمية التى كانت لها زمن الرومان

وسيسام وتدعى أيضا ساموس وهى من جزائر الارخبيل واقعة غربى آسيا الصغرى يفصلها عنها مضيق يدعى ميكال عرضه لايتجاوز الميل وطولها ٢٥ ميلا من الشرق الى الغرب ومعظم عرضها ١٢ ميلا ومحيطها ٧٠ ميلا ويخترقها من الغرب الى الشرق سلسلة جبال شامخة تدعى امپيلوس طرفها الغربى المسمى كركى شاهق يبلغ ارتفاعه ١٤٨٠ مترا وهى عرضة للرياح الشديدة الشمالية وللابخرة المضرة بالصحة لان أهاليها قطعوا غالب غاباتها وتركوا بذلك المياه تأسن بالاودية وسكانها ٤٥,٠٠٠ نفس أكثرهم أروام وقصبتها تدعى واتى أوفاتى بالشمال ولها مينا جيدة وميغالى خورا بالجنوب وهاتان المدينتان هما الآن أعظم ثغورها ومدنها الآن ميناء ميغالى خورا عرضة للرياح الشمالية ولذا كانت كثيرة الامواج ومدينة ساموس قاعدة هذه الجزيرة قديما بنيت على ماقيل سنة ألف قبل الميلاد ومرفأ سيسام أمين جدا وبهذه الجزيرة عدة فرض أخرى جيدة وقد اشتهرت قديما بخصب أرضها ومن حاصلاتها الحلبة والمحمودة والزيتون

والعنب والحبوب والحرير والقطن والتين والزيت والخمر الفاخر المعروف بموسكات والرمان والبرتقال والليمون ويتردد على ميناها كثير من السفن التجارية وفيها معادن كثيرة من المرمر والحديد والرصاص والذهب والفضة والزمرد لكنها لا تستغل وكان لهذه الجزيرة قديما شهرة عظيمة وفيها آثار كثيرة وهى مسقط رأس فيثاغورس الفيلسوف وغيره واشتهر أهلها فى القرن السادس قبل الميلاد بالسير فى البحار اليونانية وفاقوا بقوتهم البحرية سائر الامم المجاورة لهم وبعد وفاة پوليكراتس الذى اختلس حكومتها (٥٣٢ - ٥٢٢ ق م) أخضعها الفرس ثم استقلت لما انتصرت على عمارة كسرى البحرية فى خليج ميكال المذكور ثم خضعت لأثينا (٤٤١ ق م) ثم استولى عليها ليساندر (٤٠٣ ق م) ثم أعيدت للفرس (٣٨٧ ق م) بمعاهدة انتالكيداس ثم رجعت لاثينا وانضمت بعدها لمملكة برغامس ثم أخذها الرومان (١٣٩ ق م) واستولى عليها العرب وتركوها بعد مدة ثم استولى عليها البنادقة ثم الجنويزيون ثم فتحها العثمانيون (٩٥٧ هـ ١٥٥٠ م) وفى سنة ١٨٢٤ م منحتها الدولة بعض امتيازات عند استقلال اليونان لاشتراكها فى الثورة اليونانية وذلك بمساعدة دول أوروبا ومنها ان يكون الوالى يونانيا وان تدفع للدولة سنويا ٤٠٠٠ ليرة عثمانية وقد أحدثت بعد مصادقة الدولة العثمانية سنة ١٨٥٢ م حكومة دستورية ومجلس أعيان ومجلس نواب وبالجزيرة حامية عثمانية والى غربيها جزيرة نيكاريا وهى جيدة التربة وفيها كثير من أخشاب البناء وفى ساحل الاناضول المقابل لجزيرة سيسام مواقع كثيرة لرسو السفن وكثيرا ما يتردد عليها المراكب الشراعية تنقل منها المحصولات الى الفرض الكبيرة المجاورة لها

وباتنوس او باتموس لها فرضة صغيرة لا تسع الا السفائن الصغيرة والسفن الكبيرة التى تقصدها ترسو أمام المدينة وهى واقعة شرقى الجزيرة الواقعة بالجنوب الغربى من جزيرة سيسام على بعد ٢٠ ميلا منها ولهذه الجزيرة نفى يوحنا الرسول وفيها كتب كتاب الرؤيا وعدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة

وليروس وهى جزيرة قريبة من سواحل الاناضول وبها مدينة تسمى باسمها ذات فرضة عظيمة واقعة على الشاطئ الشمالى منها أما الجزيرة المذكورة فجبلية ومن حاصلاتها العسل والضأن الجيد ولا يزيد عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نفس وتبعد عن تينوس نحو ١٦ ميلا الى الجنوب الشرقى

واستانكوى وهى جزيرة ويقال لها كوس أو قوص وهى من أشهر جزائر بحر الارخبيل واقعة عند مدخل خليج سيراميك وفرضتها المسماة باسمها واقعة على رأس الجزيرة من جهة الشرق والجزيرة المذكورة ممتدة من الشرق الى الجنوب الغربى على طول ٢٣ ميلا ومسطحها ٢٥٠ كيلومترا وهى تجاه رأس كريو دبين جزيرتى يسارا وكالمنو وتقرب الى ساحل آسيا الصغرى فى رأس الجون المنسوب اليها محيطها ٦٥ ميلا وسكانها ١٥٠٠ نفس ويتردد على ميناها كثير من السفن التجارية وتعد من المراكز التجارية صادراتها الحبوب والخمر والقطن وبها ملاحات ويتصدر منها الى مصر الاثمار خصوصا العنب والخمر وهواؤها جيد وتربتها خصبة كان بها سابقا هيكل اسكولاب وهيكل الزهرة ومدرسة طبية شهيرة وقد استعمر الايونيون هذه الجزيرة ودخلت فيما بعد فى الاتحاد الدورى ونالت حريتها فى مدة الامبراطور كلوديوس الرومانى ثم ضمت الى الامبراطورية الرومانية فى عهد

قسبنيانوس ثم استولى عليها فرسان رودس ثم فتحها العثمانيون وهى وطن أبقراط

ويودروم وهى فرضة تجارية امام استانكوى على ساحل الاناضول ينقل منها كثير من المحصولات الى استانكوى على مراكب شراعية للاهالى

ومرمريس وهى مدينة صغيرة على ساحل الاناضول واسعة المرفأ أمينة جدا محيطها الداخلى ينيف على ٢٠ ميلا واقعة تجاه جزيرة رودس ولها تجارة قليلة ويقصدها كثير من السفائن الشراعية الكبيرة التى تحتمى اليها من الزوابع وقد رست بها الدونانمة المصرية بما فيها من الجنود التى كانت تحت قيادة المرحوم ابراهيم باشا لاخضاع بلاد اليونان (١٢٣٩ ﻫ ١٨٢٤ م) وكانت تلك العمارة مركبة من ٨٠ سفينة بين حربية ونقلية وبقرب مرمريس الى الجنوب فى داخل خليج مكرى جملة مراسى صالحة لرسو السفائن

رودس وهى قاعدة الجزيرة المسماة باسمها واقعة على الشاطئ الشمالى الشرقى مبنية على شكل نصف دائرة واقعة على جون بين رأسين من الارض محاطة باسوار وأبراج قديمة من بناء فرسان مارى يوحنا الذين انتزعها المرحوم السلطان سليمان منهم ولها مرفآن يفصلهما رصيف ضيق وكان بها فى الطرف الشمالى الغربى من مرفئها قصر رئيس الفرسان الاكبر وهو بناء جميل شاهق تكمل خرابه فى زلزلة سنة ١٨٦٣ م وليس بهذه المدينة آثار قديمة سوى مركز فرسان مارى يوحنا وقلعة كبيرة منيعة ذات خنادق وهذه المدينة هى مقر الوالى العام لولاية جزائر بحر سفيد أى البحر الابيض وعلى مدخل الميناء الصغيرة برج كان عليه صنم ابولون المشهور بصنم رودس النحاسى المبنى من أدوات الحرب التى تركها ديمتريوس پوليوكريت أحد خلفاء اسكندر وكان من عجائب الدنيا السبع وقد تقدم وصفه فى صحيفة ١٨٩ من هذا الجزء وقال استرابون ان رودس تفوق كل المدن لحسن مركزها واتساع شوارعها لكنها غير نظيفة كما ينبغى واحسن ما فيها الابنية العظيمة القديمة عليها صور ونقوش وكتابات ويظهر انها على مثال أبنية مدينة دلف اﻫ - وقال بعضهم انه كان بها قديما نحو ثلثمائة تمثال ويتردد الآن على ميناها كثير من السفن التجارية والشراعية بين عثمانية واجنبية أما جزيرة رودس فهى من الجزر المهمة بيضاوية الشكل طولها نحو ٧٠ كيلومترا ومتوسط عرضها يبلغ ٢٣ كيلومترا ومسطحها ١٤٦٠ كيلومترا وسكانها ٣٥,٠٠٠ نفس منهم ٢٦٥٠٠ من الاغريق ويفصلها عن القارة مضيق يبلغ عرضه نحو ١٢ كيلومترا ويخترقها من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال أرفعها جبل ارتاميراو ير ويها عدة نهيرات أشهرها نهر فيسكا واشتهرت هذه الجزيرة قديما وحديثا بجمال منظرها وجودة هوائها وكثرة نباتاتها ويخرج منها أنبذة جيدة وثمار معتبرة وقد التفت أهلها الآن لاشجار الزيتون فزرعوا منه قدرا عظيما ويصطاد الاسفنج من شواطئها وأرضها بركانية وقد حدثت بها عدة زلازل قوية أشهرها زلزلة سنة ١٨٦٣ م التى خربت نحو ٣٠٠٠ منزل ويظهر بها الجراد فى بعض السنين فيخرب مزروعاتها وكانت هذه الجزيرة تسمى قديما كاريا وأتابيريا ثم دعوها رودس وهو لفظ يونانى معناه الورد لما ينبت بها من أشجاره الكثيرة ويقال ان أول من سكنها قوم يقال لهم التيلشين اشتهروا بالصنائع والملاحة والغالب انهم من الفينيقيين ثم خلفهم قوم آخرون يقال لهم هلياد أى أولاد الشمس

وربما كانوا من الفينيقيين أيضا فاسسوا بها عدة مدن ثم نزلها البيلاج أتى اليها بعضهم من جزيرة لسبوس وبعضهم من بلاد تساليا وأخيرا نزل بها الدوريون الذين انضموا الى آخرين من جنسهم وأحدثوا بها حكومة متحدة وقد اشتهر واوقوى أمرهم بما كان لهم من السفن العديدة التى نشرت تجارتهم فى أنحاء كثيرة وأسسوا عدة مستعمرات بايطاليا وفرانسا وصقلية وكيليكيا وبالجزائر الصغيرة المجاورة لرودس ثم ان دارا ملك الفرس أخضع هذه الجزيرة ولم تخلص من سلطتهم الابصلح سيمون (٤٤٩ ق م) وبعيد ذلك اعترفت لاثينا بحق الرياسة وفى سنة ٤١٢ ق م دخلت ضمن معاهدة اسبارطة ثم انضمت الى أثينا (٣٧٧ ق م) ثم انها نالت حريتها تماما ثم أخضعتها أرطميس ملكة بلاد كاريا (٣٥٥ ق م) ولم تمكث على ذلك الاقليلا لانها نالت استقلالها بمجرد موت الملكة المذكورة بتداخل الاثينيين لخلاصها (٣٥٤ ق م) بتحريضات ديموستين ثم ان رودس خضعت لاسكندر المقدونى فاحسن معاملتها ومن هذا العصر صارت أول مملكة بحرية بين ممالك اليونان بسبب انحطاط أثينا ولما مات الاسكندر قام الرودسيون وطردوا عساكره واتحدوا مع بطليموس ملك مصر وبذلك أثارت عليها غضب أنتيغون ملك ليديا فأتى ابنه ديمتريوس بوليوكريت وحاصرها حصارا اشتهر ذكره فى التاريخ القديم (٣٠٥ - ٣٠٤ ق م) ثم اتحدت مع رومية ضد فيلبش المقدونى وضد انطيوخس ملك سوريا (١٩١ ق م) واكتسبت بعد هزيمة هذين الاميرين النصرة على أسطولين واستولت على بلاد ليسيا وقسم من كاريا الأن مجلس السناتو برومية أساء الظن فى اخلاص أهلها فانتزع منهم هذه الاملاك المذكورة (١٦٧ ق م) ثم انها قاومت متريدات مقاومة عنيفة الأن سيلا وسيزار وقيصر أحسنوا معاملة سكانها فى مدة حكمهم ثم ان القنصل كاسيوس أخضعها لامتناعها عن اعانته بالسفن (٤٢ ق م) ونهب عاصمتها ولما تولى انطوان رفع عنها الخراج واعتبرها مملكة ذات استقلال داخلى ثم ان كلوديوس نزع منها هذا الامتياز (٤٤ م) ولما أتى دسياسيوس حرمها مما كان بقى لها من الامتيازات وضمها الى جزيرة ساموس والى غيرها من الجزر المجاورة لها وكون منها جميعا اقليما تسمى باقليم الجزائر وجعل مدينة رودس عاصمة له ولما دخلتها الديانة النصرانية صارت رودس قاعدة لجميع أسقفيات جزائر سكلادة وكانت هى تابعة لبطريرك القسطنطينية ثم ان العرب أغاروا عليها (٦٥٦ و ٧١٣ و ٨٠٧ م) وضربوا عليها جزية وأدخلوا بها عناصر التمدن واستنبتوا بها كثيرا من النباتات وفى أوائل القرن الرابع عشر من الميلاد كانت مقسومة بين امراء من الاغريق والعثمانيين وفى هذا الوقت استولى عليها فرسان القديس يوحنا (١٣٠٩ م) عندما اضطروا الى اخلاء أورشليم وتمكنوا أثناء اقامتهم بها من رد هجمات العثمانيين (١٤٤٤ و ١٤٨٠ م) الا انهم ألجؤا الى مبارحة الجزيرة نهائيا بعد أن قهرهم السلطان سليمان القانونى مدة رئيسهم فلارى لتعديهم على سفن التجارة والحجاج (٩٢٨ هـ) ومن هذا الوقت بقيت فى يد العثمانيين يخفق عليها علمهم الى الآن

وترستوية وهى فرضة بجزيرة كربه القريبة من رودس واقعة فى الرأس الشمالى الى الغرب منها وعمق الماء فى داخل الفرضة المذكورة يبلغ أربع قامات ونصفا

وسنت اندريا وهى فرضة واسعة أمينة للغاية واقعة فى غربى بندر جزيرة استرو باليا وفم

بوغازها

بوغازها الى الشمال وهذه الجزيرة واقعة غربي جزيرة استانكوى على مسافة ٢٠ ميلا منها

وباغلب الجزائر الصغيرة التابعة لولاية بحر سفيد العثمانية التي لم نتعرض لذكرها لعدم أهميتها كثير من الفرض الصغيرة يصلح بعضها لرسو السفن والبواخر الكبيرة

وأضاليا أو نطاليا أو نتاليا فرضة واقعة على رأس خليج منسوب اليها في ساحل جنوب آسيا الصغرى وهي من ولاية قونية عدد سكانها يزيد عن ١٢٠٠٠ نفس وهي مدينة حصينة مبنية على صخور على شكل مدرج ويحيط بها أسوار محصنة بابراج مربعة أشرفت الآن على الدمار ومن صادراتها الصوف والقطن والزيتون والخشب والملح والقطران والحبوب والشمع والماشية وبها آثار قديمة ويقال ان أتالس فيلادلف ملك برغامس اختطها فسميت اتالة ثم حرفت الى اسمها الحالي ويقال ان بولس الرسول قد سافر منها الى انطاكية

علائية أو ألانية وهي فرضة تجارية واقعة على رأس ممتد في البحر على الساحل الشرقي من خليج أضاليا أمينة يقصدها كثير من السفن التجارية الشراعية تصدر منها الفواكه والاخشاب للعمارات والحريق وأغلب الساحل الشمالي من هذا الخليج صالح لرسو السفن ومنه تشحن الاحطاب ولكنه غير أمين اذ يشتد فيه هبوب الرياح الغربية وتؤثر فيه الزوابع تأثيرا خطرا على السفائن

سلامين وهي ثغر تجاري بجزيرة قبرس على الشاطئ الشرقي منها أسسها أحد أولاد ملك جزيرة سلامين التي بخليج سلانيك وقد أخضع هذه المدينة والجزيرة الملك أموزيس ملك المصريين (٥٥٠ ق م) ثم استولى عليها قمبيز الفارسي (٥٢٥ ق م) وأبقى لها ملوكها الوطنيين وحريتها الداخلية بشرط أن تجعل أساطيلها وجنودها في تصرفه ثم انها نالت حريتها في صلح مدينة سيتيوم (٤٤٩ ق م) ثم ان أحد الفينيقيين المتعصبين للفرس ثار وخلع ملكها ابدعون وأجلس مكانه آخر يدعى ايفاغوراس من عائلة أخرى (٤١١ ق م) فاخضع كل الجزيرة تقريبا ماعدا ثلاث مدن فانها تعصبت وطلبت من ارتخشيارش الثاني ملك الفرس خلاص الجزيرة من يد هذا الطاغية فسير اليها جيشا خلع ايفاغورس المذكور وجعله حاكما على سلامين بشرط ان يدفع لهم جزية (٣٨٥ ق م) وسار خلفاؤه من بعده على هذه الشروط لاسكندر المقدوني (٣٣٠ ق م) ولبطليموس (٣١١ ق م) ولدمتريوس پوليوكريت (٣٠٧ ق م) ولما أخضع بطليموس هذه الجزيرة ثانية (٢٩٥ ق م) محا جميع ما بها من الممالك الصغيرة وصارت سلامين قاعدة لكل الجزيرة ومقاما للحاكم المعين من طرف ملك مصر ثم صارت مقاما أيضا للحاكم الروماني حينما انضمت هذه الجزيرة بناء على ما عرضه كلودوس الى أملاك الجمهورية وقد خربت الزلازل هذه المدينة مدة قسطنطين فجددها ودعاها قسطنطيا ثم ان العرب أخضعوها هي والجزيرة مدة هرقل وذكر مؤرخو اليونان أن مرفأها كان جيدا وهي أول مكان نزل به بولس وبرنابا في سياحتهما الاولى

ولارناكا وهي احدى ثغور جزيرة قبرس البحرية واقعة على الشاطئ الشمالي الشرقي على بعد ٣٠ كيلومترا من الجنوب الشرقي من لفقوشة (نيقوسيا) سكانها ٥٠٠٠ نفس

تجارتها الحبوب والقطن والحرير والانبذة وبها املاحات مهمة وبها تقيم قناصل الدول الاجنبية وتجار الفرنج

وليماسول وهي احدى ثغور جزيرة قبرس واقعة على الشاطئ الجنوبي الشرقي تبعد ٧٠ كيلومترا من جنوبي نيقوسيا والهامر فأصغير وتشتهر بالانبذة وبها آثار قديمة ويتردد عليها سفن كثيرة

وفماغوستا وكانت تسمى قديما ارسنوى وهي احدى الثغور البحرية من جزيرة قبرس أيضا على الشاطئ الشرقي منها تبعد ٣٧ كيلومترا من لفقوشة وقد طمست الرمال الآن مرفأها أسسها ارسنوى أخت بطليموس فيلادلف ملك مصر وقد تتوج بها غووى دولو زنيان ملكا على قبرس (١١٩١ م) ثم استولى عليها الجنويزيون (١٣٧٢ م) ثم البنادقة (١٤٨٩ م) ولما ألقى عليها السلطان سليم الثانى الحصار قاومته زمنا ثم أخذها عنوة (٩٧٨ ه) وكان عدد سكانها اذ ذاك ٧٠,٠٠٠ نفس وقد خربتها زلزلة (١٧٣٥ م) وهي الآن قليلة السكان كثيرة الاطلال وقد شرع الانكليز بعد احتلالهم لها في اصلاح ميناها ويتردد عليها الآن سفن تجارية كثيرة

أما جزيرة قبرس المذكورة فهي من أكبر جزائر البحر المتوسط الابيض احتلها الانكليز سنة (١٨٧٨ م) على شروط معلومة بينهم وبين الدولة العثمانية بينها وبين ساحل الاناضول نحو ٦٥ كيلومترا وتبعد عن اللاذقية بنحو ١٠٤ كيلومترات وعن كريد ٥٣٠ كيلومترا الى الشرق ويبلغ طولها نحو ٢١٠ كيلومترات وأكبر عرض لها يبلغ ٨٠ كيلومترا وقاعدتها نيقوسيا وتسمى عند العثمانيين لفقوشة وعدد سكان الجزيرة ١٨٦,١٠٠ نفس منهم أكثر من ٥٥٠٠٠ من المسلمين ويقال انه كان بهذه الجزيرة من السكان قبل الفتح العثماني نحو ٤٠٠٠٠٠ نسمة وشواطئها كثيرة التلسنات وبها عدة رؤس ويخترقها سلسلة جبال شاهقة كثيرة الغابات أرفعها جبل سنت كرواعليه أديرة اغريقية غنية جميلة ويرويها وديان تجف في فصل الصيف ومناخها جيد معتدل في الشمال ويشتد البرد في جبالها شتاء وصيفها شديد الحرارة في الجنوب وكان بها في القديم معادن ذهب وفضة ونحاس خصوصا ومنه اسمها وقد اشتهرت سابقا بالخصوبة أما الآن فلا يزرع منها الا القسم القليل ومن حاصلاتها الحنطة الجيدة والزيت والقطن والقنب والتوت والتبغ والخروب والثمار والانبذة وقد اشتهرت بذلك في كل عصر ومن حيواناتها البغال والحمير والنعاج والمعز والنحل وأصل القنبيط من هذه الجزيرة وكانت مقسومة الى ثلاثة صناجق وقت أن كانت في حكم العثمانيين وقد احتل هذه الجزيرة الفينيقيون والاغريق من أزمنة طويلة وكان بها الى وقت استيلاء الفرس عليها تسع ممالك صغيرة اشتهرت بخصوبتها وكثرة حاصلاتها النباتية ولم يتمكن الاغريق تحت قيادة بوسانياس وسيمون من نزعها من يد الفرس ثم خضعت لاسكندر المقدوني ثم استولى عليها الرومان من البطالسة (٥٨ ق م) وقال استرابون ان سكانها كانوا يبلغون ١٠٠٠,٠٠٠ نسمة وبعد تجزئة دولة الرومان صارت قبرس من نصيب الدولة الشرقية وكان حكامها من العائلة الملوكية وفي سنة ١١٨٢ م استقل فيها اسحق كومنين

وبعد أن مضى على حكمه تسع سنوات انتقلت الجزيرة الى عائلة لوزنيان وبقيت تابعة لهم الى سنة ١٤٨٩ م ولما استولى عليها البنادقة بعد ذلك انتزعها منهم العثمانيون (٩٧٩ هـ) وقد احتلها محمد على باشا والى الديار المصرية (١٢٤٨ هـ) الا انه اضطر عقب ذلك بقليل للخروج منها وبعد مؤتمر برلين احتل الانكليز هذه الجزيرة من العثمانيين وعقدوا معهم اذ ذاك شروطا سنة ١٨٧٨ م بدعوى حماية بلاد الاناضول من هجمات المسقوف وقد اكتشف بها علماء العاديات آثارا قديمة مهمة جدا منها انقود علم منها ان أهل هذه الجزيرة كان لهم فى أزمنة قديمة جدا حروف هجائية مخصوصة ويوجد بدار تحف اللوفر ونيويورك ولوندره والاستانة جملة آثار قديمة استخرجت من هذه الجزيرة

وطرسوس وتسمى قديما طارس وهى قاعدة لواء من ولاية اطنة (اذنه) على نهر قره صو المسمى قديما سيدنوس عند مصبه فى البحر سكانها نحو ثلاثين ألف نفس ويحيطها بساتين واسعة والمدينة الحديثة تشغل أقل من ربع مكان المدينة القديمة ومن صادراتها القطن والعفص والصوف والنحاس وغير ذلك وكانت من أعظم المدن ومحطا عظيما للتجارة ولا سيما عقد بها انطوان مجلسا للنظر فى الاختلافات التى كانت حصلت بين كليوباتره وأخيها بخصوص تاج مصر وكانت مدة الرومان اشتهرت على أثينه والاسكندرية بمدارسها وصارت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قاعدة لبلاد كليكيا وبها ولد بولس الرسول واستخرجت منها آثار نفيسة بدار تحف الاستانة الآن قال أبو الفداء طرسوس مدينة مشهورة كانت ثغرا من بلاد الروم على ساحل البحر الشامى وقال ابن حوقل طرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة وهى فى غاية الخصب وبينها وبين حد الروم جبال هى الحاجز بين الروم والمسلمين اهـ وهى تضاهى اسكندرونة فى رداءة المناخ

واسكندرونة واقعة الى الشمال من انطاكية تبعد عنها ٢٣ ميلا وهى على ريف البحر على الجانب الشرقى من جون يسمى باسمها وهى بقضاء بيلان من ولاية حلب وتبعد ٦٢ ميلا عن حلب الى الغرب عدد سكانها ٢٥٠٠ نفس وقد ترقت كثيرا فى السنين الاخيرة أمام فوهها فواسع يبلغ عمق المياه به الى عشر قامات ولما كانت هذه المدينة ثغر التجار بالحلب وانطاكية بل ولجميع المدن الواقعة ببلاد بين النهرين والجزيرة والعراق كانت من أشهر الفرض التجارية العثمانية وتجارتها الحبوب والزيت والصابون والعفص والحرير والصوف والقطن والتبغ وبها آثار قلعة قديمة وقد شيد هذه المدينة اسكندر المقدونى تذكارا لانتصاره على دارا الثالث (٣٣٣ ق م) فى شمال سهل كان يسمى اسوس أما خليج اسكندرونة المسمى قديما سينوس اسيكوس فهو جون من البحر المتوسط يتصل به من الجنوب رأس الخنزير ومن الشمال قره طاش برون وهو مرفأ أمين للسفن التى ترسو به وأعمق المياه فيه لا يزيد عن ٥٠ قامة وترسو السفائن فى أغلب الاوقات فى الجهات التى عمق مياهها يبلغ خمس قامات وجميع الساحل بقرب راس قره طاش صخرى على امتداد ميلين ويوجد شمال الجون المذكور مياه عذبة

والسويدية واقعة على مصب نهر العاصى على بعد ميلين من جنوبى مدينة سلوقية القديمة التى أسسها سلوقيوس نيكاتور ومن صادراتها الحرير والحبوب ولها مع حلب تجارة رائجة وسكانها يبلغون ٨٠٠٠ نسمة

وميناء القبان صالحة لرسو السفن وتقصدها السفن فى الغالب متى هبت رياح الجنوب الغربى الصيفية الشديدة وبينها وبين اللاذقية تجارة

واللاذقية وهى تبعد عن البحر بنحو ميل وفرضتها غير مأمونة ترسو السفن الشراعية والبخارية التجارية أمامها فى مكان عمق المياه به يبلغ عشر قامات وهذه المدينة بناها الملك سلوقيوس نيكاتور وسماها على اسم أمه وهى على الشمال الغربى من رأس داخل فى البحر وبين المدينة والميناء نحو نصف ساعة وفيها آثار وأبنية قديمة وكانت اللاذقية من المدن المعتبرة فى الزمان القديم وكانت مقاما للتنوخيين أمراء تلك الاعمال وهى من القديم ثغر تجارى ومن متاجرها الآن التبغ والحرير والقطن والسمسم والحنطة والشعير والذرة والزيت والعسل والسمن والشمع والصوف وأهلها يبلغون نحو ٤٠٠٠ نفس وقد حصل فيها سنة ١٧٩٦ م زلزلة خربت منها جزأ عظيما وقد أخذت حالتها العمومية تترقى الآن

وابو جلف وهى فرضة واقعة فى شمالى طرسوس ويرى من آثارها أنها كانت قديما فرضة عظيمة وبها جملة زوارق وسفائن شراعية للاهالى

وطرطوس المسماة قديما انترادوس ومعناه قبالة ارادوس أى جزيرة رواد ووردت فى كتب العرب باسم انطرسوس وهى الآن قريبة من الخراب أهلها لا يزيدون عن ٦٠٠ نفس يسكنون فى بيوت داخل قلعة واسعة ويقال ان القلعة المذكورة من بقايا الفينيقيين القدماء وهى على رأس جبل يرتفع بنحو ٦١ قدما عن سطح البحر وتشاهد من الساحل بمنظر حسن

أما جزيرة رواد المقابلة لهذه المدينة المسماة قديما ارادوس فهى جزيرة صخرية ارتفاعها ٧٩ قدما عن سطح البحر واقعة على بعد ميلين من الجنوب الغربى لطرطوس طولها ٨٠٠ يارده ومحيطها ١٥٠٠ خطوة فيها كثير من بقايا أبنية الفينيقيين القدماء صار بينها وبين الساحل الآن مرسى أمين للسفن التجارية الكبيرة وليس فيها ماء الاما يجمع من الآبار من ماء المطر وترسو السفن العظيمة فى شمال الجزيرة بمكان عمق الماء به ست قامات وأهلها الآن قلائل أكثر أعمالهم فى البحر وقد اشتهروا سابقا فى سلوك البحار وأصلهم من صيدا ويقال ان قلعتها عملت للمحافظة على سكانها من لصوص البحار

وطرابلس قال أبو الفداء طرابلس مدينة موقعها على طرف داخل فى البحر فتحها المسلمون سنة ٦٩ هـ وخربوها وعمروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها اهـ وهى الآن قسمان المدينة والميناء أما المدينة فعلى جانبى نهر أبى على أو كديشا والمياه دائرة فى شوارعها وأهلها نحو ١٣٠٠٠ نفس وهى فى مكان المدينة القديمة وقيل ان سكانها القدماء من صور وصيدا ورواد لما نزلوها اختط كل قوم منهم محلة على حدتها ثم انضمت تلك الابنية الى واحدة دعيت باسم طرابلس لان معناه فى اليونانية المدن الثلاث وترسو بها السفن فى مكان عمق المياه به سبع قامات وفى دليل المرافئ والملاحة الانجليزى ان السفائن التى تريد البقاء بهذا المرفأ ليلا يلزمها ان لا تستقبل فى مكان يكون عمق المياه به أقل من عشرين قامة لتجنب ما عساه ان يحدث من الاخطار من تغير الهواء ليلا اهـ وليست تجارتها واسعة وصادراتها الحرير والاسفنج والصابون والعفص والتبغ والفواكه ويقال ان الذى بنى قلعتها ريموند الطلوشى (١١٠٣ م) مدة حروب الصليب وكان بها لما حاصرها مكتبة

قد اعتنى بجمعها القاضى أبو طالب حسن اشتملت على ٣٠٠,٠٠٠ مجلد فى جميع العلوم فأحرقها الصليبيون مع علمهم بها وفى سنة ٥٨٤ ﻫ حاصرها صلاح الدين الايوبى ملك مصر فلم يفتحها ثم فتحها جيش مصر (٦٨٨ ﻫ) ثم أخذها منهم ملك قبرس (١٣٦٦ م) وأخرب الاماكن التى على شاطئ البحر الى اللاذقية وعلى رأس اللسان القريب من المناجلة جزائر صغيرة تمتد الى جهة الشمال الغربى على نحو عشرة أميال وعلى الجانب الشمالى من اللسان المذكور ستة أبراج كانت تبنت للمحافظة من مهاجمة الاعداء بحرا

وبيروت مدينة واقعة على سواحل سوريا بالشمال الغربى من لسان طويل داخل فى البحر ومرساها الطبيعى غير أمين ولكونها معرضة للرياح الغربية كانت السفن ترسو فى خليج مار جرجى بالقرب من مصب نهر بيروت وهى هناك أيضا عرضة للخطر اذا عصفت الرياح الشمالية والمدينة على نحو ساعة من هذا الرأس وكان يحيط بهذه المدينة سور وقلاع هدمت بعضها السفن الانكليزية سنة ١٨٤٠ لما أتت لاخراج ابراهيم باشا نجل المرحوم محمد على باشا والى الديار المصرية من بلاد الشام وفيها كثير من الآثار القديمة اختفى أكثرها تحت الاطلال ولذلك كلما حفروا فى أرضها يجدون كثيرا من تلك الآثار وقد ظهر فى بعض الاماكن أبنية لم تزل على حالتها الاصلية تحت التراب وأبنية بيروت حسنة جيدة وماؤها عذب غير أنه قليل بالنسبة لعدد سكانها وهواؤها لطيف حار رطب فى الصيف وهى واسعة التجارة وتعتبر فرضة دمشق ومن أعظم مدن الشام و يتردد عليها سفن تجارية كثيرة وعدد سكانها يزيد عن ٧٥٠٠٠ نفس وهى قاعدة ولاية مضافة اليها وقد اشتهرت فى مدة الرومان حتى ان أغسطس قيصر منحها حقوق المدن الرومانية الاصلية وسماها على اسم ابنته جوليا فيلكس وبنت الرومان فيها جملة مبان فاخرة وفى القرن الثانى اشتهرت بيروت بمدرسة علم الفقه وأتاها الطلاب من اليونان ومصر ثم بعد ما فتحها المسلمون أخذها الفرنج (١١١٠ م) مدة الحروب الصليبية واسترجعها منهم صلاح الدين الايوبى ملك مصر (٥٨٣ ﻫ) ثم أخذها الفرنج ثانية وأخيرا تغلب عليها المسلمون (٦٩٠ ﻫ) وقد مد منها الآن طريق حديدى الى دمشق وقد ازدادت أهميتها التجارية بانشاء فرضتها الحديثة وبهذه المدينة كثير من مدارس الاجانب والحكومة والمطابع والمصانع

وصيدا فرضة من فرض بر الشام وكانت قديما واسعة التجارة التى تحولت الآن الى بيروت وهى على مسافة يوم من جنوبى بيروت قال يوسيفوس المؤرخ اليهودى ان صيدا تسمت على اسم صيدون بكر كنعان بن حام بن نوح وهى أقدم من صور اﻫ ولها سور وقلاع ويقال ان قلعتها الموجودة بالجانب الجنوبى فى أعلى نقطة من المدينة بناها لويز التاسع ملك فرانسا (١٢٥٣ م) وكانت صيدا قديما مركز ولاية مضافة اليها حتى قام أحمد باشا الجزار فاختار مدينة عكا لحصانتها وقد خرب الانجليز قلاعها عند اخراج المصريين منها (١٨٤٠ م) وهى الآن رأس لواء تابع لبيروت وماء النهر القريب منها عذب للغاية عند مخرجه من البارود وكان لهذه المدينة شهرة عظيمة فى زمن الفينيقيين واستولى عليها اسكندر المقدونى (٣٣٣ ق م) ثم صارت لملوك مصر وسوريا وأخذها الرومان ثم المسلمون وحصل فيها حروب بزمن الصليبيين وترسو السفائن الحربية والتجارية

الكبيرة في داخل الجزيرة على عمق خمس قامات ومتى هبت الرياح الجنوبية الغربية تلتجئ التجارية الى الجزيرة والسفن الكبيرة ترسو في مكان عمقه سبع قامات

وصور فرضة قديمة على ساحل الشام ومدينتها واقعة على رأس لسان داخل في البحر وهي في جنوب صيدا على مسافة يوم منها وبين عكا مسافة يوم ونصف وهي قديمة جدا اشتهرت أيام الفينيقيين بالثروة العظيمة والشهرة التامة وسعة التجارة ومعرفة سكانها بفن سلوك البحر ومهارتهم في الصنائع ويقال ان قوما من صيدا ابنوها قبل بناء هيكل سيدنا سليمان عليه السلام بنحو ٢٤٠ سنة وكان يومئذ اللسان المتصل بالبر الآن جزيرة وكانت المدينة القديمة على البر ولما ازداد عدد سكانها شيدوا منازلهم على الجزيرة وفي أيام سلمناصر ملك أشور (٧٢٠ قم) كان الجانب الاكبر من المدينة على الجزيرة وقد حاصرها بختنصر ملك بابل ١٣ سنة ثم حاصرها اسكندر المقدوني (٣٣٢ قم) سبعة أشهر ثم افتتحها عنوة وقد تمكن من ذلك بانشاء طريق في المسافة الكائنة بين الجزيرة والقارة ولما اتصلت المدينة بالبر صار لجنوده طريق يسيرون عليه وبذلك تمكنت جنوده من الاستيلاء عليها ومازال البحر يقذف الرمال على ذلك الطريق حتى حوله الى أرض واتصلت الجزيرة بالبر اتصالا محكما وحدث اللسان الذي عليه مدينة صور الآن وقد خربت هذه المدينة مرارا عديدة ثم نهضت من خرابها وكانت زاهية في مدة الحروب الصليبية ولم تزل هناك آثار قديمة اعتنى كثيرون من أهلها باستخراجها والتجارة بينها وبين بيروت عظيمة مياهها العذبة تأتي الآن من رأس العين الواقعة على مسافة ساعة الى الجنوب الشرقي منها ويظن أنها كانت قديما واصلة اليها في قنوات وتجارة صور الآن قليلة وهي التبغ والقطن والقمح وأهالي المدينة لا يزيدون عن ٣٠٠٠ نفس والسفائن ترسو في شرقي الجزيرة المتصلة بالبر على عمق ست قامات أمام إدارة الجمرك

وعكا واقعة الى جنوبي صور على مسافة يوم ونصف منها وكانت تسمى قديما بطوليمايس على اسم أحد ملوك البطالسة وهي حصينة للغاية ومركز تجارة تلك البلاد وحولها سهول مخصبة وكان يأتيها الماء من مسافة أربع ساعات في قنوات على قناطر عالية قد بقي جانب كبير منها قائما الى الآن وأهلها ٣٠٠٠ نفس وفرضتها جيدة والسفائن الحربية الكبيرة لا تقرب من الساحل بل تبقى على بعد ميلين منه حيث عمق المياه يبلغ ١٥ قامة وربما رست على أقرب من ذلك في عمق خمس قامات وقاع البحر هناك أكثره رملي وقد اشتهرت عكا في زمن الحروب الصليبية شهرة عظيمة وفي سنة ١٧٩٩ م حاصرها نابوليون بونابرت بعد احتلاله مصر مدة وكان بعكا أحمد باشا الجزار الشهير فقاومه برا وأمسك عليه البحر الاميرال سيدني سميث بالاسطول الانكليزي فالتزم نابوليون ان ينصرف عنها خائبا وقد رأى من شجاعة الجزار ومعرفته بفنون الحرب ما أدهشه حتى قال لولاه لغيرت وجه البسيطة وفي زمن الحروب الشامية بين جيوش محمد علي باشا وجيش الدولة مدة السلطان الغازي محمود خان حاصرها ابراهيم باشا برا وبحرا ثمانية أشهر ثم فتحها عنوة (١٢٤٨ هـ) وقبض على واليها وهو يومئذ عبد الله باشا الجزار وأرسله الى القاهرة وشرع في تحصينها ومازال يقويها بالآلات الحربية حتى حضرت أساطيل انكلترة والنمسا والدولة العثمانية (١٨٤٠ م) وأطلقت عليها القنابل وأخذتها فيما دون ساعة من الزمان ويأتيها كثير من محصولات بلاد حوران وهي تبعد عن بيت المقدس بنحو ١١٠ كيلومترات

وحيفا وهي فرضة واقعة على جون مضاف اليها على سفح جبل وقد تقدمت وترقت أحوالها الآن ويمكن للسفائن ان ترسو أمامها في زمن الصيف على عمق سبع قامات وسكانها يبلغون ٥٠٠٠ نسمة وتجارتها الحنطة والشعير وغيرهما من محاصيل البلاد ويتصدر من ميناها في السنة زيادة عن ٦٠٠٠٠ كيلة من حنطة ومثلها شعير وذرة ومليون أقة سمسم وفرضتها أمينة قال ياقوت حيفا حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا اهـ وربما كانت حيفا هي سيكانيوم القديمة وهي مدينة للفينيقيين لم تكن بعيدة عن عكا وفي سنة ١٨٦٨ م جاء حيفا قوم من مملكة ورتمبرغ الالمانية وانشؤا في الجهة الغربية منها على مقربة من موقع حيفا القديمة مستعمرة متقنة البناء كثرت فيها الصناعة والزراعة فاحيوا كثيرا من الارض وأوجدوا مركبات مخصوصة تسير بين حيفا وعكا والناصرة وقد تساهلت معهم الدولة العثمانية لرغبتها في اصلاح أراضي تلك الجهات

ويافا وهي فرضة على ساحل البحر المتوسط أيضا وفيها آبار وبساتين كثيرة وأبنيتها جيدة متينة كلها معقودة بالحجارة ولها تجارة واسعة تأتي اليها من محاصيل داخلية البلاد وهي فرضة لبيت المقدس تبعد عنه ٤٠ ميلا تقريبا وبينها وبينه الآن طريق حديدي وقد أخذت أحوالها في الترقي وسكانها نحو ١٦٠٠٠ نفس وأعظم نقطة ترسو فيها البواخر والسفائن التي تقصدها كائنة على بعد نصف ميل تقريبا منها على عمق تسع قامات وقاع البحر فيها رملي وأمامها صخور هائلة تجعل البحر مضطربا حتى في أوقات سكونه وهذه المدينة قديمة جدا حتى زعموا أنها كانت في عهد نوح عليه السلام قبل الطوفان وانه بنى فيها أو بقربها الفلك وقد نقل المؤرخون ان ثغر يافا كان من المدن البحرية التي أصابت سبط دان وكان اسمها (جافو) وميناها معدودة من أقدم موانى العالم وكان حيرام ملك صور ينقل اليها الارز لبناء هيكل سيدنا سليمان وقد لقبها اليهود باسم جوبا أي الظريفة وقد عانت كثيرا من الخطوب سيما في وقائع المكابيين وحروب الرومان وصارت مأوى للقرصان وقد أحرقها ستوس وقتل من سكانها ثمانية آلاف وفي القرن السابع للميلاد استولى عليها العرب ثم احتلها الصليبيون ثم دخلت في حوزة ملوك مصر ثم أخذها السلطان سليم الاول واحتلها نابوليون بونابارت عنوة (١٧٩٩ م) وفي سنة ١٢٤٨ هـ استولى عليها محمد علي باشا والي الديار المصرية الى أن استردتها الدولة العلية سنة ١٢٥٦ هـ

ثغور الدولة على بحر الادرياتيك — للدولة على ساحل هذا البحر عدة ثغور أشهرها ما يأتي

دراج أودوراز وأودوراتس وهي فرضة حصينة واقعة في منتهى خليج مسمى باسمها سكانها ١٠,٠٠٠ نفس حصونها شديدة المنعة وميناها أمين ولها تجارة مع سائر الاقطار عن طريق تريسته وايطاليا يصدر منها التبغ والزيت والحبوب والخشب وقد حاصر قيصر بومبيوس بهذه المدينة وقهر روبرت غيسكر دوهو يقود خمسة عشر ألفا من النورمنديين الكسيس كومنين الثاني ملك القسطنطينية (١٠٨٢ م) وفي مدة الحروب الصليبية صارت هذه المدينة دوقية تابعة لامراء انجو (١٢٩٤ م) ثم استولى عليها البنادقة (١٣٨٦ م) ثم ضمها السلطان بايزيد الثاني للدولة وهي الآن رأس سنجق من ولاية اشقودره

واولونيه أوفالون فرضة عثمانية من ولاية يانية مرفؤها عظيم واقعة على جون ينسب

اليها في بحر الادرياتيك سكانها ٦٠٠٠ نسمة كثيرة المستنقعات رديئة المناخ

ويره ويزه فرضة عظيمة من ولاية يانية واقعة في مدخل خليج ناردة على بعد ٢٩ كيلومترا الى الجنوب الغربي من بلدة ناردة سكانها ٩٠٠٠ نسمة ومن صادراتها الزيت والثمار والصوف والحبوب والتبغ استولى عليها العثمانيون (٩٤٥ هـ) ثم أخذها البنادقة (١٦٨٤ م) واحتلها الفرنساويون (١٧٩٧ م) ثم أعيدت الى العثمانيين وفي مدة تپه دلنلي علي باشا والى يانينة المشهور حصلت فيها وقائع هائلة وهي الآن مركز الاسطول العثماني في مياه الارناؤط يقيم فيها قائد من قواد البحر (قومادور) وبجوارها انتصر خير الدين باشا بارباروس على سفن الدول المتحدة التي كانت تحت قيادة اندريا دوريا نصرا مبينا سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ويوجد للدولة جملة فرض أخرى بسواحل البانيا على الادرياتيك ضربنا عن ذكرها صفحا لقلة أهميتها

أما فرض الدولة في سواحل الحجاز واليمن وفي خليج العجم فقد سبق الكلام عليها في الفصل الثالث من الباب الثامن من هذا التاريخ الا أن للدولة على خليج العجم فرضة مهمة وهي وان كانت ليست واقعة تماما على ساحل البحر الا أنه لما كان يمكن للسفن البحرية العظيمة ان ترسو امامها اعتبرناها من الفرض البحرية وهذه المدينة هي مدينة البصرة وهي مدينة بالعراق العربي بناها سيدنا عمر رضى الله عنه (١٧ هـ) واقعة على رأس الخليج العجمي بعيدة عن مصب شط العرب بنحو ١١٠ كيلومترات وللدولة فيها أسطول مركب من ستة سفائن حربية للمحافظة على سواحل نجد والبلاد العثمانية في الجهات المذكورة وبها أيضا شركة بحرية عثمانية لها عدة سفن تحمل المتاجر والركاب بالفرات وغيره وسكانها يبلغون ٦٠٠٠٠ نسمة

وأما فرض الدولة العثمانية في طرابلس الغرب فقد سبق الكلام عليها في الفصل الثاني من الباب الثالث عشر من هذا الكتاب وللدولة فرض أخرى في بلادها الحقيقية ضربنا عن ذكرها صفحا لقلة أهميتها التجارية والحربية

(الفصل الثالث)

منشأ آل عثمان وظهور دولتهم

ذهب كثير من المؤرخين كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما من العلماء المتقدمين مذاهب شتى في أصل منشأ آل عثمان حتى تضاربت أقوالهم واختلفت آراؤهم الا أن مؤرخي العثمانيين الذين هم ولا شك أعلم بأصل منشأ سلاطينهم من غيرهم مثل خير الله ونعيما وراشد وجودت باشا ومنجم باشا وچلبي وغيرهم من فحول العلماء المؤرخين ذهبوا الى أن أصل شجرة آل عثمان التي ابتدأت سلطنتهم من عهد السلطان الغازي عثمان خان يتصل فرعها بيافث بن نوح عليه السلام لان الغازي عثمان هو ابن الامير (ارطغرل) بن (سليمان شاه) بن (قيا ألب) بن (قزل بوغا) بن (بايمور) بن (قايلغه) بن (طغرا) بن (قراينو) بن (بانيقر) بن (بولغاى) بن (بايسنقور) بن (توقتمور) ابن (ياساق) بن (حميده) بن (اقتلق) بن (قمارى) بن (جكتمور) بن (طوجح) بن

(قزل بوغا) بن (يماق) بن (باشبوغا) بن (جورمز) بن (بايسو) بن (طغرا) بن (سونج) بن (جاريقا) بن (قوريلش) بن (قورخاد) بن (بالجق) بن (قماس) بن (قراغلان) بن (سليمان شاه) بن (فرحلو) بن (يورلوغان) بن (بايتمور) بن (تورمش) بن (كوك ألب) بن (أوغوز) ابن (قورخان) بن (قايي خان) بن (أبو لجاى) بن (ماجيه) بن (أبي الحارث) بن (يافث) بن (نوح) وقيل في بعض الروايات ان قايي خان المذكور هو عيص بن اسحق عليه السلام وقال المؤرخان نشرى ونشانى ان قايي خان هو ابن بولجاى بن يافث بن نوح عليه السلام وأيدت ذلك أقوال المؤرخ على جلبي وخلافه واتفق الجميع مع اختلاف أقوالهم على ان فرع الاتراك يتصل الى يافث ابن نوح عليه السلام وقد اتضح من عمود النسب هذا ان أجداد آل عثمان من قديم الزمان أمراء وخانات وسلاطين في ديار تركستان

ظهور آل عثمان خلد الله ملكهم — اعلم انه لما أغار جنكيزخان سلطان المغول سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) على بلاد آسيا الغربية آتيا من الشمال خرج سليمان شاه بن قيا ألب من سبط قايي خان وكان نازلا في أواسط آسيا بصحراء ماهان بجهات مرو ومهاجرا مع نحو ٥٠ ألفا من قبيلته ومازالوا يسيرون يتخيرون المنازل والاعشاب حتى استقروا بجهات أذربيجان وبعد ان أقاموا بتلك الجهات نحو ست سنوات هاجم السلاجقة خراسان وخوارزم وفتحوهما فقفل سليمان شاه راجعا الى وطنه ولما وصلوا الى نهر الفرات وأرادوا عبوره غرق سليمان شاه بالنهر المذكور قضاء وقدرا (٦٢٩ هـ ١٢٣١ م) فاخرجوه ودفنوه هنالك عند قلعة جعبر ولا يزال قبره يوجد للآن ويدعى (ترك مزارى) وكان لسليمان شاه المذكور أربعة أولاد وهم سنقور زنكى وكون طوغدى وارطغرل وكوندوز وقع بينهم الاختلاف في الرحلة أو المقام بعد موت والدهم فنهم من اختار متابعة المسير الى بلاده ومنهم من فضل البقاء مع ارطغرل الذى قصد بلاد الاناضول مع أربعمائة بيت من قومه منهم نحو ٤٤٠ فارسا فساروا حتى نزلوا غربا بجهة سرمه لو وياسين وضربوا بها خيامهم ولما كانت تلك الجهات غير موافقة لسكناهم بالمرة أرسل ارطغرل سنة ٦٣٠ هـ ولده صاروباتى بك الى سلطان الروم علاء الدين السلجوقى يطلب منه الحماية ويستعطفه في أن يمنح عشيرته بعض الاراضى الخصبة فمد له السلطان جناح الرأفة وأقطعهم أراضى قره جه طاغ قرب أنقرة وكان بها ما يلزمهم من الدفء شتاء والمراعى صيفا فأقاموا هنالك قريرى العين وبينما كان ارطغرل يرود بعض الجهات يوما مع فرسان من قبيلته اذ صادفوا جيشين في حومة الميدان يستعدان للقتال وكان أحدهما أقل عددا من الآخر فانضم ارطغرل بقومه الى الجانب الضعيف لانه كان يميل دائما لمساعدة الضعفاء ويقال انه وجدهما يتقاتلان وكان أقلهما عددا أشرف على الهرب فحركته حينئذ الغيرة على الضعيف فانضم اليه مساعدا له وكان أحد هذين الجيشين وهو الضعيف للسلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقى والثانى لهولاكوخان من أعقاب جنكيزخان ملك المغول فلما قامت الحرب بينهما ويسر الله الظفر للسلجوقيين بمساعدة ارطغرل وعشيرته وانقضى القتال وعلم السلطان السلجوقى بذلك استدعى اليه ارطغرل رئيس أولئك الغرباء وبعد ان وقف منه على حالته وحالة عشيرته أظهر له عظيم

ارتياحه ومزيد شكره وخلع عليه وعلى أخيه وأقطعهم الاراضى الواقعة بجهتى طومانيج واسكيشهر (٦٦٣ ﻫ ١٢٦٤ م)

و بعد ذلك أخذ ارطغرل فى مساعدة علاء الدين السلجوقى فى أ كثر وقائعه الحربية ضد المغول ودولة بوزنطية فكان له أثر مشهور ولهذا زاد السلطان علاء الدين فى الاقطاعات لارطغرل وتنازل له عن قطعة من بلاده الاصلية وقطعة مما فتحه من دولة القسطنطينية وهى الجهة المسماة الآن سلطانية أوصيراجق من ولاية قونية فكانت تلك الاراضى بما فيها جهة سكود مهد الدولة العثمانية ولما وقعت الحرب بعد ذلك بين السلطان علاء الدين والمغول لتعرضهم لبلاده فوض أمر المحافظة على قلعة كوتاهية التى استولى عليها المغول للامير ارطغرل فاستردها بعد قتال شديد فعلت منزلة ارطغرل عند السلطان علاء الدين ولم يزل ارطغرل يقارع أعداء علاء الدين مؤيدا منصورا حتى توفى سنة ٦٨٠ ﻫ بسكود وسنه يتجاوز ٩٠ سنة ولما بلغ السلطان علاء الدين خبر وفاته جزع لذلك جدا وعين ولده الغازى عثمان مكانه ولما رآه السلطان علاء الدين من حزمه واجتهاده واتباعه خطة أبيه فى الغزو والجهاد مده بالاعانة والامداد وأرسل اليه شارات السلاجقة وهى الراية البيضاء والخلعة والطبل وكتابا تركى العبارة معلنا باستقلال عثمان بك وبان يكون له فيما بعد كل مافتحه من الاراضى (٦٨٨ ﻫ) ولما ضرب الطبل بين يدى الامير عثمان نهض قائما على قدميه تعظيما للسلطان علاء الدين وقد جرت العادة بعد ذلك بان يقوم السلطان عند سماعه الطبلة تعظيما وتذكارا ولازال ذلك متبعا حتى أيام السلطان محمود حيث أمر بابطالها ولقبه علاء الدين بلقب بك وسمح له بان يضرب السكة باسمه و بذكر اسمه على المنابر بعد ذكر السلطان

ولقد كانت عوامل الفساد والضعف دبت اذذاك فى جسم المملكة الرومية وكانت أحوال ولاياتها غير منتظمة فكان كل حاكم من حكامها المسمى بالتكفور يستبد فى ولايته حسب رغبته ومشتهاه ولما شاهد الغازى عثمان ذلك أخذ فى التضريب بينهم والقاء بذور العداوة والشحناء بين مجموعهم لان الحرب خدعة ولما تمكن من مراده أخذ فى الاستيلاء على ولاياتهم حتى ان حاكم خرمن قيا المدعو كوسه ميخال وأمثاله من المتفقين شرعوا فى القاء المفاسد بين الحكام وكوسه ميخال هذا هو الذى أطلع الغازى عثمان على مادبره له بقية الحكام من الايقاع به لما بينهما من الصداقة فى يوم عرس حصل عند بعضهم وقد تدارك الامير عثمان هذا الخطر بحيلة حربية غريبة ذكرها المؤرخون و بعد ان أوقع باعدائه استولى على جهات اينه كول و بيله جك و يار حصار وكان اختطف أثناء العرس العروس وأسر جملة من أعدائه و زوج تلك العروس من ابنه أورخان خان وهى السيدة نيلوفر صاحبة الآثار الخيرية التى لاتزال تنسب اليها بجوار بروسه وولدت له سليمان وخداوندكار ومرادو وقد بقى أولاد ميخال هذا يخدمون الدولة بالصداقة والخدم المبرورة المشكورة من بعد أبيهم لغاية سنة ١٠٠٠ من الهجرة وكانوا حكاما بحدود الروملى وبينما كان كوكب العثمانيين فى صعود وأمرهم فى ارتقاء اذ أغار غازان خان سنة ٦٩٩ ﻫ على مدينة قونية وأزال دولة السلاجقة [1]

(١) السلجوقيون هم قبيلة تركية كانت توطنت قبلا فى سهل شمالى بحر قزوين وتسموا باسم جدهم سلجوق بن دقاق وكان قائدا من قواد بيغو خان ملك الترك فتغير بيغو عليه فخاف منه سلجوق فخرج عنه وقيل انه قتل بيغو وسار بجماعته

مدة

مدة السلطان ركن الدين ثالث أولاد غياث الدين السلجوقي المعروف عند بعض المؤرخين بعلاء الدين الثالث وبذلك استقلت العمال كل باقليمه الذي كان يحكمه وكان من ضمن تلك الحكومات حكومة عثمان بك الغازي نعم ان الامير المشار اليه كان الحاكم المستقل في اقليمه منذ خمس عشرة سنة مضت من هذا التاريخ الا أنه لما جبل عليه من مكارم الاخلاق والوفاء بالعهد كان يعتبر نفسه تابعا لدولة السلاجقة ويقوم بما يجب عليه من الاحترام لسلاطينها حتى انه لم يعلن استقلاله تماما الا بعد وفاة السلطان علاء الدين الثاني ولهذا أجمع المؤرخون على اعتبار بدء استقلال الدولة العثمانية من هذا التاريخ وهو سنة ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م وان كان خالفهم البعض

وكل من أطاعه قاصدا دار الاسلام وسكنوا تحت قيادته بنواحي جند (بليدة من وراء بخارى) في القرن العاشر للبلاد ثم أسلم هو ومن كان معه وصار يغزو الترك الكفار وكان لسلجوق من الاولاد ثلاثة أرسلان وميكائيل وموسى وتوفي سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين وبقي أولاده على ما كان عليه أبوهم من غزو الكفار فقتل ميكائيل في خلال الحروب وخلف من الاولاد بيغو وطغرلبك وجعفر وبك داود ثم ارتحلوا ونزلوا على فرسخين من بخارى فأساء أميرها جوارهم فالتجؤا الى ملك تركستان بغراخان ثم وقع بينهم وبينه اختلاف وقتال ثم رجعوا الى جند حتى انقضت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (وهي من الدول الاسلامية سبق الكلام عليها في صحيفة ٢٢٨) ثم حصل بينهم اختلاف يطول شرحه ولما انفصلوا عن بعضهم تمكن طغرلبك المذكور من الامارة وتلقب سلطانا وفتح على التوالي خراسان وغيرها من المقاطعات وبعد أن محا دولة بني بويه دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٦ م) في خلافة القائم بامر الله واستولى عليها ودعا لنفسه خادما وحارسا للخليفة وعقد الخليفة المذكور على أرسلان خاتون واسمها خديجة ابنة داود أخي طغرلبك الذي صار في الحقيقة صاحب السلطة الملكية وملقبا بأمير الامراء ولما مات سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) خلفه ابن أخيه ألب أرسلان وقد اشتهر بتغلبه على رومانوس الرابع ملك الروم وأخذه أسيرا وحبسه وقد طرد الفاطميين من سوريه وفتح أرمينيا وكورجستان ويقول جيبون المؤرخ الانكليزي إن أحسن قسم من آسيا كان خاضعا لاحكامه وكانت جيوشه قد بلغت مبلغا عظيما ومات سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) قتيلا قتله يوسف الخوارزمي وذلك بعد ما عقد نكاح ابنته ألب ارسلان على ولي العهد المقتدر بامر الله ثم جلس بعده ابنه ملكشاه وقد بلغ من الشهامة وامتداد الملك درجة عظيمة حتى صار من أكبر سلاطين زمانه وامتدت ولايته وأحكامه من أول خراسان الى جوار القسطنطينية وفي أيامه قامت ملوك الفرنج بالحروب الصليبية قاصدين التغلب على الشرق وكسر شوكة الاسلام وكانت قوة الخلفاء وقتئذ قد ضعفت وتمكن السلجوقيون بعد ذلك من الاستيلاء على القدس وبر الاناضول وأسسوا ولاية قونية سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ومن وقتئذ سميت آسيا الصغرى بتركية آسيا وفي سنة ٤٧١ هـ ملك تاج الدولة بن ألب أرسلان دمشق ولما مات ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٣ م) حصل بعده كثير من الوقائع يطول شرحها كانت فيها المنازعات مستمرة بين أخيه وأولاده الاربعة بخصوص سرير الملك انتهت بقسمة المملكة السلجوقية بين أربعة من العائلة الملوكية فاستقلت طائفة منهم بالعراق وطائفة تولت بلاد قرمان وطائفة تولت الشام وطائفة تولت بلاد الروم وقونية وهذه الاخيرة هي التي قامت على أنقاضها الدولة العلية العثمانية كما ذكر العلامة ابن خلدون بعد ان وصف السلاجقة لما انتشر السلجوقية في البلاد دخل الملك قتلمش بن بيغو بن ميكائيل بن سلجوق بلاد الروم وملك قونيه وأقصرا ونواحيها ولما مات السلطان طغرلبك ملك العراق رام قتلمش ان يتملك ما كان من الملك لطغرلبك منضما الى ما بيده وان تكون السلطنة كلها له فتوجه بعساكره الى العراق وقصد الري ليملكه فقاتله ألب أرسلان الذي أخذ السلطنة بعد عمه طغرلبك وذلك في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) فانهزم عسكر قتلمش ووجد مقتولا في المعركة بين القتلى وبقي أولاده ملوكا في الروم اهـ فقام بالملك بعده ابنه سليمان وملك ما كان تحت يد أبيه من قونيه وأقصرا ونواحيهما ثم قتل نفسه سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) لما انهزم جيشه في قتال وقع بينه وبين تتش صاحب الشام ثم ملك بعده ابنه قلج أرسلان وقتل في الحرب الذي قام بينه وبين صاحب الموصل

الفصل الرابع

استقرار الدولة العثمانية وتأسيسها حتى ظهور تيمورلنك

٦٩٩ – ٨٠٥ هـ

---

(١) السلطان الغازى عثمان خان

٦٩٩ – ٧٢٦

لما أعلن السلطان عثمان الغازى استقلاله أتاه كثير من علماء وأعيان وأمراء الدولة السلجوقية المنقرضة ودخلوا تحت حمايته واستمر يجاهد بعد الاستقلال نحو سبع سنوات واستولى من دولة الروم على كثير من الجهات ولما رأى من نفسه عدم القدرة على تحمل مشاق الاسفار لتقدمه فى السن نصب ابنه أورخان بك قائداً للجنود وكان القسم الذى خص الامير الغازى عثمان يتركب من جزء من اقليم بروسه ومن كافة البلاد الواقعة حوالى جبل أولمبه بالاناضول ولاذ أيضاً كثير من أعيان الروم بعدالة الغازى عثمان معترفين بسيادته وبذلك تأسست الدولة العلية العثمانية فى

سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) وقيل انه وقع بفرسه فى ماء فغرق وقام بعده ولده مسعود واشتهر فى وقائع وغزوات كثيرة ومات سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وورثه فى الملك ابنه قلنج أرسلان وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر واشتهر فى عدة غزوات ولما اتسعت بلاده قسمها على اولاده العشرة فاضر نفسه بذلك لان أكبرهم قطب الدين ملكشاه بعد ما تغلب على سيواس طمع فى ملك أبيه واخوته وقام بحروب يطول شرحها وقبض على أبيه وألزمه بالاقرار على أنه ولى عهده ثم صار يحارب اخوته لانتزاع ممالكهم وفى أثناء ذلك هرب أبوه قلنج أرسلان وسار الى ولده نور الدين سلطان شاه فعظمه وعندها رجع قطب الدين الى قونيه تاركاً القتال وخطب لنفسه فيها وصار بعد ذلك الوالد يتردد فى البلاد على أولاده معظماً مبجلاً الى أن وصل لابنه غياث الدين كيخسر والذى لما تكدر مما حصل لابيه من الاهانة قام على أخيه قطب الدين وحاصر قونيه وملكها وقبض على قطب الدين ثم مرض قلنج أرسلان ومات سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) واتفق أن قطب الدين توفى بعد أبيه بقليل فاستقر الملك لغياث الدين كيخسر و ثم قام عليه أخوه ركن الدين سليمان وأخذ منه قونية فهرب كيخسر و الى الشام مستجيراً بالملك الظاهر بن صلاح الدين وفى خلالها مات ركن الدين سليمان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وملك بعده ولده قلنج ارسلان فرجع غياث الدين كيخسر و الى بلاد الروم وأزال ملك قلنج ارسلان بن سليمان المذكور فاستقر له الملك ومن بعده لاولاده ولما توفى سنة ٦٠٧ هـ ملك بعده عز الدين وحارب صاحب ارضروم وهو عمه طغرل فظفر به وقتله ثم مات عز الدين سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وقام بعده أخوه علاء الدين واتسع ملكه بفتح كثير من بلاد الروم وبلاد التتار وتوفى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) وملك بعده غياث الدين كيخسر و وفى أيامه استفحل أمر التتار فضعف ملك السلاجقة ثم قتله مماليكه لضعفه سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وخلفه ولداه عز الدين وركن الدين ولكن تغلب خلفه ركن الدين وانفرد بالملك وهرب أخوه الى القسطنطينية وكان فى ذلك الوقت للتتار النفوذ الاكبر واليد العليا والسلاجقة معهم كلا شئ ولما قتل ركن الدين سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) خلفه ولده غياث الدين ولكن لما كان التصرف بيد البراوناه نائب التتار قام على غياث الدين وقتله لمخالفة وقعت منه سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) وقام من بعده السلطان مسعود وفى أيامه اختل نظام سلطنة الروم السلجوقية وقتل مسعود نفسه بالسم من مضايقة التتار له وبعد وفاته وقعت فتن كثيرة بالروم يطول شرحها ثم خلفه علاء الدين كيقباد وهو آخر من ملك من السلاجقة وقيل إن آخر من ملك منهم ابنه غياث الدين وفى قول آخر إن آخر من قام منهم بالسلطنة علاء الدين وفى آخر أيامه كان ظهور أمر السلطان عثمان جد سلاطين آل عثمان العظام

التاريخ المذكور وقت الحادثة المذكورة وكانت فى مبدا أمرها حكومة صغيرة كما علمت ثم أخذت
تنمو شيأ فشيأ بمساعى هذا السلطان وشجاعته وعدالته حتى صارت قبلة الاسلام ونقطة آمال
الموحدين ولما كانت هذه المملكة الصغيرة متاخمة لمملكة القسطنطينية الآخذة فى الاضمحلال
كانت الحروب لا تنقطع تقريبا بين البلادين فكانت هذه المملكة الحديثة العهد الممتلئة قوة
وحماسا تزيد محو جارتها الهرمة التى كان يعز عليها أن ترى مملكة صغيرة حديثة النشأة تخالفها فى
المعتقد والعوائد تجاريها فى مضمار الفتوحات ثم ان السلطان عثمان وجه التفاته لتوسيع دائرة
أملاكه فحاصر مدينة كبرى حصار عدة مرات حتى اضطر عاملها للتسليم ثم حاصر قلعة ازنيق
الشهيرة وأنشأ فى جانب قلعتها على الجبل من جهة يكيشهر القلعة المسماة سردار طارطغان وفى أثناء
ذلك اتفق عامل بروسه مع حكام اطره نوس وادر بانوس وكستل وكته على مهاجمة مدينة يكيشهر
مقام العثمانيين فقابلهم السلطان عثمان على رأس جيشه بجوار قلعة قيون حصار وهزمهم ثم اقتفى
أثرهم حتى المكان المدعو ديمبوز وأوقع بهم فيه وقتل فى هذه الواقعة أمير مدينة كستل وآى
طوغدى ابن أخى السلطان ثم أركن أمير اطره نوس وبروسه الى الفرار أما تكفور كته فانه بعد
التجائه الى تكفور مدينة أولو باد أصر السلطان الغازى عثمان على تسليمه اليه فامتثل أمير أولو باد
للامر وفى سنة ٧١٧ ﻫ شيد السلطان عثمان بالقرب من مدينة بروسه على مسافة ربع
ساعة منها عند ينبوع الماء المعدنى الحار قلعتين جعل فى احداهما ابن أخيه آق تيمور وفى
الاخرى البطل بلبانجق أحد مماليكه وبعد أن تمكن من حصار بروسه بهذه الكيفية واسلم
القائد كوسه ميخال الشهير ترك ولده السلطان أورخان وكوسه ميخال وصالتق ألب للمحافظة على
البلاد وأنزلهم بقلعة قره حصار ثم سار هو بنفسه يقصد قلعة لبلبنجى ولفكه وجادرلق فاستولى
عليها بلا حرب وأخضع بعد ذلك يكيجه حصار واق حصار وتكفور بكارى بلا حرب أيضا وضم
الجميع لاملاكه ثم أرسل الغازى أورخان والغازى عبد الرحمن وغيرهما الى قلعة قره جيش الشهيرة
وبعد حصارها أسروا حاكمها واستولوا عليها مع الجهات المجاورة لها ثم استمرت الفتوحات واستولى
على مدينة طوزبازارى بعد أن أخضع قلعة قره تكبه ثم ان فرقة اقجه قوجه فتحت جملة جهات فى
أطراف أزميد ولهذا السبب كان يطلق على سنجق ازميد فى ذلك الوقت قوجه ايلى وفى خلال ذلك
فتح الغازى عبد الرحمن مدينة ازنيق

ولما عزم السلطان عثمان الغازى على فتح بروسه أنشأ الثلاث قلعتين حولها كما سبق وعين
لهذه المهمة الغازى أورخان (٧٢٦ ﻫ) وبعد خروجه من مدينة يكيشهر مر باطره نوس ولما
تقابل مع حاكمها أراد القبض عليه ففر من وجهه الى أن وقع من صخرة فمات وأرسل الغازى أورخان
خبر ذلك الى السلطان مع كوسه ميخال وبذلك أمكن الاستيلاء على مدينة بروسه بلا كبير مشقة
وفى أثناء تلك الفتوحات المتعاقبة بلغ الغازى أورخان مرض والده فسافر اليه مسرعا ولما صار بين
يديه نصحه بنصائح عظيمة منها حسن المحافظة على الرعية وسياستهم بالعدل والانصاف ثم توفى يوم ١٧
رمضان سنة ٧٢٦ ﻫ وكان سنه ٧٠ سنة ونقلت جثته من داخل قلعة بروسه الى تربته
المخصوصة وكانت ولادة هذا السلطان بمدينة يكيشهر سنة ٦٥٦ ﻫ ومدة سلطنته ٢٠ سنة
ولم يقع بينه وبين دولة من الدول الاجنبية حروب خلاف دولة القسطنطينية أو بينه وبين الامراء

التابعين لها وترك من الذكور اثنين وهما الامير أورخان والامير علاء الدين

(٢) السلطان الغازى أورخان ابن السلطان الغازى عثمان خان

٧٢٦ - ٧٦١ ﻫ

اعلم انه عند جلوس السلطان الغازى أورخان على سرير السلطنة كانت شبه جزيرة الاناضول منقسمة بين ملوك الطوائف الذين قاموا بعد انقراض دولة السلاجقة فكان يخشى بك بن محمد بك من أولاد قرمان متغلبا على مدينة قونية وتوابعها أى جالسا مكان الدولة السلجوقية وكان آيدين بك وصاروخان بك ومنتشا بك وكرميان بك وحميد بك وتكه بك وقرهسى بك وهم من أولاد أمراء السلاجقة حكاما على ممالك صغيرة أخرى الا انهم لم يكونوا تحت طاعة أمير قونية المذكور وكان أولاد أسفنديار حكاما مستقلين بجهات قسطمونى وكانت بقية الممالك الاخرى تحت تسلط بعض عشائر التركمان فكان بمرعش أولاد ذو القدرية وباطنة أولاد رمضان وكان من بين هؤلاء حكومة السلطان أورخان التى ورثها من أبيه ولما لم تكن قوية فى أول استقلالها كما ولم يكن فى امكانها الدخول فى المنازعات التى كان يثيرها أولاد قرمان للمطالبة بميراث الدولة السلجوقية أمكنها فيما بعد بما أظهره السلطان عثمان الغازى من الاقدام والجسارة ان تكتسب قدرة ومكانة خصوصا بعد استيلائها على مدينة بروسه لان السلطان أورخان بعد أن اتخذ تلك المدينة مقر السلطنة التى كانت عديمة القرار قبل ذلك تمكن بمساعيه من اظهار شوكة الدولة وسطوتها بالفتوحات الآتية

ولما جلس هذا السلطان على سرير الملك كان سنه يبلغ أربعين سنة وبعد أن نقل تخت المملكة الى مدينة بروسه بعد أن كان بمدينة يكيشهر مدة خمس وثلاثين سنة التفت الى التنظيمات الضرورية وسن القوانين والنظامات بمساعدة رجال حكومته الذين نخص بالذكر منهم قاضى بروسه جندره لوقره خليل فكان أول شئ بدأ به أن ضرب السكة العثمانية وجعل للامورين والامراء وأصناف العساكر وطبقات الاهالى ملابس مخصوصة ولما رأى أن جيوشه المؤلفة من فرسان التركمان وممن قدر من الرعية على الحرب لا انتظام لهم ولا معرفة بقوانين الضبط والربط ولا هم يمكنون أخذ ترتيب عساكر نظامية ووضع لهم قانونا للتربية فانشأ لذلك طائفة اليكجرية (الانكشارية) وصار حسب ما رآه وزيره يأخذ كل سنة العدد الممكن من أولاد النصارى ويجمعونهم ثم يعلمونهم آداب الاسلام ويعتنون بتربيتهم ومتى بلغوا السن اللائق للعسكرية أدخلوهم ضمن أوجاق اليكجرية وكان لكل واحد منهم يوميا وظيفة مقدرة وقد استمر هذا النظام أى ادخال مثل هؤلاء الاولاد فى الجيش العثمانى لسنة ١٠٥٠ ﻫ وقد نبغ من هؤلاء كثير من الرجال تولوا الوزارة والامارة والاعمال الجليلة حتى صار النصارى فيما بعد يطلبون من تلقاء نفسهم ادخال أولادهم ضمن اليكجرية ومن النظامات التى أوجدها هذا السلطان منصب الوزارة عين له أخاه علاء الدين باشا فكان أول وزير فى الدولة العثمانية

ولما

ولما أتم التنظيمات السابقة التفت الى أراضى البلاد المفتتحة فقسمها الى قسمين وهما خاص وتيمار فكانت ايرادات الخاص للخزينة السلطانية ولامراء العائلة الملوكية ولاعيان الحكومة وايرادات التيمار لرجال الحرب ولم يكن هذان القسمان فى المعاملة كالجفالك لأن أراضيهما كانت عبارة عن حقول يتصرف فيها أربابها بالحرث والزرع ويعطون ماعليها من العشور الشرعية وما يخصها من خراج الانتقال من يد الى أخرى الى المتصرفين فى قسمى الخاص والتيمار وكان يتعين على أصحاب التيمارات بالنسبة لحاصلات تيماراتهم أن يدرب كل واحد منهم فارسا أو فارسين أو أكثر ويعلمه استعمال السلاح ومتى وقعت الحرب اجتمع هؤلاء الفرسان تحت لواء الامير المعينون معه ثم يذهبون تحت قيادته الى ميدان القتال وقد أطلق على هذا الصنف من الجنود اسم سپاهية التيمار وقد خدموا الدولة خدمات جليلة

ولما استقرت قواعد الدولة بهذه النظامات الحديثة التفت الى الفتوحات فاشهر فى سنة ٧٢٧ هـ حربا على بلاد الروم وفى خلالها صادف وفاة حاكم ازميد من كرا قليم قوجه ايلى فآلت ادارة المدينة الى ابنته وكانت ترد لها الامدادات من القسطنطينية ولما حاصر تلك المدينة الغازى عبد الرحمن كاتبته البنت المذكورة سرا فاستولى على قلعتها وأرسل البنت المذكورة مع الغنائم الى السلطان الذى عقد نكاحها على الغازى عبد الرحمن لكونها خدمت وأعانت الدولة وكانت النساء اللاتى يتظلمن للسلطان أورخان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت اليه قلوب الناس ومازال يتقدم فى فتوحاته حتى حضر بنفسه فى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) وحاصر ازميد وأرسل القائدين قره على وايغور ألب مع جنود الى فتح قبون حصار وفى أثناء المحاربة أصيب قلابون حاكم قبون حصار برصاصة فسقط ميتا من سور القلعة وبذلك استولت الجيوش العثمانية على القلعة المذكورة وفى خلالها سلمت بلاقونية حاكمة ازميد (نيقوميديا) المدينة الى السلطان أورخان فاركبها هى وجنودها ومن يريد من أهالى المدينة السفن وأرسل الكل الى القسطنطينية وذلك بناء على رغبتها وبذلك صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية

وفى سنة ٧٣١ هـ فتحت مدينة ازنيق أو أزنيك وغنم العثمانيون منها مغانم وافرة جدا بعد أن اجتهد قيصر القسطنطينية فى خلاصها وكان فتحها على يد الامير سليمن ابن السلطان ولما تم فتحها وأصلح ماتهدم من مبانيها حول السلطان بعض كنائسها الى مدارس ومساجد وعين للتدريس باحدى تلك المدارس العالم الشهير داود القيصرى وجعل على قضائها العالم العامل خليل جندارلى ولما كانت هذه المدينة فى الوقت المذكور من أعظم مدائن تلك الجهات اتخذها السلطان أورخان عاصمة له ولما توفى الوزير علاء الدين سنة ٧٣٢ صار الامير سليمان باشا وزيرا للدولة وفتحت بلاد مدرنى وكمليك وفى خلالها أرسل قيصر الروم جملة هدايا للسلطان أورخان وعقد بين الطرفين مهادنة فى السنة نفسها لمدة عشرين سنة وبموجبها صارت جهات ماينياس وايدنجق وباليكسرى وبرغمه وقرمسى ومخاليج وكرماستى من أملاك الدولة العثمانية ولم يبق بعد ذلك للقياصرة بالاناضول غير مدينة آلاشهر وقلعة بيغا وضم العثمانيون أيضا الى ممالكهم سنة ٧٣٧ مملكة قرمسى وهى أول مملكة اسلامية من الاناضول عند وقوع الاختلافات بين أولاد عجلان بك حاكمها بعد وفاته وفى مدة المهادنة المذكورة تفرغت الدولة للاصلاحات الداخلية وسنة

٧٤٦ ﻫ جددت المعاهدة السلمية مع قيصر الروم وفى التى بعدها ذهب السلطان مع حاشيته الى مدينة اسكدار وتقابل هنالك مع قيصر الروم وتأيدت بذلك المصافاة بين المملكتين

الا أن دولة الروم لما كانت تبطن العداوة للعثمانيين كانت تنتهز الفرص للايقاع بهم فخالفت شروط المعاهدة بعد مضى عشر سنوات من امضائها واتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا فى أغلب الاوقات يهاجمون حدود المملكة العثمانية من جهة البحر فلذلك أصدر السلطان أورخان أمرا الى ولده الامير الغازى سليمن باشا بالاستعداد والزحف على بلاد الروملى فجهز الجيوش وتقدم بها فى سنة ٧٥٧ ﻫ (١٣٥٦ م) حتى وصل الى مدينة جناق قلعة بساحل غربى آسيا على مضيق الدردنيل ثم عقد هنالك مجلسا مع أشهر قواده وهم حاجى ايل وآجه وغازى فاضل وارنوس وكان حاكما قبل لمدينة بروسه ثم اعتنق الاسلام فاتفقوا على عمل صالات (اكلاك) للعبور بها وبعد انشائها ركبوا عليها ليلا من بلدة ايدنجق (ايدوس) وعبروا بها الدردنيل الى ساحل الروملى وعقب عبورهم بقليل استولى الامير سليمن باشا على قلعة جنك Tzympe سنة ٧٥٨ ﻫ (١٣٥٧ م) وهذا العبور هو مبدأ التاريخ البحرى للدولة العثمانية وبعد أن عبر سليمن وجنوده بالكيفية المذكورة أخذ فى اخضاع البلاد التى تقرب من كليبولى وفى تلك الاثناء ظهرت اضطرابات ومنازعات ومناقشات بين أعضاء العائلة الامبراطورية بالقسطنطينية لانه بعد وفاة اندرونيقوس الثالث امبراطور الروم (٧٤١ ﻫ) كان الوارث لسرير السلطنة يوانيس أو يوحنا باليولوغوس ولكونه كان حديث السن قام ناظر سراى الامبراطور المدعو قانتاقوزينوس وأمثاله يطلبون لانفسهم الاستبداد بالملك حتى ان قانتاقوزينوس المذكور طلب من السلطان الغازى أورخان المساعدة وزوجه بابنته تيودورا وعلى ذلك أرسل السلطان الجيوش عدة مرات لمساعدة المستجير به واسعافه ليتمكن من قهر أخصامه ولما شرع الامير سليمن باشا فى اجراء ما عهد اليه به السلطان قام الروم واتفقوا مع أهالى المجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان بقصد قتال سليمن باشا الفتوحاته باوروبا ومداخلته فى أحوال الدولة الرومية فاستعد سليمن باشا لملاقاة قوتهم المتحدة ثم انقض عليهم من جبال البلقان وأوقع بجمعهم ثم تجول فى جهات بلاد البلغار مسكنا اضطراباتها وفى خلال ذلك حصلت منافسات كبيرة بين ملوك المجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان أدت الى منازعات التزم فيها امبراطور القسطنطينية أن يطلب من آل عثمان الاعانة ثانية فأمدوه وتقدم الامير سليمن باشا حتى عسكر تحت أسوار القسطنطينية وسكن ذلك الاضطراب ثم حصلت زلازل جسيمة (٧٥٩ ﻫ) دمرت جملة بلاد وقلاع من تلك الجهات وفى سنة ٧٦٠ ﻫ (١٣٥٨ م) نهض الامير الغازى سليمن باشا بجيش يبلغ عدده ٧٠٠٠ من شجعان العثمانيين الى قلعة كليبولى المعتبرة مفتاحا للبحر المتوسط الابيض فحاصرها مدة أيام حتى تمكن من فتحها ثم استولى بعدها على بولادير وخيره بولى وتكفورطاغ بكل سهولة وبهذا الفتح أظهر الامير المذكور لجميع الدول الاخرى ما للدولة العثمانية الحديثة العهد من السطوة والاقتدار وبينما كان الروم يطلبون من العثمانيين أن يعيدوا لهم هذه الاماكن فى مقابلة مال يدفعونه لهم كانت عساكرهم مهتمة بالفتوحات المتواصلة باراضى الروملى لاشتغال الروم بالمنازعات الداخلية اذ ذاك ففتحت ابصاله ومعلقرة وماجاورهما بكل سهولة وبينما كان الامير سليمن فى القنص يوما

(٧٦١ ﻫ) جمح به جواده وصدمه بقوة فى بعض الاشجار فكان فى ذلك حتفه ومات وهو فى ريعان الشباب مأسوفا عليه من جنوده الذين كانوا يحبونه جدا لما اتصف به من حمية الخصال ودفن بالجامع الذى شيده بمدينة بولاير

ولما بلغ هذا الخبر المؤلم والده السلطان أورخان الغازى حزن عليه حزنا مفرطا ولم يمكث بعده الا زمنا يسيرا وتوفى من كدره فى السنة المذكورة ودفن بمدينة بروسه وخلف ولدين الامير مراد والامير سليمن وكان هذا السلطان كوالده محبا للعلماء والفضلاء شديد الاعتناء والميل الى أصحاب الاستحقاق من الامراء عظيم الشغف فى عمارة واصلاح الممالك التى استولى عليها ولما كانت خزائن الدولة ملأى بالاموال التى اكتسبتها من الغنائم اهتم فى تشييد المدارس والمساجد والقناطر والآثار وغير ذلك من أنواع المبرات وقد قوى رحمه الله بنيان الدولة التى شرع فى تأسيسها السلطان عثمان وتمكن من تحويل أمتها التى كانت قبل ذلك تسكن الخيام وادخالها ضمن الممالك العظيمة

---

(٣) السلطان مراد الاول ابن السلطان أورخان

٧٦١ - ٧٩١ ﻫ

لما جلس هذا السلطان على كرسى الدولة اتبع خطة والده فى الفتوحات ففتح سنة ٧٦٢ ﻫ قلعة انقرة المعروفة بقلعة السلسلة وفى تلك المدة سير أهل البنادقة على العثمانيين عمارة مؤلفة من ستين سفينة افترقت فرقتين تقدمت احداهما الى قلعة كليبولى والاخرى دخلت جون المعارض وأخرجت كل منهما ١٠٫٠٠٠ جندى والتحق بهذا العدد بعض الاهالى ثم تقدم الجميع وهاجموا العثمانيين الموجودين فى الروملى فتلقاهم الجيش العثمانى بجنان ثابت وحمل عليهم حملة منكرة لم يمكنهم بها الثبات أمامه فارتدوا على أعقابهم عند الصدمة الاولى طالبين النجاة تاركين بميدان القتال عددا عظيما من القتلى والجرحى وقدرا وافرا من الذخائر وبعد ذلك وسع السلطان دائرة أوجاق الانكشارية (١) وبذلك تقوت عسكريته ولم يكن للعثمانيين فى هذا الوقت سفن حربية بل كان لهم بعض زوارق يستعملونها بداخل بحر مرمرا فزاد السلطان عدد تلك الزوارق (٧٦٣ ﻫ) (١٣٦١ م) لتساعد على نقل الجيش ومهماته ولما تم له ما أراد منها عبر بجيش الى الروملى وفتح جملة بلاد وقلاع منها بيطورو چورلى ومسلى و برغوس و برغاز وديمتوقه ثم فتح مدينة ادرنة العظيمة فى هذه السنة أيضا وعين عليها لالا شاهين باشا محافظا وأرسل أورنوس بك لغزو كوملجنة وما جاورها من البلاد الكائنة بالجهات الجنوبية من الروملى ثم أخذ هذان القائدان فى الغزو والفتوحات ففتح لالا شاهين باشا (٧٦٥ ﻫ) فلبه و زغره وما جاورها من البلاد وفتح

---

(١) ويقال انه لما نظم اليكجرية بمن الاسرى الذين كان يأخذهم من غزواته أرسلهم الى خدمة الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش ولى ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعو لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند الشيخ قطع كم قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة ولهذا قال البعض ان اسمهم محرف من (بك ايجرى) ومعناه داخل الكم والاصح ان معنى هذا الاسم العسكر الجديد

أورنوس بك سيروز ومناستر وبهشتنه وكوملجنة وموشتة ولما تم فتحها جعلها السلطان صنجقية (٧٨٨ ﻫ) وعين عليها اورنوس بك المذكور والياً برتبة أمير الامراء ووقعت قبل ذلك مدينة صوفية أيضاً في يد العثمانيين بعد أن حاصروها مدة ثلاث سنوات (١٣٨١ - ١٣٨٣ م) وعقب ذلك فتح الصدر الاعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك الشهيرة وفي سنة ٧٨٨ ﻫ (١٣٨٦ م) أخضع السلطان بلاد مقدونيا والبانيا ولما مات في تلك الاثناء الوزير خير الدين باشا وجه مسند الوزارة لولده علي باشا قاضي العسكر

واعلم أنه الى سنة ٧٦٣ لم تكن الحكومة العثمانية تصدت لاخذ الخمس المشروع أخذه من مال الغنائم والاسرى لبيت مالها ولما لم يكن من المناسب اضاعة هذا الحق الشرعي على الخزينة السلطانية كتب قره رستم أحد فحول علماء عصره الى قاضي العسكر خليل افندي يعلمه بذلك فاخبر قاضي العسكر السلطان بهذه المسئلة فصدر أمره بتفويض أخذ الخمس من الغنائم الى الشيخ قره رستم المذكور وقد كان كل أسير يقدر في حكم هذا الوقت بمائة وعشرين درهماً فكان يؤخذ عليه خمس وعشرون درهماً

ولما كانت مدينة بروسة عاصمة العثمانيين صارت في مركز لا يصح معه أن تكون عاصمة لهم فيما بعد لاتساع فتوحاتهم بأوروبا ولبعدها عن مناظرة ما يحدث من الطوارئ بالحدود الاوروباوية رأى السلطان ووزراؤه أن من الاوفق نقل العاصمة الى مدينة بأوروبا فوقع اختيارهم على مدينة ادرنة التي بقيت لهم عاصمة حتى فتحوا القسطنطينية ثم لما بلغه قيام علاء الدين ملك القرمان على العثمانيين سافر سريعاً الى تلك الاطراف وبعد أن هزمه واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من البلاد التي كانت باقية على استقلالها زوج ابنه بايزيد بابنة أمير تلك الجهة لتوثيق روابط المودة بينهما

واقعة قوصوة - وبينما كان السلطان يشتغل بهذه المسائل وغيرها من الامور الداخلية عقد لازار ملك الصرب (٧٩٠ ﻫ) (١٣٨٨ م) اتفاقية مع ملوك الافلاق وأمراء دلماسيا وملك المجر وملك البلغار وتحزبوا جميعاً لمحاربة السلطان وطلبوا من البابا أوربانوس الخامس أن يحرض أوروبا النصرانية لمساعدتهم ثم تقابلت جيوشهم المتفقة في سنة ٧٩١ ﻫ (١٣٨٩ م) مع جيوش العثمانيين في سهول قوصوة (Cossova) وحصلت بين الطرفين معركة من أشهر معارك التاريخ انهزمت فيها جيوش المتحدين هزيمة كلية ومات في الواقعة لازار المذكور وكثير من أمراء وأعيان أوروبا الذين كانوا تطوعوا لقتال العثمانيين وأسر العثمانيون منهم عدداً وافراً وبهذه الهزيمة فقد الصربيون (١) استقلالهم كما فقده البلغار (٢) وبلاد الزوملي وآسيا الصغرى

(١) الصرب مملكة في أوروبا يحدها شمالا النمسا والمجر ومقاطعة اسكلافونيا وبلاد رومانيا ويفصلهما عن بعضهما نهر الطونة وشرقا ولاية البلغار ويفصلهما التيموك وجنوبا ولاية سلانيك وغربا صنجق يكي بازار وولاية بوسنه العثمانية وتتشعب بها جبال كربات والبلقان والالب الدينارية وأكثرها مكسو بالغابات وعلى حافتي نهر الطونة ونهر ساف سهول متسعة مخصبة ومساحة أراضيها ٤٥٫٥٨٢ كيلومترا وعدد سكانها سنة (١٨٨٤) بلغ ١٫٩٠٢٫٤١٩ نسمة بين صقالبة ويهود واسلام وروم وغجر ونحافهم وتجارتها وزراعتها واسعة وأهالي الصرب الاصليون من التراقيين واستولى على بلادهم الرومان وجعلوها قسمين الميزيكوم وسموها موزيا اليا ثم غزاها الهون والاستروغوط وغيرهم وبعد ذلك استولى عليها البزانطيون وبقيت بيدهم الى ٥٥٠ م

من

من قبلهم وبينما كان السلطان مراد يتجول بعد الواقعة مع حاشيته فى ساحة الحرب قام من بين الموتى رجل بلغارى كان مستترا وأظهر التضرع للسلطان وتقدم نحوه كمن يريد تقبيل يده وفى أقل من لمح البصر أخرج خنجرا كان ستره بين ألبسته وطعن به السلطان مراد الاول فى أحشائه فاستشهد لوقته

غزاها الافار فى أوائل القرن السابع وتمكن الصربيون من طردهم وبقيت الصرب تابعة للامبراطورية الشرقية الا أن حكومتها المحلية كانت قوية منتظمة فتأيدت بينهم روح الحرية وحاول رؤساؤهم مرارا الحصول على الاستقلال التام الا أن السلطة الامبراطورية أرجعت بتمامها (٨٧٥ م) مدة باسيل الاول الملقب بالمقدونى وبقيت من بعده الاسبقية فى الصرب للبلغاريين وفى زمن جان ذعيميس كسر شوكتهم ثم أبادها باسيليوس الثانى تماما (١٠١٨ م) واول صربى أنشأ إمارة مستقلة هو اصطفان بوجيرلاس سنة ١٠٤٣ م وابنه ميخائيل لقب قرالا (١٠٥٠ - ١٠٨٠١ م) وحفيده بودن وسع حدود بلاده (١٠٨٠ - ١٠٩٠ م) وأخيرا أسره البزانطيون وصالحهم خلفه ڤلكانوس أوفوك سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٢٧ اتحد أوروش الاول مع المجر لمحاربة البزانطيين واستمرت المنازعات طويلا وأنشأ سنة ١١٦٥ اصطفان نمانيا حفيد أوروش الثانى سلالة ملوكية جديدة تولى على بوسنه وغيرها واتخذ راساى نكى بازار عاصمة له ولذلك سميت مملكة راسيه ووسع خلفاؤه أملاك الصرب واصطفانوس روشان الذى حكم من (١٣٣٦ - ١٣٥٦ م) اتخذ لنفسه لقب قيصر واستولى على جزء كبير من مقدونية والبانيا وتساليا وشمال اليونان والبلغار وقامت عمال الولايات فى أيامه بالثورات ولما خلفه ابنه أوروش الخامس فقد كثيرا من تلك الفتوحات وأخيرا قتل سنة ١٣٦٧ وخلفه فوكاشين الذى اتفق مع اليونان على محاربة العثمانيين وفتح سلانيك سنة ١٣٩٩ الا أنه انكسر وقتل سنة ١٣٧١ وأنشأ لازاروس الاول سلالة جديدة سنة ١٣٧٤ واستولى على أكثر بلاد الصرب وهذا هو الذى انتصر عليه السلطان مراد الاول فى واقعة قوصوه سنة ١٣٨٩ م وأمر بقتله كما ذكر ثم بقيت بلاد الصرب يتنازعها المجر والعثمانيون الى أن ألحقها السلطان محمد الفاتح بالاملاك العثمانية (١٤٥٩ م)

(٢) بلغاريا ولاية ممتازة من الدولة العثمانية الآن يحدها شمالا نهر الطونة ويفصلها من رومانيا وشرقا البحر الاسود وجنوبا جبال البلقان التى تفصلها عن الروملى ومن الجنوب الشرقى برزرين ومن الشمال الغربى بلاد الصرب مساحتها ٣٩,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٢,٥٠٠,٠٠٠ نفس وهم أخلاط بين بلغار وأتراك ويهود وصرب ويونان وأرمن وتتار وجركس وارناؤط وبشناق وأفلاق ومجر وقليل من الاوروباويين ويرويها عدة أنهار وتحدث بها جبال البلقان عدة أودية خصبة ويكثر بهذه البلاد الكروم والغابات وأشجار الورد التى يصدرون عطرها

وكان البلغار يقيمون فى أول أمرهم بشمالى نهر اتل (وولغا) ثم ترك قسم منهم هذه البلاد واستوطنوا أولا على شواطئ نهر الدون ثم امتدوا الى الطونة فى النصف الاخير من القرن الخامس الميلادى وكثيرا ما شنوا الغارة على الامبراطورية البزانطية وأتى جيش منهم يريد مهاجمة القسطنطينية الا أن انسطاسيوس تمكن من صرفهم بعد ان دفع لهم مبلغا وافرا (٥٠٤ م) ثم ظهروا أيضا أيام يوستنيانوس فشتت القائد بليساريوس شملهم ثم ان طوائف الافار قهروا البلغاريين ولكن بعد قليل خلعوا طاعتهم واستقلوا سنة ٦٣٥ م وعقد أميرهم كوفران محالفة مع هرقل وبعد وفاة كوفرات تفرق أولاده الخمسة فاستوطن أحدهم على شواطئ الدون والآخر فى بانونيا والثالث فى البغدان والرابع ذهب الى ايطاليا والخامس واسمه اسبروخ عبر نهر الطونة وفى سنة ٦٨٠ استوطن فى بلاد واقعة بين ذلك النهر وجبل اغوس أى البلقان وكانت الرومان تسمى تلك البلاد ميسيا السفلى ثم دعيت بلغاريا ولما طرد يوستنيانوس من القسطنطينية أرجعه البلغار الى التخت وكورمس أحد خلفاء اسبروخ حارب سنة ٧٥٠ بلاد تراس الآن جنوده قتلته ثم بعده صارت الامارة بالانتخاب بعد أن كانت بالوراثة فانتخبت الاهالى أميرا آخر وحصلت حروب بين البلغار والروم يطول شرحها (٨١١ - ٨١٣ م) وفى سنة ٨٦٠ دخلت الديانة المسيحية فى البلغار وكان عليها بوغوريس الذى اتخذ لقب ملك وكانت منازعاتهم مع البوزانطيين لا تنقطع وسنة ١١٨٦ م عصى بطرس وأخوه اسان من سلالة خانات البلغار القدماء ونادايا بأنفسهما ملكين ومن ذلك الوقت ابتدأت الدولة الاسانية التى استمرت فى حروب مع الروم والمجر والتتار الى سنة ١٣٨٩ م وفيها استظهرت عليهم جيوش العثمانيين تحت قيادة السلطان مراد الاول وعلى الصربيين فى واقعة قوصوه ومن وقتها صارت بلغاريا خاضعة للدولة العثمانية معدودة من ولاياتها

وقبض الحاشية على ذلك الغدار فقطعوه اربا اربا وفى عصر هذا السلطان الشهير اتخذت الدولة العلية اللون الاحمر علما لها وذلك لانه بعد أن تعين تيمورطاش باشا مكان لالا شاهين المتوفى نظم فرق الخيالة العثمانية المسمين بالسپاهى وجعل لهم نظاما جديدا واختار أن تكون أعلامهم باللون الاحمر ومن القوانين التى سنها أيضا أن أصلح قانون الاقطاعات الذى سنه السلطان أورخان فاقطع كل نفر منهم جزأ من الارض يزرعه أصحابه الاصليون مسيحيين كانوا أومسلمين فى مقابلة جعل معين لصاحب الاقطاع بشرط أن يسكن الجندى فى أرضه وقت السلم ويستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم جنديا آخر معه وكان كل اقطاع لا يتجاوز ايراده السنوى ٢٠٠٠٠ غرش يسمى تيمارا ومازاد ايراده على ذلك يسمى زعامت وكانت هذه الاقطاعات لا يرثها الا الذكور من الاعقاب واذا انقرضت ذرية الذكور ترجع الى الحكومة وهى تقطعها الى جندى آخر بنفس هذه الشروط ولما كانت التيمارات تزداد بنسبة ازدياد الممالك العثمانية كثرت أفراد الجند السپاهى حتى نظموا منهم فرقة جديدة أخرى

ومن الحوادث التى وقعت فى مدة هذا السلطان تمرد ولده المسمى صاوو جى بك وشقه عصا الطاعة متحدا فى ذلك مع اندرونيقوس بن يوحنا باليولوغ امبراطور القسطنطينية لان والده كان حرمه من الملك بعده وأوصى به الى ابنه الاصغر المدعو أمانويل وقد ظاهر العاصيين على فعلهما هذا كثيرون من الخونة أصحاب المفاسد الذين لا تروج بضاعتهم الا بتعكير كاس السلام وعند ذلك جرد السلطان على ولده جيشا قويا غير ملتفت للحنو الابوى فقهره وقبض عليه وعلى كثير من أمراء الروم وغيرهم وطلب السلطان من قيصر الروم معاقبة ابنه ففعل بان سمل عينيه ونفاه وكان قبل ذلك ترجى السلطان فى معاقبة ابنه المذكور لخروجه عليه وسبب خروج ابن السلطان عليه أنه بينما كان يهتم بالفتوحات بجهات الروم ايلى ولى ابنه الاكبر بايزيد جهات كرامان وابنه الأوسط يعقوب چلبى جهات قره سى وجعل ابنه الاصغر صاوو جى بك نائبا عنه بمدينة بروسة وفى تلك الاثناء اتفق مع ابن القيصر المذكور وحصل لهما ما حصل

وقد كان هذا السلطان رحمه الله من أعظم الملوك همة وشجاعة محبا للفتوحات تمكن بمساعيه من مد حدود المملكة العثمانية الى شواطئ نهر الطونه وجهات بوسنة ويقال إنه اشترى فى سنة ٧٨٣ من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهى يلواج ويكى شهر وآق شهر وقره أغاج وسيدى شهر وفى زمنه كان اختراع لون وشكل العلم العثمانى على الهيئة التى نراه عليها الآن كما قلناه وكان من النظامات الابتدائية فى الدولة أن يسافر قاضى العاصمة مع الجنود عند سفرهم الى الحرب الا أنه بالنسبة لكثرة الجنود رأى السلطان فى سنة ٧٦٣ هـ عند ذهابه الى الروم ايلى أن يكلف قاضى بروسة العلامة چندرلى قره خليل بأن ينظر فى الدعاوى والخصومات الاخرى التى تقع بين أفراد العساكر فجعله قاضيا للعسكر ولما لم يكن فى هذا الزمن أحد من أولاد السلطان بلغ سن الرشد أحال وظيفة بكلربك الروم ايلى على لالا شاهين بك وفى سنة ٧٧٥ وجهت رتبة الوزارة الى قاضى العسكر المتقدم الذكر وسمى بخير الدين باشا وبعد وفاته وجهت رتبة قاضى العسكر الى ابنه على باشا ثم تعين وزيرا أعظم وبقى منصب الصدارة فى أعقابه حتى زمن السلطان محمد الفاتح وقد ترقت العلوم والمعارف

فى

فى زمن هذا السلطان خصوصا العسكرية ولما كان العثمانيون بذلوا غاية الجد والجهود فى حصار بروسه وأزنيق أحدثوا عمل الاستحكامات فى زمنه واستعملوا المدافع فى واقعة قوصوه

(٤) السلطان يلديرم بايزيد الاول ابن السلطان مراد

٧٩١ - ٨٠٥ هـ

بويع له فى ميدان حرب قوصوه يوم موت أبيه (٧٩١ هـ) وكان عمره ٣٠ سنة وكان على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام ولهذا لقبوه بيلديرم أى الصاعقة فتتبع خطوات أبيه فى الغزو والجهاد وبعد أن بايعه الجنود والوزراء عاد الى بروسه ونقل معه جثة والده فدفنت هناك ثم أرسل قائده الشهير تيمورطاش باشا الى حدود الصرب فاستولى على قره طوه وما حولها من البلاد وأدخل استفان ملك الصرب تحت طاعة الدولة وكان السلطان انتخبه ملكا للبلاد بعد واقعة قوصوه المذكورة وترك له استقلاله بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدد معلوم من الجنود وقت الحرب وطلب من السلطان على لسان قائده أن يتنازل بقبول أخته الاميرة مليچه لتكون زوجة للسلطان فقبل السلطان منه مطلبه وتزوج بها وفى تلك التجريدة استولى القائد المذكور على يكيدو بوسنة ودخل فيروز بك مملكة الافلاق غازيا ففتح وغنم ثم عاد الى بروسه ظافرا غانما

وفى سنة ٧٩٢ هـ استولى السلطان بنفسه على قلعة آلاشهر بآسيا المسماة فيلادلفيا الذى الفرنج وكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية بآسيا ثم استولى على مملكة آيدين صلحا وأحال ادارتها على الامير ارطغرل ولما استولى على سنجق صاروخان ألحقه بمقاطعة الامير سليمن وهى قرمسى ثم أخضع جهات آمدشهر وآق سراى وأضافها الى حكومته وبعد أن أخضع جميع البلاد المستقلة من جهات الاناضول زحف بجيش عظيم على نواحى الروم ملى واستولى على مدينة سلانيك ثانية وكانت لملوك الروم ثم اتفقت البنادقة وفرانسا وجنوة واسبانيا (٧٩٦ هـ) وأرسلت أساطيلها لاخراج العثمانيين من سلانيك فقاومتهم الجيوش العثمانية وألزمتهم الرجوع عنها خاسرين ثم استولى العثمانيون على قلعة يكيشهر ولما عاد السلطان الى بروسه بلغه أن الامبراطور باليولوغوس اتفق مع ملوك المجر والصرب وفرانسا عليه وانهم سيهاجمون بلاده قريبا ولهذا استعد سريعا وعبر بحر مرمرا قاصدا ادرنه ثم تقدم بجيشه وحاصر القسطنطينية وركب عليها المنجنيقات وفى خلالها ساق ملك المجر جيشا على صوفيه وودين ونيكوبولى فالتزم السلطان أن يرجع عن القسطنطينية ليقابل جيش المتحدين ولما التقى الجمعان هزمهم شر هزيمة وهرب ملك المجر فى زورق بنهر الطونه وأخذ العثمانيون عدة آلاف من الاسرى وغنموا غنائم وافرة ويقال ان قتلى جيش المتفقين بلغوا ٨٠ ألفا

وفى سنة ٧٩٨ هـ أرسل السلطان يلديرم بايزيد تحسين بك ابن تيمورطاش باشا الى ضواحى الاستانة فاستولى على حصار شيله وتقدم داخل سنجق قوجه ايلى حتى وصل الى مضيق البحر الاسود وهناك أنشأ قلعة أناضول حصار الشهيرة ولما خاف امبراطور القسطنطينية من تقدم السلطان بايزيد مع عدم مقدرة من يتصدى له من ملوك أوروبا الذين استجار بهم أرسل جملة هدايا يستجلب بها

رضا السلطان متعهدا بدفع جزية سنوية معينة وعجل بدفع جزية سنة ورضى بان يسكن المسلمون القسطنطينية وأن يكون لهم بها مسجد وقاض يحكم في نوازلهم وكان ذلك على يد على باشا الصدر الاعظم

ولما علم ملك بخارى بما حازه العثمانيون من الانتصارات بعث يهنئ السلطان وأرسل له سيفا مرصعا نفيسا سنة ٨٠٠ لما أوتيه من الفتوحات الباهرة اذ كانت العادة جارية اذذاك بانه متى انتصر السلطان على أعدائه أخبر ملوك الاسلام المعلومين بتلك الانتصارات بمكاتيب يرسلها اليهم ولقبه أيضا الخليفة العباسى بعصر المتوكل بن المعتضد بلقب سلطان أقاليم الروم وفى تلك الاثناء غزا أطراف البلغار ومقدونيا وبحيجزيرة مورة ومدينة أثينا وجهات ترحاله واستولى على معظم تلك الجهات ثم تفرغ بعد ذلك للاستعداد لحصار القسطنطينية مرة ثانية وبينما هو يهتم فى ذلك اذ أغار تيمورلنك على المملكة العثمانية فاستعد السلطان لملاقاته وجمع جنوده وذهب فعسكر قريبا من مدينة انقرة ولما استعد الطرفان للقتال ووقعت العين على العين انفصل جنود آيدين ومنتشا وصاروخان الذين بجيش العثمانيين وعددهم خمسون ألفا وانضموا الى تيمورلنك لوجود أمرائهم الاصليين الذين استولى العثمانيون على بلادهم معه وكانوا التجؤا اليه لما شاهدوه من باسه فضعفت بذلك قوة العثمانيين جدا وداخلهم الخوف ووقع الخلل فى صفوفهم ولم يبق لهم الا الانكشارية وعددهم عشرة آلاف وعساكر الروملى ولما اشتعلت نيران الحرب انهزم العثمانيون هزيمة منكرة ووقع السلطان بايزيد مع ابنه أسيرا فى يد تيمورلنك فلم يقتله وأكرم مثواه وفى رواية أنه أهانه وأبقاه بطرفه ثم انتشر التتار فى داخل المملكة العثمانية يخربون وينهبون ما أرادوا وقد كانت هذه الهزيمة سببا فى تراكم الهموم على السلطان فاصابه مرض توفى به سنة ٨٠٥ هـ وصرح تيمورلنك للامير موسى جلبى ابنه بأن يدفن أباه فى مقابر سلاطين العثمانيين فنقله الى بروسة ودفنه بالجامع الذى شيده فيها وهذا دليل على احترام تيمورلنك للسلطان بايزيد وترك المرحوم المشار اليه من الاولاد سبعة وهم أرطغرل وموسى جلبى وسليمان وعيسى ومحمد ومصطفى وقاسم وكان السلطان بايزيد رحمه الله من خيار الملوك وبطلا من أشجع الابطال وكان علىّ الهمة قوى النفس وساد الامن فى أيامه حتى كان الرجل يصادف الحمل من البضاعة مطروحا فى الطريق فلا يتعرض له وكان شديد البطش محبا للفتوحات فتح عدة مدن لم تصلها جيوش العثمانيين من قبله

الفصل الخامس

من اغارة تيمورلنك الى فتح القسطنطينية

٨٠٥ – ٨٥٧

فاصلة السلطنة

٨٠٥ – ٨١٦

وقائع الدولة بعد واقعة أنقرة (٨٠٥ - ٨١٦ هـ) - قد كان تيمورلنك بعد غلبته على العثمانيين يقصد تمزيق دولتهم وتفريق جامعتهم وان لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة ولهذا ساعد أمراء بلاد الاناضول على استرجاع البلاد التى كانت لهم سابقا وافتتحها العثمانيون ثم قامت المنازعات فى السنة التى مات فيها بايزيد بين أولاده بخصوص الجلوس على كرسى السلطنة وانضم الى كل شيعته فذهب سليمان الى بروسه ووضع يده على بيت مالها ثم توجه الى أدرنة وجلس على تخت السلطنة المضطربة الاركان بمساعدة الجنود ووقعت الفوضى فى برالاناضول ونازل أولاد السلطان فيها بعضهم بعضا ووقع الامير موسى فى يد المغول واختفى الامير عيسى بمكان ببروسة ثم أعلن سلطنته بمساعدة الوزير تيمورطاش وذهب الامير محمد الى أماسيا منتظرا سنوح الفرصة وكان تغلب على عسكر المغول فى بعض الوقائع واسترد منهم بعض المدن

ثم ان الامير سليمن التجأ الى أمبراطور القسطنطينية امانويل الثانى خوفا من المغول واتفق معه على ان يمده بالجنود والاموال ليقبض على زمام السلطنة وتنازل له فى مقابلة ذلك عن بعض جهات منها سالونيك وتزوج احدى قريبات الامبراطور ولما بلغ موسى چلبى انتصار السلطان محمد بالاناضول واشتباكه فى الحروب مع التتار وغيرهم تقدم هو نحو بروسه يريد الجلوس على تختها ومما زاد الحالة ارتباكا والامور صعوبة أن أولاد السلطان بايزيد كانوا يستعينون بتيمورلنك على بعضهم فكان يحرضهم على مقاتلة بعضهم ليخربوا بيوتهم بأيديهم وبعد ان تمكن تيمورلنك من تمزيق شمل المملكة العثمانية ورد غالب الامراء الذين انتزع منهم العثمانيون بلادهم الى ممالكهم وأطاعته آسيا الصغرى بأكملها داخله الطمع لحب الاستكثار من الدنيا فسار يقصد بلاد الصين الغنية ليخضعها لسلطنته الا ان المنية لم تمهله اذ مات فى سن متقدم باحدى مدن اقليم خوقند (٨٠٧ هـ) (١٤٠٤ م)

وبعد أن ترك تيمورلنك [1] بلاد الاناضول استمرت المقاتلات بين من بقى من أولاد السلطان

(١) تيمورلنك هو من أشهر سلاطين المغول ويقال انه يتصل نسبه من جهة النساء الى جنكيزخان ولد فى قرية خوجه ايلغار من أعمال كش من بلاد ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) ولما بلغ سنه ٢٤ سنة اشتهر فى حروب أهلية قامت فى بخارى ثم حصلت بينه وبين السلطان حسين صاحب هراة أمور يطول شرحها وأخيرا تغلب عليه تيمور وقتله مع بنيه واستبد بالمملكة سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) ثم شرع بعد ذلك فى فتوحات عظيمة فوجه قوته الى بلاد فارس وأخضعها سنة ٧٨٢ ودخل خراسان واستولى على هراة سنة ٧٨٥ هـ ثم اجتاز نهر الرس من بلاد أرمينية ووصل الى بلاد الكرج واكتسحها وفتح تفليس وأسر ملكها بكراديوس الخامس وحمله على الاسلام وبعد رجوعه من بلاد الكرج استولى على أهم مراكز التر كمان فى أرمينية وسنة ٧٨٩ هـ فتح أصفهان عنوة وبعدها قامت بينه وبين الصقالبة حروب هائلة استمرت من سنة ٧٩٠ الى ٧٩٦ وأخيرا ظفر بهم وسنة ٨٠١ هـ دخل بلاد الهند واستولى على دلهى وذبح عددا كثيرا من الهنود فخضعت له امراء تلك الاقطار ثم عاد الى بلاده سنة ٨٠٢ هـ وفى تلك الايام كان امبراطور الروم قد خاف من تهديدات السلطان بايزيد بالقسطنطينية فارسل رسولا من طرفه الى تيمورلنك يطلب نجدته على العثمانيين فاجاب الى ذلك وشرع فى منازلتهم سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فاستظهر فى واقعة قيصرية على ابن السلطان بايزيد ثم حاصر سيواس فبعث أهلها اليه نحو ألف ولد حاملين نسخا من القرآن وهم يضجون الى الله راجين نوال عطفه غير أن جبروت وقساوة تيمورلنك ساقته الى أن أمر جيشه فداسوا الاولاد بخيولهم وفتح سيواس عنوة وأحرقها ثم حارب جيوش الظاهر برقوق ملك مصر وهزمها وفتح حلب ودمشق

وقتل الامير محمد أخاه الامير عيسى بعد ان حاربه عدة مرات وبذلك خاصت جميع آسيا الصغرى للامير محمد بلا منازع ثم تمكن بعد ذلك من استخلاص أخيه موسى وكان عند أمير كرميان سلمه اليه تيمورلنك قبل سفره وأوصاه بالمحافظة عليه ثم ان الامير محمد جهز لاخيه عيسى جيشا عظيما وأرسله الى أوروبا لمحاربة أخيه الامير سليمن الذى كان استقل بها الا انه لم يتمكن من قهره بل عاد منهزما ومال الى آسيا ثم جمع جيشا آخر وعاد به الى أوروبا واقتتل مع أخيه سليمن خارج مدينة أدرنة وقتله (٨١٣ ﻫ) ثم أغار موسى على بلاد الصرب معاقبا لاهلها فى خروجهم عن الطاعة وقهر ملك المجر سجسموند لانه أراد صده عن الدخول الى بلاد الصرب ثم ان الامير موسى داخله الطمع والكبر بما أوتيه من النصر فعصى أخاه محمدا وأراد الاستقلال ببلاد الدولة التى بأوروبا وحاصر القسطنطينية يريد فتحها لنفسه فاستنجد ملكها بالامير محمد فأتى اليه مسرعا وقاتل أخاه حتى ألزمه برفع الحصار عنها ثم تحالف الامير محمد وملك القسطنطينية وملك الصرب وأخذوا فى نصب المكايد والحيل للامير موسى حتى تفرق عنه جيشه وغالب قواده ثم قبض عليه أخوه وقتله (٨١٦ ﻫ) وبذلك انفرد الامير محمد بالسلطنة العثمانية بلا منازع

(٥) السلطان محمد الاول الملقب بچلبى بن بايزيد الاول

٨١٦ - ٨٢٤ ﻫ

لما استقل بالملك بعد النزاع الطويل الذى حدث بينه وبين اخوته وجلس على تخت آبائه بلا منازع أتته رسل ملوك أوروبا والروم مقدمين له التهانى بالنيابة عن ملوكهم فرحب بهم وأكرمهم ثم شرع فى اصلاح الامور وكان الخلل تطرق الى جميع الادارات ولذلك عقد الصلح مع الدول الاوروباوية المجاورة له وقوى معهم روابط المحبة والمصافاة ورد الى الامبراطور أمانويل بعض الحصون والولايات التى اخذها منه الامير موسى وغير ذلك ليتفرغ الى ما عزم عليه ولولا ذلك لخيف على وحدة الدولة العثمانية ولما كان سعيد الطالع عادلا كريما شفوقا على الرعية لايسعى الا لما فيه خير أمته تكللت مساعيه بالنجاح وكذا كل أمر أخلصت فيه النية وهو أول من شرع فى ترتيب العساكر البحرية وبناء السفن فى ازميد وكليبولى وبعض السواحل ونقل كرسى السلطنة الى أدرنة وأعاد رونق السلطنة بعد أن تداعت جوانبها الى السقوط

ولما خرج حاكم الافلاق عن دائرة الطاعة العثمانية (٨١٩ ﻫ) تقدم السلطان بجيشه وعبر نهر الطونة وانشأ قلعة يركوى على ساحل الافلاق وعمر قلعتى ايساقچى ويكى ساله ثم توسط بعض حاشية السلطان لملك الافلاق فعفا عنه ورده الى ملكه ثم تقدم الجيش العثمانى الى داخل بلاد المجر

وكثيرا من بلاد سوريا ثم تقدم وفتح بغداد ونهب ما فيها وقصد بعد ذلك محاربة السلطان بايزيد وكان متخوفا منه فالتقت الجيوش بجهة انقره سنة ٨٠٤ ويقال انه كان مع تيمورلنك ٨٠٠ ألف ومع السلطان بايزيد ٤٠٠ ألف مقاتل وكان امام صفوف تيمور صف من الفيلة وعليها الرجال ترمى بالنبال وتقذف النار فانهزم عسكر بايزيد وقبض عليه تيمورلنك وعامله بالحسنى ووعده باعادته الى مملكته غير انه لم يف بالوعد بل سجنه فى قفص من الحديد وحصل ما سبق شرحه الى أن قصد تيمورلنك محاربة الصين واجتاز نهر سيحون على الجليد وتقدم الى جهة أوترار من بلاد تركستان فمات هناك بالحمى سنة ٨٠٧ ﻫ (١٤٠٥ م) وعمره ٧١ سنة ملك منها ٣٦ سنة

لتعرض

لتعرض سجسموند لامور بلاد الافلاق وفتح قلعة سورين ولما كان ملك المجر غير قادر على المقاومة قدم للسلطان هدية مفتخرة أرسلها مع ثلاثة سفرا من أعيان المجر وبعد عقد معاهدة الصلح معهم عاد السلطان الى أدرنة منصوراً غانماً ثم سكن بعض الاضطرابات الداخلية وكانت كثيرة من أهمها ظهور رجل يدعى بدر الدين وكان من مشاهير العلماء وكان عند الامير موسى بوظيفة قاضي عسكر وكانت اركان مذهب هذا الرجل المساواة بين الناس فى الاموال وسائر المقتنيات بلا فرق بين مسلم وغيره لاعتباره الكل سواء فتبعه خلق كثير من أرباب البطالة والكسل من جميع الملل والنحل حتى خيف على البلاد منه فارسل عليه السلطان محمد الجيوش وبعد أن دارت رحى الحرب زمناً بين الطرفين وكانت سجالاً تمكن الوزير بايزيد باشا من قهر جيش بدر الدين المذكور وكان تحت قيادة رجل من اتباعه يدعى مصطفى وذلك بضواحي ازمير بمكان يقال له قره برون وقتل كثيراً من اتباعه ثم ان السلطان تعقب بدر الدين الى ان تمكن من القبض عليه ببلاد مقدونية بعد ان أظهر شدة ومقاومة وأمر به فقتل (٨٢٠ هـ) بفتوى قاضي العسكر ولم يكد السلطان محمد يستريح من عناء هذه الفتن حتى ظهر أخوه الامير مصطفى وكان اختفى يوم هزيمة انقرة ولم يوقف له على خبر ولما ظهر وطالب أخاه بسرير الملك انضم الى حزبه قره جنيد أمير ازمير السابق وغيره من القواد والجنود وأمده أمير بلاد الافلاق بجيش لتستمر القلاقل والاضطرابات فى المملكة العثمانية ويتمكن بذلك أمير الافلاق المذكور وغيره من أمراء شبه جزيرة البلقان من الخروج عن دائرة التبعية العثمانية ثم ان الامير مصطفى أخذ يشن الغارة على بلاد مقدونيا وتساليا ولما أدركته جنود السلطان انهزم والتجأ الى مدينة سلانيك وكانت عادت الى مملكة الروم كما سبق ولما طلب السلطان تسليمه اليه أبى عليه ملك الروم وتعهد بعدم التصريح له بمفارقة سلانيك مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان ذلك ورتب لاخيه راتباً سنوياً يعيش منه (٨٢٢ هـ) ولقد كانت هذه الفتنة آخر الفتن الداخلية التى حدثت بالمملكة بعد تيمورلنك وبعد ذلك تفرغ السلطان لاصلاح المملكة وتنظيم الجنود والنظر فيما يعود على الدولة بالترقي وبينما هو يجد فى ذلك اذ فاجأته المنية بمدينة ادرنة (٨٢٤ هـ) وأوصى بالملك من بعده لابنه مراد ولقد كان رحمه الله عالى الهمة فاضلاً تقياً ذا عفة وورع وشفقة على الرعية يعفو عن المسيء ويحسن الى البائس وقد اشتهر بمحبته للعلوم والفنون وهو أول سلطان عثمانى رتب الهدية السنوية التى ترسل للآن الى الحرمين الشريفين باسم الصرة وقال بعضهم ان أول من أرسل الصرة هو السلطان الغازى سليم الاول بعد فتحه مصر (٩٢٣ هـ) الا أن رواية المؤرخين الذين يوثق بكلامهم تؤيد ان السلطان محمد چلبي هو أول من رتب ذلك وترك خمسة أولاد وهم الامير مراد والامير مصطفى والامير أحمد والامير يوسف والامير محمود

---

(٦) السلطان مراد خان الثانى ابن السلطان محمد الاول

(٨٢٤ – ٨٥٥ هـ)

لما جلس هذا السلطان على كرسى السلطنة كان عمره ثمان عشرة سنة وبعد أيام من جلوسه

أرسل له أمير بخاري سيفا نفيسا فتقلده في بروسة ثم التفت الى بلاده مهتما باصلاح شؤنها وكان محبا للغزو والفتوحات وتوسيع أطراف سلطنته الا انه كان له من أحوال مملكته ما يشغله عن مراده ولذلك سعى حتى ابرم صلحا مع أمير القرمان وهدنة مع ملك المجار لمدة خمس سنوات وبينما هو يسعى في هذا الطريق السلمي اذ طلب منه امانويل ملك القسطنطينية التعهد له بان لا يحاربه مطلقا وأن يعطيه اثنين من اخوته تأمينا على هذا العهد رهنا على قيامه بهذا الشرط والا أطلق سراح عمه مصطفى بن بايزيد من سلانيك وتركه يعيث في انحاء السلطنة فلم يقبل السلطان مراد بذلك أصلا ورد طلبه فاطلق عند ذلك أمانويل الامير مصطفى وجهزه بما يلزم من الذخيرة والجنود وأعطاه عشر سفن حربية جعل على قيادتها أحد رجاله المدعو دمتريوس لاسكاريس فاتت هذه العمارة وحاصرت مدينة غاليبولي وشددت عليها الحصار حتى سلمت بعد أيام الا قلعتها ثم تركها الامير مصطفى وحولها من الجنود من يضيق عليها الحصار ويمنع وصول المدد اليها وقصد مدينة أدرنة تخت السلطنة باوروبا فلاقاه في الطريق الوزير بايزيد باشا وعند ذلك نادى الامير مصطفى في جنود السلطان بانه هو الاحق بالسلطنة واعد من ساعده منهم بالمكافأة العظيمة فأثر كلامه في الجنود حتى انهم قتلوا الوزير بايزيد باشا وانضم اليه بعضهم

ثم تقدم وتلاقى مع ابن أخيه السلطان مراد فرحا ظانا ان الدهر ساعده على مطلوبه الا أن الجنود لم تطاوعه هذه المرة بل حملت عليه حملة منكرة فبددت شمل جيشه وتخلص هو ناجيا الى مدينة غاليبولي فقبض عليه هناك وسلم الى السلطان مراد الذي أمر بشنقه ولما كان امبراطور القسطنطينية هو السبب في هذه المشاكل والمذابح عزم السلطان على معاقبته فاستعد لحصار مدينته وجرد عليه جيشا يبلغ مائتي ألف مقاتل ثم تقدم وحاصر هو المدينة بنفسه سنة ٨٢٥هـ (١٤٢٢ م) حصارا شديدا وهذا هو الحصار الرابع للعثمانيين الا أنها لما كانت حصينة امتنعت عليه ولم يتمكن من التفرغ لها لان الثورات كانت قامت بجهات الاناضول بتحريضات أخيه الامير مصطفى جلبي الذي شق عليه عصا الطاعة وقد تمكن السلطان من قهره وقتله وكان الامير مصطفى هذا استعان على أخيه السلطان مراد ببعض أمراء آسيا الذين كان تيمورلنك ردّ اليهم أملاكهم التي انتزعها العثمانيون منهم ولما كانت مساعدتهم لاخيه الثائر عليه منافية لحق الجوار أغار السلطان على بلادهم وانتزعها منهم وأضافها ثانية الى مملكته وكان منهم أمير قسطموني وأمير صاروخان ومنتشا وأمير بلاد القرمان ولما استراح السلطان من شرورهم أمكنه التفرغ للنظر في الفتوحات الخارجية التي كان يستعد لها من زمن فجرد على ملك المجر أشد معانديه وبعد ان قهره ونكل به ألزمه بالتوقيع على معاهدة تقضي بان يكون نهر الدانوب فاصلا طبيعيا للاملاك العثمانية عن أملاك المجر وقبل أيضا ملك الصرب جورج برانكوفيتش دفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠٠٠ من الذهب وان يمد السلطان بفرقة من جنوده في زمن الحرب وان يقطع كل صلة بينه وبين ملك المجر وان يتنازل أيضا عن مدينة الاجه حصار (كروشيفتس) الكائنة في وسط بلاد الصرب ليجعلها السلطان حصنا تقيم به جنوده ثم انه جرد على مدينة سلانيك قصد افتتاحها ولما توفي امبراطور القسطنطينية أمانويل (١٤٢٥ م) وخلفه يوحنا باليولوغوس واعترف السلطان مراد رسميا بجلوسه على تخت القسطنطينية فرض عليه جزية معلومة يدفعها لخزينته في

كل

كل سنة وشرط عليه أن يتنازل له عن جميع البلاد خلا القسطنطينية وضواحيها وقد التزم الامبراطور الجديد بهذا الاقتراح وبذلك استولى السلطان مراد على جميع القلاع والحصون الباقية تحت تصرف الروم على شواطئ البحر الاسود وسواحل الروملي

استرداد سلانيك (٨٣٢هـ) - لما كان السلطان مراد استرد كل المدائن والبلاد التي كانت للعثمانيين مدة السلطان بايزيد بل زاد عليها وكانت مدينة سلانيك من المدن التي وقعت في قبضتهم واستولى عليها الروم ثانية أراد اخضاعها أيضا فجرد عليها يريد حصارها وكان المتولي على هذه المدينة وما يتبعها اندرونيك ثالث أولاد القيصر المتوفى وكان أهلها لما رأوا أنهم لا يقوون على صد مهاجمة العثمانيين عنها سلموها بالرغم عنه للبنادقة (١٤٢٥ م) لما عهدوه فيهم من المهارة باساليب الحروب وفنون القتال ولما تسلط البنادقة على سلانيك أظهروا لاهلها في أول الامر العدل ورقة الجانب وأطلقوا لهم الحرية في أن يحكموا أنفسهم حسب قوانينهم الا أن ذلك لم يدم زمنا طويلا لانهم أخذوا يوجدون أسبابا متنوعة لاذلالهم ونفوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم في جزائر الارخبيل التي كانت يومئذ في حوزتهم ولو أمهلهم السلطان مراد لكانوا بدلوا جميع سكان سلانيك بغيرهم ولما كان هذا السلطان العظيم لا ينظر بعين الرضا الى استيلاء البنادقة على هذه المدينة المهمة لانهم من ألد أعدائه مظهرا رغبته في افتتاحها نهائيا اجتهد البنادقة في احباط مسعاه واستغاثوا بالقيصر يوحنا ليتوسط بينهم وبينه فأرسل يوحنا الى السلطان مراد سفيرا يذكره بان هذه المدينة التي عزم على افتتاحها ليست من مدن الاعداء بل هي من المدن التابعة للقسطنطينية فقال السلطان لو كانت هذه المدينة باقية بيد اندرونيك أخي يوحنا لما كان قصدها بالشر ولما أخفق سعي القيصر وعلم البنادقة إصرار السلطان على قصده حصنوا تلك المدينة تحصينا قويا وأرسلوا عمارتهم لاحراق السفن العثمانية الراسية في مينا غليبولي قصد عرقلة مساعي السلطان فيما يقصد وكانت تلك العمارة تحت قيادة اندراوس موكينكو أميرال خليج البنادقة وبعد أن هاجم العمارة العثمانية في خليج غليبولي ولم يقو على نيرانها ارتد مقهورا ولقد كانت هذه النصرة البحرية من الاسباب التي أعانت العثمانيين على فتح سلانيك ثم شدد العثمانيون الحصار على المدينة ففتحوها عنوة وهربت منها حامية البنادقة الى سفنهم (١٤٢٩ م ٨٣٢ هـ) ولما وقعت سلانيك في أيدي العثمانيين تزعزعت أركان سلطنة الروم وانخلعت لها قلوب أهل القسطنطينية وصاروا من ذلك الوقت يتوقعون أن يصيب مدينتهم ما أصاب تلك المدينة العظيمة وبعد ان ملكوا سلانيك أخذوا في مد سطوتهم في تلك الاطراف فاستولوا على اخائية وابيرة وبانية وغيرها وكانت الدائرة فيها طورا على الروم وطورا على العثمانيين الا أنهم كلما أرادوا الدخول الى بلاد البانيا صدهم أهلها فرجعوا منتظرين الوقت المناسب

وبعد ذلك التفت السلطان الى الاهتمام بالتنظيمات الداخلية بينما كانت قواده مثل علي بك وعيسى بك أولاد أورانوس واسحق بك وعثمان چلبي بن تيمورطاش باشا وغيرهم يهتمون بفتح جهات أخرى من بلاد مقدونية وتساليا وكان سنان باشا بكلربك الروملي استخلص جميع المدن والبلاد التي بجهات برزخ كورنثة وعاث بجهات مورة ثم قصد بلاد المجر ففتح وغنم وذلك لان ملك المجر كان اتفق

مع ابراهيم بك بن قرمان سرا على الاخلال براحة الدولة وشق عصا الطاعة وقد تعدى بالفعل على بعض أقاليمها (٨٣٩ هـ) ثم ان السلطان قصد مدينة قونية واستولى عليها من يد ابن قرمان (٨٣٩ هـ) الذى طلب العفو من السلطان عما صدر منه فأقره لذلك على قونية بشرط التابعية

محاربة الصرب والمجر [1] وواقعة وارنة الشهيرة — انه بعد ان نكل السلطان بابن قرمان رأى

(١) بلاد المجر أو هنكاريا مملكة من دولة النمسا يحدها شمالا جبال كربات الفاصلة لها عن غاليسيا وشرقا بلاد ترانسلفانيا وجنوبا نهر الطونه الذى يفصلها عن الدولة العثمانية وعن بلاد كرواسيا وغربا بلاد استيريا ودوقية أوتريش وموراڤيا ومسطحها نحو ٢٢٦٬٥٩٧ كيلومترا مربعا وسكانها يبلغون ١٢٬٠٠٠٬٠٠٠ من الانفس نصفهم تقريبا من المجر ومابقى أخلاط بين صقالبة وصرب ورومان ويهود وغير ويروى هذه البلاد نهر الدانوب وما يصب فيه من النهيرات ويوسطها سهل عظيم وبجهاتها الجبلية غابات وافرة وهواؤها شديد البرودة بالجبال معتدل صحى فى السهول ومن حاصلاتها الوافرة الحبوب والكروم والتبغ الجيد والخضراوات والثمار وفيها خيول جيدة وأراضيها كثيرة المعادن والاحجار النفيسة وفيها أيضا مياه معدنية معتبرة يستشفى بها وعندها كثير من المصانع والمعامل المختلفة

وهذه البلاد وان كانت خاضعة لامبراطور النمسا الا أن لها نظاما خاصا بها وأراضيها تشغل الآن مكان بلاد پانونيا الشمالية وداسيا الشرقية وقسما من جرمانيا القديمة وقد أخضع قواد الامبراطور أغسطس هذه البلاد بعد أن قاومهم سكانها مقاومات عنيفة ثم أخضعها الغوط سنة ٢٧٥ م والوندال سنة ٣٣٧ م والهون سنة ٤٠٧ م حتى موت ملكهم أتيلا ٤٥٣ م ثم ان اللومبارديين طردوا قبائل الجيبد الذين احتلوا البلاد بعد الهون ٥٦٧ م وفى ٥٦٨ م أقبلت طوائف الافاره ونزلوا هذه البلاد الى أن تغلب عليها شارلمان سنة ٧٩٩ م وضمها الى دولة الفرنك أما المجر وهم من أصل فنلاندى فقد استولوا على هذه البلاد سنة ٨٨٩ وفى مدة ملكهم ارطاد الاول وخلفائه من بعده أغار المجر على بلاد المانيا وفرانسا وايطاليا وخربوها وقد اهتم ارطاد بتنظيم البلاد والحكومة ورتب جيشا وقسم البلاد الى كونتات وفى سنة ١٠٠٠ من الميلاد اعتنق أتيين الاول ملكهم الديانة النصرانية ولقبه البابا بلقب ملك وسن للبلاد قانونا وأخضع بلاد ترانسلفانيا والبلغار وقهر الصقالبة ثم ان بعض الملوك من الاجانب حكموا هذه البلاد بسبب ثوراتها الداخلية الى أن أتى لادسلاس الاول (١٠٧٧ م) وتمكن من تسكين الاضطرابات وقهر الافلاق والروس والپولونيين والبوهيميين واستولى على بلاد كرواسيا وتعرض ابنه المدعو كولومان لجيش الصليبيين الذى كان تحت قيادة غوتيه وغونشالك فأباد قسما منه وأخضع دلماسيا ولما قسم الامبراطور كونراد الثالث الدولة نزل بكونتية ترانسلفانيا أقوام من الفلامانديين سنة ١١٤٨ م ولما قام الملك بيلا الثالث أدخل الى بلاد المجر عوائد وأخلاق الاغريق ثم تزوج بمرغريتا ابنة لويز السابع ملك فرانسا واشترك اندريا الثالث فى الحملة الصليبية الخامسة ونظم للبلاد قانونا (١٢٢٢ م) وفى مدة حكمه أخذ أهل خوارزم فى شن الغارة على بلاد المجر الى أن أخضعوها وأقاموا ينهبون بها مدة ثلاث سنوات (١٢٤١ م) وتمكن اتيين الخامس من قهر البوهيميين والنمساويين والبلغار وتلقب ملك البلغار ولما زالت العائلة الملوكية من هذه البلاد وهى عائلة ارپاد انتخب المجريون وانسلاس ملك بوهيمية ثم انتخبوا أوتون ملك باڤيرا ثم ان البابا كليمان الخامس فى سنة ١٣١٠ جعل المجر يعترفون بشارل روبير كونت بلاد أنجو ملكا عليهم وعند ذلك ترقى أمر المجر وازدادت سلطتهم وسطوتهم حيث أخضعوا بلاد كرواسيا والصرب وترانسلفانيا ودالماسيا ولما صعد ابنه لويز الاول على تخت المجر جرد على مملكة نابولى (١٣٤٨ م) فقهرها وسنة ١٣٧٠ م حكم على بلاد المجر وبولونيا ولما قام سجسموند أمير لوكسامبورغ وتزوج الملكة مارى التى حكمت بعد أبيها لويز الاول تمكن من حماية بلاد المجر من اغارات لادسلاس ملك بولونيا الا أن العثمانيين قهروه بمدينة نيكوبوليس (١٣٩٦ م) وفى سمندرية (١٤١٢ م) ولما ارتقى امبراطورا على المانيا تنازل له طاغية الصرب عن مدينة بلغراد التى اتخذها حصنا يدافع به عن بلاده من اغارة العثمانيين عليها وقد أجرى بالبلاد عدة تنظيمات وتحسينات ثم انه اضطر لاخلاء بلاد بوهيمية ثم ان جان هونياد أمير ترانسلفانيا والنائب عن لادسلاس الخامس انتصر على العثمانيين بمدينة

من

من الضرورة تأديب ملك المجر وجورج برانكوفتش أمير الصرب لاتفاقهما على الاضرار بالعثمانيين ولما سار الجيش العثمانى وعبر نهر الطونة دخل بلاد المجر وعاث فيها حتى بلغ بلاد طمشوار وهرمانشتاد وذهبت فرقة منه الى بلاد الصرب فاستولت على مدينة سمندرة عاصمة تلك البلاد ثم شرع الجيش العثمانى فى حصار مدينة بلغراد الا أنه لم يتمكن من فتحها وبعد ذلك طلب أمير الصرب أن يزوج ابنته للسلطان ويعقد معه صلحا فقبل السلطان منه ذلك الا أنه لما علم أن أعماله كانت ولا تزال مجلبة عليه غضب السلطان فر ملتجئا الى ملك المجار لادسلاس ولهذا رأى السلطان من الضرورة سوق الجيش مرة ثانية على بلاد المجر ولما دخلها الجيش العثمانى أخذ فى شن الغارة عليها حتى بلغ مدينة هرمانشتاد وشرع فى محاصرتها وفى هذه الاثناء كان ظهور رجان هونياد المشهور أمير الاردل وفى خلال ذلك نهض البابا أوجيلينيوس وشرع فى عقد تحالف بين دول الفرنج وعصبهم على محاربة العثمانيين فتصدى لادسلاس ملك المجر وبولونيا وتقدم بعساكره تحت قيادة جان هونياد القائد المجرى الشهير بعدما انضم الى جيشه جمهور من الفرنساويين والجرمانيين وقصدوا جيوش العثمانيين فى جوار هرمانشتاد سنة ٨٤٥ هـ وكان حاكم بلاد ترانسلفانيا التى منها مدينة هرمانشتاد المذكورة تابعا لملك المجر وكان على هذا الاقليم جان هونياد المذكور الذى أتى مسرعا للدفاع عن هذه المدينة فانتصر على العثمانيين وقتل منهم قدرا عظيما حتى ألزم من بقى منهم الى القهقرى ولما علم السلطان بذلك أرسل جيشا آخر تحت قيادة شاهين باشا فأصابه ما أصاب الاول من هونياد وجنوده ووقع شاهين باشا أسيرا فى موقعة قرب بلدة يقال لها وازاج ٨٤٥ هـ وكان السلطان فى خلالها مشتغلا بمحاربة ابراهيم أمير بلاد قرمان وبعد ان قهره السلطان كان المجريون تقدموا واتفقوا مع الصربيين على محاربة العثمانيين ولما تلاقوا معهم جهة بلغراد صدتهم العساكر العثمانية فانقلبوا على أعقابهم وكانت هذه الفعلة خدعة منهم لانه بينما كانت جيوشهم آخذة فى التقهقر والعثمانيون فى تعقبهم اذ بهم ارتدوا على العثمانيين بينما كانوا يسيرون خلفهم فى مضيق نيش واحاطوا بهم من كل جهة فى المضيق المذكور وحصلت بين الطرفين واقعة دموية انجلت عن انتصار هونياد وهزيمة العثمانيين هزيمة شنعاء وقتل منهم عدد وافر بين أمراء وجنود وأسر منهم كذلك (٨٤٦ هـ) ومازال فالهم بفر حتى وصل الى أدرنة ثم توسط جورج برنكوفتش ملك الصرب فى

نيش (١٤٤٣ م) وعقد معهم معاهدة تزجدين الا أنه فى الواقعة التى حصلت سنة ١٤٤٤ م قهر العثمانيون المجر والبولونيين وبددوا شملهم وقهر وا بعد ذلك هونياد وجيوشه فى واقعة قوصوة (١٤٤٨ م) وعند ذلك ترك الحكومة للملك لادسلاس الخامس (١٤٥٣ م) وقد كان من حق هذا الملك أن يحكم على بلاد النمسا وبوهيمية والمجر التى فقدت استقلالها فى الحقيقة ولما أتى السلطان محمد الثانى وحاصر بلغراد سنة (١٤٥٦ م) تمكن هونياد ونائب البابا من صده ولما مات لادسلاس الخامس (١٤٥٧ م) صعد ماتياس كورفين بن هونياد على كرسى المملكة وقد جعل هذا الملك بلاد المجر فوق كل البلاد المشكلة الآن لدولة النمسا واستولى على مقاطعة أوتريش من يد الامبراطور فردريك الثالث وعند موته سنة ١٤٩٠ حكم ولادسلاس الثانى على بلاد بوهيمية ولويز الثانى على بلاد المجر وقد كسر العثمانيون جيشه وقتلوه فى واقعة موهاكز (١٥٢٦ م) وبعد ذلك حصلت وقائع ومحاربات انتصر فيها العثمانيون وضموا هذه البلاد الى ممالكهم وحفظوا لها استقلالا ولم تدخل بلاد المجر تحت يد ملوك النمسا نهائيا الا مدة الملك مكسمليان (١٥٧٠ م) وستأتى بقية أخبارها عند الكلام على دولة النمسا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ان شاء الله

الصلح فقبله السلطان واشترط فيه بقاء الصرب و بوسنه يدفعان خراجا للدولة العلية واستقلال الافلاق عن السلطنة العثمانية تماما وان ترد قلعة سمندرة الى الصرب واخلاء سبيل بعض الاسرى من الجانبين وغير ذلك وتقرر ان تكون الهدنة لمدة عشر سنوات ولما انتهى الامر على ما تقدم بعد هذه الحروب والمخاصمات وسكنت الفتن والقلاقل توفى الامير علاء الدين وكان والده يحبه كثيرا فساورته الهموم حتى انه عزم على تمضية بقية حياته فى راحة معتزلا اعناء الملك فتنازل عن كرسى السلطنة الى ولده محمد الثانى الملقب بالفاتح ثم ضم اليه بعض خواصه وقصد مدينة مغنيسيا متفرغا للعبادة ولما علم بذلك لادسلاس ملك المجر ظن ان الجو خلا له لنوال مقاصده فتقدم بجيش عظيم ولم يراع الهدنة التى عقدت بينه وبين السلطان وأغار على أملاك السلطنة وكان ذلك بتحريضات البابا ولما رأى السلطان مراد هذه الاحوال خاف من عواقب الامور فاضطر ان يعود الى الملك ثانيا وأمر بسرعة التجهيزات الحربية ولما قصد العبور من جهة كليبولى وجد ان سفن الاعداء سدت ذلك المعبر فالتزم العبور من مضيق البحر الاسود وكان بصحبته خليل باشا الوزير الاعظم وشهاب الدين باشا ولما وصل الى أدرنة وجد الجيش الهمايونى على قدم الاستعداد تقدم وتلاقى مع جيش المجر المشكل من ٨٠ ألف مقاتل وكان لادسلاس قبل ذلك دخل بلاد البلغار و بغدان وهرسك و بوسنه واتفق مع أمرائها على ان يكونوا يدا واحدة وكانت ملاقاة الجيشين امام مدينة وارنة على سواحل البحر الاسود (١٤٤٤ م) ٢٨ رجب ٨٤٨ هـ ولما اشتعلت بينهما نيران القتال وحمى وطيسها تقدم لادسلاس ملك بولونيا والمجر ومعه فرقة منتخبة من جنده واقتحم الميدان قاصدا الهجوم بنفسه على السلطان مراد الذى كان واقفا على تل مرتفع يعطى الاوامر لجيشه وعند ذلك أطبقت الجيوش العثمانية على لادسلاس وقتلوه وبموته انهزمت جيوش المجر ومحالفيهم وتفرق شملهم وأخذتهم سيوف العثمانيين فى كل مكان وصار هونياد قائدهم يجمع شتيت العساكر ويحرضهم على الرجوع والثبات فلم ينجح لان الرعب كان قد استولى عليهم وقتل من جيش الاعداء فى ذلك اليوم ما يزيد عن عشرة آلاف نفر واغتنمت الجيوش العثمانية فى هذه الواقعة غنائم لا تحصى ثم عادت الى أدرنة غانمة ظافرة وكان من بين القتلى القونت سيزاريني رسول البابا ثم ان السلطان بعد ان رد كيد أعدائه فى نحورهم ومهد أمور المملكة تنازل عن الملك ثانية الى ابنه السلطان محمد الثانى وعاد الى عزلته كالاول ولكن لم ترض الانكشارية بذلك وتذمروا واضطربوا فاضطر ان يعود الى السلطنة ولما كسر شوكتهم خاف من قيامهم مرة أخرى فأراد اشغالهم بالحرب ولذلك تقدم وأغار على بلاد اليونان وساعده على مقصوده هذا ان أمانو يل ملك القسطنطينية كان قسم مملكته فى حال حياته بين أولاده بأن أعطى مدينة القسطنطينية وما حولها من البلاد القريبة الى ابنه حنا وبلاد موراو قسما من تساليا الا بنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم ولما علم قسطنطين بعزم السلطان مراد على فتح بلاده ابتنى ببرزخ كورنثة حصونا ومعاقل جعلته لا يرام ومع ذلك فان هذه القلاع لم تغن شيأ أمام عساكر العثمانيين الابطال لانهم سلطوا مدافعهم على أسوار تلك الحصون حتى أحدثوا بها ثلمة ودخلوا منها قاصدين مدينة كورنثة ففتحوها وقد كان فى نية السلطان الاستمرار على فتح هذه البلاد لولا ظهور اسكندر بك الشهير واثارته القلاقل بالبانيا فاكتفى بضرب الجزية عليها

ولما

ولما عقد الصلح مع اسكندر أعاد الكرة عليها وقد كان ببلاد البانيا أمير يدعى جان كاستريو يحكم بالارث على قسم صغير من تلك البلاد فلما رأى قدوم السلطان لمحاربته خاف سوء العواقب فعقد معه معاهدة قبل فيها ان يدفع جزية سنوية وان ينقاد الى جميع أوامره بشرط ان يبقيه في ولايته وان يكون من جملة عماله فأجابه السلطان الى ذلك بعد ان أخذ أولاده الاربعة رهينة عنده حتى يأمن شره في المستقبل فاختلط هؤلاء الاولاد برجال البلاط السلطاني وارتقى أحدهم الى درجة سامية ثم اعتنق الدين الاسلامي ظاهرا ولقب اسكندر بك وكان يسمى سابقا جورج كاستريوتا وتولى على البانيا من طرف السلطان بعد وفاة والده بكتاب مصطنع عن لسان السلطان تحصل عليه من سر قرناء السلطان وكان اسكندر بك المذكور ذهب لمقاتلة هونياد فأوقع الهزيمة على الجيش العثماني قصدا منه في تشويش حال الدولة ليتمكن من الاستيلاء على البانيا ولما فر الى البانيا دخل عاصمتها بلا حرب ولاقاه الاهالي بالترحاب ثم فتح في قليل من الزمن جميع المعاقل العثمانية وكان يخير حاميتها بين شيئين اما اعتناق النصرانية أو القتل وبذلك قتل جميع الجنود العثمانية التي كانت بتلك الحصون تقريبا ثم خلع الطاعة بعد ذلك على الدولة وهزم لها عدة جيوش فطار ذكره وعلا أمره واستمر مؤيدا منصورا مدة ٢٥ سنة لوعورة تلك البلاد وصعوبة مواقعها

واقعة قوصوة الثانية — وبينما كان السلطان يشتغل بمحاربة اسكندر بك المذكور (٨٥١) قام جان هونياد وكيل ملك المجر وجمع في دائرة اتفاقه عدة أمراء من أوروبا وهاجمت جنوده الروملي تحت قيادته فعاد السلطان الى صوفية وجمع الجنود العثمانية فيها ثم تقدم والتقى مع جيوش هونياد في وادي قوصوه [1] (٨٥٢ هـ) حيث انتصر السلطان مراد الاول قبل ذلك بستين سنة وحصلت بينهما حروب شديدة امتدت ثلاثة أيام قتل فيها من الطرفين ما يقرب من ٦٠ ألف مقاتل ثم انهزم هونياد وفر من ميدان القتال بعد ما لحقه من الخسائر ما لا يحصى ثم عاد السلطان الى ادرنة واهتم ببناء جامعه الشهير فيها وفي سنة ٨٥٣ هـ عقد السلطان لابنه محمد على ابنة اسكندر بك وبعد عودة السلطان من هذه المحاربة الى ادرنة زوج ابنة أمير بلاد ذي القدر به الى ولده السلطان محمد سنة ٨٥٣ ثم اعتراه مرض بعد ذلك بسنتين مكث به اثني عشر يوما ثم ارتحل الى الدار الآخرة ٨٥٥ فكتم أمراء الدولة خبر موته مدة اثني عشر يوما حتى حضر ابنه السلطان محمد ثم نقل نعشه ودفن في مدينة بروسة في تربته المخصوصة وكان رحمه الله ملكا جليلا صالحا يعتني بالعلم والعلماء والصلحاء مقداما فاتكا شجاعا كريما واسع العطايا عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ٣٥٠٠ دينار وهو وان لم يصل الى ما وصل اليه أسلافه من الفتوحات الا أنه جدير بأن يشترك مع والده في لقب الباني الثاني للدولة العثمانية وذلك لان هذين السلطانين توصلا بمساعيهما العظيمة لجبر وملافاة الخسائر والتخريبات التي أحدثها تيمورلنك ولما عزم على الاستراحة من عناء الملك وتفرغ للعبادة ورأى ما كاد يصل الى جسم الدولة من الاذى استلم زمام السلطنة بيده القوية فكبح أعداءه وسارت جيوشه منصورة حتى بلغت جهات مورة واشقودرة

(١) قوصوه Cassovo هي سهل في بلاد الصرب بين اسكوب وكوبانيك روبها نهر دربن

﴿الفصل السادس﴾

من فتح القسطنطينية الى انتقال الخلافة الاسلامية لسلاطين آل عثمان

٨٥٧ - ٩٢٢

---

(٧) السلطان الفاتح محمد خان الثانى

(٨٥٥ - ٨٨٦ ﻫ)

جلس هذا السلطان الشهير والبطل الكبير وهو السابع من سلالة ملوك آل عثمان على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه وكان سنه اذذاك ٢٢ سنة وعقب جلوسه قام عليه كثير من أمراء بلاد الاناضول الذين كان فتح العثمانيون بلادهم بدعوى استرداد تلك البلاد فتمكن فى آخر الامر من ادخالهم جميعا تحت لواء الطاعة ولما استلم زمام السلطنة كانت جميع بلاد آسيا الصغرى خاضعة للسلطنة العثمانية ماعدا بلاد ابن كرمان ومدينة سينوب ودولة طرابزون أما باوروبا فكانت دولة القسطنطينية لا تزال على استقلالها وبلاد بيلوپونيز (موره) منقسمة بين عدة أمراء من اليونان واللاطينيين و بلاد ألبانيا خاضعة لاسكندر بك و بوسنة مستقلة تمام الاستقلال و بلاد الصرب تدفع جزية للعثمانيين وماعدا ذلك من الجهات فكان فى قبضة العثمانيين

فتح القسطنطينية — كان ملوك القسطنطينية يجتهدون على الدوام فى بث الدسائس ونفخ روح العصيان فى جسم مملكة العثمانيين منذ عظم أمرهم وضخم ملكهم ليأمنوا على ماباديهم من بقايا الدولة اليونانية العظيمة وكان الامبراطور قسطنطين من يوم تبوئه عرش المملكة وهو عامل على طريقة اسلافه من إحداث الثورات وتنشيط عوامل الاضطرابات الداخلية بالمملكة العثمانية فانتهز السلطان المشار اليه ذلك فرصة لاتمام مقصوده ونيل مرغوبه من فتح القسطنطينية سيما وان أحوال تلك المدينة الداخلية كانت مختلة بسبب التعصبات المذهبية والقلاقل الدينية وبعد أن صمم السلطان على انفاذ غرضه واحتاط لأمره وأعد جيوشه خرج من ادرنة عاصمة بلاده بعد ان وطد الامن فى انحاء المملكة وأدخل تحت لواء طاعته من ثار عليه من الامراء المارذ كرهم على رأس جيش كثيف يبلغ مائتى ألف جندى ومعه أسطول مؤلف من ثلثمائة غراب حربى وكثير من سفن النقل وكان أمر بتجهيزها بمدينة كليبولى قبل خروجه وكانت هذه الاساطيل تحت قيادة بلطه أوغلى سليمان بك المعتبر لدى الملاحين أول قبودان للاساطيل العثمانية ومعه أيضا كثير من آلات الحصار وأدوات الحرب والنزال وحاصر مدينة القسطنطينية براو بحرا قال فولتير كان بمدينة القسطنطينية حزبان يضاد بعضهما بعضا كما كان بمدينة أورشليم حين ماحاصرها فسباسيان وطيطوس وهما حزب الامبراطور وأشراف الاهالى وقصده ضم الكنيسة الاغريقية للكنيسة اللاطينية اعتقادا منه أن ذلك ينهض همم الكاثوليك والبابا للمديد المساعدة لدولة اليونان لانه متى توحد الاعتقاد تا لف جميع أصحابه والآخر وهو حزب القساوسة وعامة الامة وهو يقاوم كل من يقول بالرأى الاول و يستنكف ضم

الكنيستين

الكنيستين حتى ان أعضاءه لم يكونوا يدخلون الكنائس التى يدخلها أعضاء الحزب الاول لانه كان لا يزال يتذكر ما حل ببلاده من اغارة الصليبيين وبينما هم فى هذه المشاحنات والمجادلات اذ بالاتراك على أبواب القسطنطينية اه

ولما شرع السلطان فى تهيئة الاسباب لفتح القسطنطينية وأخذ فى بناء الحصون على ساحل البحر الاسود أرسل امبراطور القسطنطينية قسطنطين باليولوغ يتضرع اليه ويسأله العدول عن مشروعه هذا وفى مقابلة ذلك يتعهد بدفع الجزية التى كان يدفعها سلفه فلم يقبل السلطان ذلك من رسله ونقل بعض المؤرخين أنه أرسل للسلطان ثانية رسولا يقول له ان بناء هذه الحصون والقلاع ما وراءها الا القتال وتجريد جيوش الشر والحرب فان لم تحملك المواثيق على عقد الصلح بيننا فذلك اليك وقد فوضت أمرى الى الله تعالى فان هداك وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان كان قدر لك بفتح القسطنطينية فلا مرد لقضائه ولا مانع لحكمه والا فلا أزال أدافع عنها الى آخر رمق من حياتى

وقد بذل هذا السلطان فى أمر حصار القسطنطينية من السعى والاقدام ما جعله يعد من أعظم الفاتحين ولم يترك أية وسيلة ممكنة لنجاح مرغوبه ونيل مطلوبه فصنع من خوارق العادات ما لم يسمع بمثله منها انه سبك مدفعا جسيما من البرونز قطره اثناعشر شبرا يقذف كرة من الحجر يبلغ وزنها اثنى عشر قنطارا المسافة ميل وكان خدامه يبلغون سبعمائة شخص ويحتاج حشوه لساعة من الزمان ولما أرادوا نقله من مدينة أدرنة حيث صبوه لوضعه على حصار القسطنطينية خصصوا له خمسمائة زوج من الثيران القوية وثلاثة آلاف جندى ومنها وهو أغربها تسيير السفن الحربية على اليبس مسافة فرسخ من عند المكان المسمى الآن طولمه باغجه الى المكان المدعو قاسم باشا وكيفية ذلك أنه أمر بناء على اشارة المهندسين بتغطية الارض التى يراد سحب السفن عليها بالواح الصنوبر المدهون بالشحم حتى صارت كالمزلقان ثم سحبوها عليها وكانت عبارة عن ثمانين غرابا وسبعين سفينة خفيفة بقوة الايدى والآلات المستعملة اذ ذاك لانه رأى تعذر ادخال السفن الى مينا المدينة لانها كانت مقفلة بأضخم السلاسل الحديدية ومحصنة بأقوى الآلات الدفاعية وأجودها فتمت جميع هذه الاعمال فى ليلة واحدة فقط وعند الصباح اندهش المحصورون تمام الاندهاش حينما شاهدوا أسطولا حربيا تام المعدات انحدر من الشاطئ الى ميناهم ثم انشأ العثمانيون فى نفس ذلك اليوم جسرا عظيما من السفن المذكورة ونصبوا عليه احدى بطارياتهم الاربعة عشر كل ذلك على مرأى من المحصورين ونقل هامير المؤرخ ان السفن أثناء سحبها كانت ناشرة شراعاتها ورايتها على مقدمتها وكانت الابواق تضرب والطبول تعزف ولما طلع الفجر شاهد المحصورون أزيد من سبعين سفينة حربية راسية بميناهم اه ولما علم الامبراطور ضعف عساكره امام عسكر العثمانيين المنتظمة المدربة على القتال العارفة باساليبه أرسل يستغيث باوروبا النصرانية فاعارته اذنا صماء وأرسل البابا اليه رسولا يحرضه على مداومة القتال وشد العزيمة ويعده بانه سينادى بالحرب المقدسة بين أمم النصارى ومع ذلك فانه لم يكن باوروبا اذ ذاك من ملوك النصارى من له قدرة على مساعدة القسطنطينية ومقاومة جيوش العثمانيين القوية غير أميرين وهما هونياد أمير ترانسلفانيا الا أنه لم يكن فى مقدرته

غير حفظ نفسه والآخر هو اسكندر بك الشهير الذى كان يهتم فى حفظ مركزه بجبال بلاد ابير كما كان يفعل الدون بيلاج بجبال استورى حين اغارة المسلمين على بلاد اسبانيا ولما كان لمدينة جنوه منافع تجارية ومواصلات مستمرة مع القسطنطينية ولها عدة مخازن تجارية بجهة غلطة أرسلت الى الامبراطور دونمة مؤلفة من خمس سفن حربية تحت إمرة رجل شجاع يدعى (جوستنيانى) ومعه ستة آلاف جندى فتمكن هذا القائد بمهارته من انزال جيشه الى البر على مرأى من العثمانيين وعند ذلك انتعشت قلوب المحصورين وقويت نفوسهم واجتهد ذلك القائد الجنويزى مرارا فى احراق السفن العثمانية فلم ينجح أصلا لتيقظ جنودها حتى انه أتى ذات ليلة تحت دجى الظلام لهذا القصد فوجد جند العثمانيين متيقظا فاسمعوه ولما هم بالرجوع أطلقوا عليه نيرانا قوية فأغرقوا سفينته وكان بها أزيد من مائتى شاب من متطوعة الطليانيين ومن أولاد أشرافهم ولم ينج ذلك القائد بنفسه الا بعد جهد جهيد وعناء شديد ثم أخذ هذا الأجنبى يدير أمر الدفاع عن المدينة قال فولتير عند ذكره ذلك ان كل بناء جعل تحت مراقبة أجنبية تداعت أجزاؤه للسقوط ولم يتفق أصلا أن قدماء اليونان رأسوا عليهم رئيسا فارسيا ولم تسلم قيادة الجنود الرومانية لرجل غالى ولهذا يلزم أن تسقط المدينة فى يد الفاتحين وقد حصل ذلك بالفعل اهـ

ولما تيقن العثمانيون من نجاح مشروعهم وانهم سيستولون على المدينة لا محالة أرسل السلطان قبل الهجوم العام بيوم واحد رسولا الى الامبراطور يخبره بأنه ان سلم المدينة من غير قتال فان السلطان يمنح جميع الرعايا الحرية التامة ولا يتعرض لهم فى شىء أصلا ويهب الامبراطور بلاد مورة فى مقابلة ذلك فلم يقبل من الرسول قولا ورده بعد أن وبخه ومما قال له ان السلاطين الذين أتوا قبل محمد هذا سعوا فى افتتاح القسطنطينية فلم يقدروا مع ما بذلوه من القوة والسعى فالاصلح للسلطان أن يرجع بعسكره وهو يتعهد بدفع الجزية كالاول ولما شكل الامبراطور مجلسه الخاص وعرض عليه ما قاله رسول السلطان أطرقت الاعضاء برؤوسهم ولم يعارض واحد منهم دلالة على القبول ماعدا رسول البابا ومندوب اسبانيا وغيرهما فانهما أشارا على الامبراطور بمداومة القتال وانتظار امداد أوروبا

وقال بعض المؤرخين نقلا عن تاريخ البرنس ديمتريوس كانتميرانه بعد حصار دام تسعة وأربعين يوما اضطر الامبراطور قسطنطين باليولوغ الثانى عشر لتسليم المدينة بالامان فارسل رسلا من طرفه للمخابرة مع السلطان فى ذلك وأخذ الشروط منه فحصل الاتفاق بين الطرفين على عدة شروط ويؤيد ذلك ما قاله المؤرخ دوكا الذى كان بالمدينة أثناء حصارها من ان السلطان محمدا عرض فى شروطه على الامبراطور قسطنطين بأن يقطعه هو بلاد مورة ويعطى لاخوته بعض الاقاليم ويستولى على المدينة من غير أن ينهبها عساكره ويحافظ عليها تمام المحافظة ولكن اتفق انه عند عودة رسل الامبراطور الى المدينة ليخبر وابذلك خطر ببال السلطان خاطر أراد أن يقوله لهم وأمر بعض العسكر بالعدو خلفهم لردهم فلما شاهد المحصورون من أعلى الاسوار ان جندا من الاتراك يعدون خلف رسلهم أطلقوا عليهم أسلحتهم بدون تبصر فى الامر وعند ذلك انضمت الى ذلك الجند طائفة أخرى وأخذوا يترامون مع المحصورين وكانت رسل اليونان دخلت القسطنطينية من باب

سرى فى أحد الحصون فولج الاتراك معهم على حين غفلة منهم ودخلوا المدينة واستولوا على قسمها المرتفع فبادرت عساكر اليونان برد الهاجمين وحصلت بينهم ملحمة قتل فيها الامبراطور واتخذ السلطان سراى ملوك القسطنطينية مقرا له ولخلفائه من بعده وحول كنيسة اياصوفية الى مسجد وأمر باظهار الزينة فى المعسكر وايقاد الشموع فحصل ذلك مع أصوات التهليل والتكبير والتجأ مقدار عظيم جدا من الاهالى الى كنيسة اياصوفية حتى ملأ طرقاتها وفسحاتها وغصت بهم جهاتها باعتقاد ان أحد الملائكة سينزل من السماء للمدافعة عنهم فقتل العثمانيون بعضهم وأسروا من بقى منهم ولم يذهب السلطان لاداء الشكر لله سبحانه وتعالى على هذا الفتح المبين بذلك المسجد الجديد الا بعد غسله بماء الورد اه

فهذه رواية دوكاعلى ما فيها من الامور المستبعدة جدا أما رواية غالب المؤرخين فهى أن السلطان لما شرع فى الهجوم العام رتب عساكره وقسمهم الى فرق تحت قيادة أمهر ضباطه ونادى مناديه فى المعسكر بان أول من يتسلق سور المدينة من العسكر يوليه السلطان ولاية من أغنى الولايات وينعم عليه بالعطايا الوافرة والانعامات الجزيلة وأخذ هو يجول بين الصفوف على ظهر جواد يحرض الجند ويستحثهم وأمر فسار المتطوعون امام العسكر وبيد بعضهم أحجار وبيد البعض الآخر أخشاب أو أكياس ملئت بالطين والرمل ليلقوها بالخندق لتكون كالجسر يعبرون عليه لامتلاك المدينة ولما صدر لهم الامر بالسير اندفعوا كالسيل المنهمر وانقضوا كالاسود وصاروا يلقون ما بايديهم بالخنادق فانصبت عليهم من أعلى السور نيران الاعداء وقتلت منهم كثيرا وأظلم الجو من دخان المدافع وحجبت الشمس حتى صار النهار ليلا وقابلتهم سهام الهاجمين كل ذلك والجيوش المنتظمة لم تبد أقل حركة مدة ساعتين حتى تعب عسكر الامبراطور وضعفت نيرانهم فعند ذلك تحركت تلك الفرق وزحفت على الاسوار بقلوب لا تخاف الموت وأمامهم أبراج من الخشب على عجل يجرها الجند مكسوة من الخارج بجلود يبلونها بالماء على الدوام لتمنع تأثير النيران التى يقذفها المحاصرون وبداخلها عدد من أبطال الجند معهم آلات الدفاع وشرع النقابون من أهالى توقات فى نقب الاسوار ورميت سلالم التسلق على الابراج واشتبك القتال وقويت نيران الاعداء بعد ضعفها وفتحت مدافع العثمانيين أفواهها الشبيهة بالبراكين حين ثورانها وقذفت عليهم مقذوفاتها الهائلة وصار الامبراطور يطوف بنفسه على العسكر ليبعث فيهم روح القوة الخامدة ثم اقترب العثمانيون من الاسوار جدا وضربت مدافعهم أغلب الحصون والابراج وعبروا الخندق على الجثث الملقاة به ودخلوا المدينة فاستولوا عليها عنوة ويقال ان الامبراطور قتل اثناء مقاومته الهاجمين خلف الباب ويقال انه أصابه سهم وهو فوق السور يحرض عسكره فخر قتيلا وسمعه أحد عسكره المنهزمين يتضرع اليه بان يحتز رأسه لكى لا تعلم جثته بين القتلى فيمثل بها المتغلبون وكانت القسطنطينية فى غاية المنعة متينة الاسوار والحصون والابراج وقد حوصرت تسعا وعشرين مرة وكانت هى المنصورة وكان بها من السكان اذ ذاك أزيد من ٣٠٠ ألف نسمة (١)

(١) أسس هذه المدينة الامبراطور الرومانى قسطنطين سنة ٣٣٠ م على مكان بيزانسة القديمة (بوزنطية) شيدها على سبعة تلال مثل رومية وكان بها مثلها أيضا قلعة يقال لها كابيليتول والبحر محيط بها من كل صوب الا الطرف الغربى

ولما استولى السلطان المشار اليه على تلك المدينة الجسيمة وامتلكها بحق الافتتاح أبقى للنصارى عدة كنائس خصوصا الكنائس الموجودة بالقسم المنخفض من المدينة فانها لم تمس أصلا ووجد الفاتحون بالمدينة من الاموال والنفائس والامتعة الثمينة شيأ كثيرا جدا خصوصا ما كان للقياصرة بقصورهم

ومما يدل على مكارم أخلاق هذا السلطان انه أبقى للنصارى خلاف ما أبقاه لهم من الكنائس والصوامع كنيسة وحارة بتمامها مرعاة للمهندس معماري يدعى كريستبول كان استعمله السلطان محمد في بناء بعض المباني وأعطاه تلك الحارة بتمامها لتكون ملكا له ولذريته من بعده قال فولتير بعد روايته هذه الحادثة ليست هذه الحادثة من الحوادث التي تستحق الذكر في التاريخ أي ان مهندسا كان يمتلك حارة بتمامها بل القصد أن نبين ان الاتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن ولا تجيز أمة من أمم النصارى ان يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا بخلاف الاتراك فانهم يسمحون لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائس وكثير من هذه بجزائر الارخبيل تحت مراقبة أحكامهم اه

وكان استيلاء العثمانيين على هذه المدينة العظيمة في يوم الثلاثاء عشري شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ ﻫ (٢٩ مايه ١٤٥٣ م) بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوما حسب رواية غالب المؤرخين وقد أرخ بعضهم سنة افتتاحها بقوله (بلدة طيبة) ولما دخلوا المدينة بحثوا عن جثة الامبراطور

وهو جزء يسير وأحاطوها بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر وأقاموا فيها ملاعب ومجامع وغير ذلك وقد نقل قسطنطين لهذه المدينة كثيرا من آثار وأحجار مدن اليونان وايطاليا حتى من نفس رومه ولقد كانت نقود قسطنطين عليها صورة ذئبة يعلوها نجمان اشارة الى أنه صار للدولة بل للعالم أجمع عاصمتان ولما ضاقت حظيرتها على سكانها اضطر والتشييد المنازل حتى وصلت الى البحر وصارت هذه المدينة عاصمة للدولة الشرقية من حكم تيودوس الاول ثم عظمت مدة تيودوس الثاني واسوريان وجوستنيان الذي شيد بها كنيسة القديسة صوفية الشهيرة التي تحولت الآن الى مسجد وقد حازت أهمية وشهرة في تاريخ الكنيسة واشتهر من بطارقتها عدة منهم المجمع المسكوني الكنائسي الذي عقد سنة ٣١٨ م الرياسة على مطارنة النصرانية الآخرين وقد اجتمع بهذه المدينة أربع مجامع كنائسية ولو نظرنا الى تاريخ هذه المدينة السياسي لوجدناه عبارة عن ثورات وانقلابات واضطرابات محزنة انتهك أثناءها الجنود حرمة المملكة وحطوا اعقام الامبراطورية وفي زمن يوستنيان حدثت بها حرب أهلية قتل فيها أزيد من ثلاثين ألف نفس وسبب ذلك الحقد الذي نشأ من الالعاب العمومية وحاصر هذه المدينة الافار سنة ٥٩٣ م ثم حاصروها هم والفرس متحدين سنة ٦٢٥ م ومع ذلك لم ينالوا منها منالا في الدفعتين ثم ان أساطيل العرب هاجموها في زمن معاوية رضي الله عنه من سنة ٥٠ الى ٥٦ ﻫ (٦٧٠ – ٦٧٥ م) كما ذكر في صحيفة ١٨٩ من هذا الكتاب وكان في هذه الغزوة كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم رضي الله عنهم وكان معهم يزيد بن معاوية وقيل كان هو قائد الجيش وقيل كان القائد الامير سفيان ابن عوف فلم ينالوا منها شيأ وذلك للنار الاغريقية التي كانت تقذفها الحصون وكذا في عهد سليمان بن عبد الملك حاصرتها جيوشه تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك من سنة ٩٨ – ٩٩ ﻫ (٧١٦ – ٧١٧ م) فاصابه ما أصاب الاول كما ذكر في صحيفة ٢٠٠ من هذا الكتاب وقد امتنعت أيضا على البلغاريين سنة ٧٥٥ م وعلى الارياك النورمانديين سنة ٨٦٦ م ولما كانت هذه المدينة آخذة في الاضمحلال السريع سقطت سنة ١٢٠٤ م في قبضة الصليبيين الذين اجتمعوا فيها وأحدثوا بها دولة لاطينية ثم ان عائلة باليولوغ استردتها منهم سنة ١٢٦١ م وقد هددها بعد ذلك العثمانيون عدة مرات الى أن استولوا عليها تماما كما شرحناه في يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م

بين

بين القتلى ولما وجدوها حسب دلالة من يعرفه دفنوها بما يليق بها من التعظيم فى مقابر الملوك
وافتدى السلطان كثيرا من أمراء اليونان ممن كان وقع فى يد العسكر أسيرا

وقد أوقع هذا الظفر جميع أوروبا فى الحيرة والاندهاش فهاجت ملوكها وماجت وأظهر
السلطان مزيد التفاته لراحة الرعايا وأمر النازحين منهم بالعودة الى أوطانهم وبحريتهم فى معتقداتهم
وأصولهم الدينية وبحسن تدبيره جعل شعلة هذا الهيجان تخمد نوعا

قال بعض المؤرخين لما سقطت القسطنطينية فى يد الفاتحين وقع الرعب فى قلوب جميع سكان
ممالك اليونان حتى كأنهم أصيبوا بمصيبة عظيمة فهاجت سكان مورة والجزائر المجاورة لها وتركوا
مواطنهم هائمين على وجوههم لا يدرون أى جهة يقصدون وكان البحر مغطى بالسفن المقلة للاموال
والعائلات الاغريقية يلتجؤن الى الجبال والاديرة والجزائر التى تسكنها البنادقة والجنويزيون وقال
غيره ان ما حصل لليونان من التشتت فى ذلك الزمن يشبه تشتت شمل الاسرائيليين حين خراب بيت
المقدس اه ثم أمر السلطان بانتخاب بطريق لليونان حسب عادتهم فانتخب جورج جيناديوس
وألبسه التاج بيده وسلمه عصا البطارقة وقال له اذ ذاك كن بطريقا الامتك وليحفظك المولى ويجب
عليك فى جميع الاحوال ان تتأكد من محبتى وخلوص طويتى اليك وتتمتع بالمزايا التى كان يتمتع
بها اسلافك من قبل ولما امن اليونان على أنفسهم وأموالهم وحرية عبادتهم أصدر السلطان
المشار اليه فرمانا يصرح لهم فيه بحكم أنفسهم بأنفسهم فشكلوا طائفة منفصلة تمام الانفصال عن
الامة الفاتحة وكان بطريقهم حائز الرتبة وزير ودرجة شرف بين ضباط الانكشارية وكانت
تعرض على مجلسه جميع القضايا المدنية والعقوبات وكان هذا المجلس المشكل من أعيان الطائفة
يصدر الاحكام حتى الامر بالقتل وتنفذ القوة العسكرية ما يأمر به وغير ذلك من المزايا كالاعفاء
من ضريبة الاطيان وغيرها ولم تكن هذه الامتيازات ممنوحة لبطريق القسطنطينية فقط بل
لوكلائه فى الجهات أيضا وقد وهم كثير من مؤرخى الفرنج فى حق السلطان محمد الفاتح كما وهموا
فى كثير من مشاهير الاسلام ورموه بالخشونة خصوصا مؤرخو اليونان الذين دالت الدولة عنهم
وذكروا عنه أفعالا لم يحملهم على ذكرها الا الحماقة والجهل قال فولتير مما يثبت صراحة أن
السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما تركه للمسيحيين المقهورين الحرية فى انتخاب بطريق لهم
ولما انتخب ثبته هو مع التعظيم وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم حتى قال ذلك البطريق عند ذلك
انى خجل مما لاقيته من التبجيل والاحتفاء الذى لم يفعله ملوك النصارى أصلا مع أسلافى اه

ولما كان سقوط القسطنطينية فى يد الاسلام من الحوادث التاريخية المهمة اعتبره المؤرخون
حدا فاصلا لزمن تاريخ القرون الوسطى عن تاريخ الازمنة الحديثة ولما انتشر خبر هذا الفتح
فى الآفاق علي يد هذا السلطان هابه ملوك العالم فأرسل صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب
المغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنؤنه بالفتح ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة
حيث رام كثير من الخلفاء والملوك نواله فلم ينالوه مع ما صرفوه من الهمم والاموال وما أفنوه من القواد
والرجال وقد أرخ بعضهم هذا الفتح فقال

رام أمر الفتح قوم أولون * حازه بالنصر قوم آخرون

وبعد أن أتم السلطان تنظيم أحوال هذه المدينة العظيمة وإصلاح ما تخرب من حصونها سافر في سنة ٨٥٨ بالجيوش الكثيرة العدد والعدد لفتح بلاد جديدة فغزا مقاطعة بوسنه واستولى على أكثر بلادها وأضافها الى أملاكه ثم قصد بلاد موره فأسرع أميراها دمتريوس وتوماس قسطنطين وطلبا من السلطان أن يقبل منهما دفع جزية سنوية قدرها ١٢٠٠٠ من الذهب فقبل منهما وكان أرسل قبل ذلك اسطولا تحت قيادة الرئيس خاص يونس ففتح قلعة اينوز وجزيرتي سماديرك وطاشيوز وكانتا للبنادقة ولما عاد السلطان الى ادرنة قتل وزيره جندره لي قره خليل باشا بتهمة أخذ الرشوة من امبراطور القسطنطينية وقت الفتح وقد كان الوزير المذكور يجتهد ويبذل المساعي في تحويل فكر السلطان وصرف عزمه عن فتح القسطنطينية وقد كان قبل ذلك أيضا اجتهد في تثبيط همة السلطان بايزيد عند ما أراد مقابلة جيش المتفقين في الواقعة الشهيرة التي انتصر فيها بورنة وقد عزل السلطان أيضا كلا من الوزيرين يعقوب باشا ومحمد باشا السوءظنه في سلوكهما ونفيا الى بعض البلاد البعيدة وبعد قتل خليل باشا بقي مسند الصدارة خاليا مدة سنتين الى أن وجهت الى محمود باشا الشهير

ولما كان فتح القسطنطينية قد أثار عوامل الغضب والحقد عند ممالك أوروبا خصوصا بابا رومية كالكستوس الثالث منهم لما كان يرجونه الله من ضم الكنيستين الشرقية والغربية الى بعضهما سعى في تأليف حملة صليبية فتم له ذلك وأغار جيش أوربي مختلط على حدود المملكة العثمانية باوروبا سنة ٨٦٠ ﻫ (١٤٥٦ م) فلما بلغ السلطان محمد الفاتح نهض بجيش يبلغ ١٥٠ ألف مقاتل وأسطول مركب من ٢٠٠ سفينة وذلك بعد أن رتب ادارة الامور بالقسطنطينية وحاصر مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب برا وبحرا وكاد يفتحها الا أنه في خلال ذلك هاجم جان هونياد قائد المجر أساطيل العثمانيين وأتلف منها قسما عظيما وكان دخل المدينة قبل حصارها ودافع عنها دفاع الابطال فالتزم السلطان بترك حصار بلغراد بعد أن قتل من جيشه عدد كبير وقد جرح هونياد في هذه الحرب جرحا بليغا مات به بعد عشرين يوما من رفع الحصار ولما علم السلطان بموته أرسل محمود باشا الصدر الاعظم فأتم فتح بلاد الصرب (٨٦٠ ﻫ) وبذلك فقدت هذه البلاد استقلالها تماما ثم توجه الى مورة عن طريق سيروز ويكيشهر واستولى على مدينة كورنثة وما جاورها من البلاد وبذلك لم يبق لتوماس باليولوغ أخي قسطنطين شيء من البلاد التي كانت له ثم أراد التقدم لفتح بلاد مورة تماما الا أن ديمتريوس تعهد بدفع الجزية فقبل السلطان ورجع عنه في هذه المرة ومع ذلك فانه لما أظهر الطغيان بعد قليل دخل السلطان بلاده في هذه السنة فأخضعها تماما وفر توماس الى ايطاليا وتوفي ديمتريوس في احدى جزائر الارخبيل

وبعد رجوع السلطان عن بلغراد مات أمير الصرب وجلس مكانه ابنه وخليفته لازاري الا أنه لم يمكث في الملك الازمنا يسيرا ومات بلا ولد يخلفه فكان من اللزوم لذلك انتقال تاج بلاد الصرب الى السيدة مريم سلطانة حليلة السلطان مراد الا أن ملك بوسنة صهر لازار قام يطالب بتاج الصرب باسم زوجته غير أنها لما كانت متمذهبة بالمذهب الكاتوليكي ردأهالي الصرب قولها ورفضوا مبايعتها وقام أعيانهم وصناديدهم وانتخبوا أباغوويچ أخا الوزير الاعظم محمود باشا فأغاظ هذا الانتخاب ملكة بوسنة فاجتهدت في قتل أباغوويچ المذكور ولذلك رأى السلطان أن من الضروري

مداخلته

مداخلته فى الامر بالفعل فاصدر أمره لمحمود باشا الصدر الاعظم بالذهاب مع جيش الى بلاد الصرب لغزوها دفعة ثالثة فافتتح قلعة سمندرة وغيرها من الحصون سنة ٨٦٣ ﻫ وقد كانت بلاد الصرب تدفع للدولة العثمانية خراجا بعد محاربة قوصوة وفى عهد السلطان مراد خان الثانى فتحت مدينة سمندرة وغيرها من المدن وطرد ملكها الا أنه بعد هزيمة الجيوش العثمانية أمام لادسلاس ردت تلك المدن الى بلاد الصرب ثانية بحكم المعاهدة التى عقدت بين الطرفين أما فى هذه المرة فقد استولى العثمانيون على جميع بلاد الصرب ما عدا مدينة بلغراد التى بقيت فى يد المجر

فتح اماصرة وسينوب وطرابزون – لما نال السلطان مراده من الاستيلاء على بلاد الصرب واليونان حول عزيمته لتسخير الممالك الباقية فى حالة استقلال على سواحل البحر الاسود وهى أماصره وطرابزون وسينوب وكانت الأولى تابعة للجنويزيين والثانية وهى طرابزون تابعة لامراء من بيت قياصرة القسطنطينية وكانت تشكلت حين اغارة الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠٠ ﻫ على مدينة القسطنطينية واستيلائهم عليها فتم له فتح أماصرة سنة ٨٦٣ ﻫ وأخضع أيضا مملكة طرابزون ولم ينفعها تصدى الامير أوزون حسن لحمايتها من مخالب العثمانيين سنة ٨٦٥ ثم نقل ملكها داود كومنين هو وعائلته الى القسطنطينية ورتب السلطان لهم ما يكفيهم من المرتبات

أما مدينة سينوب فقد استولى عليها من يد صاحبها اسمعيل بك من عائلة اسفنديار وهم بقية من طوائف ملوك الاسلام كانوا يحكمون قسطمونى وسينوب وهم وان كانوا يدفعون للدولة أتاوة سنوية معينة الا أنهم كانوا لا يفترون عن بث الدسائس واقلاق الراحة بجهات الدولة العثمانية كلما تمكنوا من ذلك ولما رأى السلطان أن بقاء هذه الامارة وان كانت خاضعة له عرقلة لمساعيه أراد محوا استقلالها وضم الممالك الاسلامية المتفرقة الى بعضها ولذلك أصدر أمره الى وزيره الاعظم محمود باشا بتدارك ما يلزم لفتح تلك الامارة فساق عليها جيشا بريا واسطولا مؤلفا من مائة غراب حربى ومما ساعد السلطان على نجاح مشروعه بسهولة أن أخا اسمعيل بك المذكور المدعو قزل أحمد بك كان حدث بينه وبين أخيه منازعات بخصوص الوراثة وكان التجأ الى السلطان يطلب منه النصفة وكان السلطان ولاه احدى العمالات ووعده بالمساعدة وكانت أهالى مملكة اسفنديار منقسمة الى فرقتين فرقة له وفرقة عليه ولما خرجت الاساطيل العثمانية لتسخير مدينة سينوب (٨٦٤ ﻫ) أشاعوا قصدا أنها خرجت للاستيلاء على مدينة طرابزون وكتب السلطان الى اسمعيل بك أن يدفع الاتاوة السنوية المضروبة عليه الى قائد الاساطيل العثمانية ويساعده بما يلزم من الذخيرة والزاد ليتمكن من فتح طرابزون وأمره أيضا أن يعاقب كل من ظهر منه تمرد من الجنود أثناء وجودهم بسينوب ثم سارت الجنود البرية فى صحبة السلطان حتى وصلت مدينة سينوب فوجدتها مغلقة محصنة فضربت عليها الحصار ولما رأى اسمعيل بك المذكور أن ليس لديه من القوة ما يرد به هجوم هذا الجيش طلب الامان والتسليم وذهب بنفسه الى خيمة السلطان مسلما خاضعا فعفا عنه وبش فى وجهه وأكرم لقاءه وأقطعه هو وعائلته محصولات جهات بروسه ويكيشهر واينه كول ويار حصار ونصب ابنه عاملا لاحدى السناجق وبذلك دخلت مملكة اسفنديار فى قبضة العثمانيين

وكان العثمانيون عند حصارهم مدينة طرابزون وجدوا بفرضتها سفينة جديدة حمولتها مائة طن واثنا عشر طنا فارسلوها الى الاستانة لعظم حجمها ولما شاهدوها اتجهت انظارهم وتنبهت أفكارهم للتقدم فى فن انشاء السفن واتخذوا تلك السفينة مثالا يحذون عليه وشيدوا امثالها لكنها أعظم منها جسامة حمولتها ٣٧٠ طنا غير أنهم لما لم يتقنوا عملها لم يتمتعوا بمنافعها وذلك أنها لما انتهت وباشر العمال انزالها الى البحر وجدت فاقدة للموازنة فهوت الى قاع البحر وقد ادعوا ان ذلك أن الموقع الذى شيدت فيه غير مناسب لابتناء السفن فلذا انقلت دار الصناعة الى محلها الحالى ولما علم السلطان فى سنة ٨٦٦ باستغاثة بعض أهالى الافلاق (١) به ليخلصهم من ظلم أميرهم المدعو ولاد (أى الشيطان الاسود) الذى كان جلس على تخت تلك البلاد بعد وفاة أبيه دراقوله وهو المعروف فى تواريخ العثمانيين باسم قازقلى و يوده أراد تخليص تلك البلاد من يد هذا الظالم الجائر فامر والى ويدين حمزه باشا بالذهاب اليه وردعه عن غوايته فقبض أمير الافلاق المذكور عليه وعلى من برفقته من الاتباع وقتلهم على الخازوق ثم سار فى مقدمة جيش وعبر نهر الطونة وأخذ فى شن الغارة على بلاد البلغار التابعة للدولة فامر السلطان حينئذ وزيره الاعظم محمود باشا فقصد بلاد الافلاق مع الجنود الكافية براوساق السلطان اسطولا مؤلفا من مائتى سفينة الى نهر الطونة فاوقعوا بجنود تلك البلاد وفر الامير ولاد المذكور الى بلاد المجر فعند ذلك نصب السلطان أخا الامير الفار المدعو رادول على تلك البلاد وجعل له امتيازا مخصوصا ثم عاد ظافرا غانما

فتح مديللى — بعد عودة السلطان من غزواته المذكورة اهتم بتقوية البحرية فانشأ كثيرا من السفن الحربية على أشكال أساطيل البنادقة وصارت الدونمة العثمانية تخرج سنويا للغزو فى بحر الارخبيل لاظهار آثار البسالة العثمانية لسكان جزائره ولما كانت جزيرة مديللى واقعة على طريق بوغاز الدردنيل صمم السلطان على ضمها الاملاكه تأمينا لهذا الطريق فارسل وهو فى كابيولى سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦٢ م) الوزير محمود باشا مع الجيوش براوساق أساطيل الاستانة وغليبولى بحرا فلما وصلت الاساطيل اليها نقلت الجيوش من ساحل الاناضول الى الجزيرة وشرع فى حصارها فخضر حاكمها وأظهر الخضوع فاستولى الباشا على قلعتها وباقى البلاد الموجودة بالجزيرة وعين لها محافظا وقاضيا وحامية ثم عاد ظافرا ومن وقتئذ أخذ السلطان يشيد الحصون والقلاع فى بوغاز الدردنيل وجزيرة بوزجه أطه لحماية طريق القسطنطينية

(١) الافلاق هى أحد قسمى مملكة رومانيا وهى عبارة عن القسم الغربى منها تمتد بها شعب جبال كربات شمالا ويرويها عدة أنهار أشهرها نهر الطونة وتاريخهم مرتبط بتاريخ بغدان من القرن الثالث عشر فقد كانت مستعمرة رومانية ثم أغار واستولى عليها البلغار والمجر ولما ترك قبائل الكومان والتتار سهول بلاد داسيا أخضع رؤساء الرعانها المسمى واحدهم ويوده البلاد ومن أشهر هؤلاء رودلف الاسود (١٢٩٠ م) حيث استولى على بلاد الافلاق واستوطن بمدينة كمبولونغو وظهر ان منصب الويوده كان فى أول الامر بالانتخاب وكانت البلاد مقسومة بين عدد من الامراء وأصحاب الاقطاعات وهم الذين كانوا ينتخبون الملوك وقد استمرت المدة المسماة بالمدة الاهلية فى تاريخهم الى سنة ١٣٩٢ م الا انه فى سنة ١٣٩٣ م أضطر أميرها المدعو ميرتشا بسارابو ابن رادو أو رودلفا الثانى الذى انتخب سنة ١٣٨٢ م ان يحتمى بالسلطان بايزيد الثانى و يدفع له جزية سنوية تبلغ نحو ١٨٠٠ فرنك و بقية أحوالها مذكورة فى مواضعها بتاريخ الدولة العثمانية

فتح

فتح بلاد بوسنة [1] — انه لما يئس ملك بوسنة من المداخلة فى أمور بلاد الصرب كما قلناه فيما سبق أظهر التمنع عن دفع الجزية السنوية المضروبة عليه سيما انه كان رأى قرب وقوع الحرب بين العثمانيين والبنادقة لهذا رأى السلطان ووزراؤه أن من الوجوب الاستيلاء على بلاد بوسنة ليتمكنوا من تهديد بلاد البنادقة فلهذا أمر وزيره الاعظم محمود باشا سنة ٨٦٧ هـ بالخروج من مدينة اسكوب لمحاربة ملك بوسنة ولما وصلت الجنود العثمانية الى بوسنة أخذت فى مطاردة ملكها الذى كان يفر أمامها من نقطة الى أخرى الى أن حاصروه ببلدة كلوجى ولما رأى عدم مقدرته على المدافعة سلم نفسه وخضع أيضا جميع من بالقلاع والمدن من الحكام وكانوا أظهروا فى أول الامر تمردا شديدا ومع ذلك فان السلطان أمر بقتلهم جميعا بناء على ما أفتى به الشيخ على البسطامى وكان يرافق جيش العثمانيين ولما تم للعثمانيين الاستيلاء على بلاد بوسنة وعاد السلطان أغار متياس كورفين بن هونياد بقوة عظيمة على بلاد بوسنة قصد استردادها فسارت اليها الجيوش العثمانية ثانية سنة ٨٧٠ هـ تحت قيادة الوزير الاعظم محمود باشا وما زالوا يناز لون المجر حتى طردوهم من تلك البلاد بعد أن قتلوا منهم عددا عظيما واستردوها تماما ومن هذا الوقت دخلت بلاد بوسنة فى عداد الممالك العثمانية ونزع امتيازها تماما وتركوا بقلاعها العدد الكافى من الجنود ثم أسلم فيما بعد غالب أشرافها

ولما كان البنادقة لا يتركون وسيلة لاخراج العثمانيين من جهات مورة خصوصا وكثيرا ما أهاجوا الثورات بتلك الجهات وقتلوا من العثمانيين عددا عظيما ساقوا أسطولهم المركب من ٦٠ سفينة واستولوا على اينوز فعند ذلك قامت الحروب البحرية بينهم وبين العثمانيين واستمرت ١٦ سنة وتمت باستيلاء العثمانيين على جزيرة اغريبوز (نغربونت) مركز مستعمراتهم فى جزائر بحر الروم سنة ٨٧٣ هـ (١٤٧٠ م) بعد ما حاصرها الوزير محمود باشا بالدونمنا العثمانية المركبة من نحو ١٠٠ سفينة بحرا وبالجيش برا وفى خلال ذلك حضرت عمارة البنادقة التى كانت قبل ذلك استولت على اينوز تحت قيادة الاميرال نقولا كومانيل وكانت مركبة من ٨٠ سفينة وقصدت مهاجمة الدونمنا العثمانية ولكنها لما رأت العلم العثمانى قد تموج فوق حصن اغريبوز هربت الى جهة بلاس باندارس وبعد ذلك وجه السلطان نظره الى آسيا الكثيرة قلاقلها ولان الامارات الصغيرة الممتازة التى كانت بها دائبة على ايجاد الاضطرابات والثورات على العثمانيين فتمكن من ضم امارة قرمان نهائيا الى ممالكه وقبض على أميرها اسحق بك ووقع أيضا أوزون حسن وكان من ألد أعداء الدولة فى هذا الوقت ومن خلفاء تيمورلنك وكان ملكه يمتد على جميع البلاد الكائنة بين نهر جيحون شرقا والفرات غربا وبعد ذلك لم يتجاسر اوزون حسن على محاربة الدولة أصلا

(١) بوسنه ويقال لها أيضا بلاد البشناق هى ولاية الى الشمال الغربى من تركية أوروبا واقعة بين بلاد النمسا والجبل الاسود وهى تشتمل على بلاد بوسنه الاصلية وسنجق يكى بازار وكرواسيا العثمانية وهرسك يبلغ مسطحها ٦٠٠٠٠ كيلومتر مربع وسكانها ١,٣٢٦,٠٠٠ نفس منهم نحو ٤٥٠,٠٠٠ من المسلمين ويخترقها من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى جبال الالب الديناريه وبها عدة أنهار وهى لطيفة الهواء معتدلة الاقليم بها غابات عظيمة ومراع جميلة ومعادن ذهب وفضة وحديد وتجارتها الحية السوق رغما عن رداءة طرقها وكانت هذه البلاد قديما تابعة لبلاد بانونيا ثم استقلت فى الازمنة الوسطى بعد أن كانت تابعة للدولة اليونانية السفلى واستولى عليها العثمانيون بعد أن حاربوها نحو ١٧ سنة سنة ١٤٨٠ م

فتح بلاد القريم [1] – قد كانت بلاد روسيا الشرقية وشبه جزيرة القريم وجميع الجهات الواقعة شمالى البحر الاسود بحكمها من زمن جنكيزخان أمراء من التتار وكانت الطوائف المذكورة اعتنقت الدين الاسلامى من عهد تيمورلنك وقد كان تيمور جمع الطوائف النازلة ببلاد قازان وأزدرهان والقريم وقبجاق من التتار وشكل منها مملكة القبجان وقد استمرت هاته الحكومات زمنا طويلا فاتحة قوية الا أنه بعد مدة اعتراها الوهن والاختلال فانتهز الجنويزيون فرصة ضعفهم واستولوا على ثغور آزاق وكفه ومنكوب وغيرها واتخذوها محطات للتجارة وكانوا ينتفعون كثيرا من وقوع الاضطرابات بين الممالك المذكورة وفى سنة ٨٨٠ ﻫ أمر السلطان وزيره الاعظم كديك أحمد باشا بالذهاب الى تلك الجهات وفتحها وطرد الجنويزيين منها وكان تولى الصدارة بعد عزل محمود باشا ثم خرج اليها بقود ٣٠٠ سفينة بين حربية ونقلية وأخضع البلاد التى كانت فى قبضة الجنويزيين بأكملها وطردهم من تلك الاطراف واتفق فى تلك الاثناء أن الحاج كراى آخر ملوك القبجاق كان توفى وترك اثنى عشر ولدا ذكرا فقام هؤلاء الاولاد على بعضهم كل يدعى حق الملك واستمرت المحاربات بينهم زمنا طويلا حتى ضعف حالهم وانقسمت مملكتهم فقام عند ذلك علماء القريم وأشرافها وعرضوا للسلطنة العثمانية بمحضر قدموه يلتمسون اصلاح ذات البين وتقرير قواعد النظام والسكينة ببلادهم وقد كان العثمانيون وجدوا من ضمن الاسرى الذين قبضوا عليهم بمراكب الجنويزيين منكلى كراى أحد أولاد الحاج كراى ولما عرفوه أظهر له السلطان الاحترام وعامله بما يليق وأطلعه على المحضر المقدم من أهل بلاده ثم نصبه خانا على بلاد القريم بالنيابة عنه وأنعم عليه بالخلع السنية والتشريفات المخصوصة وأرسله الى بلاده وبعد ذلك صارت بلاد القريم ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية (٨٨٠ ﻫ) وانتقلت جميع المنافع التجارية التى كانت للجنويزيين بتلك الجهات الى يد العثمانيين

ثم ان تلك العمارة التى فتحت كفه استولت أيضا على ثغر آق كرمان وبعدها أقلعت الى نهر الدانوب (الطونه) للكرة على بلاد البغدان وكان السلطان ذهب اليها أيضا بجيش قوى الا أنه لسبب جهل العثمانيين بمفاوز تلك البلاد لم يتمكنوا من النصرة تماما على البغدانيين بل عادوا كالمنهزمين (١٤٧٦ م) وذلك مدة ملكهم اصطفان الرابع الذى نال بذلك شهرة واعتبارا لدى البابا الذى لقبه بحامى حمى النصرانية وبعد ذلك بقليل استعاض السلطان عن فتح بغدان بالاستيلاء على قسم عظيم من أملاك البنادقة حيث أغار عليها (٨٨٢ ﻫ) واجتاز اقليمى كرواسيا ودالماسيا لخاف البنادقة

---

(١) القريم هى شبه جزيرة واقعة فى جنوب المملكة الروسية بأوروبا يغمرها شرقا الخليج المسمى بوتر بدو من الجهات الاخرى البحر الاسود ولاهلها عناية فى تربية الماشية ومعرفة فى استخراج الاملاح وبها وديان خصبة ينبت بها جميع الفواكه والخضر تقريبا ومساحتها ٢٥٥٩٠ كيلومترا مربعا وسكانها ٣٠٠,٠٠٠ نفس بين تتار وروس ويونان ويهود والمان وأرمن وغيرهم وقد أسس اليونان من أول القرن السادس قبل الميلاد بها مستعمرات ثم أخضعها مترددات ومنها انتقلت الى الرومان ثم الى القوط ثم الى الهون ثم الى الخزر ومنهم الى التتر القبجان ١٢٣٧ م وكان للبنادقة والجنويزيين مستعمرات على شواطئها وأسس الجنويزيون بها على اطلال مدينة تيودوسيا القديمة مدينة كفه التى صارت فيما بعد مركز تجارتهم على البحر الاسود ثم انه فى سنة ١٤٧٥ م أخضعها السلطان محمد الفاتح بعد أن طرد المذكورين منها

منه

منه على مدينتهم الاصلية وأبرموا معه صلحا تعهدوا به بدفع مائة ألف من الذهب سنويا وتنازلوا له عن مدينة كرويا اى اقجه حصار عاصمة اسكندر بك الشهير لانه بعد أن هزمه العثمانيون وطردوه من البانيا (١) كان التجأ اليهم طالبا نصرتهم له وقبل مؤنه أورثهم مملكته ثم تقدم وفتح غيرها من بلاد البنادقة ثم استولى أيضا على مدينة اشقودرة المهمة وكانت تابعة لهم فى مقابلة بعض امتيازات تجارية منحها لهم ووقع الطرفان على معاهدة بينهما بذلك (٨٨٤ هـ - ١٤٧٩ م) قال الفاضل فريد بك فى تاريخه وهذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية بالتداخل فى شؤون أوروبا اذ كانت جمهورية البنادقة اذ ذاك أهم دول أوروبا لاسيما فى التجارة البحرية وما كان يعادلها فى ذلك الا جمهورية جنوة اهـ

ولما أخضع العثمانيون بلاد البانيا (٨٨٣) خرجت منها عائلة كستريوجد اسكندر بك التى كانت تحكمها ونزلوا فى مملكة نابولى بايتاليا فأعطاهم ملكها أرضا ثم لحقهم فيها بعض الالبانيين فأذن لهم أيضا ملك نابولى المذكور بالنزول فى مقاطعة كلابريا ولما استولى العثمانيون على بلاد بوسنه والبانيا سهل عليهم شن الغارة على مملكة البنادقة وايتاليا وكذلك تمكن الوزير كديك أحمد باشا من اخضاع مدينة أوترانت بايتاليا وضواحيها (٨٨٣ هـ - ١٤٧٨ م) وبقيت فى قبضة العثمانيين زمنا ثم تمكن الفرنج من استردادها لوفاة السلطان وعزل كديك أحمد باشا عن ولاية مورة قال المؤرخون ان سكتوس الرابع القائم مقام البابا اذ ذاك لما رأى نجاح الاساطيل العثمانية فى فتح أوترانته وبلغه ان السلطان يقصد فتح بلاد ايتاليا بتمامها أخذ يستعد للهرب الى جبال الالب ومع ذلك فان المقادير وأحوال ذلك الزمن لم تساعد الدولة على إتمام هذا المشروع الجسيم

وفى سنة ٨٨٤ هـ أرسل السلطان أسطولا مركبا من ثلاثين سفينة تحت قيادة بك سنجق قوجه ايلى وفتح قلعة بونه وكانت باقية بيد الجنويزيين فى البحر قرب أزاق وكان كديك أحمد باشا لم تساعده الاحوال على فتحها عند استيلائه على القريم وأصدر أيضا أمره باقامة الحصون وبناء المدائن فى جزيرتى بوزجه أطه ولمنوس وكانتا مأوى لسفن القرصان فى بحر الروم وبذلك أمن الطرق البحرية وفى السنة المذكورة حصلت بينه وبين السلطان خوشقدم ملك مصر وحشة لما أظهره من الموانع للحجاج العثمانيين ولسبب مساعدته بداق بك اخى الامير ارسلان أمير مرعش الداخل فى حماية الدولة قصد اعانته على اجلاسه مكان أخيه ارسلان المذكور وقد توصل ملك مصر من قتل الامير أرسلان وهو فى الصلاة وتنصيب بداق بك مكانه الا أن السلطان لما علم بذلك أرسل أخاهم

---

(١) البانيا ولاية بالجنوب الغربى من تركية أوروبا يحدها شمالا الجبل الاسود وبوسنه وشرقا إيالات برزرين وترحاله وسلانيك وجنوبا بلاد اليونان وغربا البحر الادرياتيكى وهى تنقسم الى أربع جهات مختلفة بالنسبة للقبائل الاربع التى تسكنها ويدخل فى هذه البلاد بلاد ايلريا الرومانية القديمة وبلاد ابيروبها جبال شامخة وعدة أنهار عديدة وهى لطيفة الاقليم الا أنها قليلة الخصب وتكثر بها الغابات وعدد سكانها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ويقال لهم الالبان أو الارناوط وهم من نسل الايلر بين القدماء اختلطوا باليونان والصقالبة وفى القرن الخامس عشر من الميلاد قاوم سكانها العثمانيين مقاومة شديدة تحت قيادة اسكندر بك الشهير وبذلك حفظوا أوروبا من استيلاء العثمانيين وقد احتل البنادقة عند ضعف الدولة اليونانية من سنة ١٤٠٧ الى سنة ١٤٢١ م مدن اشقولت درنودو راز ودولسينو وغيرها وكان استيلاء العثمانيين على هذه البلاد تماما بعد وفاة السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٧ م

الثالث المدعو شهسوار بك ومعه القوة الكافية من الجند فلم يسع بداق بك عند ذلك الا الهرب الى مصر ثانية وقد كانت هذه المنازعات بين المملكتين من الاسباب التى دعت السلطان سليم للاستيلاء على مصر وازالة دولة الجراكسة منها

الحملة الاولى على رودس — لما بلغ السلطان سنة ٨٨٥ ﻫ (١٤٨٠ م) ان سفن قرصان أمير جزيرة رودس وهو من نسل أمراء الصليبيين الذين بعد أن طردوا من الديار الشامية تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة رودس وجعلها دارا اقامة لهم وكانوا أخذوا يهتمون فى بناء السفائن الحربية وارسالها للاصيال والفتك بسفن التجارة العثمانية وكانت أضرت بها كثيرا صمم السلطان على تسخير هذه الجزيرة المهمة لتأمين طريق التجارة فأرسل عمارة بحرية مؤلفة من ١٦٠ سفينة حربية وجيشا بربا يبلغ مائة ألف مقاتل تحت قيادة مسيح [1] باشا ولما وصلت هذه القوة الى الجزيرة حاصرت المدينة وبعد مدة استولت على بعض الحصون لكن لما أصدر هذا القائد لجنوده الامر بعدم التعرض للغنائم وقع منهم هذا الامر أسوأ موقع لمنعهم عن التمتع بالفوائد المطلوبة والثمرة المرغوبة ونتج عنه تكاسلهم وتراخيهم عن الهجوم وبعد حصار ثلاثة شهور التزم مسيح باشا بالرجوع عنها وتأخر فتحها نحو خمسين سنة ومع ذلك لم تفتر همة هذا السلطان العظيم عن الفتوحات بل جهز فى سنة ٨٨٦ ﻫ (١٤٨١ م) جيشين عظيمين أحدهما لفتح جزيرة قبرس وقاد الثانى بنفسه لغزو بلاد العجم وبينما هو فى الطريق أدركته الوفاة

ولما كانت البحرية العثمانية فى أيامه تقدمت كثيرا عده المؤرخون مؤسسا للبحرية العثمانية وقد فتح العثمانيون فى زمنه فتوحات كثيرة وتمهدت أركان السلطنة عن ذى قبل بحيث أصبحت حاكمة على جميع جهات البحر الاسود تقريبا وبحر مرمرا كله والقسم الاهم من جزر الارخبيل ولو لم يكن له الا فتح القسطنطينية لكفاه فخرا ومجدا وترك من الاولاد الذكور اثنين الامير بايزيد والامير جم وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه وكان رحمه الله محبا للعلم والعلماء شجاعا كريما عاقلا له الفتوحات العظيمة والمآثر الجسيمة معدودا من أعظم الفاتحين وأسمى المتغلبين وهو الذى افتتح مدينة أثينا وكسر أساطيل البنادقة مرارا حتى جبرهم على دفع الجزية له ونزع من بلاد ايطاليا عدة مدائن وافتتح دولة طرابزون وغير ذلك ثم فى أثناء مشروعاته الجسيمة اعتراه مرض أوقف اخراجهما من القوة الى الفعل فانتقل الى رحمة ربه فى سنة ٨٨٦ ﻫ (١٤٨١ م) بمدينة ككبوزه بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة حكما مكللا بالنصر والمجد ودفن بجامعه الذى شيده بالقسطنطينية المعروف باسمه وكان قبل وفاته يستعد للتغلب على جزيرة رودس ونزعها من يد طائفة الفرسان لكثرة شرورهم ونهبهم سفن المسلمين ويقود بنفسه جيشا لافتتاح مدينة رومة

ولقد كان الاستيلاء على مدينة القسطنطينية فى مدة هذا السلطان من أعظم الدواعى لتقدم المملكة العثمانية وضم أجزائها الى بعضها لانه لم يكن من المناسب بقاء دولة مستقلة وسط دولة أخرى واسعة الاطراف خصوصا اذا كانت هذه الدولة الثانية عاملة على بث عوامل الشرور فى جسم المملكة

(١) وكان يدعى ميدشطس أصله من أقارب قياصرة القسطنطينية اعتنق الدين الاسلامى بعد فتح القسطنطينية وله خدامات مهمة

الاولى كما كانت تفعله دولة القسطنطينية الضعيفة زيادة عن ان وقوع القسطنطينية فى وسط المملكة العثمانية يكون بعد فتحها العاصمة التى منها يمكن لسلاطين آل عثمان مراقبة أطراف مملكتهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ولذلك فانهم بعد فتحها نقلوا اليها عاصمتهم لوقوعها فى المكان المتوسط من أملاكهم

وكان هذا السلطان من أعظم ملوك زمانه تهذيبا وعلما فكان يحسن العربية والفارسية والتركية واليونانية واللاطينية وغيرها وله ميل شديد لفن التصوير ويعرف ما يمكن معرفته اذ ذاك من الجغرافيا والتاريخ والرياضة وكان يقرأ القصائد اللاطينية التى كانت الشعراء من أهل البنادقة والجنويزيين يمدحونه بها وكان يطالع مؤلفات بلوتارك بمواظبة ويهتم فى تقليد اسكندر الاكبر وقيصر والفاتحين الشهيرين الذين ذكرهم هذا المؤلف وقد اتفقت أقوال مؤرخى اليونان والبنادقة والجنويزيين على محبة السلطان محمد للعلوم وانكبابه على دراستها ولما سمع بشهرة المصور البندقى جنتيلى بيلليتو احضره لديه فلما قدم أحسن وفادته وغمره بالهدايا وأنعم عليه بتاج وقلادة من الذهب وغير ذلك ورده الى بلاده مع الاحترام اللائق بامثاله وكان يحضر بنفسه امتحان العلماء والفقهاء المستعدين للترقى فى الدرجات العلمية السامية وأعلى شأن العلم كثيرا وعضده

(٨) السلطان الغازى بايزيد خان الثانى

٨٨٦ - ٩١٨

لما توفى السلطان محمد الفاتح كان ابنه السلطان بايزيد فى جهات أماسية حيث كان واليا فطار اليه الخبر ولما وصل الى القسطنطينية وجد اليكجرية شقوا عصا الطاعة ونهبوا كثيرا من منازل الاغنياء وقتلوا الصدر الاعظم قرمانلى محمد باشا لانه كان أخفى موت السلطان حتى يحضر ولى عهده ويجلس مكانه الا انه لم يحسن التدبير فى ذلك ويقال انه كان أرسل أيضا للامير جم يعلمه سرا بموت أبيه لانه كان يميل اليه فلما علم اليكجرية بذلك فعلوا ما فعلوا ومن حسن الطالع أن تمكن اسحق باشا محافظ استانبول من تهدئة الخواطر بمبايعته الامير قورقود من أولاد السلطان مبايعة وقتية حتى يحضر السلطان بايزيد ولما حضر السلطان بعد ثمانية أيام وجد الاحوال مضطربة فاجتهد فى تسكينها ووعد اليكجرية بالعطايا والهبات ومن هذا الوقت وجدت عادة اعطاء الهبات والعطايا للجنود وضباطهم كل حسب مرتبته كلما جلس سلطان جديد وكانت هذه العادة سببا لفتن كثيرة جلبت على الدولة مشاكل جمة ولقد كانت هذه الفعلة أول ظهور تمرد وطغيان الانكشارية

وقائع الامير جم - أما الامير جم وكان والى قونية فكان يطمع فى السلطنة على انفراد أو يشارك أخاه فيها وكان كثير من أمراء الدولة وجنودها يميلون اليه ويرغبون له ذلك ولما عظمت عنده هذه الآمال شق عصا الطاعة على أخيه ثم التف عليه كثير من شيعته حتى صار له جيش عظيم وأخذ فى شن الغارات وفتح القلاع فجهز السلطان عليه جيشا تحت قيادة اياس باشا الا انه هزم هذا الجيش وأسر قائده وكثيرا من ضباطه ثم تقدم جم بجيشه وفتح بروسة واستقبلته سكانها بالترحاب

وسلموه المدينة وبعد أن رتب أمورها استولى على جميع البلاد المجاورة لها وكون من ذلك مملكة خطب له فيها على المنابر ورتب له وزراء وقوادا ولما علم السلطان بذلك خاف سوء العقبى واحتال وزراؤه لذلك بحيلة وهى انهم اجتهدوا فى استمالة مدبر الامير جم المدعو لالا يعقوب ووعدوه ومنوه فنجحوا فى قصدهم وبانحياز المدبر المذكور ضعفت عساكر السلطان جم واستظهرت عليه جيوش السلطان بايزيد ثم هرب جم جريحا الى قونية ملتجئا عند أولاد قرمان ولما علم أن الجيوش العثمانية تتعقبه أخذ اتباعه والتجأ الى قايتباى ملك مصر اذذاك أما السلطان بايزيد فانه توجه الى ديار القرمان واستولى عليها عقابا لامرائها على ما فعلوه من نصرة جم ثم عين ولده الامير عبد الله واليا عليها ولما عاد الى الاستانة عزل وزيره اسحاق باشا ونفاه الى سلانيك وعين مكانه داود باشا صدرا أعظم وأخذ فى ترتيب ادارة الدولة فنظم الباب العالى وعين للدولة أربعة وزراء وفى تلك الاثناء هاجم قاسم بك أمير قرمان السابق الامير عبد الله الذى ولاه السلطان بلاده فارسل السلطان عليه هرسك زاده أحمد باشا بجيش عظيم فاستظهر على قاسم بك المذكور وشتت شمله ولما عدم قاسم بك شيعته هرب الى طرسوس وكان الامير جم بعد التجائه الى قايتباى ذهب الى الحج وبعد عودته سعى قايتباى فى الصلح بينه وبين أخيه فلم يجد سعيه نفعا ثم ان الامير جم راسل قاسم بك المذكور واتفق معه على محاربة السلطان وتحزب معهما عدة أمراء فهزمهم السلطان بايزيد بقرب جبل طوروس بالجيش الذى أرسله صحبة كديك على باشا ولما ضاقت الارض فى وجه الامير جم أخذ يضرب فى الارض ثم ذهب أخيرا الى جزيرة رودس (١٤٨٢ م) فتلقاه فرسانها بالترحاب وأنزلوه خير منزل وكان قبل ذلك سعى كثيرا فى الصلح مع أخيه بشرط أن يمنحه بعض الاقطاعات فرفض هذا الطلب خوفا من ان ذلك يؤدى الى ما لا تحمد عاقبته ولما علم السلطان بالتجاء أخيه الى فرسان رودس أرسل لهم رسولا يطلب منهم ابقاء الامير جم عندهم وعدم التصريح له بمبارحة الجزيرة المذكورة وفى مقابلة ذلك يتعهد لهم السلطان بعدم مس استقلالهم وان يعطيهم سنويا ٤٥٠٠٠ من الذهب فقبل رئيس الفرسان ذلك وقيد فى الفرسان بهذه الشروط ولم يصرحوا للامير جم بمبارحة الجزيرة وكذا لم يسلموا فيه حتى حينما طلبه ملكا المجر وامبراطور ألمانيا اللذان طلبا اطلاق سراحه للتشغيب به على الدولة العثمانية ولما خاف رئيس الفرسان من فراره أو أخذه منه بالقوة أرسله تحت الحفظ الى مدينة نيس فاقام بها زمنا ثم نقل منها الى مدينة سجرى ومنها الى غيرها مدة سبع سنوات ثم ان رئيس الفرسان سلمه أخيرا (١٤٨٩ م) الى البابا اينوسان الثامن الذى خابر السلطان فى ذلك وطلب منه أن يدفع اليه ما كان يدفعه لفرسان رودس بشرط أن يحافظ على الامير جم فقبل السلطان منه ذلك وبقى الامير جم عند هذا البابا حتى مات ولما خلفه البابا اسكندر بورجيا عرض على السلطان أنه يريحه من أخيه اذا دفع له ثلاثمائة ألف من الذهب وفى تلك الاثناء أغار شارل الثامن ملك فرانسا على ايتاليا قاصدا انفاذ مشروعه الوهمى وهو الاستيلاء على القسطنطينية وكان يريد الوصول اليها من طريق البنادقة فالبانيا ولذلك كان أرسل رواد الفتنة والفساد الى مقدونيا واليونان لاثارة الافكار على العثمانيين الا أن ملك نابولى وجمهورية البنادقة لما خافا من أن الدولة الفرنساوية يعلو قدمها ويعظم شأنها وضعا العراقيل فى طريقها وأرسلا الى السلطان يخبرانه بما عزم عليه ملك فرانسا وما بشبه من الدسائس وطلبا منه

ارسال

ارسال جيوشه الى بلاد ايتاليا وأن يأخذ حذره فى داخليته ولما حاصر ملك فرانسا مدينة رومية طلب من البابا أن يسلمه الامير العثمانى ليجعله وسيلة يتذرع بها الانفاذ مقاصده فسلمه البابا اليه مرغما ويقال انه أسقاه سما قبل أن يسلمه اليه ومازال هذا الامير مصاحبا الجيوش الفرنساوية حتى توفى فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) بمدينة نابولى ودفن ببلدة جايت من أعمال ايطاليا وبعد ذلك نقلت جثته الى بروسة ودفن فى مقابر أجداده وكان سنه لما توفى ٣٦ سنة قضى منها نحو ١٣ فى حالة تشبه الاسر وكان شاعرا بليغا بلسانهما ويقال إنه أصيب بالجنون فى آخر حياته

وقد كان ملوك الجراكسة أصحاب مصر والشام أغضبوا المرحوم السلطان محمد الفاتح بما فعلوه مما كان سببا فى تغير خاطره وقد كان هم بمعاقبتهم لولا أن المنية أدركته ولما مات وجلس ابنه السلطان بايزيد أراد ملكهم اذ ذاك وهو قايتباى انفاذ حكمه على بلاد ذى القدرية والبستان الكائنة على حدود المملكتين وأخذ أيضا فى تشجيع أخصام الدولة عليها وكان قبل ذلك آوى اليه الامير جم وأظهر توجهاته والتفاته الى قاسم بك القرمانى السالف الذكر واغتصب من رسول ملك الهند السلطان محمد البهمنى غالب الهدايا التى أرسلها معه للسلطان بايزيد عند جلوسه على كرسى السلطنة فتلقت الدولة العثمانية كل ذلك كخصومة خفية فلهذا أعلنت الحرب على قايتباى وحدث لذلك بين الطرفين مناوشات خفيفة كانت الحرب فيها سجالا ثم ان الدولة قوت جيشها الذى على الحدود وجعلته تحت قيادة هرسك زاده أحمد باشا فارتد مغلوبا ثم عينت الدولة جيشا ثانيا تحت قيادة خادم على باشا (٨٩٣ هـ) ولما لم يتمكن هو أيضا من التغلب على خصمه اضطر للعودة عند ذلك شق الامير علاء الدولة أمير بلاد ذى القدرية عصا الطاعة على الدولة وانضم الى قايتباى وقامت المخاصمات بعد ذلك على قدم وساق واكتسبت أهمية شديدة لانها صارت بين العرب من جهة والعثمانيين من الاخرى الا أن الله سبحانه وتعالى تدارك الامر بتداخل حاكم تونس المولى عثمان الحفصى حيث توسط فى الصلح وأخذ أيضا مفتى ذلك العصر الشيخ زين الدين بن العربى فى التوفيق بين الطرفين ناهيا عن سفك دماء المسلمين منبها على ذلك بالنصائح المؤثرة حتى تم الوفاق والصلح بين المتخاصمين (٩٠٦ هـ)

الوقائع البحرية فى العهد المذكور — لما حدثت الثورات والاضطرابات المتقدمة بين مصر والاستانة انتهز البنادقة فرصة ذلك وأرسلوا أساطيلهم لمهاجمة سواحل الدولة العثمانية ولما تخلص السلطان من تلك المشاكل أصدر أمرا باستعداد العمارة وتجديد سفينتين طول كل واحدة منهما ١٨٠ قدما وأن ينزل فيهما ألفا محارب خلاف مابهما من الجنود البحرية لصد البنادقة عن تعدياتهم ولما تمت المعدات أقلعت الدونما (٩٠٤ هـ ١٤٨٨ م) تحت قيادة القبودان داود باشا وكانت منقسمة الى قسمين أحدهما تحت قيادة كمال رئيس والآخر تحت قيادة براق رئيس لطرد البنادقة من القلاع الباقية فى يدهم بشبه جزيرة مورة ثم وصل المدد الى قسم كمال رئيس حتى بلغت سفنه ٣٠٠ سفينة مختلفة النوع والقدر وكانت عمارة البنادقة تحت امارة انطونى فريمانى وكانت مركبة من ٣٦ سفينة من نوع الغالى و ٥٠ من نوع الغليون و ٤٠ سفينة نقلية وبهذا كانت تفوق العمارة العثمانية قوة وضخامة وعلى الاخص عندما انضم اليها أساطيل بعض الدول الاوروباوية

البحرية التي صيرتها أعظم مما كانت عليه قبلا وكان رسوها أمام قلعة متون (Modon) الكائنة في شمال جزيرة سابيانجة بالجنوب الغربي من مورة وبقيت تلك العمارة في انتظار العمارة العثمانية حتى وصلت الى تلك الجهة بعد مضي ثلاثة شهور من خروجها وعليها نيف و ٢٠،٠٠٠ ألف مقاتل جميعهم قد تأهبوا للقتال وفاضت صدورهم بحب التشفي والانتقام من عدوهم كما هو شأنهم وبعد وصولها بقيت عشرين يوما بلا قتال ريثما أخذت كفايتها من المياه والذخائر ثم شكل كمال رئيس مجلسا حربيا من الامراء للاتفاق على أحسن طريقة يمكن اتخاذها للقتال فتقرر بعد المداولة أن يحاربوا دونتما العدو قبل الدخول في جون اينه بختي (Lépantes) (المدعو الآن بجون بتراس) وبناء على ذلك تقدمت الدونتما العثمانية وأخذت في اطلاق مدافعها على أساطيل البنادقة التي قابلتها بنيران قوية ثم حملت عليها والتحمت السفن ببعضها وكانت جيوش العثمانيين متشوقة للكفاح رغما عن التعب الذي صادفوه أثناء الطريق فما صدقوا أن يروا رحى الحرب دائرة حتى انقضوا على عدوهم انقضاضا آذنه بالويل والدمار وبشره بسرعة الهزيمة والانكسار وقد حدث أن بعض العثمانيين لم يستطع صبرا دون أن وثب داخلا في سفن عمارة البنادقة والتصق بعساكرها وفتك فيهم فتكا شديدا فلم يكن الا القليل من الزمن حتى لحق البنادقة ومساعديهم من العثمانيين ما لحقهم من الهزيمة وتم الانتصار لكمال رئيس واستولى على بعض سفنهم وأحرق البعض وأغرق البعض وانسحب الاميرال انطوني فريماني بباقي سفن عمارته ورسا بها في فم جون اينه بختي فلم يشعر الا والعمارة العثمانية مستعدة للحملة عليه ثانية ودخول الجون المذكور فلما رأى ذلك استعد لمقاومتها ولكن استعداده كان كحركة المذبوح فلم يجده نفعا بل دخلت العمارة العثمانية الجون رغما عنه وقام هو بمراكبه عائدا الى عاصمة البنادقة خوفا من ضياعها هي الاخرى فلما وصل العاصمة المذكورة وعرض لحكومته تقرير الواقعة عقدت له مجلسا حربيا لمحاكمته فحكم عليه بتجريده من رتبه ونزع العمارة من تحت قيادته وتسليمها الاميرال آخر يسمى تراويسانو

وفي تلك الاثناء كان السلطان بايزيد تقدم بجيوشه برا الى قلعة اينه بختي فحاصرها وأمر العمارة بالحصار بحرا وبذلك سلمت القلعة ثم عادت الدونتما العثمانية بعد ذلك للاستانة لتمضية فصل الشتاء بها كالعادة السنوية وكان هرسك زاده أحمد باشا قائدا على الجيوش البرية ومعه مصطفى باشا وسنان باشا فعادوا بمعية السلطان الى أدرنة وفي شتاء سنة ٩٠٥ هـ استولت سفائن البنادقة على جزيرة كفالونيا وهاجموا ميناپر ويزة واحرقوا بعض السفائن العثمانية التي كانت راسية فيها

ولما وصلت هذه الاخبار الى الاستانة سير السلطان في سنة ٩٠٦ العمارة بحرا وأمرها بحصار قلعة متون السابق ذكرها ونهض هو بجيش عظيم برا من أدرنة الى هذه القلعة وعند وصول العمارة اليها تلقاها الاميرال تراويسانو بأساطيل البنادقة فالتحم بينهما قتال عظيم جدا وأخيرا دارت الدائرة على الاميرال المذكور فعاد بالخيبة بعد ان خسر كثيرا من سفنه واستولت الدونتما العثمانية على سفينتين عظيمتين من سفن البنادقة أضافتهما الى العمارة العثمانية واستولى العثمانيون أيضا على قلعتي متون وقرون (Coron) ثم دخل السلطان مورة بجيوشه ولما رأى الاميرال تراويسانو ذلك قام فهجم على ميناناوارين واستولى عليها ومع ذلك فلم يمهله البطل كمال رئيس الشهير في الحروب

الاندلسية

الاندلسية بل تعقبه بثلاثين سفينة وحمل بها على أساطيله فى ميناناوارين المذكورة وبعد فترة قصيرة من الزمن استولى على ثمان مراكب من أسطول البنادقة المذكور واسترد منهم قلعة ناوارين فعاد الاميرال تراو يسانو بعمارته منهزما ومن شدة تأثره مما ناله من الخسران والانهزام أصيب بمرض شديد مات بسببه سيما وان مثل هذا الانهزام كان السبب الوحيد فى محاكمة سابقة وتجريده من رتبه وان جمهورية البنادقة قد جعلته محل ثقتها وموضع الامل بفوز عمارتها ونجاحها فلم يكن منه الا الخيبة المسعى وعكس ما كانت تأمله فيه

وتصادف ان الاسبانيولين أرسلوا سنة ٩٠٧ أسطولا مؤلفا من ثلاثين سفينة تحت قيادة الاميرال غونسالو الملقب بكبيد الذى ظفر فى محاربات ناولى فلما التقت بها أساطيل البنادقة المذكورة اشتد أزرها وصممت على معاودة الحرب للاخذ بالثار ثم عادت العمارتان وهاجمتا فى الشتاء كفالونيا ودراج واستولتا عليهما ثم وصلتا الى بوغاز الدردنيل وأنزلتا العساكر بجزيرة مديللى واستولتا على قلعتها ولما بلغ هذا الخبر القسطنطينية أرسلت الدولة فى الحال أساطيلها تحت قيادة كمال رئيس المتقدم الذكر وجيشا عظيما تحت قيادة هرسك اوغلى أحمد باشا وسنان باشا والى الاناضول فاستردوا قلعة مديللى بعد الهجوم الاول وفر العدو هاربا بسفائنه فالتزمت حكومة البنادقة الى طلب الصلح من العثمانيين وبعد تقرير شروطه (٩٠٩ - ١٥٠٣ م) عقدت بينهما معاهدة الصلح تحت شروط اعادة جزيرة كفالونيا للدولة وبقاء جزيرة سنت ماورستقلة والترخيص للبنادقة بالسير فى البحر الاسود وان يكون لهم قناصل فى الاستانة والحاصل انه فى زمن السلطان بايزيد الثانى اكتسبت البحرية العثمانية شهرة عظيمة أوقعت بها الرعب والخوف فى قلوب الدول البحرية الاوروباوية بالبحر المتوسط الابيض

وقد استمرت الدولة العثمانية فى أيام بايزيد الثانى ملتزمة جانب السلم مع الممالك المجاورة لها الا أنها كانت لا تخلو عن فتن ومشاجرات داخلية لتعدد أجناس سكانها واختلاف نحلهم ومشاربهم ووجهتهم ولما كان هذا السلطان يميل الى السلم والملاينة وديعا يكره سفك الدماء بلا سبب استخف به جنوده وأولاده فتكدر واصفو أيامه فى آخر حياته وذلك انه لما خاف منهم فرقهم فى الولايات فعين الامير قرقود باحدى الولايات البعيدة والامير أحمد على أماسيا والامير سليمان وهو اصغرهم سنا على طرابزون وعين سليمان ابن ابنه سليم على كفه من بلاد القريم الا أن سليمان لم يقبل بهذا المنصب لبعده عن مقر السلطنة وطلب من جده ولاية قريبة وبعد أخذ ورد عينه على مدينتى سمندرة وودين حقنا للدماء سنة ٩١٧ ﻫ (١٥١١ م) ولما وصل خبر نجاح سليم لاخوته قاموا جهارا على أبيهم فارسل السلطان عليهم الجيوش فقمعتهم ولما كان الامير سليم لم يكتف بمنصبه الجديد أيضا سيما وان اليكجرية كانوا يميلون اليه كثيرا قصد أدرنة فاحتلها ونادوا به سلطانا الا أن والده لم يمهله بل جرد عليه حتى ألجأه الى الفرار الى بلاد القريم ثم سعى اليكجرية لدى السلطان حتى عفا عنه ورضى برجوعه الى سمندرة وبينما هو عائد اليها قابله اليكجرية وهو نوا عليه الجلوس على تخت السلطنة فقبل منهم وساروا به الى والده الذى لم يقدر فى هذه المرة على المقاومة لتقدمه فى السن وميل وكلاء الدولة عموما الى ولده بل التزم أن يتنازل له عن الملك وخلع نفسه وطلب أن يذهب الى

ديمتوقة (١) ليمضى بها بقية أيامه وقد شيعه ابنه وسار بجانب عربته ماشيا مسافة طويلة الا انه لم يصل اليها بل مات فى الطريق سنة ٩١٨ (١٥١٢ م) ويقال انه مات مسموما وسنه ٦٧ سنة فنقلت جثته الى الاستانة ودفن فى تربته المخصوصة داخل جامعه وكان السلطان بايزيد لما ألح عليه وكلاء الدولة بانتخاب أحد أولاده للسلطنة لعدم مقدرته على تحمل مشاق الحروب واتفاقم أخطار الشاه اسمعيل الصفوى الذى كان يهدد الدولة بالهجوم وقع اختياره على ولده الامير أحمد ووافقه بعض الوكلاء على ذلك الا أن اليكجرية هاجوا وماجوا وطلبوا تعيين السلطان سليم لاتصافه بعلو الهمة والجسارة وهجموا بعض بيوت الوزراء ونهبوها وعند ذلك ألح الوكلاء على السلطان حتى قبل بتعيين ولده السلطان سليم

ولما لم يكن هذا السلطان يميل الى سفك الدماء لم تزد أملاك الدولة فى زمنه شيأ كبيرا وكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن الدولة حتى لايستخف بها أعداؤها وفى عهده ابتدأت علاقات الدولة العثمانية مع ممالك أوروبا فارسل الروس مدة ملكهم ايوان الثالث الملقب بدوق موسكو أول سفير روسى (١٤٩٢ م) ومعه جملة هدايا للسلطان وبعد ذلك بأربع سنوات أتى سفير آخر استحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس وابتدأت فى عهده المواصلات الحبية مع مملكة الهستان (بولونيا) فعقد بين المملكتين معاهدة سنة ١٤٩٠ م ثم تجددت سنة ١٤٩٢ م الا أن هذا الوفاق لم يمكث زمنا لادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد بغدان واغارة ملك بولونيا عليها فاضطر العثمانيون للاغارة على حدود بولونيا ووضعوا حمايتهم النهائية على بلاد بغدان (٢) ولذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة وبين البابا اسكندر السادس بورجى وملك نابولى ودوق ميلانو وجمهورية فلورانسة وكان كل منهم يجتهد فى

---

(١) مدينة بتركية أوروبا على نهر مريج بولاية ادرنة سكانها عشرة آلاف نفس وبها قلعة قديمة كان يسكنها فى بعض الاحيان سلاطين آل عثمان قبل فتح القسطنطينية وقد أقام شارل الثانى عشر ملك السويد بهذه المدينة بعد واقعة بولتاوه

(٢) بغدان أوملداقيا بلاد من أوروبا انضمت الآن مع بلاد الافلاق أو الفلاخ وكونت مايعرف بمملكة رومانيا تحد من الشمال الشرقى والشرق ببلاد بسارابيا يفصلها عنها نهر بروث ومن الجنوب الشرقى بالبحر الاسود ومن الجنوب الدبروجة والافلاق يفصلها عن الدبروجة نهر الطونه ومن الغرب ترانسلفانيا مساحتها ١٨٤٣٥ ميلا مربعا وسكانها نحو ١٤٠٠٠٠٠ نسمة تكثر فيها المراعى والغابات وأهاليها خليط من البغدانيين الاصليين والافلاقيين واليونان والارمن واليهود والمجر والفرنج والغجر والديانة الاكثر انتشارا بها هى الاورثوذكسية ويشتغل أهاليها بالزراعة سكنها فى القديم قبائل الجيتة وأغار عليها داريوس هيستاسب عند اغارته على بلاد السيتيين ثم أغار عليها القوط والهون والبلغار والصقالبة ثم تغلب عليها قبائل الآفار فى القرن السادس للميلاد ثم أخضعها البلغار الذين خضعوا هم أيضا بعد زمن للخزر والبجناق وبعد ذلك حدث بها حروب واضطرابات داخلية الى أن أخضعها المغول وفى النصف الاول من القرن الرابع عشر للميلاد رحل اليها قوم من المجر تحت رياسة رجل يقال له بغدان فانشأ مع ابنه دراغوش دولة عرفت فى التاريخ باسم دراغوشية وحينئذ سميت البلاد باسم مولدافيا من نهر مولداوا وسميت أيضا بغدان باسم ملكها المذكور ثم اشتهر من عائلة بغدان استفانوس السادس الملقب بالكبير المتوفى سنة ١٥٠٤ م ولما جلس ابنه بغدان الثالث بعد حصلت له حروب مع المجر والبولونيين صادف فيها فشلا ولما أغارت عليه التتار دخل تحت حماية الدولة العثمانية ومازالت هذه البلاد تحت سيادة الدولة العثمانية بالاسم تارة والفعل أخرى الى أن أدخلها السلطان سليمان الثانى ضمن الممالك العثمانية حين حملته على مدينة فيينا أما الحوادث التى حصلت بها بعد هذا التاريخ فانها مذكورة ضمن تاريخ الدولة العثمانية

مخالفة

مخالفة الدولة العثمانية للاستعانة بجنودها البرية وأساطيلها البحرية وبذلك سهل على العثمانيين انتزاع مراكز كثيرة وقلاع حصينة من يد البنادقة ببلاد مورة وغيرها كما سبق ولولا قيام أولاد السلطان عليه لتم فتح بلاد البنادقة لانه اضطر لابرام الصلح معهم ومع غيرهم كما ذكر

﴿ الفصل السابع ﴾

من انتقال الخلافة الاسلامية لآل عثمان الى وفاة صقوللى محمد باشا

٩٢٢ - ٩٨٦

السلطان سليم الاول الملقب بياوز

٩١٨ - ٩٢٦

قبض على زمام الملك وسنه ٤٦ سنة وكانت الاحوال الداخلية فى ارتباك لان السلطان أحمد كان يدعى الحق فى السلطنة لانه أكبر سنا ولان والده كان انتخبه قبل تنازله عن السلطنة وصادق على ذلك كبراء الدولة فساق جيشا تحت قيادة ولده الامير علاء الدين وفى تلك الاثناء وفد من كان ببروسة من أولاد السلاطين الى استانبول وبايعوا السلطان سليم وأخذوا منه الاذن فأذن لهم بالعودة والاقامة ببروسة ثم بعد ذلك تزايدت ادعاآت أخيه السلطان أحمد وأخذت أفكار كبار الاناضول تتغير وتميل الى جهته فخاف السلطان نتيجة ذلك ودبر حيلة لاطفاء نار هذه الثورة الداخلية فامر بقتل جميع اخوته وأولاد اخوته وأقاربه الذين صرح لهم قبلا بالاقامة فى بروسة وكانوا كثيرين وبعد قتلهم خاف أخوه قورقود وأرسل للسلطان تنازلا عن جميع حقوقه ومدعياته ولكنه مع ذلك قتل باغراء بعض أصحاب الغايات ولما وصل للسلطان أحمد خبر هذه الحوادث خاف على نفسه ولم يجد طريقة للخلاص سوى كونه توجه بنفسه الى الاستانة والتجأ لمرحمة أخيه ومع ذلك قتله السلطان خوفا منه فى المستقبل وكان للامير أحمد هذا ولدان التجأ أحدهما بعد قتل أبيهما وهو الامير مراد الى بلاد العجم عند الشاه اسمعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية والتجأ الآخر وهو الامير علاء الدين الى الملك الاشرف قانصوه الغورى ملك مصر ولما طلبهما منهما امتنعا عن تسليمهما فكان ذلك داعية لوقوع الحرب بينه وبين هذين الملكين

حرب ايران (٩٢٠ هـ) - قد كان الشاه اسمعيل الصفوى يجتهد كثيرا فى ايجاد القلاقل والاضطرابات فى داخلية الدولة العثمانية فبث لذلك بذور الفساد فى جميع الجهات المتاخمة له منها ولهذا رأى السلطان سليم أن من الضرورى جدا استئصال بذور هذا الفساد ولما بلغه ان كثيرا من رعايا الحكومة العثمانية تمذهب بمذهب الشيعة على أيدى دراويش القزل باش الذين بثهم الشاه اسمعيل بالجهات أمر بحصرهم وتعدادهم فى السر فبلغوا أربعين ألفا أو نحوها وقصده من ذلك أخذ الاحتياطات اللازمة ليمكنه تجنب ما عساه أن يحدثوه بداخلية البلاد اذا اشتبكت الدولة فى حرب أجنبية

ثم عقد السلطان بمدينة ادرنة مجلسا جمع اليه جميع الوزراء والقواد وبعد مداولات استمرت طويلا أقروا جميعا على اعلان الحرب على الشاه اسمعيل ثم خرج السلطان من ادرنة (٩٢٠ هـ) قاصدا استانبول فأقام بها أياما ثم ترك ابنه الامير سليمن نائبا عنه بتلك المدينة وانتقل الى مدينة اسكدار وبعد أن تمت لديه الاستعدادات خرج من اسكدار قاصدا بلاد العجم وبينما هو يسير في الطريق اذ قبضت جنوده على جاسوس ايراني ولما أتوا به في حضرة السلطان أمر باطلاق سراحه وأعطاه مكتوبا يتضمن اعلان الحرب الى الشاه اسمعيل ومازال الجيش العثماني يتقدم من مدينة الى مدينة حتى وصل الى سيواس وهناك استعرضه السلطان وأمر باحصائه فبلغ ١٤٠,٠٠٠ جندي ترك منه ٤٠,٠٠٠ للمحافظة بين سيواس وقيصرية وتقدم هو بالباقي عندئذ أخذ محمد خان حاكم جهات ديار بكر في تخريب المزارع وهدم القرى ببلاد كردستان ثم انكمش بجيوشه داخل بلاد العجم وكذا الشاه اسمعيل لم يتجاسر على الظهور امام العثمانيين ولم يجاوب أيضا على الكتابين الذين أرسلهما اليه السلطان تباعا ثم لما تقدمت الجيوش العثمانية في صحاري بلاد الفرس اعتراهم الضجر واستولى عليهم الملل وأخذوا يتكلمون فيما بينهم بان هذه المحاربة لا نتيجة منها ولما بلغ السلطان تذمر الجنود خاف سوء العاقبة فقبض على بعض أصحاب الجراءة منهم وقتلهم ارهابا للغير وأمر بالتقدم الى مدينة تبريز وعندما وصلوا الى مدينة طراجان اذا باليكجرية قوضوا خيامهم بغتة وأخذوا في اطلاق بنادقهم على خيمة السلطان عندئذ ركب السلطان وخلفه وزراؤه ونادى في الجنود قائلا من أراد النوم على بساط الراحة في بيته فليرجع ومن أراد ملاقاة الاعداء في ساحة الوغى فليأت معي وان أحببتم جميعكم العودة فلكم ذلك وأنا أتقدم بمفردي ولم يكد يتم كلامه حتى أشار الجنود باجمعهم بعلامة الطاعة والانقياد

وبعد ذلك بأيام أتى جواب الشاه اسمعيل ردا لمكاتيب السلطان الثلاثة ومعه كأس به نوع معجون فأجابه السلطان في مقابلة تعريفه هذا بأن أرسل له كسوة من لباس النساء يحرضه بذلك على الخروج الى حربه وفي آخر الامر خرج الشاه اسمعيل بجنوده حتى أشرف على طليعة العثمانيين التي كان على قيادتها شهسوار زاده على بك وعلى بك ابن ميخال وغيرهما ثم تلاقى الجيشان بصحراء چالديران عندئذ أخذ العثمانيون في تعبية جنودهم على الطريقة المتبعة اذ ذاك في جيوشهم ووقف السلطان خلف الجنود في مكان يشرف منه على ميدان القتال ومعه وزراؤه وهم هرسك زاده أحمد باشا وأحمد باشا ابن دوقه كين ومصطفى باشا وجعل الجنود المدافع خلف ظهورهم ليخفوها عن أعين الفرس ووضعوا أمامهم عربات النقل والجمال وقد كان الجيشان في العدد سواء الا اننا لو اعتبرنا ما أصاب العثمانيين من الضعف الذي استولى عليهم من السير مدة أشهر وسط بلاد قاحلة وصحار مقفرة لقلنا انهم أضعف حسا ومعنى من أعدائهم وقد كان جيش الايرانيين مؤلفا جميعه من الخيالة ومنهم فرق تلبس الزرد وفرق من طوائف الفداوية المشهورين وكان بمعية الشاه كثير من الامراء والاعيان والمشايخ وغيرهم ولم يكن بجيشهم أسلحة نارية ولما استعد الشاه للمحاربة قسم جيشه الى فرقتين جعل احداهما تحت رياسته والاخرى تحت رياسة أشهر قواده ثم أغار بفرقته على الجناح الايسر لجيش العثمانيين المؤلف من عساكر الروملي فهزمهم وقتل منهم كثيرا من ضمنهم رئيسهم حسن باشا ولما أرادت الفرقة الاخرى الهجوم على الجناح الايمن قابلها العثمانيون بجنان ثابت وأعملوا مدافعهم

قصدوها

قصدوها بعد أن ألحقوا بها خسائر جمة ثم تقدموا الى قلب الجيش فبددوا شمله وقتلوا منه مقتلة عظيمة عند ذلك ولى الفرس الادبار واستولى العثمانيون على مضاربهم وما كان معهم من الذخائر والادوات وجرح الشاه اسمعيل فسقط عن جواده وكاد يقع فى قبضة العثمانيين لولا ان أغاثه اثنان من مماليكه ووقعت خيمته وحرمه وخزائن أمواله فى قبضة العثمانيين وقتل فى ذلك اليوم من الفرس أربعة عشر أميرا ومن العثمانيين أربعة عشر من أمراء السناجق غير ما قتل من جنود الطرفين وفى اليوم الثانى من هذا الانتصار تقدم الجيش العثمانى يقصد تبريز فدخلها ظافرا ولما كان فى نية السلطان تمضية فصل الشتاء بمدينة اذربيجان والعودة فى السنة المقبلة لتعقب الشاه وازالة بناء الدولة الصفوية من الاساس لم يمكث بتبريز غير ثمانية أيام تفرج فى أثنائها على آثار تلك المدينة وصلى الجمعة بجامعها الاعظم وخطب له باسمه على منبره وعند وصول السلطان الى مشتاقره باغ أخذ فى محاسبة جنوده وقواده فقتل منهم من استحق القتل عقابا وكافأ من استحق المكافأة جزاء وكانت هذه المحاربة سببا فى أفول نجم الشاه اسمعيل بالمرة

وقد نقل السلطان عند عودته من تلك البلاد الى الاستانة عددا عظيما من مهرة العملة والصناع فى كل فن وصنعة وجاب معه من النفائس والطرف ما لا يقوم ومن ذلك تخت ملوك الفرس الذى كانوا يجلسون عليه فى الاحتفالات الرسمية ويقال انه يوجد للآن بدار التحف السلطانية باسكى سراى قال أحد الذين شاهدوه انه على جانب عظيم من غريب الصنعة به من الاحجار الكريمة شئ كثير بحيث لا يقوم بمال

ولما كان علاء الدين بك أمير بلاد ذى القدرية كثيرا ما ينتهز الفرص لتشويش حال السلطنة أرسل عليه السلطان وزيره الاعظم سنان باشا وبرفقته على بك ابن شهسوار من آل ذى القدرية ومعهما الجيوش الكافية فالتقوا مع جنود ذى القدرية بجبال طورنه فهزموها شر هزيمة وقبضوا على على بك وأولاده وعائلته وقتلوهم جميعا وقد كان آل ذى القدرية سببا فى تكدير العلاقات بين العثمانيين وملوك الجراكسة وضمت بلادهم وهى جهات مرعش الى الممالك العثمانية (٩٢١ هـ)

اخضاع بلاد كردستان (٩٢١ - ٩٢٣ هـ) - لما كانت بلاد الكردستان متاخمة لبلاد ايران كانت أمراؤها منقادة تماما لشاه الفرس ولما كان السلطان يخشى اماسيه نهض وفتح قلعة كماخ وذلك قبل محاربته بلاد ذى القدرية الآن بلاد الكردستان لما كانت جبلية وعرة كان فتحها من أعسر الامور ومع ذلك فانه جرد عليها وجعل على رياسة جيشها بيقلى محمد باشا ولما رأى السلطان ان الباشا المذكور ربما لا يتأتى له بمفرده فتح تلك البلاد عين معه المولى ادريس البتليسى ولما كان المولى المذكور كردى الاصل ومن احفاد أوزون حسن الشهير وكان رئيس ديوان الانشاء لدى السلطان يعقوب سلطان تلك البلاد كان له بالطبع وقوف تام على أحوال تلك البلاد فقام هذا الشيخ بما عهد اليه أحسن قيام وتمكن طورا بالترهيب وطورا بالترغيب من ادخال عدة أمراء من أمراء الاكراد تحت تابعية الدولة العثمانية غير أن الشاه اسمعيل شق عليه هذا الامر وأخذ فى بث الدسائس والثورات بين أهالى تلك البلاد ومدهم بالمساعدات لعرقلة مساعى بيقلى محمد باشا والمولى ادريس المذكورين ولما رأت الدولة ان مساعيهما لم تأت بالثمرة

المرغوبة أمدتهما بجيوش أخرى ثم فى نهاية الامر تلاقت الجيوش العثمانية مع جيوش قره خان أخى استاجلو محمد خان الذى نصبه الشاه اسمعيل أميرا على بلاد الكردستان بقرب بلدة قوج حصار وحصلت بين العسكرين معركة شديدة دارت فيها الدائرة على عساكر الشاه وقتل قره خان المذكور أميرها فعند ذلك رأى أمراء الاكراد أن لا طاقة لهم على دوام المقاومة والمخاصمة فدخلوا تحت جناح الدولة العثمانية وبذلك تم الاستيلاء على هذا الاقليم الجسيم بما أظهره كل من هذين الشخصين محمد باشا بمهارته العسكرية والمولى ادريس بحسن سياسته وتدبيره ثم عاد السلطان الى الاستانة تاركا بتلك الاطراف بعض القواد لفتح وتسخير بعض بلاد العجم فاستولى خسرو باشا على خربوط واستولى بيقلى محمد باشا على ديار بكر وغيرها

وقد كان أول شئ اهتم به السلطان بعد عودته الى الاستانة (٩٢١ هـ) النظر فى أحوال العسكرية لما حصل منهم من التمرد أثناء حرب ايران فغير وبدل فى أوجاق اليكجرية ورأس عليه كثيرين من خدمة السراى السلطانية الذين اشتهروا بالصداقة والمساعى الحسنة وجعل لذلك الاوجاق مجلسا عاليا يسمى بديوان الاغا وجعل للوجاق أركان حرب انتخبهم ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الفنون العسكرية ولم يكن اهتمام السلطان بالقوة البرية أقل منه بالقوة البحرية حيث أمر القبودان جعفر بك أحد قواد البحر بتوسيع دار الصناعة التى بساحل قاسم باشا وأمر فانشأ بها عدة سفائن جسيمة بين حربية ونقلية حتى صير بذلك قوة الدولة البحرية معادلة لقوة البنادقة واسبانيا معا

وبعد عودة السلطان بقليل أرسل ملوك البنادقة والمجر وايطاليا واسبانيا سفراءهم بالهدايا النفيسة والمكاتيب يخطبون مودته وتجديد روابط الصلح والمسالمة بينهم وبينه ولما كان يميل هو أيضا لهذا الامر ليتفرغ للنظر فى أحوال الشاه اسمعيل وقانصوه الغورى قبل مطالبهم وأحسن لسفرائهم وردهم بالاعزاز والتكريم

استيلاء العثمانيين على مصر

(٩٢٢ - ٩٢٣ هـ)

قد سبق ذكر الفتور فى العلاقات الذى حدث بين ملوك الجراكسة حكام الديار المصرية والشامية وبين السلطان محمد خان الفاتح وما تسبب عن ذلك من الحروب التى قامت بينهم وبين السلطان بايزيد خان وتوسط فيها العلماء وملك تونس حقنا للدماء حتى أصلحوا ذات البين الا أنه لما كانت حكومة ذى القدرية هى الحد الفاصل بين مصر والدولة العثمانية وكانت مركزا للفتن والدسائس اهتم السلطان بازالة حكومتها وقتل أمرائها فوقع هذا العمل عند الملك الاشرف قانصوه الغورى موقعا سيئا وطلب من السلطان الترضية عن ذلك بأن تتم الخطبة فى الاقليم المذكور باسم قانصوه فجاوبه السلطان على مكتوبه بالفاظ التهديد والوعيد وبعث له برأس الامير علاء الدولة آخر أمراء بلاد ذى القدرية فقام الغورى لذلك وقعد وعزم على الاخذ بالثار وأخبر بذلك محالفه الشاه اسمعيل الذى أخذ فى اضرام نار التحريض فى قلبه وشجعه على محاربة آل عثمان واعدا اياه

بالمساعدات

بالمساعدات فاخذ السلطان الغورى فى جمع الجنود والاكثار من العدة والسلاح على حد قول المثل (استعد بالسلاح ان أردت الصلح والصلاح) وفى سنة ٩٢٢ ﻫ جهز السلطان جيوشه مظهرا أنه يريد الحملة على بلاد ايران مع انه فى الحقيقة مصمم على فتح بلاد مصر ثم خرج الوزير الاعظم خادم سنان باشا طليعة بجيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل واتجه الى قيصرية ومنها الى ديار بكر ثم قام السلطان بعده بجيش عظيم يبلغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ومعه المدافع الكثيرة والعدد الوافرة وأرسل المولى ركن الدين قاضى عسكر الروملى مع قره جه باشا من طرفه الى سلطان مصر ليقفوا على حالته ونواياه وكان قبل خروجه ترك على مدينة أدرنة ولده الامير سليمان وعلى استانبول الوزير پيرى باشا وعلى بروسة هرسك زاده أحمد باشا وأوصاهم بالمحافظة على الامن وسير أيضا اسطولا عظيما للذهاب الى مدينة الاسكندرية تحت قيادة القبودان جعفر بك

وكان السلطان الغورى يتوجس شرا من استعدادات السلطان وقد قوى عنده هذا الفكر خصوصا حينما وصلت الاساطيل العثمانية الى مياه الاسكندرية عند ذلك اهتم بالاستعدادات الحربية وخرج بجيش عظيم الى مدينة حلب مترقبا ما سيحصل ثم بث العيون فى كل مكان ليأتوه بالاخبار وأخذ أيضا فى مخابرة أوزون حسن والشاه اسمعيل المقهورين ليتفقوا جميعا على الاغارة على البلاد العثمانية وغير ذلك وبينما الغورى بحلب اذ قدم عليه سفيرا السلطان فأمر بالقبض عليهما وكبلهما بالقيود وألقاهما فى السجن وبعد أيام أخلى سبيلهما وطيب خاطرهما وردهما الى بلادهما وبينماهما فى الطريق قابلا الجيش العثمانى بمكان يقال له بوجاق دره ولما أخبرا السلطان بما حصل لهما وما شاهداه أمر جيشه بالاتجاه نحو الجنوب لانه كان كما روى يقصد فى أول الامر التنكيل بالشاه اسمعيل ثم يقصد مصر بعد ذلك فانحدرت جيوشه نحو مصر ولما وصل الى مدينة عينتاب أتاه واليها المصرى المدعو يونس بك طالبا الامان فأمنه وجعله دليلا وما زال يقطع الفيافى والقفار حتى وصل الى مرج دابق القريب من حلب فى ٢٦ رجب سنة ٩٢٢ (٢٤ أغسطس ١٥١٦ م) وتلاقت عساكره مع عساكر الغورى وبعد مناوشات بقيت أياما حصلت بين الطرفين محاربة عظيمة انجلت عن هزيمة المصريين هزيمة منكرة وقتل قانصوه وكثير من أمرائه واغتنم السلطان سليم جميع أمواله وذخائره ثم دخلت الجنود العثمانية مدينة حلب فاغتنمت جميع ما بها من النقود والاشياء النفيسة ثم بعدها استولى السلطان على حماة وحمص ودخل دمشق الشام بكل سهولة وانقادت لسلطانه جميع مشايخ العرب والدروز

وبعد أن مكث ببلاد الشام نحو أربعة شهور للنظر فى أحوالها استمر سائرا نحو الجنوب وفتح فى طريقه قلعة القدس الشريف وغزة واستصحب معه واليها جانبرد الغزالى ثم عقد مجلسا من القواد والامراء فاستقر رأيهم على التقدم لفتح بلاد مصر ولما وصل الى صحراء السويس بلغه ان طومان باى الذى تبوأ تخت مصر بعد قانصوه الغورى وكان ولاه عليها قبل سفره يهتم بتجهيز الجيوش واعداد العدد لصده عن دخول مصر فارسل له السلطان بأن يكف عن ذلك وهو يبقيه على الديار المصرية بشروط منها الاقرار بالتابعية العثمانية وضرب السكة باسم السلطان وكذا تكون الخطبة فلم يقبل وفى يوم ٢٩ الحجة من السنة المذكورة تقابل مع جنود طومان باى قريبا من الخانقاه

بمكان يدعى الريدانيـة وحصلت معركة شديدة انهزم فيها عساكر طومان باى بعد أن أظهر وامن الفروسية والشجاعة مالا يوصف مع عدم حيازتهم للاسلحة النارية وأسر المصريون سنان باشا فقتله طومان باى ببركة الحج وكذا قتل من أمراء العثمانيين فى هذه الواقعة محمود بك ابن رمضان و يونس بك والى عينتاب المتقدم وغيرهما ثم عين السلطان سليم يونس باشا صدرا أعظم مكانه واقتفت الجنود العثمانية أثر طومان باى ومن معه حتى جهات مصر العتيقة وفى أثناء مرور بعض الجنود العثمانية من حارات مصر صارت النساء ترمى على عساكرهم من الطاقات أحجارا ونيرانا فقتل منهم خلق كثير ثم ان طومان باى أعاد الكرة على العثمانيين بعد ان جمع جيشا من الجراكسة والعربان فلم يفلح وقد ظهر منه من الاقدام والشجاعة ما أذهل العقول ثم قبض عليه أخيرا بعض العربان أثناء فراره الى الاسكندرية وسلموه الى السلطان فسجنه أياما ثم أطلقه وأقبل عليه وأمر له بالحضور فى حضرته بلا ممانع وكثيرا ما سأله فى أمور تتعلق باحوال الديار المصرية وأخيرا أمر به فصلب على باب زويلة بالقاهرة وكان القائم بامر صلبه على بك بن شهسوار لانه كان صلب أباه منذ أيام مضت بالباب المذكور وكان السلطان فى أول الامر أراد استبقاءه لولا أن بعض وزرائه خوفه العاقبة وبذلك انقضت دولة الجراكسة أو المماليك البرجية بعد ان ملكوا مصر نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الوقت صارت مصر إحدى الايالات العثمانية وعين السلطان سليم خيرى بك وكان واليا لحلب من طرف الغورى أميرا على مصر بلقب باشا لمعرفته أحوال البلاد واخلاق سكانها

و بعد قتل طومان باى دخل السلطان سليم القاهرة عاصمة الديار المصرية وكان قبل ذلك يقيم هو وجنوده بجزيرة الروضة (٩٢٣ هـ) ثم انه رحل الى الاسكندرية فى طائفة من جنوده وأبقى بها حامية تحت قيادة جعفر بك وأسطولا لحماية البلاد من تلك الجهات ثم عاد الى القاهرة مهتما بتنظيم أمورها والنظر فيما تحتاجه

ولما كان السلطان سليم يخاف على مصر من عدو خارجى ومن تمرد أهلها وتلاعب ذوى الاغراض بها أحدث لها نظاما خاصا بها وأبقى بها العدد الكافى من الجنود وذلك أنه نصب عليها خيرى بك المتقدم الذكر وأنعم عليه بلقب باشا وجعل بمصر ثلاث ادارات كل منها تراقب أعمال الاخريين و بهذا يأمن اتحادها وتمردها فالقوة الاولى الباشا وأهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللامة ومراقبة تنفيذها والقوة الثانية الوجاقات لانه جعل بالقاهرة و بالمدن المهمة من القطر ٦٠٠٠ فارس و ٦٠٠٠ راجل مسلحة بالبنادق وجعلها تحت قيادة أحد قواده العظماء المدعو خير الدين باشا وأمره بالمقام فى القلعة ولا يخرج منها الا لسبب كان وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية خراجه وهذه الوجاقات هى وجاق المتفرقة ووجاق الجاويشية ووجاق الهجانة ووجاق التفكجية ووجاق اليكيجرية ووجاق العزب وعلى كل وجاق منها ضابط يلقب بالاغا يصحبه الكيخيا والباش اختيار والدفتردار والخازندار والرزنامجى ومن اجتماع هؤلاء الضباط المختلفين يتألف مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان فلا يقضى أمر الا بمصادقتهم ولهم ان يوقفوه عن العمل متى رأوا منه ما يقتضى ذلك ولهم أيضا ان يطلبوا عزله أما القوة الثالثة فهم المماليك وهم من بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة

بين

بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل أعداء لكل من الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد وقسم السلطان أيضا البلاد الى اثنى عشر قسما يقال للقسم منها صنجقية يحكم كلا منها حاكم يقال له صنجق أو بك يعينه ديوان مصر من أمراء المماليك وبهذه الصفة استراحت الدولة من وجود الشغب في مصر وصارت على ثقة من بقاء بلاد مصر في قبضتها

وبينما كان السلطان يهتم بهذه التنظيمات اذ وردت الاخبار من الاستانة تستدعى حضوره على وجه السرعة فخرج من مصر (٩٢٣ هـ) وأخذ معيته ابن الغورى ومحمد المتوكل على الله العباسى الخليفة الثامن عشر من العباسيين بمصر وأخذ أيضا بعض الامانات النبوية الشريفة الموجودة للآن بدار الخلافة وغير ذلك من النفائس والاموال التى وجدها بخزائن مصر ولما وصل السلطان الى مدينة حلب قابله الصدر الاعظم بيرى باشا الذى تولى الصدارة بعد يونس باشا وأخبره بان الصفويين يجمعون العساكر بالحدود فامره السلطان بالذهاب سريعا لمواجهتهم الا أن الصدر الاعظم لما عبر حدود العجم بلغه ان الشاه تقهقر الى خراسان فلم يرد الصدر الاعظم اتباعه وبعد أن مكث مدة بتلك الجهاد عاد الى الاراضى العثمانية

انتقال الخلافة الاسلامية لسلاطين آل عثمان ٩٢٢ — لقد كان فتح الدولة العلية لبلاد مصر ودخول هذه البلاد المشهورة من القديم بالثروة وحسن الموقع في عداد الولايات العثمانية موجبا للفوائد العظيمة ملية كانت أو سياسية ومن حسن حظ السلطان سليم أنه في أثناء اقامته بمصر حضر ابن أبى البركات شريف مكة المكرمة وقدم له بيده مفاتيح الحرمين الشريفين طائعا مختارا وهناه بالفتح بالنيابة عن والده وصارت الخطب التى تتلى بالمساجد في أيام الجمع والاعياد بعد فتح حلب يذكر فيها السلطان بعنوان خادم الحرمين الشريفين وأنه عند عودته الى القسطنطينية أخذ معه المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين بمصر وتنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية فانضمت من وقتئذ الخلافة الاسلامية الكبرى للسلطنة العظيمة العثمانية وانه في أثناء اقامة السلطان بمصر قدم له الرئيس بارباروس خير الدين الطاعة وبذلك صارت بلاد البربر معدودة ضمن الايالات العثمانية

أما الاعتراض على هذا السلطان العظيم في محوه دولة الجراكسة وابادة أصولها فلا وجه له لان المحذورات والمخاوف التى كانت تحصل للدولة العلية من وجودها تبرر لامحالة هذا الفعل الجليل الذى أوجب استتباب الامن وارتفاع المحذورات على أن السلطان لم يمح من الوجود جرثومتهم بالمرة بل انه شكل مما بقى من جنودهم وضباطهم قوة أناط بها المحافظة على بلاد مصر كما سبق وأبقى معها قوة عسكرية مؤلفة من نحو ستة آلاف عسكرى ولم يأخذ من خزانة مصر الا الامانات النبوية الشريفة وبعض الاشياء النفيسة النادرة الوجود وأبقى بها باقى الاموال حتى انه مع صدور فتوى من العلماء تجيز له وضع يده على الاوقاف العتيقة لم يعمل بتلك الفتوى بل انه زاد تلك الاوقاف كما هو مشهور وفي كتب التاريخ مفصل مذكور وإذن فلا وجه للاعتراضات على هذه الاعمال النافعة والاجراآت المفيدة

وفي أواخر حكم هذا السلطان ظهر أحد الاشقياء المسمى بالشيخ جلال بجهات توقات مدعيا انه المهدى واجتمع عليه خلق كثير يبلغون عشرين ألفا فارسل السلطان عليهم (٩٢٤ هـ)

أحد قواده المسمى على بك بن شهسوار فتمكن من تشتيت جمعيتهم وبقى ببلاد الاناضول بعد ذلك طائفة من اتباع ذلك الرجل يقولون بمذهبه وهم المسمون بالجلالية وفى تلك الاثناء ظهر أيضا شخص يدعى انه الامير مراد ابن السلطان أحمد فجرد عليه السلطان من خذله ولما كانت مدينة القدس الشريف انتقلت الى يد العثمانيين كانتقال مصر اليهم رأى بعض دول أوروپا ان من الضرورى أخذ التصريح للحجاج من رعاياهم للتردد على تلك المدينة المقدسة كالسابق فحضر لذلك سفير من اسبانيا يحمل الهدايا وطلب من السلطان التصريح لاهل أوروبا بزيارة القدس كعادتهم فقبل منه على الشروط التى كانت بينهم وبين مصر وهى دفع قدر من المال كل سنة

وقد كان أقصى مرام السلطان محو الدولة الصفوية للتخلص من أشرارها الا أن الوزراء حولوا نظره عن محاربة بلاد العجم وحسنوا له فتح جزيرة رودس فكان يقول لهم انى أرغب فتح الاقاليم لا تسخير جزيرة أصوص وليس امامى من الاسفار غير السفر الى الدار الباقية وفى سنة ٩٢٦ هـ خرج بجيش عظيم كامل العدد والعدد يقصد مدينة أدرنة فمات بالطريق ولقد كان رحمه الله من أكبر السلاطين وأعظمهم همة وأوفرهم عقلا وأسدهم رأيا وأثبتهم جنانا وأعلمهم وأقدرهم وامضاهم عزيمة شديد الشكيمة وكان يستدل من أطواره وحركاته تحقيق أقصى أمانى موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقى من المجاهدين السابقين من ادخال البحر المتوسط الابيض فى دائرة الاسلام وضم الممالك الاسلامية المتفرقة الى رأى واحد ووجهة متحدة ولو أمد الله فى أجله لكان حقق هذه الامانى الشريفة وكان يقول الشعر الجيد باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وكان يريد ايصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر بواسطة ترعة تمر من برزخ السويس كالتى فتحت حديثا ولا أن وزراءه ثنوا عزمه عن هذا الامر وكان قصده منه ارسال الاساطيل بحرا لقتال سلطان المغول ببلاد الهند وهو من سلالة تيمورلنك مقابلة لما فعله بالعثمانيين

(١٠) السلطان الغازى سليمان خان القانونى

(٩٢٦ - ٩٧٤ هـ)

كانت ولادة هذا السلطان العظيم والملك الجليل الذى بلغت الدولة العثمانية فى حكمه أعلى درجات الشرف والكمال سنة ٩٠٠ هـ ولما وصله خبر موت أبيه سرا لان الوزراء وأرباب الدولة كانوا أخفوا موته لئلا يثور الينكجرية قام مسرعا من اقليم صاروخان الى أن دخل استانبول وقابله أرباب الدولة والجنود على اختلاف طبقاتها بالتهليل والترحيب وطلبوا منه الانعام بالهدايا المعتاد توزيعها عند جلوس السلاطين ولما جرت رسوم المقابلات وفد عليه جميع الامراء والوزراء والقواد والاعيان وكانوا يعزونه بموت والده ويسلمون عليه بالسلطنة والخلافة وبعد أيام من جلوسه أتت جثة أبيه فاحتفل بدفنها احتفالا عظيما وأمر بأن يشيد عليها الجامع الشهير للآن وهو من أعظم جوامع استانبول ولما صعد على تخت الخلافة أخذ فى سن القوانين والنظامات الكافلة بتمكين بنيان الدولة والتفت أيضا الى تنظيم الجيوش وتقوية أساطيل البحر الاسود والبحر المتوسط الابيض

ولما

ولما علم والى الشام جانبرد الغزالى بموت السلطان ظن أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أمانيه فأثار فتنة واستولى على قلعة دمشق وغيرها وراسل خيربك عامل مصر على الانضمام معه مسهلا عليه أمر الفوز لارتباك السلطنة كدعواه و بعد دار الخلافة عنهما فجاوبه خيربك بالمراوغة وأرسل مكاتيب الغزالى الى السلطان فعين السلطان الوزير فرهاد باشا بجيش وحاربه حتى تمكن من ردعه ثم قبض عليه وقتله (٩٢٧ ﻫ) وأرسل رأسه الى الاستانة وتعين مكانه اياس باشا واليا على بلاد الشام ثم أمر السلطان فرهاد باشا بالذهاب الى الحدود الشرقية لمقابلة جيوش الشاه اسمعيل وصدهم عن شن الغارات وفى تلك الاثناء أرسل السلطان سليمان مأمورا مخصوصا من طرفه لمقابلة ملك المجر لتسوية بعض المسائل الموقوفة بين المملكتين ولاخباره بارتقاء السلطان على كرسى السلطنة فلما وصل هذا المأمور قتله ملك المجر فلما علم بهذا الامر السلطان وأمر جيوش الروملى بالاستعداد ثم شكل منهم جيشا تحت قيادة الوزير أحمد باشا ثم خرج السلطان مع معظم الجيش من مدينة ادرنة وأمر يالى بك بغزو بلاد كرواسيا أوالحزوات وخسرو بك محافظ سمندرة بحصار بلغراد ومحمد بك بن ميخال بغزو جهات ترانسلفانيا ثم فتح أحمد باشا قلعة بكوردان واستولى بيرى باشا الصدر الاعظم على قلعة زمينى وضم جهات سرم بالقوة الى الممالك العثمانية وألقى السلطان بنفسه الحصار على بلغراد و بعد أن حاصرها نحو شهرين ونصف وخرب أسوارها بالالغام استولى عليها عنوة (٩٢٧ ﻫ) ولما دخلها صلى الجمعة باحدى كنائسها التى حولت فيما بعد الى مسجد وقد كانت هذه المدينة أقوى حصن للمجر مانع لتقدم العثمانيين الى ماوراء نهر الدانوب ثم أعلن السلطان ملوك أوروبا بهذا الفتح ولما تم فتحها ألحقت بسنجقية سمندرة وصارت فيما بعد تابعة لولاية بوسنة وفى تلك الاثناء استولى العثمانيون أيضا على قلاع (اسلانقش و قونك و ابق و ابرشوه) من بلاد المجر ثم عاد السلطان الى دار الخلافة غانما ظافرا و بعد عودته الى استانبول أرسل اليه رؤساء جمهوريتى البنادقة وراغوزة يهنئانه بالفتح وأرسل اليه أيضا وسيلى قيصر الروس يهنئه و يعرض عليه عقد معاهدة دفاعية وهجومية بين المملكتين وذلك على يد مدير قصره المدعو جان موزوروف وكان يحمل صورة تلك المعاهدة فلم يقبل السلطان ذلك وفى سنة ٩٢٨ ﻫ أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة على يد سفيرها المدعو مارقو ممون وزيد عليها أن قنصل الجمهورية أى وكيلها باستانبول يغير كل ثلاث سنوات وأن يكون له الحق فى نظر أمر تركات رعيته وأن يرسل من طرفه ترجمانا لحضور المرافعة التى تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية وأن يكون المبلغ الذى تدفعه الى الدولة نظير احتلالها جزيرتى قبرص وزنطة عشرة آلاف دوكا عن الاولى وخمسمائة عن الثانية ولهذه المعاهدة أهمية عظمى لانها أس الامتيازات الاجنبية ببلاد الدولة العثمانية ولما بلغ السلطان سنة ٩٢٨ ﻫ أن سفن قرصان رودس عاملة على معاكسة سفن التجارة العثمانية والحجاج والايقاع بها كلما أمكنتهم الفرصة وكانوا اغتصبوا حديثا بعض تلك السفن وأسروا وقتلوا من بها فتكدر السلطان جدا من هذا الخبر ولما كانت أهمية موقع تلك الجزيرة تتزايد من وقت ما فتحت الديار المصرية صمم السلطان نهائيا على فتحها وضمها للممالك العثمانية منعا للمضرات والتعديات الحاصلة من أهلها من جهة وللمحافظة على طريق التجارة والحج من جهة أخرى ولكى لا يكون لاجنبى وسط بلاده موقع حصين تلجأ اليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت

الحرب وقد انتهز السلطان فرصة اشتغال ملوك أوروبا بأمورهم الداخلية لتنفيذ مرغوبه من فتح رودس وذلك لان ملك فرانسا فرانسوا الاول وشارل الخامس أو شارلكان ملك اسبانيا والمانيا كانا مشتغلين بمحاربة بعضهما والبابا لاون العاشر مهتما بمجادلة ومقاومة الراهب الجرماني لوثر مؤسس مذهب البروتستانت وبلاد المجر في اضطراب وتشويش حال لصغر سن ملكها لويز الثاني فلهذا أصدر الاوامر باستعداد الجيوش والاساطيل

فتح جزيرة رودس — ٩٢٩ لما انتشر خبر التجهيزات المذكورة وما عزم عليه السلطان خافت فرسان رودس سوء العاقبة فأسرع رئيسهم المدعو ويليه دوليل ادام De Villiers de l'Ile-Adam وأرسل سفراء من قبله الى الباب العالي بانه مستعد لدفع جزية سنوية للدولة قاصدا بذلك تحويل السلطان عن نيته حتى يتيسر لاوروبا امداده الا أن السلطان طلب منه اخلاء الجزيرة وأن يأخذ معه كافة أمواله وكل من يريد الهجرة ولما لم يقبل أقلعت الاساطيل تحمل الجنود ومدافع الحصار الضخمة (٩٢٨ هـ) وكانت الدونمامركبة من ٣٠٠ سفينة حربية و ٤٠٠ سفينة نقلية تحت قيادة القبودان بيلان مصطفى باشا وبها ١٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الوزير الثاني داماد مصطفى باشا ثم خرج السلطان بجيش عظيم برا قاصدا فرضة مرمريس الواقعة بساحل الاناضول تجاه جزيرة رودس للامداد والوقوف على حركات التجريدة وفي اليوم الرابع من شهر شعبان من السنة المذكورة وصلت الاساطيل الى ساحل الجزيرة المذكورة أمام المكان المسمى الآن جم باغچه ولاجل اشغال أهالي رودس حتى تخرج العساكر بالسهولة أخذت السفن تمر أمام قلعتها الحصينة ذهابا وجيئة فأطلق عليها المحافظون قنابل كالامطار ولكن لم تصب السفن بشئ منها لقربها من الساحل ثم رست مع باقي السفائن في فرضة أوكوزبورنو الواقعة غربي الجزيرة وأخرجت المهمات والذخائر ومدافع الحصار ثم شرع القائد عند ذلك في ترتيب نظام الحصار حول مدينة رودس وبينما كان مصطفى باشا يحاصر المدينة وصل السلطان برا مع الجيش الى فرضة مرمريس وذهبت السفن اليه فنقلته مع الجيش الى الجزيرة وبعد أن شاهد حصونها شرع في ترتيب أمر الحصار بنفسه ولما رأى متانة القلاع التي شيدها فرسان الجزيرة حول مدينتهم وما أظهروه من الشجاعة والاقدام في أمر الدفاع أصدر الاوامر المحتمة بتشديد الحصار برا وبحرا ومداومة الهجوم واستعمال المدافع الجسيمة وغير ذلك من الترتيبات ومع هذا فقد استمر الحصار مدة سبعة شهور متوالية ولما رأى الفرسان أن التضييق عليهم وتخريب قلاعهم أضرا بهم وعلموا أن السلطان لا يرجع عن منازلتهم الا بالاستيلاء على المدينة سيما وانه هو القائم بنفسه على قيادة جيوشه وأن ليس في امكان أوروبا امدادهم بادروا بالخضوع وطلبوا تسليم المدينة للسلطان فعند ذلك أصدر الاوامر للاساطيل والجيوش بالكف عن الحرب وأرسل اليهم زغرجي باشا رئيس اليكجرية لعقد شروط التسليم وفي تلك الاثناء وصلت سفائن من أوروبا بالمساعدة الفرسان فلما رأوها ظنوا أنهم تقووا بها وصار في امكانهم صد أبطال العثمانيين فعادوا الى المدافعة والمقاومة فأمر السلطان بزيادة التضييق والاكثار من الهجوم عليهم فلم يفلحوا فيما ظنوه بل صار لهم ضغثا على ابالة لانهم بعد أن خسروا خسائر عظيمة عادوا وطلبوا الامان من السلطان فأمنهم وأتى رئيسهم

فلارى

فلاري آدام بنفسه الى خيمة السلطان لعقد شروط التسليم التي كان من ضمنها التصريح لكافة أمراء الفرسان المذكورين ومن تبعهم بمبارحة الجزيرة وان يأخذوا أمتعتهم وأسلحتهم الخصوصية فقط وغير ذلك ولما تم عقد الشروط استولى السلطان على قلاع المدينة المذكورة في يوم ٧ صفر سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٢ م) واحتلتها جنوده أما فرسان القديس يوحنا فانهم ذهبوا الى جزيرة مالطة وأمن السلطان الاهالي وصرح لهم بمعاطاة أعمالهم واجراء رسوم دينهم بكمال الحرية

واتفق ان أمراء سانت يوحنا المذكورين لما توجهوا الى جزيرة مالطة كان الشقاق والخلاف قائمين بين فرنسيس الاول ملك فرانسا و بين شارل الخامس امبراطور المانيا وكانت أوروبا بسبب ذلك قد وصلت الى درجة الانحطاط فلما وصلوا أقطعهم شارل المذكور مدينة مالطة واشترط عليهم أن يداوموا على حرب الامة الاسلامية و بعد أن أتم السلطان فتح رودس أرسل فرقة من الدونانمة تحت قيادة قره محمود رئيس لفتح الجزائر التابعة لرودس ففتحت جزيرتي هلكة وانجيرلي القريبتين من رودس ولما وصلت تلك الفرقة الى جزيرتي تخناوو واستانكوي سلمتا للعثمانيين بلا قتال وكذا فعلت قلعة بدروم المقابلة لاستانكوي وكفى الله المؤمنين قتالها ثم عاد السلطان سليمان القانوني الى دار الخلافة مؤيدا ظافرا

وكان السلطان قبل سفره الى رودس عين فرهاد باشا للمحافظة على حدود الدولة من جهة الاناضول لان الشاه اسمعيل ملك العجم كان دائما يتربص الفرصة لاجل الاغارة على حدود الدولة فقام بهذه المأمورية أحسن قيام وفي أثناء ذلك تمكن فرهاد باشا أيضا من القبض على علي بك أمير بلاد ذي القدرية وقتله هو وأولاده وأراح منهم الدولة وأرسل رؤسهم الى السلطان وهو في بروسة فسر السلطان من ذلك وأحل وزيره محلا ساميا فاغتاظ الوشاة والحساد ورموا فرهاد باشا ببعض المفتريات حتى قتله السلطان و بعد ذلك أمر السلطان سليمان باشا والي الديار المصرية بتجهيز دونانما كافية بدار صناعة السويس للمحافظة على سواحل البحر الاحمر من تسلط الاعداء وتأمين طريق الهند

ولما كان السلطان مشتغلا بفتح رودس اتخذ لويس الثاني ملك المجر ذلك فرصة وتعدى على حدود الدولة بالروملي فقاومته جنود نكبولي وسمندرة فلما عاد السلطان و بلغه هذا الخبر صمم على محاربة المجر فأرسل جيشا مركبا من ٣٠٠ ألف مقاتل تحت قيادة الصدر الاعظم ابراهيم باشا (٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م) وأسطولا مركبا من ٨٠٠ سفينة مشحونة بالذخائر والعدد الى نهر الطونة ثم خرج السلطان بنفسه حتى وصل الى جهة سرم بعد ان عبر نهر صاوه على جسر ودخل الصدر بجيشه بلاد المجر وفتح جملة بلاد منها (راجه) و (ارادين) و (ابلوق) و (أرلك) و (غراغوربجه) و (بجرويك) و (برقاص) و (ديتروفجه) و (توكاي) و (بوادخ) و (براجه) و (دوكن) و (صوتين) و (بقوار) و (ارداد) وغيرها ثم تقابل مع جيش مجري مؤلف من ١٥٠ ألف مقاتل بقوده لويز الثاني ملك المجر بنفسه في صحراء مهاج Mohacs وانتشب بينهما القتال وفي أثنائه وصل السلطان الغازي مع جموعه فأخذ قيادة الجيش بنفسه فتقوت بذلك قلوب العثمانيين وتضاعفت شجاعتهم الفطرية خصوصا لما نادى السلطان فيهم مشجعا لهم ومحرضا واعدا متوعدا فلم يمض على ذلك غير القليل حتى انهزم المجريون مع من كان انضم اليهم من جيوش الكرواسيين مساعديهم

وبينما كان لويز الثانى يولى الادبار ساخت قوائم فرسه فى غدير فوقع وقعة شديدة كان فيها حتفه ومات من جنوده فى هذه الواقعة أكثر من عشرين ألف جندى وبعد قليل استولى السلطان على مدينة بودين (بوده) تخت مملكة المجر بلا حرب وأمر فنقل منها جملة آثار قديمة الى الاستانة العلية ثم بعد ذلك استولى على مدينة واردين وفتح قلاع بشته (بست) و (زجدين) و (باجقه) و (تتل) و (باج) و (سيتا) و (بانقه) و (بيرك) و (قبنى) و (فلك حاجى) وعدة جهات من جنوبى تلك المملكة ثم قفل راجعا الى استانبول منصورا ظافرا

ولما مات لويس الثانى نصب السلطان على مملكة المجر ملكا آخر يدعى جان زابولى الا أن فرديننند ملك النمسا لما كان يرى ان مملكة المجر تؤل اليه بحق الوراثة سيما وان أخاه شارلكان امبراطور المانيا كان المتفرد بالنفوذ فى ذلك العصر على ممالك أوروبا قام أكثر أهالى بلاد المجر وأعلنوا بعدم قبولهم جان زابولى المذكور الذى نصبه السلطان ودعوا فرديننند ملك النمسا ليكون ملكا عليهم فاستعد فرديننند عند ذلك ثم سار يقود جيشا عظيما واستولى على مدينة بودين ففر جان زابولى وطلب مساعدة السلطان وحمايته على يد رسول أنفذه لذلك فغضب السلطان لما حصل من الاهانة لجان زابولى لانه هو الذى نصبه سيما وان وقوع بودين فى يد العائلة المالكة ببلاد أوستوريا يخالف تماما السياسة السلطنة فلذلك أمر فى الحال بسوق العساكر على مملكة أوستوريا (٩٣٥ هـ) وجهز جيشا عظيما ومازال هذا الجيش يسير حتى نزل بصحراء داود باشا وأقام بتأهب بها ثم تقدم قاسم باشا بكلربك الروملى على رأس جيش كطليعة للجنود العثمانية التى كانت تحت قيادة الوزير الاعظم ابراهيم باشا وكان أرسل بعد محاربة المجر الاولى لاطفاء بعض الثورات التى ظهرت ببلاد الاناضول ولما جعله السلطان فى هذه المرة قائد الجيوش أحال عليه أيضا مسند السر عسكرية وكان ايجاد هذا المسند فى تلك الايام لاول مرة وضم الى مرتبه ألف ألف فضة فاصبح مرتبه ثلاثة ملايين فضة فى السنة

ولما وصلت الجنود العثمانية ومعها السلطان الغازى الى صحراء مهاج قابلها جان زابولى ومن معه من فرسان المجر الذين انضموا اليه وساروا تحت رايته ولما تمثل فى حضرة السلطان قابله بالاحترام ثم تقدم السلطان وضرب الحصار على بودين (٩٣٦ هـ) ولما كانت عساكر أوستوريا المحصورة بتلك المدينة لا تقوى على المدافعة طلبت التسليم بشرط حفظ أرواحهم فقبل السلطان طلبهم وأطلق السراح لهم فى الذهاب الى بلادهم الا انه وقت خروجهم من المدينة تطاول بعضهم على بعض الجنود العثمانية وجرد عليه سيفه فاتخذ العثمانيون ذلك نقضا للعهد المعطى اليهم وانقضوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ثم أجلس السلطان جان زابولى على تخت المجر بالقوة والاقتدار رغما عن أنوف أعدائه واشترط عليه دفع جزية سنوية مقررة وصارت بذلك بلاد المجار من أملاك الدولة وأبقى السلطان ٣٠٠٠ جندى تحت قيادة قاسم باشا للمحافظة على تلك المدينة

محاصرة ويانه — لما لم يكتف السلطان باسترداد بودين واقعاد جان زابولى على تختها أراد أن يظهر لفرديننند وشرلكان ما عليه العثمانيون من القوة والاقتدار فصمم على محاصرة مدينة ويانه

المسماة

المسماة فى التواريخ القديمة العثمانية باسم بچ ولما سمع فرديننـد بعزم السلطان أخذ فى جمع الجنود واستمد شارلكان واستعد لصد العثمانيين الذين لما وصلوا الى جهات استرغون (١) بلغهم أن فرديننـد لما لم يتمكن من جمع القوة الكافية للمدافعة ترك عاصمته وانسحب الى الجهة الاخرى من مملكته فتفرق العثمانيون فرقا عديدة أخذت فى النهب والتخريب والاغارة حتى وصلت فى العشرين من شهر محرم من السنة المذكورة الى مدينة ويانة وهنالك نصبوا خيامهم وحطوا رحالهم واستعدوا لالقاء الحصار عليها ولم يكن بتلك المدينة للنمساويين سوى ٢٠ ألف جندى معهم ٧٢ مدفعا أما جيش العثمانيين فكان يتألف من ١٢٠ ألف مقاتل معهم ٤٠٠ مدفع ثم حصل بين العثمانيين والنمساويين نحو عشر وقائع كان النصر فيها جميعها للعثمانيين ولما رأى السلطان ان العدو كف عن القتال وما عاد يخرج من المدينة كالسابق وان فصل الشتاء قد أقبل وانه لم يجلب معه مدافع الحصار العظيمة لان مجيئه لم يكن القصد منه الاستيلاء على ويانة التى لا يمكن فتحها الا بالمدافع الضخمة قرر العودة الى استانبول للاسباب المذكورة وفى تلك الاثناء أتى مأمور من عند النمساويين للمكالمة فى الصلح مخبرا بان دولة النمسا تتعهد بالامتناع بعد ذلك عن المداخلة فى أحوال المجر ثم أطلق سراح الاسرى من الجانبين وعاد السلطان الى الاستانة وقد تحمل الجيش مشقة عظيمة عند الرجوع لحلول فصل الشتاء (٩٣٦ هـ)

وفى سنة ٩٣٧ هـ حضرت جملة سفراء من مملكة المجر والروسيا وقدموا هدايا فاخرة الى السلطان وأقبل أيضا رسل خصوصيون من دولة النمسا يقصدون عقد محالفة مع الدولة ولما لم يقبل منهم تقدم فرديننـد وحاصر قلعة بودين ثانيا فأمر السلطان بالاستعدادات الحربية ثم أرسل جيشا مركبا من ٢٠٠ ألف مقاتل (٩٣٨ هـ) تحت قيادة الصدر الاعظم لمحاربة المجر وأرسل دونانمة مشكلة من ثمانين غرابا تحت قيادة القبودان باشا كانكش أحمد بك الى البحر الابيض المتوسط ثم سافر السلطان (٩٣٩ هـ) حتى وصل بلاد النمسا وفتح قلاع (قبونى) و (بزنجه) و (سلوار) و (شوديل) و (قدوار) و (باروجه) وجعلها تحت الادارة العثمانية ولما لم تتمكن جيوش النمسا والمانيا من الثبات امام العساكر الاسلامية طلبت النمسا الصلح فاجيب طلبها ثم عاد السلطان بالغنائم والاسرى التى اكتسبها من ولاية اشتار (Styrie) واسقلاونيا مارا امام غراج (Gratz) على طريق دراوة الى دار الخلافة

وفى خلال ذلك كان الاميرال الاسبانيولى اندريا دوريا المشهور استولى على قلعة قورون وغيرها ببلاد مورة الا أن السكان والحامية تمكنوا من صده وبعد عودة السلطان الى استانبول منصورا غانما عادت أيضا الدونانما التى تحت قيادة كانكش أحمد بك * ومما زين الله به عصر هذا السلطان الشهير والقانونى الكبير ظهور عائلة باربروس بسواحل الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكان وجودها واسطة أخرى لاعلاء اسم البحرية العثمانية واشتهار شأنها حتى وصلت درجة عظيمة فلهذا رأينا من الضرورى ذكر طرف من سيرة هؤلاء الابطال الذين رفعوا قدر الاسلام بما حازوه من النصرات التى خلدها لهم التاريخ فنقول

(١) استرغون هى مدينة من بلاد المجر رأس عمالة واقعة عند ملتقى نهرى غران بالطونة حيث يوجد جسر من السفن وبها مباه معدنية حارة وكنائس وديورة ومدارس شهيرة ويخرج منها نبيذ جيد وبعد ان أخضعها العثمانيون زمنا طويلا استردها منهم حناسو بيسكى ملك بولونيا وشارل أمير بلاد لورين وسكانها يبلغون ٦٠٠٠ نسمة وتسمى عند الفرنج (Gran) وقديما Strigonium ومنه اسمها عند الاتراك

آل خير الدين واصلهم وحوادثهم — اعلم أن أصل هذه العائلة من صحراء آجه بالاناضول كان والدهم من عساكر السباهي انتقل الى جزيرة مديللي بعد فتحها صحبة الجيش المحافظ واتخذها موطناله ورزق هنالك بأربعة أولاد وهم اسحق وأوروج وخضر والياس ولما وصلوا الى سن الرشد اشتغل أحدهم وهو اسحق بالتجارة واشتغل الثلاثة الباقون بالاسفار البحرية للكسب والغنيمة فكان خضر يتردد بالاسفار زمن السلطان بايزيد على سواحل مورة وسلانيك وكان أوروج وأخوه الياس يترددان على السفر الى مصر وبر الشام فصادفا مرة في بعض أسفارهما سفن القرصان رودس قبل فتحها فحصل بينهما وبين هذه السفن محاربات دموية قتل فيها الياس وأسر أوروج فلما بلغ الامير قورقود ابن السلطان بايزيد وهو حاكم القرمان تلك الحادثة تداخل في الامر حتى تمكن من اطلاق أوروج الذى صمم على الاخذ بالثار من أعدائه واستأذن الامير المشار اليه في الخروج فأمده بسفينة ذات ستة وثلاثين مقذافا وكان السير بالبحر الابيض المتوسط في الوقت المذكور محفوفا بالاخطار لتعرض سفن القرصان لمراكب التجارية ولعدم الامنية كانت السفن التجارية مضطرة لان تكون دائما مجهزة بالآلات الحربية ثم تقابل مع أخيه خضر بالقرب من جزيرة جربة واتفقا مع الامير محمد الحفصى سلطان تونس على أن يتنازل لهما عن قلعة حلق الوادى ليجعلاها مركزا لهما ويكفيانه بذلك شر أعدائه ويقاسمانه في كافة الغنائم التى يستوليان عليها ولما قبل منهما ذلك أخذا يتجولان بسواحل أوروبا للغزو والغنيمة ولما انضم اليهما بعد ذلك أخوهما اسحق الذى كان يشتغل بالتجارة كثرت مراكبهم وطارد كرهم وعلا اسمهم في البحار وقد امتلك المذكورون بشمال أفريقية مدن جيجلي والجزائر وشرشيل وتنس وتلمسان وبجاية وصاروا حكاما عليها ثم اتحد الاسبانيول مع التلمسانيين بقصد الايقاع بالباربا روسين المذكورين وبعد أن حاصروهم ستة شهور بتلمسان حصارا شديدا استشهد الاخوان المذكوران فبقى أخوهم خضر بعد ذلك صاحب المدن التى بقيت لهم من المدن المذكورة يحكمها مستقلا فحاز هنالك وبسواحل أوروبا شهرة عظيمة وذكرا مهيبا حتى كان الافرنج يخوفون بذكره أطفالهم واعلم أن خضرا هذا هو الذى أتى للاستانة في عصر السلطان سليم صحبة ابن أخته الرئيس محيى الدين مقدما طاعته ومعه كثير من نفائس الهدايا فقابلهما السلطان بالترحاب وأعطاه سفينتين كاملتين وأنعم عليه بالملابس الفاخرة وسيفا مرصعا وعينه برتبة بكلربك الجزائر فعاد يسحب مطارف السرور بما شمله من الشرف والحبور وأخذ يحارب الاسبانيوليين حتى أجلاهم عن مدينة الجزائر واسترد حصونها التى أقاموا فيها زيادة عن أربع عشرة سنة ثم تغلب على الدونمة الاسبانيولية التى حضرت لاستخلاص الجزائر واستولى على معظم سفنها وذكر الاجانب في تواريخهم البحرية ان اسبانيا في واقعة الجزائر المذكورة أصابها من الخسائر ما لا يمكن للقلم حصره لكثرته ثم تيسر له بعد ذلك نقل ٧٠٠٠٠ من مسلمى الاندلس أنقذهم بذلك من الاهانة التى لحقتهم من الاسبانيوليين ولما قص باربا روس تفصيل وقائعه البحرية على السلطان سليمان القانونى نال منه جانب التعطف وتمام الالتفات وأمره أن يعامل سفن فرانسا المتحابة مع الدولة العثمانية معاملة حسنة ويردع الاميرال أندريا دوريا الجنويزى الآخذ في التعديات على سواحل الدولة بأمر امبراطور جرمانيا شارل الخامس فقام بتنفيذ هذا الامر أحسن قيام ومر بعمارته على سواحل جنوة لمقابلة اندريا دوريا وأحرق جنوة بالنار ونالت منها جنوده غنائم وفى سنة ٩٤٠ (١٥٣٤ م) عاد باربا روس الى استانبول بناء على دعوة

السلطان

السلطان ليتذاكر معه فى أمر اندريا دوريا المذكور وكان معه عشر مراكب ملأى بالهدايا والغنائم وبوصوله اليها قابل السلطان الذى كان عاد ذلك اليوم من حرب العجم وفتح بغداد وقدم له جميع قبودانات السفن المرافقة له فنالوا جميعا حسن الرعاية والاكرام من السلطان الذى نصب باربا روس قبودان باشا للعمارة العثمانية لما اشتهر به من المهارة فى فن الحرب البحرى وما اتصف به من الاقدام والجسارة وسماه خير الدين لما أوتيه من الانتصارات والاعمال التى عادت على الاسلام بعلو المقام فى البحر وبعد ان غمره هو ومن معه بالصلات جهزه بالاساطيل وأرسله الى سواحل ايطاليا واسبانيا لشن الغارة عليها فهاجم جزيرة بلاريك وريغيو وستراد وسبرلونغه وفوندى وغيرها من الجزائر الواقعة قرب تلك السواحل فانتصر وغنم

وفى خلال السنة المذكورة توسل أهالى تونس بالسلطان سليمان القانونى ليخلصهم من مظالم ملوك بنى حفص أصحاب تونس فى ذلك الوقت فأصدر أمره لخير الدين باشا بالتوجه بالعمارة الى تلك الديار وكانت الحكومة الاسبانيولية انتهزت فرصة اشتغال السلطان بحرب العجم وأرسلت عمارتها مع جيش عظيم يبلغ عشرين ألف مقاتل (٩٤١ هـ) (١٥٣٥ م) لتعضيد المولى حسن الذى كان التجأ اليها طالبا مساعدته لرجوعه حاكما على بلاد تونس كما كان وقد تمكنت الحكومة الاسبانيولية من اعادته الى سلطنته واستولت على قلعة حلق الوادى بعد حروب طويلة وكان امبراطور اسبانيا شارل الخامس يقود تلك التجريدة بنفسه ثم عادت عمارة الاسبانيول بعد ان تركت قوة من الجند فى قلعة حلق الوادى وبعد عودتهم استولى نائب خير الدين جعفر المهتدى على مدينة تونس بعد ان قتل حاميتها القليلة بمساعدة من كان فى سجونها من الاسراء ولما علم خير الدين باشا بما حدث فى تونس سار بالاساطيل الى سواحل الجزائر ثم عاد الى الاستانة (٩٤٢ هـ) (١٥٣٦ م) أما خير الدين باشا فرجع مع من بقى معه من البحرية ومن التجأ اليه من أهالى تونس الى مدينة بجاية ودخل شارل الخامس المدينة وأجلس السلطان حسن على كرسى إمارته بها وأخذ جنود الاسبانيول ينهبون المدينة وقتلوا كل من تخلف بها من المسلمين ثم سافر شارل بعد ان ترك بقلعة حلق الوادى ٤٠٠٠ من جنوده للمحافظة عليها وذلك بالاتفاق مع المولى حسن وكان خير الدين باشا ترك قبل ذلك بمدينة بجاية فرقة من أساطيله مؤلفة من خمس عشرة سفينة تحت قيادة من اراده من ضباطه ولما بلغ هذا الضابط وصول شارل الخامس باساطيله وأساطيل من اتحد معه من دول أوروبا الى تونس أغرق تلك السفائن بمصب نهر ادوس الواقع بجوار بجاية بناء على ما أوصاه به خير الدين باشا وشيد عند مصب النهر المذكور استحكامات قوية وبعد عودة خير الدين باشا أخرج تلك السفائن وضم اليها ما كان موجودا منها بمدينة الجزائر وغيرها من سفن قرصان الجزائر وبذلك صار لديه دونانمة مؤلفة من ٣٢ سفينة ثم أقلع بها حتى وصل الى جزيرة مينورقة وقبض من ثغورها على خمس سفائن كانت آتية من حرب تونس ثم أخرج جنوده الى تلك الجزيرة ففتحت وغنمت ثم عاد ظافرا ومعه نحو ٥٧٠٠ من الاسرى ولما قدم خير الدين باشا الى الاستانة بعد ذلك رحب به السلطان وأكرمه وجهز له عمارة مركبة من ٢٨٠ سفينة وجعل ما بها من الجنود تحت قيادة السردار لطفى باشا وقصدت الونية من ثغور البانيا (٩٤٤ هـ) ثم سافر السلطان برا بجيوش أخرى والتقى مع الاساطيل بالونية وهناك أمر السلطان لطفى باشا بالرياسة على فرقة من الاساطيل وسيره لشن

الغارة على سواحل وثغور ايطاليا وأمر أيضا خير الدين باشا بنقل أرزاق ومهمات الجيش العثمانى بسفن النقل التى أتت من مصر وتوصيلها الى مدينة الونية

وفى تلك السنة نقضت البنادقة العهود التى كانت بينها وبين الدولة من زمن السلطان بايزيد الثانى واتحدت مع حكومة اسبانيا وايتاليا ثم جمعت هذه الحكومات عمارتها الجسيمة وسيرتها الى جزيرة كورفو تحت قيادة الاميرال الشهير اندريادوريا ثم تلاقت هذه الاساطيل مع الاسطول العثمانى الذى كان تحت قيادة الرئيس على چلبى وكان ذاهبا الى ألونية فحملت عليه عمارات الدول المتحدة المذكورة ولما دارت رحى الحرب بين الطرفين لم ينظر العثمانيون لقلتهم بل نظروا الشأنهم وعلو اسمهم وحملوا على أعدائهم حملات منكرة ومع ذلك فقد تحطمت أكثر سفنهم وقتل منهم عدد عظيم وكانت خسائر المتحدين عظيمة أيضا وجرح قائدهم اندريادوريا الذى التجأ بعد الى كورفو ولما بلغ هذا الخبر مسامع السلطان أمر فى الحال باعلان الحرب على تلك الدول

وبعد ان استعدت الدولة خرج خير الدين باشا بالدونمنا العثمانية وكانت تؤلف من ٤٠ غرابا قاصدا مياه الارخبيل للانتقام من البنادقة الذين تعدوا على اسطول على چلبى السابق ذكره وقد تمكن من الاستيلاء على جزائر (چوقه) و (مرتد) و (باره) و (نقشه) و (اناپولى) و (كستل نوره) وكانت للبنادقة وذلك بعد حروب شديدة ثم رتب ادارة تلك الجزائر ونصب عليها حكاما من أهلها وخصص على كل جزيرة قدرا من المال تدفعه سنويا وعاد الى استانبول لتمضية فصل الشتاء بمينائها

ولما أتى فصل الربيع خرج بما معه من السفن المستعدة وصدرت أوامر السلطان بأن يضاف الى عمارته أربعون سفينة أخرى لتقويتها وان يجعل فيها العدد الكافى من أمراء البحر المجربين الماهرين وان يجعل بها ثلاثة آلاف من اليكچرية ومعهم كل من بك قوچه ايلى على بك وتكه بكى وخرم بك وبك صيدا على بك وبك علايه مصطفى بك وأقلعت الى بحر سفيد فى يوم ٩ محرم سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ولما وصلت الى جزائر اشكنوز تلاقت مع سفن قرصان الاعداء وشتت شملهم بعد ان أسرت منهم ٣٨٠٠ أسير ضمتهم الى عملة السفن العثمانية وفى تلك الاثناء حضرت عمارة عثمانية أخرى مركبة من تسعين سفينة من استانبول وحضرت أيضا الاساطيل التى تحت قيادة أحد رؤساء البحر المدعو صالح بك وكانت مركبة من عشرين سفينة فصارت الدونمنا السلطانية بذلك قوية جدا وقبل أن يقلع خير الدين باشا من تلك الجزيرة استعرض جميع السفائن فوجد من بينها ١٢ سفينة لا تصلح للحرب فأعادها الى الاستانة بعد ان وزع ما بها من الآلات والانفار على باقى سفن الدونمنا ثم خرج من اشكنوز ولما قرب من جزيرة اشكبولوز التحق باساطيله نحو السبعين من زوارق قرصان الارخبيل ثم ألقى مراسيه بثغر الجزيرة المذكورة فقدمت أهاليها الطاعة واستأمنوا فأمنهم خير الدين باشا وضرب عليهم جزية سنوية وأقر عليهم حكامهم الذين انتخبوهم بمعرفتهم ثم أبقى هناك بعض السفن ألف منها اسطولا مخصوصا وعين لقيادتها صالح بك وأمره بالمحافظة على جزائر الارخبيل ثم أقلع هو بالدونمنا وفتح جزائر (اندرة) و (استنديل) و (ميقونوز) و (شيره) وطرد منها البنادقة وضمها الى التابعة العثمانية ثم قصد جزيرة كريد الا أنه لما رأى متانة مدن خانية ورسمو وقندية وعلم أن فتحها يحتاج لزمن طويل اكتفى بشن الغارة على بلادها وغنم منها مغانم كثيرة وأرسلها

مع السفائن التى ضبطها من الاعداء الى دار الخلافة ثم مر على جزائر (كريد) و (كاشوت) و (استانباليا) وتردد بأطراف فهاز منا ثم قصد أخيرا استانكوى فاستعرض بها سفنه وأكمل ما بها من النقص من مهمات ورجال مما وصله من جهات الاناضول

محاربة كورفز البحرية الشهيرة — لما أقلعت الدونما السلطانية من استانكوى ووصلت الى اغريبوز لحق بها اسطول صالح بك المذكور وبعد ان أخذت ما يلزمها من الماء والذخيرة وتركت ما معها من السفن الضخمة أقلعت قاصدة الجزائر السبعة وبوصولها الى متون رست بها وهناك علم خير الدين باشا أن أساطيل الدول المتحدة مجتمعة امام بره وزه تحاصرها وكانوا اشددوا عليها الحصار فأرسل صالح بك باسطوله الى تلك الجهة للاكتشاف ولما وصل الاسطول المذكور الى جزيرة زانطة شاهد فرقة بحرية من سفن الاعداء آخذة فى التقدم نحو الشاطئ ولما وصل الى جزيرة باكسو وشاهد الاعداء تموج العلم العثمانى تركوا بره وزه ورجعوا الى جزيرة كورفو أما خير الدين باشا فانه بعد ان أخذ ما يكفيه من المياه من بلدة حلوميج قصد كفالونيا وأنزل فيها بعض جنوده وتقدم نحو مينا بره وزة فظهر للاعداء سطوة العثمانيين وتلاقى باسطول صالح بك ثم قوى قلعة بره وزه ووضع فيها ذخائر حربية كثيرة وزاد فى حاميتها من عساكر الدونما ثم أخذ يراقب أحوال دونما الاعداء المجتمعة بخليج كورفو مقدرا قوتها ثم عرض ما راه من ذلك على السلطان وفى غرة جمادى الاولى من سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) أقبلت دونما الاعداء تحت قيادة اندريا دوريا تجاه بره وزه وألقت مراسيها امام جزيرة سنت ماورو البعيدة عن موقع دونما العثمانيين بأربعة أميال وكانت هذه الدونما الجسيمة مركبة من ٥٢ سفينة للامبراطور شارلكان و ٧٠ سفينة للبنادقة وكانت تحت قيادة الاميرال كابلو و ٣٠ سفينة للبابا و ١٠ سفن لقرصان مالطة و ٨٠ سفينة لاسبانيا وبعض سفن أخرى للحكومات الاخرى البحرية أما الدونما العثمانية فكانت مركبة من ١٤٠ سفينة ما بين صغيرة وكبيرة فقط وبعد أن تداول خير الدين باشا مع جميع رؤساء سفنه وفرقه طويلا وكان من أشهرهم مراد رئيس وطورغود وكوزلجه وصالح رئيس أجمعوا على قتال الاعداء بلا توان ولما أقبل الليل قصد العدو أن يخرج الى البر قسما من العساكر ولذلك أراد اشغال العثمانيين عن التصدى له بمحاولة احراق أساطيلهم أو بعضها الا أنه لتيقظ العثمانيين لم يتمكن الاعداء من نوال مقصدهم ثم بعد يومين أرسل العدو جملة من سفنه من نوع الغالى فأتت ووقفت امام مضيق بره وزه ناشرة قلوعها وأخذت فى اطلاق المدافع على الدونما العثمانية فغضب العثمانيون من هذه التعديات وفارت دماؤهم وأمر خير الدين باشا قائدهم بدق طبول الحرب ثم خرج بالدونما خارج المينا بعد ان رفعت أعلامها واصطفت على بعد ثمانية أميال منها على هيئة حربية ثم أمر خير الدين باشا السفن التى صارت على مرمى نيران المدافع أن تهجم على العدو بعد ان تطلق عليه الثلاثة مدافع الموجودة فى مقدم كل منها وكانت نيران الاعداء شديدة ثم تمكنت فرقة من السفن الاربعين التى كان عينها خير الدين باشا للهجوم ودخلت وسط دونما العدو وقبل الغروب بعد ان تمكنت بقوة مدافعها من تفريق سفنه الى قسمين ثم بعد قليل تشتت السفن التى قدرت على التحرك من سفن الاعداء شذر مذر بحالة سيئة وكان دخول الليل فرصة عظيمة للعدو حيث تمكن بعض سفنه من الهرب الا أن العثمانيين اقتفوا أثرهم وفى اليوم

التالى صباحا دارت الدونمنا العثمانية خلف جزيرة أياماورو وتقابلت مع سفن العدو ثانية عينا اينجبرفهاجمتها ولما لم يتمكن العدو من الفرار لسكون الريح صف سفنه على هيئة حربية وانتشب القتال باطلاق المدافع وكانت السفائن الجسيمة الحربية التى من نوع الغالون هى والتى من نوع القارك فى المقدمة أما باقى السفائن الصغيرة فكانت فى الخلف تتربص هنالك حتى متى وجدت فرصة هجمت على الجهة المراد مهاجمتها كل ذلك بمقتضى فن الحرب البحرى فى العصر المذكور وبهذه التشكيلات تمكن الاميراندريادوريامن مقاومة العثمانيين زمنا طويلا ولكون سرعة سفن الغالون والقارك بطيئة لحركتها كانت مقذوفات مدافعها الضخمة لاتذهب الى مسافة طويلة وبذلك كانت أقل سرعة وحركة من أغربة العثمانيين التى كانت مقذوفات مدافعهم ترمى الى مسافات أبعد بكثير من مدافع العدو ولهذا استولت الحيرة على الاميرال المذكور ولم يدر ما يصنع فاتفق عند ذلك الاميرال اندريادوريا مع أميرال البنادقة وصنعا حركة حربية قدما بها سفن الغالى الى الامام لتحجز سفنهم الجسيمة المذكورة ولما شاهد خيرالدين باشا هذه الحركة قابلهما بفرقة من أساطيله فخافا سوء العاقبة والتزما الرجوع خلف غلاينهم وأغربتهم وصمم فى هذه الحالة اندريادوريا على الهجوم على العثمانيين من الخلف ليحصرهم بين الغلايين والاغربة وسفنه الخفيفة الا أن خيرالدين لم يترك له وقتا لانفاذ هذا التدبير حيث انقض عليه سريعا بأساطيل الجناحين ثم هجم عليه حتى اضطره للقهقرى وهجم أيضا على السفن الخفيفة المحمية خلف الغالونات فتحير الاميرال اندريادوريا من هذه الحركة التى لم تكن تخطر بباله أصلا ولذلك التزم الفرار من ميدان الحرب بما لديه من الاغربة السريعة تاركا كافة السفن الجسيمة فاستولى العثمانيون على أغلبها وغرق الكثير منها وأحرق خيرالدين باشا مالا يصلح من بينها

ولما كانت التعبيات والتشكيلات التى أجراها خيرالدين باشا فى هذه الحروب هى السبب الاكبر لانتصار الدونمنا العثمانية على دونمنا الدول المتفقة مع انها كانت أقل عددا وسفنها أصغر جرما من سفن الاعداء بكثير كما سبق امتدح المؤرخون مهارة خيرالدين باشا وأضافوا هذا الانتصار الى انتصاراته العديدة التى استحق عليها أعظم المدح ووافر الثناء وقد دعت العثمانيون هذه الواقعة البحرية بواقعة كورفز ودعاها الاوروباويون بواقعة بره ويزه

ولما كانت مناورة خيرالدين هذه كدرس مفيد فى علم الحرب البحرى استعملها أميرالات الدولة الانكليزية فى محارباتهم البحرية كالاميرال رودنى والاميرال جرفس سنت وينسنت والاميرال نيلسون وغيرهم فكانت كافلة لهم بالانتصارات العديدة والظفر فى كل حروبهم البحرية وعقب هذا الانتصار أنعم السلطان سليمان على خيرالدين باشا بلقب غازى

ولما ارتدت باقى الاساطيل بالخيبة أراد قوادها أن لايرجعوا الى بلادهم الا باكتساب نصر ولو جزئى يحط عنهم بعض ما لصق بهم من أدران العار فعرجوا على قلعة نوه الواقعة فى ساحل ولاية هرسك وحاصروها براو بحرا ولم يتمكن أمير تلك الولاية المسمى بالى بك من تخليصها من الحصار فسلمت اليهم عنوة وقتلوا جميع حاميتها من المسلمين ولما بلغ السلطان خبر ذلك أصدر الاوامر بالتجريد عليهم لردها من يدهم فأسرع خسرو باشا والى الروملى بجيشه وحاصرها فى فصل الربيع ولما وصلت الدونمنا مع

القبودان

القبودان باشا بحرا ثم تمكنوا من استخلاصها (٩٤٦ هـ) ثم فتح قلعة تبرة من يد البنادقة واهتم جنرال البنادقة الذي بقلعة زاره من ردها فعاد خائبا

وفي سنة ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) اتفقت حكومتا ايتاليا واسبانيا بمعاونة شارل الخامس وأرسلتا دونتمامركبة من مائة سفينة حربية ونحو مائة سفينة نقلية وجيشا بريا كبيرا لفتح بلاد الجزائر في شمال أفريقية فلقي الجيش المذكور مقاومة عظيمة من باي الجزائر المدعو خادم حسن أغا وثارت على العمارة المذكورة زوبعة عظيمة تلاعبت أمواجها بمراكبها حتى أغرقت منها نيفا و ١٥٠ سفينة وألقت بعضها على البر كما تقدم بأوفى بيان في تاريخ الجزائر ولما وصل خبرة دوم خير الدين باشا بالدونتما العثمانية الى الجزائر رهلعت قلوب العدو وخوفوا ولم يسعه الا الهرب بمراكبه الباقية تاركا بميدان القتال كثيرا من مهماته وذخائره ولما كانت انتصارات العثمانيين أضرت كثيرا بالبنادقة وحطت من شأنهم وعطلت متاجرهم أرسلوا الى الاستانة سفراء لطلب الصلح تحت شروط منها أن يتركوا جميع الجزائر التي استولت عليها الدولة ونبكشة وانابولي والبلاد التي لهم في مورة ودالماسيا وان يدفعوا ثلثمائة ألف بندقي فقبل السلطان منهم ذلك وأمضت الشروط المذكورة

وقبل وفاة جان زابولي ملك المجر الذي كان تحت حماية الدولة العثمانية المتزوج بالاميرة ايزابيله بنت ملك بولونيا كان جعل ولده الذي له منها المدعو استيفان ولي عهده الا أن فرديننده ملك بوهيميا طلب من الملكة ايزابيله تسليم المملكة اليه حسب المعاهدة التي اتفق عليها مع زوجها قبل وفاته وعرض على ايزابيله اقليم ترانسلڤانيا وهو الاردل تحكمه مع ابنها المذكور فلم تقبل وعدت ذلك منه تعديا على حقها فأرسل فرديننده عند ذلك جيشا لمحاربة المجر ولما رأت ايزابيله أنها غير قادرة على مقاومته أرسلت رسولا الى السلطان سليمن ومعهم جزية سنتين تلتمس منه المساعدة والامداد فأرسل جيشا تحت قيادة الوزير صوقوللي محمد باشا وخسرو باشا بكلر بك الروملي ثم أرسل الاساطيل العثمانية تحت قيادة خير الدين باشا للمحافظة على جزائر بحر سفيد ثم خرج السلطان بنفسه الى بلغراد ليدرك جيشه عند اللزوم وليكون أقرب الى ميدان القتال (٩٤٨ هـ) ولما اقترب السلطان من مدينة بودين أرسل له الوزير يخبره بظفره على الاعداء نصرا مبينا ثم تقدم السلطان فرحا حتى وصل بودين ولما كان حفظ بلاد المجر من الامور المهمة اللازمة للدولة وكان استيفان غير كفء للجلوس على تختها لصغر سنه أقطع السلطان استيفان و والدته اقليما من بلاد الاردل وهو الاقليم الذي كان لابيه من قبل حتى يبلغ رشده ومتى بلغه أعيدت له مملكته وضمت مدينة بودين وما يتبعها الى الممالك العثمانية وصارت تابعة للدولة رأسا وعين لهاما يلزم من الموظفين كالوالي والقاضي والدفتردار وقائد الجنود وما أشبه وكان ضم مدينة بودين الى الممالك العثمانية اشارة الى دخول جميع بلاد المجر في تصرف العثمانيين (٩٤٨ هـ) وقد كان استيلاء السلطان سليمن على مدينة بودين بهذه السهولة سببا لتيقظ الملك فرديننده وتأثره فأخذ يرسل الثوار والخوارج الى مدينة بشته الكائنة امام مدينة بودين المذكورة ثم أقبلت جنود أوستوريا وحاصروها حصارا شديدا ولما علم السلطان بذلك أمر بالاستعدادات برا وبحرا وأرسل خير الدين باشا بالاساطيل على شارلكان أخي فرديننده ومحازبيه وخرج هو بقوة كافية يقصد بلاد المجر (٩٥٠ هـ) وقد كان

فى هذه الحملة العسكر العثمانى على غاية من النظام والترتيب والتدريب بحيث كان الموكب السلطانى يفوق كل ما رآه الراؤن لذلك الوقت ولما اقترب السلطان من حدود بلاد المجر أتاه القصاد يبشرونه بهزيمة العدو الذى كان يحاصر مدينة بشته بعد ان تكبد خسائر جمة ثم ان السلطان فرق جيشه طوائف طوائف وأرسلها لفتح بلاد المجر ففتحوا على التوالى مدن والبوا Valpo وشاكلوس Siklos واسترغون واستونى بلغراد Stuhlveissenbourg وشغرادونوى غراد وغيرها ونصب على كل منها محافظا وقاضيا وجنودا وأصلح ما تخرب منها ومن أسوارها ثم نصب على مدينة بودين دفتردارا من مهرة السياسيين يدعى خليل أفندى اجتهد كثيرا فى ضبط المملكة وحسن ادارتها مما خلد له ذكرا حسنا وبعدها عاد الى الاستانة ظافرا منصورا

وفى سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) لما تعدى شارلكان على فرنسيس الاول ملك فرانسا طلب هذا نجدة من السلطنة العثمانية فأرسل له السلطان دونغما مشكلة من مائة سفينة حربية تحت قيادة خير الدين باشا لمساعدة العمارة الفرنساوية التى كانت تحت قيادة دوق انغيان وكانت مركبة من أربعين سفينة حربية فى محاربات نيس وسواحل اسبانيا وفتحت للفرنساويين جملة حصون وسلمتها لهم ولما حل زمن الشتاء عادت العمارتان الفرنساوية والعثمانية الى مينا طولون لتمضية فصل الشتاء بها حسب العادة وفى أثناء اقامتهما بتلك المدينة كان خير الدين باشا كلما زار أو قابل ضباط البحرية لامهم على إهمالهم أمر سفنهم وكان الاميرال الفرنساوى (دوق انغيان) يسمع هذه الاعتراضات باذن صاغية من هذا البطل الشهير ويحلها محلها من الاعتبار وقد أرشد الفرنساويين بذلك الى جملة تحسينات بحرية وفى مدة اقامة خير الدين باشا فى مينا طولون كان لشدة احتراسه وتيقظه يأمر جميع سفنه بأن تكون على تمام الاهبة والاستعداد ليلا ونهارا كأنه فى بلد معادية له فتوجست الحكومة الفرنساوية خيفة من سلوكه هذا وأرادت التخلص منه بالتى هى أحسن سيما وان الاهالى حنقوا جدا وروا حكومتهم بسوء الاعتقاد لاستعانتها بالمسلمين فأعطته ٨٠٠٠٠ قراون (القراون الواحد = $\frac{\text{ص}}{٢٥}$) مصاريف سفرية وطلبت منه أن يعود الى بلاده شاكرة حسن مسعاه على مساعدته اياها ثم خرج بالدونغما عائدا الى الاستانة

وقال جونكير (Jonquière) فى تاريخه ما ملخصه انه لما فترت العلاقات بين شارلكان والسلطان سليمان بسبب مهاجمة شارلكان لمدينة الجزائر وارتداده خائبا عنها (١٥٤١ م) أرسل فرانسوا الاول ملك فرانسا الموسيو رانسون (Rinçon) ليطلب من السلطان المساعدة على محاربة خصمه شارلكان ولما قتله عامل شارلكان فى مقاطعة ميلان وبلغ خبر ذلك ملك فرانسا أرسل بدله القبودان بولان (Polain) فقابل السلطان وعرض عليه طلب المساعدة بالدونغما فتردد السلطان أولا لعدم ثبات فرانسوا الاول فى عزمه وأخيرا قبل بناء على الحاح بولان وفى سنة ١٥٤٣ سافر السلطان بالاوردى الى بلاد المجر لمحاربة جيوش شارلكان وبعث الدونغما تحت قيادة خير الدين باربروس مع السفير الى مرسيليا فغزى فى طريقه جملة بلاد من ايطاليا وصقلية ولما وصل قوبل من الامة الفرنساوية بالترحاب وبعد ان انضم اليه أسطول فرانسا قصدوا مدينة نيس وحاصروها برا وبحرا وفتحوها عنوة ثم عاد خير الدين باشا لتمضية فصل الشتاء فى فرضة تولون الفرنساوية وصرف له ملك فرانسا مبلغا وافرا من المال للصرف منه

ولما خاف فرانسوا من هياج المسيحيين عليه لاستعانته بالمسلمين أذن للدونغما العثمانية بالعودة

وأبرم مع شارلكان صلح كرسبى فعاد خير الدين الى القسطنطينية (١٥٤٤ م) وقال صاحب كتاب مشاهير البحارة الفرنساويين ليون غيرين L. Guérin ما ملخصه انه لما احتاج فرانسوا الاول لطلب مساعدة السلطان على عدوه شارلكان أرسل لذلك الاميرال بولان فأقلع من بحر الادرياتيك (١٥٤١ م) ورسا بأساطيله على مدينة سيبنيكو من بلاد دالماسيا (Sebenico) ثم تقابل مع السلطان حين مروره ببلاد بوسنه وعرض عليه ملتمسات سيده وقدم له مكاتيبه وهدايا وكانت عبارة عن أوان مختلفة من الفضة منقوشة نقشا جميلا تزن ستمائة رطل ووزع أيضا على خواص السلطان ووزرائه خمسمائة بدلة من الحرير والصوف والارجوان وبعد ان تكلم عن الاهانة التى لحقت بالسلطنة العثمانية وبفرانسوا الاول بسبب قتل رانسون التمس من السلطان أن يرسل جيشا بحريا وعمارة لمساعدة سيده ويستعمل ماله من النفوذ ليحمل جمهورية البنادقة على التحالف مع ملك فرانسا ضد شارلكان فوعده السلطان بالمساعدة فى البر والبحر وبعد أن وصل السلطان الى القسطنطينية وهو بصحبته جمع أرباب الدولة واستشارهم فأشاروا باجابة ملتمس فرانسا واذن لبولان بالعودة الى سيده وأنعم عليه قبل مبارحته دار الخلافة بجوادين عربيين وسيف مرصع ولما وصل كافأه الملك على خدمته التى حصل لاسمها السرور وبعد ان عين فرانسوا المكان الذى تجتمع فيه جنوده مع جنود السلطان للشروع فى الحرب أمر بولان بالعودة سريعا الى القسطنطينية (١٥٤٢ م) فمر على مدينة البنادقة ليجتهد فى حمل الجمهورية على الانضمام الى دولته ولم يكن مندوب السلطان قد وصل اليها فتباحث مع حكومة الجمهورية وخطب على أعضاء مجلس السناتو خطبة مؤثرة أظهر فيها وجوه المسئلة والفوائد التى تعود على الجمهورية اذا اشتركت فى هذا التحالف ثم وصل سفير السلطان وتداول فى الامر فلم تقبل البنادقة الاشتراك انما صرحت بانها تلتزم الحيادة التامة أثناء الحرب ثم لما وصل بولان الى القسطنطينية وجد الافكار تغيرت ومالت عن مساعدة فرانسا ولكنه اجتهد بمهارته حتى جعل السلطان وهو فى ادرنة يميل لمساعدة فرانسا وكتب يبشر سيده بهذا الخبر المفرح وسار هو الى استانبول ليرجو الوزراء بالاهتمام وكان خير الدين باربا روس الشهير يشتغل ليلا ونهارا فى تجهيز الاساطيل وقد كان الملك فرانسوا لعدم وجود من يحسن فن البحرية فى بلاده يوظف لقيادة أساطيله عالا من الاجانب وقد تعلم بولان علم البحرية فى هذه السياحة لانه رأى فى الاساطيل العثمانية استعدادا ومهارة واتقانا لم يرها من قبل وقدم له ذلك حتى صار من أشهر قواد البحر فى زمنه ثم سافر صحبة الجيش البحرى الذى خرج تحت قيادة خير الدين باشا فى ٢٨ مايو سنة ١٥٤٣ ولما مرت العمارة على جزيرة نغربونت انضم اليها عدة شوانى حتى بلغت مائة وخمسين سفينة بين شانية وغيرها ثم قصدت مسينى وضربت فى طريقها قلعة ريو التى كانت بيد الاسبانيول وفتحها وغنم الجنود منها غنائم وافرة وخافت ايطاليا من العمارة العثمانية وتوسط البابا فى الصلح فلم يفلح ثم عرجت العمارة على مصب نهر التبر وخاف سكان رومة ولكن بولان طمن البابا ثم قصدت تسكانه وليفورنه بدون ان تتعرض لسكانها ثم اتجهت الى بلاد بروفنسا لاخضاعها بالمشاركة مع جيش فرانسوا وفى شهر يوليو سنة ١٥٤٣ وصلت الى مرسيليا فام الفرح السكان لمجىء عمارة عظيمة اسلامية لتشارك أمة نصرانية فى عملها ثم توجه خير الدين بالدونما لمحاصرة مدينة نيس وأوصى فرانسوا بولان أن يراقب أعمال عساكر المسلمين حتى لا تضر أعمالهم باسمه وشهرته من حيث كونه الابن

البكرى الكنيسة الكاثوليكية ثم انضم لجيش العثمانيين أربعون سفينة فرنساوية تحت قيادة الكونت انغيان D'Enghien أمير بيت بوربون وأعلم ملك فرانسا الجنويزيين بأن لا يخافوا من العثمانيين وترجى أيضا خير الدين باشا بأن يطلق من بين بحارته كل من عرفه أهله من تلك المدينة وفى أثناء حصار نيس فرغت ذخيرة وقنابل الفرنساويين فطلبوا من القائد العثمانى مقدارا بالثمن فوبخهم كثيرا ولامهم وهددهم ولما علم الفرنسويون بمجىء مراكب اسبانيا تحت قيادة اندريا دوريا خافوا وفشل ريحهم وتركوا الحصار وهجم العثمانيون على نيس وفتحوها ونهبوها ثم أقلع خير الدين الى شواطئ بلاد انتيب لتمضية فصل الشتاء وفى خلالها كانت أساطيل فرانسا ذهبت لتستعد لملاقاة أندريا دوريا فبلغها أن زوبعة شديدة ألقت سفنه على الشاطئ ولما وصل خير الدين الى طولون أرسل فرقة مؤلفة من عشرين سفينة مع بعض سفن فرنساوية الى ثغر فيلا فرانكا (Villa-Franca) لتستولى على انقاض السفن الاسبانيولية التى انكسرت هناك وأرسل فرقة أخرى مؤلفة من ٢٥ سفينة الى سواحل اسبانيا فأغارت على مدينة روزاس Rosas ونهبتها وكان فرانسوا بعد ان بذل ما بذل من المساعى لينال مساعدة العثمانيين تبكته سريرته ويوبخه ضميره لاستعانته على النصرانية بمن ليس من أبنائها فصمم على ارجاع العمارة العثمانية الى القسطنطينية وقد كان خير الدين باشا سئم أيضا وحنقه يزداد بسبب الخطة التى اضطره الفرنسويون الى اتباعها فكان يسأل هل أن مجيئه الى فرانسا هو لكى يقف بسفنه ورجاله بلا عمل سيما وان بولان كان وعد السلطان عن لسان سيده أن العمارة تعود فى سنة ١٥٤٤ ثم عادت العمارة فى أوائل مايو من السنة المذكورة ورافقها اسطول فرنسوى مشكل من خمس شوان تحت قيادة القبودان بولان اه

وكانت هذه المحاربة آخر محاربات خير الدين حيث مات بعدها عقب مرض لم ينفع فيه علاج سنة ٩٥٣ ه (١٥٤٦ م) وقبره للآن قريب من ساحل بشكطاش وقد أبقى هذا الملاح الجسور ذكرا حسنا فى التاريخ استحق به أن تكون مقبرته تذكارا يخلد ويفتخر به فى تاريخ البحرية العثمانية وكل ملاح فيها (١) وتعين لرياسة البحرية بعده القبودان محمد باشا الطويل ثم خلفه القبودان سنان باشا (٩٥٧) الكرواسى الاصل وهو أخو رستم باشا الذى تولى الصدارة بغاية الصداقة لدى السلطان سليمان مدة ١٥ سنة وبمساعى هذا القبودان فتحت طرابلس الغرب من يد الاسبانيول وكانت وفاته سنة ٩٦١ ه ودفن بمدينة اسكدار وخلفه بياله باشا وقد تخرج على يد خير الدين باشا عدة من الرؤساء أشهرهم طورغودجه (٢)

(١) باربروس هو من أعظم وأمهر قواد البحر فى العالم وأصله من القرصان كما سبق ذكر كل ذلك فى وقائعه البحرية ولقد كان على معرفة تامة بسلوك البحار وعلم الحرب البحرى وقد كان يعرف من اللغات الاجنبية الرومية والتليانية والفرنساوية وقد أطلق عليه مؤرخو الفرنج لقب باربروس الثانى ومعناه ذو اللحية الشقراء وكان يطلقون هذا اللقب على أخيه أوروج الذى قتل بتلمسان وهو عندهم باربروس الاول وقد أرخ بعضهم موته بقوله (مات رئيس البحر ٩٥٣)

(٢) طورغودجه أو طورغود هو من مشاهير قواد البحر لدى العثمانيين أصله من الاناضول وخدم فى أول امره مع خير الدين باشا باربروس وحضر كثيرا من الوقائع البحرية وهدد أكثر سواحل اسبانيا وصقلية وايطاليا ويعرف عند الفرنج باسم دراغوت Dragut وقد وقع أسيرا فى بعض الوقائع التى حصلت بين أندريا دوريا وخير الدين باشا ثم استخلصه خير الدين باشا عندما أغار على مدينة جنوة (١٥٥٠ م) ولما وصل الى الاستانة صحبة خير الدين باشا

وصالح رئيس (٣) وبياله (٤) المذكور وسيد على رئيس (٥) وأولوج على (٦) وأمثالهم من الذين أبقوا للعثمانيين حسن الظن بأن يكون لاساطيلهم في البحار شأن يذكر وخبر يؤثر وقد حققت الايام ذلك فيما بعد كما ستقف عليه ان شاء الله

محاربات العثمانيين ببحر الهند — اعلم أنه بينما كانت الدولة العثمانية مشتغلة بالمحاربات البحرية والبرية المستمرة مع البنادقة واسبانيا والدول المتفقة معهما في البحر الابيض المتوسط كان البرتغاليون يمدون فتوحاتهم بسواحل الهند ذاهبين اليها من طريق رأس عشم الخير بجنوبي أفريقية وكانوا استولوا على كثير من البلاد الكائنة على السواحل المذكورة وصاروا ينقلون منها بسفنهم تجارة هذه البلاد الى بلادهم وبلاد أوروبا مارين بالطريق المذكور وبعد ان كانت التجارة الهندية والصينية تنقل من هاته البلاد الى ثغر السويس ومنه الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا في البحر المتوسط الابيض بواسطة السفن التجارية العثمانية وغيرها من سفن الدول المتحابة كانت أعمال البرتقاليين التي ذكرناها سببا لتعطيل المنافع والتجارة العثمانية فأصدر السلطان الاوامر المشددة الى وزيره الذي اشتهر وقتئذ بالشجاعة وحسن التدبير وهو الخادم سليمان باشا والى مصر بتجهيز الاساطيل اللازمة في البحر الاحمر لارسال الحملة التي صمم السلطان على ارسالها لمحاربة البرتقال بجهات الهند وتأمين طرق التجارة وأرسل لذلك من الاستانة سليمان رئيس وكان أشهر رجال

نال تعطفات السلطان سليمان القانوني فعينه قبودانا بسواحل بلاد البربر فأقلع من وقته الى تلك الجهات وتمكن من جمع كثير من سفنها شكل منها اسطولا قويا أغار به على سواحل ايطاليا واسبانيا لينتقم منهما على ما أصابه من الذل والهوان أثناء أسره وقد تمكن من هدم كثير من القلاع والمدن حتى خافته تلك الارجاء وارتعدت فرائص سكانها من سطوته ثم انثنى راجعا الى طرابلس الغرب (٩٥٩ هـ) فانتزعها من يد الاسبانيول بعد ان أوقع بهم مرارا ومما سهل له هذا الاستيلاء مساعدة الدونما العثمانية التي كانت تحت قيادة سنان باشا كما سبق بتاريخ طرابلس ثم التفت الى الاعمال البحرية فحاز فخرا يعادل فخر بار بروس بانتصاراته العديدة على أمرادو رياومات هذا القبودان في محاربة مالطة (١٥٦٦م)

(٣) صالح رئيس هو من قواد السفن الذين كانت لهم اليد البيضاء في الاعمال البحرية العثمانية

(٤) بياله باشا هو من أشهر قبودانات البحر أصحاب الذكر الحسن مجرى الاصل خرج من بلاده وهو حديث السن بسبب واقعة حربية حصلت بجوار مدينة مهاج (١٥٢٦ م) ثم أسلم ونشأ في الجيش العثماني بأمر السلطان سليم الثاني ولما مات سنان باشا ولاه السلطان امارة صنجق غليبولي وقيادة الاساطيل العثمانية (١٥٥٥ م) وبعد ذلك بثلاث سنوات أنعم عليه بولاية جزائر الغرب علاوة على مسنده ثم ساعد الاساطيل الفرنساوية في الاستيلاء على مسيني ورينو من الاسبانيول وغزا جزائر باليار فخرب قلاعها وفي سنة ٩٦٧ هـ خرج بالاساطيل العثمانية الى البحر الابيض المتوسط وافتتح بلاد مورة وأسر قبودان قلعة نابولي وغير ذلك ولما عاد أكرمه السلطان وكافأه على ذلك بأن زوجه بحفيدته ابنة الامير سليم خان ثم فتح جزيرة ساقز (٩٧٠ هـ) فنال شهرة عظيمة وبقي في هذا المنصب مدة ١٤ سنة ثم ترقى الى رتبة الصدارة العظمى وكانت وفاته سنة ٩٧٨ هـ ودفن في الجامع المعروف باسمه في جهة قاسم باشا وهو الذي استولى من الاسبانيول على جزيرة جربة بعد محاصرتها ثلاثة شهور ثم فتح قلعة سانت الما بجزيرة مالطة

(٥) السيد على قبودان هو من أعظم قواد البحر وأعلمهم وسيأتي ذكره وأعماله في محاربات الدولة مع البرتقال في بحر الهند

(٦) أولوج على وهو من أهالي الاناضول ومن الذين تمرنوا على فن سلوك البحر وحربه مع خير الدين باشا الشهير وله شهرة عظيمة بجهات جزائر الغرب ولما انتصر نصرته الآتي ذكرها مدة السلطان سليم الثاني عيا مدينة لبانت ورجع الى الاستانة رحب به السلطان وسماه قلنج على باشا وسيأتي ذكره وأعماله في محلها

عصره معرفة بالملاحة والبحرية لمساعدة سليمان باشا فى هذه المأمورية فتمكن الاثنان عما بذلاه من النشاط من تجهيز وتشييد جملة سفائن فى فرضة السويس (٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م)

وفى خلال ذلك قام هما يون شاه ملك الهند بقصد محو ملوك الطوائف الذين بأطراف بلاده ولما هدد بهادر شاه ملك كجرات سنة ٩٤٣ هـ أرسل هذا من طرفه سفيرا الى السلطان سليمان يطلب نجدته فكانت هذه المسئلة وسيلة أخرى لتنفيذ ما صمم عليه السلطان من ارسال الجيوش والاساطيل الى بلاد الهند ولما تمت التجهيزات أقلع سليمان باشا من السويس بعمارة مؤلفة من ثمانين سفينة تحت قيادة سليمان رئيس بها عشرين ألف جندى ولما وصلت هذه السفن الى عدن سنة ٩٤٥ هـ استدعى سليمان باشا أميرها المدعو عامر بن داود فقبض عليه وصلبه فى سارية من سوارى السفن بعد ان كان وعده بالامان وبذلك استولى على امارة عدن بلا حرب وأبقى فيها بعض الجنود ونصب عليها بهرام بك أحد أمراء الجنود العثمانية محافظا ثم أقلع منها قاصدا سواحل الهند فوصلها بعد أيام ولما أرسى على ساحل كجرات بلغه أن بهادر شاه الذى كان طلب مساعدة الدولة تصالح مع خصمه بعد ان تحارب مرارا وكانت الاساطيل البرتقالية تسلطت على ثغور كجرات واستولت على فرضة ديو وما جاورها من البلاد ومات فى الحرب بهادر شاه وخلفه الملك محمود فى مملكته وكان هادن البورتقاليين ثم ان سليمان باشا الخادم أخرج الجيوش الى البر بعد ان اتحد مع الملك محمود وأخذ يقاتل البرتقاليين حتى استولى منهم على قلعتى كوله وكات وقتل منهم أكثر من ألف محارب ثم شرع يحاصر فرضة ديو برا وبحرا وتمكن بعد زمن من الاستيلاء على قلاعها الامامية الا أن مقاومة محافظها البرتقالى المدعو انطوان وما أظهره من الجسارة والاقدام فى المدافعة عن القلاع الداخلية أعلمه أن الاستيلاء عليها لا يمكن نواله بسهولة سيما وأنه لما رأى أن ذخيرة العساكر قاربت الفراغ طلب من الملك محمود إمداده بالذخيرة غير ان الملك محمود كان يخاف أن يصيبه منه ما أصاب أمير عدن فلم يلتفت اليه بل صالح البرتقاليين فالتزم سليمان باشا عند ذلك برفع الحصار عن الفرضة المذكورة والعودة الى السويس وقد لام صاحب تاريخ الخبر الصحيح سليمان باشا الخادم على فعلته بأمير عدن لانها كانت سببا فى ضياع الفوائد التى اكتسبها فى سفرته هذه بالبلاد الهندية وبعد عودة الاساطيل والجيوش الى عدن حضر أمير بلاد الشحر وقدم خضوعه للسلطنة فقبل الباشا منه ذلك وأمنه ودخلت تلك الجهات ضمن الاملاك العثمانية ثم مر على سواحل اليمن وأخضعها وولى عليها مصطفى بك ابن بيقلى محمد باشا

ولما بلغ السلطان أن فرديناند ملك النمسا تعدى على بلاده بشن الغارة سنة ٩٥٨ هـ بناء على تحريضات رجاله لما أصابهم من مكيدة أم اصطفان ملك الاردل أصدر أمره الى قائد جيوش الروملى صوقللى محمد باشا بالتجهيز والاغارة على بلاد النمسا فقام بالامر وعبر بجيشه البالغ ٨٠ ألف جندى نهر الطونة وافتتح عدة مدن وقلاع منها بچى (١) وچناد (٢)

---

(١) بچى مدينة من بلاد المجر قاعدة عمالة تورونتال على نهر بيغا سكانها نحو عشرين ألف نفس ومن حاصلاتها الحرير وتسمى عند الفرنج (Gross-Becskerek, (Becsé)

(٢) وچناد مدينة من بلاد المجر واقعة جنوبى العمالة المضافة اليها على الشاطئ الايمن من نهر ماروس سكانها نحو ٥٠٠٠ نسمة وتسمى لدى الفرنج (Csanad)

وليبوه

وليبوه (٣) وطمشوار (٤) ولما رأى ملك النمسا ذلك اتحد مع لويس ملك پولونيا وأعدا جيوشا وخرجا بالسرعة حتى تلاقيا مع الوزير محمد باشا وتمكنا من صده واسترد بعض القلاع التي فتحها العثمانيون عند ذلك عين السلطان الوزير الثاني قره أحمد باشا بجيش عظيم ولقبه بسردار المجر (٩٥٩ ﻫ) وكان معه صوقللي محمد باشا أيضا وقد تمكن أحمد باشا من كسر جيوش المتفقين واسترد منهم ما كانوا احتلوه من القلاع وفتح بسپرم Wesprim وصولنق Solnock ثم عاد منصورا ومعه من الغنائم والاسرى شئ كثير الا انه لم يتمكن من فتح مدينة اكرى (٥)

التجريدة الثانية البحرية ببحر الهند – قد علمت مما سبق أن الخادم سليمان باشا استولى على مدينة عدن أثناء ذهابه بالحملة الاولى ولما كان هذا الاستيلاء لم يحصل بوجه الشرعي لقتل أميرها المدعو عامر بن داود ظلما وعدوانا ثارت الاهالي خصوصا أقاربه على الحاكم الذي تعين لمحافظتها واتفقوا مع البرتقاليين وساعدوهم على تسليم المدينة لهم ولما علمت الدولة بذلك سيما وان نجاحها في التجريدة الاولى لم يأت بالفائدة المطلوبة أرسلت في سنة ٩٥٩ ﻫ (١٥٥١ م) عمارة أخرى من البحر الاحمر تحت قيادة المدعو پيري رئيس مؤلفة من ثلاثين سفينة بين أغربة وشواني وغلايين وقد تمكن هذا القبودان من استرداد عدن والاستيلاء بعد ذلك على مدينة مسقط وجزيرة هرمز ودراخت الواقعتين عند مدخل الخليج الفارسي ليجعلهما نقطتين يلتجأ اليهما عند الحاجة ثم أقلع يريد البصرة وهناك بلغه أن اسطول البرتقال آت لمحاربته ولما كانت أساطيله ينقص منها بعض الادوات والآلات تركها بالبصرة وعاد بغرابين الى مصر ثم عين السلطان مراد بك قبودانا على اسطول مصر فقصد البصرة بعمارة عظيمة وبعد ان ترك بها نحو سبعين سفينة خرج باسطول مؤلف من ١٧ سفينة وبوصوله الى مضيق هرمز تقابل مع البرتقاليين ولما انتشب القتال بينهما انتصر البرتقاليون وقتل من أساطيل العثمانيين كثير من قوادها عند ذلك اضطر مراد بك الى الرجوع الى مدينة البصرة ثم عين السلطان البحري الشهير والفلكي الخبير سيد علي رئيس قائدا للاساطيل المصرية (٩٦٠ ﻫ) وكان لهذا الرئيس اطلاع تام على بحار الهند وخواصها وله في ذلك تآليف معتبر منها كتابه الذي سماه بالمحيط وصف فيه بحار الهند وصفا مدققا وقد تمرن على الغزوات البحرية مع خير الدين باشا الشهير ولما وصل الى البصرة ورتب أساطيله ووضع فيها ما يلزم من القواد والبحارة

---

(٣) ليبو مدينة من بلاد المجر بمقاطعة تميس على الشاطئ الايسر من نهر ماروس سكانها نحو سبعة آلاف نسمة وبها معامل للآنية الفخارية ومن حاصلاتها الانبذة والثمار وغيرها وبها قلعة قديمة وتسمى عند الفرنج (Lippa)

(٤) طمشوار مدينة حصينة من بلاد المجر رأس عمالة مضافة اليها واقعة على نهري بغا وتميس وسط غياض بالجنوب الشرقي من قاعدة المجر سكانها نحو ٣٤٠٠٠ نسمة نصفهم من الالمان وبها كنائس ومدارس ودور للمرضى ودار صناعة وهي جيدة البناء واسعة التجارة والصناعة بها معامل للاقمشة والجلود والانبذة والكاغد استولى عليها العثمانيون من سنة ١٥٥١ الى ١٧١٦ م حين انتزعها منهم أمير ساقوا المدعو أوجين عقدت بها محالفة بين النمسا والعثمانيين سنة ١٦٦٢ م وتسمى عند الفرنج (Témesvar)

(٥) اكرى هي مدينة من بلاد المجر واقعة على نهير باسمها وهي رأس عمالة يبلغ سكانها ٢٠٠٠٠ نسمة وبها مدرسة نالت شهرة قديما ودار كتب ومرصد فلكي وحمامات معدنية حارة شهيرة جدا وهي مدينة جميلة الموقع تحيط بها الكروم وبها معامل للاقمشة وقد انتابتها مصائب عديدة مدة حروب التتار والعثمانيين وتسمى بالمجرية أجر (Eger) وبالافرنجية (Erlau) (Agria)

أقلع حتى وصل الى جهات هرمز لمنازلة البورتقاليين هناك وكانت سفنهم ثلاثة أمثال سفنه ومع ذلك فقد انتصر عليهم نصرا مبينا وأغرق من سفنهم عددا كثيرا ثم خرجت عليه أنواء عظيمة اتلفت بعض سفنه وألقت بالبعض الآخر على سواحل بلاد الهند فساءت حالته وضعف أمره وخاف قواد السفن الباقية من زوابع البحر المحيط الهندى فارسى بها على سواحل كجرات وخرج من بقى بها من الجنود الى البر وسلم السفن وأدواتها الى الملك أحمد ملك كجرات ثم عاد بنحو الخمسين فقط من أتباعه بين رئيس ومرؤس مارين بالبلاد الهندية وبلاد العجم حتى وصلوا الى الاراضى العثمانية بعد ان صادفوا من الاهوال والمشقات مالا يوصف ذكرها فى رحلته المسماة بمرآة الممالك التى كتبها بعد عودته وبعد ذلك صارت الاساطيل العثمانية تتردد على بحار الهند وتنازل البرتقاليين حتى أضعفت سلطتهم وكان لها فى ذلك الوقت القدح المعلى فى سلوك البحار

المحاربة مع مملكة ايران — اعلم أنه فى سنة ٩٥٥ هـ التجأ أخو الشاه طهماسب المدعو القاص ميرزا الى السلطان مستجيرا به من ظلم أخيه وتعديه على حقوقه الشرعية فتأثر السلطان من ذلك وكان ينتظر سببا مسوغا لقتال العجم وبعد ان جهز الجيش خرج به قاصدا تلك البلاد ومازال سائرا منصورا حتى وصل الى مدينة تبريز وعند عودته استرد مدينة وان التى كان الاعجام استولوا عليها ولما كان أهل الكرج يظهرون الخصومة للدولة العثمانية انتهز السلطان أيضا فرصة وجوده بتلك الجهات وأرسل وزيره الثانى قره أحمد باشا بالقوة الكافية فأخضع بلادهم وأدخلها ضمن الاملاك العثمانية وبعد خروج العثمانيين من بلاد العجم تقدم ملكهم طهماسب الذى لم يتجاسر على الوقوف امام العثمانيين فى المرة الاولى وأخذ فى شن الغارة على جهات موش وعادلجواز وأخلاط وغيرها فجرد السلطان لذلك جيشا كثيفا جعل عليه وزيره الاعظم رستم باشا ولما كان هذا الوزير متزوجا بابنة السلطان كان يسعى من زمن طويل فى حصر السلطنة بعد السلطان سليمان فى ابنه بايزيد لانه شقيق زوجته وقد أثارت هذه المساعى غضب الامير مصطفى لكونه هو الاحق بالسلطنة فانتهز هذا الوزير الخائن فرصة تعيينه على محاربة العجم لالقاء النفرة بين الامير مصطفى ووالده السلطان حيث كتب اليه بان ولده هذا يحرض الجنود على عزل السلطان ليجلس مكانه كما فعل السلطان سليم الاول مع أبيه السلطان بايزيد الثانى من قبل ولما وصل هذا الخبر الى السلطان وكانت والدة بايزيد قد تمكنت من تحويل أفكار السلطان نحو ولدها خرج فى الحال من استانبول متظاهرا بانه يريد أن يتولى قيادة الجيش بنفسه فلاقاه ولده الامير مصطفى فى الطريق وكان اذ ذاك والى بلاد القرمان ولما أتى الى سرادق والده السلام عليه أمر فقبضوا عليه وقتلوه (٩٦٠ هـ) فذهب شهيد دسائس الخونة والمفسدين وقد اعترض كثير من المؤرخين على السلطان لعدم تثبته فى المسئلة كما كان ينبغى وكان الامير مصطفى شجاعا شاعرا محبا للعلم والعلماء أديبا ولهذا حزن الناس لموته ورثاه كثير من الشعراء وقامت اليكجرية وطلبت من السلطان قتل ذلك الوزير المدبر لهذه المكيدة فعزله السلطان تسكينا لخواطرهم وولى مكانه الوزير قره أحمد باشا وبعد ذلك تقدم السلطان نحو بلاد العجم لمحاربتها فوصل الى مدينة وان وفتحها وأخربها ثم تقدم فى سنة ٩٦١ هـ فافتتح عدة مدائن وحصون ونهبت جنوده وخربت كل ماصادفته من قصور الملك ومنتزهاته بالبلاد التى استولت عليها ثم فتح مدينة تبريز ونهبها بعد أن قتل عددا وافرا من العجم ثم أغار على مدينة مراغة فأحرق وقتل وانتصر بجوارها على جيوش العجم

انتصارا

انتصارا مبينا وأخذ منها تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم وفي أثناء ذلك وصل وفد من طرف شاه العجم يحمل للسلطان مكتوبا أظهر فيه الشاه التندم على ما أتاه من العداوة وطلب الصلح فأجابه السلطان على ذلك وعقد مع العجم مشارطة (٩٦٢ هـ) أباح فيها للعجم الحج لبيت الله الحرام ومزاولة مذهبهم بلا تعرض وكانت هذه أول معاهدة عقدت بين الدولة والعجم ثم توجه السلطان لتمضية فصل الشتاء بمدينة اماسيا ثم عاد الى دار ملكه بالاستانة

مساعدة السلطان لملك فرانسا — لما وقعت العداوة والشحناء بين فرنسيس الاول ملك فرانسا وشرلكان امبراطور المانيا وملك اسبانيا استنجد ملك فرانسا ثانية بالسلطان سليمان طالبا امداده لردع خصمه القوى فأمر السلطان وهو يحارب العجم طورغود بك المعروف عند الفرنج باسم (Dragut) بالسفر صحبة العمارة البحرية لمساعدة فرانسا فتوجه هذا القائد الشهير بالاسطول العثماني ومعه العدد الكافي من الجنود (٩٦٠ هـ – ١٥٥٣ م) واتحد مع القبودان بولان المتقدم الذكر رئيس أساطيل فرانسا وحاربا الاسبانيول وانتصرا على كثير من سفنهم وفتحا عدة قلاع ومدن ساحلية أضيفت الى أملاك فرانسا ثم خلص طورغود نحو سبعة آلاف أسير من المسلمين كانوا لدى الاسبانيول في قلعة بشتيا (Bestia) من أعمال قورسقه وغير ذلك ثم حصل بينه وبين قائد أساطيل الفرنسويين خلاف فعاد الى استانبول وأحسن السلطان عليه برتبة بكلربك الجزائر مكافأة له

قال صاحب كتاب مشاهير البحارة الفرنساويين وهوليون غرين ان القبودان بولان صدر له الامر بان يذهب وينضم الى الاساطيل العثمانية الراسية بخليج ليبانت المعقود لواؤها للقبودان طورغود وكانت أساطيل بولان ٣٦ من نوع الشانية وأساطيل طورغود ٦٠ من هذا النوع أيضا ثم أقلع الاميرالان معا في أوائل يونية سنة ١٥٥٣ واغارا عدة مرات على سواحل كلابريا وجزائر صقلية والب وبيانوسا (Pianosa) وكان ظهورهما امام مدينة نابل داعية لان يرفع الاسبانيول الحصار عن مدينة سيين (Sienne) المهمة ثم وصل الى العمارتين المتحدتين قوة عسكرية مؤلفة من ٢٥٠٠ جندى قصدا نزالها في قورسقة وصدر الامر أيضا للقبودان بولان بان يهاجم المدن الساحلية التي كانت في قبضة الجنويزيين ويطلب من الجيش البحرى العثماني مساعدته اثناء قيامه بذلك فقبل طورغود وحاصر مدينة بونيفاس من قورسقة ومازال على حصارها حتى استولى عليها صلحا ثم حصل بينه وبين بولان خلاف فعاد الى استانبول

وبعد عودة طورغود بقى الفرنسيس بلا نصير ولا معين حتى كادت جميع البلاد التي فتحوها بمساعدة العثمانيين تقع في يد أعدائهم ثانية فطلب ملك فرانسا النجدة من السلطان على لسان سفيره الذي بدار الخلافة وكان مات في هذا الوقت سنان باشا القبودان الاكبر للعمارة العثمانية ووجهت رتبة القبودانية لبياله باشا فصدر له أمر السلطان سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٤ م) بان يستعد بالاساطيل لمساعدة ملك فرانسا ويأخذ معه طورغود ليستعين بآرائه وأفكاره اهـ فقام بالامر وأقلع من الاستانة بعمارة مؤلفة من ستين سفينة حربية بين غراب وقليون وبينما العمارة العثمانية سائرة اذ شاهدها من بعد الاميرال اندريا دوريا الاسبانيولي فحاد عن لقائها مخافة هزيمة تلحقه كهزيمة

برهو بزا التى لم يعد ينساها ولما وصل الى سواحل ايطاليا غزا جملة بلاد وقلاع واغتنم غنائم كثيرة وأسر عددا وافرا ثم تقابل مع الاساطيل الفرنساوية واتحد معها فى المحاربات وتمكن بياله باشا من فتح جملة قلاع من يد الاسبانيول وسلمها للفرنساويين منها مسيني ورنو ثم حاصر قلعة قالبه من ايطاليا وفى أثناء الحصار حصل بين العساكر الفرنساوية والعساكر العثمانية اختلاف ومنازعات حتى التزم بياله باشا بترك مياه الحرب وعاد بالدونما العثمانية الى دار الخلافة وفى سنة ٩٦٤ ﻫ (١٥٥٦ م) خرج بالاساطيل العثمانية وغزا جزائر باليار ودمر قلاعها ثم عاد بالغنائم الوافرة

محاربة جربة الشهيرة — خرج بياله باشا سنة ٩٦٦ بعمارة حربية مؤلفة من ٨٨ سفينة وتقابل فى مياه سيبانجه بسفينة طليانية فقبض عليها ولما استنطق طائفتها اعلم منهم انه لما ازادت الدولة العثمانية قوتها البحرية فى سواحل بلاد الجزائر ومالطة خافت طائفة فرسان مالطة واستغاثت باوروبا والتمست من حكوماتها البحرية امدادهم بالاساطيل فتداولت تلك الحكومات فى الامر ثم أقروا وعزموا على مهاجمة العثمانيين فنقل بياله باشا هذا الخبر الى السلطان الذى اهتم بالامر غاية الاهتمام وأرسل من استانبول اثنتى عشرة سفينة لتقوية العمارة العثمانية على أعدائها وأمره السلطان بالتربص فى سواحل الارنؤد لاستطلاع أحوال العدو وتقوية حصون تلك البلاد فقام بياله باشا بتنفيذ هذا الامر كما يجب ثم عاد بالعمارة فى الشتاء الى خليج استانبول وبعد وصوله بقليل ورد خبر من بكلربك طرابلس الغرب طورغود باشا ينبئ بانه بعد عودة الدونما العثمانية من البحر المتوسط الابيض حضرت أساطيل الدول المتحدة الى جزيرة جربة وأخذت فى اقامة الاستحكامات بقصد الاستعداد للهجوم على طرابلس الغرب فى أول الربيع وبناء على ذلك صدرت أوامر السلطان ببناء وتجهيز السفن للسفر وقام بياله باشا بمباشرة وتنفيذ هذه الاوامر وصار يراقب دار الصناعه باستانبول وكليبولى بنفسه حتى تمكن بعد قليل من بناء ١٢٠ سفينة وفى اليوم الثامن من شهر رجب سنة ٩٦٧ (١٥٦٠ م) أبحر بياله بالاساطيل المذكورة ومازال يجد فى السير حتى وصل الى جزائر قيون حيث تلاقى مع السفينة التى أرسلها طورغود باشا حاملة أخباره وبعد ان اطلع على ما تحمله من المكاتيب أخذ فى السير وفى تلك الاثناء قبضت فرقة العمارة التى تحت قيادة أولوج على رئيس وكانت فى المقدمة على سفينة حربية للاعداء بقرب متون وعلم من طائفتها التى وقعت بيد العثمانيين أقوال مطابقة تماما لما كان أخبر به طورغود باشا أى ان دونمات الدول المتفقة تقصد الهجوم أولا على طرابلس الغرب ثم اجتمع بياله باشا بفرقتى مصطفى بك حاكم مديللى وقورداوغلى أحمد بك رودس بمياه متون المذكورة وسار الجميع يقصدون طرابلس الغرب وبعد أربعة أيام وصلوا الى جزيرة غوزة القريبة من طرابلس وباستنطاق الاسرى مرة ثانية تبين من أقوالهم أن عمارة الدول المتحدة المجتمعة بمياه جربة مركبة من ٣٦ سفينة من نوع الغالون ومثلها من القارك و ٤٩ من نوع الغالى وغيرها من السفن بحيث يبلغ عددها جميعا مائتى سفينة ثم ان بياله باشا ذهب الى خليج سفاقس ورسا به امام جزائر كركنة الصغيرة وفى الصباح أقلع منها وفى مساء اليوم الثانى وصل قريبا من جربة فاستقبل

على بعد ١٢ ميلا منها على هيئة حربية وقد ذكر مؤرخو أوروپا ان دونمات الدول المتحدة المجتمعة فى جربة كانت تحت قيادة الاميرال اندريادوريا الشهير مركبة من مائتى سفينة وتابعة لحكومات جنوة وفلورانسه وصقلية ومالطة واسبانيا وكان بها من الجنود تسعة آلاف تحت قيادة الجنرال دون الوارو الذى كان تعهد لتلك الدول بان يفتح لها بهذا الجيش سواحل افريقية الشمالية الى القطر المصرى وكان يشتغل منذ خمسة شهور بعمل الاستحكامات القوية حتى صير جزيرة جربة حصنا منيعا وكانت أساطيل الدول المتفقة لما بلغها من أهالى مالطة مجىء الاساطيل العثمانية بعدت عن الشاطئ والقت مراسيها على بعد ثمانية أميال منه

وفى يوم ١٨ شعبان سنة ٩٦٧ ﻫ (١٥٦٠ م) تحركت الاساطيل العثمانية عند الفجر ومازالت تتقدم نحو الجزيرة حتى شاهدا الاسطولان بعضهما عند ذلك أخذ الطرفان فى التعبية والتصفيف ثم ابتدأت السفائن العثمانية باطلاق مدافعها المشهورة بسرعتها حتى دمرت للاعداء جملة سفن وتعطلت جملة غالونات عن الحركة فتوقفت عن اطلاق نيرانها فانتهز العثمانيون هذه الفرصة وتقدمت فرقة من أسطولهم حتى دخلت وسط صفوف سفائن العدو وفرقتهم الى شطرين وبذلك التجأ من الجناح الايمن ١٤ سفينة الى ميناء جربة وخرجت السفائن التى كانت تحت قيادة اندريادوريا الى عرض البحر فترك پياله باشا عند ذلك فرقة من أساطيله فى جربة وخرج هو بباقى السفن لتعقب العدو ومازال يطارده حتى استولى منه على سبع وعشرين غليونا وعشرين شانية الا أن غالبها غرق مما أصابه من المقذوفات وفر الاميرال اندريادوريا تاركا فى قبضة العثمانيين كثيرا من أمراء أوروپا وبرنساتها وكانوا رافقوه طمعا فى تخيلاته الوهمية واغترارا بوعوده السرابية أما الجنرال دون الوارو قائد الجيش البرى فلم يقدر على المقاومة سوى ثمانية أيام ثم هزم ووقع هو ومن رافقه من أعيان أوروپا بالاسرى فى يد الجيش العثمانى أيضا وبذلك انتهت هذه الواقعة وفاز العثمانيون بهذه النصرة العظيمة وأخذوا بعدها فى تشييد وتقوية حصون جربة وطرابلس وسفاقس مخافة مفاجأتها ثم ودع پياله باشا طورغود باشا الذى أظهر من الشجاعة فى الوقائع البرية مازاد قدره وعاد بالدونمة الى الاستانة فوصلها فى يوم ٢ محرم سنة ٩٦٨ ﻫ (١٥٦٠ م)

وفى يوم دخول الاساطيل العثمانية الاستانة أشرف عليها السلطان من قصر مطل على البحر وكان دعا الامراء والعظماء والسفراء لهذا الاحتفال فدخلت الاساطيل رافعة أعلام النصر تلوح على وجوه قوادها علامات الشجاعة والفوز تجر خلفها ما استولت عليه من سفن الاعداء حاملة ما غنمته من الغنائم النفيسة فكان لذلك منظر من أحسن المناظر وأبهجها وكان قبودان الاساطيل العثمانية علق العلم الاسبانيولى فى وسط السارية كما يكون ذلك فى حالة الحزن دلالة على مالحق الاسبانيول ومحالفيهم من القهر والنكال وأصعد الدون الوارو وغيره من القواد والاسرى الى أعلى مكان بمؤخر السفينة (كيانا) ومرت الاساطيل على هذه الحالة عند ذلك قام سفير فردينندامبراطور المانيا وهنأ السلطان على الانتصار العظيم فأجابه السلطان بقوله (اذا افتكر الانسان فى ان هذا التوفيق العظيم قد ساقه الينا البارى جل وعلا بالطافه الالهية فلا داعى اذن للغرور أو التفاخر) ثم أمر بالانعام على الامراء والافراد وزوج پياله باشا أميرة من العائلة السلطانية

وبعد وفاة رستم باشا الوزير الاعظم (٩٦٨) نصب السلطان مكانه الوزير الثانى سميز على باشا وقد كان هذا الصدر المتوفى صهر السلطان وعلى جانب عظيم من الدراية واللياقة نال فى حياته ثروة وافرة ضربت بها الامثال وقال المؤرخون ان عادة أخذ الرشوة القبيحة لم تكن معروفة عند رجال الدولة قبل زمن هذا الصدر وهو الذى أحدثها وقد قدرت متروكاته بعد وفاته فكانت نحو احد عشر مليونا وثمانمائة ألف غرش وهو مبلغ جسيم جدا بالنسبة لتلك الايام

محاصرة جزيرة مالطة — لما رأت الدولة العثمانية ان فرسان مالطة أو طائفة القديس يوحنا الذين توطنوا بهذه الجزيرة لا زالوا يظهرون التعدى والعداوة على سفنها ورعاياها وكثيرا ما كانوا يساعدون اسبانيا وباقى الحكومات البحرية الاوروباوية فى جميع محارباتها مع الدولة العثمانية وجه السلطان سليمان القانونى عليهم فى شتاء سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) الاساطيل بعد ان شحنها بما يلزم من العدد والعدد وعين الوزير الرابع مصطفى باشا سردارا على الجيش و پياله باشا فاتح جربة قائدا عاما للاساطيل وأمر أيضا طورغود باشا امير افقة الحملة بما معه من الجنود البحرية وفى أواخر شعبان سنة ٩٧٢ هـ (١٥٦٥ م) وصلت الاساطيل الى الجزيرة المذكورة وأخرجت العساكر والمهمات فى جزيرة سربغو وعسكر الجيش بجوار نهير بالمكان المدعو بستان بك كل ذلك ولم يبد فرسان الطائفة مقاومة ثم هجمت فرقة من خيالة تلك الطائفة يبلغ عددها ثمانمائة جندى على العساكر العثمانية وانتشب بينهما القتال وبعد قليل ولت تلك الفرقة الادبار بعد أن تركت كثيرا من قتلاها وجرحاها ثم حاصر العثمانيون المدينة من ناحية سنت الموجا على أعمالهم على قلعتى سان ميشيل وسان انجلو وكانتا على غاية من المنعة ولما كانت مقذوفات مدافعهما قوية سريعة التزمت العساكر العثمانية بالقهقرى وفى تلك الاثناء أصيب القائد الشهير طورغود باشا بجرح بليغ ثم عاود العثمانيون الهجوم مرارا من جهة سنت الموالى كانت اتخذتها العساكر العثمانية موقعا مستحكما لها بناء على اشارة سردارها المذكور وكان من رأى پياله باشا وطورغود باشا الاستيلاء على المدينة قبل مهاجمة القلاع فلم يوافقهما السردار على هذا الرأى وقد نجم عن الاختلاف فى الرأى عدم النجاح وضياع فائدة المهاجمات والمحاصرات ولما توفى طورغود باشا من جرحه ورجح القواد عدم النجاح استقر رأيهم على مبارحة الجزيرة وتركها لوقت آخر ثم عادت الاساطيل العثمانية الى استانبول بعد ان فقدت كثيرا من الجنود وبعد عودة الاساطيل بمدة قليلة توفى الوزير الاعظم على باشا ووجه مسند الوزارة الى الوزير الثانى صوقللى محمد باشا الشهير

وقد كانت جزيرة ساقز تابعة للدولة من زمن مضى ولها امتيازات معلومة وكان الجنويزيون يديرون أمورها باتفاق بينهم وبين العثمانيين الا أن السلطان لما بلغه ان الجويزيين يسعون فى تحريض الاهالى على الثورة صمم على نزع امتيازاتها فارسل القبودان پياله باشا سنة ٩٧٣ هـ بفرقة من الاسطول ولما وصل الى مدينة چشمه الواقعة امام الجزيرة فى بر الاناضول دعا اليه مأموريها فحضروا اليه يحملون جملة هدايا فأنزلهم فى سفينة وأرسلهم جميعا الى الاستانة ثم توجه بسفنه امام ساقز واستولى عليها بلا حرب وعين لها حامية ونصب عليها محافظا وقاضيا ثم عاد فائزا ولما تعكرت الصلات بين الدولة العثمانية والمجر سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٦ م) صمم السلطان

على

على محاربة المجر وسبب ذلك أن مكسميليان الثانى ملك المانيا كان قد خلف فرديناند الاول على تخت امبراطورية المغرب فضم هذا تاج بلاد المجر الى الامبراطورية كابيه وعند ذلك استمد استفان زابولى الدولة العثمانية فأرسل له السلطان جيشا مركبا من ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة صوقللى محمد باشا الوزير الاعظم وبه من الوزراء بريو باشا وفرهاد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا وكثير من بكوات الروملى والاناضول ولما كانوا بجهة بلغراد لحقهم الجيش السلطانى وبعد المداولة أقروا على مهاجمة قلعة اكرى أولا الا أنه بسبب تعرض الجنرال زرينى (Zriny) الشهير لفرقة من الجيش العثمانى رأى السلطان وقواده أن من الضرورى الاستيلاء على قلعة سكدوار [1] حيث يقيم هذا الجنرال فاستولوا عليها بعد حصارها (٩٧٤ ﻫ) وكانت من أمنع الحصون وفى تلك المدة كان اعترى السلطان الضعف والهزال لتقدمه فى السن حتى انه أوصى بالسلطنة من بعده لابنه سليم وكانت وفاته بداء النقرس وله من العمر ٧٦ سنة وأخفى الوزير الاعظم صوقللى محمد باشا وفاته شفقة على الجيوش لئلا يفشلوا ويذهب ريحهم وأمر رئيس الاطباء بتحنيط جثته وبعد تمام الفتح أخذت العساكر فى ترميم القلعة واصلاحها وبعث الوزير الاعظم المذكور الى السلطان سليم يدعوه الى سكدوار وكان يومئذ على امارة كوتاهيه فلما وصله الخبر قام مسرعا حتى وصل الى دار الخلافة على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك وبعد أن تمت له البيعة واطمأن الناس قصد سكدوار مكان الجنود فأقام ببلغراد حتى وافته هناك ثم حمل نعش والده على عجلة الى الاستانة حيث واروه التراب وكان سلطانا رفيع القدر حازما موصوفا بالحكمة والاقدام وقد سن عدة قوانين جديدة نظم بها السلطنة فقوى شأنها وسياستها ولهذا لقب بالقانونى وقسم الدولة الى عدة ايالات جعل فى كل ايالة منها فرقة من الجنود للمحافظة عليها ورتب نظامات وتنسيقات جديدة لضبط العسكرية ووضع منوال جديد الايراد الدولة ومصروفها فتحسنت أحوالها حتى بلغت درجة لم تنلها من قبل ولا من بعد وكان رحمه الله تعالى محبا للعمارة والمبانى جدد المساجد وشيد المدارس والقلاع وأوقف أوقافا كثيرة فى أكثر جهات المملكة وخصص وظائف للمدرسين والطلبة ورتب لهم المرتبات من الاوقاف وجدد عمارة الحجرة النبوية (٩٣٥ ﻫ) وأرسل منبرا من الرخام النقى الى مكة (٩٥٦ ﻫ) لايزال بها الى الآن وله مآثر يعجز عن حصرها القلم وهو بالاختصار من أعظم وأشهر ملوك آل عثمان

---

(١١) السلطان سليم الثانى ابن السلطان سليمان خان

٩٧٤ — ٩٨٢

لما توفى السلطان سليمان القانونى أمام قلعة سكدوار كما ذكرنا أخفى صوقللى محمد باشا الوزير الاعظم خبر وفاته مخافة حدوث ما يكدر الامن العام بالمملكة وأرسل مكتوبا خاصا

---

(١) سكدوار أو سيكتوار مدينة حصينة من بلاد المجر رأس عمالة بها على الشاطئ الايمن من نهر تيس واقعة وسط مستنقعات سكانها نحو ٧٤٠٠٠ نفس وبها مدارس مختلفة وكنائس وتبنى بها السفن وهى واسعة التجارة والملاحة ومن حاصلاتها الانبذة والتبغ والملح والحبوب والصابون وغيرها وقد طغى عليها النهر سنة ١٨٧٩ فأغرق جانبا عظيما منها وتسمى عند الفرنج (Szégedin) أو (Seged)

الى السلطان سليم الثانى بكوتاهيه يخبره بذلك عن يد رجل من أمنائه يدعى حسن چاويش ولما وصله المكتوب بعد ثمانية أيام أقبل مسرعا بصحبة حاشيته حتى وصل الى دار الخلافة يوم ٩ ربيع أول سنة ٩٧٤ ﻫ وجلس على تخت أجداده وكان سنه اذ ذاك ٤٥ سنة وبعد أن بايعه شيخ الاسلام أبو السعود افندى واسكندر باشا وكان نائبا عن السلطان سليمان فى غيبته والعلماء والوزراء والامراء والاعيان زار أضرحة أجداده ثم توجه الى بلغراد فقابل الوزير الاعظم وكانت الاعمال الحربية متوقفة بسبب دخول فصل الشتاء وهناك بايعه الجيش وباقى الامراء

ولما طلبت اليكچرية منه العطايا المعتادة عند الجلوس أبى ذلك عليهم وردعهم فاظهروا عند عودتهم التذمر وأتوا كثيرا من قبائح الاعمال حتى التزم الوزراء بان توسطوا لدى السلطان فأمر بان يصرف لهم بعض تلك العطايا ووعدهم بما بقى الى عودته الى استانبول فلم يزدهم ذلك الا عتوا وافسادا وقاحة حتى ان الوزير الثانى برتو باشا لما أراد نصيحتهم قبضوا عليه وقتلوه وأهانوا أيضا فرهاد باشا وأخيرا أشار الوزير الاعظم وباقى الامراء على السلطان بأن يعنيهم هو بنفسه فسكن اضطرابهم نوعا وبعد أن صرف لهم المقدار الباقى بعد العودة تمكن الصدر الاعظم من معاقبة من تمرد منهم وبذلك ارتدع الباقون عن غواياتهم وكان سبب تأخير الصرف فراغ خزينة الدولة وعدم ورود الايرادات من النواحى وقد راجت بعد ذلك وتحسنت حالتها بعد وصول القبودان پياله باشا بالاساطيل من سواحل ايطاليا

وبعد وصول السلطان الى الاستانة أرسل له مكسيمليان ملك النمسا سفارة مخصوصة مركبة من خواصه وأمرائه وهم انطوان وزا بنوس الدلماسى وكرستوف وتفنباخ والبرت وايليس وبعد أن هنؤا السلطان بجلوسه نيابة عن ملكهم طلبوا ترك العداوة وتجديد المسالمة بين الطرفين فعقدت بذلك معاهدة فى أوائل رمضان سنة ٩٧٥ ﻫ (١٥٦٧ م) مضمونها أن ملك النمسا يستمر على دفع الجزية السنوية التى مقدارها (٣٠,٠٠٠) دوقا كما كان وبقاء الروابط القديمة على ما كانت عليه وأن تعترف النمسا أيضا بتبعية أمراء ترنسلفانيا والافلاق الى الدولة العلية وتجددت أيضا الهدنة مع ملك پولونيا واعترف الباب العالى بالتحالف الذى بين ملك پولونيا وأمير البغدان وغير ذلك وكل ذلك بمساعى صقوللى محمد باشا الذى لولاه لفشلت الدولة وارتبكت أحوالها وبعد ذلك زينت دار الخلافة فرحا لهذا الانتصار بأمر السلطان وأرسل كل من طهماسب شاه ايران وأمراء الاردل والافلاق والبغدان سفراء يهنؤن السلطان بالجلوس كما أن سفراء فرانسا والبنادقة هنؤه خارج استانبول قبل ذلك بينما كان بجهات بوسنه

وفى أوائل جلوس هذا السلطان عصته عرب البصرة وخرجوا تحت قيادة أحد مشايخهم المدعو ابن عليان فجهز عليهم العساكر الكافية وأرسلها تحت قيادة اسكندر باشا بكلربك ديار بكر وخرج لحربهم أيضا جانبولاد بك بعساكر حلب وأوربا بحرا فى خمسمائة وخمسين سفينة فى نهر الفرات وبعد وقائع عديدة تمكن العثمانيون من اخضاع تلك القبائل وأذعن ابن عليان المذكور لدفع فريضة سنوية الى خزانة البصرة قدرها ١٥٠٠٠ من الذهب (٩٧٥ ﻫ) وفى السنة التالية سارت الجيوش تحت قيادة سنان باشا الى مصر لاتمام فتح بلاد اليمن وقهر ثوارها وطرد المتغلبين من البرتقال عليها وبعد عدة وقائع انتصروا على المتغلبين والمتمردين وأخرجوا البرتقاليين منها

وملكوا صنعاء واعترف سلطانها الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى بالحكومة العثمانية ثم عين سنان باشا عليها أحد القواد المسمى عثمان باشا واليا ثم عاد سنان باشا ظافرا

ثم بعث السلطان اسطولا لتسكين الثورات التى قامت بجهات يانيه وطرابلس الغرب وبعد اعادة السكينة الى تلك الجهات عزل پياله باشا عن رياسة البحرية وولاها مؤذن زاده على باشا المعروف بالشهيد ولما كانت فرانسا تسعى من زمن فى زيادة نفوذها وتقربها من المملكة العثمانية بذلت مساعيها سنة ٩٧٦ ﻫ (١٥٦٩ م) حتى نالت تصديق السلطان على الاتفاقيات التى تمت بين الدولتين فى زمن السلطان سليمان ونالت من السلطان سليم تأييد الامتيازات القنصلية وأضيف عليها مواد منها معافاة كل فرنساوى من دفع الضريبة الشخصية وأن يكون لقناصل فرانسا حق البحث عمن يكون لدى العثمانيين فى حالة الرق من الفرنسيس واطلاق سراحهم ومنها أن يرد السلطان ما تغتصبه سفن قرصان الممالك التابعة له من سفائن فرانسا ومعاقبة المعتدى ومنها أن تساعد السفائن العثمانية سفن فرانسا متى أصابها خطر فى سواحل الدولة ومنها أن يكون للفرنسيس جميع ما لاهل البنادقة من الامتيازات ولزيادة توثيق عرا الاتحاد بين الدولتين اتفقتا على ترشيح هنرى دوكالو أخى ملك فرانسا لكرسى بلاد پولونيا ليكون للدولتين ظهيرا ونصيرا على النمسا والروسيا ولما تم ذلك دخلت پولونيا تحت حماية الدولة بالفعل وبنوال فرانسا هذه الامتيازات قبضت على موارد التجارة ومصارفها بالبحر الابيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة وأخذت ترسل بناء على هذه الامتيازات عدة ارساليات دينية حيث يوجد المسيحيون ببلاد الدولة خصوصا الى بلاد الشام وأمدتهم بالنقود وأظلتهم بنفوذها ليسعوا فى جلب القلوب نحوها وتعظيم اسمها وشأنها لديهم ولقد كانت هذه الامتيازات والحق أقول على ما فيها من زيادة المواصلات والتسهيلات والتعارف من الاسباب التى أدت بالدولة العثمانية الى حالة الضعف وذلك لتداخل القناصل والسفراء فى أعمال الدولة الداخلية بدعوى رفع المظالم وإجراء العدالة ومحو التوحش وابادة التعصب وغير ذلك من الالفاظ والاقوال التى اتخذوها سلاحا لهم فى بلاد الشرق عموما وفى الدولة العثمانية خصوصا وقد كان من نتائج هذه الامتيازات أن جرت كل دولة من دول أوروبا اليها طائفة من نصارى الشرق تحركها عند اللزوم وتصرفها فى منفعتها متى شاءت وحيث شاءت فلا حول ولا وكان أضر نتائج هذا التداخل أن استعملت دول أوروبا الارساليات الدينية لحفظ الجنسية واللغة عند كل شعب مسيحى حتى انهم متى رأوا من الدولة ضعفا أمكن لهذه الشعوب طلب الاستقلال بمساعدة تلك الدول أو الانضمام اليها كما حصل ذلك مرارا ولا زال يحصل للآن وقد ساعد عليه اغفال الدولة أمر هذه الطوائف وعدم التعرض لها فيما تلقيه من الدسائس وتبثه من المبادئ الفاسدة مما سنأتى على ذكره فى محله

فتح جزيرة قبرس — كانت جزيرة قبرس تابعة للبنادقة وكثيرا ما حدث من أهلها ما يخالف المعاهدات كتعرض سفنها للسفينة التى كانت تقل دفتردار مصر وغير تعديات سفن قرصانها على السفن التجارية العثمانية فى سواحل مصر وسوريه وفينيقية وما سبق منها مدة ولاية هذا السلطان على كوتاهيه عندما كان ولى عهد واغتصابها خيوله والاشياء التى كان ابتاعها لنفسه من مصر ولم يتمكن من استردادها منهم الا بعد مشاقة جمة فلما صعد على كرسى السلطنة وحدث من سكان هذه

الجزيرة ماحدث صمم على اخضاعها خصوصا وانها كانت من قبل للمسلمين من عهد خلفاء بنى أمية فجرد عليها الجنود وأفتى بجواز ذلك شيخ الاسلام أبو السعود أفندى وفى ١٥ الحجة من سنة ٩٧٧ هـ (١٥٧٠ م) أقلعت الاساطيل العثمانية وكانت مركبة من ٣٦٠ سفينة تحت قيادة القبودان الاعظم مؤذن زاده على باشا وكان بها عساكر الاناضول والروملى وأكثر بكوات الصناجق ونحو ٥٠٠٠ من الانكشارية تحت قيادة السردار الوزير لالا مصطفى باشا وأمر السلطان وزيره الثالث پياله باشا بمحاصرة الجزيرة بالسفن الحربية لقطع الامدادات الخارجية عنها ثم وصلت الاساطيل والعساكر الى ليمان طوزله من الجزيرة المذكورة واستقرت آراء القواد على حصار قلعة لفقوشه (Nicosie) أولا اذ هى قاعدة الجزيرة وبعد حصارها أياما دخلوها عنوة وقتلوا كثيرا من سكانها ولما شاهد أهل كرينه (Gétrina) ذلك خافوا وسلموا بدون قتال ثم حاصروا قلعة ماغوسه (Famagoustie) وكانت من أمنع الحصون وأصعب المعاقل ولما اشتد الحال بالمحصورين أرسلوا يستنجدون ملوك أوروبا فلما لم يغثهم أحد سلموا بالامان ودخل العثمانيون ماغوسه وغنموا منها غنائم كثيرة ورحل كثير من أهل الجزيرة عنها ثم ان پياله باشا ترك قسما من العمارة للمحافظة على السفائن الثقيلة الراسية فى المينا السابق ذكرها وأقلع بالباقى الى سواحل الشام لنقل العساكر الآتية من حلب مددا للعساكر العثمانية وبعد تمام الفتح عاد پياله باشا بالغنائم الى استانبول لدخول فصل الشتاء ولاصلاح بعض السفن وتجهيزها وبصحبته القبودان على باشا وترك بالجزيرة أربعين سفينة تحت قيادة عرب أحمد بك رودس وبقى بالجزيرة أيضا السردار مصطفى باشا لفتح ما بقى من قلاعها وفى خلال محاصرة باقى المدن خرج براغادينو البندقى صاحب قبرس بملابسه الارجوانية وأتى الى المعسكر وقابل السردار وتطاول عليه بألفاظ خشنة ولما كان أمر بقتل أسرى العثمانيين قبل أن يسلم أمر السردار أيضا باخراج من بالسفن من أسرى الافرنج وقتلهم بحضوره ثم أمر به فقتل هو أيضا

محاربة اينه بختى المشهورة بواقعة لاپانتو — لما دخل فصل الربيع من سنة ٩٧٨ هـ خرجت العمارة العثمانية من خليج استانبول وكانت مركبة من ٢٥٠ سفينة حربية تحت قيادة القبودان على باشا وبها السردار الثانى برتو باشا حاملة مأكولات وذخائر حربية لعساكر قبرس وبعد أن أخرجتها عادت الى مينا مرمريس المقابلة لجزيرة رودس لمراقبة مراكب العدو التى أشيع أنها ستحضر للجهات المذكورة ولما تم افتتاح جزيرة قبرس سافرت الاساطيل الى كريد والتحق بها أثناء سفرها أسطول باى الجزائر اولوج على باشا وكان مؤلفا من عشرين سفينة حربية ثم ذهب الجميع الى سواحل البانيا ثم هاجمت العمارة جزيرتى كورفو وكفالونيا (Céphalonie) وكانتا للبنادقة وأخربتهما واستولت على مدينتى (أولكون) (Dulcigno) وبار (Antivari) وبعد أن أقامت العمارة بتلك الجهات زمنا لتوطيد الامن وتقوية دعائم السكينة ولم تصادف للاعداء سفنا عادت فدخلت جون اينه بختى ولحلول زمن الشتاء تفرق بعض ملاحى السفن وكثير من الانكشارية التى بها فحدث من ذلك نقص فى عساكر وطوائف السفائن

وقد كانت أساطيل الدول المتحدة فى ذلك الوقت الآتية لمساعدة البنادقة مجتمعة بمينا مسينى

وكانت

وكانت مؤلفة كما يأتى فكانت اساطيل اسبانيا وعددها ٧٠ تحت قيادة الاميرال دون جوان وأساطيل البابا تحت قيادة الاميرال مارك انطوان مركبة من ١٢ سفينة وأسطول صقلية تحت قيادة الاميرال جاندوكو ودوم مركب من ثمان سفائن وعمارة البنادقة تحت قيادة الاميرال ونيبرو مركبة من ١٠٨ سفائن وأسطول نابولى مركب من ٣٢ سفينة وأسطول مالطة مركب من ست سفائن وأسطول فرانسا مركب من ثلاث سفائن فيكون عدد الجميع ٢٣٠ سفينة وكانت القيادة العامة لاكبر الاميرالات وهو دون جوان أميرال اسبانيا المتقدم وكان من سفن البنادقة ست سفائن من نوع الغالى مدافعها كبيرة بالنسبة لحجمها ذات عيار كبير وأما سفن الاسبانيول فهى وان كانت جسيمة قوية جيدة الآلات والاسلحة الا أنه لم يكن معها ماعونات كالبنادقة

وفى ٧ جمادى الاولى من سنة ٩٧٩ هـ لما ظهرت عمارة العدو المذكورة أمام خليج اينه بختى عقد القبودان الاكبر مؤذن زاده على باشا مجلسا مؤلفا من كل من برتو باشا السردار وباى الجزائر أولوج على باشا وباى طرابلس الغرب جعفر باشا وخير الدين باشا زاده حسن باشا ومن نحو خمسة عشر من بكوات صناجق السواحل وبعد أن تداولوا اتفق الجميع على وجوب المدافعة والمحاربة وهم داخل الخليج لتساعدهم القلاع بنيرانها للنقص الموجود بين عساكر السفن وقلة الادوات اللازمة لها فلم يقبل القبودان منهم ذلك الرأى بل خالفهم فيه مخالفة كلية ليظهر جسارته مع أنه لم يسبق له رئاسة وقائع بحرية مهمة ولما كان هو صاحب الرئاسة العمومية التزم أعضاء المجلس موافقته ظاهرا ثم تقدم اليه أولوج على باشا وكان أرسخ منه قدما فى الفنون الحربية البحرية وقال له اننا اذا أخرجنا العمارة لمحاربة الأعداء يلزمنا أن نقابلها على بعد من البر لتتمكن السفائن من اجراء حركاتها بالسهولة وهو رأى صائب خصوصا لسفن الشراع التى يلزمها ميدان واسع للدوران فلم يقبل القبودان منه هذا الرأى أيضا وفى اليوم العاشر من الشهر المذكور أصدر القبودان باشا أوامره لعموم أساطيل العمارة فخرجت قبل الزوال من داخل الخليج المذكور وكانت عمارة الدول المتحدة راسية بجوار جزيرة كارزولارى الكائنة فى مدخل جون باتراس الواقع شمالى بلاد مورة وبعد أن عبى العثمانيون أساطيلهم على الشكل الحربى المعلوم اذ ذاك واصطفت أيضا أساطيل المتحدين وأخذ كل من الفريقين فى تشجيع جنوده وقواده تقدمت العمارتان نحو بعضهما ولما نقارنتا خرج من وسط العمارة المتحدة من جانبى سفينة الاميرال جوان السفينتان الراكب فيهما ونيبرو وكولونه وكانا رئيسين لفرقة العمارة وعرضا أنفسهما على أمراء العمارة العثمانية فقابلتهم العمارة العثمانية بالمثل وخرج كل من سفينتى برتو باشا والقبودان على باشا من وسط العمارة العثمانية ليظهرا للعدو مكانهما وكانت هذه الحركة غير صائبة لان دون جوان لما رأى جسارة قومندان العمارة العثمانية اتخذ مناورة أخرى للاحتراس من حركتها وكان القبودان العثمانى غافلا عن هذه المناورة لان دون جوان قدم الست ماعونات التى كانت فى قلب عمارته وهى المجعولة كقلاع عوامة الى المقدمة وأخر باقى سفائن الفرق خلف الست ماعونات التى ذكرت فابتدأ القبودان باشا بالحملة عليها ولما كان أولوج على باشا مشاهدا حركة العدو نادى على القبودان باشا بترك المواعين وأن يأمر بالحملة على سفائن الجناحين فلم يقبل منه ذلك قائلا لا أقبل على نفسى أن يقال ان العمارة العثمانية هربت من أمام سفن الاعداء فكان هذا الخطأ سببا فى ضياع كثير من

السفن العثمانية لان المواعين المذكورة قامت بخدمة عظيمة لعمارة العدو فكانت كمتراس لها أمام سفائن العثمانيين ومع ذلك فان السفن العثمانية لم تتأخر لشدة النيران بل تمكنت من مضايقة العدو من الجناحين وحملت على خط حربه وتغلبت الى ان دخلت وسط سفنه ثم حملت سفينة قبودان باشا على سفينة دون جوان المذكور فحضرت سفائن بعض الامراء لمساعدة أميرالهم فتقدمت سفينتان من فرقة القبودان باشا وحملتا على سفائن الامراء التى تقدمت فكان لهذه السفن فى القتال منظر يهول من يراه وقد امتدت الحرب ساعتين أصيب فى خلالهما على باشا القبودان عندما كان يبحث عن دون جوان وفى الاثناء تقدم المركيز زانطه كروس بفرقته الاحتياطية واستولى على سفينة قبودان باشا وكان مطروحا على ظهرها فقطع رأسه من جسده وعلقها على السران (الخشبة الموضوعة عرضا بالسارية) ولما رأت السفن العثمانية القريبة رأس قبودانها حصل عندها اضطراب شديد تسبب منه انهزام الجناح الايمن أما الجناح الآخر فكان فيه أولوج على باشا منصورا بفرقته على فرقة جان اندريا وكان تمكن من تشتيت مراكبه واستولى على ١٥ سفينة من سفن البنادقة ومالطة وقطع بنفسه رأس جاندو كوردو أميرال مسينى ومزق شمل الفرقة التى كانت معه أيضا أما فرقة البنادقة التى كانت أمام الجناح الايمن للعثمانيين تحت رئاسة الاميرال بار باريغو فانها خسرت خسائر جسيمة ومات فيها الاميرال بارباريغو المذكور وخسرت مراكب العثمانيين التى كانت فى قلب الفرقة فى الجناح الايمن خسائر بليغة أيضا

ولما شاهد أولوج على باشا قومندان الجناح الآخر قتل القبودان باشا وأن الدونانما العثمانية قد لحقتها الخسائر العظيمة أخذ الاربعين سفينة التى كانت بمعيته وسحب السفن التى استولى عليها من سفن العدو وخرج بها الى وسط البحر بعدما كسر خط حرب الفرقة التى كانت تحاول منعه عن الخروج أما باقى السفن التى خلصت من الجناح الايمن ومن فرقة الوسط فاقتربت من الساحل وهناك غرزها قوادها فى الرمال حتى لا يتمكن العدو من الاستيلاء عليها وقد ضاع للعثمانيين فى هذه المحاربة مائتا سفينة حربية منها ٩٢ غرقت والباقى غنمه العدو وتقاسمته الاساطيل المتحدة وقتل بهذه الواقعة من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠٠ بين جنود وقواد وقد ذكرت تفصيلات هذه الواقعة المهمة فى تواريخ أوروبا ومنها يعلم أن تلفيات العدو كانت ١٥ غالى و ٨٠٠٠ جندى بما فيهم كثير من الامراء والبرنسات وقد ذكر المؤرخ دون كويكز ون الاسبانيولى وكان بعمارة الدول المتحدة هذه الواقعة بعبارة تقرب كثيرا من التى ذكرناها قال بعض مؤرخى أوروبا انه بعد ما عادت العمارات الى مين الحكومات التابعة لها أخبرت أن العثمانيين لا تقوم لهم فى البحار قائمة بعد ذلك أما أولوج على باشا فانه بعد أن خرج من وسط المعركة جمع ما تشتت من سفن العمارة واستصحب معه المراكب التى كانت معينة للمحافظة على الجزائر وسحب المراكب التى ضبطها من العدو فكانت جميعها ٨٠ سفينة بها كثير من الاسرى ثم عاد بالجميع الى الاستانة فكافاه السلطان على شجاعته برتبة قبودان باشا ولقبه قليج على باشا ولما كان بياله باشا لا يزال على قيد الحياة فى هذا الوقت أصدر السلطان أمره اليه والى قليج على باشا بأن يجهزا العمارة ويسرعا فى بناء السفن لتلافى ما حصل وقد تمكنا من تجهيز مائتى سفينة جسيمة وبناء نحو ثمان من نوع الغالى ثم سلحاها بالمدافع الضخمة حتى صيراها من أقوى السفن التى كانت للدول المتحدة فى واقعة لبانتو المذكورة

وقد ذكر المؤرخون هذه الاستعدادات فقال المؤرخ كريسى (Cressy) فى حوادثه عن واقعة ليبانتو إن الدول الاوروباوية التى اتحدت فى الواقعة المذكورة ارتاح بالها بعد هزيمة العثمانيين واشتغلت فى زمن الشتاء ببناء الكنائس شكرا على انتصارها فى ليبانتو أما العثمانيون فقد عادوا مهتمين فى فصل الشتاء ببناء وتشييد السفن الجسيمة فى دور صناعاتهم اه وفى الواقع أن الدولة العثمانية لم يسبق لها قبل هذا التاريخ خسائر بحرية فى الوقائع السابقة كالتى حصلت لعمارتها فى واقعة ليبانتو وهذه فلذلك حصل منها الاهتمام الذى لا مثيل له فى بناء سفن العمارة فى فصل الشتاء وصرفت عليها أموالا باهظة حتى أنجزتها فى زمن وجيز ولما كانت الاستانة غير مستعدة لبناء عدد كثير من السفن فى زمن قليل التزمت بتوسيع دار صناعتها المذكورة فأخذت كثيرا من المساكن الموجودة بخاص باغچه بالاثمان واضافتها اليها حتى صيرتها واسعة بقدر الكفاية ووضعت عليها القزاقات أى المزالق التى تبنى عليها السفن وعملت جملة مخازن وبذلك تيسر لها فى سنة ٩٨٠ ﻫ (١٥٧٢) اخراج عمارة مشكلة من ٢٥٠ سفينة حربية تحت قيادة قلنج على باشا مظهرة للدول البحرية انها عادت لمركزها القديم فى البحر المتوسط الابيض وبعد زمن يسير وصلت الدونتما العثمانية الجديدة الى مياه ناوارين بجزيرة مورة ولما علم البنادقة الذين كانوا بتلك الاطراف بحضور العمارة العثمانية ولوا الادبار بعد ما فعل بجد قلنج على باشا المشار اليه لزوما لتعقبها سيما وان الملاحين الذين كانوا موجودين معه لم يكونوا على درجة كافية من التمرينات الحربية الآن عمارة البنادقة بعد فرارها عادت مع عمارة اسبانيا بقصد محاربة الدونتما العثمانية ولما رآهما قلنج على باشا اقترب بسفنه من الاستحكامات الموجودة بالجهة المذكورة واستعد للمدافعة بالسفن والاستحكامات معا فلهذا لم تتجاسر عمارة العدو على الدونمنه فأقام يدرب عساكره على التعليمات البحرية ويتمم استعداداتهم فيها حتى صيرهم على درجة كافية من المهارة ثم عاد فى زمن الشتاء بالاساطيل لاستانبول وعند عودته أمر السلطان جميع دور الصناعة بالاهتمام فى تشييد وبناء السفن فلم يمض زمن طويل حتى صارت الاساطيل العثمانية أقوى وأعظم مما كانت عليه قبلا

وفى سنة ٩٨١ ﻫ (١٥٧٣ م) خرجت العمارة العثمانية الى بحر سفيد وكانت مشكلة من ٢٥٠ سفينة مختلفة و ١٢ ماعونة تحت قيادة قلنج على باشا وتعين الغازى بياله باشا سردارا عليها فهاجمت سواحل ايتاليا وغزت كثيرا من حصونها وقد دوى رنين هذا الخبر فى آذان دول أوروبا البحرية التى كانت مشتركة فى واقعة ليبانتو فلم تحرك ساكنا ثم تقدمت الاساطيل العثمانية ودمرت جميع حصون سواحل بلاد البنادقة فالتزمت جمهوريتها الطلب الصلح فأجيب طلبها وعقد بين الطرفين معاهدة [1] بذلك ونقدت فى الحال مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ من الذهب للعمارة العثمانية

(١) أولا تتعهد جمهورية البنادقة أن تدفع مبلغا من المال يعادل ما كانت تعهدت بدفعه للسلطان سليمان عقب محاربة كورفو فى ظرف ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع وقدر هذا المبلغ بثلثمائة ألف من الذهب نظير مصروفات حملة قبرص ثانيا — تعاد قلعة صوبوتو بكافة مدافعها الى جمهورية البنادقة ثالثا — مبلغ الخمسمائة من الدوكات التى تدفعها سنويا جمهورية البنادقة للسلطنة فى مقابلة احتلالها جزيرة زانطه يصير بالغه لالف وخمسمائة رابعا — تتعهد جمهورية البنادقة للسلطان سليم بالمحافظة على شروط المعاهدة التى أعطاها السلطان سليمان خامسا — تعفى جمهورية البنادقة من الجزية السنوية التى كانت تدفعها عن جزيرة قبرص سادسا — تبقى الممالك الكائنة بجهات البانيا ودلماسيا بين الطرفين على حالتها القديمة سابعا — ترد أو تضمن جميع السفائن التجارية والاموال التى ضبطت من تجار الدولتين المتعاهدتين فى أثناء الحرب الى أربابها اه من الخبر الصحيح عن هامير

بصفة غرامة حربية تعهدت بدفع جزية سنوية للسلطنة صار الاتفاق على مقدارها وبعد ان صادقت حكومة البنادقة على المعاهدة المذكورة عادت العمارة الى الاستانة وكان هذا الحرب آخر حرب كان به پياله باشا الشهير حيث توفى بعد قليل (٩٨٥ هـ) ودفن فى قبره الذى بناه لنفسه فى جامعه بجهة قاسم باشا باستانبول

قال المؤرخ كريسى فى تاريخه عن واقعة البنادقة الاخيرة هذه ان الدول المتحدة ساعدت البنادقة فاكتسبت محاربة واحدة يعنى بها واقعة لبانتو الا أن نتيجتها ان أصبح العثمانيون حكاما على البحر المتوسط الابيض باسره واستشهد على ذلك بالمعاهدة المتقدمة التى خضعت لها البنادقة بعد أن دمرت العمارة العثمانية حصونها ولم يفقد العثمانيون من أملاكهم شيأ فى تلك الحروب وقال أيضا انه لما بلغ حكومات أوروبا صعوبة الشروط التى التزم البنادقة بالقيام بها لحقهم كدر عظيم وقالوا ان العثمانيين قد اكتسبوا واقعة لبانتو ثانية وبعد تقرير الصلح مع البنادقة أرادت اسبانيا أن تشتغل لنفسها بنفسها فذهب أمير الهادون جوان باساطيلها وهاجم تونس واستولى على مدنها وقلاعها ولما علم بذلك السلطان اهتم له جدا وأمر بالاستعدادات الحربية فأخذت دار الصناعة فى العمل بنشاط لتجهيز السفائن وتسليحها بحيث لم ينته فصل الشتاء حتى جهزت الاساطيل والجيوش وفى سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) أظهر حاكم البغدان العصيان على الدولة وامتنع عن دفع الخراج فارسلت الجيوش لقمعه وبعد وقائع هائلة قبض عليه وضرب عنقه عقابا له وردعا لامثاله

صيرورة تونس ولاية عثمانية - سبق ذكر الحروب التى جرت بين خير الدين باشا باربروس والسلطان حسن الحفصى والتجاء السلطان حسن لشارلكان امبراطور اسبانيا ثم تنازله عن بعض الجهات للاسبانيول الذين ردوه الى تخته وكان الاسبانيول بنوا قلعة متينة فى محل حلق الوادى وعينوا لها أربعة من المحافظين وبعد مدة توفى السلطان حسن المذكور وخلفه ولده السلطان حميد ولما كان ظالما عاتيا كابيه نفرت منه الامة وكاتبت القبودان قلنج على باشا مذ كان واليا على الجزائر واتفق وامعه سرا على خلع السلطان حميد وكان القبودان المذكور أطلع الدولة على هذا الامر فامدته بالسفن والجنود وأمرته بفتح تونس فحمل على تونس وهرب السلطان حميد كابيه الى الاسبانيول وعينت الدولة جعفر باشا واليا لتونس وأبقت معه الجنود الكافية ولكن بقيت قلعة حلق الوادى المذكورة بيد الاسبانيول ولما حضر الاميرال دون جوان سنة ٩٨١ هـ باسطوله المركب من ١٥٠ سفينة وحاصر تونس التزم جعفر باشا بالرجوع الى مدينة القيروان لعدم قدرته على المقاومة لقلة جنوده فعاد السلطان حميد عند ذلك لكرسيه وشرع يعامل الاهالى بالقساوة انتقاما منهم على ما فعلوه معه ولما رأى الاسبانيول انه يسعى فى نقض الشروط التى بينهم وبينه أحضروا أخاه محمدا وكان محبوسا فى مسينى من أعمال صقلية وأجلسوه على التخت مكانه فقبض على أخيه وحبسه وألزمه مساعدوه أيضا التوقيع على معاهدة من ضمنها أن يكون تحت حماية اسبانيا وان يحتل بلاده ثمانية آلاف من جنود اسبانيا لحمايتها وغير ذلك من الشروط ولما علم السلطان سليم بما فعله الاسبانيول صمم على فتح تونس كما قلناه وعين الوزير سنان باشا سردارا لجيشها وفى ٢٣ محرم سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) أقلعت العمارة العثمانية من استانبول وكانت مركبة من ٢٦٠ سفينة حربية و ١٥٠ ماعونة و ١٥ غليونا تحت قيادة القبودان قلنج على باشا قاصدة مياه تونس

ومرت

ومرت في طريقها بايتاليا فغزت جملة قلاع وبلاد منها ومن جزيرة صقلية لمساعدتهما أعداء الدولة عليها في كل وقت وبذلك انتشر خبر قدوم الدونما العثمانية عند دول أوروبا وفي تلك الاثناء كان استولى طورغود باشا على طرابلس الغرب ويقال ان عمارة سنان باشا مرت بها عند ذهابها لتونس وساعدته على فتحها وفي أوائل ربيع الاول من السنة المذكورة وصل سنان باشا الى تونس وأخرج عساكره الى البر بلا ممانع ثم أخذ في محاصرة قلعة حلق الوادي ولم يستول عليها الا بعد مضى ٣٣ يوما من حصارها وقتل من حاميتها نحو ستة آلاف جندي وأسر ألفين وغنم منها خمسمائة مدفع وكثيرا من آلات الحرب ولما رأى ان إزالة تلك القلعة أصوب من بقائها أمر فوضعوا تحتها ثلاثين لغما من البارود ودمروها تدميرا وبعد استيلائه على باقي الاستحكامات دخل بالجنود المدينة في رمضان من تلك السنة ونادى في الناس بالامان فهدأروعهم وعادوا الى أعمالهم وأقيمت الخطبة باسم السلطان وضربت السكة باسمه أيضا وعين أحد القواد محافظا عليها وأبقى معه قوة كافية لحفظها وبعد ان رتب الحكومة وجعل لها ما يناسب من القوانين وصارت تونس من وقتئذ ايالة عثمانية ودخلت في عداد الوجاقات كالجزائر وطرابلس الغرب ثم عاد هو وقلنج علي باشا بالعمارة الى دار الخلافة ومعهم ما اكتسبوه من الغنائم ولما وصلوا رحب السلطان بهم وكافأهم وكافة من كان معهم من الجنود

وكانت وفاة هذا السلطان في سنة ٩٨٢ هـ وعمره اثنتان وخمسون سنة وسبب وفاته انه انشأ حماما بقصره وأحكمه وأبدع فيه غاية الابداع حتى صار لا مثيل له وبينما هو يمشي فيه اذ زلقت قدمه فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياما ثم توفي وكان أوصى بالملك لولده الاكبر السلطان مراد خان الثالث وكان رحمه الله شهما شجاعا ذكيا تقيا محبا للصالحين ضاعف مرتبات الحرمين الشريفين وشيد مسجدا في ادرنة (٩٨١ هـ) وكان محبا للعمارة صنع جسرا جسيما في قصبة چكمجة وأصلح جامع اياصوفية ولم يكن حصل به اصلاح من تاريخ انشائه وكان تخرب من الزلازل وأضاف اليه جملة مبان ولقد كانت أحوال السلطنة في أول أيامه مرتبكة الا ان وجود الوزير الشهير صوقللي محمد باشا وما كان عليه من المعارف الحربية والسياسية مهد تلك الارتباكات بل أزالها فعظم اسم الدولة وزادت مهابتها في قلوب أعدائها وفي أيامه طلب أهالي بلاد قازان من الدولة بواسطة سفرائهم ايصال نهر تن الذي يصب في البحر الاسود بنهر الاتل (ولغا) الذي يصب في بحر الخزر عند اطلال مدينة أزدرهان القديمة ليسهل عليها تسيير سفنها وجيوشها الى بلادهم مخافة استيلاء الروس عليهم فقبل السلطان مطلبهم وعين قاسم بك الچركسي والياعلى ايالة كفه من هذه البلاد وبعد ان خطط المهندسون ذلك العمل أرسلت الدولة الاساطيل والجنود اللازمة لمباشرة الحفر ولكن بعد ان فتح ثلث المسافة خاف خان القريم على بلاده ظانا ان هذا الفتح يضر به فأخذ في اثارة الفتن واخافة العساكر العثمانية من شدة شتاء تلك البقاع حتى جعلهم يتمردون ويتركون العمل فاضطرت الدولة لاعادتهم وبذلك ضاع عليها ما صرفته وما كانت تستفيده من الفوائد بعد ذلك

الفصل الثامن

من وفاة صوقللي محمد باشا الى وفاة السلطان احمد الاول

(٩٨٦ - ١٠٢٦)

١٢) السلطان الغازى مرادخان الثالث ابن السلطان سليم الثانى

(٩٨٢ - ١٠٠٣)

لما توفى السلطان سليم كان ابنه السلطان مراد بمدينة مغنيسيا والياً عليها فاخفى الصدر الاعظم خبر موت السلطان أحد عشر يوما الى ان حضر وجلس على تخت أجداده وكان عمره وقتئذ عشرين سنة وبعد دفن أبيه فى تربته المخصوصة صرف للجنود عطايا الجلوس المعتادة وقدرها ١١٠,٠٠٠ من الذهب فمنع بذلك الاضطرابات التى كانت تحدث عادة اذا تأخر صرف تلك الهبات واقعة وادى السبيل (٩٨٣ هـ) - اعلم انه فى السنة الثانية من جلوس السلطان مراد جهز دون سبستيان ملك البرتقال حملة قوية ظاهرها مساعدة عم أمير فاس الشريف محمد المتوكل السعدى ونقل الجيوش بالاساطيل العديدة الى بلاد فاس كما سبق (صحيفة ٣٢٠) فعندها استنجد الشريف عبد الملك بالسلطان مراد فأمر السلطان رمضان باشا بكلربك الجزائر بالاخذ بناصره بالقوة بعد ان يتوسط فى الصلح أولا ليمنع اراقة الدماء ولما لم تفلح مساعى الوالى المذكور فى التوفيق بين المتخاصمين تلاقى جيش والى الجزائر ومن انضم اليه من شيعة عبد الملك بجيش سبستيان ومحالفه الشريف محمد المتوكل وبعد قتال شديد دار بين الطرفين هزم جيش سبستيان ومحالفه وقتل سبستيان وحصل بعد ذلك ماتقدم ذكره بتاريخ مراكش ولم يقم للبرتقال بعد ذلك قائمة وحيث تم لملك فاس ما يريد بمظاهرة السلطان أرسل له سنة ٩٨٤ مكتوبا يشكره فيه ويدعوله بالنصر والتأييد ويعلمه بالانقياد اليه وأرسل مع سفيره هدية قدرها المؤرخون بمائتى ألف من الذهب وفى سنة ٩٨٣ (١٥٧٥ م) لما علمت الدولة العثمانية بان ملك پولونيا المدعو هنرى دى ڤالوا دوق بلاد انجو وأخو ملك فرانسا شارل التاسع ترك مقر حكومته وعاد الى فرانسا أوصت أعيان بلاد پولونيا بانتخاب اتين باتورى (Etienne Bathory) أمير بلاد الاردل (ترانسلڤانيا) التابعة للدولة العثمانية أميرا عليهم فانتخبوه وصارت بذلك بلاد پولونيا تحت حماية الدولة العثمانية وبعد ذلك عقدت هدنة بين الدولة والامبراطور رودلف ملك المانيا لمدة ثمان سنوات ذكرت فيها بلاد پولونيا ضمن البلاد التى للدولة حق السيادة عليها ومما يؤيد هذه السيادة استنجاد باتورى المذكور بالدولة عند اغارة التتار على بلاده وتعهد الدولة بمعاهدة رسمية بحماية تلك البلاد (٩٨٥ هـ ١٥٧٧ م) ولما كان الوزير الاعظم صقوللى محمد باشا سعى فى ايجاد السلم والصلح بين الدولة وممالك أوروبا جدد الامتيازات القنصلية لمملكة فرانسا والبنادقة وزاد عليها بعض بنود لمنفعتهما أهمها أن يكون سفير فرانسا مقدما على كافة سفراء الدول الاخرى فى المقابلات والاحتفالات الرسمية وتحصلت لذلك اليصابات (أزابيلا) ملكة الانكليز على امتياز خصوصى لتجار بلادها وهو انه يسوغ لهم ان يرفعوا العلم الانكليزى فى فرض الدولة وكان لايجوز لهم ذلك قبل الآن بل كانت السفن على اختلاف أجناسها عدا سفن البنادقة لاتدخل ثغور الدولة العثمانية الا وهى حاملة للعلم الفرنساوى كما قضت بذلك العهود التى أبرمت مع السلطان سليمان القانونى وابنه السلطان سليم الثانى وتجددت فى أوائل حكم هذا السلطان

الحملة على بلاد العجم — لما قامت الثورات فى بلاد العجم بين أولاد العائلة الملوكية عقب وفاة الشاه طهماسب كتب خسرو باشا والى أرضروم الى الدولة يعلمها بالحاصل فى بلاد العجم ويحرضها على فتحها فعين السلطان لالا مصطفى باشا فاتح قبرس وسر عسكر الشرق قائد الهذه الحملة فلما وصل الى أرضروم بالعساكر تقدم الى حدود العجم وحاربهم بجوار قلعة چلدير وقهر قائدهم طوقمان خان وبعد ذلك فتحت الجيوش العثمانية كرجستان ثم دخلت تفليس وتعين جعفر باشا محافظا لقلعتها وسنة ٩٨٧ هـ ساقت العجم أربع فرق لاعادة البلاد التى فتحتها الدولة فقابلهم عثمان باشا ابن أوزتمور وردهم على أعقابهم خاسرين وفى هذه السنة تعين لالا مصطفى باشا المذكور صدرا أعظم بدلا عن صوقللى محمد باشا الذى جلس فى دست الوزارة ١٥ سنة خدم فيها الدولة والملة بالصداقة والامانة مما خلد له أجل الذكر وأحسن السيرة وسيأتى أسباب قتله وما قيل فيه ولم يمكث هذا الصدر الجديد فى منصبه زمنا لانه عزل بسبب غلطته فى حروب العجم وتعين بدله سياوس باشا وأرسل فرهاد باشا بجيش جديد لحرب العجم وفى خلال ذلك جلس الشاه عباس على سرير العجم وطلب من الدولة عقد الصلح على شروط أن يترك للدولة العلية آذربيجان وشروان ولورستان وتبريز ويبقى ابن أخيه ميرزا حيدر رهنا فى استانبول على انفاذ ما تعهد به فقبل منه ذلك وأمضيت المعاهدة بين الطرفين سنة ٩٩٨ هـ ثم عاد فرهاد باشا منصورا ومعه ميرزا حيدر المذكور الى دار الخلافة

احوال البحرية فى المدة المذكورة — اعلم أنه فى مدة الاربع عشرة سنة الماضية كانت جمهورية البنادقة قد ضعفت من الحروب البحرية الكثيرة ومن الخسائر التى لحقتها من ضياع مستعمراتها فلهذا سارت فى طريق المسالمة مع الدولة مراعية ما بينهما من العهود والمواثيق أتم المراعاة وكانت اسبانيا اذ ذاك فى حرب مع فرانسا وانكلترة وكانت وجهت على انكلترة فى سنة ١٥٨٨ م عمارتها العظيمة الشهيرة باسم ارمادة وكانت مؤلفة من ١٥٠ سفينة حربية جسيمة الا أن الانجليز انتصروا عليها ومحوا تلك العمارة بتمامها وفقدت اسبانيا فى تلك الحروب أكثر من ثلاثين ألف مقاتل وبذلك كفت عن الحركات العدوانية على الدولة العلية فى البحر المتوسط الابيض وكانت حكومة ايطاليا والبابا مشتغلتين بمحارباتهما الداخلية ولهذا كانت الاساطيل العثمانية لا رقيب لها فى البحر الابيض المتوسط فى تلك المدة حتى ان اليصابات ملكة انكلترة طلبت من الدولة العثمانية قبل واقعة الارمادة المذكورة نجدة بحرية لمساعدتها فى محاربة اسبانيا وقد ذكر المؤرخ هامر الالمانى صورة المكاتيب الاربعة اللاتينية العبارة التى أرسلتها حكومة انكلترة للدولة العثمانية فى هذا الخصوص فالمحرر الاول تاريخه ١٥ نوفمبر (١٥٨٢ م) للوزير الاعظم محمد باشا الصوقللى والثانى فى سبعة من نوفمبر (١٥٨٧ م) أرسل مع سفير مخصوص معه بعض الهدايا للحضرة السلطانية والثالث فى شهر يونيه من السنة المذكورة تطلب به اخلاء سبيل الاسرى التابعين للدولة الانكليزية والرابع تاريخه ٧ ابريل سنة ١٥٨٨ م تبشر به الدولة بانتصار الاساطيل الانكليزية على الارمادة الاسبانيولية انتصارا تاما وكان السفير الانكليزى تحصل على وعد تام بالمساعدة من قبل الدولة العثمانية بناء على التماس دولته كما تقدم

ولكنه لاشتغال الدولة بحروب العجم لم تتمكن من القيام بما وعدت به الا أنه ورد في الاغاني والمراثي
التي نظمها الانكليز في هذه الواقعة المشهورة ذكر ذهاب فرقة من أساطيل العثمانيين لمساعدة
الانكليز وبالنظر الى ذلك نقول انه مما لا اشتباه فيه أن أحد رؤساء البحرية العثمانية المتطوعين
المدعو سنان رئيس رافق مع فرقة من الاسطول العثماني الاميرالين دريك وربلي في القتال الانكليزي
وكان الرئيس سنان هذا من الرؤساء المشهورين في البحرية وهو الذي حمل بفرقته المشكلة من ١٥
سفينة على مراكب البرتقاليين الذين أتوا سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) للاستيلاء على مملكة فاس
وهزمهم كما تقدم وقال بعض المؤرخين ان أهل البرتقال فقدوا في الوقائع البحرية التي حصلت اذ
ذاك عدة من أساطيلهم في مياه مراكش وقد مدح مؤرخو البحرية جسارة العثمانيين في البحار
اذ ذاك وكان يوجد بسواحل بلاد البربر كثير من فرق السفن التي اتخذت تلك البلاد ملجأ لها مثل
سفن الرئيس سنان هذا ولقد كانت هذه الوجاقات موجودة لزمن قريب وهم المعبر عنهم بقرصان
الجزائر كما لا يخفى على من له المام بالتاريخ وقال البروفسور رانك الانكليزي في تاريخه ان زمن
تقدم الانكليز في البحار على العثمانيين يبتدأ من زمن الملكة اليصابات وقد أصاب هذا المؤرخ
لان الشهرة والجسارة كانت للعثمانيين في البحر وكان تقدمهم في فن الحرب البحري لا يزال يعلو
ويعظم حتى جاء زمن اليصابات المذكورة فأهملت بعد ذلك الخصوصيات البحرية زمنا طويلا
وبعد ان كانت سفائن العثمانيين تتردد في البحر الابيض المتوسط بلا معارض أو رقيب أخذت في
التقهقر شيأ فشيأ حتى وصلت الى ما هي عليه الآن أعني ان سفنها صارت لا تبارح دار صناعتها
الا نادرا بخلاف الدول الاوربية التي أخذت في التقدم والترقي حتى بلغ تقدمها درجة عظيمة
فسيرت سفائنها وعماراتها الى أفريقية وأمريقيا وسواحل الهند واكتشفت الاماكن البعيدة
بلا مزاحم وتجولت في الجهات النائية بلا مشارك وأخذت ترسل اليها المهاجرين من بلادها
وتسكنهم اياها وتجعلها لهم وطنا وبذلك أكثرت من المستعمرات والنزلات ما جعلها تهتم في
تشييد وبناء السفن وتدأب في تحسين وتوسيع نطاق فن الملاحة حتى نبغ كثير من رجالها في
هذه العلوم وتوسعوا فيها توسعا بينا فامتدت بذلك تجارتها وانتشرت في سائر الاقطار شهرتها وأحكمت
دور صناعتها وأتقنت معاملها وصنعت من السفن الجسيمة الهائلة ما لم يسمع بمثله

مقتل صوقوللي محمد باشا — انه بعد حرب العجم المتقدم بسنة تقريبا تمكن رجل أبله مجذوب
من طعن الصدر الاعظم صوقوللي محمد باشا فقتله (٩٨٦ هـ) وكان رحمه الله من أشهر رجال
الدولة حافظ على نفوذها وعلو كعبها من أواخر عهد السلطان سليمان القانوني وتمكن بمهارته
العسكرية وقوته السياسية من قهر أعدائها وابرام الصلح مع أكثر دول أوروبا بالمعاهدة لها وأعاد
شأن العمارة البحرية العثمانية بعد ضياعها في واقعة اينه بختي وبتدابيره العالية فتح جزيرة
قبرس وأصلح المعوج من الادارة بما كان له من الاقتدار والكفاءة وقد نسب بعض المؤرخين
قتله لدسيسة بعض حاشية السلطان حسدا منهم وقد ترك هذا الوزير الدولة زاهية زاهرة قوية
مهيبة الجانب قال المؤرخون العثمانيون انه بموت صوقوللي محمد باشا انهدم ركن عظيم من الدولة
لان الصدور الذين أتوا بعده وقعت بينهم المنافسات والمشاحنات ولعظم منزلة هذا الصدر عند

العثمانيين جعلوا تاريخ موته من الحوادث الشهيرة وقد جاريناهم على ذلك ولطول مدة حرب العجم والمنافسات الحاصلة بين رجال الدولة أخذ الانتظام يفارق ربوعها ويسود الخلل والاضطراب فى اداراتها وبالنسبة للاكثار من الجنود حصلت المضايقة المالية فى صرف العلوفة حتى رأى الوزراء بتدابيرهم السقيمة انزال عيار النقود ونشأ عن ذلك نزاع بين أصحاب الاسواق وأصحاب العلوفات ولذلك ارتبكت الاحوال وتمرد بعض فرق الجيش ولما لم تتمكن الحكومة من ردعهم ازدادوا فى طغيانهم وخرجوا عن حدودهم

وبعد موت هذا الوزير الشهير كثر عزل ونصب الصدور فتعين بعده أحمد باشا (٩٨٧ هـ) ثم سنان باشا (٩٨٨ هـ) ثم سياوس باشا (٩٩٠ هـ) ثم عثمان باشا (٩٩٢ هـ) ثم حازم مسيح باشا (٩٩٣ هـ) ثم سياوس باشا ثانيا (٩٩٤ هـ) ثم سنان باشا ثانيا (٩٩٧ هـ) ثم فرهاد باشا (٩٩٩ هـ) ثم سياوس باشا ثالثا (١٠٠٠ هـ) ثم سنان باشا ثالثا (١٠٠١ هـ) وفى خلال ذلك توفى القبودان قلنج على باشا ودفن باستانبول بجوار الطوبخانة فى الجامع المنسوب اليه (٩٩٥ هـ) ووجهت رياسة البحرية للقبودان ابراهيم باشا وفى هذه السنة تمرد الانكشارية وقتلوا ناظر الضربخانة محمد باشا والدفتردار محمود أفندى وهاجموا السراى السلطانية وعظم شرهم فى دار الخلافة بدعوى ان النقود التى صرفت اليهم ناقصة العيار ومع ذلك فقد تمكنت بقية الجنود من ردعهم والقبض على نحو ألفين منهم لمعاقبتهم وكانوا رأس الفتنة ولما علم ملك بولونيا بهذه الاضطرابات شن الغارة فى سنة ٩٩٦ هـ على حدود المملكة العثمانية فأمر السلطان خان القريم بمحاربته وفى هذه السنة حضر من الغرب أولوج حسن باشا الشهير فى الاسفار البحرية فنصبه السلطان قبودانا للعمارة العثمانية وبعد ان أتم تجهيزها خرج بها الى سواحل البر بر ومات عند عودته سنة ٩٩٨ ودفن بتربة قلنج على باشا ووجهت رياسة البحرية بعده للقبودان شغاله زاده سنان باشا وخرج بالدونانما الى اينه بختى كالمعتاد سنويا بالمراقبة حركات سفن الدول الاوروباوية البحرية ولما استفحل أمر المجر فى حدود الدولة أرسل السلطان الصدر الاعظم سنان باشا بالجيوش لطردهم من أطراف بودين (١٠٠٢ هـ) وبعد حروب يطول شرحها انتصرت عليهم الجيوش العثمانية وفتحت قلاع سانمارتون وباباو يانق (١٠٠٣ هـ) ولما شق ميخائيل أمير الافلاق عصا الطاعة تقهقرت الجيوش العثمانية الى خلف نهر الطونة وانتصر الامير المذكور ثانية على الجيوش العثمانية بقرب جورجوفو واستولى منهم على مدينة نيكو بولى وغيرها

محاربات النمسا (١٠٠١ - ١٠١٥ هـ) - لما تمردت طائفة اليكجرية وقرع الاختلال أبواب الدولة رأى الوزراء أن من حسن السياسة اشغال العساكر بالمحاربات ثم الالتفات الى تقرير الاحوال وتسكين الاعمال فأوعزوا الى حسن باشا والى بلاد البوشناق بشن الغارة على بلاد النمسا لمساعدة ملكهم رودلف الثانى أمة المجر الا أنه لما تقدم جيش حسن باشا ببلاد كرواسيا وقع فى كمين للنمساويين فقتل هو وغالب عسكره ولم ينج منهم الا القليل ولما بلغ هذا الخبر الدولة العثمانية أخذ الوزراء يتذاكرون فى الديوان العالى فيما اذا كان الواجب الانتقام من دولة النمسا باعلان الحرب عليها أم لا وكان رأى كثير من الوزراء تجنب الحرب لما فيه من الارتباك حتى ان الشيخ سعد الدين افندى معلم السلطان قال فى ذلك المجلس انى أكتب تاريخا للدولة العلية وصلت فيه الى هذا

العصر وأريد أن أجعل خاتمته قولى ان أحد عبيد السلطان أخذ ابن أخى شاه العجم وأحضره بين يديه وان ملك النمسا عجل بدفع الجزية عن سنتين اثنتين وبذلك كان يرجح جانب الصلح غير ان سنان باشا وهو الصدر الاعظم فاتح بلاد اليمن لما كان يحسد فرهاد باشا على ماناله من الشأن والشهرة فى حرب العجم أراد أن يفوقه شهرة فرجح جانب الحرب وقال مخاطبا السعد الدين يمكنك أن تختم الوقائع بقولك ان أحد مماليك السلطان قبض على ابن أخى شاه العجم وأخذه رهينة وقبض مملوك آخر على ملك النمسا وأحضره بين يدى السلطان ويمثل ذلك من أقوال الغر ورفع باب الحرب مكفرا كل من خالفه فى رأيه هذا وأمر فى الحال بناء على أمر السلطان بسرعة التجهيزات وكان الفصل شتاء ثم تحرك الجيش الى أن ركز اعلامه بمدينة بلغراد ولما كان حرب النمسا هذا قد طالت مدته وامتدت أيامه أكثر من حرب العجم بحيث لم ينته الا فى زمن السلطان أحمد الاول (١٠١٥ م) بمعاهدة زيدوه تروك (Sitovatorok) رأينا من المناسب الكلام على ما كان له من النتائج مدة هذا السلطان

وقد كانت وفاة هذا السلطان سنة ١٠٠٣ هـ وعمره خمسون سنة ويروى أنه لانهماكه الزائد بالنساء خلف مائة ولد وخمسة عشر ولدا وكان له اشتغال ومشاركة ببعض العلوم وله شعر بليغ بالعربية والفارسية والتركية وكان يميل الى علم التصوف محبا للعلماء تقيا وفى زمنه تطرق الخلل الى نظامات وقوانين الدولة

---

(١٣) السلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد خان الثالث

١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ

لما مات السلطان مراد خان كان ولده السلطان محمد بمغنيسا واليا ولما حضر جلس على تخت أجداده بلا منازع وعمره اذ ذاك ٢٩ سنة ولما تمت له البيعة كان أول أمر اهتم به أن أمر بقتل جميع اخوته الذكور وكانوا تسعة عشر أميرا وكان لابيه عشر نساء حبالى فأمر باغراقهن فى البحر ثم التفت الى اتباع السراى السلطانية فشتت شملهم وحل نظامهم وكان يقصد بذلك استئصال الفتنة والوساوس حسبما وصل اليه عقله وأشار به عليه أخصاؤه وغير أيضا الوزراء فعين فرهاد باشا للصدارة وخليل باشا قبودانا للبحرية بدلا عن سنان باشا

محاربات النمسا - قد سبق ذكر حوادث الحرب التى اشتعلت نيرانها بين الدولة والنمسا وعصيان ميخائيل بك أمير الافلاق وسجسموند ملك الاردل ولما رأت الدولة استفحال أمر ميخائيل المذكور سيرت عليه جيشا تحت قيادة سنان باشا الكبير وعينت ابنه محمد باشا قائد الجيوش الجرار لصد النمساويين عن التقدم ومع ذلك فلم تأت هذه الاستعدادات بفائدة لان ميخائيل تقدم منصورا واستولى على قلعتى بكرش (Bucharest) وترغو وشته (Tergovist) بعد ان قتل حاميتهما وكان العثمانيون اهتموا بتحصينهما تحصينا جيدا وفى أثناء رجوع الجيش العثمانى كمن له جيش من جيوش الافلاق فى الطريق وخرج عليه فجأة فبدد نظامه وهزمه هزيمة منكرة ومن جهة أخرى فان الجيش الذى كان خرج لصد عساكر النمسا قهر وغلب لجهل قواده واستولى النمساويون على

قلعة

قلعة استرغون (١٠٠٤ هـ) ولما وقعت هذه الهزيمات بجيش السلطنة العثمانية رأى الوزراء وأرباب الدولة ان ذلك مخل بشأنها ووقارها سيما وان العساكر العثمانية التى دوخت جيوش أوروبا مدة قرون لا يتأتى لها الآن التغلب على أمير افلاق صغير فالح سنان باشا الصدر الاعظم وسعد الدين أفندى شيخ الاسلام على السلطان وحرضاه على الخروج الى الحرب بنفسه فقبل وأمر بالاستعدادات وقبل خروجه من استانبول توفى سنان باشا وتولى الصدارة مكانه ابراهيم باشا وكان متهما بالمداخلة فى قتل فرهاد باشا وبغير ذلك مما يشين بمقامه ولما وصل الجيش السلطانى الى بلغراد صار يقصد قلعة اكرى (Erlau) وبعد ان حاصرها نحو عشرين يوما تم له الاستيلاء عليها (١٠٠٥ م) ولما علم ملك النمسا مكسيميليان وسيجيموند ملك الاردل بخروج السلطان الى الحرب بنفسه جمعا عسكريهما وزحفا لملاقاة الجنود العثمانية ثم وقع بين الطرفين محاربة عظيمة بالمكان المدعو خاج أوه (Kerestez) سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) وقد استمر القتال طول النهار ولم تخرج جنود المتفقين من استحكاماتهم لقتال العثمانيين بل كانوا يراقبون حركات الجيوش العثمانية ثم انتهزوا فرصة فى الجيش العثمانى وخرجوا عليه على حين غفلة فاخترقوا صفوفه وبددوا جموعه وفر معظم الجيش وتقدمت خيالة الاعداء حتى صارت على مقربة من خيمة السلطان عند ذلك قابلهم خدام الخيمة وحراسها وقاوموهم أشد المقاومة وأخذ الامراء يعملون الحيلة فى خلاص السلطان من هذه الورطة الا أن الشيخ سعد الدين افندى شيخ الاسلام أخذ يحرض السلطان والامراء على الصبر والثبات الواجبين فى هذا الوقت وانهما سبب الفوز والنجاة ويشجع الوزراء حتى فاضت قلوبهم حمية وامتلأت ابدانهم جسارة ومقاومة أما الاعداء فانهم اغتروا بما نالوه من النصرة وأخذوا فى تعقب الفارين فكمن لهم قائد المقدمة جغاله زاده سنان باشا واستعد السلطان فيمن معه من الجنود وحصروهم فى وسطهم وأعملوا فيهم السيف والنار حتى أبادوهم عن آخرهم تقريبا وانقلب الحال عليهم من الغلبة الى الهزيمة وقد ورد فى بعض الروايات أن مقدار القتلى منهم بلغ مائة ألف وغنم العثمانيون منهم مغانم وافرة ثم كافأ السلطان من أظهر الاقدام والبسالة من الامراء والجنود كما محا اسم من فر منهم من ديوان الجيش وقد أعادت هذه النصرة العظيمة الى الدولة ما كان لها من الاقتدار والصولة فى عصر السلطان سليمان القانونى ثم عاد بعد ذلك السلطان الى استانبول غانما منصورا قال ابراهيم أفندى فى تاريخه وكان حاضرا فى تلك الواقعة انه لو أمضت العساكر العثمانية شتاء ذلك العام بالحدود ثم تقدمت فى الربيع لكان أمكنها افتتاح مدينة فينا وكانت تمكنت الدولة من عقد مصالحة كما تحب الا أن عودة السلطان الى استانبول جعل للنمسا الوقت الكافى للاستعداد وملافاة ما خسرته فى الهزيمة المذكورة

وبعد عودة السلطان الى استانبول تمكن ابراهيم باشا بوساطة والدة السلطان من استلام مسند الصدارة مرة ثانية ولما كان من أصحاب الغايات والاغراض خسيس الطباع عزل حسن باشا ابن صوقللى وكان عهد اليه قيادة عسكر المجر ثم أحال وظيفة السرعسكر المهمة الى ساطورجى محمد باشا وكان غير أهل للقيام بها حتى انه لما حاصر الاعداء قلعة يانق وكانت حصينة كاملة الادوات والمهمات والذخائر لم يعرف ماذا يفعل وارتبك فى أمره وخرج الى جهات الاردل بجيشه

ليوقع الرعب فى قلوب الاعداء وحاصر مدينة وارات [1] وبينما هو يهتم فى حصارها ثار كاجهة بلاد النمسا خالية من الجنود تقدم النمساويون حتى وصلوا الى مدينة بودين وضيقوا عليها الحصار وانه وان كان العثمانيون تمكنوا فيما بعد من تخليص بودين وطرد الاعداء عن حصارها الا أنهم فقدوا فى ذلك كثيرا من الجنود والامراء وبينما كان الديوان السلطانى يتذاكر فى دفع هذه المصائب اذ بلغه خبر مؤلم ما له أن ميخائيل بك قتل حافظ أحمد باشا ومن معه من الجنود بمدينة نيكبولى فغضب السلطان على السرعسكر ساطورجى محمد باشا وقتله لاهماله مع أنه كان ظهر عليه عدم اللياقة والاستعداد لهذا المنصب من أول الامر

واقعة قنيزة الشهيرة — انه بعد حدوث الحوادث السابق ذكرها اضطر الصدر الاعظم ابراهيم باشا المذكور لقيادة الجيوش بنفسه وكان هذا الوزير سافل الاخلاق من ذوى المطامع والاغراض الا انه كان جسورا ذا لياقة واقتدار فتقدم بالجيوش سنة ١٠٠٨ هـ وفتح قلعة قنيزة (Kanischa) وهى من أشهر وأحصن قلاع بلاد النمسا وتقدم أيضا سرعسكر الطونه كورلجه محمود باشا وهزم جيوش ميخائيل بك هزيمة تامة بعد أن قاوم عساكر الدولة وتمرد عليها مدة خمس سنوات

ولما كان فتح قنيزة عاد بالخسارة على النمسا قام الارشيدوق فرديننند بجيش يبلغ ٥٠،٠٠٠ جندى بقصد استرداد تلك القلعة الا أن ترياكى حسن باشا الذى تعين محافظا لها تمكن من الدفاع عنها وفى تلك الاثناء مات الصدر الاعظم ابراهيم باشا وخلفه يمشجى حسن باشا وكان يجهل دار الحرب ولم تطأها قدمه قبل ذلك ولهذا بينما كان يستطلع أحوالها انتصرت جيوش الاعداء فى اسطونى بلغراد على العثمانيين ولما قصدت بعد ذلك محاصرة قلعة قنيزة تمكن ترياكى حسن باشا وهو من أشهر رجال التاريخ العثمانى من المدافعة عنها بما معه من الجنود القليلة (١٠١٠ هـ) التى لا تزيد عن أربعة آلاف جندى ومن استئصال جيش الارشيدوق وعدده نحو الخمسين ألف مقاتل كامل وغنم منه ذخائره ومدافعه وخيامه وأعلنوا أمر هذا الانتصار العظيم بجميع جهات الدولة وكافأه السلطان على شجاعته وانتصاره بأن ولاه الوزارة وبعد ذلك تمكن يمشجى حسن باشا أيضا من استرداد اسطونى بلغراد المذكورة ولكن الاعداء انتهزت فرصة وقوع الاختلاف بين القواد وبين حسن باشا الذى تعين لولاية بوسنه واستولت على قلعة پشته

ولما رأى الشاه عباس ملك ايران (١٠١٢ هـ) اشتغال الدولة بمحاربات النمسا نقض معاهدة الصلح التى كان عقدها مع فرهاد باشا (٩٩٨ هـ) وقصد استرداد مقاطعات آذربيجان وشيروان فأعلن الحرب سنة ١٠١٢ على الدولة ثم تقدم واستولى على تبريز من زنجيرقران على باشا ثم أغار على جهات روان وفى خلال ذلك توفى السلطان محمد خان الثالث ولم يتجاوز سنه ٣٧ سنة وكان رحمه الله سلطانا عظيم القدر عالى الهمة مظفرا فى وقائعه تقيا محبا للعدل والانصاف يميل الى العلماء والصلحاء محبا للعلوم والصنائع راغبا فى ترقية أسبابها ورواج سوقها وكان عادلا مستقيما غير ان طول زمن الحروب مع دولة النمسا أوجب اشتغاله بها وعدم الاهتمام بغيرها فتأخر تنفيذ تلك المقاصد

(١) مدينة حصينة من بلاد المجر وهى قاعدة عمالة وبها مدارس وكنائس ومياه معدنية حارة ومعامل للحرير وغير ذلك وسكانها نحو ٣٢٠٠٠ نفس وتسمى هذه المدينة جروس واردين (Grossewardin) واسمها عند الاتراك مأخوذ من اسمها بالمجرية

الجيدة خصوصا وانه لما قلت الجيوش من الاناضول ظهر فيها أخوان مفسدان وهما (قره يازيجى) وأخيه حسن باشا والى بغداد وكانا من طائفة الجلالية وكان قيام هذين الشخصين بتحريضات الشاه عباس ملك العجم فاشتغلت الدولة بمهامدتهما سيما وان عصيان وجاقات السكيرية وفرق العلوفة وعدم انقيادهم كان شاغلا للدولة من جهة أخرى أيضا وكانت أساطيل الدولة فى أيامه مستمرة على الجولان ببحر سفيد وتعين لقيادتها القبودان قبادرزاده مصطفى باشا (١٠١٢ هـ) وقد عقد هذا السلطان مع دولة فرانسا اتفاقية أجاز لها فيها أن تسير أساطيلها فى البحر المتوسط بحرية تامة فساء ذلك دولة انكلترة فسعت هى الاخرى وعقدت مع الدولة اتفاقية مثلها

---

(١٤) السلطان أحمد خان الاول ابن السلطان محمد الثالث

(١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ)

جلس هذا السلطان على تخت السلطنة بعد وفاة والده ولم يكن له من العمر اذ ذاك غير ١٤ سنة ولم يجلس أحد قبله من سلاطين آل عثمان على التخت فى هذا السن وكانت أحوال الدولة فى ارتباك شديد لاشتغالها بحروب النمسا واوروبا وبحروب الشاه عباس وغيرهما من أصحاب الثورات الداخلية بآسيا وكان أول شئ اهتم به بعد قبضه على الاحكام اتمام ما كان شرع فيه والده من التجهيزات الحربية بناء على ما أشار به وزراءه

بقية حروب النمسا — اعلم انه لما تمت المعدات الحربية المذكورة عين السلطان لالا محمد باشا للصدارة العظمى وسردارا عاما للجيوش التى سافرت لحرب النمسا وكان هذا الصدر من قواد الجيوش بدار الحرب منذ انتشابها بين الدولتين لهذا كانت له معرفة تامة بتلك الجهات سيما وانه كان يتصف بالمهارة العسكرية والشهامة الحربية ولما سافر بالجيوش العثمانية اهتم أولا بتقوية الجنود النازلة بقلاع الحدود ثم تقدم وحاصر قلعة استرغون فتمكن من استردادها وكانت هذه المدينة وقعت فى يد الاعداء منذ ما كان هو محافظا عليها ولذلك داخله السرور باستردادها ولما كانت إمارات الافلاق وبغدان والاردل فى خصومة وحرب مع الدولة العثمانية من أول قيام هذا الحرب وكانت هذه الممالك الثلاث تخدم بذلك مصلحة النمسا وكان اعتراها الوهن والخراب مما ساقته الدولة العثمانية عليها من الجيوش العديدة ومما وطأ بلادها من عساكر التتار الآتية من بلاد القريم التمس البرنس بوجقاى (بوسكاى) الذى تولى بلاد الاردل بعد نكبة ميخائيل بك بعد موافقة أمرائها له الصلح من الصدر الاعظم بمكاتيب أرسلها اليه وذلك لما رآه من الذل والخسارة التى أصابت الامارات الثلاث أثناء هذه المحاربة فقبل الصدر الاعظم التماس البرنس وساق جنوده على قلاع بلاد الاردل لاخراج عساكر النمسا منها وافتتح مدينة ايوار [1] وهى من قلاع المجر الجسيمة

ولما كان النمساويون استمدوا الى ذلك الوقت قوة عظيمة بمظاهرة هذه الامارات الثلاث

---

(١) مدينة من مملكة المجر على نهر نوترا سكانها نحو ١٠٠٠٠ نفر ولها ذكر فى حروب العثمانيين والمجر والنمساويين وتسمى عند الفرنج (Neuhausel)

لهم وكانت دخالتها الى الدولة العثمانية بمثابة كسر لاحد جناحي دولة النمسا اضطرت الى طلب المذاكرة فى أمر الصلح من لالا محمد باشا ولما مات لالا محمد باشا المذكور وتعين فى منصبه قبوجي مراد باشا وكان على قيادة بعض الفرق العسكرية فى هذا الحرب منذ عشر سنوات كان ممن لهم وقوف تام ومعرفة جيدة بما تقتضيه الاحوال فاراد اتمام هذا الحرب وعين من طرفه على باشا محافظ بودين وهابل أفندى قاضيها مرخصين للمذاكرة فى أمر الصلح ثم اجتمع هذان المأموران مع مرخصى دولة النمسا بجهة تدعى زيدوه توروق (Sitvatorok) على نهر الطونه بين مدينة استرغون وقومران سنة ١٠١٥ هـ (١٦٠٦ م) وفى هذه المحاربة التى استمرت نحو ١٥ سنة استردت الدولة العثمانية مدن يانق واسترغون واسطونى بلغراد وبشته وافتتحت أيضا ثانية صناجق اكرى وقنيزه وايوار

ولما كان الحرب فى نفس بلاد المجر كان هنالك فرق عظيم بين الانتقالات العسكرية من الطرفين المتحاربين بالنسبة للوسائط والتسهيلات وكان حصول الدولة العثمانية على النتائج الآتية يمكن اعتباره فى الظاهر من الموفقيات والانتصارات الا أن تلك الهيبة التى أظهرتها القوة العثمانية فى عصر السلطان سليمان مدة نحو ثلاثين سنة ظهر عليها فى هذا الوقت علامات التزلزل والانحطاط فى الداخل لطول حرب النمسا هذا الذى بقى مدة خمس عشرة سنة ومن الاضرار المعنوية التى أصابت الدولة من هذا الحرب ان الجزية التى كان يدفعها النمساويون سنويا ومقدارها ثلاثون ألفا من الذهب تحولت بموجب هذه المعاهدة الى هدية مناسبة غير معينة المقدار سيما انه لامتداد هذا الحرب تزايدت بجهات الاناضول ثورات طائفة الجلالية وامتد شرهم مما كان سببا للاضرار وتخريبات عظيمة حتى أدى فى آخر الامر لحصول حرب ايران وقد كانت تلفيات الطرفين المتحاربين بين مالية وعسكرية عظيمة جدا وفى مقابلة رضا العثمانيين بالصلح دفع النمساويون لهم مائتى ألف من الذهب دفعة واحدة وكان من أحكام المعاهدة المذكورة أيضا أن لا يخاطب امبراطور النمسا بلقب قرال أو ملك بل بلقب قيصر رومة وبعد هذه المحاربة بقيت بلاد المجر تابعة للدولة العثمانية بعضها بالفعل والبعض بالحماية

حرب ايران — قد علمت مما سبق أن شاه العجم نقض معاهدة الصلح التى بينه وبين الدولة واستولى على تبريز حين اشتغال الدولة بحرب النمسا ولما جلس السلطان أحمد عزل شغاله زاده سنان باشا من امارة البحرية وعينه قائدا عاما على جيوش بلاد الشرق وأمده بالجيوش والمعدات لصد العجم الا أنه لم يتمكن من تخليص قلعة روان التى كانوا يحاصرونها ثم اضطر بعد ذلك الى الرجوع الى بلاد كردستان بجيشه فى حالة سيئة وذلك لان ضباط جيشه خالفوا أوامره وامتنعوا عن الرضوخ لرأيه الصائب وهو تمضية فصل الشتاء بجهة يقال لها قره باغ حتى اذا ما أقبل الفصل الموافق كانوا قريبين من دار الحرب وفى السنة التالية لما سافر يريد فتح تبريز تقابلت طليعة جيشه وكانت تحت قيادة صفر باشا محافظ أرضروم مع جيش الشاه عباس بجوار بلدة يقال لها سلماس ولما انتشب الحرب بينهما وكان الجيش العثمانى لم يصل بعد أن انهزمت الطليعة تماما وقتل قائدها فأثر هذا الانهزام فى الجيش العثمانى تأثيرا سيئا وحل عزيمته وتفرق عنه أمراء الاكراد خصوصا فتقهقر عند ذلك سنان باشا بمن بقى معه من الجنود القليلة الى مدينة وان ومنها

الى

الى ديار بكر فمات هناك حزنا على ما أصابه من الفشل وخلت الحدود الشرقية من المحافظين وبذلك خلا الجو للاعجام الذين زاد عتوهم واستولوا على جهات شروان وشماخى وغيرهما ولقد كانت هزيمة جيش الشرق هذه من الوقائع المهمة بالنسبة للدولة العثمانية لان مخالفة أمراء العسكرية لامر السرعسكر كان سببا فى اختلال النظام العسكرى فى الدولة ومنه تمكن الحكم بتضعضع قوى الدولة المادية واضطراب أساسها لانه بسبب فساد نظامات العساكر السباهية أصحاب التيمارات الذين هم من العساكر المنتظمة تطرق الخلل لجموعهم وقدرتهم فصارت الدولة مضطرة لتربية طوائف من الجنود لا قيمة لهم وكانت هذه الطوائف من جهة أخرى بلاء على الدولة فى المحاربات وكانوا هم منبع مذهب الجلالية بالاناضول فكان الواحد منهم متى خرج من بين الجيش العامل انضم الى الجلالية أو تمذهب بمذهبهم وضم اليه آخرين وأخذ فى تخريب الممالك وشن الغارات ونهب أموال الناس

ولما كانت الدولة العثمانية اشتغلت زمنا طويلا بأمر المحاربة بينها وبين أوستوريا من جهة وبين ايران من الجهة الاخرى لم تتمكن من الالتفات لاحوال ولاياتها جيدا ولهذا صارت بلاد الاناضول جميعها مظهر المفاسد طائفة الجلالية المذكورة الا أنه لما تخلصت الدولة من أمر محاربة النمسا بمصالحة زيدوه تورولك المتقدمة خرج الصدر الاعظم قبوجى مراد باشا بنفسه فى جيش ونكل بابن جانبولاد وابن قلاندر وقره سعيد واوزون حسن وأمثالهم من شيوخ هذه الطائفة وأذاقهم شر شقاوتهم ثم عاد الى الاستانة وكان لدخوله يوم مشهود وأحله السلطان محلا ساميا (١٠١٧ ﻫ) وقد تمكن هذا الباشا من تطهير بلاد الاناضول من هذه الطائفة وأوقع بهم فى عدة وقائع وقتل منهم آلافا عديدة وحل نظامهم حلا وشتت شملهم تشتيتا وأحضر معه الى استانبول كثيرا من أعلامهم وغنائمهم وأسراهم وفى سنة ١٠١٩ ﻫ خرج مراد باشا المذكور لمقاتلة العجم لطغيانهم وتمردهم الا أنه لما كان متقدما فى السن مريضا انتهز فرصة ذلك حسوده نصوح باشا والى ديار بكر وأرسل الى دار السلطنة من يشهد له بعلو المنزلة والمقدرة على تنكيل الاعداء وبذلك تمكن من نوال مسند الصدارة بدسائسه ومفاسده (١٠٢٠ ﻫ) بعد وفاة مراد باشا المذكور

وقد كانت أنظار نصوح باشا ترمى الى عقد الصلح مع الشاه عباس (١٠٢٠ ﻫ) فتم له ذلك وأمضاه على قواعد الصلح التى كان شرع فرهاد باشا من قبل فى عقدها وهى أن يرد الى شاه العجم أقاليم تبريز وروان وشروان وكانت تحت يد الدولة العثمانية وان يدفع الشاه كل سنة مائة حمل من الحرير وغيرها من محصولات تلك الاقاليم بصفة جزية ولما تم أمر الصلح أخذ معه جزية سنة عن تلك الاقاليم وعاد الى الاستانة الا انه حصل فيما بعد ان الشاه لم يوف بما وعد وتعهد به من دفع تلك الجزية فى الوقت المعين لها وكذا لم يدر السلطان ماذا حصل لسفيره المدعو انجيلى مصطفى لدى الشاه حيث مضى عليه سنتان ولم يرد منه خبر لهذا رأى السلطان من الضرورى اعلان الحرب على بلاد ايران ثانية سنة ١٠٢٦ ﻫ وتعين للحملة عليها أوكوز محمد باشا ثم خلفه خليل باشا

احوال البحرية فى الوقت المذكور — لما تعين القبودان حافظ باشا لرئاسة البحرية فى عهد هذا السلطان التفت نوعا الاصلاح العمارة التى كان تقهقر شأنها تبعا لتقهقر حالة الدولة ولما تمت

معداتها أقلع بها سنة ١٠١٦ من استانبول يريد ثغر الاسكندرية لاحضار و ركوب بلاد مصر كما جرت العادة بذلك ولما عرج فى طريقه على مدينة رودس عند ذهابه ترك بها بعض السفائن الى حين عودته ولما كانت طائفة هذه السفن قليلة لان حافظ باشا المذكور كان أخذ معه معظمها هجمت عليها قرصان البحر فاستولوا عليها بمن فيها ولما عاد القبودان من مصر الى الاستانة تكدر السلطان بما فعله و وبخه على ذلك ثم عزله وعين بدله على العمارة القبودان خليل باشا القيصرى (١٠١٨ ﻫ) ولم يأت هذا القبودان باصلاح جديد فى أحوال العمارة لعدم التفات السلطان اليها فى ذلك الوقت الا انه لما كثر عيث قرصان القوزاق بالبحر الاسود وأخذوا يشنون الغارة على سواحل بلاد الدولة ينهبون و يحرقون هاجت السكان وكتب الولاة الى دار الخلافة يبث شكواهم فسافرت العمارة العثمانية الى البحر الاسود وتمكنت من ملاشاة طائفة قرصان القوزاق ثم عادت الى استانبول وقد روى بعضهم ان العمارة العثمانية لما خرجت لطرد قرصان القوزاق تحت قيادة حافظ خليل باشا صادفت صعوبات جمة لعظم سفنها وخفة سفن القرصان التى أرعبت الشواطئ وأزعجت التجار حتى ضواحى البوسفور وفى هذا الوقت كانت دول أوروبا التفتت الى تقوية وتحسين السفن وتغيير أشكالها وتسليحها باسلحة أكثر وأضخم مما كان بها وكان فى مقدمة هذه الدول اسبانيا وانكلترة وأنشأت الاولى منهما سفينة عظيمة تدعى فيليب (١٥٩١ م) ذات ثلاث طبقات بها من المدافع سبعة وستون وأنشأت الثانية سفينة عظيمة سمتها برنس (١٦١٠ م) كان طولها ١١٤ قدما وعرضها ٤٤ قدما بها من المدافع ثمانية وستون و بعد قليل اقتدى باقى دول أوروبا بهاتين الدولتين وقوت أساطيلها و بحريتها ومما يذكر أيضا فى هذا الوقت ان أسماء السفن الحربية تغيرت من غالى وغليون وغراب وشانية وغيرها الى قرويت وفرقاطة وقباق

وكانت وفاة هذا السلطان فى سنة ١٠٢٦ ﻫ وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان العظام تولى السلطنة وعمره أربع عشرة سنة وجلس على التخت أربع عشرة سنة وقد كان صالحا ميل الى العلماء والسادات خيرا وكان عزم لشغفه بامر بيت الله الحرام على أن يكسوه بالذهب والفضة فنعه المفتى محمد بن سعد الدين من ذلك فجعل للكعبة ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب صونا لها من الهدم وكساها هى والحجرة النبوية والاضرحة بأفخر المخيشات المقصبة وعمر مسجد البيعة قرب عقبة منى وأصلح جملة جهات بمكة وأوقف من قرى مصر وقفا على خدام الحرمين الشريفين وفى سنة ١٠٢٤ ﻫ أرسل حجرين من الماس للحجرة النبوية قيمتهما ثمانون ألف ليرة وأبدل شبابيك الحجرة وجعلها من الفضة المحلاة بالذهب وأخذ الشبابيك القديمة ووضعها فى مدفنه بالاستانة تبركا وأصدر فى سنة ١٠٦٦ م أمره الى أحمد باشا والى الديار المصرية بارسال مقدار من الايرادات لعمارة الحرم النبوى وفى أيامه زرع التبغ بالممالك العثمانية ودخنه الناس باستانبول ويقال ان أول من جلبه اليهم أهل هولاندة (١٦٠٥ م) ومن آثاره الطو بخانة ومسجده الشهير ذى الست منارات وهو من أجمل جوامع الاستانة وأضخمها وفى أيامه اشتكى هنرى الرابع ملك فرانسا من باى تونس مصطفى باشا و باى الجزائر سليمان باشا بدعوى انهما يساعدان على التلصص البحرى و يشتركان مع القرصان فى الغنيمة و يساعدان سفن الانكليز فى الاغارة على سفن الفرنسيس والبنادقة فاحل السلطان شكواه محل القبول لحسن العلائق بين الدولتين وعزل الواليين المذكورين

ونصب خلافهما وقد كان عزل هذين الواليين بمجرد شكوى ملك الفرنسيس التى كانت دائما مبنية على معلومات باطلة وبدون اجراء تحقيقات معهما سببا فى ضعف البحرية بالولايتين المذكورتين كما قاله بعض المؤرخين ومن أعمال هذا السلطان ترتيب أصول وقانون لوراثة السلطنة

﴿ الفصل التاسع ﴾

من وفاة السلطان احمد الاول الى صدارة كوپريلى محمد باشا

١٠٢٦ - ١٠٦٦

---

١٥ السلطان مصطفى الاول ابن السلطان محمد خان

(١٠٢٦ - ١٠٢٧ ﻫ)

لما توفى السلطان أحمد بايع الوزراء والامراء السلطان مصطفى قياما بحق الوصية وكان عمره لا يتجاوز العشرين سنة الا أنه لما كان أمضى أيامه قبل ذلك فى حالة حجر وممنوعا عن مخالطة الناس مسجونا داخل القصر لا يسمع ولا يرى شيأ مما يتصل بالدولة ظهرت عليه علامات عدم القدرة بشؤن الدولة بمجرد جلوسه على التخت وأخذ يبدد أموال الخزانة بطرق صبيانية ولذلك كثر القيل والقال بين الناس حتى خيف حدوث اضطراب عام داخلى ولم يكن مضى على حكمه ثلاثة شهور وعشرة أيام حتى تقدم مصطفى أغا دار السعادة وقبض عليه وسجنه بمكان داخل السراى فى يوم صدور الفتوى من شيخ الاسلام بخلعه وبويع لاكبر أولاد السلطان أحمد المتوفى

---

١٦ السلطان عثمان خان الثانى ابن السلطان أحمد الاول

(١٠٢٧ - ١٠٣٢ ﻫ)

جلس هذا السلطان وكان سنه أصغر من سن سابقه لا يتجاوز ١٣ سنة الا أنه كانت تلوح عليه علامات الشجاعة والاقدام لنباهته وجودة قريحته وفى أول حكمه أرسلت الدولة السفراء الى كافة الجهات وعقدت معاهدات الصلح مع فرانسا وأكثر الدول الاوروباوية وسوت أيضا مسئلة بوهيميا مع امبراطور المانيا لان هذا الاقليم لما كان عصى عليه طلب أهله من الدولة حمايتهم وبمساعدة وزراء الدولة من المساعى تحسنت علاقات الاقليم المذكور مع الامبراطورية الالمانية وفى السنة الاولى من حكم هذا السلطان عاد القبودان چلبى على باشا بالدونمما من البحر الابيض ومعه ست سفائن للقرصان اغتنمها مدة سفره وأكثر من مائتى أسير من أجناس مختلفة ومقدار عظيم من الغنائم ولما عرض على السلطان ما فعله فى سفرته هذه من يوم خروجه الى وقت مجيئه كما هى العادة أنعم عليه وقربه اليه

ولما كانت أحوال العجم لا زالت تستدعى اهتمام الدولة لسعى ملكها فى بث الدسائس واقلاق

الراحة جردت الدولة سنة ١٠٢٧ جيشا عظيما تحت قيادة خليل باشا الصدر الاعظم لمحاربة العجم ولما التقى بجيوش الشاه عباس حدثت بينهما معركة انتهت بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا واستخلصوا من الاعجام الجهات التى كانوا اختلسوها من الدولة العثمانية اثناء الوقائع والاختلالات الماضية مثل تبريز وغيرها وقبل الشاه عباس تجديد أمر الصلح على أساس مصالحة نصوح باشا وكان السلطان عثمان يرى ان كل الفخر فى ظلال السيوف فاجتهد فى تنظيم القوة البرية والبحرية والاكثار منهما ومداومة الحروب والغزوات وقد ساعدته المقادير لاتمام بعض اغراضه من ذلك وهو أن ملك بلاد الاردل كان يرغب فى توسيع نطاق ملكه من أقاليم النمسا ولما اطلع السلطان على مرغوبه حسن له الاغارة على بلاد النمسا وسهل عليه فتح عاصمتهم فاصدر السلطان الاوامر بتجهيز الجيوش لمحاربة بولونيا أولا ثم قبل أن يبارح استانبول أمر باخيه الامير محمد فقتل اتباعا للقاعدة القبيحة التى سنها بعض السلاطين خوفا من أن يخرج عليه اثناء غيبته وأصدر أمرا بتقليل اختصاصات مفتى استانبول ونزع منه ما كان له من السلطة فى تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة على الافتاء ليس الا مخافة ان يصيبه منه ما أصاب سلفه من العزل الا انه لما كان الحذر لا يمنع القدر لم يأت الامر كما كان يبتغى كما ستعلم وبعد هذه الترتيبات خرج بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف مقاتل وانضم اليه جانبك كراى خان القريم وبتلن غابور أمير الاردل وأمير المملكتين ومازال هذا الجيش يسير بنظام حتى نزل امام مدينة شوكزم أو خوتين (Choczim) ثم تلاقى بجيش البولونيين وكان يرأسه القائد ولنا أحد مشاهير قوادهم وكان متحصنا فى هذه المدينة وبعد ان هاجمه العثمانيون عدة مرات ارتدوا عنه بلا فائدة لتمرد الانكشارية وطلبهم الكف عن القتال واتفق ان طلب البولونيون أيضا الصلح لموت قائدهم المذكور وغيره من ضباطهم فى القتال فعقد الصلح بين الطرفين وبعد التوقيع على شروطه التى لم يستفد منها العثمانيون أدنى فائدة عاد السلطان الى استانبول (١٠٢٩ ﻫ) ومن حوادث تلك السنة ان اشتد البرد جدا حتى جمد البوسفور وصار الناس يعبرون على البحر من استانبول الى اسكدار

ولما عاد السلطان عين الدفتردار مصطفى باشا قبودانا للدونانما العثمانية وعزم على السفر الى بلاد الشام ومصر وشاع انه متوجه من هناك لتأدية فريضة الحج ولما كان يسعى فى تدمير وجاق الانكشارية لما ظهر منهم من التوقف والتمرد فى محاربة بولونيا وزيادة طغيانهم وكونهم أصبحوا أصحاب العقد والحل فى الدولة هاجوا وماجوا لما بلغهم نية السلطان على الحج وألزموا المفتى باخراج فتوى مضمونها ان السلاطين لا يتكلفون الحج وبعثوا للسلطان بعض الشيوخ يعلمونه بالمركز الحرج الذى بات فيه فلم يلتفت الى أقوالهم بل هددهم وقال وهو فى غضبه اننى سأدمر وجاق هؤلاء المردة الملاعين فلما عادوا وأخبروهم بما حصل هاجوا اهياجا كبيرا ونادى أحدهم بالسلطان مصطفى وتبعه الباقون ثم هجموا دفعة واحدة على السراى وأخرجوا السلطان مصطفى من حبسه وعند ذلك خاف السلطان وندم على ما فعل وأراد أن يسلم للعصاة دلاور باشا الصدر الاعظم وسليمان أغا أغاى السراى فلم يرضوا بذلك وقال لهم العلماء ان السلطان مصطفى مسلوب العقل ولا تجوز مبايعته فهجموا على العلماء أيضا وألزموهم البيعة له وأخيرا قبضوا على السلطان عثمان وأخذوه ماشيا بكل احتقار حتى أوصلوه الى بعض الشكنات العسكرية وحبسوه فيها (١٠٣١ ﻫ) ثم نقلوه الى

قلعة يدى قله ولم يكتفوا بخلعه بل قتلوه بأمر داود باشا الذى تقلد الصدارة فى أثناء ذلك ولما زاد لهيب الثورة تجمع كثيرون من أهل الفساد وصاروا يقتلون كل من خالفهم وينهبون خزائن الدولة ثم قامت طائفة تطالب بدم السلطان عثمان المقتول ظلماً فقتلوا داود باشا وكل الذين لهم يد فى قتله

استيلاء الشاه عباس على بغداد — اعلم انه فى أثناء هذه الاضطرابات والاختلالات قامت دولة العجم واستولت على كثير من البلاد التى كان أخذها العثمانيون منها سابقا وكانت بغداد فى كفالة الوزير يوسف باشا وحدث انه وقع بينه وبين أحد كبار العسكرية المدعو بكر أغا صوباشى اختلاف أدى الى التحزب ثم ان بكر أغا حاصر يوسف باشا فى القلعة الى ان تمكن من قتله والتغلب على بغداد وقد ساعده على مقاصده اختلال أحوال الدولة اذ ذاك ثم أظهر العصيان والاستبداد ثم وجهت عليه الدولة جيشا تحت قيادة حافظ أحمد باشا والى ديار بكر فلما بلغه ذلك كتب الى الشاه عباس يستقدمه للاستيلاء على بغداد وارسال من ينوب عنه اذ ذاك فأرسل الشاه من يستلم منه مفاتيح المدينة صحبة فرقة عسكرية مؤلفة من ثلثمائة جندى وأنعم على بكر الصوباشى المذكور بالعمامة الخاصة بطائفة قزل باش الا انه قبل وصول العجم الى بغداد وصلت جيوش الدولة وأقامت الحصار عليها ولما خاف بكر الصوباشى المذكور أرسل لاحمد حافظ باشا الوزير مكتوبا يطلب فيه ان يوليه على مدينة كلس وهو يتعهد بطرد الاعجام فلم يقبل منه حافظ باشا مخافة ان يكون ذلك خداعا منه وفى ذلك الوقت وصل رسول العجم الى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا ان بكر الصوباشى تابع الآن لشاه العجم فان كنت تريد حفظ الصداقة بين البلادين اترك بغداد واذهب لحال سبيلك فغضب حافظ باشا لذلك وأجابه بغليظ الكلام ثم لما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه فتح بغداد لحصانتها وكثرة جيوش العجم الآتية تباعا وان حالة الدوله لا تمكنها من الاهتمام ببغداد أكثر من غيرها احتال لذلك بحيلة وهى انه كتب لبكر الصوباشى بالولاية على بغداد وترك حصارها وعاد على طريق الموصل ولما وصل خبر الولاية الى بكر الصوباشى ورأى أنه بلغ مرامه قتل جماعة شاه العجم وعلق رؤسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التى بعثها اليه الشاه عباس ووطئها برجله وأرسل رسولا الى حافظ باشا يشكر فضله أما الشاه عباس فانه لما بلغه مافعله بكر الصوباشى حضر بالجيوش وحاصر بغداد بنفسه وبعد حروب يطول شرحها خدع الشاه عباس محمد بن بكر الصوباشى المذكور بالوعود الباطلة وكان محمد هذا أخا البكر من والده وبيده أمر محافظة القلعة ففتحها للاعجام ليلا فدخلوها وبذلك تملك الشاه عباس المدينة (١٠٣٢ هـ) وقبض على بكر الصوباشى وسجنه فى قفص من الحديد ثم أحرقه فى صندوق ملئ بالزفت والكبريت وبعد ثلاثة شهور أمر الشاه فقتلوا أخاه محمدا الخائن المذكور أيضا

عصيان أباظه باشا — لما انتشر خبر قتل السلطان عثمان قام أباظه باشا بكلربك ارضروم مطالبا بثاره واجتمع عليه نحو ثلاثين ألفا من الاتباع وصار يقتل من يقابله فى طريقه من السپاهية واليكجرية الى أن وصل سيواس وألزم بعض أمراء تلك الاطراف بالانضمام اليه وأخذ يخرب البلاد ويقتل العباد وينادى بانه سيدخل استانبول وينتقم من كافة طبقات الجنود فهال الدولة أمره وخافت امتداد نفوذه واجتهد الوزراء فى توقيف حركته فلم يوفقوا حتى ان السلطان عزل لذلك أربعة

من الصدور فى مدة ثلاثة شهور وكان ملك الروسيا أرسل سفيرا الى الدولة فى ذلك الوقت يطلب عقد اتحاد معها لمحاربة پولونيا ومحوا استقلالها فلم تتمكن الدولة من المفاوضة معه بالنسبة لارتباك الاحوال وأخيرا لما رأى رجال الدولة وقواد الجيوش سوء الحالة ندموا على ما حصل منهم من الموافقة على خلع السلطان عثمان وقتله وصمموا على خلع السلطان مصطفى ثانية ولما علم السلطان بذلك بادر بخلع نفسه بعد ان حكم سنة وشهرين (١٤ القعدة ١٠٣٢) وبويع لابن أخيه السلطان مراد الرابع أما السلطان مصطفى فانه سجن الى ان مات وعمره ١٦ سنة

---

(١٧) السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان الاول

(١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ)

محاربة العجم وثورة أبازه باشا - جلس هذا السلطان على التخت وعمره ١٤ سنة ولما علم أن الصدر الاعظم كمنكش على باشا أخفى عليه خبر سقوط بغداد فى يد العجم عده خائنا وعزله وعين بدله چركس محمد باشا فكان أول شئ أجراه هذا الصدر انه توجه بجيش جرار لاطفاء ثورة أبازه باشا وبعد واقعتين حصلت بينهما تمكن الوزير من تشتيت شمل جموع أبازه باشا واستأمن كثير من قواده وبعد ذلك أرسل أبازه باشا يلتمس العفو من السلطان فعفا عنه وجعله بكلربك ارضروم كما كان (١٠٣٤ هـ) ولما خمدت نيران هذه الفتنة من جهات ارضروم وسيواس أخذ الصدر المذكور يجهز الجيوش بعد عودته الى توقات لاسترداد بغداد الا أنه مات بعد عودته بقليل ولما وجه مسند الصدارة الى حافظ أحمد باشا جهز جيشا بديار بكر يبلغ عشرين ألف مقاتل ثم سار به وحاصر بغداد وانتشب القتال ودام أياما ولما طال الحصار سئمت العساكر وأخذوا يهزأون بحافظ باشا لانه قال لهم ان مفاتيح بغداد فى جيبه ثم تآمروا عليه وعزلوه وحبسوه فى قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه هو أيضا وأرجعوا حافظ أحمد باشا ثم قاموا عليه أيضا ريدون قتله وأخيرا اتفقوا معه ثم نهض بهم راجعا عن حصار بغداد بعد ان دفن فى الارض ما كان بجيشه من المدافع وآلات الحصار وأرسل الشاه عباس خلفه فرقة من الجنود تتعقبه فعاد اليها وأوقع بها ثم قتل مراد باشا لانه السبب فى تحريك طوائف السپاهية وتمردهم ثم تقدم الى الموصل وأقام به حتى أتاه أمر السلطان بالتقدم الى حلب حيث يصله المدد وبعد ذلك عزل حافظ باشا ووجهت الصدارة الى خليل باشا

ولما عاد حافظ باشا منهزما تقدمت الاعجام واستولت على قلعة أخسخه وحاصروا قارص ولما وصل الصدر الجديد خليل باشا الى مركز الجيش بتوقات عين أبازه باشا والى ارضروم المتقدم الذكر لاسترداد أخسخه الا أنه بينما كان يستعد للسفر أتى أمر بتعيين قائد آخر بدله يدعى حسين باشا فحنق لذلك أبازه باشا وداخله الخوف واحتال حتى اغتال حسين باشا وأتباعه وشق عصا الطاعة ثم تحصن فى ارضروم وأتى الصدر خليل باشا وحاصره الا أنه لم يتمكن من عمل شئ لنقص ذخائره الحربية ولما توفى خليل باشا بعد ذلك ولى الصدارة خسرو باشا ولما كان من رجال الينكچرية ومن ذوى التدبير والشدة تمكن من تنظيم الجيوش وقمع من تمرد منها وبعد ان أصلح ذات البين بين شريف

مكة

مكة ووالى اليمن ووالى مصر قاد جيشا يبلغ ١٥٠٠٠٠ مقاتل وتقدم لحصار بغداد وأرسل وهو فى الطريق جيشا مع جعفر باشا بكلربك قارص فهزم جيش العجم الذى كان يقصد مساعدة أبازه باشا ثم أخضع أبازه باشا (١٠٣٨ ﻫ) ولما حاصر الصدر المذكور بغداد لم يتمكن من فتحها فعاد الى الموصل وهناك صنع وليمة لبعض طوائف الجنود ولما اجتمعوا خرج عليهم من أكمنهم لهم فقتلوهم لانهم السبب فى عدم نجاح حصار بغداد ثم طلب الامداد من الدولة لاعادة حصار بغداد وبعد حوادث طويلة مات الشاه عباس بعد ان حكم ٤٣ سنة فأرسل حفيده الشاه صفين الذى جلس مكانه جيشا عجميا يبلغ ٤٠ ألف مقاتل تحت قيادة زينل خان للمحافظة على الحدود فقابله الصدر الاعظم خسرو باشا وهزمه أمام قلعة مهربان وقتل من الايرانيين ٣٠ ألف نفس واستأمن زينل خان بمن معه الا أنه قتل أيضا وهرب الشاه وأغار الصدر الاعظم خسرو باشا على جهات همذان ودركزين ونهاوند (١٠٤٠ ﻫ) وبينما كان يقصد مهاجمة أصفهان مقر الدولة الصفوية أتاه مرسوم السلطان بالعودة الى حصار بغداد ولما كان يستعد لانفاذ الامر عزل من الصدارة وولى مكانه الصدر الاسبق حافظ أحمد باشا (١٠٤١ ﻫ)

احوال البحرية فى الوقت المذكور — بينما كانت الدولة العثمانية مشتغلة بمحاربات العجم كانت السفن التى تشيد بدور صناعتها الاترال تبنى على الطرز القديم الذى لا يناسب الزمن الذى ترقت فيه صناعة السفن نوعا وزيادة على ذلك كان ملاحو تلك السفن غير مدربين على الاعمال البحرية لعدم خروج الاساطيل العثمانية الى البحار كالسابق وزد عليه ان فرق اللوندات التابعين لوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس وهى التى كانت تساعد الدونانما العثمانية فى أغلب المحاربات البحرية تغير نظامها ووضع لها نظام صيرها مغلولة الايدى عن العمل للتشكيات المترادفة من دولة فرانسا وانكلترة والبنادقة وعاوضع لها من النظامات الجديدة ترك فرق اللوندات أيضا الاعمال البحرية والغزو فى البحار واشتغلت معظم سفن الاربعة وجاقات المذكورة بالتجارة البحرية فضعفت بذلك قوة الدولة البحرية ومع هذا فان الحكومات الاوروباوية المذكورة لم تبطل الشكوى بل كان اذا تعرض لسفنهم بعض قرصان الاجانب نسبوه للوجاقات العثمانية وما ذلك الا لقصد اضعاف القوة العثمانية البحرية واطفاء شهرتها ولما رأت الدولة المسابقات والترقيات الحاصلة فى بحريات الدول أوعزت الى رؤساء البحرية بتجسيم السفن الحربية وتشييدها على النمط الجديد لتقويتها ودعى ملاحوها بالقليونجية بعد ان كانوا يدعون فى الازمنة السابقة بالعزب ثم أخذت الدونانما العثمانية ترتب طوائفها على الهيئة الاوروباوية وتوظف بها قبودانات وملاحين مخصوصين وجعلوا بداخل السفن مطابخ لعموم الطائفة بعد ان كان كل فرد منها يطبخ منفردا لنفسه أو بالاشتراك مع بعض أقرانه وبذلك انتظمت أحوال وهيئة البحرية العثمانية نوعا وفتحت الدولة جملة مدارس بحرية لدراسة فن الملاحة فيها ورتبت الاقلام والدواوين المخصوصة لدور صناعتها فانتظمت هيئتها انتظاما يوافق ذلك الوقت ولما خرجت الدونانما العثمانية الى البحر الاسود سنة ١٠٣٤ ﻫ (١٦٢٤ م) لمطاردة قرصان القوزاق الذين كانوا أغاروا على سواحل الدولة وتصدت الدونانما لهم حملوا عليها بمائتين وخمسين سفينة من نوع الشيقة وكانت الدونانما مؤلفة من خمسين سفينة حربية تحت قيادة القبودان رجب باشا الا أنه لسكون الهواء لم تتمكن من اجراء

حركاتها بالشراع و بعد محاربة دموية تمكن القوازق من الدخول فى السفن العثمانية حتى كادوا يستولون على بعضها لولا هبوب الريح الذى تمكنت به السفن العثمانية من الحركة ثم انتصرت على سفن القوازق وأوقعت بها نكالا بحيث لم يتخلص منها سوى ١٥ سفينة ولما قتل رجب باشا المذكور سنة ١٠٤١ ه فى فتنة اليكجرية خلفه چتالجه حسن چلبى باشا ثم عزل بعد عودته بالدونما من البحر الابيض وخلفه جانبولادزاده مصطفى باشا الذى خرج بالدونما (١٠٤٢ ه) وحارب عمارة الاسبانيول واستولى على سفينة من سفنهم ثم خلفه قره مصطفى باشا المعروف أيضا بكمانكش (١٠٤٥) وهو الذى رافق السلطان فى حرب العجم كما سيأتى ولما تولى الصدارة العظمى (١٠٤٨ ه) خلفه على العمارة دلى حسين باشا وخرج بالاساطيل لمعاقبة قرصان القوزاق لما أتوه من الاعمال المخلة بالامن و بعد أن نكل بهم عاد غانما

ذكر الثورات العظيمة — لما أشيع خبر عزل خسرو باشا من الصدارة بين العساكر أثناء حرب العجم قامت جميع صفوفهم على قدم تنادى بصوت واحد إنهم لا يقبلون غير خسرو باشا سردارا عليهم وهجموا على المأمور الذى حضر بالمرسوم السلطانى وكادوا يبطشون به لولا أن خسرو باشا تدارك الامر بنفسه وامتثل لامر السلطان مخافة الاضطراب وأقام فى توقات ثم ان السلطان طلب حضور الجيش الى استانبول ولما وصل عمت الثورة جميع أنحاء العاصمة وامتد الهياج الى الاناضول والقرمان وسيواس حتى خيف على حياة السلطان وكان رجب باشا الذى انفصل من القبودانية وخلفه چتالجه حسن چلبى باشا يهيج الثائرين و يقويهم ثم هاجم أهل الفساد من طوائف السباهى سراى السلطان فأطل عليهم السلطان مراد بنفسه من شباك وأخذ ينصحهم و ينذرهم فلم يرتدعوا بل صمموا على طلب الصدر حافظ باشا وشيخ الاسلام يحيى افندى الشهير والدفتردار مصطفى باشا وأربعة عشر شخصا من خواص السلطان وفى أثناء ذلك الهرج قال حافظ باشا للسلطان جعلت فداك يامولاى وتقدم نحو الجموع ليسأل منهم عن مرادهم و يغنيهم فهجموا عليه وقطعوه إربا إربا وانتخبوا رجب باشا لمسند الصدارة واختفى يحيى افندى وتولى مسند المشيخة الاسلامية حسين افندى أما السلطان فانه اغتاظ جدا من حدوث هذه الفتنة وأظهر الشدة والثبات وأمر بقتل رجب باشا المذكور وأراح منه العباد ومع ذلك فان الفتنة لازالت قائمة ونسب تحريكها أيضا الى خسرو باشا وهو فى توقات وممن قتلوا فى هذه الثورات الدفتردار مصطفى باشا وأغا اليكجرية حسين أغا ومن الندمان موسى وچلبى وغيرهما ثم أخذ السلطان يجتهد فى إطفاء نيران الفتنة بالشدة التى استعملها فقلد مسند الصدارة محمد باشا الارناؤدى فبحث عن رؤساء الفتنة وقطع دابرهم واحدا بعد واحد فهابته اليكجرية وداخلهم منه الرعب وهدأت الاحوال فى الظاهر وفى سنة ١٠٤٢ ه تمكن أيضا من تطهير الاناضول وصاروخان والقرمان ومرعش وحلب من العصاة والخوارج وبذلك أطفئت الفتنة من كل الجهات ثم التفتت الدولة لتسوية أمر الخلاف والنزاع الحاصل بين أشراف مكة فأزالته ومهدته فاطمأنت بذلك قلوب أهالى تلك البقاع

و بعد ذلك تقدم الوزير الاعظم محمد باشا بالجيش الى جهة الشرق (١٠٤٣ ه) واسترد خليل

باشا

باشا قلعة وان ولما وصل الصدر الى مدينة حلب أخذ فى قتال علي بك ابن المعنى أمير لبنان وكان شق عصا طاعة الدولة منذ ٣٠ سنة وكانت الدولة غير ملتفتة اليه لاشتغالها بما هو أهم وبعد عدة وقائع تلاقى الصدر مع الامير المذكور بصحراء صفد فبدد شمله وأسره وبعثه الى استانبول مكبلا إلا أن السلطان عفا عنه ورده الى وطنه وحارب والى دمشق أيضا فخر الدين أمير الدروز لشقه عصا الطاعة ثم هزمه وأسره هو وولديه وأرسلهم الى الاستانة أيضا فقابلهم السلطان بالكرامة إلا أنه لما ثار أحد أقاربه على الدولة بعد ذلك بقليل واتضح أن ذلك بايعاز فخر الدين المذكور وولده الاكبر أمر بهما السلطان فقتلا عقابا لهما (١٠٤٤ هـ) وأمر فقسموا جبل لبنان وجبل الدروز الى قطائع وضعت تحت ادارة الوالى العثمانى رأسا عسى بذلك يمكن استئصال الفتن منه وفى تلك الاثناء تعدى ملك بولونيا ولادسلاس السابع على حدود السلطنة العثمانية وفتح بعض القلاع التابعة لها فاضطر السلطان الى الخروج بنفسه الى أدرنة ليستعد منها لحربه إلا أن أبازه باشا أسرع وجمع جيشا من التتار ونازل ملك بولونيا المذكور وكسره وأسر كثيرا من جموعه فاضطر ملك بولونيا لطلب الصلح فأجيب على شريطة أن يدفع للدولة مبلغا جسيما فى نظير غرامة حربية ثم عاد السلطان الى دار الخلافة

سفر السلطان الى آذربيجان وفتح روان — لما كانت سوق الحرب قائمة بين الدولة ومملكة العجم منذ زمن طويل لم تنقطع وان كانت توقفت فى بعض الاحيان أى عقب موت الشاه عباس للاسباب السابق ذكرها صمم السلطان على قيادة الجيش بنفسه لفتح بغداد واستعد للحملة على العراق الا أنه حول بعد ذلك عزمه وأراد فتح مدينة روان فقصدها (١٠٤٤ هـ) بعد ان ترك بيرام باشا للمحافظة على دار الخلافة وفى أثناء ذهابه قتل كثيرا من الامراء الجلالية الذين تحقق له ارتكابهم المفاسد والتعديات ثم تقدم وفتح روان وكان قصده تمضية فصل الشتاء فى حدود العجم ثم يقصد اصفهان فى الربيع الا انه أصيب بالنقرس فى ركبتيه فعاد الى الاستانة وترك مرتضى باشا للمحافظة على روان وأخذ معه خان روان المدعو أمير كون وكان استسلم للدولة (١٠٤٥ هـ) ولما أقبل الشتاء جمع الشاه جيشا وحاصر روان واستردها بعد حصار جرح فيه مرتضى باشا جرحا بليغا مات به ولما كان الصدر الاعظم محمد باشا بالجيش فى أرضروم ولم يمد مرتضى باشا قصدا كما ظهر من التحقيقات التى أجريت بعد ذلك لكراهية الصدر لمرتضى باشا عزل الصدر المذكور وولى مكانه بيرام باشا (١٠٤٦ هـ)

استرداد بغداد — لما كانت مدينة بغداد من المراكز المهمة التى يجب ان تكون فى يد الدولة وكان السلطان صمم على استردادها بنفسه ولم يصرفه عنه الا فتح مدينة روان أمر سنة ١٠٤٧ بالتجهيزات ثم قصد العراق على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل ورافقه شيخ الاسلام يحيى أفندى والقبودان قره مصطفى باشا وقبض وهو فى الطريق على رجل كان يدعى المهدوية ويسمى بالشيخ كامل وقتله بعد ان أفتى له العلماء وأراح من بدعته العباد ولما وصل الى الموصل قدم عليه سفراء من قبل ملك الهند شهاب الدين جهان شاه وأعلموه ان ملكهم سيهجم على بلاد العجم من جهات قندهار ثم بعد أيام توفى الصدر الاعظم بيرام باشا فتولى الصدارة طيار محمد باشا ولما قرب السلطان من حدود العجم كان انضم الى جيشه جميع الجنود المعسكرة ببلاد الاناضول حتى بلغ جيشه فيما قيل ٣٠٠ ألف

مقاتل ثم وصل الجيش أخيرا الى بغداد بعد خروجه بمائة يوم وسبعة وتسعين يوما وفى الحال أحاطت العساكر بأطرافها وكان الشاه لما بلغه تقدم الجيش السلطانى أتى من تبريز بالجيوش والتقى بعساكر الدولة على شاطئ الدجلة فقاتلوه قتالا شديدا ثم هزموه هزيمة منكرة ثم شددوا الحصار على بغداد وسلطوا المدافع على الابراج وكانت مائتى برج فخربت وهدمت كثيرا منها وأمر المهندسون بعمل لغم عظيم وملؤه بالبارود ولما أطلقوه هدم جانبا عظيما من الاسوار فلما رأى أهل بغداد ما دهمهم بعثوا إلى الشاه بانهم سيضطرون الى التسليم ان لم ينجدهم فبعث الشاه الى السلطان فى طلب الصلح فلم يقبل منه ثم شدد الحصار وأكثر من الهجوم ليلا ونهارا حتى قتل الصدر الاعظم وبعد مضى أربعين يوما من حصار المدينة استأمن محافظها بكتاش خان فدخلها الفاتحون يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة ١٠٤٨ هـ وقتلوا فى ذلك اليوم من العجم أكثر من عشرين ألفا وأسروا كثيرا من رؤسائهم ولما كان مرض النقرس يشتد بالسلطان ترك أمر الصلح والحرب بيد الصدر الاعظم قره مصطفى باشا الذى تولى بعد محمد باشا ورجع هو الى دار السلطنة سالما غانما منصورا وكان لدخوله فيها احتفال عظيم وكان معه خمسون من خانات العجم بملابسهم مكبلين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من الاسلحة مشتملا جلد نمر كما فعل اسكندر الاكبر حينما فتح مدينة بابل وبعد عودة السلطان طلب شاه العجم الصلح من الصدر الاعظم وأرسل لذلك سفراء على شرط ان تستولى الدولة على بغداد وترد لايران مدينة روان وبعد ان نقل الصدر هذه الشروط الى السلطان وتبودلت المخابرة فيها بين الطرفين تم أمر الصلح وأمضيت شروطه (١٠٤٩هـ - ١٦٣١ م) ثم اشتد المرض بالسلطان فعاجلته الوفاة فى السادس عشر من شوال من السنة المذكورة وكان رحمه الله عاقلا ثاقب الرأى شجاعا له قوة يفوق بها أعظم الابطال حتى لقبه المؤرخون باسكندر الثانى وكان على جانب عظيم من الاقتدار والهمة قبض مع صغر سنه على زمام الادارة وهى على ماهى عليه من الاختلال فاحسنها وقهر المفسدين وقمع العصاة واستأصل الطغاة من جنود اليكجرية الذين قتلوا أخاه ومدحته الشعراء وقد لقب هذا السلطان بمؤسس الدولة الثانى لانه أحياها بعد السقوط ونشرها بعد الحشر بسبب تلك الثورات وأكثر من الفتوحات وأصلح حال ماليتها حتى أمست فى يسر وسن لها النظامات العادلة والقوانين الموافقة

---

(١٨) السلطان ابراهيم خان ابن السلطان أحمد خان الاول

(١٠٤٩ - ١٠٥٨هـ)

لما لم يترك السلطان مراد خان الرابع من يرث تخت السلطنة بعده من صلب آل عثمان الا السلطان ابراهيم جلس هذا على التخت بعد وفاة السلطان أحمد وكان عمره اذ ذاك ٢٥ سنة وأقيمت له حفلة المبايعة على الطريقة القديمة ووزعت عطايا الجلوس على أربابها

وقد زادت اختلاطه بالنساء كثيرا بمجرد جلوسه اكثارا للذرية حتى أدى به الامر أن هام بهن شغفا ولازم الحرم فصار لا يخرج منه وقد أثر ذلك على صحته فأصبح نحيلا ضئيلا ولهذا حاز نساء السراى

السلطانية

السلطانية نفوذا عظيما وتداخلن فى أمور الدولة بأجمعها وبمساعيهن وصل رجل يدعى حسين أفندى ويعرف بخواجه جنجى الى رتبة قاضى العسكر فى زمن وجيز وصار يتداخل فى كل أمور الدولة الان الصدر الاعظم قره مصطفى باشا لما كان من أصحاب الدراية لم ترج لديه هذه الاعمال المفسدة وبمساعيه تمكن من قطع دابر هؤلاء الاشقياء (١٠٥٣ هـ) وتمكن أيضا من تسوية مسئلة المسكوكات وكانت من المسائل المهمة أحدثت ارتباكا فى أحوال الدولة وفى سنة ١٠٥٠ سعى هذا الوزير حتى جدد المعاهدات مع الدول الاوروباوية وكل ذلك بمشاورة ومساعدة والدة السلطان المسماة ماهيكر سلطانة وسوى المعارضات التى حدثت بخصوص حدود النمسا والمجر على حالة ترضى الطرفين ثم أتت الجزية من بلاد الاردل وراغوزة والهدايا من الروسيا والعجم على يد السفراء فراجت الاحوال ولما كان استعمال التبغ لا يزال ممنوعا لما أفتى به بعض العلماء ولما أحدثه من الاضرار شدد هذا الصدر فى هذا المنع حتى انه لشدة التضييق والجزاء على مستعمله قالوا ان أكل الافيون واستعمال السعوط راجت سوقهما فى جهات غلطة وفى سنة ١٠٥١ قبض على الاشقياء الذين حرقوا كنيسة بروسة وعاقبهم أشد العقاب وبعث بقوة عسكرية الى ولاية بغداد لردع العربان الذين أخذوا فى قطع الطريق ونهب القرى فأعاد النظام والسكينة بالولاية المذكورة

احوال البحرية فى العهد المذكور – لما تعين سياوش باشا لمسند القبودانية (١٠٥١ هـ) خرج بالدونانما لاسترداد قلعة ازاق الواقعة شمالى بحر ازوف وكان القوزاق استولوا عليها فى زمن السلطان مراد الرابع الا انه لما لم ينجح عزل وتوفى بعد أيام غما على ما أصابه وخلفه فى رياسة البحرية أوزون پياله باشا فخرج بالدونانما الى البحر الاسود ومعه جيش مركب من ٢٦،٠٠٠ مقاتل تحت قيادة اسلام باشا وتمكن من استرداد ازاق وتعقب القوزاق حتى قطع دابرهم من تلك الاطراف وعاد الى دار السلطنة ظافرا غانما لتمضية فصل الشتاء وفى ربيع سنة ١٠٥٣ هـ خرج الى البحر الابيض وقبض على سفينة لقرصان الفرنج وأحضرها معه الى الاستانة ولما وصل رموه بتهمة قتل بسببها وخلفه على رياسة البحرية والى رودس أبو بكر باشا (١٠٥٤ هـ) وخرج بالدونانما فى فصل الربيع كالمعتاد وبعد تجوله فى البحر الابيض المتوسط وعودته الى الاستانة عاجلته الوفاة وخلفه فى رياسة البحرية القبودان يوسف باشا الذى اشتهر بفتح قلعة خانية من أعمال جزيرة كريد وبعد عزل قره مصطفى باشا من الصدارة لسبب عسر المالية الذى حصل من كثرة وجود العدد العديد بالسراى من الجوارى خلفه سلطان زاده محمد باشا (١٠٥٤ هـ) ولاختلاف حصل بينه وبين القبودان يوسف باشا عزل وولى الصدارة من بعده صالح باشا فلم يلبث فيها الا أياما ثم عزل ووجهت الى هزار پاره أحمد باشا (١٠٥٧ هـ) وكان دنيئا مرتشيا لهذا خرجت عليه الجنود وقتلوه

ابتداء محاربة جزيرة كريد (١٠٥٥ هـ) – لما رأت الدولة العثمانية انه صار فى قبضتها معظم سواحل البحر الابيض المتوسط وخصوصا سواحل أفريقية رأت أن من الضرورى فتح جزيرة كريد لحفظ وحراسة ممتلكاتها وسواحلها لان موقع الجزيرة الجغرافى يستدعى الاهتمام بذلك فأخذت تتخير الاوقات وتنتهز الفرص وبينما كانت المانيا وأوروبا مشتغلة بحروبها بخصوص

مسألة البروتستانت اتفق انه فى سنة ١٠٥٤ هـ (١٦٤٤ م) تعدت بعض سفن قرصان مالطة وقبضت على سفينة عثمانية تجارية كان بها حجاج وبينهم سنبل أغا أغاى دار السعادة ولما وصلت سفن القرصان المذكورة الى جزيرة كريد تقاسم أصحابها ما بها من الاسلاب مع حاكمها ليدافع عنهم وبعد ان أقاموا مدة فى هذه الجزيرة ارتحلوا عنها الى جزيرة مالطة وأخذوا معهم تلك السفينة هذا ولما علم السلطان بهذا الخبر غضب جدا على هذه التعديات وأصدر أمره فى الحال لجميع دور الصناعات ببذل الاهتمام فى بناء السفن واصلاحها لتقوية الدونغما وأمر الولايات بتجهيز الجيوش وعين القبودان يوسف باشا الذى تقلد رياسة البحرية (١٠٥٤ هـ) بعد أبى بكر باشا سردارا على الجيوش أيضا وبعد ان استعرض هذا القائد جنود البحرية فى نظارة البحرية وزعهم على السفن (١٠٥٥ هـ ١٦٤٥ م) ثم أقلع بالدونغما وكانت مشكلة من ١٥٠ سفينة حربية بها نحو مائة وخمسين ألف قنطار من البارود ونحو خمسين ألف من مقذوفات الحديد وخمسين مدفعا للحصار وغير ذلك من الآلات الحربية الاخرى ولما خرجت هذه العمارة من الدردنيل توجه منها تسعون سفينة لميناء سلانيك وستون سفينة لميناء چشمه لتأخذ منهما العساكر التى كانت استعدت بالجهتين المذكورتين واكترت العمارة أيضا خمسين سفينة تجارية لحمل الارزاق والمهمات وبعد ذلك قصدت هذه السفن جميعها ميناء ناوارين للسفر منها الى مالطة بعد أن التحق بها أساطيل طرابلس الغرب وكانت ثمانية تحت قيادة حاكم طرابلس عبد الرحمن باشا وبوصولهم جميعا الى ميناء ناوارين أخذوا المياه اللازمة لهم ثم دعا السردار كافة الامراء وقرأ عليهم الفرمان السلطانى الآمر بالسفر الى كريد لاجل فتحها ثم أبحرت العمارة قاصدة تلك الجهة الى أن وصلت الى ساحلها وأنزلت الجيوش فى مكان يدعى غرامبوسة ثم وصلت الجيوش بعد يومين قرب بلدة خانية وبقيت على بعد أربعة أميال منها بين ساحل كريد وجزيرة ايا تودورى (Théodoro) ثم ألقت مراسيها وخرج منها كوچك حسن باشا بكلربك الروملى بعساكره وكل من مراد أغا كتخداى اليكچرية ومن معه من الجنود بمهماتهم وعددهم وعسكر وابشالطى ئهير بلاطانية واستولت الدونغما على القلعتين الموجودتين بجزيرة تودورى المذكورة ثم حاصرت الجيوش قلعة خانية الشهيرة من كل جانب الى ان استولت عليها بعد خمسين يوما من حصارها وذلك فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) وبعد مضى أربعة عشر يوما من افتتاحها حضرت عمارة البنادقة لما علموا بمجىء العثمانيين تحت قيادة الاميرال العام بارونيمو موروزونى (Morozini) فمرت امام القلعة المذكورة ثم دخلت ميناء سودة وهو أكبر ثغر فى جزيرة كريد وبعد ان جمع الاميرال المذكور كافة سفن البنادقة الموجودة بمياه الجزيرة المذكورة فى مركز واحد خرج بها وأتى امام خانية وكانت السفن الكبيرة من الدونغما العثمانية مستقبلة بجوار جزيرة ايا تودورى وكانت الصغيرة فى ميناء خانية وكان البنادقة طلبوا مساعدة أوروبا فلم تجبهم لقيام الحروب بين ممالكها وأرسل لهم أهل مالطة عشرين سفينة وأمدهم الفرنسويون بالنقود سرا لمخافة الاخلال بالمعاهدات التى بينهم وبين العثمانيين ولما أراد سردار الجيش اخراج الدونغما فى صباح اليوم المذكور لمحاربة البنادقة اتفق قيام زوبعة قوية جلبت اضرارا عظيمة بعمارة البنادقة

فانهزمت

فانهزمت بدون قتال و بينما هى تسير صادفها فى الطريق ثلاثة غلايين من الدونمنما العثمانية فاشتبك القتال بينهما و بعد قتال عنيف أسر البنادقة غليونا واحدا وتمكن الاثنان من الهرب ولما أخبر تابعا حصل أقلع قبودان باشا سريعا بالدونما العثمانية مقتفيا أثر عمارة البنادقة فلم يتمكن من لحاقها ولما عاد الى خانية أخذ فى اصلاح ما تخرب من قلعتها ووضع بها العدد الحربية والارزاق وأبقى بها أحد القواد ولما عاد هو بالدونما الى الاستانة أمره السلطان بنقل حسين باشا القبودان الاسبق ومن معه من العساكر الى جزيرة كريد للمحافظة ثم عادت الدونما الى الاستانة لحلول عيد الفطر ثم ان السلطان أصدر أمره الى القبودان يوسف باشا بأن يخرج بالاساطيل لفتح قلعة قنديه ولما كانت بعض سفن العمارة محتاجة للاصلاح سيما وان فصل الشتاء قارب الحلول طلب ارجاء هذا الامر للربيع حتى تتم الاصلاحات اللازمة فتغير خاطر السلطان من هذا القبودان وسعت الوشاة فى حقه الى ان قتله السلطان هو واخرين وعين بدله لرياسة البحرية الوزير موسى باشا فابحر فى فصل الرابيع قاصدا جزيرة كريد ولما وصل الى جزيرة اغريبوز (Ngrepont) تلاقى مع سفن للقرصان فاراد ضبطها الا انه قتل فى المعركة وتعين بدله الدفتردار موسى باشا قبودانا عاما للعمارة وأمره السلطان بالذهاب الى البحر الابيض المتوسط لنقل عساكر من الروملي والاناضول الى جزيرة كريد وقد صادف فى أسفاره موانع كبيرة ومشقات عظيمة من سفن الاعداء والقرصان فعزل من القبودانية وتعين بدله فضلى باشا الداماد فقام بما عهد اليه وأخذ فى نقل الامداد والذخائر الى جزيرة كريد وصادف مرة عمارة للبنادقة ووقع بينها وبينه محاربة لم تكن ذات شأن يذكر و بعد عودته عزل وتعين بدله محمد باشا عمادزاده (١٠٥٦ ه) ولما كانت جزيرة كريد ذات أهمية عظيمة تجارية وعسكرية وكانت البنادقة يخشون جدا من سقوطها فى يد الدولة العثمانية كانوا لا ينفكون عن عرقلة مساعى العثمانيين والتعرض لسفنهم فى البحار حتى انهم فى سنة ١٠٥٧ ه (١٦٤٧ م) أرسلوا الجنرال طوماس موروزونى بعمارة مشكلة من ٢٤ سفينة من نوع القليون الى بوغاز الدردنيل لمنع الامدادات التى ترسلها الدولة العثمانية الى جزيرة كريد وتمكن الجنرال المذكور من الاستيلاء على قلعة جزيرة بوغجه اطه (Ténédos) الواقعة فى فم المضيق المذكور ولما أراد محمد باشا الخروج بالعمارة لم يتجاسر جبنا منه فأمر السلطان بقتله حيث وجد بجهة البوغاز وتعين ونيق أحمد باشا مكانه قبودانا وكانت الدولة أرسلت فى خلال ذلك أسطولا بحريا مركبا من خمس سفائن تحت قيادة حسين باشا ومعه جيش برى فتمكن فى وقت قريب من ضرب سفن الجنرال طوماس المذكور وطرد عساكره من جزيرة بوغجه اطه المذكورة ومن قلعتها وانهزمت عمارة البنادقة شر هزيمة نظرا لما لحقها من الدمار فأقلعت الى خليج المعارض فقابلتها الدونما العثمانية التى خرج بها ونيق أحمد باشا و بعد محاربة قوية تدمرت سفن الاعداء تدميرا وتمكنت الدونما من توصيل الامدادات والذخائر الى الجيش العثمانى المحاصر لمدينة خانية من كريد التى فتحت بعد قليل (١٠٥٥ ه) ولما وقعت بعض مدن جزيرة كريد فى يد العثمانيين خصوصا مدينة خانية انتقم البنادقة بأن أحرقوا ثغور متون و بتراس وقورون من بلاد مورة و يقال ان السلطان هم فى مقابلة ذلك بقتل جميع النصارى الموجودين فى مماليكه لولا معارضة شيخ الاسلام أسعد زاده على سعيد افندى أما ما بقى من عمارة البنادقة فانه وصل بعد الجهد الى فرضة سودة من أعمال كريد

وانضم الى مابها من السفن البندقية لمساعدة قلعة سودة وإمدادها بالاقوات والذخائر ولذلك تأخر فتحها وقد اتفق وفاة السردار محمد باشا فصمم دلى حسين باشا الذى خلفه (١٠٥٦ هـ) على ترك حصار قلعة سوده الى وقت آخر وتوجه بالجيش وحاصر قلعة ريمو الان الاعمال العسكرية اعتراها تراخ وبطء لما هو حاصل اذ ذاك من الاضطرابات الداخلية التى امتد شرها الى نفس دار السلطنة حتى قتل فيها الوزير الاعظم صالح باشا وامتدت الفتنة الى الروملى بتكاسل واليها ابراهيم باشا وكان السلطان ابراهيم يأمر كل يوم باعدام بعض الوزراء والكبراء علّه يتمكن من اخماد الفتنة الا أن ذلك كان سببا فى زيادة اشتعال نيرانها وقتل الوزير أحمد باشا الذى تولى بعد صالح باشا وكانت والدة السلطان تستعمل كل الوسائل لتسكين الاضطراب ولكن تعسر عليها الوصول الى المرغوب ولما ازدادت الاضطرابات بالاستانة وكان منبعها فى الحقيقة ضباط اليكجرية أراد السلطان الفتك بهم فى ليلة زفاف احدى بناته على الصدر الاعظم لانتقادهم أعماله وميلهم المستمر الى المداخلة فى أعمال الدولة ولما علموا ماعزم السلطان عليه أجمعوا آراءهم وتآمروا على عزله وانضم اليهم بعض العلماء وأثاروا اليكجرية والسپاهية فتم لهم خلعه وسجنوه وولوا ابنه محمد خان الرابع الا أنه بعد أيام من عزل السلطان ابراهيم تذمر السپاهية وأظهروا عدم ارتياحهم من السلطان الجديد لصغر سنه وهموا باقعاد السلطان ابراهيم على كرسى الخلافة ثانية فخشى عند ذلك رؤساء العصابة التى عزلته من ان يبطش بهم ان عاد وصمموا على قتله ثم ذهبوا الى السراى ومعهم الجلاد قره على فقتله خنقا (١٠٥٨ هـ) وقد كان هذا السلطان غير ميال الى الحرب الا أنه كان شديد المحافظة على كرامة الدولة لا يغتفر لمن يمسها بسوء أصلا

الفصل العاشر

من صدارة كوپريلى محمد باشا الى معاهدة قرلوفچه

١٠٦٦ - ١١١٠ هـ

السلطان محمد خان الرابع ابن السلطان ابراهيم خان

(١٠٥٨ - ١٠٩٩)

تولى هذا السلطان وعمره سبع سنوات وكان أكبر إخوته ولما تقلد السيف وأقيمت له الرسوم المعتادة وصرفت للجنود ماجرت به العادة من الاموال أخذ ينظر فى الاعمال بمساعدة وزرائه فقتل عدة من رؤساء الفتن مثل جنجى خواجه وأضرابه وقد صودرت أموال هذا الرجل فبلغت ألفى ألف من الذهب وكانت الاحوال مختلة لقيام الجنود بالافساد فى كل جهة وخلعهم طاعة أولياء أمورهم وقتل الصدر الاعظم صوفى محمد باشا من الجنود الثائرة نحو ثلثمائة ومع ذلك فلم يرتدعوا ثم عزله السلطان وسلم خاتم الصدارة الى قره مراد أغا أغا اليكجرية فجمع هذا هيئة جديدة من ضباط اليكجرية واشترك معهم فى ادارة شؤن الدولة ولما ظهر له أنه لا يمكنه ادارة الامور استعفى وتولى ولاية بودين ووجهت الصدارة الى ملك أحمد باشا (١٠٦٠ هـ) ومع تعاقب عزل وتنصيب الصدور لم

تحصل فائدة بل كانت الثورات متوالية تارة من اليكجرية وتارة من السپاهية وطورا من الاهالى وقد تداخلت جدة السلطان المسماة ماهپيكر فى ادارة الدولة وكانت هذه السيدة من أفاضل النساء عقلا وتدبيرا وكانت رأت حكم أربعة من السلاطين فاكتسبت عقلا وتجربة وقد أعانت كثيرا على اصلاح الاحوال ثم سعوا فى حقها حتى قتلوها وقتل معها كثير من ضباط اليكجرية والكبراء وأحيلت مشيخة الاسلام الى شيخ الاسلام الاسبق أبى سعيد أفندى ثم عزل الصدر الاعظم وتولى بعده كورجى محمد باشا ولم يلبث أياما حتى خلفه طرخونجى أحمد باشا (١٠٦٢ ﻫ)

احوال البحرية فى المدة المذكورة — اعلم انه بما كانت عليه الدولة فى هذه المدة من الاختلال وفساد الادارة والاحكام انتهز البنادقة فرصة ذلك وأرسلوا عمارة لتهديد مضيق الدردنيل ولما أتت هذه العمارة حصل بينها وبين العثمانيين عدة وقائع يأتى ذكرها ولما رأت الدولة ان سفن البنادقة قوية وجسيمة وان معظم سفنها هى صغيرة أصدرت الاوامر مدة صدارة صوفى محمد باشا الى دار الصناعة بالمبادرة فى بناء وتشييد سفن كبيرة من نوع الغليون لتكون العمارة على الدرجة الكافية من القوة فشرعت دور الصناعة فى العمل وأرسلت الدولة أيضا مبلغا من المال لاوجاقات ولايات المغرب لتجهيز أساطيلها واحضارها فى فصل الربيع لاتمام فتح كريد ثم فى سنة ١٠٥٨ ﻫ (١٦٤٨ م) أقلعت العمارة العثمانية قاصدة جزيرة كريد تحت قيادة القبودان ونيق أحمد باشا وكانت مؤلفة من ستة غلايين وخمسة وستين غرابا ومعها ما يلزم من الذخائر والادوات ولما وصل خبر قيامها العمارة البنادقة أقبلت سريعا الى بوغاز الدردنيل ورست بقرب المكان المدعو كفز الكائن بالبوغاز فالتقت بها الدونما العثمانية المذكورة حين خروجها وحصلت بينهما محاربة قوية تمكنت الدونما العثمانية فى آخرها من الخروج الى البحر الابيض المتوسط ثم تقابلت العمارتان ثانية ولما صارتا بالقرب من بعضهما أخذتا فى اطلاق المدافع مدة على غير طائل ثم انسحبت عمارة البنادقة الى جهة ايمروز (Imbros) أما الدونما العثمانية فانها رست تحت قلعة فوجه (Foggia-Nova) وفى صباح اليوم التالى حملت عمارة البنادقة على العمارة العثمانية بغتة فقابلها القبودان العام ببعض سفنه وانتشب بينهما الحرب ثم حملت احدى سفن العدو على سفينته ولكن العساكر صدتها ودخلت الى سفينة العدو وتقتل جنودها وبينما هى تجاهد فى ذلك اذ أشعل أحد ملاحى سفينة البنادقة النار فى مخزن البارود فتكسر غليون العدو وطار قطعا فى الهواء وأثر ذلك على السفينة العثمانية التى كانت خلف سفينة القبودان باشا فغرقت وبينما كان القبودان المذكور مشغولا فى هذه الحركة تمكن بعض سفن العدو من ضبط خمس سفائن عثمانية وهربوا بها ولم يتمكن العثمانيون من تخليصها وكانت خسائر البنادقة فى هذه الواقعة غليونين كبيرين وخسائر العثمانيين أربعة غلايين وثلاثة أغربة لان طوائف السفن العثمانية كانوا من الجنود الحديثى العهد بالجندية لم يسبق لهم اجراء تمرينات حربية فضلا عن كونهم من أجناس مختلفة ثم اقلع القبودان باشا بسفنه الباقية قاصدا جزيرة كريد مارا على بعض الجزر الاخرى ولما وصل الى جزيرة رودس قابله اسطول تونس وكان مشكلا من عشرة غلايين وعشرة أغربة فانضم الى العمارة العثمانية ثم التحق بها أيضا ١٨ سفينة آتية من الاسكندرية تحمل أرزا ثم توجه الجميع الى جزيرة كريد وسلموا ما معهم من المهمات والارزاق الى سردار الجيش العثمانى بها وبينما كانت العمارة بكريد غرق ونيق أحمد باشا القبودان فى البحر قضاء

وقد راوخلفه سنة ١٠٥٩ هـ على رياسة الاساطيل بيقلي مصطفى باشا وأقلع بالدونمامن استانبول الى كريد فمات بها وخلفه على رياسة البحرية حيدر أغازاده محمد باشا فعاد بالدونما فى السنة المذكورة ولم يتمكن من الوصول الى مدينة خانية فأرسى امام ريمو وبينما كان يخرج الجنود والذخائر الى البر شاهد دونما البنادقة آتية من قندية فخاف من لقائها وأقلع سريعا بقصد جزيرة مديللى (Mityline) ولهذا اصدر الامر بعزله وتعيين حسام بك زاده على باشا مكانه (١٠٦٠ هـ)
وفى تلك الاثناء قبضت إحدى السفائن العثمانية بمياه الارخبيل على غليون كبير لاهل مالطة ولما أرسل الى الاستانة وشاهده عمال دار الصناعة بها تعجبوا من اتقانه وجودة بنائه وعظم جرمه وكان يحمل سبعين مدفعا فاتخذوه نموذجا لسفنهم وكانت أساطيل العدو جميعها اذ ذاك بهذا القدر والاتقان لان فن انشاء السفن كان ترقى جدا اذ ذاك فى كافة البلاد الاوروباوية وكانت جميع المعامل تبنى سفنها على هذه الهيئة الجديدة المذكورة بخلاف البحرية العثمانية فانها كانت متأخرة فى ذلك الوقت عن مزاحميها من دول أوربا بالعدم التفاتها الى اساطيلها لكثرة مشاغلها ولما أرسلت الدولة أساطيلها ثانية سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) الى بوغاز الدردنيل لطرد عمارة البنادقة المركبة من ٢٢ غليونا و ٨ أغربة تمرد اليكجرية والملاحون وأحجموا عن الهجوم على سفن العدو بدعوى أن سفنهم أكبر وأمتن من السفائن العثمانية ثم لما قامت عمارة العدو من البوغاز خرج أسطول الدولة وتمكن من ايصال الامدادات اللازمة الى جزيرة كريد ثم عاد الى خليج استانبول ولقد كان احجام اليكجرية عن الهجوم وقبض العمارة العثمانية على الغليون المتقدم من الاسباب التى نبهت الدولة الى بناء عدة سفن جديدة على الهيئة الحديثة فأصدر السلطان بذلك مرسوما الى دار الصناعة للاهتمام بذلك فى شتاء السنة المذكورة وقد بذلت البحرية فى ذلك مزيد العناية بحيث لم ينقض فصل الشتاء الا وقد أنزلت الى البحر عدة سفن عظيمة ولما تم تجهيز العمارة (١٠٦١ هـ) كانت مؤلفة من ثلاثين غليونا كبيرا وثلاثين غرابا وست ماعونات وخصصوا لها الملاحين والعساكر اللازمة وتعين لقيادة الجنود الذين نزلوا بها أحمد باشا بكلربك الاناطول مع الضباط واقيمت لذلك الافراح والولائم والزينات الجميلة امام سراى بشكطاش

محاربة نقشه البحرية — لما تم تسليح الدونما وتجهيزها أقلعت من استانبول ثم عبرت مضيق جزيرة ساقز (Chios) حيث التحق بها سفن البكوات ثم قامت بجميع ملحقاتها قاصدة جزيرة كريد وبمرورها على جزيرة نقشه (Naxia) تلاقت مع دونما العدو فى الممر الواقع بين جزيرة دكرمنلك (Milo) وجزيرة بوليقاندرو (Policandro) وكانت مركبة من ستين غليونا ثم وقع الحرب بين الطرفين وامتد من الصباح الى المساء وكان قاصرا على اطلاق المدافع من الجانبين بشدة بحيث أضر بالطرفين ولما أقبل المساء انسحب حسام بك زاده على باشا ودخل فى ليمان نقشه وأمضى الليل هناك يصلح ما لحقه التلف من سفنه وأخذ المياه العذبة اللازمة وفى الصباح خرج بالعمارة وكان خروجه بهيئة غير منتظمة فقابلته دونما العدو باطلاق المدافع واشتبك القتال بينهما ثانيا ثم قسم القبودان باشا العمارة الى قسمين وضع الاول تحت قومندانية كتخدا الترسانة وقاد الثانى بنفسه ثم هاجم العدو من الجانبين واشتد الحرب بينهما وتقاربت السفن من بعضها الا أن الملاحين الذين كانوا بسفن العثمانيين لم يكونوا يشبهون من كان منهم مع

خير الدين باشا باربا روس أومع بياله باشا المشهور بل كانوا من المتشردين الاغمار الذين لم يخوضوا بحار المعامع ويتدربوا على أعمال الوقائع فلهذا لما هجم القبودان على الاعداء لم يجد بجانبه سوى عشر سفن فقط وتأخر الباقي الى الخلف تاركين القبودان وسط النيران اما فرقة كتخدا دار الصناعة فانها لم تتجاسر بالكلية على الهجوم بل ولت الادبار وعند ذلك ارتبك القبودان في أمره وضاع رشده فتقدم أحد القواد المدعو بوصله جي أوغلو وتوسط النيران وربط سفينة القبودان بسفينته وأخرجها سالمة أما سفن كتخدا دار الصناعة الجبان وباقي سفن البكجرية التي هربت فانها بقيت تتفرج من بعيد على القتال فتكدر القبودان باشا من هذه الحالة كدرا لا مزيد عليه وكتب في الحال الاوامر الاكيدة الى قواد السفن يأمرهم بالعودة الى قتال العدو ويخوفهم عاقبة الامتناع ولما شاهد البكجرية الزوارق قابلة تحمل الاوامر وعلموا مقتضياتها بداهة ملؤا بنادقهم ووجهوها نحو حملة تلك الاوامر قائلين ان ليس منهم من يخاطر بنفسه الى هذه الدرجة ويلقيها في الهلاك وبذلك لم يمكن تبليغ تلك الاوامر لاربابها وقد نشأ عن هذه الحالة التعيسة تعطيل سفن الجبجية وبعض الغلايين عن الحركة لما أصابها من التلف واحترق الغليون الكبير الذي كان بناه الوزير الاعظم وقليون آخر مشحون بالعساكر ولم يقبل البكوات أيضا الهجوم على الاعداء ثم هجم الاعداء على السفائن المعطلة وقتلوا جميع من بها واستولوا عليها ومازال أحمد باشا بكلربك الروملي المذكور يقاتل الاعداء بغليون واحد فقط الى ان قتل في الواقعة واستولى الاعداء على غليونه بمن فيه وقصد سفينتان من سفن البكجرية البر وخرج من بهما فاحرقهما الاعداء وقبضوا على غالب من كان بهما وقتلوهم عن آخرهم

ولما رأى القبودان باشا ان لا فائدة في البقاء أخذ ما بقي من السفن وفر الى جزيرة رودس والتحق به هناك باقي السفائن التي كانت تفرقت عنه ثم عقد مجلسا حربيا بسفينته لمحاكمة كل من تمرد أو اخطأ أو قصر في واجباته من العمال وفرض على كل ما يناسبه من العقاب وكان منهم كتخدا الترسانة المذكور الذي كان تولى رياسة أحد قسمي الاساطيل كما سبق وكان الحكم عليه بالتجريد من الدرجات وحلق لحيته (وكان هذا الامر في الوقت المذكور من الاهانات العظيمة) وجعله مع طائفة الفورسة التي تعمل بالمقاذيف ثم بعث تقريرا مفصلا عن ذلك كله الى استانبول وتعين قورد جلبي كتخدا للترسانة مكانه ثم أقلعت الدونغما من رودس الى كريد لتسليم ما بها من الارزاق والذخائر الى سردار الجيوش ثم عادت الى الاستانة

وفي أوائل جمادى الاولى من سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) جهز القبودان علي باشا الدونغما لتوصيل الذخائر والمهمات الى جزيرة كريد ولما وصل الى چناق قلعه وجد دونغما البنادقة راسية امام كفز محاصرة للبوغاز مانعة عبور الاساطيل فانتهز القبودان ظلام الليل وتمكن من اخراج ثمانية سفائن مشحونة بالارزاق بدون ان يشعر به العدو وأما القبودان فانه سافر برا حتى وصل الى جزيرة مديللي وهناك ركب السفن المذكورة وأخذ معه كثيرا من سفن أمراء البحر وبينما هو ذاهب الى كريد أراد فتح جزيرة استنديل (Tino) وأخرج جملة من العساكر لمهاجمتها وبينما هو في ذلك اذ حصلت زوبعة منعت السفن الوقوف وشتتها وبينما هو يلم شعثها اذ هاجمه العدو وألحق به خسائر جمة وأخيرا قصد جزيرة كريد وأخرج بها ما معه من الذخائر والمهمات ولما

عاد الى استانبول وقدم تقريره رأوا منه سوء التدبير فعزل من رياسة البحرية وصادروه وعينوا مكانه جركس درويش محمد باشا ولما أقلع هذا بالعمارة (١٠٦٣ ﻫ ١٦٥٣ م) قصد جزيرة كريد ثم حاصر قلعة سلنه واستولى عليها عنوة فكتب السردار حسين باشا الى الاستانة يشتكي منه ويقول ان أهالي القلعة المذكورة قدموا له الطاعة من مدة وقبلوا دفع الجزية ولهذا كان عمل القبودان مما لا فائدة فيه غير الخسائر ثم أقلع القبودان الى جزيرة رودس ثم أتت عمارة البنادقة وحاصرت الميناء فلم يتجاسر القبودان على الخروج ولبث بالجزيرة مدة ولما علم السلطان بالحالة التي عليها القبودان وجه مسند القبودانية الى جاويش زاده محمد باشا فخرج بالدونما وأوصل الذخائر الى جزيرة كريد ولما عاد عزل ووجه مسند القبودانية الى الوزير مراد باشا بكلربك بودين في السنة المذكورة وقد بذل هذا الوزير مزيد الهمة في تقوية العمارة ورتب أمورها ونظم أحوالها ودرب رجالها وشيد جملة غلايين عظيمة وكثيرا من السفن الحربية الاخرى وكتب الى جميع وجاقات بلاد المغرب بأخذ الاهبة والاستعداد سريعا ثم أتى من طرابلس الغرب أسطول مؤلف من سبعة غلايين تحت قومندانية محمد أغا حاكم طرابلس وهو من أمراء البحرية المحنكين المشهورين وكان بصحبته القبودان كوجك محمد وكان من البحارة الخبيرين فضمهما القبودان اليه للاستعانة بآرائهما ثم عقد مجلسا منهما ومن خلافهما للنظر في أحوال العمارة العثمانية ومايلزمها من المعدات والتحسينات وأنعم السلطان على جميع جنود وقواد أسطول طرابلس بالهبات والصلات ثم قسموا العمارة الى أقسام وتعين لكل قسم قائد مخصوص مسؤل عن ادارة سفن قسمه وتنظيمه وقد استمرت التجهيزات والتعليمات طول فصل الشتاء حتى أصبحت الدونما على غاية من الاستعداد

وكانت مالية الدولة في ذلك العهد وصلت الى دركة عميقة من الفاقة لاشتغالها بازالة الغوائل الداخلية والخارجية الكثيرة فأوقع هذا الامر الوزراء في الارتباك وعطل يدهم عن اجراء الترقيات فاهتم لذلك الصدر الاعظم طرخونجي أحمد باشا بسن لوائح جديدة (١٠٦٣) قال فيها ببعض المصاريف وعدل الضرائب وفرض بعض رسوم جديدة ولما أخذ الولاة والمامورون يعملون بمقتضاها ظهرت الشكاوى وتمرد اليكجرية وأخذوا في الافساد وفي تلك الاثناء حصلت محاربة بشيكة البحرية الآتية الذكر

واقعة بشيكة الشهيرة — اعلم انه في ٢١ جمادى الآخرة من سنة ١٠٦٤ ﻫ (١٦٥٤ م) صدر مرسوم سلطاني للقبودان مراد باشا بأن يتوجه بالدونما الى كريد ولما أراد العبور من بوغاز الدردنيل وجد في ساحل خليج بشيكة (Beshika) عمارة البنادقة وكانت مركبة من ٢٦ قليونا فتربص القبودان في البوغاز الى ان وصلته أربعة غلايين تونسية وسفن البكوات وبعد ان انضمت الى أساطيله واستعرضها عزم على الهجوم على عمارة الاعداء وعباها على الكيفية الآتية فجعل الغلايين الحاملة لعساكر الايالات وسفن البكوات في الجناح الايمن وجعل غلايين طرابلس الغرب وغلايين الدولة العثمانية في الجناح الايسر وجعل المواعين والاغربة التي بها اليكجرية في القلب ثم تقدم بالجميع هاجما على سفائن البنادقة الذين لم تحصل منهم أدنى حركة حربية اتكالا على مانالوه قبل ذلك من الانتصارات العديدة على أساطيل العثمانيين ولم يشعروا الا والمراكب العثمانية محدقة بهم من كل صوب والتصقت بسفنهم فاعترتهم الحيرة والاندهاش الكلي وحل

غليون أمين قبودان القاسم باشا الى على أحد غلايين البنادقة فضبطه من أول هجمة وضبط غزاة طرابلس الغرب غليونا آخر من العدو وهجمت احدى المواعين على غليون ثالث ولما كادت تستولى عليه أشعل جنوده النيران فى مخزن بارودة فتفرقع و وقع معظم عساكره فى البحر فالتقط جنود العثمانيين من منهم على قيد الحياة وأسروه واشتعلت النيران بغليون رابع وقبض العساكر العثمانية الذين كانوا تحت قيادة محمد قبودان الاسكندرى على غليون خامس ولما صعدوا فيه أشعل أحد طائفته النار ببارودة فطار مع مركب محمد قبودان الاسكندرى المذكور لانه كان ملاصقا له والتقط العثمانيون من كان على قيد الحياة من جنودهما وقبض العثمانيون أيضا على ثلاثة غلايين أخرى وعند ذلك نشر أميرال البنادقة قلوعه وكانت الريح تهب بشدة والتجأ الى الفرار وتبعه بقية السفائن الى جزيرة اغريوز وكانت خسارة البنادقة ثمانية غلايين من فيها غنم العثمانيون خمسة منها واحترق ثلاثة وكان بالسفن التى غنمها العثمانيون ثمانمائة أسير منهم ابن الجنرال نيقو وكاتب سره وكان الجنرال قتل فى الحرب ثم ان الدونما العثمانية انتقلت أمام بوغجه اطه فى ليمان بوراز وهنالك دفن العثمانيون موتاهم ثم بعث القبودان الكتخدا قره كوز محمد افندى الى استانبول لاخبار الدولة بذلك رسميا وطلب ما يحتاجه من ذخائر وجنود وأدوات ولما بلغ هذا الرسول رسالته أنعم عليه السلطان وأمر بالاسراع فى انجاز مطلوبه و بعد أن وصل الى العمارة ما يلزمها أقلعت قاصدة جزيرة ساقز وهنالك انضم اليها احد عشر غليونا من أسطول طرابلس الغرب ثم سافرت الى جهة اغريبوز ثم وصل الى الحكومة العثمانية خبر حاصله أنه لما بلغ جمهورية البنادقة انهزام عمارتها كما سبق أرسلت اليها ١٨ غاليا و ٢٨ غليونا لتقويتها وأنها حضرت الى جزائر الارخبيل أما العثمانيون فانهم ذهبوا الى جزيرة استنديل وكانت بيد البنادقة وأخرجوا فيها فرقة من جنودهم فعاثوا بالجزيرة ثلاثة أيام ثم عادوا غانمين الى سفنهم

ولما بلغ القبودان باشا أن دونما البنادقة بجزيرة كرمنلك (Milo) أقلع اليها وهاجمها ثانى يوم وصوله قرب كوجك كرمنلك (Anti-Milo) وكانت سفن العدو على غاية ما يكون من الاحتراز من مهاجمة العثمانيين لها ولهذا استمر الترامى بالمدافع بينهما من بعيد ولاشتداد الريح ومخالفته لم تتمكن الاساطيل العثمانية من القرب من سفن العدو ولهذا بقيت طول النهار ترمى بالمدافع ولما أسبل الليل سدوله انفصل الدونمتان عن بعضهما وعاد القبودان باشا الى ساقز وترك الغلايين والسفن الجسيمة فى جهة فوجه وخصص خمسين غليونا تسير حول سواحل الروملى ثم ذهبت تلك الغلايين الى جزيرة اغريبوز واستمرت فى جهات الارخبيل مدة لم تصادف دونما العدو ولا سفن القرصان أما القبودان باشا فانه ذهب الى كريد حيث تلاقى مع السردار العثمانى ثم مر بجزيرة رودس ثم قصد أزمير و بعد أن أمضى بها عيد الفطر رخص لامراء أساطيل الغرب والبكوات بالعودة الى بلادهم وعاد هو الى دار الخلافة ومعه الغنائم والاسرى فرحب به السلطان وأنعم عليه والتمس من السلطان ابقاء طواقم السفن وعساكرها على ما هى عليه حيث كان المعتاد أن يوزعوها فى فصل الشتاء فأجيب طلبه ونتج عن ذلك تحسينات مهمة فى العمارة واكتسب ملاحوها وعساكرها مهارة تذكر

محاربة كفرز البحرية — لما علمت الدولة بحضور دونما البنادقة الى جهات البوغاز أمرت القبودان مصطفى باشا الارنؤدى بالخروج بالدونما وكان تولى رياسة البحرية بعد مراد باشا فخرج فى أوائل شعبان من سنة ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥ م) فوجد عمارة البنادقة أمام كفرز فاراد مهاجمة الغلايين الامامية منها الا أن سكون الريح لم يمكن غلايينه من الحركة بالاشرعة وساقها التيار قسرا الى ساحل الروملى فاشتبك بين الطرفين الحرب بالمدافع من وقت الزوال الى الغروب وكانت أتلاف الطرفين كثيرة حتى تغطى سطح البحر بقطع السفن وقد أظهر كثير من العثمانيين فى هذه الواقعة تجلدا وصبرا جديرا بالذكر وأغرق العثمانيون للبنادقة غليونين وفقد العثمانيون تسع سفن ثم أخذ القبودان الدونما وذهب الى ساقز وذهب البنادقة الى جزيرة كرملك ولما بلغ القبودان باشا أن البنادقة حاصروا جزيرة نقشة للاستيلاء عليها قصدها بعمارته فهرب العدو وخاف لقاءه وقد عد المؤرخون هذه الجسارة للقبودان تعويضا لخسائره التى فقدها فى الواقعة السالفة

وفى سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) ورد تقرير من حسين باشا سردار كريد يعلم بضعف حالة الجنود بها وقلتهم وأنه يتعذر فتح قلعة قندية لذلك بل ربما حصلت صعوبة فى المحافظة على القلاع التى صار الاستيلاء عليها وأنه اذا لم تهتم الدولة فى فتح باقى الجزيرة فى تلك السنة فالاولى تسليم القلاع التى بيد العساكر الاسلامية الى الاعداء واخراج الحامية منها فاعقد الوزراء مجلسا للبحث فى طريقة نهائية ومن جهة أخرى كانت البنادقة أتتها نجدات من حكومات أوروبا فاكتسبت بذلك قوة وكثرت سفنها حتى بلغت سبعين سفينة حربية فتمكنت من سد بوغاز الدردنيل ومنعت العمارة العثمانية من العبور وفى خلال ذلك هرب من سفن البنادقة أحد القبودانات ومعه ثلاثون نفرا وسلم نفسه الى مصطفى باشا جتال باش محافظ البوغاز واعتنق الديانة الاسلامية ولما أرسل الى الاستانة عينته الدولة فى دار الصناعة برتبة قبودان قليون وفى تلك الاثناء عزل القبودان مصطفى باشا من رياسة البحرية وكان جديرا بمنصبه عالما بكافة أمور ومصالح دار الصناعة له دراية تامة بايراداتها ومصروفاتها وكانت الاعمال بها فى أيامه جارية على أحسن نظام هذا خلاف معلوماته فى فن الملاحة وتجاربه العديدة وجسارته وكانت أمراء اللوندات تعتمد عليه وتحسب له حسابا وتعين بدله حاليجى زاده مصطفى باشا (١٠٦٦ هـ) ولما كان من أصحاب الثروة المترفين لم يقبل هذا المنصب المحفوف بالاخطار والمشاق فعين لولاية مصر وتعين بدله جركس كنعان باشا

محاربة چناق قلعة البحرية — اعلم ان القبودان كنعان باشا هذا لم يكن من الرجال البارعين فى ادارة الامور ولا من الذين يعتمد عليهم فى مثل هذا المنصب المهم فقد كان حريصا على نوال الالقاب ولهذا فانه لم ينظر الى ما عليه الدونما من الضعف وعدم النظام خوفا من ان طلباته تضايق مالية الدولة فيضطر للاستقالة فأبقى الحالة على ماهى عليه ثم أقلع بالعمارة سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) وكانت مركبة من سبعة غلايين وسبع ماعونات وخمسة وأربعين غرابا ولم يكن بها ما يكفى من الجنود المتدربين ولما وصل الى البوغاز أرسى امام قلاع الاناضول ولما شاهد سفن البنادقة وما هى عليه من الانتظام والاستعداد خاف وداخله الرعب وعقد مجلسا عند محافظ البوغاز وتقرر فيه انه لوجود النقصان بسفن الدونما الهمايونية اذا هاجمت دونما الاعداء الكثيرة العدد المتقنة النظام

لابدوان يلحق بالعثمانيين خسائر عظيمة وكتبوا بذلك قرارا ولما أراد القبودان ان باقى القواد يوقعون عليه امتنعوا وقالوا ان القرار من خصائص القبودان ان شاء قدمه وان شاء تركه ثم قام بعض الجنود وهم اللاوندات وطلبوا علوفاتهم كالمعتاد فاجيبوا بانها تصرف لهم بعد المحاربة فلم يقبلوا ذلك بل تركوا السفائن وخرجوا ولم يعودوا فحدث نقصان زائد فى افراد المراكب وقد أثر هذا التذمر والخلف على باقى الطائفة حتى أدى بهم الى الفوضى ثم ان القبودان باشا قرر الهجوم على الاعداء فى اليوم الرابع من شهر رمضان من تلك السنة الا أن من بقى من الجنود عصوا وقالوا انه لا يمكن مباشرة الحرب بهذا النقصان وترك غالبهم السفن وخرجوا منها هاربين ومع ذلك فان القبودان صمم على مهاجمة العدو بمن بقى معه واتفق ان قامت ريح جنوبية غربية عند تحرك الاساطيل كانت سببا لحصول الخلل فى حركة سير السفن ثم ابتدأت سفائن العدو فى اطلاق مدافعها وأخذت تهاجم العثمانيين بقوة حتى اختل نظامهم وتلاطمت السفن مع بعضها من شدة التيار وارتبكت أعمالها فاعترى الجنود من ذلك دهشة كبيرة وعولوا على الهرب وسار بعض الجنود بالسفن نحو الشاطئ لاجل أن ترتطم به ثم يفرون خلاصا من الموت وامتنع البعض عن اجراء الحركات الحربية بالمرة فارسل القبودان عند ذلك بعض السفن الخفيفة لتحريض عمال السفن المذكورة الا أن نيران مدافع العدو منعت تلك السفن من التقرب ثم اشتد الخوف بطوائف السفن الباقية وتلاعبت بها الريح حتى ضاعت بتمامها تقريبا أما القبودان باشا فانه تمكن هو وبعض السفن من النجاة والتجؤا الى قلعة برالاناضول ورسوا امامها ولما رأى محافظ القلعة ان العدو لا يزال يقرب هاجما وان مدافع القلعة لا تؤثر فى سفنه لوجود السفن العثمانية امام خط نيرانه طلب من الدونما العثمانية الابتعاد قليلا فلم يصغ القبودان الى أقواله ثم اقتربت دونما العدو جدا حتى استولت على عشرة أغربة أخرى وعلى السفائن التى تحت قيادة عبد الرحمن باشا وجربك كتخدا دار الصناعة وبيرام بك وهمت بك وعلى سبعة غلايين أخرى وأحرقت ١٥ غرابا وماعونتين وعشرين من نوع الغاليتة وقد بلغت خسائر العثمانيين فى هذه الواقعة المؤلمة نحو سبعين سفينة ولم ينج من الدونما العثمانية سوى بعض سفن من سفن البكوات ونحو اثنى عشرة من نوع الغاليته ثم ذهبت عمارة البنادقة الى جزيرة بوغجه اطه وبعد ان حاصرتها نحو تسعة عشر يوما استولت عليها ثم قصدت جزيرة ليمنى وأخضعتها أيضا بعد قتال واستولت أيضا على جزيرة ايمروز أما القبودان كنعان باشا فان السلطان أمر فقتلوه عقابا على فشله وعدم تبصره وتعين بدله سيد أحمد باشا قبودانا الا أنه بعد ذهابه بأيام للمحافظة على بوغاز جنق قلعه ظهرت عدم كفاءته فعزل ثم قتل (١٠٦٧ ﻫ) وتعين طوبال محمد باشا قبودانا ولما كان البنادقة باستيلائهم على الجزر السابقة ضيقوا على العمارة العثمانية جدا وهددوا دار الخلافة كان السلطان والوزراء يتفكرون دائما فى طرد البنادقة من تلك الاطراف وبعد ان أرسلت المهمات والارزاق الى كريد أمر السلطان فشيدوا زمن الشتاء ستين سفينة حربية ولما كملت واستعدت سيروا منها عمارة مؤلفة من ٣٦ من نوع الغاليتة والاغربة وأربع شوانى لمطاردة عمارة البنادقة (١٠٦٧ ﻫ) تحت قيادة القبودان طوبال محمد باشا المتقدم فربها على ساقز ورودس ووجد بجانب جزيرة انجيرلى (Nisero) غليونين لاهل مالطة ينتظرون مرور السفائن القادمة من القطر المصرى بالارزاق للفتك بها فأغرق منهما غليونا وتمكن الثانى من الفرار بعد ان قبض على عدد من طائفتهما ثم

استولى أيضا على عدة سفائن بجوار جزيرة رودس وفى تلك الاثناء ظهرت دونما البنادقة الجسيمة بجوار ساقز واستولت على ١٨ سفينة من السفن القادمة من الاسكندرية حاملة للارزاق وتصدت أيضا للاسطول القادم من جزائر الغرب وكان يؤلف من ثمانية غلايين فدمرته ولما وصلت هذه الاخبار الى دار الخلافة تلقاها الناس عموما بالكدر واليأس أما القبودان باشا فانه لما شاهد دونما البنادقة وما هى عليه من القوة والاتقان لم يتجاسر على الخروج من مينا رودس ولما كانت الاخبار الواردة من جزيرة كريد أيضا تنبئ بما هى عليه الجنود العثمانية فيها من المضايقة والفاقة والضعف اهتمت دار الصناعة بتجهيز أسطول آخر مركب من تسعة عشر غليونا وعشر ماعونات وثلاثين ثمالية وبعد ان شحنت بالادوات وتعين لقيادة الجنود التى بها أحد ضباط اليكجرية المدعو قاسم أغا أقلعت تحت قيادة شمسى باشا وكيل القبودانية

وزارة كوپريلى محمد باشا — قد كانت أحوال الدولة فى ذلك الوقت فى أشد المضايقة وماليتها على شفا الافلاس وجنديتها البرية دبت بينها عوامل التحزب والانحطاط وأباد البنادقة أساطيلها فى عدة وقائع واستولوا منها على عشر جزر مهمة ببحر الارخبيل كل ذلك والدولة فى حالة سبات وخمول لا تمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ولا تقدر على سد شق الا واتسعت منها شقوق حتى قيض الله لها رجلا شهما حازما ووزيرا عالى الهمة نادرا الاوهو كوپريلى محمد باشا وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الايام ولما قبض على مسند الصدارة شمر عن ساعد الجد لسد الخلل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد فى الحقيقة الاصلاح ويبتغى بكل جوارحه النجاح وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأخذ فى استئصال عروق الفساد والتفت الى توطيد دعائم السلطنة وتحسين نظام الادارة وتقوية الجنود البرية والبحرية وترتيبها وتدريبها وغير ذلك من الاعمال المفيدة والآراء السديدة حتى اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة حميدة

ذكر محاربة قوم برونى البحرية — لما كانت حالة الدولة السياسية والادارية وصلت الى ما مر بك وكانت سفائن البنادقة لاتفتر عن محاصرة الدردنيل لتمنع خروج الاساطيل العثمانية منه رأى الصدر المذكور ان من العار بقاء الحالة على هذه الكيفية فقاد الجيش بنفسه وذهب الى البوغاز وجعل القلعة السلطانية مركز الاعماله وانشأ بجهات صوغانلى من ساحل الروملى وكفر من ساحل الاناضول جملة استحكامات وسلحها بالمدافع الجسيمة وبذلك تمكن من طرد جميع سفن العدو الراسية فى تلك الجهات الا ان عمارة البنادقة لما كانت لاتزال راسية على بعد عشرة أميال من كفز المذكورة صمم الصدر على محاربتها لطردها تماما وبعد ان دبر أمره هاجمها ودارت رحى الحرب زمنا طويلا بين العمارتين وظهر من الطرفين إقدام عجيب ثم غرقت ماعونة من سفن العثمانيين باصطدامها بماعونة أخرى من سفنهم وقبض البنادقة على ماعونة ثالثة ولما رأى اليكجرية ذلك فروا بأغربتهم وكانت ثلاثين غرابا وهربت عشر ماعونات بمن فيها ولم تفد تحريضات وتشويقات الصدر الاعظم شيأ مع ما بذله من المساعى وما أمر به من قتل من خالفوا الاوامر ولما رأى الصدر ذلك أخذ فى تشييد الاستحكامات بساحل الاناضول ليحفظ ما بقى له من السفن من تسلط الاعداء عليها ولما شاهد البنادقة هزيمة العمارة العثمانية أظهروا الجسارة ولبثوا يرمون مقذوفاتهم على السفن

الراسية

الراسية وعلى القلاع ثلاثة أيام بلياليها وكان العثمانيون يقابلونهم بنيران قوية وأخيرا لما لم يستفيدوا من ذلك شيأ صمم أميرالهم طوماس موچنيغو (Thomas Mocenigo) على القبض على الدونمنا العثمانية الراسية بجوار قوم برون ولما حمل عليها تحير الصدر الاعظم في أمره لان سفنه تعطلت وعساكره أظهرت الجبن والخيانة ومع كل ذلك أخذ يعنى و يشجع طوبجية الاستحكامات فتقدم أحدهم وكان يدعى قره محمد وصوب المدفع على سفينة الاميرال ثم أطلقه فوقع مقذوفه على مخزن بارود السفينة فانفرقع وطارت السفينة في الهواء وقتل الاميرال ونحو ألف نفر معه واضرت كثيرا بالسفن التي كانت بجوارها فالتزمت عند ذلك دونمنا العدو بالرجوع قهرا وكان الاميرال طوماس المذكور من أمهر أميرالات البنادقة حارب العثمانيين نحو ١٥ سنة انتصر في أكثر وقائعها وهو من أقارب فرانسيسكو موروزيني أميرال الدونمنا التي كانت هاجمت خانية بعد فتحها وكان مشهورا بلقب الاميرال الاعرج ولما قتل الاميرال وقع الهرج بين قواد العمارة ورجعوا في الحال إلى بوغجه اطه تاركين ستة غلايين لم يتمكنوا من أخذها ثم إن الصدر كافأ الطوبجي المذكور بمكافأة فاخرة هو وكل من صدق في المحاربة وعاقب كل من استحق العقاب من القواد ثم أخذ يجهز قوة بحرية أخرى و يصلح سفنه هذا وقد كان معظم العمارة العثمانية مع القبودان الاكبر طوبال محمد باشا خارج البوغاز لم يشترك في القتال وكذا سفن تونس والجزائر ولما حضرت أتم الصدر على القبودان وقبل معذرته ثم وجهه على جزيرة بوغجه اطه فاستردها من البنادقة بعد قتال وطرد سفنهم من جوار البوغاز وشيد بالجزيرة قلاعا وأبقى بها حامية تحت قيادة سهراب باشا ثم أرسل عمارة أخرى بها خمسة آلاف جندي مع القبودان طوبال محمد باشا الى جزيرة ليمني فاستولت عليها من يد البنادقة بعد ان حاصروها نحو ستين يوما ثم إن الصدر رجع الى استانبول فرحب به السلطان وفي سنة ١٠٦٧ (١٦٥٦ م) أي بعد فتح جزيرة لمني عزل طوبال محمد باشا من القبودانية وعين محافظا لجزيرة ساقز ثم قتل بها لان السلطان كان لا يزال يرميه بالجبن وتعين بعده چاوش زاده محمد باشا ولم يمكث طويلا لان دلي حسين باشا تعين بعد عودته الى الاستانة قبودانا على الدونمنا الا انهم قتلوه بعد سنة وتعين بدله والده كتخداي علي باشا (١٠٦٩ هـ) ثم خلفه حسام بك زاده علي باشا

ثورة ابازة حسن باشا (١٠٦٨ هـ) — بينما كانت الدولة مشتغلة بحرب البنادقة لطردهم من بوغاز الدردنيل كما سبق قام أبازه حسن باشا وأصله من أبناء السپاهي بثورة عظيمة بجهات الاناضول والتف عليه نحو خمسة عشر من الباشوات المعزولين وغيرهم وجملة من عساكر السپاهي الذين فروا من عقاب الوزير الشهير كوپرلي محمد باشا وطلب هذا الخارج من الدولة عزل الوزير المذكور من الصدارة ومعاقبته وتوجيهها الى طيار زاده أحمد باشا وكان من حزبه ثم أخذت شيعة هؤلاء الاشقياء تتزايد يوما عن يوم حتى ارتعب الوزراء والسلطان منهم ثم جهز السلطان عليهم جيشا جعل عليه مرتضى باشا والي ديار بكر وطلب الصدر الاعظم وكان ببلاد الاردل الى أدرنة للمفاوضة معه ثم انضم كنعان باشا والي بروسة للثائرين ثم تقدمت الجنود وكسرت الثوار وأرجعتهم الى قونية بعد ان خسروا خسائر عظيمة وتتابعت الفتاوى الشرعية من جانب شيخ الاسلام للثوار بالنصائح

المؤثرة فترك كثير منهم طريق الشقاوة والتجؤا الى الجيش السلطانى فضعف أمر الثوار جدا حتى التزم أباظه حسن باشا بالتسليم الى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد ان أمنه على نفسه وعلى جميع أتباعه الا انه لم يوف له بالعهد بل قتله هو ورؤساء الثورة (١٠٦٩ ه) ثم أتى السلطان الى بروسة وعين اسمعيل باشا النائب عنه باسلامبول قائدا عاما على الاناضول لقطع دابر ما بقى من أشقياء الجلالية فتمكن من ذلك

وقائع حدود الدولة الشمالية — اعلم انه فى هذه الفترة (١٠٦٩ ه) كانت نيران الحرب مشتعلة بين ملك بولونيا ميخائيل وشارل غوستاف ملك السويد الذى طلب من الدولة أن تتحد معه على محاربة بولونيا وادخالها تحت حماية السلطان بالفعل فلم يقبل السلطان ذلك ثم لما بلغ السلطان ان راكوكسى أمير ترانسلفانيا وقسطنطين الاول أمير الافلاق اتحدا مع ملك السويد على محاربة بولونيا أمر بعزلهما وعين ميخنه بك (Mihne) الرومى الاصل أميرا على الافلاق الا أن راكوكسى لم يمتثل للامر وقابله بالعصيان واستظهر على جيش للعثمانيين بالقرب من ليبا (Lippa) ثم تعين القبودان كوسه على باشا سرعسكرا على الجيوش فتقدم بها وقهر أمير الاردل المذكور مع ابن راكوكسى وكان من المتفقين معه وعين بارجقاى أقوشى (اشانيوس بركسى) قرالا على الاردل وخرب مدينة ترغو ويشته التى كانت لذلك العهد دار امارة الافلاق وشيد نحو عشرين بلدة أخرى ولما كانت هذه الوقائع التى جرت بالمملكتين والاردل حصلت فى حدود المجر وتولد منها بعض مضايقات لحكومة النمسا طلبت على يد سفيرها باستانبول تسويتها فلم يقبل منه بل تقدم السرعسكر كوسه على باشا المذكور وافتتح قلعة وارات (Grosswardein) وكانت استولت عليها النمسا من الدولة من مدة (١٠٧١ ه) وبعد سنة من ذلك عينت الدولة ابافى ميخائيل قرالا على الاردل وكان من أمرائها وهو آخر قرال نصبته الدولة بمعرفتها على تلك البلاد وقد استمر جالسا على تختها مدة عشرين سنة وبعد محاصرة ويانه خلفه ابنه وفى تلك الاثناء قبضت الدولة على بعض أوراق استدلت منها على ان دولة فرانسا تداخلت سرا لمساعدة البنادقة للدفاع عن جزيرة كريد وأمدتها بالسلاح وكانت تلك الاوراق مرسلة الى المسيو دى لاهى سفيرها باستانبول فوقعت فى يد الصدر كوبرلى محمد باشا (١٠٧٠ ه) فقبضت الدولة على ابن سفير فرانسا المخالفة وقعت منه وألقته بالسجن مدة سنة من الزمان ثم توفى كوبرلى محمد باشا بمدينة أدرنة فى ٦ ربيع أول سنة ١٠٧٢ ه وسنه ٨٠ سنة ولقد كان من أمهر رجال السياسة وأصدقهم وأصحهم نظرا وعقلا خدم الدولة خدامات جليلة وتمكن من طرد البنادقة من البوغاز وجدد به القلاع وأصلح أمورا داخلية وحارب الحروب الطويلة ولما مات ولى السلطان ابنه فاضل أحمد باشا مكانه وسنه عشرون سنة وكان والده أوصاه بما يلزم ورسم له خطة السير وكان هذا الوزير كابيه ذكاء ومهارة سلك مسلكه بناء على وصيته

محاربات النمسا وفتح ايوار وواقعة سان غوتار — قد كانت النمسا لما تجاوزت حدودها وتداخلت فى أحوال بلاد ترانسلفانيا وات عليها من قبلها أميرا يدعى كميانوس (Komény) بعد ان ولت الدولة عليها ميخائيل أبافى فتقدم السرعسكر كوسه على باشا وهزم كميانوس وقتله وأخرج جيوش النمسا من داخلية الايالة المذكورة وطلب من الدولة تكليف النمسا بهدم قلعة زه

رينوار التى شيدها الامبراطور ليوبولد الثانى وان لاتقبل مقترحات دولة النمسا وجهورية البنادقة فى أمر الصلح ولما توقفت النمسا أعلنت عليها الدولة الحرب وأخذت فى سنة ١٠٧٣ (١٦٦٢) تسير عليها الجيوش وأتى السلطان أدرنة وقلد الصدر الاعظم أحمد باشا وظيفة القيادة العامة وسيره على رأس جيش يبلغ ١٢٠٠٠٠ جندى فتقدم به على طريق أوسك وبودين واسترغون حتى وصل الى قلعة ا نوار (Nouhensel) وضرب عليها الحصار وكان العثمانيون فتحوا هذه القلعة سابقا سنة ١٠١٢ ﻫ ثم عادت للنمسا وبينما العثمانيون يحاصرون المدينة المذكورة أتتهم نجدة عظيمة تحت قيادة ابن خان القريم أحمد كراى تبلغ ألف جندى ونحو عشرين ألفا من القوازق وبعد ماشددوا الحصار على القلعة شهرا كاملا التزمت بالتسليم فدخلها الوزير فاتحا (١٠٧٤ ﻫ) ثم بعد ذلك أقام على نهر الطونة جسرا من جهة استرغون وعبر بالجيوش وتلاقى مع جيش النمساويين الذى كان أتى لقتاله تحت قيادة الجنرال مونتيكوكولى (Montécucculli) وهزمه وأسر منه ثمانين ألف أسير وغنم غنائم لاتحصى فاندهش لهذه الاخبار امبراطور النمسا حيث رأى جيوش العثمانيين انتشرت فى بلاده باقليمى موراڤيا وسيليزيا وفتحوا نوبغراد (Novigrad) وأطرافها وكان اندهاشه هذه المرة عظيما أكثر مما اندهش منه أسلافه من قبل مدة السلطان سليمان القانونى الذى وطئ بلادهم المرار العديدة وذلك لانه كان يظن ان قوة العثمانيين قد انحطت فى أوروپا لما اعترى دولتهم من الفتن والاختلالات الداخلية منذ نصف القرن الماضى أى منذ معاهدة زيدوه توروك السابق ذكرها ولما خاف الامبراطور من تقدم العثمانيين واستيلائهم على أوروپا طلب من البابا اسكندر وساطته فى دعوة لويز الرابع عشر ملك فرانسا لينضم اليه ويحاربا العثمانيين معا فاسرع البابا فى الوساطة ودعا ملك فرانسا الذى لبى الدعوة وأرسل قوة عسكرية تحت قيادة الكونت دى كولينى (Coligny) وفى خلال ذلك عاد الصدر الاعظم الى مشتى بلغراد وأذن لقرال الاردل وأميرى المملكتين بالانصراف الى اماراتهم وقبل مضى فصل الشتاء حاصر الجنرال زرينى الملقب فى التواريخ العثمانية بالخازوق الحديدى قلعة قنيزه ولما بلغ الصدر هذا الخبر وكان ببلغراد استعد فى الحال وكان الفصل شتاء وجمع الجنود من مشاتيها وزحف على قنيزه فخاف الجنرال زرينى (Zriny) ملاقاته وترك الحصار ثم تقدمت الجنود العثمانية نحو حصون زه رينوار الواقع الخلاف عليها واستولت عليها ثم هدمتها وعند عبورها نهر مور (Morr) واشتباكها مع العدو هزمته وقتل فى الواقعة الجنرال استرو زى (Strezzi) قائد الجيوش النمساوية فقطع أمبراطور النمسا عند ذلك العشم من الانتصار وأرسل الى الصدر سفيرا يطلب الصلح طبق المعاهدة زيدوه توروك التى عقدت مع قبوجى مراد باشا وتعهد بدفع جزية قدرها ثلاثون ألفا من الذهب الا أن الصدر الاعظم ماطله وتقدم نحو قلعة يانيق يريد فتحها وبينما كانت الجنود العثمانية تعبر نهر راب (Raab) تقابلت مع جيش للنمسا يقوده القائد العام الجنرال مونتيكوكولى السابق وبعد واقعة دموية شديدة استمرت يوما بتمامه (١٠٧٥) لم يثبت فيها هذا القائد الشهير بل تقهقر امام الجنود العثمانية الذين فقدوا فى هذا اليوم العصيب نحو عشرة آلاف جندى وكان يساعد جيش النمسا فى هذه الواقعة القونت كولينى (Coligny) مع ستة آلاف من الفرنسويين أرسلهم ملك فرانسا لمساعدة النمسا وكانت هذه المساعدة سببا لحدوث النفور الآتى ذكره بين فرانسا والدولة

العثمانية وتسمى هذه الواقعة بواقعة سان غوتار نسبة الى الكنيسة التى حصلت الواقعة بقربها ثم جمع الصدر بقية جنوده فى قصبة واسوار (Vasvar) حيث عقدت شروط الصلح بين الدولتين (١٠٧٥ هـ) وكان من مقتضاها أن النمسا لاتتداخل فى أمر بلاد الاردل فيما بعد وتعترف بامارة ابافى ميخائيل عليها وأن تهدم قلعة زرينوار ولا تصلح بعد ذلك وان تدفع ٢٠٠٠٠٠ غرش غرامة وان تبقى قلعتى ايوار ونوبغراد للدولة العثمانية وان تبقى أربع مقاطعات من بلاد المجر للدولة العثمانية وان تراعى العهود السابقة المعقودة بين الطرفين

فتح قندية وواقعة صغرى البحرية (١٠٨٠ هـ) - اعلم ان الحروب استمرت فى جزيرة كريد من سنة ١٠٥٥ هـ ولم تتمكن الدولة مع ذلك من الاستيلاء عليها بتمامها للضعف الذى كانت عليه بحريتها ولكثرة مشاغلها بجهات أوروبا والاناضول خصوصا مما تقدم ذكره ولما سكنت أحوالها نوعا عينت عنكبوت أحمد باشا سردارا على جيوشها هناك (١٠٧٢ هـ) وأمرته ببذل الهمة وأمدته بالجنود والذخائر وأمرت القبودان على باشا ابن حسام الدين بك بأن يسافر بالدونمنا الى البحر الابيض المتوسط الا أنه مات فى أثناء سفره وخلفه على رياسة البحرية القبودان عبد القادر باشا فلم يمكث الا أياما وخلفه قره مصطفى باشا وكان واليا على ديار بكر وبعد ان أتمت الدولة مسئلة بلاد الاردل صممت على اتمام فتح كريد فأخذت تجهز الجيوش وأرسلت سنة ١٠٧٧ هـ الصدر الاعظم قائدا للجيوش التى بالجزيرة المذكورة وسيرت أيضا أساطيلها تحت قيادة قبلان مصطفى باشا ولما وصل أخذ بالامر لفتح قلعة قندية وفى تلك الاثناء تقابل أسطول مصر وكان قادما لينضم للدونمنا بعمارة البنادقة ولما انتشب القتال بينهما انهزمت السفن المصرية وأسر البنادقة قائدها رمضان بك (٢ رمضان سنة ١٠٧٧ هـ) ولما شدد الصدر الاعظم الحصار على قندية استغاثت جمهورية البنادقة بدول أوروبا فوعدوها بالمساعدة ولما امتنعت قندية على العثمانيين صمم السلطان (١٠٧٩ هـ) على الذهاب بنفسه الى جزيرة كريد ليرى فيها رأيه ولما شاهد القواد تصميم السلطان انبعثت فيهم روح الاهتمام والغيرة واجتهد سفراء البنادقة وفرانسا والنمسا لدى الدولة العثمانية فى تحويل عزم السلطان عما نوى عليه ليتمكنوا من امداد قندية وأرسل السلطان الاوامر الاكيدة الشديدة للصدر الاعظم ببذل كل مرتخص وغال لفتح قندية ولما شاع الخبر بذلك أرسلت البنادقة أسطولا الى مياه الارخبيل لاشغال الدولة وغل يديها وحدث من ذلك ان وقعت المحاربة البحرية السابقة وحاصلها أنه بينما كان أسطول طرابلس الغرب المركب من ست سفائن حربية يتجول بمياه كسندرة (Kassandra) وسلانيك لحراستهما تلاقى مع عمارة البنادقة المركبة من ثلاثة غلايين و ١٧ فرقاطة وكانت تحت قيادة الاميرال جورجى فوقع القتال بينهما ولما علم القبودان قبلان مصطفى باشا بهذا الخبر سار بالدونمنا التى كان خرج بها الى البحر الابيض لامداد أسطول طرابلس المذكور وكانت مشكلة من ٣٥ سفينة مختلفة القدر والنوع ولما شاهد البنادقة العمارة العثمانية هموا بالهرب الا أن العثمانيين قطعوا عليهم طريق الهرب وقبضوا منهم بعد حرب دام بعض ساعات على غليونين وتمكنت باقى السفن من الفرار وكان بالغليونين مائة شخص وأربعة أشخاص من أسرى المسلمين

وبقال

ويقال ان قائد البنادقة قتل فى هذه الواقعة ولكن لم تحققه تواريخ الفرنج ثم حصلت أيضا واقعة بحرية أخرى امام قلعة قندية بين أسطول عثمانى مؤلف من ١٢ سفينة معين للحراسة وبين سفن البنادقة دارت فيها الدائرة على العثمانيين ومع كل ذلك لم تفتر همة الصدر الاعظم بل كرر المهاجمات على القلعة الا أن المدينة لما كانت غير محصورة من جهة البحر تمكن أسطول بجيش فرنسوى عدده ستة آلاف جندى به كثير من أشراف فرانسا كان حضر لامدادها تحت قيادة الدوق ده نوايل (Noailles) من امدادها (١٠٨٠ هـ) ثم بعد أيام قلائل حضرت سفن أخرى من طرف البابا ومالطة ودلماسيا لاعانتها أيضا الا أن هذه النجدات كانت سببا فى اثارة حمية العثمانيين فشددوا الحصار وضايقوا القلعة وهدموا أسوارها بالالغام ولما نقص عدد حاميتها الى نحو أربعة آلاف جندى ورأوا انهم لا يمكنهم الاستمرار على المدافعة اضطر محافظها البندقى الجنرال موروزينى الى التسليم فدخلها الصدر الاعظم كوبرلى أحمد باشا فى اليوم الاول من جمادى الاولى من سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) تحت شروط عقدت بين الطرفين اعترف فيها القائد المذكور بالنيابة عن جمهورية البنادقة بالتنازل عن جزيرة كريد ما عدا ثلاثة ثغور منها وهى سودا (Suda) وكرابوسه (Corabusa) واسپينالونغه (Spina-Longa) ثم كتب الصدر بيده كتابا بشر فيه السلطان بهذا الفتح المبين وبعد ان أصلح ما تخرب من قلاعها وأتم تنظيم إدارتها عاد الى استانبول فاحسن السلطان ملتقاه وأنعم عليه وعلى كافة من كان معه من الضباط والجنود بالانعامات الجزيلة

وفى خلال ذلك كانت دولة فرانسا ترسل سفنها المحاربة سفن بلاد المغرب بدعوى استمرارها على الايقاع بسفنها وقد عينت لذلك الاميرالات بوفور (Beaufort) ودوكسن (Duquesne) ودسترى (D'Estrées) وطورڤيل (Touroville) ثم ان التجريدة التى وجهها لويز الرابع عشر على جيجلى من سواحل الجزائر لاحتلالها عسكريا أغاظ الدولة العثمانية جدا حتى ان بقية الفرنج الذين بأساكل الدولة خافوا عاقبة الامر واعلنوا جميعا معادات الفرنساويين وبغضهم لهم

ولما تكدرت العلاقات بسبب ذلك بين الدولة وفرانسا لمساعدتها جمهورية البنادقة سعى وزير فرانسا المسيو كولبير فى تحسين العلاقات مع الدولة وأوعز الى السفير بذلك الا أن السفير وكان يدعى المسيو دى لاهى لما أراد التكلم مع الصدر الاعظم فى هذا الخصوص انتهره الصدر ولم يسمع منه قولا ولما لم يقدر السفير المذكور على إعادة الصلات بين الدولتين كما كانت عين لويز الرابع عشر ملك فرانسا سفيرا آخر يدعى المركيز دى نوانتل (Nointel) (١٠٨٠ - ١٦٧٠) باسطول حربى مؤلف من أربع سفن ظنا منه ان هذا الفعل ربما أخاف السلطنة وأعان على مبتغى فرانسا وأمر قائده باحضار السفير وحاشيته وكل من أراد المهاجرة من الفرنسويين اذا امتنع السلطان عن قبول الصلح ومع ذلك فلم يقبل الصدر ما عرضه هذا السفير حتى كاد النفور يؤدى الى حرب بين الطرفين الا أن اللين والموادعة والمداهنة التى استعملها هذا السفير فيما بعد بارشاد كولبير مكنته من نوال رضا السلطان فتجددت المعاهدات وعادت الصلات بينهما الى ما كانت عليه سابقا (١٠٨٢ هـ)

محاربة پولونيا ومعاهدة بوجاش (١٠٨٣ هـ) — لما قام النزاع والشقاق بين القوزاق المشهورين باسم صارى قامش النازلين فى ديار أوقرين وبين قوزاق زاپوروغ المتوطنين بين مدينة أوزى (Otchacov) وفم نهر بوغ وطلب كل منهم المساعدة والحماية من خان القريم دخلت أخيراقوزاق صارى قامش فى حمى السلطنة السنية وبذلك امتدت أملاك الدولة فى تلك الجهات فاحتج ميخائيل ملك پولونيا على ذلك مدعيا ان ولاية أوقرين (Ukrain) هى من بلاده وان دوروشنة وأمير القوزاق المذكورين (Dorozensko) من الذين يفسدون فى الحدود ثم جرد عليه يريد حربه فعدت الدولة ذلك إجحافا بحقوقها وأعلنت الحرب على پولونيا فى أوائل سنة ١٠٨٣ هـ وخرج السلطان بنفسه مع الجيش وعبر نهر الطونة من جهة ايساقچى ومازال يتقدم حتى وصل الى بلاد لهستان (پولونيا) عن طريق خوتين (Chokzim) وحاصر قلعة قامنيچه (Kaminiec) وفتحها ثم دخل بجيشه فى ايالة پودوليا واستولى على مدينتى ايلبو (Lemberg) ولوبلن (Lublen) المشهورتين وعلى جميع ما يتبعهما من الدساكر وعاثت بهما الجنود العثمانية كالعادة المتبعة اذذاك فطلب قرال پولونيا المذكور الصلح بشرط ان يترك ولاية أوقرين للقوزاق واقليم پودوليا للدولة وان يدفع جزية سنوية قدرها ٢٢٠٠٠٠ من الذهب فقبل السلطان منه ذلك وأمضيت به معاهدة (١٠٨٣ هـ ١٦٧٢ م) فى بوجاش (Busacs) ثم عاد السلطان الى أدرنة وأمر سليم كراى خان القريم بالعودة الى بلاده وكان يصحبه فى هذا الحرب ولما مات أمير پولونيا المذكور وانتخبوا بدله حناسو بيسكى ولم يف بشروط المعاهدة المذكورة اشتعلت نار الحرب ثانية بين الطرفين وامتدت الى سنة ١٠٨٧ هـ وكانت سجالا وكانت بلاد خوتين وقامنيچه وايالتى پودوليا وأوقرين تقع فى يد التتار والعثمانيين تارة وفى يد البولونيين أخرى ثم توسط سليم كراى خان القريم فى الصلح أخيرا وتجددت معاهدة بوجاش بعد ان حذفت منها المادة المختصة بدفع الجزية

وفى سنة ١٠٨٧ توفى الصدر أحمد فاضل باشا ابن كوپرلى باشا الشهير وله من العمر ٤٧ سنة أقام منها ١٥ سنة فى الصدارة وكان من أفاضل الوزراء وأحسنهم سياسة وفكرا اتصف بحميد الخصال وممدوح الصفات وبأفكاره الصائبة أعاد للدولة ما كان لها من المجد فحزن عليه السلطان والناس جدا وكان قبل وفاته أمره السلطان بان يقود الجيوش بنفسه لحرب پولونيا والتمس الاسباب الآتية وخلفه فى الصدارة زوج أخته قره مصطفى باشا ولم يكن كسابقه كفاءة واستعدادا بل كان من الضربات على الدولة لانه باع المناصب والمعاهدات ومن سوء سياسته وتدبيره شق التتار عصا الطاعة باقليم أوقرين واستنجدوا بالمسقوف ولما كانت دولة الروسيا تنظر لتقدم العثمانيين بعين الغيظ والحسد أرسلت سنة ١٠٨٨ هـ جيشا عظيما وفتحت قلعة چهرين (Radzin) ثم قامت الحرب أخيرا بين الروسيا والدولة العثمانية والتتار وامتدت زمنا الى أن انتهت بعقد معاهدة رادزين الآتية الذكر

محاربة فرانسا قرصان ولايات الغرب — لما كانت المناوشات البحرية مستمرة بين سفائن فرانسا وقرصان الغرب أتى فى سنة ١٠٩١ هـ (١٦٨١ م) اسطول فرنساوى مشكل

من

من ثمانية غلايين تحت قيادة الاميرال دوكسن (Duquesne) الى مينا جزيرة ساقز وأطلق قنابله على مدينتها ولاحراق غلايين طرابلس الغرب التى كانت تصلح بمينا تلك المدينة وقد حصل من هذا التعدى الفجائى للاسطول المذكور خسائر جسيمة وتلفيات عظيمة وكان ذلك على مشهد من القبطان العام قره ابراهيم باشا حيث كان هنالك باسطول مؤلف من ثلاثين شانية ولما وصل هذا الخبر الى دار الخلافة هددت الدولة سفير فرانسا المار كيز غليراغ (Guelleragues) وجميع رعاياها بالطرد من الممالك العثمانية فارتبك السفير واعترف بان هذه الحركة مخالفة للعهود التى بين المملكتين واعتذر بان التعديات المذكورة ربما وقعت من أسطول دولته بغير علمها وطلب الامهال ريثما يستعلم عن الحقيقة فأمهل أياما ثم جاءه الجواب بان حكومة فرانسا لا تعلم شيأ عن هذه التعديات كلها وانها ستجازى المتعدى باشد الجزاء وقدمت للدولة أعذارها عما حصل وتزلفت الى السلطان والوزراء بنفيس الهدايا وشفع الصدر الاعظم لسفيرها لدى السلطان فصفح عنه وقابله ببالى كوشك ويفهم من هذه الحادثة ما كانت تكنه فرانسا من العداء لسفائن قرصان الجزائر لولا خوف حكومتها من الدولة العثمانية وقد ذكر كريسى فى تاريخه ما كانت عليه وجاقات الغرب البحرية فى أواخر القرن السادس عشر من الميلاد فقال ان حكومات وجاقات الغرب التابعة للجزائر وتونس وطرابلس كانت حاصلة فى الوقت المذكور على نوع من الامتياز ويجب عليها أن تقدم للدولة العثمانية بعض المراكب الحربية لمساعدتها من الحرب وترسل كل بضع سنين للسلطان ووزرائه هدايا جليلة وكانت الدولة تعطيها الذخائر الحربية اللازمة لدور صناعتها وكانت سفن بلاد الجزائر أقوى سفن قرصان هاته الحكومات لانها لم تكن تكتفى بالسطو على سواحل الممالك النصرانية الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط فقط بل كانت تخرج من مضيق جبل الطارق وتغير على السواحل الجنوبية والشمالية وعلى جزائر مادرة والساحل الغربى من بحر انكلترة وقد استمرت سنين عديدة تسطو على جزيرة ارلاندة وباقدامها على ذلك وجسارتها وصلت الى جزيرة اسلندة واسكندناوة وكانت اجراآت قرصان الجزائر فى الاغارة على سواحل البحر الابيض المتوسط تشبه أعمال النورمانديين الذين تفردوا بالسطوة فى المحيط الاطلانطيق وكانت سفن أهل الجزائر فضلا عن صغرها وسرعة سيرها تحمل الواحدة منها من ثلثمائة مقاتل الى أربعمائة ومن أربعين مدفعا الى خمسين وكان عدد الاسرى المسيحيين الذين يستخدمونهم فى تحريك المقاذيف يبلغ من ١٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ أسير وكانت قوة بحرية تونس وطرابلس الغرب بالنسبة لاهل الجزائر قليلة جدا وقد تقدم انه فى سنة ١٠٦٥ ﻫ (١٦٥٥ م) حضر الاميرال بلاك أو بليق بعمارة انكليزية امام مدينة الجزائر وطلب من حاكمها اخلاء سبيل أسرى الانجليز فأخلوا سبيلهم وسلموهم اليه بلا نزاع بخلاف التونسيين الذين كانوا أقل منهم قوة فانه لما طلب منهم مثل ذلك رفضوا طلبه وتسبب من ذلك انه أحرق جميع السفن التى كانت راسية تحت قلعة تونس وضرب القلعة بالمدافع ثم انتهى الامر باجابة طلبه وقد هاجم الجزائريين أيضا فى أزمنة مختلفة كل من الاميرال دوريتر بعمارة هولاندة أى الفلمنك والاميرال بوفور بعمارة فرنساوية قصد الانتقام منهم على ما فعلته قرصانهم فقاوموه بشجاعتهم المشهورة وقد مكثت قرصان الجزائر حائزين لشهرتهم البحرية حتى زمن اغارة العمارة الانكليزية عليها تحت قيادة اللورد اكسموث اﻫ ملخصا

محاربة چهرين ١٠٨٩ — لما اتضح للدولة نفاق وتلون رئيس قبائل صارى قامس التتارية المدعو دوروشنقو (Dorozensko) وكانت الدولة نجته من يد ملك بولونيا لما التجأ اليها وأعانته وانه خرج عليها جهارا وانصاع الى الروسيا وسلم لها بلدة چهرين قاعدة بلاده وجه السلطان عليه خان القريم سليم كراى والسرعسكر شيطان ابراهيم باشا الا أنهما انهزما امام چهرين ولم يتمكنا من فتحها فاهتم السلطان لذلك جدا وخرج بنفسه لمحاربة الروسيا وتقدم حتى وصل الى سلسترة فمكث هنالك وبعث الصدر الاعظم بالجيوش (١٠٨٩ ﻫ) فسار الصدر حتى قدم البلدة المذكورة وتلاقت عساكره مع عساكر الروس والتتار وبعد محاربة دموية استولى الصدر عليها ولما كانت بعيدة عن الحدود العثمانية هدمها ثم عاد بالجيش الى سلسترة (١٠٩٠ ﻫ) ومع ذلك فان السلطان صمم على مداومة قتال الروس لحمايتهم أحد أتباعه الا أن الروس بادروا بارسال سفير عنهم لطلب الصلح وبعد أن تفاوض مع أرباب الدولة عقدوا معه صلحا مضمونه بقاء الحالة على ما كانت عليه قبل الحرب (١٠٩١ ﻫ - ١٦٨١ م) بمعاهدة تدعى معاهدة چهرين أو ردزين (Radzin) وذلك بمساعى أمير القريم

محاربات النمسا (١٠٩٣ - ١١١٠ ﻫ) ومحاصرة ويانه — اعلم ان هذا الصدر مرزيفونى قره مصطفى باشا وان كان نشأ مع فاضل أحمد باشا الشهير وخدم الخدامات المتنوعة فى الدولة الا أن كبره وجبروته وجهله كانت المانع الاكبر من عدم توفيقه فى أكثر أعماله ولما كان مسرفا لا يبقى على مال امتدت يده الى قبول الهدايا بكافة أنواعها وكان يعامل سفراء الدول معاملة خشنة غير لائقة بمقامهم حتى كدر بذلك العلاقات الخارجية التى بين الدولة وأوروپا وكان ليوپولد الاول ملك النمسا بعد حرب الثلاثين سنة قبض على صولجان الحكم ببلاد المجر أيضا مختلسا له وأعدم ونفى كثيرا من أعيانها فاشتعلت فيها نيران العصيان والاختلال وقام أحد شبان أمراء المجر المدعو أمره توكلى (Æméric Comte de Tœkli) وترأس على الخارجين على حكومة النمسا للتخلص من استبدادها وبعد ان حاربها فى عدة وقائع أرسل سفراء من طرفه يطلب من الدولة المساعدة وقد اشترك معه أيضا فى ذلك ابافى امير الاردل ولما كانت مدة هدنة واسوار قرب انقضاؤها أعلنت الدولة الحرب على النمسا ونصبت والى بودين أوزون ابراهيم باشا سرعسكرا على الجيوش التى أمرت بالزحف على النمسا ثم تقدم السرعسكر ومعه أمير توكلى وأمير الاردل ابافى المذكورين حتى وطئ بلاد النمسا وأخذ فى مقاتلة جيوشها (١٠٩٣ ﻫ) وعينت الدولة توكلى بك المذكور أميرا للبلاد المجر الوسطى أو بلاد قرص (Kruczes) ثم سار الصدر الاعظم قره مصطفى باشا بالاوردى الى بلغراد وعبر نهر الطونة ووصل الى نهر راب عن طريق استونى بلغراد وجمع مجلسا عسكريا واستشاره بخصوص الحرب وبعد طرح الآراء خالف الصدر رأى أوزون ابراهيم باشا وأصر على مهاجمة ويانه بعد ان وبخ ابراهيم باشا على رأيه وتقدم فى الحال نحو المدينة المذكورة وضرب عليها الحصار وكان ذلك فى يوم ١٩ رجب من سنة ١٠٩٤ ﻫ (١٦٨٣ م) واستمر محاصرا لها مدة شهرين واستولى على كافة قلاعها الامامية وهدم أسوارها بالمدافع والالغام وكاد يفتحها تماما بعد قليل لولا ان حناسوبيسكى ملك بولونيا هو ومنتخب ساكس وباڤيرا تقدموا بجيوشهم جميعا بتحريضات البابا اينوشنسيوس الحادى

عشر الذى أضرم فى قلوبهم نار التعصب الدينى وهجم سوبيسكى على جيوش العثمانيين لانه كان القائد العام للجيوش التى أتت معه وذلك فى شهر رمضان من السنة المذكورة واستمر الحرب والقتال بين الطرفين طول النهار وأخيرا انهزم قره مصطفى باشا بجيوشه تاركا كافة المدافع والذخائر للعدو وما زال يتقهقر حتى وصل الى قلعة يانق فى حالة صعبة بعدان كابد مشاق شديدة وهنالك جمع ما تشتت من جنوده ثم أخذ يرمى أوزون ابراهيم باشا الذى خالفه فى الرأى أولا بسوء التدبير والغلطات حتى صدر أمر السلطان محمد الرابع بقتل ابراهيم باشا المذكور ظلما وبعزل مراد كراى خان من إمارة القريم وقد اشتهر سوبيسكى هذا فى جميع ممالك أوروبا بعد ذلك بحامى النصرانية لانه خلص مدينة وبانة الشهيرة التى كانت تعد وقتئذ مفتاحا لاوروبا من تسلط الاسلام

وأخذ قره مصطفى باشا عند عودته يحرق القرى ويخرب البلاد حتى وصل بودين ثم بلغراد وعاد السلطان الى أدرنة متكدرا جدا من هذه الهزيمة ولم يعزل قره مصطفى باشا من الصدارة بل قربه وقلده سيفا مرصعا ولما اقتفى العدو أثر الجيوش العثمانية المنهزمة استولى على قلعة استرغون وأراد خضر باشا أحد القواد صد العدو الا أنه غلب وقتل هو وجميع فرقته ولما وصل هذا الخبر غضب السلطان لسوء تصرف الصدر فاصدر أمرا بقتله ووجه مسند الصدارة الى قره ابراهيم باشا (١٠٩٥ هـ)

اتفاق اعداء العثمانيين عليهم وهزيمات جيوشهم — اعلم انه بعد الهزيمة المتقدمة اتفقت البنادقة وبولونيا والبابا ورهبنة مالطة والروسيا والقوزاق وتسكانه مع النمسا وكونوا عصبة واحدة تعرف باسم سانت اليانس (Sainte-Alliance) أى الاتحاد المقدس على محاربة الدولة العثمانية التى أصبحت بلا نصير ولا معين ثم تقدمت جنود هذه الممالك من كل جهة تقصد المملكة العثمانية فتفرس الصدر الاعظم قره ابراهيم باشا فى وخامة العاقبة التى تحدث من اتفاق الاعداء ورجح البقاء فى دار الخلافة ليهتم بأمر التجهيزات وغيرها وعين تكفورطاغلى مصطفى باشا سر عسكرا لعسكر المجر وكتب لخان القريم سليم كراى خان بالزحف بجيوشه على بولونيا وجعل معه القائمقام سليمان باشا ثم أرسل خليل باشا لصد البنادقة الهاجمين على بلاد مورة وفى خلال ذلك انتصر قائد جيوش النمسا دوق لورين الشهير (Duc de Lorraine) على العساكر العثمانية التى بمدينة ويشغراد وواجين (Vaczen) واستولى على بلاد واجين وبشته وحاصر مدينة بودين وقتل محافظها قره محمد باشا الا أن شيطان ابراهيم باشا تمكن من رد الاعداء عن المدينة المذكورة واسترد منهم قلعتها فلهذا تعين سر عسكرا بدلا من تكفورطاغلى مصطفى باشا (١٠٩٦ هـ) وقد تمكن هذا السر عسكر الجديد بعد ذلك أيضا من استرداد قلعة واجين من يد الاعداء الا انه لسبب تفرق الجيوش العثمانية فى كثير من الجهات لم تأت أعمالها الحربية بفائدة لان النمسا أغارت بجيوشها على بلاد المجر وأهمل توكلى بك أمر الدفاع فاتهم بالتكاسل قصدا فقبض عليه وسجن وأمر السلطان أيضا بقتل السر عسكر ابراهيم باشا فى بلغراد ووجهت الصدارة الى سليمان باشا وقد قام هذا الصدر بأمر الحرب فى بولونيا أحسن قيام (١٠٩٧ هـ) وبعد ان أجرى بعض الاصلاحات الداخلية قصد بلاد المجر حيث كان الدوق دولورين دخلها بجنوده ومعه البرنس أوجين دى سافوا وحاصر بودين وضيق

عليها الحصار ولم يتمكن الصدر من انجادها فسقطت فى يد الاعداء قبل وصوله (١٠٩٧ هـ) وقتل محافظها عبدى باشا وكذا جميع حاميتها من العثمانيين وكانوا أربعة آلاف بعد ان دافعوا دفاع الابطال وألحقوا بالمحاصرين خسائر جمة وقد خلت هذه المدينة فى يد العثمانيين من سنة ١٠٦٦ هـ وبعد سقوطها أخذ الصدر يستعد فى زمن الشتاء فجمع كافة الجيوش العثمانية المتفرقة فى تلك الجهات فبلغت ٦٠,٠٠٠ مقاتل معهم سبعون مدفعا ثم تقابل مع الجيوش المتفقة بين سهول مهاج وأوسك يوم ٣ شوال من سنة ١٠٩٨ هـ وبعد قتال شديد انهزمت الجيوش العثمانية بعد ان تكبدت خسائر جمة واستولى المتفقون على ايالة الاردل بتمامها

الوقائع البحرية فى الوقت المذكور — اعلم انه لما نقض البنادقة عهود الصلح واشتركوا مع الدول المتقدمة فى التحالف المقدس على محاربة العثمانيين أرسلوا جيشا تحت قيادة الجنرال موروزينى محافظ قندية سابقا ومعه عمارة بحرية فاستولى على قلعة ماورومن بلاد مورة بعد حصار هامدة ولما كانت الجيوش العثمانية تحارب النمسا ومن اتحد معها من الدول منذ مدة كان اعتراها بعض الضعف لما لحقها من الهزائم السابقة ولذلك لم يمكن للدولة اجراء أى عمل مع البنادقة لما أتوه من الافعال العدوانية فى الوقت المذكور رغاية الامر ان الدولة عينت مصاحب مصطفى باشا قبودانا على الدونتما (١٠٩٥ هـ) وأمرته بالاستعداد وكانت الدولة شيدت فى الوقت المذكور عشر سفن كبيرة من نوع الغليون منها اثنتان طول كل واحدة منهما ٥٠ ذراعا أى ١١٠ أقدام انكليزية وطول كل واحدة من الثمانية الاخرى ٤٥ ذراعا وبذلك تقوت الدونتما ثم قسمت الى فرقتين (فيلو) جعلت احداهما تحت قومندانية ابراهيم باشا والثانية تحت قومندانية بابا حسن باشا وكانت مأموريتهما قبل ذلك مراقبة بناء هذه السفائن ثم رتبوا لهما الضباط والملاحين والعساكر اللازمة بعد أن سلحوهما بالاسلحة والمدافع

وفى سنة ١٠٩٦ هـ (١٦٨٥ م) عرض بعض أصحاب الثروة طلب الدخول ضمن أمراء البحرية على شرط أن يبنوا من أموالهم مراكب حربية فأجيب طلبهم وشيدوا عدة سفائن حربية عظيمة وقد نجم عن هذا الامر ان حصلت الدولة على دونتما قوية فى زمن قليل كانت مركبة من ستين سفينة حربية معظمها جديد وان كان أصاب بعض أولئك المثرين مضايقات شديدة لتراكم الديون عليهم لانهم لم يتدبروا فى الامر جيدا قبل إقدامهم عليه وبعد ان تم تجهيز السفن أقلع بها القبودان مصاحب مصطفى باشا المذكور فى أول فصل الربيع وتجول بين جزائر الارخبيل وكانت قد شيدت الدولة فى تلك المدة قلعة عظيمة فى فم جناق قلعة وقلعة أخرى بقلة الفنار بجزيرة ساقز وبعد أن تم تشييد هاتين القلعتين وتسليحهما بمساعى القبودان العام أقلع الى رودس وتلاقى بالسفن المصرية القادمة بالارزاق وخوفا عليها من أن يصيبها حادث رافقتها الدونتما الى جزيرة ساقز وكان هذا الظن فى محله لان فرقة من عمارة البنادقة كانت مختفية خلف جزيرة ساقز قصد الفتك بسفن العثمانيين وكان عليها القبودان باولو المشهور بالتلصص فى البحار هذا ولما شاهد القبودان المذكور مجىء الدونتما العثمانية وكان لا يظن ذلك لطول المدة التى استغرقتها فى التجول فى البحار وقع فى الحيرة والاضطراب ثم لما شاهد انه قد صدر الامر لبعض سفن الدونتما العثمانية بالحملة عليه ولى منهزما

فاقتفى

فاقتفى أثره كل من عبد القادر باشا الملقب بماجاما وسليمان باشا فلم يدركاه لاشتداد هبوب الريح المساعدة له على الفرار ولان القائدين المذكورين لم يبذلا ما يلزم من المجهود فى تعقبه فأسرها القبودان لهما حتى انه لما وصل بالدونما الى جزيرة رودس عقد مجلساحربيا لمحاكمتهما وبعد سماع أقوالهما عاقبهما بما يستحقانه ثم أقلعت الدونما الى سواحل مورة وعاد سردارها السابق عبد القادر باشا بالدونما الى استانبول وكان البنادقة استولوا اذذاك على قلعتى متون وقرون بمساعدة بعض الاهالى الذين انضموا الى عساكرهم

وفى سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٦ م) تعين مصرلى زاده ابراهيم باشا قبودانا للدونما وكان قبل ربانا باحد غلايينها وله شهرة فى الفنون البحرية والحربية لان أصله من أوجاقات بحرية طرابلس الغرب ولما عين قبودانا رقاه السلطان الى رتبة الوزارة وقد اهتم بعمل الآلات اللازمة لانشاء السفن الحربية بدار الصناعة باستانبول وقد عدت له تلك الاعمال أثرا مجيدا ولا يخفى ان توجيه مسند القبودانية العامة لاحد رجال البحرية هو تسليم القوس باريها واسكان الدار بانيها

وقد كان البنادقة لعدم تعرض الدولة لهم فى أعمالهم البحرية قوى نفوذهم وامتد سلطانهم بحر اليونان واستولوا على قلعتى انابولى واتنه الا انهم هزموا أمام قلعة اغريبوز وتكبدوا خسائر جسيمة وكانت وفاة صاحب مصطفى باشا سنة ١٠٩٨ هـ بعد أن تعين محافظا لقلعة سد البحر بالدردنيل وتعين اسمعيل باشا بدله سردارا على جيوش مورة وقد أخذ هذا السردار يهتم بمحاربة البنادقة بتلك الاطراف ليسترد منهم القلاع التى استولوا عليها وفى هذه السنة خرج القبودان مصرلى زاده ابراهيم باشا بالدونما الى بحر سفيد ولما توالت الهزيمات على الجيش اشتعلت نيران الفتن والقلاقل بين أفراده لانحلال روابطه وانفكاك ضوابطه فلما رأى السلطان ذلك عزل الصدر الاعظم سليمان باشا ظنا ان عزله ربما كان فيه فائدة لتسكين الهيجان ووجهت الصدارة الى سياوش باشا الذى انتخبته الجنود بمعرفتها ورقى كوبريلى زاده فاضل مصطفى باشا المسند القائمقامية ولما رأى السلطان ان الاحوال لم تهدأ بعد عمل أجراه من الحيل تنازل عن كرسى الخلافة والسلطنة مفضلا الانزواء عن هذه المعيشة الملائى بالمخاوف وورد فى بعض الروايات أن الجنود تحزبوا عليه مع الاهالى وأجمعوا على خلعه فخلع سنة ١٠٩٩ هـ وخلفه أخوه السلطان سليمان الثانى ولم يمكث السلطان محمد بعد تركه كرسى السلطنة غير خمسة أعوام وكان رحمه الله حليما كريما محبا للعدل يميل الى الصيد والقنص كثيرا حتى لقبوه بالصياد ولتولعه بذلك كانت أكثر اقامته بمدينة أدرنة لكثرة غاباتها

(٢٠) السلطان سليمان خان الثانى ابن السلطان ابراهيم خان

١٠٩٩ — ١١٠٢

استمرار الفتن والارتباكات — بويع هذا السلطان بالخلافة بعد أخيه وعمره ٤٧ سنة وبمجرد جلوسه أمر بصرف هبات الجلوس على أربابها قبل سكون الاضطراب بين الجنود بفكرة

ان ذلك يسكن الثائرة وقد كانت أحوال الدولة فى ارتباك بمحاربات النمسا والبنادقة من جهة وثورات اليكجرية المتزايدة فى داخل عاصمة الدولة من الجهة الاخرى وبلغت الجراءة والوقاحة عند هؤلاء الجنود حتى انهم صاروا يتداخلون فى أمور الدولة فيولون من أرادوا ويعزلون من أرادوا ولما كان فاضل مصطفى باشا القائمقام يسعى فى تسكين الاضطراب بكل جهده أرادوا التخلص منه فعينوه محافظا البوغاز الدردنيل ونفوا شيخ الاسلام دباغ زاده محمد افندى وعينوا يكن عثمان باشا سر عسكرا على الروملى وقتلوا الصدر الاعظم سياوش باشا ونهبوا منزله ولما ارتقى اسمعيل باشا المرعشى لمنصب الصدارة بعد بذل غاية مجهوده فى اعادة النظام وتسكين الاضطراب بمساعدة أهالى استانبول الذين تسلحوا وهاجموا اليكجرية وقتلوا منهم جملة فسكن اضطرابهم ولزموا حدهم نوعا وفى خلال ذلك عادت الدونمنا الى استانبول ودخلت الخليج بالرسم المعتاد وخلع السلطان على ضباطها الخلع النفيسة وتعين القبودان باشا محافظا الاغريبوز وخلفه فى رياسة البحرية القبودان قلايلى أحمد باشا وقاد الدونمنا لمياه اغريبوز ثم عاد وكانت النمسا انتهزت فرصة وقوع الاضطرابات المذكورة وأغارت بجيوشها على حدود الدولة واستولت على قلعة اكرى وابوار واستولى بلغراد واردين ثم دخلت بلغراد بدون مقاومة تذكر وعند ذلك طلب الصدر الصلح من النمسا فلم تجبه فعزل وخلفه تكفور طاغلى مصطفى باشا ثم خلفه عرب رجب باشا ولم يتمكن رجال الدولة من منع النمسا عن التقدم وقد استولت على قلاع سمندرة ونيش وودين ثم تقدم جندها من جهات اسكوب وشهر كوى الى صوفية واستولت البنادقة أيضا على أثينة من أعمال اليونان وعلى حوالى نالوقة وابزورنيك من أعمال بوسنة ولما كانت هذه الاحوال موجبة للضعف وناشئة عن عدم كفاءة المأمورين عقد السلطان مجلسا فى أدرنة للمداولة فيما يلزم عمله ووجهت الصدارة الى كوبرلى زاده مصطفى باشا (١١٠٠ هـ) ولقد كان هذا الوزير ورث من أبيه وجده المهارة الحربية والسياسة معا فلهذا تكللت مساعيه بالنجاح وتمكن من تخليص الدولة من الحالة السيئة التى وصلت اليها

نجاح كوپريلى فاضل مصطفى باشا — لما استلم هذا الوزير زمام الادارة شمر عن ساعد الجد فاظهر ما فطر عليه من الحزم والفطانة وصرف متأخرات الجنود والموظفين ثم التفت الى الاحوال الداخلية فاحسن نظامها وقوى بنيانها ثم جهز جيشا عظيما قاده بنفسه وتقدم به من شهر كوى فاسترد نيش وودين وسمندرة وبلغراد وطارد النمساويين حتى أبعدهم الى الضفة الاخرى من الطونة وفى تلك الاثناء ساق الروسيون جيشا عظيما على بلاد القريم فقابلهم سليم كراى خان بجيشه وهزمهم عند برزخ أورقپو (Pérécop) وهزمت فرقة جركس أحمد باشا الذى أرسل الى بلاد الاردل برفقة توكلى بك جيوش النمسا فى الجهة المذكورة وتمكن قوجه خليل باشا الذى تعين واليا للمورة من استمالة الروم الذين كانوا يكرهون ادارة البنادقة الكاتوليك واستخلاص أولونية وغيرها وقد كانت هذه الثمار من الاسباب التى انعشت القلوب وقوت الامل وشجعت الجنود وفى سنة ١١٠٢ هـ توفى السلطان سليمان خان الثانى بادرنة من مرض اعتراه وكان رحمه الله حليما تقيا سعيد الطالع تمكن فى زمن قليل من اعادة مجد الدولة فى أعين أوروبا بعد ان اعتراه الضعف لجهل الوزراء السابقين بامور السياسة والادارة

(٢١) السلطان أحمد خان الثانى ابن السلطان ابراهيم خان

١١٠٢ — ١١٠٦ ﻫ

واقعة صلانقمين ومقتل الصدر فاضل مصطفى باشا — لما جلس هذا السلطان على تخت أجداده كان سنه ٥٠ سنة فاجريت له رسوم التولية بادرنة وأرسل الفرمانات الى الجيوش المحاربة بيقاء الصدر الاعظم فاضل مصطفى باشا وباقى الوزراء فى مناصبهم وكان الصدر تقدم لملاقاة عساكر النمسا وبعد وصوله الى بلغراد عبر نهر صاوا على جسر ثم تلاقى مع جيوش الاعداء الذين كانوا تقدموا من وارادين تحت قيادة الجنرال لويزدى بادبمكان يقال له صلانقمين (Salankemen) فهاجمهم بشدة والتحم الفريقان وأزاح العثمانيون أخصامهم من مواقفهم وتقدموا حتى ضربوا قلب الجيش وبينما كان طائر النصر يرفرف على رؤس العثمانيين اذ اصيب الوزير برصاصة كان فيها حتفه ولما شاع خبر وفاته بين العساكر تقهقرت وتفرقت (٢٥ ذى القعدة ١١٠٢ - ١٦٩١ م) وتقرر بين الامراء انتخاب أقدم الوزراء ليكون قائدا عاما فانتخبوا خليل باشا الذى تمكن من ارجاع الجيش بحالة منتظمة الى بلغراد وخسر النمساويون فى ذلك اليوم خسائر كبيرة توازى خسائر العثمانيين ان لم تزد عليها وكان لهم على بعد ست ساعات من محل الواقعة المذكورة أساطيل كثيرة فى نهر الطونة فهاجمتها الدونمة العثمانية وأحرقتها عن آخرها ولما بلغ السلطان خبر وفاة الصدر تكدر لذلك ووجه مسند الصدارة لعربه جى على باشا والسرعسكرية لخليل باشا وأخذت الدولة فى اعداد الجيوش وتجنيد الجنود لعزمها على مناصبة العدو القتال

أما البنادقة فانهم لما لم يتمكنوا من زعزعة مقام العثمانيين بجزيرة كريد مع مابذلوه من المساعى ومانالوه من الانتصارات فترت همتهم حتى ان القبودان البندقى لما لم ير نجدة من وطنه سلم (١١٠٣ ﻫ) قلعة قرابوسة (Carabusa) من أعمال كريد للوزير على باشا محافظ خانية بنفس شروط تسليم مدينة قندية وقد خصصت الدولة لهذا القبودان بعد تسليمه وحضوره الى استانبول مايلزمه من المخصصات وأسكنته بمكان يليق به ثم حضرت عمارة البنادقة ومعها قوة عسكرية الى كريد وأخرجت تلك القوة العسكرية الى البر فحاصرت خانية مدة شهرين ثم تمكن محافظها وكان شجاعا من طردهم فولوا الادبار بسفنهم بعد ان تركوا جميع مدافعهم ومهماتهم الحربية ثم أرسلت الاساطيل الى البحر الاسود وغيره من الجهات لتأدية بعض الاعمال وفى سنة ١١٠٤ ﻫ خرج القبودان يوسف باشا الذى تعين لرياسة البحر فى السنة السابقة بباقى الغلايين والاغربة الى البحر الابيض كالمعتاد

وصدرت الاوامر بجمع الجنود فى أدرنة وتعين عليها بيقلى مصطفى باشا سردارا ثم قصد روسجق وأمر السلطان أيضا سليم كراى خان القريم بالانضمام الى الجيش العثمانى لمحاربة النمسا ببلاد الاردل فلما علم القائد النمساوى بذلك رفع الحصار عن مدينة بلغراد وتركها راجعا ولما بلغ خان القريم خبر رجوعه عن بلغراد اقتفى أثره وفتح قلعتى طمشوار وكبوله ومن الحوادث التى حدثت فى زمن هذا السلطان ظهور ثورة ببلاد الشام فارسلت الدولة جيشا لاطفائها وحدوث حريق

باستانبول جهة ايازمه قپوسى امتد الى اون قپان وآت بازار وكان جسيما أحرقت فيه عدة منازل ومبان وجامع السلطان سليمان (١١٠٤) وكان الجيش السلطانى حاصر سنة ١١٠٥ واردين واستولى جيش بوسنه على قلعة غبله من يد البنادقة وشتت شمل جيشهم فى تلك الاطراف ودخل جيش التتار الى بلاد الاردل وشتت شمل عساكر النمسا

ولما كانت حكومة البنادقة غير قادرة على محاربة العثمانيين بمفردها وكثيرا ما ساعدها البابا بضم بعض دول أوروبا اليها وكانت دول أوروبا لا تمكنها حالتها كل وقت من مساعدتها انضم اليها هذه المرة البابا وأهالى مالطة وأرسل الكل أساطيلهم بها جنودهم فاز لوها بجزيرة ساقز سنة ١١٠٦ (١٦٩٤) فأمر السلطان بجمع العساكر من كافة الجهات وتجهيز الدونما وأنشأ مراكب جديدة بغاية السرعة لتقوية العمارة وقد تم ذلك فى فصل الشتاء ثم اشتكى بعضهم القبودان يوسف باشا بانه كان بالعمارة فى بحر الارخبيل وقت استيلاء البنادقة ومساعديهم على جزيرة ساقز وكان فى امكانه المدافعة عنها الا أنه لم يفعل ولما كانت الدولة وجدت للشكوى بعض الحقيقة فعزلته عن رياسة البحرية ونفته الى قلعة مديللى وتعين الوزير عمو جه زاده حسين باشا وكان محافظ القلعة سد البحر بالدردنيل قبودانا للدونما وقد أظهر اهتماما زائدا بأمرها وفى تلك الاثناء اشتد المرض بالسلطان فتوفى بادرنة ودفن بجامعه الذى شيده قرب باغچه قپوسى (١١٠٦)

﴿الفصل الحادى عشر﴾

من معاهدة قارلوفچه الى جلوس السلطان سليم الثالث

١١١٠ - ١٢٠٣

---

(٢٢) السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع

١١٠٦ — ١١١٥

بويع له بالخلافة يوم وفاة السلطان أحمد وكان سنه ٣٢ سنة وفى اليوم الثانى من جلوسه أصدر فرمانا شديد العبارة مضمونه ان الحالة التى وصلت اليها الدولة من الضعف مدة أسلافه الذين رقدوا على بساط الراحة والدعة أدت لحصول الخلل فى النظامات والادارة وانه سيقبض بيده على زمام الاعمال مستطلعا الحركات والسكنات وانه ترأس بنفسه على الجنود فى ميدان القتال وما ماثل ذلك من الترتيبات والتدبيرات المفيدة ثم أمر بالتجهيزات الحربية برا وبحرا ولما طلبت اليكجرية منه انعامات الجلوس كالعادة نبههم الى عسر المالية وضنك الاحوال وعدم عطاويهم بعد النصر فقبلوا ثم ساق معظمهم الى ميادين القتال وأمر بسرعة الحركة لاعادة جزيرة ساقز

حرب ساقز — لما شمر السلطان مصطفى الثانى عن ساعد الجد وعزم على السير فى طريق الحزم ليرجع للدولة مقامها السابق وشرفها القديم ويسترد ما استولى عليه أعداؤها من أملاكها أمر العمارة فأقلعت من استانبول وكانت مركبة من عشرين غليونا و ٢٤ غرابا تحت قيادة عمو جه زاده

القبودان حسين باشا ومعه حسين باشا الجزائرى الملقب عند الفرنج ميزه مورتو بوظيفة نائب عنه (بطرونه) ومعهما العدد الكافى من الجنود وبعد مضى ثلاثة أيام من خروج العمارة صادفت قرب جزيرة قيون اطه (Spalmatori) عمارة البنادقة تقودها سفائن السحب لسكون الريح وقتئذ وكانت مؤلفة من عشرين غليونا وست ماعونات عند ذلك أمر القبودان باشا ستة عشر غليونا بالحملة على غلايين البنادقة المذكورة وخصص الاربعة غلايين الباقية للهجوم على مواعينهم وأمر قوّاد السفن بدقة الملاحظة والانتباه واجراء الحركات الحربية بكل نظام وترتيب وتروّ ثم حمل القبودان ميزه مورتو على غليون أميرال البنادقة وأطلق عليه مدافع الجنب (الابانده) مرة واحدة فتعطل من ذلك بعض مدافعه وطارت قطع من أخشابه فأصابت أكثر من مائة نفس من طائفته ووقع الهرج والاضطراب بين من فى الغليون المذكور وفى الحال اقتربت منه سفينة ترئيس يدعى عبد الفتاح وألقت عليه أقشة مغموسة بالزفت والنفط والقطران (ياغلى بجاوره) من مدافعها فأصابت مؤخره فالتهب فى الحال ولم تتمكن عساكره من اخماد النيران فزادو يلهم وعظم عويلهم وأراد غليون آخر من سفن البنادقة أن يمدّ له يد المساعدة الا أنه لم يكد يقرب منه حتى عمت النار أرجاءه ووصلت الى جبخانته فطار الغليونان فى الجو صعدا أما عساكرهما فمنهم من قتل ومنهم من ألقى نفسه فى البحر فقبض عليه العثمانيون وحملت المراكب التى كان يقودها عبد القادر باشازاده على ماعونات العدوّ وقويت عليها وعطلت مدافعها ثم التحم الفريقان واشتد بينهما القتال بالاسلحة البيضاء وتصاعد دخان المدافع فكسا الجو حلة سوداء وأظلم المكان بعد الضياء بحيث صار لا يمكن ان السفن ترى بعضها أصلا وأخيرا لم يسع العدوّ الا الانسحاب من ميدان الحرب بما بقى معه من سفنه وفرّ هاربا والتجأ الى مينا تيرفيل واستمرت هذه المحاربة من ضحوة النهار الى الغروب وغرق من سفن العدوّ عدة غلايين وانكسر منها عدة أيضا وكانت خسائر الدونما العثمانية قليلة جدا ففرح الجنود وتشجعوا ثم سار القبودان باشا ظافرا منصورا الى أن وصل الى ساحل الاناضول فأرسى هناك وصمم على اعادة الكرة على العدوّ لزيادة الايقاع به فأمر بالاستعداد ثم قام بالدونما فى اليوم الرابع من رجب من السنة المذكورة ولما قرب من ساقز ورآه العدوّ مقبلا سار نحوه الى خارج المينا ومعه ستة وعشرون غليونا وقبل أن يشتبك الطرفان فى القتال جعل العثمانيون عمارتهم على الترتيب الآتى وهو ان القبودان باشا جعل نائبه بستة غلايين عند أول مضيق ساقز فوق الريح وجعل ما بقى من السفن تحت الريح وبعد أن أخذت كل سفينة موقعها اشتعلت نيران الحرب بينهما وقذفت المدافع من فوهاتها المقذوفات العظيمة فوجم العدوّ لذلك وعلم أن لا طاقة له بالوقوف بسفنه بين نارين شديدتين وليس فى امكانه أيضا المقاومة أمام هذه التعبية العجيبة فالتزم أن يدخل الغلايين التى تعطلت الى داخل الميناء ثم ولى هاربا بما بقى معه منها وعددها أربعة عشر وأخذت العمارة العثمانية مع ذلك فى تعقب البنادقة واطلاق المدافع عليهم ورمت سفينة آشجى زاده محمد قبودان مقذوفات على غليون البنادقة فأصابت مخزن باروده وكان يحمل ٢٥ مدفعا فتفرقع لوقته وتبدد فى الجوّ قطعا أما الاربعة الغلايين التى تعينت لمحاربة الماعونات فى مبدإ الامر فقد فازت فوزا مبينا ولما عطلت ما كان أمامها من سفن البنادقة قبضت عليها وعلى جميع من كان بها بكل سهولة وقد تكبد البنادقة فى هذه الواقعة خسائر شتى وهربت باقى سفنهم ودخلت سفن الاميرال مينا ساقز وأنزلت

فى قلعتها خمسمائة خيال ولما دخلت الدونما العثمانية ساقز لم تجد فيها للعدو أثرا وصادفت فى البوغاز احدى المواعين المعطلة المشحونة بالذخائر فاستولت عليها بمن فيها وكان بها ١٦ مدفعا من النحاس وستة هوانات وخمسة آلاف بندقية وكثير من المهمات والذخائر والجبخانات و ٢٨٠ جندى ولما استولت الدونما على القلعة والمينا وجدت بها أيضا أربع مراكب للسحب وأربعة غلايين كبيرة مشحونة بالاسلحة ودخل العساكر المدينة ولم يتعرضوا لاحد بسوء مطلقا فقابلهم السكان بالترحاب وقد اغتنمت الجيوش العثمانية ما استجد بالقلعة من الادوات وكانت ١٦ مدفعا وثمانين ألف مقذوف وكثيرا من المهمات والجبخانات وغيرها ولما انتهت المحاربة وأنزل بساقز الحامية الكافية من العساكر الذين نقلوا من چشمة بساحل الاناضول عادت الدونما ظافرة الى الاستانة فسر السلطان من القبودان حسين باشا ورقاه الى مسند القائمقامية وخلفه على رياسة البحرية القبودان ميزه مورتو حسين باشا وقد اهتم من يوم توليته فى انشاء السفن الحربية واصلاحها لتقوية الدونما وأتقن آلاتها ولوازمها وانتخب لها العدد الكافى من الملاحين وأرباب الفن ثم أكثر من التدريبات والتمرينات حتى صير طوائف السفن على غاية من الاستعداد والمهارة والاجتهاد فى الفنون الحربية البحرية

محاربات النمسا وهزيمة زانتا (١١٠٩ ﻫ) - اعلم انه بعد الانتصار البحرى المذكور واسترداد ساقز قاد السلطان بنفسه الاوردى الهمايونى سنة ١١٠٧ (١٦٩٥ م) وعبر بهنهر الطونة فوصل الى بانجوه وعسكر فى صحراء طمشوار واستولى على قلعة ليبوه (Lippa) وجميع ما بها من الذخائر والمهمات وانتصر فى واقعة لوغوس (Lugos) الدموية وقتل قائد جيش النمسا الجنرال وتران (Vétérani) بعد ان شتت شمل جيشه وأسره ثم عاد الجيش بعد ذلك لتمضية الشتاء فى بلغراد وسار السلطان الى القسطنطينية فائزا منصورا الا أن هذه الهزيمة المذكورة لم تكن بالقاضية على النمساويين لانهم أعادوا الكرة على الحدود العثمانية ثانية (١١٠٨ ﻫ ١٦٩٦) وحاصروا طمشوار بجيوش عديدة فتقدم السلطان بالجيش وردهم عن القلعة المذكورة وقهر للنمساويين جيشا عظيما كان مجتمعا فى مضيق بتلك الاطراف تحت قيادة منتخب ساكن فريدريك قرب مدينة أولاش (Olasch) وكانت هذه النصرة الثانية سببا لبث روح الشجاعة والاقدام فى الجنود العثمانية ثم عاد السلطان الى أدرنة بعد ان قوى طمشوار وأكثر من بناء القلاع بالحدود ثم اهتم فى تحسين واصلاح الامور العسكرية والملكية وكان الروس أثناء هذه الحروب حاصروا مدينة ازاق (Azov) (١١٠٧ ﻫ) فقاومتهم جيوش خان القريم والحامية العثمانية هناك وتغلبوا عليهم وطردوهم وقتلوا منهم نحو ثلاثين ألف جندى الا أن بطرس الاول قيصر الروس عاد بجيش كثيف يتجاوز ٦٠ ألف جندى (١١٠٨) وحاصرها ثانية ولما كانت الدولة مشتغلة بالحروب القائمة بجهات مورة والمجر وبولونيا وبوسنة لم تتمكن من نجدة تلك المدينة فتم له الاستيلاء عليها وجعلها ثغرا له على البحر الاسود لان قبائل القوزاق كانت حائلا بين البحر وبين الروس وفى سنة ١١٠٩ ﻫ قاد السلطان الجيش بنفسه لمحاربة النمسا ولما وصل بلغراد عقد مجلسا للمداولة فاستقر الرأى على ان يسير الجيش الى جهة طمشوار

كما

كما سار في العامين السابقين ثم عبر الجيش الطونة الى بانجوه وتقدم حتى وصل الى مدينة زانتا (Zenta) الواقعة على نهر تيس ونصبوا هناك جسراً ليعبروا الى الضفة الاخرى وبينما الجيش آخذ في العبور اذ هاجمه القائد النمساوي العام البرنس أوجين دي ساڤوا الشهير (Eugène de Savoie) ولما اصطدم الجيشان انكسر الجسر فانقسمت القوة العثمانية الى قسمين وضعف أمرها وظهرت عليها علامات الهزيمة وكان القتال عنيفاً ومات من العثمانيين عدد عظيم بين أنفار وقواد منهم الصدر الاعظم الماس محمد باشا ووالي الاناضول مصرلي زاده ابراهيم باشا ومحافظ طمشوار جعفر باشا ووالي اذنه (اطنه) فضلي باشا واغاة الينكجرية بالطه زاده محمود باشا وعشرة من البكوات ونحو خمسة عشر ألفاً من الجنود بين قتيل وغريق ولولا وجود السلطان بالضفة الاخرى لوقع أسيراً في يد الاعداء وبهذه الهزيمة ضاعت كافة قلاع بلاد المجر من العثمانيين (٢٣ صفر ١١٠٩) واستولى النمساويون على بلاد بوسنه وغيرها ولما عاد السلطان وجه مسند الصدارة الى كوبريلي عموجه زاده حسين باشا

معاهدة قارلوفجه (١١١٠ هـ) — لما قبض الصدر الاعظم الجديد الذي هو من أولاد الوزير الشهير صاحب الافكار العالية والآراء السديدة المرحوم كوبريلي باشا الكبير على زمام الاحكام أخذ ينظم الادارة ويدبر المصروفات والايرادات فزادت بذلك الاموال في الخزينة وانتعشت الآمال وابتهجت الاحوال حتى تمكن من تجهيز جيش جديد بلغ خمسين ألفاً من الرجالة وأربعين ألفاً من الخيالة خلاف الطوبجية ثم تقدم به نحو بلغراد وتقابل مع البرنس أوجين المذكور باقليم بوسنة واستظهر عليه حتى ألزمه الرجوع الى ماوراء نهر صاوه (Save) تاركاً بلاد بوسنه وبينما كان السلطان مصطفى مصراً على استرداد جميع مافقد من أملاك الدولة كان أمبراطور النمسا يميل جد الميل للصلح والمسالمة لما لحقه من الخسائر مدة الحروب الطويلة المذكورة ففتح باب المخابرات بين الدولتين وتداخل لويز الرابع عشر ملك فرانسا وأراد ان يدخل الدولة العثمانية في معاهدة ريسويك (Ryswyck) التي أمضيت في ٢٠ سبتمبر سنة ١٦٩٧ بين فرانسا من جهة والنمسا واسبانيا وانكلترة وهولاندة من جهة أخرى وهي المعاهدة التي أرجع بها الاسپانيا ما كانت فقدته من أملاكها فلم تقبل الدولة لتعصب دول أوروبا عليها وسعيهم في محو نفوذها والحاصل انه بعد مخابرات استغرقت مدة طويلة قبلت دول النمسا والروسيا والبنادقة وبولونيا شروط معاهدة قارلوفجه المذكورة (Carlowitz) قطعياً مع الدولة (١١١٠ هـ - ١٦٩٩ م) وتم بذلك الصلح وكان أهم شروطه مهادنة النمسا المدة عشرين سنة وان يبقى للدولة العلية ولاية طمشوار (Temeswar) المعروفة ببانات وتأخذ النمسا بلاد الاردل وما استولت عليه من بلاد المجر وعلى ذلك تكون الحدود بين الطرفين أنهار ماروش وتيس والطونة وصاوه ومهادنة مع دولة بولونيا المدة عشرين سنة أيضاً وان ترد للدولة العثمانية البلاد التي استولت عليها من بغدان وتبقى الحدود القديمة على ما كانت عليه ويعاد لبولونيا اقليمي پودوليا وأوقرين وقامنيچه وتعفى من الجزية التي كانت تدفعها لخان التتار وان تتنازل الدولة العثمانية للبنادقة عن شبه جزيرة مورة واقليم دالماسيا وان تعفى النمسا وغيرها مما كانت تدفعه للدولة العثمانية ولما كان مرخص الروسيا غير حائز للثقة التامة عقدت معه متاركة لمدة ثلاث سنين تحت شرط بقاء قلعة ازاق بيد الروس ثم تأيدت هذه

المتاركة فيما بعد بينهما (١١١٣ ه) وبعد ذلك استمرت هذه المهادنات حتى صارت صلحا دائما بين الطرفين

الوقائع البحرية مدة الحروب المذكورة — لما استولت الروسيا على قلعة ازاق (١١٠٨ ه ١٦٩٦ م) صدرت الاوامر الى دار الصناعة بسرعة انشاء السفن الحربية لتقوية الدونما في البحر الاسود ونهر الطونة والبحر الابيض المتوسط وأظهر القبودان ميزه مورتو حسين باشا في ذلك مزيد الاهتمام ثم حضر أسطول طرابلس الغرب لينضم الى الدونما وكان مركبا من خمسة غلايين وورد الخبر باستيلاء أسطول جزائر الغرب على ثلاث سفن للبنادقة ولما تمت التجهيزات البحرية أبلغت قوة الاساطيل بالبحر المتوسط الى عشرين غليونا جعلت تحت رياسة ستة من قواد البحر وأضيف اليها بعض الفرقاطات والشواني وزيدت دونما البحر الاسود حتى صارت ٢٠ غالية صنعت بسينوب وضم اليها ٢٥ شيقة صنعت بروسجق و ١٥ قطيرة وخمسة غلايين أما أسطول نهر الطونة فكان يتركب من ١٢ سفينة من نوع الشيقة صنعت بساحل الطونة بنيكبولى وروسجق وسلسترة وبلغراد وأضيف اليها بعض السفن التى عملت بجهات اسماعيل وايساقجى وقرين فكان مجموعها عشر غاليتات و ٣٣ فرقاطة و ٢٩ صندلا ومائة سفينة من النوع المعروف باوستى اچق (المفتوح من أعلى) وفى ١٥ الحجة من سنة ١١٠٩ (١٦٩٨ م) خرجت الدونما من الدردنيل تحت قيادة القبودان ميزه مورتو حسين باشا وهزمت عمارة البنادقة وكانت راسية قرب جزيرة بوزجه اطه بعد ان استولت على ثلاث سفن منها وتعطل للبنادقة غليونان آخران فارتطما بالشاطئ وبعدها بقيت الدونما العثمانية تمخر فى بحر الارخبيل بلا معارض ثم عادت لتمضية فصل الشتاء بالاستانة ولما خرجت ثانيا سنة ١١١٠ ه (١٦٩٩ م) وجد القبودان باشا المذكور عمارة البنادقة فى بوغاز جناق قلعة استولت على جهتى عابرين ومارين تحمل عليها حملة منكرة فهزمها شر هزيمة ثم اقتفى أثرها حتى أدركها بجوار رأس الزيتون من جزيرة مديللى وأطلق عليها المدافع طول النهار حتى أباد كثيرا من سفنها ولما أسبل الليل سدوله هربت وولت الادبار وقد اشتهر القبودان حسين بهذه النصرات وذاع صيته بين رجال البحرية وامتدحه مشاهير مؤرخى أوروبا ولم يعمر بعد ذلك طويلا فتوفى سنة ١١١٣ ه وخلفه على رياسة البحرية عبد الفتاح باشا ومات بعد سنة وتعين مكانه آنجى محمد باشا وقاد الاساطيل فى البحر الاسود

اصلاحات داخلية — انه بعد ان تقررت مصالحة قارلوفجة بين العثمانيين ومن مر ذكرهم من دول أوروبا عاد السلطان من أدرنة الى استانبول فقابل السفراء ثم أخذ ينظر فيما يقتضيه ملكه من التحسينات وأخذ الصدر الاعظم عموجه زاده حسين باشا فى اصلاح الاحوال الداخلية التى أصابتها المضار من طول زمن الحروب المذكورة فرفع عن عاتق الاهالى ما عجز وا عن أدائه من الضرائب بعد ان قللها وقبض على كل المفسدين وأصحاب الدسائس والسوابق من بين الجيوش وأبادهم نفيا وقتلا وأخذ فى تشجيع الاهالى وحثهم على زيادة الاعتناء بالزراعة والصناعة اذ عليهما مدار تقدم البلاد وبينما كان الصدر يهتم فى هذه الاصلاحات النافعة حدث بينه وبين شيخ الاسلام فيض الله أفندى اختلاف لان فيض الله أفندى المذكور كان معلم السلطان قبل جلوسه على

كرسي السلطنة وكان السلطان ولاه مسند المشيخة الاسلامية وصار يستشيره في كل الامور فاغاظ ذلك الصدر لتداخل شيخ الاسلام في الاحوال السياسية التي ليست من تعلقات وظيفته أصلا وكان القبودان ميزه مورتو حسين باشا مدة حياته يجتهد في التأليف بينه وبين الصدر ويزيل النفور من قلوبهما الا انه بعد وفاته استبد الشيخ في آرائه وأظهر العظمة فلم يتحمل الصدر ذلك وقدم استعفاءه (١١١٤ ه) وأقام في ضيعة له منفردا حتى مات بعد سبعة عشر يوما ونقلت جثته الى استانبول ودفن في مدرسته المشهورة

واقعة ادرنة (١١١٥ ه) — اعلم انه بعد ان استقال الصدر حسين باشا وجه السلطان مسند الصدارة الى دال طبان مصطفى باشا الذي التزم السير على الخطة التي يرسمها له شيخ الاسلام المذكور ولما كان هذا الصدر يميل من طبيعته للحرب والقتال في الوقت الذي كانت الدولة فيه في أشد الاحتياج للمسالمة والراحة بعد الحروب الطويلة لتلتفت لاصلاح أحوالها الداخلية اختلت بذلك أحوال السياسة وارتبكت العلاقات الخارجية حتى خيف على روابط السلم أن تنقطع ثم عزل وقتل لما تحقق للسلطان وبقية الوزراء انه بخطته هذه يوقع الدولة فيما تخافه من الحروب ولما كان الوزير المذكور من مشاهير الابطال وقع اضطراب وشغب بسبب ذلك بين صنوف الجنود وتعين للصدارة رامي محمد باشا وكان مرخصا للدولة في صلح قارلوفجه وكان عالما بالامور الادارية والاحوال السياسية وقد تمكن بمساعدة محاميه شيخ الاسلام من تحسين الاحوال واصلاحها الا أن شيخ الاسلام لما كان يميل الى التغلب والتحكم في كافة الامور والصدر يريد مراعاة حقوق مقامه أخذ يفكر في منع تسلط الشيخ المذكور الذي لما أحس بذلك أشعل نار الفتنة حتى استفحل أمر الهياج بين الجنود وكان السلطان في ذلك الوقت بادرنة لتولعه بالقنص كأبيه ثم انتهت الفتنة بقتل شيخ الاسلام فيض الله افندي المذكور ولما بلغ السلطان مصطفى انهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد خان وأعلمه بالامر وتنازل له عن كرسي السلطنة في ٩ ربيع الاول سنة ١١١٥ ه ثم مات بعد مائة وأربعين يوما وكان شجاعا يميل الى الاقتداء بجده السلطان سليمان في الفتوحات حضر بنفسه ثلاث غزوات مهمة وكان فطنا شفوقا عادلا محبا للعلماء والعلوم والمعارف ولما كانت هذه الواقعة حدثت باستانبول وقصد أربابها مدينة أدرنة للافساد بها دعيت بواقعة أدرنة

---

(٢٣) السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع

١١١٥ — ١١٤٣

لما تبوأ هذا السلطان التخت العثماني بعد تنازل أخيه له كان عمره ثلاثين سنة واستمرت الفتنة في أول حكمه ولم يتمكن من اخمادها وبقيت نحو ستة أسابيع وقتل فيها أكبر أولاد شيخ الاسلام فيض الله أفندي المقتول ثم نفوا باقي عائلته الى قبرس وخرب الثائرون جملة منازل وقتلوا جاليق أحمد باشا أغاة اليكجرية وكان نال رتبة الوزارة وعزلوا الصدر الجديد قوانوز أحمد باشا وشيخ الاسلام امام محمد أفندي وغيرهما فتساهل السلطان لهم خوفا على مركز السلطنة من أن يكون العوبة في

يد أرباب الغايات ومازالت عوامل الثورة قائمة حتى تمكن السلطان و وزراؤه من نفى بعض أرباب المفاسد فهدأت الاحوال نوعا

وبينما كانت الاضطرابات بالاستانة تعدت عربان الحجاز على قوافل الحجاج بالنهب والقتل فاهتمت الدولة بتأديبهم وسيرت عليهم العساكر من طرابلس الشام و بيروت وجبل عجلون والقدس فاوقعت بهم وعادت الامنية الى ربوعها وأبقت الدولة الشريف سعد شريفا بالمكة المكرمة كما كان مع قيام الادلة على اشتراكه مع العرب (١١١٦ ﻫ) ولما رأت الدولة سعى دولة الروسيا فى مد نفوذها بجهات البحر الاسود شيدت بياطوم و بغدادجك وطمرق قلاعا لحماية البلاد الآسيوية وعزل السلطان الصدر داماد أحمد باشا لخلاف وقع بينه وبين أوزون سليمان أغا أغادار السعادة وقد اهتم هذا الصدر كثيرا بنافع الاصلاحات فنظم دار الصناعة وأكثر من انشاء المدارس والمعامل وغيرها وخلفه فى الصدارة قلايلى قوز أحمد باشا فلم يلبث بها طويلا

احوال البحرية فى العهد المذكور — لما قبض السلطان أحمد خان على زمام السلطنة وغير و بدل فى الوزراء والمأمورين رغبة فى الاصلاح أنزل أيضا أشجى محمد باشا الى وظيفة قبودان غليون لعدم قيامه بتمام الاعمال البحرية كما ينبغى ووجهت القبودانية العامة الى كوجك عثمان باشا فاهتم بأمر البحرية اهتماما عظيما وأكثر من المدارس البحرية وأصلح دار الصناعة باستانبول وجدد فيها وبدل أكثر مما صنعه بها مدة خدمته فيها ثم خرج القبودان باشا بالدونمة الى البحر الاسود حينما علمت الدولة بالتجهيزات التى شرعت فيها دولة الروسيا وكانت تظن ان الروسيا تنوى اجراء حركات حربية أثناء اشتغال دول أوروبا بحروب الوراثة باسبانيا الا أن الروسيا لما علمت بانتباه العثمانيين لاعمالها حولت نظرها عن البحر الاسود وأرسلت الدولة أيضا القبودان باشا بالعمارة لبناء قلعة جديدة بالجهة المسماة اقندى برون بالبحر الاسود وفى أثناء العمل قامت زوبعة شديدة أغرقت تسع سفائن من العمارة ولما عاد الى استانبول عزل لاهماله وتعين واليا على صيدا وخلفه بلطه جى محمد باشا ولم يمكث طويلا فى رياسة البحرية لانه تولى الصدارة بدلا من أحمد باشا وتعين لاسطول البحر الاسود فرنك عبد الرحمن باشا ولما كانت الدولة لاتزال تنوى بناء القلعة المذكورة أمرت القبودان الجديد أن يذهب بالاسطول الى البحر الاسود لاتمامها (١١١٧ ﻫ) وكان هذا الاسطول يتركب من ١٩ سفينة صغيرة وعشرة غلايين ولما تم له انشاء القلعة سلحها بالآلات والمدافع الضخمة وأرسلت الدولة أثناء ذلك أسطولا آخر مركبا من تسعة غلايين للمحافظة على سواحل البحر الابيض فالتقى مع سفن للقرصان و بعدان أوقع بهم أسر منهم ثلاثة غلايين وسفينتين ثم عاد الى استانبول و بعد عودته بأيام التهمت النيران مخزن أخشاب دار الصناعة فنسبوا ذلك لاهمال فرنك أحمد باشا وتراخيه وحاكموه وحكموا عليه بالقتل ودفن بجوار بياله باشا الشهير وخلفه فى رياسة البحرية ولى باشا ولما انتهى الشتاء خرج أسطول مؤلف من ستة غلايين للحراسة بالبحر الابيض المتوسط كالمعتاد (١١١٨) ولما وردت الاخبار من خان القريم بان الروس ربما نقضوا العهد وأغاروا على أملاك السلطنة لما رآه منهم من الاعمال العدوانية سيرت الدولة الاسطول (١١١٨) صحبة القبودان ولى باشا وكان يستعد قبل ذلك للذهاب الى البحر الابيض وأمرته بتقوية قلعة أوزى

بتلك

بتلك الاطراف ثم أقلع باسطول مؤلف من ١٧ سفينة وأربعة غلايين متوسطة القدر وبعد أداء مأموريته عاد الى استانبول فانعم عليه السلطان وعلى من معه ثم صدرت مراسيم السلطان بانشاء ستة غلايين بجهة كوبلى اغزى بسواحل البحر الاسود يختلف طول الواحد منها بين ٥٣ و ٥٥ ذراعا وعهد بناؤها الى محمد أفندى البوسنوى بشرط انه كلما أتم واحدا منها نقدته دار الصناعة أربعين ألف غرش وفى هذه المدة سعى بعضهم بالوشاية فى حق القبودان ولى باشا فقتل ودفن باسكدار وخلفه فى رياسة البحرية القبودان ابراهيم باشا وكان كتخدا الجورليلى على باشا الصدر ثم سافرت الدونما الى البحر الابيض (١١١٩ ﻫ) وبعد عودتها خلع السلطان على القبودان باشا وقواده كالمعتاد ثم أبحرت أيضا فى السنة التالية وعادت فى الخريف وبعد عودتها حصل ان أحد الغلايين لم يخرج ما كان أخذه معه من البارود الى المخزن فاشتعلت به النار قضاء وقدرا فدمرته وقتل أكثر طائفته وتسبب من ذلك خسائر كبيرة لسراى دار الصناعة ولكافة المنازل الكائنة بالفنار وبالطة اسكله (١١٢١ ﻫ) وكانت العادة ان مخاطيف سفن العمارة تشترى من بلاد الانكليز الى أن انتبه أحد عمال معمل المقذوفات ووجد ان عمل المخاطيف سهل لا يحتاج الى مزيد مشقة فعرض ذلك على رؤسائه ففرحوا وشجعوه على صناعتها ولما صنع واحدا منها كافؤه وأفردوا له قسما من الصناع ليعلمهم ذلك وقد تمكن من عمل مخاطيف يزيد الواحد منها عن ثمانين قنطارا وهو شئ لم يسبق له مثيل لدى العثمانيين لذلك العهد ولما عاد الحاج ابراهيم باشا القبودان الى استانبول عين والوالاية مصر ووجه منصب القبودانية لمحمد باشا ابن كوسج على باشا الاغريبوزلى وفى هذه السنة خرج جانم خواجه الحاج محمد باشا وكيل القبودان العام باسطول مؤلف من تسعة غلايين للمحافظة على سواحل البحر الابيض المتوسط وبينما هو يتجول أسر أحد غلايينه غليونا كبير القرصان مالطة به ٤١ مدفعا ثم عادت الدونما من البحر الابيض ومعها سبعة غلايين وسفينة صغيرة استولت عليها من قرصان البحار وقبض أيضا القبودان جانم خواجه الحاج محمد باشا المذكور على سفينتين احداهما للبنادقة والاخرى لمالطة كانتا مشتغلتين بالتلصص مستمرتين على التعدى على سفن تجار العثمانيين

بطرس الاكبر وشارل الثانى عشر وبالطه جى محمد باشا وواقعة بروت — اعلم انه من يوم ان تبوأ السلطان أحمد الثالث التخت والحروب قائمة بين دولة السويد ودولة الروسيا ولما دخل شارل الثانى عشر المعروف عند العثمانيين بتيمور باش (رأس الحديد) بجيشه الجسيم فى بلاد الروس وانتصر عليهم فى واقعة نارو Narva وقهر جيوش الساقسون والبولونيين المتفقين واستولى على بلدتى لمبرغ ووارسوفا ونصب أحد ضباطه المدعو استانسلاس ولجنسكى (Stanislas Leczinski) أميرا على اللهستان ثم اقتفى أثر ملكها السابق أغست الثانى (Auguste II de Saxe) حتى أغار على ساكسونيا واضطره الى طلب الصلح والتنازل عن دعواه فى مملكة اللهستان وكانت دولة الروسيا منذ معاهدة قارلوفجه أخذت تبنى قلاعا فى بحر ازاق وحدود أوزى وبندر وتشيد سفنا لانها كانت تنوى الضرر للدولة العثمانية وغفلت الدولة عن مراقبة حركاتها مراقبة شديدة دقيقة لاستصغار العثمانيين شأن هذا العدو الجديد وكانت الدولة لما وقعت الحرب بين شارل وبطرس

افتكرت ان شارل ربما قام بتنفيذ ما يجب عليها هى من اضعاف شأن الروسيا وأرسلت له يوسف باشا محافظ باباطاغ ووالى أوزى يشجعه على دوام القتال ويعده بان الدولة أمرت خان القريم بمساعدته متى دخلت عساكره داخل بلاد الرسيا ويروى أيضا انها كانت تريد ان تعقد معه اتفاقية سرية مبنية على الهجوم والدفاع لولا معارضة الصدر الاعظم چورليلى على باشا الذى كان يرغب التمسك بشروط المعاهدة الصلحية المعقودة بين الدولة والروسيا وخبر البقاء على الحيادة مدة المحاربات المذكورة ثم لما انتصر بطرس الاكبر على شارل الثانى عشر فى ملحمة بلطاوه (Poltawa) وانهزم مجروحا التجأ للممالك العثمانية (١١٢١ هـ ١٧٠٩ م) وتوسط له يوسف باشا المتقدم الذكر حتى تحصل على رخصة من السلطان تجيز لشارل الاقامة بمدينة بندر ولما تعدت فرسان الروسيا الذين كانوا يتعقبونه حدود الدولة من جهة أوزى وبغدان وكانت الروسيا أدخلت تحت سلطتها جميع القوزاق وهددت الحدود السلطانية بما شيدته من الحصون والمعاقل وكانت دائبة على اثارة أهالى المملكتين على العثمانيين عدت الدولة كل ذلك من الاسباب الشرعية لمحاربة الروسيا وسجنت سفيرها فى قلعة يدى قله كالمعتاد لان هذه العادة فى الوقت المذكور كانت بمثابة أخذ السفير رهينة حتى تخرج تجار العثمانيين ورعاياهم من أراضى الدولة المراد محاربتها ثم أعلنت الدولة الحرب على بطرس الاكبر (١١٢٢ هـ) وتقدم الصدر الاعظم بالطه جى محمد باشا يقود جيشا عظيما يزيد عن مائة ألف مقاتل الى جهة الطونه فى أوائل سنة ١١٢٣ هـ ولما عبر مضيق ايساقجى وخرج الى صحراء فارتال بلغه خبر وصول جيش الروس وعدده أربعون ألف جندى من جهة حدود البغدان فتقدم الجيش العثمانى وأحاط بجيش الروس بقرب قرية فالچى فى المستنقعات الكائنة بجانب نهر بروت حتى أضحى بطرس الاكبر بجيشه فى قبضة العثمانيين ونفد منهم الزاد والذخيرة وقطعوا الامل من النجاة الا بالاستسلام ولولا ان زوجته كاترينا تداركت الامر بفطنتها وحيلتها لكان قضى على الروس سياسيا وذلك انها عمدت الى ما معها من الجوهرات والنفائس وما مع من برفقتها من الاميرات والوصائف فجمعتها وأرسلتها الى الصدر الاعظم بالطه جى محمد باشا فتقبلها منها لخسة نفسه ودناءة أصله وأفرج عن الجيش وعقد معهم صلحا من شروطه تنازلهم عن قلعة ازاق بما فيها من المدافع والآلات للدولة وان يهدموا جميع القلاع التى شيدوها حديثا فى حدود الدولة وان لا يتداخلوا فيما بعد فى أحوال القوزاق وان لا يتعرضوا لشارل الثانى عشر عند عودته الى وطنه وهذا الصلح وان كان صلحا مجيدا يناسب مقام العثمانيين الا أنه كان أكثر فائدة للروس لانه خلصهم من ورطة لو وقعوا بها لما كانت تقوم لهم بعدها قائمة وتسمى هذه المعاهدة بمعاهدة فلكزن (Falksen) ولما سمع شارل ملك السويد بما فعله بالطه جى باشا اغتاظ جدا واجتهد فى اعلام السلطان بخيانته ويقال انه لما لام الصدر على عدم قبضه على بطرس الاكبر قال معتذرا من الذى كان يحكم بلاده بالنيابة عنه وليس من الصواب ان يكون كل الملوك خارج بلادهم وبعد التصديق على المعاهدة المذكورة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) استولى العثمانيون على قلعة ازاق بلا قتال ثم ان ملك السويد ورجاله اشتكوا للسلطان مما فعله الوزير بلطه جى محمد باشا وكيف انه أخذ الرشوة من كترينه وأطلق السراح لجيش الروس وقد صادق خان القريم على أقوال ملك السويد المذكورة وثبتت هذه الاقوال حينما توقف أمور الروسيا عن تنفيذ بعض بنود المعاهدة المذكورة فعزل الوزير بلطه جى محمد باشا ونفى الى لمنى وأحيل مسند

الصدارة

الصدارة على يوسف باشا ولما رأى السلطان منه استحسانا للمعاهدة التى عقدها بلطهجى باشا عزله وولى مكانه سليمان باشا واستعد السلطان بنفسه لمحاربة الروسيا فقصد أدرنة فى الشتاء وعزل الصدر لانه لم يوافقه على الحروب ونصب بدله القبودان خواجه ابراهيم باشا (١١٢٤ هـ) وأصله قبودان غليون ونال القبودانية بعد حاجى محمد باشا ثم تداخلت دولتا انكلترة وهولاندة فى حسم الخلاف الذى بين الروسيا والدولة لان الحرب يضر بمصالحهما التجارية وانتهى الامر بعقد معاهدة أدرنة (١١٢٥ هـ - ١٧١٣ م) وكان من مقتضاها ان تنازلت الروسيا عن كافة مالها من الاراضى على البحر الاسود بحيث لم يبق لها عليه ولا مينا واحدة ورفع عن عاتقها نظير ذلك المبلغ الذى كانت تدفعه سنويا للخانات القريم وعزل سليمان باشا من القبودانية ووجهت الى خواجه سليمان باشا ووجهت الصدارة العظمى للداماد على باشا بعد عزل خواجه ابراهيم باشا لجهله بالامور السياسية ثم ان شارل لما لم يتحصل على مرغوبه عاد الى بلاده ثانية بعد ان أقام بأراضى الدولة ست سنوات

حالة البحرية فى الوقت المذكور — ان النظامات التى كان أدخلها فى البحرية ميزه مورتو حسين باشا عادت على الدونما بالنجاح والفلاح وصيرتها قوية مهيبة ووصلت الى درجة عظيمة من الاتقان والانتظام حتى أوقعت الرعب فى قلوب الاعداء ولما تعين جانم خواجه محمد باشا (١١٢٦) قبودانا عاما للدونما تلقى الضباط والافراد عموما تعينه بالسرور والانشراح لانه أول قبودان عام تخرج من الوجاقات البحرية ولما كان السلطان شديد الغيرة على ارجاع ما كان للدولة من البلاد أراد استرداد جزيرة مورة وكان البنادقة استولوا عليها كما سبق وتأيد حكمهم لها بمعاهدة قارلوفجه

وفى مدة الحروب المتقدمة كانت الدولة مهتمة بتقوية أساطيلها كاهتمامها فى تنظيم جيوشها وتقوية قلاعها وكانت دار الصناعة تبنى ثلاثة غلايين كبيرة ولما كملت احتفلوا بانزالها فى البحر احتفالا شائقا حضره السلطان بنفسه وخلع على الصدر الاعظم والقبودان باشا ومدحهما على اهتمامهما (١١٢٢ هـ) ثم أرسلت الدولة أسطولا مؤلفا من ثمان سفائن حربية للمحافظة على جزائر الارخبيل من تعديات البنادقة خصوصا وقد قبض هذا الاسطول على فرقاطة ابن مانيات أحد مشاهير قرصان البحر وكان بها نحو ستين شخصا وبذلك عاد الامن نوعا الى تلك الجهات لكثرة تعدى هذا الشقى على سفن التجارة العثمانية ثم عاد القبودان الى استانبول وبعد عودته باشر بناء عدة سفائن من النوع الخفيف لتكون صحبة العمارة عند استرداد مدينة ازاق من الروسيين ولما تمت التجهيزات خرجت العمارة (١١٢٣ هـ - ١٧١١ م) وكانت مركبة من ٢٢ قطعة من قطائر أمراء البحرية و ٢٧ غليونا و ٦٠ فرقاطة و ١٢٠ سفينة خفيفة لنقل المهمات ومائة صندل من النوع المسمى قانجه باش وبرولبق وغيرها فكان الجميع ٣٦٠ سفينة بها نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الحاج محمد باشا ومع ذلك فان الدولة استولت على المدينة المذكورة بموجب معاهدة پروت السابق ذكرها بلا احتياج لحركات حربية وبعد ذلك أبحر أسطول مركب من ثمانية غلايين تحت قيادة خواجه ابراهيم باشا للمحافظة على سواحل الدولة فى البحر الابيض المتوسط

حرب البنادقة واسترداد مورة — لما كانت الدولة العلية لا يقر لها قرار الا باسترداد مورة لما فى تملكها من المنافع السياسية والتجارية واهتمام السلطان بهذا الامر كثيرا أرسلت

سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م) دونمة مركبة من ثلاثين غليوناواربعين غرابا يقودها القبودان العام جانم خواجه محمد باشا وكانت العساكر البرية فى تلك الاطراف يقودها الصدر الاعظم داماد على باشا ولما وصلت العمارة الى سلانيك استأذن القبودان الصدر الاعظم فى فتح جزيرة استنديل (Tinos) فلما صرح له ذهب وحاصرها من كل جانب وبعد قليل من الزمن استولى عليها وطرد حامية البنادقة منها وكانت هذه الجزيرة فى قبضة البنادقة مدة أربعة قرون تقريبا وكثيرا ما حاولت الاساطيل العثمانية افتتاحها فلم يتيسر لها فلما افتتحوها هذه المرة فرحوا واستبشروا وقويت آمالهم ثم تقدم الجيش البرى تحت قيادة السردار المذكور وحاصر قلعة انابولى وساعدته الدونمة بحرا فتم له الاستيلاء عليها بعد ان مكث على حصارها ثمانية أيام ومازالت الجنود العثمانية بعد ذلك تتقدم غانمة منصورة حتى أخضعت مدن متون وقرون وكردوس (Corinthes) وغيرها فى زمن يسير وفتحت العمارة جزيرة چوقه (Serigo) بحيث لم يمض الا القليل من الزمن حتى استردت الدولة شبه جزيرة مورة مع ملحقاتها من الجزائر وأسست فيها ادارة منتظمة كما كانت قبل تعدى البنادقة عليها هذا وقد أمرت الدولة الوزير محمد باشا محافظ قلعة خانية وازميرلى على باشا محافظ قلعة قندية من جزيرة كريد بالاستيلاء على قلعة سودة واسپرلونغه وكورابوزه وكانت لا تزال باقية تحت يد البنادقة بالجزيرة المذكورة من حين فتح قندية وقد تمكن القائدان المذكوران من تنفيذ ما عهد اليهما تماما ومن ذلك الوقت صارت كريد بأجمعها تابعة للدولة العثمانية وزال من تلك الاطراف ما كان يأتيه قرصان البنادقة من المفاسد والاضرار بالارواح والاموال اذ كانت تلك الجهات مركزا لاعمالهم ومأوى لمفاسدهم ولما عادت الراحة والطمأنينة الى هاتيك المعالم والمعاهد وانقشعت غياهب المظالم قفلت الدونمة عائدة الى استانبول وذهب الصدر الاعظم الى أدرنة لمقابلة السلطان

وقائع النمسا ومحاصرة كورفو ومحاربة وارادين — لما عاد الصدر الاعظم شهيد على باشا من مورة اهتم كثيرا فى اصلاح الامور الداخلية بينما كان يجهز أسطولا وجيشا لفتح جزيرة كورفو وفى تلك الاثناء كانت انتهت الحروب التى حدثت بسبب وراثة الملك باسبانيا وعقد الامبراطور شارل السادس امبراطور المانيا مع ملك فرانسا لويس الرابع عشر معاهدة وارشتاد (١١٢٥ هـ) ولهذا أمكن لجمهورية البنادقة الاستغاثة بامبراطور المانيا المذكور لانه الحامى عن معاهدة كارلوفچه ولما عزم على الاخذ بناصرها بعث الى الدولة العثمانية يطلب منها ان ترسل معتمدا مرخصا من قبلها الى حدود المجر للمفاوضة معه فى مسئلة البنادقة وان تكف عن القتال وترد للبنادقة ما أخذته منهم وقال اذا لم ترسل الدولة معتمدها وتقبل ما ذكر فهو لا يتأخر عن اشهار الحرب عليها ولما وصل رسول الامبراطور رجع السلطان الوزراء والعظماء للمشاورة فأقروا على رفض مقترحات الامبراطور وأمر السلطان ببذل الجهد فى الاستعدادات الحربية لاسترداد ما أخذته النمسا قبلا من الجهات وأخرج الدونمة الى البحر ولما استعرضها سر من استعدادها

وفى سنة ١١٢٨ هـ أقلع القبودان ابراهيم باشا باسطول الطونة وكان مؤلفا من ١٥ غاليته و ٢٥ فرقاطة وعشرة زوارق من النوع المسمى قانچه باش وثمانية أباريق ثم أعلنت الدولة الحرب على النمسا وأمر السلطان سرعسكر مورة قره مصطفى باشا والقبودان باشا بمحاصرة جزيرة كورفو وهى المكان الوحيد الباقى للبنادقة بتلك الاطراف ثم تقدمت الجيوش العثمانية نحو

قلعة وارادين وابتدأت المناوشات الحربية بين الجندين وتجاوزت الجنود العثمانية مدينة قارلوفچه (Carlowitz) ولما وصلت الى وارادين مع الصدر الاعظم فاجأتها الجنود النمساوية تحت قيادة البرنس أوجين دوسافوا وحدثت بينهما واقعة شديدة قتل فيها الصدر الاعظم علي باشا وبعض القواد وانهزم الجيش العثماني تاركا ميدان القتال ولهذا صدر الامر بعد ذلك للعساكر الذين كانوا على حصار كورفو بتركها ولما عادت العساكر المنهزمة الى بلغراد تقدمت جيوش النمسا وفتحت مدينة طمشوار من يد محافظها الحاج مصطفى باشا واستولت على أكثر اقليم البغدان (١١٢٩ هـ) وتولى الصدارة خليل باشا محافظ بلغراد ثم وصلت جيوش النمسا وحاصرت بلغراد ولما تقهقر الصدر الجديد استولت الاعداء أيضا على بلغراد (١٧١٧ م)

واقعة أيروز ومعاهدة بساروفچه — انه بعد ضياع بلغراد من يد العثمانيين قامت الدونما من الاستانة ولما وصلت الى غليبولي اتصل بها خبر حضور عمارة البنادقة وبها أكثر من عشرة آلاف جندي من جيش النمسا للاستيلاء على بوغاز الدردنيل وانها قد دارت حول جزيرة ايروز لاخراج العساكر بها وعند ذلك أرسل القبودان في الحال فرقة من السفن لاكتشاف جلية الامر واستطلاع حقيقته ولما شاهدت هذه الفرقة في اليوم الثاني عند الصباح سفن البنادقة اقتربت منها وأطلقت عليها المدافع حتى ألجأتها الى الفرار من امامها ثم تعقبتها فادركتها دفعتين وفي كلتيهما حدثت بينهما محاربات عنيفة ثم فرت ثالثة فاتبعتها وقد ازدادت بعساكرها النخوة والحماس حتى لحقتها بجوار اناتولي من بلاد اليونان وحملت عليها حملة منكرة فلم يمكنها المقاومة بل ولت هاربة الى جزيرة كورفو بعد ان أصابتها خسائر عظيمة وقد حدث من القبودان العام جانم خوجه محمد باشا في هذه المحاربات ما أوجب عزله وحبسه في قلعة بدي قله وخلفه على البحرية الوزير الحاج ابراهيم باشا وفي هذه السنة انتصرت دونما الطونة على أسطول النمسا بجوار المكان المسمى تيمور قپو بعد محاربة شديدة استولى فيها العثمانيون منهم على ١٦ سفينة ثم عادت العساكر العثمانية التي تقدمت نحو بلاد الاردل الى أدرنة ولما عزل خليل باشا بسبب انهزامه امام بلغراد تعين الداماد ابراهيم باشا لمسند الصدارة وفي أول مدته حصلت مذاكرة الصلح وذلك بعد انهزام دونما البنادقة في الارخبيل ثلاث مرات وابتدأ السفراء الذين بعثوا العقد المشارطة (١١٣١ هـ) فعقدوا اجلساتهم في بساروفچه (Passarovitz) من سنجقية سمندرة ثم أمضيت المعاهدة (١١٣١ هـ - ١٧١٨ م) ومن شروطها ان تبقى جهات طمشوار وبلغراد وبعض بلاد الصرب وبلاد الافلاق لغاية بلدة الوتا للنمسا وان تحفظ البنادقة القلاع التي لها ببلاد البانيا وتترك مورة للعثمانيين وجميع جزائر الارخبيل وبعد ذلك تحصل بطرس الاكبر بمساعيه على تعديل معاهدة فلكزين والقسطنطينية وأدرنة بكيفية تدل على عدم كفاءة الوزراء الذين تولوا الصدارة بعد المرحوم كوپريلي باشا (١٧٢٠ م)

ثم ان دولة الروسيا أرادت في سنة ١١٣٢ هـ التداخل لتعديل معاهدة بساروفچه لتنال منه شيأ حتى ان القيصر توجه بنفسه الى باريس قاصدا بذلك اقناع فرانسا للاخلال بعهودها المرتبطة بها مع الدولة العثمانية ولما لاحظت الدولة ما تضمره الروسيا لها من المكايد أرسلت عنها سفيرا الى باريس يدعى محمد أفندي چلبي للوقوف على جلية الامر والمكالمة مع فرانسا في ذلك ولما وصل قابلته حكومة فرانسا بمزيد الاحترام والتعظيم وكلفته بتحريض الدولة على محاربة الروسيا لمنع تعديها

على مملكة السويد فلم يقبل السفير ذلك وخاف سوء العاقبة للاتفاق الحاصل بين الروسيا والنمسا ولهذا لم تأت فائدة من مأمورية السفير المذكور ولما مات القبودان ابازه سليمان باشا (١١٢٣ هـ) وجهت الدولة مسند القبودانية الى خواجه سليمان باشا متصرف رودس ومن بعد هذا التاريخ أخذت بحرية البنادقة في الاضمحلال وسعدها في الافول والزوال حتى تخرب ربع قوتها بعد ان كان معمورا وأصبحت بعد منعتها كأن لم تكن شيأ مذكورا فسبحان من بيده الملك والملكوت وله العزة والدوام والثبوت

ولهذا بقيت الدولة العثمانية بعد هذا الزمن نحو خمسين سنة لا تحارب في البحر والقوة خصيمتها المذكورة الآن دولة الروسيا لما كانت آخذة في الترقي والقوة من وقت ان أصبح لها في البحر الاسود عمارة قوية كادت تعادل قوة بحرية الدولة العثمانية حتى صارت لها كالبنادقة وجه السلطان أحمد خان الثالث مزيد اهتمامه (١١٣٥ هـ) الى تقوية واصلاح الدونما العثمانية واتقان فن انشاء السفن حتى وصلت القوة البحرية في مدته الى درجة عالية وغاية سامية فبنيت السفن التي من نوع أوج انبارلي (ذات الثلاث بطاريات) وتعين لرياسة البحرية اتلمجي مصطفى باشا ولما كمل انشاء أول سفينة من النوع المذكور أنزلت في البحر باحتفال عظيم حضره السلطان بنفسه

وقائع العجم — لما أصيبت الدولة الصفوية بالضعف والانحطاط ومال آخر ملوكها الشاه حسين الصفوي الى الجور والظلم في حق أهل السنة الخاضعين لحكمه استغاثت القبائل السنية النازلة في جهات القوقاز وشروان بالخلافة الاسلامية وشقت كذلك قبائل الافغان النازلة بالحدود الشرقية من ايران عصا الطاعة وقام رئيسهم محمود خان ابن الرئيس الامير اويس على رأس جيش ودخل مملكة ايران وحاصر اصفهان وفتحها وأسر الشاه حسين (١١٣٤ هـ) ثم قام الشاه طهماسب ابن الشاه حسين المذكور ببلاد قزوين واستقل بحكومتها الا أنه لما لم يكن حائزا لوسائل الملك تمكنت قبائل الافغان من تثبيت قدمهم في شرقي ايران وانفصلوا عنها فأفل نجم السلطنة الصفوية وعند ذلك أرادت السلطنة العثمانية الاستفادة مما هو حاصل بتلك البلاد وساقت جيوشها ففتحت بلاد كردستان وكرجستان واستولى الوزير حسن باشا والي بغداد وكوبريلي زاده عبد الله باشا والي وان على جهات كرمانشاه واردلان وخوي بالسهولة (١١٣٥ هـ) فقام بطرس الاكبر عند ذلك يطلب لنفسه نصيبا من ميراث الدولة الصفوية واجتاز بجيوشه جبال القوقاز التي كانت حدا لبلاده من جهة الجنوب واحتل طاغستان وقلاع دربند وباكو الغربية ثم عقد اتفاقا مع الشاه طهماسب المذكور ما لها ان عساكر الروس تطرد الافغانيين من ايران بشرط ان يتنازل له عن بحر الخزر وكيلان ومازندران واسترا باد ولهذا كادت الحروب تقع بين بطرس الاكبر والدولة العثمانية ولما علم امبراطور الروسيه ان ليس في امكانه مقاومة الجيوش العثمانية اذا انتشب الحرب جعل الموسيو دوبوا (Dubois) سفير فرانسا في الاستانة واسطة بينه وبين الدولة العثمانية لمنع الخلاف الحاصل فقبل السفير ذلك وبذل همته ومساعيه حتى تمكن من ازالة الخلاف الواقع بين الدولتين وعقدت بينهما معاهدة (١١٣٦ هـ) من شروطها ان تمتلك الدولة العثمانية ودولة الروسيه كل ما احتلته جيوشهما من بلاد العجم وبذلك زال الخلاف الا أنه بعد وفاة بطرس (١١٣٧ هـ)

وقيام

وقيام زوجته كاترينه عقدت مع النمسا اتفاقية فالتزمت الدولة ان تقوى حصونها الشرقية التى خصتها من هذه المقاسمة فامرت قوادها وجنودها بالتقدم تحت قيادة الوزير الاعظم ابراهيم باشا الذى تمكن فى ثلاث سنوات من فتح بلاد همذان وروان وتبريز واردبيل ولورستان وقره باغ ومراغه وكنجة وأرمية وغيرها قال مؤرخو العثمانيين ان هذه الفتوحات على كثرتها لم تكن موجبة لارتفاع شأن الدولة العثمانية وفخرها بل أحدثت قلاقل ومنازعات أضرت بها كثيرا لان الايرانيين لم يقبلوا ان تقسم بلادهم أصلا ورموا بالنذالة والجبن كغيرهم من الامم فقاموا كرجل واحد لرد ما خسروه ومع كل ذلك لم يمكنهم بما اتصفوا به من الشجاعة والاقدام صد العثمانيين ثم استمرت المنازعات حاصلة بين الشاه أشرف الافغانى والشاه طهماسب الساسانى وعقد الشاه أشرف مع الدولة العثمانية معاهدة (١١٤١ هـ) قصد بها تقرير حكمه كان من شروطها تنازله عن جميع البلاد التى امتلكها العثمانيون من مملكة ايران نظير اعترافها له بالحكم على مملكة ايران

ثم بعد وفاة الشاه أشرف وانفراد الشاه طهماسب بملك ايران طمع فى رد بلاده فتقدم بجيش مركب من ٤٥ ألف مقاتل وحاصر اردبيل الا أنه عاد خائبا الى خراسان ثم هاجم الافغان وأوقع بهم وعاد الى تخته فى اصفهان وجمع فيها الكتائب ثم سار بها الى تبريز وأرسل من طرفه فى سنة ١١٤٢ هـ سفراء الى استانبول يطلب من الدولة العثمانية تسليمه البلاد التى أخذتها من أجداده بما انه الوارث الشرعى لها ولما كان السلطان يميل الى الصلح عقد مجلسا للمذاكرة فى هذا الموضوع وفى أثناء ذلك تجاوزت جيوش ايران حدود نجان فلما وصل هذا الخبر توقفت المذاكرة فى الاستانة والتزمت الدولة بتجهيز حملة جديدة الى الشرق وفى خلال التجهيزات استولت الاعجام على بلاد تبريز وهمذان وكرمان شاه (١١٤٣ هـ - ١٧٣٠ م) وفى هذا الوقت نسب اليكجرية الى الصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا الاهمال والخيانة فثاروا ورفعوا علم العصيان وقام رجل من الاوجاقلية يدعى باترون خليل مع نحو العشرين من أمثاله ونهب الاسواق وقصد السراى وطلب من السلطان عن لسان الاوجاقات قتل الصدر الاعظم داماد ابراهيم باشا وأعوانه مثل صهره رئيس البحر مصطفى باشا القپودان المدعو قيماق أو أتلمجى وصهره الثانى كتخدا محمد باشا وتمكنوا من دخول السراى وفتكوا بهم وألقوا جثتهم فى البحر أما شيخ الاسلام عبد الله أفندى فعزل ونفى ولم تقتصر الفتنة على ذلك بل امتدت حتى خلع السلطان أحمد خان الثالث وجلس ابن أخيه السلطان محمود خان الاول مكانه فى ١٥ ربيع أول سنة ١١٤٣ وبقى السلطان أحمد معزولا الى ان انتقل الى الدار الآخرة (١١٤٩ هـ) وكان من الصالحين محبا للجهاد واقامة الحق ومن التجديدات المفيدة التى حصلت فى أيام السلطان أحمد انشاء المطبعة لاول مرة بالممالك العثمانية وكان انشاؤها بمدينة اسكدار وسبب ذلك ان الدولة لما أرسلت جلبى محمد أفندى سفيرا عنها الى باريس كما تقدم أخذ معه ولده محمد سعيد أفندى (وهو الذى ترقى لمسند الصدارة مدة السلطان عثمان خان الثالث) ولما رأى رواج فن الطباعة وكثرة المطبوعات بتلك البلاد مال لنقل المطبعة لبلاده وعند عودته الى استانبول تكلم مع أحد رجال الدولة المدعو ابراهيم أفندى المجرى (١١٣٩ هـ) ثم نالا اذنا بايجاد المطبعة بمدينة اسكدار وكان فتحها رسميا وتعيين بعض العلماء لتصحيح مطبوعاتها سنة ١١٤١ هـ وأول ما طبع بها من الكتب ترجمة صحاح الجوهرى وغيره من كتب التاريخ والادب فانتشرت بذلك المعارف واستطلعت الامة

وقائع ماضيها فاتسعت أذهانها ومالت الى الاقتداء بمدنية أوروبا ونبغ بعد ذلك كثير من رجال السياسة والعلماء وقفوا عليه من أحوال سياسة الدول المعاصرة لهم ولما استحسن الناس المطبعة لما فيها من التسهيلات والمزايا العظيمة فى نشر العلوم والمؤلفات النفيسة صدرت الفتوى من شيخ الاسلام عبد الله أفندى اليكيشهرى بجواز ايجادها بناء على سؤال وجه اليه ومن التحسينات أيضا ان التفت الصدر الاعظم داماد ابراهيم باشا الترقية الصنائع الداخلية فأوجد معامل الاقمشة والكاغد وغيرها وانشأ المدارس والكتبخانات ونظم فرقة مخصوصة لاطفاء الحريق وبنى كثيرا من المنازل والمتنزهات بجهات البوغاز خصوصا ونبغ فى عصر هذا السلطان عدة من مشاهير الشعراء والكتاب

٢٤ السلطان محمود خان الاول ابن السلطان مصطفى خان الثانى

١١٤٣ - ١١٦٨ ه

تبوأ تخت الخلافة بعد خلع عمه وعمره اذ ذاك ٣٥ سنة وكانت الاحوال مضطربة بثورة اليكيجرية والعجم تهدد حدود الدولة الشرقية ولما جلس وجه مسند الصدارة العظمى الى طوپال عثمان باشا ورياسة البحرية الى چاهين محمد باشا فأخذ الوزير الجديد يهتم فى اطفاء لهيب الثورة فقتل ونفى نحو خمسة عشر ألف نفس من الثوار وبذلك عادت السكينة الى ربوعها

حروب العجم - بعد ان سكنت الاضطرابات وركدت زوابع الفتن الداخلية واستقر الامن التفتت الدولة الى الاهتمام بحروب ايران وأخذت تجهز الجيوش ثم تقدم سرعسكر الشرق والى بغداد أحمد باشا لمنازلة العجم ولما تقدم طهماسب شاه لاسترداده همذان قابلته الجيوش العثمانية بصحراء قوريجان وحصلت بينهما مقتلة عظيمة انتصر فيها العثمانيون وفتح على باشا ابن الحكيم أرمية وتبريز (١١٤٤ ه) ولما يئس طهماسب من نوال ما يبتغيه طلب الصلح فعقد معه السرعسكر أحمد باشا معاهدة من شروطها رد ولايتى تبريز وهمذان الى الشاه وبقاء روان وشروان للدولة ولما علم السلطان بما فعله السرعسكر المذكور غضب جدا عليه لاقدامه على ذلك من نفسه ولانه كان فى امكانه ان لا يترك للعجم شيأ مادامت العساكر العثمانية هى الغالبة فعزله هو وباقى الوزراء وعين للصدارة حكيم أوغلى على باشا وللبحرية عبدى باشا ولكنه توفى بعد مدة قصيرة وأعيد جانم خواجه محمد باشا للقبودانية العامة ثم ان نادر على خان أحد أمراء العجم وجد وسيلة لابراز ما فى ضميره وطعن فى حق من كان السبب فى عقد هذه المعاهدة وأجلس الشاه عباس الثالث مكان الشاه طهماسب واستقل هو بلقب وكيل الشاه ثم جمع الجموع وهاجم العراق وحاصر بغداد ولما بلغ الدولة خبر ذلك أرسلت جيشا عظيما تحت قيادة الصدر الاسبق طوپال عثمان باشا فردهم عن بغداد مقهورين ورجع نادر على خان مجروحا الى همذان (١١٤٦ ه) الا انه عاد فى هذه السنة فجمع الجموع وتجاوز الحدود العثمانية وانقض على جيوشها وكان السرعسكر طوپال عثمان باشا مريضا فى خيمته فلم يقدر على تولى القيادة العامة ولم يحسنها من أنابه عنه فتقهقرت الجيوش العثمانية وقتل السرعسكر المذكور وتشتت الجيش (١١٤٦ ه) ثم ساقت الدولة فى السنة التالية جيشا آخر تحت قيادة كوپريلى زاده عبد الله باشا فانكسر أيضا وقتل بجوار روان فى واقعة اربه

جانى (١١٤٨ هـ) وبذلك انتقلت جميع البلاد التى كانت فتحتها الدولة من ايران اليها ثانية وجلس نادر على شاه على تخت العجم وثبتت قواعد سلطنته وطلبت الدولة الصلح وبعد المداولة تم الاتفاق بينهما فى تفليس (١١٤٩ هـ - ١٧٣٦ م) على شرط ارجاع الحدود القديمة الى ما كانت عليه فى مدة السلطان مراد الرابع

حرب الروسيا والنمسا ومعاهدة بلغراد – لما انكشفت نيات الروسيا بخصوص بولونيا والعجم للدولة العثمانية واتفق موت أوغوست الثانى ملك بولونيا وصار ملكها السابق استانسلاس مرتبطا مع لويس الخامس عشر لزواجه بابنته سعت حكومة فرانسا لدى أمراء بولونيا حتى انتخبوه ملكا عليهم كما كان (١١٤٦ هـ) الا أن النمسا والروسيا انتخبتا اوغست الثالث منتخب ساقسونيا ولم يراعيا أميال الاهالى فى ذلك واستعملت امبراطورة الروسيا أنا ايوانونا الكبرياء والجبروت فى هذه المسئلة فقامت فرانسا وأشهرت الحرب بخصوص بولونيا على الروسيا والنمسا وأوعزت الى سفيرها بالاستانة المار كيزدى ويلنوف (Villeneuve) بان يسعى جهده لحمل الدولة العثمانية على الاشتراك مع فرنسا فى هذا الحرب وزودته بالتعليمات التى من مقتضاها ان امتداد نفوذ الروسيا مضر بمستقبل الدولة العثمانية وكان الصدر حكيم أوغلى على باشا من الواقفين على سر سياسة الروسيا وشديد ميلها للفتح فاظهر عظيم المخالفة لاعمال الروسيا حتى التزم الباب العالى اعلان الحرب على الروسيا ولما استشعرت النمسا بمساعى فرنسا لدى الدولة العثمانية خافت من ضياع النتيجة فى مسئلة بولونيا وأسرعت الى مصالحة فرنسا وعقدت معها معاهدة فى ويانة (١١٤٨ هـ - ١٧٣٥ م) فكفت بذهاعنها بذلك ثم اشتركت مع الروسيا لمحاربة الدولة العثمانية وحسنت لها اظهار العداء للعثمانيين فقامت الروسيا فى أواخر حرب ايران (١١٤٨ هـ) ومنعت قبلان كراى خان القريم وجيوشه من المرور من مملكتى داغستان وقبارطاى عند ذهابه لامداد جهات شروان مدعية ان المملكتين المذكورتين هما من أملاكها ولا يحق لدولة أخرى العبور منهما بغير رضاها ولما احتجت الدولة على ذلك أخذ سفير الروسيا فى استانبول المسيو نبلويف يقيم الادلة على صحة دعوى دولته فلم تقبل منه الدولة قولا ولما تم الصلح مع ايران تعين السلحدار محمد باشا للصدارة وفى خلال ذلك ساقت الروسيا جيشا عظيما تحت قيادة الفلدمارشال مونيخ وحاصرت فرقة منه قلعة ازاق ودخلت فرقة أخرى من برزخ أورقبو وهددت بلاد القريم وهاجت فرقة ثالثة قلعة قيلبرون (Kilburn) وعند ذلك اضطرت الدولة العثمانية لاعلان الحرب على الروسيا وسار الصدر الاعظم الجديد بالجيوش لقيادة أوردى باباطاغ ولما لم تكن دولة النمسا على قدم الاستعداد للحرب قصد شارل السادس امبراطورها تأخير الدولة عما شرعت فيه من التجهيزات باطالة زمن المخابرات حتى يتمكن من التجهيزات وأوعز الى الموسيو طلمان سفيره فى استانبول بالوساطة لازالة الشقاق حقنا للدماء فاخذ يتخابر مع الصدر الاعظم فى باباطاغ وعماطله مدة شهر من الزمان وفى أثنائها ساقت النمسا جيوشها على قلعة نيش وشهركوى ودخلت عساكرها بلاد بوسنة ثم تقدمت الجيوش العثمانية بعد ذلك وحاربت النمسا وانتصر الصدر الاسبق حكيم أوغلى على باشا على النمساويين فى ولاية بوسنة وشتت شملهم فى الوقائع التى حصلت فى سنة (١١٤٩ هـ)

و (١١٥٠ هـ) و (١١٥١ هـ) واسترد كوبريلي حافظ أحمد باشا جهات نيش وشهركوى ثم عاد مظفرا الى بلغراد وهزم سرعسكر ويدين عوض محمد باشا بمساعدة القائدين السابق ذكرهما جيشا نمساويا للنمساويين كان يتقدم على ويدين وأحرق العثمانيون لهم سبع مراكب حربية فى البحر تجاه قلعة الزابيت ثم عبرت الجيوش العثمانية نهر الطونة واستولوا على أراضى بانجوه وحوالى مهاديه (Mohadia) واقليم بانات أوطمشوار واغتنمت كافة مدافع ومهمات النمساويين وفتح الصدر الاعظم يكن محمد باشا أورسوه (Orsova) وفتح الاسلام وقلعة اطه وسمندرة على التوالى (١١٥٠ هـ) وعند ذلك التزمت النمسا أن تطلب الصلح (١١٥١ هـ - ١٧٣٨ م) وتوسط سفراء فرانسا وهولاندة والسويد فى ذلك وفى تلك الاثناء انتصرت الجيوش العثمانية أيضا فى واقعة كروسكا (Krozka) على قائد جيوش النمساويين القونت واليس (Wallis) (١١٥٢ هـ) وحاصرت استوار ولو احتاط الصدر الاعظم للامر قليلا لكان أسر جيش الاعداء بتمامه وفى السنة المذكورة هزمت الجيوش العثمانية أيضا جيوش الروسيا بقرب شاطئ نهر بروت وجهة أورقبو ودخلت الدونمنا العثمانية الى البحر الاسود تحت قيادة القبودان سليمان باشا الذى خلف لاز على باشا المتوفى سنة ١١٥٠ هـ وانتصرت على الاسطول الروسى فى بحر ازاق وكانت هذه الانتصارات من أعظم الاسباب للوصول الى الصلح الذى انتهى بمعاهدة بلغراد فى شهر جمادى الآخرة سنة ١١٥٢ هـ (١٧٣٩ م) وأن تسلم أوستوريا بلغراد وكذا جميع البلاد الواقعة على الضفة اليمنى من نهرى صاوه والطونة وهى التى كانت استولت عليها بمعاهدة بساروفچه وان ترد الى الدولة العثمانية اراضى أورسوه والبلاد المسماة بالافلاق النمساويه وان تترك الدولة العثمانية للنمسا المواقع التى كانت استولت عليها من جهات بانجوه وطمشوار وان يكون الصلح لمدة ٢٧ سنة أما الروسيا فقد تعهدت امبراطورتها انا ايوانوبا بهدم قلعة ازاق وان لا يكون لها فيما بعد مراكب حربية ولا تجارية بالبحر الاسود وبحر ازاق معا وأن تعيد للدولة كل ما فتحته من البلاد وان تنقل تجارتها على سفائن أجنبية وبعد هذا الصلح أبرمت الدولة العثمانية معاهدة هجومية ودفاعية مع السويد ضد الروسيا بتوسط سفير فرانسا المسيو ويلنوف (Villeneuve) وكذا تجددت معاهدة تجارية مع حكومة السيسليتين وجددت الدولة مع فرانسا سنة ١١٥٣ هـ (١٧٤١ م) المعاهدات التجارية ومنحتها بعض تسهيلات جديدة تجارية وفى سنة ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) لما توفى شارل السادس امبراطور النمسا والمانيا خلفته ابنته ماريه تريزة وقامت فرانسا واتحدت مع بعض دول أوروبا على محاربة هذه المملكة وتقسيم أملاكها للعداوة الكامنة بين ملوك فرانسا والعائلة الحاكمة بالنمسا وسعى فرانسا دائما فى اضعاف النمسا وهدم أركانها ولذلك قامت بين فرانسا والنمسا المحاربة المعروفة بحرب الوراثة فى النمسا واستمرت زمنا وانتهت بفوز النمسا

ولما وقعت الحروب بين المملكتين أخذت فرانسا وحلفاؤها فى تحريض الدولة العثمانية على محاربة النمسا ووعدتها باحتلال بلاد المجر وغيرها حتى ترجع الى الحالة التى كانت عليها فى زمن السلطان سليمان القانونى ويمكنها بعد ذلك أن تعرقل مساعى الروسيا المجتهدة فى مد نفوذها المضر

بالدولة

بالدولة ولو انصاعت الدولة لهذه الاقوال لعادت عليها بالفائدة الا أن السلطان محمود لم يقبل تغيير مسلكه السلمي بل استمر متمسكا بمعاهدة الصلح مظهر التمسك به وده

تجديد الحرب مع ايران بخصوص المذهب الجعفري (١١٥٦ - ١١٥٩ هـ) - اعلم انه في خلال السكينة التي استمرت أربع سنوات بعد عقد معاهدة بلغراد المذكورة قام نادر على شاه ملك العجم واعتبر المذهب الجعفري من المذاهب السنية وعده مذهبا خامسا وتشبث بان يجعل له مكانا مخصوصا في الحرم النبوي الشريف وأرسل لاستانبول سفارة مخصوصة معها كثير من الخدم والحشم لتنال بذلك تصديقا وتصريحا الا انها لما لم تستفد جوابا قطعيا في هذا الخصوص جرد على العراق ودخلها بجيوشه بغتة (١١٥٦ هـ) وحاصر بغداد وفتح كركوك وتقدم نحو الموصل فعينت الدولة على التعاقب ثلاثة من الصدور المعزولين لقيادة الجيوش التي وجهت على العجم وهم شهلا أحمد باشا ويكن محمد باشا وحكيم أوغلي علي باشا وكانت الحروب متواصلة في الثلاث سنوات الاولى وأخيرا استردت الجيوش العثمانية كركوك وضايق يكن محمد باشا نادر شاه بقرب روان حتى اضطرب الشاه في أمره وفي أثناء ذلك أصيب السرعسكر المذكور بحمى محرقة فمات وحصل بموته خلل في الجيش آل الى انهزامه (١١٥٨ هـ) فتقدم نادر شاه الى جهة ارضروم وطلب من الدولة تسليمه ايالات وان والموصل وبغداد والبصرة فلم تجاوبه الدولة الا بجمع جيوش الروملي والاناضول وطلبت الامداد من خانات شروان وداغستان وقوق وقيناق فخاف نادر شاه عاقبة هذه التجهيزات وعدل عن مطلوبه وطلب من الدولة بعض طلبات خفيفة فتجددت معه المعاهدة (١١٥٩ هـ) على شروط مصالحة السلطان مراد خان الرابع

احوال البحرية في العهد المذكور - لما جلس السلطان محمود خان الاول على سرير السلطنة أصدر أمره الى دار الصناعة بتقوية الدوننما العثمانية وإنشاء سفن جديدة فشيدت ثلاث سفن من نوع الاوج انبارلي وأمر أيضا بان يوضع للسفن أسماء تعرف بها السهولة تمييزها عن بعضها وكانت السفن العثمانية لغاية زمن هذا السلطان لا تسمى باسماء مخصوصة بل تدعى باسماء قبوداناتها فسمي الغليون الذي تم بناؤه سنة ١١٦٢ هـ باسم ير بحري والذي تم بناؤه سنة ١١٦١ هـ بناصر بحري واستمرت دار الصناعة بعد ذلك تسمي سفنها الحربية باسماء مخصوصة الى هذا العهد وفي مدة حرب العجم الاخيرة تولى رياسة البحرية أربعة قبودانات على التعاقب الاول شهسوار زاده مصطفى باشا ثم خلفه راتب أحمد باشا ثم خلفه صاري مصطفى باشا ثانية ثم خلفه صوغان يمز محمود باشا وفي سنة ١١٦٢ هـ ساقت الدولة عمارتها الى البحر الابيض المتوسط تحت قيادة صوغان يمز محمود باشا المذكور ولما توفي تعين بدله طربرق محمد باشا فقاد الدوننما وحارب سفن القرصان وخلص منهم كثيرا من أسرى الاسلام عندما كانوا يحاولون الالتجاء الى بلاد ايطاليا ولما عاد بالدوننما الى استانبول عزل وخلفه ملك محمد باشا فسافر بالدوننما الى البحر الابيض مرتين وفي سنة ١١٦٣ هـ ساقت الدولة قوة بحرية وبرية لتسكين ثورة طائفة الوهابية وفي السنة التي بعدها قامت الاكراد على بعضهم ولكن بالحكمة التي استعملتها رجال الدولة سكنت الفتنة وعادت الطمأنينة بينهم ثم بعد ذلك حصل اختلاف بين أشراف مكة وهو انه لما ولي محمد بن عبد الله بن سعيد

الامارة بعد أبيه المتوفى اختلف مع عمه مسعود (١١٤٥ هـ) وقامت بينهما حروب يطول شرحها وبعد ان تم الصلح بينهما (١١٥١ هـ) بتوسط الاشراف عاد الخلاف الى ما كان وعرضت الشكوى على الدولة فاصلحت بينهما

واعلم أن معاهدة اكس لاشابيل فتحت لاوروبا عصر صلاح ورفاهية وانتشرت التجارة واتسع نطاقها وساد السلام فى أوروبا حتى صار من الامكان الظن بدوام هذا الصلح الى الابد وقد أثرت هذه الحالة السلمية بالممالك العثمانية أيضا فاستفادت منها حيث اهتم السلطان ووزراؤه فى ايجاد ما به الراحة العمومية وأسباب العمران وقد بقيت الحالة على ذلك مدة نحو تسع سنوات وبينما كان السلطان عائدا من صلاة الجمعة على جواده مات فجأة عند دخوله فى باب السراى (صفر ١١٦٨ هـ) وكان يتصف بالثبات فى الاعمال والاقوال وسلطنته التى استمرت نحو ٢٥ سنة معدودة فى تاريخ العثمانيين من أجل الايام وأبهى العصور ومن كثرة تردد سفرائه على مدينة باريس ومن مكالماتهم ومحادثاتهم الكثيرة مع السفراء المقيمين بالاستانة اكتسب رجال الدولة معلومات سياسية مهمة حتى ان بعضهم لما نال مسند الصدارة العظمى كان على علم تام ومعرفة جيدة بالاحوال السياسية العمومية ولذلك عد مؤرخو العثمانيين عصره أنه آخر عصر ترقت فيه المعارف السياسية لدى العثمانيين ولما كانت أفكار هذا السلطان تميل لنشر المعارف والمدنية أنشأ بالاستانة فقط أربع كتبخانات وجعل بكل واحدة منها دروسا عمومية وكان مرعى الخاطر معظما لدى معاصريه من الملوك وفى عصره اشتهر الحاج بشير أغا أغا دار السعادة وزاد نفوذه ولما كان من العقلاء وأصحاب الرأى والتدبير اتخذه السلطان مستشارا خاصا له وخلفه فى السلطنة أخوه السلطان عثمان خان

---

(٢٥) السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثانى

(١١٦٨ - ١١٧١ هـ)

جلس هذا السلطان على سرير السلطنة وعمره ٥٨ سنة وقلد السيف بجامع أبى أيوب الانصارى كالعادة وأتته سفراء أوروبا بالتهنئة وحكم ثلاث سنوات فقط لم يحدث بها حروب ولا منازعات خارجية لالتزامه جانب السلم وتفضيله السكينة واهتم فى اصلاح الداخلية وأبعد كثيرا من حاشية السراى الذين اشتهروا بخلق الدسائس وتعكير صفو الامن منعا للقلاقل وأصدر أمرا بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف حتى انه منع الحريمات من التجول فى الطرق بهيئة تبرج وفى السنة الثانية من سلطنته قامت فتنة بين اللاتين والروم فى كنيسة بيت لحم تسبب عنها بعض مشاكل خارجية فاهتم بتسويتها ونفى مترهبول الكنيسة المذكورة وفى السنة الاولى من حكمه عزل ثلاثة صدور وهم كوسه ماهر مصطفى باشا وحكيم أوغلى على باشا ونايلى عبد الله باشا ثم يقلى على باشا وفى سنة ١١٦٩ هـ أيضا غير الوزارة فوجهت الصدارة الى سعيد محمد باشا وهو الذى أسس المطبعة عند عودته من باريس كما سبق ثم قتل لاسباب خفية وخلفه كوسه ماهر مصطفى باشا ثانية وتعين على البحرية أحد أمرائها القبودان قره باغلى سليمان باشا ثم التفت السلطان الى الحرب البحرى الحاصل بين سفن وجاقات الغرب وبين سفائن حكومة نابولى فحسمها بالطرق السلمية ولما

ثارت بعض قبائل الاكراد وتحصن بعضهم فى قلاع (موش) و (بتليس) و (ملاس) و (كرد) و (مونشان) وجه عليهم والى ارضروم فسكن الاضطرابات ولما شقت اليكچرية فى بلغراد عصا الطاعة وعاثوا فى الارض فسادا حتى التزم كوپريلى زاده أحمد باشا أن يترك تلك المدينة ساق السلطان عليهم الجنود حتى ردهم الى الطاعة وقبض فى سنة ١١٧٠ ﻫ على قره عثمان أوغلى الذى أخل بالراحة فى سنجقية أيدين وقتله وأخذت الحكومة أمواله و بعد ذلك عزل الصدر الاعظم وخلفه محمد راغب باشا صاحب الآراء السديدة والسياسة الشهيرة وهذا الوزير هو الذى باشر تحرير معاهدة بلغراد مذ كان بوظيفة مكتوبجى فزاد بذلك اطلاعا على سياسة أوروبا وكان قبل ذلك من مندوبى الدولة فى عقد المتاركة مع العجم وتولى مصر و بغداد ومع ما قام به هذا الوزير من الخدم الجليلة سعى فى حقه أغا دار السعادة أبو وقوف أحمد أغا حتى عزل وقد نجاه الله من القتل بوفاة السلطان الذى توفى فجأة يوم ١٦ صفر سنة ١١٧١ ﻫ وكان يميل الى السلم وتم فى أيامه بناء المسجد الجامع العظيم الذى ابتدأ فى تشييده أخوه السلطان محمود خان وسماه نور عثمانية وفى أول جلوسه ابتدأت فى أوروبا الحرب المسماة بحرب السبع سنوات الشهيرة

---

(٣٦) السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث

١١٧١ - ١١٨٧

جلس هذا السلطان على تخت الخلافة وعمره اثنتان وأربعون سنة وكان له اطلاع على الخلل الموجود بادارة الدولة فأبقى الوزير الشهير قوجه راغب فى الصدارة للياقته وسعة اطلاعه وقد اجتهد هذا الصدر فى تسكين ثورة عرب الشام الذين أخلوا بالامن لتعدياتهم على قوافل الحجاج وكان هذا السلطان يميل الى محاربة الروسيا لعلمه ما تنويه للممالك العثمانية من الاضرار ولكن لما كان الصدر محمد راغب باشا يعلم جيدا الفرق الموجود بين جيوش أوروبا التى سارت شوطا بعيدا فى التعليمات والانتظامات و بين جيوش اليكچرية الذين جعلوا عدم الاطاعة والتمرد قانونا لهم أخذ ينصح السلطان فى تأخير تنفيذ نواياه حتى يتم التنسيقات والتنظيمات المراد ادخالها بالجيش العثمانى وتمكن هذا الصدر بمهارته من عقد اتفاق مع حكومة بروسيا الجديدة لتساعد الدولة عند الحاجة على النمسا والروسيا وقد كان هذا الوزير يهتم أيضا بتوسيع نطاق التجارة البحرية والبرية فلهذا كتب تقريرا يرغب به فتح خليج لايصال نهر الدجلة ببوغاز الاستانة وان تستعمل الانهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات الى دار الخلافة و يساعد على نشر التجارة الا أن المنية عاجلته قبل الشروع فى مقصوده (١١٧٦ ﻫ) وقد كان وحيد زمانه فى الشعر والادب والفلسفة ومدحه المؤرخون كثيرا وعجبوا بغيرته ومعارفه ولقبه المؤرخ واصف أفندى بصدر الوزراء وسلطان الشعراء والانسان الكامل وهو صاحب الكتاب الشهير المسمى بسفينة الراغب وخلفه فى الصدارة توقيعى حامد حمزة باشا ثم خلفه كوسه مصطفى باهر باشا (١١٧٧ ﻫ) ثم بعد سنة تولاها محسن زاده محمد باشا (١١٧٨ ﻫ)

الاعمال البحرية في المدة المذكورة – لما وجه مسند القبودانية الى عبد الكريم باشا سنة ١١٧٣ هـ خرج بالدونغما الى البحر المتوسط الابيض كالمعتاد ولما وصل الى جزيرة استانكوى وخرجت طوائف السفن لصلاة الجمعة قام الاسرى الذين بالاسطول المسخرون لادارة المقاذيف وكسروا سلاسلهم وقتلوا الباشا القبودان وكان تخلف عن صلاة الجمعة لعذر وهو فى نفر قليل وقتلوا من قاومهم من الجنود وربطوا باقيهم بالسلاسل والاحبال وهربوا بسفينة القبودان الى جزيرة مالطة فلما وصل هذا الخبر الى الاستانة عينوا ميراخور مصطفى باشا قبودانا (١١٧٤ هـ) ولكنه عزل بعد خمسة شهور وخلفه حسن باشا ثم عزل وصار كتخدا محمد باشا قبودانا (١١٧٥ هـ) ثم خلفه سنك مصطفى باشا ومات بعد سنة وعينوا اقره باغلى سليمان باشا ثانية لمسند القبودانية ثم عزل (١١٧٧ هـ) وتعين بدله طوسون محمد باشا وفى سنة ١١٨١ هـ تعين حسين حسنى باشا وخرج بالدونغما الى البحر الابيض لمطاردة القرصان الذين ظهروا فى البحر المذكور ثم خلفه اثنان آخران وأخيرا وجهت القبودانية الى حسام الدين باشا

حرب الروسيا – اعلم أنه فى خلال تلك المدة قامت كترينه زوجة بطرس الثالث حفيد بطرس الاكبر وخلعت زوجها من ملك الروسيا وجلست هى مكانه على كرسى المملكة عقب قتله ثم لما توفى أغوست الثانى ملك بولونيا أخذت تسعى فى تعديل القانون الاساسى لهذه المملكة لتنصب عليها عشيقها ستانلاس بونياتوسكى فقام حينئذ حزب الاستقلال الملى (Confédération de Bar) فى بولونيا وطلب المساعدة من انكلترة وفرانسا ولما قطع الامل من مساعدتهما لايقاف ما كانت كترينه الثانية تنويه لهم من المضار وعينت بونياتوسكى بالقوة استمد الحزب المذكور الحماية من الدولة العثمانية (١١٧٨ هـ) لحفظ بلاده من تعديات الروسيا وكانت الدولة الفرنساوية تحرض الدولة العثمانية وتحثها على اعلان الحرب على الروسيا لان مداخلة كترينة فى أحوال بولونيا مضر بسياستها وكان الصدر محسن زاده محمد باشا يمانع ذلك كثيرا لانه يرى أن من المفيد تأجيل مخاصمة الروسيا حتى يتم تحصين المعاقل والحصون والقلاع التى بحدود الدولة وشحنها بالمهمات والذخائر الكافية فعارضه فى ذلك بقية الوزراء ولم يستحسنوا رأيه ولهذا عزل من منصبه وتولى مكانه سلحدار ماهر حمزه باشا (١١٨٢ هـ) وكان من الذين عيلون لاعلان الحرب على الروسيا وأمر فقبضوا على سفير الروسيا أوبرشقوف وسجنوه فى يدى قلة كالعادة المتبعة وأرسلت الدولة أمرا لكريم كراى خان القريم بفتح باب الخصام فاستند على بعض أعمال أتتها الروسيا مخالفة للمعاهدات وذلك أن بعض فرق القوزاق دخلت مدينة بلطه تتعقب بعض البولونيين واستولت على المدينة وذبحت السكان فساغ حينئذ لامير القريم ردهم بالقوة فوطئ أرض الروسيا وعاد غانما منصورا ومعه نحو ٢٥ ألف أسير وبينما كان يستعد لاغارة أخرى عاجلته منيته وقام فى منصبه دولتكراى خان وأغار على بلاد الروسيا فوجهت عليه قوة وبذلك فتح باب الحرب ثم تقدمت الجيوش العثمانية تحت قيادة الصدر الاعظم وقد كانت الاحوال فى الدولة سيئة جدا اذ ذاك مالية فارغة وجيش خائر القوى من طول المحاربات وأساطيل ضعيفة وليس بين رجال الدولة من الاكفاء ما يشبهون كوبريلى أوغيره من الصدور المشاهير والحاصل ان الدولة

لم

لم تقدم على حرب قبل ذلك وحالتها كما هي الآن من الضعف والاختلال وزيادة عن ذلك فان كثيرا من جهات آسيا لم يكن يعترف للسلطان بالتابعية إلا بالاسم فقط وكانت جهات لبنان وسوريا في حالة تشبه الاستقلال التام ولم تكن الدولة تجبي من تلك الجهات خراجا إلا النزر اليسير وان جبته فبشق الانفس وسبب ذلك عدم تمكنها من الالتفات الى ادخال هذه البلاد ضمن دائرة النفوذ الفعلي لما هي فيه من الاشتباك في الحروب ولخيانة العمال ومد يدهم لاخذ الرشوة من الجهة الاخرى وكان السلطان يعلم ذلك جيدا الا أن الحزب الذي يرغب الحرب أمكنه القبض على أزمة الادارة والسياسة وقد تمكن الصدر الاعظم مع ذلك من المدافعة عن قلعة خوتين (شوكزيم) ولكن لجهله عزل وعين للصدارة والسرعسكرية باغلقجي زاده محمد أمين باشا فتوجه بالاوردى لنهر الطونة وفي أثناء ذلك عبرت عساكر الروسيا نهر طورله أو دنيستر (Dniester) وحاصروا خوتين ولكن مولدواني علي باشا ودولتكراي خان تمكنا من طرد الروس من حول القلعة المذكورة ثم عزل الصدر لامور صدرت منه واتهمه الجنود بسوء التصرف فقتل وحمل رأسه الى استانبول ووجهت الصدارة الى مولدواني علي باشا (١١٨٣ هـ) وكان شهما أكثر استعدادا ولياقة من سلفه الا أنه لم يكن أسعد منه طالعا وقد أظهر اهتماما وغيرة وتقدم لعبور نهر طورله ونصب عليه جسرين من السفن وبينما هو يستعد لمهاجمة أعدائه فاضت مياه النهر المذكور دفعة واحدة وخاف الجنود من أن المياه تتلف الجسرين فأسرعوا بغير انتظام للعبور وتراكموا على الجسرين فانقلبا في النهر وغرق غالب من كان فوقهما من الجنود وكان السرعسكر وضع بالضفة الاخرى ستة آلاف جندي لحماية الجسرين فلما كسرا بقوا بمفردهم بالشاطئ الآخر فقتلهم الروس عن آخرهم ثم أخلى السرعسكر خوتين بعد أن جردها من الذخيرة فاستولت عليها الاعداء بكل سهولة ولهذا عزل مولدواني علي باشا المذكور من الصدارة وأحيلت هي والسرعسكرية على عوض زاده خليل باشا وكذا عزلت الروسيا قائدها العام المرشال غاليجين (Galitzin) وعينت المارشال رومانزوف وكانت جيوش الروسيا التي في الحدود العثمانية الاسيوية في ذلك الوقت منصورة أيضا فاستولت على قبارطاي وكرجستان وجزء كبير من ارمنستان (١١٨٣ هـ)

واقعة چشمه البحرية وهزيمة قرتال — اعلم ان الروسيا كانت أرسلت قبل أن تجرد عليها الدولة كثيرا من أبناءها لتحريك اليونان والصرب والجبل الاسود وغيره من الجهات التي يكثر بها العنصر النصراني الارثوذكسي خصوصا للقيام بالثورة لتوقع الدولة في ارتباك داخلي وتصيبها بجرح دام باطني تضطر بسببه أن تضمده باحدى يديها وتدافع باليد الاخرى ومن الغريب أن الروسيا استعملت هذه الوسيلة في كل محاربتها مع الدولة وصادفت فيها نجاحا وكان عمالها يهبون السكان الهبات الوافرة ويمنونهم بكل ما يرتاحون اليه وقد نجحت في ذلك أولا الا أن الدولة أرسلت الجنود فأوقعوا بالثوار في كل الجهات تقريبا ومع ذلك فان الدولة اضطرت لان تبقي بالجهات المذكورة حامية كثيرة لردعها متى تمردت ولما لم يكن لدولة الروسيا وقتئذ قوة بحرية بالبحر الاسود يمكنها بها منازلة الاساطيل العثمانية بالبحر المذكور أرسلت من بحر بلطيق عمارة قوية وتداركت بعض سفائن حربية من انكلترة والفلمنك والبنادقة واستأجرت ضباطا وأنفارا لخدمتها ثم دخلت هذه العمارة من مضيق جبل طارق الى البحر الابيض المتوسط تحت قيادة الاميرال الكسندر أورلوف

ومرت هذه الاساطيل أولا بسواحل مورة وأمدت الثوار بالسلحة ونقود وشجعت رئيسى الثوار هنالك وهما باباس أوغلى وبناخى (Benaki) ولما علمت الدولة بذلك عينت محسن زاده محمد باشا سردارا على جيش مورة وأمدته بجنود جديدة فتمكن هذا القائد من تسكين الاضطراب والقبض على الاشقياء ولكن بعد خسائر كثيرة

ولما كانت حكومة فرانسا يسوءها أن ترى انتصار الروس على العثمانيين لان ذلك كان يضر باحوالها السياسية عرضت على الدولة مساعدتها لها وذلك حينما بلغها ظهور العمارة الروسية فى البحر الابيض المتوسط وأرسلت ضابطا من ضباطها ليساعد مهندسى العثمانيين على انشاء القلاع أو تقويتها وهو البارون توط (Tott) وعرضت على الدولة أيضا مساعدة اسبانيا لها بشرط أن تمنحها بعض امتيازات تجارية فلم يقبل الباب العالى ذلك وكان الوزراء يرغبون فى الصلح بكل طريقة حتى انهم طلبوا من دولة أوستوريا التوسط فيه ولقد كانت طوبجية العثمانيين فى ذلك الوقت فى حالة تقهقر عظيم فبعد ان كان لهم المقام الاول فى أوروبا من حيث التنظيمات العسكرية بانواعها خصوصا الطوبجية منها بقيت حالتهم فى ذلك ثابتة لم تتقدم وكانوا الى الآن يستعملون المقذوفات من الحجر وقد سعى البارون توط المذكور حتى تمكن من جعل الوزراء يصغون الى نصائحه ويستبدلون ذلك بمقذوفات من الحديد على الطرز المستعمل اذ ذاك

وفى ٢٠ صفرسنة ١١٨٤ هـ أقلعت الدونمة العثمانية من خليج دار الخلافة تحت قيادة القبودان حسام الدين باشا الى البحر الابيض المتوسط وكانت مركبة من ٣٩ سفينة مختلفة النوع والقدر ولما وصلت الى ساقزرست فى مكان مناسب قريب من ساحل الاناضول ثم تلاقت مع الدونمة الروسية التى تحت قيادة الاميرال أورلوف المذكور وكانت تؤلف من عشرة غلايين وعشر فرقاطات وبعض سفن صغيرة ولما وقعت الحرب بينهما كانت الدونمة العثمانية هى الغالبة فى أول الامر لما بذله القبودان الثانى حسين باشا الجزائرى من المهارة وأساليب القتال البحرى المتنوعة التى أبقت له فى تاريخ البحرية العثمانية ذكرا حميدا وكان من باب الاحتياط أرسل قبل الاشتباك فى الحرب فرقة لانشاء الاستحكامات فى البر ثم حمل بغليونه على غليون الاميرال وضايقه ولما كاد يستولى عليه ألقى الاميرال الروسى المذكور النار بمخزن البارود بعد أن تركه وانتقل الى غليون آخر ولما تفرقع الغليون الروسى أصيب حسين باشا بعدة جراحات وقتل كثير ممن كان معه وأخرج القبودان الى البر لتضميد جروحه ولما احترقت سفينة الاميرال الروسى أمر جعفر بك الربان القواد بادخال سفن الدونمة الى ميناء جشمه ولما كان التجاء الدونمة العثمانية الى تلك الميناء ليس من الصواب فى شئ لانه يصيرها غير قادرة على أى عمل لصغر الميناء أتى حسين باشا رغما عن آلام جراحه وتكلم مع القبودان العام حسام الدين باشا وأنذره بأن بقاء السفن داخل هذا الثغر ينجم عنه ضياعها بتمامها فلم يستصوب القبودان نصيحته ولم يصغ لرأيه الصائب وأحجم عن الخروج الى عرض البحر فنجم من ذلك ضياع الدونمة كما سنعلمه وذلك انه كان بين الضباط الذين استأجرتهم الروسيا ثلاثة من الانكليز كان أحدهم المسمى الفنستون (Elphinstone) أركان حرب للاميرال الروسى ولما رأى الدونمة العثمانية دخلت ميناء جشمه أشار على الاميرال بمحاصرة مضيق الميناء لمنعها من الخروج ثم رتب

السفن

السفن التى وكل اليها تنفيذ هذا الامر حسبما أشار به الضابط المذكور وبعد ان أخذت السفن مواقعها وقفت على شكل خط حرب أخذت فى اطلاق المدافع وتولى الضابط الانكليزى الثانى المدعو غراغ حركة طوبجية عموم الدونمنا الروسية واشتغل الثالث المسمى داغدل بتوجيه الحراقات على الدونمنا العثمانية التى وقعت بين نيران المدافع ونيران الحراقات على حين لم تكن سفنها قادرة على المدافعة لعدم امكانها اتيان أى حركة حربية لضيق الميناكما سبق فاحترقت جميعها خلا فرقاطتين بكل واحدة أربعون مدفعا وخمسة مراكب صغيرة كانت تمكنت من الخروج من بين تلك النيران ومع ذلك فان الدونمنا الروسية قبضت عليها فيما بعد وقال المؤرخ الجرمانى شيلوزر عن هذه الواقعة ان هذا الانتصار الذى ناله الروسيون لم يكن الا من حسن تدبير الضباط الثلاثة المذكورين ولما وصل خبر هذه النصرة الى الامبراطورة كترينه الثالثة فرحت جدا ولقبت الاميرال بلقب چشمكى تذكارا لانتصاره هذا وبعد الانتصار ألح الفنستون الانكليزى على الاميرال الروسى بالمرور بالدونمنا من جناق قلعة قوة واقتدارا حتى يدخل القسطنطينية فلم يقدم الاميرال على هذا الامر الخطر أولا ثم ارتد خائبا فيما بعد كما سيأتى لان الدولة العثمانية كانت استقدمت من الروملى مولدوانى على باشا وأرسلته بصحبة الجنرال البارون دى توط الفرنساوى المذكور لتقوية حصون وقلاع البوغاز وتشييد بعض قلاع جديدة أخرى هنالك ولما وصل الباشا المذكور ورأى أن مأموريته تحتاج لوقت طويل أمر فدهنوا خارج القلاع بالجير لتظهر للرائى كأنه صار اصلاحها وبارشاد الجنرال طوت شيدوا قلعتين بساحل الاناضول ومثلهما بساحل الروملى لمنع سفن العدو من العبور فشيدوا وسلحوا بالمدافع حتى انه لما أراد الاميرال أورلوف فيما بعد العبور من بوغاز الدردنيل حصل لسفنه من ضرب أول قلعة من القلاع المذكورة ضرر جسيم فاضطر للعدول عن مقصوده وذهب الى جزيرة لمنى وحاصر قلعتها واستولى عليها هذا أما حسين باشا الجزائرى فانه لما التأمت جراحه وعاد الى الاستانة طلب من الصدر الاعظم التصريح له باسترداد جزيرة لمنى وقال له انى لا أرغب أخذ مراكب حربية لذلك بل فقط أرجو التصريح لى بجمع بعض الاهالى ولما صرح له الصدر بذلك جمع من أهالى الاستانة نحو أربعة آلاف نفر وسلحهم بالبنادق ثم سافر بهم سريعا

ولما بلغ سفير فرانسا هذا الخبر قابل الصدر وقال له ان ما صنعه حسين باشا لاسترداد قلعة لمنى لا يجدى نفعا كلية وأرى ان الاوفق عدم القاء العساكر فى الهلاك بلا ثمرة فقال له الوزير انى على يقين من ان ما فعله حسين باشا غير مطابق للفنون الحربية غير انه ان نجح فقد حصل المقصود والا فتكون الحكومة قد ارتاحت من أربعة آلاف نفس من الذين يقلقون الراحة أما حسين باشا فانه توجه توا الى الجزيرة المذكورة وأخرج جيشه الصغير الى البر بزوارق وصنادل استأجرها من الاهالى هنالك بدون ان يشعر به الاعداء ثم هجم على الروس بغتة فى صباح يوم ١٠ اكتوبر من السنة المذكورة فأوقع بهم ولما لم يقدروا على المقاومة ولوا الادبار ونزلوا فى السفن فاسترد الجزيرة بذلك وقد خاب الروس أيضا وارتدوا بالخسارة عندما أرادوا الهجوم على طرابزون وكرجستان

ولما وصلت هذه الاخبار الى استانبول سكن جاش الاهالى نوعا وارتفع الرعب الذى حل بقلوبهم مما فعله الروس وذاع صيت حسين باشا الجزائرى واشتهر اسمه ولهج العالم بامتداحه لحسن

مهارته ولذلك تعين قبودانا عاما للدونمنا ومحافظ المضيق جنق قلعة ولا يفوت القراء أنه لو كان قومندان الدونمنا التي ضاعت في چشمه اقتدى باقواله وعمل با رائه لما كانت حوصرت وضاعت باسرها كما قدمنا ولما استلم حسين باشا زمام البحرية أخذ في اصلاح السفن الموجودة بدار الصناعة ثم ضم اليها بعض الغلايين ونحو عشرين سفينة للسحب وكون من مجموع ذلك عمارة ثم أذنه السلطان بالذهاب بها الى جزيرة ليمني وهناك التقى بعمارة الاميرال أورلوف ووقع الحرب بينهما مدة ولما شاهد الاميرال الروسى انه لا يمكنه الثبات امامه وتيقن انه لو استمر على المحاربة ربما ضاعت منه عمارته ولى الادبار منهزما وقد أرجف الروسيون في بلادهم بأن عمارتهم اكتسبت هذه الواقعة أيضا ولكن لا أصل لذلك وقد أيدها مر فى تاريخه عند ذكر هذه الواقعة صحة انتصار حسين باشا وكذب أخبار الروس وقد كان الروس أثناء الحرب يرسلون عمالا لاثارة الفتن على الدولة في الجهات التي يكثر بها النصارى على الخصوص كما تقدم ذكره وقد تمكنوا أيضا من جعل رئيس كولمان مصر المدعو على بك يشق عصا الطاعة ويسعى في الاستقلال وكذا الشيخ طاهر شيخ عرب عكا وأمد الروس هذا الشيخ بار بعمائة مقاتل من رودس أخرجتهم الدونمنا الروسيا الى البر الا أن الجنود العثمانية التي توجهت لردع الشيخ المذكور قتلتهم عن آخرهم كما أنها شتتت جموعه وفى منتصف سنة ١١٨٤ ﻫ تقدم الفلد مارشال رومانزوف ودخل المملكتين فأرسل الصدر الاعظم عوض زاده خليل باشا من باباطاغ جيشا مع خان القريم وقوة أخرى مع عبدى باشا سرعسكر بغداد وقوة مع أغا اليكچرية قبوقيران محمد باشا لصد الفلد مارشال المذكور الا انه لم يمكن إمدادهم بالجنود اللازمة فيما بعد كما طلبوا لاختلال الاحوال العسكرية ولدخول فصل الشتاء ثم عبر الصدر الاعظم بالجيوش نهر الطونة على مراكب النهر المسماة اجيق من ايساقچى (Isaktchi) الى قرتال وتقابل مع الجيوش الروسية القادمة مع رومانزوف وحصلت بين الطرفين محاربة دامت ثمان ساعات انتهت بهزيمة العثمانيين وغنمت الروس أغلب المدافع والمهمات ولم يكن للدولة اذ ذاك بجهات الطونة أكثر من أربعين ألف جندى غالبهم لا يحسن القتال على الاصول العسكرية

ثم انه بعد واقعة چشمه تقدمت عساكر الروسيا واستولوا بعد ان انتصروا على الجيش العثماني المذكور في عدة مواقع على قلاع اسماعيل و كلى و بندر و اق كيرمان ولما علمت الدولة بهذه الاخبار المحزنة أمرت بسرعة جمع الجيوش وفي خلالها توسطت النمسا و بروسيا في عقد الصلح وكانتا اتفقتا مع الروسيا على تقسيم پولونيا الا ان الروسيا رفضت تداخلهما وأرادت عقد الصلح مع الدولة مباشرة ولما عرضت مطاليبها ورأتها الدولة صعبة غير مقبولة رفضت المكالمة معها واستمرت الحروب كما كانت ثم استولى عساكر الروسيا على قلاع ماچين و طولچى وايساقچى ودخلت جنودها بلاد القريم واستولت على قلاع (طومان) و (كرچ) و (كفه) و (كوزلوه) وانتخبت لها خانا بمعرفتها فهاجر كثير من التتار الى الاناضول بذلك

ضياع بلاد القريم (١١٨٥ ﻫ) — اعلم انه في خلال استيلاء الروس على طورله المعروفة أيضا بنهر دنيستر وعلى بغدان والافلاق ساقت الروسيا جيشا تحت قيادة البرنس دولغوروكى (Dolgorouki) على القريم الا أن سرعسكر القريم السلحدار ابراهيم باشا تمكن

من

من صده وقهقرته عند برزخ أورقبو (١١٨٤ هـ) ولما لم يمكن للروس دخول القريم أخذت حكومتهم تبث بين الاهالى الفتن وتحرضهم على الثورة بواسطة عمال السوء كقولهم للاهالى انكم أنتم التتار سلالة جنكيزخان الشهير بعد ان كنتم أسياد البلاد وحكامها تتمتعون بحكومة مستقلة صرتم عبيد الا ل عثمان يستبدون عليكم و يتصرفون فيكم كيف شاؤا ومتى شاؤا فاذا اتفقتم مع الروس ساعدوكم على نوال الاستقلال وأعادوا الكم ما فقدتموه من المجد الاثيل فانصاع قوم لهذه التحريضات الفاسدة التى أخذت تنتشر بين الاهالى فاحدثت أثرا سيئا وحلت من العزائم قوة وهدت من العصبية ركنا حتى ان الروسيا لما وجهت على القريم تجريدة أخرى وتصدى لها السرعسكر المذكور عند أورقبو لم يتمكن من صدها مع ما بذله من المساعى والثبات ولم يصدق سليم كراى فى الدفاع كالسابق فاستولى الروس على البلاد المذكورة (١١٨٥ هـ) وفى خلال ذلك توسطت أوستريا والبروسيا فى الصلح ولما تهادن الطرفان ابتدأت المذاكرة أولا فى فوكشان من بلاد الافلاق (Focksany) وتعين من قبل الدولة رئيس الكتاب عبد الرزاق أفندى ومن قبل الروسيا أوبرشقوف واجتمعا فى بكرش أى بخارست وعقدا مجلسا لتقرير أمر الصلح (١١٨٦ هـ - ١٧٧٣ م) وكان أساس المذاكرة التى قدمتها الروسيا استقلال القريم وان تستولى هى على قلعتى كرتش و يكى قلعة الواقعتين فى مدخل بحر ازاق وان تكون الملاحة حرة لسفن الروسيا التجارية فى جميع فرض الدولة والبحر الاسود وأن يكون لها حق حماية المسيحيين الاورثودكس فى بلاد الدولة فرفضت الدولة هذه الشروط لاجحافها بحقوقها واستأنف الطرفان القتال وتقدم الجنرال رومانزوف بجنوده وقاد الصدر الاعظم محسن زاده محمد باشا الذى ولى الصدارة سنة (١١٨٥ هـ) جيوش الطونه (١١٨٦ هـ) وانتصر على الروس بجوار بازرجق ووارنه وصدهم أيضا على باشا الداغستانى امام روسجق وهزمهم سرعسكر سلسترة الغازى عثمان باشا هزيمة منكرة قتل فيها منهم تسعة آلاف جندى واغتنم العثمانيون جميع مدافعهم وذخائرهم وأسروا الجنرال الدينين وجرح الجنرال واسيمان جرحا بليغا مات به وعند تقهقر الروس قتلوا فى طريقهم جميع أهالى قره صو و بازارجق لخلوهما من الجنود

أما تتار القريم فانهم بعد ان وأفقوا الروس عادوا وطلبوا الحماية من الدولة العثمانية التى عينت دولتكراى خان الاسبق وجنيكلى حاجى على باشا لاسترداد القريم ثم عاد العثمانيون اليهم فقروا سريعا قال هامر فى تاريخه أنه لما فر الروس من بازارجق ودخلها العثمانيون وجدوا اللحم فى القدور على النار وهذا يدل على الرعب الذى وقع فى قلوبهم من الجيوش العثمانية وبينما كان السلطان مصطفى الثالث مصمما على قيادة الجيوش بنفسه فاجأته الوفاة (١١٨٧ هـ - ١٧٧٣ م) وكان رحمه الله من أعاظم الملوك الذين أداروا أمور السلطنة بالجد والاقدام وكان فعالا يتصرف فى الامور بحكمة مهما يجمع المال والرجال والمهمات للدفاع عن بلاده محبا للعلم والعلماء يميل الى العمارية انشأ جامعا بازمه فى اسكدار ولاله لى ووقف عليهما الاوقاف الوافرة وأصلح جامع السلطان محمد الفاتح لانه كان تهدم بزلزلة وله غير ذلك من الا ثار

٢٧ السلطان عبد الحميد خان الاول ابن السلطان أحمد الثالث

(١١٨٧ - ١٢٠٣)

جلس على تخت الخلافة العثمانية بعد أخيه وعمره خمسون سنة ولم ينعم بعطايا الجلوس عقب تقليده السيف كالمعتاد لعسر المالية واحتياج الدولة للاموال لتصرفها فى حرب الروسيا وأبقى الصدر والوزراء فى مراكزهم وقد انتهزت الروسيا فرصة موت السلطان وجلوس أخيه هذا وأرسلت الجنرال سواروف (Souwarow) مع جيش عرمرم امدادا لجيش القائد العام المارشال رومانزوف ليزحف به على تخت الخلافة فأمر السلطان عند ذلك بتسيير الجيوش وتقدم بها الصدر الاعظم محسن زاده محمد باشا وكانت الروس اجتازت نهر الطونة وقصدت وارنة فتلاقت مع الطليعة التى أرسلها الصدر من شمنى مع اغاة الينكجرية يكن محمد باشا ورئيس الكتاب عبد الرزاق باهر أفندى فى جهة يقال لها قوزلجه وبعد حرب طويل انهزمت الطليعة المذكورة فاضطرب الجيش الذى مع الصدر وداخله الخوف ثم بعد قليل ظهرت طلائع جيش رومانزوف وكان استولى على كافة المواقع المهمة التى فى طريق وارنة وتقهقرت جميع الجيوش العثمانية مظهرة التمرد والعصيان حتى لم يبق بعسكر الصدر سوى اثنى عشر ألف مقاتل ولما كان لا يصح القتال بجنود هذه صفتهم التزم الصدر الاعظم عند ذلك أن يطلب من المارشال رومانزوف (Romanzoff) توقيف القتال للمكالمة فى الصلح وأرسل من جانبه مرخصين وهما أحمد رسمى أفندى من الديوان الهمايونى ورئيس الكتاب ابراهيم افندى الى قصبة كوجك قينارجه من بلاد البلغار وفى ظرف ثمان ساعات تقررت شروط الصلح وأمضيت المعاهدة (١١٨٨ هـ - ١٧٧٤ م) وشروطها استقلال تاتار القريم وقوبان وبوجاق وبقاء ما يتعلق بامور الدين من خصائص الخلافة وترك ينى قلعة وقلعة كيرج وقلعة ازاق وأراضيها والبلاد الواقعة بين أوزى (Dniepr) وآقصو [1] (Bug) وقلعة كلبورن (Kilburn) للروسيا ويخلى الروس عن بلاد كرجستان ومكريليه [2] (Mingrélie) والمملكتين وبوجاق (Bessarabie) وتكون الحدود بين المملكتين نهر آقصو المذكور وان تطلق للروسيا حرية الملاحة والتجارة بالبحر الاسود والبحر الابيض المتوسط وأن تدفع الدولة العثمانية ١٥٠٠٠ كيسة تضمينات حربية وتخرج الروسيا أساطيلها الموجودة بالبحر الابيض المتوسط وتعيد للدولة الجزائر التى استولت عليها وان يزاد امتياز بلاد المملكتين ويتأكد وبصير مبادلة الاسرى بين الطرفين وقد فتح البند السابع من هذه المصالحة ميدانا واسعا للدسائس الروسية حيث منحهم حق حماية الدين النصرانى وكنائسه ومن ذلك نتجت حرب سنة ١٨٥٤ م كما سيأتى وان تعترف الدولة أيضا بتقسيم پولونيا وقد التزمت الدولة بقبول ذلك اتباعا للقاعدة الحكم لمن غلب وانتهت الحرب ونالت

(١) نهر من بلاد الروسيا يصب فى نهر دينيبر من جانبه الايمن قريبا من مصبه ويسمى قديما هيبانس (Hypanis)

(٢) هى عمالة من بلاد القوقاز واقعة على السفح الجنوبى من جبال القوقاز بين البحر الاسود غربا وكرجستان شمالا تنازل عنها أميرها للروسيا سنة ١٨٦٧ م وهى عبارة عن بلاد كولشيد القديمة (Colchide)

الروسيا أمانيها ولما كانت هذه الحروب وغيرها سببها مملكة اللهستان اتفقت مملكة بروسيا والروسيا والنمسا على تجزئتها بينهم (١١٨٦ هـ - ١٧٧٢ م) وهذا هو التقسيم الاول الذى أعلن لملك پولونيا فى ١٨ سبتمبر من السنة المذكورة

ثم عاد الصدر الاعظم بالاوردى وبينما هو بجوار قرين أبا دمات فجأة ونقل جسمه الى استانبول ووجهت الصدارة الى عزت محمد باشا (١١٨٨ هـ) وبعد ذلك التفتت الدولة لاصلاح أمور داخليتها واهتم القپودان حسين باشا الجزائرى فى انشاء السفن الحربية لاعادة ما كان للعثمانيين من السطوة فى البحار لانهم فقدوا أغلب سفنهم فى هذه المحاربة كما علمت ثم خرجت الدونما بعد ان ضموا اليها بعض السفن تحت قيادة القپودان باشا المذكور مع جيش برى وأمرت الدولة أيضا محمد بك أبا الذهب أحد أمراء مصر بأن يذهب الى سوريا لاطفاء ثورة الشيخ طاهر عمر فحاصره هو والقپودان عكا وقتل أبو الذهب أثناء الحصار ولما أراد طاهر عمر المذكور الهرب لم يتمكن فقبض عليه وقتل وبعث برأسه الى الاستانة

محاربة ايران (١١٨٩ هـ) - اعلم انه بعد ان قتل نادر شاه عادت العداوة بين الامراء فى البلاد الايرانية وامتدت الحروب الداخلية واستقل فى جهات شيراز رئيس عشيرة زاند المدعو عبد الكريم خان وتشيع له كثيرون الى ان تمكن بدهائه ومهارته وفطانته من القبض على مملكة ايران بتمامها ثم لاح بفكره ان يكتسب شهرة أخرى بتوسيع المملكة فانتهز فرصة ما أصاب الدولة من الضعف بعد حروب الروسيا السابقة وأعلن عليها الحرب ودخل بجيشه العراق العربى وتعدى على كثير من الاهالى والبلاد ثم حاصر البصرة فارسلت الدولة عليه جيشا عظيما مركبا من أربعين ألف مقاتل تحت قيادة والى بغداد الجديد سليمان باشا المشهور وبعد وقائع قليلة انتصر الباشا المذكور على الاعجام حتى أجلاهم عن البلاد وفى سنة ١١٩٠ هـ عزل الصدر الاعظم درويش محمد باشا لتقصيره فى بعض الواجبات وتعين بدله دراندهلى محمد باشا

استيلاء الروسيا على القريم (١١٩٧ هـ) - اعلم انه بعد ان أنالت الروسيا تتار القريم الاستقلال الادارى عن الدولة العلية بمعاهدة قينارجه وكان ذلك من شروط عقد الصلح كما سبق أخذت تبث بينهم سموم الفتن والايقاع تفريقا بينهم ليسهل عليها نوال ما تقصده من امتلاكهم وضم بلادهم اليها ولما اشتعلت نيران الفتن تداخلت بجيوشها بحجة تسكين الاضطراب وهرب خان القريم دولتكراى فاجلس الاهالى مكانه شاهينكراى خان وذلك بمساعدة الروسيا (١١٩١ هـ) وكان شاهينكراى خان هذا أقام مدة قبل ذلك بمدينة بترسبورغ تعلم فيها الآداب والعادات الروسية وقلدها فى مأكله وملبسه فكان يتناول الخمور علنا فنفرت منه الامة خصوصا بعد قبوله حماية الروسيا وأنعمت عليه كثيرته بالعطايا الوافرة والرتب العسكرية والنيشانات واستخدم لديه بعض ضباط الروسيا فحنق الاهالى وتذمروا وأظهروا العصيان ثم قامت الامة عليه وخلعته وكان ذلك فى الحقيقة فى مصلحة الروسيا لانها كانت مع ذلك عاملة على اشعال نيران الفتن فكانت تحشد الجنود على حدود القريم تحت قيادة الجنرال پوتمكين (Potemkin) بدعوى تعضيد شاهينكراى المذكور ثم أمرت الجنرال فدخل بلاد القريم بسبعين ألف جندى واستولى عليها وتم لها ما تقصده وكان

هذا أعظم سبب للحروب الآتى ذكرها

محاربة الدولة للروسيا والنمسا (١٢٠١) - لما استولت الروسيا على بلاد القريم عدت الدولة ذلك تعديا عليها لمخالفته معاهدة قينارجه القاضية باستقلال القريم استقلالا تاما وهاجت عليها الامة وكبر عليها الامر فأخذت تخابر باقى الدول الاوروباوية لايقاف الروسيا عند حدها وفى تلك الاثناء عزل سبعة صدور وأخيرا وجهت الصدارة لقوجه يوسف باشا الشهير (١٢٠١ ﻫ) وكان من أصحاب الحمية والغيرة والاقدام وهو وان كان أميا الا أنه كان يستعين بافكار أصحاب الآراء السديدة ويميل اليها وكان من الذين يريدون محاربة الروسيا التى لم تكتف بالاستيلاء على بلاد القريم بل انها أرسلت سنة ١١٩٧ ﻫ جيشا وفتحت بعض جهات وتقاسمت پولونيا (١٧٨٢م) مع النمسا وبروسيا ثم استمرت المخابرات السياسية بين الدول الاوروباوية والدولة العثمانية لحل الخلاف بصورة سلمية ثم سعت فرانسا وكانت مشتغلة وقتئذ بالحرب مع انكلترة بخصوص استقلال امريقا بواسطة سفيرها بالاستانة لمنع الدولة من التورط فى الحرب لانها لا تعود عليها الا بالخسائر لان كترينه كانت تستعد للحرب من زمن سيما وانها أبرمت مع النمسا معاهدة سرية عند مقابلتها مع الامبراطور يوسف الثانى فى مدينة كرسون (Kherson) (١٧٨٤) وكان من مقتضاها الاتفاق على محاربة الدولة العلية وان تساعد النمسا الروسيا على انشاء مملكة فى حدودها تكون حاجزا بينها وبين الدولة العثمانية وتكون هذه المملكة من أقاليم الافلاق والبغدان وبسارابيا وتعين لها حكمدارا أورثودوكسيا ثم تقسم بلاد الدولة بينهما فى أوروبا وقد تأكدت أخبار الاتفاقية المذكورة فى المحافل السياسية واستفحل أمر تعدى الروسيا خصوصا عندما أخذت تحصن ميناء سواستبول وتبنى دار صناعة عظيمة فى ثغر كرسون وتشكل عمارة بحرية بما شيدته من السفن الحربية الجديدة الطرز فى البحر الاسود ورأى الصدر الاعظم ان هذه الاجراآت هى تهديد واضح للسلطنة العثمانية وأخذ السفير الانكليزى يحرض الدولة على اعلان الحرب على الروسيا ويؤكد لها استعداد دولته لمساعدتها بجميع سفنها وانها تسعى لدى پولونيا والسويد حتى تجعلهما يعلنان الحرب على الروسيا فأرسلت الدولة بلاغا الى سفير الروسيا بالاستانة المسيو بولجاقوف تطلب منه مخابرة دولته فى تسليم (موروكرداتو) أمير الافلاق الذى التجأ اليها بعد ان شق عصا الطاعة وان تتنازل عن حماية بلاد الكرج لانها معدودة من أملاك الدولة وان تعزل بعض القناصل الذين يهيجون الاهالى وان يكون للدولة قناصل فى ثغور البحر الاسود وان يكون لها فيما بعد الحق فى تفتيش السفن التجارية الروسية التى تمر من البوسفور والدردنيل ولما رفض السفير هذه الطلبات بأمر دولته قبضت الدولة عليه حسب المعتاد وسجنته فى يدى قلة (١٢٠١ ﻫ - ١٧٨٧ م) وأعلنت الحرب على الروسيا وكانت فرانسا تميل لسياسة الروسيا سرا اما دولة الاسوج وأهالى پولونيا وبروسيا فانهم تعاهدوا مع الدولة لمساعدتها اذ كان غوستاف الثالث ملك السويد يريد انتهاز فرصة وقوع الحرب بين العثمانيين والروسيا ليعيد لبلاده ما أخذته الروسيا منها

ولما كان مقام الجنرال پوتمكين غير متين فى القريم أشار على الامبراطورة كترينة بترك هذه البلاد

خوفا

خوفا من سوء العاقبة لقلة المعدات الحربية والجنود لديه فلم تقبل الامبراطورة ما عرضه الجنرال بل أمرته بالتقدم نحو مدينتى بندر وأوزى لاخذهما فسار وحاصر أوزى ولما كانت النمسا حليفة للروسيا كما سبق أعلنت الحرب على الدولة أيضا ولما حضر الغازى حسين باشا الجزائرى القبودان العام من مأموريته الى استانبول خطأ الصدر لاعلانه الحرب فى هذا الوقت وقبح رأيه لان الدولة كانت فى حالة لا يمكنها معها مباشرة محاربة عظيمة كهذه سيما وانه قد اشتهر اتفاق الدولتين معاوهما الروسيا والنمسا على منازلتها ثم ان الصدر قاد الجيش بنفسه وتقدم لملاقاة جيوش الروسيا والنمسا (١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م) وفى خلال ذلك أتت الامبراطورة كترينة بذاتها الى القريم مع جيشها وأتى الامبراطور يوسف الثانى بجيشه الى حدود الدولة من جهة بلغراد ثم دارت رحى الحرب واستلم القبودان حسين باشا الجزائرى قيادة الدونمنا العثمانية ولما لم يكن لديه الوقت الكافى لمداركة النقص الموجود بالسفن جمع اليه كافة ربابين المراكب حتى غص بهم المكان وقام فيهم خطيبا (١) مشجعا منهضا هممهم واعدا متوعدا ثم فرقهم على السفن

محاربة أوزى البحرية — لما صدر الامر للاساطيل العثمانية سافرت قاصدة أوزى فوصلتها فى السنة المذكورة واستقبلت امامها ثم وجه القبودان باشا مراكبه الصغيرة الحربية القادرة على اجراء حركاتها البحرية بين الشعاب الصخرية وفى المياه القليلة العمق لمحاربة دونمنا الروسيا المشكلة من صالات ومراكب صغيرة وكانت واقفة أمام رأس قيل ولما وقعت الحرب بينهما اغرق للروسيين صال فيه مائة جندى وغرقت شالوبة صغيرة للعثمانيين وكان بها سبعة عشر جنديا ثم بعد مضى أيام حملت العمارتان المذكورتان على بعضهما فارتدت العمارة الروسية بعد أن تكبدت خسائر جسيمة بخلاف العمارة العثمانية فانه لم يصبها ضرر يذكر ثم حصل هجوم ثالث وكانت سفن الروسيا اقتربت من الساحل بعد أن وضعت بين الشعاب الصخرية علامات لسهولة مرور سفنها الباقية وحملت المراكب العثمانية عليها وبينما كان العثمانيون يهتمون بطرد عساكر الروس من رأس قيل المذكور هجم عليهم الجنرال سواروف (Souvarof) بجيشه وبعد

---

(١) هذه صورة خطبة هذا القائد الشهير مترجمة من تاريخ البحرية العثمانية لسليمان نطق افندى أيها الرفاق تعلمون ما أجريته مع قصورى من الاصلاحات والخدم فى المدة الطويلة للدين والدولة و بعناية الله تعالى وحسن توفيقه قد نجحت فى معظمها وفى هذا اليوم قد أحيل على عهدتى اعلاء شأن وشهرة الدولة العلية لبقاء سلامتها فقياما بحق النعمة التى نحن متمتعون بها فى ظل هذه الدولة يلزمنا جميعا أن نضع نصب أعيننا فداءها بأرواحنا فيما يهدمه البناء ولاجل أن نفى لها بهذه الخدمة المقدسة نحتاط للطوارئ التى تصادفنا رغبة فى الوصول الى المرام بأحسن طريقة وقد أعتقت جميع جوارى وكافأت كل واحدة منهن حسب خدمتها الى قياما بواجب ما يلزمنى فى هذه الدار وانى أستودع الله أولادى وأحبابى لاتمكن من القيام بهذه الوظيفة المهمة بالاخلاص والصدق فان عدت سالما كان ذلك من مواهبه سبحانه وتعالى على انكم أنتم أمراء البحرية الذين ترتكن عليهم الدولة فيلزمكم أن تضعوا أهمية هذه الخدمة التى عهدت اليكم نصب أعينكم وتقطعوا عنكم العلائق الدنيوية حتى بذلك تؤدون الخدمة بما يليق بها وان كان لديكم من الاعذار ما يمنعكم من أداء هذا الواجب يلزمكم ايرادها لسماعها اليوم منكم وان الاهمال الذى يقع منكم امام العدو من حركات مخالفة للنظام يوجب المسؤلية على فاعليه امام جميع الامة ولا يخفاكم ما يترتب على فاعليه من الجزاآت الشديدة فمن عزم منكم على الخدمة فى الوقائع المنتظرة بالصداقة والجسارة التامة فليقسم حتى يطمئن رفاقه الباقون ولما ألقى عليهم هذه الخطبة أقسم كل منهم على حدته بان يخدم بكل جسارة وصداقة كما طلب اهـ

مقاومة شديدة ارتدت العساكر العثمانية بخسائر عظيمة ونزلت الى السفن وسلطت القلعة التى أنشأها الروسيون برأس قيل نيرانها على العثمانيين الذين عند عودتهم وجدوا أن الروسيين نزعوا تلك العلامات من فوق الصخور وبهذه المكيدة لم يمكن للسفن العثمانية الاهتداء للطريق فشحطت فوق تلك الشعاب الصخرية وانهالت عليها نيران القلعة فدمرت غالبها ثم أتى البرنس ناسوسيجن (Nassau-Siegen) من نيقولايف ببعض سفن صغيرة من نوع البومبات والغامبوت والصنادل وهاجم بها المراكب العثمانية الصغيرة المذكورة ووقعت محاربة قوية قتل فيها كثير من العثمانيين وغرق فيها بعض مراكب للروسيين وقد تمكنت بعض شالوبات العمارة العثمانية من انقاذ كثير من بحارة الصنادل المرتطمة وضاع للعثمانيين بالمكان المذكور جميع مراكب الاسطول الخفيفة ولما شاهد القبودان باشا ذلك أمر بابقاء الخمسة مراكب الصغيرة التى نجت وقام بالدونمة الى جزيرة بيره زن ليبعث من هناك من يوصل الاخبار الى استانبول

محاربة بيلان اطه البحرية — انه بعد الواقعة المذكورة حضرت فى العاشر من شهر ذى القعدة من السنة المذكورة مركب من مراكب القره قول العثمانى وأخبرت القبودان باشا ان دونمة الروسيا قامت من ميناء سواستوبول قاصدة جزيرة بيلان فأقلع فى الحال لمقابلة هذه الدونمة التى لم يسبق لها الظهور فى البحر الاسود مطلقا وسبب ذلك ان البرنس ناسوسيجن لما تولى قيادة أساطيل الروسيا بعد واقعة أوزى السابقة أحب منازلة العثمانيين ولما رأى القبودان الغازى حسين باشا مجىء الدونمة الروسية أخذ يصف أساطيله وأرسل البطرونه باشا وسفن الصناجق وخمسة غلايين لمقابلة العدو بجوار بيلان اطه (Serpent) المذكورة ورتب سفنه ترتيبا حربيا ووضع ثمانية غلايين تحت قيادة كل رئيس من رؤساء سفن الصناجق وأمرهم أن لا يفارق بعضهم بعضا ثم تقدم الطرفان ولم تفتر همة القبودان العثمانى عن الضرب والنزال بل تقدم بشجاعته وبسالته المعلومتين وأطلق مدافعه على سفائن العدو فأتلفت منها كثيرا ولاحت له علامات الظفر ثم تقدم البطرونه بسفينته واستولى على غليون روسى وغرق كثير من فرقاطات العدو من مدافع العثمانيين وظهر على الروس العجز والخذلان كل ذلك قبل وصول ما تأخر من سفن العثمانيين ولما رأى الاميرال الروسى قوة العثمانيين ومهارتهم فر بما بقى معه من السفن فتعقبه العثمانيون حتى سواستبول والتجأ الى ميناها محتميا بقلاعها وبعد ان حاصرت العمارة العثمانية سواحل تلك الجهات عدة أيام عاد بها القبودان باشا الى ميناء سنه (Sulina) عند مدخل نهر الطونة وعند وصوله شكل مجلسا حربيا لمحاكمة الذين أظهروا الجبن والخيانة فى هذه المحاربة فحكم عليهم بجزاآت قوية عقوبة لهم وعبرة لاقرانهم وطلب من الدولة مكافأة من أحسنوا الخدمة وسمى الغليون الذى أخذ من الروس فى هذه الواقعة باسم خداويردى (أى عطية الله) ثم حاكم عمر قبودان الكريدلى وحكم عليه بالصلب على طرف سران مركبه (السران طرف عود الشراع القائم على السارية) والخلاصة ان القبودان باشا وان كان فقد سفن الدونمة الخفيفة فى واقعة اوزى كما سبق الا انه انتصر على دونمة الروسية الجسيمة وعطل قواها بحيث اضطرها لان لا تتصدى بعد لمقابلة العثمانيين وبعد محاربة جزيرة بيلان هذه اهتم الغازى حسين باشا باصلاح ما أصابه التلف من سفن العمارة

وطلب

وطلب ارسال عساكر بدل الذين ماتوا أو جرحوا وبعض مراكب حربية خفيفة اما الجنرال سواروف فكان شيد فى خلال ذلك جملة استحكامات جهة قيل برون وهاجت الدونمة الروسية الخفيفة التى حضرت من نيقولايف تحت قيادة البرنس ناسو سجن قلعة أوزى وكانت تحت يد العثمانيين وكتب حسين باشا المذكور لاستانبول بأن ليس فى امكانه امداد القلعة المذكورة قبل ان تصله السفن الخفيفة ولما قرب فصل الشتاء وكان معظم سفن الدونمة محتاجا للاصلاح عاد الى استانبول بعد أن تمكن من إمداد القلعة المذكورة بخمسة آلاف جندى بمهماتهم الحربية وذخائرهم السفرية وبينما كان القبودان باشا مشتغلا بمحاربات الروسية تقدم الصدر الاعظم بالجيوش الى أدرنة وأحيل أمر الدفاع عن جهات الطونة على سرعسكر مدينة اسماعيل الصدر السابق شاهين على باشا ولما تعذر تقدم جيش الصدر الاعظم الى ودين أرسل بعض الفرق لامداد قومندانات أوزى وخوتين وبندر وكانت النمسا قد شيدت استحكامات فى مضيق مهادية لمحاصرة بلغراد ثم عبر الصدر قوجه يوسف باشا بجيوشه الطونة من جهتى ودين وبلغراد واستولى على بوغاز مهادية بعد ان قهر جيوش الامبراطور وكاد يأخذه أسيرا وأخضع جميع جهات بانجوه واستولى على نحو ثمانين مدفعا وعلى كثير من الآلات والادوات الحربية (١٢٠٢ هـ)

ولما رأى الامبراطور هزيمة جنوده عاد وترك على جيشه الجنرال لودين وبينما كانت الجيوش العثمانية منصورة على النمسا كانت الروسيا منصورة على العمارة العثمانية كما تقدم ثم تقدمت بجيوشها واستولت على بلاد بغدان وعلى كثير من القلاع والحصون كل ذلك ولم تبد دولة من دول أوربا التى وعدت الدولة بالمساعدة اعتراضا أو مساعدة وتكدر عموم الاهالى من المسلمين وتأثر السلطان جدا حتى انه لم يمكث بعد ذلك طويلا حيث توفى يوم ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) وجلس بعده ابن أخيه السلطان سليم خان الثالث وكان رحمه الله متصفا بالتقوى والورع شفوقا على الرعية ميالا الى اصلاح أمور الدولة حتى انه كثيرا ما كان يحرض الوزراء على ذلك ويساعدهم بما يصل اليه الامكان اذ ذاك

الفصل الثانى عشر

من جلوس السلطان سليم الثالث الى صدور خط الكلخانة

١٢٠٣ - ١٢٥٦ هـ

---

(٢٨) السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى خان الثالث

١٢٠٣ - ١٢٢٢

جلس هذا السلطان على التخت وعمره عشرون سنة وفى أول جلوسه وجه همته الى اصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية وأمر بجمع الجيوش من كافة الولايات فاجتمع لديه فى وقت

قريب نحو ١٥٠٠٠ مقاتل فى مدينة صوفية وكانت الاحوال السياسية مضطربة والحروب قائمة بين الدولة والروسية كما تقدم ذكره ومع اهتمام السلطان بذلك كان اليأس استولى على الجنود وترك كثير منهم النقط التى عهد اليهم حراستها

حركة الاساطيل فى الوقت المذكور — انه بعد ان أتم القبودان حسين باشا اصلاح سفن الاساطيل وأنجز لوازمها بحيث أصبحت الدونمة كاملة الأدوات والآلات عزل عن رياسة البحرية وعين بدله حسين باشا الكريدلى وتعين هو سرعسكرا على أوردى سلستره وقد نسب بعض المؤرخين عزله عن رياسة العمارة للخسارة التى لحقت بالدونمة الخفيفة وتأخره عن إمداد قلعة أوزى وعودته بالدونمة قبل الميعاد المعين مع علمه بما كانت عليه الاحوال فى البحر الاسود وزاد مؤرخو عصره مثل واصف وغيره ان عزله كان لاسباب أخرى نسبوها اليه ولكنها غير حقيقية وانما كان عزله عن الدونمة للتغييرات التى تحدث عادة عند جلوس كل سلطان جديد وكان أعظم وزراء ذلك العهد قام بعدة خدم مهمة أبقت له بين أعمال الوزراء ذكرا حميدا وقال المرحوم الشهير جودت باشا فى تاريخه عن الدولة العثمانية ان حسين باشا المذكور بعد تعيينه سرعسكر السلستره خدم هنالك خدما بيضت بها صحف تاريخه وكانت درة فى اكليل أيامه الماضية وأزمانه السابقة ثم ارتقى الى وظيفة الصدارة العظمى ثم اغتالته المنية فجأة (١٢٠٤ هـ) ولو كان للباشا المذكور غير الاعمال الحسنة لما توظف فى هذه الوظيفة السامية بل لما كان تعين بوظيفة أخرى بعد عزله عن الاساطيل على الغالب

وبينما كانت الدونمة العثمانية مشتغلة بالحروب المتواصلة بالبحر الاسود كانت مراكب قرصان الروسيا تمخر فى بحر الارخبيل حول جزيرة مورة تحرض الاشقياء على الثورة ضد الدولة العثمانية وتمدهم بالنقود التى تبرع بها كثير من أهالى الروم والروس فاشتروا بها الاسلحة والآلات الحربية ولم يكفهم ذلك بل تعدوا بالمضرة على الاهالى الخاضعين للدولة العثمانية وتعرضوا للسفن التجارية فصاروا يقبضون عليها وعلى من فيها ولهذا خرجت سنة ١٢٠٢ هـ دونمة عثمانية الى البحر الابيض مركبة من ١٨ سفينة بها عساكر بحرية تحت قيادة كوسه مصطفى باشا ومعه السيد على قبودان الشهير بالشجاعة والبسالة قومندانا للفرق البحرية التى حضرت من جزائر الغرب وتونس ولما وصلت هذه الدونمة الى جزيرة مرتد استولت عليها وكان الاشقياء اتخذوها مركزا لاعمالهم ثم تقابلت الدونمة بعد أيام بأساطيل الاعداء وبعد محاربة شديدة استمرت نحو سبع ساعات أظهرت فيها أساطيل أهل الجزائر شجاعتهم المشهورة حملوا على سفن الاعداء فاستولوا عليها بعد قتال عنيف وكان الجزائريون سلطوا مدافعهم على سفينة قبودان الاشقياء المدعو لامبرو فاغرقوها بعد زمن قليل الا أن القبودان نجا من الغرق بنزوله فى مركب صغير وفراره من حومة القتال واتبعته السفن الباقية له ثم ان أساطيل العثمانيين اقتربت من قلعة الجزيرة المذكورة وبعد ان دمرتها أخذت ما بها من المدافع والذخائر واستولت أيضا على سفينتين كانتا داخل الميناء بهما ذخائر وآلات باعوها وفرقوا ثمنها على الضباط والجنود الذين بالدونمة

محاربة نخل برون البحرية — انه فى أواسط رجب من سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) خرج

القبودان

القپودان حسين باشا المذكور بالدونمنا وكانت مشكلة من خمسين سفينة بين كبيرة وصغيرة الى البحر الاسود ولما وصلت الى ثغر سنه (Sulina) تركت به ماهعها من السفن الصغيرة ثم أقلعت تقصد كيرچ (Kerch) الكائنة بقرب تخل برون وهناك تقابلت مع الدونما الروسية وكانت مركبة من خمس غلايين و ١٦ فرقاطة ولما اشتبك القتال بين الطرفين تمكن طوبجية العثمانيين من تعطيل أربع فرقاطات روسية ومع ذلك فلا زالت الحرب قائمة باطلاق المدافع مدة سبع ساعات متوالية ولم يمنعها الا دخول الليل وكانت الخسائر من الطرفين عظيمة وفر الروس ليلا الى ميناء كفه (Kaffa) فعادت الاساطيل العثمانية الى ثغر سنة ثانية التى خرجت منه وبعد ان أصلحت من شأنها خرجت فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة لاقتفاء أثر العدو بمياه هوجه بك أو أوديسا وهناك أخبرتها سفينة عثمانية من سفن القرهقول أنها رأت الدونما الروسية المشكلة من سبع وثلاثين سفينة حربية قامت من جهة رأس قيل وهى تقصد هذه الجهة فاخذت الدونما العثمانية حذرها وكانت الرياح اذ ذاك شديدة تهب من الجنوب الشرقى فكانت تسوق مراكب العدو وتساعدها بقدر ما كانت معاكسة للسفن العثمانيين المواجهة لها فامر لذلك القپودان العثمانى سفنه بنشر الشراعات والابتعاد عن الشاطئ وقبل الزوال ببرهة صغيرة تقابل الدونمتان وابتدأت بينهما الحرب باطلاق المدافع وقد أحدثت سفينة القپودان العثمانى ببعض سفن الروس خسائر وافرة وفقد الروس فرقاطتين ولما أقبل الظلام افترق الدونمتان عن بعضهما وقامت فى الليل زوبعة شديدة اضطرت سفن الروسيا لترك ميدان القتال واستقبلت فى مكان قريب أما الدونما العثمانية فانها تفرقت عن بعضها وبقى القپودان الثانى بسفينته فى معترك القتال بمفرده وعند الصباح هجمت عليه سفن الروسيا واحتاطت به من كل جهة ومع ذلك تخوفا من أن يرمى بالجبن استمر يقاتل بمفرده بكل جهد وشرف حتى آخر رمق من الحياة ثم مضى شهيد الصداقة والاخلاص ومات غالب من كان معه من الجنود وعند ذلك أضرم أحد رجال تلك السفينة النار فى مخزن بارودها فاحترقت وطارت قطعا وأغرقت السفينة الروسية التى بجانبها وكانت الدونما العثمانية ظهرت فى تلك الاثناء وأرادت نجدة سفينة القپودان الا أنه لم يمكنها ذلك لبعد المسافة ومخالفة الريح لها ولما رأت ما وقع لهذه السفينة كبر عليها ذلك وتوجه بها القپودان الى جهة كليغراد واستقبل قريبا من الساحل وأرسل خبر وقائع هذه المحاربة للاستانة والتمس التصريح بعودة الدونما لاحتياج معظم سفنها للاصلاح فلما أجيب طلبه أقلع الى الاستانة

ولما خرجت الدونما العثمانية بعد ذلك الى البحر الاسود سنة ١٢٠٥ (١٧٩٠) قابلت العمارة الروسية بجهة اناپا وكانت مؤلفة من ٤٢ سفينة وكانت تقصد سواستبول فاستعدت الدونما العثمانية لمنازلتها الا أن الاميرال دخل ميناء سواستبول ثم قصدت العمارة العثمانية كليغراد واستقبلت أمامها وظهر بعد ذلك ان الروسيين كانوا ينتظرون حضور الغلايين التى جددوها لتقوى دونماتهم ولما التحقت بهم خرجوا من الميناء وقصدوا محاربة الدونما العثمانية ولما شاهد القپودان باشا قدومهم عليه خرج بسفنه لملاقاتهم وكان ذلك أول يوم من عيد الاضحى من السنة المذكورة وحل البطرونه السيد على بفرقته على مراكب الروس ودخل وسطها مع ان القپودان باشا كان حذره من الهجوم بهذه الكيفية لعدم مطابقتها الاصول فن الحرب البحرى فى

ذلك الوقت ولذا كان هجومه هذا سببا لوقوع سفن فرقته وسط نيران سفن العدو ومع ذلك فانه ألحق بالاعداء خسائر هائلة ثم تقدمت بقية السفن العثمانية المتأخرة وحملت على مراكب الروسيا من الجانبين فانقذت سفن السيد على من الاخطار المحدقة بها ولم تشترك جميع السفن العثمانية فى هذه الواقعة لعدم مساعدة الريح لقسم عظيم منها عن التقدم فى ذلك اليوم ولهذا كان عدد سفن العثمانيين التى حضرت الواقعة لا يتجاوز ١٥ سفينة ولهذا لحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ولما دخل الليل انفصل الدونمتان عن بعضهما وسحب كل من الطرفين مراكبه المعطلة وباتوا الليل وهم يهتمون فى اصلاحها وفى صباح اليوم التالى لما شرعت الدونما العثمانية فى أخذ الاهبة للقتال امتنع البطرونه عن ان يشترك معها وأخذ سفنه التى لحقها التلف وقصد استانبول وأراد القبودان منعه فلم يلحقه أما القبودان فانه أخذ فى اصلاح سفنه وكانت خسائر الدونما الروسية كثيرة أيضا ولما شاهد الروسيون تفرق الدونما العثمانية وانه لم يبق امامهم سوى القبودان باشا قربوا من رأس أمينه لاصلاح ما تصدع من سفنهم وأحرقوا الغلايين التى أصبحت غير صالحة للقتال وكان فى نية القبودان مهاجمة عمارة الروسيا الا أن الرياح لم تساعده على انفاذ مقاصده واضطرته للعودة الى استانبول ولما بلغ الاهالى حضور الدونما بهذه الكيفية تأثروا وتكدروا من ذلك جدا وأمر السلطان بعدم دخول الدونما الى استانبول بل رسم بوقوفها فى فم البوغاز وقد علم من التقرير الذى قدمه القبودان ان الذين ماتوا فى هذه المحاربات كانوا ألف نفر وجرح ثلثمائة ولما مثل القبودان باشا امام السلطان لامه كثيرا وبخه وأظهر الكدر منه ومن أعماله

الوقائع البرية ومعاهدة ياش – لما جمعت الدولة الجيوش وجهزتها بما يلزم عهدت بقيادتها للصدر الاعظم يوسف باشا فتقدم وتقابل مع جيوش الروسيا وكانت متسلطة على اقليم بغدان وانتشب بينهما حرب شديدة انتهت بانهزام الصدر الاعظم واستولى الروسيون على أكثر ما معه من المدافع والآلات وأخضعوا عدة جهات فعزله السلطان ووجه منصب الصدارة الى كتخدا حسن باشا وبعد ان استعد هذا الصدر خرج (١٢٠٤ ﻫ) بجيش عظيم وحارب الجيش الروسى الذى كان تحت قيادة الجنرال بوتمكين فكسره بجوار قلعة اسماعيل فكان هذا الانتصار تعويضا للخسارة التى لحقت بالعثمانيين فى الواقعة الاولى الا أن فرقة روسية هاجمت أقكرمان (Akkermann) واستولت عليها واستولت جيوش النمسا أيضا على بلغراد ففقدت الدولة بذلك جملة قلاع أخرى وعزل الصدر الاعظم ووجهت الصدارة الى حسين باشا الجزائرى (١)

(١) حسين باشا هذا أصله من القبائل التركية النازلة بحدود ايران وكان أحضر للاستانة أسيرا ضمن أسرى الحرب وتربى فى منزل أحد الاعيان بتكفور طاغ ولما بلغ أشده تطوع مع طائفة احدى مراكب التجار ليله للاسفار واقتحام الاخطار ولما وصل الى بلاد الجزائر بالمغرب أظهر من الشجاعة والاقدام ما جعل والى الجزائر يبقيه فى خدمته فتحصل فى زمن وجيز على وظيفة رئيس لميناء الجزائر وكانت من الوظائف الخطيرة فى ذلك العهد ثم وقع بينه وبين شجعان الجزائر بين بعض حزازات ومنافسات تسبب منها فراره الى ايطاليا خوفا على نفسه ثم ذهب منها للاستانة وتوصل بجده ونشاطه حتى صار من أمراء البحرية لدى الدولة وحظى بحسن التفات الوزراء والسلطان وعنايتهم به فى زمن قليل سيما عندما أظهر من البسالة العجيبة والاقدام الغريب فى واقعة جشمة المتقدمة التى أصيب فيها وان ما أظهره من المهارة فى استرداد قلعة لمنى من يد الروس لجدير بتخليد ذكره واعلاء شأنه وهى الفعلة التى نال بسببها الوزارة ثم

الملاح الشهير الذى لما ذهب الى مواقع القتال عاقب قواد مدن بندر واقكرمان وغيرهما لعدم مدافعتهما كما يجب عن هاتين المدينتين ولما مات هذا الصدر الشهير بل البطل الكبير فجاءة خلفه فى الصدارة حسن باشا الروسجق وفى هذه السنة عقد الصلح بين الروسيا والسويد لان غوستاف الثالث ملك السويد كان أعلن الحرب على الروسيا لما اشتبكت فى القتال مع العثمانيين وبينما كانت الدولة مهتمة بتجهيز الجنود ومداركة المعدات الحربية لمقابلة خصميها القويين مع ما كانت عليه من ضيق المالية وتقهقر القوة الحربية حدث حادث مهم وهو موت الامبراطور يوسف الثانى ملك النمسا فجاءة وخلفه أخوه ليوبولد دوق توسكانه وبمجرد ان قبض على صولجان الملك حول وجهه عن سياسة سلفه وعقد مع الدولة صلحا عاجلا (١٧٩٠ م) بمدينة زشتوة وكان ذلك سببا لاندهاش الباب العالى ورد للعثمانيين البلاد التى فتحتها جنوده ماعدا أورسوه والبلاد التى يحدها نهر اونا (Unna) وأبقى فى يده أيضا مدينة خوتين لحين عقد الصلح بين الدولة والروسيا كل ذلك ليتفرغ لاعمال فرانسا التى كانت تعد اذذاك المشنقة لملكها لويز السادس عشر ثم سعت أوروبا بالعقد الصلح بين الدولة والروسيا الا أن كترينة أظهرت عدم الرضا فاستمرت جيوشها تحارب العثمانيين ثم تقدم الجنرال سواروف وحاصر قلعة اسماعيل الحصينة وكان بها نحو ثلاثين ألف مقاتل وبعد ان شدد الروس عليها الحصار وقطعوا عنها المواصلات والاقوات والذخائر هاجموها واستولوا عليها بعد مقاتلة عنيفة وقتلوا غالب حاميتها وسكانها بكيفية فظيعة وحشية بلا فرق بين الرجل والمرأة والطفل والشيخ ودام القتل بالمدينة ثلاثة أيام بلياليها ولما بلغ خبر سقوطها دار الخلافة هاجت الافكار

صار قبودان باشا ومحافظا للبوغاز حسبما ذكرنا ولما ترأس على البحرية بذل غاية ما يمكن من الهمة فى تقوية بحرية الدولة وانشأ كثيرا من السفن وأصلح أحوال الطوائفها ورتب قوانين الجزاآت لعدم مناسبتها أحوال ذلك الوقت ومازال معززا مكرما من الجانب مسموع الكلمة حتى وفاته وان ذكاءه الطبيعى وقوة دراكته قد صيراه قادرا على فهم اجراء المنافع الكثيرة العامة حالة كونه لم يتضلع من غوامض الفنون البحرية ولا توغل فى دقائقها ومن ضمن هذه المنافع أن أوجد محلات للتعليم فصير عموم أهل السواحل يميلون لانخراطهم فى سلك المراكب البحرية العثمانية ومنها أن جعل صناعة المراكب الحربية مطابقة للترقى والتقدم الذى حدث فى بحريات الدول عموما ومنها ان اهتم بتربية الضباط وتقدمهم فى الفنون والعلوم البحرية ومنها أن نظم ملبوسات العساكر البحرية ووضع جميع ما يختص بهم تحت روابط ونظامات فى غاية الضبط ومنها ان استخدم بدار الصناعة أحد الصناع البحريين من الانكليز وبعادره صارت المراكب أسرع سيرا وحركة وحسن منظرها داخلا وخارجا وصارت أزمتها (آلة شراعها) خفيفة سهلة الاستعمال ومنها ان كثر عدد الغلايين فى زمنه حتى وصل الى أربعين غليونا حربيا ومنها انه قدم تقريرا للسلطان يطلب به انشاء مائة غليون للمحافظة على سواحل الدولة فاجيب طلبه ومنها انه استخدم كثيرا من الملاحين المتدربين على الاسفار والتجارة البحرية ممن سبقت لهم خدامات فى اوجاقات الجزائر وولايات الغرب من أتراك وأرمن وأروام وخلافهم وجعلهم معلمين يعلمون الجنود الحديثة ومنها أنه بنى ثكنة بحرية بجهة قاسم باشا لاقامتهم وغير ذلك من الاعمال النافعة ومع مباشرته هذه الاعمال كلها كان يخرج بالدونمانما فى فصل الصيف للتعليم والمأموريات البحرية ثم يعود للاستانة فى فصل الشتاء كالمعتاد ومن تمام أعماله الجليلة واجرآته الجميلة انه تمكن (١١٨٩ ه) من تسكين العصيان الذى أشعلت ناره الروسيا فى جهات مورة والشام ووقع أيضا أحد أمراء الغز على بك الملقب بلوط قابان الذى ثار على الدولة وكذا من التف عليه من أمراء المصريين الذين استمروا على ظلم الاهالى وترادفت فى حقهم الشكاوى ولما وصل الى شواطئ مصر ودخل بسفنه الصغيرة من فم رشيد قهر الامراء المذكورين بجوار بلدة الرحمانية وبدد شملهم واستمر فى القطر المصرى يمهد أموره ويشتت ثواره الى ان طلب الى دار الخلافة عند ظهور الحرب بين الدولة والروسيا

وطلب الناس قتل الصدر الاعظم القائد العام للجيوش فى الروملى لاهماله أمر المدينة المذكورة فقطع رأسه فى شمنى ونقل الى الاستانة وأعيد يوسف باشا للصدارة والسرعسكرية وأخذت الدولة تجمع جنودا جديدة وبعد سقوط اسماعيل عبر الروس نهر الطونة وأخذوا يقاتلون العثمانيين بالروملى ثم توسطت انكلترة وبروسيا والنمسا وألزموا الروسيا بعقد الصلح مع الدولة فعقدت المعاهدة (١٢٠٦ - ١٧٩١) بمدينة ياش (Yassy) بشروط منها أن ترد الروسيا للدولة العثمانية كل الاماكن التى فتحتها ما خلا أوزى أو أوكزاكوف والاراضى الواقعة بين نهرى بوغ ودنيستر وتترك الدولة القريم وشبه جزيرة طمان وبلاد قوبان وبساربيا الى الروسيا وأن يكون بوغاز سنه حدا فاصلا فى أوروبا بين الدولتين وصدق السلطان سليم الثالث على المعاهدة المذكورة فى ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٠٦ هـ (١٠ يناير ١٧٩٢ م)

العمارة العثمانية فى البحر الابيض — انه فى خلال الحروب السابقة ظهر شخص من الاشقياء يدعى صوتيرى وكان من عمال الروسيا الذين يحركون العصيان بين سكان شبه جزيرة مورة وكان الروم والروس جمعوا له مبالغ وافرة مكنته من انشاء ١٢ سفينة بمدينة تريستة وجمع بها بعض الاخلاط من روم جزائر الارخبيل وجعل على هذا الاسطول لامبرو اللص البحرى الشهير فسار بهذه العمارة يحمل علم الروسيا البذر الفساد فى جزائر الارخبيل ومورة وأخذ يسطو على جهاتها ويبث الفتن بين أهاليها ولما تم أمر الصلح بين الدولة والروسيا أرسلت الدولة عمارتها تحت قومندانية كوجك حسين باشا الى بحر الارخبيل فتقابلت بسفن اللص المذكور بقرب جامليجه ولما حمل عليها القبودان لم تبد أقل مقاومة بل أسرعت الى الشاطئ وخرج منها الامبرو والمذكورو أعوانه ولجؤا الى الفرار بعد ان غرزوا مراكبهم فى الصخور وقد تمكن القبودان باشا من القبض على بعضهم وقتل البعض ثم سارت الدونمة لتسكين الاضطرابات بالجزائر المذكورة فتلاقت بفرقة أخرى من سفن لامبرو وهذا بقرب رأس مانيه وأسرت جميع من بها وكانوا يحاولون النزول الى البر ولما كان العصيان القائم مقلقا للدول الاخرى ألحت بواسطة سفرائها لدى الباب العالى باجراء الوسائل اللازمة لاعادة السكينة والراحة فاهتمت الدولة بذلك جدا حتى أرجعت الطمأنينة الى تلك الجهات فى أقرب وقت

التنظيمات الداخلية — لما جلس السلطان سليم الثالث على تخت السلطنة أظهر ميلا شديدا ورغبة زائدة فى اصلاح أحوال الدولة وانهاضها من ورطتها بادخال عناصر الترقى والتمدن الحديث فأخذ فى اخراج الدولة من عزلتها العقيمة وادخالها ضمن دائرة التجديدات المفيدة والتحسينات المهمة التى حصلت باوروبا وهو عمل من أشد الاعمال خطرا وأصعبها سيما فى بلاد لم تشرف ولو بعض اشراف على المدنية الاوروباوية فلم يوفق لذلك لامر يعلمه الله وكانت نتيجة مسعاه أن خلع وقتل وكان أول أعماله ان أظهر الرحمة والشفقة والكرم واجتهد فى تعميم العدالة بالمحاكم وقد قابل كثير من الاهالى هذه الاعمال بالفرح والمسرة خصوصا وان قعود سلطان شاب نشيط متصف بشريف الخصال ومحمود الفعال على سرير الخلافة جعل الامة تبتهج وتتعشم خيرا فى المستقبل ولما تم الصلح بين الدولة والنمسا عين للقبودانية العامة كوجك حسين باشا وكان من

اعظم

أعظم الرجال الذين تولوا المناصب فى الدولة وقد أثنى عليه ومدحه كثير من رجال أوروبا وكان من أوائل أعماله طرد عمال الروس من جهات بحار اليونان والبحر الابيض المتوسط وتحصين الحدود وتسليح قلاعها وشحنها بالعساكر والمعدات الحربية واستخدم أيضا عدة مهندسين من السويد وفرانسا ووجه عنايته لتقوية العمارة وترتيب مدرسة البحرية والطوبجية ووظف بها ضباطا من الفرنساويين وأمر بطبع عدة مؤلفات معتبرة فى الفنون الحربية والرياضية وانشاء دار كتب بها أربعمائة مؤلف من أحسن المؤلفات العسكرية الفرنساوية وأمر أيضا بادخال بعض دروس اللغة الفرنساوية بالمدرستين المذكورتين وبأمره شيدت عدة مبان كثيرة وأساطيل حربية على الطرز الجديد وغيرت مقذوفاتها فجعلت على الطرز الروسى وسن للبحرية عدة قوانين ونظامات مضبوطة جعل بها لكل سفينة قبودانا خاصا وجعل للسفن الصغيرة ضباطا صغيرين ومنع عزل الضباط مالم يصدر منهم مايوجب عزلهم وعين شروط توظيف الضباط وترقيهم فى الوظائف فجعله بحسب الاقدمية والاستعداد وزاد فى مرتبات الضباط وقسم دار الصناعة الى مخازن للمهمات وورش للصنائع بحيث صير كل مأمور مكلفا بعمل خاص لايتعداه لغيره وسن قانونا خاصا للمرتبات والعلوفات فصار كل نفر من الجنود يأخذ تعيين ستة شهور على الاقل دفعة واحدة وجعل للعساكر الحق فى ترك بعض هذه التعيينات لعائلاتهم بحيث لم تأت سنة ١٢٠٩ هـ الاوكان للدولة عمارة قوية منظمة تشتمل على أضخم السفن وامتنها وأقوى المدافع وأحدثها وغير ذلك من الاصلاحات العديدة

ولما رأت فرانسا اهتمام الدولة بادخال الاختراعات العسكرية بين جيوشها أحضر سفيرها المسيو أوبرد وبايت (Aubert du Bayets) عند مجيئه الى استانبول عدة من مهندسى الفرنساويين وضباطهم ومعلميهم لكل الاسلحة وجلب أيضا عساكر وصناع المدافع وحتى بعض المدافع مركبة على عجلها وبهذا العناصر شكلت الدولة طائفة مركبة من ثمانمائة من الطوبجية ونظمت فرقة أيضا من الخيالة سلحوها وعلموها على الطرز الاوروبى وأوجدت أيضا أورطة من البيادة فكانت هذه الطوائف جرثومة للعسكر الجديد (١٢١١ هـ - ١٧٩٦ م) الذى جعل تحت قيادة انكليز مصطفى باشا وأصله ضابط انكليزى وكان الروسيون ينظرون لهذه التجديدات بعين الحسد والغيظ فكانوا يسعون جهدهم فى ايجاد الاسباب للاخلال بمعاهدة ياش المذكورة وبينما كان السلطان ووزيره يجتهدان فى ترقية شأن النظامات اذ ثار أحد ضباط الجنود المدعو بازوند أوغلى عثمان أغا وبعد ان التف عليه كثير من أمثاله تمكن من طرد والى ودين وضبط حوالى تلك المدينة (١٢١٢ هـ) فجردت عليه الدولة جيشا تحت قيادة القبودان كوجك حسين باشا وبعد عدة وقائع كان الحرب فيها سجالا بين الطرفين انتصر القبودان باشا ثم عفا السلطان عن بازوند أوغلى المذكور وعينه محافظا لودين

وأخذ السلطان بعد ذلك يدخل الاصلاحات الجديدة فى كافة فروع الادارة ولكن الصدر الاعظم حافظ اسمعيل باشا الذى خلف يوسف ضيا باشا كان يظهر انه ممن يميلون للتنظيمات الجديدة ويقدر ونها قدرها الاانه كان يكرهها فى الباطن فاكتسبت بذلك الطائفة المخالفة لها قوة وحدث من ذلك واقعة أدرنه الآتية وسببها ان الدولة أرادت بث التنظيمات الملكية والعسكرية بجهات

الروملي فارسلت لذلك والى قونية عبد الرحمن باشا المشهور بالقاضي وأمرته في الظاهر بالتنكيل باشقياء الصرب وفي الباطن بالقيام باجراء الاصلاحات كما رسمتها له (١٢٢١) ولما بلغ أعيان الروملي ذلك توجسوا خيفة واتفقوا جميعا واجتمعوا في أدرنة لمنعه بالقوة فلما أشيع خبر ذلك أشارت رجال الدولة بلزوم عودة الباشا المذكور وكانوا غير مصيبين في رأيهم فاعادوه الى ولايته وعند ذلك تفرقت أعضاء تلك العصابة الى بلادهم وقد اشتهرت هذه الواقعة في التاريخ العثماني بواقعة أدرنة الثانية

حملة نابليون بونابارت على الديار المصرية (١٢١٣ ﻫ) — لما أرادت الجمهورية الفرنسوية الاستيلاء على مصر لمعاكسة التجارة الانجليزية بجهات الهند أوعزت الى نابوليون بونابارت بالاستعداد لذلك وان يكون هذا الامر في السر خوفا من اطلاع انجلترة عليه فقابل هذا الامر بالسرور والارتياح لانه هو الذي حرض مجلس الامة على ذلك وبين له فوائد هذا المشروع العظيم

ولما أخذ نابليون يجهز الاساطيل البحرية في ترسانة طولون تطلعت الدول عموما وشخصت بانظارها اليه لمعرفة الجهة التي يقصدها بهذه العمارة العظيمة ولما علموا أن ترسانة طولون تستخدم اناسا لهم المام بالعربية علموا ان مقصده من هذه الاستعدادات الاغارة على الاقطار المصرية سيما وان حركات الوكيل السياسي الفرنساوي بالاستانة كانت تؤيد ذلك فالتزمت الدولة العلية بمداركة الامر باتفاقها مع الدول المعادية لفرانسا المناظرة لها في حب الاستعمار ولما خرجت الدونما الفرنساوية من طولون (١٧٩٨ م) كان أول أعمالها في طريقها مهاجمة جزيرة مالطة والاستيلاء عليها وفي تلك الاثناء كان القبودان العثماني شرمت بك الكريدي الذي عينته الدولة بفرقة من العمارة لمراقبة حركات دونما فرانسا أرسل مكتوبا أخبر فيه بان نابليون بونابارت لم يقصد بهذه الحركة مع جسامة عمارته وقوتها فتح جزيرة مالطة فقط بل انه جعلها في طريقه محطا القواه ومن المحتمل انه بعد ذلك يهاجم الاقطار المصرية وقد كانت حالة الدولة في ذلك الوقت مرتبكة جدا للاضطرابات الداخلية واجتهاد اليونان والصرب في نوال استقلالهم وعصيان حكام الاقاليم مما جعل أوروبا تعتقد ان في ذلك محو السلطنة العثمانية أما انكلترة فانها انتهزت فرصة حركة نابليون على الديار المصرية ومالت الى الدولة العلية بكليتها ساعية في قطع العلائق القديمة الموجودة بين الباب العالي وفرانسا ولم يتمكن القائم باعمال فرانسا اذ ذاك بالاستانة وهو الموسيو روفين (Ruffin) من إقناع الباب العالي بشيء يجعله يرفض نصائح انكلترة فقرر الوزراء اعلان الحرب على فرانسا وقبض على روفين المذكور وسجن كالعادة بقلعة يدي قله وخرب العثمانيون مخازن التجارة الفرنساوية التي ببلاد اليونان وسورية والاناضول وقبضوا على تجارهم الذين بازمير وبيروت وغيرهما ولما بلغ انكلترة قيام العمارة الفرنساوية من طولون أرسلت ١٤ سفينة جسيمة تحت قيادة الاميرال نلسون لمراقبة حركاتها ونظر ما يكون من أمرها وما يحدث عن شأنها وعندما استولت الدونما الفرنساوية على مالطه التي هي النقطة المهمة الوحيدة في وسط البحر الابيض المتوسط والتي تعتبرها الدول البحرية مركزا للتجارة اندهشت انكلترة لذلك ولما بلغ الدولة العثمانية قيام الدونما الانجليزية أصدرت أوامرها لجميع ولاياتها بمساعدتها عند مرورها ومداركة ما يلزمها من

المآكل والمشارب وخلافهما من سائر الحوائج وفى ١٢ محرم سنة ١٢١٣ (١٧٩٨ م) مر الاميرال نلسون بعمارته على ميناء الاسكندرية يبحث عن العمارة الفرنساوية فلما لم يجدها أخبر حكام الاسكندرية بخروج مراكب الفرنسيس تقصد الديار المصرية وأعلمهم انه مستعد لمساعدتهم فتوهموا أن ذلك خدعة من الانكليز فلم يعبؤا بقوله ثم بارحهم للبحث على الفرنساويين بالسواحل السورية

وفى اليوم السابع عشر من الشهر والسنة المذكورين وصلت الدونمنا الفرنساوية الى الاسكندرية وذهب القبودان ادريس قومندان الفرقاطة العثمانية المسماة عقاب بحرى المعينة للتجول بالمياه المصرية الى الدونمنا الفرنساوية المذكورة ولما رآه نابليون قال له بنفسه انى لم أحضر لضرر أحد هنا وانما أنا متوجه لتخليص الاقليم الهندى من أيدى الانكليز أعدائنا وانى على فرض انى عدو للدنيا بتمامها فانى محب للعثمانيين ولذلك انصحكم بان لا تتصدوا للمدافعة اذ أنه لا يجوز ولا يتصور عقلا انكم تقاومون أربعمائة سفينة حربية فلما سمع منه القبودان هذا الخطاب لم يجاوبه بشئ أصلا ولما علم نابليون بحضور الدونمنا الانكليزية قبله بثلاثة أيام بادر باخراج عسكره الى البر ولم يتجاسر على دخول الميناء لظنه ان قلاع الاسكندرية ربما كانت قادرة على المدافعة وأخرج فى الليل خمسة آلاف جندى وهجم بهم صباحا على المدينة فاستولى عليها بلا مقاومة تذكر

وكانت الدونمنا الفرنساوية واقفة تحمل جيشا كبيرا من ثلاثين ألف مقاتل ولما استولى على المدينة أدخل كافة المراكب الصغيرة الى الميناء وأخرج جميع عساكر الجيش الى البر أما المراكب الحربية الجسيمة التى لا تقف الا فى المياه العميقة فانها ذهبت الى أبى قير واستقبلت هناك وكان فى ذلك الوقت بميناء الاسكندرية مركب يونانى تجارى ولما رأى عمارة الفرنساويين أقلع خوفا من وقوع الحرب وبينما كانت هذه المركب قريبة من رودس عند عودتها قابلتها سفينة من سفن العمارة العثمانية التى خرجت للوقوف على حركات وحوادث العمارة الفرنساوية ولما استعلمت منها أخبرتها بما قدرأته بميناء الاسكندرية وما حصل فيها من الفرنساويين فعادت السفينة العثمانية وأخبرت أميرالها بما قد سمعت فأرسل القبودان ذلك الى استانبول فى الحال وكان قبودان باشا الدونمنا العثمانية اذ ذاك كوجك حسين باشا يقاتل باسيان أوغلى كبير أشقياء الروملى بودين كما تقدم ولما وصل خبر استيلاء الفرنساويين على ثغر الاسكندرية الى الاستانة حصل بها هرج واضطراب شديد واندهاش عظيم وتغيرت بسبب ذلك الافكار وكثرت الاقاويل وزادت الارجافات وفى أول شهر ربيع الاول من السنة المذكورة (١٧٩٨ م) عاد الاميرال نلسون الى ثغر الاسكندرية وعلم ان الدونمنا الفرنساوية راسية بخليج أبى قير البعيد عن الاسكندرية بنحو عشرين ميلا بحريا فأقلع بعمارته يقصدها وكانت الدونمنا الفرنساوية مركبة من ١٤ غليونا وأربع فرقاطات تحت قيادة الفيس أميرال برويس (Brueys) وهو مستقبل بها على خط واحد قبالة جزيرة أبى قير وجاعلا المسافة بين السفينة والاخرى ١٦٠ ياردة على طول ميلين تقريبا فاقترب نلسون بعمارته وكانت مركبة من ١٢ غليونا وفرقاطتين ورتبها ترتيبا حربيا جاعلا بين كل سفينة وأخرى ١٦٠ ياردة أيضا بحيث كانت كل سفينة من سفنه مقابلة لسفينة فرنساوية

ولما أخذت كل سفينة موقعها استقبل الاميرال نلسون بسفينته أمام سفينة الاميرال

الفرنساوى المسماة أوريانت وهى من الاوج انبارلى ويسميها مؤرخو الشرق نصف الدنيا ولما رأى الفرنسويون أن حركة سفن الانكليز تمت بكل جسارة استولى عليهم الفزع والاضطراب وما كادت هذه الحركات تتم حتى قامت الحرب بين الدونمتين وأخذت السفن ترسل قنابلها من أفواه مدافعها على بعضها وكان بالدونمتين ألفى مدفع تطلق طلقاتها متتابعا وتقذف قذفاتها متواليا فكانت أصواتها تدوى بالافق بحيث يخال السامع أن السماء انشقت والارض خسفت والجبال نسفت وقد استمرت الحرب بهذه المثابة ساعتين من الزمان وفى نهايتهما أصيب الاميرال نلسون بجرح فى رأسه فعصبها بمنديل ولما زال منه الاغماء عاد الى موقعه الاول كما كان وقد قويت السفن الانكليزية على خصيمتها ودمرت منها عدة ولم تأت الساعة الثامنة بعد الزوال الا والنار قد اشتعلت بسفن الفرنساويين فصيرت ظلام الليل الحالك نهارا وارتفع اللهب والدخان الى عنان السماء وكان الاميرال بروبس الفرنساوى أصيب بجرحين فى الساعة الاولى من القتال وبينما كان ينزل من سطح الكمبانة الى سطح الكورتة أصابه مقذوف من مدافع الانكليز فشطره شطرين وكذلك أصيب القمادور الفرنساوى المسمى كازابيانكا (Casabianca) بجروح هائلة مات بسببها فى الحال وقد أتلفت مدافع الانكليز كثيرا من سفن الفرنساويين وكسرت سواريها وشراعاتها وألحقت بها الخسائر الفادحة من كل نوع

ولما احترقت السفينة أوريان المذكورة ووصلت النار الى مخزن بارودها تفرقعت وطارت قطعا فى الجو ولما شاهد نلسون ذلك أمر بحارته بتخليص بحارة الفرنسويين فلم يمكن الا تخليص البعض منهم وكانت خسائر الفرنساويين فى هذه الواقعة لا تدخل تحت حصر واستولى الانكليز منهم على تسعة غلايين وتمكن غليون وفرقاطتان وأربع سفن من نوع القرويت من الهرب أما باقى سفن العمارة فانها احترقت بتمامها ولما وصل خبر احتراق الدونمة الفرنسوية ومحاصرة الانكليز للاسكندرية الى معسكر الفرنساويين بمصر حصل به اضطراب زائد وخوف شديد

وكان الفرنسويون الحوا على القبودان ادريس سوارى الفرقاطتين العثمانيتين الراسيتين بثغر الاسكندرية أن يرفع فوق سفينته العلم الفرنسوى فلم يقبل ثم اضطروه أخيرا للخروج من ميناء الاسكندرية فاقلع منها مع السفن التجارية العثمانية التى كانت بالميناء وعددها ثلاثين ولما أحاطت السفن الحربية الانكليزية بالسواحل المصرية انقطعت الامدادات عن نابليون فكان يتفكر دائما فى مصير حاله ويقول فى نفسه اذا لم يتقو جيشى بعساكر جديدة كانت نتيجة هذه الحملة هباء منثورا وكان دائم التفكر فى هذه المباحث وفى الطريقة التى بها يتخلص من الاقطار المصرية بشرف وسلامة

ولما علمت الدولة ما أصاب الفرنساويين فى أبى قير أرسلت تهنئ الاميرال نلسون وتشكره على عمله ولما وردت تفصيلات واقعة أبى قير من انكلترة لوكيلها السياسى بالاستانة وأبلغها للباب العالى ألبسته الدولة فروة سمور فاخرة طبق عوائدها وأحسنت على الاميرال نلسون بعقد جوهر ثمين وأرسلت الفى ليرة عثمانية لتوزع على جنود الدونمة الانكليزية ولما وصل العقد الجوهر الى الاميرال نلسون صور نفسه وهو لابسه وقدم تلك الصورة الى السلطان ولا تزال هذه الصورة محفوظة

الى الآن ضمن أمتعة الخزينة العثمانية وقد طبعت جريدة الغرافيك الانجليزية هذه الصورة بأحد أعدادها سنة ١٨٨٩ م وكانت فرانسا لما اتحدت مع النمسا قبل ذلك وأزالتا جمهورية البنادقة بمعاهدة كامپوفورميو (١) (١٢١٢ هـ - ١٧٩٧ م) استولت على الجزائر السبع اليونانية الكائنة ببحر الادرياتيك وعلى خمس جهات أيضا بالساحل وهى (بروزه) و (كومانيجه) و (برغه) و (ونيجه) و (بوتربنتو) واستولت النمسا على عدة جهات من ممالك البنادقة أيضا فلما أغار الفرنساويون على البلاد المصرية وبعد واقعة أبى قير التى تقدم ذكرها أمرت الدولة العثمانية والى يانيه تبه دلنلى على باشا بأن يسترد كافة الجهات المذكورة من يد فرانسا عقابا لها على ما فعلته معها من الخيانة ولما تم الاتفاق بين الدولة العثمانية وسفير الروسيا مسيوطمارا وسفير انكلتره على منازلة الفرنسيس سوية شكلت الدولة أسطولا خفيفا مؤلفا من سفن عثمانية وروسية جعلته تحت قيادة مرابط زاده حسين باشا الرودسى وأرسلته الى مياه الاسكندرية لمهاجمة أسطول فرنسا الصغير الموجود بمينائها وكانت قبل ذلك بعثت فرقاطتين ليكونا مع الدونما الانكليزية الموجودة بمياه الاسكندرية

أما الدونما الروسية فأقلعت مع الدونما العثمانية المشكلة من سبع وثلاثين سفينة بعد ان اتفق قائدها قدرى بك مع الاميرال الروسى أوكانوف على الحركات التى سيقومان بها فى جزائر اليونان (١٢١٣ هـ) فلما وصلتا الى مياه اليونان استولتا على جزيرة چوقه فقام أهالى جزيرة زانطة وكفالونية وقبضوا على عساكر الفرنساويين وسلموهم الى تبه دلنلى على باشا والى يانيه وتملكت بذلك الدولة هاتين الجزيرتين ثم قامت الدونمتان المتحدتان الى جزيرة كورفو وكان تبه دلنلى على باشا تغلب فى ذلك الوقت على الفرنساويين بقرب دلوينه وأرسل ولده مختار بك طليعة له يقود ستة آلاف من الخيالة وتقدم هو خلفه مع المشاة وهجم الاثنان على القوة الفرنساوية التى كانت مجتمعة حول بروزه فتغلبا عليها وأسرا منها عدة أسراء ولما علمت الدولة بذلك أنعمت على على باشا برتبة الوزارة ثم استولت الدولة على قلاع بروزه وقومانيجه وبوتربنتو أما قلعة بارغه فانها قاومت نحو ١٤ سنة ثم استردتها الدولة أخيرا وكانت العمارتان المتحدتان استولتا أيضا على جزيرة كورفو فعادت تلك المواقع جميعها الى الدولة العثمانية كما كانت من قبل أما الجزائر اليونانية السبع فانها جعلت تحت حماية الدولتين العثمانية والروسية وعقدت بذلك شروط بينهما (١٢١٥ هـ ١٨٠١ م) ولما طلب أهلها فيما بعد دخولهم تحت حماية الروسية وافقت الدولة العثمانية على ذلك حسبما اقتضته ظروف الاحوال

تعدى نابليون على سوريا — لما رأى نابليون ان مركزه أصبح مهددا بمصر افتكر فى ان فى استيلائه على سوريا فرجا وقوة سيما وان من استولى على احدى البلادين لابد له من الاستيلاء على ثانيتهما فخرج فى ٣٠ رمضان من سنة ١٢١٣ هـ - (١٧٩٩) بجيش عدده ثلاثة عشر ألف مقاتل واستولى على العريش ثم تقدم واستولى على غزه بغير قتال وبعد ان حاصر يافا سبعة أيام

(١) هى بلدة من أعمال ايطاليا بمقاطعة البندقية وبها أمضى الجنرال بونابارت مع استوريا المعاهدة المسماة معاهدة كامپوفورميو (Campo-Formio) وبمقتضى هذه المعاهدة بقى لفرانسا بلاد البلجيك وخط نهر الرين ومدينة مايانس والجزائر اليونانية وترك بلاد دلماسيا وايستريا وممالك البنادقة لاستوريا

استولى عليها وأسر منها ألفى عسكرى من الارنؤود الذين قاتلوا جيش الفرنساويين بشهامة غريبة فأمر نابليون بقتلهم جميعا رميا بالرصاص خارج البلد فكانوا يخرجونهم فرقة بعد فرقة للقتل ومن هذا الفعل الفظيع المخالف لقوانين الحرب والانسانية يتأكد المطالع ما كانت عليه حالة الحروب فى ذلك الوقت ثم تقدم بجيشه الى عكا وحاصرها براوهدم أكثر بروجها واستحكاماتها بمدافعه وكان المدافع عن عكا أحمد باشا الجزار البطل الشهير وفى هذه الاثناء قبض الغليونان الانكليزيان المعينان لخفر سواحل الشام تحت قيادة الاميرال سدنى سمث على سفينة فرنساوية تحمل كثيرا من المهمات الحربية لنابليون وسلمها لجنود عكا وكانت اعانة للجيوش العثمانية على أعدائهم ولما وصلت الامدادات للفرنسويين بعد أيام أمكنهم كسر جيش الشام بجهة جبل طابور الذى أتى لقتالهم وتمكنوا أيضا من ان يمنعوا الامداد عن العثمانيين الذين بعكا ثم أخذوا يهاجمونها المرة بعد الاخرى حتى تمكنوا من الدخول فيها الا انهم لم يلبثوا برهة حتى قاومتهم الجنود العثمانية أشد المقاومة فتقهقر الفرنساويون من امامهم تاركين مدافعهم ومعداتهم وفى خلال هذه الحوادث وصلت الدونمة العثمانية وكانت مركبة من سبعين سفينة حربية بها ١٢٠٠٠ من الجنود النظامية تحت قومندانية مرابط زاده حسين باشا الرودسى وأخرجت ذلك الجيش وذخائره إمدادا لعكا ثم تقدم هذا الجيش ورد جيش نابليون واقتفى العثمانيون بشجاعتهم أثره حتى متاريسه وهجمت الفرنساويون فى هذه المحاصرة ثمان مرات وهجم العثمانيون عليهم ثلاث عشرة مرة وأظهرت عساكر الفريقين شجاعة غريبة واقداما عجيبا ثم اضطر نابليون للرجوع مكسورا بجيوشه الى جهة العريش بعد أن تلف منها فى حصار عكا عشرة آلاف واقتفت العساكر العثمانية أثره حتى الحدود المصرية ثم أرسلت الدولة العثمانية الى مصر جيشا مركبا من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة كوسه مصطفى باشا ومعه دونمة عثمانية الى أبى قير فخرج الجيش واستولى على القلعة ولما بلغ نابليون حضر بنفسه وهجم بعساكره على الجيش العثمانى بغتة ومع كون العساكر العثمانية كان معهم المدافع الكافية والطوبجية المهرة الا انه لم يكن معهم فرسان لصد هجمات الاعداء ولذلك التزم مصطفى باشا أن يحفر خندقا حول معسكره لحمايته من هجمات سوارى الفرنساويين وقد تكرر الهجوم من نابليون وقاومه السرعسكر بجيشه بكل ثبات وقوة وكانت مدافع الدونمة العثمانية تساعد الجيش بمقذوفاتها حتى اضطر نابليون لان يرجع متقهقرا فخرجت العساكر العثمانية من خلف الخندق لتعقبهم وكان خروجهم بلا انتظام لان قائدهم كان جرح فعادت خيالة نابليون عليهم ثانية وشتتوهم وتقدموا الى خيام المعسكر ودخلوا خيمة السرعسكر وكان مجروحا كما تقدم فأسروه وتوفى بعد سنة من أسره

وبعد هذه الواقعة مكث نابليون فى مصر مدة ثم بارحها سرا من غير أن يشعر أحد به أو يعلم مقصده قبل الخروج وسيأتى سبب ذلك بتاريخ فرانسا وجعل الجنرال كليبر أحد قواده وكيلا عنه وفوض اليه أمر البقاء بمصر أو الخروج منها حسب ما يراه وكان جيش عثمانى يتقدم اذ ذاك الى الحدود المصرية من جهة الشام تحت قيادة السردار يوسف ضيا باشا وبعد أن استولى على العريش طلب من الجنرال كليبر الوكيل عن نابليون بمصر والقائد الاعظم للعسكر الفرنساوية بها اخلاء بلاد مصر فقبل الجنرال المذكور فى الظاهر وأمضى مع يوسف باشا شروط الجلاء فى ٢٨ شعبان

سنة ١٢١٤ هـ ولما كان ذلك حيلة من الجنرال ولم يعمل بمقتضاها قامت الحرب بينه وبين الجيوش العثمانية وكانت سجالا

وفى سنة ١٢١٥ هـ عادت الدونما الروسية من البحر الابيض المتوسط الى الاستانة ودخلت البحر الاسود ولما كانت الدولة تخاف من أن نصرات الجيوش الفرنساوية ربما كانت سببا لتمكين قدم الفرنسيس فى مصر جهزت هى وانكلترة الاساطيل والجيوش لحسم المسئلة المصرية فخرج القبودان حسين باشا بالدونما ومعه قوة عسكرية بعد أن اتفق مع الاميرال الانكليزى ثم أخرج الاميرال الانكليزى جيشا فى أبى قير مؤلفا من خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال ابركرومبى (Ralph Abercromby) وتقدم الى الرحمانية وتقدم السردار العثمانى يوسف باشا من جهة الشرق يريد القاهرة فخرج الجنرال منو يريد قتال الانكليز فانهزم والتجأ الى الاسكندرية يريد التحصن بها فقطع الانكليز سد أبى قير وهو السد المانع لمياه البحر من الاغارة على مصر فانحصر الجنرال منو بذلك فى الاسكندرية والجنرال منو هذا هو الذى صار وكيلا لنابليون بعد موت كليبر الذى قتله شخص يدعى سليمان الحلبى كما سيأتى مفصلا بتاريخ مصر

ثم تقدم الجيش الانكليزى والعثمانى ودخلا القاهرة بعد أن حاصرا من بها من الفرنسيس الذين كانوا تحت قيادة الجنرال بليار الذى لما رأى انه لا يمكنه المقاومة عقد مع القائدين المذكورين شروط التسليم وأخلى المدينة ثم خرجت العساكر الفرنسوية من القاهرة وأقلعت بهم السفن من رشيد هذا أما منو فانه بعد أن قاتل العثمانيين والانكليز فى عدة وقائع اضطر لان يعقد صلحا نهائيا مع الاميرال كيث (Keith) الانجليزى والصدر الاعظم يوسف باشا فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢١٦ وذهب الى بلاده على سفن الانكليز وخرج الفرنساويون من الديار المصرية وهم يبكون حظهم وبعد أن أخلوا مصر وانسحبت جميع جيوشهم منها أقام الانكليز سنة كاملة فى ثغر الاسكندرية وكأنهم لما رأوا سرعة خروج الفرنسيس وضعضعة أحوال الدولة وحالة الديار المصرية هموا باحتلالها بدل الفرنسيس الا أن الفرنساويين لما لاحظوا ذلك من مخرجيهم أخذت المخابرات السياسية تجرى بينهم وبين الانكليز والعثمانيين الى أن خرج الانكليز أيضا (١٢١٧ هـ) منتظرين فرصة أخرى أكثر مناسبة وفى ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) عقد نابليون بونابرت مع الباب العالى الصلح ليسترد مودته وليكون له ذخرا عند الحاجة وكان ذلك سببا لوقوع النفور بين الانكليز والفرنساويين لانهم كانوا يودون بقاء تعكير السياسة بين العثمانيين والفرنساويين بالنظر لما أجراه نابليون بونابرت من المقاصد السياسية المضرة بالانكليز

فتنة الوهابية — اعلم انه فى أثناء اشتغال الدولة بالمسئلة المصرية ظهر ببلاد نجد رجل من علماء الحنابلة يعرف بالشيخ النجدى ويدعى محمد عبد الوهاب وأصله من المشرق من بنى تميم وكانت ولادته سنة ١١٢١ هـ وكان فى ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة وكان أبوه من أهل الصلاح والعلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أخوه وأبوه ومشايخه يتفرسون فيه ان سيكون له شأن لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله وشذوذه فى كثير من المسائل الدينية فكانوا يلومونه

و يحذرون الناس منه فحقق الله سبحانه فراستهم فيه لما أظهر مذهبه وجاهر بنحلته التى استهوى بها
عقول كثير من الناس وخالف بها أئمة الدين ومن أقواله ان زيارة النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به
و بالانبياء والاولياء والصالحين و زيارة القبور شرك وحرف كثيرا من الاحاديث النبوية والآيات
القرآنية بتخريجها على وجه يخالف الاجماع ثم قصد ان يفسد عقائد علماء الحرمين فأرسل جماعة
من علمائه اليهم يدخلون عليهم الشبهة بالمناظرة والكذب فقاومتهم العلماء وردوا أقوالهم وكفروهم
ثم قوى أمرهم وحركوا الفتن وقامت حروب هائلة بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب بن مساعد
ابن سعد بن زيد (١٢٠٥ ﻫ) وامتدت فتنتهم الى اليمن ولم يزل أمرهم يقوى الى سنة ١٢١٧ ﻫ
حيث ساروا بجيوشهم الكثيرة على الطائف وتملكوها وقتلوا أهلها ثم بعد الحج استولوا على مكة
وانسحب الشريف غالب الى جدة (١٢١٨ ﻫ) ثم ساروا بجيوشهم الى جدة لقتال الشريف
فلما أحاطوا بها هزمتهم حاميتها بالمدافع وطالت الحروب بين الجيوش العثمانية وبينهم وانسد
طريق الحج من سنة ١٢٢١ ومازال أمر الوهابيين فى ازدياد حتى أبادهم والى الديار المصرية
المرحوم محمد على باشا الكبير فى عهد السلطان محمود خان الثانى كما سيأتى موضحا فى تاريخ مصر

احوال البحرية فى الوقت المذكور — لما توفى القبودان الشهير الغازى حسين باشا الجزائرى
سنة ١٢١٨ ﻫ كانت قوة بحرية الدولة مركبة من أربع سفن من نوع الاوج انبارلى بكل واحدة
مائة مدفع وعشرين غليونا يحمل كل واحد سبعين أو تسعين مدفعا وعشرين فرقاطه تحمل
كل واحدة خمسين أو ستين مدفعا و ١٥ سفينة من نوع القرويت ولما خلفه فى مسند القبودانية
محمد قدرى باشا وكان من متخرجى وجاقات البحرية اساء السيرة خصوصا لما أرسلته الدولة لمدينة عكا
(١٢١٩ ﻫ) لاصلاح الفساد الذى حدث فيها بعد وفاة الجزار أحمد باشا فعزلته وجردته من رتبة
الوزارة وتعين مكانه حافظ اسماعيل باشا

الحرب مع الروسيا والدونتما الانكليزية باستانبول (١٢٢١ ﻫ) — لما عقد نابليون
بونابارت معاهدة الصلح مع الدولة أرسل الجنرال سبستيان الى الاستانة ليكون سفيرا لفرنسا وأوصاه
قبل مبارحته باريز بان يبذل كل مجهود و يسعى بجميع الوسائل لتحسين العلاقات بين الدولتين
وارجاعها لما كانت عليه قبل الحرب فبذل هذا السفير جهده واستعمل كل الوسائط حتى أعاد
روابط الالفة والمحبة بين الطرفين ولما كانت الدولة تود ذلك أيضا لم يصادف السفير فى طريقه
عقبات أو موانع وفى تلك المدة خلعت الدولة أميرى الافلاق والبغدان لانحيازهما الى الروسيا
وترويجهما سياستها ومقاصدها وعينت بدلهما من المخلصين لها (١٢٢١ - ١٨٠٦) فاغتاظت
الروسيا من ذلك جدا وخشيت من تقرب فرنسا الى الدولة وأهمها ذلك حتى انها أرسلت جيوشها
واحتلت الولايتين المذكورتين بلا اشهار حرب بدعوى ان عزل أميريهما مضر بسياستها جدا
ولما علمت الدولة بدخول عساكر الروسيا فى بندر وخوتين التزمت باشهار الحرب عليها ولما كان
الانكليز يعلمون يقينا ان دولة الروسيا هى الدولة القوية التى يمكنها مقاومة نابليون الذين كانوا يخشون
سطوته جدا اجتهدوا فى منع وقوع الحرب بين العثمانيين والروس على ان الدولة لم يكن غرضها من
ذلك الاعلان الا ابعاد جيوش الروسيا عن حدودها فقط

وكانت

وكانت الدولة العثمانية تسعى فى ذلك الوقت بكل نشاط لاستدامة الروابط والعلاقات الودية بينها و بين الدول الاخرى حتى إنها أجابت الدولة الانكليزية لما أشارت عليها بخلع محمد على باشا الكبير من ولاية مصر وتوليته على سلانيك الا أن استرحام بقائه بمصر الذى طلبه العلماء وأشراف الاهالى من السلطان كان السبب فى عدول الدولة عن ذلك وقد كانت الدولة لا تحب ان تبعد عنها دولة فرانسا لما اقتضته سياسة الوقت فلهذا السبب والسبب السابق انحرف الانكليز عن العثمانيين واتحدوا مع الروسيا على حرب الدولة ولما لم تتمكن انجلترة بواسطة سفيرها بالاستانة السير اربوثنوت (Arbuthnot) من جعل الباب العالى يعدل عن محالفة فرانسا أرسلت أسطولا تحت قيادة الاميرال اللورد دوكورث (Duckworth) الى مضيق الدردنيل ولما كان السفير الانجليزى حاد المزاج سريع التأثر تكدر من عدم نوال مرغوبه ونزل ليلا بسفينة انجليزية (١٢٢١ هـ - ١٨٠٧ م) وهرب من الاستانة ولما علم رجال الدولة بفراره فى اليوم التالى تأكدوا من قيام انكلترة لمساعدة الروسيا ضدهم فازدادت المسئلة ارتباكا وقد كانت قلاع الدردنيل فى حالة سيئة لا يمكنها مقاومة عمارة قوية كعمارة الانكليز ومع ذلك فان الدولة لم تهتم باصلاحها وتقويتها رغما عن أقوال سفير فرانسا ومن معه من ضباط الفرنساويين وكان المانع لها عن ذلك أقوال السفير الانكليزى الذى كثيرا ما قال لمندوبى الدولة ان مسئلة الخلاف الحاصلة بين الدولة والروسيا يمكن تسويتها بالصلح والسلم بدون احتياج لحرب ولذلك تم للسفير ما كان يقصده وهو تأخير تقوية الاستحكامات الامر الضرورى جدا فى ذلك الوقت ولما رأت الدولة اشتداد الحالة أرسلت الجنرال سباستيان ومعه بعض ضباط من الفرنساويين وغيرهم لينظروا فيما يحتاجه تحصين البوغاز ويقدموا بذلك تقريرا مستوفيا الى السلطان الا أن الصدر الاعظم وغيره من الرجال وكذا القبودان باشا لما كانوا يكرهون تداخل الاوروباويين فى أعمال الدولة لم يهتموا بامر التحصينات كما أمر السلطان

أما سفير انكلترة الذى فر من الاستانة فانه تمكن من الوصول الى جزيرة بوغجه اطه لما وهنالك طلب من الدولة استمرار المخابرة وأرسل ترجمانه الى جنق قلعة لذلك وأرسلت الدولة من قبلها من ينوب عنها وكان غرض السفير من هذه المخابرات أن عمال الدولة يهملون عمل الاستحكامات التى تقرر انشاؤها متى علموا بعود مخابرات الصلح وكانت الدونما الانكليزية تنتظر مساعدة الهواء والفرصة المناسبة لاجتياز الدردنيل ثم أرسلت الدولة عمارتها تحت قيادة القبودان الحاج صالح باشا لتقف فى البوغاز تمنع سفن الانجليز من عبوره متى أرادوا وكانت هذه العمارة مركبة من ست سفن وقد اتفق ان هبت رياح موافقة يوم عيد الاضحى من سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٧ م) عند الصباح فاقلع الاميرال الانجليزى المذكور باسطوله المركب من خمسة قباقات وفرقاطتين وحراقتين وقرويطتين بها من المدافع ٦٠٨ مدافع ودخل البوغاز وتمكن بلا أدنى مقاومة من المرور من أمام قلعتى قوم قبود وسد البحر لوجود كافة حفظة القلاع المذكورة بالجوامع لصلاة العيد ولما وصل الاسطول المذكور الى قلعتى كليد بحر وجنق قلعه قابلته الدونما العثمانية المذكورة باطلاق المدافع فلم توقف سيره بل استمر مسرعا ثم استقبل فى ايمان بورغاز ثم حمل على الدونما العثمانية ولم يكن بها الا بعض الجنود لتغيب معظمهم يوم العيد ولما لم يمكن للعساكر البحرية

الموجودة بتلك السفن القيام بمقاتلة الاعداء لقلتهم احترق للعثمانيين أربع سفائن واستولى الانكليز على سفينتين ولم يسلم من الاسطول العثماني الا ابريق حربي واحد تمكن من الهرب وقال بعض المؤرخين انه لولا جبن القبودان باشا وسوء تصرفه لامكن للاساطيل العثمانية على ما بها من الضعف قهر أساطيل الانجليز سيما وقد كانت هي الغالبة في أول الامر بحيث انها أحدثت بالسفن الانكليزية خسائر عظيمة

ولما عاد الابريق الحربي الذي هرب من المحاربة الى الاستانة في اليوم الثالث من عيد الاضحى وأخبر قبودانه بما حصل هاجت الافكار واضطربت الخواطر وعم القلق وصدرت الاوامر سريعا باقامة الاستحكامات حول الاستانة وفي ذلك اليوم وصل الاسطول الانكليزي واستقبل بجانب جزائر الامراء شرقي البوغاز وأرسل السفير الانكليزي بلاغا نهائيا للصدر الاعظم مشتملا على المواد الآتية وهي - أولا ان يحالف الباب العالي مع الروسيا وانكلترة - ثانيا ان تسلم الدولة في الحال لانكلترة سفن العمارة العثمانية واستحكامات الدردنيل - ثالثا أن تتنازل الدولة للروسيا عن ايالتي الافلاق والبغدان - رابعا أن تطرد الجنرال سبستيان سفير فرانسا وان تعلن الحرب على فرانسا وحدد للاجابة على هذا البلاغ مدة ٢٤ ساعة فعقد الوزراء في الحال مجلسا وبعد المداولة أجابوا السفير برفض هذه المقترحات رفضا باتا وباستعداد الدولة للمحاربة والمدافعة وقام الجنرال سباستيان بتكليف من الدولة بتنفيذ أمر الدفاع وبذل جميع الاهالي أيضا من كل جنس ونوع نشاطا وهمة عظيمتين في بناء الاستحكامات وتقويتها وكان وزراء الدولة يترددون كثيرا على هذه الاستحكامات لنظرها يوميا بل كل ساعة كما أن السلطان سليم خان كان يذهب بنفسه اليها ويشجع القائمين بانشائها الى احكامها واتقانها بحيث انها تمت في زمن يسير وأصبح بها في اليوم الخامس نحو ألف ومائتي مدفع وفي أثناء هذه الاستعدادات عرض السيد علي بك الجزائري وكان رئيس بوابي الدائرة الخاصة على السلطان بانه بما له من المعلومات الحربية يمكنه قهر العمارة الانكليزية لو سلمت اليه قيادة العمارة العثمانية وهون على السلطان كثيرا أمر الاعداء فسر السلطان من أقواله وأصدر أمره بتعيينه قومندانا على الدونما الراسية بخليج الاستانة وكانت مؤلفة من عشرين سفينة حربية مختلفة النوع والقدر فقادها وسار بها أمام سراي بشكطاش ولما كان أهالي الاستانة قد امتلأت صدورهم غيظا وحنقا على تجاوز الانكليز لهذا الحد سيما الجنود منهم تطوع منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة شخص في الحربية وبعد أن قيدوا أسماءهم وزعوهم على السفن هذا أما القبودان باشا الذي أعدم الانكليز عمارته فانه بعد وصوله براعزل لاهماله وتعين بدله السيد علي بك المذكور ورقي الى مسند الوزارة وأحيلت عليه ولاية الجزائر وقتل أيضا فيضي أفندي محافظ بوغاز الدردنيل لتقصيره في أداء واجباته عند مرور الدونما الانكليزية من البوغاز وعينت الدولة بعض الضباط ومعهم نفر من مهندسي الفرنسويين لتقوية قلاع واستحكامات الدردنيل ولما بلغ أهالي البلاد المجاورة للاستانة مرور الدونما الانكليزية من البوغاز ومجيئها للاستانة حضر كثير من أعيانهم وحضر أيضا سردار شيله أوزون حسن باشا مع جيشه ونزلوا بالدونما استعدادا للقتال وحضر كثير من أعيان الروملي والاناضول لهذا القصد وعبر قسم من عساكر قنار باغجه الى جزيرة قنالي وأوقعوا بزوارق الانكليز التي أتت للاستقاء منها وأسروا

بعض

بعض الجنود وكان من بينهم ابن أميرال الدونانما الانكليزية ولما بلغ السلطان خبر هذه الواقعة أنعم على أوائك الجنود ولذلك أخذ كثير من صيادى الاسماك يناوشون الجنود الانكليزية التى كانت تتردد بزوارقها بين السفن وبعضها وأراد بعضهم منع الانكليز من الاستقاء من جزيرة قنالى فلم ينجح والحاصل انه فى مدة خمسة أيام من تاريخ وصول العمارة الانكليزية تم عمل الاستحكامات بجهات سراى برون ويدى قله وقزقله وساحل قاضى كوى ووضعت فيها المدافع العديدة ولما استعد القبودان باشا الجديد المذكور أراد الهجوم على العمارة الانكليزية فمنعه القواد وطلبوا منه أن يكون مدافعا لامهاجما لما عليه العمارة الانكليزية من الاستعداد وتدرب جنودها على القتال بخلاف الجنود العثمانية الحديثة العهد بالحربية وفى تلك الاثناء كانت المخابرات مستمرة بين السفير الانكليزى ورجال الدولة وأخيرا خفف الانكليز طلباتهم وكانوا كلما قدموا طلبا رفضه العثمانيون ثم لما رأى ربان العمارة الانكليزية انه لا يمكنه ضرب الاستانة لمنعتها وتحمس الاهالى والجنود وان استحكامات الدردنيل جار تقويتها يوميا وخشى من انه لو مضى الوقت على ذلك أصبح فى مركز حرج أقلع فى يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة ولما مر على جهات البوغاز وغيرها ورأى ما بها من القلاع الجديدة ثبت لديه ظنه وانه صار عاجزا عن عمل ما ولو تهديدا ولذلك بادر بالخروج سالما

ولما رأى أهالى الاستانة عودة العمارة الانكليزية بصفقة المغبون فرحوا وهللوا وكبروا ولما وصلت الدونانما الانكليزية الى جهة أكينلك القريبة من كليبولى مكثت بها يومين وتركت فيها السفينتين العثمانيتين اللتين استولت عليهما فى واقعة البوغاز كما تقدم وفى أثناء مرورها من البوغاز أطلقت عليها بعض قلاعه الحديثة مدافعها فاحدثت بها خسائر كبيرة وأغرقت منها سفينتين من نوع القرويت وقتل من جنودها ستمائة نفر سيما وان المدافع الجسيمة التى تركبت أخيرا فى الاستحكامات كانت من عيار ثمانمائة ليبره وبعد أن تخلصت العمارة الانكليزية من تلك الشدة رست قريبا من جزيرة بوزجه اطه لتصلح ما لحقها من التلف وكانت الدونانما الروسية وصلت قبل ذلك بقليل الى جزيرة بوزجه اطه تحت قيادة الاميرال سينياوين (Siniawin) ولما تقابلت مع الدونانما الانكليزية عرض ربانها على الاميرال الانكليزى أن يصحبه ليدخلا سوية من الدردنيل ويضربا الاستانة فلم يقبل الاميرال الانكليزى لعلمه أن ذلك أصبح بعيدا عليهما ثم استوليا على جزيرة بوزجه اطه المذكورة وصارا يصادران بسفنهما كل سفينة تجارية عثمانية ومما تقدم تعلم ما حازه العثمانيون من الفخر فى هذا الدفاع العظيم وقيامهم كرجل واحد للمدافعة عن استقلالهم الذى لعبت به أيدى الاجانب لعدم تبصرهم وتهاونهم وقد كان بقاء العمارة العثمانية مدافعة لا مهاجمة من أحكم الآراء وأصوب الافكار لانا قدمنا أن هذه الدونانما انما كانت مشكلة من السفن الصغيرة وجنودها كانوا من أفراد الاهالى الذين لم يمارسوا الاعمال البحرية ولا عانوا الاحوال الحربية ولا أحكموا الفنون والنظامات العسكرية بل هم رعايا قادتهم الهمم الابية والنخوة العلية لان يصدموا بأنفسهم عدوهم وأن يصطلوا حر الملحمة ويخوضوا عبابها بخلاف السفن الانكليزية فكانت ذات قوة وضخامة وجسامة وأفرادها على معرفة تامة بالفنون البحرية وأساليب القتال

اطلاق العمارة الانكليزية قنابلها على الاسكندرية — علمت مما سبق أن العمارة الانكليزية بقيت راسية بجزيرة بوزجه اطه تهدد الدردنيل وتقبض على سفن التجارة العثمانية وفى شهر محرم سنة ١٢٢٢ أنتها نجدة قوية مؤلفة من احدى وثلاثين سفينة بها سبعة آلاف مقاتل لان الحكومة الانكليزية أرادت محو ما لحقها من العار فى مسئلة استانبول هذه ولذلك أمرت أميرال هذه العمارة بالذهاب الى مدينة الاسكندرية واحتلالها فقام بما عهد اليه وأتى الى الاسكندرية وبعد أن ضرب قلاعها ولم تكن شيأ يذكر فى يوم ١٠ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) أخرج العساكر من السفن بقصد الاستيلاء على البلاد المصرية تحت قيادة الجنرال فرازر (Fraser) ثم بعد بضعة أيام ذهبت فرقة من أولئك العساكر الى رشيد لاخذها وقبل وصولها كان محافظ رشيد المدعو على بك لما علم بسير الانجليز نحوه استعد لقتالهم بما لديه من الجنود القليلين وأمر أهلها بالسكون والثبات والاختفاء حتى اذا أعطى اليهم الاشارة شنوا عند ذلك الاغارة فانصاعوا الامره وامتثلوا لما قام بفكره وبذلك صارت الطرق والشوارع كالاطلال البلاقع ودخل الانكليز بلا ممانع ولا مدافع فظنوا أن الديار قد خلت من قطانها والمدينة قد خلت من سكانها ولم يعلموا ان الاسود رابضة فى آجامها وأطيار المنايا تغنى على أفنانها ولما ألقوا عصا التسيار وتفرقوا فى أكنافها للاستراحة من الاسفار لم تمض برهة حتى انسكب عليهم هطال من المليوث لامن الغيوث ودهمتهم الابطال فاضطربت أفكارهم وبهتت أنظارهم ومازال أهالى البلد يلبسونهم حللا حمرا من نسج السلاح ويفتكون بهم فتك الليس بعد مصلاح حتى فرقوهم أيادى سبا وجعلوهم يعنون فرارا وهربا وقد أوقعوهم فى خسائر عظيمة ومصائب جسيمة وأسروا منهم أعدادا وافرة أرسلوا بها الى القاهرة ولما وصل الاسرى الى المحروسة حصل لاهالى القطر المصرى جسارة عظيمة وتقدم والى مصر وقتئذ وهو الهمام الشهير محمد على باشا الكبير بقوة الى دمنهور لمحاصرة الانكليز بالاسكندرية

ولما علم الباب العالى خبر استيلاء الانكليز على الاسكندرية أعلن الحرب عليهم الا أنه لم يمكنه ارسال قوة برية من الاستانة الى الاسكندرية عن طريق البحر لوجود العمارة الروسية راسية أمام بوغاز الدردنيل ودونما الانكليز باسكندرية أصدر أمره الى والى صيدا والى كنج يوسف باشا بان يقوما بالقوى اللازمة من جهة سوريا لمساعدة الحكومة المصرية على ان همة محمد على باشا والى مصر لم تكن تحتاج لهذه المساعدة بالكلية لانه لما تقدم نحو دمنهور كما أسلفنا وحاصر الانكليز فى الاسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من السنة المذكورة تحققوا عدم طاقتهم على المقام بها ولذلك طلبوا المخابرة محمد على باشا فى اخلائهم لها تحت شرط أن يعيد لهم أسراهم كما أنهم يعيدون اليه الاربع سفن والحربية العثمانيين الذين كانوا استولوا عليهم يوم استيلائهم على الاسكندرية فلما تم ذلك أخلوا الثغر فى أواسط رجب من تلك السنة ولما كان قطع العلائق مع الدولة العثمانية يضر بسياستهم انسحبت سفنهم من البحر الابيض المتوسط ومن بحر الارخبيل ولما علم السيد على قبودان باشا بسفر المراكب الانجليزية خرج بالدونما لمحاربة العمارة الروسية الراسية أمام البوغاز الا أنه ارتد مقهورا بعد أن أظهرت جنوده من الاقدام والشجاعة ما اعترف به الاعداء ومع ذلك فان الخسائر الجسيمة التى أصابت أساطيل الروسيا اضطرتها للذهاب الى جزيرة كورفو

صعود محمد علي باشا على ولاية مصر (١٢١٩ هـ) — لما تعين القبودان كوجك حسين باشا بالدونمنا السلطانية لاخراج الفرنساويين من مصر أرسل مكتوبا الى چوربا جى مدينة قواله حسين أغا بأن يرسل ما لديه من الجنود فارسل حسين أغا المذكور العساكر وكانوا مائتى نفس مع صهره محمد على أغا فانزلهم القبودان باشا المذكور بالسفن وأقلع يريد مصر وبعد تمام الفتح بقيت بديار مصر أكثر الطوائف العسكرية التى توجهت اليها من بلاد الارنؤود والروملى ومن ضمنهم محمد على أغا المذكور وكان يتصف بالذكاء الفطرى والاستعداد الغريزى للرياسة وادارة أعمال الحكومة فأخذ يفكر فى ذلك واخراج تصوراته من القوة الى الفعل بكل احتياط ودقة ومازال يسعى بجد ونشاط حتى حصل على مزية كبيرة وساعدته فرص الزمان والمكان فلم يمض زمن طويل حتى نال منصب سرچشمه وبنواله هذا المنصب صار رئيسا على عموم كبراء عساكر الباشى بوزوق وكان والى مصر اذ ذاك قوجه خسرو باشا يهتم بتنظيم وترتيب الايالة ويسعى فى تخليص مصر من عساكر الباشى بوزوق لما أتوه من الاعمال الشريرة ولما أخبر رؤساء هؤلاء الجنود بضرورة عودهم الى بلادهم قبلوا وامتثلوا الا أنه لما لم يصرف لهم علوفاتهم بالتمام أظهروا العصيان وشقوا عصا الطاعة وقتلوا الدفتردار رجائى أفندى واضطر خسرو باشا الى الفرار ولقد كانت هذه الواقعة مبدأ للضغينة والعداوة بين محمد على باشا وخسرو باشا المذكور وبعد فرار خسرو باشا سعى محمد على أغا فى القبض على زمام الحكومة المصرية من جهة ومن جهة أخرى أخذ يقاتل جنود الكولمان بكل قوته وبينما هو دأب فى محو الشقاق والفساد لاعادة السكينة للبلاد المصرية نصبت الدولة خورشيد باشا واليا على الديار المصرية فحضر اليها هو وحاشيته

ولما كانت الدولة تميل لخلاص البلاد المصرية من الكولمان أخذ خورشيد باشا يساعد أعمال محمد أغا ويشجعه على ذلك الا أن الوالى المذكور لما وقف على مسلك محمد على أغا الحقيقى تشبث فى اخراجه من الديار المصرية وسعى له حتى أسندت اليه ولاية مدينة جدة مع رتبة الوزارة الا أن عساكر الباشى بوزوق تعصبوا لمحمد على وأظهروا العصيان ثانية وحاصروا خورشيد باشا فى قلعة القاهرة ١٢١٩ هـ ولما وصل خبر هذه الحادثة الى الاستانة خاف السلطان ورجاله من استمرار الفتن بمصر فدبر الوزراء حيلة وهى أنهم جعلوا السلطان يصدر فرمانين أحدهما بابقاء خورشيد باشا فى مركزه وهو الولاية على ديار مصر والثانى بتعيين محمد على باشا واليا على مصر أيضا وعين أحد رجاله المدعو صالح بك لتوصيل هذين الفرمانين وأمرته الدولة بأنه متى وصل القاهرة أظهر ما رآه موافقا ومناسبا من الفرمانين حسب الظروف ولما وصل المأمور المذكور ورأى أن الاهالى يضادون خسرو باشا أظهر فرمان تولية محمد على باشا وتلاه بالصفة الرسمية بحضور العلماء والاعيان والجنود وبذلك استتب الامن وارتقى المرحوم محمد على باشا على ملك مصر من ذلك اليوم بما أظهره من الحزم والجد والنشاط وبما وهبه الله من عظيم الصفات وحميد الخلال اللازمة لاعاظم الرجال وأكابر الابطال وسنأتى على أخبار محمد على باشا مفصلة بالجزء الثانى ان شاء الله تعالى

الاصلاحات بالدولة ووقوع الفتنة (١٢٢٢ هـ) — اعلم انه بينما كانت الحروب قائمة بين العثمانيين والروسيين دخل والى ولاية بوسنه بجيشه الى اقليم الصرب ومنع ثائريه من الالتحاق بالجيش الروسى وفى سنة ١٢٢١ هـ هزم قاسم باشا محافظ اسماعيل جيش الروسيا ومنعه

من التقدم وفى ٢٦ محرم من سنة ١٢٢٢ ﻫ خرج القبودان السيد على باشا بدونما مؤلفة من ١٨ سفينة حربية الى بوغاز الدردنيل لمقابلة الدونما الروسية التى كانت محاصره تحت قيادة الاميرال سينياوين (Siniawin) فحمل عليها القبودان باشا المذكور فى أواخر ربيع الثانى بدون احتراس واستعمل فى هجومه الطريقة القديمة التى تستعملها سفن قرصان أوجاقات الغرب المخالفة لفن حرب الوقت المذكور فأسقط الريح سفنه خلف سفن العدو فتمكن منه الاميرال الروسى وأسر سفينة وكيله أبى بكر بك وخرب وأحرق بعض السفن الاخرى فاضطر القبودان باشا للالتجاء بباقى سفنه الى داخل البوغاز ثم اتهم القائد الثالث شرممت بك (شيرمرد) وبعضا من رؤساء السفن بالتقصير ليتخلص من العار و ينجو من العقاب وقد كان وعفا عنه السلطان وأمر بقتل شرممت بك ومن نسب اليهم التقصير طامع أنهم ممن اشتهروا فى خدمة الدولة بالصداقة ولما كانت سفن الروسيا أصابتها أيضا خسائر جمة أقلع بها الاميرال الى كورفو من جزر اليونان ليتمكن من اصلاحها وبذلك تخلص البوغاز من محاصرة الاساطيل الروسية وقد عد المرحوم جودت باشا ذلك انتصارا لا انكسارا لهذا السبب ثم استعد الجيش السلطانى بصحراء داود باشا لملاقاة الاعداء وتعين خورشيد أحمد باشا سر عسكرا على جهة صوفيه ووجهت اليه ولاية الروملى ومحافظة مدينة نيش وتعين ادريس باشا محافظا لواردين وولى الدين باشا لولاية موره وتعين محمد باشا لولاية قارص وأرسلت الدولة المهمات والجيوش الى شاطئ الطونة تحت قيادة الصدر الاعظم مصطفى باشا چلبى ومصطفى باشا البيرقدار وكان المارشال ميكلسون القائد العام الروسى قد زحف بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل على مدينة بخارست ولما دارت رحى الحرب تمكن العثمانيون من منع الروس عن التقدم على الاراضى العثمانية هذا وفى تلك الاثناء كان السلطان سليم يبذل الجهد فى تنظيم العساكر على الطريقة الجديدة الاوروباوية لالغاء وجاق الينكجرية ولما كانت هذه الاصلاحات من أكبر المصائب بالنسبة للينكجرية هاجوا وماجوا واعتصبوا فى داخل استانبول وكان يساعدهم على أفكارهم العقيمة المضرة بحالة الدولة كثير من رجالها خلاف السواد الاعظم من الاهالى وكان عطاء الله أفندى شيخ الاسلام وكذا قائمقام الصدر الاعظم موافقين لاهل الثورة فى الرأى يحرضانهم سرا حيث رسخ فى أذهانهم أن النظام الجديد طريقة افرنجية وان من تشبه بقوم فهو منهم ولما قويت هذه الحجة الواهية فى صدورهم قالوا جميعا هيا بنا نلاشى النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا الدين بأفعالهم الشنيعة فأخذوا ينهبون ويقتلون وكان المفتى عطاء الله أفندى أعطاهم كشفا بأسماء بعض كبار الدولة لقتلهم فأخذوا يتلونه و يفتشون على أولئك الرجال فوجدوا البعض منهم فقتلوه واختفى كثير وقيل انهم قطعوا ١٧ رأسا من بين أكابر رجال الدولة ولم يقفوا عند هذا الحد بل صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه لخلعه وصاروا يجاهرون بأقوال تهكمية كقولهم يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم أنسيت انك أمير المؤمنين وعوضا عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى بيده بقدرته الجيوش الكثيرة أردت أن تشبه الاسلام بالكفار ومثل ذلك من الاقوال وأرسلوا شيخ الاسلام عطاء الله أفندى المذكور للسلطان سليم ليكلفه بالتنازل بلا مقاومة فدخل عليه متذللا منخفض الرأس قائلا يا مولاى قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان وليس يخفى على عظمتكم أن عموم العساكر الينكجرية نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم ولا سبيل الى المقاومة فالتسليم

لامر

لامر الله أوفق وأسلم من كل شئ فأظهر السلطان تجلدا ولم تبد عليه علامات الكدر من هذا الحديث بل قبل كلام الشيخ وتنازل عن السلطنة يوم ٢١ ربيع الاول من سنة ١٢٢٢ ﻫ (١٨٠٧ م) وجلس بعده السلطان مصطفى خان وكان السلطان سليم رحمه الله حليما سليم الطبع كريم الاخلاق محبا للمعارف والعلوم ونشرها فى المملكة على الطريقة الاوروباوية الحديثة لانه كان يعلم أنها هى الواسطة الكبرى لتأمين انتظام الحكومة وتكثير منابع الثروة والرفاهية

(٢٩) السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد الاول

(١٢٢٢ — ١٢٢٣)

احوال دار الخلافة — جلس هذا السلطان على التخت وعمره ٢٩ سنة ولما كانت أحوال العاصمة فى اضطراب شديد سلك مسلكا يخالف مسلك من سلفه لان أصناف العساكر اضطرته لان ينبذ الاصلاحات الجديدة النافعة التى كانت أدخلت ويعيد الاصول والمراسيم والعوائد القديمة وبذلك تأخرت الدولة فى طريق التقدم نحو نصف قرن آخر وفى مدة حكمه القصيرة التى بلغت أربعة عشر شهرا كانت مداخلات الجنود الثائرة فى ادارة الحكومة تتزايد يوما عن يوم حتى أصبحت الحالة قريبة من الفوضى وقد اغتصب القائمقام موسى باشا أموال الذين قتلوا فى الثورة ولما علم أمره أقيل من منصبه ونفى الى بروسه وبعد عشرة أيام من ذلك عزل أيضا شيخ الاسلام عطاء الله افندى لتحريضه الثائرين على أفعالهم القبيحة فهاجت عند ذلك الجنود وتشيعوا له وأجلسوه فى منصبه ثانية فطغى واستبد فازدادت الاحوال تكدرا وقد كان وصول خبر خلع السلطان سليم الى امبراطور فرانسا نابليون الاول وقت فوزه على قيصر الروسيا وعقده معه معاهدة تلسيت[1] (Tilsitt) الشهيرة وتداخل نابليون فى الصلح حتى عقدت هدنة بين الدولة العلية والروسيا ثم انسحبت الجيوش من حدود المملكتين وعاد الجيش السلطانى الى أدرنه لان تلك المهادنة صارت صلحا دائما ثم ان نابليون غير بعد ذلك سياسته مع الدولة وتعاهد سرا مع الروسيا على تقسيم الممالك العثمانية بينهما على أن فرانسا تأخذ بوسنه والبانيا وياينا وموره وتساليا ومقدونيا وتأخذ الروسيا الافلاق والبغدان والبلغار والروملى وتعطى الصرب للنمسا ولما شاع هذا الامر أرسلت الدولة سفيرا الى نابليون يدعى محب أفندى للمفاوضة معه واستطلاع نواياه نحوها

موت السلطان سليم — اعلم أن مصطفى باشا البيرقدار المتقدم الذكر وان كان أميا الا أنه كان جريئا جسورا سليم العقل كريم الخلق ذا حمية ووطنية أظهر فى حروب الروسيا الاخيرة من الشجاعة والاقدام ما جعله معدودا من أعاظم الرجال وقد أنعم عليه السلطان برتبة الوزارة ووجه اليه ولاية سلسترة ولما كانت مقادير الرجال لا تقدر قيمتها وقت الاختلالات والاضطرابات وكثيرا ما قاومهم الحساد وقع بينه وبين الصدر الاعظم چلبى مصطفى باشا نفور ثم تصالحا وعاد الى روسجق ولما دعيا الى استانبول امتنعا من مبايعة السلطان مصطفى وسعيا فى ارجاع السلطان سليم الى كرسيه ثانية

(١) تلسيت مدينة واقعة بمملكة بروسيا الشرقية بنيت سنة ١٥١٢ م وبها عقدت المعاهدة الشهيرة بين فرانسا والروسيا فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٧ م ومن مقتضاها أن يأخذ نابليون الاول أقاليم بروسيا الواقعة غربى نهر ألبه وبلاد بولونيا وان يعترف القيصر اسكندر الاول بيوسف بونابارت ملكا لنابولى ولويز ملكا لهولانده وبلاد الرين المتعاهدة

لميلهما الى سياسته ولما أحس السلطان مصطفى بذلك بعث أناسا لخنقوا السلطان سليم وأرسل آخرين لخنق أخيه الامير محمود الا أن مصطفى باشا البيرقدار تدارك الامر وأرسل من طرفه أناسا أحضروا الامير محمود عنده لحمايته من كل من يريد به شرا ونادوا فى الحال بالسلطان سليم الا أنهم لما علموا بموته أرسل مصطفى باشا فى الحال جماعة من طرفه فقبضوا على السلطان مصطفى وخلعوه وأجلس السلطان محمود على كرسى السلطنة وسنه ٢٤ سنة

(٣٠) السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد الاول

(١٢٢٣ — ١٢٥٥)

صدارة البيرقدار وفتنة اليكجرية — لما بويع السلطان محمود بالخلافة عين فى الحال مصطفى باشا البيرقدار لمسند الوزارة وعرب زاده عارف افندى لمشيخة الاسلامية ولما رأى ديوان الشورى أن بقاء السلطان مصطفى فى قيد الحياة يكون سببا للفتن والقلاقل التى أودت بالدولة الى دركات الضعف أقروا على قتله فقتلوه خنقا وكان ذلك على غير ارادة السلطان محمود ثم ان الصدر بحث عن جميع الاشخاص الذين لهم يد فى قتل السلطان سليم وأعدمهم عن آخرهم ونفى شيخ الاسلام السابق عطاء الله افندى ومن على شاكلته من قضاة العساكر

ثم التفت الى معانديه ونكل بهم فخلا له الجو وقبض على زمام السلطة وشكل الوزارة من رجال اشتهروا بالاخلاص والميل له ثم وجه همته لاستئصال المفاسد التى فشت بين طائفة اليكجرية وهو عمل من أصعب الاعمال وأشدها خطرا الا انه كان السبب فى فشل كثير من الوزراء قبله ولما عزم على ذلك عقد مجلسا حافلا دعا اليه جميع الباشاوات والاعيان ولما كمل عددهم عرض عليهم ضرورة اصلاح فرق اليكجرية بشرط عدم ملاشاتها لانهم صاروا الى حالة سيئة من الاختلال والجهل بفنون الحرب وعرض لذلك عدة طرق من شأنها أن تعيد لهذا الجيش قوته السابقة ومهابته القديمة مستندا فى ذلك على ضرورة انشاء جيش منظم يعادل جيش الاوروباويين ثم قال لم يعد عند أحد من التعظيم والتجلة لجيش اليكجرية المجيد قدر ما عندى له من ذلك وانى أفتخر بتبعيتى لهذا الجيش الذى اذا لم تلحقه عوامل التطرف المضرة ولم يغير النظامات التى سنها له حاجى بكتاش لصار لا يقهر الآن كما كان فى السابق وصارت الوظائف فيه بدل أن تعطى حسب الاستحقاق والشجاعة صارت تباع وتشرى وأصبحت الثكنات مأوى للذين لا مأوى ولا صناعة لهم أو للانذال الذين يفرون من الشغل وقد ساد الاختلال وعمت القبائح المخجلة جميع فرقهم ونسوا التمرينات التى حتمها عليهم قوانين وأوامر السلطان سليمان وأن اليكجرية المستعملين فى الحفظ والحراسة صاروا يبتذون أموال الرعية ونبذوا أمر الاشتغال بالمحافظة على الامن ظهريا وليست نتيجة ذلك الا الجهل بالفنون العسكرية وعدم الانتظام حتى عدمت منفعة جيش كان مدة قرون الفخر للدولة والعز للملة بحيث كانت الدنيا ترتعد منه خوفا وصار أعاظم العلماء والقضاة يدفعون أجور مخدوميهم من خزينة اليكجرية وكثيرا ما ترى عدة جوامك ونفقات سرية تعطى لشخص واحد لم تسبق له خدمة بين الجنود أصلا أو لم يحمل السلاح للمدافعة عن الدين والدولة مطلقا وقد أخذ ضباط اليكجرية يتعاملون معاملة مخجلة بيعا وشراء فى أوراق مرتبات الجنود بمساعدة بعض المرابين من اليهود بحيث انهم

يحرمون

يحرمون فى الغالب عما يأخذونه من الربا الفاحش الجندى الغيور المحافظ على واجباته من المرتبات التى منحتها له الحكومة مكافأة لاتعابه وتأمينا لمعيشته وان مولانا السلطان الذى يصرف همته ليعيد لهذه الدولة مجدها السابق وسطوتها القديمة يشعر أنه من المهم العودة للنظامات الحربية القديمة التى أعلت شأن الدولة وقد كلفنى بان أبلغكم نواياه

ثم عرض الوزير على الهيئة اجراء الامور الآتية وهى أولا ابادة عادة بيع الوظائف ثانيا تكليف جميع اليكجرية الغير المتزوجين بسكنى الشكنات ثالثا ان لا تدفع جامكية الا لليكجرية الذين فى الشكنات المؤدين للخدمة بالفعل رابعا ان يمنع بيع الجامكية مطلقا الا فى أحوال خصوصية وان من خالف ذلك يعاقب عقابا شديدا خامسا ان يضبط جدول المخصصات العمومى التى تدفع من خزينة اليكجرية سادسا ان يجبر اليكجرية على اجراء التمرينات التى سنها السلطان سليمان وأن يكونوا خاضعين لنظام دقيق سابعا أن يؤمر فى الحال باستعمال الاسلحة الجديدة والتعبية التى يستعملها الاوروباويون بين جميع الجنود العثمانية وهى أعمال اباحتها فتاوى المفتين ومع ذلك فانه خوفا من أن الغاء هذه القبائح والاختلالات واعادة النظام القديم مرة واحدة ربما أحدث عوائق مهمة أقر مولانا السلطان على أن ينتخب من بين اليكجرية الاقوياء ومن غيرهم من شبان المسلمين المقيدين فى ديوان الجيش العدد الكافى لتنظيم فرقة لقتال الفرنج ويكون نظامها كنظام اليكجرية السابق ويكون لها فى تمريناتها وترتيباتها فى القتال وفى وجودها بالشكنات ما للجيوش الاوروباوية من النظام الذى جعله فن الحرب الحديث من الضروريات

فأقر المجلس باتحاد الآراء على هذه الافكار وصدق عليها كتابة وأقرها شيخ الاسلام بلا صعوبة وخرجت بها الفتوى والحاصل ان الاحوال تمشت كما يحب البيرقدار ويشتهى وقد أسكره بعد ذلك خمر انتصاره فتكبر وتجبر حتى أغضب حزبه وأغاظ الجيش والعلماء واليكجرية فصاروا من ذلك الوقت يتربصون له الى أن خلت الاستانة من جيوشه التى كان رتبها وجعلها قوة يعتمد عليها عند الحاجة ولم يبق منها بالعاصمة الا القليل فانتهز اليكجرية تلك الفرصة وثاروا فى رمضان من السنة المذكورة ثم قصدوا سراى السلطان مصطفى يريدون اجلاسه على العرش فاعترضهم البيرقدار وقاومهم شديدا الا أنه هزم ولما أحس بتغلب الثائرين خشى من عزل السلطان محمود خان العدلى فأمر بقتل السلطان مصطفى خان الرابع والقاء جثته للثائرين كما صنع السلطان مصطفى الرابع بسليم الثالث فلما رأى اليكجرية جثة السلطان مصطفى زادوا تمردا وطغيانا وهجموا على السراى الملوكية وألقوا النار فى جوانبها الا أن الصدر الاعظم أبى التسليم لهذه الفئة الباغية فمات حرقا هو وبعض أتباعه ويقال انه تحصن فى بعض الابراج وأشعل ما به من البارود فمات وهزم اليكجرية أيضا محازبيه من رجال الاصلاح مثل رامز باشا أمير البحر والقائد عبد الرحمن باشا واضطر السلطان محمود خان بعد ما أجراه اليكجرية من التدمير والتخريب ان يقبل طلباتهم مؤجلا دمار هذه الفرقة الباغية الى فرصة أخرى

احوال البحرية فى الوقت المذكور — لما عزل السيد على باشا من مسند القبودانية ونفى الى بروسه (١٢٢٣ هـ) تعين مكانه السيد عبد الله رامز باشا وكان من حزب البيرقدار فأخذ يقلل المصاريف بدار الصناعة وتصدى لمنع المفاسد التى كان يأتيها الجنود البحرية فمنع طوائف

القليونجية مما كانوا يرتكبونه من الاعمال المغايرة للآداب والامن وعاقب كثيرا منهم وقتل رجلا قهوجيا كانت تأوى اليه الاشقياء من البحرية ففرح الناس وكان البيرقدار مصطفى باشا المذكور هو المنفذ لهذه الاحكام لاشتغال القبودان باشا بامور أخرى فخاف القليونجية والملاحون الموجودون بخدمة دار الصناعة وغيرها وانكمش كثير من طوائف اليكجرية البحرية الذين كثيرا ما كانوا يتألبون ويتعدون بظلمهم على السفن التجارية العثمانية الا أنهم مازالوا يحقدون له الشر الى أن تمكنوا من قتله فى بعض ثوراتهم كما سبق وكان مصطفى باشا المذكور مهيبا صارما ولما قتل ظهر رجل من الاشقياء يدعى محمد أغا معروف بمفاسده ومشهور بقبائحه وأصله من أتباع السيد على باشا الجزائرى القبودان السابق والتفت حوله عصابة من أمثاله وهجم بهم على دار الصناعة وضبط السفن العثمانية الحربية الموجودة بها واستولى أيضا على الطوبخانة وامتدت مفاسده ومفاسد أتباعه بداخل المدينة واجتمعت عليهم طوائف اليكجرية وأخذ الكل يعيثون فى الارض فسادا وعجز رامز باشا عن ردعهم لموت البيرقدار مصطفى باشا فاستقال من وظيفته وأرسل الشقى محمد أغا المذكور الى السيد على القبودان باشا المنفى فى بروسه يستدعيه ليتولى هذا المنصب فحضر واستلم المنصب بقوة هؤلاء الاشقياء وكان السيد على باشا المذكور من قواد البحر مع حسين باشا الجزائرى (١٢٠٥ هـ) مذ كانت العمارة بالبحر الاسود كما سبق وامتد عنقه الى مسند القبودانية العمومية فاتفق مع الجزائريين على أن يعمل عملا حربيا ينال به هذا المنصب عن استحقاق وهو انه أغار على سفن الروس بكيفية مخالفة للفنون الحربية البحرية ولولا أن أنجدته الفرق العثمانية لقتل ثم فرهاربا قاصدا الاستانة كما مر ولما صدر من حسين باشا الصغير المذكور مدة قبودانيته ما يخالف القوانين حكموا عليه بالاعدام ثم استبدلوا هذا الحكم بتجريده من رتبته ونفيه الى طرابزون ثم عاد للاستانة وتعين رئيسا لبوابى السراى السلطانية ثم كان ما كان من حضور الدونتما الانكليزية ومخاطبته للسلطان بما كان سببا فى تعيينه بوظيفة قائد للعشرين سفينة الحربية التى خصصت لمقاومة الاساطيل الانكليزية وترقيته لوظيفة القبودان باشا كما مر بيان ذلك ولما كان هذا القبودان تربى عمرا كبير القرصان لم يكن يقبل السير على النظام الجديد الجارى ادخاله اذ ذاك فى كافة الدوائر العسكرية والبحرية كرغبة السلطان محمود خان الذى أمر بازالة وجاقات اليكجرية بل كان يرغب فى ادارة دار الصناعة على الهيئة القديمة التى ظهر فسادها وكانت من أكبر الاسباب لبقاء الدولة فى حالة تأخر ولذلك كان مذموما عند هذا السلطان وقد حصل فى مدة قبودانيته أن هزم خارج البوغاز أمام أساطيل الروسيا واتهم بعض الرؤساء ظلما فحكموا عليهم بالقتل كما سبق بيان ذلك وساعده على أقواله من على شاكلته من الذين يكرهون النظام الحديث كما تقدم ومع هذا فقد نال هذا الغشوم جزاء أفعاله حيث عزل ونفى الى قره حصار (١٢٢٤ هـ) وتخلصت البحرية منه ومن أمثاله الذين كان معظمهم من طائفة اليكجرية وتعين بعده جرخه جى على باشا قائمقام الصدارة وأصله من مماليك ألفى بك أحد أمراء مصر حضر الى الاستانة صحبة يوسف ضيا باشا الذى كان قائد الجيش العثمانى المرسل لاخراج الفرنسيس من مصر وفى هذه المدة كانت الدونتما الروسية تهدد سواحل البحر الاسود وتتعرض كثيرا للسفن التجار العثمانيين حتى ألحقت بالتجارة خسائر جسيمة

وفى سنة ١٢٢٣ هـ أتى أسطول انجليزى مؤلف من أربع سفن حربية وأرسى خارج بوغاز

الدردنيل وبه مرخصون لعقد الصلح مع الدولة فاجتمع الوزراء وبعد المذاكرة طويلا قرروا قبول الصلح على حد قول من قال ان من أعظم الخطا بالمحاربة من يطلب الصلح وكتب بذلك معاهدة تحتوى على اثنى عشر بندا وصدق عليها من الجانبين ومن مقتضاها مبادلة الاسرى وان تخلى انكلترة جميع الجهات التى احتلتها بما فيها من المهمات الحربية فعادت التجارة والصلات الودية بذلك بين الدولتين كما كانت

استئناف الحرب بين الدولة والروسية — اعلم أنه فى سنة ١٢٢٤ هـ أقلع القبودان جرخه جى على باشا بالدونتما العثمانية بقصد مطاردة سفن الروسيا وكانت هذه الدونتما مؤلفة من ١٣ سفينة مختلفة القدر والنوع ثم تقدم الى كستنجه وقبل وصوله الى وارنه رأى ثلاثة غلايين تحمل أعلاما غير روسية فلم يتعرض لها وكانت هذه السفن روسية الا أنها لما رأت الدونتما العثمانية على بعد أخفت جنودها ورفعت أعلاما أجنبية ولما وصل الى وارنه علم أن الثلاثة غلايين المذكورة أتت على حين غفلة وأحرقت سفينتين عثمانيتين كانتا بالمرسى وأسرت طوائفهما وكان القبودان المذكور ممن ليس لهم المام تام بالبحرية وليس معه من يرشده من الضباط الخبيرين لان بعضهم قتل فى مدة السيد على باشا السابق وحكم على بعضهم بالنفى فى بلاد بعيدة وجرد البعض وطرد من بين البحرية فلم يكن معه فى هذا السفر الا الجهال الذين كانوا يصرفون أوقاتهم فيما لا ينفع أصلا بل لم يكن بين الضباط من يعرف القراءة والكتابة فضلا عن العلوم الرياضية والهندسة وعلوم الملاحة التى هى أهم الامور فى الوظائف البحرية ولهذا لم تستفد الدولة من دونتمها فى هذه المرة أدنى فائدة أصلا حتى انه من جهل الرؤساء اتفق أن سفينة حربية روسية ساقتها الرياح بالرغم عنها حتى ألقتها ليلا وسط سفن العمارة العثمانية ثم خرجت ولم يتمكن أحد من القبض عليها وذلك كاف للحكم على درجة قواد هذه العمارة ثم عزل هذا القبودان عند عودته الى استانبول وتعين بدله حافظ على باشا

وفى سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) خرجت الدونتما العثمانية الى البحر الاسود وقبضت على سفينة روسية ولما وصلت الى وارنة اضطر الجيش الروسى الذى كان يريد حصارها أن ينصرف عنها وبسبب ما كانت عليه أساطيل العثمانيين فى ذلك الوقت من الاختلال والضعف كانت قرصان الروسية تتعرض لها فى الطريق وتحاربها ثم عادت فى فصل الخريف ولم تجر عملا ما وفى سنة ١٢٢٦ هـ تعين قره محمد باشا قبودانا للدونتما وعوضه تعين خسرو محمد باشا وهو كرجى الاصل وخرج بالدونتما سنة ١٢٢٧ هـ الى البحر الاسود وكانت العمارة الروسية تطوف حول شواطئ بلاد الكرج فبقيت الدونتما العثمانية تتردد بين سواحل سينوب ومضيق البوسفور ولم تتعرض احدى العمارتين للاخرى

اعمال الجيش العثمانى ومعاهدة بكرش (١٢٢٧ هـ) — كان القائد للجيوش العثمانية فى هذا الحرب هو الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا تعين بعد وفاة البيرقدار مصطفى باشا فلم يمكنه منع العساكر الروسية من التقدم فاستولوا على مدن اسماعيل وسلستره وروسجق وجهات نيكوبولى وبزارجق وهزارغراد فى سنتى ١٢٢٥ و ١٢٢٦ هـ ولذلك اتهموا ضيا باشا بالتهاون فعزل وصودر ونفى الى دمتوقه ووجهت الصدارة الى لاز أحمد باشا ولما قاد الجيوش بالروملى وكانت ٦٥ ألف مقاتل هاجم الروس ١٢٢٧ هـ وألزمهم القهقرى واخلاء روسجق بعد أن خربوها وأحرقوها وفى

خلالها أرادت فرانسا التوسط فى الصلح فرفض السلطان محمود مداخلتها لانه غضب جدا من المعاهدة التى عقدها نابليون بونابارت مع قيصر الروس اسكندر الاول فى تلسيت وكان من بنودها المشاركة فى تجزئة البلاد العثمانية كما تقدم واستمرت الدولة تحارب الروسيا على غير فائدة لهزيمة جيوشها وبينما كانت الحالة وخيمة العاقبة على الدولة من كل صوب اذ أتاها الله بالفرج فتعكر كأس السياسة بين نابليون الاول وبين دولة الروسيا العدم قيامها بتنفيذ بعض شروط معاهدة تلسيت التى كان من مقتضاها ان الروسيا تعاكس وتمانع تجارة الانجليز بغلق أبواب ثغورها عليها واشهر عليها الحرب (١٢٢٧ هـ - ١٨١٢ م) وسار بجيوش جرارة وقوة هائلة الى بلاد الروسيا فالتزمت الروسيا عند ذلك أن تسحب أكثر جيوشها من الحدود العثمانية وسعت فى مصالحة الدولة وعينت الدولة غالب أفندى كتخدا الصدر الاعظم وغيره مندوبين عنها بعثتهم الى مدينة بكرش أى بخارست وهناك عقدت المعاهدة المسماة بمعاهدة بكرش فى ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وكانت موافقة جدا للدولة العثمانية وبمقتضاها بقيت الافلاق والبغدان تابعتين لها كما كانتا وكذا بلاد الصرب مع بعض امتيازات ولما تم الصلح وعادت الجيوش عادت العمارة العثمانية أيضا الى استانبول وقد اغتنم السلطان محمود الثانى فرصة الصلح وأخذ يهتم فى تسكين الثورات القائمة بولايتى بغداد وأيدين وغيرهما واتمام المشروعات الحسنة والتعليمات الجديدة التى كان بدأ فيها السلطان سليم خان الثالث وأوقفه عن اتمامها ثورة الينكجرية وحرب الروسيا

رأى مؤرخى الدولة فى حالة بحريتها — وضع المؤرخ الشهير كاتب جلبى (١) فى تاريخه تحفة الكبار فى أسفار البحار مقالة رنانة شرح فيها بلسان عثمانى غيور على وطنه منتصر لملته قوة الدولة البحرية فقال ما ملخصه غير خفى ان الامور البحرية هى الركن الاعظم الذى يجب على الدولة العلية الاهتمام به والتقيد بشأنه لانه زيادة عن العنوان الذى للدولة العلية وهو سلطانة البرين وحاكمة البحرين كانت أكثر ممالكها المحروسة عبارة عن جزائر وسواحل بحرية خصوصا وان دار السلطنة أعنى مدينة القسطنطينية واقعة بين بحرين ولما كان ضبط ذلك وحفظه وحراسته متوقفا على أن يكون لها الشأن المهم فى البحار اعتنى السلف بالبحرية اعتناء لامزيد عليه ولذلك وجب أن لا يغفل هذا الامر المهم أصلا بل يلزم بذل المقدور فى جعله تاما كاملا اهـ وقد حذا المؤرخ شانى زاده (٢) حذوه حيث قال انه رأى كثيرا من سراة القوم وأعيانهم يتسامرون فى مجالسهم الخصوصية بأحاديث وأقوال عن بحرية الدولة وقالوا انهم لم يروا أقل منفعة عادت على الدولة من زمن مديد من أساطيلها وعوضا عن أن يقولوا انه اذا كان من الالقاب التى يلقب بها خليفة الاسلام لقب خاقان البحرين وكانت الدولة تريد المحافظة على هذا اللقب العظيم وجب عليها ان تهتم مزيد الاهتمام وتبذل ما لديها من الممكنات فى اكمال واتمام السفائن الحربية لازدياد القوة البحرية

(١) كاتب جلبى هو أحد العلماء والمؤرخين المشهورين توفى سنة ١٠٦٧ من الهجرة ومن تآليفه المعروفة تاريخه المشهور وكتاب كشف الظنون النادر المثال وكتابه المسمى جهانما وغيرها من الكتب النفيسة التى جعلته يعد ضمن أشهر المؤلفين والمؤرخين لدى العثمانيين

(٢) شانى زاده ويدعى محمد عطاء الله أفندى وهو من المؤرخين توفى منفيا سنة ١٢٤٢ هـ وله مؤلفات فى الطب والطبيعيات ومن تآليفه مرآة الابدان فى التشريح ومعيار الاطباء والمفردات والمرتبات واصطلاح الاطباء وغيرها فى الطب وله مؤلفات معتبرة فى الحساب والهندسة والجبر والمقابلة وله تاريخ معتبر

سمعتهم

سمعتهم يقولون بعدم لزوم الدونمنا بل الاولى حذف مصاريف دار الصناعة وصرفها فى شؤن أخرى الا أنه بحمد الله كانت هذه الاقوال ساقطة لدى السلاطين وليس لها أقل تأثير عند أصحاب النفوذ اهـ وقد فات هؤلاء المنتقدين ما وصلت اليه الدول البحرية من القوة العظيمة خصوصا دولة انكلتره ذات القوة البحرية العظيمة التى فضلا عن محافظتها بها على جزائرها الاصلية تمكنت بها من مد جناح سلطتها وسلطانها على كثير من الجهات البعيدة الغنية ولذا ترى المؤرخين من الانكليز وكتابهم يحثون دولتهم دائما على زيادة قوتها البحرية وأساطيلها الحربية اذ هى أصل رفعتها وسبب قوتها فرحم الله المؤرخ كاتب چلبى حيث كشف بعذوبة ألفاظه قناع الجهل عن وجه الحقيقة ونظم فرائد فوائده فى سموط الاقوال التاريخية بأحسن طريقة ورمى عن قوس الافكار المتوقدة فأصاب من الصواب كل دقيقة فانه أظهر ما تحتاجه دولتنا العلية من القوة البحرية وكثرة السفن الحربية حتى تكون على الدوام آمنة على سواحلها وجزائرها الداخلية فى مستملكاتها بالبحر الابيض والبحر الاحمر وبحر فارس والبحر الاسود ولقد كان عمل السفن قبل هذا الاهمال والتراخى اللذين أشرنا اليهما جاريا بكثرة فى دور صناعة الدولة ببعض سواحل بلادها ولم يكن عملها قاصرا على دور صناعة الاستانة فقط فكانت الغلايين تشيد فى بدروم الواقعة أمام جزيرة استنكوى ببحر الارخبيل وكانت الفراقيط تبنى فى كرميدان بسواحل آسيا الصغرى وفى جهات كثيرة من سواحل البحر الاسود ثم بطل العمل مدة من الزمن الا أنه فى ١٢٣٤ هـ أصدر السلطان فرمانا الى القبودان اچ ايلى أحمد باشا الذى خلف محمد خسرو باشا (١٢٣٣ هـ) باعادة العمل فى الجهتين المذكورتين فشيد فيهما غليونا وفرقاطتين وعين لذلك ما يلزم من العمال وفى سنة ١٢٣٦ هـ أى مدة قبودانية حسين باشا صنع فى دار صناعة استانبول كثير من السفن الحربية وشيدوا فرقاطتين بمدينة سينوب وشرعوا فى بناء غليون كبير آخر بالجهة المذكورة وأمروا باستمرار قطع الاخشاب اللازمة لبناء السفن وصدر بعد ذلك أمر لدار صناعة سينوب بعمل فرقاطتين أخريين وبذلك تم للدولة الحصول على سفن كثيرة فى زمن وجيز وقويت بحريتها

اهتمام السلطان محمود باستئصال ثورة الوهابية — قد ذكرنا فيما سبق ظهور طائفة الوهابية وأعمالهم وتعدياتهم على الاراضى الحجازية ولما رأى السلطان محمود أن امتداد نفوذهم موجب لتفرق الكلمة فى الاسلام عزم على ابادتهم تماما ولما كانت أحوال الدولة فى ذلك الوقت لا تساعد على ارسال الجيوش العثمانية الكثيرة لقمعهم كلف المرحوم محمد على باشا الكبير والى الديار المصرية (١٢٢٢ هـ) بمحاربتهم واسترجاع مكة المشرفة والمدينة المنورة من أيديهم فامتثل محمد على باشا للامر وأخذ فى اعداد الجيوش وانشاء السفن بدار صناعة بولاق ثم نقلها قطعا وركبها بثغر السويس الا أنه افتكر أن المماليك أعداءه ربما انتهزوا فرصة خلو البلاد من الحامية والجنود والقواد وقاموا بثورة تكون مضرة بنفوذه فعزم على استئصالهم قبل سفر الجنود وكاشف بعض أخصائه بذلك فدبروا له حيلة وهى أنه دعاهم الى حفلة بقلعة القاهرة ولما تكاملوا أوقع بهم فلم يفلت منهم الا اثنان أحدهما أحمد بك صهر ابراهيم بك الكبير والثانى يدعى أمين بك وكان أتى متأخرا ولما سمع اطلاق النيران بداخل القلعة علم المكيدة وهمز جواده وفر الى بلاد الشام وكان ذلك فى خمس خلون من صفر سنة ١٢٢٦ هـ ثم سافرت الجنود بعد ذلك تحت قيادة ولده طوسن باشا لحارب الوهابيين

واستخلص منهم المدينة المنورة ثم قصد مكة فحاصروه بجهة الطائف ولما بلغ محمد على باشا ذلك سافر مسرعا الى مكة فى شعبان سنة ١٢٢٧ ﻫ وقبض على شريف مكة الشريف غالب وأرسله الى مصر أولا ومنها الى سلانيك فبقى بها الى أن توفى (١٢٣٠ ﻫ) وأجلس الشريف يحيى بن سرور مكانه ثم قهر الوهابيين فى جملة وقائع واسترد منهم عدة بلاد ولما توفى زعيمهم سعود فى ١٩ ربيع الثانى من سنة ١٢٢٩ ﻫ تضعضعت قوتهم وعاد الأمن فى طريق الحج وحج فى تلك السنة خلق كثير وحج أيضا محمد على باشا ومن رافقه ثم عاد الى مصر فى رجب سنة ١٢٣٠ ﻫ

وفى خلال ذلك تقدم ولده طوسن باشا بالجيش المصرى الى بلاد نجد لمهاجمة مدينة درعية مركز الوهابيين فاحتل مدينة الرس بعد وقائع انتصر فيها ثم راسله عبد الله بن سعود الذى ترأس على هذه الفئة بعد وفاة زعيمهم السابق فقبل طوسن باشا منه الصلح أخيرا تحت شرط أن يدخل بجيوشه درعية وأن يرد الوهابيون جميع ما نهبوه من الحجرة الشريفة النبوية من الجوهرات والنفائس وأتاه مكتوب من والده يقول له أن يكلف عبد الله بن سعود بالتوجه الى استانبول لتقديم خضوعه وان أبى فالسيف حكم الا أنه حصل بالقطر المصرى فى تلك المدة ما أوجب عودة طوسن باشا سريعا ثم أرسل محمد على جيشا آخر تحت قيادة ولده الاكبر ابراهيم باشا فى شوال سنة ١٢٣١ ﻫ فتقدم من ينبع الى نجد وأخذ يحارب الوهابيين حتى دخل درعية عنوة فى شهر القعدة سنة ١٢٣٣ ﻫ (١٨١٨ م) ونفذ الشروط التى كان اشترطها طوسون باشا من قبل وأعيدت الجوهرات والدرة النفيسة المعروفة بالكوكب الدرى وكافة التحف الى الحجرة النبوية وسافر عبد الله بن سعود الى الاستانة وقتل هنالك وانقطع بذلك دابر الوهابيين وعاد الامن الى الاقطار الحجازية ثم عاد ابراهيم باشا بجيشه الى مصر غانما ظافرا سنة ١٢٣٥ ﻫ (١٨١٩ م) وكان لدخوله يوم مشهود

استئصال الدره بكار وقتل تبه دلنلى على باشا (١٢٣٦ - ١٢٣٧ ﻫ) - اعلم أنه بعد أن انتهت الدولة من مشاغل الحروب الروسية ومسئلة الوهابية سعت فى ازالة نفوذ الامراء أصحاب الاقطاعات وهم المسمون بالدره بكار فقتلت منهم عدة وكان والى يانيه تبه دلنلى على باشا وهو من أشراف الارنؤود ومن أرباب الدراية والشجاعة فيهم حكم بتلك الاطراف نحو أربعين سنة وحاز أموالا وأملاكا واسعة فى يانيه وبكيشهر وسلانيك ومناستر وغيرها وأخذت شهرته وثروته ومهابته تتزايد يوما فيوما حتى أصبح صاحب النفوذ فى جنوب الروملى وقد ساعد الدولة كثيرا فى حرب الروسيا الاخير ولما تعدت فرانسا على الديار المصرية أنعمت الدولة عليه وعلى أولاده برتب تليق بهم وأقطعته سناجق موره وما جاورها لما بذله فى خدمتها وقد خدم هذا الباشا الدولة سياسيا خدما جليلة وان كانت معاملاته لرعيته قاسية ظالمة وكان يحب ترقى أحوال بلاده فلذلك اهتم بتنظيم الطرق وتنشيط الزراعة ونحوها ورتب جيشا مؤلفا من عشرة آلاف عسكرى منظمة ولما كان لعلى باشا المذكور من السطوة والنفوذ الذى يؤثر به على أهالى جهات موره المستعدين لاثارة الفتن كانت الحكومة العثمانية تستعمل معه الملاطفة والملاينة دائما حتى اتضح الامر الذى كان بينه وبين حالت أفندى كتخدا الوزارة وصاحب النفوذ فى ذلك الوقت بهروب باشو بك كتخدا على باشا الى الاستانة فأخذ هذا الوكيل يذيع من الاسرار والمخبآت التى يعرفها السيده ما سقطت به منزلته من نظر السلطان ثم أعلنوا عصيانه لما أظهر التمرد وازداد ظلمه وجوره ومال الى حب الاستقلال بايالة يانيه وشبه جزيرة موره

وجهات

وجهات ترحاله وابيروس والجزائر السبع حتى انه كاتب نابليون بونابارت يطلب مساعدته على ادراك هذه الامانى ليكون له نصيرا وظهيرا فلما علمت الدولة بذلك عينت والى موره خورشيد باشا سر عسكر التأديبه فى أوائل سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) فتقدم بالجيوش وهاجمه من كل جانب حتى حصره أخيرا فى قلعة يانيه وأرسل تقريرا الى استانبول بما حصل فأمرته الحكومة بقتل الثائر المذكور حيث وجد وفى أثناء ذلك أرسل على باشا المذكور للسر عسكر يطلب التسليم ولما اجتمع معه لتقرير شروط الصلح أخرج له السر عسكر المذكور الفرمان القاضى بقتله فأحاطت به العساكر وقبضوا عليه وقطعوا رأسه وأرسلوها الى الاستانة ولما انتشر خبر قتل على باشا بين أهالى مورة الذين كانوا يسمونه بسبع يانيه الكهل شقوا عصا الطاعة وقاموا بالثورة كما سيأتى

الثورة اليونانية ووقائع موره — لما كانت البلاد اليونانية جبلية وأراضيها وعرة صعبة المسالك شب أهاليها على حب الثورة والميل الى شق عصا الطاعة ولذلك لما أرادوا الخروج على الدولة فى هذه المرة اجتمع زعماؤهم بعد أن أجمعوا رأيهم فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى خصوصا لما أثرت فيهم التحريضات الاجنبية فجاهروا بالعصيان (١١٨٢ هـ) واستعدت الدولة لكبحهم وعينت محسن زاده محمد باشا واليا على موره ثم خلفه حسن باشا الجزائرى وبما أظهر هذان القائدان من السطوة تمكنا من ردع الاروام فى الظاهر ثم ظهر فى تلك الاطراف تپه دلنلى على باشا وبما تحصل عليه من القوة والنفوذ منع تصميمات الروم فكان سدا منيعا لثوراتهم الا أنه بعد أن كسرت الدولة جيوشه وقتلته على يد والى موره خورشيد باشا كما مر بك اشتعلت نيران الثورة بين الروم وزادتها جمعيتهم السرية المسماة هيتريا (Hétérie) [1] اشعالا وهذه الجمعية كانت تشكلت فى مدينة ويانه بايعاز من الروسيا وكان ظاهرها السعى فى تعليم شبان اليونان المعارف والعلوم وباطنها بث روح الفساد والفتنة لتنفيذ المقاصد السياسية وكان بين أعضائها كثير من كبار الروم والقساوسة الساكنين فى بلاد الروسيا والمملكتين والولايات العثمانية ومن أوائل أعمال هذه الجمعية ان أحدثت فتنة فى بلاد المملكتين قتل فيها اليقو باشا أمير الافلاق سنة ١٢٣٦ هـ

ولما أخذت الدولة العثمانية فى تسكين الاضطراب الذى حدث بالمملكتين قام اليونان جميعا فى موره والتجأ سكانها من المسلمين الساكنين فى القرى والمدن الى القلاع واشتد أمر الثوار وقوى

(١) يطلق هذا الاسم الذى معناه الاتحاد والمؤاخاة على جمعيتين يونانيتين تأسستا احداهما بمدينة وينه بمساعى الكونت كابودى استيريا وكان غرضها ايجاد مدارس ببلاد اليونان وان تبحث عن المبانى اليونانية القديمة وتحافظ عليها وقد ساعدها العلماء والامراء وانتقل مركزها أخيرا الى مدينة اتينا الا أنها أبقت أموالها بمدينة مونيخ والاخرى جمعية سرية وهى المرادة هنا تشكلت بقصد تخليص بلاد اليونان من حكم الدولة وقد انضم اليها كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وملوكها وساعدوها بالاموال الطائلة وروجوا أفكارها ويقال ان امبراطور الروسيا كان رئيسها الاعظم وكان يشترط على أعضائها أن يقسموا الايمان المغلظة بأن يجعلوا أموالهم تحت تصرف الجمعية وأن يكونوا على استعداد لتضحية حياتهم لنجاح مشروعهم وأن لا يفشوا سرا من أسرارها أصلا وكان لهذه الجمعية شعبة أخرى بالقسطنطينيه بدء أعمالها ثلاثة رؤساء وكانت وظيفتهم الرسال روادا الى المدن التركية الكبرى يحرضون الناس على الانضمام اليها سرا (١٨١٧ م) وقد نجحت هذه الشعبة كثيرا حتى انه بعد مضى سنة من تأسيسها صار لها شعب فرعية سرية بأزمير وساقز وساموس وكالاماطة وميسولونكى ويانيه وبخارست وياش وتريسته وبست وموسكو وبعد أن استمرت هذه الجمعيات تشتغل سرا جاهرت بمقاصدها مرة واحدة بعد أن قمعت الدولة تپه دلنلى على باشا ويقال ان المؤسس لهذه الجمعية شاعر يونانى يدعى ريغاس قتله العامل العثمانى سنة ١٧٩٨ م

ساعدهم عما كان يصلهم من الامدادات الخارجية فأخذوا يحاصرون القلاع واستولوا على كثير من الاستحكامات الصغيرة واستمروا يحاصرون بلاد طرابليجة وانابولى وكردوس مدة ثورتهم بأجمعها وقد كان رجال الدولة وقتئذ يجهلون المساعى التى تبثها جمعية هيتريا المذكورة حتى ان خورشيد باشا لما سافر من موره الى يانيا القتال على باشا ترك عائلته فى مقر الولاية بطرابليجة ولم يهتم بادخار الذخائر والمهمات الكافية بقلعتها ولما فاز الثوار فى أكثر الجهات لتراخى الولاة فى تأديبهم اقتدى بهم كثير من البلدان الاخرى فشقوا عصا الطاعة وكان الكل يفتكون بالاهالى المسلمين فتكا ذريعا وحشيا وامتدت الثورة أيضا الى جزائر الارخبيل وآتنه وقارلى ايلى وترحاله ولم يتمكن كوسه محمد باشا وبهرام باشا اللذان تعينا لولاية موره بعد ذلك من ردع الاشقياء وكذا لم تحصل نتيجة من الوسائل التى استعملها بدرلى على باشا ولما تعين الصدر الاسبق سيد على باشا بمساعى حالت أفندى سرعسكر الموره تبددت قوته العسكرية قبل أن يصل الى محل مأموريته فاشتدت عند ذلك الثورة وزاد أربابها جراءة واقداما وضايقوا القلاع وشددوا عليها الحصار الى أن استولوا على طرابليجة وأسروا نساء خورشيد باشا وكوسه محمد باشا وكانوا بها كامنين ووضع اليونان السيف فى الاهالى ثلاثة أيام بلياليها ولم يحترموا شيخا ولا طفلا ولا امرأة ونهبوا جميع المنازل

وفى تلك الاثناء كان خورشيد باشا أتم مسئلة يانيه وقتل على باشا فاكتسب نفوذا واعتبارا لدى الدولة خصوصا لانه كان على مذهب حالت أفندى يرى ما يراه بخصوص تبه دلنلى على باشا الا أن خورشيد باشا لم يجد فى خزائن على باشا ما كان يظنه هو وصاحبه حالت أفندى من الاموال بل وجد بها ما يكفى مصاريف العسكر مدة شهرين فقط ثم عزل سيد على باشا من السرعسكرية وبقى برفقة درامه لى محمود باشا الذى خلفه فى منصب السرعسكرية بموره ولما سافر أخذ معه قوة مركبة من ٢٥٠٠٠ مقاتل (شعبان ١٢٣٧ ﻫ) وفى شهر رجب من السنة المذكورة حدثت مسئلة ساقز وسيأتى الكلام عليها فى الوقائع البحرية أما الدرامه لى محمود باشا المذكور فانه توفى بعد وصوله الى موره بزمن يسير قبل أن يتمكن من اجراء عمل ما ووقعت قلعة انابولى البحرية المهمة فى يد الاعداء (١٢٣٨ ﻫ) قال المؤرخون ان حالت أفندى المذكور كان السبب فيما أصاب الدولة من الهزيمات والخسائر لانه اهتم كثيرا بمسئلة عدوه تبه دلنلى على باشا وجرد عليه من كل مكان قصد هزيمته فى أقرب وقت فأهمل بذلك وقائع موره ولم يهتم بها كما يجب حتى وصلت الى هذا الحد مع أنه كان فى امكانه ملافاة الامر قبل استفحاله ولكن قدر فكان ولما كان المولى سبحانه وتعالى كثيرا ما يعجل بعقاب من أهملوا أمر العباد فى هذه الدنيا ليكونوا عبرة للغير سلط جد الله باشا الصدر الاعظم على حالت أفندى فتمكن من نفيه الى قونيه ثم تحصل من السلطان على فرمان بقتله كما سعى هو فى قطع رأس تبه دلنلى على باشا (صفر ١٢٣٩ ﻫ) ولما وصل خبر قتل حالت أفندى الى خورشيد باشا اعتراه الفزع والخوف لانه كان صديقه ومستودع أسراره فمرض من ليلته بمدينة يكيشهر ومات بها (ربيع أول ١٢٣٩ ﻫ) وخلفه فى السرعسكرية جلال باشا والى بوسنه وتوفى فى الطريق عند ذهابه ولما مات الدرامه لى محمود باشا انتخب القواد أحمد أديب باشا وكيلا للسرعسكر ية حتى تصدر الاوامر الا أنه مات بعد يومين من ذلك حيث أصابته حمى محرقة وبذلك لم يبق بموره من القواد أحد ولهذا اهتمت الدولة وأرسلت عدة جيوش وقوادا فاجتمع بذلك فى حدود اليونان عدد كبير من القواد الا أنهم مع ما بذلوه من الهمة

والشجاعة

والشجاعة لم يمكنهم اطفاء نار الثورة لاشتدادها وامتداد فروعها فى كافة الجهات ولفقد النظام من فرق اليكجرية وتمردهم وخروجهم عن حدود الطاعة عند الحاجة فلهذا السبب سقطت مدينتا أتينا وميسولونكى فى يد الثوار ولبثت أحوال موره مضطربة الى أن وجهت الصدارة الى غالب باشا الشهير (١٢٣٩ هـ) وكان قبل أن يتولى هذا المنصب رئيسا للكتاب وبذا كان له الوقوف التام على مصالح الدولة الداخلية والخارجية ولما قبض على زمام الاحكام سعى فى اصدار فرمان الى محمد على باشا والى الديار المصرية وطلب منه ارسال الجنود المصرية الى بلاد اليونان فلبى الطلب ونصبت الدولة ولده ابراهيم باشا الكبير الذى اشتهر بقمع الوهابية سرعسكرا على موره (١٢٣٩ هـ) وعينت رشيد محمد باشا سرعسكر الروم ايلى (١٢٤٠ هـ) وهو الذى كان بمعية خورشيد باشا السابق الذكر وبدد شمل ثوار بلاد ترحالة فتقدم هذا القائد بجيشه الذى رتبه فى يكيشهير وحاصر ميسولونكى وفى أثناء اشتغاله بحصارها تمكن ابراهيم باشا بجيوشه وأساطيله المصرية من استرداد قلعتى متون وناوارين الواقعتين فى جنوبى موره وأنزل الجنود المصرية فى فرضتى قورون وقلاماطه ثم تمكن بعد ذلك من فتح عموم بلاد موره فى ظرف عدة أسابيع ثم سار برا الى مدينة باليه بادره والتحق بالسرعسكر رشيد محمد باشا المحاصر لميسولونكى وفى خلال ذلك ذهب القبودان خسرو باشا بالدونمنا السلطانية وكسر أهالى جزيرتى ايبصاره وسيسام لمساعدتهم الثوار (١٢٤٠ هـ) ثم عاد القبودان المذكور بالدونمنا الى ميسولونكى وحاصرها بحرا وعمابذله الوزراء الثلاثة المذكورون فتحت ميسولونكى فى أوائل سنة ١٢٤١ وبذلك دخلت عموم بلاد موره تحت الطاعة وانقشعت غيوم الفتنة من كافة أطرافها

وقد كان الوفاق تاما بين القواد الثلاثة المذكورين أثناء محاصرة ميسولونكى حتى فتحها الا أنه بالنسبة لما كان بين خسرو باشا القبودان وبين محمد على باشا والى مصر من العداوة القديمة أخذ فى معاكسة ولده ابراهيم باشا واحباط مساعيه وصاركل منهما يكتب التقارير والعرائض ضد رفيقه ويرسلها الى الاستانة ولما خافت الدولة من أن هذه العداوة ربما كانت سببا لافساد ما أصلحته من أمر الثوار أرسلت أحد رجالها المدعو حسن بك وقبو كتخدا مصر نجيب بك الى موره للتأليف بين القائدين وازالة النفور من صدرهما وقد استمر خسرو باشا أيضا على معاكسة محمد على باشا حسدا منه على ماناله ولما بينهما من العداوة القديمة منذ كان واليا بمصر حتى انه منع ذهاب سفن الدونمنا لنقل الميرة اللازمة للجيوش المصرية من مصر ولما علم المرحوم محمد على باشا بذلك وأن جنوده أصبحت لاميرة ولاذخائر عندها بث شكواه للدولة متوجعا من سير خسرو باشا وسيرته ولما كان السلطان محمود خان يعلم حقيقة العداوة التى بينهما أمر بيقاء عشرين سفينة من الاساطيل الهمايونية صحبة ابراهيم باشا وأحال عليه قيادة عموم الجيوش البرية والبحرية بموره (١٢٤١ هـ) واستدعى القبودان خسرو باشا المذكور والى بوغاز الدردنيل ليكون على مقربة من الاستانة عند مباشرته الغاء أوجاق اليكجرية واصلاح أحوال العسكرية ثم فتح السرعسكر الكبير رشيد محمد باشا قارلى ايلى واينه بختى وليواديا وحاصر اتينا ثم فتحها عنوة وسكن بعد ذلك الثورة التى حدثت فى جزيرة كريد فكان ذلك النجاح سببا لسرور العثمانيين لظنهم أن المسئلة اليونانية قد انتهت خصوصا بعد أن أوقع السلطان باليكجرية وشكل النظام العسكرى الجديد (١٢٤١ هـ)

الوقائع البحرية أثناء ثورة اليونان — لايخفى أن اليونان اشتهروا فى القديم بالتلصص البحرى والمهارة فى سلك البحار قال أحد قواد البحارات الملاحة أصبحت فى بحر الارخبيل أكثر خطرا منها فى سواحل بلاد البربر فلم يمكن السفن أن ترسوا أو تقف على سواحل ذلك البحر بدون أن يلحق بها أضرار عظيمة لانه كان يوجد على الدوام فى تلك الجهات بعض السفن الكامنة خلف الصخور مترقبة مرور سفن التجارة خصوصا للنقض عليها وكان بين بحارة تلك السفن والاهالى سكان الشواطئ علامات متى عملت لهم تركوا أعمالهم وأتوا مسرعين لمساعدة لصوص تلك السفن على النهب والقتل ثم يأخذون فى مقابلة ذلك نصيبهم من الغنيمة وكان قرصان اليونان متى استولوا على سفينة أخذوها الى بعض الجزر المتباعدة وهناك صنعوا بها وبمن بقى فيها ما يحسن لهم صنعه وفى الغالب الكثير كانوا يقتلون من بها مخافة أن يعلموا ويعلم أمرهم وقد دام الحال على ذلك زمنا حتى ضجت أوروبا فأمرت دول انكلتره وفرانسا والروسيا سنة ١٨٢٧ م قواد سفنها بالقبض على كل سفينة تحمل علما يونانيا ماعدا السفن الحربية التابعة للحكومة

ومما ساعد اليونان على الانتصارات البحرية التى نالوها مدة ثورتهم عدم وجود قواد بحر يعتمد عليهم لدى العثمانيين فى ذلك الوقت وكون سفنهم ضخمة ثقيلة تعسر عليها الحركة الا فى الاماكن الرحبة والمياه العميقة بخلاف السفن اليونانية فقد كانت خفيفة صغيرة تتمكن من اجراء جميع حركاتها فى كل مكان لانها كما قلنا كانت بنيت بقصد التلصص فى البحار واعلم أن اليونان لما قاموا بالثورة أظهروا من الاقدام والكرم ما خلد لهم ذكرا وان كان الفضل فى الحقيقة فى نوالهم بغيتهم لاوروبا التى أخذت تمدهم بالاموال والذخائر والسفن من أول ثورتهم وقام الخطباء والشعراء بأوروبا يحرضون الامم والحكومات على مساعدة اليونان بكل الوسائل ليتخلصوا من حكم المسلمين وقد أثرت هذه الاعمال فى الاهالى والحكومات معا وتطوع كثير من أمراء أوروبا وأمريكا وقوادها وذهبوا الى بلاد اليونان وقادوا جيوشهم ونظموا أعمالهم أما اليونان فقد تبرع أصحاب السفن منهم بسفنهم الى القائمين بأمر الثورة ووهب جميع الاغنياء منهم أموالا طائلة لجمعية الثورة بحيث لم يدخر غنى أمواله أو يقصر فى بذل ما تملك يداه حبا فى الاوطان وقد كان اليونان يملكون فى هذا الوقت سفنا تجارية كثيرة جدا وكانت تلك السفن تتردد على جميع ثغور البحر الابيض المتوسط حيث أخذت الاهمية التى فقدتها سفن الفرنساويين التجارية بعد خروجهم من مصر واكتسبوا أيضا تقدما حينما اشتغلت انكلتره بمعاكسة مشروعات نابليون بحيث انه فى سنة ١٨١٥ كان لجزيرتى هيدره وايبصاره فقط ٦٠٠ سفينة بها ٣٠,٠٠٠ من الملاحين

واعلم انه لما حاصرت الجنود العثمانية مدينة يانيه مركز على باشا كان عمر فا بروزة التابعة لها ١٦ سفينة حربية لعلى باشا واليها ولما اشتد الحصار على الوالى المذكور خاف قومندان تلك السفن من الدونما العثمانية وأمره ولى باشا ابن على باشا وكان محافظ البروزة باغراق تلك السفن ببوغاز المدينة المذكورة ليسد بها ممر السفن حتى لا تتمكن الدونما العثمانية من دخول المرفا المذكور فأغرقها ولما انتهت مسئلة على باشا واستتبت أحكام الدولة بولاية يانية كما كانت وظهر من بعدها ثورة اليونان خافت الدولة من أن الثوار ربما أخرجوا تلك السفن واستعانوا بها على أعمالهم ولما لم يكن مع نصوح زاده على بك ربان الاساطيل العثمانية الراسية بتلك الجهات من العساكر ما يكفى لاخراج

السفن

السفن المذكورة استعان بالاهالى حتى أخرجوا ثلاث السفائن فى ليلة واحدة وسحبوها حتى أوصلوها الى داخل الجون الموجود فى فم لوروس وسلموها الى الاوردى العثمانى النازل فى تلك الجهة

ولاختلال الاحوال وانتشار الفتن فى معظم جزائر الارخبيل كان من الواجب اتخاذ الوسائل المؤدية لاخماد نيرانها قبل تمكنها واخراج الاساطيل من دار الصناعة الى البحر الابيض لتأمين الطريق البحرى الا أنه بالنسبة لمشاغل الدولة الداخلية اذ ذاك كما يقول مؤرخوها لم يمكن الاهتمام بهذا الامر المهم ولذلك امتد واشتد العصيان بكثير من جزائر الارخبيل بتحريضات قرصان اليونان وقد ازدادت جراءة الثوار لما ثار أهل الافلاق والبغدان على الدولة بدسائس الروسيا الامر الذى كان السبب الاكبر لمنع الدولة من ارسال أساطيلها فى الوقت المذكور خارج بوغاز الدردنيل الا أنه بعد أن تمكنت الدولة من اخماد ثورة هاتين المملكتين أرسلت أسطولا تحت قيادة نصوح زاده على بك الى سواحل البانيا وأمرته بالتيقظ والالتفات فى أعماله لان الدولة علمت أن اليونان حصلوا على كثير من السفن الحربية السريعة السير التى تضارع سفن انكلتره الحربيه فى القوة والمتانة وانها راسية بالقرب من اينه بختى فى مينا چاملجه وصوليجه ثم بلغها أيضا أنها أتت الى سواحل الاناضول لتمنع سفن الدولة من نقل الجنود والسطو على السفن التجارية العثمانية

ولما كانت أكثر سفن الاسطول الذى خرج مع على بك من النوع الخفيف وخافت رياسة البحرية باستانبول من أنه لا يقوى على سفن اليونان كتبت الدولة للمرحوم محمد على باشا بارسال قسم من الاساطيل المصرية يكون تحت امرة أحد قوادها لينضم للاساطيل العثمانية وطلبت منه بذل الهمة فى ذلك وارسال بعض سفن أخرى تتردد بين جزيرتى رودس وساقز لتأمين تلك الجهات وحفظ طريق الصادرات والواردات من الدولة واليها وفى تلك الاثناء طلبت أهالى جزيرتى بوزجه اطه وساقز من الدولة قدرا من العساكر لحماية جزيرتيهما من اعتداء سفن اليونان المتجولة بين جزائر مديللى وصوليجه وايبصاره وغيرها فأجابت الدولة طلبهم وأرسلت لهم العدد الكافى من الجنود ثم ابحر أسطول عثمانى آخر من استانبول الى البحر الابيض المتوسط مركب من ١٢ سفينة حربية بين كبيرة وصغيرة تحت قيادة توميك زاده على بك ولما هبت رياح الثورة والعصيان بجزيرة سيسام وامتدت الى جزيرة قوش اطه وجهت الدولة عليهما قوة عسكرية وعينت لسيسام اسمعيل باشا متصرف سنجق نيكده وصار أهل سيسام يتعرضون لسفن التجارة العثمانية ويقتلون من بها وبذلك قطعوا الطريق البحرى بين سيسام وساقز ولانتشار الثورة بجزائر البحر الابيض المتوسط كما علمت كان يتعذر على الدولة ايصال الارزاق والمهمات الحربية الى قلاع موره من طريق البحر ولذلك رأت من الضرورى جلب قوة عسكرية من الاناضول للروملى ليمكنها ارسال الامدادات الى الجهة المذكورة برا وأمرت دار الصناعة بتسليح الدونمانا الاوقرر مجلس البحرية الذى عقد اذ ذاك تحت رياسة حمد الله باشا القبودان العام بان لا ترسل سفن جسيمة كالغلايين بل ترسل سفن من نوع الفراقيط والقراويت والاباريق لنقل العساكر من الاناضول لان السفن اليونانية التى مع العصاة لا يمكنها مقاتلة القوة البحرية العثمانية المركبة من هذه السفن كما علم من الوقائع الماضية حيث ظهر أن سفن اليونان متى تقابلت مع قوة بحرية عثمانية تخاف منها وتركن الى الفرار ولان السفن اليونانية هى من النوع الخفيف وفى استطاعتها القرب من الساحل لصغر حجمها فاذا كانت الدونما العثمانية مركبة من سفن خفيفة كان فى امكانها أن

تحمل على الاشقياء مهما اقتربوا من السواحل بقصد الهرب وتذاكر المجلس أيضا فى سفن وجاقات الغرب فأقر على عدم صلاحيتها فى الحرب ثم أقر المجلس على ارسال فرقة بحرية متطوعة من سفن التجار ترافق الدونمنا العثمانية وكتبت بذلك أوامر لمتصرف رودس ووالى مصر ووجاقات الغرب أن يرسلوا سفنهم الحربية الخفيفة لمرافقة الدونمنا العثمانية ثم أخذت دار الصناعة فى اعداد أسطول خلاف الاسطول السابق وكان يتركب من ثلاث فراقيط وثلاثة أباريق ليتجول بالبحر الابيض المتوسط وفى خلال ذلك وردت محررات من نصوح زاده على بك قومندان أسطول سواحل البانيا وموره بان العصيان بهاتيك الجهات قد استفحل أمره وانتشر فى كافة السواحل ويطلب لذلك مددا من السفن وأوصى بأن سفن التجار التى ترسل اليه يلزم أن ترافقها سفن حربية لحمايتها من تعديات اليونان الذين لا ينفكون عن الفتك بسفن الدولة وقال انه جمع سفنه التى كانت منتشرة فى السواحل الالبانية بقصد الخفارة فى نقطة واحدة وتوجه بها الى جهة اينه بختى مخافة أن يصيبها أمر وهى متفرقة وأتت أيضا مكاتيب من خورشيد باشا سرعسكر يانيه مؤيدة لما ذكره القبودان المذكور ثم كثر تعرض سفن اليونان للسفن التجارية العثمانية خصوصا حتى ان عدة منها تعرضت لسفينة آتية من مصر وكان بها السيد محمد سعيد افندى قاضى الديار المصرية فقبضوا عليه وقتلوه هو ومن معه وذلك فى أواسط شعبان من سنة ١٢٣٦ ولما علم السلطان بذلك تكدر وأصدر فرمانا بتجهيز عدة من السفن الحربية لتقوية الاسطول الذى تعين من قبل لمحافظة على جزائر الارخبيل فاهتمت ادارة البحرية بتنفيذ الاوامر وسلحت ثمان مراكب تجارية بعد تغيير شكلها الى شكل حربى واتفق أيضا أن سفينة تجارية عثمانية كانت آتية من كريد الى استانبول وبينما هى سائرة اذا احتاطت بها ثمان سفن يونانية وكادت تفتك بها لولا أن أغاثها الله بوصول الاثنتى عشرة سفينة حربية التى أرسلها المرحوم محمد على باشا الكبير والى الديار المصرية تحت قيادة صهره محرم بك فحملت على السفن اليونانية وشتتها وقبضت على اثنتين منها ولما اتصل بالاستانة أن محمد على باشا عزيز مصر جهز دونمنا أخرى مركبة من ١٨ سفينة حربية صدر الامر بخروج الدونمنا العثمانية وبعد أن تنضم للاسطول المصرى المذكور يذهبان سوية الى بريزة ليخلصا الاسطول العثمانى الموجود هناك تحت قيادة نصوح زاده حيث أصبح كالمحجور عليه وبعد قيام الاسطول العثمانى خرجت أيضا الثمان سفن التجارية التى تم تسليحها كما تقدم وأصحبت بفرقاطة وفى هذا الشهر أوقع اليونان بسفينة عثمانية من نوع القباق كانت خرجت لتنضم للدونمنا وقتلوا غالب من بها من الجنود وذلك فى ليمان صغرى من جزيرة مديللى وسبب ذلك أن طائفتها لم تصغ لاقوال ربان القباق وألزموه بالدخول الى المينا المذكورة فاحتاطت بهم اليونان برا وبحرا وفتكوا بهم ووردت محررات الى الاستانة من الرياله سيد على بك بان أهالى جزيرة جونده منعوا العساكر العثمانية من النزول الى البر بقوة السلاح ولما كانت التعليمات التى أعطيت له قبل سفره هى ردع كل من يظهر العصيان بالقوة ولم يقم باجراء هذه التعليمات أضاع الوقت فى المخابرات على انه من الضرورى ملافاة الخطب قبل تفاقمه وان الاحوال لا تساعد على المخاطبات بما لا طائل تحته ولذلك عزل من قومندانية الاسطول الذى يقوده وتعين مكانه البطرونة مختار بك وأمدوه بغليونين وفرقاطة

ولما كانت صناعة الشراعات وما يختص بها وهى المسماة فى البحرية بالارمه دورية احتكرتها

طائفة

طائفة اليونان و برعوا فيها حتى فاقوا غيرهم كثيرا وخافت الدولة من خيانتهم لها متى كانوا بالسفن التى تطارد سفن اليونان أو تحاصر بلادهم صممت على تغييرهم بعمال من التليانيين ثم بدا لها فيما بعد ما جعلها تعدل أيضا عن التليانيين الى صناع من المسلمين ونشرت بذلك الاوامر بكافة السواحل العثمانية مثل الاسكندرية ومصر والشام وكريد ورودس وطرابزون وشواطئ العرب و بذلك تمكنت دار الصناعة فى زمن يسير من الحصول على القدر اللازم من الصناع المسلمين بل انها رأت أن ملاحى سواحل العرب أمهر من الملاحين الاوروباويين فى ذلك الزمن ولهذا استجلبت منهم ما يلزمها العموم سفن الدونتما ثم سيرت الدولة أساطيلها التى كانت راسية ببوغاز الدردنيل الى البحر الابيض للتجول والمراقبة كما سبق

و وردت مكاتيب من محمد على باشا والى الديار المصرية الى نجيب أفندى قبو كتخدا مصر أن الثمانية عشر سفينة التى جهزها المرافقة الدونتما العثمانية قامت من ثغر الاسكندرية فى ٢٣ شوال سنة ١٢٣٦ ه تحت قيادة طبوزاوغلو القبوجى باشى محمد أغا وانها أمرت بالتوجه الى رودس لتنضم الى الدونتما العثمانية وترافقها الى برو يزه وهنالك تلتحق بالاسطول المصرى الذى تحت قيادة محرم بك وقال انه كلما جهزت سفائن حربية أخرى ترسل فى الحال حسب الوعد السابق ولما وصلت الدونتما الهمايونية التى قامت من الاستانة تحت قيادة البطرونه مختار بك الى سيسام ورأتها سفن اليونان المجتمعة هنالك ولت الادبار فى الحال ولما رسا أمام الجزيرة أرسل السفن التجارية معه لنقل الجنود من برالاناضول الى الجزيرة المذكورة لتأديب سكانها بالقوة لشقهم عصا الطاعة واخلالهم بالراحة وارتكابهم المفاسد وبينما هو يستعد لذلك اذ ورد له أمر من القبودان باشا يستدعيه بلا ابطاء للانضمام الى أسطول القبودان على بك فجمع القواد وتلا عليهم الامر وأمر بالاقلاع حالا ولم ينتظر حضور السفن التجارية التى أرسلها لنقل العساكر كما تقدم ولم يترك سفينة من سفن العمارة لخفارتها ولما كانت طوائفها من المتطوعين الذين يجهلون الاعمال البحرية وقعوا فى يد اليونان الذين أحرقوا سفنهم عن آخرها بعد قتال عنيف وذلك من اهمال مختار بك وعدم تبصره فى الامر وفى أثناء ذهاب مختار بك تقابل مع الاسطول المصرى فسارا سوية وكانت سفنهما خمسين سفينة ولما اقتربا من استانكوى تلاقيا بمائة سفينة شراعية يونانية فاحتاطا بها بقرب بدروم المقابلة لاستانكوى ومع ذلك فانه لما تضايق اليونان وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة هجمت عدة منهم بشدة وجراءة هجوم اليائس على بعض الاساطيل العثمانية ففتحوا لهم طريقا بينها هربوا منه بعد أن كانوا فى قبضة العثمانيين وكان يمكن العثمانيين تعقبهم لولا أن مأمورية مختار بك تستدعى حضوره سريعا ولما وصلت فرقة مختار بك الى بيارده وانضمت الى فرقة على بك أرسلت قسما من سفنها أغار على سفن اليونان الراسية بمينا قاله ايكسيدى فاحرقتها وغنمت منها ١٨ مدفعا وذخائر حربية وقد نسب المؤرخون هذا الانتصار ليوسف باشا متصرف بادره ومع ما كان للدولة من هذه السفن لم تستفد منها شيأ يذكر وكل هذا من اهمالها أمر بحريتها وعدم اهتمامها بها كاهتمامها بامر الجنود البرية وفى شهر صفر من سنة ١٢٣٧ ه عينت الدولة نصوح زاده على باشا المتقدم الذكر قبودانا عاما مع جعله حاكما لبلاد الجزائر وعينت محمد باشا محافظ البحر الابيض وسردارا على العساكر وأمرتهما بالذهاب الى موره لقمع الثورة

قد علمت مما سبق أن اليونان كان لديهم كثير من السفن ولمهارتهم فى الملاحة ضايقوا الاساطيل العثمانية كثيرا وتمكنوا من تخريب عدة قلاع ساحلية وذلك أنهم فى شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة أتى من سيسام ستون من سفنهم الى جزيرة ساقز وأخرجت بها ٧٠٠٠ نفر فحاصر وا قلعتها مدة ٢٨ يوما وما زالوا ينازلونها ويشددون عليها الحصار حتى نفد بارود حاميتها وقنابل مدافعهم ووقع باهل الجزيرة من المسلمين اليأس الكلى وكادت القلعة تقع فى يد الثوار لولا أن الدولة بادرت بارسال العمارة العثمانية تحت قيادة القبودان نصوح زاده على باشا وبها ما يلزم من المعدات الحربية ولما قربت من تلك الجزيرة وصارت أمام جزائر قيونلطه ورأتها سفن الاشقياء فرت هاربة من أمام القلعة وكمنت خلف الجزيرة ولما رست الدونما وأرادت اخراج الجنود تعرض لها الثوار المحيطون بالقلعة وأرادوا منعها فقهرتهم الجنود حتى بددت شملهم الا أنهم قبل فرارهم تمكنوا من احراق سفينة عثمانية كانت قريبة من الشاطئ ثم أخرجت الدونما ثمانمائة جندى الى القلعة فانضموا الى قوة وحيد باشا محافظها ثم ابتدأت العساكر العثمانية التى كانت مجتمعة بساحل چشمه بالاناطول فى العبور منه الى الجزيرة بالزوارق ولما قويت الحامية العثمانية هناك بما وصلها من الامداد والذخيرة هاجمت الثوار وأوقعت بهم فى كل جهة بحيث لم يمض الا القليل حتى ضرب الامن سرادقه ونصبت الراحة أعلامها فوق الجزيرة المذكورة وفى ذلك الزمن وقع اختلاف بين القبودان باشا وبين محافظ الجزيرة المذكورة بخصوص ابقاء العمارة العثمانية بمياه ساقز وبعد أن قمعا الثورة سوية بجزيرة ايبصاره رفعا شكواهما الى الاستانة وقال القبودان باشا فى تقريره ان اشتغاله بنقل العساكر الى جزيرة سيسام وبقاءه فى مياه ساقز يؤخر اتمام مسائل موره التى هى أهم بكثير من غيرها ولما صادقت الدولة على قوله استعفى وحيد باشا من وظيفته فعينت الدولة مكانه محافظا آخر يدعى عبدى باشا واتفق انه قبل قيام وحيد باشا من جزيرة سيسام وقبل وصول خلفه اليها وقعت حادثة غريبة للقبودان باشا قضى عليه بسببها فى تلك المواقع ذكرها الكاتب الشهير ديشلك فيضى أفندى فى تاريخه الذى كتبه عن واقعة ساقز الشهيرة وقد رأينا من المفيد أن نذكرها هنا تتميما للفائدة وهى

حادثة ساقز — انه فى يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان من سنة ١٢٣٧ ﻫ (١٨٢٢ م) بينما كانت الدونما العثمانية التى تحت قيادة نصوح زاده على باشا راسية أمام جزيرة ساقز حضرت سفينة حربية رافعة راية نمساوية ورست بعيدا عن الدونما ونزل قبودانها لزيارة القبودان باشا كالاصول البحرية فقابله فى سفينته وفى أثناء محادثتهما معا أخبر قبودان السفينة النمساوية القبودان باشا بعزمه على القيام غدا وبعد خروجه حضر بين يدى القبودان باشا التلامذة المهندسون الذين بسفينته وقالوا له انهم مشتبهون فى شكل وهيئة هذه السفينة النمساوية ويلتمسون أنه يأمر بكشف حقيقتها حسب أصول البحر وقواعده خصوصا فى أزمنة الحروب هذه فلم يلتفت لقولهم ولم يهتم به أصلا وعند غروب ذلك اليوم أقلعت السفينة المذكورة بسرعة فوقع الشك عند جميع ضباط العمارة العثمانية لان ربانها خالف بذلك ما قاله للقبودان باشا من قيامه فى صباح اليوم التالى ولذلك قابلوا القبودان باشا وطلبوا منه الامر باستعداد العمارة للمدافعة ليكونوا فى أمن مما عساه أن يحدث

من

من مكايد الاشقياء فقال لهم انكم رجال خوافون لان العدو اذا كان نارا فلا يحرق الاعلى قدره فسكتوا عند ذلك وتحققوا أن تلك السفينة لم تكن الا يونانية محضة أتت لاختبار حالة العثمانيين ومعرفة موقع سفينة القبودان باشا وموقع بقية سفن الدونتما أثناء وقوفها ولما تم لها ذلك أقلعت كما تقدم ولقد تأثر قبودانات الدونتما العثمانية من غفلة القبودان باشا وعدم تبصره فى العواقب وسرت هذه الغفلة اليهم هم أيضا فلم يهتموا حسب الواجب عليهم فى التيقظ والانتباه لما عساه يحدث من المكايد بل ألقوا أجسادهم على مهاد الدعة والسكون ولما كانت الساعة السادسة ليلا لم يشعروا الا وحراقات اليونان التصقت بالدونتما العثمانية وألقت النار بغليون القبودان باشا وحل الخوف والذهول بباقى قبودانات السفن حتى انهم لم تبد أقل حركة لانقاذ سفينة القبودان من الهلاك ثم سرت النار منها الى سفينة أخرى كانت تحت ريح الاولى وعند ذلك نشرت بقية السفائن أشرعتها وابتعدت عن السفينتين الملتهبتين ولما يئس القبودان باشا مع ما بذله من المجهود نزل فى زورق يريد النجاة الا ان النيران كانت وصلت الى مخزن بارود السفينة فتفرقعت وطارت فى الهواء قطعا ووقعت قطعة ملتهبة منها على زورق القبودان فاغرقته بمن فيه وهكذا ذهب القبودان فريسة جهله وعناده وقد وجدت جثته طافية على الماء فاستخرجت ودفنت بجزيرة ساقز وكان هذا نهاية هذه الحادثة التى نتجت من عدم التبصر والتدبر فى الامور وخسرت الدونتما غليونا من الغلايين المهمة وبعد موت القبودان باشا خلفه فى مسند القبودانية العامة مختار بك بأمر من وحيد باشا لحين صدور أمر من الدولة ثم تعين قره محمد باشا وكان سرعسكرا على الجيش الموجود بالسفن المتجولة بجهات بالوبارده وتعين مختار بك قبودانا للسفن المصرية وسفن وجاقات الغرب وأمر بالذهاب الى جزيرة كريد بعد أن يرافق العمارة العثمانية الى مياه بالوبارده ويسلمها الى القبودان باشا ليضمها الى السفن الموجودة تحت ادارته ولما تعين قره محمد باشا لمسند القبودانية العامة لم يلتفت الى الجهات الواقع فيها العصيان ولم يهتم باحوالها ولم يمد أيضا قلعة انابولى بالمدد الذى يحفظها بل تركها هى والسواحل فى أشد الحصار ورجع بالدونتما الى بوغاز الدردنيل فعزل لنذالته وعدم كفاءته (١٢٣٨ هـ) وتعين مكانه محمد خسرو باشا والى طرابزون اهـ

وفى أول شعبان من سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) جهزت الدولة دونتما مركبة من خمسين سفينة حربية من نوع القرويت والفرقاطة أقلع بها خسرو باشا الى البحر الابيض وخرجت أيضا دونتما أخرى مركبة من نوع الاوج انبارلى وأربع قباقات وعشرين فرقاطة للمحافظة على بوغاز البحر الاسود ولو كانت تمكنت الدولة من ارسال هذه القوة البحرية الى سواحل اليونان مباشرة لامكنها قمع ثورتهم وابادة وحدتهم ثم ذهب خسرو باشا الى ساحل موره ولما وصل اليها وجد اليونان أغاروا بسفنهم على ناحيتى مندمن وكوزل حصار ثم ذهب من هناك الى المياه المصرية لاصلاح بعض سفنه وأخذ ما يلزم له من المهمات كما رواه لطفى أفندى فى تاريخه وفى سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) صدر فرمان الى ابراهيم باشا نجل محمد على باشا والى الديار المصرية بان يتولى أمر تسكين ثورة موره بشرط أن يكون مستقل الرأى نافذ الامر فى كل ما من شأنه اخماد الهيجان وحمل هذا الفرمان الى الاسكندرية أحد قواد البحر العثمانيين المدعو حسين بك ومعه فرقة من العمارة العثمانية ثم صدر

أمر آخر الى القوة البحرية الموجودة بسواحل بالوباردة تحت قومندانية جشمه لى خليل بك بأن يكون تحت إمرة ابراهيم باشا وفي معيته وبناء عليه قدم ابراهيم باشا المشار اليه من ثغر الاسكندرية بدونما عظيمة وقوة عسكرية جسيمة وذلك في شهر القعدة من السنة المذكورة وفي أثناء ذهابه تلاقى مع خسرو باشا بجهات بودروم وكان تأخير خسرو باشا عن الوصول الى تلك المياه لهذا الوقت هو لهجوم عدة من سفن الاشقياء عليه بقرب جزيرة سيسام فحاربهم وأوقع بهم وقبض على كثير من سفنهم ثم انهم أرادوا بعد ذلك الانتقام منه على ما أصابهم فوجهوا على سفنه بعض الحراقات فأتلفها لشدة تيقظه وتيقظ ضباطه ثم ان خسرو باشا أقلع بقسم من السفن عائدا الى الاستانة لبعض الشؤون وأبقى العمارة تحت قيادة مختار بك وبمعيته المرحوم ابراهيم باشا ولما أقلع ابراهيم باشا من بودروم قاصدا موره تعرض له في الطريق بعض سفن اليونان قرب ساقز فحاربهم محاربة شديدة وشتت شملهم ولم ينالوا منه سوى الهزيمة والفرار

أما ابراهيم باشا فكانت الريح غير مساعدة للسفن التي بمعيته ولذلك رسا بها على ثغر مرميس ثم قام منها الى ليمان سوده بجزيرة كريد وبعد أن مضى على أسفاره هذه أربعة شهور أقلع أخيرا من سوده في رجب سنة ١٢٤٠ هـ وكانت الجنود التي معه يبلغ عددها ستة آلاف من الرجالة وستمائة من الخيالة ولما وصل الى ساحل موره قرب قلعة متون وأخرج عساكره الى البر فر الثوار الذين كانوا يحاصرون قلعتي متون وقرون أما السفن التي كانت تحمل الادوات والذخائر فقد تأخرت عنه في الطريق فاضطر أن ينتظرها بجوار قلعة متون حتى وصلت اليه جميعها في أوسط رمضان من السنة المذكورة ولما قرب فصل الربيع ابتدأت الاعمال الحربية بجميع الاماكن العاصية وتقدمت القوة البرية التي مع ابراهيم باشا برا الى ناوارين وسارت الدونما بحرا اليها أيضا وحاصرتها وبعد وقوع محاربة شديدة برا وبحرا التزم الثوار بتسليمها فدخلتها الجنود المصرية واغتنمت منها غنائم جسيمة وأموالا عظيمة وفي شهر شعبان من سنة ١٢٤٠ هـ قام محمد رشيد باشا سر عسكر الروملي وحاصر مدينة ميسولونكي وأقلع القبودان خسرو باشا باسطول مركب من ١٨ سفينة كانت بنيت بالاستانة تحمل ذخائر وأدوات حربية فصادفه عند مروره من بوغاز اندره بعض سفن للثوار فأوقع بهم وشتت شملهم الا أنهم استولوا على سفينة من سفنه كانت تحمل خزينة العمارة ولما وصلت الدونما الى ميسولونكي أخرج القبودان باشا بها المهمات الحربية التي كانت معه لهذه البلدة ثم بعد أن أصلح ما لحقه التلف من سفنه في واقعة اندرة المذكورة عاد وانضم الى الدونما المصرية التي كانت تحت قيادة الاميرال المصري محرم بك صهر محمد علي باشا الكبير وذهبا معا الى ميسولونكي ثم حضر ابراهيم باشا الاوردي الى جهة بادره واتفق مع السر عسكر باشا على حصار ميسولونكي برا والدونمتان يحاصرانها بحرا وبذلك انقطعت الامدادات اليونانية عن هذه القلعة وفي أثناء الحصار هاجمت سفن كثيرة يونانية السفن العثمانية والمصرية دفعتين الا أنها ارتدت خائبة وأتت أيضا بعد ذلك أربع سفن حربية يونانية ومعها ١٥ حراقة وأرادت مهاجمة الاساطيل المصرية والعثمانية وتوصيل الذخائر والادوات الحربية للمحصورين فلم تفلح وكسر بعضها وقال بعض المؤرخين ان السفن اليونانية هذه كان معها سفينة بخارية ولا يبعد صحة

ذلك

ذلك القول لان الآلات البخارية كان قد تم اختراعها وظهر فى العالم البحرى وجودها ولكن لم تكن منتشرة كثيرا

وقد كانت ميسولونكى من القلاع المنيعة وكان موقعها الجغرافى يجعل الوصول اليها كتناول جبهة الاسد لانه يحيط بأطرافها مستنقعات و بساحلها شعاب صخرية ممتدة فى كل أطرافها على بعد نحو ميل بحرى وحولها جزائر كثيرة منها جزيرة واسيلقوز وهى جزيرة صغيرة فوقها عدة استحكامات قوية ولما شرع العثمانيون فى حصارها قر رقائدهم لزوم ضبط الاستحكامات التى بجزيرة واسيلقوز أولا وعلى ذلك رتبوا عدة صالات وفلائك وسلحوها بالهوانات والمدافع للهجوم عليها وعينوا لهذه الفرقة البحرية الخفيفة السرچشمه حسين بك أحد أمراء القوة المصرية بصفة قومندان بحرى فتقدم المذكور رويدا رويدا سابرا غور الماء ولما وصل الى الجزيرة المذكورة وهجم عليها دافع الثوار عنها مدافعة الابطال المستميتين غير أن شجاعة العثمانيين تغلبت عليهم وقهرتهم فاستولوا عليها فى الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور (١٥ رمضان ١٢٤٠ هـ) ولما كانت قلعة ميسولونكى من أمنع قلاع الجهات المذكورة كما أسلفنا وضع بها ثوار اليونان أموالهم وأمتعتهم الثمينة وكذا عائلاتهم ولذلك بعد استيلاء العثمانيين عليها اغتنمت العساكر منها غنائم وأموالا لاتحصى ثم استولت الجنود بعد ذلك على كافة الاستحكامات التى شيدها اليونان فوق الجزائر الصغيرة الاخرى

ولما كانت أموال اليونان وذخائرهم وعائلاتهم بقلعة ميسولونكى كما قلنا وخشوا من وقوع تلك القلعة فى يد العثمانيين تقدموا بسفنهم نحو بيروت وقبرص وغيرهما من ثغور الدولة فهاجموها بقصد أنهم بذلك الهجوم يجعلون بعض قوة الدولة العلية البحرية تترك حصار تلك القلعة لمنازلتهم الا أنهم خابوا فيما أملوه وارتدوا من تلك السواحل مقهورين وفتحت قلعة ميسولونكى كما تقدم ووصلت البشرى بفتحها والاستيلاء عليها الى الاستانة بعد سبعة أيام و بعد الفتح حدثت نفرة بين خسرو باشا القبودان وابراهيم باشا سببها الظاهر أن خسرو باشا كان تأخر عن اسعاف ابراهيم باشا فى ارسال السفن اللازمة لاحضار ذخائر وأدوات حربية من مصر وان ابراهيم باشا كان لا يأتمر فى الغالب الا بما يصدر له من والده المرحوم محمد على باشا ثم أقلعت عشرون سفينة حربية عثمانية تحت امرة ابراهيم باشا للاستيلاء على جزيرتى جاملجه وصولجه وكانتا مأوى للثوار وأقلع خسرو باشا باقى العمارة الى سيسام ثم عاد الى مضيق الدردنيل بامر من الدولة التى خافت من ان النفور الذى بينه و بين ابراهيم باشا ربما أدى الى مالا تحمد عاقبته كما مر ومازال النصر برافق الجنود العثمانية والمصرية فى غالب الوقائع بحيث لم تنته سنة ١٢٤٢ حتى استردت الدولة كل مقاطعات أتينه وقلاعها وكانت فى قبضة الثوار وانقطع منها أسباب الخصام وذلك بهمة البطل الشهير ابراهيم باشا المصرى وبما عليه الجنود المصرية من حسن النظام وكمال التدريب ومع ذلك فلم تنفك سفن اليونان عن التعدى على السفن المصرية والعثمانية السائرة بالبحار ولما رأت الدولة نتيجة الهمة التى بذلها المرحوم محمد على باشا أصدر له السلطان فرمانا أحال عليه تخليص جزائر البحر الابيض من قبضة الثوار وكبح جماحهم والولاية على جزيرة كريد و بلاد موره (١٢٤٢ هـ - ١٨٢٧ م)

ثم عزل خسرو باشا من رياسة البحرية وخلفه فيها عزت باشا وعين جنكل أوغلى طاهر باشا البطرونة قومندانا على الدونتما التى بمياه موره فاقلع بها الى ناوارين ثم وصلها محرم بك صهر محمد على باشا الكبير بالدونتما المصرية (١١ صفر سنة ١٢٤٣ ه‍ ١٨٢٧ م) وبذلك أصبح مجموع هاتين العمارتين يتألف من ٥١ سفينة حربية جعلت تحت رياسة ابراهيم باشا وصدرت لها الاوامر بالذهاب الى جزائر صوليجه وجامليجه وفى خلال ذلك أتت سفن يونانية وهاجمت قلعة سوليون وكانت هذه القلعة فى أيديهم ونزعت منهم فأرسل ابراهيم باشا عليهم قوة بحرية ردتهم عن مبتغاهم ثم بعد ذلك كانت مداخلة أوروبا وواقعة ناوارين كما سيأتى

مشارطة آقكرمان (ربيع الاول ١٢٤٢) — لما عقدت الروسيا مع الدولة معاهدة بكرش السابقة كانت الظروف اضطرت الروسيا الى سرعة الاقرار عليها لنقل جيوشها من حدود الدولة الى حدودها الغربية ولذا كانت بعض أحكام المعاهدة المذكورة تحتاج الى التفسير والايضاح ولما مات اسكندر قيصر الروس وصعد مكانه نيقولا الاول ورأى أن الدولة مشتغلة بمسائل اليونان وغيرها انتهز فرصة ذلك لنوال مرغوبه وعرض على الباب العالى بواسطة سفيره تحرير تلك المعاهدة وأخيرا لما لم ينل سفيره مرغوبه سافر من الاستانة ولما كانت الدولة وقتئذ مشتغلة بثورة اليونان من جهة وبمحو أوجاق اليكجرية من الاخرى خشيت حدوث ارتباكات مع الروسيا فقبلت المخابرة معها لتفسير ما انبهم معناه من بنود المعاهدة المذكورة وعينت من قبلها مرخصين وهما هادى أفندى محاسبجى الاناضول وابراهيم عفت أفندى من الموالى وأرسلتهما الى آقكرمان وهنالك تقابلا مع مندوبى الروسيا وبعد مذاكرات طويلة أقروا على توسيع بنود المعاهدة المختصة بحدود الاناضول وبامتيازات المملكتين والصرب على أن يجوز تنصيب أميريهما من أعاظم أهاليهما لمدة سبع سنوات ومتى عزلا أو نصبا كان للروسيا حق المشاركة فى الرأى وعليهما دفع الخراج المضروب للدولة وانه ليس للروسيا حق المداخلة فى أمر سكنى الاهالى الاسلامية فى القلاع ولا فى ادارة داخلية الايالات المذكورة (١٨٢٦م) وأن يكون للروسيا حرية الملاحة فى البحر الاسود

ابادة أوجاق اليكجرية وتنظيم العسكرية — لما تيقن السلطان ان السبب الوحيد فى انحطاط الدولة هو أوجاقات اليكجرية لتمردهم وطغيانهم وعتوهم وتجبرهم وممانعتهم لكل أمر جديد يعود على الدولة بالاصلاح والتحسين كما مر بك بعضه شرع فى سنة ١٢٤١ فى تعليم عساكر جديدة على القاعدة الحديثة الاوروباوية وأخذ من ذلك اليوم يفكر فى تدمير اليكجرية وابادة أوجاقهم ولذلك أصدر منشورا سلطانيا يتضمن القدح فى أعمالهم عدد فيه ما ارتكبوه من الفظائع وقتلهم لبعض السلاطين ظلما وطغيانا فلما بلغ اليكجرية ذلك هاجوا وماجوا وتمردوا وهجموا على بيت الصدر سليم باشا وبعض الوزراء وأخذوا ينادون فى الشوارع بجواز قتل العلماء ورجال الدولة وكل من له يد فى وضع النظام الجديد وأخذوا يقتلون كل من صادفوه وينهبون ويحرقون وقد تمكن الصدر من الفرار والتجأ الى السلطان وعرض عليه الكيفية فأمره بجمع طوبجية العسكر الجديد وارسالهم على اليكجرية وأن يدعو الناس للاجتماع أمام السراى فاجتمع خلق كثير من علماء وقواد وضباط وأعيان وغيرهم وخرج السلطان اليهم وأخذ يخطب فيهم محرضا مشيرا لنخوتهم

فاقسم

فأقسم الجميع على القيام بتنفيذ أوامره ثم أخرج البيرق الشريف فاجتمع حوله خلق لا يحصون عددا ووزع عليهم الاسلحة وسلم البيرق لشيخ الاسلام قاضى زاده طاهر افندى وكان السلطان هم بالمسير بنفسه لولا ممانعة الوزراء له فى ذلك وكانت اليكجرية تجمعت للمقاومة ثم سار الصدر الاعظم سليم باشا أمام تلك الجموع التى كانت تزيد عن ٦٠,٠٠٠ نفس وهاجموا اليكجرية مكبرين وأطلقوا عليهم البنادق والمدافع فقتلوا منهم عددا كثيرا وهرب الباقى وتحصنوا فى ثكناتهم فحاصرهم الصدر وأشعل النار فيها فاحترق منهم أيضا خلق كثير وتشتت الباقى فى كل صوب وأصدر السلطان الاوامر الى جميع الجهات بقتل كل من وجدهم فقتلوا منهم عددا كثيرا أيضا وارتاحت الدولة من شرورهم ولما كانت طائفة البكتاشية (١) تتحزب الى أولئك الجنود وكان غالبهم من أتباع هذه الطائفة أصدر السلطان أمره بهدم تكاياهم التى كانت منابع لاشنع المحرمات والقبائح وأخذ الموكلون بذلك يطاردونهم حتى أبادوهم تقريبا قتلا وتشريدا فتفرقوا فى الجهات الاخرى وهدموا لهم أشهر تكاياهم ولما كان السلطان محمود يرغب رغبة شديدة فى ادخال ما يوافق من النظامات الاوروباوية غير ملبوسه وترتيب زى العسكر الجديد وأبدل العمامة بالطربوش فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان

بقية وقائع اليونان ومحاربة نوارين البحرية (ربيع الآخر ١٢٤٣) - اعلم انه فى أثناء ثورة اليونان هاجت الافكار بأوروبا وتألفت الجمعيات بجميع بلادها تحمل حكوماتها على المداخلة لحماية اليونان المسيحيين وكانت هذه الجمعيات تمد الثوار بالمساعدة أدبيا وماديا فلما استردت الجنود العثمانية مدينتى ميسولونكى واتينا وغيرهما وسكنت الثورة ببلاد اليونان الغربية وأخضع ابراهيم باشا معظم بلاد موره ورأى اليونان وأوروبا ان أملهم فى انالة اليونان الاستقلال قد زال بسبب ذلك تقريبا علت أصوات المشفقين على اليونان واتحدت الروسيا وانكلتره وفرانسا على المداخلة الفعلية والاخذ بناصر اليونان وعقدوا لذلك مؤتمرا بمدينة لوندره (٣ القعدة ١٢٤٣ - ١٨٢٧م) أقر من خصوصهم فيه على قرار مضمونه الزام الباب العالى بالقوة منح البلاد اليونانية استقلالا اداريا بشرط ان يدفع اليونان اتاوة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود البلادين وبعد أن صدقوا عليه أبلغوه للباب العالى وأمهلوه شهرا ليتمكن من توقيف

(١) تنسب هذه الطائفة الى رجل من الاولياء كان فى أيام المرحوم السلطان مراد الاول ولما أنشأ هذا السلطان أوجاق اليكجرية سنة ٧٦٣ طلب من الحاج بكتاش ان يبارك هذا العسكر الجديد ويضع له اسما كما ذكرناه فى صحيفة ٤٩١ وكانت وفاة الحاج بكتاش سنة ٧٦٩ وله ضريح يزار ويتبرك به فى قرية على البوسفور قرب غلطه ومن سيما الطائفة المشهورة التى تنتسب اليه لبس البياض وعمائم الصوف يرخون لها عذبات مجدولة فى الغالب وهم يسكنون القرى والمدن العظيمة بجميع أقطار العالم الاسلامى تقريبا ويباح لهم الزواج اذا أرادوا ومن دأبهم التطواف فى البلدان البعيدة والسلام على كل من صادفوه ولهم اعتقادات وصلوات تخالف الشرع على خط مستقيم وهم يقولون ان الله مجرد من الصفات فهو كائن بسيط لا يمكن للفكر البشرى أن يدرك بساطة جوهره ويوحدون الله بقولهم ياهو وقد ذكر بعضهم طائفة أخرى من الدراويش باسم بكتاشية نسبة الى بكتاش أحد أغوات اليكجرية فى أيام السلطان محمد الرابع والعامة تسميهم مطفؤ المصابيح لانهم يقولون انهم يجلسون فى الظلام ويرتكبون الفواحش وأما مذهبهم فهو نفس مذهب البكتاشية المار ذكرهم اهـ من الدائرة بتصرف

الاعمال العسكرية براو بحرا فلم تلتفت الدولة الى هذا القرار لانه ليس للدول المذكورة حق
المداخلة أصلا فى أمورها الداخلية كما لاحق لها هى فى المداخلة فى أحوالهم كما هو القانون الدولى
ولكن فاتها أن الحق فى شرع أوروبا أصبح للقوة وان أوروبا لا تعترف بالحقوق الدولية الامتى رأت
قوة تعارضها ولهذا وجهت الدول المذكورة بعد انقضاء المدة المعينة أساطيلها الى مياه اليونان
للتهديد والوعيد وكان أسطول الروسيا يتألف من ثمانية بوارج بها ٤٦٤ مدفعا تحت قيادة
الكونترأميرال هايدين (Heyden) وأسطول انكلترة يتألف من ١٢ بارجة بها ٤٠٠
مدفع تحت قيادة الويس أميرال السيرادوارد كودرينكتون (Codrington) وأسطول فرانسا
يتألف من سبعة بوارج بها ٣٧٤ مدفعا تحت قيادة الكونترأميرال دوريني (Rigny) أما
الدونتما العثمانية التى تحت أوامر ابراهيم باشا قائد موره العام فكانت تتركب من ٣٧ بارجة
عثمانية بها ١٢٨٨ مدفعا تحت قيادة البطرونة العثمانى جنكل أوغلى طاهر باشا ومن ١٦
بارجة مصرية تحت قيادة محرم بك المصرى وسفن أخرى لتونس وبلاد الجزائر وكانت كلها راسية
داخل مينا ناوارين ولما وصلت أساطيل الدول الثلاث رست خارج بوغاز ناوارين المذكور وأرسل
قوادها بلاغا الى ابراهيم باشا يطلبون منه ابطال الحركات الحربية براو بحرا ويقولون ان الروسيا
وانكلتره وفرانسا جميعا أقروا على استقلال اليونان وانه اذا خالف ذلك يمنعونه بالقوة فاجابهم ابراهيم
باشا بانه لاحق لأية دولة كانت فى منع سير الدونتما العثمانية وحركاتها داخل بحورها وانه ملزم باتباع
أمر دولته القاضى عليه بتوجيهها داخل الارخبيل الى أية جهة أراد فكرروا عليه القول بانهم
مجبورون على منع الحركة بصورة قطعية ثم تقابل ابراهيم باشا مع أميرال الاسطول الفرنساوى ولما
تحقق منه صدور القرار المذكور أخبر الباب العالى بكل ماحصل وانتظر الجواب وتعهد بشرفه
بان لايخرج الاساطيل العثمانية والمصرية من مينا ناوارين وأن يوقف الحركات الحربية حتى
يرد اليه من الدولة أمر أما اليونان فلم يزالوا على عدوانهم وبينما الحال على ذلك اذ علم ابراهيم باشا ان
ست سفن انكليزية هاجمت أمام ميسولونكى مراكب شراعية عثمانية وأغرقتها وعند ذلك هاج
غضب ابراهيم باشا وقال كيف ذلك وكيف يحق لليونان المستندين على مساعدة أوروبا الاستمرار
على اظهار العداوة بينما تغل أوروبا أيدى العثمانيين عن حقوقهم ولهذا رأى انه لم يبق ملزما
باتباع ما تعهد به من ابطال الحركات الحربية موقتا وكان الاميرالات أخبروا ابراهيم باشا قبل ذلك
بعدم تداخلهم فى أمر توصيل الذخائر الحربية الى القلاع السلطانية الموجودة بسواحل موره
غير أن الاميرال الانكليزى أرسل فرقاطة الى فم مضيق ناوارين بصفة قره قول لمنع السفن
العثمانية الحاملة للذخائر المراد ارسالها الى اينه بختى من السفر كلية مع أن علائق المحبة الرسمية لم
تنقطع بعد بين السلطنة العثمانية واحدى هاته الدول ثم ورد الجواب من الباب العالى الى ابراهيم باشا
يامره بأن لا يكترث بتهديد الدونتمات وأن يحافظ بكل استطاعته على مضيق مينا ناوارين وانه اذا
أراد تحريك أساطيله الى أية جهة أرادها ورأى من الدونتمات المذكورة مقاومة قابلها بالمثل كما
تفرضه واجبات الدين والوطن وأباحت الدولة له حرية العمل بما يراه فأخذ ابراهيم باشا حذره من
اخراج الدونتما الى البحر وتداول مع أمراء البحرية فاعلموه بان السفن العثمانية والمصرية الموجودة
بمياه ناوارين ليست كفوءً لمحاربة سفن العمارات الثلاث المذكورة وعلى ذلك حرروا مضبطة بعث

بها

بها ابراهيم باشا للاستانة بما قاله أمراء البحرية وأصحبها بمحررات أخرى قال فيها انه مستعد للمدافعة عن شرف الدولة على الصفة التى تراها موافقة وأخذ بعد ذلك يتداول مع أرباب المعرفة والمعلومية بالفنون البحرية وأوصى جنكل أوغلى طاهر باشا ومحرم بك بأن لا يخرجا فى المعاملة مع دونمات الدول المتفقة عما تقتضيه علائق المحبة ثم قصد هو داخلية موره لمباشرة الحركات البرية تاركا الدونما العثمانية والمصرية داخل المينا المذكورة وبعد سفره بقليل أتى الى الضباط الفرنساويين المستخدمين بالدونما المصرية مكاتيب من الاميرال الفرنساوى مضمونها انه تقرر محاربة الاساطيل العثمانية ويأمرهم بترك وظائفهم والالتحاق به فصدعوا بالامر وعند ذلك أرسل محرم بك ترجمانه للاميرال الفرنساوى يقول له ان حركات دونمات الدول هذه قد سلبت الامن من بين الطرفين ويلزم أن لا تدخلوا المينا فكان هذا البلاغ سببا فى تعجيل وقوع الحرب التى حصلت فى اليوم الثانى بين الطرفين بحالة تستوجب الاسف قال مؤرخو العثمانيين ان طاهر باشا كان من رأيه اخراج الدونما خارج المينا لان بقاءها داخلها مضر بها اذا وقع حرب وربما كان السبب فى فنائها بخلاف ما اذا كانت خارجها قائمة على شراعاتها فان الخسائر تكون أقل بكثير ولما لم يقبل ابراهيم باشا هذا الرأى طلب منه طاهر باشا كتابة رسمية ليخرج نفسه من المسؤلية فيما بعد فاعطاه ما طلب ومع ذلك فان طاهر باشا ملوم أيضا لانه لم يسد بوغاز ناوارين كما تقتضيه الحروب البحرية بل تركه للعدو يقتحمه متى أراد ثم استعدت الدونمات الاجنبية للحرب يوم ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٣ فى منتصف الساعة الواحدة بعد الزوال حسب الاوامر التى أعطاها الاميرال الانكليزى الذى أخذ القيادة العامة لاقدميته فى وظيفته ولكبر رتبته وتقدم هو بأساطيله واتبعته باقى الاساطيل وكانت الدونما العثمانية وقتئذ راسية داخل المينا على شكل نصف دائرة معرضة لجهة البوغاز فرست أساطيل الدول أمامها فوق الريح آخذة هيئة حربية ثم أطلقت مدافعها فقابلها العثمانيون بالمثل الا أنهم لم يقووا عليها لمتانتها وجودة تسليحها وجسامة سفنها ومهارة ضباطها وقوادها وأنفارها وعدم استعداد الاساطيل العثمانية والمصرية وصغر حجم سفنها ومدافعها وغير ذلك وبعد أن اشتد وطيس الحرب بين الطرفين مدة خمس ساعات انقطعت نيران العثمانيين تماما وانجلت هذه الواقعة الهائلة عن غرق عشر سفائن واحتراق ثلاثين من السفن العثمانية والمصرية أما ما بقى من الثلاث والخمسين سفينة فان الريح ألقاها على الساحل وتمكن طاهر باشا من نجاة سفينته وكان اللهب المتطاير من السفن أثناء احتراقها يخيل للرائى أن فرضة ناوارين تحولت الى بركان جسيم وفى اليوم الثانى من هذه الواقعة خرجت سفن العمارات المتحدة خارج المينا بعد أن أحرقت ما بقى من سفن العثمانيين والمصريين ولما أرسل هذا الخبر المحزن الى ابراهيم باشا وكان فى قرية دوزجه من قضاء ارقاديا أتى مسرعا واجتمع مع طاهر باشا ومحرم بك وباقى من بقى على قيد الحياة من الضباط وكتبوا بما حصل تقريرا مفصلا أرسلوه الى الاستانة فى ٧ ربيع آخر سنة ١٢٤٣ ويروى أن الاميرال الانكليزى تبرأ من تبعة ما حصل بقوله انه لم يكن السبب فى وقوع هذه المحاربة وانما تسبب فيها العثمانيون وهو قول بعيد عن الحقيقة بعد اشاعة ان سفن العثمانيين كانت مستقبلة داخل المينا وهو الذى دخل عليهم باساطيله وأساطيل فرانسا والروسيا ولم يتعرض له العثمانيون ولا للمن كانوا معه بقذوف أصلا ولم تضرب قلعة من قلاع المينا على سفينة من سفنهم

ولم يكن يرد بخاطر العثمانيين أن هذه الدول تعاملهم بغير معاملة الحب والولاء وانما الذى حمل الاميرال الانكليزى على هذا القول هو ما جاهر به المنصفون من أهل أوروبا من فظاعة هذا الامر ومخالفته للقوانين المتبعة وانه خيانة وغدر ولما حل به من الخسائر فى تلك الواقعة لم تنل دولته من ذلك منفعة حقيقية سوى ما تكنه الضمائر وتحويه السرائر من الحقد الكمين وسعى دول أوروبا فى رفع يد العثمانيين عن حكم الطوائف المسيحية ليس الا وقال المرحوم الشيخ بيرم التونسى صاحب صفوة الاعتبار انه فى أيام جورج الرابع ملك انكلترة وقع الغدر فى أسطول الدولة العثمانية من أسطول انكلترة المترأس على أساطيل الدول فى تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال من غير اعلان بالحرب لها تخللت الاساطيل من بين أسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والأمن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر أو شناعة لا تمحى ومعرة لا تزول على خصوص الانكليز لانهم هم الذين بيدهم امرة جميع الاساطيل الدولية وعندما سمعت الندوة الانكليزية بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم ولم يجد كل ذلك شيأ وعندما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بأن التذكرة التى بخطه فى الامر باحراق الاسطول العثمانى قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر وحينئذ تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس اهـ

وقال مؤرخو أوروبا ان التعليمات التى أعطيت للسير كودرينكتون كانت تحظر عليه عمل أى عمل عدائى مع العثمانيين ومع ذلك فانه كان على هامش هذا الامر العبارة الآتية كتبها اليه لورد الاميرالية الاول وهو الدوق كلارانس (Clarence) وهى ان هذا لا يمنعك ياعزيزى أدوار بأن تحرق بالبارود متى انتهزت فرصة لذلك ورأوا أيضا كتابا من سفير انكلترة اذ ذاك بالاستانة وهو استرافورد كاننج (Strafford-Canning) الى الاميرال المذكور يشتمل على ما فى العبارة الماضية من انتهاز الفرصة لضرب الاساطيل العثمانية وقد ذكر اليوزباشى شارل لوف (Low) فى تاريخه البحرى عند كلامه على هذه الواقعة ان الذين قتلوا من أساطيل الدول المتحدة كانوا ١٧٧ نفسا والذين جرحوا كانوا ٤٨٠ نفسا ولما وصلت أخبار هذه الحوادث الى دار الخلافة هاجت الافكار واضطربت وأرسل الباب العالى بلاغا الى سفراء الدول يقيم الحجة على هذه الاعمال المخالفة للقوانين الدولية حيث لم تعلن الحرب بين الجانبين وطلب فى البلاغ من الدول أن تمتنع كلية عن المداخلة فى شؤن الدولة الداخلية وأن تدفع للباب العالى التعويضات عما لحقه من الخسائر فى ناوارين فلم يكن من سفراء الدول الثلاث الا انهم قطعوا العلائق مع الباب العالى ولم يجاوبوه على بلاغه ونزلوا فى سفنهم الراسية بالبوسفور (١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٤٣) فالتزمت الدولة عند ذلك أن تعلن عموم ولاياتها بسوء نيات الدول المذكورة وفى مقدمتهم الروسيا حيث كانت لها اليد الكبرى فى تحريك الثورات واشعال نارها فى أكثر ولاياتها وفى تلك الاثناء وردت أوامر الى ابراهيم باشا من والده بأن يعقد شروطا مع الدول المتحدة لاخلاء موره من القوة المصرية ويعود الى الديار المصرية وكان ذلك بمساعى قناصل الدول المذكورة بمصر ثم عقد الدول

مؤتمرا فى ١٦ نوفبر سنة ١٨٢٨ للنظر فى مسئلة استقلال اليونان وتعيين حدود بلادهم ورفض الباب العالى المشاركة فى ذلك المؤتمر محافظة على أقواله السابقة من انه لا يتخابر أصلا مع الثوار ثم صدر من لوندره بروتوقول فى السنة المذكورة مضمونه وضع بلاد موره وجزائر سيكلاده تحت حماية الدول الثلاث واعلان استقلالها وأن ينصب عليها أمير مسيحى تنتخبه الدول المذكورة وأن تدفع هذه الامارة للباب العالى جزية سنوية قدرها ٥٠٠٠٠٠ غرش وأن تعوض على المسلمين مافقدوه من أملاكهم ومع ذلك فان هذا القرار لم يرض الجانبين وعلى ذلك عادت الحرب بين الجنود العثمانية الباقية ببلاد اليونان وبين اليونان ولم يحسمها الا انتصارات الروسية على العثمانيين فى الحرب الآتية

محاربة الروسيا ومعاهدة ادرنه ١٢٤٥ — لما كانت المناسبات السياسية بين الدولة والروسيا تزداد تعقيدا من يوم الى يوم خصوصا من بعد واقعة ناوارين لتعصبها لليونان تعصبا شديدا ارتبكت الاحوال بينهما ارتباكا شديدا بحيث لم يمض يوم ١١ شوال سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) حتى أعلنت الروسيا الحرب على العثمانيين انتصارا لاهالى موره وسيرت جيوشها الى شواطئ نهر الطونه وبلاد الاناضول فاضطرت الدولة العثمانية مع ماهى عليه أن تسوق جنودها أيضا لمصادمة عدوتها تحت قيادة سليم باشا الصدر الاعظم ثم حصل بين الجيشين حروب شديدة استظهرت فيها جيوش الروسيا حتى التزمت الجيوش العثمانية أن ترجع القهقرى واستولى الروس على وارنه بخيانة قائد الجنود بها وهو يوسف باشا ومع ذلك فقد تمكن القبودان باشا الذى كان راسيا بمينا تلك المدينة من استرداد قلعتها بعد خروج العسكر منها ولم يكن معه الا ثلاثمائة من الشجعان فقط ولما علم القيصر بهذه الشجاعة الغريبة منح الفاتحين حرية الذهاب وفى أثناء خروجهم أدت اليهم العساكر الروسية التعظيمات الواجبة تلقاء ما أظهروه من الشجاعة أما يوسف باشا فقد حكم عليه الباب العالى بالاعدام جزاء خيانته ومع ذلك فان هذا النذل ذهب الى بلاد الروسيا وتمتع بالاموال التى نالها من الروس واتهم الباب العالى الصدر الاعظم بالاهمال وعدم الاهتمام قصدا فلذلك عزله السلطان محمود وأمر بنفيه ووجهت مسند الصدارة الى عزت محمد باشا وساقت الدولة جنودا أخرى الى جبال البلقان فتحول الروس عن محاصرة شوملة قهرا عنهم وكانوا قد استولوا على سليستره هذا بالروملى أما بالاناضول فكان الروس يتقدمون بلا مقاومة تذكر واستولوا على قلاع قارص وبايزيد وطبراق قلعة وارضروم وأسروا القائد صالح باشا وتقدم جيش روسى فى الروم ايلى يبلغ عدده ١٦٠ ألف مقاتل وحاصر قلعة ادرنه ثم استولى عليها وكان بها من الحامية نحو عشرة آلاف وكان القيصر هو القائد العام للجيوش الروسية وقد جعل مقامه بمدينة بازارجق

ولما رأت دولة النمسا أن انتصار الروس مضر بسياستها عرضت على فرانسا وانكلتره المداخلة لحسم الحرب فقبلت انكلتره ذلك أما شارل العاشر ملك فرانسا فانه عارض معارضة شديدة فى المداخلة بين المتحاربين وذلك لان عائلة البوربون كانت تريد أن تخرج الانكليز من البحر الابيض المتوسط وتستولى على جميع الساحل الايسر من نهر الرين ولكى تصل الى مرغوبها هذا أظهرت الميل والمساعدة للروسيا ولم تمانعها فى حرية سيرها نحو الاستانة

وفى أثناء هذه الوقائع البرية والهزيمات التى لحقت بالعساكر العثمانية لم يحصل من العمارة التى بقيت للعثمانيين أقل حركة حربية للنقص الذى حصل بها من واقعة ناوارين السابق ذكرها ولهذا خلا الجو للعمارة الروسيه التى كانت تتركب من ١٦ غليونا وكثير من الفراقيط وأخذت تتجول فى البحر الاسود بلا رقيب ولا معارض حتى حاصرت وارنه بحرا وساعدت جيوش دولتها على الاعمال الحربية ثم شرعت فى نقل الذخائر والمعدات الى الجيش الروسى الذى تجاوز جبال البلقان والتحقت به عند بورغاز الواقعة بين وارنه وبوغاز البوسفور على سواحل الروم ايلى وكانت هذه المساعدات التى حصلت من الدونمنا الروسية لجيوشها فى تلك الوقائع سببا كبيرا لسرعة حركات جيوش الروسيا وتقدمها نحو دار الخلافة العثمانية ثم لما تحقق السلطان عدم اقتدار الصدر الاعظم عزت محمد باشا عزله فى (رجب سنة ١٢٤٤) ووجه مسند الصدارة الى رشيد محمد باشا الذى اشتهر فى محاربات موره وفى خلال ذلك كان الجنرال باسكيه ويج (Paskievitch) قومندان جيش القوقاز يتقدم على ارضروم ولما تحققت الدولة أن غالب باشا والى ارضروم وسر عسكر الشرق لا يمكنه المدافعة ولا صد الروس لضعف قوته مالت لعقد الصلح وعزلت غالب باشا المذكور وولت مكانه الكتخدا صالح باشا ولما كانت الدولة لا تتمكن وهى فى هذه الحالة من امداد جنودها الذين ببلاد اليونان تغلب الثوار عليهم بما وصل اليهم من الامدادات الاوروباوية من رجال وأموال وذخائر فاستردوا جميع المدن التى احتلتها الجنود العثمانية

والحاصل انه لما اشتد الامر على رجال الدولة والسلطان محمود اضطربت الاحوال اضطرابا كثيرا واختلت أمور الدولة جدا وساد الضعف والفساد وخيف على دار الخلافة من الروس الا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان فى وسط تلك الاخطار المحدقة به وبدولته ثم تداخلت بعد ذلك دول أوروبا فى الصلح فقبله الطرفان وعقدت بينهما معاهدة ادرنه فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وكانت شروط المعاهدة تشتمل على ما يأتى وهى أن يبقى نهر بروت حدا فاصلا للدولتين باوروبا وأن تستولى الروسيا على مصبات الطونه وأن يكون لها حرية الملاحة فى البحر الاسود والبحر المتوسط الابيض وتستولى على پوتى وعلى الجزء الاعلى من مصب نهر خورباسيا وكان هذا الشرط الاخير يفصل الدولة العثمانية عن الامم الحربية الساكنة ببلاد القوقاز ويسبب خضوعهم الى الروسيا وأن تبقى امتيازات المملكتين وتتأكد وينتخب حكامهما مدة حياتهم ولا يمكن عزلهم الا فى أحوال مخصوصة وبمرضاة الروسيا وأن يمنع جميع المسلمين من سكنى المملكتين وقد أعطيت لهم مهلة قدرها ثمانية عشر شهرا ليتمكنوا من بيع أملاكهم أما بلاد الصرب فانها تبقى على ما عينته معاهدة اقرمان وأن يدفع الباب العالى تعويضا حربيا قدره ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات فى مدة عشر سنوات ويدفع أيضا ١٦,٠٠٠,٠٠٠ لتجار الروس على ما أصابهم من الخسائر مدة الحرب وأن تخرج الجنود الروسية من أدرنه بعد أن تدفع الدولة القسط الاول وأن تذهب خلف جبال البلقان بعد دفع القسط الثانى وتعبر نهر الطونه بعد دفع القسط الثالث وأن تحتل الروسيا بلاد المملكتين احتلالا عسكريا حتى تدفع الدولة جميع ما بقى من الاقساط السنوية وأن يصدق السلطان على معاهدة لوندره وعلى البروتوقول الذى حرره الدول الثلاثة أعنى انكلتره والروسيا وفرانسا وبعد ذلك بعدة

شهور

شهور أى فى سنة ١٨٣٠ م اعترف الباب العالى باستقلال اليونان استقلالا تاما وأقر على الحدود التى عينتها الدول وكانت هذه المملكة الحديثة تشتمل فى أول تشكيلها على جزائر سيكلاده ونغربونت وموره وفى القارة كانت تحدد بخط وهمى عند من خليج ارطه الى خليج فولو وهو الفاصل لها عن أراضى الدولة وهذا الحد الغير المعقول الذى سبب فيما بعد عدة منازعات ومخاصمات قوية كان السبب فى تحديده بهذه الصفة انكلتره والنمسا قصدا لايجاد النفور المستمر بين الدولة والروسيا

أوجاقات الغرب واستيلاء الفرنسيس على الجزائر – قد سبق ذكر الحالة التى كانت عليها أوجاقات الغرب مفصلا فى أخبار الجزائر وتونس وطرابلس وما كانت تفعله سفنهم من أعمال التلصص فى البحر المتوسط الابيض وغزوها السفن تجار دول أوروبا وسطواتها المتكررة على سواحل ايتاليا واسبانيا وجزائر صقلية وسردينيا والحروب التى وقعت بينها وبين كثير من أساطيل الدول الاجنبية الى أن آل الامر لاستيلاء فرانسا على جزائر الغرب (١٢٤٧ ﻫ – ١٨٣٠ م) مدة ولاية الداى حسين باشا لجهله وظلمه وعتوه وكانت أوروبا تقدمت فى ذلك الزمن باختراعاتها الحربية والصناعية أما الاحوال الحربية والبحرية فى الاوجاقات المذكورة فكانت لاتزال على حالتها القديمة متأخرة ارتكانا على شجاعة ومهارة رجالها ولهذا التزمت الدولة أن تتبع وقتئذ طريق المسالمة عند مهاجمة الفرنسا وبين لبلاد الجزائر احدى ممالكها المكونة لدولتها ولخروجها من غوائل حروب موره والروسيا ومسئلة البحرية مكسورة الجناحين واكتفت بارسال القبودان جنكل أوغلى طاهر باشا باسطول الى تونس للتوسط بين والى الجزائر المذكور وبين الفرنسيس ولكن صادفته جملة عراقيل فى مأموريته منعته من حل المسئلة فعاد خائبا كما تقدم ذكر ذلك وقال بعض المؤرخين ان ملك فرانسا كان يرغب وقتئذ فى اعادة بلاد الجزائر الى الدولة كما كانت وهو قول لو صح لكان ملك فرانسا ولاشك يريد أن تتنازل له الدولة عن أرض أخرى أو تمنحه امتيازات تعود على بلاده بالمنفعة العظمى اذ كيف يعقل أن بلادا شرقية تقع فى قبضة دولة أجنبية وتتركها بلا موجب سيما اذا كانت خصبة معمورة جيدة المركز كبلاد الجزائر قالوا وبينما كانت المخابرات جارية اذ حصل الانقلاب فى حكومة فرانسا ولبثت مسئلة الجزائر معلقة الى أن أقرت حكومة فرانسا الجديدة على ضمها الى أملاكها واحتجت الدولة على ذلك بلا جدوى ولهذا لما رأت الدولة أن ابقاء باقى أوجاقات الغرب على الحالة الشبيهة بالاستقلال التى لها يتسبب عنه ضياعها أرسلت القبودان الشهير جنكل أوغلى طاهر باشا بالدونما الى طرابلس الغرب فألغى امتيازاتها وطرد منها عائلة القره مانلى وسوى مسئلة تونس بأن منح بعض امتيازات للعائلة الحسينية الحاكمة بها

أحوال بلاد العراق وأوجاق الكولمن – اعلم انه فى مدة صدارة النوشهرى ابراهيم باشا الداماد كان حدث حرب بين الدولة والعجم اشتهر فيه والى بغداد وسر عسكر الشرق حسين باشا بما أظهره من البسالة وما حازه من النصر ولهذا أبقته الدولة واليا ببغداد مدة حياته وتولاها من بعده ولده أحمد باشا مدة عشرين سنة وفى زمن ولايتهما أسسوا بها أوجاق الكولمن (وأصلهم جنود مجمكون عند الواليين المذكورين) واستمر هذا الاوجاق فى العراق مدة مائة سنة تقريبا وكان رجاله

يقاومون كل وال يظهر الطاعة للدولة حتى انحصرت أمور ايالة بغداد فى أعقاب أحمد باشا المذكور الى سنة ١٢٢٦ هـ ولما كان أحدهم المدعو سليمان باشا والياً أرسلت الدولة حالت أفندى المشهور بالنشانجى لاستلام باقى ويركو الولاية المذكورة فتوقف الوالى والتزم حالت أفندى أن يعود الى الموصل ثم استصحب معه والى الموصل وجيشه وعاد لمحاربة سليمان باشا ومازال ينازله حتى قتله وعين على بغداد أحد مماليك الوالى المذكور ويدعى داود أفندى بعد أن تعهد بالطاعة وتسديد الاموال فى أوقاتها وأنعم السلطان عليه بالوزارة وكان داود باشا هذا فاضلاً من أصحاب اللياقة والاقتدار حتى انه لما قامت الحروب بين الدولة وايران سنة ١٢٣٩ هـ واستظهرت جيوش ايران على جنود الدولة التى كانت تحت قيادة سر عسكر الشرق جبار زاده جلال الدين باشا وانهزم معه داود باشا المذكور بذل المساعى حتى عادت العلاقات بين الدولة وايران الى ما كانت عليه من الصفاء وفى أثناء اشتغال الدولة بحروب اليونان والروسيا عينت أحد رجالها المدعو صادق أفندى بمأمورية الى بغداد لابلاغ مخصصاتها الى ١٢٠٠٠ كيس لاحتياج الدولة الى النقود اذ ذاك الا أن هذا المأمور لم يحسن القول والفعل فانه قبل أن يقف على أحوال تلك البلاد طلب عزل داود باشا ولما علم الوالى بذلك غضب وأهان المأمور المذكور ثم قتله فالتزمت الدولة أن تجرد عليه وعينت لاز على باشا والى حلب بجيش للقبض على داود باشا فقام هذا الوالى بما عهد اليه وحاصر بغداد تسعين يوما الى أن فتحها وقبض على داود باشا المذكور وأرسله مكبلا الى الاستانة ومحا أوجاق الكولمن بالكلية ثم ان السلطان عفا عن داود باشا لماله من الاعمال المشكورة سابقا وتولى بعد ذلك بعض المناصب وتوفى وهو بوظيفة شيخ للحرم النبوى الشريف

الحوادث المصرية — سبق لنا ذكر الاحوال التى ساعدت المرحوم محمد على باشا على نوال ولاية مصر ونقول الآن ان هذا الشهم النابغة بمجرد قبضه على زمام الحكومة واستتباب الأمر اليه أخذ فى تنظيم الاحوال وازالة نفوذ الكولمن الى أن أبادهم تماما سنة ١٢٢٦ هـ قبل ارسال الجيوش الى الحجاز لاطفاء فتنة الوهابيين كما سبق وقد ساعد الدولة مساعدة تذكر فتشكر فى حرب اليونان وبذل المجهود فى اتقان الزراعة والرى بما فتحه من الجداول والترع خصوصا ترعة المحمودية التى أوصلها الثغر الاسكندرية وشيد المبانى والمعامل وفتح كثيرا من المدارس المختلفة لتعليم شبان القطر المصرى العلوم والصنائع ووسع نطاق التجارة فنمت الايرادات التى كانت لا تتجاوز ٣٠٠٠٠ كيس فى مبدا حكمه حتى بلغت فى أواخر مدته ٤٠٠,٠٠٠ كيس وزاد الويركو الذى يدفع للدولة وأبلغه ١٢٠٠٠ كيس وتمكن بزيادة الايرادات من تنظيم قوة عسكرية جسيمة على النسق الاوروبى بلغت المائة ألف وأنشأ عمارة بحرية قوية وسيأتى ذكر ذلك مفصلا فى تاريخه بالجزء الثانى

ولما رأى المرحوم محمد على باشا فى نفسه قوة واقتدارا وعلم ضعف الدولة وارتباك حالتها عقب حرب الروسيا واليونان ومقاومة حزب عظيم من الاهالى للسلطان فيما يدخله من الاصلاحات زين له أهل الفساد الذين لا تروج بضاعتهم الا زمن المفاسد والاضطرابات أن يطمح بانظاره الى الاستيلاء على ولايات الشام وحلب من يد دولة طالما هم بمساعدتها وناضل عن تاجها وسلطانها والسبب الذى

استعمل به محمد على باشا سوق جيوشه على الشام فرارا أحد عماليكه وبعض أهالى مصر والتجائهم الى والى عكا عبد الله باشا وامتناع هذا من تسليمهم اليه وكان هذا الوالى أظهر قبل ذلك العصيان على الدولة ولما أرادت الدولة تأديبه توسط محمد على باشا له فعفا السلطان عنه وفى سنة ١٢٤٧ ﻫ (١٨٣١ م) سارت جيوش محمد على باشا البرية والبحرية تحت قيادة ولده الاكبر ابراهيم باشا ففتح فى طريقه غزة ويافا وحيفا ثم حاصر عكا وافتتحها لينتقم من عبد الله باشا على ما فعل معه ولما علمت الدولة بتقدم جيوش مصر أرسلت الى محمد على باشا تأمره بالكف عن أفعاله واخراج عساكره من القطر الشامى وله بعد ذلك أن يرفع شكواه الى الباب العالى ليحكم بينه وبين خصمه وأمر السلطان بأن ينصحوه ليطيع الامر ولما لم يقبل ذلك جمع السلطان مجلسا مؤلفا من مشاهير العلماء والمدرسين وعرض عليهم ما حصل من محمد على باشا فأفتوه جميعا والفتوى على قدر السؤال بخروج محمد على باشا عن طاعة السلطان فارسلت الدولة عليه والى أدرنه حسين باشا ومعه ثلاثون ألف عسكرى ولما وصل الى الشام وتلاقى مع الجنود المصرية بين حلب وحمص انهزم بعد أن قتل من جيشه قدر عظيم (محرم ١٢٤٨ ﻫ) ثم دعت الدولة الصدر الاعظم رشيد محمد باشا وهو من أعظم القواد وأمهرهم وكان ببلاد الارنؤد ينظم أحوالها عقب انفصال اليونان عن الدولة وأرسلته بجيش لصد ابراهيم باشا الذى كان عبر جبال ايج ايل ونزل بصحراء قونيه وبعد حروب طويلة استظهر فيها الصدر على عساكر مصر أسر وهزم جيشه فى يوم ماطر كثير السحاب والضباب لانه بينما كان يعبى جيشه للقتال دخل بين صفوف الخيالة المصرية ظنا منه بانهم عساكره فاسروه وبانتشار خبر ذلك بين الجيش السلطانى اختل نظامه وهجمت عليه عساكر مصر فهزمته (٢٨ رجب ١٢٤٨) وبعد واقعة قونيه هذه تقدم ابراهيم باشا الى كوتاهيه حيث لا قوة تعارضه وعند ذلك اكتسبت المسئلة أهمية عظيمة ولما انتصر ابراهيم باشا فى واقعة قونيه المذكورة وهم بتوجيه عنان عزيمته نحو مدينة بروسه خابر السلطان محمود قيصر الروسيا نيقولا الاول الذى كان يسعى من زمن طويل بواسطة سفيره فى الاستانة فى التوسط بين المتحاربين وطلب منه المساعدة فارسل أسطولا وجيشا يبلغ عدده ١٥٠٠٠ مقاتل معاونة للدولة ونزلت هذه القوة بالمكان المدعو هنكار اسكله سى داخل البوغاز وعقدت هناك بين الطرفين معاهدة دفاعية وهجومية لمدة ثمان سنوات محرم ١٢٤٩ ﻫ (١٨٣٣ م) ومن مقتضاها أن امبراطور الروسيا تعهد بمساعدة الدولة فى كل الاحوال والاعمال وأن يتعهد السلطان محمود فى مقابلة ذلك بأن يصرح عند الاقتضاء للدوننمة الروسيا أن تمر من البحر الاسود الى البحر الابيض وبسد بوغاز البحر الابيض المتوسط أمام جميع سفن الدول الاخرى الحربية وبهذه المعاهدة أخذت المسئلة شكلا سياسيا آخر فى عواصم أوروبا كانت سببا لاهتمام اللورد بالمرستون رئيس وزراء انكلتره والبرنس مترنيخ رئيس وزراء النمسا وأخذا يتخابران مع فرانسا وبروسيا وبتداخلهما أوقفوا ابراهيم باشا عن التقدم واضطر والمرحوم محمد على باشا على عقد الصلح والانصياع لامر الدولة كل ذلك ليس حبا فى الدولة ولا فى مصر بل لاطماعهم السياسية ومقاصدهم الخصوصية ولكن مع عقد الصلح فى الظاهر لا زال الطرفان يستعدان ويتربصان لبعضهما فكان محمد على باشا يرى أن لا حق لدول أوروبا فى هذا التطفل الذى سيرده عن غنيمته مع ما ناله من الاستظهار وكانت الدولة ترى فى انتصار أحد ولاتها عليها اهانة ماسة

جدا بكرامتها ومجدها وربما كان سببا فى أن يجترئ عليها غيره من الولاة ويشق عصا طاعتها مع ما يكون لدول أوروبا عليها بعد ذلك من الايادى اذ كانت سبب نجاتها خصوصا دولة الروسيا عدوتها القديمة ولذلك أخذ ابراهيم باشا يحصن مضيق كولك الواقع بين قونيه واطنه (اذنه) ووالده فى مصر يهتم فى انشاء السفن لزيادة قوته البحريه والاكثار من العساكر النظاميه لتقوية جيوشه البرية واهتمت الدولة بالمسئلة أكثر من ذى قبل فاعادت رؤف باشا لمسند الصدارة بعد وقوع رشيد محمد باشا أسيرا ولما عاد رشيد باشا المذكور الى الاستانة (١٢٥٠ هـ) عينته واليا للسيواس وفوضت له ادارة ديار بكر وخربوط ورتبت له جيشا ادعت أنها تقصد بواسطته اصلاح أحوال بلاد كردستان وغير ذلك من الاعمال (١٢٥٢ هـ) ولما مات رشيد باشا قبل أن يأتى بهذا الجيش عملا عينت الدولة مكانه فريق كوناهيه جركس حافظ محمد باشا ثم اهتمت مع ماهى فيه من الضعف ذلك الوقت باكمال الاوردى الهمايونى وكان فى جيش حافظ باشا وقتئذ الضابط البروسيانى مولتك الشهير وكان أشار على حافظ باشا برأى فى القتال الا أن حافظ باشا لم يحفل به لغروره بنفسه ثم تقدم بالجيش السلطانى لصد ابراهيم باشا وعبر نهر الفرات حتى قابله بجوار حلب فى جهة نزيب (نصيبين) ولسوء تدبيره وقلة خبرته انهزم هو أيضا (١٢٥٥ هـ) فكان ذلك سببا لان يحتل ابراهيم باشا جملة بلاد أخرى وقبل أن تصل أخبار هذه الهزيمة الى استانبول اتفق موت السلطان محمود وكان اعتراه قبل ذلك بخمسة شهور انحراف فى صحته وأشار عليه الاطباء بتبديل الهواء فنقل الى مصيف شقيقة أسما سلطان الواقع فى جاملجه من ضواحى استانبول وكانت وفاته فى ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ وعمره لا يتجاوز السادسة والخمسين وكان السلطان محمود رحمه الله من أعقل سلاطين آل عثمان كثير الاهتمام جدا بما يعود على الدولة بالمنافع والقوة عارفا بالامور جسورا فعالا لا يرجع عن نواياه الا اذا أخرجها من القوة الى الفعل تمكن من اخماد فتنة الوهابية وفتنة البانيا التى أشعل نارها تبه دلنلى على باشا وفتنة عائلة القرمانلى بطرابلس الغرب وغيرها من الثورات واهتم بوضع النظام العسكرى الجديد ومن أعظم أعماله ازالة أوجاق اليكجرية الامر الذى سعى فيه قبله السلطان سليم خان الثالث وغيره وأدخل كثيرا من الاصلاحات فى كافة الولايات العثمانية وكان له الوقوف التام على أحوال الدولة وما تحتاجه من الاصلاح ولم تخل سنة من سنى حكمه من الاضطرابات والاختلالات ومع ذلك فقد تغلب عليها جميعها بما أوتيه من علو الادراك وهو الذى أزال امتياز الاعيان (دره بكلر) الذين كانوا على نوع من الاستقلال لا يعترفون للدولة بالتابعية الا ظاهرا هذا ان أرادوا وبذلك جعل البلاد التى كان يحكمها هؤلاء الاعيان مرتبطة ارتباطا متينا مع دار السلطنة

الاعمال البحرية أثناء المسئلة المصرية — كانت عمارة الدولة فى ابتداء هذه المسئلة مركبة من ٣٧ سفينة ثنتان منها من نوع أوج انبارلى وسبعة غلايين واثنتى عشرة فرقاطة وأربع عشرة من نوع القرويت وكانت تحت قيادة القبودان خليل رفعت باشا الداماد وقد مدح مؤرخو البحار البحرية العثمانية ورجال الدولة لتمكنهم فى زمن قليل من الحصول على قوة بحرية عظيمة مثل هذه بعد أن فقدت الدولة معظم قوتها البحرية فى واقعة ناوارين كما تقدم ولما أبحرت هذه العمارة

أثناء المسئلة المذكورة مرت على سواحل الشام وبعد أن هددت حصونه التي في يد المصريين ووقفت على قوتهم هنالك عادت الى الاستانة في زمن الشتاء وذكروا أنه في زمن تلك الحروب خرجت الدونما العثمانية وكانت مقسومة الى ثلاث فرق تحت قيادة كل من چشمه لي حسن باشا وشكري باشا وابراهيم باشا وأمرت بالتجول في مياه قبرص ومرسين وأنطاكية وبينما هي في ذلك استولى المصريون على بعض سفن صغيرة من سفن القره قولات التي في تلك السواحل ثم خرج القبودان چنكل أوغلي طاهر باشا سنة ١٢٥١ وقادها الى سواحل الغرب وعاد ولما تعين هذا القبودان محافظا لطرابلس الغرب سنة ١٢٥٣ خلفه في مسند القبودانية فراري أحمد فوزي باشا فخرج بالدونما ولما كانت مركبة من ٢٤ سفينة جسيمة ظنت دولة فرانسا أن قيام مثل هذه الدونما الجسيمة هو لأمر قصدت الدولة أن تجريه في بلاد الجزائر خصوصا وانها كانت قبل ذلك بسنتين خلعت عائلة القره مانلي من ولاية طرابلس الغرب وألغت امتيازاتهم وأضافتها الى أملاكها فلذلك أوعزت الى سفيرها بالاستانة أن يستفهم عن المقصود من خروج هذه العمارة ولم يطمئن بال فرانسا حتى أكدت الدولة بأن ليس في الامر من شئ تخافه فرانسا أو غيرها

﴿الفصل الثالث عشر﴾

(من صدور خط الكلخانه الى زمننا الحاضر)

---

٣١ السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الثاني

١٢٥٥ — ١٢٧٧

التنظيمات الخيرية - جلس هذا السلطان على تخت أجداده العظام وسنه ١٨ سنة وكانت الاحوال في ارتباك كما علمت وبمجرد جلوسه وجه مسند الصدارة الى رئيس مجلس الاحكام العدلية خسرو باشا العدو الالد لمحمد علي باشا والسرعسكرية للداماد خليل باشا وهو من مماليك خسرو باشا وفي اليوم الثاني من جلوسه وصل خبر واقعة نزيب وانكسار الجنود العثمانية وبعد عشرة أيام وصل خبر تسليم القبودان فراري أحمد باشا الدونما العثمانية لمحمد علي باشا في الاسكندرية ولكن هذه الاخبار على خطارتها لم تؤثر في السلطان لانه كان جسورا مقداما سيما وانه لو أظهر كدرا ربما أضر ذلك بالحالة أكثر مما هي عليه ولما عاد ناظر الخارجية مصطفى رشيد باشا من المأمورية التي كان أرسل لها منذ سنتين باوروبا وأطلع السلطان على رأى دولها بخصوص مصر أصدر فرمانا بالتنظيمات الخيرية التي كان عزم والده على اجرائها في سنة ١٢٥٤ ﻫ فكان ذلك من أكبر الاسباب لترقي وتقدم البلاد العثمانية على الطريقة التي كانت جارية وقتئذ في عموم أوروبا

المسئلة المصرية وحلها - اعلم أن معاهدة هنكار اسكله سي التي تقربت بها الروسيا من الدولة العلية كانت الباعث لانتباه رجال السياسة في أوروبا حتى جعلوا المسئلة المصرية كمسئلة أوروباوية ولذا أخذت الدول تتذاكر فيها مليا وكانت فرانسا وحدها تميل لمساعدة مصر حتى

تسبب عن ذلك تغيير وزارة كيزو وتييرس وبسبب ذلك ضعفت سياسة لويس فيليب ملك فرانسا فى المسائل الخارجية وبعد مذاكرات طويلة بين دول أورو با عقدت انكلتره وأوستوريا و روسيا والروسيا اتفاقية مع السلطنة العثمانية بخصوص مصر كما سيأتى وكان توجيه مسند الصدارة العظمى الى خسرو باشا الكبير لا يرجى منه تسوية المسئلة المصرية على ما يوافق صالح الدولة لعداوته الكبرى لمحمد على باشا كما علمت ولما أصدر السلطان عند جلوسه فرمانا الى محمد على باشا والى الديار المصرية بالعفو قابل حامل هذا الفرمان المسمى عاكف افندى أحد كتاب الباب العالى فى أثناء ذهابه مع القبودان فرارى أحمد باشا وأخبره بما حصل من التبديل فى الوزارة وبصدور فرمان سلطانى بالعفو عن محمد على باشا وعدم احتياج الحالة لاعمال الدونمنا التى يلزم أن لا تبارح القلعة السلطانية ولذا كلفه بالعود بها الى الاستانة فخاف أحمد فوزى باشا من التبديلات الوزارية ودار بخلده أن تنصيب خسرو باشا لمسند الصدارة مضر به شخصيا لما بينهما من العداوة الشديدة فافتكر أن نجاته هى أن يتحد مع محمد على باشا ويسلمه الدونمنا ثم أرسل أحد ضباطه بسفينة الى استانبول لينوب عنه فى تقديم واجب تبريك الجلوس السلطانى ليبعد عنه بذلك المظان ثم انه بعد أن حبس مصطفى باشا الفريقى فى سفينة أقلع بالدونمنا الى ثغر الاسكندرية وبوصوله سلمها الى محمد على باشا وذلك فى ٢٥ جمادى الاولى سنة (١٢٥٥ هـ ٨ يوليو ١٨٣٩) وكانت الدونمنا المذكورة تتركب من تسعة غلايين كبيرة و ١١ فرقاطة و ٥ قرويتات عدد رجالها ١٦١٠٧ من الملاحين هذا خلاف ألايين من العساكر عدد رجالهما ٥٠٠٠ فيكون الجميع ٢١١٠٧ من الجنود وبذلك دخلت المسئلة المصرية مع الدول فى شكل جديد أكثر تعقيدا مما كانت ولهذا عزل خسرو باشا من الصدارة ووجهت الى رؤف باشا ثانية (١٢٥٦ هـ) واتفقت انكلتره والروسيا وأوستريا و بروسيا على حل المسئلة المصرية حلا نهائيا وعقدوا لذلك مؤتمرا بالاستانة تحت رياسة الصدر الاعظم (٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ م) وكانت فرانسا تظهر الميل والمساعدة لمحمد على باشا وترغب اطلاق السراح له وعدم تقييده بشئ وسعى مسيو كيزو رئيس وزرائها لدى الدول ليحملها على عدم تداخلها الان مسئلة مصر بمكن انها أوهى بين التابع ومتبوعه مباشرة وكان يقصد بذلك أن يكون لفرانسا الزمن الكافى لنوال مرغوبها الا أن دول أورو با لما فهمت نوايا فرانسا اتفقوا على تنفيذ ما قرروه ومضمونه أن يعطى السلطان لمحمد على مصر يحكمها هو وأولاده من بعده على طريق الوراثة وولايتى عكاء وصيدا مدة حياته فقط وأن يخلى بلاد العرب وسوريا وكريد وغيرها من الجهات التى بها عساكره فى مدة عشرة أيام وان رفض الرضوخ لذلك ساعدت الدول المذكورة الدولة بالقوة ولما رأت فرانسا أن ارجاع دول أورو با عما اتفقوا عليه من أصعب الامور غيرت وزارتها وعينت مسيو تيرس رئيسا لها وأخذت فى الاستعدادات الحربية خصوصا بجهتى نهر الرين وسواحل البحر الابيض المتوسط وفى تلك الاثناء أرسلت الدولة محمد رفعت بك مستشار الصدارة لمصر لابلاغ محمد على باشا قرار الدول وقبول الدولة له وانه ان لم يقبل ذلك فى ظرف عشرة أيام استردت الدولة منه ايالتى صيدا وعكاء ولما لم يقبل أرسلت انكلتره وأوستريا والدولة أساطيلها فحاصروا سواحل الشام واستولوا على بيروت واللاذقية وطرسوس وطرابلس وصيدا وصور وفتحوا عكاء عنوة بعد أن أطلقوا النيران عليها مدة ثلاث ساعات ونصف وكان ابراهيم باشا يعتمد عليها أكثر من غيرها ولما كانت جميع الذخائر والادوات

الحربية

الحربية المصرية بهذه المدينة وقعت فى يد المتفقين انهزمت الجنود المصرية الى منحدر جبال الدروز بعد محاربات طويلة والتزم ابراهيم باشا أن يتقهقر الى وديان تلك الجهات وكانت الاهالى تظهر العداوة لابراهيم باشا وجنوده حيث وجد ولما اشتدت به الحالة اضطر لأن يعود الى مصر (١٢٥٦ هـ) ثم توجهت فرقة من السفن المتفقة الى الاسكندرية تحت قيادة الاميرال نابير (Napier) الذى ألزم محمد على باشا بقبول القرار الدولى القاضى بان لا يكون له الا بلاد مصر (٢٧ نوفمبر ١٨٤٠) ثم أرسل المرحوم محمد على باشا الدونمنا العثمانية الى الاستانة وسلمها للدولة فى أول الحجة سنة ١٢٥٦ (٢٤ يناير سنة ١٨٤١) أما فرانسا فانها لما رأت أنها صارت بمعزل عن دول أوروبا وانها بذلك ربما أضاعت نفوذها الذى حازته بالمشرق هاجت واضطربت وعلى ذلك تغيرت الوزارة وتحول مجرى سياستها والتزمت أن تدخل فى دائرة السياسة الاوروباوية التى أجمعت على ابطال معاهدة هنكار اسكله سى المذكورة وانهاء المسئلة المصرية فى أقرب زمن واتفقوا على عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بخصوص حق المرور من مضيق البوسفور والدردانيل (جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ - ١٨٤١) وتعرف هذه المعاهدة بمعاهدة البواغيز وكانت بين الدولة من جهة وبين انكلتره والنمسا والروسيا وبروسيا وفرانسا من الجهة الاخرى وكان من مقتضاها الاعتراف من هذه الدول بالحق المطلق والحكم المستقل للدولة على البوغازين المذكورين وانه لا يصرح لدولة أن تمر بسفنها الحربية من هذين البوغازين أصلا ثم صدر فرمان الوراثة لعائلة محمد على باشا مشتملا على امتياز حكم القطر المصرى بمصادقة الدول الاوروباوية وتوجه بعدها محمد على باشا الى استانبول لعرض طاعته على السلطان وبذلك تجددت الروابط الودية بين مصر ودار الخلافة (١٢٦٢ هـ)

الترقيات فى الدولة العلية وخط الكلخانة — لما انتهت المشكلة بين مصر والدولة بتداخل الدول الاوروباوية اهتم السلطان عبد المجيد خان بتأييد النظامات الجديدة وأصدر الفرمان المعروف بفرمان الكلخانة فاتسعت به أسباب العمران فى كافة المملكة العثمانية واستتب الامن وتأسست المدارس الرشدية (٢٦ شعبان ١٢٥٥) وأدخلت النظامات والتحسينات فى المدارس الحربية والملكية والبحرية وحصل اقتصاد كلى فى ميزانيات البرية والبحرية معاوعت كل هذه النظامات بغاية الهمة وامتدت الاصلاحات الى جميع الولايات وأبدلت الاسلحة القديمة التى كانت بأيدى الجيوش الشاهانية باسلحة جديدة من آخر اختراع وهى بنادق الششخانة ذات الكبسول فأصبحت القوات العسكرية عمومها على وتيرة واحدة فى النظام والترتيب وامتدت الاصلاحات أيضا الى معامل الطوبخانة وملحقاتها من باقى المعامل العسكرية السلطانية وبهذه الاعمال النظامية والمواد الاصلاحية قطعت الامة العثمانية مراحل شاسعة فى طريق التقدم والعمارية فى أسرع زمن وبالاخص فى جميع مصالحها وادارتها وما يتبعهما من الفروع حتى صارت الامة بسبب ارتياحها لهذا الاصلاح العظيم فى غاية الامن والراحة

وقد وفق الله السلطان الى انفاذ جميع الرغائب والامانى لاصلاح شؤن الرعية وعمارة الممالك ونشر لواء الامن والراحة وقطع جراثيم الدسائس الاجنبية وكان الوزير رشيد باشا المذكور لما له من سعة المعارف والوقوف على ضروب السياسة وجه همته أولا لجعل دول أوروبا جميعها تعترف للدولة

العثمانية باخلاص النية وطهارة الطوية بما أوجدته فى داخليتها من الاصلاح والتقدم حتى سبقت كثيرا من دولها فى هذا الشأن

حركة الافكار باوروبا ومعاهدة بالطه ليمان — اعلم انه فى تلك المدة ظهرت فتنة عظيمة فى بلاد المجار (١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م) كانت كرد فعل للثورات التى حدثت فى هذا التاريخ بكثير من ممالك أوروبا حيث ثارت الامم طلبا للحصول على نظامات دستورية يتخلصون بها من حكوماتهم الاستبدادية وكان أول ظهور هذه الحركة بباريس وانتهت باسقاط حكومة لويز فيليب والمناداة بالجمهورية الثانية وعجزت دولة النمسا عن تأديب عصاة المجار فلذلك اضطرت لطلب المساعدة من الروسيا فارسلت الروسيا جيشا تحت قيادة البرنس باسكيه ويج الروسى وهو الذى اشتهر باعماله الحربية وقسوته الفظيعة ببلاد ايران والاناضول والهستان ولما دخل بهذا الجيش بلاد المجار تغلب على الثائرين لعدم انتظامهم وتفرق رأى قوادهم (١٨٤٩) وكان للروسيا فى ذلك مصلحة لانها لا تحب استقلال المجار لئلا يكون لها بمثابة عائق يمنعها عن التقدم نحو البلاد العثمانية ولما كانت بلاد المجار محاطة بالجنود من جميع جهاتها وكان البرنس باسكيه ويج اشتهر بالقسوة سدت فى أوجه الذين تداخلوا فى هذه الفتنة من المجار أبواب النجاة سيما وان ديوان الحرب الروسى حكم عليهم بالاعدام ولما كان المجار يعلمون من القديم الى الدولة العثمانية التجؤا اليها فقابلتهم الدولة بالترحاب ونشرت عليهم جناح رأفتها وكان من بين الملتجئين الى الدولة الجنرال ديمبنسكى (Dembinski) وكوسوت (Kossuth) وبم (Bem) وكلابكا وغيرهم من القواد وكان من بينهم أيضا اندراسى الذى صار فيما بعد رئيسا لوزراء النمسا وغيرهم من الاهالى وأرباب الحرف والصنائع والضباط والاطباء والمحامين ممن يبلغون الستة آلاف (١٢٦٥ هـ) وقد اتخذ أكثر هؤلاء الممالك العثمانية وطنا ثانيا وخدم كثير منهم الدولة الخدم الجليلة وقد حدث من حماية الدولة لهؤلاء الملتجئين أحسن تأثير باوروبا وتظاهر القوم تظاهرا ودادياً أمام سفارة الدولة العثمانية بباريس ولوندره وحدث أنه بينما كان سفير الدولة بلوندره يسير بعربته فى احدى طرقات المدينة صفق له القوم وهللوا استحسانا ثم سحبوا عربته بايديهم حتى أوصلوه الى دار السفارة بعد أن نزعوا الخيل منها ولما طلبت دولة الروسيا من الدولة العثمانية تسليم اللاجئين بحماها امتنعت الدولة من تسليمهم لانه ليس بينهما عهود تقضى بتسليم المجرمين السياسيين وحدث من هذه الحركة التى أثرت باوروبا هذا التأثير أن قام أهالى افلاق وبغدان يطلبون الاستقلال التام والانضمام الى بلاد ترانسلفانيا ليكونوا دولة رومانية وثار الاهالى على أميرى الولايتين حتى اضطروهما الى الفرار وكونوا حكومة مؤقتة وعند ذلك بادرت الدولة بارسال الجيوش الى تلك البلاد يقودها عمر باشا الشهير فطردا الحكومة المؤقتة ولما رأت الروسيا أن ذلك مضعف لنفوذها فى البلدين المذكورين أرسلت جيشا (١٨٤٨ م) واحتلت الاقليمين المذكورين فعارضتها الدولة فى ذلك حتى خيف من انتشاب القتال بينهما ثم دارت المخابرات بين الطرفين واتفق أخيرا على بقاء حق تعيين الامراء بالولايتين المذكورتين للدولة العثمانية كما كان وأن يحتل البلاد جيش مختلط من عساكر عثمانية وروسية لمدة سبع سنوات حتى يستتب الامن وكان التوقيع على هذه المعاهدة ببلدة بالطه ليمان من ضواحى استانبول ولهذا أضيفت المعاهدة المذكورة اليها

حروب القريم واسبابها — لما كانت دولة الروسيا على يقين من أن الاصلاحات التى أدخلتها الدولة فى حربيتها وتنظيم جيوشها البرية والبحرية هى نفس الاصلاحات التى أكسبتها الانتصارات فى وقائع حروبها مع الدولة العثمانية وكانت تتمنى أن لا ترى الدولة العلية متقدمة فى مراقى الفلاح لان ذلك ينافى سياستها وأمانيها بالجهات الشرقية كانت تنظر اليها بعين الحقد وتود عرقلة مساعيها فى الاصلاحات القائمة بها فقامت تنتحل سببا يخول لها محاربة الدولة فقالت بحمايتها لجميع الاورثودوكسيين التابعين للدولة العثمانية وأخذت تزرع بذور الدسائس كعادتها بين أولئك الاقوام ومن سوء الحظ أن أعمال بعض عمال الدولة كثيرا ما فتحت لدول أوروبا بابا تلج منه لمخاصمة الدولة وقد انتهزت الروسيا فرصة الاختلاف الواقع بين طائفتى الروم واللاتين فى القدس من سنين مضت بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة الاخرى وقامت كل طائفة منهما تدعى لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى فى حق السدانة على كنيسة القيامة ثم أخذت هذه المسئلة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم الى أن آل الامر الى النزاع والجدال فى سنة ١٢٦٨ هجرية فوقع الباب العالى فى الارتباك والحيرة واهتم باخماد نار العداوة من بين الطائفتين المذكورتين لان دولة الروسيا كانت تدافع عن حقوق الروم الاورثودوكسيين ودولة فرانسا تدافع عن اللاتينيين بمقتضى عدة معاهدات قديمة تدعى أنها تخول لها هذا الحق وعلى الخصوص بمقتضى الامتيازات الممنوحة لها فى سنة ١٧٤٠ ميلادية فتداخل سفير انكلتره فى هذا المشكل ورسم ترتيبا لائتلاف الملتين المتخالفتين فقبلته فرانسا ولم تقبله الروسيا لان مقصدها الاكبر ليس المحاماة عن حقوق الروم الاورثودوكسيين كما تقول بل كانت لها غايات أخرى كثيرا ما كانت تجتهد فى نوالها وتترقب الفرص للحصول عليها وهى ابعاد الدولة العثمانية عن المجمع الاوروبى ليسهل عليها الاستيلاء على أملاكها فانتهز قيصرها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ أربه وأرسل ناظر بحريته البرنس منجيقوف الى دار الخلافة العثمانية بصفة سفير مرخص للمخابرة فى مسئلة الخلاف الواقع بخصوص الاراضى المقدسة بعد أن بعث جيشا مؤلفا من ١٤٤ ألف مقاتل الى حدود الدولة ولما وصل رفض مواجهة فؤاد أفندى وزير الخارجية فعزلته الدولة ووجهت مسند نظارة الخارجية لرفعت باشا ثم تذاكر الوزراء فى البلاغ الذى قدمه البرنس المذكور لنظارة الخارجية (١٩ نيسان ١٨٥٣) ولم يوافقوا عليه ولهذا أخذت الدولة تجهز الجيوش استعدادا لما يحدث من الطوارئ ولانها رأت أن الروسيا لا زالت مستمرة على تحريض الاروام على العصيان ونبذ أوامر الدولة مشوقة اياهم بكل ما تقدر عليه من أنواع المشوقات ثم انفردت من بين دول أوروبا ووقفت فى ميدان السياسة بمفردها مدعية على الدولة العلية بانها تسىء معاملة النصارى الارثودوكس خصوصا وتطالبها باصلاح حالهم مع أن التنظيمات الخيرية تكفلت لهم ولغيرهم بذلك كما يعلم من مطالعة الفرمان الصادر بها ولما رأت الدولة أن الروسيا لا زالت مصرة على مدعياتها أخذت فى التجهيزات الحربية ولكى تتمكن من ذلك ويكون لها الوقت الكافى قررت اعادة النظر فى طلبات الروسيا وغيرت هيئة الوزراء (١٢٦٩ هـ) فوجهت مسند الصدارة الى مصطفى نائلى باشا ونظارة الخارجية لمصطفى رشيد باشا وكان من أصحاب الخبرة والذكاء ولما أعاد الوزراء المذكورون النظر فى طلبات الروسيا ورأوا أن لا حق لها أصلا وأنها خرجت بهذه الدعوى عن جادة الصدق قام وزير الخارجية معارضا لها

وتمكن بمهارته من الدخول مع دول أوروبا فى المناظرة والمباحثة والمجادلة والمناقشة ولم ينثه من عمله حتى أظهر لها الحجج الدامغة والادلة الكافية على بطلان مدعى الروسيا وعدم وجود أثر للصحة فيما تدعيه مثبتا ما أوجدته الدولة العلية منذ أزمنة مديدة من الاصلاحات العميمة والنظامات القويمة فى ممالكها المختلفة ونشرها العدل بين رعيتها على السواء وايجادها كل ما من شأنه رفع أمتها الى معارج السعادة والرفاهية وأيد جميع هذه الاقوال بما سبق من اعتراف الدول بوجود هذا الاصلاح فى الممالك العثمانية ومصادقتها على تعميمه فيها وارتياحها للدولة العلية حيث قامت به على حسن النية واخلاص الطوية ولم يخرج هذا الوزير من هذا الموقف المهم حتى تحقق للدول جميعها فساد قول الروسيا وانها تبطن خلاف ما تظهر وبناء على ذلك رفضت الدولة العثمانية بلاغ الروسيا تماما فقدم منجيقوف أولتيماتوم بلاغا نهائيا (٢١ مارس سنة ١٨٥٣) وبارح استانبول مع عموم هيئة السفارة الروسية

اعلان الحرب على الروسيا والوقائع بجهات الطونة والاناضول — لقد كانت رجال الدولة ومحافل أوروبا تظن أن ما استعمله البرنس منجيقوف فى مأموريته من الغلاظة والجبروت ربما كان على غير رضا دولته الا أنه لما أتى محرر ناظر خارجيتها القونت ده نسلرود (٣١ مارس سنة ١٨٥٣) اتضحت مقاصد الروسيا وظهر أن منجيقوف لم يصدع الا بما كانت تأمره به دولته سيما وان الجنرال غورجاقوف عبر نهر بروت بما كان تحت قيادته من القوة السابق ذكرها وانتشرت جيوشه فى أراضى المملكتين ولما رأت الدولة أن ذلك عبث بالعهود أعلنت الحرب على الروسيا (الحجة سنة ١٢٦٩) وكتب عند ذلك عمر باشا المجرى قائد عموم جيوش الروم ايلى الى القائد الروسى المذكور يطلب منه اخراج عساكره واخلاء أرض المملكتين فى مدة خمسة عشر يوما حسب الاصول المتبعة ولما علم عمر باشا أن جيوش الروسيا تقصد عبور الطونة من جهة ودين لتحريض الصربيين على العصيان أرسل قوة كافية عبرت من ذلك المكان الى جهة قلفات (١٢٧٠) وأنشأت هناك بسرعة بعض استحكامات وطوابى لاشغال العدو ومنعه من التقدم وأجاز أيضا من طوتردقان الى أولتانيجه ومن روسجق الى يركوك قوتين أخريين هددتا بهما مدينة بكرش فشيدت هاتان القوتان بعض القلاع وتمكنت من صد هجمات الروس ولما التقى عمر باشا مع عسكر الروس فى أولتانيجه انتصر عليهم انتصارا باهرا بعد حرب شديد (٣ صفر سنة ١٢٧٠) وكذا لما تجمعت قوة الروسيا بقرية چتانه الكائنة بجوار قلفات عين رئيس أركان حرب الروم ايلى الفريق ناظر أحمد باشا بقلفات ثلاث فرق عسكرية تحت قيادة كل من جركس اسماعيل باشا ومصطفى توفيق باشا وعثمان باشا وهجمت هذه الجنود على الروس من ثلاث جهات فهزمتهم شر هزيمة (الخميس ٥ ربيع الاول) واستولى العثمانيون على معسكرهم جميعه بعد أن ولوا الادبار من چتانه وصدتهم أيضا العساكر العثمانية فى روسجق وموطن أوغلى اطه سى وسلستره وقره لاش اطه سى وزشتوى ونيكبولى وماچين وايساقچى وانتصرت عليهم فى كل سواحل الطونة ثم هزمهم أيضا حليم باشا عندما هاجموا قلفات حتى اضطرهم الى الرجوع الى ماوراء نهر آلوتا من جهة بلاد افلاق الصغيرة وقد كانت هذه الانتصارات المتتابعة سببا لاندهاش العالم الاوروبى الا أنه لما أقبل فصل الشتاء

ببرده الشديد وتراكمت الثلوج الكثيرة التزم عمر باشا أن يلتجئ الى الحصون وأن لا يتعقب الروس المنهزمين هذا باوروبا أما الجيوش العثمانية بالحدود الآسيويه فكانت تحت قيادة عبد الكريم نادر باشا تتقدم أيضا منصورة فى جهات آخسخه وأربه جاى واستولى العثمانيون بمساعدة رئيس أركان حرب الجيش تاجرلى أحمد باشا على قلعة كرى وحاصر الروس فى آخسخه ثم ان نظارة الحربية باستانبول رأت من عبد الكريم باشا التوانى فى الحركات العسكرية فعزلته ونصبت مكانه قائدا آخر يدعى أحمد باشا ولما أقبل فصل الشتاء تعطلت الاعمال الحربية بتلك الجهات أيضا

واقعة سينوب البحرية (٢٧ صفر سنة ١٢٧٠) - كتب هنرى نابرل اسكوابر تاريخا مخصوصا لوقائع حرب القريم ذكر فيه محاربة سينوب هذه نلخصها على الكيفية الآتية قال انه فى شهر محرم من سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) أرسلت الدولة العثمانية الى البحر الاسود أسطولين أحدهما مشكل من خمس سفن حربية تحت قيادة البطرونه مصطفى باشا بها أدوات وذخائر حربية لايصالها الى ثغر باطوم وكان بهذا الاسطول ٨٨ مدفعا والآخر مشكل من ثلاث عشرة سفينة حربية تحت قيادة البطرونه عثمان باشا والرياله حسين باشا وأمر بالذهاب الى فرضة سينوب وكان به من المدافع ٤٠٦ مدافع ولما وصل هذا الاخير الى ميناء سينوب واستقبل فيها أقبلت بعد أيام من وصوله عمارة روسية مركبة من ثلاثة قباقات وأربع فراقيط وابريق واحد لمعرفة مواقع السفن العثمانية وقوتها وبقيت هذه العمارة خارج الفرضة محاصرة لها ولما وقف أميرال هذه العمارة المدعو ناجيموف (Nachimof) على حالة الدونما العثمانية كتب لدولته يطلب منها أن تمده بعدة من السفن الحربية الموجودة بسيواستوپول ولما وصلت اليه السفن كما طلب قوى ساعده ودخل الميناء بريح طيبة وأبقى خارج الميناء أربع سفن تراقب السفن العثمانية وتمنعها من الهرب لو أرادته ووقف هو بسفنه بعيدا عن مرمى مدافع البطاريات البرية على نحو ألف يارده من سفن العمارة العثمانية التى كانت مستقبلة فى الميناء على خط واحد

ولما رأى الريالة عثمان باشا أن سفن الروسية قد دخلت الميناء بهذه الكيفية أمر قواد السفن العثمانية بالاستعداد للحرب ومباشرة القتال والضرب وأن يبذلوا ما فى طاقتهم من الاجتهاد و يبيعوا نفوسهم حبا لدينهم وأوطانهم وغيرة على مملكتهم وسلطانهم الى آخر رمق من حياتهم و بعد ذلك شرعت الفرقاطة العثمانية المسماة نظامية باطلاق المدافع فخرجت المقذوفات من مدافعها كالصواعق اذا انحدرت أو الشهب اذا انقضت وابتدأت الحرب بين الطرفين ودوت الاصوات فى الآفاق واشتدت الحال وحمى الوطيس بين الفئتين وتحقق المتقاتلون أن هذا آخر الاجل المتاح الآن من تأمل وقتئذ الى هاتين القوتين كان يرى فرقا عظيما و بونا جسيما اذ أن السفن العثمانية صغيرة والسفن الروسية ضخمة كبيرة فلذا كان يتأكد من أن العثمانيين اما أن يسلموا سفنهم بغير قتال والا محتها أساطيل الروسيا فى الحال ومع هذا فقد استمرت الحرب ساعتين ونصفا أتلف فيها الاسطول الروسى الفرقاطة العثمانية المسماة ناوك بحرى ولما رأى قبودانها انه لم يبق فى وسعها المقاومة والمدافعة أمر باشعال النار فى مستودع بارودها لاعدامها بمن فيها حذرا وتفاديا من وقوعها فى أيدى العدو

ولما امتنعت طائفتها من انفاذ أمره هذا تقدم هو بنفسه وأشعل الجبخانة فتطايرت السفينة قطعا عن فيها جميعا وهو معهم ولقد كانت هذه الخسارة سببا في اضعاف قوة باقي السفن العثمانية ووقوع الخلل في نظامها لرؤيه عساكرها قطع الفرقاطة وهي تتطاير في الفضاء وأجسام شهدائها تتناثر ودماؤهم تقطر على سطح المياه كالسيل المنهمر فيا له من منظر تنفطر منه الاكباد وتتفتت له القلوب ولم تمض برهة حتى احترق قسم من السفن العثمانية بمقذوفات الروس ووصل الحريق الى مستودع بارودها فتهشمت وتطايرت قطعا وعند ذلك صعد عساكر الروس فوق السواري وهللوا فرحا وكان بقي بعد ذلك من السفن العثمانية فرقاطتان في الميناء وكانتا تطلقان على السفن الروسية مدافعهما بلا انتظام الا أن أصواتها لم تسكن الا اشهارا للحزن والاسف على أبطال الرجال وليوثها الذين عدموا وقد تخرب معظم المدينة من وقوع قنابل المدافع عليها حتى أصبحت غير صالحة للسكنى الا القليل منها وقد فعل الروس في هذه المحاربة أفعالا وحشية منافية للشهامة والمروءة على خط مستقيم فانهم لم يكتفوا بما نالوه من النصر لان قوتهم البحرية كانت أضعاف قوة العثمانيين بل كانوا يطلقون المقذوفات على جرحاهم ومن كان سابحا منهم فوق المياه فيقتلون هؤلاء الضعفاء المساكين الذين كانوا يلتمسون الخلاص أما الفرقاطتان الباقيتان من السفن العثمانية فدخلتهما عساكر الروس ووجدوا عثمان باشا القومندان مصابا بجراح في احدى رجليه ومعه اثنان من القبودانات و ١٠٥ من الانفار فأسروهم وأحرقوا الفرقاطتين لعدم صلاحيتهما لشيء أما حسين باشا الريالة فكان أصيب بمقذوف مات به في أول المحاربة ووجدت جثته فدفنت في تلك الجهة ومات من الدونمة العثمانية أكثر من ألفي نفس في أوائل المحاربة أما تلفيات الروس وخسائرهم فكانت كثيرة وكسرت المقذوفات العثمانية سواري الاربعة قباقات وبسبب ذلك بطل استعمال المدافع بها ثم مكثت السفن الروسية بميناء سينوب حتى أصلح ما أمكن اصلاحه منها وسحبوا ما تعطل من سفنهم ثم قصدوا سيواستوبول قبل ورود السفن الحربية الانكليزية والفرنساوية اليها وحصل أنه بعد انتشاب القتال هربت احدى البواخر الى الاستانة وأخبرت بهذه الواقعة ولم تتمكن السفن الروسية المعينة للمحافظة خارج المينا من منعها فعند ذلك أرسلت دونمتا انكلترة الموجودة بالبوغاز احدى بواخرها وأرسلت دونمة فرانسا الموجودة معها باخرة أخرى فذهبتا الى مينا سينوب للوقوف على حقيقة الواقعة ولما وصلتا اليها التقطتا بعض الجرحى الذين طالت أعمارهم وأوصلتاهم الى الاستانة وكان بالمينا أثناء القتال سفينة تجارية انكليزية قتل منها نفران بمقذوفات الروس ثم احترقت أخيرا في الحريق الذي وقع بالسفن الحربية العثمانية ولما أتت السفينة الانكليزية المذكورة أخذت معها ربان تلك السفينة وبحارتها وبوصوله هو وطائفته الى الاستانة قرر واصفة الواقعة كما شاهدوه ومضمونها أن الاساطيل العثمانية حاربت الاعداء بكل شجاعة واقدام مع ما كانت عليه من القلة بالنسبة للاساطيل الروس اه

وقد كتب المسيو نجيقوف رئيس وكلاء دولة الروسيا الى قيصرها يصف له محاربة سينوب المذكورة قائلا قد جهزت دونمتنا الموجودة بالبحر الاسود تجهيزا يكسبها النصر طبق ارادة القيصر وكانت في هذه المرة تحت قيادة الاميرال ناجيموف الذي حارب بها الدونمة العثمانية

فتغلب

فتغلب عليها ومحاها عن آخرها ولم ينج منها الا سفينة واحدة فقط وأسر ناقومندانها عثمان باشا وكان جريحا وأحضرته الدونما الى سيواستوبول وأما دونمتنا المشكلة من ٧ فراقيط و٣ قراويت و باخرتين وهي التي أخرجت الى البحر الاسود لتهديد أهالي القوقاز واشغال بلدة سخوم المعلوم أمرها الذي عظمته لكم فقد ضاعت بتمامها هنالك ولم ينج منها سوى سفينة واحدة وقتل وجرح منها كثيرون

ومما ذكر يظهر أن الدونما الثانية كانت ذهبت لاعمال أخرى غير ما ذكر وكان الاميرال ناچيموف الروسي كتب بعد محاربة سينوب الى قنصل النمسا فيها يقول انى أعتبر جنابكم في مدينة سينوب بصفة مأمور مرخص فأعرض عليكم مرامي وأرجوكم في آن واحد أن تبلغوا معروضاتي هذه للحكومة التي أنتم منسوبون اليها و باقي القناصل وهي أن المحاربة التي حصلت جعلتني أتأسف على تخريب المدينة لانه حصل من شدة مدافعة العثمانيين الذين قاموا بها في الواقعة المذكورة و بما أن مأموريتي لم تكن الا الاحتلال سواحل القوقاز وتخريب الدونما العثمانية التي خرجت لتوصيل الادوات والذخائر الحربية الى أهالي القوقاز لتحريكهم وتحريضهم على الثورة ضد حكومة القيصر فلهذا السبب قد حصل أيضا تخريب مدينة سينوب اه ومن ذلك يظهر أن الروس كانوا يظنون أن الاساطيل العثمانية التي أحرقوها كانت ذاهبة تحمل الذخائر الحربية لاهالي القوقاز لتحريضهم على الثورة ضد حكومتهم وتحتل ثغر سخوم وهو وهم اختلقته دولة الروسيا لتبرئ نفسها أمام دول أوروبا وليس من الحقيقة في شئ ومن أمعن النظر وتبصر في هذه المسئلة وقف على جليتها وانتهى الى حقيقتها وحكم بأنها على غير ما قيل فيها وأن التعدي قد كان مقصودا بالذات من دولة الروسيا وان كانت أنوار هذه الحقيقة قد أطفئت بافواه رجالها الذين انتحلوا الاباطيل واختلقوا الاقوال الملفقة وفضلا عن ذلك فقد أبلغ قبل وقوع هذه المحاربة قيصر الروسيا دول أوروبا انه غير ميال للحرب ولا مريد لها وأنه جانح للسلم على قدر وسعه ومداوم على طلب توسط دولة أستوريا في الصلح بينه و بين الدولة العلية ولكن تعدى أساطيله على الدونما العثمانية و وقوع الحرب بينهما في ذلك الواقعة ينافي هذه الاقوال التي صرح بها كما أن نسبة العثمانيين لتحريض أهالي القوقاز وغيرهم هو في غير محله و ينافي الحقيقة بالمرة لان من شاهد أهالي القريم الذين أدخلتهم الروسيا تحت طاعتها منذ سبعين سنة وزيادة وهم مداومون على اشهار السلاح في وجهها بلا محرض لهم من دار الخلافة قط لا يستبعد أن يداوم القوقازيون الذين عاشوا في ظل عدالة الدولة العلية مدة أجيال طويلة متمتعين بكمال حريتهم في عقائدهم بدون معارض ولا منازع لهم فيها على اقامة الثورات ضد الروسيا حذرا وتفاديا من دخولهم تحت أسر طاعتها وحفظ أحكامها والا فلو فرضنا أن الدولة هي المحرضة للقوقازيين على ذلك فمن المحرض لاهالي القريم مدة السبعين سنة المذكورة فمما تقدم يتبين أن هذه الاقوال التي اختلقتها الروسيا ليس لها نصيب من الحقيقة البتة بل الحقيقة هي تعدى الروسيا على الدولة العلية بغير موجب يستدعي ذلك وان اعدامها أحد الاسطولين اللذين أخرجتهما الدولة للمحافظة على سواحل البحر الاسود كما يقول مؤرخو العثمانيين عند التجائه الى فرضة سينوب بسبب ظهور زوبعة (٢٨ صفر سنة ١٢٧٠) انما كان مقصودا بالذات بلا شك وقد علمت ذلك دول أوروبا وتحققته كما سيذكر

اتحاد فرانسا وانكلتره مع الدولة — لما كانت المخابرات جارية بين الدولة والروسيا قبل حرب القريم تأثرت فرانسا تأثرا شديدا لان نابليون الثالث الذى جلس على تخت فرانسا فى أواخر سنة ١٨٥٢ خالف فى السياسة الخارجية الطريقة التى كان سلفه لويز فيليب يسير عليها فكان يظهر للدولة العثمانية الارتياح الكلى من الاصلاحات التى أدخلتها ببلادها ولما كان تعهد بحماية الكنيسة الكاتوليكية كان يميل جدا الى حل المسئلة المتنازع فيها بمدينة بيت المقدس بما أن ذلك كان يسر فرانسا ويفيدها وكان السير هاميلتون سيمور سفير انكلتره فى بترسبورغ عند مقابلاته السرية لقيصر الروسيا نيقولا الاول وقف على تصميمات دولته بخصوص بلاد الشرق ولما كانت حكومة السفير المذكور من اتباع المذهب البروتستانتى لم يكن يهمها مسئلة بيت المقدس كاللازم أما النمسا فقد أظهرت الاشمئزاز الكلى من منشورات البانسلاويست لان نزوع أهل الجبل الاسود للاستقلال وتشكيل حكومة منتظمة فتح بابا لاهالى دالماسيا وخروانيا والولايات المجاورة ولذلك تأثرت حكومة النمسا من ذلك وعرضت وساطتها لاتمام حادثة الجبل الاسود بسرعة واطفاء نيران فتنة بيت المقدس الا أنها لم تتمكن من تأليف ذات البين ثم اتفقت مع روسيا على عدم المداخلة وانتظار النتيجة وكان دخول ايتاليا فى المسئلة غير ظاهر بل كانت آخذة فى أسبابه بسعى ملك سردينيا ويقتور امانويل لينال بذلك رضا أوروبا وبينما كانت الاحوال سائرة هكذا أرسلت الروسيا البرنس منجيقوف (Mentschikoff) الى الاستانة سفيرا فوق العادة فظنت أوروبا أن القصد من مأموريته هذه المكالمة فى مسئلة الاراضى المقدسة الا أنه لما أشيع أن القصد من مأموريته عقد مشارطة مخصوصة مع الدولة أو تجديد معاهدة هنكاراسكله سى اندهشت أوروبا بخصوص ما شاهد سفراؤها فى الاستانة أعمال السفير الروسى المغايرة لقواعد حقوق الدول فمالت أفكار عموم أوروبا بالمساعدة الدولة وفى أثناء ذلك كان الامبراطور نيقولا يلح على السير هاميلتون سيمور سفير انكلتره بعاصمة الروسيا يريد اجتذاب انكلتره للاتحاد مع الروسيا اضعافا لنفوذ فرانسا فى الشرق وليتقاسما أملاك الدولة العثمانية سوية فلما اطلعت انكلتره على مقاصد الروسيا خافت من امتداد نفوذها فى الشرق ومشاركتها لها فى البحار القابضة هى على صولجانها وتجارتها فاتحدت المملكة فكتوريا ملكة الانكليز مع نابليون الثالث امبراطور فرانسا للاتحاد مع الباب العالى لتأييد المعاهدات المختصة ببيت المقدس وفى خلالها أعاد السلطان مصطفى رشيد باشا الى الصدارة وكان عزل منها ارضاء للروسيا وعزم على رفض مطالب البرنس الروسى وأعلن باحترام حقوق الكنيسة الارثودكسية وبعد مخابرات يطول شرحها قطع السفير الروسى العلاقة مع الدولة وعاد الى بلاده ثم أطلعت الدولة اللورد استراتفورد سفير انكلتره على جميع المخابرات التى دارت بينها وبين الروسيا فانضمت انكلتره الى فرانسا وأرسلت الى أساطيلها بمالطه بان تتحد مع الدونمة الفرنساوية فى كافة الاعمال وأمرت الدولتان أساطيلهما بالحضور الى جون بشيكة القريب من بوغاز الدردنيل فحضرت اليه فى أواسط يونيه سنة ١٨٥٣ وكان الامبراطور فرانسوا جوزيف ملك النمسا يتردد فى السياسة التى يتبعها بعد أن بذل جهده فى منع الخلاف بلا حرب وسعى فى عقد مؤتمر وبانه الذى انعقد فى شهر أغسطس من سنة ١٨٥٣ ولما لم تأت جلساته العديدة بفائدة تحقق

لدى

لدى جميع الدول سوء نية الروسيا وحرضت انكلتره وفرانسا الدولة العثمانية على رفض طلبات الروسيا فى المؤتمر ومداومة الدفاع عن حقوقها وحصل ما سبق ذكره من عبور جيوش الدولة نهر الطونة وانتصارها فى كافة الوقائع الحربية التى حدثت هناك فظهر لاوروبا بذلك فائدة التنظيمات التى أدخلتها الدولة فى جيوشها وفى أثناء ذلك رضيت الدولة بدخول أساطيل فرانسا وانكلتره البوسفور ولما عبرته رست فى بيوك دره من ضواحى الاستانة لتكون على مقربة من البحر الاسود منعا لهجمات الروس ثم بعثت فرانسا من طرفها المارشال شبيل باراجى ديليه (Baraguay D'hilliers) بمأمورية فوق العادة الى الاستانة ظاهرها السعى فى أمر الصلح وباطنها درس أحوال العسكرية العثمانية فقابل السلطان (ستمبر ١٨٥٣) باحتفال وافر ولما وصل خبر واقعة سينوب البحرية وضياع أساطيل الدولة مع تعهد الروسيا للدولتى فرانسا وانكلتره بانها لا تقصد اجراء أى أمر عدوانى فى البحر الاسود أصدرت الدولتان أوامرهما الى أساطيلهما الراسية فى بيوك دره بالدخول الى البحر الاسود فدخلته (٤ مارس سنة ١٨٥٤) وكانت عمارة انكلتره مركبة من ٢١ سفينة حربية تحمل ١١٦٢ مدفعا تحت قيادة الويس أميرال دنس دانداس (Deans Dundas) والكنترأميرال السيرادمند لاينس (Sir Edmund Lyons) وعمارة فرانسا مركبة من ٣٩ سفينة تحمل ٢٧٤٠ مدفعا تحت قيادة الاميرال هاملن (Hamelin) والكونترأميرال بروات (Bruat) وبصحبتهما الدونما العثمانية المركبة من ١٢ سفينة حربية تحت قيادة قيصر يه لى أحمد باشا وكان قبودان السفينة محمودية وقتئذ اتش محمد بك الذى صار فيما بعد قبودان باشا وله اليد البيضاء فى اصلاح البحرية مدة السلطان عبد العزيز خان كما سيأتى فى محله ثم رست هذه الاساطيل أمام وارنه وكتب الامبراطور نابليون الثالث كتابا الى الامبراطور نيقولا فى أواخر يناير سنة ١٨٥٤ شرح له فيه المسئلة باطرافها وتعديات الروسيا وعرض له فيه بعقد مؤتمر دولى للنظر فى أمر الصلح تحت شرط اخلاء اقليمى الافلاق و بغدان من الجيوش الروسية وفى مقابلة ذلك تنسحب أساطيل الدولتين من البحر الاسود فكان جواب امبراطور الروسيا عدم امكانه قبول ذلك و بناء على هذا الجواب عقدت فرانسا وانكلتره مع الدولة العثمانية فى الاستانة اتفاقية على محاربة الروسيا تحت شرط سحب جيوشهما من بلاد الدولة العلية بعد خمسة أسابيع تمضى من يوم الصلح الذى يتم مع الروسيا وأمضيت فى ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ (مارس سنة ١٨٥٤) و بعد خمسة عشر يوما أعلنت الدولتان الحرب على الروسيا وكان الامبراطور نيقولا يخاف من انضمام النمسا و بروسيا للدولتين المذكورتين فارسل الى برلين وويانه سفيرا مخصوصا يدعى الموسيو أورلوف يطلب من امبراطور النمسا وملك بروسيا اما المساعدة أو البقاء على الحيادة وفى شهر مارث من السنة المذكورة أرسلت انكلتره عمارة كبيرة الى بحر بالطيق مركبة من ٤٠ سفينة حربية تحت قيادة الاميرال السير نابير (Napier) وأرسلت بعد ذلك فرانسا اسطولا آخر مركبا من ١٦ سفينة حربية تحت قيادة الكونترأميرال پينود (Penaud) و بوصول هذه الاساطيل أخذت فى الاعمال الحربية فاستولت على جزيرة الآند وشرعت فى تهديد مدينة كرونستادا الحصينة التى بها المينا الحربية للروسيا وسنذكر باقى أعمال هذه الاساطيل فى البحر المذكور فى تواريخ الدولتين المذكورتين ان شاء الله تعالى

وبعد ذلك أرسلت فرانسا وانكلتره جيوشهما فاجتمعا بكليبولى فى يوم ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٧٠ هـ (مارث ١٨٥٤ م) وكان جيش فرانسا يتركب من ٥٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة المارشال سنت آرنو (Saint-Arnaud) ويتألف جيش انكلتره من ٢٥,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة اللورد راغلان (Raglan) وفى أثناء محاربة الدولة للروسيا ثار بعض أشقياء اليونان فأقامت الدولة على حكومة اليونان الحجة الشديدة فالتزمت حكومتها بتأديب المفسدين وأعادت السكينة للحدود سريعا ولما أعلنت انكلتره وفرانسا اشتراكهما فى حرب الروسيا التزمت النمسا أن تقوم بالتجهيزات الحربية واتفقت مع الدولتين بان تكون معهما فى حركة متحدة حتى يتقرر الصلح العمومى ولذلك احتلت بلاد المملكتين

حرب سيواستوبول ١٢٧١ هـ – بينما كانت جيوش الدول المتفقة تجتمع فى كليبولى كان قد كرّ عبر المارشال البرنس باسكيه ويچ نهر الطونه وأخذ يحاصر مدينة سلستره فبعثت الدولتان فى ١٥ ابريل سنة ١٨٥٤ خمس سفن حربية انكليزية وثلاثة فرانساوية الى ميناهوجه بك (Odessa) ولما رست أمامها طلبوا من حاكمها تسليم كافة السفن الروسية التى بها ولما لم يرد منه الجواب أطلقوا عليها القنابل (٢١ ابريل سنة ١٨٥٤) وضربوا ميناها واستحكاماتها وأحرقوا السفن الراسية بها كما فعلته الروسية بسينوب بالسفن العثمانية وفى خلال ذلك كانت جيوش الدولتين تمر من أمام الاستانة تقصد وارنه وكان الجنرال باسكيه ويچ ارتد خائبا من محاصرة سلستره وكانت الجيوش التى أرسلها السردار عمر باشا من تركوك فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٠ وصلت الى بكرش فى أوائل مايو سنة ١٨٥٤ وأجلت جيوش الروسيا عن تلك الاطراف ولما كانت دولة النمسا عقدت بينها وبين الدولة اتفاقا على أن تحتل بجيوشها المملكتين الى انتهاء الحرب واقرار الصلح التزمت الروسيا بسحب جيوشها من المملكتين وأدخلتهم بسارابيا وبذلك انتهت الحروب من شواطئ الطونه ثم عقد قواد فرانسا وانكلتره مع قواد الدولة مجلسا فى وارنه وتقرر بينهم جعل شبه جزيرة القريم دار الحرب وبناء على ذلك ركبت الجيوش المتفقة وكان عددها يزيد عن ٧٠,٠٠٠ مقاتل من وارنه وبالجيق على نحو خمسمائة سفينة بين نقلية وحربية وأقلعت فى أواسط الحجة سنة ١٢٧٠ قاصدة بلاد القريم ولما وصلت الى سواحلها الجنوبية احتلت كوزلوه (Eupatoria) قال المؤرخون انه لم يسبق اجتماع عمارة جسيمة كهذه فى أى جهة ما وكانت المدينة المنيعة فى القريم هى ثغر سيواستوبول الواقع بالجنوب الغربى من الشبه جزيرة المذكورة وكانت تلك المدينة محفوظة من البر والبحر باستحكامات جسيمة وبذلك كانت تعد من المواقع الحربية الاولى فى أوروبا ولهذا وجه قومندانات الجيوش المتفقة حركاتهم لفتحها وكان للروسيا فيها دونتما قوية تبلغ ٢٥ سفينة بل أكثر من ذلك ومع ذلك لم يتجاسر قائدها من الخروج بها الى عرض البحر لضعفها عن المقاومة ورأى من الصواب اغراقها فى فم بوغاز مينا سيواستوبول ليسد بها مر ذلك البوغاز ثم تقدم الجيش المتفق من كوزلوه وصادف جيش الروسيا فى ساحل نهر الما (Alma) فحاربه وهزمه فى يوم ٢٧ الحجة ١٢٧٠ (٢٠ ستمبر ١٨٥٤) وكان عدد هذا الجيش

المنهزم ٥٠،٠٠٠ مقاتل تحت قيادة البرنس منجيقوف وبهذا الانتصار تشجع الجيش المتفق وعزم على حصر سيواستوبول من كل جانب وفى ٢٦ سبتمبر استولى على فرضة بالقلوه (Balaklava) ولما كان المارشال الفرنساوى سنت آرنو اعتراه من مدة خلل فى صحته وصار غير قادر على الخدمة أحيل أمر قيادة الجيوش الفرنساوية على قائد الفرقة الاولى الجنرال كانروبير (Canrobert) أما المارشال فانه مات فى الطريق أثناء عودته الى استانبول (٢٩ سبتمبر) فشيعت جنازته باحتفال عسكرى عظيم ونقلت جثته الى باريس وبعد أن أتمت الجيوش حصار سيواستوبول أخذت فى اطلاق القنابل عليها من يوم ١٠ اكتوبر وفى ٣ صفر سنة ١٢٧١ (٢٥ سبتمبر) حدثت واقعة بالقلوه المذكورة وذلك انه قبل ما ينتقل السردار عمر باشا من الروم ايلى كانت قيادة العساكر الشاهانية التى أرسلت للقريم مع المتحدين لرستم باشا وأحيل أمر المحافظة على موقع بالقلوه على عهدته ولما هاجمه فيما بعد القائد العام الروسى منجيقوف بجيشه صدته الجيوش العثمانية ببسالتها المعلومة واتفق وصول امداد من الجيوش المتفقة تحت قيادة الجنرال ليراندى فهزمت الروس شر هزيمة وفى ٥ نوفمبر من السنة المذكورة حصلت واقعة انكرمان العظيمة وذلك أن الروس أرسلوا جيوشا عديدة لتخليص القريم فهاجموا الجيوش المتفقة من الخارج وخرج عساكر من الروس المحصورين فى سيواستوبول حتى صارت عساكر المتفقين بين نارين وهاجم الجنرال غورجاقوف طوابى الانكليز الموجودة على تلال انكرمان وقد ثبتت حاميتها مع قلة عددهم وساعدتهم العساكر العثمانية والفرنساوية بسرعة فانهزمت الروس أيضا فى هذه الواقعة شر هزيمة ولما وصل خبر انتصارات الما وانكرمان أطلقت المدافع فى استانبول ولوندره وباريس فرحا وتبشيرا

ولما كان حصار سيواستوبول استغرق مدة أكثر مما كان يظن لقلة الجنود المتفقة لان عددها لم يزد عن ٨٠،٠٠٠ مقاتل بينما كانت قوة الروسيا هناك ثلاثة أمثال ذلك أخذت الدول فى زيادة قوتها وأرسلت أغلب السفن الى الاستانة لاصلاحها خصوصا بعدما أغرقت الروسيا عمارتها فى فم بوغاز ميناء سيواستوبول وسدته كما سبق وأرسلت العساكر العثمانية التى كانت باقية مع السردار عمر باشا الى القريم وفى تلك الاثناء حصلت مخابرات بمدينة ويانه عاصمة النمسا للوصول الى الصلح فلم تفد شيأ وبناء على ذلك دخل ملك بلاد بيمون وساردينيا ويكتور امانويل فى الاتفاق الدولى (٢٦ دسمبر سنة ١٨٥٥) وأرسل قوة عسكرية مشكلة من ١٠،٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الجنرال لامارمورا (La Marmora) وقد اكتسبت عساكر ايطاليا فى هذه الحروب فخرا كباقى عساكر الدول المتفقة ولما أصرت الدول على الاخذ بالشدة فى هذه الحروب وضعت جميع فرض الروسيا بالبحر الاسود وبحر ازاق تحت الحصار الحربى وفى يوم ٩ دسمبر سنة ١٨٥٥ (١٩ ربيع الآخر ١٢٧١) حصلت واقعة فى بالقلوه انهزمت فيها الروسيا وفى يوم ٢٩ جمادى الاولى من سنة ١٢٧١ بينما كان عمر باشا السردار مشغولا بتنظيم وترتيب جيشه فى كوزلوه هاجمه الروس بغتة الا أنه انتصر عليهم انتصارا باهرا ومات فى هذه الواقعة من الامراء المصريين الفريق سليم باشا والميرالاى رستم بك وقد مدح القائد الفرنساوى الجنرال كانروبير شجاعة العساكر العثمانية فى هذه الواقعة فى النشرة التى نشرها على جيشه

ولما حاصرت الاساطيل المتفقة قلاع سيواستوپول بحرا اصابتها كثيرا وأكثرت من رمى المقذوفات عليها (٢٥ محرم ١٢٧١) وقد كان الحرب فى اليوم المذكور شديدا جدا حتى ان الاوج انبارلى فيل دو بارى الفرنساوى والاوج انبارلى برتيانيا الانكليزى اقتربا على مسافة أقل من ألف بارده من الاستحكامات ووقفت باقى السفن الفرنساوية فى جهة الشمال والانكليزية من جهة اليمين على خطين وبينهما الاوج انبارلى العثمانى محمودية والغليون پيك مسرت وأخذ الجميع فى اطلاق المدافع ودام الحال على ذلك لغاية شهر الحجة من السنة المذكورة وفى ٢ مارس من سنة ١٨٥٥ توفى قيصر الروسيا نيقولا الأول وخلفه ولده الكساندر الثانى وفى أثناء ذلك هزمت الجيوش الروسية بانكرمان كما سبق فتأثر قائد الجيوش الروسية منجيقوف من ذلك كثيرا حتى مرض ومات وخلفه فى القيادة العامة غورجاقوف وأصيب أيضا الاميرال ناچيموف الذى أحرق دونتما الدولة فى سينوب أثناء اطلاق المدافع على سيواستوپول بجراح

ولما حل فصل الربيع حيث تسهل الحركات العسكرية كان الخط الحديدى الذى أنشأه الانكليز من بالقلوه الى المعسكر تم وشيدت أيضا الطوابى والاستحكامات التى بنتها العساكر المتفقة لتشديد الحصار ووضع بها نحو أربعمائة مدفع من مدافع الحصار فاشتد بذلك التضييق والضرب على قلاع سيواستوپول وفى ١٦ مايو انفصل الجنرال كانروبير وخلفه فى القيادة على الجيوش الفرنساوية الجنرال پليسيه (Pélissier) ثم دخلت أساطيل الدول المتفقة فى أوائل شهر رمضان بحر ازاق واستولت على بلدتى كرچ ويكى قلعة فهرب الاهالى والعساكر الروسية منهما تاركين كافة الادوات والذخائر وأخربت المراكب المذكورة جميع الاستحكامات الروسية فى بحر ازاق المذكور وفى ٢٨ يونيه من سنة ١٨٥٥ مات اللورد راغلان قائد جيوش الانكليز بالوباء أمام سيواستوپول وشيعت جنازته باحتفال رسمى عظيم وخلفه فى القيادة الجنرال جمس سيمسون وفى ١٦ أغسطس حدثت واقعة تراكتير (Traktir) حيث هاجم نحو ستين ألف روسى جيش المحاصرين فى تلول نهر چرنايه (Tchernaïa) فارتدوا منهزمين انهزاما تاما بعد محاربة شديدة وفى ٢٦ الحجة سنة ١٢٧١ هاجمت جميع العساكر المتفقة حصون سيواستوپول وكانوا قبل ذلك استولوا على قلعة الراس الاخضر فهجمت فى هذه المرة العساكر الانكليزية على قلعة ريدان والعساكر الفرنساوية على قلعة مالاكوف فلم يظفر الانكليز أما الفرنساويون فانهم استولوا على القلعة التى هاجموها وكانت خسائر الطرفين فى هذه الواقعة جسيمة حيث بلغت ٢٥،٠٠٠ جندى وبعد ذلك افتتحت قلعة ريدان المذكورة ولما كانت هاتان القلعتان أكبر قلاع سيواستوپول أحرق الروس الجهة الجنوبية من المدينة وخرجوا منها وانتقلوا على السفن الى الجهة الشمالية وبهذا الانتصار كادت المحاربة تنتهى وتقرر الصلح مبدئيا وكانت الاساطيل المتفقة مجتمعة من أول سبتمبر أمام قلعة أوزى وأطلقت المدافع أيضا على قلعة قيلبرون

وقائع الحدود الشرقية — ان الفرقة العثمانية النازلة بجهة چورولدصو كانت استولت فى أول القتال على قلعة شوكديل وتقدم قائد الاناضول عبد الكريم نادر باشا الى جهات آخسخه وآربه چايى وبهمة تاجرلى أحمد باشا رئيس أركان حرب الجيش استولى العثمانيون على قلعة كرى

فاضطر الروس أن يلتجئوا الى آخسخه فقصدها القائد المذكور وضرب عليها الحصار ولما نسب أحمد باشا الى عبدي باشا أحد القواد الاهمال في أعماله وعزل كما تقدم استقل هو بالقيادة ولما لم يكن القائد الجديد المذكور من الذين يتمكن عليهم في المحاربات لجهله وعدم خبرته انتصر الروس في بعض الوقائع بجهات آخسخه وكرى فعزل أحمد باشا المذكور وجرد من رتبة الوزارة ونفي الى قبرص وأحيلت القيادة على ظريف مصطفى باشا والى ارضروم وكان الشيخ شامل أحد أمراء الداغستان لبث مدة طويلة يحارب الروسيا لما فعلته من المظالم وأظهرته من القسوة نحو أهالي تلك البلاد فلما أعلنت الدولة الحرب على الروسيا انتهز هذا الامير فرصة ذلك وأخذ يحرض الاهالي على الثورة وتحركت قبائل الجركس والابازه مساعدة للدول وساقت الدولة المتفقة سفنها الى جهات سخوم وآنابه ووزعت على الاهالي الاسلحة والذخائر ولما لم يتمكن مصطفى باشا من ضبط الحدود تقدمت جنود الروسيا الى جهات قارص (رمضان ١٢٧١) ولما حاصرتها في أواخر هذه السنة عينت الدولة لقيادة جيوش الاناضول واصف باشا فقام بالمدافعة عن تلك الجهات أحسن قيام خصوصا في أشهر محرم وصفر وربيع من سنة ١٢٧٢ ورد الاعداء بالتنكيل والخسائر العظيمة فكافأه السلطان على ذلك وشكره وبعث السردار عمر باشا بقوة عسكرية الى جهات سخوم لمنازلتها بفكرة ان الروس يخففون الحصار عن قارص أو يتركونه فتتمكن الدولة من امدادها أما حامية قارص فانهم قاوموا الاعداء الى آخر درجة ممكنة ولما فرغت ذخائرهم اضطروا أن يسلموا للروس (٧ ربيع الاول ١٢٧٢ هـ - ٢٨ نوفمبر ١٨٥٥ م)

معاهدة باريس (٢٤ رجب سنة ١٢٧٢ هـ) - لما تحقق اسكندر الثاني امبراطور الروسيا من عدم الفوز في هذه الحرب خصوصا وان دولة النمسا أظهرت له العداء جهارا بعد سقوط سيواستوبول وانضمام دولة السويد الى الاتحاد الاوروبي بالمعاهدة الدفاعية والهجومية التي عقدتها مع فرانسا وبروسيا ضد الروسيا (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٥٥) أشارت النمسا على الدول بارسال بلاغ نهائي للروسيا فقبلت الدول وأظهرت الروسيا الميل للصلح وكانت تطلبه هي أيضا وتقرر عقد مؤتمر في باريس وعينت الدولة العلية وفرانسا وانكلترة وأوستريا وساردينيا والروسيا وبروسيا مرخصين من قبلهم واجتمعوا في باريس للمذاكرة في شرائط الصلح على القواعد الاساسية التي كان حصل التكلم فيها في مؤتمر ويانة قبل ذلك وبعد المذاكرة طويلا أمضيت شروطه النهائية (٢٤ رجب سنة ١٢٧٢ هـ - ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ م) وكانت تشتمل على ٣٤ بندا أهمها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وتكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول ولا يجوز للسفن الحربية الدخول بالبحر الاسود أصلا ما عدا الدولة العثمانية والروسية فان لهما الحق في أن يكون لهما بعض السفن الحربية للمحافظة على ثغورهما هنالك ولا يجوز للدولة العثمانية ولا للروسيا انشاء دور صناعات حربية على شواطئ البحر المذكور وأن يشكل قومسيون مختلط لتأمين السفن التجارية في نهر الطونة وأن تكون ايالات الافلاق وبغدان والصرب ذات استقلال داخلي كما كانت سابقا وأن يكون للدول الموقعة على هذه المعاهدة حق

المشاركة فى الرأى فى انتخاب وتعيين أمراء هذه البلاد وبعد ذلك انسحبت الجيوش فى مدة عينها المؤتمر وعادت الى بلادها وانتهت هذه الحروب التى لا داعى لها أصلا سوى المطامع والاغراض الذاتية

حوادث بوسنه وهرسك وكريد وواقعة جدة — اعلم أنه بعد أن انتهت حروب القريم بصد مطامع الروسيا فى الشرق ونالت الدول الاوروباوية رغائبها من حيث الامن على حصول الموازنة فى البحر المتوسط الابيض أخذ بعضهم يسعى فى اضعاف نفوذ الدولة العثمانية بتداخلهم فى شؤنها الداخلية وأعمالها الخصوصية ببث روح الفساد فى بعض ولاياتها وذلك أنها بعد أن تمكنت فى سنة ١٢٧٢ من اطفاء الفتنة العظيمة التى قامت فى مكة المشرفة بين الاهالى والعساكر العثمانية بسبب الاوامر التى أصدرتها بمنع التجارة فى الرقيق وانتهت بالقبض على الشريف عبد المطلب بن غالب وعزله من امارة مكة وتنصيب الشريف محمد بن عون بدلا عنه فى شهر رمضان بثوا بذور الفساد فى ولايتى بوسنه وهرسك محرضين أهاليهما على طلب الاستقلال الداخلى كالصرب والمملكتين فساقت الدولة الجيوش لاخماد هذه الفتنة وعند ذلك تداخلت سفراء الدول يريدون منع الدولة من قمع العصيان بالقوة واستعملوا أقوالا تهديدية شديدة اللهجة ولم تكتف الدول بعمل سفرائها هذا الذى لا تجوزه القوانين الدولية أصلا بل أرسلت بعض سفن حربية سنة ١٢٧٤ لمنع الدولة من انزال عساكرها الى سواحلها ببحر الادرياتيك حينما أرادت ردع أهالى الجبل الاسود لامدادهم الثائرين عليها بولايتى بوسنه وهرسك وفى تلك الاثناء توفى الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا السياسى الشهير وخلفه فى مسند الصدارة محمد أمين عالى باشا ووجهت نظارة الخارجية الى فؤاد باشا وكانا من مشاهير الرجال وأمهرهم فى الاعمال السياسية وقد اجتهدا فى اتمام جميع المسائل الداخلية وتسكين الاضطرابات وأظهرا فى ذلك اقداما ومهارة وسياسة مما جعلهما من أعاظم الرجال ومنعا سفراء الدول من التداخل بما أبدياه من الملاحظات الحقة فعادت أحوال بوسنه وهرسك الى السكينة لكن لم تمض على ذلك مدة حتى حرك بعض الدول الثورة فى جزيرة كريد وقامت السكان من اليونان فيها يطلبون الانضمام الى اخوانهم فاجتهد الوزيران فى هذه المسئلة أيضا وتلافياها بالحكمة وتعين عليها أحد الولاة الخبيرين المدعو سامى باشا فسكنت الاحوال ولم يمض بعض أيام على مسئلة كريد هذه حتى حدث فى مدينة جدة حادثة أخرى وهى أنه فى شهر الحجة من سنة (١٢٧٤ هـ يوليو ١٨٥٨ م) حصل بين سكانها المسلمين ونزلائها المسيحيين منازعات لاختلاف حصل من بعض أصحاب السفن فى رفع العلم العثمانى أو الانكليزى على بعض المراكب التجارية وانتهت بالقتال بين الطائفتين وقتل فيها قنصل فرانسا ووكيل قنصل انكلتره ولما وصلت الاخبار الى دار الخلافة أرسل الباب العالى سريعا أحد القواد المدعو اسماعيل باشا وأصحبه ببعض الجنود لتحقيق المسئلة ومعاقبة القاتلين بالاعدام متى ثبتت الجناية عليهم وقدم سفيرا فرانسا وانكلترة لائحة مشتركة الى نظارة خارجية الدولة يخبرانها بانهما أرسلا أساطيلهما الى فرضة جدة لمعاقبة القاتلين فاجابهما فؤاد باشا باهتمام الدولة بالمسئلة وبما تنويه من العمل وبأنها مستعدة لاعطاء التعويضات وفى تلك الاثناء قبض نامق باشا والى مكة على المجرمين وأخذ فى محاكمتهم وبينما هو فى ذلك اذ أقبلت سفن الدولتين وأخذت تطلق مدافعها على

جدة يوما بتمامه وفى اليوم الثانى وصلت الباخرة الحاملة لاسماعيل باشا المذكور فاوقفت السفينة الانكليزية الضرب وخرج المندوب العثمانى ومن معه من العساكر وأخرج المركب الانكليزى بعض عساكر أيضا وبعد الوقوف على ماحصل نفذ حكم الاعدام على القاتلين وانتهت بذلك المشكلة وأقلعت السفن الاجنبية الى حيث أتت

حادثة الشام — انه فى سنة ١٢٧٦ ﻫ (١٨٦٠ م) قامت ببلاد الشام ثورة هائلة بين طائفة الموارنة من نصارى لبنان وبين الدروز كانت رديئة العاقبة على المسيحيين وان كانوا أكثر من أخصامهم عددا ونفوذا الا أنه بسبب تخاذلهم وعدم تبصرهم وانقيادهم الى الدسائس الاجنبية التى لاتحمد عقباها افتك الدروز بهم خصوصا فى واقعتين حصلتا ببلدة حاصبيا وراشيا ثم امتدت الفتنة الى زحله ولولا ماأظهره سكانها من الشجاعة لافتك الدروز بهم وأوقع الدروز أيضا بالنصارى فى عدة مواقع أخرى واتهم عثمان بك قائم مقام حصبيا وأحمد باشا والى دمشق بمساعدة الدروز ولما اشتدت وطأة المسئلة تداخلت الدول الاوروباوية وعرضت فرانسا استعدادها لارسال جيوشها الى بلاد الشام لتسكين الفتنة وحماية النصارى فلم تقبل الدول فى أول الامر خصوصا انكلتره ثم أرسلت جميع الدول على يد سفرائها الى الباب العالى بلاغات فاجتمع الوزرا تحت رياسة فؤاد باشا ناظر الخارجية وبعد المذاكرة طويلا تقرر لزوم تسيير قوة عسكرية لاخماد الثورة بالديار الشامية وسافرت تلك القوة سريعا تحت قيادة فؤاد باشا وكانت مؤلفة من سبعة آلاف جندى الى بيروت لاخماد الفتنة فوصلها فى يوم ٢٨ الحجة من سنة ١٢٧٦ ثم قصد دمشق وهناك عقد مجلسا حربيا من أمراء الجيش وحاكم رؤساء الفتنة وقتل كثيرين منهم وقتل أيضا والى دمشق المرحوم أحمد باشا لانهم اتهموه بمساعدة الدروز على المسيحيين واهمال أوامر الدولة مرة واحدة وورد فى بعض الاوراق العثمانية أن أحمد باشا كان بريئا لانه قبل حدوث الواقعة بأربعة شهور كان بالشام أربعة طوابير من الجنود وصدر له أمر السرعسكر وقتئذ رضا باشا بارسالها الى الروم ايلى فعرض أحمد باشا ملحوظاته للسرعسكرية والمابين الهمايونى بعدم جواز تقليل القوة من الشام نظرا لثورة الافكار بها ولما لم يجب طلبه طلب الاستقالة فلم يقبل منه أيضا ويقال ان قتله كان لما يحقده عليه فؤاد باشا لما بينهما من النفور منذ كانا سوية فى بكرش والله أعلم بالحقائق هذا أما تواريخ أوروبا فانها تتهم الباشا المذكور وتلقى عليه مسؤلية عظمى ومع ذلك فانه بقتل الوالى المذكور وغيره من رؤساء الفتنة لم تقنع دول أوروبا لاختلاف غاياتها وتعدد مقاصدها بل اتفقوا على أن ترسل دولة فرانسا الى الشام قوة عسكرية لمساعدة الجيش العثمانى فتوقف السلطان فى أول الامر لكنه لما رأى اجماعهم على ذلك عاد فقبل وكانت القوة الفرنساوية التى أرسلت تبلغ عشرة آلاف جندى تحت قيادة الجنرال دوبول وكان القصد منها منع التعدى الحاصل على طائفة الموارنة من الدروز ولما نزلت فى بيروت وجدت الاحوال ساكنة فلم تبد أقل حركة وأرسل أيضا بعض الدول مراكب حربية الى بيروت وأرسلت الدولة أيضا عمارة حربية جعلت قيادتها لاحمد باشا القيصرلى ثم عينت الدول الاوروباوية العظمى مندوبين عنها فاجتمعوا ببيروت تحت رياسة فؤاد باشا ولمهارة هذا الوزير فى أساليب السياسة أوجد الخلاف بينهم حتى صار يقودهم الى حيث شاء متى شاء وبعد المذاكرة طويلا وضعوا لجبل لبنان نظامات جديدة وجعل فيها حكومة ممتازة حاكمها

مسيحى المذهب يتخابر مع الباب العالى رأساو بعد أن صدقت الدولة على ذلك وجهت المتصرفية لداود باشاوهو أرمنى واستمر الاحتلال الفرنساوى الى ٥ يونيه سنة ١٨٦١ الموافق لأواسط شوال سنة ١٢٧٧ وبعد ذلك انسحبت الجيوش الفرنساوية من أراضى الدولة بعد أن تظاهرت بحماية الموارنة من تعديات الدروز وفى تلك الاثناء انتقل السلطان المرحوم الغازى عبد المجيد خان الى رحمة الله بعد مرض لم ينفع فيه علاج وكان ذلك يوم الثلاثاء ١٧ القعدة سنة ١٢٧٧ (٢٧ مايو سنة ١٨٦١) ودفن فى قبره الذى أعده لنفسه حال حياته بجوار جامع السلطان سليم وكان رحمه الله من أجل السلاطين قدرا محبا للاصلاح نشر أوامر العدالة الشهيرة المسماة بالتنظيمات الخيرية ثبت بها العدل فى المملكة العثمانية وأدخل اصلاحات جمة فى الجيوش عاد بها مجد الدولة وترقت فى أيامه العلوم والمعارف واتسعت دائرة التجارة وشيد كثيرا من المبانى الفاخرة والقصور المزخرفة ومن مآثره تجديد بناء المسجد النبوى بالمدينة المنورة (١٢٧٠) وكان كما بناه السلطان قايتباى وجعل سقوفه قبابا من الحجر كالمسجد الحرام وتمت عمارته فى أربع سنوات وشيد عمارات كثيرة أيضا بالحرمين الشريفين وجدد كذلك ميزاب الكعبة المشرفة (١٢٧٥ هـ)

٣٢ السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود خان الثانى

١٢٧٧ - ١٢٩٣

لما صعد السلطان عبد العزيز خان على كرسى الخلافة وجد الدولة فى حاجة الى اتمام الاصلاحات التى سعى أخوه بهمة فى ادخالها بالادارات الملكية والعسكرية بانواعها والتى كان توقف سيرها بالنسبة لحرب القريم خصوصا وغيره من المشاكل العديدة التى منيت بها هذه الدولة منذ تداخل الاجانب فى أعمالها وبعد أن تقلد السيف يوم الخميس فى الثامن عشر من شهر ذى القعدة بجامع سيدى أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه كما جرت به العادة أبقى الوزراء فى مناصبهم ماعدا السر عسكر رضا باشا فانه عزله وعين بدله نامق باشا ثم أصدر فرمانا الى الصدر محمد أمين عالى باشا الذى خلف قبرصلى محمد باشا مظهرا حسن قصده ومزيد رغبته فى متابعة السير بالجد والاجتهاد لتنفيذ الاصلاحات الضرورية لترقية حال الدولة وايجاد المساواة بين جميع أفراد الرعايا بلا تمييز وأسس فى ٦ محرم من سنة ١٢٧٨ مجلس الاحكام العدلية وعين لرياسته الوزير الشهير محمد فؤاد باشا وجعله ثلاثة أقسام أحدها للادارة الامور الملكية والثانى لسن القوانين والنظامات والثالث للمحاكمات وكان لاهتمامه بذلك يحضر بنفسه فى آخر كل سنة الى الباب العالى ليتلى فى حضرته ملخص الاجراآت والاعمال التى قام بها المجلس المذكور مدة السنة الماضية وبقى هذا المجلس يسير فى أعماله الى ٨ ذى الحجة من سنة ١٢٨٤ حيث صدر الامر السلطانى بالغائه وتعويضه بمجلسين آخرين يشكلان على نظاماته الاساسية وهما شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وقد نجح هذان المجلسان فى أعمالهما حتى انه لما أصدرت الدولة نظامنامه سنتى ١٢٨١ و ١٢٨٧ وحددت فيهما وظائف جميع المأمورين من الولاة الى صغار الخدمة اتضح أن بعض الذين تعودوا السير على طريقة التنظيمات الخيرية القديمة لم يقابلوا ذلك بالارتياح لان التنظيمات الجديدة قيدت حركات المأمورين وغلت أيدى مطامعهم وكبحت شهواتهم فأصدر لذلك فرمانا بمحاكمة كل

من

من يقاوم تلك التنظيمات ولهذا احاكم واعدة من كبار الحكام مثل خسرو باشا وعاكف باشا وطاهر باشا ونافذ باشا وحسيب باشا جزاءهم على ما صدر منهم وعبرة لغيرهم وبذلك ظهر للعموم حب السلطان للعدل والاصلاح واهتم السلطان أيضا باصلاح الاحوال المالية اذبها قوام الدولة فأصدر فرمانا سنة ١٢٧٨ الى الصدر الاعظم محمد فؤاد باشا الذي خلف محمد أمين عالي باشا الذي وجهت اليه نظارة الخارجية بعمل ميزانية مضبوطة للمالية عن سنتي ١٢٧٧ و١٢٧٨ وبعد ذلك صدر قرار من الدولة بالغاء القوائم المالية وهي أوراق تتداول كالنقود كانت أصدرتها المالية في عهد المرحوم الغازي عبد المجيد خان للعسر المالي الذي كانت وقعت فيه واقترضت الدولة لذلك ثمانية ملايين من الليرات فسوت جميع ديونها وألغت القوائم في نحو الشهرين وأصبحت المعاملة في كافة الولايات بالنقود وانتظمت أحوال المالية

ولما كانت حروب القريم أثرت نوعا على قوة حربية الدولة وضعفت بها عمارتها البحرية بضياع عدة أساطيل في واقعة سينوب وجه السلطان عنايته أيضا لتقوية الجيوش وتغيير كافة الاسلحة النارية باخرى من أحسن طرز وأصدر أوامره بذلك الى السرعسكر محمد رشدي باشا الذي خلف نامق باشا (٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٧٨) واتفقت ادارة الطوبخانة والسرعسكرية على ابتياع القدر اللازم منها من أحسن معامل أوروبا وكانت من النوع المعروف بذي الابرة ثم وضعت التنسيقات العسكرية على النمط الجديد ولحب السلطان عبد العزيز في العسكرية وميله اليها من يوم ارتقائه على عرش الخلافة أمر أيضا بجمع عدد وافر من أولاد أمراء العشائر والقبائل من كافة الولايات وشكل منهم فرقة عسكرية جعل ملابسهم على الزي الذي يستعملونه عادة فكان ذلك من أحسن الوسائل التي تحبب الامة في العسكرية زيادة على مالها فيها من الميل الغريزي ثم التفت الى القلاع والحصون فسلحها بانواع المدافع الجديدة الضخمة التي تملأ من الخلف كما غير المدافع في الجيوش وبعد قليل أصبحت طوبجية الدولة يضرب بها المثل في التقدم وأصلح أيضا الطوبخانة وأدخل بها كثيرا من الآلات الحديثة حتى صار يمكنها عمل كافة الاسلحة على الطرز الجديد وتغيير هيئة الاسلحة القديمة الى هيئة جديدة

الاصلاحات في البحرية — لما تولى المرحوم السلطان عبد العزيز كانت نظارة البحرية تحت ادارة محمد علي باشا ولما كان السلطان شديد الرغبة في الاصلاحات الحربية خصوصا كما علمت عزله ونصب مكانه مصطفى باشا رئيس مجلس البحرية (١٢٧٩ هـ) وبعد قليل صدر أمره بتولية آتش محمد باشا هذه النظارة وأمره ببذل الهمة الزائدة لاصلاح الاحوال البحرية فاقتدى هذا الوزير الشهير بجنكل أوغلي طاهر باشا الذي وسع نطاق المدرسة البحرية ومعامل ومصانع دار الصناعة وأخذ يرسل كثيرا من الضباط الذين أتموا علومهم بالمدرسة البحرية الى بلاد الانكليز لاتمام التمرينات الحربية والبحرية وابتاع كثيرا من المدرعات من أوروبا وشيد عدة بواخر حربية بدور صناعة الدولة وأدخل عدة اصلاحات على المدرسة البحرية فاوجد فيها تعليم فن الميكانيكا وعمل المدرعات وشيد عدة معامل لصناعة المدرعات والآلات والمراجل (القزانات) وشكل بالطوبخانة ادارة تكون مسؤولة عن جميع الآلات والمعدات البحرية ودعيت هذه الادارة فيما بعد

بمستشارية البحرية ولما توفى آتش محمد باشا سنة ١٢٨١ هـ وجهت القبودانية العامة الى الحاج وسيم باشا الذى اتبع طريق سلفه فيما يعود على البحرية بالترقى ثم لما عين لقيادة الاساطيل الذاهبة الى جزيرة كريد مدة ثورتها سنة ١٢٨٢ هـ خلفه فى القبودانية خليل شريف باشا وأصدر السلطان عند ذلك فرمانا بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٨٢ هـ يحث به ناظر البحرية والعسكرية على الاهتمام التام والسعى الحثيث لابلاغ القوة البرية والبحرية شأوا رفيعا ومن الاطلاع على صورة هذا الفرمان (١) تعلم عناية السلطان بأمر البحرية والعسكرية ثم أعيد محمد على باشا الى نظارة البحرية وانفرد خليل باشا بمشيرية الطوبخانة لاهمية هاتين الوظيفتين (١٢٨٢ هـ) وكانت الحكومة أحضرت من بلاد الانجليز بعض المعلمين كالمهندسين والرسامين وغيرهم ووظفتهم بمعامل دار الصناعة وسلمت اليهم كثيرا من الشبان لتعليمهم وتمرينهم وكان متى برع أحد هؤلاء فى صنعته عينته الدولة بعد امتحانه فى وظيفة المعلم الانجليزى وأخلت هذا من خدمتها وقد اعترض السفير الانجليزى على ذلك فلم يكن من الدولة الا أن أقنعته بحسن عملها بكلام مؤلم ولهجة شديدة فسكت

وقد تقلب فى نظارة البحرية كثيرون أظهر واجميعا همة ونشاطا وحسن ادارة وأدخلوا عدة تحسينات على نظاماتها وزادوا فى عدد بوارجها حتى بلغت القوة البحرية مبلغا عظيما حيث أصبحت تتركب من ٢٥ سفينة مدرعة غير السفن العديدة الاخرى وصارت الدولة العثمانية تعادل الدول البحرية الاولى والفضل فى ذلك للمرحوم السلطان عبد العزيز لانه أول من أوجد سفنا مدرعة للدولة وقد تولى نظارة البحرية بعد محمد على باشا نامق باشا ثم حسين عونى باشا (١٢٨٨) ثم قيصريه لى أحمد باشا (١٢٨٩) ثم أحمد أسعد باشا (١٢٩١ هـ) ثم رؤف باشا (١٢٩٢ هـ) ثم القيصريه لى أحمد باشا ثانية ووصلت دار الصناعة باستانبول الى درجة وافية تضارع دور صناعات أعظم الدول البحرية باوروبا وعادت أيضا أهمية دار صناعة ازميد والبصرة الى ما كانت عليه وشيد وأصلح فى دار صناعة استانبول كثير من الاحواض لاصلاح السفن ومن الجدول الآتى يعلم عدد الاحواض المذكورة ومقاساتها

---

(١) وزيرى سمير المعالى محمد فؤاد باشا

كما أن ادامة وترقية الاصلاحات العائدة الى كل شعبة من مصالح دولتنا غاية أفكارى كذلك كان تقدم الامور البحرية أقدم آمالى وقد كانت الخصوصات العائدة الى بوارجنا (دونتمتنا) منقسمة الى قسمين أحدهما الامور العسكرية ومادة سير السفائن والثانى الانشا آت وتنظيم المهمات والاول لياقة الامراء والضباط البحرية كافية والثانى موجب للاعتناء فبناء على ما ذكر كان لا بد من احالة هذا الامر الثانى على من هو ذو اقتدار ومعلومات وحيث ان دراية خليل باشا مشير الطوبخانة واستقامته ومعلوماته ومهارته فى مثل هذه الامور مسلمة استنسبنا احالة القبودانية الى المشار اليه مع بقاء اعمال المهمات الحربية وتنظيمها فى عهدته بعد نقل مصالح القلاع المنسوبة الى الطوبخانة ومصالح العساكر الطوبجية الى الباب السرعسكرى فاحضر المشار اليه لدينا وأجريت مأموريته فليبتدئ اعلان ذلك جعل الحق الجميع موفقين اهـ كنز الرغائب

	طوله بالقدم	عرضه بالقدم	عمقه بالقدم	الجهة المصنوع بها	تاريخ الانشاء
حوض الحجر الجديد	٣٨٠	٩٠	٢٦	قرب باب العزب	١٢٨٦ هـ
حوض الحجر الاوسط	٢٥٥	٦٠	٣٠	بين الحوضين	١٢٤١ هـ
حوض مضاعف	٤٠٠	٦٥	٣٠	قرب قاسم باشا	١٢٢٧ - ١٢٩٢ هـ
حوض خشب عوام	٢٥٥	٥٢	٣٢	بقرب الترسانه	١٢٨٧ هـ
حوض جديد	٤٠٠	٦٥	٢٣	اينه لى قواق	١٢٨٠ هـ
دستكاه من الحجر	٤٠٠	٦٠	٣٢,٥	اينه لى قواق	١٢٤٨ هـ

ولزيادة شغف السلطان بالبحرية أدخل ابنه الامير محمود جلال الدين أفندى برتبة ملازم فى سلك البحرية (١٢٨٧) فكان ذلك من البواعث لسرور عمال البحرية كما ألحق قبل ذلك أكبر أنجاله الامير يوسف عز الدين أفندى بالاوردى الخاص الهمايونى (١٢٨٥ هـ) والحاصل أن الاهتمام الذى بذله المرحوم السلطان عبد العزيز فى الاصلاحات والتنظيمات الكثيرة بعموم ادارات الدولة العثمانية وما أدخل فى عهده من التحسينات بالمصالح العسكرية والبحرية أوصلاها الى درجة عالية من التقدم والانتظام وقد قوى أيضا القلاع والحصون وشيد أخرى بحدود الدولة الشرقية والغربية وفى بوغازى البوسفور والدردنيل وسواحل الطونة وسلحها كلها بأضخم المدافع من آخر اختراع من جنسى الكروب والارمسترونغ وبما جدده من المعامل بالطوبخانة أمكن الدولة عمل مدافع الششخانة على هيئة أتقن وأحكم من التى كانت تشتريها من الخارج وبترقية هذه الاعمال ترقت أيضا الصناعة الوطنية وكثرت الاختراعات حتى فرح لها كل محب واهتمت الدولة أيضا بتحسين حالة مصانع البارود والفشنك الموجودة بممالكها

معرض الاستانة (١٢٧٩) - لما كانت غاية مقاصد السلطان تقدم الصناعة وتوسيع نطاق التجارة وتحريض الامة العثمانية على ما فيه خيرها كما علمت أصدر فرمانا عقب مبايعته بالخلافة بانشاء معرض عام بالاستانة ولما تم بناؤه سنة ١٢٧٩ هـ افتتحه بذاته باحتفال باهر وكان برفقة جلالته جناب المرحوم الخديو اسماعيل باشا وكان المعرض المذكور يحتوى على عشر قاعات فسيحة وضع بكل واحدة منها نوع خاص من المصنوعات والحاصلات الوطنية التى استحضرت من جميع الاقطار العثمانية وكان من أهم وأنفس محتويات هذا المعرض الجوهرات والاحجار الكريمة والاسلحة النفيسة من آثار سلاطين آل عثمان الفخام مما لا يمكن للقلم أو اللسان البليغ أن يصفه وكان بوسط المعرض حوض بديع من الرخام البديع الصنعة ينقذف من وسطه الماء صعدا بهيئة تسر الناظرين وكان به غير ذلك كثير من نفائس الصنعة

زيارة السلطان للقطر المصرى - لما كان السلطان يميل جدا الى استطلاع أحوال المملكة العثمانية قصد زيارة البلاد المصرية فسافر الهمايونى ١٢٧٩ يخفره أسطول حربى عثمانى وكان بمعيته من الامراء الاماجد مراد أفندى السلطان السابق ومولانا السلطان وخليفتنا الحالى السلطان عبد الحميد ورشاد أفندى و يوسف عز الدين أفندى ومن الوزراء محمد فؤاد باشا والقبودان آتش محمد باشا وغيرهم من الوزراء والقواد والجنود ولما قدم الى الاسكندرية احتفل المرحوم

الخديو اسماعيل باشا به احتفالا لامثيل له وبعد أن تفرج على الاسكندرية وصلى بجامع سيدى الاباصيرى فى مقصورة خصوصية سافر الى القاهرة فقوبل بمزيد التجلة والاحترام اللائق بمقامه العالى وزار من بها من آل البيت النبوى وأغدق بالصدقات على خدمة المساجد والتكايا لاسيما الجامع الازهر وبالجملة فقد أدخل على أهل مصر السرور وغمرهم بخيره المشكور وبعد أن بقى بها أياما عاد الى دار الخلافة

الاختلالات والمحاربات الداخلية فى عهد المرحوم السلطان عبد العزيز

وقائع الجبل الاسود — اعلم أن دول أوروبا لما كانت تسعى من زمن طويل فى تقليص ظل نفوذ العثمانيين واستعملت لذلك جميع الالعاب والاساليب السياسية كما مر بك بعضه فى هذا التاريخ ورأت فى هذه المدة أن الدولة العثمانية قامت تبذل المساعى الحقة فى اجراء التنظيمات المختلفة والتحسينات المتنوعة حتى ترقت بها البحرية والحربية والصنائع والمعارف واتسعت دائرة التجارة أخذت فى عرقلة مساعى الدولة ببث الدسائس وبذر الفتن فى جميع أنحائها توصلا الى غرضها المشؤم وكان أول هذه الثورات بعد ثورة بلاد بوسنه وهرسك السابق ذكرها ثورة الجبل الاسود التى انتهت من أول الامر بخلع أميره نيقولا وتنصيب البرنس دانيلو مكانه (١٢٧٧ هـ) الا أن الاضطرابات لما كانت لا تزال سائدة بجهات الجبل المذكور أعدت الدولة أخيرا ثلاث فرق عسكرية الاولى تحت قيادة عبد الكريم نادر باشا المعروف بعبدى باشا والثانية تحت قيادة درويش باشا والثالثة تحت قيادة حسين عونى باشا وهاجم بها عمر باشا السردار الجبل من ثلاث جهات وبعد أن أوقعوا بالثوار زحفوا على چتينه عاصمة الجبل فالتزم أميره دانيلو أن يطلب الامان وقد قبل ما اشترطته عليه الدولة من ابعاد ميركو والده من بلاد الجبل وأن تقيم الدولة حول حدود الجبل بعض الابراج والحصون تحتلها جنودها للمحافظة على الراحة العمومية لمنع أهل الجبل من الثورة ثانية ولما تم ما أرادت عادت السكينة وقد صرفت الدولة على ذلك المصاريف الجسيمة الا أن أمير الجبل لم يقم بعد ذلك بما تعهد به وأظهر العناد بتحريض بعض دول أوروبا ثم تداخلت فرانسا والروسيا فى المسئلة واستمرت المداخلات السياسية الاجنبية تلح على الباب العالى حتى قبل هدم تلك الابراج والقلاع (١٢٨٠ هـ - ١٨٦٤ م) ونال الجبل بمساعى أوروبا وتطفلها على موائد السياسة العثمانية استقلالا اداريا

وقائع الصرب — ان الامتياز الذى نالته مقاطعة الصرب بمقتضى معاهدة باريس (١٨٥٦ م) كما سبق جعلها ممتازة الادارة تحت سيادة الدولة العثمانية وجعل للدولة الحق فى ابقاء حامية عثمانية فى ست قلاع فقط من حصون تلك البلاد ثم بعد ثورة بوسنه وهرسك السابق ذكرها (١٢٧٨ هـ) استمر الاضطراب ببلاد الصرب وأظهر أهلها العداوة للعثمانيين فى كثير من المسائل الى أن تداخلت الدول فى ذلك وعقد سفراؤهم مؤتمرا بالاستانة برضا الباب العالى كان عالى باشا الصدر الاعظم مندوبا به عن الدولة وبعد مداولات تقرر أن يخلى العثمانيون قلعتين من الست قلاع المذكورة وتبقى جنودهم فى أربع فقط وهى بلغراد وسمندره وفتح الاسلام وشباتس (١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م) ومع هذا فان الروسيا لازالت تلح على الدولة بترك بلاد الصرب

تماما لتغل يديها عن السير فى طريق الاصلاح ولعب الجنرال اغناتيف سفيرها فى الاستانة أدواره السياسية الى أن تنازلت الدولة أيضا للصرب عن القلاع الباقية وكانت حجة دولة أوروبا فى ذلك أن بقاء الجنود العثمانية ببلاد الصرب تهديد لها فاضطرت الدولة الى قبول هذه الامور المجحفة بحقوقها التى اعترفت لها بها أوروبا سابقا وذلك لاجتماع دولها عليها ولظهور الثورة بكريد (١٢٨٣ هـ - ١٨٦٧ م) ولما خرجت العساكر العثمانية من بلاد الصرب خرج معها جميع العائلات الاسلامية من سكان تلك البلاد لاستحالة الاقامة عليهم بعد خروج الجنود وتركوا أملاكهم فى مقابلة تعويض دفعته الدولة لهم وهكذا استقلت الصرب ولم يبق للعثمانيين بها من أثر التابعية غير رفع العلم العثمانى بقلعة بلغراد بجانب العلم الصربى فقط وقد تكدر الرأى العام بالاستانة من ذلك جدا ولولا مراقبة الدولة الاحوال لحدثت فتنة داخلية شديدة

حوادث المملكتين - اعلم ان أمير هذه البلاد جان الكسندر الاول المدعو كوزا الذى تساهل الباب العالى فى تعيينه على هاتين الولايتين مع ما عرف عنه من الافكار المخالفة لسياسة الدولة أخذ يسعى من تاريخ توليته (١٢٧٨ هـ) فى فصل كنيسته عن بطريك الاستانة وبعد مشاحنات يطول شرحها أيد الباب العالى (١٢٨١ هـ ١٨٦٤ م) استقلال اكليروس رومانيا استقلالا تاما عن بطريك القسطنطينية قطعا لعرق الدسائس الاجنبية ومنعا لحدوث المشاكل التى كانت تخافها الدولة لما هى فيه من الحالة الصعبة ثم لما أظهر الامير المذكور الجبروت والقسوة تآمر عليه كبار رجال الولايتين وألزموه بالاستعفاء (١٢٨٢ هـ) فتداخلت الدول عند ذلك فى انتخاب خلفه كما ورد بمعاهدة باريس ولم تتداخل الروسيا قصدا للتحفظ لنفسها حقا ولما أقروا على انتخاب البرنس شارل هوهنزولرن من عائلة بروسيا المالكة وتوحيد حكومة الولايتين وتسميتها برومانيا عارض الباب العالى فى ذلك أشد المعارضة وساق جيوشه على الحدود لمنع الانتخاب بالقوة الا أن ظهور الثورة بكريد اضطره للاعتراف بهذا الامر منعا للادرنبا كان

ثورة جزيرة كريد (١٢٨٣) - قال الفاضل أحمد مدحت أفندى فى القسم الاول من كتاب أس انقلاب ما ملخصه مترجما انه كلما سعت السلطنة العثمانية فى الاصلاحات سعت دولة الروسيا فى اختلاق المشاكل بداخلية الدولة لعرقلة مساعيها عن السير فى طريقها ولذلك لما رأت سعى الدولة هذه المرة فى الاصلاحات الداخلية العسكرية والبحرية دست الى الاهالى الغير المسلمين بجزيرة كريد المتعودين من القديم على الثورات بان يقوموا ويطلبوا ضم جزيرتهم الى اليونان وأوعزت اليهم بان سيكون لهم من الروسيا واليونان نصير فانصاعوا العذوبة هذه المواعيد المحشوة بالسم القتال وثاروا على الدولة باجمعهم واستفحل أمرهم واستعدت الدولة لقمعهم بالقوة (١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م) ثم ظهر أخيرا أن مصلحة الدول البحرية لا تساعدهم على نوال مطالبهم اذ كانت جميعها مضادة لسلخ كريد عن الدولة ثم ساقت الدولة عليهم الجيوش برا وبحرا تحت قيادة مصطفى باشا الكريدى (١٢٨٣ هـ) وأمرته أن ينصح الثوار أولا بالاخلاد الى السكينة كما هى عادتها حقنا للدماء ومع جده واجتهاده فى ذلك لم يمكنه حملهم على الطاعة بل أصروا على العناد مع محبتهم لذلك القائد ولما لم تبق وسيلة الا امتشاق الحسام أخذ يقاتلهم وأرسل المرحوم

الخديو اسماعيل باشا فى شهر ربيع الاول من السنة المذكورة قوة عسكرية مركبة من ستة آلايات بياده و بعض بطاريات طوبجية تحت قيادة شاهين باشا ثم تعين لقيادتها القائد الشهير اسماعيل سليم باشا الفريق ناظر الجهادية اذ ذاك و بعد وفاته خلفه عبد القادر باشا الطوبجى ثم لما دعت الدولة مصطفى باشا الكريدى الى الاستانة بعد أن استقال محمد رشدى باشا من الصدارة وخلفه محمد أمين عالى باشا (٦ شوال سنة ١٢٨٣) تعين لقيادة الجنود العثمانية عمر باشا وهو صربى الاصل وقد أظهر النشاط فى مطاردة الثائرين أولا ولما كانت الذخائر الحربية تصل الى الثائرين من الخارج خصوصا من بلاد اليونان لعدم تيقظ بعض عمال الدولة هناك واهمالهم مع أن الاساطيل العثمانية كانت تحاصر الجزيرة المذكورة من جميع جوانبها أصدرت له الدولة الاوامر بتشديد الحصار البحرى حول الجزيرة وأعلنت بذلك عموم الدول التى أمرت سفنها الحربية المتجولة فى تلك الاطراف بنقل العائلات التى رغبت فى المهاجرة من الجزيرة فكانت تنقلها بتصريح من الدولة العثمانية

الحركات البحرية فى كريد — لما قامت الثورة بكريد عينت الدولة أولا أسطولا كبيرا تحت قيادة الفريق ابراهيم باشا المورهلى مشكلا من عدة مدرعات وفرقاطات وطرادات (١٢٨٣ هـ) ثم تعين القبودان السابق المشير الحاج وسيم باشا قائدا عاما عليها (١٢٨٤ هـ) وبقى الفريق ابراهيم باشا وكيلا له وأرسل المرحوم الخديو اسماعيل باشا عدة بواخر أخرى جعلت قيادتها القاسم باشا وكانت جمعيات الثورة فى بلاد اليونان ترسل الذخائر والمساعدات للثائرين على وابورين سريعى السير ابتاعتهما لهذا الغرض ولما ضيقت سفن الدولة الحصار على كريد تلاقى أحد وابوراتها المسمى عز الدين مع أحد الوابورين اليونانيين المذكورين فطارده ولما ضاقت عليه المسالك دخل فى الجون المدعو قبو كريو من ساحل كريد وأحرقت طائفته جميع الذخائر الموجودة به خوفا من استيلاء العثمانيين عليها وفروا هاربين الى الجبال وكان هذا الوابور يسمى اركادى فقبضت عليه السفن العثمانية وجلبته الى فرضة سودة وهناك أصلح اصلاحا وقتيا حيث كان مقدمه تهشم واحترق بعض أخشابه ثم أرسل الى الاستانة و بعد اصلاحه أدخل ضمن عداد الاساطيل العثمانية واقتفت بعض سفن الدونما الهمايونية الوابور الثانى و يسمى انوسيس الى فرضة بيره من بلاد اليونان ولما طلبت تسليمه من حكومتها قامت جمعية الثورة بها ومنعت تسليمه فاتهمت الدولة حكومة اليونان بالاشتراك فى الثورة وقطعت معها العلاقات الرسمية وطردت قناصلها ورعاياها من الممالك المحروسة وساقت عمارتها المدرعة تحت قيادة الاميرال هو بارت باشا الانكليزى الى مينا بيره لمحاصرتها ولما وصلت المسئلة بين الحكومتين الى هذا الحد تداخل بعض الدول وفى مقدمتهم فرانسا وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة للنظر فى أمر ثورتها وتسويتها فرفض الباب العالى هذا الطلب أولا لعدم اتفاق الدول عليه وعين الصدر الاعظم عالى باشا امندو باعاليا سياسيا للنظر فى أحوال الجزيرة فسافر اليها فى شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٨٤ هـ (اكتوبر ١٨٦٧ م) وأخذ يجتهد فى تسكين الخواطر وكتب عند ذلك تقريرا مهما رفعه الى المابين الهمايونى وعليه فصل عمر باشا عن قيادة الجيش العامة لعدم قيامه بما يجب وتركه الاحوال تجرى بطبيعتها وميله الى الخلاعة

لانه

لانه كان عامة أجنبي الاصل لا يهمه انتصرت الدولة أو خسرت وهذه كانت حالة معظم الاجانب الذين عهدت اليهم الدولة وظائفها السامية فكانوا عليها من أشد الضربات نسأل الله التوفيق وعين مكانه حسين عونى باشا وأحيلت عليه أيضا ولاية الجزيرة فقام بذلك خير قيام وأظهر الكفاءة والاستعداد التام ثم اتفقت الدول وانعقد بباريس مؤتمر تعين لحضوره من قبل الدولة فؤاد باشا وقد أظهر هذا المندوب العثمانى فى جلسات المؤتمر براعة سياسية وتكلم بلهجة شديدة جعلت الدول المذكورة تقلل الامتيازات التى كانت قررت فى أول الامر الزام الحكومة العثمانية بمنحها لجزيرة كريد فاصدر السلطان ارادة سلطانية فى ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ بمنح الجزيرة بعض امتيازات فانتهت بها الثورة وعادت الجيوش الى بلادها وكذا الجيوش المصرية عادت الى مواطنها واحتفل الخديوى لهم عصرا احتفالا شائقا لما أظهروه من البسالة والشجاعة خصوصا فى واقعة اركادى الشهيرة وبعد ذلك أخذ الجنرال اغناتيف سفير الروسيا فى الاستانة يسعى لاقالة مدحت باشا من ولاية الطونة لاهتمامه فى اصلاح شؤن تلك الولاية ولان الاصلاح فى تلك الجهات مانع وحاجز دون تنفيذ مآرب الروسيا التى ألقت بذورها بين شبان البلغار لتنال ما تتمناه فى المستقبل من قيامهم بالثورات فلم يقبل المرحوم السلطان عبد العزيز عزله ولهذا أخذت الروسيا فى تحريض رؤساء الفساد بتلك الولاية فاخذوا ينشرون بين الاهالى جملة أوراق مهيجة لاحداث الثورة الا أن همة مدحت باشا حالت دون أغراضهم ومنعت اشتعال نارها بل أخمدها بحكمة وسياسة وقبض على المحرضين وحاكمهم (١٢٨٤ ﻫ) وبعدها بقليل (١٢٨٦ ﻫ) قامت عربان العراق بتحريض بعض ذوى الغايات من رؤسائهم فتمكنت الدولة أيضا من تشتيت شملهم فى وقائع دغاوة والديوانية والحلة وكربلاء

ثورة العسير وأحوال نجد – انه بعد وقائع الوهابية المتقدمة الذكر خففت الدولة مراقبتها على الولايات العثمانية بجزيرة العرب فكان هذا من سوء السياسة وتهاون فى حقوقها لانها بترك مشايخ القبائل يستبدون باحوال تلك البقاع على هيئة استقلال تقريبا بحيث أصبح نفوذ الحكومة العثمانية فيها بالاسم لا بالفعل حدث الخلاف بين مشايخ العرب ببلاد اليمن فقام فى ٣ رمضان من سنة ١٢٨٧ أمير العسير محمد بن عايض وكانت الدولة غمرته بنعمها وأخذ فى اخضاع القبائل والحيف عليها حبا فى الاستقلال فاشتكى من أعماله هذه كثير من مشايخ تلك الاطراف ولهذا رأت الدولة لزوم ارسال الجنود لتسكين الثورة وتمكين دعائم الحكومة العثمانية فى تلك الاطراف وساقت فرقتين احداهما من الاستانة الى بلاد اليمن لحرب العسير والثانية من بغداد الى نجد وكانت فرقة الاستانة تحت قيادة الفريق محمد رديف باشا ومعه الميرلوا أحمد مختار باشا رئيس الاركان الحرب وقد نازلت هذه الفرقة الثائرين فى مواقع كثيرة ببلاد عسير وصنعاء وفتحت تلك البلاد فتحا جديدا بعد حروب يطول شرحها وأعادت اليها النفوذ العثمانى وكانت هذه الفرقة على تمام الاستعداد كاملة الاهبة قال الاجانب الذين شاهدوها انها أحسن استعدادا من الفرقة العسكرية التى أرسلها الانجليز لحرب الحبشة سنة ١٨٦٦ م ثم سافر رديف باشا الى الاستانة وكان السلطان أنعم عليه برتبة الوزارة ووجهت بعد ذلك ولاية اليمن وقيادة الجيوش بها مع رتبة المشيرية الى الغازى

أحمد مختار باشا الذى رتب بها ادارة منتظمة وشيد فيها كثيرا من العمارات وأصلح عدة طرق سهل بها التجارة فمالت القلوب الى محبته أما فرقة بغداد فانها تقدمت نحو بلاد نجد تحت قيادة أحمد مدحت باشا وكانت أكثر حظا من الفرقة الاولى لانها لم تصادف مقاومة كبيرة بل خضع لها أكثر البلاد بلا حرب ومع أن مدحت باشا لم يكن من رجال العسكرية الا انه عامله من حسن الرأى ومساعدة أركان حربه وضباطه تمكن من تنظيم ادارة عسكرية فى تلك البلاد ثم عاد الى الاستانة وفى سنة ١٢٩٢ شقت القبائل فى تلك الاطراف عصا الطاعة وقتلوا فى الجهة المعروفة بالعيون أربعين نفرا من عساكر الضابطة الا أن الدولة تمكنت من اعادة النظام سريعا

زيارة السلطان لمعرض باريس — لما صمم نابليون الثالث امبراطور فرانسا على فتح المعرض العمومى الذى أقامه فى سنة ١٨٦٧ م دعا جلالة السلطان عبد العزيز لحضور الاحتفال كما دعا عموم قياصرة وملوك أوروبا فقبل السلطان الدعوة وسافر على باخرته المسماة سلطانية وكان بمعية جلالته عدة من الامراء أولاد السلاطين وكثير من الحاشية ١٩ صفر (١٢٨٤ ﻫ ١٨٦٧ م) ولما وصل جلالته الى باريس أقام له الامبراطور نابليون الثالث احتفالا باهرا لم يعمل لاحد قبله من الملوك وهذه أول مرة زار فيها سلطان عثمانى بلاد أوروبا وبعد أن مكث بفرانسا أياما زار لندره وفينا ثم عاد الى بلاده منشرحا مسرورا بما رآى (٦ ربيع الثانى سنة ١٢٨٤ ﻫ) وأقيمت لمقدمه الزينات الفاخرة فرحا لعودته ولقد أفادته سياحته باوروبا كثيرا لانه عقب عودته أصدر خطا شريفا الى الصدر الاعظم عالى باشا أظهر فيه أمياله للاصلاحات التى رأى لزوم ادخالها بالممالك العثمانية كنشر المعارف والعلوم واكثار الطرق والمعابر المنتظمة وانتظام القوة البرية والبحرية واصلاح الاحوال المالية وما أشبه ذلك

امتيازات مصر وتغيير طريقة الوراثة بها وفتح القنال — لما ارتقى السلطان عبد العزيز خان على عرش الخلافة كان الوالى على مصر وقتئذ المرحوم محمد سعيد باشا الذى لما أراد ادخال بعض تنظيمات جديدة على الجيش المصرى بعد عودته من حرب القريم دعت الحاجة لزيادة المصروفات طبعا ولا سبيل لذلك الا باستقراض مبلغ من المال لهذا الغرض ولتسوية الدين الجزئى الذى استدانته الحكومة المصرية قبل ذلك ولما لم يتمكن المرحوم سعيد باشا من تسديد السلفة الاولى من ايراد تلك السنة كما كان يظن مع ما بذله من المساعى العديدة حتى انه باع غالب أمتعة القصور الخديوية وغيرها ليقوم بالسداد فى حينه دعت الحالة لمخابرة الباب العالى ليصرح له بالقرض كما هى الامتيازات وقتها ولما كتب للدولة بذلك أتاه محرر من الصدر الاعظم محمد أمين عالى باشا بتاريخ (١٢٧٨) يحذره فيه من وخامة عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك ويمنعه من الاستدانة ببراهين قوية وحجج دامغة جديرة بالتمسك بها [1] ومن الاطلاع عليها

(١) معروض چاكر كمينه لريدركه

وصل الينا محرركم العالى الخديوى المؤرخ ٨ رجب سنة ١٢٧٨ المختص بمسئلة الاستقراض فتلقيناه بكل تعظيم وتبجيل وصار منظورا الحضرة السلطانية لما احتوته مواده كما أنها طولعت بمجلس الوكلاء وحصلت المذاكرة فيها ونفيدكم عنها بما يأتى

انه ولئن كانت الطوارئ التى حصلت من فيضان نيل هذه السنة على البلاد فأصابت المحصولات بالخسارة والنقصان

تظهر حدود الامتيازات التى كانت عليها الحكومة المصرية وقتئذ ولما تبوأ أريكة الخديوية المصرية المرحوم اسمعيل باشا (١٢٧٩ ﻫ) وظهر للخليفة ميله الى السير فى طرق الاصلاحات التى كان جلالته يجتهد فى تعميمها بممالكه منحه جملة امتيازات بفرمانات متعددة سيأتى ذكرها فى

رغما عما كنا نؤمله من البشرى التى صدرت لنا من جنابكم الداورى أثناء اقامتكم بهذا الطرف من انه قد اتخذت أصول نافعة وأسباب قوية يمكن بها بحسن التصرف الخديوى محو الديون الموجودة فى ظرف ثلاث سنوات قد كانت فى الحقيقة موجبة للاسف والحزن اذ أنها حالت دون هذه الغاية الحميدة وقامت فى وجه تنفيذ هذه المقاصد المفيدة الا انه لا يخفى على داوريكم ان الاستقراضات ولو كانت ذات شروط هينة الا أن الحاجة تدعو داعة الاجل تأدية الفوائض ورأس المال الى خروج كثير من نقود المملكة المستقرضة ويؤدى ذلك لا محالة الى تكليف الامة بما لا تطيق من الضرائب الكافلة بوجود النقود المذكورة ومن جهة أخرى فان الجارى بالدول المتحابة هو مقارنة ما يعود من الاقتراض عليها بما يكبدها من السداد وانها لا تقدم على سلفة ما لم تعلم أن نتائجها ومنافعها توازى أضعافا مضاعفة لفوائضها كان تصرف فى الاعمال النافعة جدا للوطن أو لتخليصه من مهلكة أو لانقاذ من خطر أو نحو ذلك أما الاستقراضات التى لا تعود بمثل هذه الخاصيات ولا يكون نفعها عائدا على المملكة والاهلين فضررها ثابت رأى العين ثم انه فى حالة استدانة ٦٠ مليونا من الفرنكات تكون كمية هذا المبلغ والارباح والكومسيون نحوا من مائتى مليون من الفرنكات فيترتب على ذلك تحويل ايرادات كثيرة من المملكة عن الصرف المثمر سنين عديدة أما الانفع لذلك فهو اختيار السير عن هذا الطريق الى حيث تنتظر فائدة عمومية زائدة وبناء عليه يتشرف محسوبكم بتذكير سموكم انه لو جعلت بعض الديون الموجودة قنصليدا و يسوى ما بقى منها ببواقى الايرادات المتحصلة بتصرفات متنوعة يكون ذلك أفيد وأوفق وان المطالعات المبنية على ذلك هى من عاقبتها المدهشة معلومة عند فخامة سموكم الداورى بكمال الموهبة الالهية ونظرا لانضمام المنافع الوطنية فانه فى الامكان اجراؤها اليوم بهمتكم الجليلة كما هو مجزوم عند سموكم وانه بعد تمهيد المقدمات العمومية على مادة الاساس فالبحث فى الشروط المندرجة فى مسودة سندى الشروط تقيد سموكم بما سيأتى اذا فرض واستقرضت دراهم فلكونها غير وطنية فبالطبع يقع الاختيار على الذين تكون شروطهم أهون وذات منفعة وانه للمستقرض بدون شك تمييز التكاليف المعروضة والتمسك منها بما يراه موافقا لمصلحته على ذلك فان الدولة العلية تعطى آراءها وملحوظاتها على كل من المسودتين الموضوعتين لدقة النظر وتشير بادئ بدء الى أنها لا تشتبه أدنى اشتباه فى حق أى دولة من الدول الفخيمة المتفقة من جهة اخلاصها لها ومحبتها الخير لها وانما أقدم وظائف جمعنا تقضى علينا بان نوازن أطراف الشروط المهمة التى تتعهد بها الخطة المصرية المتممة لاجزاء الممالك المحروسة الشاهانية مدة مديدة حتى لا يقتضى تكرار ما ينشأ عنه أما المسودة التى عملت بواسطة المسيو اوبنهايم فلدى البحث فيها على موجب الحق بمعرفة الرجال الذين لهم المام تام ووقوف عظيم على الامور المالية سيما ما يختص منها بهذه الامور قد وجدت صعبة فضلا عن غلائها الشديد فان التأمينات الحاوية لها منحصرة فى بنوكها ومن جهة أخرى فانه ليس بها شئ من الامنية وعلاوة على ذلك فانها محتوية على جملة مواد تدعو الى مباحثات شديدة وتؤدى الى مشاكل عديدة قد صرفنا النظر عن تعدادها هنا واذا تحولت الافكار لها من جهة السياسة فمعلوم لدى داوريكم العالى أن التحويلات التى تستخرج بحسب مآل هذا الاستقراض الرسمى من الديار الاجنبية اذا كانت باسم مصر فقط تقع منافية لحقوق السلطنة السنية التى لا شك أنها عند مكارم خديويتكم مقدسة من كل شئ كما هو مسلم بدون اشتباه سيما وان واردات القطعة الجسيمة المصرية تنحصر مدة ثلاثين سنة باعتراف بين وعلى مقتضى المادة السادسة عشرة من المسودة المبحوث منها تكون قضايا المنازعات والمشكلات التى تظهر وتنجم من نصوص المقاولة المنعقدة بين الطرفين لا تنظر الا بمحكمة تشكل من اثنين من كل طرف تحت رياسة قنصل جنرال بروسيا الموجود باسكندرية وهو يبت حكمه فيها قطعيا ولا شك أن قبول هذا الاساس يجعل مأمورا رسميا لدولة أجنبية حاكما مستقلا فى الامور المالية التى هى بمثابة روح للامور الداخلية وذلك مغاير لكل المغايرة للاصول هذا سوى ما هو مندرج فى جملة جهات من المسودة المحكى منها من المبهمات التى لا تنقطع بسببها المشكلات والمنازعات فتصبح بموجبها هذه المحكمة الاستثنائية محكمة دائمة فلهذا لا نظن انه يحصل من جانب سموكم الطاهر

تاريخ مصر ان شاء الله وكان بين رجال المابين الهمايونى عدة من الوزراء الذين كان يهاديهم بهدايا فاخرة قبل ذلك ساعدوه على نوال مقاصده ومنحته الدولة لقب خديو ثم انه فى سنة ١٢٨٣ تحصل على فرمان سلطانى غير به طريقة الثورات فى منصب الخديوية المصرية فبعد أن كانت لاكبر أبناء المرحوم محمد على باشا انحصرت بهذا الفرمان فى ذرية اسماعيل باشا وصارت لاكبر أولاد الجالس على الاريكة الخديوية ثم منحه أيضا فى سنة ١٢٨٩ عدة امتيازات أخرى وأصدر له سنة ١٨٩٠ فرمانا جديدا شاملا لجميع الامتيازات المصرية بما فيها كيفية التوارث فى منصب الخديوية سيأتى أيضا بتاريخ مصر

مسئلة قنال السويس — ان هذا القنال الذى أوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط علم أهميته ومنفعته كثير من الملوك الاقدمين بين مصريين وأجانب مسلمين وغيرهم كما سيأتى مفصلا

موافقة عليها كما أن السلطنة السنية لا تجوزها أصلا كمقتضيات الضرورات الملكية والحاصل أن حب المال والحقوق والسياسة والمحظورات الموجودة فى المسودة المذكورة تمنع عقد هذه المعاهدة منعا قطعيا وأما لائحة مقاولة بنك الاسقونط الواردة اف محرراتكم الخديوية فان مقدماتها ظاهرة ونخص منها بالذكر ما مضمونه

أولا انه لاجل تعيين مقدار الاستقراض الذى سيجرى يشترط عمل تفتيش فى المستقبل على دفاتر الديون والواردات واذا وجد فيها اختلاف ما يناط الفصل فيه بدولة فرانسا

ثانيا ان يعين قومسيون من الاوروباويين لاجل مناظرة صحة دفاتر الايراد والمصروفات السنوية ويكون بقاء الوكيل الذى يتعين من طرف البنك وعدمه مفوضا لامر الدولة المذكورة

ثالثا ان تقيد تحويلات الديون المختصة بنفس سموكم فى قنصلاتو فرانسا

رابعا ان مقدار المصروفات يلزم أن لا يتجاوز الايرادات وان دولة فرانسا هى التى تعين شروطها وبذلك تكون ملاحظاتنا على ذلك هى تمامها الملاحظات التى شرحناها من جهة مداخلة قنصل روسيا نحو الاستقراض من بنك ساكس السابق شرحه وايضاحه

ولان كانت مداخلة فرانسا (التى تعطى لها بموجب هذه الشروط) ذات وجه خيرى وكانت استقامة سياستها يرى منها أن تداخلها ينحصر فى تحسين المالية المصرية لا غير حتى انه لا يوجد عند الدولة العلية فكر عميق فى هذا الباب الا انها ترى أيضا أن الاشياء المماثلة لذلك من حقوق أساس استقلال كل دولة وان اجراء التصرفات فى المواد المالية بحسن الادارة الداخلية التى تتخذ وتنفذ بكل اخلاص وأمانة أفضل بكثير من التدابير المثبتة التى توضع تحت وصية خارجية لانها تسلب الاعتماد العمومى ولا ينجم منها سوى أنواع المنازل التى تقع بين الحكومة والمملكة الامر الذى تتوقى ذاتكم العلية الخديوية من الدخول فيه لا سيما أنه لم يسبق له مثيل وصعوباته التى لا تحصر تعود بالضرر على الاموال فلاجل المحافظة على الحقوق المشروعة للحضرة الشاهانية يلزم صرف النظر بالكلية عن هاتين اللائحتين وأن تجروا تسوية الضيق الحاصل بالطرق الداخلية ونلتمس من سموكم بصفة خصوصية صرف هممكم الجليلة الخديوية فى ذلك وقد تقرر بين الوكلاء ان هذه المحوظات الخالية من الغايات بعد أن توضع بطرف سموكم فى ميزان التدقيق فالجواب الذى يرد عنها من داوريكم تعادفيه المذاكرة بحسب ايجاب الحال وقد تعلقت ارادة الحضرة الشاهانية بذلك وان الالتفاتات الموزنة المباهاة المبذولة من طرف خديويتكم لمحسوبكم أقدم منها الشكر والحمد وفى كل حال من الاحوال الامر والفرمان لحضرة من له الامر ٩٠ الامضا اه مترجما من كتاب المحررات النادرة عالى

فى تاريخ مصر ومع ذلك فانه لم يتم لهم كما رغبوا وخابت مشروعاتهم فيه أو تعطلت بعد قليل حتى كان زمن المرحوم محمد سعيد باشا والى الديار المصرية الذى منح المسيو فرديناند دولسبس الفرنساوى بعد سعى طويل أمرا بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بفتحه وتشكيل شركة مساهمة لذلك غير معلومة الاعضاء وعلى ذلك أخذ يستعد للقيام بهذا العمل الجسيم والمشروع الفخيم وتحصل من الوالى المشار اليه على عدة أوامر لتساعده الحكومة المصرية على عمله من تقديم العملة واعطاء الاراضى اللازمة بل والنقود كل ذلك قبل أن يعقد بينه وبين دولسبس المذكور شروطا تبسط فيها المنافع العائدة من ذلك على القطر المصرى ثم تعرض على الباب العالى ليرى رأيه فيها كما تقتضيه الفرمانات ولما رأت الدولة أن احدى الشركات منحت امتيازا بولاية معدودة من أجزائها المتممة لها تداخلت وعارضت فى المشروع واستمرت المكاتبات والمعارضات جارية حتى تولى على الديار المصرية المرحوم اسماعيل باشا الذى أخذ يوفق بين الخلاف ويجتهد فى وضع مسئلة ترعة السويس ضمن حدود معينة تخاطب الباب العالى فى هذا الخصوص وكتب محمد أمين عالى باشا السفراء الدولة العلية لدى دول أوروبا محررا عن هذه المسئلة (١) أبان فيه خطأ الشركة وأن لاحق لمصر

(١) لا يخفى أنه لما وضعت مسئلة قنال السويس للبحث فيها أمام الدولة العلية قبل الآن بنحو بضع سنوات كانت أرادت أن تضع بعض اشتراطات رأت لزوم درجها ضمن مواد مسودة المشارطة المختصة بذلك بقصد المحافظة على حقوقها وقد كانت أعلنت ان أهمية فتح هذا الطريق تحتاج لضمانات خارجية فلهذا ترغب أن ترى الاتحاد حاصلا بين الدولتين البحريتين العظيمتين فى هذا الخصوص وعلى ان هذا الاتحاد لم يحصل الآن وان صاحب الفخامة والدولة اسمعيل باشا والى مصر اللاحق قد طلب رسميا من الدولة أن تعين له فى هذه المسئلة مسلكا فحسب الوظيفة قد أبلغت جناب المشار اليه بان إعطاء التصريح والرخصة منها يتوقف على وضع الشروطات اللازمة لذلك ولهذا وبناء على الارادة السنية ستعرض الشروطات المحكى عنها على الملكين الفخيمين المتفقين معنا ليقدرا الحق فيها حسبما انطوت عليه ضمائرهما الخيرية لنا لان مأمورى القومبانية بغير ان يراعوا حقوق السلطنة السنية قد باشروا الاعمال التمهيدية لهذا العمل قبل انتظار موافقة الدولة عليه ولما شاهدنا منهم ذلك قد تأسفنا ورأينا من الوجوب عدم التأخير فى ابداء آرائنا من هذا الباب وبناء على ما ذكر وتطبيقا لنقطة نظر منافع السلطنة السنية ومساعدة لحكمدار المملكة المذكور رأينا مجبورين على بيان هذا الامر المقصود بصورة ظاهرة كما سيأتى

أولا ولو أن الفوائد المأمول الحصول عليها من القنال المبحوث عنه مبهمة ومشكوك فيها فانه لم يخطر فى فكر الدولة منع حصول هذا المشروع وانما بدون ما توضع الشروطات التى تتضمن امكان سد كسائر بوغازات السلطنة السنية فى البحر الاسود لم ترض والحالة هذه بفتح هذا القنال سيما وان المسودة الموجودة بيدنا الآن لاتشتمل على شئ من هذه الضمانات التى لا بد منها ثانيا لقد وجد فى ابتداء الامر مادتين جلبتا كل دقة نظرنا وهما الاولى مع كون السخرة ملغاة فى ممالك الدولة العلية فان الوالى السابق جعل من طرفه انه فى حالة اجراء هذه الانشاآت يصير تقرير قاعدة هذه السخرة الظالمة لتكون من الاشياء المعينة على تلك الاعمال ولذا دعت الظروف الى ابقائها حتى يمكن استدامة الاعمال المذكورة وعليه صارت الادارة المصرية تلزم نحو عشرين ألف نفس من الاهالى بترك حرفهم وزراعاتهم وعائلاتهم للمسارعة فى عملية فتح القنال وهؤلاء المنكودى الحظ يتكبدون مصاريف عودتهم لبلادهم وفضلا عن الاضرار التى تلحق معظمهم جبرا بتركهم الحرفة والكسب يلزمون بالاقامة فى جهات متباعدة عن قراهم وان زراعة وصناعة وتجارة المملكة التى تتعطل ليست فقط قاصرة على العشرين ألف المذكورين بل تتعدى الى تعطيل ستين ألفا لانه عندما يكون العشرون ألف عامل يشتغلون بالعمل يكون مثلهم عائدين الى بلادهم ومثلهم مسافرين الى القنال يعنى ان ٤٠٠٠٠ نفس يكونون بالطريق فبهذه الحالة يكون المعطل عن العمل والمتباعد عن عائلته الستين ألف السابق ذكرهم ونرى ان ضرر هذه الطريقة ومخالفتها للانسانية أمر ظاهر للعيان ولهذا فان

فى التصريح لشركة مماثلة لذلك باجراء عمل مشكوك فى منفعته ويعارض استيلاء الشركة على أراض لاحق لمصر التى هى جزء متمم للسلطنة فى التنازل عنها بوجه من الوجوه ويقدح فى طريقة تسخير أهالى القطر المصرى وتعطيلهم عن أعمالهم المعاشية وغير ذلك من الاقوال والملاحظات المعتبرة وبعد ذلك تداخلت حكومة فرانسا لمساعدة الشركة حتى قبلت الحكومة المصرية أخيرا ما حكم به نابليون الثالث الذى جعل حكما فى هذه المسئلة ولقد كان حكمه فيها سامح الله ذمته حملا ثقيلا على مالية مصر وأخيرا أصدر السلطان فرمانا بتاريخ ٢ القعدة سنة ١٢٨٢ ﻫ (١٨٦٦ م) بالتصديق على فتحه ولما تم الفتح عال مصر ورجالها ومساعدتها كما سيأتى مفصلا فى الجزء الثانى من هذا التاريخ زار الخديو اسمعيل باشا عواصم أوروبا فى شهر مارث من سنة ١٨٦٩ ودعى ملوكها لحضور الاحتفال بفتح القنال المذكور فحضر كثيرون منهم وزارت أكثر أساطيل

الدولة العلية باى صورة وباى شكل كان لا تصدق على تصرفات مغايرة للحق والانسانية والتمدن ولدرجة قاعدة السياسة من جميع الوجوه كهذه

المادة الثانية — مسئلة الترعة العذبة والاراضى المحيطة بها فانه فى حالة قبول هذه المساعدة تكون الشركة (المجهولة الاعضاء) حاكمة حكما مطلقا على قطعة جسيمة من أراضى القطر المصرى الواجب مزيد الاعتناء بحفظها وزيادة على ذلك فانه بموجب الكونترانو يكون للشركة حق التصرف فى كافة الاراضى الواقعة على سواحل الترعة العذبة مهما امتدت وبهذه الصورة تدخل مدن السويس والتمساح وبورت سعيد وكافة الحدود الفاصلة لمصر من بر الشام فى حوزتها ويمكنها اذا أن تشغلها بسكنى مهاجرين من دول أجنبية غير تابعين للدولة العلية ولاشك أن أى دولة تحافظ على حقوقها ووظائفها لا تسمح بذلك مطلقا ولا تقبله وبالحرى الدولة العلية ولكن عالى رفض هذه الشروط رفضا باتا من قبلها يلبسها ثياب التهمة بانها لم تساعد على هذا المشروع المأمول افادته وبذلك تكون غير معتبرة فى نظر الدول فضلا عن تأسيس وتقرير جملة أحوال من المنازعات المتمادية فلهذا تهتم بتسهيله وتجعل الموافقة عليه مرتبطة بهذه الشروط وهى امكان سد القنال والغاء أصول السخرة وترك الشروط المختصة بالترعة العذبة والاراضى المحيطة بها ومتى تم ذلك تأخذ الدولة فى مناقشة باقى مواد الكونترانو بكل جد وسرعة والتصديق عليها أما الشركة فلا يمكنها أن تدعى الآن بالحصول على التصديق بدون حصوله كما أن المسيو دلسبس متعهد بكونترانو للوالى المرحوم بحصوله على تصديق الدولة فى ظرف ١٨ شهرا ولم يف بوعده للآن ثم ان الدولة قد راجعت اثنتين من متفقيها الاخصاء باعتماد تام عليهما وصورة مخصوصة واستبصرت منهما عن المسلك الذى ستتخذانه فى مثل هذه المسئلة التى هى عبارة عن تأسيس شركة مجهولة الاعضاء فى داخل الممالك المحروسة الشاهانية بمجرد استحصالها من حاكم القطر الذى هو تحت سلطة الدولة على وعد المساعدة والتصديق من الذات العلية بالامتياز على شروط مخصوصة وهل يمكن أن تساعد هذه الشركة التى تدعى بحقوق لا تقرها الدولة ولو أنه حصل بعض حركات غير مرضية أوجبت الشكوى منها فانه بناء على النيات الحسنة المطبوع عليها الجناب السلطانى أكرر القول بانى مستعد لتدقيق النظر بدون غرض فى باقى بنود الكونترانو بعد تعديله كما تقدم ومن البين ان المصروفات التى أجرتها الشركة قبل استيفاء شروط الكونترانو بتمامها (وهو شرط الحصول على تصديق الدولة) عائد ضررها عليها ومع كل ذلك فان الدولة مستعدة لنظر المنافع المخصوصة الداخلة فى هذا العمل واذا كانت الشركة لا تقبل المداومة عليه بحرمانها من المساعدة السلطانية باتحادها مع حضرة الوالى متشبثة فى اتخاذ التدابير اللازمة لرد المبالغ التى صرفتها لها وبذا تلتزم الشركة طبعا بترك الاشياء التى عملت والاراضى التى تحت يدها للدولة وزيادة أنه لو داومت الشركة على اجراء تصورها فان الدولة تسهل وجود شركة مختلطة بكل ما فى وسعها وتحمد الوالى المشار اليه فى اخراج العمل الى حيز الفعل وانى لمعتقد وجازم بان هذه الايضاحات ستقدرونها حق قدرها وتقابلونها باستقامة واخلاص ولهذا نقرؤها للناظر الخارجية طرفكم وتتركون له نسخة منها ✿ الامضا عالى انتهى مترجما من كتاب المحررات النادرة

اوروبا

أوروبا بالسواحل المصرية مدة الاحتفال بفتحه الذى صرفت فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لما قام به المرحوم اسمعيل من الزينات والاحتفالات النادرة المثال فى التاريخ وكان فتحه يوم ٩ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ (١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٩) ويروى أن بعض دول أوروبا كانت تريد مساعدة المرحوم اسماعيل باشا على انفاذ ما دبره يوم الاحتفال بفتح القنال وأن فكتور أمانوبل ملك ايطاليا أرسل أساطيله لهذا القصد تحت قيادة ولى عهده الى مياه الاسكندرية لهذا الخصوص ويقال ان امبراطور فرانسا نابليون الثالث أوعز الى الامبراطورة أوجينى عند سفرها الى مصر بالمساعدة وانفاذ ما يبغيه الخديو الا أن الدولة العثمانية وانكلترة لما علمتا بذلك اعترضتا بالمحررات السرية وشددت انكلترة فى الامر حتى التزمت ايطاليا بارجاع أساطيلها من ثغر الاسكندرية فلم تحضر الاحتفال بفتح القنال كبقية الدول وبذلك حفظت مصر من أمر كان القاضى على استقلالها

المشاكل والارتباكات الداخلية — قال العلامة أحمد مدحت أفندى فى كتابه أس الانقلاب ملخصا ان العناية التى بذلها السلطان عبد العزيز خان فى السنين الاولى من جلوسه على سرير الخلافة فى اتمام الاصلاحات التى أدخلها على جميع دوائر الحكومة كما جعلت الامة العثمانية تأمل خيرا كثيرا فى المستقبل الا أنه لما قرب جلالته اليه بعض أصحاب المطامع وقضت الغلطات السياسية هدم القلاع التى شيدتها الدولة حول الجبل الاسود كما سبق وتخليته قلاع الصرب التى فتحت بدماء أبطال العثمانيين والاموال الوافرة وغير ذلك مما أصاب الدولة من تراخى من أشرنا اليهم من الرجال وظهور ثورة كريد التى لم يهتم الوزراء باطفائها بسرعة تحزب ضد هذه السياسة سرا كثير من الوزراء خصوصا لما رأوا أن جلالته ميال الى تغيير هيئة الوراثة فى السلطنة العثمانية ولما كان تغيير طريقة الوراثة بالخديوية المصرية التى نالها المرحوم اسمعيل باشا برضا السلطان منعت المرحوم مصطفى فاضل باشا من حقوقه مال الى الحزب المذكور والتف حوله بعض شبان العثمانيين الذين ثارت فى قلوبهم الحمية الوطنية والمحبة الملية ونخص بالذكر من هؤلاء على سعاوى بك وضيا بك ونامق كمال بك وغيرهم ورحل الكل الى أوروبا وأخذوا يذيعون هناك مما ينشرونه من المكاتبات والجرائد الاغلاط الحاصلة فى سياسة الدولة وينتقدون عليها وعلى أعمال فؤاد باشا وعالى باشا وأصدروا كثيرا من الرسائل الهجوية تحاملوا فيها على بعض رجال الدولة الذين تبرهم أعمالهم الحسنة ومساعيهم المشكورة مثل عالى باشا وفؤاد باشا وغيرهما ولما توفى عالى باشا الذى كان موته فاتحة باب شر وعلى الدولة وجلس مكانه محمود نديم باشا (١٢٨٨ هـ) فى مسند الصدارة انتهج طريقا معوجا ساءت به الاحوال عن ذى قبل فاختلت الامور المالية واقترضت الدولة من أوروبا أموالا كثيرة لم يعد منها على مستقبلها فائدة عظيمة واستبد العمال فى الاحكام حيث لا رقيب ولذلك صدر أمر سلطانى بمحاكمة ثلاثة من المشيرين وهم حسين عونى باشا وشيروانى زاده رشدى باشا ومشير الضبطية حسنى باشا وصار نفيهم بدون أن تطبق محاكمتهم على القانون ولذلك اندهشت رجال الدولة من هذه الاحوال وكثر التغيير والتبديل فى الولاة بحيث صاروا يستبدلون بعد مضى خمسة عشر يوما تقريبا من تنصيبهم فزادت الاحوال ارتباكا ولما لاحظ السلطان سوء الحالة عزل محمود نديم باشا من الصدارة

بعد أن تولاها أحد عشر شهرا وقد طعنت فيه الجرائد العثمانية وأظهرت ما أتاه من الاعمال المضرة بالدولة وقد كثر تغيير الصدور بعده حيث تولى الصدارة مدحت باشا (١٢٩٢ هـ) ورشدى باشا الكبير وأسعد باشا وشيروانى رشدى باشا وحسين عونى باشا وأسعد باشا ثانية فى مدة ثلاث سنوات ولما انتخب السلطان للصدارة محمود نديم باشا ثانية خطر فى فكر رجال الحزب المضاد لسياسة الحكومة أن السلطان راض عن أعمال الوزير المذكور خصوصا وان الجنرال اغناتيف سفير الروسيا بالدولة نال مكانة عالية عند جلالته فصار لا يعمل عملا الا بعد استشارته حتى وصلت الحالة بالدولة الى مالا تحمد عاقبته وقد تمكن السفير الروسى المذكور من نوال مقصده خصوصا وان دولته كانت تمكنت أثناء حرب فرانسا والمانيا (١٨٧١ م) من تعديل بعض بنود معاهدة باريس المعقودة سنة ١٨٥٦ م المختصة بالبحر الاسود ورضيت الدولة بان يكون للروسيا بالبحر المذكور أساطيل حربية ودور صناعة ولما حصلت الروسيا على ذلك أوجدت هناك الاساطيل القوية ثم طرقت أبواب السياسة الشرقية بترويج جمعيات الصقالبة التى كانت مراكزها بمدينة بطرسبورغ عاصمتها وفينا عاصمة النمسا فحركت الثورات فى ولايتى بوسنه وهرسك (١٨٧٥ م) وبثت بين أهالى البلغار بذور الفتن فثارت بعض جهاتهم (١٨٧٥ م) الا أن عمال الدولة هناك تمكنوا من اطفاء الفتنة بسرعة وبعد مدة قليلة هيج البلغاريون بعض دعاة الثورة والفساد الذين أرسلتهم جمعيات ويانه فقاموا ثانية (مايو سنة ١٨٧٦ م) وأخذوا فى قتل المسلمين وحدثت عدة مذابح فى جملة قرى خصوصا فى باتاق واستمر هذا الهياج الى ٢١ يوليه من السنة المذكورة وعند ذلك قام بعض رجال السياسة باوروبا وفى مقدمتهم غلادستون يطعنون فى الدولة باغلظ الالفاظ وأشنع التعبيرات وينسبون حصول تلك المذابح الى شوكت باشا وحافظ باشا وغيرهما من المأمورين وتمكنت الدولة هذه المرة أيضا من اعادة النظام الى الولاية المذكورة وفى تلك الاثناء اشتعل لهيب الثورة فى بلاد بوسنه وهرسك بتحريضات أهل الصرب والجبل الاسود وغيرهما فاصدرت الدولة الاوامر لقواد الجيوش بسرعة اعادة السكينة فأخذت تطارد العصاة ولما خافت الدولة من أن تقوى الدسائس الاجنبية على مساعيها أصدر السلطان فى ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ م فرمانا بمنح تلك الولايات بعض نظامات لتسكين الخواطر الا أنها لم تفد بل استمر العصاة يعيثون فسادا وطلبوا من الدولة سحب جيوشها من البلاد كما أخرجتها قبل ذلك من قلاع بلاد الصرب فاشتد بذلك الامر وقدم الكونت اندراسى لائحته المشهورة فى أواخر السنة المذكورة وكان من مشتملاتها انفاذ ما جاء بالفرمان السلطانى من الامتيازات التى منحها السلطان لاهالى الولايتين المذكورتين وتشكيل قومسيون من الاهالى لمراقبة تلك الامتيازات فقبل السلطان وأصدر عفوا عن جميع المجرمين الا أن الاهالى لوثوقهم بمساعدة أوروبا لهم على نوال مرغوبهم كما كانت تلقيه عليهم عمال الثورة أصروا على طلبهم الاول من اخراج العساكر العثمانية من بلادهم أو تقيم فى القلاع فقط خصوصا بعد حادثة سلانيك التى وقعت فى ٥ مايو سنة ١٨٧٦ م وسببها أن فتاة بلغارية اعتنقت الديانة الاسلامية وأتت سلانيك لاثبات اسلامها فتصدى لها بعض سفلة الاروام حين توجهها الى دار الحكومة واختطفوها من أيدى المحافظين عليها بالقوة وأخفوها أولا فى بيت قنصل أمريكا ثم نقلوها الى دار أحد كبرائهم ولما أشيع ذلك بين المسلمين هاجت نفوسهم وتجمع منهم نحو ثلاثة آلاف أمام سراى الحكومة وطلبوا احضار

البنت

البنت المذكورة وتخليصها من أيدى الذين استولوا عليها حفظا لناموس الامة العثمانية ولما لم يحضروها تجمعوا فى اليوم الثانى داخل الجامع المعروف بجامع سليم باشا القريب من سراى الحكومة للمداولة فيما يمكن به ارجاع الفتاة وبينما هم كذلك اذ حضر الموسيو مولين قنصل فرانسا والموسيو هنرى أبود قنصل المانيا وأرادا دخول المسجد عنوة فتصدى الناس لمنعهما أولا الا أنهما دخلا بالرغم عنهم وكان المتداول على الالسنة أن البنت فى بيت قنصل المانيا المذكور ومما زاد الهياج عند المسلمين أن القنصلين المذكورين تفوها بالفاظ غير لائقة فاشتد حنقهم وهجموا عليهما وقتلوهما وكان الوالى محمد رأفت باشا استنجد بقوة عسكرية من القره قولات ومن ملاحى السفن العثمانية الراسية بالمينا الا أن تلك القوة لم تحضر سريعا لحصل ماحصل ولما بلغ الباب العالى ماحدث أرسل فى الحال لجنة بينها مستشار نظارة العدلية لتحقيق المسئلة وأرسلت دولتا فرانسا والمانيا اسطولين وبعث كل من انكلترة وايتاليا والنمسا والروسيا واليونان سفنا حربية ثم انتهت المسئلة بعمل تراض للدولتين المذكورتين وهى أن ينفى الوالى وبعض المأمورين وأن يقتل الذين تجاروا على سفك الدماء وان يضرب باسم كل دولة من الدولتين ٢١ مدفعا وترتب على ذلك أن اتفقت الروسيا والنمسا والمانيا وقدموا للدولة لائحة برلين المشهورة بعد أن صادقت عليها ايتاليا وفرانسا ومآلها أنهم طلبوا من الباب العالى تنفيذ فرمان ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ م وتعيين مجلس دولى لمراقبة تنفيذ الاصلاحات فرفض الباب العالى ذلك لانه ماس بحقوقه فارتبكت الاحوال ولما كانت الامة ترى أن الصدر الاعظم محمود نديم باشا لا يعمل عملا الا برأى السفير الروسى نسبت هذه الامور الى هذا الوزير العلقى فكرهه الناس وشنعوا عليه خصوصا لما أشيع أن السفير الروسى أشار على السلطان باحضار قدر من الحرس واتين للمحافظة على قصره حينما داخله الريب فى اخلاص الجنود والامة وصار لا يثق بحراسة الخصوصيين وشاع خبر استقدامه ثلاثين ألفا من العساكر الروسية للمحافظة على حياته وعند ذلك اضطربت الافكار وهاجت الخواطر وأول الناس تلك الاشاعات تأويلات كل على حسب غرضه ورموا الصدر المذكور بالخيانة الكبرى لافعاله المذمومة وأنه يريد أن يسلم للروس أعدائهم البلاد غنيمة باردة فقامت طلبة العلم (الصفطا) والتف عليهم كثير من الاهالى فى أواسط ربيع الاول سنة ١٢٩٣ هـ وأرسل السلطان لشيخ الاسلام يطلب منه السعى فى تسكين أفكار الطلبة وارجاعهم الى مدارسهم وكان الناس يشيعون أيضا أن شيخ الاسلام وقتئذ حسن فهمى أفندى يميل الى سفير الروسيا وينزله منزلة ولده فأشركوه أيضا فى الخيانة ولما خاف السلطان تفاقم الخطوب عزل محمود نديم باشا من الصدارة وحسن فهمى أفندى من المشيخة (١٦ ربيع الاول) ووجه مسند الصدارة الى محمد رشدى باشا الكبير المعروف بالمترجم والمشيخة الاسلامية الى خير الله أفندى والسر عسكرية الى حسين عونى باشا

خلع السلطان عبد العزيز ووفاته — لقد تباينت الاقوال كثيرا فى سبب خلع السلطان فمن قائل ان الجنرال اغناتيف سفير الروسيا لما رأى تغيظ السلطان وتأثره من الزام الامة اياه بطرد الوزير محمود نديم باشا صار يحرضه على الانتقام من المتسببين وابعاد كثير من الذين يكرههم السفير المذكور ليخلو له جو السياسة فينال مايشاء فهاجت الافكار لذلك ومن قائل ان السياسة الانكليزية التى تخاف تقرب

الدولة من الروسيا قضت بالتحريض على خلع السلطان لما رأت أن جلالته يميل الى مخالفة الروسيا ولذلك كان يتمكن كثيرا على آراء سفيرها فى الاستانة ومن قائل ان الوزراء خافوا من أن يبطش السلطان بهم فتآمروا عليه وغير ذلك من الروايات والحاصل أنه اجتمع كل من رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وأحمد باشا القيصريه لى وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندى وأمثالهم من رجال الدولة وأركانها وقرروا خلع السلطان عبد العزيز فيما بينهم وبقى هذا الامر سرا الايذيعونه حتى تمكنهم الفرصة من اجرائه وكتبوا يستفتون شيخ الاسلام فأفتى بالجواز وعلى ذلك حاصروا السراى السلطانية برا وبحرا بالجنود قبل غروب يوم الاثنين ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ هـ (٢٨ مايو ١٨٧٦ م) ومن الغريب أن الجنود كلها لم تكن تعلم شيأ من سبب تجمعها بهذه الصفة ولما تم الحصار ذهب السرعسكر حسين عونى باشا الى مقر السلطان مراد خان وطلب مواجهته فخرج اليه وقد اعتراه الخوف لايقاظه من النوم فى تلك الساعة وبعد أن هدأ روعه أركبه معه فى العربة وسلمه غدارة بست طلقات لتكون معه ولما أتى به الى باب السرعسكرية أجلسه فى الحجرة التى أعدت لمبايعته وفى الحال حضر الشريف عبد المطلب وغيره من أعيان الدولة ورجالها وعظمائها وبايعوا السلطان فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل ثم أرسلت الفتوى الى رديف باشا وكان الموكل بأمر الحصار فأحضر لديه رئيس أغوات السراى جوهر أغا وأبلغه بأن الامة قد خلعت السلطان عبد العزيز وبايعت السلطان مراد خان وأنه مأمور بارسال السلطان المخلوع الى سراى طوبقبو ولما بلغ جوهر أغا هذه الرسالة كان يضطرب ويرتعد فقال له السلطان عبد العزيز ارجع اليه وقل له هل خلعى أمر هين فقال له رديف باشا ان العساكر محيطة بالسراى بحرا وبرا فاذا امتنع عن الخروج والذهاب الى سراى طوبقبو طوعا أخرج كرها وأرسل له فتوى شيخ الاسلام (١) القاضية بخلعه فلما نظر السلطان الى العساكر والفتوى لم يجد بدا من الخروج فخرج وأنزل فى زورق ومعه ابنه الامير يوسف عز الدين افندى ونقلت عائلته أيضا الى تلك السراى وكانت محاطة بالعساكر كذلك وفى الصباح أطلقت المدافع من المرامى البرية والبحرية فهب الناس من مضاجعهم وهم يسمعون صوت المنادى يقول ان السلطان مراد الخامس جلس على سرير السلطنة السنية فخرجوا أفواجا وتوجهوا الى سراى بشكطاش فقيل لهم ان السلطان فى سراى السرعسكرية فقصدوها ودخلوا عليه وبايعوه وكانت تلوح على وجوههم علامات السرور والفرح وفى نحو الساعة الثالثة ركب السلطان مراد مركبته وقصد سراى بشكطاش وأقبلت اليه الجموع هناك تبايعه وقد استمرت المبايعة ثلاثة أيام

أما السلطان عبد العزيز فانه لم يمكث بعد خلعه الا أربعة أيام على قيد الحياة ثم مات وللناس فى أسباب موته اقوال ظاهرة وأخرى خفية تداولوها فيما بينهم أما الاولى فهى أن هذا السلطان

(١) اذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام فى الامور السياسيه ومازال ينفق الاموال الميرية فى مصارفه النفسانية فى درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالامور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بهما فهل يصح خلعه ؟ الجواب يصح ؟ كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

العظيم

العظيم اعتراه من يوم خلعه مرض فى رأسه صيره كالمجنون فاضطربت أحواله وحركاته فكان يتخيل تخيلات زادبها قلقا حتى انه لم يعد يستطيع الرقاد ليلة وفاته وهى ليلة الاحد الموافق ١١ من شهر جمادى الاولى ولما أصبح الصباح دخل الحمام كعادته ثم خرج الى بستان السراى ثم عاد الى حجرته وأمر بفتح الشبابيك والابواب وأخذ يمشى بها ثم عاد وخرج ثانية الى البستان وكأن الدنيا ضاقت عليه ثم حاول الخروج الى شاطئ البحر فمنعه ضابط الحرس بكل أدب وقال له يامولاى لا آذن بالخروج فأبى وشتمه فحضر ضابط آخر وأشار اليه بالدخول فدخل وقد زاد بلباله واضطرابه حتى ظهرت عليه علامات الاختلال وأخيرا طلب من احدى الجوارى مقصا يقص به أطراف لحيته كعادته فخرجت الجارية وأخبرت والدته بذلك فأعطتها مقصا ومرآة فتناول المقص وأخذ يقص به أطراف لحيته ووالدته تنظر اليه من وراء الباب ولما رآها أمرها بالانصراف ثم جلس على متكأ ونادى أحد الاغوات وخاطبه بمحاربة العدو الذى كان يتوهمه فى كل لحظة ثم أخذ المقص وشرع يقطع به عرقا فى وسط ذراعه الايمن فحاول الخادم أخذ المقص منه فمانعه فذهب الى والدته صارخا وفى تلك الاثناء جلس السلطان على المتكأ وقطع عرق يده اليسرى قطعا بليغا وقيل انه قبل أن يفعل ذلك أحكم غلق الباب ولما جاءت والدته والجوارى طفقن يصرخن ويبكين وكسرن زجاج الشبابيك ولما أقبل الضباط بلغهم الخبر وقيل انه كان يفتكر من مدة فى الانتحار ولما وصل خبر ذلك الى السلطان أصدر أمرا بتشكيل لجنة طبية لتحقيق سبب الوفاة ولما كشفوا عن الجثة حرروا مضبطة (١) وقع عليها الاطباء وكانوا ١٩ طبيبا من أكبر أطباء الاستانة بينهم أطباء بعض السفارات ومآل تلك المضبطة لايخرج عما ذكرناه هذه هى الرواية الظاهرة الا أن بعض الواقفين على خفايا الامور قالوا بتأكيد ان وفاة السلطان عبد العزيز لابد وأن تكون بفعل فاعل ونسبوا ذلك الى أن مدحت باشا وحسين عونى باشا وغيرهما من الذين اتفقوا على قتله منعا لحصول القلاقل المستقبلة مادام على قيد الحياة وليكونوا فى مأمن من الانتقام فيما بعد وقالوا انهم وكلوا بقتله اثنين من

---

(١) انه على مقتضى ارادة الحضرة السلطانية السنية والاوامر المعطاة من حضرات الوكلاء الفخام قد توجهنا فى يوم الاحد ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ مايه ١٨٧٦ م) قبل الظهر بساعة الى القرية والحالة المتصلة بسراى جراغان الهمايونية لتحقيق سبب موت السلطان السابق عبد العزيز خان فأدخلونا هناك فى أودة بالدور الاسفل فوجدنا جسدا مطروحا فوق متكأ موضوع على الارض مغطى بملاءة جديدة وعندما رفعنا الغطاء المذكور وجدنا جسد السلطان السابق عبد العزيز خان ولدى المعاينة اتضح لنا أن أطرافه قد بردت وخلت من الدم بالكلية ويوجد فى بعض جهات الجسم دم متجمد وكان الجسد فى وقتها لم يبرد تماما وكانت جفونه مفتوحة وحصل تكاثف خفيف فى قرنيتيهما وكان فمه مفتوحا قليلا والاقمشة الساترة لذراعيه ورجليه ملطخة بالدماء ولما رفعنا الغطاء عن ذراعيه شاهدنا فى ساعده الايسر جرحا طوله خمس أصابع وعمقه ثلاث أصابع وأطراف هذا الجروح بارزة بغير انتظام واستقامتها ممتدة من الاعلى الى الاسفل غائرة من الداخل الى الخارج والعروق متقطعة والشرايين ممزقة وبارزة الى الخارج تقريبا ووجدنا بالذراع الايمن قرب المفصل جرحا طوله اصبعان ونصف وعرضه اصبعان وأطرافه بارزة الى الخارج بانحراف ولكن الشرايين فيه سالمة والعروق ظاهرة بطول عشرة أصابع ووجدنا مقراضا صغيرا ملطخا بالدم وقالوا لنا ان هذه الجروح المذكورة الموجودة بالسلطان السابق أجراها هو بيده ثم أدخلونا أودة كبيرة كان يجلس فيها السلطان المرحوم فوجدنا فى أحد أركانها بقرب الشباك متكأ قالوا لنا انه كان جالسا فوقه وكان ملطخا بالدماء وشاهدنا على مقربة من هذا المتكأ فوق الحصير بقع دم منتشرة انتشارا وعلى ذلك قررنا جميعا بالاتحاد ما يأتى أولا ان وفاة السلطان السابق عبد العزيز خان تسببت من قطع الاوعية الموجودة بذراعيه من سيلان الدم منها ثانيا ان الآلات التى شاهدناها يمكن احداث

الفداوية بعد أن اتفقوا على ذلك مع أحد البكوات الذى كان انتخبه السلطان عبد العزيز لمرافقته أثناء عزلته وكان يعتمد عليه كثيرا ولا يخاف منه شرا وقد أوعز هذا البك الى والدة السلطان أن تأخذ من السلطان خنجر السلطان عثمان وكانت بيده مدة دائما وقال لها انه لا يصح أن يبقى هذا الخنجر مع السلطان خوفا من أن يضرب به نفسه فصدقت قوله لعلمها بمحبته الشديدة لابنها واحتالت حتى أخذت الخنجر المذكور وفى تلك الليلة أقفل ذلك المأمور الابواب ودخلت الفداوية من شبابيك البستان وتمكنوا من قتل السلطان بعرت خصيتيه ثم حصل ما حصل والله أعلم بالحقائق وذلك كان سببا فى قيام الضابط حسن الجركسى وقتله بعض الوزراء كما سيأتى أما السلطان فشيعت جنازته ودفن بجوار أبيه السلطان محمود رحمهما الله رحمة واسعة

وكان رحمه الله قوى البنية يحب السير على خطة أسلافه من اصلاح أحوال المملكة ومعاملة جميع الرعايا على السواء محبا للعمارة شيد كثيرا من المبانى والقصور الفاخرة والمعامل المفيدة فى جملة ولايات فقويت بها المملكة برا وبحرا ومد جملة خطوط حديدية فى بعض ولايات الروم ايلى وأصلح فم نهر الطونة ومهد عدة طرق بالاناضول فاتسعت دائرة التجارة ولولا الدسائس الاجنبية لكانت أيامه تعد من أعظم الايام وكان ميالا الى السياسة الروسية كثيرا وهذا ما أمال الامة عنه لانه كان يرى فى موالاته للروسيا تحقيقا لمآربه وغاياته كما كان يوعز اليه بذلك سفير الروسيا الجنرال أغناتيف ولذا كان السلطان يتظاهر بالميل اليه كثيرا

---

٢٣ السلطان مرادخان الخامس ابن السلطان عبد المجيد

١٢٩٣

لما تمت مبايعة السلطان مرادخان الخامس كما تقدم أظهرت الامة العثمانية انشراحها وسرورها واحتفلت باقامة الزينات فى دار الخلافة ثلاث ليال وأعلن الباب العالى الحكومة الخديوية وسائر الامارات الممتازة تلغرافيا بجلوس السلطان مرادخان الوارث الشرعى لكرسى الخلافة وفى اليوم العاشر من الشهر كتب المرحوم السلطان عبد العزيز خان مكتوبا (١) الى السلطان مراد به كثير

الجروح المذكورة بها ثالثا انه من هيئة استقامة الجروح ومن الانتحار الحاصل بالآلات الجارحة المذكورة يستدل على حصول تلف النفس المحكى منها وبناء على ذلك نقدم بامضائنا هذه المضبطة التى حررناها بقرب قول سراى جراغان الهمايونية ٩٦

دوقتور مارقو	دوقتور نورى	دوقتور صونو	دوقتور اسبانيول	دوقتور مارق ماركل	دوقتور بارذيلو	دوقتور عبد النور
دوقتور زوت	دوقتور دهقاسترو	دوقتور ماروتين	دوقتور زول ميلنجن	دوقتور قسطنطين قره طودرى	دوقتور ديكسون	دوقتور ويتالس
دوقتور ادوار اسپادارد	دوقتور نوريجيان	دوقتور مليان بك	دوقتور مصطفى	دوقتور محمد		

(١) بعد اتكالى على الله تعالى وجهت اتكالى عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بى من الاسف على انى لم أقدر على أن أخدم الامة حسب مرادها فأؤمل انك أنت تبلغ هذا الارب وانك لا تنسى أنى تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك بأن تتذكر أن من صيرنى الى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم

من

من الاقوال الحكمية ينفي ما أشاعوه عنه من اصابته بالاختلال العقلي وكانت الاحوال مضطربة
والجرائد تكتب المقالات الطويلة طالبة تشكيل مجلس شورى من نواب تنتخبهم الامة وسن قانون
أساسي للدولة ولما خافت الحكومة سوء العاقبة أصدرت ادارة المطبوعات الى عموم الجرائد أمرا
بمنع الكلام في هذا الخصوص فانساءت الامة من ذلك وبعد خمسة أيام من هذا الامر صدر خط
همايوني في ١٦ جمادى الاولى الى الصدر الاعظم محمد رشدي باشا بابقائه هو وسائر الوزراء في
مناصبهم وكان يحتوي على مبادي الشورى التي يقصد جلالته ادخالها الاصلاح كافة الادارات

حادثة حسن الجركسي — قال الفاضل مدحت أفندي في القسم الاول من أس الانقلاب
ما ملخصه مترجما ببعض تصرف انه بعد صدور الفرمان السلطاني السابق ذكره دعا الصدر الاعظم
كثيرين من الاعيان والوجهاء وعقد مجلسا خاصا من الوكلاء للنظر في مسئلة القانون الاساسي
الذي يطلب الجمهور سنه لمنع دور الاستبداد القديم ولما انعقد المجلس المذكور مرة ثانية بمنزل
مدحت باشا (٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ هـ) حضر أحد ضباط العسكرية ويدعى حسن
جركس بك وطلب مواجهة بعض الاعضاء بدعوى توصيل أمر مهم اليه فلم يأذن الخادم له ثم احتال
حتى دخل حجرة المجلس متواضعا وتناول مسدسا من المسدسات التي معه وأطلق عدة رصاصات على
حسين عوني باشا السرعسكر ومحمد راشد باشا ناظر الخارجية فقتلهما وجرح القبودان أحمد باشا
القيصرية لي بخنجر وقتل أحد أغا من أتباع مدحت باشا وشكري بك أحد ياوران البحرية وهم
الذين لم يتمكنوا من الهرب أو أبدى بعضهم مقاومة ثم قبضوا عليه وبعد استنطاقه حكم عليه
بالقتل فشنقوه على شجرة في ساحة بايزيد وبقي معلقا ثلاثة أيام وبذلك قوي عند العموم القول بقتل
هؤلاء الوزراء للسلطان عبد العزيز قصدا بايعاز من بعض سفراء الدول أما جركس حسن هذا فهو
ابن اسماعيل بك أحد أعيان الجراكسة المهاجرين درس بالمدارس الحربية العثمانية وترقى الى رتبة
اليوزباشي وكان ياورا للامير يوسف عز الدين أفندي مذ كان مشيرا للاوردي الخاص الهمايوني ولما
توفي السلطان عبد العزيز خان أراد حسين عوني باشا السرعسكر ابعاده عن الاستانة فرقاه الى رتبة
الصاغقول اغاسي وألحقه باوردي بغداد وأمره بالسفر فامتنع فأمر بحبسه كما تقتضيه القوانين
العسكرية ثم عاد فأظهر الرغبة في السفر وطلب الاذن بأن يبقى يومين بالاستانة يقضي فيهما حوائج
السفر فأجيب الى طلبه وكان منه ما كان

ثورة الصرب والجبل الاسود — لما جلس السلطان مرادخان على سرير الخلافة كانت الثورة
بولايتي بوسنه وهرسك لا تزال مشتعلة وكذا الحال ببلاد البلغار وكان رجال الثورة الذين اجتمعوا في فلبه
وطرنوه صعدوا الى جبال البلقان لتهييج أهاليها وأخذوا في مقاتلة العساكر الشاهانية والفتك
بالاهالي الاسلامية القاطنين بتلك البلاد والاطراف وقد اهتمت الدولة بمنع هذا العصيان وأصدر
السلطان عفوا عاما عقب جلوسه عن العصاة وكتبت النصائح اللازمة ونشرت على البلغاريين وأخذت
الدولة أيضا في التجهيزات العسكرية لظلام أفق السياسة وطلبت كثيرا من عساكر الرديف من بر

الايادي وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلومين وشمولهم بالمعروف الذي تقتضيه الانسانية أرغب اليك أن تنقذني
من هذا المكان الضيق المعين الذي صرت اليه وتعين لي محلا أكثر ملاءمة لي وأهنئك بأن الملك انتقل الى ذرية أخي
المرحوم عبد المجيد خان في ٦ حرفي ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ عبد العزيز اه كثير الرغائب

الاناضول وساقهم الى تلك الاطراف ولما كانت دسائس الروس لا تزال تروج الثورات بتلك النواحى شقت امارتا الصرب والجبل الاسود عصا الطاعة أيضا فاتسع الخرق على الدولة وتعددت مشاكلها وزادت جروحها خطرا حتى اضطرت لاخذ الاحتياطات الشديدة وطلبت مددا من المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر فأنجدها سريعا بقوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة آلايات من المشاة وبطاريتين من المدافع وكان يقود هذه القوة الفريق راشد حسنى باشا ومن قوادها العظام اسماعيل كامل باشا وسافرت على خمسة وابورات مصرية تحت ملاحظة محمد كامل باشا قومندان وابور المحروسة ووصلت هذه القوة الى سلانيك فى شهر رجب من سنة ١٢٩٣ هـ ثم سافرت من طريق اسكوب الحديدى الى جهات يكى بازار وذهبت من هناك والتحقت بالجيوش العثمانية النازلة بحدود بلاد الصرب وأرسل الخديو أيضا كثيرا من الاسلحة والمعدات الحربية لتوزيعها على الجنود العثمانية وبعث ثلاثة وابورات للمساعدة فى نقل الجيوش العثمانية ثم عمت الثورة أنحاء تلك الامارات وسرت الى ولاية الروم ايلى وتقاتل الطرفان وانتصر عثمان باشا بقرب قصبة زايجار على الصرب انتصارا باهرا ثم سار سليمان باشا من جهة شهركوى وحافظ باشا من جهة بلانقه وبعد أن تقابلا هاجما الصربيين فهزماهم هزيمة هائلة حتى اضطروا الى ترك حصونهم والالتجاء الى داخل البلاد وأرسل أيضا السرعسكر عبد الكريم نادر باشا من نيش فرقة عسكرية تحت قيادة أحمد أيوب باشا فكسر الصربيين فى مضيق غراماده واستولى على مامعهم من المدافع ثم تقابل أحمد أيوب باشا بسليمان باشا وتقدما وكسرا قوة الصربيين فى مضيق باندرو ثم تقدم على صائب باشا الى مدينة الكسناج فانتصر على الصربيين بجوارها ثم انضم اليه أحمد أيوب باشا بفرقته وحاصراها الا أن العثمانيين لم يستولوا عليها الا فى عهد مولانا السلطان الاعظم عبد الحميد خان وفى تلك الاثناء أيضا كان محمد على باشا منتصرا بالجيوش المصرية بجهات يكى بازار واستولى على قلاع ياوور وبهذه الانتصارات المتقدمة انقطع أمل الصربيين وداخلهم اليأس وفى خلال ذلك أيضا انتصر أحمد حمدى باشا بفرقته على ثوار الجبل الاسود فى جهتى قوج وصلاچق ازلانجه وانتصر سليم باشا بفرقته عليهم فى الجهة الواقعة بين نواسين وغاچقه وتقدم أحمد مختار باشا بقوة كبيرة عليهم أيضا من جهة نواسين وبعد أن بدد شملهم استولى على استحكاماتهم التى أنشؤها بتلك الجهات المستحكمة استحكاما طبيعيا ثم تقدمت عساكره حتى وصلت الى محل يدعى بيلك ولما تقدم عثمان باشا وسليم باشا بفرقتيهما احتاط بهما الجبليون من كل صوب وتغلبوا على القائدين العثمانيين وكسروهما وقتل سليم باشا والتزم عثمان باشا أن يسلم فأخذوه أسيرا وعاملوه بالحسنى مدة أسره ثم تقدموا لمصادمة قوة أحمد مختار باشا ولكنه قاومهم وكسرهم فى جملة وقائع ولما رأى زيادة قوتهم وتجمعهم عليه طلب من جنود بوسنه قوة فأرسلوا له ستة عشر طابورا ولما وصلت اليه أخذ يهاجم الثوار ويضايقهم فى جهات فريج ونخور وتربين ثم أرسلت الدولة جيشا آخر من الاستانة وبر الشام على البواخر تحت قيادة محمود باشا فنزل فى فرضة بار الا أنه هزم واضطر لان يرجع متقهقرا الى اشقودره وبسبب ذلك وعورة تلك الاطراف وعدم محاربة الجبليين محاربة منتظمة وكان الروس لا ينفكون عن ارسال الاسلحة والذخائر الى الصربيين والجبليين ويرسلون اليهما أيضا متطوعين من الجيش الروسى وغيره لقيادة الثوار كل ذلك عساعى

جمعيات

جمعيات الصقالبة بأوروبا ومع هذا فان مابذله العثمانيون من الهمة والنشاط وكبح الثوار أدهش الروس

مرض السلطان مراد وخلعه — اعلم أنه لما أجمع القوم على خلع المرحوم السلطان عبد العزيز خان وتولية السلطان مراد وذهب حسين عونى باشا الى حيث يقيم السلطان مراد واعلامه بذلك واحضاره الى باب السرعسكرية وكان ذلك بعد منتصف الليل اعترى السلطان دهشة وفزع لانه لم يكن يعلم شيأ من ذلك كما تقدم وقد ازداد معه هذا الامر بما حدث بعد من الحوادث وظهرت عليه علامات الاضطراب حتى انه لما بلغه خبر قتل حسن الجركسى للسرعسكر وناظر الخارجية وغيرهما وقت تناوله الطعام ازداد اضطرابا وتغير افترك الطعام وقام فأغمى عليه وتقايأ وصار بعد ها لا يميز الوزراء من بعضهم ومع ذلك كان الصدر الاعظم رشدى باشا يجتهد فى اخفاء هذا الامر عن العموم فى أوله واستمر بسير المصالح السياسية والادارية بهمة عظيمة الا أن امتناع السلطان عن حضور الاحتفالات الرسمية وتقلده السيف حسب المتبع وعدم مقابلته للسفراء لتقديم أوراقهم الرسمية ببقائهم فى مراكزهم كالمعتاد ومضى على ذلك أكثر من شهرين أدخل الريب عند الامة وذاع خبر مرض السلطان ولما اشتد الامر به أبلغ ناظر الخارجية جميع السفراء بالحالة وأخبرهم أيضا بلزوم خلع السلطان ثم ان الوزراء استدعوا الدكتور ليدروزف النمساوى رئيس مستشفى وبانه الشهير فى الامراض العقلية وطلبوا منه اختبار حالة السلطان وبعد أن لازمه جملة أيام وتأمل فى حركاته وأحواله واستعلم عن كيفية معيشته فى أيامه الماضية كتب تقريرا ذكر فيه أن مرضه هذا كان مقرونا بالخطر وقد بذل الجهد فى معالجته وأوصى باستنشاقه نسيم البحر فصاروا يخرجونه فى تخته المخصوص الى البوغاز يوميا الا أن المرض كان يأخذ فى الاشتداد حتى ظهرت عليه علامات غريبة توجب الحزن من ذلك انه أراد مرة أن يلقى بنفسه من احدى النوافذ وأخيرا تشاور الوزراء ثم عرضوا الامر على أخيه الامير عبد الحميد افندى وأن يستلم مقاليد الدولة فنصحهم بالتأنى وعدم التسرع فى الامور ولما كان بعض الدول المتحابة يلح باجلاس سلطان جديد ليتيسر للدولة متابعة الاصلاحات تعينت لجنة من الاطباء للنظر فى حالة السلطان مراد ولما نظره الاطباء قرروا (١) باصابته بداء عضال لا يرجى شفاؤه

ولما كانت مصالح السلطنة تحتاج الى من ينظر فى شؤنها اجتمع الوزراء واستقر رأيهم فى المجلس المنعقد يوم الاربعاء العاشر من شعبان سنة ١٢٩٣ هـ (٣٠ أغسطس ١٨٧٦ م) على مبايعة أخيه مولانا السلطان الحالى عبد الحميد خان وأرسلوا الى والدة السلطان مراد يبلغوها مع الاسف

(١) اننا نعتقد ونجزم أن مرض السلطان هو داء عضال كما بيناه سابقا ونضيف الآن على ذلك اننا اذا فرضنا خلافا للمأمول وشفى منه بعد مدة مديدة لا تعود اليه تماما قواه المدركة وعقله كما كان ٤ تحريرا فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٧٦

الامضاآت

طبيب سفارة انكلتره	طبيب سفارة فرانسا	طبيب سفارة النمسا	طبيب سفارة المانيا
ديكسون	ماروان	سوقو	موليخ

الدقتور	الدقتور	الدقتور
مونجرى	ماكيك	فاسطورى

الشديد ما استقر عليه رأى الوكلاء والوزراء فأرسلت الى الصدر الاعظم رقيما أظهرت فيه قبولها لما استصوبوه ثم اجتمع الوزراء وتذاكروا فى الامر بعد أن استفتوا شيخ الاسلام دولتلو خير الله افندى فأفتى بالجواز (٢) وعلى ذلك تقرر وجوب مبايعة سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد خان الثانى أدام الله أيامه

السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان الثانى ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان خليفتنا الحالى

جلس حرسه الله على تخت الخلافة الاسلامية فى يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ (٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦ م) وحضر لمبايعته الوزراء والاعيان وأرباب المناصب العلمية والعسكرية والملكية فى سراى طوبقبو ثم قصد سراى بشكطاش فوفد عليه رؤساء الطوائف المختلفة وهنؤه بالخلافة وأطلقت المدافع فى الاوقات الخمس من سائر المرامى البرية والبحرية بسائر أطراف السلطنة كما هى العادة وأقيمت الزينات بجميع جهات الاستانة وغيرها ثلاثة أيام بلياليها وأرسل الصدر الاعظم التلغرافات فاعلم البلاد الممتازة ثم فى يوم الخميس الثامن عشر من شعبان تقلد الخليفة السيف على الرسوم المعتادة بجامع سيدى أبى أيوب الانصارى قلده اياه نقيب الاشراف بحضور شيخ الاسلام والوكلاء كالمعتاد ثم عاد فى موكب حافل فاخر كما أتى ولما قبض على زمام الاعمال أخذ بهتم فى اصلاح الامور بهمة ونشاط وأقر محمد رشدى باشا فى الصدارة وكذا باقى الوزراء وأصدر فرمانا بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٩٣ هـ أظهر فيه رغبته فى السعى فى اصلاح أمور الدولة

وقائع الروم ايلى — لا يخفى أنه فى مبدا جلوس مولانا السلطان كانت الدولة محفوفة بالارتباكات الشديدة والاضطرابات العديدة والثورات الكثيرة المنتشرة بولاياتها بالروم ايلى ولذا أصدر السلطان الاوامر بسرعة ارسال الجنود الى حدود الصرب والجبل الاسود وبوسنه وهرسك لاخماد الثورة فاستدعت نظارة الحربية عساكر الرديف من كافة الايالات وبعد أن سلحتهم أرسلت غالبهم الى المواقع العسكرية وشددت الاوامر على قواد الجنود بالمواقع الحربية ببذل المجهود وصرف الهمة لسرعة اطفاء الثورة فانتصرت العساكر العثمانية فى غالب الوقائع وشدد السردار عبد الكريم نادر باشا الحصار على الكسناج حتى انه بعد أيام كسر جموع الصربيين وهزم قائدهم الجنرال جرنايف الروسى الذى كان متقلدا قيادة الصربيين بايعاز من دولته التى كانت تسعى فى تهييج الطوائف المسيحية على الدولة كما هى عادتها وعادة الدول الاوروباوية الاخرى متى أرادت معاكسة الدولة وانتصر أيضا أحمد أيوب باشا وسليمان خيرى باشا على جيوش الصرب التى كانت تحت قيادة لاشانين وفتحت نيشوار ثم رتب السرعسكر عبدى باشا الجنود وتقدم الى بلغراد فانهزم باقى جموع

---

(٢) اذا جن امام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته اهـ
الجواب يصح والله أعلم كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

الصربيين

الصرب بين وخاف البرنس ميلان أمير الصرب من عاقبة الامر فطلب من قناصل الدول (٢ شعبان ١٢٩٣ ﻫ) التوسط فى الصلح وبناء على ذلك تداخلت الدول الاوروباوية التى لما أيقنت بعجز الثائرين توسطت فى طلب المهادنة ولو الى شهر لوضع شرائط الصلح وأبلغ السير هنرى اليوت سفير الانكليز فى الاستانة ذلك الى الدولة وأيد طلبه جميع السفراء الا أن الباب العالى اعترض على محرراتهم الشديدة اللهجة ثم قدموا شرائط المصالحة والتزم الباب العالى بقبول المهادنة فى ظرف ٤٨ ساعة وكان الباب العالى يظن أن الدول الاوروباوية تعلن أميرى الصرب والجبل الاسود بتوقيف الخصام الا أنهما لم يتوقفا الا بعد مخابرات وتداخلت دولة الروسيا فى الامر بشدة واستمرت المخابرات السياسية بين الدول والباب العالى بواسطة السفراء لا تنقطع وكانت الدول تغل يد الدولة فى غالب المخابرات عن التصرف فى حقوقها الشرعية وفى تلك الاثناء استعفى محمد رشدى باشا من منصب الصدارة لتقدمه فى السن (٤ ذى الحجة ١٢٩٣ ﻫ) ووجهت الصدارة الى مدحت باشا وتقرر امتداد زمن الهدنة وعينت الصرب من قبلها المسيو فرستيج ومايخ فتقابلا مع صفوت باشا ناظر الخارجية وبعد المذاكرة اتفق الطرفان وعادت المناسبات بينهما بابقاء كل شئ على أصله كما كان ولما كانت مسئلة الجبل الاسود لم تنته بعد رأت الدولة لزوم تجديد الاعمال الحربية وأصدرت الاوامر الى عموم المراكز العسكرية فى حدود الجبل المذكور بأن تكون على قدم الاستعداد حتى اذا انتهت مدة الهدنة وتصدت جنود الجبل لاستعمال السلاح قابلتها العساكر العثمانية بالضرب

القانون الاساسى ومجلس الشورى — لما كان جل مقاصد مولانا السلطان عبد الحميد خان من يوم جلوسه على تخت الخلافة منح البلاد نظاما دستوريا شوريا مناسبا لحالتها يحفظ لعموم الامة العثمانية حقوقها ويربط جميع الاجناس والملل المتكونة منها الدولة العثمانية ببعضها لمنع الدسائس الموجبة للمنافسات واشتراك جميع الرعايا فى تحسين شؤون الدولة أصدر فرمانا بناء على ماقرره الوزراء فى ٥ شوال سنة ١٢٩٣ بتنظيم مجلس عمومى يتكون من مجلسين أحدهما ينتخب الاهالى أعضاءه ويسمى بمجلس المبعوثان والثانى تعين الدولة أعضاءه ويسمى بمجلس الاعيان وبعد أن مضى أربعة أيام على صدارة مدحت باشا أصدر له السلطان فرمانا مرفقا بالقانون الاساسى يشتمل على ١١٩ مادة يأمر بان يكون العمل بمقتضاه فى جميع الممالك العثمانية وتلى هذا القانون بالاستانة فى محفل عام (١٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٣) وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية سرورا بذلك ويتضمن هذا القانون الحقوق العمومية لتبعة الدولة العلية وواجبات الوزراء والمأمورين والمجلس العمومى وهيئة مجلس الاعيان وهيئة مجلس المبعوثان والمحاكم والديوان العالى والامور المالية والولايات ومواد شتى أخرى وقد أعلنه الباب العالى لعموم الولايات ثم أخذت الدولة فى السير على موجبه والعمل بنصوصه من ذلك التاريخ ولقد كان صدور هذا القانون فى الزمن الذى كانت فيه الدولة مرتبكة بتداخل الروسيا ودول أوروبا فى مسائلها الداخلية ثم قويت الدسائس الروسية حتى تمكنت من عزل أحمد مدحت باشا أول الساعين فى وضع هذا القانون الشورى ونفى الى خارج الممالك العثمانية (٢١ محرم سنة ١٢٩٤) أى بعد شهرين من صدارته لانهم نسبوا اليه السعى فى ارجاع السلطان مراد الى عرش الخلافة وفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية بمعنى أن السلطان لا يكون خليفة لجميع المسلمين فى المعمورة بل يكون سلطانا على الامة العثمانية فقط

تنفيذ المقاصد بعض الدول الاوروباوية الساعية فى اضعاف الشوكة الاسلامية وتعين بعده للصدارة أدهم باشا قال بعض الواقفين على السياسة انه لم يكن من الصواب نفى مدحت باشا فى الوقت الحرج المذكور لانه لو بقى فى منصبه ربما أمكنه بعد أن رفضت الدولة قرار المؤتمر الذى عقده السفراء فى ذلك الوقت بالاستانة كما سيأتى أن يجد حلا للمشاكل التى حدث معظمها بسببه ثم اجتمع مجلس المبعوثان العثمانى (٤ ربيع الاول) فى سراى بشكطاش وافتتح بحضور جلالة مولانا السلطان وتليت فيه خطبة عظيمة عن لسانه الملوكى وأخذ بعد ذلك يعقد جلساته ويتذاكر فيما يعرض عليه من المسائل وقد امتدح سيره كثير من الجرائد الوطنية والاجنبية على اختلاف أنواعها ومشاربها وقالت ان حسن سيره وانتظام جلساته يدل على ترقى الامم العثمانية ولكن من الاسف أن استعمل بعض أعضائه حدة فى أمور لا لزوم للخوض فيها فى ذلك الوقت ولما كان بعض دول أوروبا لا تحب أن ترى اتفاق الامة العثمانية وأن يكون لها مجالس نيابية شورية أخذت تدس الدسائس من يوم ظهور هذا المجلس الى عالم الوجود ولما خافت الدولة من انرواج الدسائس الاجنبية بين بعض الاعضاء يؤدى بلاشك الى المشاكل والاختلالات التى أرادت الدولة التخلص منها بتشكيل هذا المجلس فتكون جلبت على نفسها الضرر من حيث أرادت المنفعة صدر أمر سلطانى بعد اتفاق وزراء الدولة وأعيانها بارجاء اجتماعه الى أجل غير محدود (١٠ صفر سنة ١٢٩٥) وقد قال كثير من عقلاء الامة الذين خبروا أحوال الدولة العثمانية وأحوال شعوبها ووافقهم على قولهم هذا من تنزهوا عن الاغراض من رجال سياسة الدول الاجنبية بعدم امكان تأليف مجلس كهذا للامة العثمانية فى ذلك الوقت لاسباب عديدة أهمها عدم تجانس الامة العثمانية وميل جميع الطوائف الغير المسلمة بها الى ترويج مصلحة الدولة الاوروباوية التى تستند عليها تلك الطائفة لانه من المصائب التى ابتليت بها هذه الدولة أن مالت كل طائفة غير مسلمة بها الى دولة أوروباوية ومنها عدم بلوغ الامم العثمانية درجة التعليم التى تؤهلها الى تفضيل مصلحة الوطن عن غيرها ومنها سعى كثير من دول أوروبا فى تفريق الجامعة العثمانية لينالوا بذلك ما تريهم الخصوصية وأشد هذه الدول ممانعة لذلك دولة الروسيا جارة الدولة العثمانية القوية البطش المعادية لهم من قديم الزمان ذات الحكومة المطلقة والسلطة الاستبدادية وهى أسباب جديرة بالاعتبار يوافق على صوابيتها كل من عرف حال الحكومة والامة العثمانية وتنزه عن الاغراض والغايات والله ولى التوفيق وبعد أن قبضت الحكومة على من استعملوا الشدة فى التعبير من أعضاء المجلس كما قلناه أثناء المذاكرات غير ناظرين الى الارتباكات التى أحاطت بالدولة اذ ذاك خصوصا وان الحرب الروسية كانت على الابواب نفتهم الى البلاد الخارجية

رفض قرار المؤتمر والبروتوكول وحرب الروسيا — قلنا فيما تقدم ان الدول اتفقت على التضييق على الدولة العثمانية واجبارها سياسيا على قبول مهادنة الصرب والجبل الاسود وكان ذلك تارة بالنصائح المؤلمة وتارة بالتهديد ولما قبلت الدولة ذلك أرسلت تلغرافين لاميرى الصرب والجبل الاسود تدعوهما الى عمل طريقة لتسوية الخلاف فأجاب البرنس ميلان أمير الصرب تلغرافيا بقبوله المصالحة على طريقة (الاستاتيكو) أى بقاء حالة امتيازاته كما كانت عليه أولا وعين من قبله المندوبين السابق ذكرهما أما جواب البرنس نيقولا أمير الجبل الاسود فتأخر خمسة أيام وكان بلاشك يستشير بعض دول أوروبا التى يستند عليها ثم طلب تقرير قاعدة لذلك بمعرفة مندوبى الدول الذين تداخلوا فى أمر المهادنة الاولى

غير أنه لم تمض الامدة قليلة حتى قامت الروسيا فى ميدان المعارضة تطالب عقد مؤتمر للنظر فى مسئلتى البلغار وبوسنه فزادت الحالة ارتباكا وبعد أن أظهرت الدولة جنوحها الى السلم قامت الدول الاوروباوية تساعد دولة الروسيا فى طلبها وعقد مؤتمر بالاستانة من سفراء الدول وعينت الدولة صفوت باشا ناظر الخارجية وأدهم باشا سفيرها بباريس مندوبين من طرفها وبعد عقد جلساته أخيرا فى نظارة البحرية تحت رياسة صفوت باشا قرر طريقة الاصلاحات اللازم ادخالها فى ولايات بوسنه وهرسك والبلغار تحت مراقبة الدول ثم قدموا ذلك القرار الى الدولة وكانوا قبل ذلك اجتمعوا بسفارة الروسيا وقرروا المواد الاساسية لهذا المؤتمر ولم يسمحوا المندوبى الدولة بالحضور وهذا مما دل على تحيزهم للروسيا وتألبهم على معاكسة الدولة العثمانية وفى خلال ذلك ساقت الروسيا مائتين وخمسين ألف عسكرى الى حدود المملكتين و ١٥٠,٠٠٠ الى حدود الاناضول وهاجت الافكار فى بلاد الروسيا وفى كثير من عواصم أوروبا وقالت النمسا اذا تجاوزت الروسيا نهر الطونة أرسل عساكرى للمحافظة على بوسنه وقال اليونان اذا تقدمت الروسيا للحرب مع الدولة لزمنا اظهار التشيع للاروام الموجودين فى أراضيها ولهذا كانت الدولة العثمانية فى مركز حرج بحيث لو أقدمت على الحرب لاضطرت لمقاومة هذه الامم بمفردها ولهذا أصدر السلطان الاوامر الى نظارة الحربية بحشد الجيوش فى حدود الدولة من جهتى الروم ايلى والاناضول وعين المشير أحمد مختار باشا قائدا عاما على جيوش الاناضول والمشير عبد الكريم نادر باشا قائدا عاما على جيوش الروم ايلى وعين المشير درويش باشا قائد الباطوم وكان عثمان باشا وقتئذ قائدا على فرقة ودين ورأى جلالة السلطان أن يشرك الامة معه للنظر فى هذه الحالة كما هو القانون الاساسى فجمع مجلسا عاما مؤلفا من كافة الوزراء الموظفين والمعزولين والعلماء والاعيان والتجار والرؤساء الروحانيين وبعض كبار المأمورين بحيث بلغ عددهم مائتى نفس وعرض عليهم قرار المؤتمر فاجمعوا على رفضه لان الاصلاحات المطلوبة فيه للولايات موجودة فى القانون الاساسى الذى منحته الحضرة السلطانية لجميع الشعوب العثمانية بلا استثناء ولان قبوله موجب لتداخل الاجانب فى أمور الدولة الداخلية أما قرار المؤتمر المذكور فكان يشتمل على المواد الآتية وهى أولا اضافة جهة مالى زورنيك الى بلاد الصرب ورد حدودها القديمة اليها ثانيا أن يضاف الى الجبل الاسود جهات اسپيذا و ١٢ مقاطعة من البانيا وهرسك ثالثا منح بلاد بوسنه وهرسك استقلالا اداريا وأن يعين الباب العالى لهما حاكما مسيحيا لمدة خمس سنوات رابعا منح الاستقلال الداخلى لبلاد البلغار أيضا خامسا تشكيل بوليس وطنى للاقاليم المذكورة واعتبار اللغة السلافية لغة رسمية لانها لغة الاكثرين وتخصيص نصف ايرادات البلاد المذكورة لمنافعها الداخلية سادسا حرية انتخاب مشايخ القرى والقضاة والبوليس وغير ذلك فى أقاليم فلبه ومقدونيا العليا المجاورة للبلاد المذكورة سابعا أن يحتل هذه الاقاليم مدة من قوة عسكرية بلجيقية تكون مصاريفها من طرف الدولة

وقد أثارت هذه الطلبات الغريبة الاحساس الوطنى لدى العثمانيين وتهيؤا جميعا لرفضها لان أوروبا لا تحرمهم بذلك من ثمرات انتصاراتهم وفتوحاتهم فقط بل تعاملهم أيضا كمغلوبين والامر بخلاف ذلك كما علمت ولما رأت حكومة اليونان أن العنصر السلافى سيقوى بهذه الاقتراحات انضمت فى الرأى الى الدولة العثمانية ومع أنه صار تعديل هذه الاقتراحات فيما بعد الا أن الدولة رفضتها رفضا باتا

ولما رفضت الامة والدولة قرار المؤتمر كما ذكر سافر مندوبو الدول وقناصلهما من الاستانة كأنهم بذلك
قطعوا معها الصلات الودية وبعد ذلك كتب البرنس غورچقوف نشرة الى سفراء الروسيا لدى دول
أوروبا (٣١ ينايرسنة ١٨٧٧) قال فيها برفض الدولة العثمانية لقرار المؤتمر ويطلب منهم أن
يعلموه بآراء الدول التى ينوبون لديها ليتفق الكل فى العمل ازاء الدولة العثمانية وكتب أيضا صفوت
باشا ناظر خارجية الدولة الى سفرائها يعترض على عقد المؤتمر عدة جلسات بالاستانة لم يحضرها
مندوبو الدولة لتقرير ما يتفق على تقريره حتى كان المؤتمر لم يعقد فيما بعد بطريقة رسمية الا لعرض
أمور اتفقت الدول عليها من قبل للتصديق عليها فقط وقال ان الدولة لا يمكنها أن تقبل هذه الاقتراحات
أصلا لانها تحط بقدرها أما الدول فلم ترسل جوابا عن ذلك لا للروسيا ولا للدولة وفى تلك الاثناء تم الصلح
بين الدولة والصرب بشروط أهمها خروج العساكر العثمانية من الصرب وان لا تشيد الصرب فيما
بعد قلاعا جديدة وأن يرفع العلم العثمانى بجانب العلم الصربى ولم تعقد المصالحة مع الجبل الاسود
لطلبه تنازل الدولة له عن قطعة من أراضيها ولما رأت الروسيا أن مساعيها التى اجتهدت فى الحصول
عليها رعا ضاعت بالصلح بين العثمانيين والبلاد التى أثارتها عليهم ومال سكانها من النصارى الى
السكينة بعد ان أصابهم من الخسائر الجمة وهزيمة جنودهم ما أصابهم ولا يعود لها فيما بعد حق
بالمداخلة فى أمورهم لتحسين حالتهم كما هو لت بذلك لدى دول أوروبا سيما وان الممالك العثمانية أصبح
لها قانون أساسى يمنح المساواة لجميع الرعايا بلا تمييز وهو الامر الذى لم تحصل عليه للآن حرر البرنس
غورچقوف پروتوكول أى بلاغا ثانيا وعرضه على الدول الاوروباوية التى اشتركت فى مؤتمر
الاستانة وهو يتضمن ارجاع الدولة لجنودها وترك السلاح وتحسين أحوال الولايات المذكورة تحت
مراقبة السفراء لتأمين خير النصارى وبعد أن صدقت عليه نواب انكلتره وأستوريا وفرانسا
والمانيا وايتاليا (٣١ مارس سنة ١٨٧٧) أرسلوه الى الدولة وأوعزت انكلتره سرا الى سفيرها
بالاستانة بأن يخبر الباب العالى بان تصديقها على هذا البروتوكول هو للمحافظة على السلم فى أوروبا
فقط أى انها لا تصادق عليه فى المعنى وهو تشجيع للدولة فى أن تستمر على رفض القرار المذكور
ولما وصل هذا البلاغ الى الدولة العلية طلبت أن يكون ترك السلاح منها ومن الروسيا معا
فى آن واحد كما تقتضيه العدالة ولما لم تقبل الروسيا ذلك التزمت الدولة برفض البروتوكول وكتب ناظر
الخارجية لسفراء الدولة بأوروبا نشرة قوية الحجة جدا تبرأ فيها من عدم ميل الدولة للسلام مظهرا
تحامل أوروبا عليها بأقوال جديرة بالمطالعة ولكن ما فائدة الحق اذا كان صاحبه ضعيفا وعليه
انقطعت العلاقات السياسية بين الدولتين وأعلنت الروسيا الحرب على الدولة بمكتوب أرسلته الى
نائب سفيرها بپطرسبورغ (١١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٤ - ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٧) ثم تقدمت
الجيوش الروسية وتجاوزت الحدود العثمانية بعد ان تعاهدت مع رومانيا سرا على أن تجعل رومانيا
جميع مخازنها ومؤنها وذخائرها الحربية وجيشها تحت تصرف الروسيا وأصدرت أيضا الدولة الاوامر
الى جميع قواد جيوشها بمقابلة العدو بما عهد فيهم من البسالة والاقدام وكتبت الى دول أوروبا
نشرة تعترض فيها على ما فعلته رومانيا من الفعل المخالف للقانون لانها لا تزال بلادا خاضعة للسيادة
العثمانية كما قررته الدول ولا حق لها فى عقد معاهدة مع دولة معادية لها ومع ذلك فان الدول لم تلتفت
الى هذا الاحتجاج الشرعى فتأملوا يا ذوى الالباب ولما لامت الدولة رومانيا على فعلها هذا وأرسلت

بعض

بعض مدرعاتها فاطلقوا النيران على سواحلها بنهر الطونة أظهرت العداوة وأرسلت جيشها وعدده ٦٠ ألف مقاتل فانضم الى الجيوش الروسية وأعلنت استقلالها (١٤ مايو سنة ١٨٧٧)

حركة الاساطيل العثمانية مدة الحرب — اعلم انه لما تغيرت صدارة مدحت باشا خلف أحمد باشا القيصريه لى المشير رؤف باشا على نظارة البحرية (١٢٩٤ هـ) ثم عين الفريق محمد عارف باشا الاقسرايلى قومندانا على أسطول نهر الطونة بدلا من حسين باشا الكريدى الذى عين أميرالا لاسطول البحر الابيض وكانت أساطيل الطونة وقتئذ مركبة من خمس مدرعات تعرف بالدونات ومن أربع بواخر من نوع الاسقونة ومن أربع طرادات وكان بالنهر المذكور ثمانية وابورات للادارة النهرية وكانت الدولة ساقت الى البحر الاسود أسطولين الاول أقلع يوم ٧ ربيع الثانى وكان مركبا من عشر بواخر حربية تحت قيادة مصطفى باشا الى باطوم وأقلع الثانى فى اليوم الثانى وكان يتركب من أربع قراويت ومدرعتين تحت قيادة على بك للالتحاق بأساطيل الطونة التى يقودها محمد عارف باشا وفى يوم اعلان الحرب استعرض رؤف باشا ناظر البحرية الاسطول المدرع الذى كان تحت قيادة الفريق البوزجه أطه لى حسن باشا فى آينه لى قواق وألقى على ضباطه وعساكره خطابا مشجعا مثيرا لحميتهم وأجابه الفريق المذكور بما يناسب المقام ذكره ثم أصدر مولانا السلطان فرمانا لعموم قومندانات الاساطيل السلطانية تلغرافيا يحثهم على الاهتمام و بذل غاية المجهود وفى يوم السبت ١٤ ربيع الثانى من السنة المذكورة تقدم الاميرال حسن باشا واستولى على قلعة شوكدل احدى القلاع الروسية الموجودة بسواحل القوقاز شمال باطوم ولم ينزل بها قوة عسكرية مخافة من تفريق قوته وتقدم الى الشمال وقبض على سفينة روسية كانت تحمل ملحا للجيش الروسى الذى بجهة قلعة بوتى وأرسلها الى باطوم ثم تقدمت الدونما المذكورة و بعد ان أطلقت النيران على قلعة بوتى استولت عليها وأنزلت بها حامية ورفعت فوقها العلم العثمانى وكان كثير من سفن الدولة مشتغلا بنقل الجنود والذخائر الى جهات بلاد الاناضول

وفى تلك الاثناء قررت نظارة البحرية وضع البحر الاسود تحت الحصار البحرى (ابلوقه) وأن السفن التجارية الاجنبية الموجودة اذ ذاك بجميع مين الروسيا بالبحر الاسود يمكنها أن تبارح المين المذكورة فى مدة ثمانية أيام و بعد ذلك لا يكون لمدع حق فيما يدعيه اذا صادرت السفن الحربية العثمانية تلك السفن وأبلغت النظارة المشار اليها هذا القرار الى عموم الدول ووكلاء القومبانيات فى الاستانة كما هى الاصول البحرية بين الدول وفى يوم ٢٧ ربيع آخر توجهت الدونما المدرعة التى تحت قيادة بوزجه اطه لى حسن باشا الى جهة تخوم سواحل القوقاز شمال قلعة بوتى وأخرجت بعضا من عساكرها فاتفقوا مع بعض أهالى السواحل المذكورة على الهجوم على القلعة وعليه اجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف رجل من قبيلة ابازة واستعدوا للهجوم واقترب الاميرال بسفنه من القلعة وصفها تصفيفا حربيا وعند الفجر ابتدأت السفن المذكورة فى اطلاق المدافع على القلعة وهاجمتها القوة التى تجمعت برا وكانت قد زادت فى اليوم الثانى حتى زاد عددها عن عشرة آلاف رجل واستمر الضرب والهجوم من البحر والبر حتى لم تمض الساعة الخامسة من ذلك اليوم الا والقلعة فى قبضة العثمانيين والعلم العثمانى يخفق فوقها

ولما كانت أسلحة الاهالى الذين ساعدوا السفن العثمانية من الطرز القديم وبعضهم مسلح بالسيوف والخناجر فقط وزع عليهم حسن باشا قومندان الاسطول نحوا من ألفى بندقية من الطرز الجديد مع ما تحتاجه من الذخيرة وبذلك انتصروا على القوة الروسية التى كانت حول سخوم وقتل فى هذه الواقعة كثير من عساكر القوزاق الروسيين ولما رأى حسن باشا كثرة المتطوعين الذين قاموا لمساعدة الدولة من الجراكسة استحضر من باطوم خمسة آلاف بندقية أخرى ووزعها عليهم وفى هذه المدة استعملت الروسيا التوربيدو فى نهر الطونة لمنع سير المدرعات والسفن الحربية العثمانية لكن لما كانت السفن العثمانية فى غاية التيقظ وقد بثت الخفر فى نقط سواحل النهر لم تتمكن الروسيا من هذا القصد سيما وان تيار النهر لسرعته كان يبدد التوربيدو ولما استولى العثمانيون على سخوم من الروس أمد الروس جهة زيل من أعمال القوقاز بقوة عسكرية خوفا من وقوعها فى يد العثمانيين وعند ذلك اتفق قومندان باطوم مع الاميرال حسن باشا الذى تقدم بالدونمنا واستولى على جهة زيل المذكورة وغنم منها تسعة عشر مدفعا على أربعة عشر منها الطغراء الشاهانية العثمانية باسم السلطان عبد المجيد خان ويظهر أن الروسيين كانوا نقلوها من جهة قارص فى حرب القريم فأرسلت جميعها للاستانة وفى آخر هذا الشهر أتى وابور روسى توربيدى وأراد القاء التوربيدو على بعض السفن العثمانية الراسية عينا باطوم الا أن تيقظ العثمانيين ردّه خائبا بعد أن أصيب بتلف وبعد أيام وصل الى سخوم عشرة طوابير من الجنود لحمايتها وكانت تحت تصرف قائد يدعى فضلى باشا ولما رأت الدولة سرعة تقدم الروس نحو الاستانة أرسلت فى ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٤ كثيرا من مدافع كروب فوضعت بقلاع الدردنيل ولما بلغ حسن باشا تجمع الروس بجهة اردبيل القريبة من سخوم أرسل عليهم قوة بحرية وبعض الجنود المتطوعة تحت رياسة أحد أمراء الابازة فقهروهم وأخرجوهم من القلعة ولم يفلتوا من أيديهم الا بالتجائهم الى غابات هناك

أما جهة الطونة فان الاساطيل العثمانية أطلقت النيران على بعض بلادها وردّت هجمات بعض السفن الروسية أولا الا أن الروس تمكنوا بعد من القاء التوربيدو على مدرعة عثمانية تدعى سيفى فكسروها وبعد أيام خرج الفريق هوبارت باشا الانكليزى أحد قواد العمارة العثمانية يقود بعض السفن الحربية وجال فى جهات نهر الطونة واوديسا والقريم متفقدا متجسسا الا أنه مع ذلك لم يأت أمرا يدل مع مهارته فى الاعمال البحرية الحربية كما يقال والحاصل أن العثمانيين اكتسبوا بعض وقائع صغيرة بنهر الطونة لا يصح فى الحقيقة أن تسمى انتصارات لما كان لهم من الاساطيل العديدة والسفن الحربية المدرعة المختلفة التى جعلتهم اذ ذاك يعدّون ضمن الدول البحرية الاولى سيما وأنه لم يكن للروسيا وقتئذ قوة بحرية حربية بالبحر الاسود خلاف بعض بواخر تجارية وأخرى حربية صغيرة هذا أما أسطول البحر الابيض المتوسط فذهب الى الاسكندرية لمرافقة السفن المصرية المعدّة لنقل الجيش المصرى الذى أرسله المرحوم الخديو اسمعيل باشا لمساعدة الدولة وكان تحت قيادة ولده المرحوم الامير حسن باشا

وفى خلال ذلك أراد الروس احراق الاساطيل العثمانية الراسية جهة سُنّه قريبا من مصب نهر الطونة وكانت تحت قيادة اللواء مصطفى باشا فوجهوا عليها خمس صنادل توربيدية الا أن السفن

العثمانية

العثمانية تمكنت من اغراق ثلاثة منها وفر الاثنان وفى أثناء فرارهما ألقيا تورپيدو على بعض السفن العثمانية الا انها لم تصب بضرر وعند الفجر وجد العثمانيون ستة أنفار سابحين على الفلين من الزوارق التى غرقت وكان أحدهم انكليزيا وعلم من أقوالهم أن بعض هذه الزوارق آت من سيواستوپول وبعضها من اوديسا حضرت للايقاع بالسفن العثمانية وقالوا أيضا ان الروسيا تشارطت مع الملاحين الذين يقبلون الدخول فى زوارق التورپيدو أن يبذلوا مجهودهم فى الايقاع بالمدرعات العثمانية واذا مات أحدهم أثناء تأدية مأموريته تدفع الحكومة الروسية لعائلته ثمانين ألف فرنك وان عادوا سالمين وأتموا أعمالهم حسب الشروط دفعت لهم أيضا هذا المبلغ وفى أواخر هذا الشهر خرج مدرع عثمانى وأغرق سفينتين روسيتين جهة فلامنده وأطلق النيران على بعض البلدان ولما رأى كثرة سفن الروس التزم بالعودة الى نيكپولى ليكون فيها مدافعا ولما كانت الاساطيل العثمانية سببت للروسيين خسائر فى نهر الطونة اجتهدت فى وضع الالغام فى كثير من جهاته حتى تعطل سير الاسطول العثمانى فيه خصوصا بعد عبورهم النهر ومحاصرتهم لبلدة بلونه

وبعد أن رافق اسطول البحر الابيض المتوسط السفن المصرية الحاملة للجيوش كما سبق ذهب للتجول فى جزائر الارخبيل لانه كان أشيع أن الروسيا تقصد ارسال أسطول اليها من بحر بالطق لاثارة سكان تلك الاطراف كعادتها (٢٨ جمادى الاولى ١٢٩٤ هـ - ٢١ يونيه ١٨٧٧ م) ولما وصل الامير حسن باشا الى الاستانة قصد هو وجيشه مدينة وارنه لينضم الى القوة المصرية التى نقلت اليها من سلانيك وكانت تساعد الجيش العثمانى بالصرب والجبل الاسود تحت قيادة الفريق المصرى راشد حسنى باشا وأرسل الخديو المشار اليه أيضا بعض السفن المصرية لمساعدة سفن الدولة فى نقل الجيوش تحت امرة قاسم باشا وكيل البحرية المصرية وكان قبل ذلك يقود عدة سفن مصرية أرسلت لمساعدة الدولة فى ابتداء محاربة الصرب والجبل الاسود وكان المؤلف صحبة هذا القائد كياوره طول زمن الحروب المذكورة وأرسل أيضا باخرتين مشحونتين بالاسلحة والذخائر الحربية مساعدة للجيوش العثمانية وأرسل بعض الاطباء وأدوات المستشفيات النقالة مساعدة للجمعية العثمانية الخيرية التى تشكلت اذ ذاك لمواساة جرحى الحرب وتسمى بجمعية الهلال الاحمر ثم فى ٢٥ جمادى الآخرة من السنة المذكورة ساقت الدولة أسطولا آخر مركبا من أربع مدرعات الى سواحل سيواستوپول فهدم قلاع كوزلوه وعاد الى سنة ولما لم يكن لدولة الروسيا فى الوقت المذكور قوة بحرية بالبحر الاسود كما تقدم سلحت بعض بواخرها التجارية وجعلتها كطرادات لمطاردة السفن التجارية العثمانية فى البحر المذكور وتمكن بعضها من القبض على باخرة عثمانية من بواخر شركة الادارة المخصوصة كانت تحمل كتب البريد الى طرابزون واجتهدت الروسيا أيضا حتى أدخلت ٢٥ سفينة مختلفة الى نهر الطونة (١٠ رجب سنة ١٢٩٤) ولما علم قائد الاساطيل العثمانية بنهر الطونة تلاقى مع هذه السفن وتمكن من طردها بعد أن حملها خسائر عظيمة ولما تقدم الروس نحو الاستانة عينت الدولة المشير الحاج وسيم باشا قومندانا عاما للمحافظة على بوغاز البحر الاسود فرسى باسطوله فى فرضة بيوك دره

الجيوش العثمانية بالروم ايلى — سبق ذكر اغارة الجنود الروسية على حدود الدولة ودخولها

ولايتى افلاق و بغدان ثم تقدمت الجيوش الروسية والرومانية تحت قيادة الغراندوق نيقولا (٢٧ يونيه سنة ١٨٧٧ م) وتمكنت من عبور نهر الطونة على صنادل من جهة سمنيتزه (Simnitza) ومدت بعد ذلك جسرا فوق الصنادل عبرت عليه أكثر جيوشها سريعا ثم تقدمت تقصد مدينة طرنوه وبينما كانت الجيوش الروسية تعبر نهر الطونة وتنتشر طولا وعرضا بالاراضى العثمانية كان السردار عبد الكريم نادر باشا بعسكره فى شمله لا يبدى حراكا ولا يخرج من خيمته الا فى النادر غير مهتم بامر القتال كما يجب و يصرف أوقاته فى أمور لا فائدة منها تقريبا وكان أحمد أيوب باشا معسكرا بفرقته بجوار قرية تدعى ترانسك من أرض البلغار فأرسل الطلائع للمناوشات ولما انتشر خبر دخول جيش الروسيا ولاية الطونة وقع اضطراب جسيم وقلق شديد بالاستانة فأرسلت الدولة السر عسكر رديف باشا ومعه نامق باشا بحرا الى وارنة ومنها الى روسجق لتحقيق كيفية عبور الجيوش الروسية نهر الطونة بدون مقاومة والنظر فى الاهمال الذى حصل من الحاميات العثمانية الموجودة هناك لانه لم يسبق للروس قبل ذلك عبور هذا النهر بدون أن يتكبدوا خسائر جسيمة لانه من الموانع الطبيعية أمام الجيوش وقد ظهر من التحقيق أن عبد الكريم نادر باشا القائد العام كان ينوى مقاتلة الروس فى بلاد البلغار لعدم امكان عبور الجيوش العثمانية الى أراضى الافلاق والبغدان لقلة الاستعدادات من جهة وتشتت جيوش الدولة فى حدود الصرب والجبل الاسود واليونان وغيرها من جهة أخرى ولعصيان أهالى المملكتين وغير ذلك وقال ان الدولة غيرت قومندان سفن الطونة الموجود بهذه الوظيفة منذ عشرين سنة وله إلمام تام بتلك الجهات ومعرفة المواقع التى يمكن للعدو العبور منها مما يمكن لقائد الجيوش أن يستشيره فى هذه الاحوال وعينت مكانه قائدا لم يسبق له سفر فى نهر الطونة قط ولما نظر ديوان الحرب فى التقرير الذى رفعه اليه السر عسكر رديف باشا ورأى أن عبور الروس هو من اهمال السردار العام فصله عن وظيفته وعين مكانه محمد على باشا وشكلت الدولة مجلسا حربيا لمحاكمة عبد الكريم نادر باشا و وصلت المسؤلية أيضا الى السر عسكر رديف باشا فحكم عليهما بالنفى الى بعض جزائر البحر الابيض المتوسط ووجهت السر عسكرية الى محمود باشا الداماد

ثم تقدمت جيوش الروسيا نحو البلقان واستولى الجنرال غوركو على مضايق البلقان ومواقع شبقة واحتل البارون كرودنر (Krudner) مدينة نيكبولى عنوة وأسر بها سبعة آلاف جندى واستولى على ١١٣ مدفعا وعشرة آلاف بندقية (١٥ يوليه سنة ١٨٧٧ م) فسار الغازى عثمان باشا بفرقة من ودين وكانت مركبة من أربعين أورطة مسرعا لمساعدة نيكبولى ولما قرب منها وبلغه سقوطها افصد موقع بلونه لمتانته ولكونه ملتقى الطرق العسكرية الموصلة بين سواحل الطونة وغيرها من البلاد الى مضايق جبال البلقان وعسكر فيه واهتم فى تشييد الاستحكامات لصد هجمات الروس الذين هاجموه فيها دفعتين الاولى فى ٢٠ يوليو تحت قيادة الجنرال شيلدر (Schilder) والثانية فى ٣٠ منه تحت قيادة الجنرال كرودنر فارتدوا خائبين وكانت قوتهم فى الهجوم الثانى تزيد عن ثلاثين أورطة بيادة وقدرها من السوارى ومدافع الطوبجية تزيد عن مائتى مدفع و بعد رجوع الروس من أمام بلونه مقهورين وصلت الامدادات الى العثمانيين فتمكنوا بها من الاستعداد لحركة التعرض والهجوم وانقسم الجيش الى ثلاثة أقسام الاول انضم الى فرقة الغازى عثمان باشا و بقى فى

مواقع

مواقع بلونه للدفاع عنها وتقدم بالثاني السردار محمد علي باشا لمحاربة الجيش الروسي الذي تحت قيادة البرنس الكسندر ولي عهد القيصر والثالث انضم الى جيش سليمان باشا الذي دعي من حدود الجبل الاسود بجيشه لاستخلاص مواقع شبقه من يد الروسيين فتقابل مع الجنرال غوركو وانتصر عليه انتصارا عظيما باسكي زغرة ولما انهزم غوركو الى البلقان تعقبه سليمان باشا وسعى في الاستيلاء على مضيق شبقه وبينما كان جيش محمد علي باشا منصورا في واقعة صاري نصوحلر التي اشترك فيها الجيش المصري تحت قيادة الامير حسن باشا قسم الغراندوق نيقولا قواه الى فرقتين وجه احداهما لمقابلة جيش محمد علي باشا وجعل الاخرى مددا له عند اللزوم أو الى رد عثمان باشا الذي كان يهدد الخطوط الروسية وبالانتصارات التي حازها محمد علي باشا وسليمان باشا وعثمان باشا وقرب اجتماعهم معا للاحاطة بأجنحة بعض الفرق الروسية أصبح شأن الجيش الروسي حرجا للغاية وعند ذلك تقدم أمير رومانيا بجيشه البالغ عدده مائة ألف مقاتل لمساعدة الروسيا واجتاز به نهر الطونة وصادف حضور قيصر الروس بنفسه لميدان القتال لتشجيع جيشه مع بعض الامدادات فتقوت الروس بذلك وانتصروا في بعض المواقع على الجيوش العثمانية وكان الجنرال زمرمان عبر بفرقته نهر الطونة من حوالي ايساقجي ودخل أراضي دوبروبجه وقصد بازارجق حيث القوة المصرية وبعد عدة وقائع تقهقر راشد حسني باشا ومات في تلك الواقعة اللواء زكريا باشا المصري وعادت الجيوش الى وارنه اتباعا للاوامر التي أصدرها الامير حسن باشا بعد عودته بالجيش المصري من واقعة صاري نصوحلر التي انتصر فيها محمد علي باشا على جيش الروس كما سبق

ثم اقتدت الروس بنصائح المارشال مولتك الالماني حيث قال ان حصار القلاع القوية أفضل من الهجوم عليها لان بالحصار يسهل الاستيلاء والانتصار سيما وان أركان حرب الجيش الالماني هم الذين رسموا معظم خطوط السير للجيش الروسي وشجعوه على مقاتلة العثمانيين وهم الذين نصحوه على عبور نهر الطونة بكل ما يمكن من السرعة وغير ذلك من المساعدات الأدبية التي قامت بها المانيا للروسيا في هذه الحرب فصمموا على محاصرة بلونه من كل جانب وأناطوا أمر هذه الحركة بالجنرال طوطلبن (Totleben) فرتب حولها العدد الكافي من الجيوش وشيد ثلاثة خطوط من الاستحكامات كل خط بعد الآخر لتمكين الحصار ولما تم هذا العمل (٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٧ م) صار وصول المدد الى عثمان باشا من رابع المستحيلات ولبث مدافعا عن مركزه حتى نفد كل ما ادخره من الاقوات وعند ذلك عزم على الخروج بجيشه وخرق صفوف الاعداء فان فازوا كان ذلك غاية المراد وان ماتوا ماتوا مدافعين عن شرف الدولة شهداء مؤدين للواجب عليهم كما تفرضه الواجبات نحو الدولة والدين ثم استعدت الجنود (٥ الحجة سنة ١٢٩٤ هـ - ١٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ م) وأخلت المواقع العسكرية ونحو جواهرة واحدة مستميتين واستمروا في سيرهم يقصدون الاستحكامات التي أقامها الروس ولا يبالون بالمقذوفات المتساقطة عليهم وكانوا قبل خروجهم بأربعة أيام لا يتناولون من الغذاء غير القليل من الدقيق الذي بقي في بعض المخازن ومع ذلك فانهم اقتحموا الخط الاول والثاني وكادوا يستولون على الخط الثالث لولا أن أصيب قائدهم البطل الشهير الغازي عثمان باشا برصاصة في فخذه ولما سقط هذا الشجاع على الارض ظنت عساكره أنه استشهد واستولى الرعب والفشل عليهم وأراد بعضهم الرجوع الى المدينة التي كان احتلها الروس بعد خروجهم منها ولما رأوا أنفسهم بين

نار بن رأى قوادهم أن الصواب التسليم فرفعوا علامته وتوقف الروس عن اطلاق النيران ثم ذهب اللواء توفيق باشا رئيس أركان حرب الجيش العثمانى وهو الذى بمهارته شيد القلاع والحصون حول بلونه وطلب مقابلة القائد الروسى العام وهو الجنرال جانتسكى ثم ذهب الجنرال استروكوف مع توفيق باشا وقابلا عثمان باشا فى المكان الذى وضعوه فيه بعد جرحه وطلب الجنرال من عثمان باشا أن يأمر أولا جنوده بالقاء السلاح ثم تكون المكالمة فيما بعد لان ذلك الجنرال لم يكن لديه تعليمات من القائد العام الروسى وهو الغراندوق نيقولا أخى القيصر ولما قبل عثمان باشا طلب الجنرال المذكور عاد وأخبر جانتسكى بما تم فأتى بنفسه الى مقر عثمان باشا وبعد أن حياه وهنأه على أعماله الحربية التى تشهد له ولجنوده بالبسالة وعلو المنزلة طلب منه فأصدر أوامره الى الجيش العثمانى بالقاء السلاح وبعدها سلم سيفه ثم أركبوه فى عربة وذهبوا به الى بلونه وفى أثناء مسيره قابله الغراندوق نيقولا ومعه أمير رومانيا وسلما عليه باحترام وفى اليوم التالى صباحا ذهب عثمان باشا مع طبيبه الخاص الى حيث ينزل القيصر ولما دخل عليه قام له اجلالا وبش فى وجهه وأظهر اعجابه من مدافعته عن بلاده واقدامه ورد اليه سيفه وأمره بأن يحمله علامة الاحترام والتجلة ثم أرسلوه الى مدينة كركوف يقيم بها الى انتهاء الحرب

ولقد كانت الجيوش التى مع عثمان باشا الغازى فى بلونه لا تزيد عن ٥٠,٠٠٠ معهم ٧٧ مدفعا أما الجيش الروسى المحاصر فكان يزيد عن ١٥٠,٠٠٠ معه ٦٠٠ مدفع ومن ذلك يظهر الفرق بين شجاعة المتحاربين ومما يؤثر عن الجنود العثمانية أنهم لم يسلموا أعلامهم قط بل انهم قبل خروجهم للمرة الاخيرة دفنوا بعضها فى صناديق من الحديد تحت الارض وأحرقوا الباقى يوم التسليم وكانت الدولة لما رأت تفاقم الخطوب وازدياد الشرور واثارة الروس للطوائف المسيحية القاطنة بولاياتها وخصوصا لما سقطت مدينة بلونه أرادت طلب الصلح من الروسيا الا أن السير لايارد (Layard) سفير انكلتره بالاستانة وعدها بتداخل الدولة الانكليزية تداخلا عسكريا ولولا هذه المواعيد العرقوبية لكانت الدولة فازت بمصالحة أخف ضررا من التى حصلت فيما بعد كما ستراه

الاعمال الحربية بالاناضول والهدنة ومعاهدة سان استيفانوس — هذا ملخص الحركات الحربية التى تمت بأوروبا وقبل أن يجتاز الروس البلقان أما فى آسيا فكان النصر فى أول الامر حليف العثمانيين وكان الجنرال مليكوف ذهب بقصد مدينة قارص وأخذ الجنرال درهوجاسوف (Der Hougassof) يهدد مدينة بايزيد وسار غيرهما من قواد الروس للاستيلاء على أردهان وباطوم ثم تمكن الجنرال مليكوف من الاستيلاء على مدينة أردهان عنوة (١٧ مايو سنة ١٨٧٧ م) وحاصر قارص وأخذ يهدد ارضروم وبعد أن استولى الجنرال هوجاسوف على مدينة بايزيد (٢٠ ابريل سنة ١٨٧٧ م) وانتصر على العثمانيين بجهة درام طاغ (١٠ يونيه سنة ١٨٧٧ م) تقدم جيش الغازى مختار باشا واحتل مرتفعات زوين وكان يتركب من ٥٩ طابورا من المشاة و ٤٠٠٠ من السوارى و ٦٠ مدفعا بينما كان القائد اسمعيل حقى باشا يقود قوة عظيمة من الاكراد يهدد بها قوة الجنرال هوجاسوف وبذلك تمكن العثمانيون من قهر مليكوف وهوجاسوف وانتصر جيش مختار باشا انتصارا عظيما (٢٦ يونيه سنة ١٨٧٧ م) حتى سحق الجيش الروسى بجهات زوين ولهذا اضطر مليكوف أن يرفع الحصار عن قارص ويرجع القهقرى نحو الكسندروفول وتبعته

العساكر

العساكر العثمانية أما الجنرال هوجاسوف فقد تمكن من القهقرى بحالة انتظام وأخذ الاحتراس التام
من أن يقع فى يد العثمانيين وتوجه نحو اجدير ثم ذهب اسمعيل باشا لقتال هوجاسوف بجيش مؤلف
من ٤٠ طابورا و ٥٥ مدفعا بينما كان مختار باشا يستعد للاجهاز على قوة الجنرال مليكوف
وبعد ذلك انتصر العثمانيون انتصارات مهمة على الجيش الروسى الذى طردوه تماما من الاراضى
العثمانية وأشهر هذه الوقائع هى وقائع كركانه وانى واياتيه وايالك تبه سى وأوليار وقزل تپه
وأشهرها جميعا واقعة كدكلر التى أرسلت بسببها الحضرة السلطانية فرمان تشكر الى مختار
باشا ولقبته بلقب غازى وبعد ذلك اقتصر الروس على اجراء المظاهرات والمناوشات الخفيفة
مبتعدين ما أمكن عن الاشتباك مع الجيوش العثمانية وسبب ذلك أن قوتهم العسكرية نقصت جدا
بما حصل لهم من الهزائم ونفدت تقريبا ذخائرهم الحربية وأرسل الغراندوق ميخائيل حاكم بلاد
القوقاز العام يطلب الامداد والذخائر ولما أتى المدد وتقوت الجيوش الروسية فى أواخر سبتمبر سنة
١٨٧٧ سار الجنرال مليكوف فى طريق الهجوم ثم تقدم نحو مختار باشا المعسكر فى قزل تپه وتلاقى
معه فى جهة الاجه طاغ ودام القتال بينهما أياما ثم تقهقر العثمانيون بعد خسائر عظيمة ولذلك
اضطر مختار باشا أن يلتجئ الى ارضروم فتمكن الروس من محاصرة قارص محاصرة شديدة ومنعوا عنها
المواصلات الخارجية تماما حتى استولوا عليها عنوة (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٧) وأسروا منها
١٧,٠٠٠ جندى واستولوا على مدافعها وكانت ٣٠٠ وأراد مختار باشا بعد ذلك أن يوقف سير
خصمه فلم يتمكن ولذلك ذهب الى مدينة ارضروم وأخذ فى جمع العساكر المتشتته واقامة الحصون
والمعاقل حول تلك المدينة وقد نجح فى ذلك بكل سرعة ولهذا أجمعت الجرائد العسكرية على مدح هذا
القائد العظيم وبقى فى هذه المدينة يصد هجمات الروس الى أن انتهى الحرب واعلم أنه لما انتشر خبر سقوط
بلونه وقارص وتقهقرت العساكر العثمانية أمام أعدائها أعلن أمير الصرب المدعو ميلان الحرب
على الدولة (١٤ دسمبر سنة ١٨٧٧) وذلك بعد أن اتفق مع الروسيا وأوعزت له بذلك لتكون حجته
فى المستقبل أقوى لنوال ما يطمح اليه بابصاره متى تقررت شروط الصلح أما الدولة العثمانية العديمة
النصير فلم تستغرب من خيانة هذا الامير وكفر الصربيين بنعمتها لانها كانت تنتظر ذلك من وقت الى
آخر وأرسل الباب العالى منشورا الى الصربيين يعلن فيه بعزل أميرهم ميلان وينصحهم فى عدم
التغرير بأنفسهم وكانت عساكر الجبل الاسود تخطت حدودها أيضا وشنت الغارة على الاراضى
العثمانية لان الدولة لاحتياجها للجنود كانت استرجعت معظم القوة العسكرية الضاربة فى تلك
الاكناف كما ذكر فيتضح من ذلك أن الدولة العثمانية فى هذه الحرب المشؤمة لم تكن تحارب
الروس فقط بل كانت تنازل الروس وأفلاق وبغدان والصرب والجبل الاسود وجميع المسيحيين
رعاياها تقريبا ولما أقبل فصل الشتاء بزمهريره كانت الدوائر العسكرية تظن أن ذلك يعطل الحركات
الحربية ويجعل للدولة العثمانية الوقت الكافى لتجنيد قوة جديدة تنازل بها الاعداء الا أن هذه
الظنون لم تتحقق لان الروس عقب انتصاراتهم السريعة ساقوا جيوشهم نحو البلقان ورأى الجنرال
طوطلبن أنه من الصواب الاستيلاء على ودين وروسجق وشمله قبل الذهاب الى البلقان فأحيل عليه
فتح هذه المدن وتقدم الجنرال غوركو يريد اختراق البلقان مهما كلفه ذلك من الرجال والاموال وسار
هذا الجنرال فى وسط الشتاء والثلوج حتى تلاقى مع شاكر باشا وبعد أن نازله وهزم جيشه استولى

على صوفيه (٤ يناير سنة ١٨٧٨) وسلمت أيضا العساكر العثمانية التى كانت تحمى شبقه
(٩ يناير) ثم زحف الجنرال غوركو فتلاقى مع جيش سليمان باشا و بعد أن استمر الحرب بينهما ثلاثة
أيام أظهر فيها العثمانيون شجاعة تخلد لهم ذكرا فى التاريخ بالقرب من مدينة فلبه تقهقروا مهزومين
الى جبال ردوب (١٩ يناير) وفى يوم ٢٠ منه احتلت مقدمة الجنرال اسكوبيليف (Skobeleff)
مدينة أدرنه وكانت القيادة العامة على عساكر البلقان لرؤف باشا ناظر الحربية ثم تقدم الروس حتى
أضحوا على أبواب الاستانة بينهم و بينها مسافة ٥٠ كيلومترا ولما رأت الدولة سوء حالتها طلبت عقد
هدنة للمكالمة فى شروط الصلح وأرسلت من طرفها نامق باشا وسرور باشا للمخابرة مع الغراندوق نيقولا فى
هذا الخصوص وأرسلت معهما مأمورين عسكريين وبعد أن تقابل هؤلاء المندوبون مع الغراندوق
فى بلدة قزانلق وعرضوا عليه مأموريتهم أخذهم معه الى ادرنه لحين مجيء جواب القيصر على ذلك ثم
صار التوقيع على اتفاقيتين احداهما بين الغراندوق وسرور باشا ونامق باشا مفادهما استقلال
البلغار استقلالا اداريا واستقلال رومانيا والجبل الاسود استقلالا سياسيا مع تعديل حدودهما
وتقرير غرامة حربية للروسيا تدفع نقدا أو يستعاض عنها ببعض البلاد والاخرى بين المندوبين
العسكريين العثمانيين والروسيين ببيان شروط المهادنة وعلى ذلك توقفت الحركات العدوانية (٣١ يناير
سنة ١٨٧٨ م) وأمر الباب العالى برفع الحصار عن سواحل الروسيا التى على البحر الاسود وعاد
الغراندوق نيقولا الى بطرسبورغ غانما ظافرا ولما علمت انكلتره بحصول الهدنة والشروط الابتدائية
خافت على الاستانة كما ندعى أن تقع فى يد الروس ولذلك أمرت عمارتها التى كانت بخليج بشيكه فدخلت
بحر مرمره (١٤ فبراير سنة ١٨٧٨) خلافا لمعاهدة باريس القاضية بمنع مرور السفن الحربية من
مضيق الدردنيل ولما لم يمكن الدولة منع الاساطيل الانجليزية من عبور المضيق المذكور اكتفت
باقامة الحجة على ذلك وأراد بعض دول أوروبا أن يكون عقد شروط الصلح على يدها مخافة أن يوجد
بها ما يخل بمعاهدة باريس المبرمة فى سنة ١٨٥٦ فلم تقبل الروسيا ذلك و رغبت أن يكون الصلح بينها
و بين الدولة العثمانية فقط بلا وسيط ولهذا لم تعلن صورة هذه الاتفاقيات بصورة رسمية الا فى
١٥ فبراير سنة ١٨٧٨ و بعد ذلك اجتمع المندوبون من الدولتين ببلدة سان استيفانوس التى جعلها
الجيش الروسى مقرا له بعد الهدنة فكان صفوت باشا ناظر الخارجية وسعد الله بك سفير الدولة فى
برلين من قبل الدولة والموسيو نيلدوف والكونت أغناتيف من طرف الروسيا و بعد اجتماعاتهم
اضطر المندو بان العثمانيان للتوقيع على معاهدة مؤلفة من ٢٩ بندا أهمها المواد الآتية وهى
أن تزاد أراضى الجبل الاسود أكثر من ضعفى حالتها التى كانت عليها وتستولى على ثغرى اسبيتزا
وانتيفارى ويضاف على بلاد الصرب التى أصبحت مستقلة لواء نيش وتأخذ رومانيا التى استقلت أيضا
جهات دوبروجه بدلا عن بسارابيا التى استولى عليها الروس وأن تكون البلغار امارة ممتازة تمتد حدودها
من نهر الدانوب الى بحر الارخبيل بحيث لا يترك للدولة العثمانية باوروبا الا الاستانة وغليبولى
وسلانيك وضواحيها و بلاد ابيروتساليا والبانيا و بوسنه وهرسك أما بجهات آسيا فتستولى الروسيا
على قارص وأردهان وباطوم و بايزيد وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها ١٤١٠،٠٠٠،٠٠٠
روبل (٢٤٥،٢١٧،٣٩١) ليره عثمانية ولما شاعت هذه المعاهدة التى أمضيت فى ٣ مارث سنة ١٨٧٨
بنشرها فى الجريدة الرسمية الروسية بعد مضى ٤٢ يوما من التوقيع عليها اغتاظت انكلتره جدا

وأمرت

وأمرت بجمع احتياطى جيشها العامل وأمرت أساطيلها بالتجمع فى مالطة حيث أحضرت اليها قوة عسكرية من الهند ومع ذلك لم يمكنها أن تتصدى لايقاف الروس بالقوة لانه لم تساعدها دولة من دول أوروبا على ذلك وقد ذهبت مساعى السفير الانكليزى الموسيو لايارد أدراج الرياح ولم يتمكن من تجديد القتال بين الجنود الروسية والعثمانية المعسكرة فى جتالجه أو بين الروس وأهالى جبل رودوب من المسلمين الذين صبت عليهم أنواع البلاء من أهل البلغار والروس أثناء الحرب مع ماصرفه من المجهودات ولم تقبل الدولة العثمانية اشاراته لانها خافت من قيام المسيحيين فى كريد وتساليا وغيرهما وبعد مبادلة المكاتبات بين لوندره وبطرسبورغ زمنا تداخل البرنس بسمارك حتى عقد وفاقا سريا بين الروسيا وانكلتره وأوستوريا (٣٠ مايو سنة ١٨٧٨) وقبلت الروسيا أن تعرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر أوروبى بعد أن كاد الامر يفضى الى انتشاب الحرب بينها وبين انكلتره كما سبق وفى نفس هذا الوقت تمكن اللورد بيكونسفيلد من أن يعقد مع الدولة معاهدة دفاعية من مقتضاها صد الروسيا عن تقدمت نحو بلاد الاناضول وتعهد الباب العالى باجراء الاصلاحات اللازمة لتحسين حال المسيحيين الذين بتلك الجهات خوفا من أن ينقادوا الى مطامع الروسيا وأن تسمح الدولة لانكلتره باحتلال جزيرة قبرص وادارة شؤنها لتكون على مقربة من بلاد الروسيا وتمكنها صد هجماتها لو دعت الحاجة ولوجود الاضطراب بالاستانة وخوف الباب العالى من أن يحتلها الروس كما كانوا يحاولون ونظرا للارتباكات الحاصلة قبل الباب العالى تلك المعاهدة حفظا لباقى أملاكه وتعديل معاهدة سان استيفانو بكيفية أرجح لصالحه (٤ يونيه ١٨٧٨) وفى أثناء انعقاد المؤتمر ببرلين ذيل الحكومتان هذه المعاهدة ببعض بنود لتوضيح كيفية ادارة الجزيرة المذكورة والمبلغ الذى تدفعه عنها انكلتره سنويا للدولة وجعلت تركها موقوفا على ترك الروسيا مدينتى باطوم وقارص اللتين أضيفتا الى الروسيا نهائيا (أول يوليو سنة ١٨٧٨)

معاهدة برلين — لما رضيت الروسيا بعرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر دولى كتب البرنس بسمارك تلغرافا الى كافة الدول العظام يدعوهم فيه لارسال المندوبين عنهم للاجتماع فى مؤتمر برلين يوم ١٣ يونيه ١٨٧٨ الذى سيكون تحت رياسته وأرسل أيضا كثير من الامم ذات الصوالح مندوبين عنهم لتقديم طلباتهم وعرض رغباتهم على أعضاء المؤتمر وان لم يكن يصرح لهم بالحضور فى جلساته الا اذا طلبوا وبعد المناقشات والمداولات أياما بين المندوبين وقعوا على المعاهدة المعروفة بمعاهدة برلين وكان ينوب عن الدولة فى هذا المؤتمر محمد على باشا وقره تيودورى باشا وسعد الله بك ولم يستحسن بعض المؤرخين تعيين محمد على باشا فى ذلك المؤتمر لانه المانى الاصل اعتنق الدين الاسلامى كما هو معلوم فكان مندوبو الدول وخصوصا البرنس بسمارك ينظرون اليه بعين الغيظ والتحقير مما كان سببا فى أن البرنس بسمارك انتهره مرة أثناء انعقاد المؤتمر أما المعاهدة المذكورة فأهم مشتملاتها ما يأتى تقسيم امارة البلغار التى كان طلب الجنرال اغناتيف تكوينها الى قسمين يكون القسم الشمالى منهما بلاد البلغار المتازة والقسم الجنوبى بلاد الروملى وله نوع امتياز أيضا وأن تستقل رومانيا استقلالا سياسيا ويضاف الى بلادها مقاطعة دوبروجه فى مقابلة استيلاء الروسيا على بلاد بسارابيا وأن يضم الى بلاد الصرب التى أصبحت مستقلة تماما اقليم نيش وأن يبقى لامارة

الجبل الاسود التى تعترف الدولة باستقلالها كذلك فرضة انتيفارى (بار) وثلث الاراضى التى أعطيت لها بموجب معاهدة سان استيفانو وأن تستولى الروسيا على بسارابيا التى كانت انتزعت منها بمعاهدة ١٨٥٦ كما تقدم وتضم الى أملاكها باتسيا مدن قارص وأردهان وباطوم التى جعلت ثغرا حرا بعد هدم استحكاماتها وأن تترك للدولة بايزيد ووادى الشغراد أما من خصوص الغرامة الحربية فقد قرر المؤتمر بقاءها على حالتها كما وردت بمعاهدة سان استيفانو بشرط أن حقوقها من حيث الغرامة لا تضر بمصالح أصحاب الديون الاوروباويين وقرر المؤتمر أيضا ان تستولى ايران على اقليم قطور والنمسا على فرضة اسپيزا (Spizza) وأن تحتل عساكرها بوسنه وهرسك الى زمن غير محدد لتجرى فيهما ما يوافقهما من الاصلاحات وتعهد الباب العالى بأن يقبل بلا تمييز فى الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم وأن يجرى بالدقة فى جزيرة كريد النظام الاساسى الذى عمل لها سنة ١٨٦٨ وأن يدخل نظامات مشابهة لما فى نظامات تلك المعاهدة مع تطبيقها على الاحتياجات المحلية فى جميع جهات تركية أوروبا التى لم يسن لها المؤتمر نظاما خاصا وأن يقوم فعلا بلا تأخير فى تحسين وتنظيم الاقاليم التى يسكنها الارمن حسب أحوال واحتياجات تلك الجهات وأن يحميهم من تعديات الجركس والاكراد وأن يبلغ من وقت الى آخر دول أوروبا بما أدخله من النظامات التى قضت بها هذه المعاهدة وهذه شروط لم نسمع بعقد مثلها بين دولتين أوروباويتين قهرت احداهما الاخرى ولكن ما حيلة هذه الدولة بعفردها أمام دول أوروبا جميعا ومن تأمل فى بنود المعاهدة التى لم يغب ذكرها عن الاذهان يرى أنها نزعت من يد الباب العالى جميع الامارات التى كان له عليها حق السيادة وأخذت منه ما يقرب من نصف أملاكه بأوروبا ولم يمض على هذه المعاهدة المشؤمة الا بعض شهور حتى قام أهل كريد مطالبين بما خصهم به مؤتمر برلين من النظامات فعينت الدولة المشير الغازى أحمد مختار باشا فذهب الى تلك الجزيرة ونظم المعاهدة المعروفة فى التاريخ بمعاهدة هلبيه (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٨) وصدر أمر مولانا السلطان بانفاذ ما احتوته تلك المعاهدة ثم قام اليونان وأهل الجبل الاسود يطالبون الدولة بما منحهم المؤتمر المذكور ولما أرادت الدولة انفاذ ذلك عارض أهالى البانيا الان تتنازل الدولة عن قطعة من أراضيهم مضر جدا بصالحهم وهى معارضة حقة لو أعارتها أوروبا جانب الالتفات ولما أرسلت الدولة المشير محمد على باشا مأمورية اقناع الاهالى وتسكين اضطرابهم واعلامهم بأنه لا بد من اجراء ما أقرت أوروبا على عمله وأن الدولة لولا ذلك لم تفرط فى شبر أرض من بلادها قام الاهالى عليه وقتلوه وعند ذلك أرسلت انكلتره وفرانسا والروسيا والنمسا وايطاليا والمانيا حتى اليونان مراكبهم الحربية الى مياه الدولة ورست تلك الاساطيل بثغر راغوزه وبذلك تم لليونان وأهل الجبل الاستيلاء على ما خصهم من الاراضى

واعلم انه بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الدولتين عقدت الدولة العثمانية مجلسا حربيا لمحاكمة جميع القواد الذين أهملوا أو تهاملوا وأخلوا بواجباتهم العسكرية ونفت منهم كثيرين من بينهم المشير سليمان باشا وجرد البعض من رتبهم ونياشينهم وبرئت ساحة البعض ومن الحوادث المهمة الجديرة بالذكر التى حدثت بالاستانة وقت احتلال الروس لضواحيها الحادثة المعروفة بحادثة چراغان وسببها ان شخصا يدعى على سعاوى أفندى أحد الذين كانوا فروا زمن المرحوم السلطان عبد العزيز من الاستانة مع مصطفى فاضل باشا (١٢٨٢ ﻫ) وكان فصيح اللسان قوى الجنان له

مشاركة

مشاركة حسنة في كثير من العلوم و بعض اللغات لاسيما اللغة العربية وكان لما عاد الى الاستانة بوساطة مدحت باشا عين مديرا المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أولاد الحضرة الفخيمة السلطانية ولما عزل لتداخله في الامور السياسية أخذ في بث الفتن كعادته ودبر مكيدة لاجلاس السلطان مراد على عرش الخلافة وقد انتهز لذلك فرصة اشتغال الدولة بالمخابرات السياسية واضطراب الافكار وخوف الناس من تقدم الروس نحو الاستانة واتفق لذلك مع بعض المهاجرين الذين التجؤا الى الاستانة في ذلك الوقت و بعد أن اجتمعوا انقسموا الى قسمين قصد قسم منهم بحرا سراى چراغان حيث يقيم السلطان مراد وقصد القسم الثاني وكان يقوده على سعاوى المذكور السراى المذكورة برا ثم اجتمعوا عند باب السراى ولما منعهم الحراس قتلوهم ودخلوا يفتشون على السلطان مراد حتى عثروا عليه وهموا باخراجه وفي تلك الاثناء أتت فرقة عسكرية من سراى يلدز وحاصرت الثائرين برا كما حاصرتهم البحارة بحرا وهجموا على السراى وقتلوا كل من بها من الثائرين ومن ضمنهم على سعاوى أفندى و بعد ذلك نقل السلطان مراد وعائلته الى قصر ضمن سراى يلدز ثم هدأت الافكار وعادت الاعمال الى ما كانت عليه و بعد ذلك بأيام حصل حريق هائل بالباب العالي و يقال انه بفعل أرباب تلك الثورة انتقاما لما أصابهم من الخذلان

أما بقية الحوادث التي أصيبت بها الدولة بعد الضعف الذي اعتراها من معاهدة برلين مثل استيلاء الفرنساوية على تونس فقد تقدم الكلام عليها في تاريخها أما احتلال الانكليز للقطر المصري فسيأتي الكلام عليه في تاريخ مصر و بعد أن تفرغت الدولة العثمانية من مشاكل الحرب وما والاه بنود مؤتمر برلين من الصعوبات اهتمت بتحسين الحالة العسكرية خصوصا والمالية والادارات ونظرت كذلك في سبب مقتل المرحوم السلطان عبد العزيز خان فشكلت لذلك محكمة خصوصية أحالت عليها محاكمة المتهمين علانية و بعد مرافعات طويلة أصدرت أحكاما متفاوتة في الشدة وحكمت على بعضهم بالاعدام الا أن مولانا السلطان بماله من الحقوق أبدل حكم الاعدام بالنفي المؤبد وكان من الذين حكم عليهم بالنفي المؤبد مدحت باشا وغيره مما هو معلوم لقرب عهده

ولما كان موضوع كتابنا هذا ذكر المحاربات البحرية بنوع أخص كما يشعر به اسمه رأينا من اللازم أن نذكر فيما يأتي الادارة البحرية العثمانية بجميع فروعها وما للدولة من السفن الحربية والنقلية على اختلاف أنواعها ومقاساتها وقوتها وغير ذلك ثم نعقبه بذكر القوى الحربية البرية التي يمكن لدولتنا العلية أن تجندها وقت الحرب والسلم مستعينين في ذلك بما ورد في أشهر وأصدق المؤلفات والنشرات العثمانية والاجنبية فنقول

الفصل الرابع عشر

(الادارة البحرية وحالتها الحاضرة والقوة البحرية)

اعلم أن الادارة البحرية الآتي الكلام عليها في الدولة العثمانية صارت بما أدخل فيها من التحسينات والترتيبات مؤلفة على الطريقة المذكورة بعد

قسم مجلس شورى البحرية — يتركب من فريقين وستة ميرالايات واثنين برتبة قائمقام وباشكاتب وكاتب ثانى وهذا المجلس يتداول وينظر فى كافة الطلبات التى تلزم للاساطيل ولباقى السفائن الحربية ولدار الصناعة ويقرر ما يوافق منها

قسم النظام البحرى — وهو تحت رياسة ناظر البحرية وله وكيل برتبة لواء وبه ثلاثة ميرالايات وقائمقام واحد وبكباشى واحد وكاتب وهذا القسم ينظر فى كافة ما يلزم للنظام فى البحرية العثمانية

قسم اركان حرب البحرية — وهو تحت رياسة فريق أى فيس أميرال وبه قائمقام واحد وبكباشى واحد واثنين برتبة الصاغقول أغاسى وثلاثة برتبة قول أغاسية ثوانى وأربعة يوزباشية وملازم واحد وثلاثة كتبة وهذا القسم ينظر فى كافة الاعمال الحربية وما يختص بنظامات الحرب البحرى بالمدرعات وخلافها

قوميسيون الفن — وهو تحت رياسة ناظر البحرية مباشرة وله وكيل برتبة لواء وبه ميرالاى واحد واثنين برتبة صاغقول أغاسية واثنين يوزباشية وملازم واحد وكاتبان وهذا القوميسيون منوط بالبحث فى كافة ما يلزم للفن الحربى البحرى ويجلب جميع المؤلفات المستجدة فى هذا العلم من اوروبا ويستخرج منها ما يلزم للتعليمات والترقيات الفنية بالاساطيل العثمانية وينشر الرسائل العلمية والنظامات المحتوية على التعاليم والقوانين وخلافها ويصدر أيضا جريدة بحرية أسبوعية تحتوى على كافة حوادث أساطيل الدول الاجنبية وما يحصل فيها من مناورات ومستجدات واكتشافات وما أشبه ذلك ويصدر أيضا رسالة شهرية فى الفنون الحربية والعلمية البحرية لكافة ضباط الاساطيل العثمانية

قوميسيون الاصلاحات والتدقيق والمحاسبة — وهو تحت رياسة ناظر البحرية أيضا ويتشكل من ميرالاى بحرى واثنين برتبة قائمقام وصاغقول أغاسى واحد وستة كتبة وينظر فى جميع ما يختص الاصلاحات البحرية والتدقيق والمحاسبة العمومية

قومندانية الليمان — وهى تحت رياسة ناظر البحرية وقومندانها الثانى برتبة لواء أى كونترامیرال ومعه ميرالاى وصاغقول أغاسى واحد وستة كتبة وهذا القسم عبارة عن أميرالية دار الصناعة وله النظر والرياسة على كافة السفن والاساطيل التى تكون بدار الصناعة لاصلاحها وادارة الشؤن المختصة بها

قسم مامور الترسانة — ورئيسه برتبة فريق أى فيس أميرال وبمعيته أربعة كتبة وهو منوط بملاحظة الامور المختصة بدار الصناعة العامرة بالاستانة

الهيئة الطبية البحرية — وهى تتركب من طبيب برتبة فريق كرئيس وثلاثة أطباء برتبة لواء وأربعة ميرالايات وقائمقام واحد كاعضاء ينظرون ويبحثون فى كافة ما يختص الصحة البحرية والاساطيل ويقررون ما يلزم لها السير عليه قسم الادارة الصحية البحرية الذى يكون تحت رياسة ميرالاى طبى وقائمقام وصاغقول أغاسى أطباء ويوزباشى صيدلى بصفة أعضاء ويختص هذا القسم بادارة الامور الصحية البحرية عموما

قسم المهمات الحربية البحرية — وهو تحت رياسة أحد الميرالايات البحرية ومعه قائمقام واثنان

برتبة

برتبة صاغقول أغاسى وكاتبين وهو منوط بادارة عموم المعدات الحربية اللازمة للدوارع والاساطيل فى فروع البحريه عموما

المجلس الحربى البحرى — وهو يتشكل تحت رياسة ميرالاى وأعضاؤه واحد برتبة قائمقام واثنان برتبة بكباشى وثلاثة برتبة صاغقول أغاسى وكاتب وهو الذى يحاكم كل من يحال عليه من المذنبين ويؤدى أحد أعضائه برتبة القول أغاسى وظيفة المدعى

قوميسيون الطوربيدو — وهو تحت رياسة أحد القائمقامات وبه اثنان برتبة بيكباشى وثلاثة برتبة صاغقول أغاسى وأربعة يوزباشية بصفة أعضاء وكاتبان وهو المنوط بالاعمال المختصة بالالغام البحريه ومايتبعهما من الآلات والأدوات الكهربائية وينظر ويقرر جميع التعليمات والاصلاحات والتمرينات اللازمة لسفن الطوربيدو ورجاله ويتبع هذا القوميسيون ستة ضباط بين يوزباشية وملازمين كمعاونين له ولفن الطوربيدو قسم آخر منوط بالرسم حيث يرسم فيه كافة ما يلزم للالغام البحريه والاعمال اللازمة لها وهو تحت نظارة صاغقول أغاسى ويرفقته مهندس ميكانيكى ويوزباشى وملازمان

قوميسيون الاعمال — وهو تحت رياسة أقدم الفرقاء بالبحريه وأعضاؤه فريق آخر ولواء واثنان برتبة الميرالاى وثلاثة برتبة قائمقام وبيكباشى واحد وينظر هذا القوميسيون فى كافة الاعمال العمومية التى تجرى بدار الصناعة من انشاء السفائن وعمل الآلات البخاريه والقزانات الانبوبية وما أشبه ذلك ويتبع ذلك قوميسيون آخر يدعى بقوميسيون الانشاء تحت رياسة قائمقام وبه بيكباشى واحد واثنان برتبة القول أغاسى وكاتب ويختص بما يصنع من السفن الحربية وما أشبه ذلك من الانشاآت كالزوارق والصنادل وخلافها وله قسم آخر يدعى بقلم رسم الانشاآت البحريه تحت رياسة ميرالاى وهو الرسام الاول به ومعه بيكباشى وصاغقول أغاسى كمعاونين له ويوزباشى وثلاثة رسامين برتبة ملازم وفى هذا القسم ترسم المشروعات اللازمة للانشاء

قوميسيون الفابريقات — وهو تحت رياسة قائمقام ومعه قائمقام آخر وثلاثة بكباشية واثنان صاغقول أغاسيه وكاتب وهذا القوميسيون ينظر فى كافة الاعمال التى تجرى بالفابريقات ويتبع هذا القوميسيون قوميسيون آخر للرسم وهو تحت رياسة ميرالاى مهندس بحرى ومعه ثلاثة قول أغاسيه وخمسة يوزباشية وعشرة ملازمون أوائل وأربعة ثوان وهو يتولى رسم كافة الآلات والمشروعات المقتضى صناعتها بالفابريقات

فابريقات دار الصناعة بالاستانة — اعلم أن هذه الفابريقات هى الآتية بعد وجود بدار صناعتى ازميد وسوده بجزيرة كريد فابريقتان أخريان يصنع فيهما جميع ما يلزم للسفن من التعميرات وخلافها وقوة فابريقة الاولى ١٥ حصان بخارى وقوة فابريقة الثانية ٢٥ حصانا أما معامل دار صناعة الاستانة وقوتها البخاريه فهى كما يأتى

أسماء الفابريقات	حصان بخارى	قطر الاسطوانة	الاسطوانة والاسترك	عدد الاسطوانات	أسماء الفابريقات	حصان بخارى	قطر الاسطوانة	الاسطوانة والاسترك	عدد الاسطوانات
		پوصه انجليزى	پوصه انجليزى				پوصه انجليزى	پوصه انجليزى	
فابريقة التحميرات	٢٥	١٨	٢٤	١	فابريقة الحديد القديمة	١٠	٧	١٢	٢
« الاعمال الجديدة	٤٠	٩٠	٤٨	١	فابريقة المخرطة	٩	١٠	٢٠	١
« القزانات	٢٥	١٨	٢٤	١	فابريقة الاحبال	٥٠	٢٣	٤٢	٢
« الحدادخانه	١٢٥	٤٥	٦٠	١	عدة الماجولة أى العيار	٢٠	١١	١٤	٢
« الدستكاه والمطرقة	٢٥	١٨ $\frac{1}{2}$	٣٠	١	عدة فابريقة الحوض وفيها الصنائع	٢٥	١٨	٤٨	١
« النحاس	٢٥	٢٧ $\frac{3}{8}$	٤٠	١	فابريقة البكرات	٢٥	١٨	٤٨	١
« الدكمخانه أى الصب	٢٥	١٨	٢٤	١	عدة الحوض الكبير وفيها الصنائع أيضا	١٠٠	٣٠	٦٠	٢
« القزاق القديم	٦٠	٣١	٣٦	١	فابريقة الكهرباء المستجدة	..	..	..	..
آلة الدستكاه	٥٠	١٨	٢٤	٢	« المدافع الجسيمة الحربية	..	..	..	..
فابريقة الانشاء	٢٥	٢١ $\frac{1}{2}$	٢٦	١	« المطرقة المستجدة	..	..	..	..

و يتبع قسم الادارة البحرية قومسيون المعاينة وهو تحت ادارة أحد البكباشية واثنين برتبة صاغقول أغاسى وكاتب وقومسيون آخر لتوزيع المعينات تحت ملاحظة بكباشى ومعه اثنا عشر كاتبا وقومسيون السوقيات أى التسفيرات وهو تحت ملاحظة أحد الصاغقول أغاسية ومعه اثنان برتبة يوزباشى وكاتب و يتولى هذا القومسيون تسفير العساكر المتأخرة أو المستجدة الى جهاتها والمعدات التى تلزم للسفائن الموجودة بالمأموريات فى مياه الدولة أما العنابر الموجودة فى دار الصناعة العامرة بالاستانة فهى

عنبر الملابس
عنبر الفلايك
عنبر المهمات العمومية
عنبر التعيينات
عنبر البويات
عنبر المهمات الحربية
عنبر البكرات
عنبر القلوع
عنبر القلفطية والبرغوجية

عنبر الترزية
عنبر الكرستة أى الاخشاب
عنبر النجارين الدقيين
عنبر البراميل والدلاء
عنبر الارغاد والدومان
عنبر الزفت والقطران
مخزن السوارى والسرينات
عنبر البصلات والمساطر
مخزن الاحطاب

مخزن الفحومات
فرن الجراية والسلخانة
عنبر التفنكخانه
عنبر الصفائح
عنبر الحدادين
عنبر النقاشين
عنبر الطربيدو
عنبر الطلومبات والخراطيم

أما فابريقة الفشنكخانه البحرية فهى تحت نظارة ميرالاى بحرى و برفقته بكباشى وأربعة

قول

قول أغاسية واثنان يوزباشيه وهذه الفابريقة تصنع الفشنكات اللازمة لعموم الاسلحة النارية الموجودة بالاساطيل وفروع البحرية ويتبع ذلك صناعة الافواه النارية كالسواريخ الحربية والسواريخ العادية والماهتابات وخلافها

المطبعة البحرية — وهي تحت نظارة أحد الملكيين برتبة متمايز ومعه ثمانية عشر موظفا من صنايعية وخلافه ويطبع فيها جميع القوانين والنظامات والتعليمات والفنون البحرية والجريدة البحرية والرسائل العلمية الشهرية وأوامر الدونتما وكافة الأورانيك التي تلزم للدوارع والاساطيل والادارة البحرية ودار الصناعة ويطبع فيها أيضا دفاتر عموم البحرية والاساطيل الشهرية والسنوية وجرنالات السفن أما أقلام نظارة البحرية فتتركب كالآتي

قلم شورى البحرية — به أحد وعشرون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره متمايز
« دائرة النظام — به تسعة وعشرون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
« الحسابات الجارية — به اثنان وثلاثون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة أولى صنف ثاني
« الحسابات المركزية — به سبعة عشر موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
« المراجعة البحرية — به أربعة وثلاثون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
« التحريرات البحرية — به خمسة عشر موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
« الاوراق العمومية — وبه تسعة عشر كاتبا من ذوي المراتب ومديره برتبة ثانية متمايز
« الموازين البحرية — وبه ستة كتبة من ذوي المراتب ورئيسه برتبة ثانية متمايز
« الجرنال — وبه تسعة موظفون ملكيون من ذوي المراتب ورئيسه برتبة ثانية صنف ثاني
« المصالح المتداخلة — وبه عشرة موظفون برتب مختلفة ورئيسه برتبة ثانية صنف ثاني

وهناك خلاف الاقلام المذكورة فروع صغيرة كقسم السجلات وقلم المحفوظات وقلم دار الصناعة وقلم الترجمة وقلم البوستات والتلغرافات وقلم الخدمة السائرة

ولناظر البحرية مكتوبجي برتبة أولى صنف أول ومحاسبجي برتبة أولى صنف ثاني

نظارة معادن الفحم — وهي تابعة للادارة البحرية ورئيسها مهندس ميكانيكي برتبة لواء وله قلم تحريرات على حدته به ثلاثة كتاب ويتبعه قومسيون المعادن وهو تحت رياسة أحد القائمقامات وأعضاؤه بكباشي وثلاثة صاغقول أغاسيه وخمسة يوزباشيه وكاتبان

المدارس البحرية — وهي تنقسم الى جملة أقسام قسم المهندسين البحرية وهم أركان حرب البحرية وقسم فن الميكانيكا وقسم المدرسة البحرية التجارية والجميع تحت نظارة أحد لواآت الحزبية البحرية ومعه قائمقام ناظر للدروس وقائمقام معلم للرسم والمناظر وقائمقام طبيب وثلاثة بكباشيه وثلاثة صاغقول اغاسية وخمسة صولقول اغاسية وستة عشر يوزباشي وثلاثة ملازمون كلهم مدرسون وضباط ولها أيضا امام وكاتب حسابات وكاتب تحريرات وأربعة كتاب حسابات ومطبعجي لطبع كراريس التدريس ومايلزم للتلامذة ومأمور أدوات أي مخزنجي ولكنه من الضباط وأجزجي وعدد التلامذة لاينقص عن ٣١٠ تلامذة والعلوم الجاري تدريسها في المدرسة البحرية هي

لغة أجنبية ورياضة ومثلثات كروية وحساب المثلثات المستقيمة والجبر والهندسة الرسمية وتاريخ البحرية وفن الملاحة وفن رسم خرائط البحار وفن سير السفائن وفن الهيئة أى الفلك وفن البحرية وفن الحرب البحرى وفن الاشارة والفتوغرافيا أى التصوير الشمسى وفن الالات أى الميكانيكة وفن انشاء السفن ثم اللغة التركية وفروعها وفن الانشاء والتحريرات

ويوجد فرع آخر تابع للمدرسة البحرية يسمى بالمدرسة التجارية النهارية وهو منوط بتعليم ملاحى سفن التجارة العثمانية فن سير السفن واستعمال الخريطات وعلم الملاحة والقصد من هذه المدرسة نشر المعارف البحرية عند عموم رجال الملاحة بالدولة لتوسيع نطاق التجارة البحرية وللمدرسة البحرية مدرسة أعدادية لها مدير برتبة صاغقول أغاسى وخمسة مدرسون وأربعة يوزباشيه وملازمان مدرسون أيضا وبها أربعة كتبة وضابط برتبة يوزباشى وتحضر هذه المدرسة الابتدائية تلامذة المدرسة البحرية الحربية العالية المتقدمة الذكر ويتبع المدرسة العالية ثلاث بوارج وهى فرقاطة محمد سليم وهى مدرسة للتمرين البحرى وفرقاطة مخبر سرور وهى مدرسة لتعليم فن التوربيدو وفرقاطة السليمية وهى مدرسة لتعليم فن الطوبجية البحرية أما عدد رجال البحرية العثمانية العاملين فى الادارة وفى السفائن بحسب الوارد فى السالنامة البحرية العثمانية فهو كالآتى

عدد	
١	ناظر البحرية ورتبته مشير وهو أيضا الاميرال الاول
٢	برتبة مشير وهما من ياوران الحضرة السلطانية
٩	برتبة فريق أى فيس أميرال بعضهم من ياوران الحضرة السلطانية وبعضهم بالادارة بالترسانة العامرة
٤	برتبة فريق أطباء بحرية
٣	برتبة فريق مهندسو انشاآت وآلات ميكانيكيه
٦	برتبة لواء أى كونتراميراليه
٤	برتبة لواء أطباء
٤	برتبة لواء مهندسو انشاآت وآلات ميكانيكيه
٢٤	ميرالاى أى قبودان فيسو منهم ٦ سواريان بالمدرعات والباقون فى الادارة البحرية
٥	ميرالايات أطباء
١٠	برتبة أميرلواء مهندسو ميكانيكه
٧٢	

عدد	
٧٢	ماقبله
٤	ميرالايات مهندسو انشاء سفن
٢	ميرالايات صنايعيه
٣٧	قائمقام بحرى منهم ١٣ سواريان بالمدرعات واثنان برتبة قومودور أحدهما فى أسطول بروزه والثانى بفرقة البحر الابيض والباقى فى الادارة البحرية
١٥	قائمقام أطباء بعضهم بالسفن
١٨	قائمقام مهندسو ميكانيكيه منهم ٨ بالبوارج والباقون بدار الصناعة وبالفروع البحرية
٢	برتبة قائمقام مهندسو انشاء السفن
٢	برتبة قائمقام صنايعيه
٨٢	بكباشى أى قبودانات فراقيط منهم ٢٢ بالبوارج الحربية و ٨ بوابورات الشركة المخصوصة والباقى بالادارة البحرية وفروعها
١٠	بكباشية أطباء بعضهم بالسفن
٢٤٤	

عدد

عدد	
٢٤٤	ماقبله
٤٨	بكباشي مهندسو ميكانيكه منهم ١٧ بالبوارج الحربية والباقي بالفروع
٣	بكباشيه مهندسو انشاء السفن
١١	بكباشي بقسم الصنائع البحرية
٤	أئمة الايالات بحرية
١٤٠	صاغقول أغاسي قبودانات قراويت بعضهم بالبوارج الحربية والبعض بوابورات الادارة المخصوصة والباقون بالادارة البحرية
١١	برتبة صاغقول أغاسي أطباء بحرية
٦٥	صاغ مهندسو مكانيكه منهم ٣٦ بالبوارج الحربية و بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة وفروع البحرية
٧	برتبة صاغ مهندسو انشاء سفن بدار الصناعة
٢١	برتبة صاغ صنايعية شرحه
١٠	أئمة صنف أول
٢١٤	صولقول أغاسي منهم ٦٣ بالبوارج الحربية و ١٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفروع البحرية والادارة
١٧	صولقول أغاسي أطباء بالسفن والفروع
١٣٢	صولقول أغاسي ميكانيكيون منهم ٦٥ بالبوارج الحربية و ٦ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة وفروع البحرية
٦	برتبة صولقول أغاسي مهندسو انشاء السفن بدار الصناعة
٩٤٣	ماقبله

عدد	
٩٤٣	ماقبله
٤٠	صولقول أغاسي صنايعية بالورش والعنابر
٤٥	كاتبا بالغلايين والبوارج الحربية وخلافها
١٩	اماما صنف ثاني بالبوارج الحربية
٢٤٨	يوزباشي منهم ١٤٦ بالبوارج الحربية و ١٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفروع البحرية
٢١	يوزباشي أطباء بالبوارج الحربية والاسبتاليات البحرية
٢٣٨	يوزباشي مهندسو ميكانيكة منهم ١٢٥ بالبوارج الحربية و ٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفابريقات دار الصناعة والفروع البحرية
٧	يوزباشية مهندسو انشاء السفائن
٧٤	يوزباشي صنايعية منهم ٣١ بالبوارج الحربية و ٣ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة
٦٥	كاتب قرويط منهم ٢٣ بالدوارع والباقون بالفروع البحرية
٨	أئمة صنف ثالث جميعهم بالدوارع
١٨٠	برتبة ملازم أول منهم ١٢٣ بالدوارع البحرية و ٣ بوابورات الادارة المخصوصة والباقون بالفروع
٢	كذلك أطباء بالاسبتالية
٢٧٨	كذلك مهندسو ميكانيكه منهم ١٤٦ بالدوارع البحرية و ٤ بوابورات الادارة المخصوصة والباقون بالفابريقات بدار الصناعة والفروع البحرية
٦	كذلك مهندسو انشاء سفن
٢٥	كذلك صنايعية
٢١٩٩	

عدد	
٢١٩٩	ماقبله
٩٣	كاتب قرويط منهم ٤٠ بالدوارع والسفن الحربية والباقون بالفروع البحرية
١٥	امام صنف رابع
٧٥	برتبة ملازم ثانى منهم ٣٦ موظفون بالدوارع البحرية و ٢٩ تحت التمرين بفرقاطة محمد سليم المعدة للمدرسة البحرية والبعض بفرقاطة مخبر سرور للتمرين فى فن الطوربيدو أى الالغام البحرية
١٦	برتبة ملازم ثانى مهندسو ميكانيكة
٩	كذلك مهندسو انشاء
٥	كذلك صنايعية
١٣٤	كاتب اربيق منهم ٨٩ موظفون بالدوارع والسفن الحربية و ٥ بوابورات الادارة المخصوصة والباقى بفروع البحرية
٢٥٤٦	

عدد	
٢٥٤٦	ماقبله
	(أنفار عسكرية بالبلوكات الآتى ذكرها)
٦٥٠	بيلوكات الصنايعية
٤٦٢	بمعدن فحم اركلى التابع لادار الصناعة
٩٠	بترسانة البصرة
٦٠	بترسانة سينوب
٤٠	بترسانة ازميد
٢٠	بترسانة السودة بجزيرة كريد
٥٥	بترسانة كمليك
٢٨٦٢٣	ملاحون وطوبجية بالسفن الحربية
٩٦٥٠	عسكر البيادة البحرية
٤٢١٩٦	

(ضباط موجودون بالاستيداع كاحتياطى)

ميرألاى	٤
صاغات	٢٠
صولقول أغاسية	٣٢
يوزباشى	٢٨
ملازمين أول	٢٩
قلاغوز	١٨
	١٣١

أما الضباط والكتبة والمأمورون الموظفون بالمرافئ العثمانية و بوابورات الادارة المخصوصة و بالسفارات كمأمورين بحريين و بمأموريات أخرى فهم وان كانت أسماؤهم واردة ضمن العدد المذكور من قبل بالسالنامة البحرية الا أنهم يستولون مرتباتهم من ميزانيات الجهات التابعين هم لها أما ترقياتهم فهى بحسب أقدميتهم كالوارد بجداول ضباط البحرية لان المصالح المذكورة تعد من الفروع البحرية المنفردة أما القوة الموجودة بالاساطيل والسفن الحربية فهى من ضمن مجموع العدد المذكور وهى واردة بالتقاويم الاوروباوية البحرية بعدد يختلف قليلا عن التعداد الرسمى الآتى بيانه

عدد	
٦	أميرالات برتبة فريق يترأسون على السفن وقت حركة الاساطيل والآن يقومون بالادارة فى الترسانة العامرة كما سبق ذكره
١١	كونترامیرال جميعهم برتبة لواء
٢٥	ميرالاى وقائمقام سوارىان بالمدرعات وهم قبودان فيسو درجة أولى ودرجة ثانية
٤٢	

عدد	
٤٢	ماقبله
٢٢	بكباشى قبودانات فراقيط ووظائفهم سواريان بالدوارع
٤٠	صاغقول اغاسى قبودانات قراويت البعض مفردات أى ايكنجى قبودان
٢٠٩	صولقول اغاسية ويوز باشية واردين بالتقاويم الاوروباوية باسم يوز باشية فيسو
١٦٥	ملازم أول وثوانى واردين بالتقاويم الاوروباوية باسم (ضباط ومهندسون ميكانيكية لادارة الآلات البخارية بالدوارع)
٥٣	باشمهندس برتب ميرالايات وقائمقامات
٦٣	مهندس درجة أولى بكباشية وصاغات
١٢٥	مهندس درجة ثانية صولقول اغاسية وخلافه
١٤٦	مهندس درجة ثالثة يوز باشية وملازمين
٦٣	ضباط أطباء برتب مختلفة
٦٠	امام من ثلاث طبقات موزعون بالسفائن حسب جسامتها
٣١	ضابطا صنائعية من رتب مختلفة
١٩٧	كاتبا من درجات كتاب قليون وفرقاطة وقرويت وابريق
٢٨٦٢٣	كدكليان أى صف ضباط ونفرات بحرية وطوبجية للدوارع نصفهم موجود تحت السلاح والنصف الآخر تحت الطلب
٩٦٥٠	عسكرى بيادة بحرية للخفر وللمدافعة بالدوارع موجود منهم ستة آلاف تحت السلاح والباقى تحت الطلب
٣٩٤٤٧	

جداول أسماء وأبعاد المدرعات والبواخر والطرادات الحربية العثمانية لغاية ١٨٩٦ ميلادية حسب الوارد بالتقاويم البحرية الاوروباوية ومطبقا على الوارد بالسالنامة البحرية العثمانية

بيان الاصطلاحات الموجودة بالجداول الآتية

صلب	ص	فرقاطه	فر
صلب وحديد وخشب	ص ح خ	رجل	ر
معدن الومينيوم	الوم	متر أمتار	متر
خشب	خ	مواد أدوات	م اد
مركب	م	أدوات مخصوصة	ادمخ
على القزاق	قز	عدد	عد
حصان معين	ح م	ممشى	مم
حديد	ح	تحت التصميم مشروع فيه	تح تص
حديد وصلب	ح ص	ملجأ الوسط	مل و س
حديد وصلب وخشب	ح ص خ	الطريقة المائية	طرما
حديد خشب	ح خ	طونيلاطه	طن
سنتيمتر	سنت	ب	بوصه

سفن مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها للبحر	التكنه: نوع المعدن	التكنه: طول	التكنه: عرض	التكنه: ارتفاع	التكنه: حموله	الآلة: قوة الحصان البخارى	الآلة: سرعه	الآلة: رفاس	الآلة: مقدار خزن الفحم	سمك الدرع: حزام الوسط	سمك الدرع: البطرية أو الجها	سمك الدرع: الابراج	سمك الدرع: القطوع أو الحاجز العرضى	سمك الدرع: الكوبرى	مدافع من صنف الكروب والارمسترونغ — ا تدل على الارمسترونغ، ك تدل على كروب، ع ص تدل على عيار صغير، م تدل على متراليوز	أنابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	مليمتر	مليمتر	مليمتر	مليمتر	مليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
	مدرع ذو ملجأ أوسطى																		
*	آثار توفيق	١٨٦٨	ح	٨٦	١٦	٦٫٥٠	٥٫٦٨٧	٣٫٥٦٠	١٣٫٣	١	٤٠٠	٢٠٠	١٢٠	١٥٠	١٠٢	٠٠	(٨) ٢٤ سنت ك (٥) ع ص (٨) م	٠٠	٦٠٠
	حميديه	١٨٨٥	ح	٨٩	١٧	٧٫٦٠	٧٫٩٣٠	٦٫٨٠٠	١٣٫٥	١	٦٠٠	٢٢٩	١٢٧	٠٠	٠٠	٧٦	(١٠) ٢٦ سنت (٢) ١٧ سنت ك (٦) ع ص (٢) م	٠٠	٦٠٠
	مسعوديه	١٨٧٤	ح	١٠١	١٨	٧٫٦٠	٩٫١٤٠	٧٫٩١٠	١٣٫٥	١	٦٠٠	٣٠٥	٢٢٩	٢٠٣	١٥٢	٢٥	(١٢) ١٠ ا ب (١٨ طن) ا (٣) ١٥ سنت ك (٦) ع ص (٨) م	٠٠	٦٠٠
	مدرع ذو أبراج																		
١	على هيئة سفينة فرنسا المسماة هوش	جارى صناعتهما	س	٢٠١	٢٠	٨٫٣٠	١٠٫٦٥٠	١١٫٣٠٠	١٧٫٠	٢	٨٠٠	٤٥٠	٠٠	٣٥٠	٠٠	٨٠		٠٠	٠٠
١	« « «		س	٢٠١	٢٠	٨٫٣٠	١٠٫٦٥٠	١١٫٣٠٠	١٧٫٠	٢	٨٠٠	٤٥٠	٠٠	٣٥٠	٠٠	٨٠		٠٠	٠٠
	مدرع ذو بطاريه و برج																		
*	عزيزيه (أصلحت على الطرز الجديد فى سنة ١٨٩٤)	١٨٦٤	ح	٨٩	١٧	٧٫٨٠	٦٫٤٠٠	٣٫٧٣٥	١٢٫٠	١	٧٥٠	١٣٣	٥٠	١٣٠	١١٤	٠٠	(١١) ١٥ سنت ك (١٤) ٨ ا (١) ٢٤ سنت ك (٤) ع ص (١٠) م	٠٠	٦٠٠
*	محموديه	١٨٦٤	ح	٨٩	١٧	٧٫٨٠	٦٫٤٠٠	٣٫٧٣٥	١٢٫٠	١	٧٥٠	١٣٣	٥٠	١٣٠	١١٤	٠٠	» »	٠٠	٦٠٠
*	أورخانيه	١٨٦٥	ح	٨٩	١٧	٧٫٨٠	٦٫٤٠٠	٣٫٧٣٥	١٢٫٠	١	٧٥٠	١٣٣	٥٠	١٣٠	١١٤	٠٠	» »	٠٠	٦٠٠
*	عثمانية	١٨٦٤	ح	٨٩	١٧	٧٫٨٠	٦٫٤٠٠	٣٫٧٣٥	١٢٫٠	١	٧٥٠	١٣٣	٥٠	١٣٠	١١٤	٠٠	» »	٠٠	٦٠٠
	قراويط																		
*	آثار شوكت	١٨٦٨	ح	٦٢	١٢	٥٫٣٠	٢٫٠٤٦	١٫٧٥٠	١١٫٣	٢	٣٠٠	١٥٠	١٢٠	١١٤	١١٤	٠٠	(١) ٩ ب ا (٤) ٨ ب ا (٢) ع ص (٥) م	٠٠	٢٢٠
*	عون الله	١٨٦٩	ح	٦٩	١١	٥٫٠٠	٢٫٤٤٠	٢٫٢٠٠	١١٫٠	٢	٢٢٠	١٥٢	١٥٢	٠٠	١٢٧	٣٨	(٤) ٨ ب ا (١) ١٢ سنت ك (١) ع ص (٦) م	٠٠	٢٢٠

تنبيه * كل سفينة حربية وضعت عليها هذه العلامة ليست من نوع المدرعات الحديثة وعدد المدافع هو العدد الموجود بين قوسين ( )

سفن مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	التكنة: نوع المعدن	التكنة: طول	التكنة: عرض	التكنة: ارتفاع	التكنة: حموله	الآلة: قوة بالحصان البخاري	الآلة: سرعه	الآلة: رفاس	الآلة: ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	الدرع: البطريه أو المجا	الدرع: الابراج	الدرع: القطوع أو الحاجز العرضي	الدرع: الكوبري	مدافع من صنف الكروب والارمسترونغ أ تدل على الارمسترونغ ك تدل على كروب ع ص تدل على عيار صغير م تدل على متراليوز س ض تدل على سريع الضرب من المدافع	أنابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
*	فتح بلند	١٨٧٠	ح	٧٢	١٢	٥٫٥٠	٢٫٧٦٠	٣٫٢٥٠	١٣٫٠	١	٣٠٠	٢٢٩	١٥٢	٠٠	١٤٠	١٣	(٤) ب ٩ أ (٢) ١٢ سنتيمترك (٢) ع ص (٤) م	١	٢٢٠
*	اجلاليه	١٨٧٠	ح	٦٥	١٣	٥٫٣٠	٢٫٢٢٨	١٫٨٠٠	١١٫٠	١	٣٠٠	١٥٢	١٢٠	١١٤	١٤٠	١٣	(٢) ب ٩ أ (٣) ب ٧ أ (٨) م	٠٠	٢٢٠
*	معين ظفر	١٨٦٩	ح	٦٩	١١	٥٫٠٠	٢٫٤٤٠	٢٫٢٠٠	١٢٫٥	٢	٢٢٠	١٥٢	١٥٢	٠٠	١٢٧	٣٨	(٤) ب ٨ أ (١) ١٢ سنتيمترك (١) ع ص (٦) م	٠٠	٢٢٠
*	مقدمهٔ خير	١٨٧٢	ح	٧٢	١٢	٥٫٥٠	٢٫٧٦٠	٣٫٢٥٠	١٢٫٥	١	٣٠٠	٢٢٩	١٥٢	٠٠	١٤٠	١٣	(٤) ب ٩ أ (٢) ١٢ سنتيمترك (٢) ع ص (٦) م	١	٢٢٠
*	نجم شوكت	١٨٦٨	ح	٦٢	١٢	٥٫٢٠	٢٫٠٤٦	١٫٩٠٠	١١٫٣	٢	٣٠٠	١٥٠	١٢٠	١١٤	١١٤	٠٠	(١) ب ٩ أ (٤) ب ٨ أ (٢) ع ص (٥) م	٠٠	٢٢٠
	عبد القادر } جاري بناؤهما		ص	١٠٤	٢٠	٠٠	٧٫٨٧٠	١١٫٥٠٠	١٧٫٠	٢	٠٠	٣٥٥	٠٠	٠٠	٠٠	٥١	(٤) ٢٨ سنتيمترك (٦) ١٥ سنتيمترك (١٠) س ض	٨	٠٠
	سفينة أخرى مثلها }		ص	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١٨٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠		٠٠	٠٠
	مدفعيات																		
*	هزبر	١٨٧٢	ح	٤٤	٠٩	٢٫٤٠	٠٠٦٢٥	٠٠٤٠٤	٠٧٫٠	١	٢٠	٧٦	٠٠	٠٠	٠٠	٣٢	(٢) ١٥ سنتيمترك (٢) ع ص (٢) م	٠٠	٠٠
	مونيتور أي كشاف أو رائد																		
*	حفظ الرحمن	١٨٦٨	ح	٦٨	١٤	٥٫٧٠	٢٫٥٠٠	٠٠٨٠٠	١٢٫٠	١	٢٠٠	١١٧	٧٦	١٢٧	٧٦	٣٢	(٢) ب ٩ أ (٢) ١٥ سنتيمترك (١) ١٢ سنتيمترك (٦) م	٠٠	٢٠٠
	كشاف نهري																		
*	فتح اسلام	١٨٦٥	ح	٥٣	١٢	٣٫٠	٠٠٣٣٠	٠٠٢٨٠	٨٫٠	١	٢٠	٧٦	٧٦	٠٠	٧٦	١٠	(٢) ١٥ سنتيمترك (٢) ع ص	٠٠	٢٤٥
*	محمد وجيه	١٨٦٥	ح	٥٣	١٢	٣٫٠	٠٠٣٣٠	٠٠٢٨٠	٨٫٠	١	٢٠	٧٦	٧٥	٠٠	٧٦	١٠	(٢) ١٥ سنتيمترك (٢) ع ص	٠٠	٢٤٥
	فرقاطات ذات رفاس																		
*	محمد سليم (مدرسه بحريه)	١٨٧٩	خ	٧٥	١٣	٦٫٠٠	١٫٣٠٠	١٫٨٠٠	١١٫٠	١	٢٥٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(١٤) ١٢٫٥ سنتيمترك (٢) ع ص (٢) م	٠٠	٣١٠
*	مخبر سرور (مدرسة الطوربيدو)	١٨٤٩	خ	٦٦	١٢	٥٫٥٠	١٫٤٧٧	١٫٨٠٠	٩٫٠	١	٢٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٨)	٠٠	٣١٨

سفن غير مدرعه

أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	السفينة: نوع المعدن	طول	عرض	ارتفاع	حموله	الآلة: قوة حصان بخاري	سرعه	رفاس	ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	البطرية أو الملجأ	الابراج	القطوع أو الحاجز العرضي	الكوبري	مدافع من صنف الكروب والارمسترونغ ا تدل على الارمسترونغ ك تدل على كروب ع ص تدل على عيار صغير م تدل على متراليوز س ض تدل على سريع الضرب من المدافع	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
	سنة	معدن	متر	متر	متر	ط ن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
* سليميه (مدرسة للمدافع)	١٨٦٥	خ	٨٨	١٩	٨٫١٠	٤٫٧١٧	٢٫٤٠٠	١١٫٠	١	٣٥٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٤) ب ٨ أ (١٢) ١٥ سنتيمتر ك (٨) ع ص	٠٠	٤٥٠
طرادات درجه أولى																		
خداوندكار } جارى صناعتها		ص	٨٥	١٥	٧٫٠٠	٤٫٠٥٠	٢٫٤٠٠	١٨٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥٠	(٣) ٢١ سنتيمتر ك (٦) ١٥ سنتيمتر ك (٤) ١٠ سنتيمتر ك	٤	٠٠
سليميه		ص	٨٥	١٥	٦٫٥٠	٤٫٠٥٠	٢٫٤٠٠	١٨٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥٠	(٣) ١٧ سنتيمتر ك (٦) ١٢ سنتيمتر ك	٤	٠٠
بدون اسم للآن		ص	٨٢	١٥	٦٫٥٠	٤٫٠٥٠	٢٫٤٠٠	٠٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥٠	(٣) ٢١ سنتيمتر ك (٦) ١٥ سنتيمتر ك (٤) ١٠ سنتيمتر ك	٤	٠٠
بدون اسم للآن		ص	٨٢	١٥	٦٫٥٠	٤٫٠٥٠	٢٫٤٠٠	٠٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥٠		٤	٠٠
طرادات درجه ثانيه																		
فيض باري	قز	ص	٧٠	١١	٤٫٠٠	١٫٦٠٠	٢٫٤٠٠	١٧٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١٢	(٦) ١٥ سنتيمتر ك (٨) س ض	٧	
هيبت نما (مدرسه)	١٨٩٠	ص	٦٩	١١	٤٫٣٠	١٫٩٦٠	٢٫٥٠٠	١٥٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ١٧ سنتيمتر ك (٧) ١٢ سنتيمتر ك	٢	
لطف همايون	١٨٩٢	ص	٦٤	١١	٤٫٣٠	١٫١٦٠	٢٫٢٠٠	١٥٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥٠	(٣) ١٧ سنتيمتر ك (٦) ١٢ سنتيمتر ك	٢	
شاديه	قز	ص	٧٠	١١	٤٫٠٠	١٫٦٠٠	٢٫٤٠٠	١٧٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١٢	(٦) ١٥ سنتيمتر ك (٨) س ض	٧	
طراد طوربيدى																		
بدون اسم ولا نمره	قز	ص	٧٠	٩	٥٫٠٠	٩٠٠	٤٫٥٠٠	١٩٫٠	٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٢) ١٠٫٥ سنتيمتر ك (٦) ٨٫٥ سنتيمتر ك (١٠) م	٤	٠٠
سفن ضد الطوربيدو																		
احمر	١٨٩٠	ص	٤٧	٦	٢٫٢٠	١٢٠	٢٫٥٠٠	١٨٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) ٤٧ ميليمتر	١	٠٠
نعمت	١٨٩٠	ص	٥٧	٦	٣٫٧٠	٢٣٠	٢٫٧٨٠	٢١٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٢) ١٧ سنت (٦) ١٢ سنت س ض	٢	٠٠
شاهين دريا	١٨٩٢	ص	٦١	٧	٢٫٤٠	٤٥٠	٣٫٥٠٠	٢٢٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(١) ١٠٫٥ سنت س ض ك (٦) م	٤	٠٠

سفن غير مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	التكنه: نوع المعدن	التكنه: طول	التكنه: عرض	التكنه: ارتفاع	التكنه: حمولة	الآلة: حصان بخارى	الآلة: سرعة	الآلة: رفاس	الآلة: ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	الدرع: البطرية أو الملجأ	الدرع: الابراج	الدرع: القطوع أو الحاجز العرضى	الدرع: الكوبرى	مدافع من صنف كروب وأرمسترونغ ا تدل على الارمسترونغ ك « كروب ع ص « عيار صغير م « متراليوز س ض « سريع الضرب	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنه	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
	بدون اسم	قز	ص	٧٠	٧	٣٫٨٠	٥٢٠	٢ و٨٠٠	٢٣٫٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٦) ٥٧ ميليمتر س ض	٢	٠٠
	قراويط ذات رفاس																		
*	روسه	١٨٥٩	خ	٥٥	١٠	٤٫٧٠	٨٠٠	٦٠٠	١٠٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(١) ١٥٫ سنت ك (٢) ١٢ سنت ك (٢) ع ص (٢) م	٠	١٥٠
*	أدرنه	١٨٥٩	خ	٥٥	١٠	٤٫٤٠	٧٨٢	٦٠٠	١٠٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » »	٠	١٥٠
*	منصوره	١٨٦٣	خ	٥٥	٩	٤٫٦٠	٨٠٠	٦٠٠	٩٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » » » »	٠	١٥٠
*	مظفر	١٨٦٣	خ	٥٥	١٠	٤٫٤٠	٨٠٠	٦٠٠	١٠٫٠	١	١٥٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » » » »	٠	١٥٠
*	سينوب	١٨٥٩ و ١٨٨٩	خ	٥٣	٩	٤٫٦٠	٨٠٠	٦٠٠	١٠٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٢) ١٥ سنت ك (١) ٥ سنت س ض ك	٢	١٤٨
	مدفعيات طبقه أولى																		
*	بيروت	١٨٥٩ و ١٨٨٩	خ	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	١١٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ١٥ سنت ك (١) ١٥ سنت س ض ك	٢	٨٤
*	اسكندريه	١٨٦٢	خ	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	١٢٫٠	١	١٢٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ١٢ سنت ك (١) ٩٠ ميليمتر ك (٢) م	٠	٨٤
*	مريخ	١٨٦٣	خ	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ١٢ سنت ك (١) ٩٠ ميليمتر ك (٢) م	٠	٠٠
*	سد البحر	١٨٩٥	ص	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » » » »	٠	٨٤
*	عطارد	١٨٦٢	خ	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » » » »	٠	٨٤
*	زحاف	١٨٩٥	ص	٥٥	٨	٤٫١٠	٦٠٩	٦٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	» » » » » » » » »	٠	٠٠
	طبقه ثانيه																		
*	مكا	١٨٥٩	خ	٣٥	٦	٢٫٩٠	٢٠٠	٢٤٠	٧٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ٩٠ ميليمتر ك (٢) م	٠	٠٠
*	فرات	١٨٨٣	م	٣٦	٧	٣٫٠٠	٢٥٠	٢٨٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠		٠	٠٠

سفن غير مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	السكنه: نوع المعدن	السكنه: طول	السكنه: عرض	السكنه: ارتفاع	السكنه: حموله	الآلة: حصان بخاري	الآلة: سرعه	الآلة: رقاص	الآلة: ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	الدرع: البطريه أو الجنا	الدرع: الابراج	الدرع: القطوع أو الحاجز العرضى	الدرع: الكوبري	مدافع من صنف كروب وارمسترونغ (أ تدل على الارمسترونغ، ك « كروب، ع ص « عيار صغير، م « متراليوز، س ض « سريع الضرب)	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفه المقرره
		سنه	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
*	شوكتنما	١٨٩٤	ص	٣٥	٦	٢٫٩٠	٢٠٠	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ٩٠ ميليمتر ك (٢) م	٠	..
*	شط	١٨٨٣	ح	٣٦	٧	٢٫٠٠	٢٥٠	٢٨٠	١٠٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	بارقهٔ ظفر (جارى انشاؤها)		ص	٣٦	٦	٢٫٧٠	١٩٧	٤٠٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	كشاف (جارى انشاؤها)			..	.	..	..	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	نصرخدا (جارى انشاؤها)			..	.	..	..	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	بلنك دريا (جارى انشاؤها)			..	.	..	..	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	سائق شادى (جارى انشاؤها)			..	.	..	..	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
*	سيدريا	١٨٩٤		..	.	..	٢٠٠	٤٠٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
	ضد الطوربيدو																		
*	بلا اسم	١٨٩٤	ص	٥٧	٦٫٤	٣٫٧٠	٢٧٠	..	..	..	..	..	..	..	..	..		٠	..
١٧	**طوربيدو من الطبقة الاولى**																		
١	مزنوع (Normand) نورمند	١٨٨٥	ص	٣٤	٣	١٫٧٣	٤٢	٥٥٠	٢٠٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢) م	٢	..
٢	« (Ch. de la médi)	١٨٨٥	ص	٣١	٤	١٫٧٣	٤٢	٥٥٠	٢٠٫٣	..	..	..	..	..	..	..	(٢) «	٢	..
٥	« (Schichau)	١٨٨٦ و ١٨٨٩	ص	٣٧	٥	..	٨٥	١٫٠٠٠	٢٢٫٠	١	..	..	..	..	..	..	(٢) «	٢	..
٤	الاستانه	١٨٨٦ و ١٨٨٩	ص	٣١	٤	١٫٧٣	٤٢	٥٥٠	١٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢) م	٢	..
١	الاستانه	١٨٨٩	ص	٤٣	٤٫٩	٢٫٠٠	١٤٠	١٨٠٠	٢٣٫٠	٢	..	..	..	..	..	..	(٥) س ض	٠	..
٩	طوربيدو (Germania) جرمانيا	١٨٩٠ و ١٨٨٩	ص	٣٩	٥٫٠	٢٫٦٠	٨٧	١٫٣٠٠	٢٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٥) س ض	٢	..

السبعة عشر وابور طوربيدو المذكور اعلاه صنعت فى المعامل المكتوبة أسمائها بالافرنجى وكذا ما يأتى منها

سفن غير مدرعة

عدد	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ إنزالها البحر	السفينة					الآلة				الدرع					مدافع من صنف كروب وارمسترونغ أ ا تدل على الارمسترونغ ك « كروب ع ص « عيار صغير م « مترالبوز س ض « سريع الضرب	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقرره
			نوع المعدن	طول	عرض	ارتفاع	حمولة	حصان بخاري	سرعة	رصاص	ذخيرة الفحم	حزام الوسط	البطرية أو الملجأ	الابراج	القطوع أو الحاجز العرضي	الكوبري			
عدد		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
١٠	طوربيدو (Schichau)	١٨٨٧ و١٨٨٦	ص	٣٨	٥٫٠	٠٠	٨٨	٩٠٠	٢٢٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	٢	٠٠
١٠	«	١٨٩٤ و١٨٩٠	ص	٠٠	٠٠	٠٠	١٣٠	١٫٣٠٠	٢٣٫٠	٠٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	٠	٠٠
٠١	بلااسم	١٨٩٢	ص	٣٩	٥٫٠	٠٠	٨٧	١٫٣٠٠	٢٢٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	٢	٠٠
٠١	بلااسم	١٨٩٢	ص	٣٩	٥٫٠	٠٠	٨٧	١٫٣٠٠	٢٢٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	٢	٠٠
	طوربيدو تحت البحر نوردنفلد																		
✲	عبد الحميد	١٨٩٠	ص	٣٠	٤٫٠	٠٠	٢٦٠	٢٥٠	١٢٫٠	٠٣	٠٨	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	١	٠٠
✲	عبد المجيد	١٨٨٦	ص	٣٠	٤٫٠	٠٠	٢٦٠	٢٥٠	١٢٫٠	٠٣	٠٨	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٥) س ض	١	٠٠
	ركوبة أو يخت																		
✲	تشريفية ـ للذات الملوكية	قــز	ص	٣٠	٠٠	٠٠	٥٥	٤٥٠	١٤٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠		٠	٠٠
	طرادات ذات رفاس																		
✲	اصلاحات	١٨٧١	خ	٢٨	٦٫٠	١٫٩٠	١٦٦	٢٤٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٢) ع ص	٠	٠٠
*	استنكوي	١٨٧٠	خ	٢٨	٥٫٠	٢٫٤٠	٢٠٨	٢٠٠	١٠٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ع ص (١)	٠	٠٠
✲	موصل	١٨٧١	خ	٤٠	٦٫٠	٢٫٩٠	٢٢٠	٣٢٠	١٨٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) « (١)	٠	٠٠
*	مزدرسان	١٨٦٦	خ	٤٢	٦٫٠	٣٫٣٠	٢٥٨	٣٢٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	(٣) ع ص (١)	٠	٠٠
*	رودس	١٨٧٠	خ	٣٨	٥٫٠	٢٫٤٠	٢٠٨	٢٠٠	١٠٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	« « «	٠	٠٠
*	ساهر	١٨٦٦	خ	٤٢	٦٫٠	٣٫٣٠	٢٥٨	٣٢٠	١١٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	« « «	٠	٠٠
*	صياددريا	١٨٦٦	خ	٤٢	٦٫٠	٣٫٣٠	٢٥٨	٣٢٠	١٢٫٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	« « «	٠	٠٠

سفن غير مدرعه

مدافع من صنف كروب وارمسترونغ: ا تدل على مسترونغ، ك « كروب، ع ص « عيار صغير، م « متراليوز، س ض « سريع الضرب

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	نوع المعدن	التكنة: طول	التكنة: عرض	التكنة: ارتفاع	التكنة: حمولة	الآلة: قوة الحصان البخاري	الآلة: سرعة	الآلة: رفاس	الآلة: مقدار خزين الفحم	سمك الدرع: حزام الوسط	سمك الدرع: البطارية أو الملجا	سمك الدرع: الابراج	سمك الدرع: القطوع أو الحاجز العرضي	سمك الدرع: الكوبري	مدافع	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	حصان	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
*	سيار	١٨٦٦	خ	٤٠	٦	٢٫٠٠	٢٢٠	٣٢٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ع ص	..	..
*	بالى كوشكى	١٨٦٦	خ	٣٧	٥	٢٫٤٠	١٩٥	٣٠٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	زهوردريا	١٨٦٦	خ	٤٢	٦	٣٫٣٠	٢٥٨	٣٢٠	١١٫٨	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	طرادات ذات رفاس																		
*	آيينه لى قواق	١٨٦٦	خ	٣٨	٥	٢٫٤٠	١٩٥	٢٠٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ع ص (١) م	..	..
*	اربكلى	١٨٧١	خ	٢٨	٦	١٫٩٠	١٦٦	٢٤٠	١١٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢) ع ص	..	..
*	احسان	١٨٦٦	ح	٤٢	٦	٣٫٣٠	٢٥٩	٣٢٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	ليمنى	١٨٧١	ح	٢٦	٥	١٫٠٠	١٥٠	٢٠٠	٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	مرمره	١٨٧١	ح	٢٨	٦	١٫٩٠	١٦٦	٢٤٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	زنش	١٨٧٠	ح	٣٠	٥	١٫٢٠	١٥٠	٢٤٠	٧٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	ميمنت	١٨٧١	ح	٢٨	٥	١٫٢٠	١٥٠	٢٤٠	٦٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	نزهت	١٨٧٥	ح	٣٢	٧	٢٫٢٠	١٨٠	٢٨٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	بيك تجارت	١٨٥٠	خ	٤٠	٧	٤٫٠٠	٤٥٠	٤٠٠	٧٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	سودا	١٨٧١	خ	٢٨	٦	١٫٩٠	١٦٦	٢٤٠	١١٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	صلحيه	١٨٥٥	ح	٤٠	٥	٣٫٠٠	٣٨٠	١٢٠	٦٫٠	..	..	..	..	..	..	..	« «	..	..
*	طائر بحرى	١٨٤٥	خ	٦٩	١٢	٥٫٤٠	١٤٤٠	١٨٠٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٥) ع ص (٢) م	..	..
	سفن نقل ذات رفاس																		
*	بابل	١٨٦٣	ح	٨٢	١١	٥٫١٠	١٫٢٠٠	٣٥٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٥) ع ص	..	٢٣٤

سفن غير مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	البنية: نوع المعدن	البنية: طول	البنية: عرض	البنية: ارتفاع	البنية: حمولة	الآلة: حصان بخاري	الآلة: سرعة	الآلة: رصاص	الآلة: ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	الدرع: البطرية أو المجا	الدرع: الابراج	الدرع: القطوع أو الحاجز العرضي	الدرع: الكوبري	مدافع من صنف كروب وارمسترونغ: ا تدل على الارمسترونغ، ك « كروب، ع ص « عيار صغير، م « متراليوز، س ص « سريع الضرب	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
*	شادبه	قـز	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	.	..	..
*	مقدمه شرف	١٨٧٥	خ	٦٦	١١	٤٫٠٠	٢٫١٣٢	١٥٠	٦٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٥) ع ص	..	..
*	بيك مسرت	١٨٧٧	خ	٦٦	١١	٤٫٠٠	٢٫١٣٢	١٥٠	٦٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢)	..	..
*	زهر توفيق	١٨٨٢	خ	٦٦	١١	٤٫٠٠	٢٫١٣٢	١٥٠	٧٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢)	..	..
	سفن نقل ذات دواليب																		
*	مسير	١٨٧١	خ	٧٤	١٢	٥٫٤٠	١٫٥١٢	٤٥٠	١٠٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٤٤
*	ارجديد	١٨٤١	خ	٦١	١١	٤٫٦٠	١٫٠٧٧	٣٠٠	٧٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	١٣٠
*	فيض باري	١٨٤٨	خ	٦٩	١٢	٥٫٤٠	١٫٤٤٠	٤٥٠	٧٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٣٤
*	مجيديه	١٨٤٥	خ	٦٩	١٢	٥٫٤٠	١٫٤٤٨	٤٥٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٤٤
*	مورد نصرت	١٨٦٩	ح	١٢٠	١٣	٥٫٧٠	٣٫٩٢٩	٨٠٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٤٤
*	شعار نصرت	١٨٦٩	ح	١٢٠	١٣	٥٫٧٠	٣٫٩٢٩	٨٠٠	٨٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٤٤
*	طائف	١٨٧١	ح	٧٤	١٢	٥٫٤٠	١٫٥١٢	٤٥٠	١٠٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	٢٣٤
	ركائب بدواليب																		
*	اركادى	١٨٦٩	ح	٧٨	٨	٢٫١٠	٧٦٧	٢٥٠	١٥٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ا (٢) م	..	١٣٥
*	آثار نصرت	١٨٦٢	ح	٨٢	١٠	٤٫٧٠	١٫٣٤٤	٣٤٤	١٣٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) (٢) م	..	١٣٥
*	قنديه	١٨٦٣	ح	٧٣	٨	٢٫٣٠	٨٣٠	١٨٠	١٤٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ا (٢) م	..	١٣٥
*	فوائد	١٨٦٥	ح	٧٩	٩	٤٫٠٠	١٫٠٧٥	٣٥٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) (٢) م	..	١٣٥
*	اسماعيل	١٨٦٥	ح	٧٩	٩	٤٫٠٠	١٫٠٧٥	٣٥٠	١٢٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) (٢) م	..	١٣٥

سفن غير مدرعه

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	الكتلة					الآلة				الدرع					مدافع من صنف كروب وارمسترونغ ا تدل على الارمسترونغ ك « كروب ع ص « عيار صغير م « متراليوز س ض « سريع الضرب	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
			نوع المعدن	طول	عرض	ارتفاع	حموله	حصان بخاری	سرعة	رفاس	ذخيرة الفحم	حزام الوسط	البطريه أو الجبا	الابراج	القطوع أو الحاجز العرضی	الكوبری			
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
✻	زينت دريا	..	.	..	..	..	٢٢٥	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
✻	عز الدين	١٨٦٤	ح	٧٩	٩	٤,٢٠	١,٠٧٥	٣٥٠	١٥,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) (٢) م	..	١٣٥
*	خانيه	١٨٦٣	ح	٧٣	٨	٣,٢٠	٨٢٩	١٨٠	١٣,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ا (٢) م	..	١٣٥
*	مدار ظفر	١٨٦٢	ح	٨٢	١٠	٤,٧٠	١,٣٤٤	٣٤٤	١٣,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) (٢) م	..	١٣٥
*	رحمو	١٨٦٣	ح	١٧٨	٨	٣,٢٠	٨٢٩	٢٧٠	١٣,٠	..	٢٥٠	..	..	..	..	..	(٣) ا (٢) م	..	١٣٥
*	استانبول	١٨٦٥	ح	٧٥	٩	٣,٢٠	٩٠٩	٣٥٠	١٧,٠	..	١٢٠٠	..	..	..	..	..	(٥) ٩٠ ميليمتر ك (٢) م	..	..
*	سلطانية	١٨٦١	ح	١٥	١٣	٥,٤٠	٢,٩٠٢	٨٠٠	١٣,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) ا	..	٢٣٤
*	ثريا	١٨٦٥	ح	٧٠	٧	٣,٢٠	٥٠٠	١٦٠	١١,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٣) ا (٢) م	..	..
*	طليعه	١٨٦٥	ح	٧٩	٩	٤,٠٠	١٠,٧٥	٣٠٠	١٣,٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤) ا (٢) م	..	١٣٥
	سفائن لخدمة دار الصناعه																		
*	جبالی	..	خ	..	..	..	١٠٧	٦٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	كريد	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	حركت	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	قاسم پاشا	١٨٩٢	خ	..	..	..	١٠٧	٦٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	٣٣
*	مسرت	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	١٧
*	أواطه نجه	..	.	..	..	..	٠٨٠	٢٥	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	رهبر	..	ح	..	..	..	١٠٧	٦٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	جنانه	١٨٦٢	.	..	..	..	٧٨	٤٥	..	..	..	..	..	..	..	..		..	٢٢

سفن غير مدرعه

مدافع
من صنف كروب وارمسترونغ
ا تدل على الارمسترونغ
ك « كروب
ع ص « عيار صغير
م « متراليوز
س ض « سريع الضرب

	أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	نوع المعدن	الكشتية: طول	الكشتية: عرض	الكشتية: ارتفاع	الكشتية: حموله	الآلة: حصان بخاري	الآلة: سرعة	الآلة: رفاص	الآلة: ذخيرة الفحم	الدرع: حزام الوسط	الدرع: البطرية أو الحجا	الدرع: الابراج	الدرع: القطوع أو الحاجز العرضي	الدرع: الكوبري	مدافع	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
		سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	مليمتر	مليمتر	مليمتر	مليمتر	مليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجل
*	روكت	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	تشريفيه	١٨٧٦	خ	٢٧	٠٣	١ر٣٠	٨٠	٢٥	١٢ر٠	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	در	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	طوبخانه	..	خ	..	..	..	١٠٧	٦٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	يكي قبو	..	ح	..	..	..	١٠٧	٦٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	يلدز (١)	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
	سفائن برفاس			قدم	قدم	قدم													
*	شاديه	١٨٥٤	خ	٢١٩ر٨	٥٧ر٩	٢٨ر٥	٣٣٨٠	٦٠٠	..	١	..	..	..	..	..	..		..	٨٥٠
*	فضيه (مدرسة العساكر المستجدة)	١٨٥٥	خ	٢١٩ر٦	٥٧ر٩	٢٨ر٩	٣٣٨٠	٦٠٠	..	١	..	..	..	..	..	..		..	٦٥٠
	أباريق بالشراع																	..	..
*	نواتر	١٨٤٢	.	..	..	..	١٥٩	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
*	نويدفتوح	١٨٤٢	.	..	..	..	٣٤٦	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
	اسطول البصره																	..	..
	جران نهر	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	(٣)	..	..
	نصرت عزيز	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	..
	طير بحري	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	(٣)	..	..
	طومار	..	خ	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	(٣)	..	..

(١) ويوجد للخدامات الخصوصية بدور الصناعات العثمانية سفائن خفيفة أخرى وهي اختر وبولاير ولوازم وحيدريه وسيد وطرابزون وبرتو وكوكصو وسهولت وغيرت وزينت وميمنت وسيف سمك وصياد ونوروز وجيلان وكليد بحر وشرف وتوفيقيه وناهيد وثروت وسرعت وقواق وبحرى وهدايت اه من سالنامة البحرية

سفن غير مدرعه

أسماء السفن وأنواعها	تاريخ انزالها البحر	التكنة: نوع المعدن	التكنة: طول	التكنة: عرض	التكنة: ارتفاع	التكنة: حموله	الآلة: الحصان البخاري	الآلة: سرعة	الآلة: رصاص	الآلة: مقدار خزين الفحم	سمك الدرع: حزام الوسط	سمك الدرع: البطارية أو المجا	سمك الدرع: الابراج	سمك الدرع: القطوع أو الحاجز العرضى	سمك الدرع: الكوبرى	مدافع من صنف كروب وارمسترونغ ا تدل على الارمسترونغ ك ث « كروب ع ص « عيار صغير م « مترايوز س ض « سريع الضرب	انابيب لاطلاق الطوربيدو	الطائفة المقررة
	سنة	معدن	متر	متر	متر	طن	ح م	ميل	عدد	طن	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	ميليمتر	عدد وعيار المدافع	عدد	رجال
تمساح نهر وعشر سفن جارى انشائها	١٨٩٣	خ	..	..	..	٢٥	..	..	..	..	..	..	..	..	..	(٣)	..	..
بواخر أخرى مختلفة																		
آلوس بدولاب	..	ح	..	..	..	١٠٥	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
آفور «	..	ح	٧٠	٧٫٠	٢٫٢٠	٥٠٠	١٥٠	١١٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٤)	..	..
بغداد «	..	ح	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
بصره «	..	ح	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
مسقط «	..	ح	٦٠	٧٫٠	١٫٠٠	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
ناوس «	..	ح	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
نجد برفاس	..	ح	٦٥	٦٫٠	٢٫٢٠	٤٥٠	١٤٠	٩٫٠	..	..	..	..	..	..	..	(٢)	..	..
فرات بدولاب	..	ح	٦٠	٧٫٠	١٫٢٠	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
رصافه «	..	ح	٦٠	٧٫٠	١٫٢٠	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
تلافير برفاس	..	ح	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
قليج علي بدولاب	١٨٥٩	خ	..	..	..	٤٧٤	١٠٠	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
خير الدين «	١٨٥٩	خ	..	..	..	٤٥١	١٠٠	١٠	..	..	..	..	..	..	..		..	..
	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..
	..	.	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..		..	..

سفن غير مدرعه

وابورات الحكومة المسماة بوابورات الادارة المخصوصة

أسماء الوابورات	الحموله بالطن	أسماء الوابورات	الحموله بالطن	أسماء الوابورت	الحموله بالطن	أسماء الوابورت	الحموله بالطن	أسماء الوابورات	الحموله بالطن
ارسلان	١٤٩١	بحرجديد	٨٩٥	استنبه	٢٧٤	هركه	١٥٠	أبدين	٧٥
سكودلي	١٣٠٣	سقاريه	٨٨٠	تجارت بحري	٢٥٩	قادريه	١٤٩	شاهين	١٠٠
حسن باشا	١٢٠٥	جانك	٦٦٨	بلونه	٢٢١	ازميد	١٣٨	بندك	٥٥
علي صائب باشا	١١٨٥	طوله بغچه	٥٢٢	كدكلر	٢١٧	موصل	١٣٠	فرتال	٥٠
كامل باشا	١١٨٤	بارس	٥١٥	ادرميد	١٨٠	أناطولي	١٢٢	مسعود	٥٠
ترك	١١١٩	سلانيك	٥٠٦	سلوري	١٠٢	تكفورطاغي	٩٢	شمس	٤١
شرفرسان	١١١٦	نجد	٤٠٠	قنالي	١٥٠	احسان	٩٠	يكي قبو	٣٠
مدار توفيق	١١١٦	كريد	٣٨٢	مرمره	١٥٠	نزهتيه	٧٥		..
قيصري	٩٩٣	بنغازي	٣٥٢	مدار فوائد	١٥٠	ماليه	٧٥		..
قبلان	٩٩٣	لطفيه	٣٣٣	هكبه لي	١٥٠	قاضي كوي	٧٥		..

ولهذه الادارة زورقان بخاريان ايضا

بواخر ادارة عمان النهرية بالبصرة

أسماء السفائن	جسامتها بالطن	طولها بالقدم	عرضها بالقدم	أسماء السفائن	جسامتها بالطن	طولها بالقدم	عرضها بالقدم
موصل	٥٣٨	١٩٠٫٠٠	٢٤٫٠٠	عزيزيه	١٤٩	١٢٠٫٠٠	٢٠٫٠٠
فرات	٣٨٩	١٧٨٫٠٠	٢١٫٠٠	بصره	١٠٠	١٢٠٫٠٠	١٣٫٠٠
رصافه	٣٤٦	١٧٥٫٠٠	٢٠٫٠٠	شهبا	٧٠	٥٦٫٠٠	١٢٫٠٠
مسكت	٣١٣	١٥٠٫٠٠	٢١٫٠٠	زبا	٦٥	٦٤٫٠٠	٠٩٫٠٠
بغداد	١٦١	١٤٤٫٠٠	١٥٫٠٠	حدبه	٦٢	٥٤٫٠٠	١٠٫٠٠

الفصل الخامس عشر

القوة الحربية البرية لدولتنا العلية

طريقة الدفاع بتركية أوروبا وما بها من الحصون والقلاع

اعلم أن المسئلة التركية محصورة بتمامها فى مدينة القسطنطينية ولذا قد أجمع رجال السياسة من أهل أوروبا على سلامة الدولة العثمانية من أن تمسها يد الاغراض وتأييد مركز العثمانيين بهذه المدينة المهمة حفظا لها من مطامع الروسيا خصوصا وقد أيدت أوروبا ذلك بعدة معاهدات أشهرها معاهدة باريس ومما يثبت هذا القول التهاون الذى أظهرته دول اوروبا بخصوص مال الدولة العثمانية من الاملاك الاخرى والسهولة التى صدقوا واعترفوا بها على استقلال الولايات التى انفصلت عن الدولة ولهذا السبب كنت ترى أن قوة الدفاع بأجمعها ببلاد الدولة انحصرت تقريبا بالقسطنطينية وعلى ساحلى البوسفور ومع أن معاهدة برلين الشهيرة (١٣ يوليه سنة ١٨٧٨ م) قضت بتأسيس امارة ممتازة وهى بلاد البلغار الا أنها جعلت الحق للدولة العثمانية بأن تحتل جنودها زمن الحرب خطوط جبال البلقان لكن مما أدخل على هذه المعاهدة بعد ذلك من التحويرات مثل اجتماع ايالتى البلغار والروم ايلى الشرقية الى امارة واحدة لم يبق للدولة الحق فى استعمال هذا الخط الدفاعى الطبيعى النفيس ولهذا لم يبق للدولة العثمانية بأوروبا مانع عظيم يحمى قلبها من جهة البر هذا ومن جهة ثانية نرى أن الروسيا لعدم اعتبارها معاهدة باريس المبرمة سنة ١٨٥٦ وتشييدها دونما حربية عظيمة ودور صناعات بالبحر الاسود صار فى امكانها ومن السهل لديها الاغارة على أملاك الدولة بحرا ولتلقاء هذه الاحوال والاسباب كانت الضرورة القاضية على الدولة العثمانية بحماية قلبها مزدوجة وهى أن تحصن القسطنطينية تحصينا يقيها من كل هجوم برى وأن تجعل الاقتراب اليها من طريق البحر مستحيلا أعنى أن تسد مضيقى الدردنيل والبوسفور سدا محكما

ولما لم يكن من الممكن أن تكون أسباب الدفاع البرية قاصرة على القسطنطينية وحدها كان من الواجب ايجاد نقط حصينة أمام هذه العاصمة لاستتباب قدم الدولة فى أقاليمها الاخرى ولتشرف من هناك على ممالك أوروبا بالتحفظ لنفسها درجة بين ممالكها لهذا حصنت الدولة المذكورة مدينة أدرنة الواقعة فى مكان عظيم جدا لانها كالعتبة الفاصلة لفروع جبال رودوب الاخيرة عن جبال استرانجه ولوقوعها عند ملتقى واديى مريج وطونجه الكبيرين وعقدة الاتصالات المؤدية الى القسطنطينية وقد أقامت الدولة بهذه المدينة الآن أكثر من أربعة عشر حصنا منفصلة مشيدا أغلبها من التراب كالطريقة الحديثة ولما كانت هذه الحصون واقعة متقابلة على شاطئى نهرين كانت من أحسن النقط الارتكازية التى يمكن للجيوش الاعتماد عليها لانها تسمح لها باجراء جميع حركاتها فى كل الاتجاهات متى أرادت

أما القسطنطينية فيقسمها خليج قرن الذهب أو الخليج الايوبى الى قسمين الجنوبى منهما هو استانبول والشمالى عبارة عن غلطه و بيرا (بك أوغلى) فاستانبول محفوظة من جهة البر بسور قديم ممتد من قلعة يدى قله جنوبا الى الخليج الايوبى جاعلا جهة سيدى أبى أيوب الانصارى خارجة عنه ويحمى

القسطنطينية مباشرة خط دفاع عظيم يسمى بخط الكاغدخانه وهذا الخط يتركب من ثلاثة خطوط حصينة أبعدها يبتدئ من بحر مرمرة الى قرية مكرى كوى و ينتهى على ساحل البوسفور عند بيولدره والخط الثانى يقوى الخط الاول شمالا وهذان الخطان مكونان على الخصوص من متراس أوردى والخط الثالث يكون ملجأ للجنود بين أوالخطين السابقين وهو مركب من تكنات عظيمة دفاعية وهو متسلط على المدينة مباشرة وهذه التكنات هى تكنة داود باشا ورامى چفتلك غربا وقلعة طابيه وتكنة الطوبجية والجيدية شمالا

أما الخط الاستحكامى الدفاعى الثانى المسمى بخط چتالجه فانه واقع على مسافة يوم للجندمن غربى القسطنطينية وهو يمتد من البحر الاسود الى بحر مرمرة على عرض يبلغ ثلاثين كيلومترا و يمنع كل جيش يريد القرب من العاصمة وبه عدد كثير من الاستحكامات والحصون المنعزلة والبطاريات بها أزيد من ٢٥٠ قطعة من المدافع المختلفة العيار ونحو ١٢٠ من المدافع الجبلية وغير ذلك واعلم أن كل من تفكر فيما اتصف به العثمانيون من قوة الدفاع الغريبة والصدق والصبر فى القتال والاقدام لايشك أصلا فى أن الهجوم على القسطنطينية برا يعرض الجيش الهاجم لصعوبات هائلة ويحتاج لهدر دماء الآلاف المؤلفة من الجنود

أما الدفاع عن هذه المدينة الشهيرة بحرا فمن أسهل الامور لانه لايمكن الدنو منها الا من مضيقين طويلين وهما البوسفور والدردنيل فضيق البوسفور قناة كثيرة التعاريج يبلغ طولها ثلاثين كيلومترا تقريبا و يختلف عرضها بين ستمائة متر وثلاثة آلاف متر وأشهر قلاع البوسفور هى حصون روم ايلى قواق وتالى طابيه على الشاطئ الاوروبى وأناضولى قواق و يوشع أومجار قلعه سى على الشاطئ الآسيوى ومدخل هذا المضيق يحميه من جهة البحر الاسود قلاع روم ايلى فنارى وأناضولى فنارى ويحمى الاولى منها طوابى كيليه او كيليوس وحصار قاجه وهى تمنع السفن من أن تقرب من شاطئ أوروبا ويحمى الثانية طابية اروه أوالماس ووظيفتها كوظيفة الاولى أى أنها تمنع السفن من القرب الى الساحل الآسيوى ويحمى هذا المضيق جنوبا أمام القسطنطينية قلعتا روم ايلى حصار وأناضول حصار الاانه ليس لهما الآن أهمية عظيمة و يوجد على الشاطئين بين هذه القلاع المتباعدة عدة طوابى و بطاريات غالبها حديث الانشاء تتقاطع مقذوفاتها وهى وان لم تجعل المرور من هذا المضيق مستحيلا الا أنها تجعله من أصعب الامور وأشدها خطرا

أما مضيق الدردنيل فطوله نحو ٧٥ كيلومترا وعرضه يختلف بين ١٢٠٠ متر و ٧٥٠٠ متر وتبلغ سرعة تياره فى الساعة خمسة كيلومترات و يختلف عمقه بين ٥٠ و ٦٠ مترا وقلاعه واقعة عند منتهاه من جهة البحر الابيض المتوسط و به أيضا حصون أخرى عديدة الى الشمال تمتد على طول الجهة الضيقة منه حيث يشتد التيار الآتى من بحر مرمرة والتيار الآتى من البحر المتوسط ويحمى مدخل هذا المضيق قلاع و بطاريات سد البحر على الشاطئ الاوروبى وقوم قلعه سى أو حصار سلطانى على الشاطئ الآسيوى وهاتان القلعتان وان تباعدتا عن بعضهما بنحو أربعة كيلومترات تقريبا الا أن مقذوفاتهما تتقاطع تماما والى الشمال بالجهة الشمالية والجنوبية من ميدوس على الشاطئ الاوروبى وجنوبى رأس ابيدوس على الشاطئ الآسيوى توجد قلاع وحصون و بطاريات تسد هذا الممر سدا محكما ومن أشهر القلاع وأمنعها چناق قلعه أو القلعة السلطانية على الساحل

الآسيوى وسدّ البحر أو كليد بحر على الساحل الاوروبى وهاتان القلعتان مشيدتان عند مكان ضيق لا يزيد عرضه عن ١٢٠٠ متر يمكن سده حالا بواسطة التوربيد أو السلاسل الحديدية أو غيرها من الموانع وجميع هذه الحصون والقلاع والطوابى مسلحة بأضخم المدافع وأحدثها اختراعا وقد اعتنت بها الدولة خصوصا فى هذه الايام المتأخرة اعتناء عظيما وأخذت ترسل من وقت الى وقت الضباط والمهندسين ليرفعوا اليها التقارير المفصلة بما يروه من النقص أو أسباب التقوية وما ماثل ذلك وليس للدولة العثمانية فيما بقى من أملاكها باوروبا من المدن المحصنة تحصينا حقيقيا على الاصول الحديثة الا القليل أهمها المدن القريبة من حدود بلاد اليونان و بعض مدن البانيا أما جميع ما عدا ذلك من المدن والمواقع المهمة والنقط الثانوية فبحميها قلاع قديمة معتبرة كامكنة ترتكز عليها القوة العثمانية وهذه القلاع وان كانت متخربة تقريبا الا أنها لا زالت تصلح جيدا للدفاع أثناء الثورات الاهلية ومع ذلك فانه لاجل قمع دسائس أهل الصرب والجبل الاسود وغيرهما شيد العثمانيون نقطا مستحكمة تعتمد عليها جيوشهم فى سنجق يكى بازار وشيدوا أيضا كثيرا من القلاع المنعزلة حول مدينتى سنيجه و يكى بازار وحصنوا أيضا قلاع مدينة پروزه الواقعة عند مدخل خليج أرطه من جهة بلاد اليونان

طريقة الدفاع بتركية آسيا وما بها من الحصون والقلاع

لا يخفى ان ميدان الحرب الاخير بين الروس والعثمانيين لم يكن بقطعة أوروبا فقط بل كان أيضا بآسيا الصغرى ولهذا كان من الموافق أن نذكر بالاختصار طريقة الدفاع التى للدولة ببر الاناضول فنقول ان أعظم وأهم النقط المستحكمة بهذا القسم هى مدينة أرضروم الواقعة بين هضبة أرمينيا وهضبة آسيا الصغرى عند ملتقى الطرق الآتية من بلاد القوقاز المؤدية الى آسيا الصغرى و بلاد فلسطين والخليج الفارسى ولما كان لهذه المدينة من الاهمية ما ذكرناه اعتنى العثمانيون بتحصينها تحصينا قويا بحيث أصبحت الآن من المعاقل التى لا ترام ويحمى هذه المدينة سور حصين يدافع عنه ست قلاع منعزلة وخارج هذا السور على مسافة من المدينة خط آخر به عشرة حصون وكثير من الطوابى المنعزلة وبهذه المدينة غير ذلك عدة مستودعات ومخازن عسكرية بها كثير من الاسلحة المختلفة ومعدات الحروب وآلاتها بحيث تكفى على الاقل جيشا يزيد عن ٥٠,٠٠٠ مقاتل وببر الاناضول أيضا عدة مدن مستحكمة أشهرها مدينة بايزيد وهى تحفظ الطريق بين ايروان وأرضروم وآلشكرد وهذه الاخيرة هى نقطة اتصال بين ارضروم و بايزيد وشويش قلعه وهى من القلاع التى تصد هجمات الجيش الذى يريد الاحاطة بارضروم من جهة الجنوب

وبجميع الجزر التابعة للدولة قلاع وحصون بها جنودها المستحفظة وأهم هذه القلاع وأمنعها وأجودها تسليحا الكائنة منها بجزيرة كريد كقلاع قندية ورسمو وخانيه

الطرق الحديدية - تنقسم الطرق الحديدية بتركية أوروبا الى فرعين كبيرين وهما خط بلاد الروملى و يشتمل على خط القسطنطينية وأدرنه حتى حدود البلغار وبه عدة تفرعات منها الفرع الذاهب الى دده اغاج المار بقبله الى برغوس ومنها الى ادرنه وثانيهما خط بلاد مقدونيا ويتكون من

الخط

الخط الذاهب من سلانيك الى مترويچه وبه فروع منها فرع أسكوب الواصل الى حدود الصرب نحو ووراننجه والخط من سلانيك الى مناستير وبهذه الخطوط يمكن نقل الجيوش العثمانية الى الجهة الشرقية من تركية أوروبا إما للمدافعة عن القسطنطينية وحمايتها أو للذهاب على بلاد البلغار واعلم أن الجنود المعسكرة بجهة قوصوه وغيرها من بلاد مقدونيا والتى يمكن جلبها بواسطة الفروع الحديدية المختلفة بهذه الجهات الى مدينة سلانيك يمكن نقلها من هذه المدينة بحرا الى دده أغاج أو الى القسطنطينية ان لم تسافر من سلانيك الى القسطنطينية بواسطة الخط الحديدى الذى تم أو كاد يتم انشاؤه قريبا بعد بين العاصمة وهذه المدينة ولكن لما كانت عربات هذه الخطوط الحديدية قليلة وليست الخطوط مزدوجة يظن أن النقليات زمن الحرب يعتريها بطء ان لم تتداركها الدولة بما يمنع ذلك

الجيش البرى

جمع العساكر - ان القانون الصادر فى ٢٧ صفر سنة ١٣٠٤ (٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٦) يجعل الخدمة العسكرية اجبارية وشخصية على جميع رعايا الدولة المسلمين ومدتها عشرون سنة ومع ذلك فان عدة طوائف من المسلمين معفون من القرعة العسكرية ومدة الخدمة فى الجيش موزعة على الكيفية الآتية ست سنوات فى الجيش العامل أو النظام والاحتياطى وثمان سنوات فى جيش الرديف وست سنوات فى جيش المستحفظين والقسم الذى يؤخذ كل سنة ينقسم الى طبقتين تشمل الاولى الشبان الذين لا يعفون من الخدمة لسبب من الاسباب والطبقة الثانية تشمل المعفيين بأسباب عائلية أو صناعية أو غيرها كالمعفيين بسبب العاهات ورجال الطبقة الاولى يدخلون فى سلك الجيش العامل مدة ثلاث سنوات أو ستة شهور أو تسعة وذلك حسب ما اذا كانوا أدرجوا ضمن الفرقة الاولى أو الثانية من القسم السنوى وجنود الطبقة الثانية أى المعفون لاسباب عائلية أو غيرها كما تقدم أى الذين يصلحون منهم للخدمة العسكرية تعطى لهم التعليمات العسكرية يوما فى الاسبوع مدة ثمانية شهور ويقوم ضباط الرديف الدائمين بتعليمهم أما رجال الفرقة الثانية فانهم بعد أن يتمموا مدتهم العسكرية التى تكون من ستة شهور الى تسعة كما قلناه (أى الى الوقت الذى ينتقلون فيه الى احتياطى الجيش العامل فى نفس الزمن الذى ينتقل فيه جنود الفرقة الاولى الذين هم من درجتهم) فانهم يكونون جيشا احتياطيا يمكن ادخاله فى سلك الجيش العامل لسد النقص الذى حدث بين مجموع جنوده الموزعين بالبلاد فى وقت السلام

نظام الجيش - ان الحضرة العلية السلطانية هى الرئيس الاعظم لجميع الجيوش البرية والبحرية أما وزير الحرب التابع لجلالتها مباشرة فانه رئيس ادارة الجيش ورئيس أركان الحرب العمومية

واعلم ان أرض الدولة مقسومة الى سبع مناطق عسكرية بكل منطقة منها جيش يسمى بالاوردى وهذا الاوردى أو الفيلق ينقسم الى أربع فرق وثمان لوا آت و ١٦ آلايا و ٦٤ أورطة و ٢٥٦ بلوكا وكل أوردى من هذه الاورديات ماعدا السابع الذى لا يوجد به الا جنود عاملة يتحركون زمن الحرب ويشتمل كل أوردى على جيش من النظام وجيشين من الرديف وجيش من

المستحفظين وفى زمن السلم يكون بكل جهة من جهات الاورديات المذكورة جيش تام من النظام وأربع فرق من بيادة الرديف (١) وماعدا هذه الاورديات السبعة فان بلاد كريد وطرابلس الغرب والحجاز تحتلها جنود عديدة ليست داخلة ضمن الاورديات المذكورة وكل أوردى يشتمل على فرقتين من الرجالة بكل واحدة منهما أورطة يقال لها أوجيه (أى صيادون) وأربعة آلايات من الرجالة وفرقة من السوارى بها ستة آلايات تكون ثلاث لواآت وفرقة من الطوبجية مشتملة على عدة بطاريات راكبة وستة آلايات مكونة لثلاث لواآت وأورطة مهندسين حربية وبلوك تلغرافجية وأورطة للحملة هذا والجيوش التى بجزيرة كريد وايالة طرابلس الغرب وبلاد الحجاز مسلحة بأسلحة مختلفة

الجيش وقت السلام - يتألف الجيش العثمانى فى وقت السلم من رجالة وفرسان وطوبجية أما الرجالة فتشتمل على ٦٦ آلايا بكل آلاى أربع أورط ومن آلايين من الزحاف بكل آلاى أورطتان ومن ١٥ أورطة من جنود الاوجى وأورطتين من البياده مستقلتين منهما واحدة راكبة فيكون المجموع ٢٨٢ أورطة

أما الخيالة فتتركب من ٣٩ آلايا بكل آلاى خمس أورط ومن نصف آلاى به أورطتان الجميع ١٩٧ أورطة ويضاف الى ذلك آلاى سوارى لتربية الخيول أوجمعها مركب من خمس أورط والاورطة الخامسة من كل آلاى تكون بمثابة احتياطى له

أما نظام الطوبجية الحالى الذى رتب فى سنة ١٣٠٨ ﻫ (١٨٩٠م) فلا يشمل الاعلى ٣٢ آلايا (٢) وأقسام طوبجية الفرق المحتلة لاراضى الدولة ومجموع كل ذلك ٢٣١ بطارية منها ١٨ بطارية سوارى و ١٣٩ بطارية راكبة و ٤٤ بطارية جبلية (بكل بطارية ستة مدافع) وقد اشترت الدولة من معمل كروب فى سنة ١٨٩٤ ٧٢ هاونا (عيار ١٢ سنتيمتر) لايجاد ١٢ بطارية وعلى ذلك يكون ترتيب قسم الطوبجية فى الاوردى الواحد على الكيفية الآتية برنجى لواء يشتمل على قسم مستقل من الطوبجية الراكبة (ذو ثلاث بطاريات) والايين يشتمل كل واحد منهما على قسمين (بكل قسم ثلاث بطاريات راكبة) ايكنجى لواء يشتمل على آلايين (بكل آلاى قسمان بكل قسم ثلاث بطاريات راكبة) وأوچنجى لواء يشتمل على آلايين بكل آلاى قسم به ثلاث بطاريات راكبة وقسم به ثلاث بطاريات جبلية

طوبجية القلاع - أما طوبجية القلاع فانها تتركب من ثلاث آلايات بكل آلاى أربع أورط وآلاى به خمس أورط أورطة منفردة الجميع ١٨ أورطة

مهندسو الحرب - ينقسم مهندسو الحرب الى جنود ميدان معتبرة بمثابة قسم غير منفصل من الاورديات والى جنود قلاع تابعة لجيوش الطوبجية أما جنود الميدان فانها لم تنتظم تماما (حتى

(١) قد سنت نظارة الحربية هذا الترتيب بحيث انه يكون فى كل جهة من جهات الاورديات ٤٤٨٠٠ جندى تقريبا تختلف سنهم بين ٢٠ و ٤٠ سنة مكلفون جميعا بتأدية الخدمة العسكرية

(٢) قال موسيو مولا رصاحب كتاب القوى العسكرية لدول أوروبا وهو الذى لخصنا عنه هذا الفصل ان النظام الحديث الذى سن للطوبجية العثمانية لم يتبتل بعد لغاية السنة التى طبع فيها كتابه وهى سنة ١٨٩٥ م

سنة ١٨٩٤) وتشتمل فقط على أربع أورط من المهندسين بكل أورطة أربع بلوكات وثلاث بلوكات مستقلة من البلطجية وأربع بلوكات للتلغراف الجميع ٢٣ بلوكا واعلم أن كل أورطة بها بلوكان من البلطجية وبلوك من الغمجية وبلوك من صنائعي الجسور (كوبريجية) أما جنود الحملة فيتركبون من ست أورط بكل أورطة ثلاث بلوكات

جنود الادارة العسكرية - تتركب جنود الادارة العسكرية من آلاى شغالة به ثلاث أورط بكل أورطة ٨ بلوكات ومن سبع أورط شغالة أيضا أما التمارجية فانهم داخلون ضمن خدمة الاسبتاليات وليسوا مقسمين الى أقسام خصوصية وقد جعلت الدولة العثمانية جيشها العمومى فى وقت السلام مائتى ألف جندى تقريبا

ويتركب كل أوردى من الارادى الستة العاملة السابقة من أربع فرق من الرديف مكونة لثمانية لوا آت و ١٦ آلايا و ٦٤ أورطة و ٢٥٦ بلوكا وكل قسم من الاقسام المذكورة من أول الفرقة لغاية البلوك به مايكفى من الضباط الدائمين لجعل هذا القسم على قدم الحرب

الجيش فى زمن الحرب - اعلم أن الدولة العثمانية يمكنها أن تجرد من الجنود المنظمة المدربة فى زمن الحرب ما يأتى بيانه

أولا - ستة أورديات [1] (جنود عامة واحتياطية) . ٢٤٠,٠٠٠ رجل

ثانيا - ١٢ أوردى [2] من الرديف .... ٤٦٠,٠٠٠ رجل

٧٠٠,٠٠٠ مجموع جيش الميدان

ثالثا - ٧ أورديات من النظام وثلاث فرق للاحتلال ٧٨,٠٠٠

رابعا - جيوش طوبجية القلاع ٣٥,٠٠٠

خامسا - المستحفظون ويتركبون من ٣٨٤ أورطة . ٣٦٠,٠٠٠

١,١٧٣,٠٠٠ مجموع الجنود

ويضاف الى جنود الميدان الايات الخيالة الغير المنظمة تنظيما عسكريا حقيقيا المسمون بالالايات الحيدية ويتألفون من رجال قبائل الاكراد الذين لم يكونوا يخضعون قبل ذلك لقانون القرعة العسكرية ويزيد مجموع هذه الجنود عن خمسين آلايا يختلف عدد الالاى الواحد بين ٥١٠ و ١١٥٠ خيال وهم من أحسن الجنود قوة وجراءة وإقداما وصبرا على القتال ومعرفة تامة بركوب الخيل بحيث انهم لاتصافهم بهذه الصفات الحربية الخاصة بهذا الجنس يعوضون ما يمكن أن ينقصهم من التعليم العسكرى والنظام الحربى وعلى ذلك كان فى امكان الدولة العثمانية أن تضع على قدم الاستعداد فى وقت الحرب

---

(١) كل أوردى به ٣٤ أورطة بياده وعشر اورط سوارى و ١٢ بطارية وغير ذلك مما يحتاجه الجيش من الجنود الاخرى

(٢) بكل أوردى ٣٢ أورطة بيادة وعشر أورطة سوارى و ١٢ بطارية ويضاف اليها ما يلزم من الجنود للخدمات الاخرى

أولا – جنود منظمة تنظيما تاما بين جيوش عامة واحتياطية ما يبلغ .. ٢٥٠٫٠٠٠
ومن الرديف .... ٢٨٠٫٠٠٠
ومن المستحفظين .... ١٨٠٫٠٠٠

٧١٠٫٠٠٠

ثانيا – من الجنود الذين لم يتم تعليمهم تعليما عسكريا بين جيش عامل واحتياطى .... ١٣٠٫٠٠٠

ثالثا – من الجنود القليلة النظام أو العديمته بين جنود عاملة واحتياطية .... ١٥٠٫٠٠٠

ومن الرديف .... ٣٢٠٫٠٠٠
ومن المستحفظين .... ١٨٠٫٠٠٠

المجموع .... ٦٥٠٫٠٠٠

المجموع الكلى .... ١٫٤٩٠٫٠٠٠

وقد اتضح من ذلك أن الدولة العثمانية تملك جميع العناصر اللازمة لتكوين ١٨ أوردى يمكنها أن تسوقها الى ميدان القتال عند اللزوم

سلاح الجنود – اعلم أن قسما من الجنود الرجالة مسلح ببنادق ماوزر اختراع سنة ١٨٨٤ من عيار ٩٫٥ ميلليمترذات مخزن يسع ثمانية خراطيش ويستعمل الطوبجية مدافع كروب من عيار ٩ سنتيمتر وذلك فى البطاريات الراكبة وعيار ٨ سنتيمتر فى بطاريات السوارى وعيار ٧ سنتيمتر فى البطاريات الجبلية اهـ بتصرف من كتاب المسيو مولار المسمى قوى الدول الاوروباوية المطبوع بباريس فى سنة ١٨٩٥ م

ولا يخفى أن الدولة العثمانية جعلت من أول واجباتها من القديم العناية بجيوشها فكانت بذلك لا تهمل طريقة من الطرق التى تعود على جنودها بالمنفعة فهى دائبة النظر والامتحان لجميع الآلات الحربية الحديثة والمخترعات العسكرية الحالية فاذا أضفنا الى ذلك ما اشتهر عن الجندى العثمانى من الاستعداد والاقدام والصبر فى القتال والطاعة التامة لرؤسائه لحكمنا بأن القوة العسكرية العثمانية هى من أحسن وأقوى القوى العسكرية بجميع الدول الاوروباوية

وقد أيد هذه الحقيقة كثير من ضباط أوروبا وأمرائها العسكريين
ونخص بالذكر منهم امبراطور المانيا الذى أعجب كثيرا بنظام
الجنود العثمانية وشجاعتهم حينما زار
الاستانة سنة ١٨٨٩
م

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى يحتوى على تاريخ مصر وانكلتره وفرانسا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ﴿وبعد﴾ فقد دعانى صديق الفاضل حضرة اسمعيل سرهنك بك ناظر المدارس الحربية للنظر فى تأليفه المسمى بحقائق الاخبار عن دول البحار فوجد اسمه طابق مسماه ومبناه وافق معناه اذ قد اشتمل على مالم يشتمل عليه مؤلف عربى من نوعه فيما علم حتى أضحى لا يستغنى عنه كل مهذب يريد استطلاع أحوال الغابرين ووقائع الماضين وأخبار الملل وحالات الدول وماجريات الاعصار وحوادث الادهار وكان بحمد الله كتابا وافيا وللمرام كافيا ومن داء الجهالة فى هذا الفن شافيا بعبارة عربية مصححه مرصفة منقحة وها هو بنفسه شاهد للشاهد ولا يحتاج العيان الى برهان * سبوح لها منها عليها شواهد * ولما كانت فائدة التاريخ لا تخفى كان هذا الكتاب من ألزم ما يحتاجه المعلم والمتعلم والمحرر والفقيه والناثر والشاعر فهو خزانة آداب وروضة معارف والله أرجو أن ينفع به ويجعله تبصرة لمن يتعقل ونبراسا لمن يتدبر كما هى رغبة مؤلفه الفاضل

القاهرة فى ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٤

مصححه ومرصفه

اسمعيل رأفت

مدرس التاريخ والجغرافيا

بقسم المعلمين

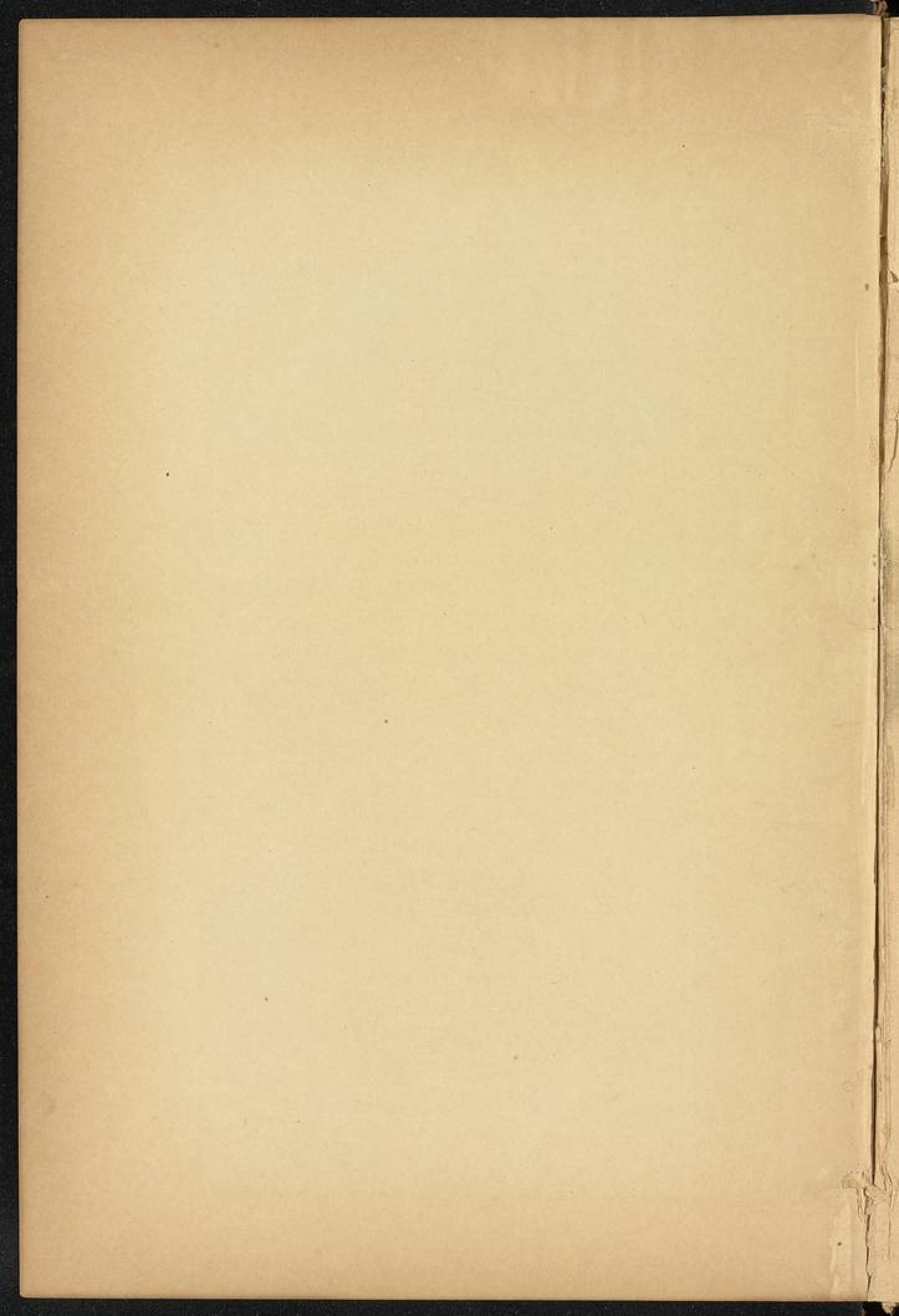
العربي

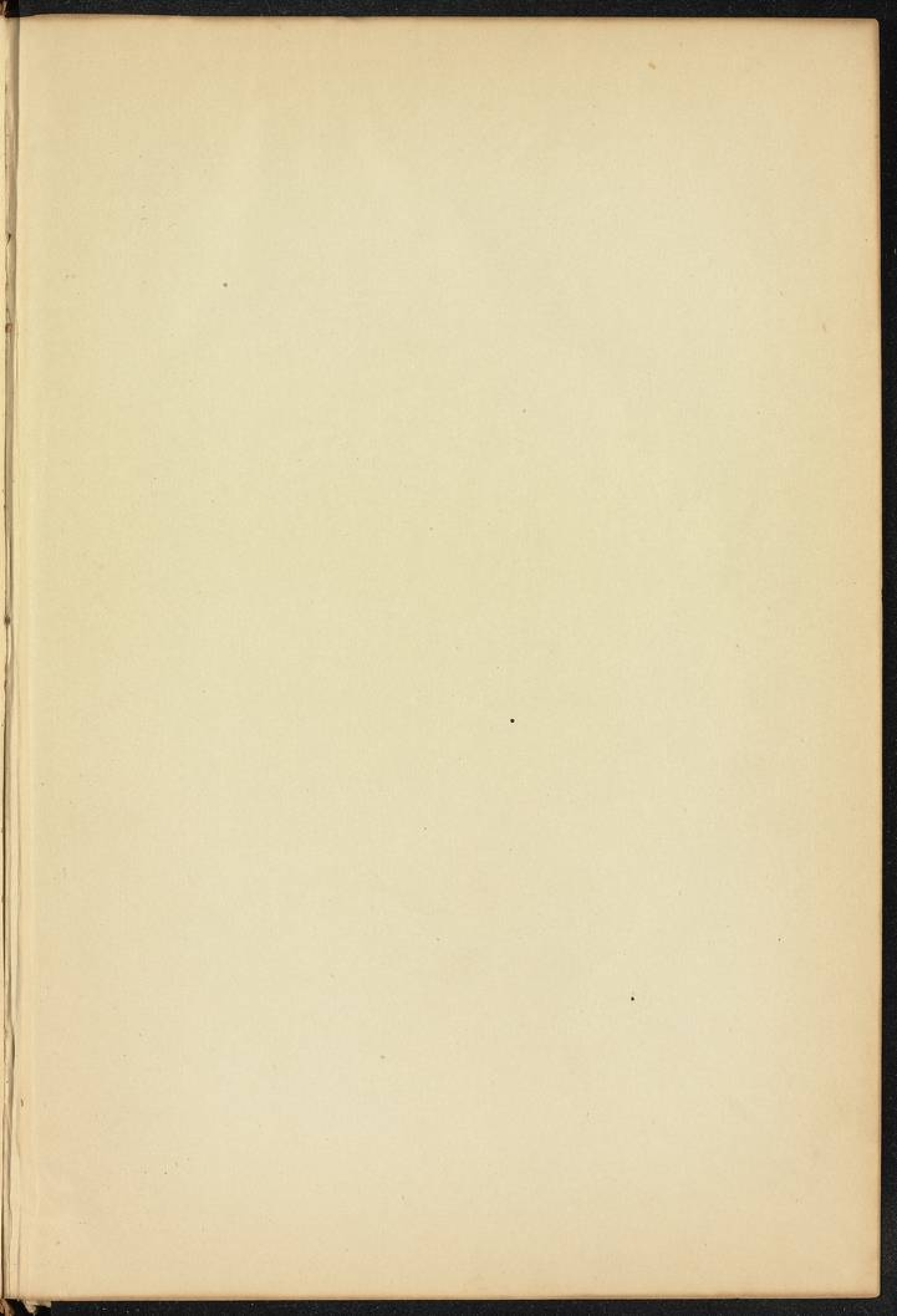
﴿ يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببولاق مصر المعزيه الفقير الى الله تعالى محمد الحسينى أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينى ﴾

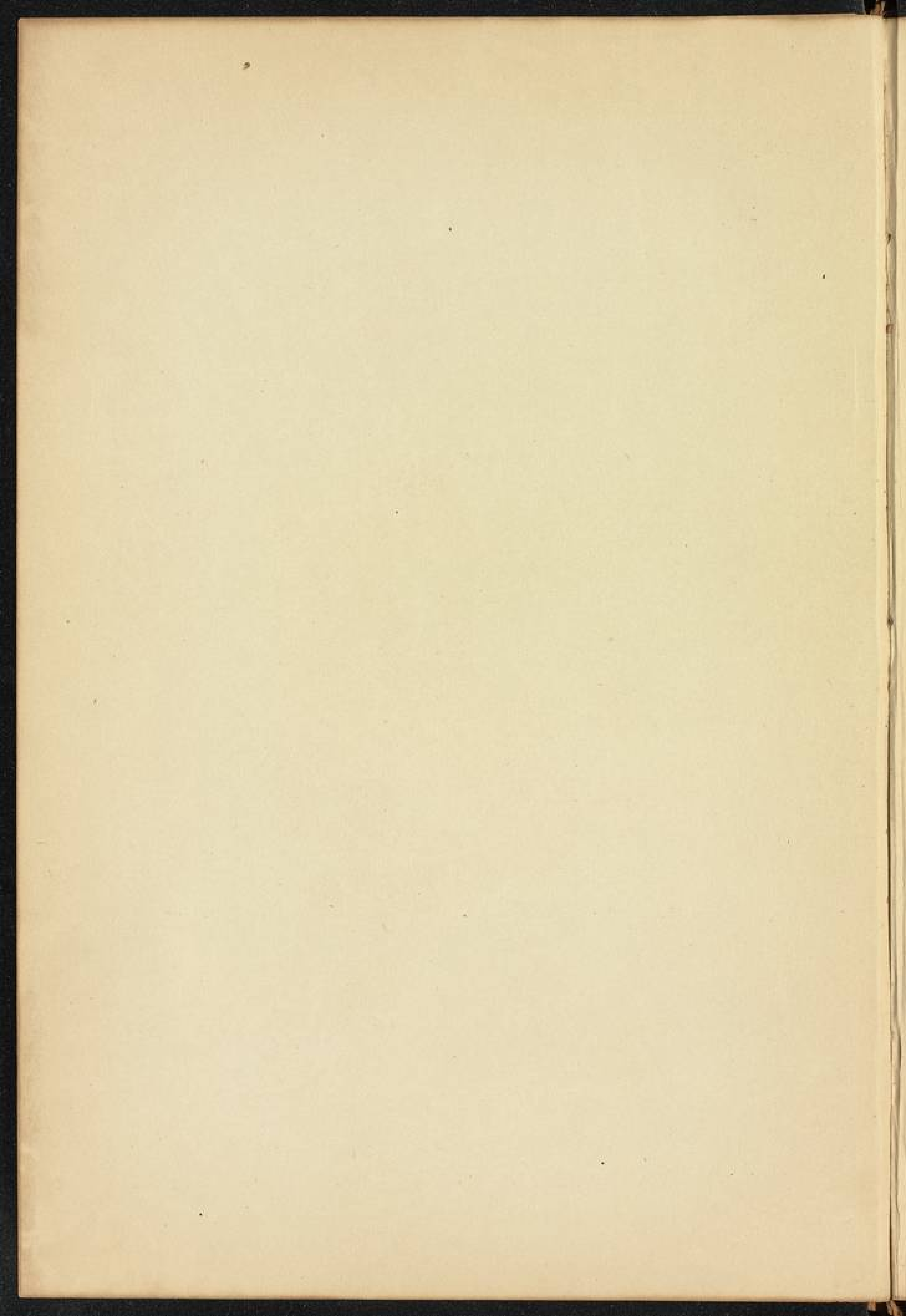
بحمد الله تم طبع الجزء الاول من الكتاب الذى كتب فى طيه جميع المحاسن والطرس البهيج سطرت سطوره سطر الزهر سقى بماء غير آسن المسمى ﴿ حقائق الاخبار عن دول البحار ﴾ أبدى لنا عجائب الاولين وغرائب الآخرين وبين لنا ما كان عليه اصطلاح الاقدمين فى أحكامهم وتراتيب معاشهم ونظامهم وخطط أبنية ومدائن الماضين ومزارعهم ورياضهم وسلمهم وحروبهم وغاراتهم وأظهر لنا تاريخ الانسان من مبدا الخلقة الى حادثة الطوفان وما انتشأ بعده مما اشتملت عليه السفينة من الانسان وغير الانسان وجميع الدول والشعوب والقبائل العربية وغير العربية حتى انتهى بدولة آل عثمان وبالجملة فهو بحر زاخر احتوى على جميع أحوال الاوائل والاواخر مشيد المبانى مؤيد الاحكام والمعانى رقيق الالفاظ محكم العباره منمق الاسلوب دقيق الاشاره كيف لا وهو طراز نمقه بنان الفطن المتقن ووشى زركشه الصنع المتفنن الذكى الاديب الفهامة اللبيب حضرة اسمعيل بك سرهنك ناظر المدرسة الحربية ولما كان غاية مطلب كل طالب ومنتهى رغبة كل راغب يحتاج اليه المتعلم ويستفيد منه المعلم شرع مؤلفه حفظه الله فى طبعه رغبة فى عموم نفعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر القاهرة فانتهى والحمد لله طبع هذا الجزء على أحسن وضع وأجل صنع وقد بذلنا الجهد فى تأمله وتصحيحه وتهذيبه وتنقيحه فجاء بحمد الله يسر الناظر ويشرح الخاطر ﴿ فى عهد من جعله الله رحمة عظمى لرعيته ونعمة كبرى على بريته محيى السيرة العمريه ومجدد العدالة الكسرويه وحامى حمى الحوزة النيلية والايالة المصريه المحفوظ بآيات المثانى أفندينا المعظم (عباس حلمى الثانى) أدام الله أيامه ووالى على رعيته انعامه ملحوظا هذا الطبع البهيج والعرف الاريج بنظر من عليه أخلاقه بجميل الطبع تثنى حضرة وكيل المطبعة محمد بك حسنى وكان تمام بدره وابتسام زهره فى أوائل ثانى الجماديين عام أربعة عشر وثلثمائة وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

م










DATE DUE
JUN 0 2 2014
GAYLORD
PRINTED IN U.S.A.

